
Bibliotheca Alexandrina
0018926

تفسير أبي السعود

أو

إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم

لقاضي القضاة أبي السعود بن محمد العمادي الحنفي

٩٠٠هـ — ٩٨٢هـ

تحقيق

عبد القادر أحمد عطا

الجزء الثالث

بطلب من الناشر

مكتبة الرياض الحديثة

بالرياض


مطبعة السعادة

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة هود عليه السلام
(مكية وهى مائة وثلاث وعشرون آية)

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

﴿ الر ﴾ محله الرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف وقيل على أنه مبتدأ والأول هو الأظهر كما أشير إليه فى سورة يونس أو النصب بتقدير فعل يناسب المقام نحو اذكر أو اقرأ على تقدير كونه اسما للسورة على ما عليه إطباق الأكثر أو لا محل له من الإعراب مسرود على نمط التعديد حسبما فصل فى أخواته وقوله تعالى ﴿ كتاب ﴾ خبر له على الوجه الثانى ، ولمبتدأ محذوف على الوجوه الباقية ﴿ أحكمت آياته ﴾ نظمت نظما متقنا لا يعتريه خلل بوجه من الوجوه أو جعلت حكيمة لانطوائها على جلائل الحكم[1] البالغة ودقائقها أو منعت من النسخ بمعنى التغيير مطلقا أو أيدت بالحجج القاطعه الدالة على كونها من عند الله عز وجل أو على ثبوت مدلولاتها فالمراد بالآيات جميعها أو على حقية ماتشتمل عليه من الأحكام الشرعية فالمراد بها بعضها المشتمل عليها كما إذا فسر الأحكام بالمنع من النسخ بمعنى تبديل الحكم الشرعى خاصة وأما تفسيره بالمنع من الفساد أخذا من قولهم أحكمت الدابة إذا وضعت عليها الحكمة لتمنعها من الجماح ففيه إيهام ما لا يكاد يليق بشأن الآيات الكريمة من التداعى إلى الفساد لولا المانع ، وفى إسناد الإحكام على الوجوه المذكورة إلى آيات الكتاب دون نفسه لا سيما على الوجوه الشاملة لكل آية آية منه من حسن الموقع والدلالة على كونه فى أقصى غاية منه ما لا يخفى ﴿ ثم فصلت ﴾ أى جعلت فصولا من الأحكام

---

(١) فى ٣٤٠ : جلائل النعم.

والدلائل والمواعظ والقصص أو فصل فيها مهمات العباد فى المعاش والمعاد على الإسناد المجازى والتفسير بجعلها آية آية لا يساعده ، لأن ذلك من الأوصاف الأولية فلا يناسب عطفه على أحكامها بكلمة التراخى ، وأما المعنيان الأولان فهما وإن كانا مع الاحكام زمانا حيث لم تزل الآيات محكمة مفصلة لا أنها أحكمت أو فصلت بعد أن لم تكن كذلك ، إذ الفعلان من قبيل قولهم سبحان من صغر البعوض وكبر الفيل إلا أنهما حيث كانا من صفات الآيات باعتبار نسبة بعضها إلى بعض على وجه يستتبع أحكاما مخصوصة وآثارا معتداً بها ، وبملاحظة مصالح العباد ناسب أن يشار إلى تراخى رتبتهما عن رتبة الإحكام ، وإن حمل جعلها آية آية على معنى تفريق بعضها عن بعض يكون من هذا القبيل إلا أنه ليس فى مثابته فى استتباع ما يستتبعه من الإحكام والآثار أو فرقت فى التنزيل منجمة بحسب المصالح فإن أريد تنزيلها المنجم بالفعل فالتراخى زمانى وإن أريد جعلها فى نفسها بحيث يكون نزولها منجما حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة فهو رتبى لأن ذلك وصف لازم لها حقيق بأن يرتب على وصف إحكامها وقرىء أحكمت آياته ثم فصلت على صيغة التكلم وعن عكرمة والضحاك ثم فصلت أى فرقت بين الحق والباطل .

﴿ من لدن حكيم خبير ﴾ صفة للكتاب وصف بها بعد ما وصف بإحكام آياته وتفصيلها الدالين على علو رتبته من حيث الذات إبانة لجلالة شأنه من حيث الإضافه أو خبر للمبتدأ المذكور أو المحذوف أو صلة للفعلين وفى بنائهما للمفعول ثم إيراد الفاعل بعنوان الحكمه البالغه والإحاطه بجلائلها ودقائقها منكرا بالتنكير التفخيمى وربطهما به لا على النهج المعهود فى إسناد الأفاعيل إلى فواعلها مع رعاية حسن الطباق من الجزالة والدلالة على فخامتهما وكونهما على أكمل ما يكون ما لا يكتنه كنهه .

دعوة إلى التوحيد

﴿ ألا تعبدوا إلا الله ﴾ مفعول له حذف عنه اللام مع فقدان الشرط أعنى كونه فعلا لفاعل الفعل المعلل جريا على سنن القياس المطرد فى حذفه

حرف الجر مع أن المصدرية كأنه قيل كتاب أحكمت آياته ثم فصلت لئلا تعبدوا إلا الله أى لتتركوا عبادة غير الله عز وجل وتتمحضوا فى عبادته ، فإن الإحكام والتفصيل على ما فصل من المعانى مما يدعوهم إلى الإيمان والتوحيد وما يتفرع عليه من الطاعات قاطبة . وقيل أن مفسرة لما فى التفصيل من معنى القول أى قيل لا تعبدوا إلا الله ﴿ إننى لكم منه ﴾ من جهة الله تعالى ﴿ نذير ﴾ أنذركم عذابه إن لم تتركوا ما أنتم عليه من الكفر وعبادة غير الله تعالى ﴿ وبشير ﴾ أبشركم بثوابه إن آمنتم به وتمحضتم فى عبادته ولما ذكر شئون الكتاب من إحكام آياته وتفصيلها وكون ذلك من قبل الله تعالى وأورد معظم ما نظم فى سلك الغاية والأمر من التوحيد وترك الإشراك وسط بينه وبين قرينيه أعنى الاستغفار والتوبة ذكر أن من نزل عليه ذلك الكتاب مرسل من عند الله تعالى لتبليغ أحكامه وترشيحها بالمؤيدات من الوعد والوعيد للإيذان بأن التوحيد فى أقصى مراتب الأهمية حتى أفرد بالذكر وأيد إيجابه بالخطاب غب الكتاب مع تلويح بأنه كما لا يتحقق فى نفسه إلا مقارنا للحكم برسالته عليه السلام كذلك فى الذكر لا ينفك أحدهما عن الآخر ، وقد روعى فى سوق الخطاب بتقديم الإنذار على التبشير ما روعى فى الكتاب من تقديم النفى على الإثبات والتخلية على التحلية لتجاوب أطراف الكلام ويجوز أن يكون قوله تعالى (ألا تعبدوا إلا الله) كلاما منقطعا عما قبله واردا على لسانه عليه السلام إغراء لهم على اختصاصه تعالى بالعبادة كأنه عليه السلام قال ترك عبادة غير الله أى الزموه على معنى اتركوا عبادة غير الله تركا مستمراً إننى لكم من جهة الله تعالى نذير وبشير ، أى نذير أنذركم من عقابه على تقدير استمراركم على الكفر وبشير أبشركم بثوابه على تقدير ترككم له وتوحيدكم ، ولما سيق إليهم حديث التوحيد وأكد ذلك بخطاب الرسول صلى الله عليه وسلم على وجه الإنذار والتبشير شرع فى ذكر ما هو من تمامه على وجه يتضمن تفصيل ما أجمل فى وصف البشير والنذير فقيل .

﴿ وأن استغفروا ربكم ﴾ وهو معطوف على أن لا تعبدوا على ما ذكر

من الوجهين فعلى الأول أن مصدرية لجواز كون صلتها أمرا أونهيا كما فى قوله تعالى (وأن أقم وجهك للدين حنيفا) لأن مدار جواز كونها فعلا إنما هو دلالته على المصدر وهو موجود فيهما ووجوب كونها خبرية فى صلة الموصول الاسمى إنما هو للتوصل إلى وصف المعارف بالجمل وهى لا توصف بها إلا إذا كانت خبرية وأما الموصول الحرفى فليس كذلك ولما كان الخبر والإنشاء فى الدلالة على المصدر سواء ساغ وقوع الأمر والنهى صلة حسبما ساغ وقوع الفعل فيتجرد عند ذلك عن معنى الأمر والنهى نحو تجرد الصلة الفعلية عن معنى المضى والاستقبال ﴿ ثم توبوا إليه ﴾ عطف على استغفروا والكلام فيه كالكلام فيه والمعنى فعل مافعل من الإحكام والتفصيل لتخصوا الله تعالى بالعبادة وتطلبوا منه ستر ما فرط منكم من الشرك ثم ترجعوا إليه بالطاعة أو تستمروا على ما أنتم عليه من التوحيد والاستغفار أو تستغفروا من الشرك وتتوبوا من المعاصى وعلى الثانى أن مفسرة أى قيل فى أثناء تفصيل الآيات لاتعبدوا إلا الله واستغفروه ثم توبوا إليه والتعرض لوصف الربوبية تلقين للمخاطبين وإرشاد لهم إلى طريق الابتهال فى السؤال وترشيح لما يعقبه من التمتيع وإيتاء الفضل بقوله تعالى ﴿ يمتعكم متاعا حسنا ﴾ أى تمتيعا وانتصابه على أنه مصدر حذف منه الزوائد كقوله تعالى (أنبتكم من الأرض نباتا) أو على أنه مفعول به وهو اسم لما يتمتع به من منافع الدنيا من الأموال والبنين وغير ذلك والمعنى يعيشكم[1] عيشا مرضيا لا يفوتكم فيه شىء مما تشتهون ولا ينغصه شىء من المكدرات ﴿ إلى أجل غير مسمى ﴾ مقدر عند الله عز وجل وهو آخر أعماركم ولما كان ذلك غاية لا يطمح وراءها طامح جرى التمتيع إليها مجرى التأبيد عادة أو لا يهلككم بعذاب الاستئصال ﴿ ويؤت كل ذى فضل ﴾ فى الطاعة والعمل ﴿ فضله ﴾ جزاء فضله إما فى الدنيا أو فى الآخرة وهذه تكملة لما أجمل من التمتيع إلى أجل مسمى وتبيين لما عسى يعسر فهم حكمته من بعض ما يتفق

(١) فى ط : يعيشكم .

فى الدنيا من تفاوت الحال بين العاملين فرب إنسان له فضل طاعة وعمل لايمتع فى الدنيا أكثر مما متع آخر دونه فى الفضل وربما يكون المفضول أكثر تمتيعا فقيل ويعط كل فاضل جزاء فضله إما فى الدنيا كما يتفق فى بعض المـــواد وإما فى الآخرة وذلك مما لا مرد له وهذا ضرب تفصيل لما أجمل فيما سبق من البشارة ، ثم شرع فى الإنذار فقيل ﴿ وإن تولوا ﴾ أى تتولوا عما ألقى إليـكم من التوحيد والاستغفار والتوبة وانما أخر عن البشارة جريا على سنن تقدم الرحمة على الغضب أو لأن العذاب قد علق بالتولى عما ذكر من التوحيد والاستغفار والتوبة وذلك يستدعى سابقة ذكره وقرىء تولوا من ولى ﴿ فإنى أخاف عليكم ﴾ بموجب الشفقة والرأفة أو أتوقع ﴿ عذاب يوم كبير ﴾ هو القيامة وصف بالـكبر كما وصف بالعظم فى قوله تعالى : (ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم) إما لـكونه كذلك فى نفسه أو وصف بوصف ما يكون فيه كما وصف بالثقل فى قوله تعالى (ثقلت فى السموات والأرض) وقيل يوم الشدائد وقد ابتلوا بقحط أكلوا فيه الجيف وأياما كان ففى إضافة العذاب إليه تهويل وتفظيع له ﴿ إلى الله مرجعكم ﴾ رجوعكم بالموت ثم البعث للجزاء فى مثل ذلك اليوم لا إلى غيره ﴿ وهو على كل شىء قدير ﴾ فيندرج فى تلك الـكلية قدرته على إماتتـكم ثم بعثـكم وجزائـكم فيعذبكم بأفانين العذاب وهو تقرير لمـا سلف من كبر اليوم وتعليل للخوف ولمـا ألقى إليهم فحوى الـكتاب على لسان النبى صلى الله عليه وسلم وسيق إليهم ما ينبغى أن يساق من الترغيب والترهيب وقع فى ذهن السامع أنهم بعدما سمعوا مثل هذا المقال الذى تخر له صم الجبال هل قابلوه بالإقبال أم تمادوا فيما كانوا عليه من الإعراض والضلال فقيل مصدراً بكلمة التنبيه إشعاراً بأن ما يعقبها من هناتهم أمر يجب أن يفهم ويتعجب منه .

﴿ ألا إنهم يثنون صدورهم ﴾ يزورون عن الحق وينحرفون عنه أى يستمرون على ما كانوا عليه من التولى والإعراض لأن من أعرض عن شىء

ثنى عنه صدره وطوى عنه كشحه وهذا معنى جزل مناسب لما سبق وقد نحا نحوه العلامة الزمخشرى ولكن حيث لم يصلح التولى سبيلا للاستخفاء فى قوله عز وجل ﴿ ليستخفوا منه ﴾ التجأ إلى إضمار الإرادة حيث قال ويريدون ليستخفوا من الله تعالى فلا يطلع رسوله والمؤمنين على إعراضهم وجعله فى قود المعنى إليه من قبيل الإضمار فى قوله تعالى (اضرب بعصاك البحر فانفلق) أى فضرب فانفلق ولا يخفى أن انسياق الذهن إلى توسيط الإرادة بين ثنى الصدور وبين الاستخفاء ليس كانسياقه إلى توسيط الضرب بين الأمر به وبين الانفلاق ولعل الأظهر أن معناه يعطفون صدورهم على ما فيها من الكفر والإعراض عن الحق وعداوة النبى صلى الله عليه وسلم بحيث يكون ذلك مخفيا مستورا فيها كما تعطف الثياب على ما فيها من الأشياء المستورة وإنما لم يذكر ذلك استهجانا بذكره أو إيماء إلى أن ظهوره مغن عن ذكره أو ليذهب ذهن السامع إلى كل ما لا خير فيه من الأمور المذكورة فيدخل فيه ما ذكر من توليهم عن الحق الذى ألقى إليهم دخولا أوليا فحينئذ يظهر وجه كون ذلك سببا للاستخفاء ويؤيده ما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنها نزلت فى الأخنس بن شريق وكان رجلا حلو المنطق حسن السياق للحديث يظهر لرسول الله صلى الله عليه وسلم المحبة ويضمر فى قلبه ما يضادها وقال ابن شداد إنها نزلت فى بعض المنافقين كان إذا مر برسول الله صلى الله عليه وسلم ثنى صدره وظهره وطأطأ رأسه وغطى وجهه كيلا يراه النبى صلى الله عليه وسلم فكأنه إنما كان يصنع ما يصنع لأنه رآه النبى صلى الله عليه وسلم لم يمكنه التخلف عن حضور مجلسه والمصاحبة معه[1] وربما يؤدى ذلك إلى ظهور ما فى قلبه من الكفر والنفاق وقرىء يثنونى صدورهم بالياء والتاء من اثنونى افعوعل من الثنى كاحلولى من الحلاوة وهو بناء مبالغة وعن ابن عباس رضى الله عنهما لتثنونى وقرىء تثنون وأصله تثنونن من تفعوعل من الثن

(١) فى ١٠ : وصحبته .

وهو ماهش من الكلأ وضعف يريد مطاوعة صدورهم للثنى كما يثنى الهش من النبات أو أراد ضعف إيمانهم ورخاوة قلوبهم وقرىء تثنئن من اثنان أفعال منه ثم همز كما قيل ابياضت وادهامت وقرىء تثنوى بون ترعوى .

﴿ ألا حين يستغشون ثيابهم ﴾ أى يتغطون بها للاستخفاء على ما نقل عن ابن شداد أو حين يأوون إلى فراشهم ويتدثرون بثيابهم فإن ما يقع حينئذ حديث النفس عادة وقيل كان الرجل من الكفار يدخل بيته ويرخى ستره ويحنى ظهره ويتغشى بثوبه ويقول هل يعلم الله ما فى قلبى ﴿ يعلم ما يسرون ﴾ أى يضمرون فى قلوبهم ﴿ وما يعلنون ﴾ أى يستوى بالنسبة إلى علمه المحيط سرهم وعلنهم فكيف يخفى عليه ما عسى يظهرونه وإنما قدم السر على العلن نعيا عليهم من أول الأمر ما صنعوا وإيذانا بافتضاحهم ووقوع ما يحذرونه وتحقيقا للمساواة بين العلمين على أبلغ وجه فكأن علمه بما يسرونه أقدم منه بما يعلنونه ونظيره قوله تعالى (قل إن تخفوا ما فى صدوركم أو تبدوه يعلمه الله حيث قدم فيه الإخفاء على الإبداء على عكس ما وقع فى قوله تعالى : (وإن تبدوا ما فى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله) إذ لم يتعلق بإشعار أن المحاسبة بما يخفونه أولى منها بما يبدونه غرض بل الأمر بالعكس وأما ههنا فقد تعلق بإشعار كون تعلق علمه تعالى بما يسرونه أولى منه بما يعلنونه غرض مهم مع كونهما على السوية كيف لا وعلمه تعالى بمعلوماته ليس بطريق حصول الصورة بل وجود كل شىء فى نفسه علم بالنسبة إليه تعالى وفى هذا المعنى لا يختلف الحال بين الأشياء البارزة والكامنة وأما قوله تعالى (وأعلم ماتبدون وما كنتم تكتمون) فحيث كان واردا بصدد الخطاب مع الملائكة عليهم السلام المنزة مقامهم عن اقتضاء التأكيد والمبالغة فى الإخبار بإحاطة علمه تعالى بالظاهر والباطن لم يسلك فيه ذلك المسلك مع أنه وقع الغنية عنه بما قبله من قوله عز وجل (إنى أعلم غيب السموات والأرض) ويجوز أن يكون ذلك باعتبار أن مرتبة السر متقدمة على مرتبة العلن إذ مامن شىء يعلن إلا وهو

أو مباديه قبل ذلك مضمر فى القلب فتعلق علمه سبحانه بحالته الأولى متقدم على تعلقه بحالته الثانية ﴿ إنه عليم بذات الصدور ﴾ تعليل لما سبق وتقرير له واقع موقع الكبرى من القياس وفى صيغة الفعيل وتحلية الصدور بلام الاستغراق والتعبير عن الضمائر بعنوان صاحبيتها من البراعة مالا يصفه الواصفون كأنه قيل إنه مبالغ فى الإحاطه بمضمرات جميع الناس وأسرارهم الخفية المستكنة فى صدورهم بحيث لا تفارقها أصلا فكيف يخفى عليه مايسرون وما يعلنون ويجوز أن يراد بذات الصدور القلوب من قوله تعالى (ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور) والمعنى أنه عليم بالقلوب وأحوالها فلا يخفى عليه سر من أسرارها .

﴿ وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها ﴾ غذاؤها اللائق بها من حيث الخلق ومن حيث الإيصال إليها بطريق طبيعى أو إرادى لتكفله إياه تفضلا ورحمة وإنما جىء به على طريق الوجوب[1] اعتباراً لسبق الوعد وتحقيقا لوصوله إليها البتة وحملا للمكلفين على الثقة به تعالى والإعراض عن إتعاب النفس فى طلبه ﴿ ويعلم مستقرها ﴾ محل قرارها فى الأصلاب ﴿ ومستودعها ﴾ موضعها فى الأرحام وما يجرى مجراها من البيض ونحوها وإنما خص كل من الاسمين بما خص به من المحلين لأن النطفة بالنسبة إلى الأصلاب فى حيزها الطبيعى ومنشئها الخلقى وأما بالنسبة إلى الأرحام وما يجرى مجراها فهى مودعة فيها إلى وقت معين أو مسكنها من الأرض حين وجدت بالفعل ومودعها من المواد والمقار حين كانت بعد بالقوة ولعل تقديم محلها باعتبار حالتها الأخيرة لرعاية المناسبة بينها وبين عنوان كونها دابة فى الأرض والمعنى ما من دابة فى الأرض إلا يرزقها الله تعالى حيث كانت من أماكنها يسوقه إليها ويعلم موادها المتخالفة المتدرجة فى مراتب الاستعدادات المتفاوتة المتطورة فى

---

(١) فى ١٠ : طريق الإيجاب

الأطوار المتباينة ومقارها المتنوعة ويفيض عليها فى كل مرتبة ما يليق بها من مبادى وجودها وكمالاتها المتفرعة عليه وقد فسر المستودع بأما كنها فى المات ولا يلائمه مقام التكفل بأرزاقها ﴿ كل ﴾ من الدواب ورزقها ومستقرها ومستودعها ﴿ فى كتاب مبين ﴾ أى مثبت فى اللوح المحفوظ البين لمن ينظر فيه من الملائكة عليهم السلام أو المظهر لما أثبت فيه للناظرين ولما انتهى الأمر إلى أنه سبحانه محيط بجميع أحوال مافى الأرض من المخلوقات التى لا تكاد تحصى من مبدأ فطرتها إلى منتهاها اقتضى الحال التعرض لمبدأ خلق السموات والأرض والحكمة الداعية إلى ذلك فقيل .

﴿ وهو الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ﴾ السموات فى يومين والأرض فى يومين وما عليها من أنواع الحيوانات والنبات وغير ذلك فى يومين حسبما فصل فى سورة حم السجدة ولم يذكر خلق ما فى الأرض لكونه من تتمات خلقها وهو السر فى جعل زمان خلقه تتمة لزمان خلقها فى قوله تعالى (فى أربعة أيام ﴾ أى فى تتمة أربعة أيام . والمراد بالأيام الأوقات كما فى قوله تعالى ﴿ ومن يولهم يومئذ دبره) أى فى ستة أوقات أو مقدار ستة أيام فإن اليوم فى المتعارف زمان كون الشمس فوق الأرض ولا يتصور ذلك حين لا أرض ولا سماء وفى خلقها مدرجاً مع القدرة التامة على خلقها دفعة دليل على أنه قادر مختار واعتبار للنظار وحث على التأنى فى الأمور وأما تخصيص ذلك بالعدد المعين فأمر استأثر بعلم ما يقتضيه علام الغيوب جلت حكمته وايثار صيغة الجمع فى السموات لما هو المشهور من الإشارة إلى كونها أجراما مختلفة الطبائع ومتفاوتة الآثار والأحكام ﴿وكان عرشه﴾ قبل خلقهما ﴿على الماء﴾ ليس تحته شىء غيره سواء كان بينهما فرجة أو كان موضوعا على متنه كما ورد فى الأثر ، فلا دلالة فيه على إمكان الخلاء ، كيف لا ولو دل لدل على وجوده لا على إمكانه فقط ولا على كون الماء أول ما حدث فى العالم بعد العرش ، وإنما يدل على أن خلقهما أقدم من خلق السموات والأرض من غير تعرض

للنسبة بينهما ﴿ ليبلوكم ﴾ متعلق بخلق أى خلق السموات والأرض وما فيهما من المخلوقات التى من جملتها أنتم ورتب فيهما جميع ما تحتاجون إليه من مبادى وجودكم وأسباب معايشكم وأودع فى تضاعيفهما من تعاجيب الصنائع والعبر ما تستدلون به على مطالبكم الدينية ليعاملكم معاملة من يبتليكم ﴿ أيكم أحسن عملا ﴾ فيجازيكم بالثواب والعقاب غب(١) ماتبين المحسن من المسيء وامتازت درجات أفراد كل من الفريقين حسب امتياز طبقات علومهم واعتقاداتهم المترتبة على أنظارهم فيما نصب من الحجج والدلائل والأمارات والمخايل ومراتب أعمالهم المتفرعة على ذلك فإن العمل غير مختص بعمل الجوارح ولذلك فسره عليه السلام بقوله أيكم أحسن عقلا وأورع عن محارم الله وأسرع فى طاعة الله فإن لكل من القلب والقالب عملا مخصوصا به فكما أن الأول أشرف من الثانى فكذا الحال فى عمله كيف لا ولا عمل بدون معرفة الله عز وجل الواجبة على العباد آثر ذى أثير وإنما طريقها النظرى التفكر فى بدائع صنائع الملك الخلاق والتدبر فى آياته البينات المنصوبة فى الأنفس والآفاق ولا طاعة بدون فهم ما فى مطاوى الكتاب الحكيم من الأوامر والنواهى وغير ذلك مما له مدخل فى الباب وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « لا تفضلونى على يونس ابن متى فإنه كان يرفع له كل يوم مثل عمل أهل الأرض » قالوا وإنما كان ذلك التفكر فى أمر الله عز وجل الذى هو عمل القلب لأن أحدا لا يقدر على أن يعمل فى اليوم بجوارحه مثل عمل أهل الأرض وتعليق فعل البلوى أى تعقيبه بحرف الاستفهام لا التعليق المشهور الذى يقتضى عدم إيراد المفعول أصلا مع اختصاصه بأفعال القلوب لما فيه من معنى العلم باعتبار عاقبته كالنظر ونظائره ولذلك أجرى مجراه بطريق التمثيل أو الاستعارة التبعية وإيراد صيغة التفضيل مع أن الابتلاء شامل للفريقين باعتبار أعمالهم المنقسمة إلى الحسن والقبيح أيضا لا إلى الحسن والأحسن

---

(١) فى ٤٣٠ : عقب وهما بمعنى .

فقط للإيذان بأن المراد بالذات والمقصود الأصلى مما ذكر من إبداع تلك البدائع على ذلك النمط الرائع إنما هو ظهور كمال إحسان المحسنين وأن ذلك لكونه على أتم الوجوه اللائقة وأكمل الأساليب الرائقة يوجب العمل بموجبه بحيث لا يحيد أحد عن سننه المستبين بل يهتدى كل فرد إلى ما يرشد إليه من مطلق الإيمان والطاعة وإنما التفاوت بينهم فى مراتبهما بحسب القوة والضعف والكثرة والقلة وأما الإعراض عن ذلك والوقوع فى مهاوى الضلال فبمعزل من الاندراج تحت الوقوع فضلا عن أن ينتظم ظهوره فى سلك العلة الغائية لذلك الصنع البديع وإنما هو عمل يصدر عن عامله بسوء اختياره من غير مصحح له ولا تقريب ولا يخفى ما فيه من الترغيب فى الترقى إلى معارج العلوم ومدارج الطاعات والزجر عن مباشرة نقائضها والله تعالى أعلم ﴿ ولئن قلت إنكم مبعوثون من بعد الموت ﴾ على ما يوجبه قضية الابتلاء ليترتب عليه الجزاء المتفرع على ظهور مراتب الأعمال ﴿ ليقولن الذين كفروا ﴾ إن وجه الخطاب فى قوله تعالى : (إنكم) إلى جميع المكلفين بالموصول مع صلته للتخصيص أى ليقولن الكافرون منهم وإن وجه إلى الكافرين منهم فهو وارد على طريقة الذم .

﴿ إن هذا إلا سحر مبين ﴾ أى مثله فى الخديعة أو البطلان وهذا إشارة إلى القول المذكور أو إلى القرآن فإن الإخبار عن كونهم مبعوثين وإن لم يجب كونه بطريق الوحى المتلو إلا أنهم عند سماعهم ذلك تخلصوا إلى القرآن لإنبائه عنه فى كل موضع وكونه علما عندهم فى ذلك فعمدوا إلى تكذيبه وتسميته سحرا تماديا منهم فى العناد وتفاديا عن سنن الرشاد وقيل هو إشارة إلى نفس البعث ولا يلائمه التسمية بالسحر فإنه إنما يطلق على شىء موجود ظاهرا لا أصل له فى الحقيقة ونفس البعث عندهم معدوم بحت وتعلق الآية الكريمة بما قبلها إما من حيث أن البعث كما أشير إليه من تتمات الابتلاء المذكور فكأنه قيل الأمر كما ذكر ومع ذلك إن أخبرتهم بمقدمة فذة من مقدماته وقضية فردة من

تماته لا يتلعثمون فى الرد ويعدون ذلك من قبيل ما لا صحة له أصلا فضلا عن تصديق ما هذه من تماته وإما من حيث أن البعث خلق جديد فكأنه قيل وهو الذى خلق جميع المخلوقات ابتداء لهذه الحكمة البالغة ومع ذلك إن أخبرتهم بأنه يعيدهم تارة أخرى وهو أهون عليه يقولون ما يقولون فسبحان الله عما يصفون وقرأ حمزة والكسائى إلا ساحر على أن الإشارة إلى القائل أو إلى القرآن على أسلوب شعر شاعر وقرىء بالفتح على تضمين قلت معنى ذكرت أو على أن أنك بمعنى عنك فى علك أى ولئن قلت لعلكم مبعوثون على أن الرجاء والتوقع باعتبار حال المخاطبين أى توقعوا ذلك ولاتبتوا القول بإنكاره أو على أنه مجاراة معهم فى الكلام على نهج المساعدة لئلا يسارعوا إلى اللجاج والعناد ريثما قرع أسماعهم بت القول بخلاف ما ألفوا وألفوا عليه آباءهم من إنكار البعث ويكون ذلك أدعى لهم إلى التأمل والتدبر وما فعلوه قاتلهم الله أنى يؤفكون .

﴿ ولئن أخرنا عنهم العذاب ﴾ المترتب على بعثهم أو العذاب الموعود فى قوله تعالى (فإن تولوا فإنى أخاف عليكم عذاب يوم كبير) وقيل عذاب يوم بدر وعن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قتل جبريل عليه السلام للمستهزئين والظاهر أن المراد به العذاب الشامل للكفرة دون ما يختص ببعض منهم على أنه لم يكن موعودا يستعجل منه المجرمون ﴿ إلى أمة معدودة ﴾ إلى طائفة من الأيام قليلة لأن ما يحصره العد قليل ﴿ ليقولن ما يحبسه ﴾ أى أى شىء يمنعه من المجىء فكأنه يريده فيمنعه مانع وإنما كانوا يقولونه بطريق الاستعجال استهزاء لقوله تعالى (ما كانوا به يستهزئون) ومرادهم إنكار المجىء والحبس رأساً [1] لا الاعتراف به والاستفسار عن حابسه ﴿ ألا يوم يأتيهم ﴾ ذلك ﴿ ليس مصروفا ﴾ محبوسا ﴿ عنهم ﴾ على معنى أنه لا يرفعه رافع أبدا إن أريد به عذاب الآخرة أو لا يدفعه عنكم

(١) فى ١٠ : أصلا .

دافع بل هو واقع بكم إن أريد به عذاب الدنيا ويوم منصوب بخبر ليس مقدما عليه واستدل به البصريون على جواز تقديمه على ليس إذ المعمول تابع للعامل فلا يقع إلا حيث يقع متبوعه ورد بأن الظرف يجوز فيه ما لا يجوز في غيره توسعا وبأنه قد يقدم المعمول حيث لا مجال لتقدم العامل كما في قوله تعالى (فأما اليتيم فلا تقهر وأما السائل فلا تنهر) فإن اليتيم والسائل مع كونهما منصوبين بالفعلين المجزومين قد تقدما على لا الناهية مع امتناع تقدم الفعلين عليها . قال أبو حيان [١] وقد تتبعت جملة من دواوين العرب فلم أظفر بتقديم خبر ليس عليها ولا بتقديم معموله إلا ما دل عليه ظاهر هذه الآية الكريمة وقول الشاعر:

فيأبى فما يزداد إلا لجاجة وكنت أبياً فى الخنا لست أقدم

﴿ وحاق بهم ﴾ أى أحاط بهم ﴿ ما كانوا به يستهزءون ﴾ أى العذاب الذى كانوا يستعجلون به استهزاء وفى التعبير عنه بالموصول تهويل لمكانه وإشعار بعلية ما ورد فى حيز الصلة من استهزائهم به لنزوله وإحاطته والتعبير عنها بالماضى وارد على عادة الله تعالى فى أخباره لأنها فى تحققها وتيقنها بمنزلة الكائنة الموجودة وفى ذلك من الفخامة والدلالة على علو شأن المخبر به ما لا يخفى ﴿ ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة ﴾ أى أعطيناه نعمة من صحة وأمن وجدة وغيرها وأوصلناها إليه بحيث يجد لذتها ﴿ ثم نزعناها منه ﴾ أى سلبناه إياها وإيراد النزع للإشعار بشدة تعلقه بها وحرصه عليها ﴿ إنه ليئوس ﴾ شديد القنوط من روح الله قطوع رجاءه من عود أمثالها عاجلا أو آجلا بفضل الله تعالى لقلة صبره وعدم توكله عليه وثقته به ﴿ كفور ﴾ عظيم الكفران لما سلف من النعم وفيه إشارة إلى أن النزع إنما كان بسبب كفرانهم بما كانوا يتقلبون فيه من نعم الله عز وجل وتأخيره عن وصف يأسهم مع تقدمه عليه لرعاية الفواصل على أن اليأس من فضل الله سبحانه وقطع الرجاء عن إفاضة أمثاله فى العاجل

---

(١) هو صاحب البحر المحيط .

وإيصال أجره فى الآجل من باب الكفران للنعمة السالفة أيضاً ﴿ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته﴾ كصحة بعد سقم وجدة بعد عدم وفرج بعد شدة وفى التعبير عن ملابسة الرحمة والنعماء بالذوق المؤذن بلذتهما وكونهما مما يرغب فيه وعن ملابسة الضراء بالمس المشعر بكونها فى أدنى ماينطلق عليه اسم الملاقاة من مراتبها وإسناد الأول إلى الله عز وجل دون الثانى ما لا يخفى من الجزالة والدلالة على أن مراده تعالى إنما هو إيصال الخير المرغوب فيه على أحسن ما يكون وأنه إنما يريد بعباده اليسر دون العسر وإنما ينالهم ذلك بسوء اختيارهم نيلا يسيرا كأنما يلاصق البشرة من غير تأثير وأما نزع الرحمة فإنما صدر عنه بقضية الحكمة الداعية إلى ذلك وهى كفرانهم بها كما سبق وتنكير الرحمة باعتبار لحوق النزع بها ﴿ليقولن ذهب السيئات عنى﴾ أى المصائب التى تسوءنى ولن يعترينى بعد أمثالها كما هو شأن أولئك الأشرار فإن الترقب لورود أمثالها مما يكدر السرور وينغص العيش ﴿إنه لفرح﴾ بطر وأشر بالنعم مغتر بها ﴿فخور﴾ على الناس بما أوتى من النعم مشغول بذلك عن القيام بحقها واللام فى لئن فى الآيات الأربع موطئة للقسم وجوابه ساد مسد جواب الشرط .

﴿إلا الذين صبروا﴾ على ما أصابهم من الضراء سابقا أو لاحقا ايمانا بالله واستسلاما لقضائه ﴿وعملوا الصالحات﴾ شكرا على آلائه السالفة والآنفة واللام فى الإنسان إما لاستغراق الجنس فالاستثناء متصل أو للعهد فمنقطع ﴿أولئك﴾ إشارة إلى الموصول باعتبار اتصافه بما فى حيز الصلة وما فيه من معنى البعد للإيذان بعلو درجتهم وبعد منزلتهم فى الفضل أى أولئك الموصوفون بتلك الصفات الحميدة ﴿لهم مغفرة﴾ عظيمة لذنوبهم وإن جمت ﴿وأجر﴾ ثواب لأعمالهم الحسنة ﴿كبير﴾ ووجه تعلق الآيات الثلاث بما قبلهن من حيث أن إذاقة النعماء ومساس الضراء فصل من باب الابتلاء واقع موقع التفصيل من الإجمال الواقع فى قوله تعالى (ليبلوكم أيكم أحسن عملا) والمعنى أن كلا من إذاقة النعماء ونزعها مع كونه ابتلاء للإنساء أيشكر أم يكفر لايهتدى

إلى سنن الصواب بل يحيد فى كلتا الحالتين عنه إلى مهاوى الضلال فلا يظهر منه حسن عمل إلا من الصابرين الصالحين أو من حيث أن إنكارهم بالبعث واستهزاءهم بالعذاب بسبب بطرهم وفخرهم كأنه قيل إنما فعلوا ما فعلوا لأن طبيعة الإنسان مجبولة على ذلك .

القرآن حق من عند الله

﴿ فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك ﴾ من البينات الدالة على حقية نبوتك المنادية بكونها من عند الله عز وجل لمن له أذن واعية ﴿ وضائق به صدرك ﴾ أى عارض لك ضيق صدر بتلاوته عليهم وتبليغه إليهم فى أثناء الدعوة والمحاجة ﴿ أن يقولوا ﴾ لأن يقولوا تعاميا عن تلك البراهين التى لا تكاد تخفى صحتها على أحد ممن له أدنى بصيرة وتماديا فى العناد على وجه الاقتراح ﴿ لولا أنزل عليه كنز ﴾ مال خطير مخزون يدل على صدقه ﴿ أو جاء معه ملك ﴾ يصدقه قيل قاله عبد الله بن أمية المخزومى . وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رؤساء مكة قالوا يا محمد اجعل لنا جبال مكة ذهباً إن كنت رسولا وقال آخرون ائتنا بالملائكة يشهدوا بنبوتك فقال لا أقدر على ذلك[1] فنزلت فكأنه عليه الصلاة والسلام لما عاين اجتراءهم على اقتراح مثل هذه العظائم غير قانعين بالبينات الباهرة التى كانت تضطرهم إلى القبول لو كانوا من أرباب العقول وشاهد ركوبهم من المكابرة متن كل صعب وذلول مسارعين إلى المقابلة بالتكذيب والاستهزاء وتسميتها سحراً مثل حاله عليه الصلاة والسلام بحال من يتوقع منه أن يضيق صدره بتلاوة تلك الآيات الساطعة عليهم وتبليغها إليهم فحمل على الحذر منه بما فى لعل من الإشفاق فقيل ﴿ إنما أنت نذير ﴾

---

(١) جاء فى أسباب النزول وفى إرشاد الرحمن أنه صلى الله عليه وسلم هم بإجابة مطلبهم الأول ، فأوحى إليه : لئن كفروا بعد ذلك أهلكتهم فامتنع فنزلت .

ليس عليك إلا الإنذار بما أوحى إليك غير مبال بما صدر عنهم من الرد والقبول ﴿ والله على كل شىء وكيل ﴾ يحفظ أحوالك وأحوالهم فتوكل عليه فى جميع أمورك فإنه فاعل بهم ما يليق بحالهم والاقتصار على النذير فى أقصى غاية من إصابة المحز ﴿أم يقولون افتراه﴾ إضراب بأم المنقطعة عن ذكر تركاعتدادهم بما يوحى وتهاونهم به وعدم اقتناعهم بما فيه من المعجزات الظاهرة الدالة على كونه من عند الله عز وجل وعلى حقية نبوته عليه الصلاة والسلام وشروع فى ذكر ارتكابهم لما هو أشد منه وأعظم وما فيها من معنى الهمزة للتوبيخ والإنكار والتعجيب ، والضمير المستكن فى افتراه للنبى صلى الله عليه وسلم والبارز لما يوحى أى بل أيقولون افتراه وليس من عند الله .

﴿ قل ﴾ إن كان الأمر كما تقولون ﴿ فأتوا ﴾ أنتم أيضاً ﴿ بعشر سور مثله ﴾ فى البلاغة وحسن النظم وهو نعت لسور أى أمثاله وتوحيده إما باعتبار مماثلة كل واحدة منها أو لأن المطابقة ليست بشرط حتى يوصف المثنى بالمفرد كما فى قوله تعالى(أنؤمن لبشرين مثلنا)أو للإيماء إلى أن وجه الشبه ومدار المماثلة فى الجميع شىء واحد هو البلاغة المؤدية إلى مرتبة الإعجاز فكأن الجميع واحد ﴿ مفتريات ﴾ صفة أخرى لسور أخرت عن وصفها بالمماثلة لما يوحى لأنها الصفة المقصودة بالتكليف إذ بها يظهر عجزهم وقعودهم عن المعارضة وأما وصف الافتراء فلا يتعلق به غرض يدور عليه شىء فى مقام التحدى وإنما ذكر على نهج المساهلة وإرخاء العنان ولأنه لو عكس الترتيب لربما توهم أن المراد هو المماثلة فى الافتراء والمعنى فأتوا بعشر سور مماثلة له فى البلاغة مختلفات من عند أنفسكم إن صح أنى اختلقته من عندى فإنكم أقدر على ذلك منى لأنكم عرب فصحاء بلغاء قد مارستم مبادىء ذلك من الخطب والأشعار وحفظتم الوقائع والأيام وزاولتم أساليب النظم والنثر .

﴿وادعوا﴾ للاستظهار فى المعارضة﴿من استطعتم﴾ دعاءه والاستعانة به من آلهتكم التى تزعمون أنها ممدة لكم فى كل ما تأتون وما تذرون والكهنة

ومدارهكم الذين تلجأون إلى آرائهم فى الملمات ليدعوكم فيها ﴿من دون الله﴾ متعلق بادعوا أى متجاوزين الله تعالى ﴿إن كنتم صادقين﴾ فى أنى افتريته فإن ذلك يستلزم إمكان الإتيان بمثله وهو أيضاً يستلزم قدرتكم عليه والجواب محذوف يدل عليه المذكور ﴿فإن لم يستجيبوا لكم﴾ أى لم يفعلوا ما كلفوه من الإتيان بمثله كقوله تعالى ﴿فإن لم تفعلوا﴾ وإنما عبر عنه بالاستجابة إيماء إلى أنه عليه الصلاة والسلام على كمال أمن من أمره كأن أمره لهم بالإتيان بمثله دعاء لهم إلى أمر يريد وقوعه والضمير فى لكم للرسول عليه الصلاة والسلام والجمع للتعظيم كما فى قول من قال :

* وإن شئت حرمت النساء سواكم *

أوله وللمؤمنين لأنهم أتباع له عليه الصلاة والسلام فى الأمر بالتحدى وفيه تنبيه لطيف على أن حقهم ألا ينفكوا عنه عليه الصلاة والسلام ويناصبوا معه لمعارضة المعارضين كما كانوا يفعلونه فى الجهاد وإرشاد إلى أن ذلك مما يفيد الرسوخ فى الإيمان والطمأنينة فى الإيقان ولذلك رتب عليه قوله عز وجل ﴿فاعلموا﴾ أى اعلموا حين ظهر لكم عجزهم عن المعارضة مع تهالكهم عليها علما يقيناً متاخما لعين اليقين بحيث لا مجال معه لشائبة ريب بوجه من الوجوه كأن ما عداه من مراتب العلم ليس بعلم لكن لا للإشعار بانحطاط تلك المراتب بل بارتفاع هذه المرتبة وبه يتضح سر إيراد كلمة الشك مع القطع بعدم الاستجابة فإن تنزيل سائر المراتب منزلة العدم مستتبع لتنزيل الجزم بعدم الاستجابة منزلة الشك فيه أو أثبتوا واستمروا على ما كنتم عليه من العلم ﴿إنما أنزل﴾ ملتبسا ﴿بعلم الله﴾ المخصوص به بحيث لا تحوم حوله العقول والأفهام مستبدا بخصائص الإعجاز من جهتى النظم الرائق والإخبار بالغيب ﴿وأن لا إله إلا هو﴾ أى واعلموا أيضا ألا شريك له فى الألوهية وأحكامها ولا يقدر على ما يقدر عليه أحد ﴿فهل أنتم مسلمون﴾ أى مخلصون فى الإسلام أو ثابتون عليه وهذا من باب التثبيت والترقية إلى معارج اليقين ويجوز أن يكون

الخطاب في الكل للمشركين من جهة الرسول صلى الله عليه وسلم داخلا تحت الأمر بالتحدى والضمير في لم يستجيبوا لمن استطعتم أى فإن لم يستجب لكم آلهتكم وسائر من إليهم تجأرون في مهمانكم وملماتكم إلى المعاونة والمظاهرة فاعلموا أن ذلك خارج عن دائرة قدرة البشر وأنه منزل من خالق القوى والقدر فإيراد كلمة الشك حينئذ مع الجزم بعدم الاستجابة من جهة آلهتهم تهكم بهم وتسجيل عليهم بكمال سخافة العقل وترتيب الأمر بالعلم على مجرد عدم الاستجابة من حيث أنه مسبوق بالدعاء المسبوق بعجزهم واضطرارهم فكأنه قيل فإن لم يستجيبوا لكم عند التجائكم إليهم بعد ما اضطررتم إلى ذلك وضاقت عليكم الحيل وعيت بكم العلل أو من حيث أن من يستمدون بهم أقوى منهم في اعتقادهم فإذا ظهر عجزهم بعدم استجابتهم وإن كان ذلك قبل ظهور عجز أنفسهم يكون عجزهم أظهر وأوضح واعلموا أيضا أن آلهتكم بمعزل عن رتبة الشركة في الألوهية وأحكامها فهل أنتم داخلون في الإسلام إذ لم يبق بعد شائبة شبهة في حقيته وفي بطلان ما كنتم فيه من الشرك فيدخل فيه الإذعان لكون القرآن من عند الله تعالى دخولا أوليا أو منقادون للحق الذى هو كون القرآن من عند الله تعالى وتاركون لما كنتم فيه من المكابرة والعناد وفي هذا الاستفهام إيجاب بليغ لما فيه من معنى الطلب والتنبيه على قيام الموجب وزوال العذر وإقناط من أن يجبرهم آلهتهم من بأس الله عز سلطانه هذا والأول أنسب لما سلف من قوله تعالى (وضائق به صدرك) ولما سيأتي من قوله تعالى (فلا تك في مرية منه) وأشد ارتباطا بما يعقبه كما ستحيط به خبراً .

﴿ من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها ﴾ أى ما يزينها ويحسنها من الصحة والأمن والسعة في الرزق وكثرة الأولاد والرياسة وغير ذلك والمراد بالإرادة ما يحصل عند مباشرة الأعمال لا مجرد الإرادة القلبيه لقوله تعالى ﴿ نوف إليهم أعمالهم فيها ﴾ وإدخال كان عليها للدلالة على استمرارها منهم بحيث لا يكادون يريدون الآخرة أصلا وليس المراد بأعمالهم أعمال كلهم فإنه لا يجد كل متمن

ما يتمناه ولا كل أحد ينال كل ما تهواه فإن ذلك منوط بالمشيئة الجارية على قضية الحكمة كما نطق به قوله تعالى (من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد) ولا كل أعمالهم بل بعضها الذى يترتب عليه الأمور المذكورة بطريق الأجر والجزاء من أعمال البر وقد أطلقت وأريد بها ثمراتها فالمعنى نوصل إليهم ثمرات أعمالهم فى الحياة الدنيا كاملة ، وقرىء يوف على الإسناد إلى الله عز وجل وتوف بالفوقانية على البناء للمفعول ورفع أعمالهم وقرىء نوفى بالتخفيف والرفع لكون الشرط ماضيا كقوله :

وإن أتاه خليل يوم مسغبة يقول لا غائب مالى ولا حرم

﴿ وهم فيها ﴾ أى فى [الحياة][1] الدنيا ﴿ لا يبخسون ﴾ أى لا ينقصون وإنما عبر عن ذلك بالبخس الذى هو نقص الحق مع أنه ليس لهم شائبة حق فيما أوتوه كما عبر عن إعطائه بالتوفية التى هى إعطاء الحقوق مع أن أعمالهم بمعزل من كونها مستوجبة لذلك بناء للأمر على ظاهر الحال ومحافظة على صور الأعمال ومبالغة فى نفى النقص كأن ذلك نقص لحقوقهم فلا يدخل تحت الوقوع والصدور عن الكريم أصلا والمعنى أنهم فيها خاصة لا ينقصون ثمرات أعمالهم وأجورها نقصا كليا مطردا ولا يحرمونها حرمانا كليا وأما فى الآخرة فهم فى الحرمان المطلق واليأس المحقق كما ينطق به قوله تعالى ﴿ أولئك ﴾ فإنه إشارة إلى المذكورين باعتبار إرادتهم الحياة الدنيا أو باعتبار توفيتهم أجورهم من غير بخس أو باعتبارهما معا وما فيه من معنى البعد للإيذان ببعد منزلتهم فى سوء الحال أى أولئك المريدون الحياة الدنيا وزينتها الموفون فيها ثمرات أعمالهم من غير بخس ﴿ الذين ليس فى الآخرة إلا النار ﴾ لأن هممهم كانت مصروفة إلى الدنيا وأعمالهم مقصورة على تحصيلها وقد اجتنوا ثمرتها ولم يكونوا يريدون بها شيئا آخر ، فلا جرم لم يكن لهم فى الآخرة إلا النار

(١) سقطت من ٩٩ .

وعذابها المخلد ﴿ وحبط ما صنعوا فيها ﴾ أى ظهر فى الآخرة حبوط ماصنعوه من الأعمال التى كانت تؤدى إلى الثواب لو كانت معمولة للآخرة أو حبط ما صنعوه فى الدنيا من أعمال البر إذ شرط الاعتداد بها الإخلاص ﴿ وباطل ﴾ أى فى نفسه ﴿ ما كانوا يعملون ﴾ فى أثناء تحصيل المطالب الدنيوية ولأجل أن الأول من شأنه استتباع الثواب والأجر وأن عدمه لعدم مقارنته للإيمان والنية الصحيحة وأن الثانى ليس له جهة صالحة قط علق بالأول الحبوط المؤذن بسقوط أجره بصيغة الفعل المنبىء عن الحدوث وبالثانى البطلان المفصح عن كونه بحيث لا طائل تحته أصلا بالاسمية الدالة على كون ذلك وصفا لازما له ثابتا فيه وفى زيادة كان فى الثانى دون الأول إيماء إلى أن صدور أعمال البر منهم وإن كان لغرض فاسد ليس فى الاستمرار والدوام كصدور الأعمال التى هى من مقدمات مطالبهم الدنية ، وقرىء وبطل على الفعل أى ظهر بطلانه حيث علم هناك أن ذلك وما يستتبعه من الحظوظ الدنيوية مما لا طائل تحته أو انقطع أثره الدنيوى فبطل مطلقاً وقرىء وباطلا ما كانوا يعملون على أن ما إبهامية أو فى معنى المصدر كقوله :

* ولا خارجا من فى زور كلام *

وعن أنس رضى الله عنه أن المراد بقوله تعالى من كان يريد الخ اليهود والنصارى إن أعطوا سائلا أو وصلوا رحما عجل لهم جزاء ذلك بتوسعة فى الرزق وصحة فى البدن وقيل هم الذين جاهدوا من المنافقين مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسهم لهم فى الغنائم وأنت خبير بأن ذلك إنما كان بعد الهجرة والسورة مكية وقيل هم أهل الرياء يقال للقراء منهم: أردت أن يقال فلان قارىء فقد قيل ذلك[1] وهكذا لغيره ممن يعمل أعمال البر لا لوجه الله تعالى فعلى هذا

(١) أخرجه أبو يعلى والطبرانى فى الكبير وأحمد فى المسند عن أبى هريرة : وهو من حديث طويل وأخرج مسلم نحوه .

لا بد من تقييد قوله (ليس لهم إلا النار) بأن ليس لهم بسبب أعمالهم الريائية إلا ذلك والذى تقتضيه جزالة النظم الكريم أن المراد به مطلق الكفرة بحيث يندرج فيهم القادحون فى القرآن العظيم اندراجا أوليا فإنه عز وعلا لما أمر نبيه عليه الصلاة والسلام والمؤمنين بأن يزدادوا علما ويقينا بأن القرآن منزل بعلم الله وبأن لا قدرة لغيره على شىء أصلا وهيجهم على الثبات على الإسلام والرسوخ فيه عند ظهور عجز الكفرة وما يدعون من دون الله عن المعارضة وتبين أنهم ليسوا على شىء أصلا اقتضى الحال أن يتعرض لبعض شئونهم الموهمة لكونهم على شىء فى الجملة من نيلهم الحظوظ العاجلة واستيلائهم على المطالب الدنيوية وبيان أن ذلك بمعزل عن الدلالة عليه ولقد بين ذلك أى بيان ثم أعيد الترغيب فيما ذكر من الإيمان بالقرآن والتوحيد والإسلام فقيل :

﴿ أفمن كان على بينة من ربه ﴾ أى برهان نير عظيم الشأن يدل على حقية ما رغب فى الثبات عليه من الإسلام وهو القرآن وباعتباره أو بتأويل البرهان ذكر الضمير الراجع إليها فى قوله تعالى ﴿ ويتلوه ﴾ أى يتبعه ﴿ شاهد ﴾ يشهد بكونه من عند الله تعالى وهو الإعجاز فى نظمه المطرد فى كل مقدار سورة منه أو ما وقع فى بعض آياته من الإخبار بالغيب وكلاهما وصف تابع له شاهد بكونه من عند الله عز وجل غير أنه على التقدير الأول يكون فى الكلام إشارة إلى حال رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين فى تمسكهم بالقرآن عند تبين كونه منزلا بعلم الله بشهادة الإعجاز ﴿ منه ﴾ أى من القرآن غير خارج عنه أو من جهة الله تعالى فإن كلا منهما وارد من جهته تعالى للشهادة ويجوز على هذا التقدير أن يراد بالشاهد المعجزات الظاهرة على يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم فإن ذلك أيضا من الشواهد التابعة للقرآن الواردة من جهته تعالى فالمراد بمن فى قوله تعالى (أفمن) كل من اتصف بهذه الصفة الحميدة فيدخل فيه المخاطبون بقوله تعالى (فاعلموا ـ فهل أنتم) دخولا أوليا وقيل هو النبى صلى الله عليه وسلم وقيل مؤمنو أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وأضرابه وقيل المراد بالبينة دليل العقل وبالشاهد القرآن فالضمير فى منه لله تعالى أو البينة القرآن ويتلوه من التلاوة

والشاهد جبريل أو لسان النبي صلى الله عليه وسلم على أن الضمير له أو من التلو والشاهد ملك يحفظه والأولى هو الأول ولما كان المراد بتلو الشاهد للبرهان إقامة الشهادة بصحته وكونه من عند الله تابعا له بحيث لا يفارقه فى مشهد من المشاهد فإن القرآن بينة باقية على وجه الدهر مع شاهدها الذى يشهد بأمرها إلى يوم القيامة عند كل مؤمن وجاحد عطف كتاب موسى فى قوله عز قائلا ﴿ ومن قبله كتاب موسى ﴾ على فاعله مع كونه مقدما عليه فى النزول فكأنه قيل أفمن كان على بينة من ربه ويشهد به شاهد منه وشاهد آخر من قبله هو كتاب موسى وإنما قدم فى الذكر المؤخر فى النزول لكونه وصفا لازما له غير مفارق عنه ولعراقته فى وصف التلو والتنكير فى بينة وشاهد للتفخيم ﴿ إماما ﴾ أى مؤتما به فى الدين ومقتدى وفى التعرض لهذا الوصف بصدد بيان تلو الكتاب مالا يخفى من تفخيم شأن المتلو ﴿ ورحمة ﴾ أى نعمة عظيمة على من أنزل إليهم ومن بعدهم إلى يوم القيامة باعتبار أحكامه الباقية المؤيدة بالقرآن العظيم وهما حالان من الكتاب .

﴿ أولئك ﴾ الموصوفون بتلك الصفة الحميدة وهو الكون على بينة من الله ولما أن ذلك عبارة عن مطلق التمسك بها وقد يكون ذلك بطريق التقليد لمن سلف من عظماء الدين من غير عثور على دقائق الحقائق وصفهم بأنهم ﴿ يؤمنون به ﴾ أى يصدقونه حق التصديق حسبما تشهد به الشواهد الحقة المعربة عن حقيته ﴿ ومن يكفر به ﴾ أى بالقرآن ولم يصدق بتلك الشواهد الحقة ﴿ من الأحزاب ﴾ من أهل مكة ومن تحزب معهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ فالنار موعده ﴾ يردها لا محالة حسبما نطق به قوله تعالى (ليس لهم فى الآخرة إلا النار) وفى جعلها موعدا إشعار بأن له فيها ما لا يوصف من أفانين العذاب ﴿ فلاتك فى مرية منه ﴾ أى فى شك من أمر القرآن وكونه من عند الله عز وجل حسبما شهدت به الشواهد المذكورة وظهر فضل من تمسك به ﴿ إنه الحق من ربك ﴾ الذى يربيك فى دينك ودنياك ﴿ ولكن أكثر الناس لا يؤمنون ﴾ بذلك إما لقصور أنظارهم واختلال أفكارهم وإما لعنادهم واستكبارهم فمن

فى قوله تعالى (أفمن كان على بينة من ربه) مبتدأ حذف خبره لإغناء الحال عن ذكره وتقديره أفمن كان على بينة من ربه كأولئك الذين ذكرت أعمالهم وبين مصيرهم ومآلهم يعنى أن بينهما اتفاقا عظيما بحيث لايكاد يتراءى ناراهما وإيراد الفاء بعد الهمزة لإنكار ترتب توهم المماثلة على ما ذكر من صفاتهم وعدد من هناتهم كأنه قيل أبعد ظهور حالهم فى الدنيا والآخرة كما وصف يتوهم المماثلة بينهم وبين من كان على أحسن ما يكون فى العاجل والآجل كما فى قوله تعالى (أفاتخذتم من دونه أولياء) أى أبعد أن علمتموه رب السموات والأرض اتخذتم من دونه أولياء وقوله تعالى (أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى).

﴿ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا﴾ بأن نسب إليه مالا يليق به كقولهم للملائكة بنات الله تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا وقولهم لآلهتهم (هؤلاء شفعاؤنا عند الله) يعنى أنهم مع كفرهم بآيات الله تعالى مفترون عليه كذبا وهذا التركيب وإن كان سبكه[1] على إنكار أن يكون أحد أظلم منهم من غير تعرض لإنكار المساواة ونفيها ولكن المقصود به قصدا مطردا إنكار المساواة ونفيها وإفادة أنهم أظلم من كل ظالم كما ينبىء عنه ما سيتلى من قوله عز وجل (لاجرم أنهم فى الآخرة هم الأخسرون) فإذا قيل من أكرم من فلان أو لا فضل منه فالمراد منه حتما أنه أكرم من كل كريم وأفضل من كل فاضل ﴿أولئك﴾ الموصوفون بالظلم البالغ الذى هو الافتراء على الله تعالى وبهذه الإشارة حصلت الغنية عن إسناد العرض إلى أعمالهم واكتفى بإسناده إليهم حيث قيل ﴿يعرضون﴾ لأن عرضهم من تلك الحيثية وبذلك العنوان عرض لأعمالهم على وجه أبلغ فإن عرض العامل بعمله أفظع من عرض عمله مع غيبته ﴿على ربهم﴾ الحق وفيه إيماء إلى بطلان رأيهم فى اتخاذهم أربابا من دون الله عز وجل ﴿ويقول الأشهاد﴾ عند العرض من الملائكة والنبيين أو من جوارحهم وهو جمع شاهد

---

(١) فى ١٠ : وإن كان سياقه .

أو شهيد كأصحاب وأشراف ﴿ هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ﴾ بالافتراء عليه كأن ذلك أمر واضح غني عن الشهادة بوقوعه ، وإنما المحتاج إلى الشهادة تعيين من صدر عنه ذلك فلذاك لا يقولون هؤلاء كذبوا على ربهم ويجوز أن يكون المراد بالأشهاد الحضار(١) وهم جميع أهل الموقف على ما قاله قتادة ومقاتل ويكون قولهم هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ذماً لهم بذلك لا شهادة عليهم كما يشعر به قوله تعالى (ويقول) دون (ويشهد) الخ وتوطئة لما يعقبه من قوله تعالى ﴿ ألا لعنة الله على الظالمين ﴾ بالافتراء المذكور ويجوز أن يكون هذا على الوجه الأول من كلام الله تعالى وفيه تهويل عظيم لما يحيق بهم من عاقبة ظلمهم اللهم إنا نعوذ بك من الخزى على رءوس الأشهاد ﴿ الذين يصدون ﴾ أى كل من يقدرون على صده أو يفعلون الصد ﴿ عن سبيل الله ﴾ عن دينه القويم ﴿ ويبغونها عوجا ﴾ انحرافا أى يصفونها بذلك وهي أبعد شيء منه أو يبغون أهلها أن ينحرفوا عنها يقال بغيتك خيرا أو شرا أى طلبت لك وهذا شامل لتكذيبهم بالقرآن وقولهم إنه ليس من عند الله ﴿ وهم بالآخرة هم كافرون ﴾ أى يصفونها بالعوج والحال أنهم كافرون بها لا أنهم يؤمنون بها ويزعمون أن لها سبيلا سويا يهدون الناس إليه وتكرير الضمير لتأكيد كفرهم واختصاصهم به كأن كفرغيرهم ليس بشيء عند كفرهم ﴿ أولئك ﴾ مع ما وصف من أحوالهم الموجبة للتدمير ﴿ لم يكونوا معجزين ﴾ الله تعالى مفلتين بأنفسهم من أخذه لو أراد ذلك ﴿ فى الأرض ﴾ مع سعتها وإن هربوا منها كل مهرب .

﴿ وما كان لهم من دون الله من أولياء ﴾ ينصرونهم من بأسه ولكن أخر ذلك لحكمة تقتضيه والجمع إما باعتبار أفراد الكفرة كأنه قيل وما كان لأحد منهم من ولى أو باعتبار تعدد ما كانوا يدعون من دون الله تعالى فيكون ذلك بيانا لحال آلهتهم من سقوطها عن رتبة الولاية ﴿ يضاعف لهم العذاب ﴾ استئناف يتضمن حكمة تأخير المؤاخذة وقرأ ابن كثير وابن عامر ويعقوب

---

(١) فى ٤٣٠ : الحضور .

بالتشديد ﴿ ما كانوا يستطيعون السمع ﴾ لفرط تصامهم عن الحق وبغضهم له كأنهم لا يقدرون على السمع ولما كان قبح حالهم فى عدم إذعانهم للقرآن الذى طريق تلقيه السمع أشد منه فى عدم قبولهم لسائر الآيات المنوطة بالإبصار بالغ فى نفى الأول عنهم حيث نفى عنهم الاستطاعة واكتفى فى الثانى بنفى الإبصار فقال تعالى ﴿ وما كانوا يبصرون ﴾ لتعاميهم عن آيات الله المبسوطة فى الأنفس والآفاق وهو استئناف وقع تعليلا لمضاعفة العذاب وقيل هو بيان لما نفى من ولاية الآلهة فإن مالا يسمع ولا يبصر بمعزل من الولاية وقوله تعالى (يضاعف لهم العذاب) اعتراض وسط بينهما نعيا عليهم من أول الأمر سوء العاقبة ﴿ أولئك ﴾ المنعوتون بما ذكر من القبائح ﴿ الذين خسروا أنفسهم ﴾ باشتراء عبادة الآلهة بعبادة الله عز سلطانه ﴿ وضل عنهم ما كانوا يفترون ﴾ من الآلهة وشفاعتها أو خسروا ما بذلوا وضاع عنهم ما حصلوا فلم يبق معهم سوى الحسرة والندامة ﴿ لا جرم ﴾ فيه ثلاثة أوجه الأول أن لا نافية لماسبق وجرم فعل بمعنى حق وأن مع ما فى حيزه فاعله والمعنى لا ينفعهم ذلك الفعل حق ﴿ أنهم فى الآخرة هم الأخسرون ﴾ وهذا مذهب سيبويه والثانى جرم بمعنى كسب ومابعده مفعوله وفاعله مادل عليه الكلام أى كسب ذلك خسرانهم فالمعنى ما حصل من ذلك إلا ظهور خسرانهم والثالث أن لا جرم بمعنى لا بد أنهم فى الآخرة هم الأخسرون وأيا ما كان فمعناه أنهم أخسر من كل خاسر فتبين أنهم أظلم من كل ظالم وهذه الآيات الكريمة كما ترى مقررة لما سبق من إنكار المماثلة بين من كان على بينة من ربه وبين من كان يريد الحياة الدنيا أبلغ تقرير فإنهم حيث كانوا أظلم من كل ظالم وأخسر من كل خاسر لم يتصور مماثلة بينهم وبين أحد من الظلمة الأخسرين فما ظنك بالمماثلة بينهم وبين من هو فى أعلى مدارج الكمال ولما ذكر فريق الكفار وأعمالهم وبين مصيرهم ومآلهم شرع فى بيان حال أضدادهم أعنى فريق المؤمنين وما يؤول إليه أمرهم من العواقب الحميدة تكملة لما سلف من محاسنهم المذكورة فى قوله تعالى (أفمن كان على بينة من ربه) الآية ليتبين ما بينهما من التباين البين حالا ومآلا فقيل ﴿ إن الذين

آمنوا ﴾ أى بكل ما يجب أن يؤمن به فيندرج تحته ما نحن بصدده من الإيمان بالقرآن الذى عبر عنه بالكون على بينة من الله وإنما يحصل ذلك باستماع الوحى والتدبر فيه ومشاهدة ما يؤدى إلى ذلك فى الأنفس والآفاق أو فعلوا الإيمان كما فى يعطى ويمنع ﴿ وعملوا الصالحات وأخبتوا إلى ربهم ﴾ أى اطمأنوا إليه وانقطعوا إلى عبادته بالخضوع والتواضع من الخبت وهى الأرض المطمئنة ومعنى أخبت دخل فى الخبت كأنهم وأنجد دخل فى تهامة ونجد ﴿ أولئك ﴾ المنعوتون بتلك النعوت الجميلة ﴿ أصحاب الجنة هم فيها خالدون ﴾ دائمون وبعد بيان تباين حاليهما عقلا أريد بيان تباينهما حسا فقيل .

﴿ مثل الفريقين ﴾ المذكورين أى حالهما العجيب لأن المثل لا يطلق إلا على ما فيه غرابة من الأحوال والصفات ﴿ كالأعمى والأصم والبصير والسميع ﴾ أى كحال هؤلاء فيكون ذواتهم كذواتهم والكلام وإن أمكن أن يحمل على تشبيه الفريق الأول بالأعمى وبالأصم وتشبيه الفريق الثانى بالبصير وبالسميع لكن الأدخل فى المبالغة والأقرب إلى مايشير إليه لفظ المثل والأنسب بما سبق من وصف الكفرة بعدم استطاعة السمع وبعدم الإبصار أن يحمل على تشبيه الفريق الأول بمن جمع بين العمى والصمم وتشبيه الفريق الثانى بمن جمع بين البصر والسمع على أن تكون الواو فى قوله تعالى (والأصم) وفى قوله (والسميع) لعطف الصفة على الصفة كما فى قول من قال :

إلى الملك القرم وابن الهمام وليث الكتيبة فى المزدحم

وأياما كان فالظاهر أن المراد بالحال المدلول عليها بلفظ المثل وهى التى يدور عليها أمر التشبيه ما يلائم الأحوال المذكورة المعتبرة فى جانب المشبه به من تعامى الفريق الأول عن مشاهدة آيات الله المنصوبة فى العالم والنظر إليها بعين الاعتبار وتصامهم عن استماع آيات القرآن الكريم وتلقيها بالقبول حسبما ذكر فى قوله تعالى (ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون) وإنما لم يراع هذا الترتيب هنا لكون الأعمى أظهر وأشهر فى سوء الحال من الأصم ومن

استعمال الفريق الثانى لكل من أبصارهم وأسماعهم فيما ذكر كما ينبغى المدلول عليه بما سبق من الإيمان والعمل الصالح والإخبات حسبما فسر به فيما مر فلا يكون التشبيه تمثيليا لا جميع الأحوال المعدودة لكل من الفريقين مما ذكر وما يؤدى إليه من العذاب المضاعف والخسران البالغ فى أحدهما ومن النعيم المقيم فى الآخر فإن اعتبار ذلك ينزع إلى كون التشبيه تمثيليا بأن ينتزع من حال الفريق الأول فى تصامهم وتعاميهم المذكورين ووقوعهم بسبب ذلك فى العذاب المضاعف والخسران الذى لا خسران فوقه هيئة فتشبه بهيئة منتزعة ممن فقد [مشعرى](١) البصر والسمع فتخبط فى مسلكه فوقع فى مهاوى الردى ولم يجد إلى مقصده سبيلا وينتزع من حال الفريق الثانى فى استعمال مشاعرهم فى آيات الله تعالى حسبما ينبغى وفوزهم بدار الخلود هيئة فتشبه بهيئة منتزعة ممن له بصر وسمع يستعملهما فى مهماته فيهتدى إلى سبيله وينال مرامه ﴿هل يستويان﴾ يعنى الفريقين المذكورين والاستفهام إنكارى مذكر لما سبق من إنكار المماثلة فى قوله عز وجل (أفمن كان على بينة) الآية ﴿مثلا﴾ أى حال وصفة وهو تمييز من فاعل يستويان ﴿أفلا تذكرون﴾ أى أتشكون فى عدم الاستواء وما بينهما من التباين أو أتغفلون عنه فلا تتذكرونه بالتأمل فيما ضرب لكم من المثل فيكون الإنكار واردا على المعطوفين معا أو أتسمعون هذا فلا تتذكرون فيكون راجعا إلى عدم التذكر بعد تحقق ما يوجب وجوده وهو المثل المضروب كما فى قوله تعالى (أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم) فإن الفاء هناك لإنكار الانقلاب بعد تحقق ما يوجب عدمه من علمهم بخلو الرسل قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم أو أفلا تفعلون التذكر أو أفلا تعقلون ومعنى الهمزة إنكار عدم التذكر واستبعاد صدوره عن المخاطبين وأنه ليس مما يصح أن يقع لا من قبيل الإنكار فى قوله تعالى (أفمن كان على بينة من ربه) وقوله تعالى (هل يستويان) فان ذلك لنفى المماثلة ونفى الاستواء . ولما بين من فاتحة السورة الكريمة إلى هذا المقام أنها

---

(١) سقطت من ٤٣٠

كتاب محكم الآيات مفصلها نازل فى شأن التوحيد وترك عبادة غير الله سبحانه وأن الذى أنزل عليه نذير وبشير من جهته تعالى وقرر فى تضاعيف ذلك ما له مدخل فى تحقيق هذا المرام من الترغيب والترهيب وإلزام المعاندين بما يقارنه من الشواهد الحقة الدالة على كونه من عند الله تعالى وتسلية الرسول صلى الله عليه وسلم بما عراه من ضيق الصدر العارض له من اقتراحاتهم الشنيعة وتكذيبهم له وتسميتهم للقرآن تارة سحرا وأخرى مفترى وتثبيته عليه الصلاة والسلام والمؤمنين على التمسك به والعمل بموجبه على أبلغ وجه وأبدع أسلوب شرع فى تحقيق ما ذكر وتقريره بذكر قصص الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين المشتملة على ما اشتمل عليه فاتحة السورة الكريمة ليتأكد ذلك بطريقين أحدهما أن ما أمر به من التوحيد وفروعه مما أطبق عليه الأنبياء قاطبة والثانى أن ذلك إنما علمه رسول الله صلى الله عليه وسلم بطريق الوحى فلا يبقى فى حقيته كلام أصلا وليتسلى بما يشاهده من معاناة الرسل قبله من أممهم ومقاساتهم الشدائد من جهتهم فقيل :

عبرة من قصص الأنبياء

﴿ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه﴾ الواو ابتدائية واللام جواب قسم محذوف وحرفه الباء لا الواو كما فى سورة الأعراف لئلا يجتمع واوان ولا يكاد تطاق هذه اللام إلا مع قد لأنها مظنة التوقع وأن المخاطب إذا سمعها توقع وقوع ما صدر بها ونوح هو ابن لمك بن متوشلخ بن إدريس عليهما السلام وهو أول نبى بعث بعده . قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما بعث عليه الصلاة والسلام على رأس أربعين من عمره ولبث يدعو قومه تسعمائة وخمسين سنة وعاش بعد الطوفان ستين سنة وكان عمره ألفا وخمسين سنة وقال مقاتل بعث وهو ابن مائة سنة وقيل وهو ابن خمسين سنة وقيل وهو ابن مائتين وخمسين سنة ومكث يدعو قومه تسعمائة وخمسين سنة وعاش بعد الطوفان مائتين وخمسين سنة ﴿ إنى لكم نذير﴾ بالكسر على إرادة القول أى فقال أو قائلا وقرأ ابن كثير وأبو عمرو

والكسائي بالفتح على إضمار حرف الجر أي أرسلناه ملتبسا بذلك الكلام وهو إني لكم نذير بالكسر فلما اتصل به الجار فتح كما فتح في كأن والمعنى على الكسر وهو قولك إن زيدا كالأسد واقتصر على ذكر كونه عليه الصلاة والسلام نذيراً لا لأن دعوته عليه الصلاة والسلام كانت بطريق الإنذار فقط ألا يرى الى قوله تعالى فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا يرسل السماء مدرارا الخ بل لأنهم لم يغتنموا مغانم إبشاره عليه الصلاة والسلام ﴿مبين﴾ أبين لكم موجبات العذاب ووجه الخلاص منه لأن الإنذار إعلام المحذور لا لمجرد التخويف والإزعاج بل للحذر منه فيتعلق صفته بكلا وصفيه ﴿ألا تعبدوا إلا الله﴾ أي بألا تعبدوا على أن أن مصدرية والباء متعلقة بأرسلنا ولا ناهية أي أرسلناه ملتبسا بنهيهم عن الشرك إلا أنه وسط بينهما بيان بعض أوصافه وأحواله عليه الصلاة والسلام وهو كونه نذيرا مبينا ليكون أدخل في القبول ولم يفعل ذلك في صدر السورة لئلا يفرق بين الكتاب ومضمونه بما ليس من أوصافه وأحواله أو مفسرة متعلقة به أو بنذير أو مفعول لمبين وعلى قراءة الفتح بدل من أني لكم نذير مبين وتعيين لما يوجب وقوع المحذور وتبيين لوجه الخلاص وهو عبادة الله تعالى وقوله تعالى :

﴿إني أخاف عليكم عذاب أليم﴾ تعليل لموجب النهي وتصريح بالمحذور وتحقيق للإنذار والمراد به يوم القيامة أو يوم الطوفان ووصفه بالأليم على الإسناد المجازي[1] للمبالغة كما في نهاره صائم وهذه المقالة وما في معناها مما قاله عليه الصلاة والسلام في أثناء الدعوة على ما عزي إليه في سائر السور لما لم تصدر عنه عليه الصلاة والسلام مرة واحدة بل كان يكررها عليهم في تلك المدة المتطاولة على ما نطق به قوله تعالى (رب إني دعوت قومي ليلا ونهارا) الآيات عطف على فعل الإرسال المقارن لها أو القول المقدر بعده جوابهم المتعرض

---

(١) في ١٠ : على وجه المجاز

لأحوال المؤمنين الذين اتبعوه عليه الصلاة والسلام بعد اللتيا والتي بالفاء التعقيبية فقيل ﴿ فقال الملأ الذين كفروا من قومه ﴾ أى الأشراف منهم من قولهم فلان ملىء بكذا أى مطيق له لأنهم ملئوا بكفايات الأمور أو لأنهم ملأوا القلوب هيبة والمجالس أبهة أو لأنهم ملئوا بالأحلام والآراء الصائبة ووصفهم بالكفر لذمهم والتسجيل عليهم بذلك من أول الأمر لا لأن بعض أشرافهم ليسوا بكفرة ﴿ ما نراك إلا بشرا مثلنا ﴾ مرادهم ما أنت إلا بشر مثلنا ليس فيك مزية تخصك من دوننا بما تدعيه من النبوة ولو كان كذلك لرأيناه لا أن ذلك محتمل ولكن لا نراه وكذا الحال فى قولهم ﴿ وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادى الرأى ﴾ فالفعلان من رؤية العين وقوله تعالى (إلا بشرا مثلنا) حال من المفعول وكذا قوله (اتبعك) فى موضع الحال منه إما على حاله أو بتقدير قد عند من يشترط ذلك ويجوز أن يكون من رؤية القلب وهو الظاهر فهما المفعول الثانى وتعلق الرأى فى الأول بالمثلية لا بالبشرية فقط ، وإنما لم يبتوا القول بذلك مع جزمهم به وإصرارهم عليه إراءة بأن ذلك لم يصدر عنهم جزافا بل بعد التأمل فى الأمر والتدبر فيه ولذلك اقتصروا على ذكر الظن فيما سيأتى وتعريضا من أول الأمر برأى المتبعين فكأن قولهم وما نراك جواب عما يرد عليهم من أنه عليه الصلاة والسلام ليس مثلهم حيث عاين دلائل نبوته واغتنم اتباعه من له عين تبصر وقلب يدرك فزعموا أن هؤلاء أراذلنا أى أخساؤنا وأدانينا جمع أرذل فإنه صار بالغلبة جاريا مجرى الاسم كالأكبر والأكابر أو جمع أرذل جمع رذل كالكالب وأكلب وكلب يعنون أنه لا عبرة باتباعهم لك إذ ليس لهم رزانة عقل ولا أصالة رأى وقد كان ذلك منهم فى بادى الرأى أى ظاهره من غير تعمق من مبدو أو فى أوله من البدء والياء مبدلة من الهمزة لانكسار ما قبلها وقد قرأه أبو عمرو بها وانتصابه على الظرفية على حذف المضاف أى وقت حدوث بادى الرأى والعامل فيه اتبعك وإنما استرذلوهم مع كونهم أولى الألباب الراجحة لفقرهم فإنهم لما لم يعلموا إلا ظاهر الحياة الدنيا كان الأشرف عندهم الأكثر منها حظا والأرذل من حرمها ولم يفقهوا أن ذلك لا يزن عند الله جناح

بعوضة وأن النعيم إنما هو نعيم الآخرة والأشرف[1] من فاز به والأرذل من حرمه نعوذ بالله تعالى من ذلك .

﴿ وما نرى لكم ﴾ أى لك ولمتبعيك فغلب المخاطب على الغائبين ﴿ علينا من فضل ﴾ يعنون أن اتباعهم لك لايدل على نبوتك ولا يجديهم فضيلة تستتبع اتباعنا لكم واقتصارهم ههنا على ذكر عدم رؤية الفضل بعد تصريحهم برذالتهم فيما سبق باعتبار حالهم السابق واللاحق ومرادهم أنهم كانوا أراذل قبل إتباعهم لك ولا نرى فيهم وفيك بعد الاتباع فضيلة علينا ﴿ بل نظنكم كاذبين ﴾ جميعاً لكون كلامكم واحداً ودعواكم واحدة أو إياك فى دعوى النبوة وإياهم فى تصديقك واقتصارهم على الظن احتراز منهم عن نسبتهم إلى المجازفة ومجاراة معه عليه الصلاة والسلام بطريق الإرادة على نهج الإنصاف ﴿ قال ياقوم أرأيتم ﴾ أى أخبرونى وفيه إيماء إلى ركاكة رأيهم المذكور ﴿ إن كنت على بينة ﴾ برهان ظاهر ﴿ من ربى ﴾ وشاهد يشهد بصحة دعواى ﴿ وآتانى رحمة من عنده ﴾ هى النبوة ويجوز أن تكون هى البينة نفسها جىء بها إيذانا بأنها مع كونها بينة من الله تعالى رحمة ونعمة عظيمة من عنده فوجه إفراد الضمير فى قوله تعالى ﴿ فعميت عليكم ﴾ حينئذ ظاهر وإن أريد بها النبوة وبالبينة البرهان الدال على صحتها فالإفراد لإرادة كل واحدة منهما أو لكون الضمير للبينة والاكتفاء بذلك لاستلزام خفائها خفاء النبوة أو لتقدير فعل آخر بعد البينة ومعنى عميت أخفيت وقرىء عميت ومعناه خفيت وحقيقته أن الحجة كما تجعل مبصرة وبصيرة تجعل عمياء لأن الأعمى لا يهتدى ولا يهدى غيره وفى قراءة أبى فعماها عليكم على الإسناد إلى الله عز وجل ﴿ أنلزمكموها ﴾ أى أنكرهكم على الاهتداء بها وهو جواب أرأيتم وساد مسد جواب الشرط وقرأ أبو عمرو بإخفاء حركة الميم وحيث اجتمع ضميران منصوبان وقد قدم أعرفهما جاز فى

---

(١) فى ١٠ : والشريف

الثانى الوصل والفصل فوصل كما فى قوله تعالى (فسيكفيكهم الله) ﴿ وأنتم لها كارهون ﴾ لا تختارونها ولا تتأملون فيها ومحصول الجواب أخبرونى إن كنت على حجة ظاهرة الدلالة على صحة دعواى إلا أنها خافية عليكم غير مسلمة عندكم أيمكننا أن نكرهكم على قبولها وأنتم معرضون عنها غير متدبرين فيها أى لا يكون ذلك وظاهره مشعر بصدوره عنه عليه الصلاة والسلام بطريق إظهار اليأس عن إلزامهم القعود عن محاجتهم كقوله تعالى (ولا ينفعكم نصحى) إلخ لكنه محمول على أن مراده عليه الصلاة والسلام ردهم عن الإعراض عنها وحثهم على التدبر فيها بصرف الإنكار إلى الإلزام حال كراهتهم لها لا إلى الإلزام مطلقاً هذا ويجوز أن يكون المراد بالبينة دليل العقل الذى هو ملاك الفضل وبحسبه يمتاز أفراد البشر بعضها من بعض وبه يناط الكرامة عند الله عز وجل والاجتباء للرسالة وبالكون عليها التمسك به والثبات عليه وبخفائها على الكفرة على أن الضمير للبينة عدم إدراكهم لكونه عليه الصلاة والسلام عليها وبالرحمة النبوة التى أنكروا اختصاصه عليه السلام بها بين ظهرانيهم والمعنى أنكم زعمتم أن عهد النبوة لا يناله إلا من له فضيلة على سائر الناس مستتبعة لاختصاصه به دونهم أخبرونى إن امتزت عنكم بزيادة مزية وحيازة فضيلة من ربى وآتانى بحسبها نبوة من عنده فخفيت عليكم تلك البينة ولم تصيبوها ولم تنالوها ولم تعلموا حيازتى لها وكونى عليها إلى الآن حتى زعمتم أنى مثلكم وهى متحققه فى نفسها أنلزمكم قبول نبوتى التابعة لها والحال أنكم كارهون لذلك فيكون الاستفهام للحمل على الإقرار وهو الأنسب بمقام المحاجة وحينئذ يكون كلامه عليه الصلاة والسلام جوابا عن شبههم التى أدرجوها فى خلال مقالهم من كونه عليه السلام بشرا قصارى أمره أن يكون مثلهم من غير فضل له عليهم وقطعا لشأفة آرائهم الركيكة .

﴿ ويا قوم لا أسألكم عليه ﴾ أى على ما قلته فى أثناء دعوتكم ﴿ مالا ﴾ تؤدونه إلى بعد إيمانكم واتباعكم لى فيكون ذلك أجرا لى فى مقابلة اهتدائكم

﴿ إن أجرى إلا على الله ﴾ الذى يثيبنى فى الآخرة وفى التعبير عنه حين نسب إليهم بالمال ما لا يخفى من المزية ﴿ وما أنا بطارد الذين آمنوا ﴾ جواب عما لوحوا به بقولهم (وما نراك أتبعك إلا الذين هم أراذلنا) من أنه لو اتبعه الأشراف لوافقوهم وأن اتباع الفقراء مانع لهم عن ذلك كما صرحوا به فى قولهم أنؤمن لك واتبعك الأرذلون فكان ذلك التماسا منهم لطردهم وتعليقا لإيمانهم به عليه الصلاة والسلام بذلك أنفة من الانتظام معهم فى سلك واحد ﴿ إنهم ملاقوا ربهم ﴾ تعليل لامتناعه عليه السلام عن طردهم أى إنهم فائزون فى الآخرة بلقاء الله عز وجل كأنه قيل لا أطردهم ولا أبعدهم عن مجلسى لأنهم مقربون فى حضرة القدس والتعرض لوصف الربوبية لتربية وجوب رعايتهم وتحتم الامتناع عن طردهم أو مصدقون فى الدنيا بلقاء ربهم موقنون به عالمون أنهم ملاقوه لا محالة فكيف أطردهم وحمله على معنى أنهم يلاقونه فيجازيهم على ما فى قلوبهم من إيمان صحيح ثابت كما ظهر لى أو على خلاف ذلك مما تعرفونهم به من بناء إيمانهم على بادى الرأى من غير نظر وتفكر وما على أن أشق عن قلوبهم وأتعرف سر ذلك منهم حتى أطردهم إن كان الأمر كما تزعمون يأباه الجزم بترتب غضب الله عز وجل على طردهم كما سيأتى وأيضاً فهم إنما قالوا إن اتباعهم لك إنما هو بحسب بادى الرأى بلا تأمل وتفكر وهذا لا يكاد يصلح مدارا للطرد فى الدنيا ولا للمؤاخذة فى الآخرة غايته أن لا يكونوا فى مرتبة الموقنين وادعاء أن بناء الإيمان على ظاهر الرأى يؤدى إلى الرجوع عنه عند التأمل فكأنهم قالوا إنهم اتبعوك بلا تأمل فلا يثبتون على دينك بل يرتدون عنه تعسف لا يخفى.

﴿ ولكنى أراكم قوما تجهلون ﴾ بكل ما ينبغى أن يعلم ويدخل فيه جهلهم بلقاء الله عز وجل وبمنزلتهم عنده وباستيجاب طردهم لغضب الله كما سيأتى وبركاكة رأيهم فى التماس ذلك وتوقيف إيمانهم عليه أنفة عن الانتظام معهم فى سلك واحد وزعما منهم أن الرذالة بالفقر والشرف بالغنى وإيثار صيغة الفعل

للدلالة على التجدد والاستمرار أو تتسافهون على المؤمنين بنسبتهم إلى الخساسة ﴿ وياقوم من ينصرنى من الله ﴾ يدفع حلول سخطه عنى ﴿ إن طردتهم ﴾ فإن ذلك أمر لا مرد له لكون الطرد ظلما موجبا لحلول السخط قطعا وإنما لم يصرح به إشعارا بأنه غنى عن البيان لا سيما غب ما قدم ما يلوح به من أحوالهم. فكأنه قيل من يدفع عنى غضب الله تعالى إن طردتهم وهم بتلك المثابة من الكرامة والزلفى كما ينبىء عنه قوله تعالى ﴿ أفلا تذكرون ﴾ أى أتستمرون على ما أنتم عليه من الجهل المذكور فلا تتذكرون ما ذكر من حالهم حتى تعرفوا أن ما تأتونه بمعزل عن الصواب ولكون هذه العلة مستقلة بوجه مخصوص ظاهر الدلالة على وجوب الامتناع عن الطرد أفردت عن التعليل السابق وصدرت بياقوم ﴿ ولا أقول لكم ﴾ حين أدعى النبوة ﴿ عندى خزائن الله ﴾ أى رزقه وأمواله حتى تستدلوا بعدمها على كذبى بقولكم (وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين) فإن النبوة أعز من أن تنال بأسباب دنيوية ودعواها بمعزل عن إدعاء المال والجاه ﴿ ولا أعلم الغيب ﴾ أى لا أدعى فى قولى (إنى لكم نذير مبين إنى أخاف عليكم عذاب يوم أليم) علم الغيب حتى تسارعوا إلى الإنكار والاستبعاد.

﴿ ولا أقول إنى ملك ﴾ حتى تقولوا (ما نراك إلا بشراً مثلنا) فإن البشرية ليست من موانع النبوة بل من مباديها يعنى أنكم اتخذتم فقدان هذه الأمور الثلاثة ذريعة إلى تكذيبى والحال أنى لا أدعى شيئا من ذلك ولا الذى أدعيه يتعلق بشىء منها وإنما يتعلق بالفضائل النفسانية التى بها تتفاوت مقادير البشر ﴿ ولا أقول ﴾ مساعدة لكم كما تقولون ﴿ للذين تزدرى أعينكم ﴾ أى تقتحمهم وتحتقرهم من زراه إذا عابه وإسناد الازدراء إلى أعينهم بالنظر إلى قولهم (وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا) وإما للإشعار بأن ذلك لقصور نظرهم ولو تدبروا فى شأنهم ما فعلوا ذلك أى لا أقول فى شأن الذين استرذلتموهم لفقرهم من المؤمنين ﴿ لن يؤتيهم الله خيرا ﴾ فى الدنيا أو فى

الآخرة فعسى الله أن يؤتيهم خيرى الدارين إن قلت هذا القول ليس مما تستنكره الكفرة ولا مما يتوهمون صدوره عنه عليه السلام أصالة أو استتباعا كادعاء الملكية وعلم الغيب وحيازة الخزائن مما نفاه عليه الصلاة والسلام عن نفسه بطريق التبرؤ والتنزه عنه فمن أى وجه عطف نفيه على نفيها قلت من جهة أن كلا النفيين رد لقياسهم الباطل الذى تمسكوا به فيما سلف فإنهم زعموا أن النبوة تستتبع الأمور المذكورة وأنها لا تتسنى ممن ليس على تلك الصفات فإن العثور على مكانها واغتنام مغانمها ليس من دأب الأراذل فأجاب عليه الصلاة والسلام بنفى ذلك جميعا فكأنه قال لا أقول وجود تلك الأشياء من مواجب النبوة ولا عدم المال والجاه من موانع الخير ﴿ الله أعلم بما فى أنفسهم ﴾ من الإيمان وإنما اقتصر على نفى القول المذكور من أنه عليه الصلاة والسلام جازم بأن الله سبحانه سيؤتيهم خيرا عظيما فى الدارين وأنهم على يقين راسخ فى الإيمان جريا على سنن الإنصاف من القوم واكتفاء بمخالفة كلامهم وإرشاداً لهم إلى مسلك الهداية بأن اللائق لكل أحد أن لا يبت القول إلا فيما يعلمه يقينا ويبنى أموره على الشواهد الظاهرة ولا يجازف فيما ليس فيه على بينة ظاهرة ﴿ إنى إذاً ﴾ أى إذا قلت ذلك ﴿ لمن الظالمين ﴾ لهم بحط مرتبتهم ونقص حقوقهم أو من الظالمين لأنفسهم بذلك فإن وباله راجع إلى أنفسهم وفيه تعريض بأنهم ظالمون فى ازدرائهم واسترذالهم ، وقيل إذا قلت شيئا مما ذكر من ادعاء الملكية وعلم الغيب وحيازة الخزائن وهو بعيد لأن تبعة تلك الأقوال مغنية عن التعليل بلزوم الانتظام فى زمرة الظالمين ﴿ قالوا يانوح قد جادلتنا ﴾ خاصمتنا ﴿ فأكثرت جدالنا ﴾ أى أطلته أو أتيته بأنواعه[1] فإن إكثار الجدال يتحقق بعد وقوع أصله فلذلك عطف عليه بالفاء أو أردت ذلك فأكثرته كما فى قوله تعالى (فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله) ولما حجهم عليه الصلاة والسلام وأبرزلهم بينات واضحة المدلول وحججا تتلقاها العقول بالقبول

---

(١) فى ٤٣٠ أو نوعته

وألقمهم الحجر برد شبههم الباطلة ضاقت عليهم الحيل وعيت بهم العلل وقالوا ﴿ فائتنا بما تعدنا ﴾ من العذاب المعجل أو العذاب الذى أشير إليه فى قوله : (إنى أخاف عليكم عذاب يوم أليم) على تقدير أن لا يكون المراد باليوم يوم القيامة ﴿ إن كنت من الصادقين ﴾ فيما تقول ﴿ قال إنما يأتيكم به الله إن شاء ﴾ يعنى أن ذلك ليس موكولا إلى ولا هو مما يدخل تحت قدرتى وإنما يتولاه الله الذى كفرتم به وعصيتموه يأتيكم به عاجلا أو آجلا إن تعلق به مشيئته التابعة للحكمة ، وفيه ما لا يخفى من تهويل الموعود فكأنه قيل الإتيان به أمر خارج عن دائرة القوى البشرية وإنما يفعله الله عز وجل .

﴿ وما أنتم بمعجزين ﴾ بالهرب أو بالمدافعة كما تدافعوننى فى الكلام ﴿ ولا ينفعكم نصحى ﴾ النصح كلمة جامعة لكل ما يدور عليه الخير من قول أو فعل وحقيقته إمحاض إرادة الخير والدلالة عليه ونقيضه الغش وقيل هو إعلام موقع الغى ليتقى وموضع الرشد ليقتفى ﴿ إن أردت أن أنصح لكم ﴾ شرط حذف جوابه لدلالة ما سبق عليه والتقدير إن أردت أن أنصح لكم لا ينفعكم نصحى وهذه الجملة دليل على ما حذف من جواب قوله تعالى ﴿ إن كان الله يريد أن يغويكم ﴾ والتقدير إن كان يريد أن يغويكم فإن أردت أن أنصح لكم لا ينفعكم نصحى. هذا على ما ذهب إليه البصريون من عدم تقديم الجزاء على الشرط وأما على ما ذهب إليه الكوفيون من جوازه فقوله عز وعلا (ولا ينفعكم نصحى) جزاء للشرط الأول والجملة جزاء للشرط الثانى وعلى التقديرين فالجزاء متعلق بالشرط الأول وتعلقه به معلق بالشرط الثانى وهذا الكلام متعلق بقولهم قد جادلتنا فأكثرت جدالنا صدر عنه عليه الصلاة والسلام إظهارا للعجز عن إلزامهم بالحجج والبينات لتماديهم فى العناد وإيذانا بأن ما سبق منه ليس بطريق الجدال والخصام بل بطريق النصيحة لهم والشفقة عليهم وبأنه لم يأل جهدا فى إرشادهم إلى الحق وهدايتهم إلى سبيله المستبين وإمحاض النصح لهم ولكن لا ينفعهم ذلك عند إرادة الله تعالى لإغوائهم وتقييد عدم نفع النصح

بإرادته مع أنه محقق لا محالة للإيذان بأن ذلك النصح منه مقارن للإرادة والاهتمام به ولتحقيق المقابلة بين ذلك وبين ما وقع بإزائه من إرادته تعالى لإغوائهم وإنما اقتصر فى ذلك على مجرد إرادة الإغواء دون نفسه حيث لم يقل إن كان الله يغويكم مبالغة فى بيان غلبة جنابه عز وعلا حيث دل ذلك على أن نصحه المقارن للاهتمام به لا يجديهم عند مجرد إرادة الله سبحانه لإغوائهم فكيف عند تحقيق ذلك وخلقه فيهم وزيادة كان للإشعار بتقدم إرادته تعالى زمانا كتقدمها رتبة وللدلالة على تجددها واستمرارها وإنما قدم على هذا الكلام ما يتعلق بقولهم فائتنا بما تعدنا من قوله تعالى (إنما يأتيكم به الله إن شاء) رداً عليهم من أول الأمر وتسجيلا عليهم بحلول العذاب مع ما فيه من اتصال الجواب بالسؤال وفيه دليل على أن إرادته تعالى يصح تعلقها بالإغواء وأن خلاف مراده غير واقع ، وقيل معنى أن يغويكم أن يهلككم من غوى الفصيل غوى إذا بشم وهلك ﴿ هو ربكم ﴾ خالقكم ومالك أمركم ﴿ وإليه ترجعون ﴾ فيجازيكم على أعمالكم لا محالة ﴿ أم يقولون افتراه ﴾ قال ابن عباس رضى الله عنهما يعنى نوحا عليه الصلاة والسلام ، ومعناه بل أيقول قوم نوح إن نوحا افترى ما جاء به مسندا (إياه)[1] إلى الله عز وجل ﴿ وقل ﴾ يا نوح ﴿ إن افتريته ﴾ بالفرض البحت ﴿ فعلى إجرامى ﴾ إثمى ووبال إجرامى وهو كسب الذنب وقرىء بلفظ الجمع وينصره أن فسره الأولون بآثامى ﴿ وأنا برىء مما تجرمون ﴾ من إجرامكم فى إسناد الافتراء إلى فلا وجه لإعراضكم عنى ومعاداتكم لى وقال مقاتل يعنى محمدا عليه الصلاة والسلام ومعناه بل أيقول مشركو مكة افترى رسول الله صلى الله عليه خبر نوح فكأنه انما جىء به فى تضاعيف القصة عند سوق طرف منها تحقيقا لحقيتها وتأكيدا لوقوعها وتشويقا للسامعين الى استماعها لا سيما وقد قص منها طائفة متعلقة بما جرى بينه عليه السلام وبين قومه من المحاجة وبقيت طائفة مستقلة متعلقة بعذابهم .

---

(١) سقطت من ط .

﴿ وأوحى إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك ﴾ أى المصرين على الكفر وهو إقناط له عليه السلام من إيمانهم وإعلام لكونه كالمحال الذى لا يصح توقعه ﴿ إلا من قد آمن ﴾ إلا من قد وجد منه ما كان يتوقع من إيمانه وهذا الاستثناء على طريقة قوله تعالى إلاما قد سلف ﴿فلا تبتئس بما كانوا يفعلون﴾ أى لا تحزن حزن بائس مستكين ولا تغتم بما كانوا يتعاطونه من التكذيب والاستهزاء والإيذاء فى هذه المدة الطويلة فقد انتهى أفعالهم وحان وقت الانتقام منهم ﴿ واصنع الفلك ﴾ ملتبسا ﴿ بأعيننا ﴾ أى بحفظنا وكلاءتنا كأن معه من الله عز وجل حفاظا وحراسا يكلؤنه بأعينهم من التعدى من الكفرة ومن الزيغ فى الصنعة ﴿ ووحينا ﴾ اليك كيف تصنعها وتعليمنا وإلهامنا . عن ابن عباس رضى الله عنهما لم يعلم كيف صنعته الفلك فأوحى الله تعالى اليه أن يصنعها مثل جؤجؤ[1] الطائر والأمر للوجوب إذ لا سبيل إلى صيانة الروح من الغرق إلا به فيجب كوجوبها واللام إما للعهد بان يحمل على أن هذا مسبوق بوحى الله تعالى إليه عليه السلام أنه سيهلكهم بالغرق وينجيه ومن معه بشىء سيصنعه بأمره تعالى ووحيه من شأنه كيت وكيت واسمه كذا وأما للجنس . قيل صنعها عليه الصلاة والسلام فى سنتين وقيل فى أربعمائة سنة وكانت من خشب الساج وجعلت ثلاثة بطون حمل فى البطن الأول الوحوش والسباع والهوام ، وفى البطن الأوسط الدواب والأنعام ، وفى البطن الأعلى جنس البشر . هو ومن معه مع ما يحتاجون إليه من الزاد ، وحمل معه جسد آدم عليه الصلاة والسلام وقيل جعل فى الأول الدواب والوحوش وفى الثانى الإنس وفى الأعلى الطير قيل كان طولها ثلثمائة ذراع وعرضها خمسين ذراعا وسمكها ثلاثين ذراعا وقال الحسن كان طولها ألفا ومائتى ذراع وعرضها ستمائة ذراع وقيل إن الحواريين قالوا لعيسى عليه الصلاة والسلام لو بعث لنا رجلا شهد السفينة يحدثنا عنها فانطلق بهم حتى انتهى إلى كثيب من تراب فأخذ كفا من ذلك التراب فقال

(١) أى : مقدم الطائر .

أتدرون من هذا قالوا الله ورسوله أعلم قال هذا كعب بن حام قال فضرب بعصاه فقال قم بإذن الله فإذا هو قائم ينفض التراب عن رأسه وقد شاب فقال له عيسى عليه الصلاة والسلام أهكذا هلكت قال لا مت وأنا شاب ولكنى ظننت أنها الساعة فمن ثمة شبت فقال حدثنا عن سفينة نوح قال كان طولها ألفا ومائتى ذراع وعرضها ستمائة ذراع وكانت ثلاث طبقات طبقة للدواب والوحش وطبقة للإنس وطبقة للطير ثم قال عد بإذن الله تعالى كما كنت فعاد ترابا .

﴿ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا﴾ أى لا تراجعنى فيهم ولا تدعنى باستدفاع العذاب عنهم وفيه من المبالغة ما ليس فيما لو قيل ولا تدعنى فيهم وحيث كان فيه ما يلوح بالسببية أكد التعليل فقيل ﴿إنهم مغرقون﴾ أى محكوم عليهم بالإغراق قد مضى به القضاء وجف القلم فلا سبيل إلى كفه ولزمتهم الحجة فلم يبق إلا أن يجعلوا عبرة للمعتبرين ومثلا للآخرين .

﴿ ويصنع الفلك ﴾ حكاية حال ماضية لاستحضار صورتها العجيبة وقيل تقديره وأخذ يصنع الفلك أو أقبل يصنعها فاقتصر على يصنع وأيا ما كان ففيه ملاءمة للاستمرار المفهوم من الجملة الواقعة حالا من ضميره أعنى قوله تعالى ﴿ وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه ﴾ استهزؤا به لعمله السفينة إما لأنهم ما كانوا يعرفونها ولا كيفية استعمالها والانتفاع بها فتعجبوا من ذلك وسخروا منه، وإما لأنه كان يصنعها فى برية بهماء فى أبعد موضع من الماء وفى وقت عزته عزة شديدة وكانوا يتضاحكون ويقولون يانوح صرت نجارا بعد ما كنت نبيا وقيل لأنه عليه الصلاة والسلام كان ينذرهم الغرق فلما طال مكثه فيهم ولم يشاهدوا منه عينا ولا أثرا عدوه من باب المحال ثم لما رأوا اشتغاله بأسباب الخلاص من ذلك فعلوا ما فعلوا ومدار الجميع إنكار أن يكون لعمله عليه الصلاة والسلام عاقبة حميدة مع ما فيه من تحمل المشاق العظيمة التى لا تكاد تطاق واستجهاله عليه السلام فى ذلك ﴿ قال إن تسخروا منا ﴾ مستجهلين لنا فيما نحن فيه ﴿فإنا نسخر منكم﴾ أى نستجهلكم فيما أنتم عليه وإطلاق السخرية

عليه للمشاكلة وجمع الضمير فى منا إما لأن سخريتهم منه عليه الصلاة والسلام سخرية من المؤمنين أيضاً أو لأنهم كانوا يسخرون منهم أيضاً إلا أنه اكتفى بذكر سخريتهم منه عليه الصلاة والسلام ولذلك تعرض الجميع للمجازاة فى قوله تعالى (فإنا نسخر منكم) الخ فتكافأ الكلام من الجانبين وتعليق استجهاله عليه الصلاة والسلام إياهم بما فعلوا من السخرية باعتبار إظهاره ومشافهته عليه الصلاة إياهم بذلك وإلا فعده عليه الصلاة والسلام إياهم جاهلين فيما يأتون ويذرون أمر مطرد لا تعلق له بسخريتهم منهم لكنه عليه الصلاة والسلام لم يكن يتصدى لإظهاره جريا على نهج الأخلاق الحميدة وإنما أظهره جزاء بما صنعوا بعد اللتيا والتى ، فإن سخريتهم كانت مستمرة ومتجددة حسب تجدد مرورهم عليه ولم يكن يجيبهم فى كل مرة وإلا لقيل ويقول إن تسخر وامنا الخ بل إنما أجابهم بعد بلوغ أذاهم الغاية كما يؤذن به الاستئناف فكأن سائلا سأل فقال فما صنع نوح عند بلوغهم منه هذا المبلغ فقيل قال إن تسخروا منا أى إن تنسبونا فيما نحن بصدده من التأهب والمباشرة لأسباب الخلاص من العذاب إلى الجهل وتسخروا منا لأجله فإنا ننسبكم إليه فيما أنتم فيه من الإعراض عن استدفاعه بالإيمان والطاعة ومن الاستمرار على الكفر والمعاصى والتعرض لأسباب حلول سخط الله تعالى التى من جملتها استجهالكم إيانا وسخريتكم منا .

والتشبيه فى قوله تعالى : ﴿ كما تسخرون ﴾ إما فى مجرد التحقق والوقوع أو فى التجدد والتكرر حسبما صدر عن ملأ غب ملأ لا فى الكيفيات والأحوال التى لا تليق بشأن النبى عليه الصلاة والسلام فكلا الأمرين واقع فى الحال وقيل نسخر منكم فى المستقبل سخرية مثل سخريتكم إذا وقع عليكم الغرق فى الدنيا والحرق فى الآخرة ولعل مراده نعاملكم معاملة من يفعل ذلك لأن نفس السخرية مما لا يكاد يليق بمنصب النبوة ومع ذلك لاسداد له لأن حالهم إذ ذاك ليس مما يلائمه السخرية أو ما يجرى مجراها فتأمل .

﴿فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه﴾ وهو عذاب الغرق ﴿ويحل عليه﴾ حلول الدين المؤجل ﴿عذاب مقيم﴾ هو عذاب النار الدائم وهو تهديد بليغ ومن عبارة عنهم وهى إما استفهامية فى حيز الرفع أو موصولة فى محل النصب بتعلمون وما فى حيزها ساد مسد مفعولين أو مفعول واحد إن جعل العلم بمعنى المعرفة ولما كان مدار سخريتهم استجهالهم إياه عليه الصلاة والسلام فى مكابدة المشاق الفادحة لدفع مالا يكاد يدخل تحت الصحة على زعمهم من الطوفان ومقاساة الشدائد فى بناء السفينة وكانوا يعدونه عذابا قيل بعد استجهالهم فسوف تعلمون من يأتيه العذاب يعنى أن ما أباشره ليس فيه عذاب لاحق بى فسوف تعلمون من المعذب ولقد أصاب العلم بعد استجهالهم محزه ووصف العذاب بالإخزاء لما فى الاستهزاء والسخرية من لحوق الخزى والعار عادة والتعرض لحلول العذاب المقيم للمبالغة فى التهديد وتخصصه بالمؤجل وإيراد الأول بالإتيان فى غاية الجزالة ﴿حتى إذا جاء أمرنا﴾ حتى هى التى يبتدأ بها الكلام دخلت على الجملة الشرطية وهى مع ذلك غاية لقوله ويصنع وما بينهما حال من الضمير فيه وسخروا منه جواب لكلما وقال استئناف على تقدير سؤال سائل كما ذكرناه وقيل هو الجواب وسخروا منه بدل من مر أوصفة لملأ وقد عرفت أن الحق هو الأول لأن المقصود بيان تناهيهم فى إيذائه عليه الصلاة والسلام وتحمله لأذيتهم لا مسارعته عليه الصلاة والسلام إلى جوابهم كلما وقع منهم ما يؤذيه من الكلام ﴿وفار التنور﴾ نبع منه الماء وارتفع بشدة كما تفور القدر بغليانها والتنور تنور الخبز وهو قول الجمهور. روى أنه قيل لنوح عليه الصلاة والسلام إذا رأيت الماء يفور من التنور فاركب ومن معك فى السفينة فلما نبع الماء أخبرته امرأته فركب، وقيل كان تنور آدم عليه الصلاة والسلام وكان من حجارة فصار إلى نوح وإنما نبع منه وهو أبعد شىء من الماء على خرق العادة وكان فى الكوفة فى موضع مسجدها عن يمين الداخل مما يلى باب كندة، وكان عمل السفينة فى ذلك الموضع أو فى الهند

أو فى موضع بالشام يقال له عين وردة[1] وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما وعكرمة والزهرى أن التنور وجه الأرض وعن قتادة أشرف موضع فى الأرض أى أعلاه وعن على رضى الله تعالى عنه فار التنور طلع الفجر ﴿ قلنا احمل فيها ﴾ أى فى السفينة وهو جواب إذا ﴿ من كل ﴾ أى من كل نوع لابد منه فى الأرض ﴿ زوجين ﴾ الزوج ماله مشاكل من نوعه فالذكر زوج للأنثى كما هى زوج له وقد يطلق على مجموعهما فيقابل الفرد ولإزالة ذلك الاحتمال قيل ﴿ اثنين ﴾ كل منهما زوج للآخر وقرىء على الإضافة وإنما قدم ذلك على أهله وسائر المؤمنين لكونه عريقا فيما أمر به من الحمل لأنه يحتاج إلى مزاولة الأعمال منه عليه الصلاة والسلام فى تمييز بعضه من بعض وتعيين الأزواج فإنه روى أنه عليه الصلاة والسلام قال يارب كيف أحمل من كل زوجين اثنين فحشر الله تعالى إليه السباع والطير وغيرهما فجعل يضرب بيديه فى كل جنس فيقع الذكر فى يده اليمنى والأنثى فى اليسرى فيجعلهما فى السفينة وأما البشر فإنما يدخل الفلك باختياره فيخف فيه معنى الحمل أو لأنها إنما تحمل بمباشرة البشر وهم إنما يدخلونها بعد حملهم إياها .

﴿ وأهلك ﴾ عطف على زوجين أو على اثنين والمراد امرأته وبنوه ونساؤهم ﴿ إلا من سبق عليه القول ﴾ بأنه من المغرقين بسبب ظلمهم فى قوله تعالى (ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا) الآية والمراد به ابنه كنعان وأمه واعلة فإنهما كانا كافرين والاستثناء منقطع إن أريد بالأهل الأهل إيمانا وهو الظاهر كما ستعرفه أو متصل إن أريد به الأهل قرابة ويكفى فى صحة الاستثناء المعلومية عند المراجعة إلى أحوالهم والتفحص عن أعمالهم وجىء بعلى لكون السابق ضارا لهم كما جىء باللام فيما هو نافع لهم من قوله عز وجل ﴿ ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين ﴾ وقوله ﴿ إن الذين سبقت لهم منا الحسنى ﴾

(١) قال اليعقوبى فى تاريخه : كانت صنعة السفينة بين مكة وجدة .

﴿ ومن آمن ﴾ من غيرهم وإفراد الأهل منهم للاستثناء المذكور وإيثار صيغة الإفراد فى آمن محافظة على لفظ من للإيذان بقلتهم كما أعرب عنه قوله عز قائلا ﴿ وما آمن معه إلا قليل ﴾ قيل كانوا ثمانية نوح عليه الصلاة والسلام وأهله وبنوه الثلاثة ونساؤهم وعن ابن إسحاق كانوا عشرة خمسة رجال وخمس نسوة وعنه أيضاً أنهم كانوا عشرة سوى نسائهم وقيل كانوا اثنين وسبعين رجلا وامرأة وأولاد نوح سام وحام ويافث ونساؤهم فالجميع ثمانية وسبعون نصفهم رجال ونصفهم نساء ، واعتبار المعية فى إيمانهم للإيماء إلى المعية فى مقر الأمان والنجاة ﴿ وقال ﴾ أى نوح عليه الصلاة والسلام لمن معه من المؤمنين كما ينبىء عنه قوله تعالى : (إن ربى لغفور رحيم) ولو رجع الضمير إلى الله تعالى لناسب أن يقال إن ربكم ولعل ذلك بعد إدخال ما أمر بحمله فى الفلك من الأزواج كأنه قيل فحمل الأزواج أو أدخلها فى الفلك وقال للمؤمنين ﴿ اركبوا فيها ﴾ كما سيأتى مثله فى قوله تعالى (وهى تجرى بهم) والركوب العلو على شىء متحرك ويتعدى بنفسه واستعماله ههنا بكلمة فى ليس لأن المأمور به كونهم فى جوفها لا فوقها كما ظن فإن أظهر الروايات أنه عليه السلام جعل الوحوش ونظائرها فى البطن الأسفل والأنعام فى الأوسط وركب هو ومن معه فى الأعلى بل لرعاية جانب المحلية والمكانية فى الفلك والسر فيه أن معنى الركوب العلو على شىء له حركة إما إرادية كالحيوان أو قسرية كالسفينة والعجلة ونحوهما فإذا استعمل فى الأول يوفر له حظ الأصل فيقال ركبت الفرس وعليه قوله عز من قائل (والخيل والبغال والحمير لتركبوها) وإن استعمل فى الثانى يلوح بمحلية المفعول بكلمة فى فيقال ركبت فى السفينة وعليه الآية الكريمة وقوله عز قائلا (فإذا ركبوا فى الفلك) وقوله تعالى (فانطلقا حتى إذا ركبا فى السفينة خرقها) ﴿ بسم الله ﴾ متعلق باركبوا حال من فاعله أى اركبوا مسمين الله تعالى : أو قائلين بسم الله ﴿ مجريها ومرساها ﴾ نصب على الظرفية أى وقت إجرائها[1]

(١) فى ط : جريها .

وإرسائها على أنهما اسما زمان أو مصدران كالإجراء والإرساء بحذف الوقت كقولك آتيك خفوق النجم أو اسما مكان انتصبا بما فى بسم الله من معنى الفعل أو إرادة القول ويجوز أن يكون بسم الله مجريها ومرساها مستقلة من مبتدأ وخبر فى موضع الحال من ضمير الفلك أى اركبوا فيها مجراة ومرساة باسم الله بمعنى التقدير كقوله تعالى (ادخلوها خالدين) أو جملة مقتضبة على أن نوحا أمرهم بالركوب فيها ثم أخبرهم بأن إجراءها وإرساءها باسم الله تعالى فيكونان كلامين له عليه الصلاة والسلام قيل كان عليه السلام إذا أراد أن يجريها يقول بسم الله فتجرى وإذا أراد أن يرسيها يقول بسم الله فترسو ويجوز أن يكون الاسم مقحما كما فى قوله :

* إلى الحول ثم اسم السلام عليكما *

ويراد بالله إجراؤها وإرساؤها أى بقدرته وأمره وقرىء مجريها على صيغة الفاعل مجرورى المحل صفتين لله عزوجل ومجراها ومرساها بفتح الميم مصدرين أو زمانين أو مكانين من جرى ورسا ﴿ إن ربى لغفور ﴾ للذنوب والخطايا ﴿ رحيم ﴾ بعباده ولذلك نجاكم من هذه الطامة والداهية العامة ولولا ذلك لما فعله وفيه دلالة على أن نجاتهم ليست بسبب استحقاقهم لها بل بمحض فضل الله سبحانه وغفرانه ورحمته على ما عليه رأى أهل السنة ، ﴿وهى تجرى بهم﴾ متعلق بمحذوف دل عليه الأمر بالركوب أى فركبوا فيها مسمين وهى تجرى ملتبسة بهم ﴿ فى موج كالجبال ﴾ وهو ما ارتفع من الماء عند اضطرابه كل موجة من ذلك كجبل فى ارتفاعها وتراكمها وما قيل من أن الماء طبق ما بين السماء والأرض وكانت السفينة تجرى فى جوفه كالحوت فغير ثابت والمشهور أنه علا شوامخ الجبال خمسة عشر ذراعا أو أربعين ذراعا ولئن صح ذلك فهذا الجريان إنما هو قبل أن يتفاقم الخطب كما يدل عليه قوله تعالى :

﴿ ونادى نوح ابنه ﴾ فإن ذلك إنما يتصور قبل أن تنقطع العلاقة بين

السفينة والبر إذ حينئذ يمكن جريان ما جرى بين نوح عليه الصلاة والسلام وبين ابنه من المفاوضة بالاستدعاء إلى السفينة والجواب باعتصام بالجبل وقرىء ابنها وابنه بحذف الألف على أن الضمير لامرأته وكان ربيبه وما يقال من أنه كان لغير رشدة لقوله تعالى (فخانتاهما) فارتكاب عظيمة لا يقادر قدرها فإن جناب الأنبياء صلوات الله تعالى عليهم وسلامه أرفع من أن يشار إليه بأصبع الطعن وإنما المراد بالخيانة الخيانة فى الدين وقرىء ابناه على الندبة ولكونها حكاية سوغ حذف حرفها وأنت خبير بأنه لا يلائمه الاستدعاء إلى السفينة فإنه صريح فى أنه لم يقع فى حياته يأس بعد ﴿ وكان فى معزل ﴾ أى فى مكان عزل فيه نفسه عن أبيه وإخوته وقومه بحيث لم يتناوله الخطاب باركبوا واحتاج إلى النداء المذكور وقيل فى معزل عن الكفار قد انفرد عنهم وظن نوح أنه يريد مفارقتهم ولذلك دعاه إلى السفينة وقيل كان ينافق أباه فظن أنه مؤمن وقيل كان يعلم أنه كافر إلى ذلك الوقت لكنه عليه الصلاة والسلام ظن أنه عند مشاهدة تلك الأهوال ينزجر عما كان عليه ويقبل الإيمان وقيل لم يكن الذى تقدم من قوله تعالى (إلا من سبق عليه القول) نصاً فى كون ابنه داخلا تحته بل كان كالمجمل فحملته شفقة الأبوة على ذلك ﴿ يابنى ﴾ بفتح الياء اقتصارا عليه من الألف المبدلة من ياء الإضافة فى قولك يابنيا وقرىء بكسر الياء اقتصارا عليه من ياء الإضافة أو سقطت الياء والألف لالتقاء الساكنين لأن الراء بعدهما ساكنة ﴿ اركب معنا ﴾ قرأ أبو عمرو والكسائى وحفص بإدغام الباء فى الميم لتقاربهما فى المخرج وإنما أطلق الركوب عن ذكر الفلك لتعينها وللإيذان بضيق المقام حيث حال الجريض دون القريض مع إغناء المعية عن ذلك ﴿ ولا تكن مع الكافرين ﴾ أى فى المكان وهو وجه الأرض خارج الفلك لا فى الدين وإن كان ذلك مما يوجبه كما يوجبه ركوبه معه عليه الصلاة والسلام كونه معه فى الإيمان لأنه عليه الصلاة والسلام بصدد التحذير عن الهلكة فلا يلائمه النهى عن الكفر .

﴿ قال سآوى إلى جبل ﴾ من الجبال ﴿ يعصمنى ﴾ بارتفاعه ﴿ من الماء ﴾ زعما منه أن ذلك كسائر المياه فى أزمنة السيول المعتادة التى ربما يتقى منها بالصعود إلى الربا وأنى له ذلك وقد بلغ السيل الزبى وجهلا بأن ذلك إنما كان لإهلاك الكفرة وألا محيص من ذلك الفكر المحال وكان مقتضى الظاهر أن يجيب بما ينطبق عليه كلامه ويتعرض لنفى ما أثبته للجبل من كونه عاصما له من الماء بأن يقول لا يعصمك منه مفيدا لنفى وصف العصمة عنه فقط من غير تعرض لنفيه عن غيره ولا لنفى الموصوف (بالعصمة)[1] أصلا لكنه عليه الصلاة والسلام حيث ﴿ قال لا عاصم اليوم من أمر الله ﴾ سلك طريقة نفى الجنس المنتظم لنفى جميع أفراد العاصم ذاتا وصفة كما فى قولهم ليس فيه داع ولا مجيب أى أحد من الناس للمبالغة فى نفى كون الجبل عاصما بالوجهين المذكورين وزاد اليوم للتنبيه على أنه ليس كسائر الأيام التى تقع فيها الوقائع وتلم فيها الملمات المعتادة التى ربما يتخلص من ذلك بالالتجاء إلى بعض الأسباب العادية وعبر عن الماء فى محل إضماره بأمر الله أى عذابه الذى أشير إليه حيث قيل حتى إذا جاء أمرنا تفخيما لشأنه وتهويلا لأمره وتنبيها لابنه على خطئه فى تسميته ماء ويوهم أنه كسائر المياه التى يتفصى منها بالهرب إلى بعض المهارب المعهودة وتعليلا للنفى المذكور فإن أمر الله لا يغالب وعذابه لا يرد وتمهيدا لحصر العصمة فى جناب الله عز جاره بالاستثناء كأنه قيل لاعاصم من أمر الله إلا هو إنما قيل ﴿ إلا من رحم ﴾ تفخيما لشأنه الجليل بالإبهام ثم التفسير وبالإجمال ثم التفصيل وإشعارا بعلية رحمته فى ذلك بموجب سبقها على غضبه وكل ذلك لكمال عنايته عليه الصلاة والسلام بتحقيق ما يتوخاه من نجاة ابنه ببيان شأن الداهية وقطع أطماعه الفارغة وصرفه عن التعليل بما لا يغنى عنه شيئاً وارشاده إلى العياذ بالمعاذ الحق عز حمـــاه وقيل لإمكان يعصم من

---

(١) سقطت من ط .

أمر الله الإمكان من رحمه الله وهو الفلك وقيل معنى لاعاصم لاذا عصمة إلا من رحمه الله تعالى .

﴿ وحال بينهما الموج ﴾ أى بين نوح وبين ابنه فانقطع ما بينهما من المجاوبة لا بين ابنه وبين الجبل لقوله تعالى : ﴿ فكان من المغرقين ﴾ إذ هو إنما يتفرع على حيلولة الموج بينه عليه الصلاة والسلام وبين ابنه لابينه وبين الجبل لأنه بمعزل من كونه عاصما وإن لم يحل بينه وبين الملتجىء إليه موج وفيه دلالة على هلاك سائر الكفرة على أبلغ وجه فكان ذلك أمراً مقرر الوقوع غير مفتقر إلى البيان وفى إيراد كان دون صار مبالغة فى كونه منهم ﴿ وقيل يا أرض ابلعى ﴾ أى انشفى استعير له من ازدراد الحيوان ما يأكله للدلالة على أن ذلك ليس كالنشف المعتاد التدريجى ﴿ ماءك ﴾ أى ما على وجهك من ماء الطوفان دون المياه المعهودة فيها من العيون والأنهار وعبر عنه فيما سلف بأمر الله تعالى لأن المقام مقام النقص والتقليل لامقام التفخيم والتهويل ﴿ وياسماء أقلعى ﴾ أى أمسكى عن إرسال المطر يقال أقلعت السماء إذا انقطع مطرها وأقلعت الحمى أى كفت ﴿ وغيض الماء ﴾ أى نقص ما بين السماء والأرض من الماء ﴿ وقضى الأمر ﴾ أى أنجز ما وعد الله تعالى نوحا من إهلاك قومه وإنجائه بأهله أو أتم الأمر ﴿ واستوت ﴾ أى استقرت الفلك ﴿ على الجودى ﴾ هو جبل بالموصل أو بالشام أو بآمل . روى أنه عليه الصلاة والسلام ركب فى الفلك فى عاشر رجب ونزل عنها فى عاشر المحرم فصام ذلك اليوم شكرا فصار سنة ﴿ وقيل بعداً للقوم الظالمين ﴾ أى هلاكا لهم والتعرض لوصف الظلم للإشعار بعليته للهلاك ولتذكيره ما سبق من قوله تعالى (ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا إنهم مغرقون) ولقد بلغت الآية الكريمة من مراتب الإعجاز قاصيتها وملكت من غرر المزايا ناصيتها وقد تصدى لتفصيلها المتقنون ولعمرى إن ذلك فوق ما يصفه الواصفون فحرى بنا أن نوجز الكلام

فى هذا الباب ونفوض الأمر إلى تأمل[1] أولى الألباب والله عنده علم الكتاب ﴿ ونادى نوح ربه ﴾ أى أراد ذلك بدليل الفاء فى قوله تعالى :

﴿ فقال رب إن ابنى من أهلى ﴾ وقد وعدتنى إنجاءهم فى ضمن الأمر بحملهم فى الفلك أو النداء على الحقيقة والفاء لتفصيل ما فيه من الإجمال ، ﴿ وإن وعدك الحق ﴾ أى وعدك ذلك أو إن كل وعده حق لا يتطرق إليه خلف فيدخل فيه الوعد المعهود دخولا أوليا ﴿ وأنت أحكم الحاكمين ﴾ لأنك أعلمهم وأعدلهم أو أنت أكثر حكمة من ذوى الحكم على أن الحاكم من الحكمة كالدارع من الدرع وهذا الدعاء منه عليه الصلاة والسلام على طريقة دعاء أيوب عليه الصلاة والسلام (إذ نادى ربه أنى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين) ﴿ قال يانوح ﴾ لما كان دعاؤه عليه الصلاة والسلام بتذكير وعده جل ذكره مبنيا على كون كنعان من أهله نفى أولا كونه منهم بقوله تعالى ﴿ إنه ليس من أهلك ﴾ أى ليس منهم أصلا لأن مدار الأهلية هو القرابة الدينية ولا علاقة بين المؤمن والكافر أو ليس من أهلك الذين أمرتك بحملهم فى الفلك لخروجه عنهم بالاستثناء وعلى التقديرين ليس هو من الذين وعد بإنجائهم ثم علل عدم كونه منهم على طريقة الاستئناف التحقيقى بقوله تعالى : ﴿ إنه عمل غير صالح ﴾ أصله إنه ذو عمل غير صالح فجعل نفس العمل مبالغة كما فى قول الخنساء :

* فإنما هى إقبال وإدبار *

وإيثار غير صالح على فاسد إما لأن الفاسد ربما يطلق على ما فسد ومن شأنه الصلاح فلا يكون نصا فيما هو من قبيل الفاسد المحض كالقتل والمظالم ، وإما للتلويح بأن نجاة من نجا إنما هى لصلاحه ، وقرأ الكسائى ويعقوب

(١) فى ١: تأميل

إنه عمل غير صالح أى عملا غير صالح ، ولما كان دعاؤه عليه الصلاة والسلام مبنيا على ما ذكر من اعتقاد كون كنعان من أهله وقد نفى ذلك وحقق ببيان علته فرع على ذلك النهى عن سؤال إنجائه إلا أنه جيء بالنهى على وجه عام يندرج فيه ذلك اندراجا أوليا فقيل :

﴿ فلا تسألنِ ﴾ أى إذا وقفت على جلية الحال فلا تطلب منى ﴿ ما ليس لك به علم ﴾ أى مطلبا لا تعلم يقينا أن حصوله صواب وموافق للحكمة على تقدير كون ما عبارة عن المسئول الذى هو مفعول السؤال أو طلبا لا تعلم أنه صواب على تقدير كونه عبارة عن المصدر الذى هو مفعول مطلق فيكون النهى واردا بصريحه فى كل من معلوم الفساد ومشتبه الحال ونفهم ، ويجوز ان يكون المعنى ما ليس لك علم بأنه صواب أو غير صواب فيكون النهى واردا فى مشتبه الحال ويفهم منه حال معلوم الفساد بالطريق الأولى وعلى التقديرين فهو عام يندرج تحته ما نحن فيه كما ذكرناه وهذا كما ترى صريح فى أن نداءه عليه الصلاة والسلام ربه عز وعلا ليس استفسارا عن سبب عدم إنجاء ابنه مع سبق وعده بإنجاء أهله وهو منهم كما قيل ، فإن النهى عن استفسار ما لم يعلم غير موافق للحكمة ، إذ عدم العلم بالشىء داع إلى الاستفسار عنه لا إلى تركه بل هو دعاء منه لإنجاء ابنه حين حال الموج بينهما ولم يعلم بهلاكه بعد إما بتقريبه إلى الفلك بتلاطم الأمواج أو بتقريبها إليه ، وقيل أو بإنجائه فى قلة الجبل ويأباه تذكير الوعد فى فى الدعاء فإنه مخصوص بالإنجاء فى الفلك وقوله تعالى (لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم) وتجرد حيلولة الموج بينهما لا يستوجب هلاكه فضلا عن العلم به لظهور إمكان عصمة الله تعالى إياه برحمته وقد وعد بإنجاء أهله ولم يكن ابنه مجاهرا بالكفر كما ذكرناه حتى لا يجوز عليه السلام أن يدعوه إلى الفلك أو يدعو ربه لإنجائه واعتزاله عنه عليه الصلاة والسلام وقصده الالتجاء إلى الجبل ليس بنص فى الإصرار على الكفر لظهور جواز أن يكون ذلك لجهله بانحصار النجاة فى الفلك وزعمه أن الجبل أيضا يجرى مجراه أو لكراهة الاحتباس فى الفلك بل قوله (سآوى إلى جبل يعصمنى من الماء) بعدما قال نوح عليه

الصلاة والسلام (ولا تكن مع الكافرين) ربما يطمعه عليه السلام فى إيمانه حيث لم يقل أكون معهم أو سنأوى أو يعصمنا فإن إفراد نفسه بنسبة الفعلين المذكورين بما يشعر بانفراده من الكافرين واعتزاله عنهم وامتثاله ببعض ما أمره به نوح عليه الصلاة والسلام ، إلا أنه عليه الصلاة والسلام لو تأمل فى شأنه حق التأمل وتفحص عن أحواله فى كل ما يأتى ويذر(١) لما اشتبه عليه أنه ليس بمؤمن وأنه المستثنى من أهله ولذلك قيل ﴿ إنى أعظك أن تكون من الجاهلين ﴾ فعبر عن ترك الأولى بذلك وقرىء فلا تسألن بغير ياء الإضافة وبالنون الثقيلة بياء وبغير ياء .

﴿ قال رب إنى أعوذ بك أن أسألك ﴾ أى أطلب منك من بعد ﴿ ما ليس لى به علم ﴾ أى مطلوبا لا أعلم أن حصوله مقتضى الحكمة أو طلبا لا أعلم أنه صواب سواء كان معلوم الفساد أو مشتبه الحال أو لا أعلم أنه صواب أو غير صواب على ما مر وهذه توبة منه عليه السلام مما وقع منه وإنما لم يقل أعوذ بك منه أو من ذلك مبالغة فى التوبة وإظهارا للرغبة والنشاط فيها وتبركا بذكر ما لقنه الله تعالى وهو أبلغ من أن يقول أتوب إليك أن أسألك لما فيه من الدلالة على كون ذلك أمرا هائلا محذورا لا محيص منه إلا بالعوذ بالله تعالى وأن قدرته قاصرة عن النجاة من المكاره إلا بذلك ﴿ وإلا تغفر لى ﴾ ما صدر عنى من السؤال المذكور ﴿ وترحمنى ﴾ بقبول توبتى ﴿ أكن من الخاسرين ﴾ أعمالا بسبب ذلك فإن الذهول عن شكر الله تعالى لا سيما عند وصول مثل هذه النعمة الجليلة التى هى النجاة وهلاك الأعداء والاشتغال بما لا يعنى خصوصا بمبادى خلاص من قيل فى شأنه إنه عمل غير صالح والتضرع إلى الله تعالى فى أمره معاملة غير رابحة وخسران مبين ، وتأخير ذكر هذا النداء عن حكاية الأمر الوارد على الأرض والسماء وما يتلوه من زوال الطوفان وقضاء الأمر واستواء

---

(١) فى ١٠ : ويدع

الفلك على الجودى والدعاء بالهلاك على الظالمين مع أن حقه أن يذكر عقيب قوله تعالى (فكان من المغرقين) حسبما وقع فى الخارج إذ حينئذ يتصور الدعاء بالإنجاء لا بعد العلم بالهلاك ليس لما قيل من استقلاله بغرض مهم هو جعل قرابة الدين غامرة[٢] لقرابة النسب وأن لا يقدم فى الأمور الدينية الأصولية إلا بعد اليقين قياسا على ما وقع فى قصة البقرة من تقديم ذكر الأمر بذبحها على ذكر القتيل الذى هو أول القصة وكان حقها أن يقال وإذ قتلتم نفساً فادارأتم فيها فقلنا اذبحوا بقرة فاضربوه ببعضها كما قرر فى موضعه فإن تغيير الترتيب هناك للدلالة على كمال سوء حال اليهود بتعديد جناياتهم المتنوعة وتثنية التقريع عليهم بكل نوع على حدة فقوله تعالى (وإذ قال موسى لقومه إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة) إلخ لتقريعهم على الاستهزاء وترك المسارعة إلى الامتثال وما يتبع ذلك وقوله تعالى (وإذ قتلتم نفسا) إلخ للتقريع على قتل النفس المحرمة وما يتبعه من الأمور العظيمة ولو قصت القصة على ترتيبها لفات الغرض الذى هو تثنية التقريع ولظن أن المجموع تقريع واحد وأما ما نحن فيه فليس مما يمكن أن يراعى فيه مثل تلك النكتة أصلا وما ذكر من جعل القرابة الدينية غامرة للقرابة النسبية إلخ لا يفوت على تقدير سوق الكلام على ترتيب الوقوع أيضا بل لأن ذكر هذا النداء كما ترى مستدع لذكر ما مر من الجواب المستدعى لذكر ما مر من توبته عليه الصلاة والسلام المؤدى ذكرها إلى ذكر قبولها فى ضمن الأمر الوارد بنزوله عليه الصلاة والسلام من الفلك بالسلام والبركات الفائضة عليه وعلى المؤمنين حسبما سيجىء مفصلا ولا ريب فى أن هذه المعانى آخذ بعضها بحجزة بعض بحيث لا يكاد يفرق الآيات الكريمة المنطوية عليها بعضها من بعض وأن ذلك إنما يتم بتمام القصة ولا ريب أن ذلك إنما يكون بتمام الطوفان فلا جرم اقتضى الحال ذكر تمامها قبل هذا النداء وذلك إنما يكون عند ذكر كون كنعان من المغرقين ولهذه النكتة ازداد حسن موقع الإيجاز البليغ

---

(١) فى ١٠ : شاملة

وفيه فائدة أخرى هى التصريح بهلا كه من أول الأمر إلى أن يرد قوله (إنه ليس من أهلك) أنه ينجو بدعائه عليه الصلاة والسلام فنص على هلا كه من أول الأمر ثم ذكر الأمر الوارد على الأرض والسماء الذى هو عبارة عن تعلق الإرادة الربانية الأزلية بما ذكر من الغيض والإقلاع وبين بلوغ أمر الله محله وجريان قضائه ونفوذ حكمه عليهم بهلاك من هلك ونجاة من نجا بتمام ذلك الطوفان واستواء الفلك على الجودى فقصت القصة إلى هذه المرتبة وبين ذلك أى بيان ثم تعرض لما وقع فى تضاعيف ذلك مما جرى بين نوح عليه السلام وبين رب العزة جلت حكمته فذكر بعد توبته عليه الصلاة والسلام قبولها بقوله :

﴿ قيل يا نوح اهبط ﴾ أى انزل من الفلك وقرىء بضم الباء ﴿ بسلام ﴾ ملتبسا بسلامة من المكاره كائنة ﴿ منا ﴾ أو بسلام وتحية منا عليك كما قال سلام على نوح فى العالمين ﴿ وبركات عليك ﴾ أى خيرات نامية فى نسلك وما يقوم به معاشك ومعاشهم من أنواع الأرزاق وقرىء بركة وهذا إعلام وبشارة من الله تعالى بقبول توبته وخلاصه من الخسران بفيضان أنواع الخيرات عليه فى كل ما يأتى وما يذر ﴿ وعلى أمم ﴾ ناشئة ﴿ ممن معك ﴾ إلى يوم القيامة متشعبة منهم فمن ابتدائية والمراد الأمم المؤمنة المتناسلة ممن معه إلى يوم القيامة ﴿ وأمم سنمتعهم ﴾ أى ومنهم على أنه خبر حذف لدلالة ما سبق عليه فإن إيراد الأمم المبارك عليهم المتشعبة منهم نكرة يدل على أن بعض من يتشعب منهم ليسوا على صفتهم يعنى ليس جميع من تشعب منهم مسلما ومباركا عليه بل منهم أمم ممتعون فى الدنيا معذبون فى الآخرة وعلى هذا لا يكون الكائنون مع نوح عليه السلام مسلما ومباركا عليهم صريحا وإنما يفهم ذلك من كونهم مع نوح عليه الصلاة والسلام ومن كون ذرياتهم كذلك بدلالة النص ويجوز أن تكون من بيانية أى وعلى أمم هم الذين معك وإنما سموا أمما لأنهم أمم متحزبة وجماعات متفرقة أو لأن جميع الأمم إنما تشعبت منهم

فحينئذ يكون المراد بالأمم المشار إليهم فى قوله تعالى (وأمم سنمتعهم) بعض الأمم المتشعبة منهم وهى الأمم الكافرة المتناسلة منهم إلى يوم القيامة ويبقى أمر الأمم المؤمنة الناشئة منهم مبهما غير متعرض له ولا مدلول عليه ومع ذلك ففى دلالة المذكور على خبره المحذوف خفاء لأن من المذكورة بيانية والمحذوفة تبعيضية أو ابتدائية فتأمل .

﴿ ثم يمسهم ﴾ إما فى الآخرة أو فى الدنيا أيضا ﴿ منا عذاب أليم ﴾ عن محمد بن كعب القرظى دخل فى ذلك السلام كل مؤمن ومؤمنة إلى يوم القيامة وفيما بعده من المتاع وبالعذاب كل كافر ، وعن ابن زيد هبطوا والله عنهم راض ثم أخرج منهم نسلا منهم من رحم ومنهم من عذب وقيل المراد بالأمم الممتعة قوم هود وصالح ولوط وشعيب عليهم السلام وبالعذاب ما نزل بهم ﴿ تلك ﴾ إشارة إلى ما قص من قصة نوح عليه الصلاة والسلام إما لكونها بتقضيها فى حكم البعيد أو للدلالة على بعد منزلتها وهى مبتدأ خبره ﴿ من أنباء الغيب ﴾ أى من جنسها أى ليست من قبيل سائر الأنباء بل هى نسيج وحدها منفردة عما عداها أو بعضها ﴿ نوحيها إليك ﴾ خبر ثان والضمير لها أى موحاة إليك أو هو الخبر ومن أنباء متعلق به ، فالتعبير بصيغة المضارع لاستحضار الصورة أو حال من أنباء الغيب أى موحاة إليك ﴿ ما كنت تعلمها أنت ولا قومك ﴾ خبر آخر أى مجهولة عندك وعند قومك ﴿ من قبل هذا ﴾ أى من قبل إيحائنا إليك وإخبارك بها أو من قبل هذا العلم الذى كسبته بالوحى أو من قبل هذا الوقت أو حال من الهاء فى نوحيها ، أو الكاف فى إليك أى جاهلا أنت وقومك بها ، وفى ذكر جهلهم تنبيه على أنه عليه الصلاة والسلام لم يتعلمه ، إذ لم يخالط غيرهم وأنهم مع كثرتهم لما لم يعلموه فكيف بواحد منهم ﴿ فاصبر ﴾ متفرع على الإيحاء أو العلم المستفاد منه المدلول عليه بقوله (ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا) أى وإذ قد أوحيناها إليك أو علمتها بذلك فاصبر على مشاق تبليغ الرسالة وأذية قومك كما صبر نوح على ما سمعته من أنواع البلايا

في هذه المدة المتطاولة وهذا ناظر إلى ما سبق من قوله تعالى (فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك) إلخ ﴿إن العاقبة﴾ بالظفر في الدنيا وبالفوز في الآخرة ﴿للمتقين﴾ كما شاهدته في نوح عليه الصلاة والسلام وقومه ولك فيه أسوة حسنة فهي تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وتعليل للأمر بالصبر فإن كون العاقبة الحميدة للمتقين وهو في أقصى درجات التقوى والمؤمنون كلهم متقون مما يسليه عليه الصلاة والسلام ويهون عليه الخطوب ويذهب عنه ما عسى أن يعتريه من ضيق صدره وهذا على تقدير أن يراد بالتقوى الدرجة الأولى منه أعني التوقي من العذاب المخلد بالتبرؤ من الشرك وعليه قوله تعالى: (وألزمهم كلمة التقوى) ويجوز أن يراد الدرجة الثالثة منه وهي أن يتنزه عما يشغل سره عن الحق ويتبتل إليه بشراشره وهو التقوى الحقيقي المطلوب بقوله تعالى (اتقوا الله حق تقاته) فإن التقوى بهذا المعنى منطو على الصبر المذكور فكأنه قيل فاصبر فإن العاقبة للصابرين.

هود عليه السلام

﴿وإلى عاد﴾ متعلق بمضمر معطوف على قوله تعالى (أرسلنا) في قصة نوح وهو الناصب لقوله تعالى ﴿أخاهم﴾ أي وأرسلنا إلى عاد أخاهم أي واحدا منهم في النسب كقولهم يا أخا العرب: وتقديم المجرور على المنصوب هنا للحذار عن الإضمار[١] قبل الذكر وقيل متعلق بالفعل المذكور فيما سبق وأخاهم معطوف على نوحا وقد مر في سورة الأعراف وقوله تعالى ﴿هودا﴾ عطف بيان لأخاهم وكان عليه الصلاة والسلام من جملتهم فإنه هود بن عبد الله بن رباح بن الخلود بن العوص بن إرم بن سام بن نوح عليه الصلاة والسلام وقيل هود بن شالح بن أرفخشذ بن سام بن نوح بن عم أبي عاد وإنما جعل منهم لأنهم أفهم لكلامه وأعرف بحاله وأرغب في اقتفائه ﴿قال﴾ لما كان ذكر إرساله عليه

---

(١) في ١٠: حذرا من الإضمار

الصلاة والسلام إليهم مظنة للسؤال عما قال لهم ودعاهم إليه أجيب عنه بطريق الاستئناف فقيل﴿ قال يا قوم اعبدوا الله ﴾ أى وحده كما ينبىء عنه قوله تعالى ﴿ مالكم من إله غيره ﴾ فإنه استئناف يجرى مجرى البيان للعبادة المأمور بها ، والتعليل للأمر بها كأنه قيل خصوه بالعبادة ولا تشركوا به شيئا ، إذ ليس لكم من إله سواه وغيره بالرفع صفة لإله باعتبار محله وقرىء بالجر حملا له على لفظه ﴿ إن أنتم ﴾ ما أنتم باتخاذكم الأصنام شركاء له أو بقولكم إن الله أمرنا بعبادتها ﴿ إلا مفترون ﴾ عليه تعالى عن ذلك علوا كبيرا ﴿ يا قوم لا أسألكم عليه أجراً إن أجرى إلا على الذى فطرنى ﴾ خاطب به كل نبى قومه إزاحة لما عساهم يتوهمونه وإمحاضا للنصيحة فإنها ما دامت مشوبة بالمطامع بمعزل عن التأثير وإيراد الموصول للتفخيم وجعل الصلة فعل الفطرة لكونه أقدم النعم الفائضة من جناب الله تعالى المستوجبة للشكر الذى لا يتأتى إلا بالجريان على موجب أمره الغالب معرضا عن المطالب الدنيوية التى من جملتها الأجر ﴿ أفلا تعقلون ﴾ أى أتغفلون عن هذه القضية أو ألا تتفكرون فيها فلا تعقلونها أو أتجهلون كل شىء فلا تعقلون شيئاً أصلافإن هذا مما لا ينبغى أن يخفى على أحد من العقلاء ﴿ وياقوم استغفروا ربكم ﴾ اطلبوا مغفرته لما سلف منكم من الذنوب بالإيمان والطاعة ﴿ ثم توبوا إليه ﴾ أى توسلوا إليه بالتوبة وأيضاً التبرؤ من الغير إنما يكون بعد الإيمان بالله تعالى والرغبة فيما عنده ﴿ يرسل السماء ﴾ أى المطر ﴿ عليكم مدراراً ﴾ أى كثير الدرور ﴿ ويزدكم قوة ﴾ مضافة ومنضمة ﴿ إلى قوتكم ﴾ أى يضاعفها لكم ، وإنما رغبهم بكثرة المطر لأنهم كانوا أصحاب زروع وعمارات ، وقيل حبس الله تعالى عنهم القطر وأعقم أرحام نسائهم ثلاث سنين فوعدهم عليه الصلاة والسلام كثرة الأمطار وتضاعف القوة بالتناسل ، على الإيمان والتوبة ﴿ ولا تتولوا ﴾ أى لا تعرضوا عما دعوتكم إليه ﴿ مجرمين ﴾ مصرين على ما كنتم عليه من الإجرام ﴿ قالوا ياهود ماجئتنا ببينة ﴾ أى بحجة تدل على صحة دعواك وإنما قالوه لفرط عنادهم وعدم اعتدادهم بما جاءهم من البينات الفائتة للحصر .

﴿ وما نحن بتاركى آلهتنا ﴾ أى بتاركى عبادتها ﴿عن قولك﴾ أى صادرين عنه أى صادرا تركنا عن ذلك بإسناد حال الوصف إلى الموصوف ومعناه التعليل على أبلغ وجه لدلالته على كونه علة فاعلية ولا يفيده الباء واللام وهذا كقولهم المنقول عنهم فى سورة الأعراف (أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا) ﴿ وما نحن لك بمؤمنين ﴾ أى بمصدقين فى شىء مما تأتى وتذر فيندرج تحته ما دعاهم إليه من التوحيد وترك عبادة الآلهة وفيه من الدلالة على شدة الشكيمة وتجاوز الحد فى العتو ما لا يخفى ﴿ إن نقول إلا اعتراك ﴾ أى ما نقول إلا قولنا اعتراك أى أصابك ﴿ بعض آلهتنا بسوء ﴾ بجنون لسبك إياها وصدك عن عبادتها وحطك لها عن رتبة الألوهية والمعبودية بما مر من قولك ما لكم من إله غيره إن أنتم إلا مفترون ، والتنكير فى سوء للتقليل كأنهم لم يبالغوا فى السوء كما ينبىء عنه نسبة ذلك إلى بعض آلهتهم دون كلها والجملة مقول القول وإلا لغو لأن الاستثناء مفرغ ، وهذا الكلام مقرر لما مر من قولهم (وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين) فإن اعتقادهم بكونه عليه الصلاة والسلام كما قالوا وحاشاه عن ذلك يوجب عدم الاعتداد بقوله وعده من قبيل الخرافات فضلا عن التصديق والعمل بمقتضاه ، يعنون إنا لا نعد كلامك إلا من قبيل ما لا يحتمل الصدق والكذب من الهذيانات الصادرة عن المجانين فكيف نصدقه ونؤمن به ونعمل بموجبه ولقد سلكوا فى طريقة المخالفة والعناد إلى سبيل الترقى من الأدنى إلى الأعلى حيث أخبروا أولا عن عدم مجيئه بالبينة مع احتمال كون ما جاء به عليه الصلاة والسلام حجة فى نفسه وإن لم تكن واضحة الدلالة على المراد وثانيا عن ترك الامتثال بقوله عليه الصلاة والسلام بقولهم (وما نحن بتاركى آلهتنا) عن قولك مع إمكان تحقق ذلك بتصديقهم له عليه الصلاة والسلام فى كلامه ثم نفوا تصديقهم له عليه الصلاة والسلام بقولهم (وما نحن لك بمؤمنين) مع كون كلامه عليه الصلاة والسلام مما يقبل التصديق ثم نفوا عنه تلك المرتبة أيضاً حيث قالوا ما قالوا قاتلهم الله أنى يؤفكون ﴿ قال إنى أشهد الله واشهدوا أنى برىء مما تشركون

من دونه ﴾ أى من إشراككم من دون الله أى من غير أن ينزل به سلطانا كما قال فى سورة الأعراف (أتجادلوننى فى أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان) أو مما تشركونه من آلهة غير الله أجاب به عن مقالتهم الحمقاء المبنية على اعتقاد كون آلهتهم مما يضر أو ينفع وأنها بمعزل من ذلك ولما كان ما وقع أولا منه عليه الصلاة والسلام فى حق آلهتهم من كونها بمعزل عن الألوهية إنما وقع فى ضمن الأمر بعبادة الله تعالى واختصاصه بها وقد شق عليهم ذلك وعدوه مما يورث شينا حتى زعموا أنها تصيبه عليه الصلاة والسلام بسوء مجازاة لصنيعه معها صرح عليه الصلاة والسلام بالحق وصدع به حيث أخبر ببراءته القديمة عنها بالجملة الاسمية المصدرة بإن وأشهد الله على ذلك وأمرهم بأن يسمعوا ذلك ويشهدوا به استهانة بهم ثم أمرهم بالاجتماع والاحتشاد مع آلهتهم جميعا دون بعض منها حسبما يشعر به قولهم بعض آلهتنا والتعاون فى إيصال الكيد إليه عليه الصلاة والسلام ونهاهم عن الإنظار والإمهال فى ذلك فقال ﴿ فكيدونى جميعا ثم لا تنظرون ﴾ أى إن صح ما لوحتم به من كون آلهتكم مما يقدر على إضرار من ينال منها ويصد عن عبادتها ولو بطريق ضمنى فإنى برىء منها فكونوا أنتم معها جميعا وباشروا كيدى ثم لا تمهلونى ولا تسامحونى فى ذلك فالفاء لتفريع الأمر على زعمهم فى قدرة آلهتهم على ماقالوا وعلى البراءة كليهما وهذا من أعظم المعجزات ، فإنه عليه الصلاة والسلام كان رجلا مفردا بين الجم الغفير والجمع الكثير من عتاة عاد الغلاظ الشداد وقد خاطبهم بما خاطبهم وحقرهم وآلهتهم وهيجهم على مباشرة مبادىء المضارة وحثهم على التصدى لأسباب المعازة [والمعارة] [1] فلم يقدروا على مباشرة شيء مما كلفوه وظهر عجزهم عن ذلك ظهورا بينا كيف لا وقد التجأ إلى ركن منيع رفيع واعتصم بحبل متين حيث قال :

﴿ إنى توكلت على الله ربى وربكم ﴾ يعنى أنكم وإن بذلتم فى مضارتى مجهودكم

---

(١) سقطت من ١٠

لا تقدرون على شيء مما تريدون بى فإنى متوكل على الله تعالى وإنما جيء بلفظ الماضى لكونه أدل على الإنشاء المناسب للمقام وواثق بكلاءتى وحفظى عن غوائلكم وهو مالكى ومالككم لا يصدر عنكم شيء ولا يصيبنى أمر إلا بإرادته ومشيئته ثم برهن عليه بقوله ﴿ ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها ﴾ أى إلا هو مالك لها قادر عليها يصرفها كيف يشاء غير مستعصية عليه فإن الأخذ بالناصية تمثيل لذلك ﴿ إن ربى على صراط مستقيم ﴾ تعليل لما يدل عليه التوكل من عدم قدرتهم على إضراره أى هو على الحق والعدل فلا يكاد يسلطكم على إذ لا يضيع عنده معتصم ولا يفتات عليه ظالم والاقتصار على إضافة الرب إلى نفسه إما بطريق الاكتفاء لظهور المراد وإما لأن فائدة كونه تعالى مالكا لهم أيضاً راجعة إليه عليه الصلاة والسلام ﴿ فإن تولوا ﴾ أى تتولوا بحذف إحدى التاءين أى أن تستمروا على ما كنتم عليه من التولى والإعراض ﴿ فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم ﴾ أى لم أعاتب على تفريط فى الإبلاغ وكنتم محجوجين بأن بلغكم الحق فأبيتم إلا التكذيب والجحود ﴿ ويستخلف ربى قوما غيركم ﴾ استئناف بالوعيد لهم بأن الله تعالى يهلكهم ويستخلف فى ديارهم وأموالهم قوما آخرين أو عطف على الجواب بالفاء، ويؤيده قراءة ابن مسعود رضى الله عنه بالجزم عطفا على الموضع كأنه قيل فإن تولوا يعذرنى ويهلككم ويستخلف مكانكم آخرين وفى اقتصار إضافة الرب عليه عليه السلام رمز إلى اللطف به والتدمير للمخاطبين ﴿ ولا تضرونه ﴾ بتوليكم ﴿ شيئاً ﴾ من الضرر لاستحالة ذلك عليه ومن جزم ويستخلف أسقطت منه النون ﴿ إن ربى على كل شيء حفيظ ﴾ أى رقيب مهيمن فلا تخفى عليه أعمالكم فيجازيكم بحسبها أو حافظ مستول على كل شيء فكيف يضره شيء وهو الحافظ للكل ﴿ ولما جاء أمرنا ﴾ أى نزل عذابنا وفى التعبير عنه بالأمر مضافا إلى ضميره جل جلاله وعن نزوله بالمجيء ما لا يخفى من التفخيم والتهويل أو ورد أمرنا بالعذاب ﴿ نجينا هوداً والذين آمنوا معه ﴾ وكانوا أربعة آلاف ﴿ برحمة ﴾ عظيمة كائنة لهم ﴿ منا ﴾ وهى الإيمان الذى أنعمنا به عليهم بالتوفيق له والهداية إليه ﴿ ونجيناهم من

عذاب غليظ ﴾ أى كانت تلك التنجية تنجية من عذاب غليظ وهى السموم التى كانت تدخل أنوف الكفرة وتخرج من أدبارهم فتقطعهم إربا إربا وقيل أريد بالثانية التنجية من عذاب الآخرة ولاعذاب أغلظ منه وأشد وهذه التنجية وإن لم تكن مقيدة بمجىء الأمر لكن جىء بها تكملة للنعمة عليهم وتعريضا بأن المهلكين كما عذبوا فى الدنيا بالسموم فهم معذبون فى الآخرة بالعذاب الغليظ. ﴿ وتلك عاد ﴾ أنث اسم الإشارة باعتبار القبيلة أو لأن الإشارة إلى قبورهم وآثارهم ﴿ جحدوا بآيات ربهم ﴾ كفروا بها بعد ما استيقنوها ﴿ وعصوا رسله ﴾ جمع الرسل مع أنه لم يرسل إليهم غير هود عليه الصلاة والسلام تفظيعا لحالهم وإظهاراً لكمال كفرهم وعنادهم ببيان أن عصيانهم له عليه الصلاة والسلام عصيان لجميع الرسل السابقين واللاحقين لاتفاق كلمتهم على التوحيد لا نفرق بين أحد من رسله فيجوز أن يراد بالآت ما أتى به هود وغيره من الأنبياء عليهم السلام وفيه زيادة ملاءمة لما تقدم من جميع الآيات وما تأخر من قوله ﴿ واتبعوا أمر كل جبار عنيد ﴾ من كبرائهم ورؤسائهم الدعاة إلى الضلال وإلى تكذيب الرسل فكأنه قيل عصوا كل رسول واتبعوا أمر كل جبار وهذا الوصف ليس كما سبق من جحود الآيات وعصيان الرسل فى الشمول لكل فرد فرد منهم فإن الاتباع للأمر من أوصاف الأسافل دون الرؤساء وعنيد فعيل من عند عنداً وعنداً إذا طغى والمعنى عصوا من دعاهم إلى الهدى وأطاعوا من دعاهم الى الردى .

﴿ وأتبعوا فى هذه الدنيا لعنة ﴾ إبعاداً عن الرحمة وعن كل خير أى جعلت اللعنة لازمة لهم وعبر عن ذلك بالتبعية للمبالغة فكأنها لا تفارقهم وإن ذهبوا كل مذهب بل تدور معهم حيثما داروا ولوقوعه فى صحبة اتباعهم رؤساءهم يعنى أنهم لما اتبعوهم أتبعوا ذلك جزاء لصنيعهم جزاء وفاقا ﴿ ويوم القيامة ﴾ أى أتبعوا يوم القيامة أيضا لعنة وهى عذاب النار المخلد حذفت لدلالة الأولى عليها وللإيذان بكون كل من اللعنتين نوعا برأسه لم تجمعا فى قرن واحد بأن يقال وأتبعوا فى هذه الدنيا ويوم القيامة لعنة كما فى قوله تعالى (واكتب لنا فى هذه

الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة) إيذانا باختلاف نوعى الحسنتين فإن المراد بالحسنة الدنيوية نحو الصحة والكفاف والتوفيق للخير وبالحسنة الأخروية الثواب والرحمة ﴿ ألا إن عاداً كفروا ربهم ﴾ أى بربهم أو نعمة ربهم حملا له على نقيضه الذى هو الشكر أو جحدوه ﴿ ألا بعداً لعاد ﴾ دعاء عليهم بالهلاك مع كونهم هالكين أى هلاك تسجيلا عليهم باستحقاق الهلاك واستيجاب الدمار وتكرير حرف التنبيه وإعادة عاد للمبالغة فى تفظيع حالهم والحث على الاعتبار بقصتهم ﴿ قوم هود ﴾ عطف بيان لعاد فائدته التمييز عن عاد إرم والإيماء إلى أن استحقاقهم للبعد بسبب ما جرى بينهم وبين هود عليه الصلاة والسلام وهم قومه .

صالح عليه السلام

﴿ وإلى ثمود أخاهم صالحا ﴾ عطف على ما سبق من قوله تعالى (وإلى عاد أخاهم هود) وثمود قبيلة من العرب سموا باسم أبيهم الأكبر ثمود بن عابر ابن إرم بن سام وقيل : إنما سموا بذلك لقلة مائهم من الثمد وهو الماء القليل وصالح عليه الصلاة والسلام هو ابن عبيد بن آسف بن ماشج بن عبيد بن جادر بن ثمود ولما كان الإخبار بإرساله إليهم مظنة لأن يسأل ويقال ماذا قال لهم قيل جوابا عنه بطريق الاستئناف ﴿ قال يا قوم اعبدوا الله ﴾ أى وحده وعلل ذلك بقوله ﴿ مالكم من إله غيره ﴾ ثم زيد فيما يبعثهم على الإيمان والتوحيد ويحثهم على زيادة الإخلاص فيه بقوله ﴿ هو أنشأكم من الأرض ﴾ أى هو كونكم وخلقكم منها لا غيره قصر قلب أو قصر إفراد فإن خلق آدم عليه الصلاة والسلام منها خلق لجميع أفراد البشر منها لما مر مرارا من أن خلقته عليه الصلاة والسلام لم تكن مقصورة على نفسه بل كانت أنموذجا منطويا على خلق جميع ذرياته التى ستوجد إلى يوم القيامة انطواء إجماليا وقيل إن خلق آدم عليه الصلاة والسلام وإنشاء مواد النطف التى منها خلق نسله من التراب إنشاء لجميع الخلق من الأرض فتدبر ﴿ واستعمركم ﴾ من العمر أى عمركم واستبقاكم ﴿ فيها ﴾

أو من العمارة أى أقدركم على عمارتها أو أمركم بها وقيل هو من العمرى بمعنى أعمركم فيها دياركم ويرثها منكم بعد انصرام أعماركم أو جعلكم معمرين دياركم تسكنونها مدة عمركم ثم تتركونها لمثلكم ﴿ فاستغفروه ثم توبوا إليه ﴾ فإن ما فصل من فنون الإحسان داع إلى الاستغفار عما وقع منهم من التفريط والتوبة عما كانوا يباشرونه من القبائح وقد زيد فى بيان ما يوجب ذلك فقيل ﴿ إن ربى قريب ﴾ أى قريب الرحمة كقوله تعالى (إن رحمة الله قريب من المحسنين) ﴿ مجيب ﴾ لمن دعاه وسأله وقد روعى فى النظم الكريم نكتة حيث قدم ذكر العلة الباعثة المتقدمة على الأمر بالاستغفار والتوبة وأخر عنه ذكر الغائية المتأخرة عنهما فى الوجود أعنى الإجابة ﴿ قالوا يا صالح قد كنت فينا مرجوا ﴾ أى كنا نرجو منك لما كنا نرى منك من دلائل السداد ومخايل الرشاد أن تكون لنا سيداً ومستشارا فى الأمور وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما فاضلا خيراً نقدمك على جميعنا وقيل كنا نرجو أن تدخل فى ديننا وتوافقنا على ما نحن عليه ﴿ قبل هذا ﴾ الذى باشرته من الدعوة إلى التوحيد وترك عبادة الآلهة أو قبل هذا الوقت فكأنهم لم يكونوا إلى الآن على يأس من ذلك ولو بعد الدعوة إلى الحق فالآن قد انصرم عنك رجاؤنا وقرأ طلحة مرجوءاً بالمد والهمزة ﴿ أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا ﴾ أى عبدوه والعدول إلى صيغة المضارع لحكاية الحال الماضية ﴿ وإننا لفى شك مما تدعونا إليه ﴾ من التوحيد وترك عبادة الأوثان وغير ذلك من الاستغفار والتوبة ﴿ مريب ﴾ أى موقع فى الريبة من أرابه أى أوقعه فى الريبة أى قلق النفس وانتفاء الطمأنينة أو من أراب إذا كان ذا ريبة وأيهما كان فالإسناد مجازى والتنوين فيه وفى شك للتفخيم .

﴿ قال يا قوم أرأيتم ﴾ أى أخبرونى ﴿ إن كنت ﴾ فى الحقيقة ﴿ على بينة ﴾ أى حجة ظاهرة وبرهان وبصيرة ﴿ من ربى ﴾ مالكى ومتولى أمرى ﴿ وآتانى منه ﴾ من جهته ﴿ رحمة ﴾ نبوة وهذه الأمور وإن كانت محققة الوقوع لكنها صدرت بكلمة الشك اعتباراً لحال المخاطبين ورعاية لحسن المحاورة لاستنزالهم

عن المكابرة ﴿فمن ينصرنى من الله﴾ أى ينجينى من عذابه والعدول إلى الإظهار لزيادة التهويل والفاء لترتيب إنكار النصرة على ما سبق من إيتاء النبوة وكونه على بينة من ربه على تقدير العصيان حسبما يعرب عنه قوله تعالى ﴿إن عصيته﴾ أى بالمساهلة فى تبليغ الرسالة والمجاراة معكم فيما تأتون وتذرون فإن العصيان ممن ذلك شأنه أبعد والمؤاخذة عليه ألزم وإنكار نصرته أدخل ﴿فما تزيدوننى﴾ إذن باستتباعكم إياى كما ينبىء عنه قولهم قد كنت فينا مرجوا قبل هذا أى لا تفيدوننى إذ لم يكن فيه أصل الخسران حتى يزيدوه ﴿غير تخسير﴾ أى غير أن تجعلونى خاسرا بإبطال أعمالى وتعريضى لسخط الله تعالى أو فما تزيدوننى بما تقولون غير أن أنسبكم إلى الخسران وأقول لكم إنكم الخاسرون فالزيادة على معناه والفاء لترتيب عدم الزيادة على انتفاء الناصر المفهوم من إنكار على تقدير العصيان مع تحقق ما ينفيه من كونه عليه الصلاة والسلام على بينة من ربه وإيتائه النبوة .

﴿وياقوم هذه ناقة الله﴾ الإضافة للتشريف والتنبيه على أنها مفارقة لسائر ما يجانسها من حيث الخلقة ومن حيث الخلق ﴿لكم آية﴾ معجزة دالة على صدق نبوتى وهى حال من ناقة الله والعامل مافى هذه من معنى الفعل ولكم حال من آية متقدمة عليها لكونها نكرة ولو تأخرت لكانت صفة لها ويجوز أن يكون ناقة الله بدلا من هذه أو عطف بيان ولكم خبرا وعاملا فى آية ﴿فذروها﴾ خلوها وشأنها ﴿تأكل فى أرض الله﴾ ترعى نباتها [1] وتشرب ماءها وإضافة الأرض إلى الله تعالى لتربيـــة استحقاقها لذلك وتعليل الأمر بتركها وشأنها ﴿ولا تمسوها بسوء﴾ بولغ فى النهى عن التعرض لها بما يضرها حيث نهى عن المس الذى هو من مبادىء الإصابة ونكر السوء أى لا تضربوها ولا تطردوها ولا تقربوها بشىء من السوء فضلا عن عقرها وقتلها ﴿فيأخذكم عذاب قريب﴾ أى قريب النزول . وروى أنهم طلبوا منه أن يخرج من صخرة

---

(١) فى ط : ترع نباتها .

تسمى الكاثبة ناقة عشراء مخترجة جوفاء وبراء وقالوا إن فعلت ذلك صدقناك فأخذ صالح عليه الصلاة والسلام عليهم مواثيقهم لئن فعلت ذلك لتؤمنن فقالوا نعم فصلى ودعا ربه فتمخضت الصخرة تمخض النتوج[١] بولدها فانصدعت عن ناقة عشراء كما وصفوا وهم ينظرون ثم أنتجت ولداً مثلها فى العظم فآمن به جندع ابن عمرو فى جماعة ومنع الباقين من الإيمان دوأب بن عمرو والحباب صاحب أوثانهم ورباب كاهنهم فمكثت الناقة مع ولدها ترعى الشجر وترد الماء غبا فما ترفع رأسها من البئر حتى تشرب كل مافيها ثم تتفحج[٢] فيحلبون ما شاءوا حتى تمتلىء أوانيهم فيشربون ويدخرون وكانت تصيف[٣] بظهر الوادى فتهرب منها أنعامهم إلى بطنه وتشتو ببطنه فتهرب مواشيهم إلى ظهره فشق عليهم ذلك .

﴿ فعقروها ﴾ قيل زينت عقرها لهم عنيزة أم غنم وصدقة بنت المختار فعقروها واقتسموا لحمها فرقى سقبها[٤] جبلا اسمه قارة فرغا ثلاثا فقال صالح لهم أدركوا الفصيل عسى أن يرفع عنكم العذاب فلم يقدروا عليه وانفجرت الصخرة بعد رغائه فدخلها ﴿ فقال ﴾ لهم صالح ﴿ تمتعوا ﴾ أى عيشوا ﴿ فى داركم ﴾ أى فى منازلكم أو فى الدنيا ﴿ ثلاثة أيام ﴾ قيل قال لهم تصبح وجوهكم غدا مصفرة وبعد غد محمرة واليوم الثالث مسودة ثم يصبحكم العذاب ﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى ما يدل عليه الأمر بالتمتع ثلاثة أيام من نزول العذاب عقيبها والمراد بما فيه من معنى البعد تفخيمه ﴿ وعد غير مكذوب ﴾ أو غير مكذوب فيه فحذف الجار للاتساع المشهور كقوله :

٭ ويوم شهدناه سليما وعامرا ٭

أو غير مكذوب كأن الواعد قال له أفى بك فإن وفى به صدقه وإلا كذبه أو وعد غير كذب على أنه مصدر كالمجلود والمعقول ﴿ فلما جاءنا أمرنا ﴾ أى

(١) يوم الولود (٢) أى يدر ثديها ويمتلىء لبنا
(٣) يعنى تقضى الصيف (٤) يعنى : ولدها

عذابنا أو أمرنا بنزوله وفيه ما لا يخفى من التهويل ﴿ نجينا صالحا والذين آمنوا معه ﴾ متعلق بنجينا أو بآمنوا ﴿ برحمة ﴾ بسبب رحمة عظيمة ﴿ منا ﴾ وهى بالنسبة إلى صالح النبوة وإلى المؤمنين الإيمان كما مر أو ملتبسين برحمة ورأفة منا ﴿ ومن خزى يومئذ ﴾ أى ونجيناهم من خزى يومئذ وهو هلاكهم بالصيحة كقوله تعالى (ونجيناهم من عذاب غليظ) على معنى أنه كانت تلك التنجية تنجية من خزى يومئذ أى من ذلته ومهانته أو ذلهم وفضيحتهم يوم القيامة كما فسر به العذاب الغليظ فيما سبق فيكون المعنى ونجيناهم من عذاب يوم القيامة بعد تنجيتنا إياهم من عذاب الدنيا وعن نافع بالفتح على اكتساب المضاف البناء من المضاف إليه هنا وفى المعارج فى قوله تعالى (من عذاب يومئذ) وقرىء بالتنوين ونصب يومئذ ﴿ إن ربك ﴾ الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ هو القوى العزيز ﴾ القادر على كل شىء والغالب عليه لا غيره ولكون الإخبار بتنجية الأولياء لا سيما عند الإنباء بحلول العذاب أهم ذكرها أولا ثم أخبر بهلاك الأعداء فقال ﴿ وأخذ الذين ظلموا ﴾ عدل على المضمر إلى المظهر تسجيلا عليهم بالظلم وإشعارا بعليته لنزول العذاب بهم ﴿ الصيحة ﴾ أى صيحة جبريل عليه الصلاة والسلام وقيل أتتهم من السماء صيحة فيها صوت كل صاعقة وصوت كل شىء فى الأرض فتقطعت قلوبهم فى صدورهم وفى سورة الأعراف (فأخذتهم الرجفة) ولعلها وقعت عقيب الصيحة المستتبعة لتموج الهواء ﴿ فأصبحوا ﴾ أى صاروا ﴿ فى ديارهم ﴾ أى بلادهم أو مساكنهم ﴿ جاثمين ﴾ هامدين موتى لا يتحركون والمراد كونهم كذلك عند ابتداء نزول العذاب بهم من غير اضطراب وحركة كما يكون ذلك عند الموت المعتاد ولا يخفى ما فيه من الدلالة على شدة الأخذ وسرعته ، اللهم إنا نعوذ بك من حلول غضبك .

قيل : لما رأوا العلامات التى بينها صالح من اصفرار وجوههم واحمرارها واسودادها عمدوا إلى قتله عليه الصلاة والسلام فنجاه الله تعالى إلى أرض فلسطين ولما كان ضحوة اليوم الرابع وهو يوم السبت تحنطوا وتكفنوا بالأنطاع فأتتهم الصيحة فتقطعت قلوبهم فهلكوا ﴿ كأن لم يغنوا ﴾ أى كأنهم لم يقيموا

﴿ فيها ﴾ فى بلادهم أو فى مساكنهم وهو فى موقع الحال أى أصبحوا جاثمين مماثلين لمن لم يوجد ولم يقم فى مقام قط ﴿ ألا إن ثمود ﴾ وضع موضع الضمير لزيادة البيان ونونه أبو بكر هنا وفى النجم وقرأ حفص هنا وفى الفرقان والعنكبوت بغير تنوين ﴿ كفروا ربهم ﴾ صرح بكفرهم مع كونه معلوما مما سبق من أحوالهم تقبيحا لحالهم وتعليلا لاستحقاقهم بالدعاء عليهم بالبعد والهلاك فى قوله تعالى ﴿ ألا بعدا لثمود ﴾ وقرأ الكسائى بالتنوين .

إبراهيم ولوط عليهما السلام

﴿ ولقد جاءت رسلنا إبراهيم ﴾ وهم الملائكة عن ابن عباس رضى الله عنهما أنهم جبريل وملكان وقيل هم جبريل وميكائيل وإسرافيل عليهم السلام وقال الضحاك كانوا تسعة وعن محمد بن كعب جبريل ومعه سبعة وعن السدى أحد عشر على صور الغلمان الوضاء وجوههم وعن مقاتل كانوا إثنى عشر ملكا وإنما أسند إليهم مطلق المجىء بالبشرى دون الإرسال لأنهم لم يكونوا مرسلين إليه عليه السلام بل إلى قوم لوط لقوله تعالى(إنا أرسلنا إلى قوم لوط) ، وإنما جاءوه لداعية البشرى ولما كان المقصود فى السورة الكريمة ذكر سوء صنيع الأمم السالفة مع الرسل المرسلة إليهم ولحوق العذاب بهم بسبب ذلك ولم يكن جميع قوم إبراهيم عليه الصلاة والسلام ممن لحق بهم العذاب بل إنما لحق بقوم لوط منهم خاصة غير الأسلوب المطرد فيما سبق من قوله تعالى (وإلى عاد أخاهم هودا وإلى ثمود أخاهم صالحا) ثم رجع إليه حيث قيل (وإلى مدين أخاهم شعيبا) ﴿ بالبشرى ﴾ أى ملتبسين بها قيل هى مطلق البشرى المنتظمة للبشارة بالولد من سارة لقوله تعالى (فبشرناها بإسحق) الآية وقوله تعالى (وبشرناه بغلام حليم) وقوله (وبشروه بغلام عليم) وللبشارة بعدم لحوق الضرر به لقولة تعالى (فلما ذهب عن إبراهيم الروع وجاءته البشرى) لظهور تفرع المجادلة على مجيئها كما سيأتى وقيل هى البشارة بهلاك قوم لوط ويأباه مجادلته عليه الصلاة والسلام فى شأنهم والأظهر أنها البشارة بالولد وستعرف سر تفرع

المجادلة على ذلك ولما كان الإخبار بمجيئهم بالبشرى مظنة لسؤال السامع بأنهم ما قالوا أجيب بأنهم ﴿ قالوا سلاما ﴾ أى سلمنا أو نسلم عليك سلاما ويجوز أن يكون نصبه بقالوا أى قالوا قولا ذا سلام أو ذكروا سلاما ﴿ قال سلام ﴾ أى عليكم سلام أو سلام عليكم حياهم بأحسن من تحيتهم وقرىء سلم كحرم فى حرام وقرأ ابن أبى عبلة قال سلاما وعنه أنه قرأ بالرفع فيهما ﴿ فمالبث ﴾ أى إبراهيم ﴿ أن جاء بعجل ﴾ أى فى المجىء به أو ما لبث مجيئه بعجل ﴿ حنيذ ﴾ أى مشوى بالرضف فى الأخدود وقيل سمين يقطر ودكه لقوله بعجل سمين من حنذت الفرس إذا عرقته بالجلال .

﴿ فلما رأى أيديهم لاتصل إليه ﴾ لا يمدون إليه أيديهم للأكل ﴿ نكرهم ﴾ أى أنكرهم يقال نكره وأنكره واستنكره بمعنى وإنما أنكرهم لأنهم كانوا إذا نزل بهم ضيف ولم يأكل من طعامهم ظنوا أنه لم يجىء بخير وقد روى أنهم كانوا ينكتون بقداح كانت فى أيديهم فى اللحم ولا تصل إليه أيديهم وهذا الإنكار منه عليه الصلاة والسلام راجع إلى فعلهم المذكور وأما إنكاره المتعلق بأنفسهم فلا تعلق له برؤية عدم أكلهم وإنما وقع ذلك عند رؤيته لهم لعدم كونهم من جنس ما كان يعهده من الناس ألا يرى إلى قوله تعالى فى سورة الذاريات (سلام قوم منكرون) ﴿ وأوجس منهم ﴾ أى أحس أو اضمر من جهتهم ﴿ خيفة ﴾ لما ظن أن نزولهم لأمر أنكره الله تعالى عليه أولتعذيب قومه ، وإنما أخر المفعول الصريح على الظرف لأن المراد الإخبار بأنه عليه الصلاة والسلام أوجس من جهتهم شيئاهو الخيفة لا أنه أوجس الخيفة من جهتهم لا من جهة غيرهم وتحقيقه أن تأخير ما حقه التقديم يوجب ترقب النفس إليه فيتمكن عند وروده عليها فضل تمكن ﴿ قالوا لا تخف ﴾ ما قالوه بمجرد ماراوا منه مخايل الخوف إزالة له منه بل بعد إظهاره عليه الصلاة والسلام له قال تعالى فى سورة الحجر (قال إنا منكم وجلون) ولم يذكر ذلك ههنا اكتفاء بذلك ﴿ إنا أرسلنا ﴾ ظاهره أنه استئناف فى معنى التعليل للنهى المذكور كما أن قوله تعالى (إنا نبشرك) تعليل لذلك فإن إرسالهم إلى قوم آخرين يوجب أمنهم من

الخوف أى أرسلنا بالعذاب ﴿ إلى قوم لوط ﴾ خاصة إلا أنه ليس كذلك فإن قوله تعالى (قال فما خطبكم أيها المرسلون قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين) صريح فى أنهم قالوه جوابا عن سؤاله عليه الصلاة والسلام وقد أوجز الكلام اكتفاء بذلك ﴿ وامرأته قائمة ﴾ وراء الستر بحيث تسمع محاورتهم أو على رءوسهم للخدمة حسبما هو المعتاد والجملة حال من ضمير قالوا أى قالوه وهى قائمة تسمع مقالتهم ﴿ فضحكت ﴾ سرورا بزوال الخوف أو بهلاك أهل الفساد أو بهما جميعا ، وقيل بوقوع الأمر حسبما كانت تقول فيما سلف ، فإنها كانت تقول لإبراهيم أضمم إليك لوطا فإنى أرى أن العذاب نازل بهؤلاء القوم ، وقيل ضحكت حاضت ، ومنه ضحكت الشجرة إذا سال صمغها وهو بعيد وقرىء بفتح الحاء ﴿ فبشرناها بإسحق ﴾ أى عقبنا سرورها بسرور أتم منه على ألسنة رسلنا ﴿ ومن وراء إسحق يعقوب ﴾ بالنصب على أنه مفعول لما دل عليه قوله بشرناها أى ووهبنا لها من وراء إسحق يعقوب ، وقرىء بالرفع على الابتداء خبره الظرف أى من بعد إسحق يعقوب مولود أو موجود وكلا الإسمين داخل فى البشارة كيحيى أو واقع فى الحكاية بعد أن ولدا فسميا بذلك ، وتوجيه البشارة ههنا إليها مع أن الأصل فى ذلك إبراهيم عليه الصلاة والسلام وقد وجهت إليه حيث قيل (وبشرناه بغلام حليم) (وبشروه بغلام عليم) للإيذان بأن ما بشر به يكون منهما ولكونها عقيمة حريصة على الولد .

﴿ قالت ﴾ استئناف ورد جوابا عن سؤال من سأل وقال فما فعلت إذ بشرت بذلك فقيل قالت ﴿ يا ويلتا ﴾ أصل الويل الخزى ثم شاع فى كل أمر فظيع والألف مبدلة من ياء الإضافة كما فى يالهفا ويا عجبا وقرأ الحسن على الأصل وأمالها أبو عمرو وعاصم فى رواية ومعناه يا ويلتى أحضرى فهذا أوان حضورك وقيل هى ألف الندبة ويوقف عليها بهاء السكت ﴿ أألد وأنا عجوز ﴾ بنت تسعين أو تسع وتسعين سنة ﴿ وهذا ﴾ الذى تشاهدونه ﴿ بعلى ﴾ أى زوجى وأصل البعل القائم بالأمر ﴿ شيخا ﴾ وكان ابن مائة وعشرين سنة ،

ونصبه على الحال والعامل معنى الإشارة وقرىء بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف أى هو شيخ أو خبر بعد خبر أو هو الخبر وبعلى بدل من اسم الإشارة أو بيان له وكلتا الجملتين وقعت حالا من الضمير فى أألد لتقرير ما فيه من الاستبعاد وتعليله أى أألد وكلانا على حالة منافية لذلك وإنما قدمت بيان حالها على بيان حاله عليه الصلاة والسلام لأن مباينة حالها لما ذكر من الولادة أكثر إذ ربما يولد للشيوخ من الشواب أما العجائز داؤهن عقام ولأن البشارة متوجهة إليها صريحا ولأن العكس فى البيان ربما يوهم من أول الأمر نسبة المانع من الولادة إلى جانب ابراهيم عليه الصلاة والسلام وفيه ما لا يخفى من المحذور واقتصارها الاستبعاد على ولادتها من غير تعرض لحال النافلة لأنها المستبعد وأما ولادة ولدها فلا يتعلق بها استبعاد ﴿ إن هذا ﴾ أى ما ذكر من حصول الولد من هرمين مثلنا ﴿ لشىء عجيب ﴾ بالنسبة إلى سنة الله تعالى المسلوكة فيما بين عباده ، وهذه الجملة لتعليل الاستبعاد بالنسبه إلى قدرته سبحانه وتعالى ﴿ قالوا أتعجبين من أمر الله ﴾ أى قدرته وحكمته أو تكوينه أو شأنه أنكروا عليها تعجبيا من ذلك لأنها كانت ناشئه فى بيت النبوة ومهبط الوحى والآيات ومظهر المعجزة والأمور الخارقة للعادات فكان حقها أن تتوفر ولا يزدهيها ما يزدهى سائر النساء من أمثال هذه الخوارق من ألطاف الله تعالى الخفية ولطائف صنعه الفائضة على كل أحد مما يتعلق بذلك مشيئته الأزلية لا سيما على أهل بيت النبوة الذين ليست مرتبتهم عند الله سبحانه كمراتب سائر الناس وأن تسبح الله تعالى وتحمده وتمجده وإلى ذلك أشاروا بقوله تعالى ﴿ رحمة الله ﴾ التى وسعت كل شىء واستتبعت كل خير وإنما وضع المظهر موضع المضمر لزيادة تشريفها ﴿ وبركاته ﴾ أى خيراته النامية المتكاثرة فى كل باب التى من جملتها هبة الأولاد وقيل الرحمة النبوة والبركات الأسباط من بنى إسرائيل لأن الأنبياء منهم وكلهم من ولد إبراهيم عليه الصلاة والسلام ﴿ عليكم أهل البيت ﴾ نصب على المدح أوالاختصاص لأنهم أهل بيت خليل الرحمن وصرف الخطاب

من صيغة الواحدة[1] إلى جمع المذكر لتعميم حكمه لإبراهيم عليه الصلاة والسلام أيضاً ليكون جوابهم لها جوابا له أيضاً إن خطر بباله مثل ما خطر ببالها والجملة كلام مستأنف علل به إنكار تعجبها كأنه قيل ليس المقام مقام التعجيب فإن الله تعالى على كل شيء قدير ولستم يا أهل بيت النبوة والكرامة والزلفى كسائر الطوائف بل رحمته المستتبعة لكل خير الواسعة لكل شيء وبركاته أي خيراته النامية الفائضة منه بواسطة تلك الرحمة الواسعة لازمة لكم لا تفارقكم ﴿ إنه حميد ﴾ فاعل ما يستوجب الحمد ﴿ مجيد ﴾ كثير الخير والإحسان إلى عباده والجملة لتعليل ما سبق من قوله رحمة الله وبركاته عليكم.

﴿فلما ذهب عن إبراهيم الروع﴾ أي ما أوجس منهم من الخيفه واطمأن قلبه بعرفانهم وعرفان سبب مجيئهم والفاء لربط بعض أحوال ابراهيم عليه الصلاة والسلام ببعض غب انفصالها بما ليس بأجنبي من كل وجه بل له مدخل تام في السباق والسياق وتأخير الفاعل عن الظرف لأنه مصب الفائدة فإن بتأخير ما حقه التقديم تبقى النفس منتظرة إلى وروده فيتمكن فيها عند وروده إليها فضل تمكن ﴿ وجاءته البشرى ﴾ إن فسرت البشرى بقولهم لا تخف فسببيه ذهاب الخوف ومجيء السرور للمجادلة المدلول عليها بقوله تعالى ﴿يجادلنا في قوم لوط ﴾ أي جادل رسلنا في شأنهم وعدل إلى صيغه الاستقبال لاستحضار صورتها أو طفق يجادلنا ظاهرة وأما إن فسرت ببشاره الولد أو بما يعمها فلعل سببيتها لها من حيث إنها تفيد زيادة اطمئنان قلبه بسلامته وسلامة أهله كافة ومجادلته إياهم أنه قال لهم حين قالوا له إنا مهلكوا أهل هذه القرية أرأيتم لو كان فيها خمسون رجلا من المؤمنين أتهلكونها قالوا لا قال فأربعون قالوا لا فثلاثون قالوا لا حتى بلغ العشرة قالوا لا قال أرأيتم إن كان فيها رجل مسلم أتهلكونها قالوا لا فعند ذلك قال إن فيها لوطا قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله ، إن قيل المتبادر من هذا الكلام أن يكون إبراهيم عليه السلام قد علم

---

(١) في ٤٣٠ : الوحدة .

أنهم مرسلون لإهلاك قوم لوط قبل ذهاب الروع عن نفسه ولكن لم يقدر على مجادلتهم فى شأنهم لاشتغاله بشأن نفسه فلما ذهب عنه الروع فرغ لها مع أن ذهاب الروع إنما هو قبل العلم بذلك لقوله تعالى (قالوا لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط) قلنا كان لوط عليه السلام على شريعة إبراهيم عليه السلام وقومه مكلفين بها فلما رأى من الملائكة ما رأى خاف على نفسه وعلى كافة أمته التى من جملتهم قوم لوط ولا ريب فى تقدم هذا الخوف على قولهم لاتخف ، وأما الذى علمه عليه السلام بعد النهى عن الخوف فهو اختصاص قوم لوط بالهلاك لا دخولهم تحت العموم فتأمل والله الموفق ﴿ إن إبراهيم لحليم ﴾ غير عجول على الانتقام ممن أساء إليه ﴿ أواه ﴾ كثير التأوه على الذنوب والتأسف على الناس ﴿ منيب ﴾ راجع إلى الله تعالى والمقصود بتعداد صفاته الجميلة المذكورة بيان ما حمله عليه السلام على ما صدر عنه من المجادلة .

﴿ يا إبراهيم ﴾ أى قالت الملائكة يا إبراهيم ﴿ أعرض عن هذا ﴾ الجدال ﴿ إنه ﴾ أى الشأن ﴿ قد جاء أمر ربك ﴾ أى قدره الجارى على وفق قضائه الأزلى الذى هو عبارة عن الإرادة الأزلية والعناية الإلهية المقتضية لنظام الموجودات على ترتيب خاص حسب تعلقها بالأشياء فى أوقاتها وهو المعبر عنه بالقدر ﴿ وإنهم آتيهم عذاب غير مردود ﴾ لا بجدال ولا بدعاء ولا بغيرهما ﴿ ولما جاءت رسلنا لوطا ﴾ قال ابن عباس رضى الله عنهما انطلقوا من عند إبراهيم عليه السلام إلى لوط عليه السلام وبين القريتين أربعة فراسخ ودخلوا عليه فى صور غلمان مرد حسان الوجوه فلذلك ﴿ سىء بهم ﴾ أى ساءه مجيئهم لظنه أنهم أناس فخاف أن يقصدهم قومه ويعجز عن مدافعتهم وقرأ نافع وابن عامر والكسائى وأبو عمرو سىء وسيئت بإشمام السين الضم . روى أن الله تعالى قال للملائكة لا تهلكوهم حتى يشهد عليهم قوم لوط أربع شهادات فلما مشى معهم منطلقا بهم إلى منزله قال لهم أما بلغكم أمر هذه القرية قالوا وما أمرها قال أشهد بالله إنها لشر قرية فى الأرض عملا يقول ذلك أربع مرات فدخلوا معه منزله ولم يعلم بذلك أحد فخرجت امرأته فأخبرت به قومها وقالت إن فى بيت لوط

رجالا ما رأيت مثل وجوهم قط ﴿ وضاق بهم ذرعا ﴾ أى ضاق بمكانهم صدره أو قلبه أو وسعه وطاقته وهو كناية عن شدة الإنقباض[١] للعجز عن مدافعة المكروه والاحتيال فيه وقيل ضاقت نفسه عن هذا الحادث وذكر الذرع مثل وهو المساحة وكأنه قدر البدن مجازا أى إن بدنه ضاق قدره من احتمال ما وقع وقيل الذراع اسم للجارحه من المرفق إلى الأنامل والذرع مدها ومعنى ضيق الذرع فى قوله تعالى (ضاق بهم ذرعا) قصرها كما أن معنى سعتها وبسطها طولها ووجه التمثيل بذلك أن القصير الذراع إذا مدها ليتناول ما يتناول الطويل الذراع تقاصر عنه وعجز عن تعاطيه فضرب مثلا للذى قصرت طاقته دون بلوغ الأمر .

﴿ وقال هذا يوم عصيب ﴾ شديد من عصبه إذا شده ﴿ وجاءه ﴾ أى لوطا وهو فى بيته مع أضيافه ﴿ قومه يهرعون إليه ﴾ أى يسرعون كأنما يدفعون دفعاً لطلب الفاحشة من أضيافه ، والجملة حال من قومه وكذا قوله تعالى : ﴿ ومن قبل ﴾ أى من قبل هذا الوقت ﴿ كانوا يعملون السيئات ﴾ أى جاءوا مسرعين والحال أنهم كانوا منهمكين فى عمل السيئات فضروا بها وتمرنوا فيها حتى لم يبق عندهم قباحتها ولذلك لم يستحيوا مما فعلوا من مجيئهم مهرعين مجاهرين ﴿ قال يا قوم هؤلاء بناتى هن أطهر لكم ﴾ فتزوجوهن وكانوا يطلبونهن من قبل ولا يجيبهم لخبثهم وعدم كفاءتهم لا لعدم مشروعيته فإن تزويج المسلمات من الكفار كان جائزا وقد زوج النبى عليه الصلاة والسلام ابنتيه من عتبة بن أبى لهب وأبى العاص بن الربيع قبل الوحى وهما كافران ، وقيل كان لهم سيدان مطاعان فأراد أن يزوجهما ابنتيه وأيا ما كان فقد أراد به وقاية ضيفه وذلك غاية الكرم ، وقيل ما كان ذلك القول منه مجرى على الحقيقة من إرادة النكاح بل كان ذلك مبالغة فى التواضع لهم وإظهاراً لشدة

---

(١) فى ١٠ . القبض .

امتعاضه مما أوردوا[1] عليه طمعا فى أن يستحيوا منه ويرقوا له إذا سمعوا ذلك فينزجروا عما أقدموا عليه مع ظهور الأمر واستقرار العلم عنده وعندهم بأن لا مناكحة بينهم وهو الأنسب بقولهم لقد علمت مالنا فى بناتك من حق كما ستقف عليه ﴿ فاتقوا الله ﴾ بترك الفواحش أو بإيثارهن عليهم ﴿ ولاتخزون فى ضيفى ﴾ أى لا تفضحونى فى شأنهم فإن اخزاء ضيف الرجل وجاره إخزاء له أو لا تخجلونى من الخزاية وهى الحياء ﴿ أليس منكم رجل رشيد ﴾ يهتدى إلى الحق الصريح ويرعوى عن الباطل القبيح .

﴿ قالوا ﴾ معرضين عما نصحهم به من الأمر بتقوى الله والنهى عن إخزائه مجيبين عن أول كلامه ﴿ لقد علمت مالنا فى بناتك من حق ﴾ مستشهدين بعلمه بذلك يعنون إنك قد علمت ألا سبيل إلى المناكحة بينناوبينك وما عرضك إلا عرض سابرى ولا مطمع لنا فى ذلك ﴿ وإنك لتعلم مانريد ﴾ من إتيان الذكران ولما يئس عليه السلام من ارعوائهم عما هم عليه من الغى ﴿ قال لو أن لى بكم قوة ﴾ أى لفعلت بكم ما فعلت وصنعت ماصنعت كقوله تعالى (ولو أن قرآنا سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى) ﴿ أو آوى إلى ركن شديد ﴾ عطف على أن لى بكم إلى آخره لما فيه من معنى الفعل أى لو قويت على دفعكم بنفسى أو أويت إلى ناصر عزيز قوى أتمنع به عنكم شبهه بركن الجبل فى الشدة والمنعة وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم رحم الله أخى لوطا كان يأوى إلى ركن شديد . روى أنه عليه السلام أغلق بابه دون أضيافه وأخذ يجادلهم من وراء الباب فتسوروا الجدار فلما رأت الملائكة ما على لوط من الكرب ﴿ قالوا ﴾ أى الرسل لما شاهدوا عجزه عن مدافعة قومه ﴿ يالوط إنا رسل ربك لن يصلوا إليك ﴾ بضرر ولا مكروه فافتح الباب ودعنا وإياهم ففتح الباب فدخلوا فاستأذن جبريل عليه السلام

(١) فى ١٠ . مما أرادوه عليه .

ربه رب العزة جل جلاله فى عقوبتهم فأذن له فقام فى الصورة التى يكون فيها فنشر جناحه وله جناحان وعليه وشاح من در منظوم وهو براق الثنايا فضرب بجناحه وجوههم فطمس أعينهم وأعماهم كما قال عز وعلا (فطمسنا أعينهم) فصاروا لا يعرفون الطريق فخرجوا وهم يقولون النجاء فإن فى بيت لوط قوما سحرة ﴿ فأسر بأهلك ﴾ بالقطع من الإسراء وقرأ ابن كثير ونافع بالوصل حيث جاء فى القرآن من السرى والفاء لترتيب الأمر بالإسراء على الإخبار برسالتهم المؤذنة بورود الأمر والنهى من جنابه عز وجل إليه عليه السلام ﴿ بقطع من الليل ﴾ فى طائفة منه .

﴿ ولا يلتفت منكم ﴾ أى لا يتخلف أولا ينظر إلى ورائه ﴿ أحد ﴾ منك ومن أهلك وإنما نهوا عن ذلك ليجدوا فى السير فإن من يلتفت إلى ماوراءه لا يخلو عن أدنى وقفة أو لئلا تروا ما ينزل من العذاب فترقوا لهم ﴿ إلا امرأتك ﴾ استثناء من قوله تعالى (فأسر بأهلك) ويؤيده أنه قرىء فأسر بأهلك بقطع من الليل إلا امرأتك وقرىء بالرفع على البدل من أحد فالالتفات بمعنى التخلف لا بمعنى النظر إلى الخلف كيلا يلزم التناقض بين القراءتين المتواترتين فإن النصب يقتضى كونه عليه السلام غير مأمور بالإسراء بها والرفع كونه مأمورا بذلك والاعتذار بأن مقتضى الرفع إنما ومجرد كونها معهم وذلك لا يستدعى الأمر بالإسراء بها حتى يلزم المناقضة لجواز أن تسرى هى بنفسها كما يروى أنه عليه السلام لما أسرى بأهله تبعتهم فلما سمعت هده العذاب التفتت وقالت يا قوماه فأدركها حجر فقتلها وأن يسرى بها عليه السلام من غير أمر بذلك إذ موجب النصب إنما هو عدم الأمر بالإسراء بها لا النهى عن الإسراء بها حتى يكون عليه السلام بالإسراء بها مخالفا للنهى لايجدى نفعا لأن انصراف الاستثناء إلى الالتفات يستدعى بقاء الأهل على العموم فيكون الإسراء بها مأمورا به قطعاً وفى حمل الأهلية فى إحدى القراءتين على الأهلية الدينية وفى الأخرى على النسبية مع أن فيه ما لا يخفى من التحكم والاعتساف كر على

ما فر منه من المناقضة فالأولى حينئذ جعل الاستثناء على القراءتين من قوله (لا يلتفت) مثل الذى فى قوله تعالى (ما فعلوه) إلا قليل منهم فإن ابن عامر قرأه بالنصب وإن كان الأفصح الرفع على البدل ولا بعد فى كون أكثر القراء على غير الأفصح ولا يلزم من ذلك أمرها بالالتفات بل عدم نهيها عنه بطريق الاستصلاح ولذلك علله على طريقه الاستئناف بقوله ﴿ إنه مصيبها ما أصابهم ﴾ من العذاب وهو إمطار الأحجار وإن لم يصبها الخسف والضمير فى إنه للشأن وقوله تعالى (مصيبها) خبر وقوله (ما أصابهم) مبتدأ والجملة خبر لإن الذى اسمه ضمير الشأن وفيه ما لا يخفى من تفخيم شأن ما أصابهم ولا يحسن جعل الاستثناء منقطعاً على قراءة الرفع .

﴿ إن موعدهم الصبح ﴾ أى موعد عذابهم وهلاكهم تعليل للأمر بالإسراء والنهى عن الالتفات المشعر بالحث على الإسراع ﴿ أليس الصبح بقريب ﴾ تأكيد للتعليل فإن قرب الصبح داع إلى الإسراع فى الإسراء للتباعد عن مواقع العذاب وروى أنه قال للملائكة متى موعد هلاكهم قالوا الصبح قال أريد أسرع من ذلك فقالوا ذلك وإنما جعل ميقات هلاكهم الصبح لأنه وقت الدعة والراحة فيكون حلول العذاب حينئذ أفظع ولأنه أنسب بكون ذلك عبرة للناظرين .

﴿ فلما جاء أمرنا ﴾ أى وقت عذابنا وموعده وهو الصبح ﴿ جعلنا عاليها ﴾ أى عالى قرى قوم لوط وهى التى عبر عنها بالمؤتفكات وهى خمس مدائن فيها أربعمائة ألف ألف ﴿ سافلها ﴾ أى قلبناها على تلك الهيئة وجعل عاليها مفعولا أول للجعل وسافلها مفعولا ثانيا له وإن تحقق القلب بالعكس أيضا لتهويل الأمر وتفظيع الخطب لأن جعل عاليها الذى هو مقارهم ومساكنهم سافلها أشد عليهم وأشق من جعل سافلها عاليها وإن كان مستلزما له. روى أنه جعل جبريل عليه السلام جناحه فى أسفلها ثم رفعها إلى السماء حتى سمع أهل السماء نباح الكلاب وصياح الديكة ثم قلبها عليهم، وإسناد الجعل والأمطار إلى ضميره سبحانه باعتبار أنه المسبب لتفخيم

الأمر وتهويل الخطب ﴿ وأمطرنا عليها ﴾ على أهل المدائن[١] أو شذاذهم ﴿ حجارة من سجيل ﴾ من طين متحجر كقوله (حجارة من طين) وأصله سنك كل فعرب وقيل هو من أسجله إذا أرسله أو أدر عطيته والمعنى من مثل الشيء المرسل أو مثل العطية فى الأدوار أو من السجل أى مما كتب الله تعالى أن يعذبهم به وقيل أصله من سجين أى من جهنم فأبدلت نونه لاما ﴿ منضود ﴾ نضد فى السماء نضدا معدا للعذاب وقيل يرسل بعضه اثر بعض كقطار الأمطار ﴿ مسومة ﴾ معلمة للعذاب وقيل معلمة ببياض وحمرة أو بسيما تتميز به عن حجارة الأرض أو باسم من ترمى به ﴿ عند ربك ﴾ فى خزائنه التى لا يتصرف فيها غيره عز وجل ﴿ وما هى ﴾ أى الحجارة الموصوفة ﴿ من الظالمين ﴾ من كل ظالم ﴿ ببعيد ﴾ فإنهم بسبب ظلمهم مستحقون لها وملابسون بها وفيه وعيد شديد لأهل الظلم كافة . وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه سأل جبريل عليه السلام فقال يعنى ظالمى أمتك ما من ظالم منهم إلا وهو بعرض حجر يسقط عليه من ساعة إلى ساعة ، وقيل الضمير للقرى أى هى قريبة من ظالمى مكة يمرون بها فى مسايرهم وأسفارهم إلى الشام وتذكير البعيد على تأويل الحجارة بالحجر أو إجرائه على موصوف مذكر أى بشىء بعيد أو بمكان بعيد فإنها وإن كانت فى السماء وهى فى غاية البعد من الأرض إلا أنها حين هوت منها فهى أسرع شىء لحوقا بهم فكأنها بمكان قريب منهم . أو لأنه على زنة المصدر كالزفير والصهيل والمصادر يستوى فى الوصف بها المذكر والمؤنث .

شعيب عليه السلام

﴿ وإلى مدين ﴾ أى أولاد مدين بن إبراهيم عليه السلام أو جعل اسماً للقبيلة بالغلبة أو أهل مدين وهو بلد بناه مدين فسمى باسمه ﴿ أخاهم ﴾ أى نسيبهم ﴿ شعيبا ﴾ وهو ابن ميكيل بن يشجر بن مدين وكان يقال له خطيب.

---

(١) المراد بالمدائن الخمس التى سكنها قوم لوط .

الأنبياء لحسن مراجعته قومه والجملة معطوفة على قوله تعالى (وإلى ثمود أخاهم صالحا) أى وأرسلنا إلى مدين أخاهم شعيبا ﴿ قال ﴾ استئناف وقع جوابا عن سؤال نشأ عن صدر الكلام فكأنه قيل فماذا قال لهم فقيل قال كما قال من قبله من الرسل عليهم السلام ﴿ يا قوم اعبدوا الله ﴾ وحده ولا تشركوا به شيئاً (ما لكم من إله غيره) تحقيق للتوحيد وتعليل للأمر به وبعد ما أمرهم بما هو ملاك أمر الدين وأول ما يجب على المكلفين نهاهم عن ترتيب مبادىء ما اعتادوه من البخس والتطفيف عادة مستمرة فقال ﴿ ولا تنقصوا المكيال والميزان ﴾ كى تتوسلوا بذلك إلى بخس حقوق الناس .

﴿ إنى أراكم بخير ﴾ أى ملتبسين بثروة وسعة تغنيكم عن ذلك أو بنعمة من الله تعالى حقها أن تقابل بغير ما تأتونه من المسامحة والتفضل على الناس شكرا عليها أو أراكم بخير فلا تزيلوه بما أنتم عليه من الشر على كل حال علة للنهى عقبت بعلة أخرى أعنى قوله عز وجل ﴿ وإنى أخاف عليكم ﴾ إن لم تنتهوا عن ذلك ﴿ عذاب يوم محيط ﴾ لا يشذ منه شاذ منكم ، وقيل عذاب يوم مهلك من قوله تعالى (وأحيط بثمرة) وأصله من إحاطة العدو ، والمراد عذاب يوم القيامة أو عذاب الاستئصال ووصف اليوم بالإحاطة وهى حال العذاب على الإسناد المجازى وفيه من المبالغة مالا يخفى فإن اليوم زمان يشتمل على ما وقع فيه من الحوادث فإذا أحاط بعذابه فقد اجتمع للمعذب ما اشتمل عليه منه كما إذا أحاط بنعيمه ويجوز أن يكون هذا تعليلا للأمر والنهى جميعا ﴿ ويا قوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط ﴾ أى بالعدل من غير زيادة ولا نقصان فإن الزيادة فى الكيل والوزن وإن كان تفضلا مندوبا إليه لكنها فى الآلة محظورة كالنقص فلعل الزائد للاستعمال عند الاكتيال والناقص للاستعمال وقت الكيل ، وإنما أمر بتسويتهما وتعديلهما صريحا بعد النهى عن نقصهما مبالغة فى الحمل على الإيفاء والمنع من البخس وتنبيها على أنه لا يكفيهم مجرد الكف عن النقص والبخس بل يجب عليهم إصلاح ما أفسدوه وجعلوه معيارا لظلمهم وقانونا لعدوانهم ﴿ ولا تبخسوا الناس ﴾ بسبب نقصهما وعدم اعتدالهما ﴿ أشياءهم ﴾

التى يشترونها بهما وقد صرح بالنهى عن البخس بعد ما علم ذلك فى ضمن النهى عن نقص المعيار والأمر بإيفائه اهتماما بشأنه وترغيبا فى ايفاء الحقوق بعد الترهيب والزجر عن نقصها ويجوز أن يكون المراد بالأمر بإيفاء المكيال والميزان الأمر بإيفاء المكيلات والموزونات ويكون النهى عن البخس عاما للنقص فى المقدار وغيره تعميما بعد التخصيص كما فى قوله تعالى :

﴿ ولا تعثوا فى الأرض مفسدين ﴾ فإن العثى يعم نقص الحقوق وغيره من أنواع الفساد وقيل البخس المكس كأخذ العشور فى المعاملات قال زهير ابن أبى سلمى :

أفى كل أسواق العراق إتاوة وفى كل ما باع امرؤ مكس درهم

والعثى فى الأرض السرقة وقطع الطريق والغارة وفائدة الحال إخراج ما يقصد به الإصلاح كما فعله الخضر عليه السلام من خرق السفينة وقتل الغلام وقيل معناه ولا تعثوا فى الأرض مفسدين أمر آخرتكم ومصالح دينكم ﴿ بقية الله ﴾ أى ما أبقاه لكم من الحلال بعد التنزه عن تعاطى المحرمات ﴿ خير لكم ﴾ مما تجمعون بالبخس والتطفيف فإن ذلك هباء منثورا بل شر محض وإن زعمتم أن فيه خيرا كقوله تعالى (يمحق الله الربو ويربى الصدقات) ﴿ إن كنتم مؤمنين ﴾ بشرط أن تؤمنوا فإن خيريتها باستتباع الثواب مع النجاة وذلك مشروط بالإيمان لامحالة أو إن كنتم مصدقين لى فى مقالتى لكم وقيل الطاعات كقوله عز وجل والباقيات الصالحات خير عند ربك وقرىء تقية الله بالفوقانية وهى تقواه عن المعاصى ﴿ وما أنا عليكم بحفيظ ﴾ أحفظكم من القبائح أو أحفظ عليكم أعمالكم فأجازيكم وإنما أنا ناصح مبلغ وقد أعذرت إذ أنذرت ولم آل فى ذلك جهدا أو ما أنا بحافظ ومستبق عليكم نعم الله تعالى أن لم تتركوا ما أنتم عليه من سوء الصنيع .

﴿ قالوا ياشعيب أصلوتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا ﴾ من الأوثان

أجابوا بذلك أمره عليه السلام إياهم بعبادة الله وحده المتضمن لنهيهم عن عبادة الأصنام ولقد بالغوا فى ذلك وبلغوا أقصى مراتب الخلاعة والمجون والضلال حيث لم يكتفوا بإنكار الوحى الآمر بذلك حتى أدعوا أن لا أمر به من العقل واللب أصلا وأنه من أحكام الوسوسة والجنون وعلى ذلك بنوا استفهامهم وقالوا بطريق الاستهزاء أصلاتك التى هى من نتائج الوسوسة وأفاعيل المجانين تأمرك بأن نترك عبادة الأوثان التى توارثناها أبا عن جد وإنما جعلوه عليه السلام مأمورا مع أن الصادر عنه إنما هو الأمر بعبادة الله تعالى وغير ذلك من الشرائع ، لأنه عليه السلام لم يكن يأمرهم بذلك من تلقاء نفسه بل من جهة الوحى وأنه كان يعلمهم بأنه مأمور بتبليغه إليهم وتخصيصهم بإسناد الأمر إلى الصلاة من بين سائر أحكام النبوة لأنه عليه الصلاة والسلام كان كثير الصلاة معروفا بذلك ، وكانوا إذا رأوه يصلى يتغامزون ويتضاحكون فكانت هى من بين سائر شعائر الدين ضحكة لهم وقرىء أصلواتك ﴿ أو أن نفعل فى أموالنا مانشاء ﴾ جواب عن أمره عليه السلام بإيفاء الحقوق ونهيه عن البخس والنقص معطوف على ماأى أو أن نترك أن نفعل فى أموالنا مانشاء من الأخذ والإعطاء والزيادة والنقص وقرىء بالتاء فى الفعلين عطفا على مفعول تأمرك أى أصلاتك تأمرك أن تفعل أنت فى أموالنا ما تشاء وتجويز العطف على ما قيل يستدعى أن يراد بالترك معنيان متخالفان والمراد بفعله عليه السلام إيجاب الإيفاء والعدل فى معاملاتهم لا نفس الإيفاء فإن ذلك ليس من أفعاله عليه السلام بل من أفعالهم وإنما لم نقل عطفاً على أن نترك لأن الترك ليس مأمورا به على الحقيقة بل المأمور به تكليفه عليه السلام إياهم وأمره بذلك، والمعنى أصلاتك تأمرك أن تكلفنا أن نترك ما يعبد آباؤنا وحمله على معنى أصلاتك تأمرك بما ليس فى وسعك وعهدتك من أفاعيل غيرك ليكون ذلك تعريضا منهم بركاكة رأيه عليه السلام واستهزاء به من تلك الجهة يأباه دخول الهمزة على الصلاة دون الأمر ويستدعى أن يصدر عنه عليه السلام فى أثناء الدعوة ما يدل على ذلك أو يوهمه وأنى ذلك

فتأمل وقرىء بالنون فى الأول والتاء فى الثانى عطفا على أن تترك أى أو أن نفعل نحن فى أموالنا عند المعاملة ما تشاء أنت من التسوية والإيفاء .

﴿ إنك لأنت الحليم الرشيد ﴾ وصفوه عليه السلام بالوصفين على طريقة التهكم ، وإنما أرادوا بذلك وصفه بضديهما كقول الخزنة (ذق إنك أنت العزيز الكريم) ويجوز أن يكون تعليلا لما سبق من استبعاد ما ذكروه على معنى إنك لأنت الحليم الرشيد على زعمك ، وأما وصفه بهما على الحقيقة فيأباه مقام الاستهزاء ، اللهم إلا أن يراد بالصلاة الدين كما قيل ﴿ قال ياقوم أرأيتم إن كنت على بينة ﴾ أى حجة واضحة وبرهان نير عبر عما آتاه الله تعالى من النبوة والحكمة ردا على مقالتهم الشنعاء فى جعلهم أمره ونهيه غير مستند إلى سند ﴿ من ربى ﴾ ومالك أمورى وإيراد حرف الشرط مع جزمه عليه السلام بكونه على ما هو عليه من البينات والحجج لاعتبار حال المخاطبين ومراعاة حسن المحاورة معهم كما ذكرناه فى نظائره ﴿ ورزقنى منه ﴾ أى من لديه ﴿ رزقا حسنا ﴾ هو النبوة والحكمة أيضاً عبر عنهما بذلك تنبيها على أنهما مع كونهما بينة رزق حسن كيف لا وذلك مناط الحياة الأبدية له ولأمته وجواب الشرط محذوف يدل عليه فحوى الكلام أى أتقولون والمعنى إنكم نظمتمونى فى سلك السفهاء والغواة وعددتم ما صدر عنى من الأوامر والنواهى من قبيل مالا يصح أن يتفوه به عاقل وجعلتموه من أحكام الوسوسة والجنون واستهزأتم بى وبأفعالى حتى قلتم إن ما أمرتكم به من التوحيد وترك عبادة الأصنام والاجتناب عن البخس والتطفيف ليس مما يأمر به آمر العقل ويقضى به قاضى الفطنة ، وإنما تأمر به صلاتك التى هى من أحكام الوسوسة والجنون فأخبرونى إن كنت من جهة ربى ومالك أمورى ثابتا على النبوة والحكمة التى ليس وراءها غاية للكمال ولا مطمح لطامح ورزقنى بذلك رزقا حسنا أتقولون فى شأنى وشأن أفعالى ما تقولون مما لا خير فيه ولا شر وراءه هذا هو الجواب الذى يستدعيه السباق والسياق ويساعده النظم الكريم

وأما ما قيل من أن المحذوف أيصح لى أن لا آمركم بترك عبادة الأوثان والكف عن المعاصى أوهل يسع لى مع هذا الإنعام الجامع للسعادات الروحانية والجسمانية أن أخون فى وحيه وأخالفه فى أمره ونهيه فبمعزل من ذلك وإنما يناسب تقديره إن حمل كلامهم على الحقيقة وأريد بالصلاة الدين على معنى أدينك يأمرك أن تكلفنا بترك عبادة آلهتنا القديمة وترك التصرف المطلق فى أموالنا وتخالفنا فى ذلك وتشق عصانا وهذا مما لا ينبغى أن يصدر عنك فإنك أنت المشهور بالحلم الفاضل والرشد الكامل فيما بيننا كما كان قول قوم صالح قد كنت فينا مرجوا قبل هذا مسرودا على ذلك النمط فأجيبوا بما أجيبوا به وعلى هذا الوجه يكون المراد بالرزق الحسن الحلال الذى آتاه الله تعالى والمعنى حينئذ أخبرونى إن كنت نبيا من عند الله تعالى ورزقنى مالا حلالا أستغنى به عن العالمين أيصح أن أخالف أمره وأوافقكم فيما تأتون وما تذرون .

﴿ وما أريد ﴾ بنهيى إياكم عما أنهاكم عنه من البخس والتطفيف ﴿ أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه ﴾ أى أقصده بعد ما وليتم عنه وأستبد به دونكم يقال خالفت زيدا إلى كذا إذا قصدته وهو مول عنه وخالفته عن كذا إذا كان الأمر على العكس ﴿ إن أريد ﴾ بما أباشره من الأمر والنهى ﴿ إلا الإصلاح ﴾ إلا أن أصلحكم بالنصيحة والموعظة ﴿ ما استطعت ﴾ أى مقدار ما استطعته من الإصلاح والتقييد به للاحتراز عن الاكتفاء بالإصلاح فى الجملة لا عن إرادة ما ليس فى وسعه منه ﴿ وما توفيقى ﴾ أى كونى موفقا لتحقيق ما أنتحيه من إصلاحكم ﴿ إلا بالله ﴾ أى بتأييده ومعونته بل الإصلاح من حيث الخلق مستند إليه سبحانه وإنما أنا من مباديه الظاهرة قاله عليه السلام تحقيقا للحق وإزاحة لما عسى يوهمه إسناد الاستطاعة إليه بإرادته من استبداده بذلك ﴿ عليه توكلت ﴾ فى ذلك معرضا عما عداه فإنه القادر على كل مقدور وما عداه عاجز محض فى حد ذاته بل معدوم ساقط عن درجة الاعتبار بمعزل عن مرتبة الاستمداد به والاستظهار ﴿ وإليه أنيب ﴾ أى

أرجع فيما أنا بصدده ويجوز أن يكون المراد وما كونى موفقا لإصابة الحق والصواب فى كل ما آتى وأذر إلا بهدايته ومعونته عليه توكلت ، وهو إشارة إلى محض التوحيد الذاتى والفعلى وإليه أنيب ، أى عليه أقبل بشراشر نفسى فى مجامع أمورى وإيثار صيغة الاستقبال على الماضى الأنسب للتقرر والتحقق كما فى التوكل لاستحضار الصورة والدلالة على الاستمرار ولا يخفى ما فى جوابه عليه السلام من مراعاة لطف المراجعة ورفق الاستنزال والمحافظة على قواعد حسن المجاراة والمحاورة وتمهيد معاقد الحق بطلب التوفيق من جناب الله تعالى والاستعانة به فى أموره ، وحسم أطماع الكفار وإظهار الفراغ عنهم وعدم المبالاة بمعاداتهم وأما تهديدهم بالرجوع إلى الله تعالى للجزاء كما قيل فلا لأن الإنابة إنما هى الرجوع الاختيارى بالفعل إلى الله تعالى لا الرجوع الاضطرارى للجزاء أو ما يعمه ﴿ ويا قوم لا يجرمنكم ﴾ أى لا يكسبنكم ، من جرمته ذنبا مثل كسبته مالا ﴿ شقاقى ﴾ معاداتى وأصلهما أن أحد المتعاديين يكون فى عدوة وشق والآخر فى آخر ﴿ أن يصيبكم ﴾ مفعول ثان ليجرمنكم أى لا تكسبكم معاداتكم لى أن يصيبكم ﴿ مثل ما أصاب قوم نوح ﴾ من الغرق ﴿ أو قوم هود ﴾ من الريح ﴿ أو قوم صالح ﴾ من الصيحة والرجفة وقرأ ابن كثير بضم الياء من أجرمته ذنبا إذا جعلته جارما له أى كاسبا وهو منقول من جرم المتعدى إلى مفعول واحد كما نقل أكسبه المال من كسب المال فكما لا فرق بين كسبته مالا وأكسبته إياه لا فرق بين جرمته ذنبا وأجرمته إياه فى المعنى إلا أن الأول أصح وأدور على ألسنة الفصحاء وقرأ أبو حيوة مثل ما أصاب بالفتح لإضافته إلى غير متمكن كقوله :

لم يمنع الشرب منها غير أن نطقت حمامة فى غصون ذات أوقال

وهذا وإن كان بحسب الظاهر نهيا للشقاق عن كسب إصابة العذاب لكنه فى الحقيقة نهى للكفرة عن مشاقته عليه السلام على ألطف أسلوب وأبدعه كما مر فى سورة المائدة عند قوله تعالى : (ولا يجرمنكم شنآن قوم) الآية

﴿ وما قوم لوط منكم ببعيد ﴾ زمانا أو مكانا ، فإن لم تعتبروا بمن قبلهم من الأمم المعدودة فاعتبروا بهم فكأنه إنما غير أسلوب التحذير بهم ولم يصرح بما أصابهم بل اكتفى بذكر قربهم إيذانا بأن ذلك مغن عن ذكره لشهرة كونه منظوما في سمط[1] ما ذكر من دواهي الأمم المرقومة أو ليسوا ببعيد منكم في الكفر والمعاصي فلا يبعد أن يصيبكم مثل ما أصابهم ، وإفراد البعيد مع تذكيره لأن المراد وما إهلاكهم على نية المضاف أو وما هم بشيء بعيد لأن المقصود إفادة عدم بعدهم على الإطلاق لا من حيث خصوصية كونهم قوما أو ما هم في زمان بعيد أو مكان بعيد ولا يبعد أن يكون ذلك لكونه على زنة المصادر كالنهيق والشهيق ، ولما أنذرهم عليه السلام بسوء عاقبة صنيعهم عقبه طمعا في ارعوائهم عما كانوا فيه يعمهون من طغيانهم بالحمل على الاستغفار والتوبة فقال :

﴿ واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه ﴾ مر تفسير مثله في أول السورة ﴿ إن ربي رحيم ﴾ عظيم الرحمة للتائبين ﴿ ودود ﴾ مبالغ في فعل ما يفعل البليغ المودة بمن يوده من اللطف والإحسان وهذا تعليل للأمر بالاستغفار والتوبة وحث عليهما ﴿ قالوا يا شعيب ما نفقه كثيراً مما تقول ﴾ الفقه معرفة غرض المتكلم من كلامه أي ما نفهم مرادك ، وإنما قالوه بعد ما سمعوا منه دلائل الحق المبين على أحسن وجه وأبلغه وضاقت عليهم الحيل وعيت بهم العلل فلم يجدوا إلى محاورته سبيلا سوى الصدود عن منهاج الحق والسلوك إلى سبيل الشقاء كما هو ديدن المفحم المحجوج يقابل البينات بالسب والإبراق والإرعاد فجعلوا كلامه المشتمل على فنون الحكم والمواعظ وأنواع العلوم والمعارف من قبيل مالا يفقه معناه ولا يدرك فحواه وأدمجوا في ضمن ذلك أن في تضاعيفه ما يستوجب أقصى ما يكون من المؤاخذة والعقاب ولعل ذلك ما فيه من التحذير

---

(١) في ١٠ : في سلك .

من عواقب الأمم السالفة ولذلك قالوا ﴿ وإنا لنراك فينا ﴾ فيما بيننا ﴿ضعيفا﴾ لاقوة لك ولا قدرة على شيء من الضر والنفع والإيقاع والدفع ﴿ ولولا رهطك ﴾ لولا مراعاة جانبهم لا لولاهم يمانعوننا ويدافعوننا ﴿ لرجمناك ﴾ فإن ممانعة الرهط وهو اسم للثلاثة إلى السبعة أو إلى العشرة لهم وهم ألوف مؤلفة مما لا يكاد يتوهم وقد أيد ذلك بقوله عز وجل ﴿وما أنت علينا بعزيز﴾ مكرم محترم حتى نمتنع من رجمك ، وإنما نكف عنه للمحافظة على حرمة رهطك الذين ثبتوا على ديننا ولم يختاروك علينا ولم يتبعوك دوننا ، وإيلاء الضمير حرف النفي وإن لم يكن الخبر فعلياً غير خال عن الدلالة على رجوع النفي إلى الفاعل دون الفعل لا سيما مع قرينة قوله ولولا رهطك كأنه قيل وما أنت علينا بعزيز بل رهطك هم الأعزة علينا وحيث كان غرضهم من عظيمتهم هذه عائدا إلى نفي ما فيه عليه السلام من القوة والعزة الربانيتين حسبما يوجبه كونه على بينة من ربه مؤيداً من عنده ويقتضيه قضية طلب التوفيق منه والتوكل عليه والإنابة إليه وإلى إسقاط ذلك كله عن درجة الاعتداد به والاعتبار ﴿ قال ﴾ عليه السلام فى جوابهم ﴿ يا قوم أرهطى أعز عليكم من الله ﴾ فإن الاستهانة بمن لا يتعزز إلا به عز وجل استهانة بجنابه العزيز وإنما أنكر عليهم أعزية رهطه[1] منه تعالى مع أن ما أثبتوه إنما هو مطلق عزة رهطه لا أعزيتهم منه عز وجل مع الاشتراك فى أصل العزة لتثنية التقريع وتكرير التوبيخ حيث أنكر عليهم أولا ترجيح جنبة الرهط على جنبه[2] الله تعالى حظاً من العزة أصلا ﴿ واتخذتموه ﴾ بسبب عدم اعتدادكم بمن لا يرد ولا يصدر إلا بأمره ﴿ وراءكم ظهريا ﴾ أى شيئا منبوذا وراء الظهر[3] منسياً لا يبالى به منسوب إلى الظهر والكسر لتغيير النسب كالأمسى فى النسبة إلى الأمس ﴿ إن ربى بما

(١) فى ١٠ : عزة رهطه
(٢) فى ١٠ : على جناب
(٣) فى ١٠ : وراء ظهوركم

تعملون ﴾ من الأعمال السيئة التي من جملتها عدم مراعاتكم لجانبه ﴿ محيط ﴾ لا يخفى عليه منها خافية وإن جعلتموه منسيا فيجازيكم عليها ويحتمل أن يكون الإنكار للرد والتكذيب فإنهم لما ادعوا أنهم لا يكفون عن رجمه عليه السلام لقوته وعزته بل لمراعاة جانب رهطه رد عليهم ذلك بأنكم ما قدرتم الله حق قدره العزيز ولم تراعوا جنابه القوى فكيف تراعون جانب رهطى الأذلة .

﴿ ويا قوم اعملوا ﴾ لما رأى عليه السلام إصرارهم على الكفر وأنهم لا يرعوون عماهم عليه من المعاصي حتى اجترأوا على العظيمة التي هي الاستهانة به والعزيمة على رجمه لولا حرمة رهطه قال لهم على طريقة التهديد اعملوا ﴿ على مكانتكم ﴾ أي على غاية تمكنكم واستطاعتكم يقال مكن مكانه إذا تمكن أبلغ التمكن وإنما قاله عليه السلام ردا لما ادعوا أنهم أقوياء قادرون على رجمه وأنه ضعيف فيما بينهم لا عزة له أو على ناحيتكم وجهتكم التي أنتم عليها من قولهم مكان ومكانة كمقام ومقامة والمعنى اثبتوا على ما أنتم عليه من الكفر والمشاقة لي وسائر ما أنتم عليه مما لا خير فيه وأبذلوا جهدكم في مضارتي ، وإيقاع ما في نيتكم وإخراج ما في أمنيتكم من القوة إلى الفعل ﴿ وإني عامل ﴾ على مكانتي حسبما يؤيدني الله ويوفقني بأنواع التاييد والتوفيق ﴿ سوف تعلمون ﴾ لما هددهم عليه السلام بقوله اعملوا على مكانتكم إني عامل كان مظنة أن يسأل منهم سائل فيقول فماذا يكون بعد ذلك فقيل سوف تعلمون ﴿ من يأتيه عذاب يخزيه ﴾ وصف العذاب بالإخزاء تعريضا بما أوعدوه عليه السلام به من الرجم فإنه مع كونه عذابا فيه خزي ظاهر حيث لا يكون إلا بجناية عظيمة توجبه ﴿ ومن هو كاذب ﴾ عطف على من يأتيه لا على أنه قسيمه بل حيث أوعدوه بالرجم وكذبوه قيل سوف تعلمون من المعذب ومن الكاذب وفيه تعريض بكذبهم في ادعائهم القوة والقدرة على رجمه عليه السلام وفي نسبته إلى الضعف والهوان وفي ادعائهم الإبقاء عليه لرعاية جانب الرهط والاختلاف بين المعطوفين بالفعلية والاسمية لأن كذب الكاذب ليس بمرتقب كإتيان العذاب

بل إنما المرتقب ظهور الكذب السابق المستمر ومن إما استفهامية معلقة للعلم عن العمل كانه قيل سوف تعلمون أينا يأتيه عذاب يخزيه وأينا كاذب وإما موصولة أى سوف تعرفون الذى يأتيه عذاب والذى هو كاذب ﴿وارتقبوا﴾ وانتظروا مآل ما أقول .

﴿إنى معكم رقيب﴾ منتظر فعيل بمعنى الراقب كالصريم أو المراقب كالعشير أو المرتقب كالرفيع وفى زيادة معكم إظهار منه عليه السلام لكمال الوثوق بأمره ﴿ولما جاء أمرنا﴾ أى عذابنا كما ينبىء عنه قوله تعالى (سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه) أو وقته فإن الارتقاب مؤذن بذلك ﴿نجينا شعيبا والذين آمنوا معه برحمة منا﴾ وهى الإيمان الذى وفقناهم له أو برحمة كائنة منالهم وإنما ذكر بالواو كما فى قصة عاد لما أنه لم يسبقه فيها ذكر وعد يجرى مجرى السبب المقتضى لدخول الفاء فى معلوله كما فى قصتى صالح ولوط ، فإنه قد سبق هنالك سابقة الوعد بقوله (ذلك وعد غير مكذوب) وقوله (إن موعدهم الصبح) ﴿وأخذت الذين ظلموا﴾ عدل إليه عن الضمير تسجيلا عليهم بالظلم وإشعارا بأن ما أخذهم إنما أخذهم بسبب ظلمهم الذى فصل فيما سبق فنونه ﴿الصيحة﴾ قيل صاح بهم جبريل عليه السلام فهلكوا وفى سورة الأعراف فأخذتهم الرجفة وفى سورة العنكبوت فأخذتهم الرجفة أى الزلزلة ، ولعلها من روادف الصيحة المستتبعة لتموج الهواء المفضى إليها كما مر فيما قبل ﴿فأصبحوا فى ديارهم جاثمين﴾ ميتين لازمين لأماكنهم لا براح لهم منها ولما لم يجعل متعلق العلم فى قوله تعالى (سوف تعلمون من يأتيه عذاب) إلخ نفس مجىء العذاب بل من يجيئه ذلك جعل مجيئه بعد ذلك أمراً مسلم الوقوع غنيا عن الإخبار به حيث جعل شرطا وجعل تنجية شعيب عليه السلام وإهلاك الكفرة جوابا له ومقصود الإفادة وإنما قدم تنجيته اهتماما بشأنها وإيذانا بسبق الرحمة التى هى مقتضى الربوبية على الغضب الذى يظهر أثره بموجب جرائرهم وجرائمهم ﴿كأن لم يغنوا﴾ أى لم يقيموا ﴿فيها﴾ متصرفين فى أطرافها متقلبين فى أكنافها ﴿ألا

بعداً لمدين كما بعدت ثمود ﴾ العدول عن الإضمار إلى الإظهار ليكون أدل على طغيانهم الذى أداهم إلى هذه المرتبة وليكون أنسب بمن شبه هلاكهم بهلاكهم أعنى ثمود ، وإنما شبه هلاكهم بهلاكهم لأنهما أهلكتا بنوع من العذاب وهو الصيحة ، غير أن هؤلاء صيح بهم من فوقهم وأولئك من تحتهم وقرىء بعدت بالضم على الأصل فإن الكسر تغيير لتخصيص معنى البعد بما يكون سبب الهلاك والبعد مصدر لهما والبعد مصدر للمكسور .

موسى عليه السلام

﴿ ولقد أرسلنا موسى بآياتنا ﴾ وهى الآيات التسع المفصلات التى هى العصا واليد البيضاء والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم ونقص الثمرات والأنفس ومن جعلهما آية واحدة وعد منها إظلال الجبل وليس كذلك فإنه لقبول أحكام التوراة حين أباه بنو اسرائيل والباء متعلقة بمحذوف وقع حالا من مفعول أرسلنا أو نعتا لمصدره المؤكد أى أرسلناه حال كونه ملتبسا بآياتنا أو أرسلناه إرسالا ملتبساً ﴿ وسلطان مبين ﴾ هو المعجزات الباهرة منها أو هو العصا ، والإفراد بالذكر لإظهار شرفها لكونها أبهرها أو المراد بالآيات ما عداها أو هما عبارتان عن شىء واحد ، أى أرسلناه بالجامع بين كونه آياتنا وبين كونه سلطانا له على نبوته واضحاً فى نفسه أو موضحا إياها من أبان لازما ومتعديا أو هو الغلبة والاستيلاء كقوله تعالى (ونجعل لكما سلطانا) ويجوز أن يكون المراد ما بينه عليه السلام فى تضاعيف دعوته حين قال له فرعون من ربكما ، فما بال القرون الأولى ، من الحقائق الرائقة والدقائق اللائقة وجعله عبارة عن التوراة وإدراجها فى جملة الآيات يرده قوله عز وجل ﴿ إلى فرعون وملئه ﴾ فإن نزولها إنما كان بعد مهلك فرعون وقومه قاطبة ليعمل بها بنو إسرائيل فيما يأتون وما يذرون وأما فرعون وقومه فإنما كانوا مأمورين بعبادة رب العالمين عز سلطانه وترك العظيمة الشنعاء التى كان يدعيها الطاغية وتقبلها منه فئته الباغية ، وبإرسال بنى إسرائيل من الأسر والقسر وتخصيص ملئه بالذكر مع عموم رسالته عليه السلام لقومه كافة لأصالتهم فى الرأى وتدبير

الأمور واتباع غيرهم لهم فى الورود والصدور وإنما لم يصرح بكفر فرعون بآيات الله تعالى وانهما كه فيما كان عليه من الضلال والإضلال بل اقتصر على ذكر شأن ملئه فقال :

﴿ فاتبعوا أمر فرعون ﴾ أى أمره بالكفر بما جاء به موسى عليه السلام من الحق المبين للإيذان بوضوح حاله فكأن كفره وأمر ملئه بذلك أمر محقق الوجود غير محتاج إلى الذكر صريحا ، وإنما المحتاج إلى ذلك شأن ملئه المترددين بين هاد إلى الحق وداع إلى الضلال فنعى عليهم سوء اختيارهم وايراد الفاء فى اتباعهم المترتب على أمر فرعون المبنى على كفره المسبوق بتبليغ الرسالة للإشعار بمفاجأتهم فى الاتباع ومسارعة فرعون إلى الكفر وأمرهم به فكان ذلك كله لم يتراخ عن الإرسال والتبليغ بل وقع جميع ذلك فى وقت واحد فوقع إثر ذلك اتباعهم ويجوز أن يراد بأمر فرعون شأنه المشهور وطريقته الزائغة فيكون معنى فاتبعوا فاستمروا على الاتباع والفاء مثل ما فى قولك وعظته فلم يتعظ وصحت به فلم ينزجر ، فإن الإتيان بالشيء بعد وروده ما يوجب الإقلاع عنه وإن كان استمرارا عليه لكنه بحسب العنوان فعل جديد وصنع حادث فتأمل . وترك الإضمار لدفع توهم الرجوع إلى موسى عليه السلام من من أول الأمر ولزيادة تقبيح حال المتبعين ، فإن فرعون علم فى الفساد والإفساد والضلال والإضلال فاتباعه لفرط الجهالة وعدم الاستبصار وكذا الحال فى قوله تعالى ﴿ وما أمر فرعون برشيد ﴾ الرشد ضد الغى وقد يراد به محمودية العاقبة فهو على الأول بمعنى المرشد حقيقة لغوية والإسناد مجازى وعلى الثانى مجاز والإسناد حقيقى ﴿ يقدم قومه ﴾ جميعا من الأشراف وغيرهم ﴿ يوم القيامة ﴾ أى يتقدمهم من قدمه بمعنى تقدمه وهو استئناف لبيان حاله فى الآخرة أى كما كان قدوة لهم فى الضلال كذلك يتقدمهم إلى النار وهم يتبعونه أو لتوضيح عدم صلاح مآل أمره وسوء عاقبته ﴿ فأوردهم النار ﴾ أى يوردهم وإيثار صيغة الماضى للدلالة على تحقق الوقوع لا محالة شبه فرعون بالفارط الذى يتقدم

الواردة إلى الماء وأتباعه بالواردة والنار بالماء الذى يردونه ثم قيل ﴿ وبئس الورد المورود ﴾ أى بئس الورد الذى يردونه النار لأن الورد إنما يراد لتسكين العطش وتبريد الأكباد والنار على ضد ذلك .

﴿ وأتبعوا ﴾ أى الملأ الذين اتبعوا أمر فرعون ﴿ فى هذه ﴾ أى فى الدنيا ﴿ لعنة ﴾ عظيمة حيث يلعنهم من بعدهم من الأمم إلى يوم القيامة ﴿ ويوم القيامة ﴾ أيضا حيث يلعنهم أهل الموقف قاطبة فهى تابعة لهم حينما ساروا دائرة معهم أينما داروا فى الموقف فكما اتبعوا فرعون اتبعتهم اللعنة فى الدارين جزاء وفاقا ، واكتفى ببيان حالهم الفظيع وشأنهم الشنيع عن بيان حال فرعون إذ حين كان حالهم هكذا فما ظنك بحال من أغواهم وألقاهم فى هذا الضلال البعيد وحيث كان شأن الأتباع أن يكونوا أعوانا للمتبوع جعلت اللعنة رفدا لهم على طريقة التهكم فقيل ﴿ بئس الرفد المرفود ﴾ أى بئس العون المعان وقد فسر الرفد بالعطاء ولا يلائمه المقام وأصله مايضاف إلى غيره ليعمده والمخصوص بالذم محذوف أى رفدهم وهى اللعنة فى الدارين وكونه مرفودا من حيث أن كل لعنة منها معينة وممدة لصاحبتها ومؤيدة لها ﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى ما قص من أنباء الأمم وبعده باعتبار تقضيه فى الذكر والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم وهو مبتدأ خبره ﴿ من أنباء القرى ﴾ المهلكة بما جنته أيدى أهلها ﴿ نقصه عليك ﴾ خبر بعد خبر أى ذلك النبأ بعض أنباء القرى مقصوص عليك ﴿ منها ﴾ أى من تلك القرى ﴿ قائم وحصيد ﴾ أى ومنها حصيد حذف لدلالة الأول عليه شبه ما بقى منها بالزرع القائم على ساقه وما عفا وبطل بالحصيد والجملة مستأنفة لا محل لها من الإعراب ﴿ وما ظلمناهم ﴾ بأن أهلكناهم ﴿ ولكن ظلموا أنفسهم ﴾ بأن جعلوها عرضة للهلاك باقتراف مايوجبه ﴿ فما أغنت عنهم ﴾ فما نفعتهم ولادفعت بأس الله تعالى عنهم ﴿ آلهتهم التى يدعون ﴾ أى يعبدونها ﴿ من دون الله ﴾ أوثر صيغة المضارع حكاية للحال الماضية أو دلالة على استمرار عبادتهم لها ﴿ من شىء ﴾ فى موضع المصدر

أى شيئا من الإغناء ﴿ لما جاء أمر ربك ﴾ أى حين مجيء عذابه وهو منصوب بأغنت وقرىء آلهتهم اللاتى ويدعون على البناء للمجهول ﴿ وما زادوهم غير تتبيب ﴾ أى إهلاك وتخسير فإنهم إنما هلكوا وخسروا بسبب عبادتهم لها .

﴿ وكذلك ﴾ أى ومثل ذلك الأخذ الذى مر بيانه وهو رفع على الابتداء وخبره قوله ﴿ أخذ ربك ﴾ وقرىء أخذ ربك فمحل الكاف النصب على أنه مصدر مؤكد ﴿ إذا أخذ القرى ﴾ أى أهلها وإنما أسند إليها للإشعار بسريان أثره إليها حسبما ذكر وقرى إذ أخذ ﴿ وهى ظالمة ﴾ حال من القرى وهى فى الحقيقة لأهلها لكنها لما أقيمت مقامهم فى الأخذ أجريت الحال عليها وفائدتها الإشعار بأنهم إنما أخذوا بظلمهم ليكون ذلك عبرة لكل ظالم ﴿ إن فى ذلك ﴾ أى فى أخذه تعالى للأمم الغابرة[1] أو فى قصصهم ﴿ لآية ﴾ لعبرة ﴿ لمن خاف عذاب الآخرة ﴾ فإنه المعتبر به حيث يستدل بما حاق بهم من العذاب الشديد بسبب ما عملوا من السيئات على أحوال عذاب الآخرة وأما من أنكر الآخرة وأحال فناء العالم وزعم أن ليس هو ولا شىء من أحواله مستندا إلى الفاعل المختار وأن ما يقع فيه من الحوادث فإنما يقع لأسباب تقتضيه من أوضاع فلكية تتفق فى بعض الأوقات لا لما ذكر من المعاصى التى يقترفها الأمم الهالكة فهو بمعزل من هذا الاعتبار تبالهم ولما لهم من الأفكار ﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى يوم القيامة المدلول عليه بذكر الآخرة ﴿ يوم مجموع له الناس ﴾ للمحاسبة والجزاء والتغيير للدلالة على ثبات معنى الجمع وتحقق وقوعه لا محالة وعدم انفكاك الناس عنه فهو أبلغ من قوله تعالى (يوم يجمعكم ليوم الجمع) ﴿ وذلك ﴾ أى يوم القيامة مع ملاحظة عنوان جمع الناس له ﴿ يوم مشهود ﴾ أى مشهود فيه حيث يشهد فيه أهل السموات والأرضين فاتسع فيه بإجراء

---

(١) فى ط : الهالكة .

الظرف مجرى المفعول به كما فى قوله «فى محل من نواصى الناس مشهوده» أى كثير شاهدوه ولو جعل نفس اليوم مشهودا لفات ما هو الغرض من تعظيم اليوم وتهويله وتمييزه عن غيره فإن سائر الأيام أيضا كذلك ﴿ وما نؤخره ﴾ أى ذلك اليوم الملحوظ بعنوانى الجمع والشهود ﴿ إلا لأجل معدود ﴾ إلا لانقضاء مدة قليلة مضروبة حسبما تقتضيه الحكمة ﴿ يوم يأت ﴾ أى حين يأتى ذلك اليوم المؤخر بانقضاء أجله كقوله تعالى (أن تأتيهم الساعة) وقيل يوم يأتى الجزاء الواقع فيه وقيل أى الله عز وجل فإن المقام مقام تفخيم شأن اليوم وقرىء بإثبات الياء على الأصل ﴿ لا تكلم نفس ﴾ أى لا تتكلم بما ينفع وينجى من جواب أو شفاعة وهو العامل فى الظرف أو الانتهاء المحذوف فى قوله تعالى (لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن) وهذا فى موطن من مواطن ذلك اليوم وقوله عز وجل (هذا يوم لا ينطقون . ولا يؤذن لهم فيعتذرون) فى موقف آخر من مواقفه كما أن قوله سبحانه (يوم تأتى كل نفس تجادل عن نفسها) فى آخر منها أو المأذون فيه الجوابات الحقة والممنوع عنه الأعذار الباطلة نعم قد يؤذن فيها أيضا لإظهار بطلانها كما فى قول الكفرة (والله ربنا ما كنا مشركين) ونظائره .

﴿ فمنهم شقى ﴾ وجبت له النار بموجب الوعيد ﴿ وسعيد ﴾ أى ومنهم سعيد حذف الخبر لدلالة الأول عليه وهو من وجبت له الجنة بمقتضى الوعد والضمير لأهل الموقف المدلول عليهم بقوله (لا تكلم نفس) أو للناس وتقديم الشقى على السعيد لأن المقام مقام التحذير والإنذار .

﴿ فأما الذين شقوا ﴾ أى سبقت لهم الشقاوة ﴿ ففى النار ﴾ أى مستقرون فيها ﴿ لهم فيها زفير وشهيق ﴾ الزفير إخراج النفس والشهيق رده واستعمالهما فى أول النهيق وآخره قال الشماخ يصف حمار الوحش :

بعيد مدى التطريب أول صوته زفير ويتلوه شهيق محشرج

والمراد بهما وصف شدة كربهم وتشبيه حالهم بحال من استولت على قلبه الحرارة وانحصر فيه روحه أو تشبيه صراخهم بأصوات الحمير وقرىء شقوا بالضم والجملة مستأنفة كأن سائلا قال ما شأنهم فيها فقيل لهم فيها كذا وكذا أو منصوبة المحل على الحالية من النار أو من الضمير فى الجار والمجرور كقوله عز اسمه ﴿ خالدين فيها ﴾ خلا أنه إن أريد حدوث كونهم فى النار فالحال مقدرة ﴿ ما دامت السموات والأرض ﴾ أى مدة دوامها وهذا التوقيت عبارة عن التأييد ونفى الانقطاع بناء على منهاج قول العرب: مادام تعار وماأقام ثبير ومالاح كوكب وما اختلف الليل والنهار وما طما البحر وغير ذلك من كلمات التأييد لا تعليق قرارهم فيها بدوام هذه السموات والأرض فإن النصوص القاطعة دالة على تأييد قرارهم فيها وانقطاع دوامهما وإن أريد التعليق فالمراد سموات الآخرة وأرضها كما يدل على ذلك النصوص كقوله تعالى (يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات) وقوله تعالى (وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء) وجزم كل أحد بأن أهل الآخرة لا بد لهم من مظلة ومقلة دائمتين يكفى فى تعليق دوام قرارهم فيها بدوامهما ولا حاجة إلى الوقوف على تفاصيل أحوالهما وكيفياتهما ﴿ إلا ما شاء ربك ﴾ استثناء من الخلود على طريقة قوله تعالى (لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى) وقوله (ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلا ما قد سلف) وقوله تعالى (حتى يلج الجمل فى سم الخياط) غير أن استحالة الأمور المذكورة معلومة بحكم العقل واستحالة تعلق المشيئة بعدم الخلود معلومة بحكم النقل يعنى أنهم مستقرون فى النار فى جميع الأزمنة إلا فى زمان مشيئة الله تعالى لعدم قرارهم فيها وإذ لا إمكان لتلك المشيئة ولا لزمانها بحكم النصوص القاطعة الموجبة للخلود فلا إمكان لانتهاء مدة قرارهم فيها ولدفع ما عسى يتوهم من كون استحالة تعلق مشيئته الله تعالى بعدم الخلود بطريق الوجوب على الله تعالى قال ﴿ إن ربك فعال لما يريد ﴾ يعنى أنه فى تخليد الأشقياء فى النار بحيث يستحيل وقوع خلافه فعال بموجب إرادته قاض بمقتضى مشيئته الجارية على سنن حكمته الداعية إلى ترتيب الأجزية على أفعال العباد والعدول من الإضمار إلى الإظهار لتربية المهابة

وزيادة التقرير وقيل هو استثناء من الخلود فى عذاب النار فإنهم لا يخلدون فيه بل يعذبون بالزمهرير وبأنواع أخر من العذاب وبما هو أغلظ منها كلها وهو سخط الله تعالى عليهم وخسؤه لهم وإهانته إياهم وأنت تدرى أنا وإن سلمنا أن المراد بالنار ليس مطلق دار العذاب المشتملة على أنواع العذاب بل نفس النار فما خلا عذاب الزمهرير من تلك الأنواع مقارن لعذاب النار فلا مصداق فى ذلك للاستثناء ولك أن تقول إنهم ليسوا بمخلدين فى العذاب الجسمانى الذى هو عذاب النار بل لهم من أفانين العذاب مالا يعلمه إلا الله سبحانه وهى العقوبات والآلام الروحانية التى لا يقف عليها فى هذه الحياة الدنيا المنغمسون فى أحكام الطبيعة المقصور إدراكهم على ما ألفوا من الأحوال الجسمانية وليس لهم استعداد لتلقى ماوراء ذلك من الأحوال الروحانية إذا ألقى إليهم ولذلك لم يتعرض لبيانه واكتفى بهذه المرتبة الإجمالية المنبئة عن التهويل وهذه العقوبات وإن كانت تعتريهم وهم فى النار لكنهم ينسون بها عذاب النار ولا يحسون به وهذه المرتبة كافية فى تحقيق معنى الاستثناء هذا وقد قيل إلا بمعنى سوى وهو أوفق بما ذكر وقيل ما بمعنى من على إرادة معنى الوصفية فالمعنى إن الذين شقوا فى النار مقدرين الخلود فيها إلا الذين شاء الله عدم خلودهم فيها وهم عصاة المؤمنين .

﴿وأما الذين سعدوا ففى الجنة خالدين فيها ما دامت السموات والأرض﴾ الكلام فيه كالكلام فيما سبق خلا أنه لم يذكر ههنا أن لهم فيها بهجة وسرورا كما ذكر فى أهل النار من أنه لهم فيها زفير وشهيق لأن المقام مقام التحذير والإنذار ﴿إلا ما شاء ربك﴾ إن حمل على طريقة التعليق بالمحال فقوله سبحانه ﴿عطاء غير مجذوذ﴾ نصب على المصدرية من معنى الجملة لأن قوله تعالى (ففى الجنة خالدين فيها) يقتضى إعطاء وإنعاما فكأنه قيل يعطيهم عطاء وهو إما اسم مصدر هو الإعطاء أو مصدر بحذف الزوائد كقوله تعالى (أنبتكم من الأرض نباتا) وإن حمل على ما أعد الله لعباده الصالحين من النعيم الروحانى الذى عبر عنه بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر فهو نصب على الحالية من المفعول

المقدر للمشيئة أو تمييز فإن نسبة مشيئة الخروج إلى الله تعالى يحتمل أن تكون على جهة عطاء مجذوذ وعلى جهة عطاء غير مجذوذ فهو رافع للإبهام عن النسبة قال ابن زيد أخبرنا الله تعالى بالذى يشاء لأهل الجنة فقال عطاء غير مجذوذ ولم يخبرنا بالذى يشاء لأهل النار ويجوز أن يتعلق بكلا النعيمين أو بالأول دفعا لما يتوهم من ظاهر الاستثناء من انقطاعه ﴿ فلاتك فى مرية ﴾ أى فى شك والفاء لترتيب النهى على ما قص من القصص وبين فى تضاعيفها من العواقب الدنيوية والأخروية ﴿ مما يعبد هؤلاء ﴾ أى من جهة عبادة هؤلاء المشركين وسوء عاقبتها أو من حال ما يعبدونه من الأوثان فى عدم نفعه لهم ولما كان مساق النظم الكريم قبيل الشروع فى القصص لبيان غاية سوء حال الكفرة وكمال حسن حال المؤمنين وقد ضرب لهم مثل فقيل (مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع هل يستويان مثلا أفلا تذكرون) وقد قص عقيب ذلك من أنباء الأمم السالفة مع رسلهم المبعوثة إليهم ما يتذكر به المتذكر نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كونه فى شك من مصير أمر هؤلاء المشركين فى العاجل والآجل ثم علل ذلك بطريق الاستئناف فقيل ﴿ ما يعبدون إلا كما يعبد آباؤهم ﴾ الذين قصت عليك قصصهم ﴿ من قبل ﴾ أى هم وآباؤهم سواء فى الشرك ما يعبدون عبادة إلا كعبادتهم أو ما يعبدون شيئاً إلا مثل ما عبدوه من الأوثان والعدول إلى صيغة المضارع لحكاية الحال الماضية لاستحضار صورتها أو مثل ما كانوا يعبدونه لحذف كان لدلالة قوله من قبل عليه ولقد بلغك ما لحق بآبائهم فسيلحقهم مثل ذلك فإن تماثل الأسباب يقتضى تماثل المسببات ﴿ وإنا لموفوهم ﴾ أى هؤلاء الكفرة ﴿ نصيبهم ﴾ أى حظهم المعين لهم حسب جرائمهم وجرائرهم من العذاب عاجلا وآجلا كما وفينا آباءهم أنصباءهم المقدرة لهم أو من الرزق المقسوم لهم فيكون بيانا لوجه تأخر العذاب عنهم مع تحقق ما يوجبه ﴿ غير منقوص ﴾ حال مؤكدة من النصيب كقوله تعالى (ثم وليتم مدبرين) وفائدته دفع توهم التجوز وجعلها مقيدة له لدفع احتمال كونه منقوصا فى حد نفسه مبنى على الذهول عن كون العامل هو التوفية فتأمل ﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب ﴾ أى التوراة

﴿ فاختلف فيه ﴾ أى فى شأنه وكونه من عند الله تعالى فآمن به قوم وكفر به آخرون فلا تبال باختلاف قومك فيما آتيناك من القرآن وقولهم (لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك) وزعمهم أنك افتريته ﴿ ولولا كلمة سبقت من ربك ﴾ وهى كلمة القضاء بإنظارهم إلى يوم القيامة على حسب الحكمة الداعية إلى ذلك ﴿ لقضى بينهم ﴾ أى لأوقع القضاء بين المختلفين من قومك بإنزال العذاب الذى يستحقه المبطلون ليتميزوا به عن المحققين وقيل بين قوم موسى وليس بذاك ﴿ وإنهم ﴾ أى وإن كفار قومك أريد به بعض من رجع إليهم ضمير بينهم للأمن من الإلباس ﴿ لفى شك ﴾ عظيم ﴿ منه ﴾ أى من القرآن وإن لم يجر له ذكر فإن ذكر إيتاء كتاب موسى ووقوع الاختلاف فيه لا سيما بصدد التسلية ينادى به نداء غير خفى ﴿ مريب ﴾ موقع فى الريبة .

﴿ وإن كلا ﴾ التنوين عوض عن المضاف إليه أى وإن كل المختلفين فيه المؤمنين منهم والكافرين وقرأ ابن كثير ونافع وأبو بكر بالتخفيف مع الإعمال اعتباراً للأصل ﴿ لما ليوفينهم ربك أعمالهم ﴾ أى أجزية أعمالهم واللام الأولى موطئة للقسم والثانية جواب للقسم المحذوف ولما مركبة من من الجارة وما الموصولة أو الموصوفة وأصلها لمن ما فقلبت النون ميما للإدغام فاجتمع ثلاث ميمات فحذفت أولاهن والمعنى لمن الذى أو لمن خلق أولمن فريق والله ليوفينهم ربك وقرىء لما بالتخفيف على أن ما مزيدة للفصل بين اللامين والمعنى وإن جميعهم والله ليوفينهم الآية وقرىء لما بالتنوين أى جميعاً كقوله سبحانه أكلا لما وقرأ أبى وإن كل لما ليوفينهم على أن نافية ولما بمعنى إلا وقد قرىء به ﴿ إنه بما يعملون ﴾ أى بما يعمله كل فرد من المختلفين من الخير والشر ﴿ خبير ﴾ بحيث لا يخفى عليه شىء من جلائله ودقائقه وهو تعليل لما سبق من توفية أجزية أعمالهم فإن الإحاطة بتفاصيل أعمال الفريقين وما يستوجبه كل عمل بمقتضى الحكمة من الجزاء المخصوص توجب توفية كل ذى حق حقه إن خيرا فخير وإن شرا فشر .

توجيهات للنبي صلى الله عليه وسلم

﴿ فاستقم كما أمرت ﴾ لما بين فى تضاعيف القصص المحكية عن الأمم الماضية سوء عاقبة الكفر وعصيان الرسل وأشير إلى أن حال هؤلاء الكفرة فى الكفر والضلال واستحقاق العذاب مثل أولئك المعذبين وأن نصيبهم من العذاب واصل إليهم من غير نقص وأن تكذيبهم للقرآن مثل تكذيب قوم موسى عليه السلام للتوراة وأنه لو لم تسبق كلمة القضاء بتأخير عقوبتهم العامة ومؤاخذتهم التامة إلى يوم القيامة لفعل بهم ما فعل بآبائهم من قبل وأنهم يوفون نصيبهم غير منقوص وأن كل واحد من المؤمنين والكافرين يوفى جزاء عمله أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالاستقامة كما أمر به فى العقائد والأعمال المشتركة بينه وبين سائر المؤمنين ولا سيما الأعمال الخاصة به عليه السلام من تبليغ الأحكام الشرعية والقيام بوظائف النبوة وتحمل أعباء الرسالة بحيث يدخل تحته ما أمر به فيما سبق من قوله تعالى (فلعلك تارك بعض مايوحى إليك وضائق به صدرك) الآية وبالجملة فهذا الأمر منتظم لجميع محاسن الأحكام الأصلية والفرعية والكمالات النظرية والعملية والخروج من عهدته فى غاية ما يكون من الصعوبة ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم شيبتنى سورة هود ﴿ ومن تاب معك ﴾ أى تاب من الشرك والكفر وشاركك فى الإيمان وهو المعنى بالمعية وهو معطوف على المستكن فى قوله فاستقم وحسن من غير تأكيد لمكان الفاصل القائم مقامه وفى الحقيقة هو من عطف الجملة على الجملة إذ المعنى وليستقم من تاب معك وقيل هو منصوب على أنه مفعول معه كما قاله أبو البقاء والمعنى استقم مصاحبا لمن تاب معك ﴿ ولا تطغوا ﴾ ولا تنحرفوا عما حد لكم بإفراط أو تفريط فإن كلا طرفى قصد الأمور ذميم وإنما سمى ذلك طغيانا وهو تجاوز الحد تغليظاً أو تغليبا لحال سائر المؤمنين على حاله عليه السلام ﴿ إنه بما تعملون بصير ﴾ فيجازيكم على ذلك وهو تعليل للأمر والنهى وفى الآية دلالة على وجوب اتباع المنصوص عليه من غير انحراف بمجرد الرأى فإنه طغيان وضلال وأما العمل بمقتضى الاجتهاد التابع لعلل النصوص فذلك من باب الاستقامة كما أمر على

موجب النصوص الآمرة بالاجتهاد ﴿ ولا تركنوا ﴾ أى لا تميلوا أدنى ميل ﴿ إلى الذين ظلموا ﴾ أى إلى الذين وجد منهم الظلم فى الجملة ومدار النهى هو الظلم والجمع باعتبار جمعية المخاطبين وما قيل من أن ذلك للمبالغة فى النهى من حيث أن كونهم جماعة مظنة الرخصة فى مداهنتهم إنما يتم أن لو كان المراد النهى عن الركون إليهم من حيث أنهم جماعة وليس كذلك ﴿ فتمسكم ﴾ بسبب ذلك ﴿ النار ﴾ وإذا كان حال الميل فى الجملة إلى من وجد منه ظلم ما فى الإفضاء إلى مساس النار هكذا فما ظنك بميل من يميل إلى الراسخين فى الظلم والعدوان ميلا عظيما ويتهالك على مصاحبتهم ومنادمتهم ويلقى شراشره على مؤانستهم ومعاشرتهم ويبتهج بالتزيى بزيهم ويمد عينيه إلى زهرتهم الفانية ويغبطهم بما أوتوا من القطوف الدانية وهو فى الحقيقة من الحبة طفيف لو من جناح البعوض خفيف بمعزل عن أن تميل إليه القلوب ضعف الطالب والمطلوب والآية أبلغ ما يتصور فى النهى عن الظلم والتهديد عليه وخطاب الرسول صلى الله عليه وسلم ومن معه من المؤمنين للتثبيت على الاستقامة التى هى العدل فإن الميل إلى أحد طرفى الإفراط والتفريط ظلم على نفسه أو على غيره وقرىء تركنوا على لغة تميم وتركنوا على صيغة البناء للمفعول من أركنه ﴿ وما لكم من دون الله من أولياء ﴾ أى من أنصار ينقذونكم من النار والجملة نصب على الحالية من قوله فتمسكم النار ونفى الأولياء ليس بطريق نفى أن يكون لكل واحد منهم أولياء حتى يصدق أن يكون له ولى بل لمكان لكم بطريق انقسام الآحاد على الآحاد لكن لا على معنى نفى استقلال كل منهم بنصير بل على معنى نفى أن يكون لواحد منهم نصير بقرينة المقام ﴿ ثم لا تنصرون ﴾ من جهة الله سبحانه إذ قد سبق فى حكمه أن يعذبكم بركونكم إليهم ولا يبقى عليكم وثم لتراخى رتبة كونهم غير منصورين من جهة الله بعد ما أوعدهم بالعذاب وأوجبه عليهم ويجوز أن يكون منزلا منزلة الفاء بمعنى الاستبعاد فإنه لما بين أن الله تعالى معذبهم وأن غيره لا ينقذهم أنتج أنهم لا ينصرون أصلا .

﴿ وأقم الصلوة طرفى النهار ﴾ أى غدوة وعشية وانتصابه على الظرفية لكونه مضافا إلى الوقت ﴿ وزلفاً من الليل ﴾ أى ساعات منه قريبة من النهار فإنه من أزلفه إذا قربه جمع زلفة عطف على طرفى النهار والمراد بصلاتهما صلاة الغداة والعصر وقيل الظهر موضع العصر لأن ما بعد الزوال عشى وبصلاة الزلف المغرب والعشاء وقرىء زلفا بضمتين وضمة وسكون كبسر وبسر وزلفى بمعنى زلفة كقربى بمعنى قربة ﴿ إن الحسنات ﴾ التى من جملتها بل عمدتها[1] ما أمرت به من الصلوات ﴿ يذهبن السيئات ﴾ قلمايخلو منها البشر أى يكفرنها التى وفى الحديث إن الصلاة إلى الصلاة كفارة لما بينهما ما اجتنب الكبائر وقيل نزلت فى أبى اليسر الأنصارى إذ قبل إمرأة ثم ندم فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره بما فعل فقال عليه الصلاة والسلام « أنتظر أمر ربى » فلما صلى صلاة العصر نزلت قال عليه السلام « نعم إذهب فإنها كفارة لما عملت » أو يمنعن من اقترافها كقوله تعالى (إن الصلوة تنهى عن الفحشاء والمنكر) ﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى قوله تعالى (فاستقم) فما بعده وقيل إلى القرآن ﴿ ذكرى للذاكرين ﴾ أى عظة للمتعظين ﴿ واصبر ﴾ على مشاق ما أمرت به فى تضاعيف الأوامر السابقة وأما ما نهى عنه من الطغيان والركون إلى الذين ظلموا فليس فى الانتهاء عنه مشقة فلا وجه لتعميم الصبر له ، اللهم إلا أن يراد به ما لا يمكن عادة خلو البشر عنه من أدنى ميل بحكم الطبيعة عن الاستقامة المأمور بها ومن يسير ميل بحكم البشرية إلى من وجد منه ظلم ما فإن فى الاحتراز عن أمثاله من المشقة ما لا يخفى ﴿ فإن الله لا يضيع أجر المحسنين ﴾ أى يوفيهم أجور أعمالهم من غير بخس أصلا . وإنما عبر عن ذلك بنفى الإضاعة مع أن عدم إعطاء الأجر ليس بإضاعه حقيقة كيف لا والأعمال غير موجبة للثواب حتى يلزم من تخلفه عنها ضياعها لبيان كمال نزاهته تعالى عن ذلك بتصويره بصورة ما يمتنع صدوره عنه سبحانه من القبائح وإبراز الإثابة فى معرض الأمور الواجبة عليه،

---

(١) فى ١٠ : بل عمادها .

وإنما عدل عن الضمير ليكون كالبرهان على المقصود مع إفادة فائدة عامة لكل من يتصف به ، وهو تعليل للأمر بالصبر ، وفيه إيماء إلى أن الصبر على ما ذكر من باب الإحسان .

﴿ فلولا كان ﴾ فهلا كان ﴿ من القرون ﴾ الكائنة ﴿ من قبلكم ﴾ على رأى من جوز حذف الموصول مع بعض صلته أو كائنة من قبلكم ﴿ أولو بقية ﴾ من الرأى والعقل أو أولو فضل وخير[1] وسميابها لأن الرجل إنما يستبقى مما يخرجه عادة أجوده وأفضله فصار مثلا فى الجودة والفضل ويقال فلان من بقية القوم أى من خيارهم ، ومنه ما قيل فى الزوايا خبايا وفى الرجال بقايا ، ويجوز أن تكون البقية بمعنى البقوى كالتقية من التقوى أى فهلا كان منهم ذوو إبقاء على أنفسهم وصيانة لها من سخط الله تعالى وعقابه ويؤيده أنه قرىء أولو بقية وهى المرة من مصدر بقاه يبقيه إذا راقبه وانتظره أى أولو مراقبة وخشية من عذاب الله تعالى كأنهم ينتظرون نزوله لإشفاقهم ﴿ ينهون عن الفساد فى الأرض ﴾ الواقع منهم حسب ما حكى عنهم ﴿ إلا قليلا ممن أنجينا منهم ﴾ استثناء منقطع أى لكن قليلا منهم أنجيناهم لكونهم على تلك الصفة على أن من للبيان لا للتبعيض لأن جميع الناجين ناهون ولا صحة للإتصال على ظاهر الكلام لأنه يكون تحضيضاً لأولى البقية على النهى المذكور إلا للقليل من الناجين منهم كما إذا قلت هلا قرأ قومك القرآن إلا الصلحاء منهم مريداً لاستثناء الصلحاء من المحضضين على القراءة نعم يصح ذلك إن جعل استثناء من النفى اللازم للتحضيض فكأنه قيل ما كان من القرون أولو بقية إلا قليلا منهم لكن الرفع هو الأفصح حينئذ على البدلية ﴿ واتبع الذين ظلموا ﴾ بمباشرة الفساد وترك النهى عنه ﴿ ما أترفوا فيه ﴾ أى أنعموا من الشهوات واهتموا بتحصيلها أما المباشرون فظاهر وأما المساهلون فلما لهم فى ذلك من نيل حظوظهم الفاسدة ، وقيل المراد بهم تاركوا النهى وأنت خبير بأنه يلزم منه عدم دخول مباشرى الفساد فى الظلم

(١) فى ١٠ : الفضل والخير .

والإجرام عبارة ﴿ وكانوا مجرمين ﴾ أي كافرين فهو بيان لسبب استئصال الأمم المهلكة وهو فشو الظلم واتباع الهوى فيهم وشيوع ترك النهي عن المنكرات مع الكفر وقوله واتبع عطف على مضمر دل عليه الكلام ، أي لم ينهوا واتبع الخ فيكون العدول إلى المظهر لإدراج المباشرين معهم في الحكم والتسجيل عليهم بالظلم ، وللإشعار بعلية ذلك لما حاق بهم من العذاب أو على استئناف يترتب على قوله إلا قليلا أي إلا قليلا ممن أنجينا منهم نهوا عن الفساد وتاركي النهي عنه فيكون الإظهار مقتضى الظاهر وقوله وكانوا مجرمين عطف على أترفوا أي اتبعوا الإتراف وكونهم مجرمين لأن تابع الشهوات مغمور بالآثام ، أو أريد بالإجرام إغفالهم للشكر ، أو على اتبع أي اتبعوا شهواتهم وكانوا بذلك الإتباع مجرمين ، ويجوز أن يكون اعتراضاً وتسجيلا عليهم بأنهم قوم مجرمون ، وقرىء وأتبع أي أتبعوا جزاء ما أترفوا فتكون الواو للحال ويجوز أن يفسر به المشهورة ويعضده تقدم الإنجاء .

﴿ وما كان ربك ليهلك القرى ﴾ أي ما صح وما استقام بل استحال في الحكمة أن يهلك القرى التي أهلكها حسب ما بلغك أنباؤها ويعلم من ذلك حال باقيها من القرى الظالمة واللام لتأكيد النفي وقوله ﴿ بظلم ﴾ أي ملتبسا به قيل هو حال من الفاعل أي ظالما لها والتنكير للتفخيم والإيذان بأن إهلاك المصلحين ظلم عظيم والمراد تنزيه الله تعالى عن ذلك بالكلية بتصويره بصورة ما يستحيل صدوره عنه تعالى وإلا فلا ظلم فيما فعله الله تعالى بعباده كائنا ما كان لما تقرر من قاعدة أهل السنة وقد مر تفصيله في سورة آل عمران عند قوله تعالى (وإن الله ليس بظلام للعبيد) وقوله تعالى﴿ وأهلها مصلحون ﴾ حال من المفعول والعامل عامله) ولكن لا باعتبار تقييده بما وقع حالا من فاعله أعني بظلم لدلالته على تقييد نفي الإهلاك ظالما بحال كون أهلها مصلحين ولا ريب في فساده بل مطلقا عن ذلك ، وقيل المراد بالظلم الشرك والباء للسببية أي لا يهلك القرى بسبب إشراك أهلها وهم مصلحون يتعاطون الحق فيما بينهم ولا يضمون إلى شركهم فساداً آخر ، وذلك لفرط رحمته ومسامحته في حقوقه تعالى ومن ذلك قدم

الفقهاء عند تزاحم الحقوق حقوق العباد الفقراء على حقوق الله تعالى الغنى الحميد ، وقيل الملك يبقى مع الشرك ولا يبقى مع الظلم وأنت تدرى أن مقام النهى عن المنكرات التى أقبحها الإشراك بالله لا يلائمه ، فإن الشرك داخل فى الفساد فى الأرض دخولا أوليا . ولذلك كان ينهى كل من الرسل الذين قصت أنباؤهم أمته أولا عن الإشراك ثم عن سائر المعاصى التى كانوا يتعاطونها ، فالوجه حمل الظلم على مطلق الفساد الشامل للشرك وغيره من أصناف المعاصى وحمل الإصلاح على إصلاحه والإقلاع عنه بكون بعضهم متصدين للنهى عنه وبعضهم متوجهين إلى الاتعاظ غير مصرين على ما هم عليه من الشرك وغيره من أنواع الفساد .

﴿ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة﴾ مجتمعة على الحق ودين الإسلام بحيث لا يكاد يختلف فيه أحد ولكن لم يشأ ذلك فلم يكونوا متفقين على الحق ﴿ ولا يزالون مختلفين ﴾ فى الحق أى مخالفين له كقوله تعالى (وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ماجاءتهم البينات بغيا بينهم) ﴿ إلا من رحم ربك ﴾ إلا قوما قد هداهم الله تعالى بفضله إلى الحق فاتفقوا عليه ولم يختلفوا فيه أى لم يخالفوه وحمله على مطلق الاختلاف الشامل لما يصدر من المحق والمبطل يأباه الاستثناء المذكور ﴿ ولذلك ﴾ أى ولما ذكر من الاختلاف ﴿ خلقهم ﴾ أى الذين بقوا بعد الثنيا وهم المختلفون ، فاللام للعاقبة أو للترحم فالضمير لمن واللام فى معناها أو لهما معاً فالضمير للناس كافة واللام بمعنى مجازى عام لكلا المعنيين ﴿ وتمت كلمة ربك ﴾ أى وعيده أو قوله للملائكة ﴿ لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين ﴾ أى من عصاتهما أجمعين أو منهما أجمعين لا من أحدهما ، ﴿ وكلا ﴾ أى وكل نبأ فالتنوين عوض عن المضاف إليه ﴿ نقص عليك ﴾ نخبرك به وقوله تعالى ﴿ من أنباء الرسل ﴾ بيان لكلا وقوله تعالى ﴿ ما نثبت به فؤادك بدل منه والأظهر أن يكون المضاف إليه المحذوف فى كلا المفعول المطلق لنقص أى كل أسلوب من أساليبه نقص عليك من أنباء الرسل وقوله

تعالى ما نثبت به فؤادك مفعول نقص وفائدته التنبيه على أن المقصود بالاقتصاص زيادة يقينه عليه السلام وطمأنينة قلبه وثبات نفسه على أداء الرسالة واحتمال أذية الكفار بالوقوف على تفاصيل أحوال الأمم السالفة فى تماديهم فى الضلال وما لقى الرسل من جهتهم من مكابدة المشاق ﴿ وجاءك فى هذه ﴾ السورة أو الأنباء المقصوصة عليك ﴿ الحق ﴾ الذى لا محيد عنه ﴿ وموعظة وذكرى للمؤمنين ﴾ أى الجامع بين كونه حقاً فى نفسه وكونه موعظة وذكرى للمؤمنين ولكون الوصف الأول حالا له فى نفسه حلى باللام دون ما هو وصف له بالقياس إلى غيره وتقديم الظرف أعنى فى هذه على الفاعل لأن المقصود بيان منافع السورة أو الأنباء المقصوصة فيها واشتمالها على ما ذكر من المنافع المفصلة لا بيان كون ذلك فيها لا فى غيرها ولأن عند تأخير ما حقه التقديم تبقى النفس مترقبة إليه فيتمكن فيها عند الورود فضل تمكن ولأن فى المؤخر نوع طول يخل تقديمه بتجاوب أطراف النظم الكريم .

﴿ وقل للذين لا يؤمنون ﴾ بهذا الحق ولا يتعظون به ولا يتذكرون ﴿ اعملوا على مكانتكم ﴾ على حالكم وجهتكم التى هى عدم الإيمان ﴿ إنا عاملون ﴾ على حالنا وهو الإيمان به والاتعاظ والتذكر به ﴿ وانتظروا ﴾ بنا الدوائر ﴿ إنا منتظرون ﴾ أى ينزل بكم نحو ما نزل بأمثالكم من الكفرة ﴿ ولله غيب السموات والأرض وإليه يرجع الأمر كله ﴾ فيرجع لا محالة أمرك وأمرهم إليه وقرىء على البناء للفاعل من رجع رجوعا ﴿ فاعبده وتوكل عليه ﴾ فإنه كافيك والفاء لترتيب الأمر بالعبادة والتوكل على كون مرجع الأمور كلها إلى الله تعالى وفى تأخير الأمر بالتوكل عن الأمر بالعبادة إشعار بأنه لا ينفع دونها ﴿ وماربك بغافل عما يعملون ﴾ فيجازيهم بموجبه وقرىء تعملون على تغليب المخاطب أى أنت وهم فيجازى كلا منك ومنهم بموجب الاستحقاق . عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة هود أعطى من

الأجر عشر حسنات بعدد من صدق كل واحد من الأنبياء المعدودين فيها عليهم الصلاة والسلام وبعدد من كذبهم وكان يوم القيامة من السعداء بفضل الله سبحانه وتعالى .

***

سورة يوسف عليه السلام

(وهى مائة واحدى عشرة آية)

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

﴿ الر ﴾ الكلام فيه وفى محله وفيما أريد بالإشارة والآيات والكتاب فى قوله تعالى : ﴿ تلك آيات الكتاب ﴾ عين ماسلف فى مطلع سورة يونس ﴿ المبين ﴾ من أبان بمعنى بان أى الظاهر أمره فى كونه عند الله تعالى وفى إعجازه بنوعيه لاسيما الإخبار عن الغيب أو الواضح معانيه للعرب بحيث لا يشتبه عليهم حقائقه ولا يلتبس لديهم دقائقه لنزوله على لغتهم أو بمعنى بين أى المبين لما فيه من الأحكام والشرائع وخفايا الملك والملكوت وأسرار النشأتين فى الدارين وغير ذلك من الحكم والمعارف والقصص وعلى تقدير كون الكتاب عبارة عن السورة فإبانته إنباؤه عن قصة يوسف عليه السلام ، فإنه قد روى أن أحبار اليهود قالوا لرؤساء المشركين سلوا محمداً صلى الله عليه وسلم لماذا انتقل آل يعقوب من الشام إلى مصر وعن قصة يوسف عليه السلام ففعلوا ذلك فيكون وصف الكتاب بالإبانة من قبيل براعة الاستهلال لما سيأتى ولما وصف الكتاب بما يدل على الشرف الذاتى عقب ذلك بما يدل على الشرف الإضافى فقيل ﴿ إنا أنزلناه ﴾ أى الكتاب المنعوت بما ذكر من النعوت الجليلة ، فإن كان عبارة عن الكل وهو الأظهر الأنسب بقوله تعالى : ﴿ قرآنا عربيا ﴾ إذ هو المشهور بهذا الاسم المعروف بهذا

النعت المتسارع إلى الفهم عند إطلاقهما فالأمر ظاهر ، وإن جعل عبارة عن السورة فتسميتها قرآنا لما عرفته فيما سلف ، والسر فى ذلك أنه اسم جنس فى الأصل يقع على الكل والبعض كالكتاب ، أو لأنه مصدر بمعنى المفعول أى أنزلناه حال كونه مقروءاً بلغتكم ﴿ لعلكم تعقلون ﴾ أى لكى تفهموا معانيه طراً وتحيطوا بما فيه من البدائع خبرا وتطلعوا على أنه خارج عن طوق البشر منزل من عند خلاق القوى والقدر ﴿ نحن نقص عليك ﴾ أى نخبرك ونحدثك واشتقاقه من قص أثره إذا اتبعه لأن من يقص الحديث يتبع ما حفظ منه شيئا فشيئا كما يقال تلا القرآن لأنه يتبع ما حفظ منه آية بعد آية ﴿ أحسن القصص ﴾ أى أحسن الاقتصاص فنصبه على المصدريه وفيه مع بيان الواقع إيهام لما فى اقتصاص أهل الكتاب من القبح والخلل وترك المفعول إما للاعتماد على انفهامه[1] من قوله عز وجل ﴿ بما أوحينا ﴾ أى بإيحائنا ﴿ إليك هذا القرآن ﴾ أى هذه السوره فإن كونها موحاة منبىء عن كون ما فى ضمنها مقصوصا والتعرض لعنوان قرآنيتها لتحقيق أن الاقتصاص ليس بطريق الإلهام أو الوحى غير المتلو وإما لظهوره من سؤال المشركين بتلقين علماء اليهود وأحسنيته لأنه قد اقتص على أبدع الطرائق الرائعة الرائقة وأعجب الأساليب الفائقة اللائقة كما لا يكاد يخفى على من طالع القصة من كتب الأولين والآخرين وإن كان لا يميز الغث من السمين ولا يفرق بين الشمال واليمين وفى كلمة هذا إيماء إلى مغايرة هذا القرآن لما فى قوله تعالى (قرآ نا عربيا) بأن يكون المراد بذلك المجموع فتأمل أو نقص عليك أحسن ما نقص من الأنباء وهو قصة آل يعقوب عليه السلام على أن القصص فعل بمعنى المفعول كالنبأ والخبر أو مصدر سمى به المفعول كالخلق والصيد ونصب أحسن على المفعولية وأحسنيتها لتضمنها من الحكم والعبر ما لا يخفى كمال حسنه ﴿ وإن كنت ﴾ إن مخففة من الثقيلة وضمير الشأن الواقع اسما لها محذوف واللام

(١) فى ١٠ : على فهمه

فارقة والجملة خبر والمعنى وأن الشأن كنت ﴿ من قبله ﴾ من قبل إيحائنا إليك هذه السورة ﴿ لمن الغافلين ﴾ عن هذه القصة لم تخطر ببالك ولم تقرع سمعك قط وهو تعليل لكونه موحى والتعبير عن عدم العلم بالغفلة لإجلال شأن النبي عليه السلام وإن غفل عنه بعض الغافلين ﴿ إذ قال يوسف ﴾ نصب بإضمار اذكر وشروع فى القصة إنجازا للوعد بأحسن الاقتصاص أو بدل من أحسن القصص على تقدير كونه مفعولا بدل اشتمال فإن اقتصاص الوقت المشتمل على المقصوص من حيث اشتماله عليه اقتصاص للمقصوص ويوسف اسم عبرى لا عربى لخلوه عن سبب آخر غير التعريف وفتح السين وكسرها على بعض القراءات بناء على التلعب به لا على أنه مضارع بنى للمفعول أو الفاعل من آسف لشهادة المشهورة بعجمته ﴿ لأبيه ﴾ يعقوب بن إسحق بن إبراهيم عليهم الصلاة والسلام وقد روى عنه عليه السلام إن الكريم بن الكريم بن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم ﴿ يا أبت ﴾ أصله يا أبى فعوض عن الياء تاء التأنيث لتناسبهما فى الزيادة فلذلك قلبت هاء فى الوقف على قراءة ابن كثير وأبى عمرو ويعقوب وكسرتها لأنها عوض عن حرف يناسبها وفتحها ابن عامر فى كل القرآن لأنها حركة أصلها ، أو لأن الأصل يا أبتا فحذف الألف وبقيت[1] الفتحة ، وإنما لم يجز يا أبتى لأنه جمع بين العوض والمعوض وقرىء بالضم إجراء لها مجرى الألفاظ المؤنثة بالتاء من غير اعتبار التعويض وعدم تسكينها كأصلها لأنها حرف صحيح منزل منزلة الاسم فيجب تحريكها ككاف الخطاب .

﴿ إنى رأيت ﴾ من الرؤيا لا من الرؤية لقوله ﴿ لا تقصص رؤياك هذا تأويل رؤياى ولأن الظاهر أن وقوع مثل هذه الأمور البديعة فى عالم الشهادة لا يختص برؤية راء دون راء فيكون طامة كبرى لا يخفى على أحد من الناس

(١) فى ط : بقى

﴿ أحد عشر كوكبا والشمس والقمر ﴾ روى عن جابر رضى الله عنه أن يهوديا جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أخبرنى يا محمد عن النجوم التى رآهن يوسف عليه السلام فسكت النبي عليه السلام فنزل جبريل عليه السلام فأخبره بذلك فقال عليه السلام إذا أخبرتك بذلك هل تسلم ؟ فقال : نعم ، قال عليه السلام جريان والطارق والذيال وقابس وعمودان والفليق والمصبح والضروح والفرغ ووثاب وذو الكتفين ، رآها يوسف عليه السلام والشمس والقمر ونزلن من السماء وسجدن له فقال اليهودى أى والله إنها لأسماؤها ، وقيل الشمس والقمر أبواه وقيل أبواه وقيل أبوه وخالته والكواكب إخوته وإنما أخر الشمس والقمر عن الكواكب لإظهار مزيتهما وشرفهما على سائر الطوالع بعطفهما عليهما كما فى عطف جبريل وميكائيل على الملائكة عليهم السلام وقد جوز أن تكون الواو بمعنى مع أى رأيت الكواكب مع الشمس والقمر ولا يبعد أن يكون ذالك إشارة إلى تأخر ملاقاته عليه السلام لهما عن ملاقاته لإخوته وعن وهب أن يوسف عليه السلام رأى وهو ابن سبع سنين أن إحدى عشرة عصا طوالا كانت مركوزة فى الأرض كهيئة الداوة وإذا عصا صغيرة تثب عليها حتى اقتلعتها وغلبتها فوصف ذلك لأبيه فقال إياك أن تذكر هذا لإخوتك ثم رأى وهو ابن ثنتى عشرة سنة الشمس والقمر والكواكب تسجد له فقصها على أبيه ، فقال لاتقصها عليهم فيبغو لك الغوائل . وقيل كان بين رؤيا يوسف ومصير إخوته إليه أربعون سنة وقيل ثمانون ﴿ رأيتهم لى ساجدين ﴾ استئناف ببيان حالهم التى رآهم عليها كأن سائلا سأل فقال كيف رأيتهم فأجاب بذلك ، وإنما أجريت مجرى العقلاء فى الضمير لوصفها بوصف العقلاء السجود وتقديم الجار والمجرور لإظهار العناية والاهتمام بما هو الأهم مع ما فى ضمنه من رعاية الفاصلة .

﴿ قال يا بنى ﴾ صغره للشفقة أولها ولصغر السن وهو أيضا استئناف مبنى على سؤال من قال فماذا قال يعقوب بعد سماع هذه الرؤيا العجيبة ولما عرف

يعقوب عليه السلام من هذه الرؤيا أن يوسف يبلغه الله تعالى مبلغا جليلا من الحكمة ويصطفيه للنبوة وينعم عليه بشرف الدارين كما فعل بآبائه الكرام خاف عليه حسد الإخوة وبغيهم فقال صيانة لهم من ذلك وله من معاناة المشاق ومقاساة الأحزان ، وإن كان واثقا بأن الله تعالى سيحقق ذلك لا محالة وطمعا في حصوله بلا مشقة ﴿ لا تقصص رؤياك ﴾ هى ما فى المنام كما أن الرؤية ما فى اليقظة فرق بينهما بحرفى التأنيث كما فى القربى والقربة وحقيقتها ارتسام الصورة المنحدرة من أفق المتخيلة إلى الحس المشترك والصادقة منها إنما تكون باتصال النفس بالملكوت لما بينهما من التناسب عند فراغها من تدبير البدن أدنى فراغ فتتصور بما فيها مما يليق من المعانى الحاصلة هناك ثم إن المتخيلة تحاكيه بصورة تناسبه فترسلها إلى الحس المشترك فتصير مشاهدة ثم إذا كانت شديدة المناسبة لذلك المعنى بحيث لا يكون التفاوت إلا بالكلية والجزئية استغنت الرؤيا عن التعبير وإلا احتاجت إليه ﴿ على إخوتك فيكيدوا ﴾ نصب بإضمار أن أى فيفعلوا ﴿ لك ﴾ أى لأجلك ولإهلاكك ﴿ كيداً ﴾ متينا راسخا لاتقدر على التفصى عنه أو خفيا عن فهمك لاتتصدى لمدافعته وهذا أوفق بمقام التحذير وإن كان يعقوب عليه السلام يعلم أنهم ليسوا بقادرين على تحويل ما دلت الرؤيا على وقوعه ، وهذا الأسلوب آكد من أن يقال فيكيدوك كيداً ، إذ ليس فيه دلالة على كون نفس الفعل مقصود الإيقاع وقد قيل إنما جيء باللام لتضمينه معنى الاحتيال المتعدى باللام ليفيد معنى المضمن والمضمن فيه للتأكيد أى فيحتالوا لك ولإهلاكك حيلة وكيداً ، والمراد بإخوته هنا الذين يخشى غوائلهم ومكايدهم بنو علاته[1] الأحد عشر وهم يهوذا وروبيل وشمعون ولاوى وربالون ويشجر ودينة بنو يعقوب من ليا بنت خالته ودان ونفتالى وجاد وآشر بنوه من سريتين زلفة وبلهة وهؤلاء هم المشار إليهم بالكواكب الأحد عشر وأما بنيامين الذى هو شقيق يوسف عليه السلام وأمهما راحيل

(١) العلات : الضرائر .

التى تزوجها يعقوب عليه السلام بعد وفاة أختها ليا أو فى حياتها إذ لم يكن جمع الأختين إذ ذاك محرما فليس بداخل تحت هذا النهى إذ لا يتوهم مضرته ولا يخشى معرته ولم يكن معدودا معهم فى الرؤيا إذ لم يكن معهم فى السجود ليوسف والمراد نهيه عن اقتصاص الرؤيا عليهم كلا أو بعضا .

﴿ إن الشيطان للإنسان عدو مبين ﴾ ظاهر العداوة فلا يألو جهدا فى إغواء إخوتك وإضلالهم وحملهم على مالا خير فيه وهو استئناف كأن يوسف عليه السلام قال كيف يصدر ذلك عن إخوتى الناشئين فى بيت النبوة فقيل : إن الشيطان يحملهم على ذلك ولما نبهه عليهما السلام على أن لرؤياه شأنا عظيما يستتبع منافع وحذره إشاعتها المؤدية إلى أن يحول إخوته بينها وبين ظهور آثارها وحصولها أو يوعروا سبيل وصولها شرع فى تعبيرها وتأويلها على وجه إجمالى فقال ﴿ وكذلك ﴾ أى ومثل ذلك الاجتباء البديع الذى شاهدت آثاره فى عالم المثال من سجود تلك الأجرام العلوية النيرة لك وبحسبه وعلى وفقه ﴿ يجتبيك ربك ﴾ يختارك لجناب كبريائه ويستنبؤك افتعال من جباه إذا جمعه ويصطفيك على أشراف الخلائق وسراة الناس قاطبة ويبرز مصداق تلك الرؤيا فى عالم الشهادة حسب ما عاينته من غير قصور ، والمراد بالتشبيه بيان المضاهاة المتحققة بين الصور المرئية فى عالم المثال وبين ماوقعت هى صورا وأشباحا له من الكائنات الظاهرة بحسبها فى عالم الشهادة أى كما سخرت لك تلك الأجرام العظام يسخر لك وجوه الناس ونواصيهم مذعنين لطاعتك خاضعين لك على وجه الاستكانة ومراده بيان إطاعة أبويه وإخوته له لكنه إنما لم يصرح به حذرا من إذاعته ﴿ ويعلمك ﴾ كلام مبتدأ غير داخل تحت التشبيه أراد به عليه السلام تأكيد مقالته وتحقيقها وتوطين نفس يوسف عليه السلام بما أخبر به على طريقة التعبير والتأويل كأنه قال وهو يعلمك ﴿ من تأويل الأحاديث ﴾ أى ذلك الجنس من العلوم أو طرفا صالحا

منه فتطلع على حقية ما أقول ولا يخفى ما فيه من تأكيد ما سبق والبعث على تلقي ما سيأتي بالقبول والمراد بتأويل الأحاديث تعبير الرؤيا إذ هي أحاديث الملك إن كانت صادقة أو أحاديث النفس أو الشيطان أن لم تكن كذلك والأحاديث اسم جمع للحديث كالأباطيل اسم جمع للباطل لا جمع أحدوثة وقيل كأنهم جمعوا حديثا على أحدثة ثم جمعوا الجمع على أحاديث كقطيع وأقطعة وأقاطيع وقيل هو تأويل غوامض كتب الله تعالى سنن الأنبياء عليهم السلام والأول هو الأظهر وتسمية التعبير تأويلا لأنه جعل المرئى آيلا إلى ما يذكره المعبر بصدد التعبير ورجعه إليه فكأنه عليه الصلاة والسلام أشار بذلك إلى ما سيقع من يوسف عليه السلام من تعبيره لرؤيا صاحبي السجن ورؤيا الملك وكون ذلك ذريعة إلى ما يبلغه الله تعالى إليه من الرياسة العظمى التي عبر عنها بإتمام النعمة وإنما عرف يعقوب عليه السلام ذلك منه من جهة الوحي أو أراد كون هذه الخصلة سببا لظهور أمره عليه السلام على الإطلاق فيجوز حينئذ أن تكون معرفته عليه السلام لذلك بطريق الفراسة الاستدلال من الشواهد والدلائل والأمارات والمخايل بأن وفقه الله تعالى لمثل هذه الرؤيا لا بد من توفيقه لتعبيرها وتأويل أمثالها وتمييز ما هو آفاقي منها مما هو أنفسي كيف لا وهي تدل على كمال تمكن نفسه عليه السلام في عالم المثال وقوة تصرفاتها فيه فيكون أقبل لفيضان المعارف المتعلقة بذلك العالم وبما يحاكيه من الأمور الواقعة بحسبها في عالم الشهادة وأقوى وقوفا على النسب الواقعة بين الصور المعاينة في أحد ذينك العالمين وبين الكائنات الظاهرة على وفقها في العالم الآخر وأن هذا الشأن البديل لا بد أن يكون أنموذجا لظهور أمر من اتصف به ومدارا لجريان أحكامه فإن لكل نبي من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام معجزة بها تظهر آثاره وتجري أحكامه ﴿ ويتم نعمته عليك ﴾ بأن يضم إلى النبوة المستفادة من الاجتباء الملك ويجعله تتمة لها وتوسيط ذكر التعليم المذكور بينهما لكونه من لوازم النبوة والاجتباء ولرعاية ترتيب الوجود الخارجي ولما أشرنا إليه من كون أثره وسيلة إلى تمام النعمة ويجوز أن يعد نفس الرؤيا

من نعم الله تعالى عليه فيكون جميع النعم الواصلة إليه من كون أثره وسيلة إلى تمام النعمة ويجوز أن يعد نفس الرؤيا من نعم الله تعالى عليه فيكون جميع النعم الواصلة إليه بحسبها مصداقا لها تماما لتلك النعمة .

﴿ وعلى آل يعقوب ﴾ وهم أهله من بنيه وغيرهم فإن رؤية يوسف عليه السلام إخوته كواكب يهتدى بأنوارها من نعم الله تعالى عليهم لدلالتها على مصير أمرهم إلى النبوة فيقع كل ما يخرج من القوة إلى الفعل من كمالاتهم بحسب ذلك تماما لتلك النعمة لا محالة ، وأما إذا أريد بتمام تلك النعمة الملك فكونه كذلك بالنسبة إليهم باعتبار أنهم يغتنمون آثاره من العز والجاه والمال ، ﴿ كما أتمها على أبويك ﴾ نصب على المصدرية أى ويتم نعمته عليك إتماما كائنا كإتمام نعمته على أبويك وهى نعمة الرسالة والنبوة وإتمامها على إبراهيم عليه السلام باتخاذه خليلا وإنجائه من النار ومن ذبح الولد وعلى إسحق بإنجائه من الذبح وفدائه بذبح عظيم وبإخراج يعقوب والأسباط من صلبه وكل ذلك نعم جليلة وقعت تتمة لنعمة النبوة ولا يجب فى تحقيق التشبيه كون ذلك فى جانب المشبه به مثل ما وقع فى جانب المشبه من كل وجه ﴿ من قبل ﴾ أى من قبل هذا الوقت أو من قبلك ﴿ إبراهيم وإسحق ﴾ عطف بيان لأبويك والتعبير عنهما بالأب من كونهما أبا جده وأبا أبيه للإشعار بكمال ارتباطه بالأنبياء الكرام عليهم الصلاة والسلام وتذكير معنى الولد سر أبيه ليطمئن قلبه بما أخبر به فى ضمن التعبير الإجمالى لرؤياه والاقتصار فى المشبه به على ذكر إتمام النعمة من غير تعرض للاجتباء من باب الاكتفاء فإن إتمام النعمة يقتضى سابقة النعمة المستدعية للاجتباء لا محاله ﴿ إن ربك ﴾ استئناف لتحقيق مضمون الجمل المذكورة أى يفعل ما ذكر لأنه ﴿ عليم ﴾ بكل شىء فيعلم من يستحق الاجتباء وما يتفرع عليه من التعليم المذكور وإتمام النعمة العامة على الوجه المذكور ﴿ حكيم ﴾ فاعل لكل شىء حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة فيفعل ما يفعل كما يفعل جريا على سنن علمه وحكمته والتعرض لعنوان الربوبية فى

الموضعين لتربية تحقق وقوع ما ذكر من الأفاعيل وهذا وقد قيل فى تفسير الآية الكريمة أى وكما اجتباك لمثل هذه الرؤيا الدالة على شرف وعز وكمال نفس يجتبيك ربك للنبوة والملك أو لأمور عظام ويتم نعمته عليك بالنبوة أو بأن يصل نعمة الدنيا بنعمة الآخرة حيث جعلهم فى الدنيا أنبياء وملوكا ونقلهم عنها إلى الدرجات العلا فى الجنة كما أتمها على أبويك بالرسالة فتأمل والله الهادى .

﴿ لقد كان فى يوسف وأخوته ﴾ أى فى قصتهم والمراد بهم ههنا إماجميعهم فإن لبنيامين أيضا حصة من القصة أو بنو علاته المعدودون فيما سلف إذ عليهم يدور رحاها ﴿ آيات ﴾ علامات عظيمة الشأن دالة على قدرة الله تعالى القاهرة ﴿ للسائلين ﴾ لكل من سأل عن قصتهم وعرفها أو الطالبين للآيات المعتبرين بها فإنهم الواقفون عليها والمنتفعون بها دون من عداهم ممن اندرج تحت قوله تعالى (وكأين من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون) فالمراد بالقصة نفس المقصوص أو على نبوته عليه السلام لمن سأله من المشركين أو اليهود عن قصتهم فأخبرهم بذلك على ما هى عليه من غير سماع من أحد ولا ممارسة شىء من الكتب فالمراد بها اقتصاصها وجمع الآيات حينئذ للإشعار بأن اقتصاص كل طائفة من القصة آية بينة كافية فى الدلالة على نبوته عليه السلام على نحو ما ذكر فى قوله تعالى : (مقام إبراهيم) على تقدير كونه عطف بيان لقوله تعالى : (آيات بينات) لا لما قيل من أنه لتعدد جهة الإعجاز لفظا ومعنى وقرأ ابن كثير آية وفى بعض المصاحف عبرة وقيل إنما قص الله تعالى على النبى صلى الله عليه وسلم خبر يوسف وبغى إخوته عليه لما رأى من بغى قومه عليه ليأتسى به ﴿ إذ قالوا ليوسف وأخوه ﴾ أى شقيقه بنيامين وإنما لم يذكر باسمه تلويحا بأن مدار المحبة أخوته ليوسف من الطرفين ألا يرى إلى أنهم كيف اكتفوا بإخراج يوسف من البين من غير تعرض له حيث قالوا اقتلوا يوسف ﴿ أحب إلى أبينا منا ﴾ وحد الخبر مع تعدد المبتدأ لأن أفعل

من كذا لايفرق فيه بين الواحد وما فوقه ولا بين المذكر والمؤنث نعم إذا عرف وجب الفرق وإذا أضيف جاز الأمران وفائدة لام الابتداء فى يوسف تحقيق مضمون الجملة وتأكيده ﴿ ونحن عصبة ﴾ أى والحال أنا جماعة قادرون على الحل والعقد أحقاء بالمحبة ، والعصبة والعصابة العشرة من الرجال فصاعداً سموا بذلك لأن الأمور تعصب بهم ﴿ إن أبانا ﴾ فى ترجيحهما علينا فى المحبة مع فضلنا عليهما وكونهما بمعزل من كفاية الأمور بالصغر والقلة ﴿ لفى ضلال ﴾ أى ذهب عن طريق التعديل اللائق وتنزيل كل منا منزلته ﴿ مبين ﴾ ظاهر الحال . روى أنه كان أحب إليه لما يرى فيه من مخايل الخير وكان إخوته يحسدونه فلما رأى الرؤيا ضاعف له المحبة بحيث لم يصبر عنه فتضاعف حسدهم حتى حملهم على مباشرة ما قص عنهم ﴿ اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً ﴾ من جملة ما حكى بعد قوله إذ قالوا وقد قاله بعض منهم مخاطباً للباقين بقضية الصيغة فكأنهم رضوا بذلك كما يروى أن القائل شمعون أو دان ، والباقون كانوا راضين إلا من قال لا تقتلوا الخ فجعلوا كأنهم القائلون وأدرجوا تحت القول المسند إلى الجميع أو قاله كل واحد منهم مخاطباً للبقية وهو أدل على مسارعتهم إلى ذلك القول وتنكير أرضا وإخلاؤها من الوصف للإبهام أى أرضاً منكورة مجهولة بعيدة من العمران ولذلك نصبت نصب الظروف المبهمة ﴿ يخل ﴾ بالجزم جواب للأمر أى يخلص ﴿ لكم وجه أبيكم ﴾ فيقبل عليكم بكليته ولا يلتفت عنكم إلى غيركم ولا يساهمكم فى محبته أحد فذكر الوجه لتصوير معنى إقباله عليهم ﴿ وتكونوا ﴾ بالجزم عطفا على يخل أو بالنصب على إضمار أن أو الواو بمعنى مع مثل قوله (وتكتموا الحق) وإيثار الخطاب فى لكم وما بعده للمبالغة فى حملهم على القبول فإن اعتناء المرء بشأن نفسه واهتمامه بتحصيل منافعه أتم وأكمل ﴿ من بعده ﴾ من بعد يوسف أى من بعد الفراغ من أمره أو طرحه ﴿ قوماً صالحين ﴾ تائبين إلى الله تعالى عما جنيتم أو صالحين مع أبيكم بإصلاح ما بينكم وبينه بعذر تمهدونه أو صالحين فى أمور دنياكم

بانتظامها بعده بخلو وجه أبيكم ﴿ قال قائل منهم ﴾ هو يهوذا وكان أحسنهم فيه رأياً وهو الذى قال فلن أبرح الأرض الخ وقيل روبيل وهو استئناف مبنى على سؤال من سأل وقال اتفقوا على ما عرض عليهم من خصلتى الضيع أم خالفهم فى ذلك أحد فقيل قال قائل منهم ﴿ لا تقتلوا يوسف ﴾ أظهره فى مقام الإضمار استجلابا لشفقتهم عليه أو استعظاما لقتله وهو هو فإنه يروى أنه قال لهم القتل عظيم ولم يصرح بنهيهم عن الخصلة الأخرى وأحاله على أولوية ما عرضه عليهم بقوله ﴿ وألقوه فى غيابة الجب ﴾ أى فى قعره وغوره سمى بها لغيبته عن عين الناظر والجب البئر التى لم تطو بعد لأنها أرض جبت جبا من غير أن يزاد على ذلك شىء وقرأ نافع فى غيابات الجب فى الموضعين كأن لتلك الجب غيابات أو أراد بالجب الجنس أى فى بعض غيابات الجب وقرىء غيابات وغيبة ﴿ يلتقطه ﴾ يأخذه على وجه الصيانة عن الضياع والتلف فإن الالتقاط أخذ شىء مشرف على الضياع ﴿ بعض السيارة ﴾ أى بعض طائفة تسير فى الأرض واللام فى السيارة كما فى الجب وما فيهما وفى البعض من الإبهام لتحقيق ما يتوخاه من ترويج كلامه بموافقته لغرضهم الذى هو تنائى يوسف عنهم بحيث لا يدرى أثره ولا يروى خبره وقرىء تلتقطه على التأنيث لأن بعض السيارة سيارة كقوله :

* كما شرقت صدر القناة من الدم *

ومنه قطعت بعض أصابعه ﴿ إن كنتم فاعلين ﴾ بمشورتى لم يبت القول عليهم بل إنما عرض عليهم ذلك تألفا لقلبهم وتوجيها لهم إلى رأيه وحذرا من نسبتهم له إلى التحكم والافتيات ، أو إن كنتم فاعلين ما أزمعتم عليه من إزالته من عند أبيه لا محالة ولما كان هذا مظنة لسؤال سائل يقول فما فعلوا بعد ذلك قبلوا ذلك منه أو لا أجيب بطريق الاستئناف على وجه أدرج فى تضاعيفه قبولهم له بما سيجىء من قوله (وأجمعوا أن يجعلوه فى غيابة الجب) فقيل ﴿ قالوا يا أبانا ﴾ خاطبوه بذلك تحريكا لسلسلة النسب بينه وبينهم وتذكيراً

لرابطة الأخوة بينهم وبين يوسف عليه الصلاة والسلام ليتسببوا بذلك إلى استنزاله عليه السلام عن رأيه فى حفظه منهم لما أحس منهم بأمارات الحسد والبغى فكأنهم قالوا ﴿ مالك ﴾ أى أى شىء لك ﴿ لا تأمنا ﴾ أى لا تجعلنا أمناء ﴿ على يوسف ﴾ مع أنك أبونا ونحن بنوك وهو أخونا ﴿ وإنا له لناصحون ﴾ مريدون له الخير ومشفقون عليه ليس فينا مايخل بالنصيحة والمقة قط والقراءة المشهورة بالإدغام والإشمام وعن نافع رضى الله عنه ترك الإشمام ومن الشواذ ترك الإدغام ﴿ أرسله معنا غداً ﴾ إلى الصحراء ﴿ يرتع ﴾ أى يتسع فى أكل الفواكه ونحوها فإن الرتع هو الاتساع فى الملاذ ﴿ ويلعب ﴾ بالاستباق والتناضل ونظائرهما مما يعد من باب التأهب للغزو وإنما عبروا عن ذلك باللعب لكونه على هيئته تحقيقا لما راموه من استصحاب يوسف عليه السلام بتصويرهم له بصورة ما يلائم حاله عليه السلام ، وقرىء نرتع ونلعب بالنون وقرأ ابن كثير نرتع من ارتعى ونافع بالكسر والياء فيه وفى يلعب وقرىء يرتع من أرتع ماشيته ويرتع بكسر العين ويلعب بالرفع على الابتداء ﴿ وإنا له لحافظون ﴾ من أن يناله مكروه أكدوا مقالتهم بأصناف التأكيد من إيراد الجملة اسمية وتحليتها بأن واللام وإسناد الحفظ إلى كلهم وتقديم له على الخبر احتيالا فى تحصيل مقصدهم .

﴿ قال ﴾ استئناف مبنى على سؤال من يقول فماذا قال يعقوب عليه السلام فقيل قال ﴿ إنى ليحزننى ﴾ اللام للابتداء كما فى قوله عز وجل (إن ربك ليحكم بينهم) ﴿ أن تذهبوا به ﴾ لشدة مفارقته على وقلة صبرى عنه ﴿ و ﴾ مع ذلك ﴿ أخاف أن يأكله الذئب ﴾ لأن الأرض كانت مذئبة[1] والحزن ألم القلب بفوت المحبوب والخوف انزعاج النفس لنزول المكروه ولذلك أسند الأول إلى الذهاب به المفوت لاستمرار مصاحبته ومواصلته ليوسف والثانى

(١) فى الاصل مذابة . خطأ .

إلى ما يتوقع نزوله من أكل الذئب وقيل رأى فى المنام أنه قد شد عليه السلام ذئب وكان يحذره فقال ذلك وقد لقنهم العلة .

* إن البلاء موكل بالمنطق *

وقرأ ابن كثير ونافع فى رواية البزى بالهمز على الأصل وأبو عمرو به وقفا وعاصم وابن عامر وحمزة درجا وقيل اشتقاقه من تذاءبت الريح إذا هاجت من كل جانب وقال الأصمعى الأمر بالعكس وهو أظهر لفظا ومعنى ﴿ وأنتم عنه غافلون ﴾ لاشتغالكم بالرتع واللعب أو لقلة اهتمامكم بحفظه ﴿ قالوا لئن أكله الذئب ونحن عصبة ﴾ أى والحال أنا جماعة كثيرة جديرة بأن تعصب بنا الأمور العظام وتكفى الخطوب بآرائنا وتدبيراتنا واللام الداخلة على الشرط موطئة للقسم وقوله : ﴿ إنا إذاً لخاسرون ﴾ جواب مجزىء عن الجزاء أى لهالكون ضعفا وخورا وعجزا أو مستحقون للهلاك إذ لا غناء عندنا ولا جدوى فى حياتنا أو مستحقون لأن يدعى علينا بالخسار والدمار ويقال خسرهم الله تعالى ودمرهم حيث أكل الذئب بعضهم وهم حضور وقيل إن لم تقدر على حفظه وهو أعز شىء عندنا فقد هلكت مواشينا إذن وخسرناها وإنما اقتصروا على جواب خوف يعقوب عليه السلام من أكل الذئب لأنه السبب القوى فى المنع دون الحزن لقصر مدته بناء على أنهم يأتون به عن قريب ﴿ فلما ذهبوا به وأجمعوا ﴾ أى أزمعوا ﴿ أن يجعلوه ﴾ مفعول لأجمعوا يقال أجمع الأمر ومنه فأجمعوا أمركم ولا يستعمل ذلك إلا فى الأفعال التى قويت الدواعى إلى فعلها ﴿ فى غيابة الجب ﴾ قيل هى بئر بأرض الأردن وقيل بين مصر ومدين ، وقيل على ثلاثة فراسخ من منزل يعقوب عليه السلام بكنعان التى هى من نواحى الأردن كما أن مدين كذلك ، وأما مايقال من أنها بئر بيت المقدس فيرده التعليل بالتقاط السيارة ومجيئهم أباهم عشاء ذلك اليوم فإن بين منزل يعقوب عليه السلام وبين بيت المقدس مراحل . وجوب لما محذوف إيذانا بظهوره وإشعارا بأن تفصيله مما لايحويه فلك العبارة ، ومجمله

فعلوا به من الأذية ما فعلوا . يروى أنهم لما برزوا إلى الصحراء أخذوا يؤذونه ويضربونه حتى كادوا يقتلونه ، فجعل يصيح ويستغيث ، فقال يهوذا : أما عاهدتمونى ألا تقتلوه ، فأتوا به إلى البئر فتعلق بثيابهم فنزعوها من يديه فدلوه فيها فتعلق بشفيرها فربطوا يديه ، ونزعوا قميصه لما عزموا عليه من تلطيخه بالدم احتيالا لأبيه ، فقال يا إخوتاه ردوا على قميصى أتوارى به فقالوا : ادع الشمس والقمر والأحد عشر كوكبا تؤنسك ، فدلوه فيها ، فلما بلغ نصفها ألقوه ليموت وكان فى البئر ماء فسقط فيه ثم أوى إلى صخرة فقام عليها وهو يبكى، فنادوه وظن أنها رحمة أدركتهم ، فأجابهم فأرادوا أن يرضخوه فمنعهم يهوذا ، وكان يأتيه بالطعام كل يوم ويروى أن إبراهيم عليه السلام حين ألقى فى النار وجرد عن ثيابه أتاه جبريل عليه السلام بقميص من حرير الجنة فألبسه إياه فدفعه إبراهيم إلى إسحق وإسحق إلى يعقوب فجعله يعقوب فى تميمة وعلقها فى عنق يوسف ، فجاءه جبريل عليه السلام فأخرجه من التميمة فألبسه إياه .

﴿وأوحينا إليه﴾ عند ذلك تبشيراً له بما يؤول إليه أمره وإزالة لوحشته وإيناساً له ، قيل كان ذلك قبل إدراكه كما أوحى إلى يحيى وعيسى ، وقيل كان إذ ذاك مدركا ، قال الحسن رضى الله عنه كان له سبع عشرة سنة ﴿ لتنبئنهم بأمرهم هذا ﴾ أى لتتخلصن مما أنت فيه من سوء الحال وضيق المجال ولتحدثن إخوتك بما فعلوا بك ﴿ وهم لا يشعرون ﴾ بأنك يوسف لتباين حاليك حالك هذا وحالك يومئذ لعلو شأنك وكبرياء سلطانك وبعد حالك عن أوهامهم وقيل لبعد العهد المبدل للهيئات المغير للأشكال والأول أدخل فى التسلية ، روى أنهم حين دخلوا عليه ممارين فعرفهم وهم له منكرون دعا بالصواع فوضعه على يده ثم نقره فطن ، فقال إنه ليخبرنى هذا الجام أنه كان لكم أخ من أبيكم يقال له يوسف وكان يدنيه دونكم وأنكم انطلقتم به وألقيتموه فى غيابة الجب وقلتم لأبيكم أكله الذئب وبعتموه بثمن بخس ، ويجوز أن يتعلق وهم لا يشعرون

بالإيحاء على معنى أنا آنسناه بالوحى وأزلنا عن قلبه الوحشة التى أورثوه [إياها][1] وهم لا يشعرون بذلك ويحسبون أنه مرهق ومستوحش لا أنيس له ، وقرىء لننبئنهم بالنون على أنه وعيد لهم فقوله تعالى (وهم لا يشعرون) متعلق بأوحينا لا غير ﴿ وجاؤا أباهم عشاء ﴾ آخر النهار وقرىء عشيا وهو تصغير عشى وعشى بالضم والقصر جمع أعشى أى عشوا من البكاء ﴿ يبكون ﴾ متباكين . روى أنه لما سمع يعقوب عليه السلام بكاءهم فزع وقال مالكم يا بنى وأين يوسف ﴿ قالوا يا أبانا ذهبنا نستبق ﴾ أى متسابقين فى العدو والرمى وقد يشترك الافتعال والتفاعل كالانتضال والتناضل ونظائرهما ﴿ وتركنا يوسف عند متاعنا ﴾ أى ما نتمتع به من الثياب والأزواد وغيرهما ﴿ فأكله الذئب ﴾ عقيب ذلك من غير مضى زمان يعتاد فيه التفقد والتعهد ، وحيث لا يكاد يطرح المتاع عادة إلا فى مقام يؤمن فيه الغوائل لم يعد تركه عليه السلام عنده من باب الغفلة وترك الحفظ الملتزم لا سيما إذا لم يبرحوه ولم يغيبوا عنه ، فكأنهم قالوا إنا لم نقصر فى محافظته ولم نغفل عن مراقبته بل تركناه فى مأمننا ومجمعنا بمرأى منا لأن ميدان السباق لا يكون عادة إلا بحيث يتراءى غايتاه وما فارقناه إلا ساعة يسيرة بيننا وبينه مسافة قصيرة فكان ما كان ﴿ وما أنت بمؤمن لنا ﴾ بمصدق لنا فى هذه المقالة الدالة على عدم تقصيرنا فى أمره ﴿ ولو كنا ﴾ عندك وفى اعتقادك ﴿ صادقين ﴾ موصوفين بالصدق والثقة لشدة محبتك ليوسف فكيف وأنت سيء الظن بنا غير واثق بقولنا وكلمة لو فى أمثال هذه المواقع لبيان تحقق ما يفيده الكلام السابق من الحكم الموجب أو المنفى على كل حال مفروض من الأحوال المقارنة له على الإجمال بإدخالها على أبعدها منه وأشدها منافاة له ليظهر بثبوته أو انتفائه معه ثبوته أو انتفاؤه مع غيره من الأحوال بطريق الأولوية ، لما أن الشيء متى تحقق مع المنافى القوى فلأن يتحقق مع غيره أولى ولذلك لا يذكر معه شيء من سائر الأحوال ويكتفى عنه بذكر الواو العاطفة

---

(١) سقطت من ط .

للجملة على نظيرتها المقابلة لها الشاملة لجميع الأحوال المغايرة لها عند تعددها وقد مر تفصيله فى سورة البقرة عند قوله تعالى (أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون) وفى سورة الأعراف عند قوله تعالى (أولو كنا كارهين) .

﴿ وجاؤا على قميصه ﴾ محله النصب على الظرفية من قوله ﴿ بدوم ﴾ أى جاؤا فوق قميصه بدم كما تقول جاء على جماله بأحمال أو على الحالية منه والخلاف فى تقدم الحال على المجرور فيما إذا لم يكن الحال ظرفا ﴿ كذب ﴾ مصدر وصف به الدم مبالغة أو مصدر بمعنى المفعول أى مكذوب فيه أو بمعنى ذى كذب أى ملابس لكذب وقرىء كذبا على أنه حال من الضمير ، أى جاؤا كاذبين أو مفعول له ، وقرأت عائشة رضى الله تعالى عنها بغير المعجمة أى كدر ، وقيل طرى قال ابن جنى أصله من الكدب وهو الفوف [أى][1] البياض الذى يخرج على أظفار الأحداث كأنه دم قد أثر فى قميصه . روى أنهم ذبحوا سخلة ولطخوه بدمها وزل عنهم[2] أن يمزقوه ، فلما سمع يعقوب بخبر يوسف عليهما السلام صاح بأعلى صوته وقال أين القميص فأخذه وألقاه على وجهه وبكى حتى خضب وجهه بدم القميص وقال تالله ما رأيت كاليوم ذئبا أحلم من هذا أكل ابنى ولم يمزق عليه قميصه وقيل كان فى قميص يوسف عليه ثلاث آيات كان دليلا ليعقوب على كذبهم وألقاه على وجهه فارتد بصيرا ودليلا على براءة يوسف عليه السلام حين قد من دبر ﴿ قال ﴾ استئناف مبنى على سؤال فكأنه قيل ما قال يعقوب هل صدقهم فيما قالوا أو لا فقيل قال لم يكن ذلك ﴿ بل سولت لكم أنفسكم ﴾ أى زينت وسهلت قاله ابن عباس رضى الله عنهما والتسويل تقدير شىء فى النفس مع الطمع فى إتمامه قال الأزهرى كأن التسويل تفعيل من من سؤل الإنسان وهو أمنيته التى يطلبها فتزين لطالبها الباطل وغيره وأصله

---

(١) سقطت من ط .

(٢) فى ١٠ وغاب عنهم

مهموز وقيل من السول وهو الاسترخاء ﴿أمرا﴾ من الأمور منكرا لا يوصف ولا يعرف ﴿فصبر جميل﴾ أى فأمرى صبر جميل أو فصبر أجمل أو أمثل وفى الحديث الصبر الجميل الذى لا شكوى فيه أى إلى الخلق وإلا فقد قال يعقوب عليه السلام إنما أشكو بثى وحزنى إلى الله وقيل سقط حاجباه على عينيه فكان يرفعهما بعصابة فقيل له ما هذا قال طول الزمان وكثرة الأحزان فأوحى الله عز وجل إليه يا يعقوب أتشكونى قال يارب خطيئة فاغفرها لى. وقرأ أبى فصبرا جميلا ﴿والله المستعان﴾ أى المطلوب منه العون وهو إنشاء منه عليه السلام للاستعانة المستمرة ﴿على ما تصفون﴾ على إظهار حال ما تصفون وبيان كونه كذبا وإظهار سلامته فإنه علم فى الكذب قال سبحانه (سبحان ربك رب العزة عما يصفون) وهو الأليق بما سيجىء من قوله تعالى (فصبر جميل عسى الله أن يأتينى بهم جميعا) وتفسير المستعان عليه باحتمال ما يصفون من هلاك يوسف والصبر على الرزء فيه يأباه تكذيبه عليه السلام لهم فى ذلك ولا تساعده الصيغة فإنها قد غلبت فى وصف الشىء بما ليس فيه كما أشير إليه

﴿وجاءت﴾ شروع فى بيان ما جرى على يوسف فى الجب بعد الفراغ من ذكر ما وقع بين إخوته وبين أبيه والتعبير بالمجىء ليس بالنسبة إلى مكانهم فإن كنعان ليس بالجانب المصرى من مدين بل إلى مكان يوسف وفى إيثاره على المرور أو الإتيان أو نحوهما إيماء إلى كونه عليه السلام فى الكرامة والزلفى عند مليك مقتدر والظاهر أن الجب كان فى الأمم المتناء[1] فإن المتبادر من إسناد المجىء إلى السيارة مطلقا فى قوله عز وجل ﴿سيارة﴾ أى رفقة تسير من جهة مدين إلى مصر وقوعه باعتبار سيرهم المعتاد وهو الذى يقتضيه قوله تعالى فيما سلف (يلتقطه بعض السيارة) وقد قيل إنه كان فى قفرة بعيدة من العمران لم تمكن إلا للرعاة فأخطؤا الطريق فنزلوا قريبا منه وقيل كان ماؤه ملحا فعذب حين ألقى فيه عليه السلام ﴿فأرسلوا واردهم﴾ الذى يرد الماء ويستقى

(١) أى على الطريق المعهود للسفر .

لهم وكان ذلك مالك بن ذعر الخزاعى وإنما لم يذكر منتهى الإرسال كما لم يذكر منتهى المجىء أعنى الجب للإيذان بأن ذلك معهود لا يضرب عنه الذكر صفحا ﴿ فأدلى دلوه ﴾ أى أرسلها إلى الجب والحذف لما عرفته فتدلى بها يوسف فخرج .

﴿ قال ﴾ استئناف مبنى على سؤال يقتضيه الحال ﴿ يابشرى هذا غلام ﴾ كأنه نادى البشرى وقال تعالى فهذا أوانك حيث فاز بنعمة باردة وأى نعمة مكان ما يوجد مباحا من الماء وقيل هو اسم صاحب له ناداه ليعينه على إخراجه وقرأ غير الكوفيين يا بشراى وأمال فتحة الراء حمزة والكسائى وقرأ ورش بين اللفظين يابشرى بالإدغام وهى لغة ، وبشراى على قصد الوقف ﴿ وأسروه ﴾ أى أخفاه الوارد وأصحابه عن بقية الرفقة وقيل أخفوا أمره ووجدانهم له فى الجب وقالوا لهم دفعه إلينا أهل الماء لنبيعه لهم بمصر وقيل الضمير لإخوة يوسف وذلك أن يهوذا كان يأتيه كل يوم بطعام فأتاه يومئذ فلم يجده فيها فأخبر إخوته فأتوا الرفقة وقالوا هذا غلامنا أبق منا فاشتروه منهم وسكت يوسف مخافة أن يقتلوه ولا يخفى ما فيه من البعد ﴿ بضاعة ﴾ نصب على الحالية أى أخفوه حال كونه بضاعة أى متاعا للتجارة فإنها قطعة من المال بضعت عنه أى قطعت للتجارة ﴿ والله عليم بما يعملون ﴾ وعيد لهم على ما صنعوا من جعلهم مثل يوسف وهو هو عرضة للابتذال بالبيع والشراء وما دبروا فى ذلك من الحيل ﴿ وشروه ﴾ أى باعوه والضمير للوارد وأصحابه ﴿ بثمن بخس ﴾ زيف ناقص العيار ﴿ دراهم ﴾ بدل من ثمن أى لا دنانير ﴿ معدودة ﴾ أى غير موزونة فهو بيان لقلته ونقصانه مقدارا بعد بيان نقصانه فى نفسه إذ المعتاد فيما لا يبلغ أربعين العد دون الوزن فعن ابن عباس رضى الله عنهما أنها كانت عشرين درهما وعن السدى رضى الله عنه أنها كانت اثنين وعشرين درهما ﴿ وكانوا ﴾ أى البائعون ﴿ فيه ﴾ فى يوسف ﴿ من الزاهدين ﴾ من الذين لا يرغبون فيما بأيديهم فلذلك باعوه بما ذكر من الثمن البخس وسبب ذلك أنهم

التقطوه والملتقط للشيء متهاون به أو غير واثق بأمره يخاف أن يظهر له مستحق فينتزعه منه فيبيعه من أول مساوم بأوكس ثمن ويجوز أن يكون معنى شروه اشتروه من إخوته على ما حكى وهم غير راغبين فى شراه خشية ذهاب ما لهم لما طن فى آذانهم من الإباق والعدول على صيغة الافتعال المنبئة عن الاتخاذ لما مر من أخذهم إنما كان بطريق البضاعة دون الاجتباء والاقتناء وفيه متعلق بالزاهدين إن جعل اللام للتعريف وبيان لما زهدوا فيه إن جعلت موصولة ، كأنه قيل فى أى شيء زهدوا فقيل زهدوا فيه لأن ما يتعلق بالصلة لا يتقدم على الموصول .

﴿ وقال الذى اشتراه من مصر ﴾ وهو العزيز الذى كان على خزائنه واسمه قطفير أو إطفير ، وبيان كونه من مصر لتربية ما يفرع عليه من الأمور مع الإشعار بكونه غير من اشتراه من الملتقطين بما ذكر من الثمن البخس وكان الملك يومئذ الريان بن الوليد العمليق ومات فى حياة يوسف عليه السلام بعد بعد أن آمن به فملك بعده قابوس بن مصعب فدعاه إلى الإسلام فأبى وقيل كان الملك فى أيامه فرعون موسى عليه السلام عاش أربعمائة سنة لقوله عز وجل (ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات) وقيل فرعون موسى من أولاد فرعون يوسف والآية من قبيل خطاب الأولاد بأحوال الآباء ، واختلف فى مقدار ما اشتراه به العزيز فقيل بعشرين دينارا وزوجى نعل وثوبين أبيضين وقيل أدخلوه فى السوق يعرضونه فترافعوا فى ثمنه حتى بلغ ثمنه وزنه مسكا ووزنه حريرا فاشتراه قطفير بذلك المبلغ وكان سنه إذ ذاك سبع عشرة سنة وأقام فى منزله مع ما مر عليه من مدة لبثه فى السجن ثلاث عشرة سنة واستوزره الريان وهو ابن ثلاثين سنة وآتاه الله العلم والحكمة وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة وتوفى وهو ابن مائة وعشرين سنة ﴿ لامرأته ﴾ راعيل أو زليخا وقيل اسمها هو الأول والثانى لقبها واللام متعلقة بقال لا باشتراه ﴿ أكرمى مثواه ﴾ اجعلى محل إقامته كريما مرضيا والمعنى أحسنى تعهده ﴿ عسى أن ينفعنا ﴾ فى ضياعنا

وأموالنا ونستظهر به فى مصالحنا ﴿ أو نتخذه ولدا ﴾ أى نتبناه وكان ذلك لما تفرس فيه من مخايل الرشد والنجابة ولذلك قيل أفرس الناس ثلاثة عزيز مصر وابنة شعيب التى قالت يا أبت استأجره وأبو بكر حين استخلف عمر رضى الله عنهما .

﴿ وكذلك ﴾ نصب على المصدرية وذلك إشارة إلى ما يفهم من كلام العزيز وما فيه من معنى البعد لتفخيمه أى مثل ذلك التمكين البديع ﴿ مكنا ليوسف فى الأرض ﴾ أى جعلنا له فيها مكانا يقال مكنه فيه أى أثبته فيه ومكن له فيه أى جعل له فيه مكانا ولتقاربهما وتلازمهما يستعمل كل منهما فى محل الآخر قال عز وجل (وكم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم فى الأرض ما لم نمكن لكم) أى ما لم نمكنكم فيها أو مكنا لهم فى الأرض إلخ .

والمعنى كما جعلنا له مثوى كريما فى منزل العزيز أو مكانا عليا فى قلبه حتى أمر امرأته دون سائر حواشيه بإكرام مثواه جعلنا له مكانة رفيعة فى أرض مصر ولعله عبارة عن جعله وجيها بين أهلها ومحببا فى قلوبهم كافة كما فى قلب العزيز لأنه الذى يؤدى إلى الغاية المذكورة فى قوله تعالى ﴿ ولنعلمه من تأويل الأحاديث ﴾ أى نوفقه لتعبير بعض المنامات التى عمدتها رؤيا الملك وصاحبى السجن لقوله تعالى (ذلكما مما علمنى ربى) سواء جعلناه معطوفا على غاية مقدرة ينساق إليها الكلام ويستدعيها النظام كأنه قيل ومثل ذلك التمكين مكنا ليوسف فى الأرض وجعلنا قلوب أهلها كافة مجال محبته ليترتب عليه ما ترتب مما جرى بينه وبين امرأة العزيز ولنعلمه بعض تأويل الأحاديث وهو تأويل الرؤيا المذكورة فيؤدى ذلك إلى الرياسة العظمى ولعل ترك المعطوف عليه للإشعار بعدم كونه مراداً بالذات أو جعلناه علة لمعلل محذوف كأنه قيل ولهذه الحكمة البالغة فعلنا ذلك التمكين دون غيرها مما ليس له عاقبة حميدة هذا ولا يخفى عليك أن الذى عليه تدور هذه الأمور إنما هو التمكين فى جانب العزيز .

وأما التمكين فى جانب الناس كافة فتأديته إلى ذلك إنما هى باعتبار اشتماله على ذلك التمكين فإن الحق أن يكون ذلك التمكين فإذن الحق أن يكون ذلك إشارة إلى مصدر قوله تعالى (مكنا ليوسف) على أن يكون هو عبارة عن التمكين فى قلب العزيز أو فى منزله وكون ذلك تمكينا فى الأرض بملابسة أنه عزيز فيها لا عن تمكين آخر يشبه به كما مر فى قوله تعالى (وكذلك جعلناكم أمة وسطا) من أن ذلك إشارة إلى مصدر الفعل المذكور بعده لا إلى جعل آخر يقصد تشبيه هذا الجعل به فالكاف مقحم للدلالة على فخامة شأن المشار إليه إقحاما لا يكاد يترك فى لغة العرب ولا فى غيرها .

ومن ذلك قولهم مثلك لا يبخل وهكذا ينبغى أن يحقق المقام وأما التمكين بمعنى جعله مالكا يتصرف فى أرض مصر بالأمر والنهى فهو من آثار ذلك التعليم ونتائجه المتفرعة عليه كما عرفته لا من مباديه المؤدية إليه ، فلا سبيل إلى جعله غاية له ولم يعهد منه عليه السلام فى تضاعيف قضاياه العمل بموجب المنامات المنبهة على الحوادث قبل وقوعها عهدا مصححا لجعله غاية لولايته وما وقع من التدارك فى أمر السنين فإنما هو عمل بموجب الرؤيا السابقة المعهودة اللهم إلا أن يراد بتعليم تأويل الأحاديث ما سبق من تفهيم غوامض أسرار الكتب الإلهية ودقائق سنن الأنبياء عليهم السلام فيكون المعنى حينئذ مكنا له أرض مصر ليتصرف فيها بالعدل ولنعلمه معانى كتب الله تعالى وأحكامها ودقائق سنن الأنبياء عليهم السلام فيقضى بها فيما بين أهلها ، والتعليم الإجمالى لتلك المعانى والأحكام وإن كان غير متأخر عن تمكنه بذلك المعنى إلا أن تعليم كل معنى شخصى يتفق فى ضمن الحوادث والإرشاد إلى الحق فى كل نازلة من النوازل متأخر عن ذلك صالح لأن يكون غاية له ﴿ والله غالب على أمره ﴾ لا يستعصى عليه أمر ولا يمانعه شىء بل إنما أمره لشىء إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون فيدخل فى ذلك شئونه المتعلقة بيوسف دخولا أوليا أو متول على أمر يوسف لا يكله إلى غيره وقد أريد به من الفتنة ما أريد مرة غب مرة

فلم يكن إلا ما أراد الله له من العاقبة الحميدة ﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ أن الأمر كذلك فيأتون ويذرون زعما منهم أن لهم من الأمر شيئاً وأنى لهم ذلك وإن الأمر كله لله عز وجل ، أو لا يعلمون لطائف صنعه وخفايا فضله .

﴿ ولما بلغ أشده ﴾ أى منتهى اشتداد جسمه وقوته وهو سن الوقوف ما بين الثلاثين إلى الأربعين وقيل سن الشباب ومبدأ بلوغ الحلم والأول هو الأظهر لقوله تعالى ﴿ آتيناه حكما ﴾ حكمة وهو العلم المؤيد بالعمل أو حكما بين الناس وفقها أو نبوة ﴿ وعلما ﴾ أى تفقها فى الدين وتنكيرهما للتفخيم أى حكما وعلما لا يكتنه كنههما ولا يقادر قدرهما فهما ما آتاه الله تعالى عند تكامل قواه سواء كانا عبارة عن النبوة والحكم بين الناس أو غيرهما كيف لا وقد جعل إيتاؤهما جزاء لعمله عليه السلام حيث قيل ﴿ وكذلك ﴾ أى مثل الجزاء العجيب ﴿ نجزى المحسنين ﴾ أى كل من يحسن فى عمله فيجب أن يكون ذلك بعد انقضاء أعماله الحسنة التى من جملتها معاناة الأحزان والشدائد وقد فسر العلم بعلم تأويل الأحاديث ولا صحة له إلا أن يخص بعلم تأويل رؤيا الملك فإن ذلك حيث كان عند تناهى أيام البلاء صح أن يعد إيتاؤه من جملة الجزاء وأما رؤيا صاحبى السجن فقد لبث عليه السلام بعد تعبيرها فى السجن بضع سنين وفى تعليق الجزاء المذكور بالمحسنين إشعار بعلية الإحسان له وتنبيه على أنه سبحانه إنما آتاه ما آتاه لكونه محسنا فى أعماله متقيا فى عنفوان أمره هل جزاء الإحسان إلا الإحسان .

﴿ وراودته التى هو فى بيتها ﴾ رجوع إلى شرح ماجرى عليه فى منزل العزيز بعد ما أمر امرأته بإكرام مثواه وقوله تعالى (وكذلك مكنا ليوسف) إلى هنا اعتراض جىء به أنموذجا للقصة ليعلم السامع من أول الأمر أن ما لقيه عليه السلام من الفتن التى ستحكى بتفاصيلها له غاية جميلة وعاقبة حميدة وأنه عليه السلام محسن فى جميع أعماله لم يصدر عنه فى حالتى السراء والضراء ما يخل بنزاهته ، ولا يخفى

أن مدار حسن التخلص إلى هذا الاعتراض قبل تمام[1] الآية الكريمة إنما هو التمكين البالغ المفهوم من كلام العزيز فإدراج الإنجاء السابق تحت الإشارة بذلك فى قوله تعالى وكذلك مكنا كافعله الجمهور ناء من التقريب فتأمل والمراودة المطالبة من راد يرود إذا جاء وذهب لطلب شيء ومنه الرائد لطالب الماء والكلأ وهى مفاعلة من واحد نحو مطالبة الدائن ومماطلة المديون ومداواة الطبيب ونظائرها مما يكون من أحد الجانبين الفعل ومن الآخر سببه فإن هذه الأفعال وإن كانت صادرة عن أحد الجانبين لكن لما كانت أسبابها صادرة عن الجانب الآخر جعلت كأنها صادرة عنهما وهذا باب لطيف المسلك مبنى على اعتبار دقيق تحقيقه أن سبب الشيء يقام مقامه ويطلق عليه اسمه كما فى قولهم كما تدين تدان أى كما تجزى تجزى فإن فعل البادى وإن لم يكن جزاء لكنه لكونه سبباً للجزاء أطلق عليه اسمه وكذلك إرادة القيام إلى الصلاة وإرادة قراءة القرآن حيث كانتا سببا للقيام والقراءة عبر عنهما بهما فقيل إذا قمتم إلى الصلاة فإذا قرأت القرآن وهذه قاعدة مطردة مستمرة ولما كانت أسباب الأفعال المذكورة فيما نحن فيه صادرة عن الجانب المقابل لجانب فاعلها فإن مطالبة الدائن للمماطلة التى هى من جانب الغريم وهى منه للمطالبة التى هى من جانب الدائن وكذا مداواة الطبيب للمرض الذى هو من جانب المريض وكذلك مراودتها فيما نحن فيه لجمال يوسف عليه السلام نزل صدورها عن محالها بمنزلة صدور مسبباتها التى هى تلك الأفعال فبنى الصيغة على ذلك وروعى جانب الحقيقة بأن أسند الفعل إلى الفاعل وأوقع على صاحب السبب فتأمل ويجوز أن يراد بصيغة المغالبة مجرد المبالغة وقيل الصيغة على بابها بمعنى أنها طلبت منه الفعل وهو منها الترك ويجوز أن يكون من الرويد وهو الرفق والتحمل وتعديتها بعن لتضمينها معنى المخادعة فالمعنى خادعته .

﴿عن نفسه﴾ أى فعلت ما يفعل المخادع لصاحبه عن شيء لا يريد إخراجه من يده وهو يحتال أن يأخذه منه وهى عبارة عن التمحل فى مواقعته إياها

---

(١) فى ١٠ : إتمام .

والعدول عن التصريح باسمها للمحافظة على السر أو للاستهجان بذكره وإيراد الموصول لتقرير المراودة فإن كونه فى بيتها مما يدعو إلى ذلك قيل لواحدة ما حملك على ما أنت عليه مما لا خير فيه قالت قرب الوساد وطول السواد ولإظهار كمال نزاهته عليه السلام فإن عدم ميله إليها مع دوام مشاهدته لمحاسنها واستعصاءه عليها مع كونه تحت ملكتها ينادى بكونه عليه السلام فى أعلى معارج العفة والنزاهة ﴿ وغلقت الأبواب ﴾ قيل كانت سبعة ولذلك جاء الفعل بصيغة التفعيل دون الإفعال ، وقيل للمبالغة فى الإيثاق[1] والإحكام ﴿ وقالت هيت لك ﴾ قرىء بفتح الهاء وكسرها مع فتح التاء وبناؤه كبناء أين وعيط وهيت كجير وهيت كحيث اسم فعل معناه أقبل وبادر واللام للبيان أى لك أقول هذا كل فى هلم لك وقرىء هئت لك على صيغة الفعل بمعنى تهيأت يقال هاء يهيىء كجاء يجىء إذا تهيأ وهيئت لك واللام صلة للفعل ﴿ قال معاذ الله ﴾ أى أعوذ بالله معاذاً مما تدعيننى إليه وهذا اجتناب منه على أتم الوجوه وإشارة إلى التعليل بأنه منكر هائل يجب أن يعاذ بالله تعالى للخلاص منه وما ذاك إلا لأنه عليه السلام قد شاهده بما أراه الله تعالى من البرهان النير على ما هو عليه فى حد ذاته من غاية القبح ونهاية السوء وقوله عز وجل ﴿ إنه ربى أحسن مثواى ﴾ تعليل للامتناع ببعض الأسباب الخارجية مما عسى يكون مؤثرا عندها وداعياً لها إلى اعتباره بعد التنبيه على سببه الذاتى الذى لا تكاد تقبله لما سولته لها نفسها والضمير للشأن ومدار وضعه موضعه ادعاء شهرته المغنية عن ذكره وفائدة تصدير الجملة به الإيذان بفخامة مضمونها مع ما فيه من زيادة تقريره فى الذهن فإن الضمير لا يفهم منه من أول الأمر إلا شأن مبهم له خطر فيبقى الذهن مترقبا لما يعقبه فيتمكن عند وروده له فضل تمكن فكأنه قيل إن الشأن الخطير هذا وهو ربى أى سيدى العزيز أحسن مثواى أى أحسن تعهدى حيث أمرك بإكرامى فكيف يمكن أن أسيء إليه بالخيانة فى حرمه وفيه إرشاد لها إلى رعاية حق العزيز بألطف وجه

---

(١) فى ١٠ الإتمام .

وقيل الضمير لله عز وجل وربى خبر إن وأحسن مثواى خبر ثان أو هو الخبر والأول بدل من الضمير والمعنى أن الحال هكذا فكيف أعصيه بارتكاب تلك الفاحشة الكبيرة وفيه تحذير لها من عقاب الله عز وجل وعلى التقديرين ففى الاقتصار على ذكر هذه الحالة من غير تعرض لاقتضائها الامتناع عما دعته إليه إيذان بأن هذه المرتبة من البيان كافية فى الدلالة على استحالته وكونه مما لا يدخل تحت الوقوع أصلا وقوله تعالى :

﴿ إنه لا يفلح الظالمون ﴾ تعليل للامتناع المذكور غب تعليل والفلاح الظفر وقيل البقاء فى الخير ومعنى أفلح دخل فيه كأصبح وأخواته والمراد بالظالم كل من ظلم كائنا من كان فيدخل فى ذلك المجازون للإحسان بالإساءة والعصاة لأمر الله تعالى دخولا أوليا ، وقيل الزناة لأنهم ظالمون لأنفسهم وللمزنى بأهله ﴿ ولقد همت به ﴾ بمخالطته إذ الهم لا يتعلق بالأعيان أى قصدتها وعزمت عليها عزما جازما لا يلويها عنه صارف بعد ما باشرت من مباديها وفعلت ما فعلت من المراودة وتغليق الأبواب ودعوته عليه السلام إلى نفسها بقولها هيت لك ولعلها تصدت هنالك لأفعال أخر من بسط يدها إليه وقصد المعانقة وغير ذلك مما يضطره عليه السلام إلى الهرب نحو الباب والتأكيد لدفع ما عسى يتوهم من احتمال إقلاعها عما كانت عليه بما فى مقالته عليه السلام من الزواجر ﴿ وهم بها ﴾ بمخالطتها أى مال إليها بمقتضى الطبيعة البشرية وشهوة الشباب وكونه ميلا جبليا لا يكاد يدخل تحت التكليف لا أنه قصدها قصداً اختياريا ألا يرى إلى ماسبق من استعصامه المنبىء عن كمال كراهيته له ونفرته عنه وحكمه بعدم إفلاح الظالمين وهل هو إلا تسجيل باستحالة صدور الهم منه عليه السلام تسجيلا محكما وإنه عبر عنه بالهم لمجرد وقوعه فى صحبة همها فى الذكر بطريق المشاكلة لا لشبهه به كما قيل ولقد أشير إلى تباينهما حيث لم يلزا فى قرن واحد من التعبير بأن قيل ولقد هما بالمخالطة أو هم كل منهما بالآخر وصدر الأول بما يقرر وجوده من التوكيد القسمى وعقب الثانى بما يعفو أثره من قوله عز وجل .

﴿ لولا أن رأى برهان ربه ﴾ أى حجته الباهرة الدالة على كمال قبح الزنى وسوء سبيله والمراد برؤيته لها كمال إيقانه بها ومشاهدته لها مشاهدة واصلة إلى مرتبة عين اليقين الذى تتجلى هناك حقائق الأشياء بصورها الحقيقية وتنخلع عن صورها المستعارة التى بها تظهر فى هذه النشأة على ما نطق به قوله عليه السلام حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات وكأنه عليه السلام قد شاهد الزنى بموجب ذلك البرهان النير على ما هو عليه فى حد ذاته أقبح ما يكون وأوجب ما يجب أن يحذر منه ولذلك فعل ما فعل من الاستعصام والحكم بعدم إفلاح من يرتكبه وجواب لولا محذوف يدل عليه الكلام أى لولا مشاهدته برهان ربه فى شأن الزنى لجرى على موجب ميله الجبلى ولكنه حيث كان مشاهدا له من قبل استمر على ما هو عليه من قضية البرهان وفائدة هذه الشرطية بيان أن امتناعه عليه السلام لم يكن لعدم مساعدة من جهة الطبيعة بل لمحض العفة والنزاهة مع وفور الدواعى الداخلية وترتب المقدمات الخارجية الموجبة لظهور الأحكام الطبيعية هذا وقد نص أئمة الصناعة على أن لولا فى أمثال هذه المواقع جار من حيث المعنى لا من حيث الصيغة مجرى التقييد للحكم المطلق كما فى مثل قوله تعالى (إن كاد ليضلنا عن آلهتنا لولا أن صبرنا عليها) فلا يتحقق هناك هم أصلا وقد جوز أن يكون وهم بها جواب لولا جريا على قاعدة الكوفيين فى جواز التقديم فالهم حينئذ على معناه الحقيقى ، فالمعنى لولا أنه قد شاهد برهان ربه لهم بها كما همت به ولكن حيث انتفى عدم المشاهدة بدليل استعصامه وما يتفرع عليه انتفى الهم رأسا هذا وقد فسر همه عليه السلام بأنه عليه السلام حل الهميان وجلس مجلس الختان وبأنه حل تكة سراويله وقعد بين شعبها ورؤيته للبرهان بأنه سمع صوتا إياك وإياها فلم يكترث ثم وثم إلى أن تمثل له يعقوب عليه السلام عاضا على أنملته وقيل ضرب على صدره فخرجت شهوته من أنامله ، وقيل بدت كف فيما بينهما ليس فيها عضد ولا معصم مكتوب فيها وإن عليكم لحافظين كراما كاتبين فلم ينصرف ، ثم رأى فيها ولا تقربوا الزنى إنه كان فاحشة وساء سبيلا ، فلم ينته ثم رأى فيها واتقوا يوما ترجعون فيه إلى

الله فلم ينجع ، فقال الله عز وجل لجبريل أدرك عبدى قبل أن يصيب الخطيئة فانحط جبريل عليه السلام وهو يقول يا يوسف أتعمل عمل السفهاء وأنت مكتوب فى ديوان الأنبياء ، وقيل رأى تمثال العزيز وقيل إن كل ذلك إلاخرافات وأباطيل تمجها الآذان وتردها العقول والأذهان ويل لمن لاكها ولفقها أو سمعها وصدقها .

﴿ كذلك ﴾ الكاف منصوب المحل وذلك إشارة إلى الإراءة المدلول عليها بقوله تعالى (لولا أن رأى برهان ربه) أى مثل ذلك التبصير والتعريف عرفناه برهاننا فيما قبل أو إلى التثبيت اللازم له أى مثل ذلك التثبيت ثبتناه ﴿ لنصرف عنه السوء ﴾ على الإطلاق فيدخل فيه خيانة السيد دخولا أوليا ﴿ والفحشاء ﴾ والزنى لأنه مفرط فى القبح وفيه آية بينة وحجة قاطعة على أنه عليه السلام لم يقع منه هم بالمعصية ولا توجه إليها قط[1] وإلا لقيل لنصرفه عن السوء والفحشاء وإنما توجه إليه ذلك من خارج فصرفه الله تعالى عنه بما فيه من موجبات العفة والعصمة فتأمل وقرىء ليصرف على إسناد الصرف إلى ضمير الرب ﴿ إنه من عبادنا المخلصين ﴾ تعليل لما سبق من مضمون الجملة بطريق التحقيق والمخلصون هم الذين أخلصهم الله تعالى لطاعته بأن عصمهم عما هو قادح فيها وقرىء على صيغة الفاعل وهم الذين أخلصوا دينهم لله سبحانه وعلى كلا المعنيين فهو منتظم فى سلكهم داخل فى زمرتهم من أول أمره بقضية الجملة الإسمية لا أن ذلك حدث له بعد أن لم يكن كذلك فانحسم مادة احتمال صدور الهم بالسوء منه عليه السلام بالكلية ﴿ واستبقا الباب ﴾ متصل بقوله ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه وقوله كذلك إلى آخره اعتراض جىء به بين المعطوفين تقريراً لنزاهته عليه السلام كقوله تعالى (وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض) والمعنى لقد همت به وأبى هو واستبقا الباب أى تسابقا إلى الباب البرانى الذى هو المخلص ولذلك وحد بعد الجمع فيما

---

(١) فى ١٠ : البته .

سلف وحذف حرف الجر وأوصل الفعل إلى المجرور نحو وإذا كالوهم أو ضمن الاستباق معنى الابتدار وإسناد السبق فى ضمن الاستباق إليها مع أن مرادها مجرد منع يوسف وذا لا يوجب الانتهاء إلى الباب لأنها لما رأته يسرع إلى الباب ليتخلص منها أسرعت هى أيضاً لتسبقه إليه وتمنعه عن الفتح والخروج أو عبر عن إسراعها أثره بذلك مبالغة .

﴿ وقدت قميصه من دبر ﴾ اجتذبته من ورائه فانشق طولا وهو القد كما أن الشق عرضا هو القط وقد قيل فى وصف على رضى الله عنه « إنه كان إذا اعتلى قد وإذا اعترض قط » وإسناد القد إليها خاصة مع أن لقوة يوسف أيضاً دخلا فيه إما لأنها الجزء الأخير للعلة التامة وإما للإيذان بمبالغتها فى منعه عن الخروج وبذل مجهودها فى ذلك لفوت المحبوب أو لخوف الافتضاح ﴿ وألفيا سيدها ﴾ أى صادفا زوجها وإذ لم يكن ملكه ليوسف عليه السلام صحيحا لم يقل سيدهما قيل ألفياه مقبلا وقيل كان جالسا مع ابن عم للمرأة ﴿ لدى الباب ﴾ أى البرانى كما مر . روى كعب رضى الله عنه أنه لما هرب يوسف عليه السلام جعل فراش القفل يتناثر ويسقط حتى خرج من الأبواب ﴿ قالت ﴾ استئناف مبنى على سؤال سائل يقول فماذا كان حين ألفيا العزيز عند الباب فقيل قالت ﴿ ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً ﴾ من الزنى ونحوه ﴿ إلا أن يسجن أو عذاب أليم ﴾ ما نافية أى ليس جزاؤه إلا السجن أو العذاب الأليم قيل المراد به الضرب بالسياط أو استفهامية أى أى شىء جزاؤه غير ذاك أو ذلك ولقد أنت فى تلك الحالة التى تدهش فيها الفطن حيث شاهدها العزيز على تلك الهيئة المريبة بحيلة جمعت فيها غرضيها وهما تبرئة ساحتها عما يلوح من ظاهر الحال واستنزال يوسف عن رأيه فى استعصائه عليها وعدم مواتاته على مرادها بإلقاء الرعب فى قلبه من مكرها طمعا فى مواقعته لها كرها عند يأسها عن ذلك اختيارا كما قالت (ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين) ثم إنها جعلت صدور الإرادة المذكورة عن يوسف عليه السلام أمرا محققا مفروغا عنه غنيا عن الإخبار بوقوعه وأن ما هى عليه من الأفاعيل لأجل تحقيق جزائها فهى

تريد إيقاعه حسبما يقتضيه قانون الإيالة(١) وفى إبهام المريد تهويل لشأن الجزاء المذكور بكونه قانونا مطردا فى حق كل أحد كائنا من كان وفى ذكر نفسها بعنوان أهلية العزيز إعظام للخطب وإغـــراء له على تحقيق ما تتوخاه بحكم الغضب والحمية .

﴿ قال ﴾ استئناف وجواب عما يقال فـاذا قال يوسف حينئذ فقيل قال ﴿ هى راودتنى عن نفسى ﴾ أى طالبتنى للمواتاة لا أنى أردت بها سوءا كما قالت وإنما قاله عليه السلام لتنزيه نفسه عما أسند إليه من الخيانة وعدم معرفة حق السيد ودفع ماعرضته له من الأمرين وفى التعبير عنها بضمير الغيبة دون الخطاب أو اسم الإشارة مراعاة لحسن الأدب مع الإيماء إلى الإعراض عنها ﴿ وشهد شاهد من أهلها ﴾ قيل هو ابن عمها وقيل هو الذى كان جالسا مع زوجها لدى الباب وقيل كان حكيما يرجع إليه الملك ويستشيره وقد جوز أن يكون بعض أهلها قد بصر بها من حيث لا تشعر فأغضبه الله تعالى ليوسف عليه السلام بالشهادة له والقيام بالحق وإنما ألقى الله سبحانه الشهادة إلى من هو من أهلها ليكون أدل على نزاهته عليه السلام وأنفى للتهمة وقيل كان الشاهد ابن خال لها صبيا فى المهد أنطقه الله تعالى ببراءته وهو الأظهر فإنه روى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « تكلم أربعة وهم صغارا ، ابن ماشطة بنت فرعون ، وشاهد يوسف ، وصاحب جريج ، وعيسى عليه السلام » رواه الحاكم عن أبى هريرة رضى الله عنه وقال صحيح على شرط الشيخين ، وذكر كونه من أهلها لبيان الواقع إذ لا يختلف الحال فى هـــذه الصورة بين كون الشاهد من أهلها أو من غيرهم .

﴿ إن كان قميصه قد من قبل ﴾ أى إن علم أنه قد من قبل ، ونظيره إن أحسنت إلى فقد أحسنت إليك فيما قبل ، فإن معناه : إن تعتد بإحسانك إلى فأعتد بإحسانى السابق إليك ﴿ فصدقت ﴾ بتقدير قد ، لأنها تقرب الماضى

---

(١) أى : للسكية

إلى الحال أى فقد صدقت ، وكذا الحال فى قوله (فكذبت) وهى وإن لم تصرح بأنه عليه السلام أراد بها سوء إلا أن كلامها حيث كان واضح الدلالة عليه ، أسند إليها الصدق والكذب بذلك الاعتبار، فإنهما كما يعرضان الكلام باعتبار منطوقة يعرضان له باعتبار ما يستلزمه ، وبذلك الاعتبار يعترضان للإنشاءات ﴿ وهو من الكاذبين ﴾ وهذه الشرطية حيث لا ملازمة عقلية ولا عادية بين مقدمها وتاليها ليست من الشهادة فى شيء وإنما ذكرت توسيعا للدائرة وإرخاء للعنان إلى جانب المرأة بإجراء ما عسى يحتمله الحال فى الجملة ، بأن يقع القد من قبل بمدافعتها له عليه السلام عن نفسها عند إرادته المخالطة والتكشف مجرى الظاهر الغالب الوقوع تقريبا لما هو المقصود بإقامة الشهادة ، أعنى مضمون الشرطية الثانية التى هى قوله عز وجل :

﴿ وإن كان قيصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين ﴾ إلى التسليم والقبول عند السامع ؛ لكونه أقرب إلى الوقوع وأدل على المطلوب وإن لم يكن بين طرفيها أيضا ملازمة وحكاية الشرطية بعد فعل الشهادة لكونها من قبيل الأقوال أو بتقدير القول . أى شهد قائلا الخ وتسميتها شهادة مع أنه لا حكم فيها بالفعل بالصدق والكذب لتأديتها مؤداها ، بل لأنها شهادة على الحقيقة ، وحكم بصدقه وكذبها ؛ أما على تقدير كون الشاهد هو الصبى فظاهر ؛ إذ هو إخبار بهما من قبل علام الغيوب ، والتصوير بصورة الشرطية للإيذان بأن ذلك ظاهر من العلائم أيضا، وأما على تقدير كونه غيره فلأن الظاهر أن صورة الحال معلومة له على ما هى عليه إما مشاهدة أو إخبارا فهو متيقن بعدم مقدم الشرطية الأولى ،وبوجود مقدم الشرطية الثانية ومن ضرورته الجزم بانتفاء تالى الأولى وبوقوع تالى الثانية ، فإذن هو إخبار بكذبها وصدقه عليه السلام ولكنه ساق شهادته مساقا مأمونا من الجرح والطعن حيث صورها بصورة الشرطية المترددة ظاهرا بين نفعها ونفعه ، وأما حقيقة فلا تردد فيها قطعا . لأن الشرطية الأولى تعليق لصدقها بما يستحيل وجوده من قد القميص من قبل فيكون محالا لا محالة ، ومن ضرورته تقرر كذبها ، والثانية تعليق لصدقه عليه السلام بأمر محقق

الوجود وهو القد من دبر فيكون محقق البتة وهذا كما قيل فيمن قال لامرأته زوجيني نفسك فقالت لى زوج فكذبها فى ذلك فقالت إن لم يكن لى زوج فقد زوجتك نفسى فقبل الرجل فإذا لا زوج لها فهو نكاح إذ تعليق الشيء بأمر مقرر تنجيز له وقرىء من قبل ومن دبر بالضم لأنهما قطعا عن الإضافة كقبل وبعد وبالفتح كأنهما جعلا علمين للجهتين فمنعا الصرف للتأنيث والعلمية وقرىء بسكون العين .

﴿ فلما رأى قميصه قد من دبر ﴾ كأنه لم يكن رأى ذلك بعد أو لم يتدبره فلما تنبه له وعلم حقيقة الحال ﴿ قال إنه ﴾ أى الأمر الذى وقع فيه التشاجر وهو عبارة عن إرادة السوء التى أسندت إلى يوسف وتدبير عقوبته بقولها ما جزاء من أراد بأهلك سوءا إلى آخره لكن لا من حيث صدور تلك الإرادة والإسناد عنها بل مع قطع النظر عن ذلك لئلا يخلو قوله تعالى ﴿ من كيدكن ﴾ أى من جنس حيلتكن ومكركن أيتها النساء لا من غيركن عن الإفادة وتدبير العقوبة وإن لم يمكن تجريده عن الإضافة إليها إلا أنها لما صورته بصورة الحق أفاد الحكم بكونه من كيدهن إفادة ظاهرة فتأمل وتعميم الخطاب التنبيه على أن ذلك خلق لهن عريق :

ولا تحسبا هندا لها الغدر وحدها سجية نفس كل غانية هند

ورجع الضمير إلى قولها ما جزاء من أراد بأهلك سوءا فقط عدول عن البحث عن أصل ما وقع فيه النزاع من أن إرادة السوء ممن هى إلى البحث عن شعبة من شعبه وجعله للسوء أو للأمر المعبر به عن طمعها فى يوسف عليه السلام يأباه الخبر فإن الكيد يستدعى أن يعتبر مع ذلك هنات أخر من قبلها كما أشرنا إليه ﴿ إن كيدكن عظيم ﴾ فإنه ألطف وأعلق بالقلب وأشد تأثيرا فى النفس . وعن بعض العلماء إنى أخاف من النساء مالا أخاف من الشيطان فإنه تعالى يقول (إن كيد الشيطان كان ضعيفا) وقال للنساء (إن كيدكن عظيم) ولأن الشيطان يوسوس مسارقة وهن يواجهن به الرجال ﴿ يوسف ﴾ حذف منه حرف النداء

لقربه وكمال تفطنه للحديث وفيه تقريب له وتلطيف لمحله ﴿أعرض عن هذا﴾ أى عن هذا الأمر وعن التحديث به واكتمه فقد ظهر صدقك ونزاهتك ﴿واستغفرى﴾ أنت يا هذه ﴿لذنبك﴾ الذى صدر عنك وثبت عليك ﴿إنك كنت﴾ بسبب ذلك ﴿من الخاطئين﴾ من جملة القوم المتعمدين للذنب أو من جنسهم يقال خطىء إذا أذنب عمدا وهو تعليل للأمر بالاستغفار والتذكير لتغليب الذكور على الإناث وكان العزيز رجلا حليما فاكتفى بهذا القدر من مؤاخذتها وقيل كان قليل الغيرة .

﴿وقال نسوة﴾ أى جماعة من النساء وكن خمسا امرأة الساقى وامرأة الخباز وامرأة صاحب الدواب وامرأة صاحب السجن وامرأة الحاجب ، والنسوة اسم مفرد لجمع المرأة وتأنيثه غير حقيقى كتأنيث اللمة وهى اسم لجماعة النساء والثبة وهى اسم لجماعة الرجال ، ولذلك لم يلحق فعله تاء التأنيث ﴿فى المدينة﴾ ظرف لقال أى أشعن الأمر فى مصر أو صفة لنسوة ﴿امرأة العزيز﴾ أى الملك يردن قطفير وإضافتهن لها إليه بذلك العنوان دون أن يصرحن باسمها أو اسمه ليست لقصد المبالغة فى إشاعة الخبر بحكم أن النفوس إلى سماع أخبار ذوى الأخطار أميل كما قيل إذ ليس مرادهن تفضيح العزيز بل هى لقصد الإشباع فى لومها بقولهن ﴿تراود فتاها﴾ أى تطالبه بمواقعته لها وتتحمل فى ذلك وتخادعه ﴿عن نفسه﴾ وقيل تطلب منه الفاحشة وإيثارهن لصيغة المضارع للدلالة على دوام المراودة والفتى من الناس الشاب وأصله فتى لقولهم فتيان والفتوة شاذة وجمعه فتية وفتيان ويستعار للملوك وهو المراد ههنا وفى الحديث لا يقل أحدكم عبدى وأمتى وليقل فتاى وفتاتى ، وتعبيرهن عن يوسف عليه السلام بذلك مضافا إليها لا إلى العزيز الذى لا تستلزم الإضافة إليه الهوان ؛ بل ربما يشعر بنوع عزة لإبانة ما بينهما من التباين البين الناشىء عن المالكية والمملوكية وكل ذلك لتربية مامر من المبالغة والإشباع فى اللوم فإن من لازوج لها من النساء أو لها زوج دنىء قد تعذر فى مراودة الأخدان لا سيما إذ كان فيهم علو الجناب وأما التى لها زوج وأى زوج عزيز مصر فراودتها لغيره لاسيما

لعبدها الذى لا كفاءة بينها وبينه أصلا وتماديها فى ذلك غاية الغى ونهاية الضلال
﴿ قد شغفها حبا ﴾ أى شق حبه شغاف قلبها وهو حجابه أو جلدة رقيقة يقال لها لسان القلب حتى وصل إلى فؤادها ، وقرىء شعفها بالعين من شعف البعير اذا هنأه فأحرقه بالقطران ، وعن الضحاك عن ابن عباس رضى الله عنهما الشغف الحب القاتل والشعف حب دون ذلك ، وكان الشعبي يقول الشغف حب والشعف جنون[1] ، والجملة خبر ثان أو حال من فاعل تراود أو من مفعوله وأيا ما كان فهو تكرير للوم وتأكيد للعذل ببيان اختلال أحوالها القلبية كأحوالها القالبية وجعلها تعليلا لدوام المراودة من حيث الإنية مصير إلى الاستدلال على الأجلى بالأخفى ومن حيث اللمية ميل إلى تمهيد العذر من قبلها ولسن بذلك المقام وانتصاب حبا على التمييز لنقله عن الفاعلية إذ الأصل قد شغفها حبه كما أشير إليه .

﴿ إنا لنراها ﴾ أى نعلمها علما متاخما للمشاهدة والعيان فيما صنعت من المراودة والمحبة المفرطة مستقرة ﴿ فى ضلال ﴾ عن طريق الرشد والصواب أو عن سنن العقل ﴿ مبين ﴾ واضح لا يخفى كونه ضلالا على أحد أو مظهر لأمرها بين الناس فالجملة مقررة لمضمون الجملتين السابقتين المسوقتين للوم والتشنيع وتسجيل عليها بأنها فى أمرها على خطأ عظيم وإنما لم يقلن إنها لفى ضلال مبين إشعارا بأن ذلك الحكم غير صادر عنهن مجازفة بل عن علم ورأى مع التلويح بأنهن متنزهات عن أمثال ما هى عليه ﴿ فلما سمعت بمكرهن ﴾ باغتيابهن وسوء قالتهن وقولهن امرأة العزيز عشقت عبدها الكنعانى وهو مقتها وتسميته مكرا لكونه خفية منها كمكر الماكر ، وإن كان ظاهرا لغيرها وقيل استكتمتهن سرها فأفشينه عليها وقيل إنما قلن ذلك لتريهن يوسف عليه السلام ﴿ أرسلت إليهن ﴾ تدعوهن قيل دعت أربعين امرأة منهن الخمس المذكورات ﴿ وأعتدت ﴾ أى أحضرت وهيأت ﴿ لهن متكأ ﴾ أى ما يتكئن عليه من النمارق والوسائد أو رتبت لهن

(١) جاءت العبارة فى ١٠ بالعكس الشعف حب والشغف جنون

مجلس وشراب لأنهم كانوا يتكئون للطعام والشراب والحديث كعادة المترفين ولذلك نهى الرجل أن يأكل متكئا وقيل متكأ طعاما من قولهم تكأنا عند فلان أى طعمنا قال جميل :

فظللنا بنعمة واتكأنا وشربنا الحلال من قلله

وعن مجاهد متكأ طعاما يحز حزا كأن المعنى يعتمد بالسكين عند القطع لأن القاطع يتكىء على المقطوع بالسكين وقرىء بغير همز وقرى بالمد بإشباع حركة الكاف كمنتزاح فى منتزح وينباع فى ينبع وقرأ متكأ وهو الأترج وأنشدوا :

وأهدت متكة لبنى أبيها تخب بها العثمثمة الوقاح

أو ما يقطع من متك الشىء إذا بتكه إذا تكى ﴿ وآتت كل واحدة منهن سكينا ﴾ لتستعمله فى قطع ما يعهد قطعه مما قدم بين أيديهن وقرب إليهن من اللحوم والفواكه ونحوها وهن متكئات وغرضها من ذلك ما سيقع من تقطيع أيديهن .

﴿ وقالت ﴾ ليوسف وهن مشغولات بمعالجة السكاكين وإعمالها فيما بأيديهن من الفواكه وأضرابها والعطف بالواو ربما يشير إلى أن قولها﴿ أخرج عليهن ﴾ أى أبرز لهن لم يكن عقيب ترتيب أمورهن ليتم غرضها من استغفالهن ﴿ فلما رأينه ﴾ عطف على مقدر يستدعيه الأمر بالخروج وينسحب عليه الكلام أى فخرج عليهن فرأينه وإنما حذف تحقيقا لمفاجأة رؤيتهن كأنها تفوت عند ذكر خروجه عليهن كما حذف لتحقيق السرعة فى قوله عز وجل فلما رآه مستقرا عنده بعد قوله (أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك وفيه إيذان بسرعة امتثاله عليه السلام بأمرها فيما لا يشاهد مضرته من الأفاعيل ﴿ أكبرنه ﴾ عظمنه وهبن حسنه الفائق وجماله الرائع الرائق فإن فضل جماله على جمال كل جميل كان كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب . عن النبى صلى الله

عليه وسلم أنه قال رأيت يوسف ليلة المعراج كالقمر ليلة البدر وقيل كان يرى تلألؤ وجهه على الجدران كما يرى نور الشمس على الماء وقيل معنى أكبرن حضن والهاء للسكت أو ضمير راجع إلى يوسف عليه السلام على حذف اللام أى حضن له من شدة الشبق كما قال المتنبي :

خف الله واستر ذا الجمـــال ببرقع

فإن لحت حاضت فى الخدور العواتق

﴿ وقطعن أيديهن ﴾ أى جرحنها بما فى أيديهن من السكاكين لفرط دهشتهن وخروج حركات جوارحهن ومع ذلك لم يبالين بذلك ولم يشعرن به ﴿وقلن حاش لله﴾ تنزيها له سبحانه عن صفات النقص والعجز وتعجبا من قدرته على مثل ذلك الصنع البديع وأصله حاشا كما قرأه أبو عمر وفى الدرج فحذفت ألفه الأخيرة تخفيفا وهو حرف جر يفيد معنى التنزيه فى باب الاستثناء فلا يستثنى به إلا ما يكون موجبا للتنزيه فوضع موضعه فمعنى حاشا الله تنزيه الله وبراءة الله وهى قراءة ابن مسعود رضى الله عنه واللام لبيان المنزه والمبرأ عز وجل[1] كما فى سقيا لك والدليل على وضعه موضع المصدر قراءة أبى السمال حاشا بالتنوين وقراءة أبى عمرو بحذف الألف الأخيرة وقراءة الأعمش بحذف الأولى فإن التصرف من خصائص الاسم فيدل على تنزيله منزلته وعدم التنوين لمراعاة أصله كما فى قولك جلست من عن يمينه وقوله غدت من عليه منقلب الألف إلى الياء مع الضمير وقرىء حاش لله بسكون الشين إتباعا للفتحة الألف فى الإسقاط وحاش الإله وقيل حاشا فاعل من الحشا الذى هو الناحية وفاعله ضمير يوسف أى صار فى ناحية من أن يقارف مارمته به لله أى لطاعته أو لمكانه أو جانب المعصية لأجل الله ﴿ ما هذا بشرا ﴾ على أعمال ما بمعنى ليس وهى لغة أهل الحجاز لمشاركتهما فى نفى الحال وقرىء بشر على لغة تميم وبشرى أى بعبد مشترى لئيم نفين عنه البشرية لما شاهدن فيه من الجمال العبقرى الذى لم

---

(١) سقطت من ط

يعهد مثاله فى البشر وقصرنه على الملكية بقولهن ﴿إن هذا إلا ملك كريم﴾ بناء على ماركز فى العقول من ألاحى أحسن من الملك كما ركب فيها أن لا أقبح من الشيطان ولذلك لا يزال يشبه بهما كل متناه فى الحسن والقبح وغرضهن وصفه بأقصى مراتب الحسن والجمال.

﴿قالت فذلكن﴾ الفاء فصيحة والخطاب للنسوة والإشارة إلى يوسف بالعنوان الذى وصفنه به الآن من الخروج فى الحسن والجمال عن المراتب البشرية والاقتصار على الملكية فاسم الإشارة مبتدأ والموصول خبره والمعنى إن كان الأمر كما قلتن فذلكن الملك الكريم النائى عن المراتب البشرية هو ﴿الذى لمتننى فيه﴾ أى عيرتننى فى الافتتان به حيث رأيتن يمحلى بنسبتى إلى العزيز ووضعتن قدره بكونه من المماليك أو بالعنوان الذى وصفنه به فيما سبق بقولهن امرأة العزيز عشقت عبدها الكنعانى فهو خبر لمبتدأ محذوف أى فهو ذلك العبد الكنعانى الذى صورتن فى أنفسكن وقلتن فيه وفى ماقلتن فالآن قد علمتن من هو وما قولكن فينا وأما ما يقال تعنى أنكن لم تصورنه بحق صورته ولو صورتنه بما عاينتن لعذرتننى فى الافتتان به فلا يلائم المقام فإن مرادها بدعوتهن وتمهيد ما مهدته لهن تبكيتهن وتنديمهن على ما صدر عنهن من اللوم وقد فعلت ذلك بما لا مزيد عليه وما ذكر من المقال فحق المعتذر قبل ظهور معذرته وقد قيل فى تعليل الملكية أن الجمع بين الجمال الرائق والكمال الفائق والعصمة البالغة من الخواص الملكية وهو أيضاً لا يلائم قولها فذلكن الذى لمتننى فيه فإن عنوان العصمة مما ينافى تمشية مرامها ثم بعدما أقامت عليهن الحجة وأوضحت لديهن عذرها وقد أصابهن من قبله عليه السلام ما أصابها باحت لهن ببقية سرها فقالت :

﴿ولقد راودته عن نفسه﴾ حسبما قلتن وسمعتن ﴿فاستعصم﴾ امتنع طالبا للعصمة وهو بناء مبالغة يدل على الامتناع البليغ والتحفظ الشديد كأنه فى عصمة وهو يجتهد فى الاستزادة منها كما فى استمسك واستجمع الرأى وفيه

برهان نير على أنه لم يصدر عنه عليه السلام شيء مخل باستعصامه بقوله معاذالله من الهم وغيره اعترفت لهن أولا بما كن تسمعنه من مراودتها له وأكدته إظهارا لابتهاجها بذلك ثم زادت على ذلك أنه أعرض عنها على أبلغ ما يكون ولم يمل إليها قط ثم زادت عليه أيضا أنها مستمرة على ما كانت عليه غير مرغوبة عنه لا بلوم العواذل ولا بأعراض الحبيب فقالت :

﴿ ولئن لم يفعل ما آمره ﴾ أى آمر به فيما سيأتى كما لم يفعل فيما مضى فحذف الجار وأوصل الفعل إلى الضمير كما فى أمرتك الخير فالضمير للموصول أو أمرى إياه أى موجب أمرى ومقتضاه فما مصدرية والضمير ليوسف وعبرت عن مراودتها بالأمر إظهاراً لجريان حكومتها عليه واقتضاء للامتثال بأمرها[1] ﴿ ليسجنن ﴾ بالنون المثقلة آثرت بناء الفعل للمفعول جريا على رسم الملوك أو إيهاماً لسرعة ترتب ذلك على عدم امتثاله لأمرها كأنه لا يدخل بينهما فعل فاعل ﴿ وليكونا ﴾ بالمخففة ﴿ من الصاغرين ﴾ أى الأذلاء فى السجن وقد قرىء الفعلان بالتثقيل ولكن المشهورة أولى لأن النون كتبت فى المصحف ألفا على حكم الوقف واللام الداخلة على حرف الشرط موطئة للقسم وجوابه ساد مسد الجوابين ولقد أتت بهذا الوعيد المنطوى على فنون التأكيد بمحضر منهن ليعلم يوسف عليه السلام أنها ليست فى أمرها على خفية ولا خفية من أحد فتضيق عليه الحيل وتعيا به العلل وينصحن له ويرشدنه إلى موافقتها ولما كان هذا الإبراق والإرعاد منها مظنة لسؤال سائل يقول فما صنع يوسف حينئذ قيل ﴿ قال ﴾ مناجيا لربه عز سلطانه ﴿ رب السجن ﴾ الذى أوعدتنى بالإلقاء فيه وقرأ يعقوب بالفتح على المصدر ﴿ أحب إلى ﴾ أى آثر عندى لأنه مشقة قليلة نافذة إثرها راحات جليلة أبدية ﴿ مما يدعوننى إليه ﴾ من مؤاتاتها التى تؤدى إلى الشقاء والعذاب الأليم وهذا الكلام منه عليه السلام مبنى على ما مر من انكشاف الحقائق لديه وبروز كل منها بصورتها اللائقة بها

---

(١) فى : لأمرها

فصيغة التفضيل ليست على بابها إذ ليس له شائبة محبة لما دعته إليه وإنما هو والسجن شران أهونهما وأقربهما إلى الإيثار السجن والتعبير عن الإيثار بالمحبة لحسم مادة طمعها عن المساعدة خوفا من الحبس والاقتصار على ذكر السجن من حيث أن الصغار من فروعه ومستتبعاته ، وإسناد الدعوة إليهن جميعا لأن النسوة رغبته فى مطاوعتها وخوفته من مخالفتها وقيل دعونه إلى أنفسهن وقيل إنما ابتلى عليه السلام بالسجن لقوله هذا . وكان الأولى به أن يسأل الله تعالى العافية ولذلك رد رسول الله صلى الله عليه وسلم على من كان يسأل الصبر ﴿ وإلا تصرف ﴾ أى إن لم تصرف ﴿ عنى كيدهن ﴾ فى تحبيب ذلك إلى وتحسينه لدى بأن تثبتنى على ما أنا عليه من العصمة والعفة ﴿ أصب إليهن ﴾ أى أمل إلى إجابتهن أو إلى أنفسهن على قضية الطبيعة وحكم القوة الشهوية وهذا فزع منه عليه السلام إلى ألطاف الله تعالى جريا على سنن الأنبياء والصالحين فى قصر نيل الخيرات والنجاة عن الشرور على جناب الله عز وجل وسلب القوى والقدر عن أنفسهم ومبالغة فى استدعاء لطفه فى صرف كيدهن بإظهار أن لا طاقة له بالمدافعة كقول المستغيث أدركنى وإلا هلكت لا أنه يطلب الإجبار والإلجاء إلى العصمة والعفة وفى نفسه داعية تدعوه إلى هواهن والصبوة الميل إلى الهوى ومنه الصبا لأن النفوس تصبو إليها لطيب نسيمها وروحها وقرىء أصب إليهن من الصبابة وهى رقة الشوق ﴿ وأكن من الجاهلين ﴾ الذين لا يعملون بما يعلمون لأن من لا جدوى لعلمه فهو والجاهل سواء أو من السفهاء بارتكاب ما يدعوننى إليه من القبائح لأن الحكيم لا يفعل لا يفعل القبيح .

﴿ فاستجاب له ربه ﴾ دعاءه الذى تضمنه قوله وإلا تصرف عنى كيدهن الخ فإن فيه استدعاء لصرف كيدهن على أبلغ وجه وألطفه كما مر وفى إسناد الاستجابة إلى الرب مضافا إليه عليه السلام مالا يخفى من إظهار اللطف ﴿ فصرف عنه كيدهن ﴾ حسب دعائه وثبته على العصمة والعفة ﴿ إنه هو السميع ﴾

لدعاء المتضرعين إليه ﴿ العليم ﴾ بأحوالهم وما يصلحهم ﴿ ثم بدا لهم ﴾ أى ظهر للعزيز وأصحابه المتصدين للحل والعقد ريثما اكتفوا بأمر يوسف بالكتمان والإعراض عن ذلك ﴿ من بعد ما رأوا الآيات ﴾ الصارفة لهم عن ذلك البداء وهى الشواهد الدالة على براءته عليه السلام وفاعل بدا أما مصدره أو الرأى المفهوم من السياق أو المصدر المدلول عليه بقوله ﴿ ليسجننه ﴾ والمعنى بدا لهم بداء أو رأى أو سجنه المحتوم قائلين والله ليسجننه المحذوف وجوابه معمول للقول المقدر حالا من ضميرهم وما كان ذلك البداء إلا باستنزال المرأة لزوجها وفتلها منه فى الذروة والغارب وكان مطواعة لها تقوده حيث شاءت ، قال : السدى إنها قالت للعزيز إن هذا العبد العبرانى قد فضحنى فى الناس يخبرهم بأنى راودته عن نفسه فإما أن تأذن لى فأخرج فأعتذر إلى الناس وإما أن تحبسه فحبسه ، ولقد أرادت بذلك تحقيق وعيدها لتلين به عريكته وتنقاد لها قرونته[1] لما انصرمت حبال رجائها عن استتباعه بعرض الجمال والترغيب بنفسها وبأعوانها وقرىء لتسجننه على صيغة الخطاب بأن خاطب بعضهم العزيز ومن يليه أو العزيز وحده على وجه التعظيم أو خاطب العزيز ومن عنده من أصحاب الرأى المباشرين للسجن والحبس ﴿ حتى حين ﴾ إلى حين انقطاع قالة الناس وهذا بادى الرأى عند العزيز وذويه وأما عندها فحتى يذلله السجن ويسخره لها ويحسب الناس أنه المجرم وقرىء عتى حين بلغة هذيل .

﴿ ودخل معه ﴾ أى فى صحبته ﴿ السجن فتيان ﴾ من فتيان الملك ومماليكه أحدهما شرابيه[2] والآخر خبازه . روى أن جماعة من أهل مصر ضمنوا لهما مالا ليسما الملك فى طعامه وشرابه فأجاباهم إلى ذلك ثم إن الساقى نكل عن ذلك ومضى عليه الخباز فسم الخبز فلما حضر الطعام قال الساقى لا تأكل أيها الملك فإن الخبز مسموم وقال الخباز لا تشرب أيها الملك فإن الشراب مسموم فقال

---

(١) أى حبه .

(٢) فى ١٠ : ساقيه ؛ وهما بمعنى

الملك للساقى اشربه فشربه فلم يضره وقال للخباز كله فأبى فجرب بدابة فهلكت فأمر بحبسهما فاتفق أن أدخلاه معه وتأخير الفاعل عن المفعول لما مر غير من الاهتمام بالمقدم والتشويق إلى المؤخر ليتمكن عند النفس حين وروده عليها فضل تمكن ونظيره تقديم الظرف على المفعول الصريح فى قوله تعالى(فأوجس فى نفسه خيفة) وتأخير السجن عن الظرف لإيهام العكس أن يكون الظرف خبرا مقدما على المبتدأ وتكون الجملة حالا من فاعل دخل فتأمل .

﴿ قال أحدهما ﴾ استئناف مبنى على سؤال من يقول ما صنعا بعد مادخلا معه السجن فأجيب بأنه قال أحدهما وهو الشرابى ﴿ إنى أرانى ﴾ أى رأيتنى والتعبير بالمضارع لاستحضار الصورة الماضية ﴿ أعصر خمرا ﴾ أى عنبا سماه بما يؤول إليه لكونه المقصود من العصر وقيل الخمر بلغة عمان اسم للعنب وفى قراءة ابن مسعود رضى الله عنه أعصر عنبا ﴿ وقال الآخر ﴾ وهو الخباز ﴿ إنى أرانى أحمل فوق رأسى خبزا ﴾ تأخير المفعول عن الظرف لما مر آنفا وقوله ﴿ تأكل الطير منه ﴾ أى تنهش منه صفة للخبز أو استئناف مبنى على السؤال ﴿ نبئنا بتأويله ﴾ بتأويل ما ذكر من الرؤيين أو مارئى بإجراء الضمير مجرى ذلك بطريق الاستعارة فإن اسم الإشارة يشار به إلى متعدد كما فى قوله :

فيها خطوط من سواد وبلق كأنه فى الجلد توليع البهق

أى كأن ذلك والسر فى المصير إلى إجراء الضمير مجرى اسم الإشارة مع أنه لا حاجة إليه بعد تأويل المرجع بما ذكر أو بما رئى أن الضمير إنما يتعرض لنفس المرجع من حيث هو من غير تعرض لحال من أحواله فلا يتسنى تأويله بأحد الاعتبارين إلا بإجرائه مجرى اسم الإشارة الذى يدل على المشار إليه بالاعتبار الذى جرى عليه فى الكلام فتأمل هذا إذا قالاه معا أو قاله أحدهما من جهتهما معا ، وأما إذا قاله كل منهما إثر ما قص ما رآه فالخطاب المذكور ليس عبارتهما ولا عبارة أحدهما من جهتهما ليتعدد المرجع بل عبارة كل منهما

نبئنى بتأويله مستفسر لما رآه وصيغة المتكلم مع الغير واقعة فى الحكاية دون المحكى على طريقة قوله عز وجل (يا أيها الرسل كلوا من الطيبات) فإنهم لم يخاطبوا بذلك دفعة بل خوطب كل منهم فى زمانه بصيغة مفردة خاصة به .

﴿إنا نراك﴾ تعليل لعرض رؤياهما عليه واستفسارها منه عليه السلام ﴿من المحسنين﴾ من الذين يجيدون عبارة الرؤيا لما رأياه يقص عليه بعض أهل السجن رؤياه فيؤولها له تأويلا حسنا أو من العلماء لما سمعاه يذكر للناس ما يدل على علمه وفضله أو من المحسنين إلى أهل السجن أى فأحسن إلينا بكشف غمتنا إن كنت قادرا على ذلك . روى أنه عليه السلام كان إذا مرض منهم رجل قام عليه وإذا ضاق مكانه أوسع له وإذا احتاج جمع له وعن قتادة رضى الله عنه كان فى السجن ناس قد انقطع رجاؤهم وطال حزنهم فجعل يقول أبشروا واصبروا تؤجروا فقالوا بارك الله عليك ما أحسن وجهك وما أحسن خلقك لقد بورك لنا فى جوارك فمن أنت يا فتى فقال أنا يوسف ابن صفى الله يعقوب ابن ذبيح الله اسحق ابن خليل الله إبراهيم ، فقال له عامل السجن لو استطعت خليت سبيلك ولكنى أحسن جوارك فكن فى أى بيوت السجن شئت ، وعن الشعبى أنهما تحالما له ليمتحناه فقال الشرابى أرانى فى بستان فإذا بأصل حبلة عليها ثلاثة عناقيد من عنب فقطعتها وعصرتها فى كأس الملك وسقيته وقال الخباز إنى أرانى وفوق رأسى ثلاث سلال فيها أنواع من الأطعمة وإذا سباع الطير تنهس[1] منها ﴿قال لا يأتيكما طعام ترزقانه﴾ فى مقامكما هذا حسب عادتكما المطردة ﴿إلا نبأتكما بتأويله﴾ استثناء مفرغ من أعم الأحوال أى لا يأتيكما طعام فى حال من الأحوال إلا حال ما نبأتكما به بأن بينت لكما ماهيته وكيفيته وسائر أحواله ﴿قبل أن يأتيكما﴾ وإطلاق التأويل عليه إما بطريق الاستعارة فإن ذلك بالنسبة إلى مطلق الطعام المبهم بمنزلة التأويل بالنظر إلى

---

(١) فى ١٠ : تنهش .

ما رئى فى المنام وشبيه له وإما بطريق المشاكلة حسبما وقع فى عبارتهما من قولهما (نبئنا بتأويله) ولا يبعد أن يراد بالتأويل الشيء الآئل لا المآل فإنه فى الأصل جعل شيء آئلا إلى شيء آخر فكما يجوز أن يراد به الأول فالمعنى إلا نبأتكما بما يؤول إليه من الكلام والخبر المطابق للواقع وكان عليه السلام يقول لهما اليوم يأتيكما طعام صفته كيت وكيت فيجدنه كذلك ومراده عليه السلام بذلك بيان كل ما يهمهما من الأمور المترقبة قبل وقوعها وإنما تخصيص الطعام بالذكر لكونه عريقا فى ذلك بحسب الحال مع ما فيه من مراعاة حسن التخلص اليه مما استعبراه من الرؤييين المتعلقتين بالشراب والطعام وقد جعل الضمير لما قصا من الرؤييين على معنى لا يأتيكما طعام ترزقانه حسب عادتكما إلا أخبرتكما بتأويل ما قصصتما على قبل أن يأتيكما ذلك الطعام الموقت مرادا به الإخبار بالاستعجال فى التنبئة وأنت خبير بأن النظم الكريم ظاهر فى تعدد إتيان الطعام والإخبار بالتأويل وتجددهما وأن المقام مقام إظهار فضله فى فنون العلوم بحيث يدخل فى ذلك تأويل رؤياهما دخولا أوليا ، وإنما لم يكتف عليه السلام بمجرد تأويل رؤياهما مع أن فيه دلالة على فضله لأنهما لما نعتاه عليه السلام بالانتظام فى سمط المحسنين وأنهما قد علما ذلك حيث قالا إنا نراك من المحسنين توسم عليه السلام فيهما خيرا وتوجها إلى قبول الحق فأريد أن يخرج آثر ذى أثير عما فى عهدته من دعوة الخلق إلى الحق فمهد قبل الخوض فى ذلك مقدمة تزيدهما علما بعظم شأنه وثقة بأمره ووقوفا على طبقته فى بدائع العلوم توسلا بذلك إلى تحقيق ما يتوخاه وقد تخلص إليها من كلامهما فكأنه قال تأويل ما قصصتماه على فى طرف التمام حيث رأيتما مثاله فى المنام وإنى أبين لكما كل جليل ودقيق من الأمور المستقبلة وإن لم يكن هناك مقدمة المنام حتى إن الطعام الموظف الذى يأتيكما كل يوم أبينه لكما قبل اتيانه ثم أخبرهما بأن علمه ذلك ليس من قبيل علوم الكهنة والعرافين بل هو فضل الهى يؤتيه من يشاء ممن يصطفيه للنبوة فقال :

﴿ ذلكما ﴾ أى ذلك التأويل والإخبار بالمغيبات ومعنى البعد فى ذلك للإشارة إلى علو درجته وبعد منزلته ﴿ مما علمنى ربى ﴾ بالوحى والإلهام أى بعض منه أو من ذلك الجنس الذى لا يحوم حول إدراكه العقول ولقد دلهما بذلك على أن له علوما جمة ما سمعاه قطعة من جملتها وشعبة من دوحتها ثم بين أن نيل تلك الكرامة بسبب اتباعه ملة آبائه الأنبياء العظام وامتناعه عن الشرك فقال ﴿ إنى تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله ﴾ وهو استئناف وقع جوابا عن سؤال نشأ من قوله ذلكما مما علمنى ربى وتعليلا له لا للتعليم الواقع صلة للموصول لتأديته إلى معنى أنه مما علمنى ربى لهذا السبب دون غيره ولا لمضمون الجملة الخبرية لأن ما ذكر بصدد التعليل ليس بعلة لكون التأويل المذكور بعضا مما علمه ربه أو لكونه من جنسه بل لنفس تعليم ما علمه فكأنه قيل لماذا علمك ربك تلك العلوم البديعة فقيل لأنى تركت ملته الكفرة أى دينهم الذى اجتمعوا عليه من الشرك وعبادة الأوثان والمراد بتركها الامتناع عنها رأسا كما يفصح عنه قوله ﴿ ما كان لنا أن نشرك بالله من شىء) لا تركها بعد ملابستها وإنما عبر عنه بذلك لكونه أدخل بحسب الظاهر فى اقتدائهما به عليه السلام والتعبير عن كفرهم بالله تعالى بسلب الإيمان به للتنصيص على أن عبادتهم له تعالى مع عبادة الأوثان ليست بإيمان به تعالى كما هو زعمهم الباطل على ما مر فى قوله تعالى إنه عمل غير صالح ﴿ وهم بالآخرة ﴾ وما فيها من الجزاء ﴿ هم كافرون ﴾ على الخصوص دون غيرهم لإفراطهم فى الكفر .

﴿ واتبعت ملة آبائى إبراهيم وإسحق ويعقوب ﴾ يعنى أنه إنما حاز هذه الكمالات وفاز بتلك الكرامات بسبب أنه اتبع ملة آبائه الكرام ولم يتبع ملة قوم كفروا بالمبدأ والمعاد وإنما قاله عليه السلام ترغيبا لصاحبيه فى الإيمان والتوحيد وتنفيرا لهما عما كانا عليه من الشرك والضلال وقدم ذكر تركه لملتهم على ذكر اتباعه لملة آبائه لأن التخلية متقدمة على التحلية ﴿ ما كان ﴾ أى ما صح وما استقام فضلا عن الوقوع ﴿ لنا ﴾ معاشر الأنبياء لقوة نفوسنا ووفور علومنا ﴿ أن نشرك بالله من شىء ﴾ أى شىء كان من ملك أو جنى أو أنسى

فضلا عن الجماد البحت ﴿ ذلك ﴾ أى التوحيد المدلول عليه بقوله ما كان لنا أن نشرك[1] بالله من شىء ﴿ من فضل الله علينا ﴾ أى ناشىء من تأييده لنا بالنبوة وترشيحه إيانا لقيادة الأمة وهدايتهم إلى الحق وذلك مع كونه من التوحيد ودواعيه نعمة جليلة وفضل عظيم علينا بالذات ﴿ وعلى الناس ﴾ كافة بواسطتنا وحيث عبر عن ذلك بذلك العنوان عبر عن التوحيد الذى يوجبه بالشكر فقيل .

﴿ ولكن أكثر الناس لا يشكرون ﴾ أى لا يوحدون فإن التوحيد مع كونه من آثار ما ذكر من التأييد شكر لله عز وجل على تلك النعمة وإنما وضع الظاهر موضع الضمير الراجع إلى الناس لزيادة توضيح وبيان ولقطع توهم رجوعه إلى المجموع الموهم لعدم اختصاص غير الشاكر بالناس وقيل ذلك التوحيد من فضل الله علينا حيث نصب لنا أدلة ننظر فيها ونستدل بها على الحق وقد نصب مثل تلك الأدلة لسائر الناس أيضا ولكن أكثرهم لا ينظرون ولا يستدلون بها إتباعا لأهوائهم فيبقون كافرين غير شاكرين ولك أن تقول ذلك التوحيد من فضل الله علينا حيث أعطانا عقولا ومشاعر نستعملها فى دلائل التوحيد التى مهدها فى الأنفس والآفاق وقد أعطى سائر الناس أيضاً مثلها ولكن أكثرهم لا يشكرون أى أى لا يصرفون تلك القوى والمشاعر إلى ما خلقت هى له ولا يستعملونها فيما ذكر من أدلة التوحيد الآفاقية والأنفسية والعقلية والنقلية ﴿ يا صاحبى السجن ﴾ أى يا صاحبى فى السجن كما تقول يا سارق الليلة ناداهما بعنوان الصحبة فى مدار الأشجان ودار الأحزان التى تصفو فيها المودة وتخلص النصيحة ليقبلا عليه ويقبلا مقالته وقد ضرب لهما مثلا يتضح به الحق عندهما حق اتضاح فقال ﴿ أأرباب متفرقون ﴾ لا ارتباط بينهم ولا اتفاق يستعبد كما كل منهم حسبما أراد غير مراقب للآخرين مع عدم استقلاله ﴿ خير ﴾

---

(١) فى ط : شرك . خطأ

لكما ﴿ أم الله ﴾ المعبود بالحق ﴿ الواحد ﴾ المتفرد بالألوهية ﴿ القهار ﴾ الغالب الذى لا يغالبه أحد وبعد ما نبههما على فساد تعدد الأرباب بين لهما سقوط آلهتهما عن درجة الاعتبار رأساً فضلا عن الألوهية فقال معمما للخطاب لهما ولمن على دينهما .

﴿ ما تعبدون من دونه ﴾ أى من دون الله شيئا ﴿ إلا أسماء ﴾ فارغة لا مطابق لها فى الخارج لأن ما ليس فيه مصداق اطلاق الاسم عليه لا وجود له أصلا فكانت عبادتهم لتلك الأسماء فقط ﴿ سميتموها ﴾ جعلتموها أسماء وإنما لم يذكر المسميات تربية لما يقتضيه المقام من اسقاطها عن مرتبة الوجود وإيذانا بأن تسميتهم فى البطلان حيث كانت بلا مسمى كعبادتهم حيث كانت بلا معبود ﴿ وأنتم وآباؤكم ﴾ بمحض جهلكم وضلالتكم ﴿ ما أنزل الله بها ﴾ أى بتلك التسمية المستتبعة للعبادة ﴿ من سلطان ﴾ من حجة تدل على صحتها ﴿ إن الحكم ﴾ فى أمر العبادة المتفرعة على تلك التسمية ﴿ إلا لله ﴾ عز سلطانه لأنه المستحق لها بالذات إذ هو الواجب بالذات الموجد للكل والمالك لأمره ﴿ أمر ﴾ استئناف مبنى على سؤال ناشىء من قوله إن الحكم إلا لله فكأنه قيل فماذا حكم الله فى هذا الشأن فقيل أمر على ألسنة الأنبياء عليهم السلام ﴿ ألا تعبدوا ﴾ أى بأن لا تعبدوا ﴿ إلا إياه ﴾ حسبما تقضى به قضية العقل أيضا ﴿ ذلك ﴾ أى تخصيصه تعالى بالعبادة ﴿ الدين القيم ﴾ الثابت المستقيم الذى تعاضدت عليه البراهين عقلا ونقلا ﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ أن ذلك هو الدين القيم لجهلهم بتلك البراهين أو لا يعلمون شيأ أصلا فيعبدون أسماء سموها من تلقاء أنفسهم معرضين عن البرهان العقلى والسلطان النقلى وبعد تحقيق الحق ودعوتهما إليه وبيانه لهما مقداره الرفيع ومرتبة علمه الواسع شرع فى تفسير ما استعبراه ولكونه بحثا مغايرا لما سبق فصله عنه بتكرير الخطاب فقال ،

﴿ يا صاحبى السجن أما أحدكما ﴾ وهو الشرابى[1] وإنما لم يعينه ثقة بدلالة

---

(١) فى ١٠ : صاحب الشراب

التعبير وتوسلا بذلك إلى إبهام أمر صاحبه حذار مشافهته بما يسوءه ﴿ فيسقى ربه ﴾ أى سيده ﴿ خمراً ﴾ روى أنه عليه السلام قال له ما رأيت من الكرمة وحسنها الملك وحسن حالك عنده وأما القضبان الثلاثة فثلاثة أيام تمضى فى السجن ثم تخرج وتعود إلى ما كنت عليه وقرأ عكرمة فيسقى ربه على البناء للمفعول أى يسقى ما يروى به ﴿ وأما الآخر ﴾ وهو الخباز ﴿ فيصلب فتأكل الطير من رأسه ﴾ روى أنه عليه السلام قال له ما رأيت من السلال ثلاثة أيام تمر ثم تخرج فتقتل .

﴿ قضى ﴾ أى تم وأحكم ﴿ الأمر الذى فيه تستفتيان ﴾ وهو ما رأياه من الرؤييين قطعا لا مآله الذى هو عبارة عن نجاة أحدهما وهلاك الآخر كما يوهمه إسناد القضاء إليه إذ الاستفتاء إنما يكون فى الحادثة لا فى حكمها يقال استفتى الفقيه فى الحادثة أى طلب منه بيان حكمها ولا يقال استفتاه فى حكمها وكذا الإفتاء فإنه يقال أفتى فلان فى الواقعة الفلانية بكذا ولا يقال أفتى فى حكمها أو جوابها بكذا ومما هو علم فى ذلك قوله تعالى (يا أيها الملأ أفتونى فى رؤياى) ومعنى استفتائهما فيه طلبهما لتأويله بقولهما نبئنا بتأويله وإنما عبر عن ذلك بالأمر وعن طلب تأويله بالاستفتاء تهويلا لأمره وتفخيما لشأنه إذ الاستفتاء إنما يكون فى النوازل المشكلة والحكم المبهمة الجواب وإيثار صيغة الاستقبال مع سبق استفتائهما فى ذلك لما أنهما بصدده إلى أن يقضى عليه السلام من الجواب وطره ، وإسناد القضاء إليه مع أنه من أحوال مآله لأنه فى الحقيقة عين ذلك المآل وقد ظهر فى عالم المثال بتلك الصورة وأما توحيده مع تعدد رؤياهما فوارد على حسب ما وحداه فى قولهما نبئنا بتأويله لا لأن الأمر ما اتهما به وسجنا لأجله من سم الملك فإنهما لم يستفتيا فيه ولا فيما هو صورته بل فيما هو صورة لمآله وعاقبته فتأمل وإنما أخبرهما عليه السلام بذلك تحقيقا لتعبيره وتأكيدا له وقيل لما عبر رؤياهما جحدا وقالا ما رأينا شيئا فأخبرهما إن ذلك كائن أصدقتما وكذبتما ولعل الجحود من الخباز إذ لا داعى إلى جحود الشرابى إلا أن يكون ذلك لمراعاة جانبه .

﴿ وقال ﴾ أي يوسف عليه السلام ﴿ للذى ظن أنه ناج ﴾ أوثر على صيغة المضارع مبالغة فى الدلالة على تحقق النجاة حسبما يفيده قوله تعالى (قضى الأمر الذى فيه تستفتيان) وهو السر فى إيثار ما عليه النظم الكريم على أن يقال للذى ظنه ناجيا ﴿ منهما ﴾ من صاحبيه وإنما ذكر بوصف النجاة تمهيدا لمناط التوصية بالذكر عند الملك وعنوان التقرب المفهوم من التعبير المذكور وإن كان أدخل فى ذلك وأدعى إلى تحقيق ما وصاه به لكنه ليس بوصف فارق يدور عليه الامتياز بينه وبين صاحبه المذكور بوصف الهلاك والظان هو يوسف عليه السلام لا صاحبه لأن التوصية المذكورة لاتدور على ظن الناجى بل على ظن يوسف وهو بمعنى اليقين كما فى قوله تعالى (ظننت أنى ملاق حسابيه) فالتعبير بالوحى كما ينبىء عنه قوله تعالى (قضى الأمر) إلخ وقيل هو بمعناه والتعبير بالاجتهاد والحكم بقضاء الأمر أيضا اجتهادى ﴿ اذكرنى ﴾ بما أنا عليه من الحال والصفة ﴿ عند ربك ﴾ سيدك وصفنى له بصفتى التى شاهدتها ﴿ فأنساه الشيطان ﴾ أى أنسى الشرابى بوسوسته والقائه فى قلبه أشغالا لا تعوقه عن الذكر وإلا فالإنساء فى الحقيقة لله عز وجل والفاء للسببية فإن توصيته عليه السلام المتضمنة للاستعانة بغيره سبحانه كانت باعثة لما ذكر من الإنساء ﴿ ذكر ربه ﴾ أى ذكر الشرابى له عليه السلام عند الملك والإضافة لأدنى ملابسة أو ذكر إخبار ربه .

﴿ فلبث ﴾ أى يوسف عليه السلام بسبب ذلك الإنساء أو القول ﴿ فى السجن بضع سنين ﴾ البضع ما بين الثلاث إلى التسع من البضع وهو القطع وأكثر الأقاويل أنه لبث فيه سبع سنين وروى عن النبى عليه السلام رحم الله أخى يوسف لو لم يقل اذكرنى عند ربك لما لبث فى السجن سبعا بعد الخمس والاستعانة بالعباد وإن كانت مرخصة لكن اللائق بمناصب الأنبياء عليهم السلام الأخذ بالعزائم ﴿ وقال الملك ﴾ أى الريان ﴿ إنى أرى ﴾ أى رأيت وإيثار صيغة المضارع لحكاية الحال الماضية ﴿ سبع بقرات سمان ﴾ جمع سمين وسمينة ككرام فى جمع كريم وكريمة يقال رجال كرام ونسوة كرام

﴿ يأكلهن ﴾ أى أكلهن والعدول إلى المضارع لاستحضار الصورة تعجيبا[١] والجملة حال من البقرات أو صفة لها ﴿ سبع عجاف ﴾ أى سبع بقرات عجاف وهى جمع عجفاء والقياس عجف لأن فعلاء وأفعل لا يجمع على فعال ولكن عدل به عن القياس حملا لأحد النقيضين على الآخر وإنما لم يقل سبع عجاف بالإضافة لأن التمييز موضوع لبيان الجنس والصفة ليست بصالحة لذلك فلا يقال ثلاثة ضخام وأربعة غلاظ وأما قولك ثلاثة فرسان وخمسة ركبان فلجريان الفارس والراكب مجرى الأسماء روى أنه رأى سبع بقرات سمان خرجن من نهر يابس وخرج عقيبهن سبع بقرات عجاف فى غاية الجزال فابتلعت العجاف السمان ﴿ وسبع سنبلات خضر ﴾ قد انعقد حبها ﴿ وأخر يابسات ﴾ أى وسبعا أخر يابسات قد أدركت والتوت على الخضر حتى غلبتها على ما روى ولعل عدم التعرض لذكره للاكتفاء بما ذكر من حال البقرات ﴿ يا أيها الملأ ﴾ خطاب للأشراف من العلماء والحكماء ﴿ أفتونى فى رؤياى ﴾ هذه أى عبروها وبينوا حكمها وما تؤول إليه من العاقبة والتعبير عن التعبير بالإفتاء لتشريفهم وتفخيم أمر رؤياه ﴿ إن كنتم للرؤيا تعبرون ﴾ أى تعلمون عبارة جنس الرؤيا علما مستمرا وهى الانتقال من الصور الخيالية المشاهدة فى المنام إلى ما هى صور وأمثلة لها من الأمور الآفاقية أو الأنفسية الواقعة فى الخارج من العبور وهو المجاوزة تقول عبرت النهر إذا قطعته وجاوزته ونحوه أولتها أى ذكرت مآلها وعبرت الرؤيا عبارة أثبت من عبرتها تعبيرا والجمع بين الماضى والمستقبل للدلالة على الاستمرار كما أشير إليه واللام للبيان أو لتقوية العامل المؤخر لرعاية الفواصل أو لتضمين تعبرون معنى فعل متعد باللام كأنه قيل إن كنتم تنتدبون لعبارتها ويجوز أن يكون للرؤيا خبر كان كما يقال فلان لهذا الأمر إذا كان مستقلا به متمكنا منه وتعبرون خبر آخر .

﴿ قالوا ﴾ استئناف مبنى على السؤال كأنه قيل فماذا قال الملأ للملك فقيل

---

(١) فى ٤٣٠ تعجيبا

قالوا هى ﴿ أضغاث أحلام ﴾ أى تخاليطها جمع ضغث وهو فى الأصل ما جمع من أخلاط النبات وحزم ثم استعير لما تجمعه القوة المتخيلة من أحاديث النفس ووساوس الشيطان وتريها فى المنام والأحلام جمع حلم وهى الرؤيا الكاذبة التى لا حقيقة لها والإضافة بمعنى من أى هى التى أضغاث من أحلام أخرجوها من جنس الرؤيا التى لها عاقبة تؤول إليها ويعتنى بأمرها وجمعوها وهى رؤيا واحدة مبالغة فى وصفها بالبطلان كما فى قولهم فلان يركب الخيل ويلبس العمائم لمن لا يملك إلا فرسا واحدا وعمامة فردة أو لتضمنها أشياء مختلفة من البقرات السبع السمان والسبع العجاف والسنابل السبع الخضر والأخر اليابسات فتأمل حسن موقع الأضغاث مع السنابل فلله در شأن التنزيل ﴿ وما نحن بتأويل الأحلام ﴾ أى المنامات الباطلة التى لا أصل لها ﴿ بعالمين ﴾ لا لأن لها تأويلا ولكن لا نعلمه بل لأنه لا تأويل لها وإنما التأويل للمنامات الصادقة ويجوز أن يكون ذلك اعترافا منهم بقصور علمهم وأنهم ليسوا بنحارير فى تأويل الأحلام مع أن لها تأويلا كما يشعر به عدولهم عما وقع فى كلام الملك من العبارة المعربة عن مجرد الانتقال من الدال إلى المدلول حيث لم يقولوا بتعبير الأحلام أو عبارتها إلى التأويل المنبىء عن التصرف والتكلف فى ذلك لما بين الآئل والمآل من البعد ويؤيده قوله عز وجل أنا أنبئكم بتأويله .

﴿ وقال الذى نجا منهما ﴾ أى من صاحبى يوسف وهو الشرابى ﴿ وادكر ﴾ بغير المعجمة[1] وهو الفصيح وعن الحسن بالمعجمة أى تذكر يوسف عليه السلام وشئونه التى شاهدها ووصيته بتقريب رؤيا الملك وإشكاو تأويلها على الملأ ﴿ بعد أمة ﴾ أى مدة طويلة وقرىء إمة بالكسر وهى النعمة أى بعد ما أنعم عليه بالنجاة وأمه أى نسيان والجملة حال من الموصول أو من ضميره فى الصلة وقيل معطوفة على نجا وليس بذاك لأن حق كل من الصفة والصلة أن

---

(١) فى ١٠ : مهملة غير معجمة .

تكون معلومة الانتساب إلى الموصوف والموصول عند المخاطب كما عند المتكلم ولذلك قيل أن الصفات قبل العلم بها أخبار والأخبار بعلم العلم بها صفات وأنت تدرى أن تذكره بعد أمة إنما علم بهذه الجملة فلا مجال لنظمه مع نجاته المعلومة قبل فى سلك الصلة ﴿ أنا أنبئكم بتأويله ﴾ أى أخبركم به بالتلقى عمن عنده علمه لا من تلقاء نفسى ولذلك لم يقل أنا أفتيكم فيها وعقبه بقوله ﴿ فأرسلون ﴾ أى إلى يوسف وإنما لم يذكره ثقة بما سبق من التذكر وما لحق من قوله ﴿ يوسف أيها الصديق ﴾ أى أرسل إليه فأتاه فقال يا يوسف ووصف بالمبالغة فى الصدق حسبما شاهده وذاق أحواله وجربها لكونه بصدد اغتنام آثاره واقتباس أنواره فهو من باب براعة الاستهلال ﴿ أفتنا فى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات ﴾ أى فى رؤيا ذلك وإنما لم يصرح به لوضوح مرامه بقرينة ما سبق من معاملتهما ولدلالة مضمون الحادثة عليه حيث لا إمكان لوقوعه فى عالم الشهادة أى بين لنا مآلها وحكمها وحيث عاين علو رتبته عليه السلام فى الفضل عبر عن ذلك بالإفتاء ولم يقل كما قال هو وصاحبه أولا نبئنا بتأويله وفى قوله أفتنا مع أنه المستفتى وحده إشعار بأن الرؤيا ليست له بل لغيره ممن له ملابسة بأمور العامة وأنه فى ذلك معبر وسفير كما آذن بذلك حيث قال ﴿ لعلى أرجع إلى الناس ﴾ أى إلى الملك ومن عنده أو إلى أهل البلد إن كان السجن فى الخارج كما قيل فأنبئهم بذلك ﴿ لعلهم يعلمون ﴾ ذلك ويعملون بمقتضاه أو يعلمون فضلك ومكانك مع ما أنت فيه من الحال فتتخلص منه وإنما لم يبت القول فى ذلك مجاراة معه على نهج الأدب واحترازا عن المجازفة إذا لم يكن على يقين من الرجوع فربما اخترم دونه لعل المنايا دون ما تعدانى ولا من علمهم بذلك فربما لم يعلموه .

﴿ وقال ﴾ استئناف مبنى على السؤال كأنه قيل فماذا قال يوسف عليه السلام فى التأويل فقيل قال ﴿ تزرعون سبع سنين دأبا ﴾ قرىء بفتح الهمزة وسكونها وكلاهما مصدر دأب فى العمل إذا جد فيه وتعب وانتصابه على الحالية

من فاعل تزرعون أى دائبين أو تدأبون دأبا على أنه مصدر مؤكد لفعل هو الحال أول عليه السلام البقرات السمان والسنبلات الخضر بسنين مخاصيب والعجاف واليابسات بسنين مجدبة فأخبرهم بأنهم يواظبون سبع سنين على الزراعة ويبالغون فيها إذ بذلك يتحقق الخصب الذى هو مصداق البقرات السمان وتأويلها ودلهم فى تضاعيف ذلك على أمر نافع لهم فقال ﴿فما حصدتم﴾ أى فى كل سنة ﴿فذروه فى سنبله﴾ ولا تذروه كيلا يأكله السوس كما هو شأن غلال مصر ونواحيها ولعله عليه السلام استدل على ذلك بالسنبلات الخضر وإنما أمرهم بذلك إذ لم يكن معتادا فيما بينهم وحيث كانوا معتادين للزراعة لم يأمرهم بها وجعلها أمرا محقق الوقوع وتأويلا الرؤيا مصداقا لما فيها من البقرات السمان ﴿إلا قليلا مما تأكلون﴾ فى تلك السنين وفيه إرشاد منه عليه السلام لهم إلى التقليل فى الأكل والاقتصار على استثناء المأكول دون البذر لكون ذلك معلوما من قوله تزرعون سبع سنين وبعد إتمام ما أمرهم به شرع فى بيان بقية التأويل التى يظهر منها حكمة الأمر المذكور فقال .

﴿ثم يأتى﴾ وهو عطف على تزرعون فلا وجه لجعله بمعنى الأمر حثالهم على الجد والمبالغة فى الزراعة على أنه يحصل بالإخبار بذلك أيضا ﴿من بعد ذلك﴾ أى من بعد السنين السبع المذكورات وإنما لم يقل من بعدهن قصدا إلى الإشارة إلى وصفهن فإن الضمير ساكت عن أوصاف المرجع بالكلية ﴿سبع شداد﴾ أى سبع سنين صعاب على الناس ﴿يأكلن ما قدمتم لهن﴾ من الحبوب المتروكة فى سنابلها وفيه تنبيه على أن أمره عليه السلام بذلك كان لوقت الضرورة وإسناد الأكل إليهن مع أنه حال الناس فيهن مجازى كما فى نهاره صائم وفيه تلويح بأنه تأويل لأكل العجاف السمان واللام فى لهن ترشيح لذلك فكأن ما ادخر فى السنابل من الحبوب شىء قد هيىء وقدم لهن كالذى يقدم للنازل وإلا فهو فى الحقيقة مقدم للناس فيهن ﴿إلا قليلا مما تحصنون﴾ تحرزون مبذورا للزراعة .

﴿ ثم يأتى من بعد ذلك ﴾ أى من بعد السنين الموصوفة بما ذكر من الشدة وأكل الغلال المدخرة ﴿ عام ﴾ لم يعبر عنه بالسنة تحاشيا عن المدلول الأصلى لها من عام القحط وتنبيها من أول الأمر على اختلاف الحال بينه وبين السوابق ﴿ فيه يغاث الناس ﴾ من الغيث أى يمطرون يقال غيثت البلاد إذا مطرت فى وقت الحاجة أو من الغوث يقال أغاثنا الله تعالى أى أمدنا برفع المكاره حين أظلتنا ﴿ وفيه يعصرون ﴾ أى ما من شأنه أن يعصر من العنب والقصب والزيتون والسمسم ونحوها من الفواكه لكثرتها والتعرض لذكر العصر مع جواز الاكتفاء عنه بذكر الغيث المستلزم له عادة كما اكتفى به عن ذكر تصرفهم[١] فى الحبوب إما لأن استلزام الغيث له ليس كاستلزامه للحبوب إذ المذكورات يتوقف صلاحها على مباد أخرى غير المطر وإما لمراعاة جانب المستفتى باعتبار حالته الخاصة به بشارة له وهى التى يدور عليها حسن موقع تغليبه على الناس فى القراءة بالفوقانية وقيل معنى يعصرون يحلبون الضروع وتكرير فيه إما للإشعار باختلاف أوقات مايقع فيه من الغيث والعصر زمانا وهو ظاهر وعنوانا فإن الغيث والغوث من فضل الله تعالى والعصر من فعل الناس وإما لأن المقام مقام تعداد منافع ذلك العام ولأجله قدم فى الموضعين على الفعلين فإن المقصود الأصلى بيان أنه يقع فى ذلك العام هذا النفع وذاك النفع لا بيان أنهما يقعان فى ذلك العام كما يفيده التأخير ويجوز أن يكون التقديم للقصر على معنى أن غيثهم وعصرهم فى سائر السنين بمنزلة العدم بالنسبة إلى عامهم ذلك وأن يكون ذلك فى الأخير لمراعاة الفواصل وفى الأول لرعاية حاله وقرىء يعصرون على البناء للمفعول من عصره إذا أنجاه وهو المناسب للإغاثة ويجوز أن يكون المبنى للفاعل أيضا منه كأنه قيل فيه يغاث الناس وفيه يغيثون أى يغيثهم الله ويغيث بعضهم بعضا وقيل معنى يعصرون يمطرون من أعصرت السحابة إما بتضمين أعصرت معنى مطرت وتعديته وإما بحذف الجار وإيصال الفعل على

(١) فى ٤٣٠ : تصرفاتهم .

على أن الأصل أعصرت عليهم وأحكام هذا العام المبارك ليست مستنبطة من رؤيا الملك وإنما تلقاها عليه السلام من جهة الوحي فبشرهم بها بعد ماأول الرؤيا بما أول وأمرهم بالتدبير اللائق في شأنه إبانة لعلو كعبه ورسوخ قدمه في الفضل وأنه محيط بما لم يخطر ببال أحد فضلا عما يرى صورته في المنام على نحو قوله لصاحبيه عند استفتائهما في منامها لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله وإتماما للنعمة عليهم حيث لم يشاركه عليه السلام في العلم بوقوعها أحد ولو برؤية مايدل عليها في المنام .

﴿ وقال الملك ﴾ بعد ما جاءه السفير بالتعبير وسمع منه ما سمع من نقير وقطمير ﴿ ائتوني به ﴾ لما علم من علمه وفضله ﴿ فلما جاءه ﴾ أي يوسف ﴿ الرسول ﴾ واستدعاه إلى الملك ﴿ قال ارجع إلى ربك ﴾ أي سيدك ﴿ فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن ﴾ أي ففتشه عن شأنهن وإنما لم يقل فاسأله أن يفتش عن ذلك حثاً للملك على الجد في التفتيش ليتبين براءته ويتضح نزاهته إذ السؤال مما يهيج الإنسان على الاهتمام في البحث للتفصي عما توجه إليه وأما الطلب فما قد يتسامح ويتساهل فيه ولا يبالي به وإنما لم يتعرض لامرأة العزيز مع ما لقي من مقاساة الأحزان ومعاناة الأشجان محافظة على مواجب الحقوق واحترازاً عن مكرها حيث اعتقدها مقيمة في عدوة العداوة وأما النسوة فقد كان يطمع في صدعهن بالحق وشهادتهن بإقرارها بأنها راودته عن نفسه فاستعصم ولذلك اقتصر على وصفهن بتقطيع الأيدي ولم يصرح بمراودتهن له وقولهن أطع مولاتك واكتفى بالإيماء إلى ذلك بقوله ﴿ إن ربي بكيدهن عليم ﴾ مجاملة معهن واحترازاً عن سوء قالتهن عند الملك وانتصابهن للخصومة مدافعة عن أنفسهن متى سمعن بنسبته لهن إلى الفساد ﴿ قال ﴾ استئناف مبني على السؤال كأنه قيل فماذا كان بعد ذلك فقيل قال الملك إثر ما بلغه الرسول الخبر وأحضرهن ﴿ ما خطبكن ﴾ أي شأنكن وهو الأمر الذي يحق لعظمه أن يخاطب المرء فيه صاحبه ﴿ إذ راودتن يوسف ﴾ وخادعتنه ﴿ عن نفسه ﴾ ورغبتنه في إطاعة مولاته هل وجدتن فيه شيئاً من سوء وريبة ﴿ قلن حاش لله ﴾ تنزيهاله وتعجبا

من نزاهته وعفته ﴿ ما علمنا عليه من سوء ﴾ بالغن فى نفى جنس السوء عنه بالتنكير وزيادة من .

﴿ قالت امرأة العزيز ﴾ وكانت حاضرة فى المجلس وقيل أقبلت النسوة عليها يقررنها وقيل خافت أن يشهدن عليها بما قالت لهن ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين فأقرت قائلة ﴿ الآن حصحص الحق ﴾ أى ثبت واستقر أو تبين وظهر بعد خفاء قاله الخليل وقيل هو مأخوذ من الحصة وهى القطعة من الجملة أى تبين حصة الحق من حصة الباطل كما تتبين حصص الأراضى وغيرها وقيل بان وظهر من حص شعره إذا استأصله بحيث ظهرت بشرة رأسه وقرىء على البناء للمفعول[1] من حصحص البعير مباركه أى ألقاها فى الأرض للإناخة قال :

فحصحص فى صم الصفا ثفناته　　وناء بسلمى نوأة ثم صمما

والمعنى أقر الحق فى مقره ووضع فى موضعه ولم ترد بذلك مجرد ظهور ماظهر بشهادتهن من مطلق نزاهته عليه السلام فيما أحاط به علمهن من غير تعرض لنزاهته فى سائر المواطن خصوصا فيما وقع فيه التشاجر بمحضر العزيز ولا بحث عن حال نفسها وما صنعت فى ذلك بل أرادت ظهور ما هو متحقق فى نفس الأمر وثبوته من نزاهته عليه السلام فى محل النزاع وخيانتها فقالت ﴿أنا راودته عن نفسه ﴾ لا أنه راودنى عن نفسى ﴿ وإنه لمن الصادقين ﴾ أى فى قوله حين افتريت عليه هى راودتنى عن نفسى وأرادت بالآن زمان تكلمها بهذا الكلام لا زمان شهادتهن فتأمل أيها المنصف هل ترى فوق هذه المرتبة نزاهة حيث لم تتمالك الخصماء من الشهادة بها والفضل ماشهدت به الخصماء وإنما تصدى عليه السلام لتمهيد هذه المقدمة قبل الخروج ليظهر براءة ساحته مما قذف به لا سيما عند العزيز قبل أن يحل ما عقده كما يعرب عنه قوله عليه السلام لما رجع إليه الرسول وأخبره بكلامهن .

---

(١) فى ١١ : للمجهول .

﴿ ذلك ﴾ أى ذلك التثبيت المؤدى إلى ظهور حقيقة الحال ﴿ ليعلم ﴾ أى العزيز ﴿ أنى لم أخنه ﴾ فى حرمته كما زعمه لا علما مطلقاً فإن ذلك لا يستدعى تقديم التفتيش على الخروج من السجن بل قبل ما ذكر من نقض ما أبرمه ولعله لمراعاة حقوق السيادة لأن المباشرة للخروج من حبسه قبل ظهور بطلان ما جعله سببا له وإن كان ذلك بأمر الملك مما يوهم الافتيات على رأيه وأما أن يكون ذلك لئلا يتمكن من تقبيح أمره عند الملك تمحلا لإمضاء ماقضاه فلا يليق بشأنه عليه السلام فى الوثوق بأمره والتوكل على ربه جل جلاله ﴿ بالغيب ﴾ أى بظهر الغيب وهو حال من الفاعل أو المعمول أى لم أخنه وأنا غائب عنه أو وهو غائب عنى أو ظرف أى بمكان الغيب وراء الأستار والأبواب المغلقة وأيا ما كان فالمقصود بيان كمال نزاهته عن الخيانة وغاية اجتنابه عنها عند تعاضد أسبابها ﴿ وأن الله ﴾ أى وليعلم أنه تعالى ﴿ لا يهدى كيد الخائنين ﴾ أى لا ينفذه ولا يسدده بل يبطله ويزهقه أو لا يهديهم فى كيدهم إيقاعا للفعل على الكيد مبالغة كما فى قوله تعالى (يضاهئون قول الذين كفروا) أى يضاهئونهم فى قولهم وفيه تعريض بامرأته فى خيانتها أمانته وبه فى خيانته أمانة الله تعالى حين ساعدها على حبسه بعد ما رأوا آيات نزاهته عليه السلام ويجوز أن يكون ذلك لتأكيد أمانته وأنه لو كان خائنا لما هدى الله عز وجل أمره وأحسن عاقبته .

﴿ وما أبرىء نفسى ﴾ أى لا أنزهها عن السوء قاله عليه السلام هضما لنفسه الكريمة البريئة عن كل سوء وربأ بمكانها عن التزكية والإعجاب بحالها عند ظهور كمال نزاهتها على أسلوب قوله عليه السلام أنا سيد ولد آدم ولا فخر أو تحديثا بنعمة الله عز وجل عليه وإبرازاً لسره المكنون فى شأن أفعال العباد أى لا أنزهها عن السوء من حيث هى هى ولا أسند هذه الفضيلة إليها بمقتضى طبعها من غير توفيق من الله عز وعلا ﴿ إن النفس ﴾ البشرية التى من جملتها نفسى فى حد ذاتها ﴿ لأمارة بالسوء ﴾ مائلة إلى الشهوات مستعملة للقوى والآلات فى تحصيلها بل إنما ذلك بتوفيق الله وعصمته ورحمته كما يفيده قوله ﴿ إلا ما رحم ربى ﴾ من النفوس التى يعصمها من الوقوع فى المهالك ومن جملتها نفسى أو هى أمارة

بالسوء فى كل وقت إلا وقت رحمة ربى وعصمته لها وقيل الاستثناء منقطع أى لكن رحمة ربى هى التى تصرف عنها السوء كما فى قوله تعالى (ولا هم ينقذون إلا رحمة) ﴿ إن ربى غفور رحيم ﴾ عظيم المغفرة لما يعترى النفوس بموجب طباعها ومبالغ فى الرحمة لها بعصمتها من الجريان بمقتضى ذلك وإيثار الإظهار فى مقام الإضمار مع التعرض لعنوان الربوبية لتربية مبادىء المغفرة والرحمة وقيل إلى هنا من كلام امرأة العزيز والمعنى ذلك الذى قلت ليعلم يوسف عليه السلام أنى لم أخنه ولم أكذب عليه فى حال الغيبة وجئت بما هو الحق الواقع وما أبرىء نفسى مع ذلك من الخيانة حيث قلت فى حقه ما قلت وفعلت به ما فعلت إن كل نفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربى أى إلا نفسا رحمها الله بالعصمة كنفس يوسف إن ربى غفور لمن استغفر لذنبه واعترف به رحيم له فعلى هذا يكون تأنيه عليه السلام فى الخروج من السجن لعدم رضاه عليه السلام بملاقاة الملك وأمره بين بين ففعل ما فعل حتى يتبين نزاهته وأنه إنما سجن بظلم عظيم مع ماله من الفضل ونباهة الشأن ليتلقاه الملك بما يليق به من الإعظام والإجلال وقد وقع ﴿ وقال الملك ائتونى به أستخلصه ﴾ أجعله خالصا ﴿ لنفسى ﴾ وخاصا بى .

﴿ فلما كلمه ﴾ أى فأتوا به فحذف للإيذان بسرعة الإتيان به فكأنه لم يكن بين الأمر بإحضاره والخطاب معه زمان أصلا والضمير المستكن فى كلمه ليوسف والبارز للملك أى فلما كلمه يوسف إثر ما أتاه فاستنطقه وشاهد منه ما شاهد ﴿ قال إنك اليوم لدينا مكين ﴾ ذو مكانة ومنزلة رفيعة ﴿ أمين ﴾ مؤتمن على كل شىء واليوم ليس بمعيار لمدة المكانة والأمانة بل هو آن التكلم والمراد تحديد مبدئهما احترازا عن احتمال كونهما بعد حين . روى أنه عليه السلام لما جاءه الرسول خرج من السجن ودعا لأهله واغتسل ولبس ثيابا جددا فلما دخل على الملك قال « اللهم إنى أسألك بخيرك من خيره ، وأعوذ بعزتك وقدرتك من شره وشر غيره » ثم سلم عليه ودعا له بالعبرانية فقال ما هذا اللسان قال لسان آبائى وكان الملك يعرف سبعين لسانا فكلمه بها فأجابه بجميعها فتعجب

منه فقال أحب أن أسمع منك رؤياى فحكاها ونعت له البقرات والسنابل وأماكنها على ما رآها فأجلسه على السرير وفوض إليه أمره وقيل توفى قطفير فى تلك الليالى فنصبه منصبه وزوجه راعيل فوجدها عذراء وولدت له إفرايم وميشا ولعل ذلك إنما كان بعد تعيينه عليه السلام لما عين له من أمر الخزائن كما يعرب عنه قوله عز وجل .

﴿ قال اجعلنى على خزائن الأرض ﴾ أى أرض مصر أى ولنى أمرها من الإيراد والصرف ﴿ إنى حفيظ ﴾ لها ممن لا يستحقها ﴿ عليم ﴾ بوجوه التصرف فيها وفيه دليل على جواز طلب الولايه إذا كان الطالب ممن يقدر على إقامة العدل وإجراء أحكام الشريعة وإن كان من يد الجائر أو الكافر وعن مجاهد أنه أسلم الملك على يده عليه السلام ولعل إيثاره عليه السلام لتلك الولاية خاصة إنما كان للقيام بما هو أهم أمور السلطنة إذ ذاك من تدبير أمر السنين حسبما فصل فى التأويل لكونه من فروع تلك الولاية لا لمجرد عموم الفائدة كما قيل وإنما لم يذكر إجابة الملك إلى ما سأله عليه السلام من جعله على خزائن الأرض إيذانا بأن ذلك أمر لا مرد له غنى عن التصريح به لا سيما بعد تقديم ما يندرج تحته من أحكام السلطنة بحذافيرها من قوله إنك اليوم لدينا مكين أمين للتنبه على أن كل ذلك من الله عز وجل وإنما الملك آلة فى ذلك قيل .

﴿ وكذلك ﴾ أى مثل ذلك التمكين البليغ ﴿ مكنا ليوسف ﴾ أى جعلنا له مكانا ﴿ فى الأرض ﴾ أى أرض مصر . روى أنها كانت أربعين فرسخا فى أربعين وفى التعبير عن الجعل المذكور بالتمكين فى الأرض مسندا إلى ضميره عز سلطانه من تشريفه عليه السلام والمبالغة فى كمال ولايته ، والإشارة إلى حصول ذلك من أول الأمر لا أنه حصل بعد السؤال مالا يخفى ﴿ يتبوأ منها ﴾ ينزل من بلادها ﴿ حيث يشاء ﴾ ويتخذه مباءة وهو عبارة عن كمال قدرته على التصرف فيها ودخولها تحت ملكته وسلطانه فكأنها منزلة يتصرف فيها كما يتصرف الرجل فى منزله وقرأ ابن كثير بالنون . روى أن الملك توجه وختمه بخاتمه ورداه بسيفه ووضع له سريرا من ذهب مكللا بالدر والياقوت فقال عليه

السلام أما السرير فأشد به ملكك . وأما الخاتم فأدبر به أمرك ، وأما التاج فليس من لباسى ولا لباس آبائى ، فقال قد وضعته إجلالا لك وإقرارا بفضلك فجلس على السرير ودانت له الملوك وفوض إليه الملك أمره وأقام العدل بمصر وأحبته[1] الرجال والنساء وباع من أهل مصر فى سنى القحط الطعام فى السنة الأولى بالدنانير والدراهم وفى الثانية بالحلى والجواهر وفى الثالثة بالدواب ثم بالضياع والعقار ثم برقابهم حتى استرقهم جميعا فقالوا ما رأينا كاليوم ملكا أجل وأعظم منه ثم أعتقهم ورد إليهم أموالهم وكان لايبيع من أحد من الممتارين[2] أكثر من حمل بعير تقسيطا بين الناس ﴿ نصيب برحمتنا ﴾ بعطائنا فى الدنيا من الملك والغنى وغيرهما من النعم ﴿ من نشاء ﴾ بمقتضى الحكمة الداعية إلى المشيئة ﴿ ولا نضيع أجر المحسنين ﴾ بل نوفيه بكماله وفيه إشعار بأن مدار المشيئة المذكورة إحسان من تصيبه الرحمة المرموقة وأنها أجر له ولدفع توهم انحصار ثمرات الإحسان فيما ذكر من الأجر قيل على سبيل التوكيد :

﴿ ولأجر الآخرة ﴾ أى أجرهم فى الآخرة فالإضافة للملابسة وهو النعيم المقيم الذى لا نفاد له ﴿ خير ﴾ لهم أى للمحسنين المذكورين وإنما وضع موضعه الموصول فقيل ﴿ للذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾ تنبيها على أن المراد بالإحسان إنما هو الإيمان والثبات على التقوى المستفاد من جمع صيغتى الماضى والمستقبل ﴿ وجاء إخوة يوسف ﴾ ممتارين لما أصاب أرض كنعان وبلاد الشام ما أصاب أرض مصر وقد كان أرسلهم يعقوب عليه السلام جميعا غير بنيامين ﴿ فدخلوا عليه ﴾ أى على يوسف وهو فى مجلس ولاينه ﴿ فعرفهم ﴾ لقوة فهمه وعدم مباينة أحوالهم السابقة لحالهم يومئذ لمفارقته إياهم وهم رجال وتشابه هيآتهم وزيهم فى الحالين ولكون همته معقودة بهم وبمعرفة أحوالهم لا سيما فى زمن القحط وعن الحسن ما عرفهم حتى تعرفوا له ﴿ وهم له منكرون ﴾ أى والحال أنهم منكرون له لطول العهد وتباين ما بين حاليه

---

(١) فى ١٧٠ : وأحبه .
(٢) يعنى طلاب الميرة وهى الطعام .

عليه السلام فى نفسه ومنزلته وزيه ولاعتقادهم أنه هلك وحيث كان إنكارهم له أمرا مستمرا فى حالتى المحضر والمغيب أخبر عنه بالجملة الاسمية بخلاف عرفانه عليه السلام إياهم .

﴿ ولما جهزهم بجهازهم ﴾ أى أصلحهم بعدتهم من الزاد وما يحتاج إليه المسافر وأوقر ركائبهم بما جاءوا له من الميرة وقرىء بكسر الجيم ﴿ قال ائتونى بأخ لكم من أبيكم ﴾ لم يقل بأخيكم مبالغة فى إظهار عدم معرفته لهم ولعله عليه السلام إنما قاله لما قيل من أنهم سألوه عليه السلام جملا زائدا على المعتاد لبنيامين فأعطاهم ذلك وشرطهم أن يأتوا به لا لما قيل من أنه لما رأوه وكلموه بالعبرية قال لهم من أنتم فإنى أنكركم فقالوا له نحن قوم من أهل الشام رعاة أصابنا الجهد فجئنا نمتار فقال لهم لعلكم جئتم عيونا فقالوا معاذ الله نحن إخوة بنو أب واحد وهو شيخ كبير صديق نبى من الأنبياء اسمه يعقوب قال كم أنتم قالوا كنا اثنى عشر فهلك منا واحد فقال كم أنتم ههنا قالوا عشرة قال فأين الحادى عشر قالوا هو عند أبيه يتسلى به عن الهالك قال فمن يشهد لكم أنكم لستم عيونا وأن ما تقولون حق قالوا نحن ببلاد لا يعرفنا فيها أحد فيشهد لنا قال فدعوا بعضكم عندى رهينة وائتونى بأخيكم من أبيكم وهو يحمل رسالة من أبيكم حتى أصدقكم فاقترعوا فأصاب القرعة شمعون فخلفوه عنده إذ لا يساعده ورود الأمر بالإتيان به عند التجهيز ولا الحث عليه بإيفاء الكيل ولا الإحسان فى الإنزال ولا الاقتصار على منع الكيل على تقدير عدم الإتيان به ولا جعل بضاعتهم فى رحالهم لأجل رجوعهم ولا عدتهم بالإتيان به بطريق المراودة ولا تعليلهم عند أبيهم إرسال أخيهم بمنع الكيل من غير ذكر الرسالة على أن استبقاء شمعون لو وقع لكان ذلك طامة ينسى عندها كل قيل وقال .

﴿ ألا ترون أنى أوفى الكيل ﴾ أتمه لكم وإيثار صيغة الاستقبال مع كون هذا الكلام بعد التجهيز للدلالة على أن ذلك عادة له مستمرة ﴿ وأنا خير المنزلين ﴾ جملة حالية أى ألا ترون أنى أوفى الكيل لكم إيفاء مستمرا والحال أنى فى غاية الإحسان فى إنزالكم وضيافتكم وقد كان الأمر كذلك وتخصيص

الرؤية بالإيفاء لوقوع الخطاب في أثنائه وأما الإحسان في الإنزال فقد كان مستمرا فيما سبق ولحق ولذلك أخبر عنه بالجملة الاسمية ولم يقل عليه السلام بطريق الامتنان بل لحثهم على تحقيق ما أمرهم به والاقتصار في الكيل على ذكر الإيفاء لأن معاملته عليه السلام معهم في ذلك كمعاملته مع غيرهم في مراعاة مواجب العدل وأما الضيافة فليس للناس فيها حق فخصهم في ذلك بما شاء ﴿فإن لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي﴾ (من بعد)[1] فضلا عن إيفائه ﴿ولا تقربون﴾ بدخول بلادي فضلا عن الإحسان في الإنزال والضيافة وهو إما نهي أو نفي معطوف على محل الجزاء وفيه دليل على أنهم كانوا على نية الامتيار مرة بعد أخرى وأن ذلك كان معلوما له عليه السلام ﴿قالوا سنراود عنه أباه﴾ أي سنخادعه عنه ونحتال في انتزاعه من يده ونجتهد في ذلك وفيه تنبيه على عزة المطلب وصعوبة مناله ﴿وإنا لفاعلون﴾ ذلك غير مفرطين فيه ولا متوانين أو لقادرون عليه لا نتعانى به .

﴿وقال﴾ يوسف ﴿لفتيانه﴾ غلمانه الكيالين جمع فتى وقرىء لفتيته وهي جمع قلة له ﴿اجعلوا بضاعتهم في رحالهم﴾ فإنه وكل بكل رجل رجلا يعبىء فيه بضاعتهم التي شروا بها الطعام وكانت نعالا وأدما وإنما فعله عليه السلام تفضلا عليهم وخوفا من أن لا يكون عند أبيه ما يرجعون به مرة أخرى وكل ذلك لتحقيق ما يتوخاه من رجوعهم بأخيه كما يؤذن به قوله ﴿لعلهم يعرفونها﴾ أي يعرفون حق ردها والتكرم في ذلك أو لكي يعرفوها وهو ظاهر التعلق بقوله ﴿إذا انقلبوا إلى أهلهم﴾ فإن معرفتهم لها مقيدة بالرجوع وتفريغ الأوعية قطعا وأما معرفة حق التكرم في ردها فهي وإن كانت في ذاتها غير مقيدة بذلك لكن لما كان ابتداؤها حينئذ قيدت به ﴿لعلهم يرجعون﴾ حسبما أمرتهم به فإن التفضل عليهم بإعطاء البدلين ولا سيما عند إعواز البضاعة من أقوى الدواعي إلى الرجوع وما قيل إنما فعله عليه السلام لما لم ير من الكرم أن يأخذ من أبيه

---

(١) سقطت من ط .

وإخوته ثمنا فكلام حق فى نفسه ولكن يأباه التعليل المذكور وأما أن علية الجعل المذكور للرجوع من حيث أن دياناتهم تحملهم على رد البضاعة لأنهم لا يستحلون إمساكهم فداره حسبانهم أنها بقيت فى رحالهم نسيانا وظاهر أن ذلك مما لا يخطر ببال أحد أصلافإن هيئة التعبية تنادى بأن ذلك بطريق التفضل ألا يرى أنهم كيف جزموا بذلك حين رأوها وجعلوا ذلك دليلا على التفضلات السابقة كما ستحيط به خبرا .

﴿فلما رجعوا إلى أبيهم قالوا﴾ قبل أن يشتغلوا بفتح المتاع ﴿يا أبانا منع منا الكيل﴾ أى فيما بعد وفيه ما لا يخفى من الدلالة على كون الامتيار مرة بعد مرة معهودا فيما بينهم وبينه عليه السلام ﴿فأرسل معنا أخانا﴾ بنيامين إلى مصر وفيه إيذان بأن مدار المنع عدم كونه معهم ﴿نكتل﴾ بسببه من الطعام ما نشاء وقرأ حمزة والكسائى بالياء على إسناده إلى الأخ لكونه سببا للاكتيال أو يكتل لنفسه مع اكتيالنا ﴿وإنا له لحافظون﴾ من أن يصيبه مكروه ﴿قال هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه﴾ يوسف ﴿من قبل﴾ وقد قلتم فى حقه أيضا ماقلتم ثم فعلتم به ما فعلتم فلا أثق بكم ولا بحفظكم وإنما أفوض الأمر إلى الله ﴿فالله خير حافظا﴾ وقرىء حفظا وانتصابهما على التمييز والحالية على القراءة الأولى توهم تفيد الخيرية بتلك الحالة ﴿وهو أرحم الراحمين﴾ فأرجو أن يرحمنى بحفظه ولا يجمع على مصيبتين وهذا كما ترى ميل منه عليه السلام إلى الإذن والإرسال لما رأى فيه من المصلحة ﴿ولما فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم ردت إليهم﴾ أى تفضلا وقد علموا ذلك بما مر من دلالة الحال وقرىء بنقل حركة الدال المدغمة إلى الراء كما قيل فى قيل وكيل ﴿قالوا﴾ استئناف مبنى على السؤال كأنه قيل ماذا قالوا حينئذ فقيل قالوا لأبيهم ولعله كان حاضرا عند الفتح ﴿يا أبانا ما نبغى﴾ إذا فسر البغى بالطلب فما إما استفهامية منصوبة به فالمعنى ماذا نبتغى وراء ماوصفنا لك من إحسان الملك إلينا وكرمه الداعى إلى امتثال أمره والمراجعة إليه فى الحوائج وقد كانوا أخبروه بذلك وقالوا له إنا قدمنا على خير رجل أنزلنا وأكرمنا كرامة لو كان رجلا من آل يعقوب ما أكرمنا كرامته وقوله تعالى :

﴿هذه بضاعتنا ردت إلينا﴾ جملة مستأنفة موضحة لما دل عليه الإنكار من بلوغ اللطف غايته كأنهم قالوا كيف لا وهذه بضاعتنا ردها إلينا تفضلا من حيث لا ندرى بعد ما من علينا من المنن العظام هل من مزيد على هذا فنطلبه ولم يريدوا به الاكتفاء بذلك مطلقا أو التقاعد عن طلب نظائره بل أرادوا الاكتفاء به فى استيجاب الامتثال لأمره والالتجاء إليه فى استجلاب المزيد كما أشرنا إليه وقوله تعالى (ردت إلينا) حال من بضاعتنا والعامل (معنى)[1] الإشارة وإيثار صيغة البناء للمفعول للإيذان بكمال الإحسان الناشىء عن كمال الإخفاء المفهوم من كمال غفلتهم عنه بحيث لم يشعروا به ولا بفاعله وقوله عز وجل ﴿ونمير أهلنا﴾ أى نجلب إليهم الطعام من عند الملك معطوف على مقدر ينسحب عليه رد البضاعة أى فنستظهر بها ونمير أهلنا ﴿ونحفظ أخانا﴾ من المكاره حسبما وعدنا فما يصيبه من مكروه ﴿ونزداد﴾ أى بواسطته ولذلك وسط الإخبار بحفظه بين الأصل والمزيد ﴿كيل بعير﴾ أى وسق بعير زائدا على أوساق أباعرنا على قضية التقسيط .

﴿ذلك﴾ أى ما يحمله أباعرنا ﴿كيل يسير﴾ أى مكيل قليل لا يقوم بأودنا فهو استئناف وقيل تعليلا لما سبق كأنه قيل أى حاجة إلى الازدياد فقيل ما قيل أو ذلك الكيل الزائد شىء قليل لايضايقنا فيه الملك أو سهل عليه لا يتعاظمه أو أى مطلب نطلب من مهماتنا والجملة الواقعة بعده توضيح وبيان لما يشعر به الإنكار من كونهم فائزين ببعض المطالب أو متمكنين من تحصيله فكأنهم قالوا بضاعتنا حاضرة فنستظهر بها ونمير أهلنا ونحفظ أخانا فما يصيبه شىء من المكاره ونزداد بسببه غير ما نكتاله لأنفسنا كيل بعير فأى شىء نبتغى وراء هذه المباغى وقرىء ما تبغى على خطاب يعقوب عليه السلام أى أى شىء تبغى وراء هذه المباغى المشتملة على سلامة أخينا وسعة ذات أيدينا أو وراء ما فعل بنا الملك من الإحسان داعيا إلى التوجه إليه والجملة الاستئنافية موضحة

---

(١) سقطت من: ١٠

لذلك أو أى شىء تبغى شاهدا على صدقنا فيما وصفنا لك من إحسانه والجملة المذكورة عبارة عن الشاهد المدلول عليه بفحوى الإنكار وإما نافية فالمعنى ما نبغى شيئاً غير ما رأينا من إحسان الملك فى وجوب المراجعة إليه أو ما نبغى غير هذه المباغى وقيل ما نطلب منك بضاعة أخرى والجملة المستأنفة تعليل له وأما إذا فسر البغى بمجاوزة الحد فما نافية فقط والمعنى ما نبغى فى القول وما نتزيد فيما وصفنا لك من إحسان الملك إلينا وكرمه الموجب لما ذكر والجملة المستأنفة لبيان ما ادعوا من عدم البغى وقوله ونمير أهلنا عطف على ما نبغى أى ما نبغى فيما ذكرنا من إحسانه وتحصيل أمثاله من مير أهلنا وحفظ أخينا فإن ذلك أهون شىء بواسطة إحسانه وقد جوز أن يكون كلاما مبتدأ أى جملة اعتراضية تذييلية على معنى وينبغى أن نمير أهلنا وشبه ذلك بقولك سعيت فى حاجة فلان ويجب أن أسعى وأنت خبير بأن شأن الجمل التذييلية أن تكون مؤكدة لمضمون مصدر ومقررة له كما فى المثال المذكور وقولك فلان ينطق بالحق فالحق أبلج وأن قوله ونمير إلخ وإن ساعدنا فى حمله على معنى ينبغى أن نمير أهلنا بمعزل من ذلك أو ما نبغى فى الرأى وما نعدل عن الصواب فيما نشير به عليك من إرسال أخينا معنا والجمل إلى آخرها تفصيل وبيان لعدم بغيهم وإصابة رأيهم أى بضاعتنا حاضرة نستظهر بها ونمير أهلنا ونصنع كيت وذيت فتأمل .

﴿ قال لن أرسله معكم ﴾ بعد ما عاينت منكم ماعاينت ﴿ حتى تؤتونى موثقا من الله ﴾ أى ما أتوثق به من جهة الله عز وجل وإنما جعله موثقاً منه تعالى لأن تأكيد العهود به مأذون فيه من جهته تعالى فهو إذن منه عز وجل ﴿ لتأتننى به ﴾ جواب القسم إذ المعنى حتى تحلفوا بالله لتأتننى به ﴿ إلا أن يحاط بكم ﴾ أى إلا أن تغلبوا فلا تطيقوا به أو إلا أن تهلكوا وأصله من إحاطة العدو فإن من أحاط به العدو فقد هلك غالبا وهو استثناء من أعم الأحوال أو أعم العلل على تأويل الكلام بالنفى الذى ينساق إليه أى لتأتننى به ولا تمتنعن منه فى حال من الأحوال أو لعلة من العلل إلا حال الإحاطة بكم ونظيره قولهم

أقسمت عليك لما فعلت وإلا فعلت أى ما أريد منك إلا فعلك وقد جوز الأول بلا تأويل أيضاً أى لتأتننى به على كل حال إلا حال الإحاطة بكم وأنت تدرى أنه حيث لم يكن الإتيان به من الأفعال الممتدة الشاملة للأحوال على سبيل المعية كما فى قولك لألزمنك إلا أن تعطينى حقى ولم يكن عليه السلام يريد[1] مقارنته على سبيل البدل لما عدا الحال المستثناة كما إذا قلت صل إلا أن تكون محدثا بل مجرد تحققه ووقوعه من غير إخلال به كما فى قولك لأحجن العام إلا أن أحصر فإن مرادك إنما هو الإخبار بعدم منع ما سوى حال الإحصار عن الحج إلا الإخبار بمقارنته لتلك الأحوال على سبيل البدل كما هو مرادك فى مثال الصلاة كان اعتبار الأحوال معه من حيث عدم منعها منه فآل المعنى إلى التأويل المذكور ﴿ فلما أتوه موثقهم ﴾ عهدهم من الله حسبما أراد يعقوب عليه السلام ﴿ قال الله على ما نقول ﴾ أى على ما قلنا فى أثناء طلب الموثق وإيتائه من الجانبين وإيثار صيغة الاستقبال لاستحضار صورته المؤدى إلى تثبتهم ومحافظتهم على تذكره ومراقبته ﴿ وكيل ﴾ مطلع رقيب يريد به عرض ثقته بالله تعالى وحثهم على مراعاة ميثاقهم .

﴿ وقال ﴾ ناصحاً لهم لما أزمع على إرسالهم جميعاً ﴿ يا بنى لا تدخلوا ﴾ مصر ﴿ من باب واحد ﴾ نهاهم عن ذلك حذارا من إصابة العين ، فإنهم كانوا ذوى جمال وشارة حسنة وقد كانوا تجملوا فى هذه الكرة[2] أكثر مما فى المرة الأولى وقد اشتهروا فى مصر بالكرامة والزلفى لدى الملك بخلاف النوبة الأولى فكانوا مئنة لدنو كل ناظر وطموح كل طامح وإصابة معين بتقدير العزيز الحكيم ليست مما ينكر وقد ورد عنه عليه السلام « إن العين حق » وعنه عليه السلام « إن العين لتدخل الرجل القبر والجمل القدر » وقد كان عليه السلام يعوذ الحسنين رضى الله عنهما بقوله « أعوذ بكلمات الله التامة من كل شيطان .وهامة

---

(١) فى ط ولم يكن مراده عليه السلام مقارنته

(٢) فى ١٠ : المرة

ومن كل عين لامة، وكان عليه السلام يقول «كان أبوكما يعوذ بها إسماعيل وإسحق عليهم السلام» رواه البخارى فى صحيحه وقد شهدت بذلك التجارب ولما لم يكن عدم الدخول من باب واحد مستلزما للدخول من أبواب متفرقة وكان فى دخولهم من بابين أو ثلاثة بعض ما فى الدخول من باب واحد من نوع اجتماع مصحح لوقوع المحذور قال ﴿ وادخلوا من أبواب متفرقة ﴾ بيانا لما المراد بالنهى وإنما لم يكتف بهذا الأمر مع كونه مستلزما له إظهارا لكمال العناية وإيذانا بأنه المراد بالأمر المذكور لا تحقيق لشىء آخر ﴿ وما أغنى عنكم ﴾ أى لا أنفعكم ولا أدفع عنكم بتدبيرى ﴿ من الله من شىء ﴾ أى شيئا مما قضى عليكم فإن الحذر لا يمنع القدر ولم يرد به عليه السلام إلغاء الحذر بالمرة كيف لا وقد قال عز قائلا (ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة) وقال (خذوا حذركم) بل أراد بيان أن ما وصاهم به ليس مما يستوجب المراد لا محالة بل هو تدبير فى الجملة وإنما التأثير وترتب المنفعة عليه من العزيز القدير وأن ذلك ليس بمدافعة للقدر بل هو استعانة بالله تعالى وهرب منه إليه .

﴿ إن الحكم ﴾ مطلقا ﴿ إلا لله ﴾ لا يشاركه أحد ولا يمانعه شىء ﴿ عليه ﴾ لا على أحد سواه ﴿ توكلت ﴾ فى كل ما آتى وأذر وفيه دلالة على أن ترتيب الأسباب غير مخل بالتوكل ﴿ وعليه ﴾ دون غيره ﴿ فليتوكل المتوكلون ﴾ جمع بين الحرفين فى عطف الجملة على الجملة مع تقديم الصلة للاختصاص مقيدا بالواو عطف فعل غيره من تخصيص التوكل بالله عز وجل على فعل نفسه وبالفاء سببية فعله لكونه نبيا لفعل غيره من المقتدين به فيدخل فيهم بنوه دخولا أوليا وفيه ما لا يخفى من حسن هدايتهم وإرشادهم إلى التوكل فيما هم بصدده على الله عز وجل غير مغترين بما وصاهم من التدبير .

﴿ ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم ﴾ من الأبواب المتفرقة من البلد قيل كانت له أربعة أبواب فدخلوا منها وإنما اكتفى بذكره لاستلزامه الانتهاء عما نهوا عنه ﴿ ما كان ﴾ ذلك الدخول ﴿ يغنى ﴾ فيما سيأتى عند وقوع ما وقع ﴿ عنهم ﴾ عن الداخلين لأن المقصود به استدفاع الضرر عنهم والجمع بين صيغتى

الماضى والمستقبل لتحقيق المقارنة الواجبة بين جواب لما ومدخوله فإن عدم الإغناء بالفعل إنما يتحقق عند نزول المحذور لا وقت الدخول ، وإنما المتحقق حينئذ ما أفاده الجمع المذكور من عدم كون الدخول المذكور مغنيا فيما سيأتى فتأمل ﴿ من الله ﴾ من جهته ﴿ من شىء ﴾ أى شيئاً مما قضاه عليهم مع كونه مظنة لذلك فى بادىء الرأى حيث وصاهم به يعقوب عليه السلام وعملوا بموجبه واثقين بجدواه من فضل الله تعالى فليس المراد بيان سببية الدخول المذكور لعدم الإغناء كما فى قوله تعالى (فلما جاءهم نذير ما زادهم إلا نفورا) فإن مجىء النذير هناك سبب لزيادة نفورهم بل بيان عدم سببيته للإغناء مع كونها متوقعة فى بادىء الرأى كما فى قولك حلف أن يعطينى حقى عند حلول الأجل فلما حل لم يعطنى شيئا فإن المراد بيان عدم سببية حلول الأجل للإعطاء مع كونها مرجوة بموجب الحلف لا بيان سببيته لعدم الإعطاء فالمآل بيان عدم ترتب الغرض المقصود على التدبير المعهود مع كونه مرجو الوجود لا بيان ترتب عدمه عليه ويجوز أن يراد ذلك أيضا بناء على ما ذكره عليه السلام فى تضاعيف وصيته من أنه لا يغنى عنهم من الله شيئا فكأنه قيل ولما فعلوا ما وصاهم به لم يفد ذلك شيئا ووقع الأمر حسبما قال عليه السلام فلقوا ما لقوا فيكون من باب وقوع المتوقع فتأمل .

﴿ إلا حاجة ﴾ استثناء منقطع أى ولكن حاجة وحرازة كائنة ﴿ فى نفس يعقوب قضاها ﴾ أى أظهرها ووصاهم بها دفعا للخاطرة غير معتقد أن للتدبير تأثيرا فى تغيير التقدير وقد وجعل ضمير الفاعل فى قضاها للدخول على معنى أن ذلك الدخول قضى حاجة فى نفس يعقوب وهى إرادته أن يكون دخولهم من أبواب متفرقة فالمعنى ما كان ذلك الدخول يغنى عنهم من جهة الله تعالى شيئا ولكن قضى حاجة حاصلة فى نفس يعقوب بوقوعه حسب إرادته فالاستثناء منقطع أيضا وعلى التقديرين لم يكن للتدبير فائدة سوى دفع الخاطرة وأما إصابة العين فإنما لم تقع لكونها غير مقدرة عليهم لا لأنها اندفعت بذلك مع كونها مقضية عليهم ﴿ وإنه لذو علم ﴾ جليل ﴿ لما

علمناه ﴾ لتعليمنا إياه بالوحى ونصب الأدلة حيث لم يعتقد أن الحذر يدفع القدر وأن التدبير له حظ من التأثير حتى يتبين الخلل فى رأيه عند تخلف الأثر أو حيث بت القول بأنه لا يغنى عنهم من الله شيئا فكان الحال كما قال وفى تأكيد الجملة بأن واللام وتنكير العلم وتعليله بالتعيم المسند إلى ذاته سبحانه من الدلالة على جلالة شأن يعقوب عليه السلام وعلو مرتبة علمه وفخامتة ما لا يخفى ﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ أسرار القدر ويزعمون أنه يغنى عنه الحذر وأما ما يقال من أن المعنى لا يعلمون إيجاب الحذر مع أنه لا يغنى شيئا من القدر فيأباه مقام بيان تخلف المطلوب عن المبادىء .

﴿ ولما دخلوا على يوسف آوى إليه أخاه ﴾ بنيامين أى ضمه إليه فى الطعام أو فى المنزل أو فيهما . روى أنهم لما دخلوا عليه قالوا له هذا أخونا قد جئناك به فقال لهم أحسنتم وستجدون ذلك عندى فأكرمهم ثم أضافهم وأجلسهم مثنى مثنى فبقى بنيامين وحيدا فبكى وقال : لو كان أخى يوسف حيا لأجلسنى معه ، فقال يوسف بقى أخوكم فريدا وأجلسه معه على مائدته وجعل يؤاكله ثم أنزل كل اثنين منهم بيتا فقال هذا لا ثانى معه فيكون معى فبات يوسف يضمه إليه ويشم رائحته حتى أصبح وسأله عن ولده فقال لى عشرة بنين اشتققت أسماءهم من اسم أخ لى هلك فقال له أتحب أن أكون أخاك بدل أخيك الهالك قال من يجد أخا مثلك ولكن لم يلدك يعقوب ولا راحيل ، فبكى يوسف وقام إليه وعانقه وتعرف إليه وعند ذلك ﴿ قال إنى أنا أخوك ﴾ يوسف ﴿ فلا تبتئس ﴾ أى فلا تحزن ﴿ بما كانوا يعملون ﴾ بنا فيما مضى فإن الله تعالى قد أحسن إلينا وجمعنا بخير ولا تعلمهم بما أعلمتك قاله ابن عباس رضى الله تعالى عنهما وعن وهب أنه لم يتعرف إليه بل قال له أنا أخوك بدل أخيك المفقود ومعنى فلا تبتئس لا تحزن بما كنت تلق منهم من الحسد والأذى فقد أمنتهم وروى أنه قال له فأنا لا أفارقك قال قد علمت باغتمام والدى بى فإذا حبستك يزداد غمه ولا سبيل إلى ذلك إلا أن أنسبك إلى ما لا يجمل قال لا أبالى فافعل ما بدا لك قال أدس صاعى فى رحلك ثم أنادى عليك بأنك سرقته ليتهيأ لى ردك بعد

تسريحك معهم قال أفعل .

﴿ فلما جهزهم بجهازهم جعل السقاية ﴾ أى المشربة قيل كانت مشربة جعلت صاعا يكال به وقيل كانت تسقى بها الدواب ويكال بها الحبوب وكانت من فضة وقيل من ذهب وقيل من فضة مموهة بالذهب وقيل كانت إناء مستطيلا[1] تشبه المكوك الفارسى الذى يلتقى طرفاه يستعمله الأعاجم وقيل كانت مرصعة بالجواهر ﴿ فى رحل أخيه ﴾ بنيامين وقرىء وجعل على حذف جواب لما تقديره أمهلهم حتى انطلقوا ﴿ ثم أذن مؤذن ﴾ نادى مناد ﴿ أيتها العير ﴾ وهى الإبل التى عليها الأحمال لأنها تعير أى تذهب وتجىء وقيل هى قافلة الحمير ثم كثر حتى قيل لكل قافلة عير كأنها جمع عير وأصلها فعل مثل سقف وسقف ففعل به ما فعل ببيض وغيد والمراد أصحابها كما فى قوله عليه السلام يا خيل الله اركبى روى أنهم ارتحلوا وأمهلهم يوسف حتى انطلقوا منزلا وقيل خرجوا من العمارة ثم أمر بهم فأدركوا ونودوا ﴿ إنكم لسارقون ﴾ هذا الخطاب إن كان بأمر يوسف فلعله أريد بالسرقة أخذهم له من أبيه ودخول بنيامين فيه بطريق التغليب وإلا فهو من قبل المؤذن بناء على زعمه والأول هو الأظهر الأوفق للسياق وقرأ اليمانى سارقون بلا لام ﴿ قالوا ﴾ أى الإخوة ﴿ وأقبلوا عليهم ﴾ جملة حالية من ضمير قالوا جىء بها للدلالة على إنزعاجهم مما سمعوه لمباينته لحالهم ﴿ ماذا تفقدون ﴾ أى تعدمون تقول فقدت الشىء إذا عدمته بأن ضل عنك لا بفعلك والمآل ماذا ضاع عنكم وصيغة المستقبل لاستحضار الصورة وقرىء تفقدون من أفقدته إذا وجدته فقيدا وعلى التقديرين فالعدول عما يقتضيه الظاهر من قولهم ماذا سرق منكم لبيان كمال نزاهتهم بإظهار أنه لم يسرق منهم شىء فضلا أن يكونوا هم السارقين له وإنما الممكن أن يضيع منهم شىء فيسألونهم[2] أنه ماذا وفيه إرشاد لهم إلى مراعاة حسن الأدب والاحتراز عن المجازفة ونسبة البرآء إلى ما لا خير فيه لاسيما بطريق التوكيد فلذلك غيروا كلامهم حيث .

---

(١) فى ط : مستطيلة (٢) فى ١٠ : فيسألوهم .

﴿ قالوا ﴾ فى جوابهم ﴿ نفقد صواع الملك ﴾ ولم يقولوا سرقتموه من أو سرق وقرىء صاع وصوع وصوع وصوغ بفتح الصاد وضمها بإهمال العين وإعجامها من الصياغة ثم قالوا تربية لما تلقوه من قبلهم وإراءة لاعتقاد أنه إنما بقى فى رحلهم اتفاقا ﴿ ولمن جاء به ﴾ من عند نفسه مظهراً له قبل التفتيش ﴿ حمل بعير ﴾ من الطعام جعلا له لا على نية تحقيق الوعد لجزمهم بامتناع وجود الشرط وعزمهم على مالا يخفى من أخذ من وجد فى رحله ﴿ وأنا به زعيم ﴾ كفيل أؤديه إليه وهو قول المؤذن .

﴿ قالوا تالله ﴾ الجمهور على التاء بدل من الواو ولذلك لا تدخل إلا على الجلالة المعظمة أو الرب المضاف إلى الكعبة أو الرحمن فى قول ضعيف ولو قلت تالرحيم لم يجز وقيل من الباء وقيل أصل بنفسها وأيا ما كان ففيه تعجب ﴿ لقد علمتم ﴾ علما جازما مطابقا للواقع ﴿ ماجئنا لنفسد فى الأرض ﴾ أى لنسرق فإنه من أعظم أنواع الإفساد أو لنفسد فيها أى إفساد كان مما عز أوهان فضلا عما نسبتمونا إليه من السرقة ونفى المجىء للإفساد وإن لم يكن مستلزما لما هو مقتضى المقام من نفى الإفساد مطلقا لكنهم جعلوا المجىء الذى يترتب عليه ذلك ولو بطريق الاتفاق مجيئا لغرض الإفساد مفعولا لأجله ادعاء إظهاراً لكمال قبحه عندهم وتربية لاستحالة صدوره عنهم كما قيل فى قوله تعالى (مايبدل القول لدى وما أنا بظلام للعبيد) الدال بظاهره على نفى المبالغة فى الظلم دون نفى الظلم فى الجملة الذى هو مقتضى المقام من أن المعنى إذا عذبت من لا يستحق التعذيب كنت ظلاما مفرطا فى الظلم فكأنهم قالوا إن صدر عنا إفساد كان مجيئنا لذلك مريدين به تقبيح حاله وإظهار كمال نزاهتهم عنه يعنون أنه قد شاع بينكم فى كرتى مجيئنا مانحن عليه وقد كانوا على غاية ما يكون من الديانة والصيانة فيما يأتون ويذرون حتى روى أنهم دخلوا مصر وأفواه رواحلهم مكمومة لئلا تتناول زرعا أو طعاما لأحد وكانوا مثابرين على فنون الطاعات وعلمتم بذلك أنه لا يصدر عنا إفساد ﴿ وما كنا سارقين ﴾ أى ما كنا نوصف بالسرقة قط وإنما حكموا بعلمهم ذلك

لأن العلم بأحوالهم الشاهدة يستلزم العلم بأحوالهم الغائبة وإنما لم يكتفوا بنفى الأمرين المذكورين بل استشهدوا بعلمهم بذلك إلزاما للحجة عليهم وتحقيقا للتعجب المفهوم من تاء القسم .

﴿ قالوا ﴾ أى أصحاب يوسف عليه السلام ﴿ فما جزاؤه ﴾ الضمير للصواع على حذف المضاف أى فما جزاء سرقته عندكم وفى شريعتكم ﴿ إن كنتم كاذبين ﴾ لا فى دعوى البراءة عن السرقة فإنهم صادقون فيها بل فيما يستلزمه ذلك من نفى كون الصواع فيهم كما يؤذن به قوله عز وجل ﴿ قالوا جزاؤه من وجد ﴾ أى أخذ من وجد الصواع ﴿ فى رحله ﴾ حيث ذكر بعنوان الوجدان فى الرحل دون عنوان السرقة وإن كان ذلك مستلزما لها فى اعتقادهم المبنى على قواعد العادة ولذلك أجابوا بما أجابوا فإن الأخذ والاسترقاق سنة إنما هو جزاء السارق دون من وجد فى يده مال غيره كيفما كان فتأمل واحمل كلام كل فريق على مالا يزاحم رأيه فإنه أقرب إلى معنى الكيد وأبعد من الافتراء وقوله تعالى ﴿ فهو جزاؤه ﴾ تقرير لذلك الحكم أى فأخذه جزاؤه كقولك حق الضيف أن يكرم فهو حقه ويجوز أن يكون جزاؤه مبتدأ والجملة الشرطية كما هى خبره على إقامة الظاهر مقام المضمر والأصل جزاؤه من وجد فى رحله فهو على أن الأول لمن والثانى للظاهر الذى وضع موضعه ﴿ كذلك ﴾ أى مثل ذلك الجزاء الأوفى ﴿ نجزى الظالمين ﴾ بالسرقة تأكيد للحكم المذكور غب تأكيد وبيان لقبح السرقة ولقد فعلوا ذلك ثقة بكمال براءتهم عنها وهم عما فعل بهم غافلون.

﴿ فبدأ ﴾ يوسف بعد ما رجعوا إليه للتفتيش ﴿ بأوعيتهم ﴾ بأوعية الإخوة العشرة أى بتفتيشها ﴿ قبل ﴾ تفتيش ﴿ وعاء أخيه ﴾ بنيامين لنفى التهمة . روى أنه لما بلغت النوبة إلى وعائه قال ما أظن هذا أخذ شيئاً فقالوا والله لانتركك حتى تنظر فى رحله فإنه أطيب لنفسك وأنفسنا ﴿ ثم استخرجها ﴾ أى السقاية أو الصواع فإنه يذكر ويؤنث ﴿ من وعاء أخيه ﴾ لم يقل منه على رجع الضمير إلى الوعاء أو من وعائه على رجعه إلى أخيه قصدا إلى زيادة كشف

وبيان وقرىء بضم الواو بقلبها همزة كما فى أشاح فى وشاح ﴿ كذلك ﴾ نصب على المصدرية والكاف مقحمة للدلالة على فخامة المشار إليه وكذا مافى ذلك من معنى البعد أى مثل ذلك الكيد العجيب وهو عبارة عن إرشاد الإخوة إلى الإفتاء المذكور بإجرائه على ألسنتهم وبحملهم عليه بواسطة المستفتين من حيث لم لم يحتسبوا فمعنى قوله عز وجل ﴿ كدنا ليوسف ﴾ صنعنا له ودبرنا لأجل تحصيل غرضه من المقدمات التى رتبها من دس الصواع ومايتلوه فاللام ليست كما فى قوله (فيكيدوا لك كيدا) فإنها داخلة على المتضرر على ما هو الاستعمال الشائع وقوله تعالى .

﴿ ما كان ليأخذ أخاه فى دين الملك ﴾ استئناف وتعليل لذلك الكيد وصنعه لا تفسير وبيان له كما قيل كأنه قيل لماذا فعل ذلك فقيل لأنه لم يكن ليأخذ أخاه بما فعله فى دين الملك فى أمر السارق أى فى سلطانه قاله ابن عباس أو فى حكمه وقضائه قاله قتادة إلا به لأن جزاء السارق فى دينه إنما كان ضربه وتغريمه ضعف ما أخذ دون الاسترقاق والاستعباد كما هو شريعة يعقوب عليه السلام فلم يكن يتمكن بما صنعه من أخذ أخيه بالسرقة التى نسبها إليه فى حال من الأحوال ﴿ إلا أن يشاء الله ﴾ أى إلا حال مشيئته التى هى عبارة عن إرادته لذلك الكيد أو إلا حال مشيئته للأخذ بذلك الوجه ويجوز أن يكون الكيد عبارة عنه وعن مباديه المؤدية إليه جميعا من إرشاد يوسف وقومه إلى ماصدر عنهم من الأفعال والأقوال حسبما شرح مرتبا لكن لا على أن يكون القصر المستفاد من تقديم المجرور مأخوذا بالنسبة إلى غيره مطلقا على معنى مثل ذلك الكيد كدنا لا كيدا آخر إذ لامعنى لتعليله بعجز يوسف عن أخذ أخيه فى دين الملك فى شأن السارق قطعا إذ لاعلاقة بين مطلق الكيد ودين الملك فى أمر السارق أصلا بالنسبة إلى بعضه على معنى مثل ذلك الكيد البالغ إلى هذا الحد كدنا له ولم نكتف ببعض من ذلك لأنه لم يكن يأخذ أخاه فى دين الملك به إلا حال مشيئتنا له بإيجاد مايجرى مجرى الجزء الصورى من العلة التامة وهو وهو إرشاد إخوته إلى الإفتاء المذكور وعلى هذا ينبغى أن يحمل القصر فى تفسير من فسر قوله تعالى

(كدنا ليوسف) بقوله علمناه إياه وأوحينا به إليه أى مثل ذلك التعليم المستتبع لما شرح مرتبا علمناه دون بعض من ذلك فقط الخ وعلى كل حال فالاستثناء من أعم الأحوال كما أشير إليه ويجوز أن يكون من أعم العلل والأسباب أى لم يكن يأخذ أخاه لعلة من العلل أو بسبب من الأسباب إلا لعلة مشيئته تعالى أو إلا بسبب مشيئته تعالى وأياما كان فهو متصل لأن أخذ السارق إذا كان ممن يرى ذلك ويعتقده دينا لاسيما عند رضاه وإفتائه به ليس مخالفا لدين الملك وقد قيل معنى الاستثناء إلا أن يشاء الله أن يجعل ذلك الحكم حكم الملك وأنت تدرى أن المراد بدينه ماعليه حينئذ فتغييره مخل بالاتصال وإرادة مطلق مايتدين به أعم منه ومما يحدث تفضى إلى كون الاستثناء من قبيل التطبيق بالمحال إذ المقصود بيان عجز يوسف عليه السلام عن أخذ أخيه حينئذ ولم تتعلق المشيئة بالجعل المذكور اذ ذاك واردة عجزه مطلقا تؤدى إلى خلاف المراد فإن استثناء حال المشيئة المذكورة من أحوال عجزه عليه السلام مما يشعر بعدم الحاجة إلى الكيد المذكور فتدبر وقد جوز الانقطاع أى لكن أخذه بمشيئة الله تعالى واذنه فى دين غير دين الملك .

﴿ نرفع درجات ﴾ أى رتبا كثيرة عالية من العلم وانتصابها على المصدرية أو الظرفية أو على نزع الخافض أى درجات والمفعول قوله تعالى ﴿من نشاء ﴾ أى نشاء رفعه حسبما تقتضيه الحكمة وتستدعيه المصلحة كما رفعنا يوسف وإيثار صيغة الاستقبال للإشعار بأن ذلك سنة مستمرة غير مختصة بهذه المادة والجملة مستأنفة لامحل لها من الإعراب ﴿ وفوق كل ذى علم ﴾ من أولئك المرفوعين ﴿ عليم ﴾ لاينالون شأوه واعلم أنه أن جعل الكيد عبارة عن المعنيين الأولين فالمراد برفع يوسف عليه السلام ما اعتبر فيه بالشرطية أو الشطرية من ارشاده عليه السلام الى دس الصواع فى رحل أخيه وما يتفرع عليه من المقدمات المرتبة لاستبقاء أخيه مما يتم من قبله والمعنى أرشدنا أخوته الى الإفتاء المذكور لأنه لم يكن متمكنا من أخذ أخيه بدونه او أرشدنا كلا منهم ومن يوسف وأصحابه

ما صدر عنهم ولم نكتف بما تم من قبل يوسف فقط لأنه لم يكن متمكنا من أخذ أخيه بذلك فقوله تعالى (نرفع درجات إلى قوله تعالى عليم) توضيح لذلك على معنى أن الرفع المذكور لا يوجب تمام مرامه إذ ليس ذلك بحيث لا يعزب عن علمه شيء بل إنما نرفع كل من نرفع حسب استعداده وفوق كل واحد منهم عليم لا يقادر علمه ولا يكتنه كنهه يرفع كلا منهم إلى ما يليق به من معارج العلم ومدارجه وقد رفع يوسف إلى ما يليق به من الدرجات العالية وعلم أن ما حواه دائرة علمه لا يفى بمرامه فأرشد اخوته إلى الإفتاء المذكور فكان ما كان وكأنه عليه السلام لم يكن على يقين من صدور الإفتاء المذكور عن إخوته وإن كان على طمع منه فإن ذلك إلى الله عز وجل وجودا وعلما والتعرض لوصف العلم لتعيين جهة الفوقية وفى صيغة المبالغة مع التنكير والالتفات إلى الغيبة من الدلالة على فخامة شأنه عز وعلا وجلالة مقدار علمه المحيط ما لا يخفى وأما أن جعل عبارة عن التعليم المستتبع للإفتاء المذكور فالرفع عبارة عن ذلك التعليم والإفتاء وإن لم يكن داخلا تحت قدرته عليه السلام لكنه كان داخلا تحت علمه بواسطة الوحى والتعليم والمعنى مثل ذلك التعليم البالغ إلى هذا الحد علمناه ولم نقتصر على تعليم ما عدا الإفتاء الذى سيصدر عن آخرته إذ لم يكن متمكنا من أخذ أخيه الا بذلك فقوله (نرفع درجات من نشاء) توضيح لقوله كدنا وبيان لأن ذلك من باب الرفع الى الدرجات العالية من العلم ومدح ليوسف برفعه اليها وقوله وفوق كل ذى علم عليم تذييل له أى نرفع درجات عالية من العلم من نشاء رفعه وفوق كل منهم عليم هو أعلى درجة قال ابن عباس رضى الله عنهما فوق كل عالم عالم الى أن ينتهى العلم الى الله تعالى والمعنى ان أخوة يوسف عليه السلام كانوا علماء الا أن يوسف عليه السلام أفضل منهم وقرىء درجات من نشاء بالإضافة والأول أنسب بالتذييل حيث نسب فيه الرفع الى من نسب اليه الفوقية لا الى درجته ويجوز أن يكون العليم فى هذا التفسير أيضا عبارة عن الله عز وجل أى وفوق كل من أولئك المرفوعين عليم يرفع كلا منهم الى درجته اللائقة به والله تعالى أعلم.

﴿ قالوا إن يسرق ﴾ يعنون بنيامين ﴿ فقد سرق أخ له من قبل ﴾ يريدون به يوسف عليه السلام وما جرى عليه من جهة عمته على ما قيل من أنها كانت تحضنه فلما شب أراد يعقوب عليه السلام انتزاعه منها وكانت لا تصبر عنه ساعة وكانت لها منطقة ورثتها من أبيها إسحق عليه السلام فاحتالت لاستبقاء يوسف عليه السلام فعمدت إلى المنطقة فحزمتها عليه من تحت ثيابه ثم قالت فقدت منطقة إسحق عليه السلام فانظروا من أخذها فوجدوها محزومة على يوسف فقالت إنه لى سلم أفعل به ما أشاء فخلاه يعقوب عليه السلام عندها حتى ماتت وقيل كان أخذ فى صباه صنما لأبى أمه فكسره وألقاه فى الجيف وقيل دخل كنيسة فأخذ تمثالا صغيرا من ذهب كانوا يعبدونه فدفنه ﴿ فأسرها يوسف ﴾ أى أكن الحزازة الحاصلة مما قالوا ﴿ فى نفسه ﴾ لا أنه أسرها لبعض أصحابه كما فى قوله تعالى (وأسررت لهم إسرارا) ﴿ ولم يبدها لهم ﴾ لا قولا ولا فعلا صفحا عنهم وحلما وهو تأكيد لما سبق .

﴿ قال ﴾ أى فى نفسه وهو استئناف مبنى على سؤال نشأ من الإخبار بالإسرار المذكور كأنه قيل فماذا قال فى نفسه فى تضاعيف ذلك الإسرار فقيل قال ﴿ أنتم شر مكانا ﴾ أى منزلة حيث سرقتم أخاكم من أبيكم ثم طفقتم تفترون على البرىء وقيل بدل من أسرها والضمير للمقالة المفسرة بقوله (أنتم شر مكانا) ﴿ والله أعلم بما تصفون ﴾ أى عالم علما بالغا إلى أقصى المراتب بأن الأمر ليس كما تصفون من صدور السرقة منا بل إنما هو افتراء علينا فالصيغة لمجرد المبالغة لا لتفضيل علمه عز وجل على علمهم كيف لا وليس لهم بذلك من علم ﴿ قالوا ﴾ عندما شاهدوا مخايل أخذ بنيامين مستعطفين ﴿ يا أيها العزيز إن له أبا ﴾ لم يريدوا بذلك الإخبار بأن له أبا فإن ذلك معلوم مما سبق وإنما أرادوا الإخبار بأن له أبا ﴿ شيخا كبيرا ﴾ فى السن لا يكاد يستطيع فراقه وهو علالة به يتعلل عن شقيقه الهالك ﴿ فخذ أحدنا مكانه ﴾ فلسنا عنده بمنزلته من المحبة والشفقة ﴿ إنا نراك من المحسنين ﴾ إلينا فأتمم إحسانك بهذه التتمة أو المتعودين بالإحسان فلا تغير عادتك .

﴿ قال معاذ الله ﴾ أى نعوذ بالله معاذا من ﴿أن نأخذ﴾ لحذف الفعل وأقيم مقامه المصدر مضافا إلى المفعول به بعد حذف الجار ﴿ إلا من وجدنا متاعنا عنده ﴾ لأن أخذنا له إنما هو بقضية فتواكم فليس لنا الإخلال بموجبها وإيثار صيغة التكلم مع الغير مع كون الخطاب من جانب إخوته على التوحيد من باب السلوك إلى سنن الملوك أو للإشعار بأن الأخذ والإعطاء ليس مما يستبد به بل هو منوط بآراء أولى الحل والعقد وإيثار من وجدنا متاعنا عنده دون من سرق متاعنا لتحقيق الحق والاحتراز عن الكذب فى الكلام مع تمام المرام فإنهم لا يحملون وجدان الصواع فى الرحل على محمل غير السرقة ﴿ إنا إذاً ﴾ أى إذا أخذنا غير من وجدنا متاعنا عنده ولو برضاه ﴿ لظالمون ﴾ فى مذهبكم وما لنا ذلك هذا المعنى هو الذى أريد بالكلام فى أثناء الحوار وله معنى باطن هو أن الله عز وجل إنما أمرنى بالوحى أن آخذ بنيامين لمصالح علمها الله فى ذلك فلو أخذت غيره كنت ظالما وعاملا بخلاف الوحى .

﴿فلما استيأسوا منه﴾أى يئسوا من يوسف وإجابته لهم أشد يأس بدلالة صيغة الاستفعال وإنما حصلت لهم هــذه المرتبة من اليأس لما شاهدوه من عوذه [1] بالله مما طلبوه الدال على كون ذلك عنده فى أقصى مراتب الكراهة وأنه مما يجب أن يحترز عنه ويعاذ منه بالله عز وجل ومن تسميته ظلما بقوله (إنا إذاً لظالمون) ﴿خلصوا﴾ اعتزلوا وانفردوا عن الناس ﴿نجيا ﴾ أى ذوى نجوى على أن يكون بمعنى النجوى والتناجى أو فوجا نجيا على أن يكون بمعنى المناجى كالعشير والسمير بمعنى المعاشر والمسامر ومنه قوله تعالى (وقربناه نجيا) ويجوز أن يقال هم نجى كما يقال هم صديق لأنه بزنة المصادر من الزفير والزئير ﴿ قال كبيرهم ﴾ فى السن وهو روبيل أو فى العقل وهو يهوذا أو رئيسهم وهو شمعون ﴿ ألم تعلموا﴾ كأنهم أجمعوا عند التناجى على الانقلاب جملة ولم يرض به فقال منكرا عليهم ألم تعلموا ﴿ أن أباكم قد أخذ عليكم موثقا من الله ﴾

---

(١) فى ٤٣٠ : تعوذه بالله .

عهدا يوثق به وهو حلفهم بالله تعالى وكونه من الله لإذنه فيه وكون الحلف باسمه الكريم ﴿ومن قبل﴾ أى ومن قبل هذا ﴿ما فرطتم فى يوسف﴾ قصرتم فى شأنه ولم تحفظوا عهد أبيكم وقد قلتم : وإنا له لناصحون ، وإنا له لحافظون ، وما مزيدة أو مصدرية ومحل المصدر النصب عطفا على مفعول تعلموا أى ألم تعلموا أخذ أبيكم عليكم موثقا وتفريطكم السابق فى شأن يوسف عليه السلام ولا ضير فى الفصل بين العاطف والمعطوف بالظرف وقد جوز النصب عطفا على اسم أن والخبر فى يوسف أو من قبل على معنى ألم تعلموا أن تفريطكم السابق وقع فى شأن يوسف عليه السلام أو أن تفريطكم الكائن أو كائنا فى شأن يوسف عليه السلام وقع من قبل وفيه أن مقتضى المقام إنما هو الإخبار بوقوع ذلك التفريط لا بكون تفريطهم السابق واقعا فى شأن يوسف كما هو مفاد الأول ، ولا بكون تفريطهم الكائن فى شأنه واقعا من قبل كما هو مفاد الثانى على أن الظرف المقطوع عن الإضافة لا يقع خبرا ولا صفة ولا صلة ولا حالا عند البعض كما تقرر فى موضعه وقيل محله الرفع على الابتداء والخبر من قبل وفيه ما فيه وقيل ماموصولة أو موصوفة ومحلها النصب أو الرفع والحق هو النصب عطفا على مفعول تعلموا أى ما فرطتموه بمعنى قدمتموه فى حقه من الخيانة وأما النصب عطفا على اسم أن أو الرفع على الابتداء فقد عرفت حاله ﴿فلن أبرح الأرض﴾ متفرع على ما ذكره وذكره إياهم من ميثاق أبيه وقوله (لتأتننى به إلا أن يحاط بكم) أى فلن أفارق أرض مصر جاريا على قضية الميثاق ﴿حتى يأذن لى أبى﴾ فى البراح بالانصراف إليه وكان أيمانهم كانت معقودة على عدم الرجوع بغير إذن يعقوب عليه السلام ﴿أو يحكم الله لى﴾ بالخروج منها على وجه لايؤدى إلى نقض الميثاق أو بخلاص أخى بسبب من الأسباب . روى أنهم كلموا العزيز فى إطلاقه فقال روبيل أيها الملك لتردن إلينا أخانا أو لأصيحن صيحة لاتبقى بمصر حامل إلا ألقت ولدها ووقفت كل شعرة فى جسده فخرجت من ثيابه وكان بنى يعقوب إذا غضبوا لا يطاقون خلا أنه إذا مس من غضب واحد منهم سكن غضبه فقال يوسف لابنه قم إلى جنبه فمسه فمسه فقال

روبيل من هذا إن فى هذا البلد بذرا من بذر يعقوب ﴿ وهو خير الحاكمين ﴾ إذ لا يحكم إلا بالحق والعدل .

﴿ ارجعوا ﴾ أنتم ﴿ إلى أبيكم فقولوا يا أبانا إن ابنك سرق ﴾ على ظاهر الحال وقرىء سرق أى نسب إلى السرقة ﴿وما شهدنا﴾ عليه ﴿ إلا بما علمنا ﴾ وشاهدنا أن الصواع استخرجت من وعائه ﴿ وما كنا للغيب ﴾ أى باطن الحال ﴿حافظين﴾ فما ندرى أن حقيقة الأمر كما شاهدنا أم بخلافه أو وما كنا عالمين حين أعطيناك الموثق أنه سيسرق أو أن نلاقى هذا الأمر أو أنك تصاب به كما أصبت بيوسف ﴿ واسأل القرية التى كنا فيها ﴾ أى مصر أو قرية بقربها لحقهم المنادى عندها أى أرسل إلى أهلها واسألهم عن القصة ﴿ والعير التى أقبلنا فيها ﴾ أى أصحابها فإن القصة معروفة فيما بينهم وكانوا قوما من كنعان من جيران يعقوب عليه السلام وقيل من صنعاء ﴿ وإنا لصادقون ﴾ تأكيد فى محل القسم ﴿ قال ﴾ أى يعقوب عليه السلام وهو استئناف مبنى على سؤال نشأ مما سبق فكأنه قيل فماذا كان عند قول المتوقف لإخوته ما قال فقيل قال يعقوب عندما رجعوا إليه فقالوا له ما قالوا وإنما حذف للإيذان بأن مسارعتهم إلى قبوله ورجوعهم به إلى أبيهم أمر مسلم غنى عن البيان وإنما المحتاج إليه جواب أبيهم ﴿ بل سولت ﴾ أى زينت وسهلت وهو إضراب لا عن صريح كلامهم فإنهم صادقون فى ذلك بل عما يتضمنه من ادعاء البراءة عن التسبب فيما نزل به وأنه لم يصدر عنهم مايؤدى إلى ذلك من قول أو فعل كأنه قيل لم يكن الأمر كذلك بل زينت ﴿لكم أنفسكم أمرا﴾ من الأمور فأتيتموه يريد بذلك فتياهم بأخذ السارق بسرقته ﴿ فصبر جميل ﴾ أى فأمرى صبر جميل أو فصبر جميل أجمل ﴿ عسى الله أن يأتينى بهم جميعا ﴾ بيوسف وأخيه والمتوقف بمصر ﴿ إنه هو العليم ﴾ بحالى وحالهم ﴿ الحكيم ﴾ الذى لم يبتلنى إلا لحكمة بالغة .

﴿ وتولى ﴾ أى أعرض ﴿ عنهم ﴾ كراهة لما سمع منهم ﴿ وقال يا أسفا على يوسف ﴾ الأسف أشد الحزن والحسرة أضافه إلى نفسه والألف بدل من الياء فناداه أى يا أسفى تعالى فهذا أوانك وإنما تأسف على يوسف مع أن الحادث

حصية أخويه لأن رزأه كان قاعدة الأرزاء غضا عنده وإن تقادم عهده آخذا بمجامع قلبه لا ينساه ولأنه كان واثقا بحياتهما عالما بمكانهما طامعا فى إيابهما وأما يوسف فلم يكن فى شأنه ما يحرك سلسلة رجائه سوى رحمة الله وفضله وفى الخبر لم تعط أمة من الأمم إنا لله وإنا إليه راجعون إلا أمة محمد عليه الصلاة والسلام ألا يرى إلى يعقوب حين أصابه ما أصابه لم يسترجع بل قال ما قال والتجانس بين لفظى الأسف ويوسف مما يزيد النظم الكريم بهجة كما فى قوله عز وجل (وهم ينهون عنه وينأون عنه) وقوله (اثاقلتم إلى الأرض أرضيتم) وقوله (ثم كلى من كل الثمرات) (وجئتك من سبأ بنبأ يقين) ونظائرها ﴿وابيضت عيناه من الحزن﴾ الموجب للبكاء فإن العبرة إذا كثرت محقت سواد العين وقلبته إلى بياض كدر قيل قد عمى بصره وقيل كان يدرك إدراكا ضعيفا . روى أنه ما جفت عينا يعقوب من يوم فراق يوسف إلى حين لقائه ثمانين عاما وما على وجه الأرض أكرم على الله عز وجل من يعقوب عليه السلام وعن رسول الله صلى عليه وسلم أنه سأل جبريل عليه السلام ما بلغ من وجد يعقوب عليه السلام على يوسف قال وجد سبعين ثكلى قال فما كان له من الأجر قال أجر مائة شهيد وما ساء ظنه بالله ساعة قط وفيه دليل على جواز التأسف والبكاء عند النوائب فإن الكف عن ذلك مما لا يدخل تحت التكليف فإنه قل من يملك نفسه عند الشدائد ولقد بكى رسول الله صلى الله عليه وسلم على ولده إبراهيم وقال القلب يحزن والعين تدمع ولا نقول ما يسخط الرب وإنا عليك يا إبراهيم لمحزونون وإنما الذى لا يجوز ما يفعله الجهلة من الصياح والنياحة ولطم الخدود والصدور وشق الجيوب وتمزيق الثياب وعلى النبى عليه السلام أنه بكى على ولد بعض بناته وهو يجود بنفسه فقيل يا رسول الله تبكى وقد نهيتنا عن البكاء فقال ما نهيتكم عن البكاء وإنما نهيتكم عن صوتين أحمقين صوت عند الفرح وصوت عند الترح ﴿فهو كظيم﴾ مملوء من الغيظ على أولاده ممسك له فى قلبه لا يظهره فعيل بمعنى مفعول بدليل قوله تعالى (وهو مكظوم) من كظم السقاء إذا شده على ملئه أو بمعنى فاعل كقوله والكاظمين الغيظ من كظم الغيظ إذا اجترعه وأصله كظم البعير جرته إذا ردها فى جوفه .

﴿ قالوا تالله تفتأ ﴾ أى لا تفتأ ولا تزال ﴿ تذكر يوسف ﴾ تفجعا عليه فحذف النفى كما فى قوله :

* فقلت يمين الله أبرح قاعدا *

لعدم الالتباس بالإثبات فإن القسم إذا لم يكن معه علامة الإثبات يكون على النفى البتة ﴿ حتى تكون حرضا ﴾ مريضا مشفيا على الهلاك وقيل الحرض من أذابه هم أو مرض وهو فى الأصل مصدر ولذلك لا يؤنث ولا يثنى ولا يجمع والنعت منه بالكسر كدنف وقد قرىء به وبضمتين كجنب وغرب ﴿ أو تكون من الهالكين ﴾ أى الميتين ﴿ قال إنما أشكو بثى ﴾ البث أصعب الهم الذى لا يصبر عليه صاحبه فيبثه إلى الناس أى ينشره فكأنهم قالوا له ماقالوا بطريق التسلية والإشكاء فقال لهم إنى لا أشكو مابى إليكم أو إلى غيركم حتى تتصدوا لتسليتى وإنما أشكو همى ﴿ وحزنى إلى الله ﴾ تعالى ملتجئا إلى جنابه متضرعا لدى بابه فى دفعه وقرىء بفتحتين وضمتين ﴿ وأعلم من الله مالا تعلمون ﴾ من لطفه ورحمته فأرجو أن يرحمنى ويلطف بى ولا يخيب رجائى أو أعلم وحيا أو إلهاما من جهته مالاتعلمون من حياة يوسف . قيل رأى ملك الموت فى المنام فسأله عنه فقال هو حى وقيل علم من رؤيا يوسف عليه السلام أنه يسخر له أبواه وإخوته سجدا .

﴿ يا بنى اذهبوا فتحسسوا ﴾ أى تعرفوا وهو تفعل من الحس وقرىء بالجيم من الجس وهو الطلب أى تطلبوا ﴿ من يوسف وأخيه ﴾ أى من خبرهما ولم يذكر الثالث لأن غيبته اختيارية لا يعسر إزالتها ﴿ ولا تيأسوا من روح الله ﴾ لا تقنطوا من فرجه وتنفيسه وقرىء بضم الراء أى من رحمته التى يحيى بها العباد وهذا إرشاد لهم إلى بعض ما أبهم فى قوله وأعلم من الله مالا تعلمون ثم حذرهم عن ترك العمل بموجب نهيه بقوله : ﴿ إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون ﴾ لعدم علمهم بالله تعالى وصفاته فإن العارف

لا يقنط فى حال من الأحوال ﴿ فلما دخلوا عليه ﴾ أى على يوسف بعد ما رجعوا إلى مصر بموجب أمر أبيهم وإنما لم يذكر ذلك إيذانا بمسارعتهم إلى ما أمروا به وإشعارا بأن ذلك أمر محقق لا يفتقر إلى الذكر والبيان ﴿ قالوا يا أيها العزيز ﴾ أى الملك القادر المتمنع ﴿ مسنا وأهلنا الضر ﴾ الهزال من شدة الجوع ﴿ وجئنا ببضاعة مزجاة ﴾ مدفوعة يدفعها كل تاجر رغبة عنها واحتقارا لها من أزجيته إذا دفعته وطردته والريح تزجى السحاب قيل كانت بضاعتهم من متاع الأعراب صوفا وسمنا وقيل الصنوبر وحبة الخضراء وقيل سويق المقل والأقط وقيل دراهم زيوفا لا تؤخذ إلا بوضيعة وإنما قدموا ذلك ليكون ذريعة إلى إسعاف مرامهم ببعث الشفقة وهو العطف والرأفة وتحريك سلسلة المرحمة .

ثم قالوا ﴿ فأوف لنا الكيل ﴾ أى أتممه لنا ﴿ وتصدق علينا ﴾ برد أخينا إلينا قاله الضحاك وابن جريج وهو الأنسب بحالهم نظرا إلى أمر أبيهم .

أو بالإيفاء أو بالمسامحة وقبول المزجاة أو بالزيادة على ما يساويها تفضلا وإنما سموه تصدقا تواضعا أو أرادوا التصدق فوق ما يعطيهم بالثمن بناء على اختصاص حرمة الصدقة بنبينا عليه الصلاة والسلام وإنما لم يبدأوا بما أمروا به استجلابا للرأفة وللشفقة ليبعثوا بما قدموا من رقة الحال رقة القلب والحنو على أن ما ساقوه كلام ذو وجهين فإن قولهم وتصدق علينا ﴿ إن الله يجزى المتصدقين ﴾ يحتمل الحمل على المحملين فلعله عليه السلام حمله على المحمل الأول ولذلك ﴿ قال ﴾ مجيبا عما عرضوا به وضمنوه كلامهم من طلب رد أخيهم ﴿ هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه ﴾ وكان الظاهر أن يتعرض لما فعلوا بأخيه فقط وإنما تعرض لما فعلوا بيوسف لاشتراكهما فى وقوع الفعل عليهما . فإن المراد بذلك إفرادهم له عن يوسف وإذلاله بذلك حتى كان لا يستطيع أن يكلمهم إلا بعجز وذلة أى هل تبتم عن ذلك بعد علمكم بقبحه فهو سؤال عن الملزوم

والمراد لازمه ﴿ إذ أنتم جاهلون ﴾ بقبحه فلذلك أقدمتم على ذلك أو جاهلون عاقبته وإنما قاله نصحا لهم وتحريضا على التوبة وشفقة عليهم لما رأى عجزهم وتمسكنهم لامعاتبة وتثريباً ويجوزأن يكون هذا الكلام منه عليه السلام منقطعا عن كلامهم وتنبيها لهم على ماهو حقهم ووظيفتهم من الإعراض عن جميع المطالب والتمحض فى طلب بنيامين بل يجوز أن يقف عليه السلام بطريق الوحى أوالإلهام على وصية أبيه وإرساله إياهم للتحسس منه ومن أخيه فلما رآهم قد اشتغلوا عن ذلك قال ما قال وقيل أعطوه كتاب يعقوب عليه السلام وقد كتب فيه كتاب من يعقوب إسرائيل الله بن إسحق ذبيح الله بن إبراهيم خليل الله إلى عزيز مصر أما بعد فإنا أهل بيت موكل بنا البلاء أما جدى فشدت يداه ورجلاه فرمى به فى النار فنجاه الله تعالى وجعلت النار له بردا وسلاما وأما أبى فوضع السكين على قفاه ليقتل ففداه الله تعالى وأما أنا فكان لى ابن وكان أحب أولادى إلى فذهب به إخوته إلى البرية ثم أتونى بقميصه ملطخا بالدم فقالوا قد أكله الذئب فذهبت عيناى من بكائى عليه ثم كان لى ابن وكان أخاه من أمه وكنت أتسلى به فذهبوا به ثم رجعوا وقالوا إنه سرق وأنك حبسته وإنا أهل بيت لا نسرق ولا نلد سارقا فإن رددته على وإلا دعوت عليك دعوة تدرك السابع من ولدك والسلام فلما قرأه لم يتمالك وعيل صبره فقال لهم ماقال وقيل لما قرأه بكى وكتب الجواب اصبر كما صبروا تظفر كما ظفروا .

﴿ قالوا أئنك لأنت يوسف ﴾ استفهام تقرير ولذلك أكدوه بأن واللام قالوه استغرابا وتعجبا وقرىء إنك بالإيجاب قيل عرفوه بروائه وشمائله حين كلمهم به وقيل تبسم فعرفوه بثناياه وقيل رفع التاج عن رأسه فرأوا علامة بقرنه تشبه الشامة البيضاء وكان لسارة ويعقوب مثلها وقرى أإنك أو أنت يوسف على معنى أئنك يوسف أو أنت يوسف لحذف الأول لدلالة الثانى عليه وفيه زيادة استغراب ﴿ قال أنا يوسف ﴾ جوابا عن مسألتهم وقد زاد عليه قوله ﴿ وهذا أخى ﴾ أى من أبوى مبالغة فى تعريف نفسه وتفخيما لشأن أخيه وتكملة لما أفاده قوله هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه حسبما يفيده قوله

﴿قد من الله علينا﴾ فكأنه قال هل علمتم ما فعلتم بنا من التفريق والإذلال فأنا يوسف وهذا أخي قد من الله علينا بالخلاص عما ابتلينا به والاجتماع بعد الفرقة والعزة بعد الذلة والأنس بعد الوحشة ولا يبعد أن يكون فيه إشارة إلى الجواب عن طلبهم لرد بنيامين بأنه أخي لا أخوكم فلا وجه لطلبكم ثم علل ذلك بطريق الاستئناف التعليلي بقوله ﴿إنه من يتق﴾ أي يفعل التقوى في جميع أحواله أو يق نفسه عما يوجب سخط الله تعالى وعذابه ﴿ويصبر﴾ على المحن أو على مشقة الطاعات أو عن المعاصي التي تستلذها النفس ﴿فإن الله لا يضيع أجر المحسنين﴾ أي أجرهم وإنما وضع المظهر موضع المضمر تنبيها على أن المنعوتين بالتقوى والصبر موصوفون بالإحسان .

﴿قالوا تالله لقد آثرك الله علينا﴾ اختارك وفضلك علينا بما ذكرت من النعوت الجليلة ﴿وإن كنا﴾ وإن الشأن كنا ﴿لخاطئين﴾ لمتعمدين للذنب إذ فعلنا بك مافعلنا ولذلك أعزك وأذلنا ، وفيه إشعار بالتوبة والاستغفار ولذلك ﴿قال لاتثريب﴾ أي لا عتب ولا تأنيب ﴿عليكم﴾ وهو تفعيل من الثرب وهو الشحم الغاشي للكرش ومعناه إزالته كما أن التجليد إزالة الجلد والتقريع إزالة القرع لأنه إذا ذهب كان ذلك غاية الهزال فضرب مثلا للتقريع الذي يذهب بماء الوجوه وقوله عز وعلا ﴿اليوم﴾ منصوب بالتثريب أو بالمقدر خبرا للا أي لا أثر بكم أو لا تثريب مستقر عليكم اليوم الذي هو مظنة له فما ظنكم بسائر الأيام أو بقوله ﴿يغفر الله لكم﴾ لأنه حينئذ صفح عن جريمتهم وعفا عن جريرتهم بما فعلوا من التوبة ﴿وهو أرحم الراحمين﴾ يغفر الصغائر والكبائر ويتفضل على التائب بالقبول ومن كرمه عليه الصلاة والسلام أن اخوته أرسلوا إليه إنك تدعونا إلى طعامك بكرة وعشيا ونحن نستحيي منك بما فرط منا فيك فقال عليه الصلاة والسلام إن أهل مصر وإن ملكت فيهم كانوا ينظرون إلى بالعين الأولى ويقولون سبحان من بلغ عبدا بيع بعشرين درهما ما بلغ ولقد شرفت بكم الآن وعظمت في العيون حيث علم الناس أنكم إخوتي وأني من حفدة إبراهيم عليه السلام .

﴿ اذهبوا بقميصى هذا ﴾ قيل هو الذى كان عليه حينئذ وقيل هو القميص المتوارث الذى كان فى التعويذ أمره جبريل بإرساله إليه وأوحى إليه أن فيه ريح الجنة لا يقع على مبتلى إلا عوفى ﴿ فألقوه على وجه أبى يأت بصيرا ﴾ يكن بصيرا أو يأت إلى بصيرا وينصره قوله ﴿ وائتونى بأهلكم أجمعين ﴾ أى بأبى وغيره ممن ينتظمه لفظ الأهل جميعا من النساء والذرارى . قيل إنما حمل القميص يهوذا وقال أنا أحزنته بحمل القميص ملطخا بالدم إليه فأفرحه كما أحزنته وقيل حمله وهو حاف حاسر من مصر إلى كنعان وبينهما مسيرة ثمانين فرسخا ﴿ ولما فصلت العير ﴾ خرجت من عريش مصر يقال فصل من البلد فصولا إذا انفصل منه وجاوز حيطانه وقرأ ابن عباس رضى الله تعالى عنهما انفصل العير ﴿ قال أبوهم ﴾ يعقوب عليه الصلاة والسلام لمن عنده ﴿ إنى لأجد ريح يوسف ﴾ أوجده الله سبحانه ما عبق بالقميص من ريح يوسف من ثمانين فرسخا حين أقبل به يهوذا ﴿ لولا أن تفندون ﴾ أى تنسبونى إلى الفند وهو الخرف وإنكار العقل وفساد الرأى من هرم يقال شيخ مفند ولا يقال عجوز مفندة إذ لم تكن فى شبيبتها ذات رأى فتفند فى كبرها وجواب لولا محذوف أى لصدقتمونى ﴿ قالوا ﴾ أى الحاضرون عنده ﴿ تالله إنك لفى ضلالك القديم ﴾ لفى ذهابك عن الصواب قدما فى إفراط محبتك ليوسف ولهجك بذكره ورجائك للقائه وكان عندهم أنه قد مات .

﴿ فلما أن جاء البشير ﴾ وهو يهوذا ﴿ ألقاه ﴾ أى ألقى البشير القميص ﴿ على وجهه ﴾ أى وجه يعقوب أو ألقاه يعقوب على وجه نفسه ﴿ فارتدا ﴾ عاد ﴿ بصيرا ﴾ لما انتعش فيه من القوة ﴿ قال ألم أقل لكم ﴾ يعنى قوله إنى لأجد ريح يوسف فالخطاب لمن كان عنده بكنعان أو قوله ولا تيأسوا من روح الله فالخطاب لبنيه وهو الأنسب بقوله ﴿ إنى أعلم من الله مالا تعلمون ﴾ فإن مدار النهى المذكور إنما هو العلم الذى أوتى يعقوب من جهة الله سبحانه وعلى هذا يجوز أن يكون هذا مقول القول أى ألم أقل لكم حين أرسلتكم إلى مصر وأمرتكم بالتحسس ونهيتكم عن اليأس من روح الله تعالى وأعلم من الله ما لا تعلمون من

حياة يوسف عليه الصلاة والسلام : روى أنه سأل البشير كيف يوسف فقال هو ملك مصر قال ما أصنع بالملك على أى دين تركته قال على دين الإسلام قال الآن تمت النعمة ﴿قالوا يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين﴾ ومن حق من اعترف بذنبه أن يصفح عنه ويستغفر له فكأنهم كانوا على ثقة من من عفوه عليه الصلاة والسلام ولذلك اقتصروا على استدعاء الاستغفار وأدرجوا ذلك فى الاستغفار .

﴿قال سوف أستغفر لكم ربى انه هو الغفور الرحيم﴾ وهذا مشعر بعفوه قيل أخر الاستغفار إلى وقت السحر وقيل إلى ليلة الجمعة ليتحرى به وقت الإجابة[1] وقيل أخره إلى أن يستحل لهم من يوسف عليه الصلاة والسلام أو يعلم أنه قد عفا عنهم فإن عفو المظلوم شرط المغفرة ويعضده أنه روى عنه أنه استقبل القبلة قائما يدعو وقام يوسف خلفه يؤمن وقاموا خلفهما أذلة خاشعين عشرين سنة حتى بلغ جهدهم وظنوا أنها الهلكة نزل جبريل عليه الصلاة والسلام فقال إن الله قد أجاب دعوتك فى ولدك وعقدوا مواثيقهم بعدك على النبوة فإن صح ثبتت نبوتهم وإن ما صدر عنهم إنما صدر قبل الاستنباء وقيل المراد الاستمرار على الدعاء فقد روى أنه كان يستغفر كل ليلة جمعة فى نيف وعشرين سنة وقيل قام إلى الصلاة فى وقت السحر فلما فرغ رفع يديه فقال اللهم اغفر لى جزعى على يوسف وقلة صبرى عنه واغفر لولدى ما أتوا إلى أخيهم فأوحى الله اليه أن الله قد غفر لك ولهم أجمعين .

﴿فلما دخلوا على يوسف﴾ روى أنه وجه يوسف إلى أبيه جهازاً ومائتى راحلة ليتجهز إليه بمن معه فاستقبله يوسف والملك فى أربعة آلاف من الجند والعظماء وأهل مصر بأجمعهم فتلقوا يعقوب عليه الصلاة والسلام وهو يمشى متوكئا على يهوذا فنظر إلى الخيل والناس فقال يا يهوذا أهذا فرعون مصر قال

---

(١) فى ١٠ : الاستجابة .

لا بل ولدك فلما لقيه قال عليه الصلاة والسلام السلام عليك يامذهب الأحزان وقيل قال له يوسف ياأبت بكيت على حتى ذهب بصرك ألم تعلم أن القيامة تجمعنا فقال بلى ولكنى خشيت أن يسلب دينك فيحال بينى وبينك وقيل إن يعقوب وولده دخلوا مصر وهم اثنان وسبعون مابين رجل وامرأة وكانوا حين خرجوا مع موسى ستمائة ألف وخمسمائة وبضعة وسبعين رجلا سوى الذرية والهرمى وكانت الذرية ألف ألف ومائتى ألف.

﴿ آوى إليه أبويه ﴾ أى أباه وخالته وتنزيلها منزلة الأم كتنزيل العم منزلة الأب فى قوله عز وجل (وإله آبائك إبراهيم وإسمعيل وإسحق) أو لأن يعقوب عليه الصلاة والسلام تزوجها بعد أمه وقال الحسن وابن إسحق كانت أمه فى الحياة فلا حاجة إلى التأويل ومعنى آوى إليه ضمهما إليه واعتنقهما وكأنه عليه الصلاة والسلام ضرب فى الملتقى مضربا فنزل فيه فدخلوا عليه فآواهما إليه ﴿ وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين ﴾ من الشدائد والمكاره قاطبة والمشيئة متعلقة بالدخول على الأمن ﴿ ورفع أبويه ﴾ عند نزولهم بمصر ﴿ على العرش ﴾ على السرير تكرمة لهما فوق ما فعله لإخوته ﴿ وخروا له ﴾ أى أبواه وأخوته ﴿ سجدا ﴾ تحية له فإنه كان السجود عندهم جاريا مجرى التحية والتكرمة كالقيام والمصافحة وتقبيل اليد ونحوها من عادات الناس الفاشية فى التعظيم والتوقير وقيل ماكان ذلك إلا انحناء دون تعفير الجباه ويأباه الخرور وقيل خروا لأجله سجدا لله شكرا ويرده قوله تعالى ﴿ وقال ياأبت هذا تأويل رؤياى ﴾ التى رأيتها وقصصتها عليك ﴿ من قبل ﴾ فى زمن الصبا ﴿ قد جعلها ربى حقا ﴾ صدقا واقعا بعينه والاعتذار بجعل يوسف بمنزلة القبلة وجعل اللام كما فى قوله أليس أول من صلى لقبلتكم تعسف لا يخفى وتأخيره عن الرفع على العرش ليس بنص فى ذلك لأن الترتيب الذكرى لايجب كونه على وفق الترتيب الوقوعى فلعل تأخيره عنه ليصل به ذكر كونه تعبيراً لرؤياه وما يتصل به من قوله ﴿ وقد أحسن بى ﴾ المشهور استعمال الإحسان بإلى وقد يستعمل بالباء

أيضا(١) كما فى قوله عز اسمه وبالوالدين إحسانا وقيل هذا بتضمين لطف وهو الإحسان الخفى كما يؤذن به قوله تعالى (إن ربى لطيف لما يشاء) وفيه فائدة لاتخفى أى لطف بى محسنا إلى غير هذا الإحسان ﴿ إذ أخرجنى من السجن ﴾ بعدما ابتليت به ولم يصرح بقصة الجب حذارا من تثريب إخوته لأن الظاهر حضورهم لوقوع الكلام عقيب خروجهم سجدا واكتفاء بما يتضمنه قوله تعالى .

﴿ وجاء بكم من البدو ﴾ أى البادية ﴿ من بعد أن نزغ الشيطان بينى وبين إخوتى ﴾ أى أفسد بيننا بالإغواء وأصله من نخس الرائض الدابة وحملها على الجرى يقال نزغه ونسغه إذا نخسه ولقد بالغ عليه الصلاة والسلام فى الإحسان حيث أسند ذلك إلى الشيطان ﴿ إن ربى لطيف لما يشاء ﴾ أى لطيف التدبير لأجله رفيق حتى يجىء على وجه الحكمة والصواب مامن صعب إلا وهو بالنسبة إلى تدبيره سهل ﴿ إنه هو العليم ﴾ بوجود المصالح ﴿ الحكيم ﴾ الذى يفعل كل شىء على قضية الحكمة روى أن يوسف أخذ بيد يعقوب عليهما الصلاة والسلام فطاف به فى خزائنه فأدخله فى خزائن الورق والذهب وخزائن الحلى وخزائن الثياب وخزائن السلاح وغير ذلك فلما أدخله خزائن القراطيس قال يابنى ما أعقك عندك هذه القراطيس وما كتبت إلى على ثمانى مراحل قال أمرنى جبريل قال أو ماتسأله قال أنت أبسط إليه منى فسأله قال جبريل الله تعالى أمرنى بذلك لقولك أخاف أن يأكله الذئب قال فهلا خفتنى وروى أن يعقوب عليه الصلاة والسلام أقام معه أربعا وعشرين سنة ثم مات وأوصى أن يدفنه بالشام إلى جنب أبيه إسحق فمضى بنفسه ودفنه ثمة ثم عاد إلى مصر وعاش بعد أبيه ثلاثا وعشرين سنة فلما تم أمره وعلم أنه لا يدوم له تاقت نفسه إلى الملك الدائم الخالد فتمنى الموت فقال :

﴿ رب قد آتيتنى من الملك ﴾ أى بعضا منه عظيما وهو ملك مصر ﴿ وعلمتنى

---

(١) فى ١٠ تعدية الإحسان وقد يعدى .

من تأويل الأحاديث ﴾ أى بعضا من ذلك كذلك إن أريد بتعليم تأويل الأحاديث تفهيم غوامض أسرار الكتب الإلهية ودقائق سنن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فالترتيب ظاهر وأما إن أريد به تعليم تعبير الرؤيا كما هو الظاهر فلعل تقديم إيتاء الملك عليه فى الذكر لأنه بمقام تعداد النعم الفائضة عليه من الله سبحانه والملك أعرق فى كونه نعمة من التعليم المذكور وإن كان ذلك أيضا نعمة جليلة فى نفسه ولا يمكن تمشية هذا الاعتذار فيما سبق لأن التعليم هناك وارد على نهج العلة الغائية للتمكين فإن حمل على معنى التمليك لزم تأخره عنه وأما الواقع ههنا فمجرد التأخير فى الذكر والعطف بحرف الواو ولا يستدعى ذلك الترتيب فى الوجود ﴿ فاطر السموات والأرض ﴾ مبدعهما وخالقهما نصب على أنه صفة للمنادى أو منادى آخر وصفه تعالى به بعد وصفه بالربوبية مبالغة فى ترتيب مبادىء ما يعقبه من قوله ﴿ أنت وليى ﴾ مالك أمورى ﴿ فى الدنيا والآخرة ﴾ أو الذى يتولانى بالنعمة فيهما وإذ قد أتممت على نعمة الدنيا ﴿ توفنى ﴾ اقبضنى ﴿ مسلما وألحقنى بالصالحين ﴾ من آبائى أو بعامة الصالحين فى الرتبة والكرامة فإنما تتم النعمة بذلك قيل لما دعا توفاه الله عز وجل طيبا طاهرا فتخاصم أهل مصر فى دفنه وتشاحوا فى ذلك حتى هموا بالقتال فرأوا أن يصنعوا له تابوتا من مرمر فجعلوه فيه ودفنوه فى النيل ليمر عليه ثم يصل إلى مصر ليكونوا شرعا واحدا فى التبرك به وولد له أفراييم وميشا ولأفراييم نون ولنون يوشع فتى موسى عليه الصلاة والسلام ولقد توارثت الفراعنة من العمالقة بعده مصر ولم يزل بنو إسرائيل تحت أيديهم على بقايا دين يوسف وآبائه إلى أن بعث الله تعالى موسى عليه الصلاة والسلام .

﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى ما سبق من نبأ يوسف وما فيه من معنى البعد لما مر مرارا من الدلالة على بعد منزلته أو كونه بالانقضاء فى حكم البعيد والخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم وهو مبتدأ خبره ﴿ من أنباء الغيب ﴾ الذى لا يحوم حوله أحد وقوله ﴿ نوحيه إليك ﴾ خبر بعد خبر أو حال من الضمير فى الخبر ويجوز أن يكون ذلك اسما موصولا ومن أنباء الغيب صلته ويكون الخبر نوحيه

إليك ﴿ وما كنت لديهم ﴾ يريد إخوة يوسف عليه الصلاة والسلام ﴿ إذ أجمعوا أمرهم ﴾ وهو جعلهم إياه فى غيابة الجب ﴿ وهم يمكرون ﴾ به ويبغون له الغوائل حتى تقف على ظواهر أسرارهم وبواطنها وتطلع على سرائرهم طرا وتحيط بما لديهم خبرا وليس المراد بمجرد نفى حضوره عليه الصلاة والسلام فى مشهد إجماعهم ومكرهم فقط ، بل فى سائر المشاهد أيضا وإنما تخصيصه بالذكر لكونه مطلع[1] القصة وأخفى أحوالها كما ينبىء عنه قوله وهم يمكرون والخطاب وإن كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم لكن المراد إلزام المكذبين والمعنى ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك ، إذ لا سبيل إلى معرفتك إياه سوى ذلك إذ عدم سماعك ذلك من الغير وعدم مطالعتك للكتب أمر لا يشك فيه المكذبون أيضا ولم تكن بين ظهرانيهم عند وقوع الأمر حتى تعرفه كما هو فتبلغه إليهم وفيه تهكم بالكفار فكأنهم يشكون فى ذلك فيدفع شكهم ، وفيه أيضا إيذان بأن ما ذكر من النبأ هو الحق المطابق للواقع وما ينقله أهل الكتاب ليس على ما هو عليه يعنى أن مثل هذا التحقيق بلا وحى لا يتصور إلا بالحضور والمشاهدة وإذ ليس ذلك بالحضور فهو بالوحى ومثله قوله تعالى (وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم) وقوله (وما كنت بجانب الغربى إذ قضينا إلى موسى الأمر) .

العبرة من قصة يوسف

﴿ وما أكثر الناس ﴾ يريد به العموم أو أهل مكة ﴿ ولو حرصت ﴾ أى على إيمانهم وبالغت فى إظهار الآيات القاطعة الدالة على صدقك ﴿ بمؤمنين ﴾ لتصميمهم على الكفر وإصرارهم على العناد روى أن اليهود وقريشا لما سألوا عن قصة يوسف وعدوا أن يسلموا فلما أخبرهم بها على موافقة التوراة فلم يسلموا حزن النبى صلى الله عليه وسلم فقيل له ذلك ﴿ وما تسألهم عليه ﴾ أى على الإنباء أو على القرآن ﴿ من أجر ﴾ من جعل كما يفعله حملة الأخبار ﴿ إن هو

(١) فى ١٠ : مفتتح .

إلا ذكر ﴾ عظة من الله تعالى ﴿ للعالمين ﴾ كافة لا أن ذلك مختص بهم .

﴿ وكأين من آية ﴾ أى كأى عدد شئت من الآيات والعلامات الدالة على وجود الصانع ووحدته وكمال علمه وقدرته وحكمته غير هذه الآية التى جئت بها ﴿ فى السموات والأرض ﴾ أى كائنة فيهما من الأجرام الفلكية وما فيها من النجوم وتغير أحوالها ومن الجبال والبحار وسائر ما فى الأرض من العجائب الفائتة للحصر ﴿ يمرون عليها ﴾ أى يشاهدونها ولا يعبأون بها وقرىء برفع الأرض على الابتداء ويمرون خبره وقرىء بنصبها على معنى ويطؤون الأرض يمرون عليها وفى مصحف عبد الله (والأرض يمشون عليها) والمراد ما يرون فيها من آثار الأمم الهالكة وغير ذلك من الآيات والعبر ﴿ وهم عنها معرضون ﴾ غير ناظرين إليها ولا متفكرين فيها ﴿ وما يؤمن أكثرهم بالله ﴾ فى إقرارهم بوجوده وخالقيته ﴿ إلا وهم مشركون ﴾ بعبادتهم لغيره أو باتخاذهم الأحبار والرهبان أربابا أو بقولهم باتخاذه تعالى ولدا سبحانه وتعالى عن ذلك علوا كبيرا أو بالنور والظلمة وهى جملة حالية أى لا يؤمن أكثرهم إلا فى حال شركهم قيل نزلت الآية فى أهل مكة وقيل فى المنافقين وقيل فى أهل الكتاب .

﴿ أفأمنوا أن تأتيهم غاشية من عذاب الله ﴾ أى عقوبة تغشاهم وتشملهم ﴿ أو تأتيهم الساعة بغتة ﴾ فجأة من غير سابقة علامة ﴿ وهم لا يشعرون ﴾ بإتيانها غير مستعدين لها ﴿ قل هذه سبيلى ﴾ وهى الدعوة إلى التوحيد والإيمان بالإخلاص وفسرها بقوله ﴿ أدعوا إلى الله على بصيرة ﴾ بيان وحجة واضحة غير عمياء أو هى حال من الضمير فى سبيلى والعامل فيها معنى الإشارة ﴿ أنا ﴾ تأكيد للمستكن فى أدعو أو على بصيرة لأنه حال منه أو مبتدأ خبره على بصيرة ﴿ ومن اتبعنى ﴾ عطف عليه ﴿ وسبحان الله وما أنا من المشركين ﴾ مؤكد لما سبق من الدعوة إلى الله ﴿ وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا ﴾ رد لقولهم (لو شاء الله لأنزل ملائكة) ﴿ نوحى إليهم ﴾ كما أوحينا إليك وقرى بالياء ﴿ من أهل القرى ﴾ لأنهم أعلم وأحلم وأهل البوادى فيهم الجهل والجفاء والقسوة ﴿ أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ﴾ من المكذبين

بالرسل والآيات فيحذروا تكذيبك ﴿ ولدار الآخرة ﴾ أى الساعة أو الحياة الآخرة ﴿ خير للذين اتقوا ﴾ الشرك والمعاصى ﴿ أفلا تعقلون ﴾ فتستعملوا عقولكم لتعرفوا خيرية دار الآخرة وقرىء بالياء على أنه غير داخل تحت قل.

﴿ حتى إذا استيأس الرسل ﴾ غاية لمحذوف دل عليه السياق أى لا يغرنهم تماديهم فيما هم فيه من الدعة والرخاء فإن من قبلهم قد أمهلوا حتى أيس الرسل عن النصر عليهم فى الدنيا أوعن إيمانهم لانهماكهم فى الكفر وتماديهم فى الطغيان من غير وازع ﴿ وظنوا أنهم قد كذبوا ﴾ كذبتهم أنفسهم حين حدثتهم بأنهم ينصرون عليهم أو كذبهم رجاؤهم فإنه يوصف بالصدق والكذب والمعنى أن مدة التكذيب والعداوة من الكفار وانتظار النصر من الله تعالى قد تطاولت وتمادت حتى استشعروا القنوط وتوهموا أن لا نصر لهم فى الدنيا ﴿ جاءهم نصرنا ﴾ فجأة وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما وظنوا أنهم قد أخلفوا ما وعدهم الله من النصر فإن صح ذلك عنه فلعله أراد بالظن ما يخطر بالبال من شبه الوسوسة وحديث النفس وإنما عبر عنه بالظن تهويلا للخطب وأما الظن الذى هو ترجح أحد الجانبين على الآخر فلا يتصور ذلك من آحاد الأمة فما ظنك بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام وهم ومنزلتهم فى معرفة شئون الله سبحانه منزلتهم وقيل الضميران للمرسل إليهم وقيل الأول لهم والثانى للرسل وقرىء بالتشديد أى ظن الرسل أن القوم كذبوهم فيما وعدوهم وقرىء بالتخفيف على بناء الفاعل على أن الضميرين للرسل أى ظنوا أنهم كذبوا عند قومهم فيما حدثوا به لما تراخى عنهم ولم يروا له أثرا أو على أن الأول لقومهم ﴿ فنجى من نشاء ﴾ هم الرسل والمؤمنون بهم وقرىء فننجى على لفظ المستقبل بالتخفيف والتشديد وقرىء فنجا ﴿ ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين ﴾ إذا نزل بهم وفيه بيان لمن تعلق بهم المشيئة .

﴿ لقد كان فى قصصهم ﴾ أى قصص الأنبياء وأممهم وينصره قراءة من قرأ بكسر القاف أو قصص يوسف وأخوته ﴿ عبرة لأولى الألباب ﴾ لذوى العقول المبرأة عن شوائب أحكام الحس ﴿ ما كان ﴾ أى القرآن المدلول عليه

بما سبق دلالة واضحة ﴿حديثاً يفترى ولكن﴾ كان ﴿تصديق الذى بين يديه﴾ من الكتب السماوية وقرىء بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف أى ولكن هو تصديق الذى بين يديه ﴿وتفصيل كل شىء﴾ مما يحتاج إليه فى الدين إذ ما من أمر دينى إلا وهو يستند إلى القرآن بالذات أو بوسط ﴿وهدى﴾ من الضلالة ﴿ورحمة﴾ ينال بها خير الدارين ﴿لقوم يؤمنون﴾ أى يصدقونه لأنهم المنتفعون به وأما من عداهم فلا يهتدون بهداه ولا ينتفعون بجدواه، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم «علموا أرقاءكم سورة يوسف فإنه أيما مسلم تلاها وعلمها أهله وما ملكت يمينه هون الله عليه سكرات الموت وأعطاه القوة أن لا يحسد مسلماً».

* * *

سورة الرعد

(مدنية وقيل مكية إلا قوله: «ويقول الذين كفروا» الآية)

وآيها خمس وأربعون

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

﴿المر﴾ اسم للسورة ومحله إما الرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف أى هذه السورة بهذا الاسم وهو أظهر من الرفع على الابتداء إذ لم يسبق العلم بالتسمية كما مر مرارا وقوله تعالى ﴿تلك﴾ على الوجه الأول مبتدأ مستقل وعلى الوجه الثانى مبتدأ ثان أو بدل من الأول أشير به إليه إيذانا بفخامته وإما النصب بتقدير فعل يناسب المقام نحو اقرأ أو اذكر فتلك مبتدأ كما إذا جعل المر مسرودا على نمط التعديد أو بمعنى أنا الله أعلم وأرى على ما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما والخبر على التقادير قوله تعالى: ﴿آيات الكتاب﴾ أى الكتاب العجيب الكامل الغنى عن الوصف به المعروف بذلك من بين الكتب

الحقيق باختصاص اسم الكتاب فهو عبارة عن جميع القرآن أوعن الجميع المنزل حينئذ حسبما مر فى مطلع سورة يونس إذ هو المتبادر من مطلق الكتاب المستغنى عن النعت وبه يظهر ما أريد من وصف الآيات بوصف ما أضيفت إليه من نعوت الكمال بخلاف ما إذا جعل عبارة عن السورة فإنها ليست بتلك المثابة من الشهرة فى الاتصاف بذلك المغنية عن التصريح بالوصف على أنها عبارة عن جميع آياتها فلا بد من جعل تلك إشارة إلى كل واحدة منها وفيه مالا يخفى من التعسف الذى مر تفصيله فى سورة يونس .

﴿ والذى أنزل إليك من ربك ﴾ أى الكتاب المذكور بكماله لا هذه السورة وحدها ﴿ الحق ﴾ الثابت المطابق للواقع فى كل ما نطق به الحقيق بأن يخص به الحقية لعراقته فيها وليس فيه ما يدل على أن ما عداه ليس بحق أصلا على أن حقيته مستتبعة لحقية سائر الكتب السماوية لكونه مصدقا لما بين يديه ومهيمنا عليه وفى التعبير عنه بالموصول وإسناد الإنزال إليه بصيغة المبنى للمفعول والتعرض لوصف الربوبية مضافا إلى ضميره عليه السلام من الدلالة على فخامة المنزل التابعة لجلالة شأن المنزل وتشريف المنزل إليه والإيماء إلى وجه بناء الخبر ما لا يخفى ﴿ ولكن أكثر الناس لا يؤمنون ﴾ بذلك الحق المبين لإخلالهم بالنظر والتأمل فيه فعدم إيمانهم متعلق بعنوان حقيته لأنه المرجع للتصديق والتكذيب لا بعنوان كونه منزلا كما قيل ولأنه وارد على طريقة الوصف دون الإخبار .

من دلائل التوحيد

﴿ الله الذى رفع السموات ﴾ أى خلقهن مرتفعات على طريقة قولهم سبحان من كبر الفيل وصغر البعوض لا أنه رفعها بعد أن لم تكن كذلك والجملة مبتدأ وخبر كقوله (وهو الذى مد الأرض) ﴿ بغير عمد ﴾ أى بغير دعائم جمع عماد كإهاب وأهب وهو ما يعمد به أى يسند يقال عمدت الحائط أى أدعمته وقرىء عمد على جمع عمود بمعنى عماد كرسل ورسول والمراد صيغة الجمع جمع

السموات لا لأن المنفى عن كل واحدة منها عمد لا عماد ﴿ ترونها ﴾ استئناف استشهد به على ما ذكر من رفع السموات بغير عمد وقيل صفة لعمد جيء بها إيهاماً لأن لها عمدا غير مرئية هي قدرة الله تعالى .

﴿ ثم استوى ﴾ أى استولى ﴿ على العرش ﴾ بالحفظ والتدبير أو استوى أمره وعن أصحابنا أن الاستواء على العرش صفة لله عز وجل بلا كيف وأياما كان فليس المراد به القصد إلى إيجاد العرش وخلقه فلا حاجة إلى جعل كلمة ثم للتراخى فى الرتبة ﴿ وسخر الشمس والقمر ﴾ ذللهما وجعلهما طائعين لما أريد منهما من الحركات وغيرها ﴿ كل ﴾ من الشمس والقمر ﴿ يجرى ﴾ حسبما أريد منها ﴿ لأجل مسمى ﴾ لمدة معينة فيها تتم دورته كالسنة للشمس والشهر للقمر فإن كلا منهما يجرى كل يوم على مدار معين من المدارات اليومية أو لمدة ينتهى فيها حركاتهما ويخرج جميع ما أريد منهما من القوة إلى الفعل أو لغاية يتم عندها ذلك والجملة بيان لحكم تسخيرهما .

﴿ يدبر ﴾ بما صنع من الرفع والاستواء والتسخير أى يقضى ويقدر حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة ﴿ الأمر ﴾ أمر الخلق كله وأمر ملكوته وربوبيته ﴿ يفصل الآيات ﴾ الدالة على كمال قدرته وبالغ حكمته أى يأتى بها مفصلة وهى ما ذكر من الأفعال العجيبة وما يتلوها من الأوضاع الفلكية الحادثة شيئاً فشيئاً المستتبعة للآثار الغريبة فى السفليات على موجب التدبير والتقدير فالجملتان إما حالان من ضمير استوى وقوله : (وسخر الشمس والقمر) من تتمة الاستواء وإما مفسرتان له أو الأولى حال منه والثانية من الضمير فيها أو كلاهما من ضمائر الأفعال المذكورة وقوله : (كل يجرى لأجل مسمى) من تتمة التسخير أو خبران عن قوله الله ، خبرا بعد خبر والموصول صفة للمبتدأ جيء به للدلالة على تحقيق الخبر وتعظيم شأنه كما فى قول الفرزدق :

إن الذى سمك السماء بنى لنا ... بيتا دعائمه أعز وأطول

﴿ لعلكم ﴾ عند ما يتبين لكم لها وعثوركم على تفاصيلها ﴿ بلقاء ربكم ﴾ بملاقاته

الجزاء ﴿ توقنون ﴾ فإن من تدبرها حق التدبر أيقن أن من قدر على إبداع هذه الصنائع البديعة على كل شيء قدير وأن لهذه التدبيرات المتينة عواقب وغايات لا بد من وصولها وقد بينت على ألسنة الأنبياء عليهم السلام أن ذلك ابتلاء المكلفين[١] ثم جزاؤهم حسب أعمالهم فإذن لا بد من الإيقان بالجزاء، ولما قرر الشواهد العلوية أردفها بذكر الدلائل السفلية فقال :

﴿ وهو الذى مد الأرض ﴾ أى بسطها طولا وعرضا قال الأصم المد هو البسط إلى مالا يدرك منتهاه ففيه دلالة على بعد مداها وسعة أقطارها ﴿ وجعل فيها رواسى ﴾ أى جبالا ثوابت فى أحيازها من الرسو وهو ثبات الأجسام الثقيلة ولم يذكر الموصوف لإغناء غلبة الوصف بها عن ذلك وانحصار مجيء فواعل جمعا لفاعل فى فوارس وهوالك ونواكس إنما هو فى صفات العقلاء وأما فى غيرهم فلا يراعى ذلك أصلا كما فى قوله تعالى : (أياماً معدودات) وقوله (الحج أشهر معلومات) إلى غير ذلك ، فلا حاجة الى أن يجعل مفردها صفة لجمع القلة أعنى أجبلا ويعتبر فى جمع الكثرة أعنى جبالا انتظامها لطائفة من جموع القلة وتنزيل كل منها منزلة مفردها كما قيل على أنه لا مجال لذلك فإن جمعية كل من صيغتى الجمعين إنما هى باعتبار الأفراد التى تحتها لا باعتبار انتظام جمع القلة للأفراد وجمع الكثرة لجموع القلة فكل منهما جمع جبل لا أن جبالا جمع أجبل كما أن طوائف جمع طائفة ولا إلى أن يلتجأ إلى جعل الوصف المذكور بالغلبة فى عداد الأسماء التى تجمع على فواعل كما ظن على أنه لا وجه له لما أن الغلبة إنما هى فى الجمع دون المفرد والتعبير عن الجبال بهذا العنوان لبيان تفرع قرار الأرض على ثباتها ﴿ وأنهارا ﴾ مجارى واسعة والمراد ما يجرى فيها من المياه وفى نظمها مع الجبال فى مفعولية فعل واحد إشارة إلى أن الجبال منشأ للأنهار وبيان لفائدة أخرى للجبال غير

---

(١) فى ١٠ : للمكلفين .

كونها حافظة للأرض عن الاضطراب المخل بثبات الأقدام وتقلب الحيوان متفرعة على تمكنه وتقلبه وهي تعيشه بالماء والكلأ .

﴿ومن كل الثمرات﴾ متعلق بجعل في قوله تعالى ﴿جعل فيها زوجين اثنين﴾ أي اثنينية حقيقية وهما الفردان اللذان كل منهما زوج الآخر وأكد به الزوجين لئلا يفهم أن المراد بذلك الشفعان إذ يطلق الزوج على المجموع ولكن اثنينية اعتبارية أي جعل من كل نوع من أنواع الثمرات الموجودة في الدنيا ضربين وصنفين إما في اللون كالأبيض والأسود أو في الطعم كالحلو والحامض . أو في القدر كالصغير والكبير ، أو في الكيفية كالحار والبارد وما أشبه ذلك ، ويجوز أن يتعلق بجعل الأول ويكون الثاني استئنافاً لبيان كيفية ذلك[1] الجعل ﴿يغشي الليل النهار﴾ استعارة تبعية تمثيلية مبنية على تشبيه إزالة نور الجو بالظلمة بتغطية الأشياء الظاهرة بالأغطية أي يستر النهار بالليل والتركيب وإن احتمل العكس أيضاً بالحمل على تقديم المفعول الثاني على الأول فإن ضوء النهار أيضاً ساتر لظلمة الليل إلا أن الأنسب بالليل أن يكون هو الغاشي وعد هذا في تضاعيف الآيات السفلية وإن كان تعلقه بالآيات العلوية ظاهراً باعتبار أن ظهوره في الأرض فإن الليل إنما هو ظلها وفيما فوق موقع ظلها لا ليل أصلا ولأن الليل والنهار لهما تعلق بالثمرات من حيث العقد والإنضاج على أنهما أيضاً زوجان متقابلان مثلها وقرىء يغشى من التغشية ﴿إن في ذلك﴾ أي فيما ذكر من مد الأرض وإيتادها بالرواسي وإجراء الأنهار وخلق الثمرات وإغشاء الليل النهار وفي الإشارة بذلك تنبيه على عظم شأن المشار إليه في بابه ﴿لآيات﴾ باهرة وهي آثار تلك الأفاعيل البديعة جلت حكمة صانعها ففي على معناها فإن تلك الآثار مستقرة في تلك الأفاعيل منوطة بها ويجوز أن يشار بذلك إلى تلك الآثار المدلول عليها بتلك الأفاعيل ففي تجريدية ﴿لقوم يتفكرون﴾ فإن التفكر فيها يؤدي إلى الحكم بأن تكوين كل من ذلك على هذا النمط الرائق

---

(١) في ١٠ : لذلك الجعل .

والأسلوب اللائق لا بدله من مكون قادر حكيم يفعل ما يشاء ويختار مايريد لا معقب لحكمه وهو الحميد المجيد .

﴿ وفي الأرض قطع ﴾ جملة مستأنفة مشتملة على طائفة أخرى من الآيات أى بقاع كثيرة مختلفة فى الأوصاف فمن طيبة إلى سبخة وكريمة إلى زهيدة وصلبة إلى رخوة إلى غير ذلك ﴿ متجاورات ﴾ أى متلاصقات وفى بعض المصاحف قطعا متجاورات أى جعل فى الأرض قطعا ﴿ وجنات من أعناب ﴾ أى بساتين كثيرة منها ﴿ وزرع ﴾ من كل نوع من أنواع الحبوب وإفراده لمراعاة أصله ولعل تقديم ذكر الجنات عليه مع كونه عمود المعاش لظهور حالها فى اختلافها ومباينتها لسائرها رسوخ ذلك فيها وتأخير قوله تعالى ﴿ ونخيل ﴾ لئلا يقع بينها وبين صفتها وهى قوله تعالى ﴿ صنوان وغير صنوان ﴾ فاصلة والصنوان جمع صنو كقنوان وقنو وهى النخلة التى لها رأسان وأصلها واحد وقرىء بضم الصاد على لغة بنى تميم وقيس وقرىء جنات بالنصب عطفا على زوجين وبالجر على كل الثمرات فلعل عدم نظم قوله تعالى (وفى الأرض قطع متجاورات) فى هذا السلك مع أن اختصاص كل من تلك القطع بما لها من الأحوال والصفات بمحض جعل الخالق الحكيم جلت قدرته حين مد الأرض ودحاها للإيماء إلى كون تلك الأحوال صفات راسخة لتلك القطع وقرىء وزرع ونخيل بالجر عطفا على أعناب أو جنات ﴿ يسقى ﴾ أى ما ذكر من القطع والجنات والزرع والنخيل وقرىء بالتأنيث مراعاة للفظ والأول أوفق بمقام بيان اتحاد الكل فى حالة السقى ﴿ بماء واحد ﴾ لا اختلاف فى طبعه سواء كان السقى بماء الأمطار أو بماء الأنهار .

﴿ ونفضل ﴾ مع تآخذ أسباب التشابه بمحض قدرتنا واختيارنا ﴿ بعضها على بعض ﴾ آخر منها ﴿ فى الأكل ﴾ فيما يحصل منها من الثمر والطعم وقرىء بالياء على بناء الفاعل ردا على يدبر ويفصل ويغشى وعلى بناء المفعول وفيه مالا يخفى من الفخامة والدلالة على ان عدم احتمال استناد الفعل إلى فاعل آخر مغن عن بناء الفعل للفاعل ﴿ إن فى ذلك ﴾ الذى فصل من أحوال القطع والجنات

﴿ لآيات ﴾ كثيرة عظيمة ظاهرة ﴿ لقوم يعقلون ﴾ يعلمون على قضية عقولهم فإن من عقل هذه الأحوال العجيبة لا يتلعثم فى الجزم بأن من قدر على إبداع هذه البدائع وخلق تلك الثمار المختلفة فى الأشكال والألوان والطعوم والروائح فى تلك القطع المتباينة المتجاورة وجعلها حدائق ذات بهجة قادر على إعادة ما أبداه بل هى أهون فى القياس وهذه الأحوال ولئن كانت هى الآيات أنفسها لا أنها فيها إلا أنه قد جردت عنها أمثالها مبالغة فى كونها آية ففى تجريدية مثلها فى قوله تعالى (لهم فيها دار الخلد) أو المشار إليه الأحوال الكلية والآيات أفرادها الحادثة شيئاً فشيئاً فى الأزمنة وآحادها الواقعة فى الأقطار والأمكنة المشاهدة لأهلها ففى على معناها وحيث كانت دلالة هذه الأحوال على مدلولاتها أظهر مما سبق علق كونها آيات بمحض التعقل ولذلك لم يتعرض لغير تفضيل بعضها على بعض فى الأكل الظاهر لكل عاقل مع تحقق ذلك فى الخواص والكيفيات مما يتوقع العثور عليه على نوع تأمل وتفكر كأنه لا حاجة فى ذلك إلى التفكر أيضاً وفيه تعريض بأن المشركين غير عاقلين .

﴿ وإن تعجب ﴾ يا محمد من شىء ﴿ فعجب ﴾ لا أعجب منه حقيق بأن يقصر عليه التعجب ﴿ قولهم ﴾ بعد مشاهدة ما عدد لك من الآيات الشاهدة بأنه تعالى على كل شىء قدير ﴿ أئذا كنا ترابا ﴾ على طريقة الاستفهام الإنكارى المفيد لكمال الاستبعاد والاستنكار وهو فى محل الرفع على البدلية من قولهم على أنه بمعنى المقول أو فى محل النصب على المفعولية منه على أنه مصدر فالعجب على الأول كلامهم وعلى الثانى تكلمهم بذلك والعامل فى إذا ما دل عليه قوله ﴿ أئنا لفى خلق جديد ﴾ وهو نبعث أو نعاد وتقديم الظرف لتقوية الإنكار بالبعث بتوجيهه إليه فى حالة منافية له وتكرير الهمزة فى قولهم أئنا لتأكيد الإنكار وليس مدار إنكارهم كونهم ثابتين فى الخلق الجديد بالفعل عند كونهم ترابا بل كونهم بعرضة ذلك واستعدادهم له وفيه من الدلالة على عتوهم وتماديهم فى التكبر ما لا يخفى ، وقيل وإن تعجب من قولهم فى إنكار البعث فعجب قولهم والمآل وإن تعجب فقد تعجبت فى موضع التعجب وقيل وإن تعجب من

إنكارهم البعث فعجب قولهم الدال عليه فتأمل وقد جوز كون الخطاب لكل من يصلح له أى إن تعجب يا من ينظر فى هذه الآيات من قدرة من هذه أفعاله فازدد تعجبا ممن ينكر مع هذه الدلائل قدرته تعالى على البعث وهو أهون من هذه والأنسب بقوله ويستعجلونك بالسيئة هو الأول وقوله تعالى(فعجب) خبر قدم على المبتدأ للقصر والتسجيل من أول الأمر بكون قولهم ذاك أمرا عجيبا ويجوز أن يكون مبتدأ لكونه موصوفا بالوصف المقدر كما أشير إليه فالمعنى وإن تعجب فالعجب الذى لا عجب وراءه قولهم هذا فاعجب منه وعلى الأول وإن تعجب فقولهم هذا عجب لا عجب فوقه .

﴿ أولئك ﴾ مبتدأ والموصول خبره أى أولئك المنكرون لقدرته تعالى على البعث ريثما عاينوا ما فصل من الآيات الباهرة الملجئة لهم إلى الإيمان لو كانوا يبصرون ﴿ الذين كفروا بربهم ﴾ وتمادوا فى ذلك فإن إنكارهم لقدرته عز وجل كفر به وأى كفر ﴿ أولئك ﴾ مبتدأ خبره قوله ﴿ الأغلال فى أعناقهم ﴾ أى مقيدون بقيود الضلال لا يرجى خلاصهم أو مغلولون يوم القيامة ﴿ وأولئك ﴾ الموصوفون بما ذكر من الصفات ﴿ أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ لا ينفكون عنها وتوسيط ضمير الفصل ليس لتخصيص الخلود بمنكرى البعث خاصة بل بالجمع المدلول عليه بقوله تعالى (أولئك الذين كفروا بربهم) .

استعجال الكفار للعذاب

﴿ ويستعجلونك بالسيئة ﴾ بالعقوبة التى أنذروها وذلك حين سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأتيهم بالعذاب استهزاء منهم بإنذاره ﴿ قبل الحسنة ﴾ أى العافية والإحسان إليهم بالإمهال ﴿ وقد خلت من قبلهم المثلات ﴾ أى عقوبات أمثالهم من المكذبين فما لهم لا يعتبرون بها ولا يحترزون[1] حلول مثلها بهم والجملة الحالية لبيان ركاكة رأيهم فى الاستعجال بطريق الاستهزاء

(١) فى ١٠ : يتحرزون .

أى يستعجلو نك بها مستهزئين بإنذارك منكرين لوقوع ما أنذرتهم إياه والحال أنه قد مضت العقوبات النازلة على أمثالهم من المكذبين والمستهزئين والمثلة بوزن السمرة العقوبة سميت بها لما بينها وبين المعاقب عليه من المماثلة ومنه المثال للقصاص وقرىء المثلات بضمتين بإتباع الفاء العين والمثلات بفتح الميم وسكون الثاء كما يقال السمرة والمثلات بضم الميم وسكون الثاء تخفيف المثلات جمع مثلة كركبة وركبات ﴿ وإن ربك لذو مغفرة ﴾ عظيمة ﴿ للناس على ظلمهم ﴾ أنفسهم بالذنوب والمعاصى ومحله النصب على الحالية أى ظالمين والعامل فيه المغفرة والمعنى إن ربك لغفور للناس لا يعجل لهم العقوبة وإن كانوا ظالمين بل يمهلهم بتأخيرها ﴿ وإن ربك لشديد العقاب ﴾ يعاقب من يشاء منهم حين يشاء فتأخير ما استعجلوه ليس للإهمال وعنه عليه الصلاة والسلام لولا عفو الله وتجاوزه ما هنأ لأحد العيش ولولا وعيده وعقابه لاتكل كل أحد .

﴿ ويقول الذين كفروا ﴾ وهم المستعجلون أيضاً وإنما عدل عن الإضمار إلى الموصول ذماً لهم ونعياً عليهم كفرهم بآيات الله تعالى التى تخر لها صم الجبال حيث لم يرفعوا لها رأساً ولم يعدوها من جنس الآيات وقالوا ﴿ لولا أنزل عليه آية من ربه ﴾ مثل آيات موسى وعيسى عليهما الصلاة والسلام عناداً ومكابرة والا ففى أدنى آية أنزلت عليه عليه الصلاة والسلام غنية وعبرة لأولى الألباب ﴿ إنما أنت منذر ﴾ مرسل للإنذار من سوء عاقبة ما يأتون ويذرون كدأب من قبلك من الرسل وليس عليك إلا الإتيان بما يعلم به نبوتك وقد حصل ذلك بما لا مزيد عليه ولا حاجة إلى إلزامهم وإلقامهم الحجر بالإتيان بما اقترحوا من الآيات ﴿ ولكل قوم هاد ﴾ معين لا بالذات بل بعنوان الهداية يعنى لكل قوم نبى مخصوص له هداية مخصوصة يقتضى اختصاص كل منهم بما يختص به حكم لا يعلمها إلا الله أو لكل قوم هاد عظيم الشأن قادر على ذلك هو الله سبحانه وماعليك إلا إنذارهم فلا يهمنك عنادهم وإنكارهم للآيات المنزلة عليك وازدراؤهم بها ثم عقبه بما يدل على كمال علمه وقدرته وشمول قضائه وقدره المبنيين على الحكم والمصالح تنبيها على أن تخصيص كل قوم بنبىء بجنس معين

من الآيات إنما هو للحكم الداعية إلى ذلك إظهارا لكمال قدرته على هدايتهم. لكن لا يهدى إلا من تعلق بهدايته مشيئته التابعة لحكم استأثر بعلمها فقال :

كمال العلم الإلهى

﴿ الله يعلم ما تحمل كل أنثى ﴾ أى تحمله فما موصولة أريد بها ما فى بطنها من حين العلوق إلى زمن الولادة لا بعد تكامل الخلق فقط والعلم متعد إلى واحد أو أى شىء تحمل وعلى أى حال هو من الأحوال المتواردة عليه طورا فطورا فهى استفهامية معلقة للعلم أو حملها فهى مصدرية ﴿ وما تغيض الأرحام وما تزداد ﴾ أى تنقصه وتزداده فى الجثة كالخديج والتام وفى المدة كالمولود فى أقل مدة الحمل والمولود فى أكثرها وفيما بينهما قيل إن الضحاك ولد فى سنتين وهرم ابن حيان فى أربع ومن ذلك سمى هرما وفى العدد كالواحد فما فوقه يروى أن شريكا كان رابع أربعة أو يعلم نقصها وازديادها لما فيها فالفعلان متعديان كما فى قوله تعالى (وغيض الماء) وقوله تعالى (وازدادوا تسعا) وقوله (ونزداد كيل بعير) أو لازمان قد أسند إلى الأرحام مجازا وهما لما فيها ﴿ وكل شىء ﴾ من الأشياء ﴿ عنده بمقدار ﴾ بقدر لا يمكن تجاوزه عنه كقوله (إنا كل شىء خلقناه بقدر) فإن كل حادث من الأعيان والأعراض له فى كل مرتبة من مراتب التكوين ومباديها وقت معين وحال مخصوص لا يكاد يجاوزه والمراد بالعندية الحضور العلمى بل العلم الحضورى فإن تحقيق الأشياء فى أنفسها فى أى مرتبة كانت مراتب الوجود والاستعداد لذلك علم له بالنسبة إلى الله عز وجل .

﴿ عالم الغيب ﴾ أى الغائب عن الحس ﴿ والشهادة ﴾ أى الحاضر له عبر عنهما بهما مبالغة وقيل أريد بالغيب المعدوم وبالشهادة الموجود وهو خبر مبتدأ محذوف أو خبر بعد خبر وقرىء بالنصب على المدح وهذا كالدليل على ماقبله من قوله تعالى الله يعلم إلخ ﴿ الكبير ﴾ العظيم الشأن الذى كل شىء دونه ﴿ المتعال ﴾ المستعلى على كل شىء بقدرته أو المنزه عن نعوت المخلوقات وبعد ما بين سبحانه

أنه عالم بجميع أحوال الإنسان فى مراتب فطرته ومحيط بعالمى الغيب والشهادة بين أنه تعالى عالم بجميع ما يأتون وما يذرون من الأفعال والأقوال وأنه لا فرق بالنسبة إليه بين السر والعلن فقال ﴿ سواء منكم من أسر القول ﴾ فى نفسه ﴿ ومن جهر به ﴾ أظهره لغيره ﴿ ومن هو مستخف ﴾ مبالغ فى الاختفاء كأنه مختف ﴿ بالليل ﴾ وطالب للزيادة ﴿ وسارب ﴾ بارز يراه كل أحد ﴿ بالنهار ﴾ من سرب سروبا أى برز وهو عطف على من هو مستخف أو على مستخف ومن عبارة عن الاثنين كما فى قوله :

تعال فإن عاهدتنى لا تخوننى نكن مثل من يا ذئب يصطحبان

كأنه قيل سواء منكم اثنان مستخف بالليل وسارب بالنهار والاستواء وإن أسند إلى من أسر ومن جهر وإلى المستخفى والسارب لكنه فى الحقيقة مسند إلى ما أسره وما جهر به أو إلى الفاعل من حيث هو فاعل كما فى الأخيرين وتقديم الإسرار والاستخفاء لإظهار كمال علمه تعالى فكأنه فى التعلق بالخفيات أقدم منه بالظواهر وإلا فنسبته إلى الكل سواء لما عرفته آنفا .

﴿ له ﴾ أى لكل ممن أسر أو جهر والمستخفى أو السارب ﴿ معقبات ﴾ ملائكة تعتقب فى حفظه جمع معقبة من عقبه مبالغة عقبه إذا جاء على عقبه كأن بعضهم يعقب بعضا أو لأنهم يعقبون أقواله وأفعاله فيكتبونه أو اعتقب فأدغمت التاء فى القاف والتاء للمبالغة أو المراد بالمعقبات الجماعات وقرىء معاقيب جمع معقب أو معقبة على تعويض الياء من إحدى القافين ﴿ من بين يديه ومن خلفه ﴾ من جميع جوانبه أو من الأعمال ما قدم وأخر ﴿ يحفظونه من أمر الله ﴾ من بأسه حين أذنب بالاستمهال والاستغفار له أو يحفظونه من المضار أو يراقبون أحواله من أجل أمر الله تعالى وقد قرىء به وقيل من بمعنى الباء وقيل من أمر الله صفة ثانية لمعقبات وقيل المعقبات الحراس والجلاوزة حول السلطان يحفظونه فى توهمه من قضاء الله تعالى ﴿ إن الله لا يغير ما بقوم ﴾ من النعمة والعافية ﴿ حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾ من الأعمال الصالحة أو ملكاتها التى هى فطرة الله التى فطر الناس عليها إلى أضدادها ﴿ وإذا أراد الله بقوم

سوءاً ﴾ لسوء اختيارهم واستحقاقهم لذلك ﴿ فلا مرد له ﴾ فلا رد له والعامل فى إذا ما دل عليه الجواب ﴿ وما لهم من دونه من وال ﴾ يلى أمرهم ويدفع عنهم السوء الذى أراده الله بهم بما قدمت أيديهم من تغيير ما بهم وفيه دلالة على أن تخلف مراده تعالى محال وإيذان بأنهم بما باشروه من إنكار البعث واستعجال السيئة واقتراح الآية قد غيروا ما بأنفسهم من الفطرة واستحقوا لذلك حلول غضب الله تعالى وعذابه .

﴿ هو الذى يريكم البرق خوفا ﴾ من الصاعقة ﴿ وطمعا ﴾ فى المطر فوجه تقديم الخوف على الطمع ظاهر لما أن المخوف عليه النفس أو الرزق العتيد والمطموع فيه الرزق المترقب وقيل المخوف أيضا من المطر لكن الخائف منه غير الطامع فيه كالخزاف والحراث ويأباه الترتيب اللهم إلا أن يتكلف ما أشير إليه من أن المخوف عتيد والمطموع فيه مترقب وانتصابهما إما على المصدرية أى فتخافون خوفا وتطمعون طمعا أو على الحالية من البرق أو المخاطبين بإضمار ذوى أو بجعل المصدر بمعنى المفعول أو الفاعل مبالغة أو على العلية[1] بتقدير المضاف أى إرادة خوف وطمع أو بتأويل الإخافة والإطماع ليتحد فاعل العلة والفعل المعلل وأما جعل المعلل هى الرؤية التى تتضمنها الإرادة على طريقة قول النابغة :

وحلت بيوتى فى يفاع ممنع تخال به راعى الحمولة طائرا
حذارا على أن لاينال معاونى ولا نسوتى حتى يمتن حرائرا

أى أحللت بيوتى حذارا فلا سبيل إليه لأن ماوقع فى معرض العلة الغائية لاسيما الخوف لا يصلح علة لرؤيتهم ﴿ وينشىء السحاب ﴾ الغمام المنسحب فى الجو ﴿ الثقال ﴾ بالماء وهى جمع ثقيلة وصف بها السحاب لكونها اسم جنس فى معنى الجمع والواحدة سحابة يقال سحابة ثقيلة وسحاب ثقال كما يقال امرأة كريمة ونسوة كرام ﴿ ويسبح الرعد ﴾ أى سامعوه من العباد الراجين للمطر

(١) فى ١٠ : أو على التعليل .

ملتبسين ﴿ بحمده ﴾ أى يضجون بسبحان الله والحمد لله وإسناده إلى الرعد لحمله لهم على ذلك أو يسبح الرعد نفسه على أن تسبيحه عبارة عن دلالته على وحدانيته تعالى وفضله المستوجب لحمده وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول سبحان من يسبح الرعد بحمده وإذا اشتد يقول اللهم لا تقتلنا بغضبك ولا تهلكنا بعذابك وعافنا قبل ذلك وعن على رضى الله عنه سبحان من سبحت له وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن اليهود سألت النبي عليه الصلاة والسلام عن الرعد فقال ملك من الملائكة موكل بالسحاب معه مخاريق من نار يسوق بها السحاب وعن الحسن خلق من خلق الله تعالى ليس بملك ﴿ والملائكة ﴾ أى يسبح الملائكة ﴿ من خيفته ﴾ من هيبته وإجلاله جل جلاله وقيل الضمير للرعد .

﴿ ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء ﴾ فيهلكه بذلك ﴿ وهم ﴾ أى الكفرة المخاطبون فى قوله تعالى (هو الذى يريكم البرق) وقد التفت إلى الغيبة إيذانا بإسقاطهم عن درجة الخطاب وإعراضا عنهم وتعديد الجناياتهم لدى كل من يستحق الخطاب كأنه قيل هو الذى يفعل أمثال هذه الأفاعيل العجيبة من إراءة البرق وإنشاء السحاب الثقال وإرسال الصواعق الدالة على كمال علمه وقدرته ويعقلها من يعقلها من المؤمنين أو الرعد نفسه أو الملك الموكل به والملائكة ويعملون بموجب ذلك من التسبيح والحمد والخوف من هيبته تعالى وهم أى الكفرة الذين حكيت هناتهم مع ذلهم وهوانهم وحقارة شأنهم ﴿ يجادلون فى الله ﴾ أى فى شأنه تعالى حيث يفعلون ما يفعلون من إنكار البعث واستعجال العذاب استهزاء واقتراح الآيات فالواو لعطف الجملة على ما قبلها من قوله تعالى (هو الذى يريكم البرق) الخ أو على قوله (الله يعلم ما تحمل) الخ ، وأما العطف على قوله تعالى (ويقول الذين كفروا) كما قيل فلا مجال له لأن قوله تعالى (الله يعلم) الخ استئناف لبيان بطلان قولهم ذلك ونظائره من استعجال العذاب وإنكار البعث قاطع لعطف ما بعده على ما قبله وقيل للحال أى فيصيب بالصواعق من يشاء وهم فى الجدال .

وقد أريد به ما أصاب أربد بن ربيعة أخا لبيد فإنه أقبل مع عامر بن الطفيل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يبغيانه الغوائل فدخلا المسجد وهو عليه الصلاة والسلام جالس فى نفر من الأصحاب رضى الله عنهم فاستشرفوا لجمال عامر وكان من أجمل الناس وقدكان أوصى إلى أربد أنه إذا رأيتنى أكلم محمدا عليه الصلاة والسلام فدر من خلفه واضربه بالسيف فجعل يكلمه عليه الصلاة والسلام فدار أربد من خلفه عليه الصلاة والسلام فاخترط من سيفه شبرا فحبسه الله تعالى فلم يقدر على سله وجعل عامر يومىء إليه فرأى النبى عليه الصلاة والسلام الحال فقال اللهم اكفنيهما بما شئت فأرسل الله عز وجل على أربد صاعقة فى يوم صحو صائف فأحرقته وولى عامر هاربا فنزل فى بيت امرأة سلولية فلما أصبح ضم عليه سلاحه وتغير لونه وركب فرسه فجعل يركض فى الصحراء ويقول ابرز يا ملك الموت ويقول الشعر ويقول واللات لئن أصحر لى[1] محمد وصاحبه يعنى ملك الموت لأنفذتهما برمحى فأرسل الله تعالى ملكا فلطمه بجناحه فأرداه فى التراب فخرجت على ركبته فى الوقت غدة عظيمة فعاد إلى بيت السلولية وهو يقول غدة كغدة البعير وموت فى بيت سلولية[2] ثم دعا بفرسه فركبه فأجراه حتى مات على ظهره وقيل أريد به ما روى عن الحسن أنه كان رجل من طواغيت العرب فبعث النبى عليه الصلاة والسلام نفرا من أصحابه يدعونه إلى الله عز وجل فقال لهم أخبرونى عما تدعوننى إليه ما هو ومم هو من ذهب أم من فضة أم من نحاس أم من حديد أم من در فاستعظموا مقالته فرجعوا إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقالوا ما رأينا رجلا أكفر قلبا ولا أعتى على الله منه فقال عليه الصلاة والسلام ارجعوا إليه فما زاد إلا مقالته الأولى وأخبث فرجعوا إليه عليه الصلاة والسلام وأخبروه بما صنع فقال عليه الصلاة والسلام ارجعوا إليه فبينما هم عنده ينازعونه إذ ارتفعت سحابة

---

(١) أى خرج إلى الصحراء .

(٢) رواه الأصبهانى فى سير السلف مطولا من طرق (خط) ورقة ٢٣٠ .

ورعدت وبرقت ورمت بصاعقة فاحترق الكافر فجاءوا يسعون ليخبروه عليه الصلاة والسلام بالخبر فاستقبلهم الأصحاب فقالوا احترق صاحبكم قالوا من أين علمتم قالوا أوحى إلى النبى صلى الله عليه وسلم ﴿وهو شديد المحال﴾ أى والحال أنه شديد المماحلة والمماكرة لأعدائه من محله إذا كاده وعرضه للهلاك ومنه تمحل إذا تكلف استعمال الحيل وقيل هو محال من المحل بمعنى القوة وقيل محول من الحول أو الحيلة أعل على غير قياس ويعضده أنه قرىء بفتح الميم على أنه مفعل من حال يحول إذا احتال ويجوز أن يكون بمعنى الفقار فيكون مثلا فى القوة والقدرة كقولهم فساعد الله أشد وموساه أحد .

الحق لله

﴿ له دعوة الحق ﴾ أى الدعوة الثابتة الواقعة فى محلها المجابة عند وقوعها والإضافة للإيذان بملابستها للحق واختصاصها به وكونه بمعزل من شائبة البطلان والضياع والضلال كما يقال كلمة الحق وقيل له دعوة الله سبحانه أى الدعوة اللائقة بحضرته كما فى قوله عليه الصلاة والسلام فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله والتعرض لوصف الحقية لتربية معنى الاستجابة والأولى هو الأول لقوله تعالى (وما دعاء الكافرين إلا فى ضلال) وتعلق الجملتين بما قبلهما من حيث أن إهلاك أربد وعامر محال من الله تعالى وإجابة لدعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم عليهما إن كانت الآية نزلت فى شأنهما أو من حيث إنه وعيد للكفرة على مجادلة رسول الله صلى الله عليه وسلم بحلول محاله بهم وتحذير لهم بإجابة دعوته عليهم ﴿والذين يدعون﴾ أى الأصنام الذين يدعوهم المشركون لحذف العائد ﴿ من دونه ﴾ من دون الله عز وجل ﴿ لا يستجيبون لهم بشىء ﴾ من طلباتهم ﴿ إلا كباسط كفيه إلى الماء ﴾ أى إلا استجابة كائنة كاستجابة الماء لمن بسط كفيه إليه من بعيد فالاستجابة مصدر من المبنى للفاعل على ما يقتضيه الفعل الظاهر أعنى لا يستجيبون ويجوز أن يكون من المبنى للمفعول ويضاف إلى الباسط بناء على استلزام المصدر من

المبنى للفاعل للمصدر من المبنى للمفعول وجودا وعدما فكأنه قيل لا يستجيبون لهم بشىء فلا يستجاب لهم إلا استجابة كائنة كاستجابة من بسط كفيه إلى الماء كما فى قوله :

وعضة دهر يا ابن مروان لم تدع   من المال إلا مسحت أو مجلف

أى لم تدع فلم يبق إلا مسحت أو مجلف ﴿ ليبلغ ﴾ أى الماء بنفسه من غير أن يؤخذ بشىء من إناء ونحوه ﴿ فاه وما هو ﴾ أى الماء ﴿ ببالغه ﴾ ببالغ فيه أبدا لكونه جماداً لا يشعر بعطشه ولا ببسط يده إليه فضلا عن الاستطاعة لما أراده من البلوغ إلى فيه شبه حال المشركين فى عدم حصولهم فى دعاء آلهتهم على شىء أصلا وركاكة رأيهم فى ذلك بحال عطشان هائم لا يدرى ما يفعل قد بسط كفيه من بعيد إلى الماء يبغى وصوله إلى فيه من غير ملاحظة التشبيه فى جميع مفردات الأطراف فإن الماء فى نفسه شىء نافع بخلاف آلهتهم والمراد نفى الاستجابة رأسا إلا أنه قد أخرج الكلام مخرج التهكم بهم فقيل لا يستجيبون لهم شيئاً من الاستجابة إلا استجابة كائنة فى هذه الصورة التى ليست فيها شائبة الاستجابة قطعا فهو فى الحقيقة من باب التعليق بالمحال وقرىء تدعون بالتاء وكباسط بالتنوين ﴿ وما دعاء الكافرين إلا فى ضلال ﴾ أى ذهاب وضياع وخسار .

﴿ ولله ﴾ وحده ﴿ يسجد ﴾ يخضع وينقاد لا لشىء غيره استقلالا ولا اشتراكا فالقصر ينتظم القلب والإفراد ﴿ من فى السموات والأرض ﴾ من الملائكة والثقلين ﴿ طوعا وكرها ﴾ أى طائعين وكارهين وانقياد طوع وكره أو حال طوع وكره فإن خضوع الكل لعظمة الله عز وجل وانقيادهم لإحداث ما أراده فيهم من أحكام التكوين والإعدام شاءوا أو أبوا ، وعدم مداخلة حكم غيره بل غير حكمه تعالى فى تلك الشئون مما لا يخفى على أحد ﴿ وظلالهم ﴾ أى وتنقاد له تعالى ظلال من له ظل منهم أعنى الإنس حيث

تتصرف على مشيئته وتتأتى لإرادته[1] فى الامتداد والتقلص والفيء والزوال ﴿ بالغدو والآصال ﴾ ظرف للسجود المقدر أو حال من الظلال وتخصيص الوقتين بالذكر مع أن انقيادها متحقق فى جميع أوقات وجودها لظهور ذلك فيهما والغدو جميع غداة كفتى فى جمع فتاة والآصال جمع أصيل وقيل جمع أصل وهو جمع أصيل وهو ما بين العصر والمغرب وقيل الغدو مصدر ويؤيده أنه قرىء والإيصال أى الدخول فى الأصيل هذا وقد قيل إن المراد حقيقة السجود فإن الكفرة حال الاضطرار وهو المعنى بقوله تعالى (وكرها) يخصون السجود به سبحانه قال تعالى (فإذا ركبوا فى الفلك دعوا الله مخلصين له الدين) ولا يبعد أن يخلق الله تعالى فى الظلال أفهاما وعقولا بها تسجد لله سبحانه كما خلقها للجبال حتى اشتغلت بالتسبيح وظهر فيها آثار التجلى كما قاله ابن الأنبارى ويجوز أن يراد بسجودها ما يشاهد فيها من هيئة السجود تبعا لأصحابها وأنت خبير بأن اختصاص سجود الكافر حالة الضرورة والشدة بالله سبحانه لا يجدى فإن سجودهم لأصنامهم حالة الرخاء مخل بالقصر المستفاد من تقديم الجار والمجرور فالوجه حمل السجود على الانقياد ولأن تحقيق انقياد الكل فى الإبداع والإعدام له تعالى أدخل فى التوبيخ على اتخاذ أولياء من دونه من تحقيق سجودهم له تعالى وتخصيص انقياد العقلاء بالذكر مع كون غيرهم أيضاً كذلك لأنهم العمدة وانقياد غيرهم على أنه بين ذلك بقوله عز وجل :

الحجة على المشركين

﴿ قل من رب السموات والأرض ﴾ فإنه لتحقيق أن خالقهما ومتولى أمرهما مع ما فيهما على الإطلاق هو الله سبحانه وقوله تعالى ﴿ قل الله ﴾ أمر بالجواب من قبله عليه الصلاة والسلام إشعارا بأنه متعين للجوابية فهو والخصم فى تقريره سواء أو أمر بحكاية اعترافهم إيذانا بأنه أمر لا بد لهم من ذلك كأنه قيل

---

(١) أى لإرادة الظل .

احك اعترافهم فبكتهم بما يلزمهم من الحجة وألقمهم الحجر أو أمر بتلقينهم ذلك إن تلعثموا فى الجواب حذرا من الإلزام فإنهم لا يتمالكون إذ ذاك ولا يقدرون على إنكاره ﴿ قل ﴾ إلزاما لهم وتبكيتا ﴿ أفاتخذتم ﴾ لأنفسكم والهمزة لإنكار الواقع كما فى قولك أضربت أباك لا لإنكار الوقوع كما فى قولك أضربت أبى والفاء للعطف على مقدر بعد الهمزة أى أعلمتم أن ربهما هو الله الذى ينقاد لأمره من فيهما كافة فاتخذتم عقيبه ﴿من دونه أولياء﴾ عاجزين ﴿ لا يملكون لأنفسهم نفعا ﴾ يستجلبونه ﴿ ولا ضرا ﴾ يدفعونه عن أنفسهم فضلا عن القدرة على جلب النفع لغيره ودفع الضرر عنـــه لا على أن يكون الإنكار متوجها إلى المعطوفين معا كما فى قوله تعالى (أفلا تعقلون) إذا قدر المعطوف عليه ألا تسمعون بل إلى ترتب الثانى على الأول مع وجوب أن يترتب عليه نقيضه كما إذا قدر أتسمعون والمعنى أبعد أن علمتم أن ربهما هو الله جل جلاله اتخذتم من دونه أولياء عجزة والحال أن قضية العلم بذلك إنما هو الاقتصار على توليـه فعكستم الأمر كما فى قوله تعالى (كان من الجن ففسق عن أمر ربه أفتتخذونه وذريته أولياء من دونى) ووصف الأولياء ههنا بعدم المالكية للنفع والضر فى ترشيح الإنكار وتأكيده كتقييد الاتخاذ هناك بالجملة الحالية أعنى قوله تعالى (وهم لكم عدو) فإن كلا منهما مما ينفى الاتخاذ المذكور ويؤكد إنكاره .

﴿قل﴾ تصويرا لآرائهم الركيكة بصورة المحسوس ﴿هل يستوى الأعمى﴾ الذى هو المشرك الجاهل بالعبادة ومستحقها ﴿ والبصير ﴾ الذى هو الموحد العالم بذلك أو الأول عبارة عن المعبود الغافل والثانى إشارة إلى المعبود العالم بكل شىء .

﴿أم هل تستوى الظلمات﴾ التى هى عبارة عن الكفر والضلال ﴿والنور﴾ الذى هو عبارة عن التوحيد والإيمان وقرىء بالياء ولما دل النظم الكريم على أن الكفرة فيما فعلوا من اتخاذ الأصنام أولياء من دون الله سبحانه فى الضلال المحض والخطأ البحت بحيث لا يخفى بطلانه على أحد وأنهم فى ذلك كالأعمى الذى لا يهتدى إلى شىء أصلا وليس لهم فى ذلك شبهة تصلح أن تكون منشأ

لغلطهم وخطئهم [1] فضلا عن الحجة أكد ذلك فقيل ﴿ أم جعلوا لله ﴾ أى بل أجعلوا له ﴿ شركاء خلقوا كخلقه ﴾ سبحانه والهمزة لإنكار الوقوع مع وقوعه وقوله (خلقوا كخلقه) هو الذى يتوجه إليه الإنكار وأما نفس الجعل فهو واقع لا يتعلق به الإنكار بهذا المعنى والمعنى أنهم لم يجعلوا لله تعالى شركاء خلقوا كخلقه ﴿فتشابه الخلق عليهم﴾ بسبب ذلك وقالوا هؤلاء خلقوا كخلقه تعالى فاستحقوا بذلك العبادة كما استحقها ليكون ذلك منشأ لخطئهم بل إنما جعلوا له شركاء ما هو بمعزل من ذلك بالمرة وفيه ما لا يخفى من التعريض بركاكة رأيهم والتهكم بهم ﴿ قل ﴾ تحقيقا للحق وإرشاداً لهم إليه ﴿ الله خالق كل شىء ﴾ كافة لا خالق سواه فيشاركه فى استحقاق العبادة ﴿وهو الواحد﴾ المتوحد بالألوهية المتفرد بالربوبية ﴿ القهار ﴾ لكل ما سواه فكيف يتوهم أن يكون له شريك وبعد ما مثل المشرك والشرك بالأعمى والظلمات والموحد والتوحيد بالبصير والنور مثل الحق الذى هو القرآن العظيم فى فيضانه من جناب القدس على قلوب خالية عنه متفاوتة الاستعداد وفى جريانه عليها ملاحظة وحفظا وعلى الألسنة مذاكرة وتلاوة وفى ثباته فيهما مع كونه عدا لحياتها الروحانية وما يتلوها من الملكات السنية والأعمال المرضية بالماء النازل من السماء السائل فى أودية يابسة لم تجر عادتها بذلك سيلانا مقدرا بمقدار اقتضته الحكمة فى إحياء الأرض وما عليها الباقى فيها حسبما يدور عليه منافع الناس وفى كونه حلية تتحلى به النفوس وتصل إلى البهجة الأبدية ومتاعا يتمتع به فى المعاش والمعابد بالذهب والفضة وسائر الفلزات التى يتخذ منها أنواع الآلات والادوات وتبقى منتفعا بها مدة طويلة ومثل الباطل الذى ابتلى به الكفرة لقصور نظرهم بما يظهر فيهما من غير مداخلة له فيهما وإخلال بصفائهما من الزبد الرابى فوقهما المضمحل سريعا فقيل :

﴿ أنزل من السماء ﴾ أى من جهتها ﴿ ماء ﴾ أى كثيرا أو نوعا منه وهو

---

(١) فى ١٠ : الغلط والخطأ .

ماء المطر ﴿ فسالت ﴾ بذلك ﴿ أودية ﴾ واقعة فى مواقعه لا جميع الأودية إذ الأمطار لا تستوعب الأقطار وهو جمع واد وهو مفرج بين جبال أو تلال أو آكام على الشذوذ كناد وأندية وناج وأنجية قالوا وجهه أن فاعلا يجيء بمعنى فعيل كناصر ونصير وشاهد وشهيد وعالم وعليم وحيث جمع فعيل على أفعلة كجريب وأجربة جمع فاعل أيضاً على أفعلة فإن أريد بها مايسيل فيها مجازا فإسناد السيلان إليها حقيق وإن أريد معناها الحقيق فالإسناد مجازى كما فى جرى النهر وإيثار التمثيل بها على الأنهار المستمرة الجريان لوضوح المماثلة بين شأنها وشأن ما مثل بها كما أشير إليه ﴿ بقدرها ﴾ أى سالت ملتبسة بمقدارها الذى عينه الله تعالى واقتضته حكمته فى نفع الناس أو بمقدارها المتفاوت قلة وكثرة بحسب تفاوت محالها صغرا وكبرا لا بكونها مالئة لها منطبقة عليها بل بمجرد قلتها بصغرها المستلزم لقلة موارد الماء وكثرتها بكبرها المستدعى لكثرة الموارد فإن مورد السيل الجارى فى الوادى الصغير أقل من مورد السيل الجارى فى الوادى الكبير هذا إن أريد بالأودية ما يسيل فيها أما إن أريد بها معناها الحقيق فالمعنى سالت مياهها بقدر تلك الأودية على نحو ما عرفته آنفا أو يراد بضميرها مياهها بطريق الاستخدام ويراد بقدرها ما ذكر أولا من المعنيين ﴿ فاحتمل السيل ﴾ الجارى فى تلك الأودية أى حمل معه ﴿ زبدا ﴾ أى غثاء ورغوة وإنما وصف ذلك بقوله تعالى ﴿ رابيا ﴾ أى عاليا منتفخا فوقه بيانا لما أريد بالاحتمال المحتمل لكون المحمول غير طاف كالأشجار الثقيلة وإنما لم يدفع ذلك الاحتمال بأن يقال فاحتمل السيل فوقه للإيذان بأن تلك الفوقية مقتضى شأن الزبد لا من جهة المحتمل تحقيقا للمماثلة بينه وبين ما مثل به من الباطل الذى شأنه الظهور فى بادىء الرأى من غير مداخلة فى الحق .

﴿ ومما يوقدون عليه فى النار ﴾ أى يفعلون الإيقاد عليه كائنا فى النار والضمير للناس أضمر مع عدم سبق الذكر لظهوره وقرىء بالخطاب ﴿ ابتغاء حلية أو متاع ﴾ أى لطلب اتخاذ حلية وهى ما يتزين ويتجمل به كالحلى المتخذة من الذهب والفضة أو اتخاذ متاع وهو مايتمتع به من الأوانى والآلات المتخذة

من الرصاص والحديد وغير ذلك من الفلزات ﴿ زبد ﴾ خبث ﴿ مثله ﴾ مثل ما ذكر من زبد الماء فى كونه رابيا فوقه فقوله زبد مبتدأ خبره الظرف المقدم ومن ابتدائية دالة على مجرد كونه مبتدأ وناشئا منه لا تبعيضية معربة عن كونه بعضا منه كما قيل لإخلال ذلك بالتمثيل وفى التعبير عن ذلك بالموصول والتعرض لما فى حيز الصلة من إيقاد النار عليه جرى على سنن الكبرياء بإظهار التهاون به كما فى قوله تعالى (فأوقد لى يا هامان على الطين) وإشارة إلى كيفية حصول الزبد منه بذوبانه وفى زيادة فى النار إشعار بالمبالغة فى الاعتمال للإذابة وحصول الزبد كما أشير إليه وعدم التعرض لإخراجه من الأرض لعدم دخل ذلك العنوان فى التمثيل كما أن لعنوان إنزال الماء من السماء دخلا فيه حسبما فصل فيما سلف بل له إخلال بذلك .

﴿ كذلك ﴾ أى مثل ذلك الضرب البديع المشتمل على نكت رائقة ﴿ يضرب الله الحق والباطل ﴾ أى مثل الحق ومثل الباطل والحذف للإنباء عن كمال التماثل بين الممثل والممثل به كأن المثل المضروب عين الحق والباطل وبعد تحقيق التمثيل مع الإيماء فى تضاعيف ذلك إلى وجوه المماثلة على أبدع وجوه وآنقها حسبما أشير إليه فى مواقعها بين عاقبة كل من المثلين على وجه التمثيل مع التصريح ببعض ما به المماثلة من الذهاب والبقاء تتمة للغرض من التمثيل من الحث على اتباع الحق الثابت والردع عن الباطل الزائد فقيل ﴿ فأما الزبد ﴾ من كل منهما ﴿ فيذهب جفاء ﴾ أى مرميا به وقرىء جفالا والمعنى واحد ﴿ وأما ماينفع الناس ﴾ منهما كالماء الصافى والفلز الخالص ﴿ فيمكث فى الأرض ﴾ أما الماء فيثبت بعضه فى مناقعه ويسلك بعضه فى عروق الأرض إلى العيون والقنا والآبار وأما الفلز فيصاغ من بعضه أنواع الحلى ويتخذ من بعضه أصناف الآلات والأدوات فينتفع بكل من ذلك أنواع الانتفاعات مدة طويلة فالمراد بالمكث فى الأرض ما هو أعم من المكث فى نفسها ومن البقاء فى أيدى المتقلبين فيها وتغيير ترتيب اللف الواقع فى الفذلكة الموافق للترتيب الواقع فى التمثيل لمراعاة

الملاءمة بين حالتى الذهاب والبقاء وبين ذكريهما فإن المعتبر إنما هو بقاء الباقى بعد ذهاب الذاهب لا قبله .

﴿ كذلك يضرب الله ﴾ أى مثل ذلك الضرب العجيب يضرب ﴿ الأمثال ﴾ فى كل باب إظهارا لكمال اللطف والعناية فى الإرشاد والهداية وفيه تفخيم لشأن هذا التمثيل وتأكيد لقوله (كذلك يضرب الله الحق والباطل) إما باعتبار ابتناء هذا التمثيل الأول أو بجعل ذلك إشارة إليهما جميعا وبعد ما بين شأن كل من الحق والباطل حالا ومآلا أكمل بيان شرع فى بيان حال أهل كل منهما مآلا تكميلا للدعوة ترغيبا وترهيبا فقيل :

جزاء المؤمنين والكافرين

﴿ للذين استجابوا لربهم ﴾ إذ دعاهم إلى الحق بفنون الدعوة التى من جملتها ضرب الأمثال فإنه ألطف ذريعة إلى تفهيم القلوب الغبية وأقوى وسيلة إلى تسخير النفوس الأبية كيف لا وهو تصوير للمعقول بصورة المحسوس وإبراز لأوابد المعانى فى هيئة المأنوس فأى دعوة أولى منه بالاستجابة والقبول ﴿ الحسنى ﴾ أى المثوبة الحسنى وهى الجنة ﴿ والذين لم يستجيبوا له ﴾ وعاندوا الحق الجلى ﴿ لو أن لهم ما فى الأرض ﴾ من أصناف الأموال ﴿ جميعا ﴾ بحيث لم يشذ منه شاذ فى أقطارها أو مجموعا غير متفرق بحسب الأزمان ﴿ ومثله معه لافتدوا به ﴾ أى بما فى الأرض ومثله معه جميعا ليتخلصوا عما بهم وفيه من تهويل ما يلقاهم ما لا يحيط به البيان فالموصول مبتدأ والشرطية كما هى خبره لكن لا على أنها وضعت موضع السوآى فوقعت فى مقابلة الحسنى الواقعة فى القرينة الأولى لمراعاة حسن المقابلة فصار كأنه قيل وللذين لم يستجيبوا له السوآى كما يوهم فإن الشرطية وإن دلت على كمال سوء حالهم لكنها بمعزل من القيام مقام لفظ السوآى مصحوبا باللام الداخلة على الموصول أو ضميره وعليها يدور حصول المرام وإنما الواقع فى تلك المقابلة سوء الحساب فى قوله تعالى

﴿ أولئك لهم سوء الحساب ﴾ وحيث كان اسم الإشارة الواقع مبتدأ فى هذه الجملة عبارة عن الموصول الواقع مبتدأ فى الجملة السابقة كان خبرها أعنى الجملة الظرفية خبرا عن الموصول فى الحقيقة ومبينا لإبهام مضمون الشرطية الواقعة خبرا عنه أولا ولذلك ترك العطف فصار كأنه قيل والذين لم يستجيبوا له سوء الحساب وذلك فى قوة أن يقال وللذين لم يستجيبوا له سوء الحساب مع زيادة تأكيد فتم حسن المقابلة على أبلغ وجه وآكده ثم بين مؤدى ذلك فقيل:

﴿ ومأواهم ﴾ أى مرجعهم ﴿ جهنم ﴾ وفيه نوع تأكيد لتفسير الحسنى بالجنة ﴿ وبئس المهاد ﴾ أى المستقر والمخصوص بالذم محذوف وقيل اللام فى قوله تعالى (للذين استجابوا لربهم) متعلقة بقوله (يضرب الله الأمثال) أى الأمثال السالفة وقوله الحسنى صفة للمصدر أى استجابوا الاستجابة الحسنى وقوله (والذين لم يستجيبوا له) معطوف على الموصول الأول وقوله لو أن لهم الخ كلام مستأنف مسوق لبيان ما أعد لغير المستجيبين من العذاب والمعنى كذلك يضرب الله الأمثال للمؤمنين المستجيبين والكافرين المعاندين أى هما مثلا الفريقين وأنت خبير بأن عنوان الاستجابة وعدمها لامناسبة بينه وبين مايدور عليه أمر التمثيل وأن الاستعمال المستفيض دخول اللام على من يقصد تذكيره بالمثل نعم قد يستعمل فى هذا المعنى أيضاً كما فى قوله سبحانه (ضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون) ونظائره على أن بعض الأمثال المضروبة لاسيما المثل الأخير الموصول بالكلام ليس مثل الفريقين بل مثل للحق والباطل ولا مساغ لجعل الفريقين مضروبا لهم أيضا بأن يجعل فى حكم أن يقال كذلك يضرب الله الأمثال للناس إذ لاوجه حينئذ لتنويعهم إلى المستجيبين وغير المستجيبين فتأمل.

﴿ أفمن يعلم أن ما أنزل إليك من ربك ﴾ من القرآن الذى مثل بالماء المنزل من السماء والإبريز الخالص فى المنفعة والجدوى ﴿ الحق ﴾ الذى لا حق وراءه أو الحق الذى أشير إليه بالأمثال المضروبة فيستجيب له ﴿ كمن هو أعمى ﴾ عمى القلب لايشاهده وهو نار على علم ولا يقدر قدره وهو فى أقصى مراتب

العلو والعظم فيبق حائرا فى ظلمات الجهل وغياهب الضلال أو لا يتذكر بما ضرب من الأمثال أى كن لا يعلم ذلك إلا أنه أريد زيادة تقبيح حاله فعبر عنه بالأعمى وإيراد الفاء بعد الهمزة لتوجيه الإنكار إلى ترتيب توهم المماثلة على ظهور كل حال منهما بما ضرب من الأمثال وبين المصير والمآل كأنه قيل أبعد ما بين حال كل من الفريقين ومآلهما يتوهم المماثلة بينهما ثم استؤنف فقيل ﴿ إنما يتذكر ﴾ بما ذكر من المذكرات فيقف على ما بينهما من التفاوت والتنائى ﴿ أولو الألباب ﴾ أى العقول الخالصة المبرأة من مشايعة الإلف ومعارضة الوهم .

صفات المؤمنين والكافرين

﴿ الذين يوفون بعهد الله ﴾ بما عقدوا على أنفسهم من الاعتراف بربوبيته تعالى حين قالوا بلى أو ماعهد الله عليهم فى كتبه ﴿ ولا ينقضون الميثاق ﴾ ما وثقوه على أنفسهم وقبلوه من الإيمان بالله وغيره من المواثيق بينهم وبين الله وبين العباد وهو تعميم بعد تخصيص وفيه تأكيد للاستمرار المفهوم من صيغة المستقبل ﴿ والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ﴾ من الرحم وموالاة المؤمنين والإيمان بجميع الأنبياء المجمعين على الحق من غير تفريق بين أحد منهم ويندرج فيه مراعاة جميع حقوق الناس فى حقوق كل ما يتعلق بهم من الهر والدجاج ﴿ ويخشون ربهم ﴾ خشية جلال وهيبة فلا يعصونه فيما أمر به ﴿ ويخافون سوء الحساب ﴾ فيحاسبون أنفسهم قبل أن يحاسبوا وفيه دلالة على كمال فظاعته حسبما ذكر فيما قبل ﴿ والذين صبروا ﴾ على كل ما تكرهه النفس من الأفعال والتروك ﴿ ابتغاء وجه ربهم ﴾ طلبا لرضاه خاصة من غير أن ينظروا إلى جانب الخلق رياء وسمعة ولا إلى جانب النفس زينة وعجبا وحيث كان الصبر على الوجه المذكور ملاك الأمر فى كل ما ذكر من الصلاة السابقة واللاحقة أورد على صيغة الماضى اعتناء بشأنه ودلالة على وجوب تحققه فإن ذلك مما لا بد منه إما فى أنفس الصلات كما فيما عدا الأولى والرابعة والخامسة

أوفى إظهار أحكامها كما فى الصلات الثلاث المذكورات فإنها وإن استغنت عن الصبر فى أنفسها حيث لامشقة على النفس فى الاعتراف بالربوبية والخشية والخوف لكن إظهار أحكامها والجرى على موجبها غير خال عن الاحتياج إليه ﴿ وأقاموا الصلوة ﴾ المفروضة ﴿ وأنفقوا مما رزقناهم ﴾ أى بعضه الذى يجب عليهم إنفاقه ﴿ سرا ﴾ لمن لم يعرف بالمال أو لمن لا يتهم بترك الزكاة أو عند إنفاقه وإعطائه من تمنعه المروءة من أخذه ظاهرا ﴿ وعلانية ﴾ لمن لم يكن كما ذكر أو الأول فى التطوع والثانى فى الفرض .

﴿ ويدرؤن بالحسنة السيئة ﴾ أى يجازون الإساءة بالإحسان أو يتبعون الحسنة السيئة فتمحوها . عن ابن عباس رضى الله عنهما يدفعون بالحسن من الكلام مايرد عليهم من سيء غيرهم وعن الحسن إذا حرموا أعطوا وإذا ظلموا عفوا وإذا قطعوا وصلوا وعن ابن كيسان إذا أذنبوا تابوا وقيل إذا رأوا منكرا أمروا بتغييره وتقديم المجرور على المنصوب لإظهار كمال العناية بالحسنة ﴿ أولئك ﴾ المنعوتون بالنعوت الجليلة والملكات الجميلة وهو مبتدأ خبره الجملة الظرفية أعنى قوله تعالى ﴿ لهم عقبى الدار ﴾ أى عاقبة الدنيا وماينبغى أن يكون مآل أمر أهلها وهى الجنة وقيل الجار والمجرور خبر لأولئك وعقبى الدار فاعل الاستقرار وأيا ماكان فليس فيه قصر حتى يرد أن بعض مافى حيز الصلة ليس من العزائم التى يخل إخلالها بالموصول إلى حسن العاقبة والجملة خبر للموصولات المتعاطفة صفات لأولى الألباب عن طريقة المدح من غير أن يقصد أن يكون للصلات المذكورة مدخل فى التذكر ﴿ جنات عدن ﴾ بدل من عقبى الدار أو مبتدأ خبره ﴿ يدخلونها ﴾ والعدن الإقامة ثم صار علما لجنة من الجنات أى جنات يقيمون فيها وقيل هو بطنان الجنة ﴿ ومن صلح من آبائهم ﴾ جمع أبوى كل واحد منهم فكأنه قيل من آبائهم وأمهاتهم ﴿ وأزواجهم وذرياتهم ﴾ وهو عطف على المرفوع فى يدخلون وإنما ساغ ذلك للفصل بالضمير الآخر أو مفعول معه والمعنى إنه يلحق بهم من صلح من أهلهم وإن لم يبلغ مبلغ فضلهم تبعا لهم تعظيما لشأنهم وهو دليل على أن الدرجة تعلو بالشفاعة وأن

وأن الموصوف بتلك الصفات يقرن بعضهم ببعض لما بينهم من القرابة والوصلة في دخول الجنة زيادة في أنسهم وفي التقييد بالصلاح قطع للأطماع الفارغة لمن يتمسك بمجرد حبل الأنساب ﴿ والملائكة يدخلون عليهم من كل باب ﴾ من أبواب المنازل أو من أبواب الفتوح والتحف قائلين :

﴿ سلام عليكم ﴾ بشارة لهم بدوام السلامة ﴿ بما صبرتم ﴾ متعلق بعليكم أو بمحذوف أي هذه الكرامة العظمى بما صبرتم أي بسبب صبركم أو بدل ما احتملتم من مشاق الصبر ومتاعبه والمعنى لئن تعبتم في الدنيا لقد استرحتم الساعة وتخصيص الصبر بما ذكر من بين الصلات السابقة لما قدمناه من أن له دخلا في كل منها ومزية زائدة من حيث أنه ملاك الأمر في كل منها وأن شيئاً منها لا يعتد به إلا بأن يكون لابتغاء وجه الرب تعالى وتقدس ﴿ فنعم عقبى الدار ﴾ أي فنعم عقبى الدار الجنة وقرىء بفتح النون والأصل نعم فسكن العين بنقل حركتها إلى النون تارة وبدونه أخرى وعن النبي عليه السلام أنه كان يأتي قبور الشهداء على رأس كل حول فيقول « سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار » وكذا عن الخلفاء الأربعة رضوان الله عليهم أجمعين .

ناقضوا العهد

﴿ والذين ينقضون عهد الله ﴾ أريد بهم من يقابل الأولين ويعاندهم في الاتصاف بنقائض صفاتهم ﴿ من بعد ميثاقه ﴾ من بعدما أوثقوه من الاعتراف والقبول ﴿ ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ﴾ من الإيمان بجميع الأنبياء المجمعين على الحق حيث يؤمنون ببعضهم ويكفرون ببعضهم ومن حقوق الأرحام وموالاة المؤمنين وغير ذلك مما لا يراعون حقوقه من الأمور المعدودة فيما سلف وإنما لم يتعرض لنفي الخشية والخوف عنهم صريحا لدلالة النقض والقطع على ذلك وأما عدم التعرض لنفي الصبر المذكور فلأنه إنما اعتبر تحققه في ضمن الحسنات المعدودة ليقعن معتدا بهن فلا وجه لنفيه عمن بينه وبين الحسنات بعد المشرقين كما لا وجه لنفي الصلاة والزكاة عمن لا يحوم حول أصل

الإيمـان بالله تعالى فضلا عن فروع الشرائع وإن أريد بالإنفاق التطوع فنفيه مندرج تحت قطع ما أمر الله تعالى بوصله وأما دره السيئة بالحسنة فانتفاؤه عنهم ظاهر مما سبق ولحق فإن من يجازى إحسانه عز وجل بنقض العهد ومخالفة الأمر ويباشر [1] الفساد بدأ حسبما يحكيه قوله عز وعلا ﴿ ويفسدون فى الأرض ﴾ أى بالظلم وتهييج الفتن كيف يتصور منه مجازاة الإساءة بالإحسان على أن ذلك يشعر بأن له دخلا فى الإفضاء إلى العقوبة التى ينبىء عنها قوله تعالى ﴿ أولئك ﴾ الخ أى أولئك الموصوف بما ذكر من القبائح ﴿لهم﴾ بسبب ذلك ﴿ اللعنة ﴾ أى الإبعاد من رحمة الله تعالى ﴿ ولهم ﴾ مع ذلك ﴿ سوء الدار ﴾ أى سوء عاقبة الدنيا أو عذاب جهنم فإنها دارهم لأن ترتيب الحكم على الموصول مشعر بعلية الصلة له ولا يخفى أنه لادخل له فى ذلك على أكثر التفاسير فإن مجازاة السيئة بمثلها مأذون فيها ودفع الكلام السيىء بالحسن وكذا الإعطاء عند الظلم والوصل عند القطع ليس مما يورث تركه تبعة وأما ما اعتبر اندراجه تحت الصلة الثانية من الإخلال ببعض الحقوق المندوبة فلا ضير فى ذلك لأن اعتباره من حيث أنه من مستتبعات الإخلال بالعزائم بالكفر ببعض الأنبياء وعقوق الوالدين وترك سائر الحقوق الواجبة وتكرير لهم للتأكيد والإيذان باختلافهما واستقلال كل منهما فى الثبوت .

﴿ الله يبسط الرزق ﴾ أى يوسعه ﴿ لمن يشاء ﴾ من عباده ﴿ ويقدر ﴾ أى يضيقه على من يشاء حسبما تقتضيه الحكمة من غير أن يكون لأحد مدخل فى ذلك ولا شعور بحكمته فربما يبسطه للكافر إملاء واستدراجا وربما يضيقه على المؤمن زيادة لأجره فلا يغتر ببسطه للكافر كما لا يقنط بقدره المؤمن ﴿ وفرحوا ﴾ أى أهل مكة فرح أشر وبطر لا فرح سرور بفضل الله تعالى ﴿ بالحيوة الدنيا ﴾ وما بسط لهم فيها من نعيمها ﴿ وما الحيوة الدنيا ﴾ وما يتبعها من النعيم ﴿ فى الآخرة ﴾ أى فى جنب نعيم الآخرة ﴿ إلا متاع ﴾ إلا شىء نزر

---

(١) فى ١٠ ومباشرة الفساد .

يتمتع به كعجالة الراكب وزاد الراعى والمعنى أنهم رضوا بحظ الدنيا معرضين عن نعيم الآخرة والحال أن ما أشروا به فى جنب ما أعرضوا عنه شىء قليل النفع سريع النفاد .

دحض حجة الكفار

﴿ ويقول الذين كفروا ﴾ أى أهل مكة وإيثار هذه الطريقة على الإضمار مع ظهور إرادتهم عقيب ذكر فرحهم بالحياة الدنيا لذمهم والتسجيل عليهم بالكفر فيما حكى عنهم من قولهم ﴿ لولا أنزل عليه آية من ربه ﴾ فإن ذلك فى أقصى مراتب المكابرة والعناد كأن ما أنزل عليه عليه الصلاة والسلام من الآيات العظام الباهرة ليس بآية حتى اقترحوا ما تقتضيه الحكمة من الآيات المحسوسة التى لا يبقى لأحد بعد ذلك طاقة بعدم القبول ولذلك أمر فى الجواب بقوله تعالى ﴿ قل إن الله يضل من يشاء ﴾ إضلاله مشيئة تابعة للحكمة الداعية إليها أى يخلق فيه الضلال لصرفه اختياره إلى تحصيله ويدعه منهمكا فيه لعلمه بأنه لا ينجع فيه اللطف ولا ينفعه الإرشاد كمن كان على صفتكم فى المكابرة والعناد وشدة الشكيمة والغلو فى الفساد فلا سبيل له إلى الاهتداء ولو جاءته كل آية ﴿ ويهدى إليه ﴾ أى إلى جنابه العلى الكبير هداية موصلة إليه لا دلالة مطلقة على ما يوصل إليه فإن ذلك غير مختص بالمهتدين وفيه من تشريفهم ما لا يوصف ﴿ من أناب ﴾ أقبل إلى الحق وتأمل فى تضاعيف ما نزل من دلائله الواضحة وحقيقة الإنابة الدخول فى نوبة الخير وإيثار إيرادها فى الصلة على إيراد المشيئة كما فى الصلة الأولى للتنبيه على الداعى إلى الهداية بل إلى مشيئتها والإشعار بما دعا إلى المشيئة الأولى من المكابرة وفيه حث للكفرة على الإقلاع عما هم عليه من العتو والعناد وإيثار صيغة الماضى للإيماء إلى استدعاء الهداية لسابقة الإنابة كما أن إيثار صيغة المضارع فى الصلة الأولى للدلالة على استمرار المشيئة حسب استمرار مكابرتهم .

﴿ الذين آمنوا ﴾ بدل من أناب فإن أريد بالهداية الهداية المستمرة فالأمر ظاهر لظهور كون الإيمان مؤديا إليها وإن أريد إحداثها فالمراد بالذين آمنوا

الذين صار أمرهم إلى الإيمان كما فى قوله تعالى (هدى للمتقين) أى الصائرين إلى التقوى وإلا فالإيمان لا يؤدى إلى الهداية نفسها أو خبر مبتدأ محذوف أى هم الذين آمنوا أو منصوب على المدح ﴿ وتطمئن قلوبهم ﴾ أى تستقر وتسكن ﴿بذكر الله ﴾ بكلامه المعجز الذى لا ريب فيه كقوله تعالى (وهذا ذكر مبارك أنزلناه) وقوله (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) ويعلمون أن لا آية أعظم منه فيقترحوها والعدول إلى صيغة المضارع لإفادة دوام الاطمئنان وتجدده حسب تجدد الآيات وتعددها ﴿ألا بذكر الله ﴾وحده ﴿ تطمئن القلوب ﴾ دون غيره من الأمور التى تميل إليها النفوس من الدنيويات وهذا ظاهر وأما سائر المعجزات فالقصر من حيث أنها ليست فى إفادة الطمأنينة بالنسبة إلى من لم يشاهدها بمثابة القرآن المجيد فإنه معجزة باقية إلى يوم القيامة يشاهدها كل أحد وتطمئن به القلوب كافة وفيه إشعار بأن الكفرة ليست لهم قلوب [تفقه][(1)] وأفئدتهم هواء حيث لم يطمئنوا بذكر الله تعالى ولم يعدوه آية وهو أظهر الآيات وأبهرها وقيل تطمئن قلوبهم بذكر رحمته ومغفرته بعد القلق والاضطراب من خشية الله كقوله تعالى (ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله) أو بذكر دلائله الدالة على وحدانيته أو بذكره جل وعلا أنسا به وتبتلا إليه فالمراد بالهداية دوامها واستمرارها ﴿الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ بدل من القلوب على حذف المضاف بدل الكل حسبما رمز اليه أى قلوب الذين آمنوا وفيه إيماء إلى أن الإنسان إنما هو القلب أو مبتدأ خبره الجملة الدعائية على التأويل أعنى قوله ﴿ طوبى لهم ﴾ أو خبر مبتدأ مضمر أو نصب على المدح فطوبى لهم حال عاملها الفعلان وطوبى مصدر من طاب كبشرى وزلفى والواو منقلبة من الياء كموقن وموسر وقرأ مكوزة الأعرابى طيبى لتسلم الياء والمعنى أصابوا خيرا ومحلها النصب كسلاما لك أو الرفع على الابتداء وإن كانت نكرة لكونها فى معنى الدعاء كسلام عليك يدل على ذلك القراءة فى قوله تعالى ﴿ وحسن مآب ﴾ بالنصب والرفع واللام فى لهم للبيان مثلها فى سقيالك .

---

(١) سقطت من ط

تسلية النبي صلى الله عليه وسلم

﴿ كذلك ﴾ مثل ذلك الإرسال العظيم الشأن المصحوب بهذه المعجزة الباهرة ﴿أرسلناك فى أمة قد خلت﴾ أى مضت ﴿ من قبلها أمم ﴾ كثيرة قد أرسل اليهم رسل ﴿ لتتلو ﴾ لتقرأ ﴿ عليهم الذى أوحينا اليك ﴾ من الكتاب العظيم الشأن وتهديهم إلى الحق رحمة لهم وتقديم المجرور على المنصوب من قبيل الإبهام ثم البيان كما فى قوله تعالى (ووضعنا عنك وزرك) وفيه مالا يخفى من ترقب النفس إلى ما سيرد وحسن قولها عند وروده عليها ﴿ وهم ﴾ أى والحالة أنهم ﴿يكفرون بالرحمن﴾ بالبليغ الرحمة الذى وسعت كل شىء رحمته وأحاطت به نعمته والعدول إلى المظهر المتعرض لوصف الرحمة من حيث أن الإرسال ناشىء منها كما قال تعالى (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) فلم يقدروا قدره ولم يشكروا نعمه لا سيما ما أنعم به عليهم بإرسال مثلك إليهم وأنزل القرآن الذى هو مدار المنافع الدينية والدنيوية عليهم وقيل نزلت فى مشركى مكة حين أمروا بالسجود فقالوا وما الرحمن ؟

﴿قل هو﴾ أى الرحمن الذى كفرتم به وأنكرتم معرفته ﴿ ربى ﴾ الرب فى الأصل بمعنى التربية وهى تبليغ الشىء إلى كماله شيئا فشيئا ثم وصف به مبالغة كالصوم والعدل وقيل هو نعت أى خالق ومبلغى إلى مراتب الكمال وإيراده قبل قوله ﴿لا إله إلا هو﴾ أى لا مستحق للعبادة سواه تنبيه على أن استحقاق العبادة منوط بالربوبية وقيل إن أبا جهل سمع النبي عليه الصلاة والسلام يقول يا ألله يا رحمن فرجع إلى المشركين فقال إن محمدا يدعو إلهين فنزلت ونزل قوله تعالى قل (ادعوا الله أو ادعوا الرحمن) الآية ﴿عليه توكلت ﴾ فى جميع أمورى لا سيما فى النصرة عليكم لا على أحد سواه ﴿وإليه﴾ خاصة ﴿ متاب ﴾ أى توبتى كقوله تعالى (واستغفر لذنبك) أمر عليه السلام بذلك إبانة لفضل التوبة ومقدارها عند الله تعالى وأنها صفة الأنبياء وبعثا للكفرة على الرجوع عما هم عليه بأبلغ وجه وألطفه فإنه عليه السلام حيث أمر بها وهو منزه عن

شائبة اقتراف ما يوجبها من الذنب وإن قل فتوبتهم وهم عاكفون على أنواع الكفر والمعاصى مما لابد منه أصلا وقد فسر المتاب بمطلق الرجوع فقيل مرجعى ومرجعكم وزيد فيحكم بينى وبينكم وقد قيل فيثيبنى على مصابرتكم فتأمل ﴿ ولو أن قرآنا ﴾ أى قرآنا ما وهو اسم أن والخبر قوله تعالى ﴿ سيرت به الجبال ﴾ وجواب لو محذوف لانسياق الكلام إليه بحيث يتلقفه السامع من التالى والمقصود إما بيان عظم شأن القرآن العظيم وفساد رأى الكفرة حيث لم يقدروا قدره العلى ولم يعدوه من قبيل الآيات فاقترحوا غيره مما أوتى موسى وعيسى عليهما السلام وإما بيان غلوهم فى المكابرة والعناد وتماديهم فى الضلال والفساد فالمعنى على الأول لو أن قرآنا سيرت به الجبال أى بإنزاله أو بتلاوته عليها وزعزعت عن مقارها كما فعل ذلك بالطور لموسى عليه الصلاة والسلام ﴿ أو قطعت به الأرض ﴾ أى شققت وجعلت أنهارا وعيونا كما فعل بالحجر حين ضرب به عليه السلام بعصاه أو جعلت قطعا متصدعة ﴿ أو كلم به الموتى ﴾ أى بعد أن أحيى بقراءته عليها كما أحييت لعيسى عليه السلام لكان ذلك هذا القرآن لكونه الغاية القصوى فى الانطواء على عجائب آثار قدرة الله تعالى وهيبته عز وجل كقوله تعالى (لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعا من خشية الله) لا فى الإعجاز إذ لا مدخل له فى هذه الآثار ولا فى التذكير والإنذار والتخويف لاختصاصها بالعقلاء مع أنه لا علاقة لها بتكليم الموتى واعتبار فيض العقول إليها مخل بالمبالغة المقصودة وتقديم المجرور فى المواضع الثلاثة على المرفوع لما مر غير مرة من قصد الإبهام ثم التفسير لزيادة التقرير لأن بتقديم ما حقه التأخير تبقى النفس مستشرفة ومترقبة إلى المؤخر أنه ماذا فيتمكن عند وروده عليها فضل تمكن وكلمة أو فى الموضعين لمنع الخلو لا لمنع الجمع واقتراحهم وإن كان متعلقا بمجرد ظهور مثل هذه الأفاعيل العجيبة على يده عليه السلام لا بظهورها بواسطة القرآن لكن ذلك حيث كان مبنيا على عدم اشتماله فى زعمهم على الخوارق نيط ظهورها به مبالغة فى بيان اشتماله عليها وأنه حقيق بأن يكون مصدراً لكل خارق وإبانة لركاكة رأيهم فى شأنه

الرفيع كأنه قيل لو أن ظهور أمثال ما اقترحوه من مقتضيات الحكمة لكان مظهرها هذا القرآن الذى لم يعدوه آية وفيه من تفخيم شأنه العزيز ووصفهم بركاكة العقل ما لا يخفى ﴿ بل لله الأمر جميعاً ﴾ أى له الأمر الذى عليه يدور فلك الأكوان وجودا وعدما يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد لما يدعو إليه من الحكم البالغة وهو إضراب عما تضمنته الشرطية من معنى النفى لا بحسب منطوقة بل باعتبار موجبه ومؤداه أى لو أن قرآنا فعل به ما ذكر لكان ذلك هـذا القرآن ولكن لم يفعل بل فعل ما عليه الشأن الآن لأن الأمر كله له وحده فالإضراب ليس بمتوجه إلى كون الأمر لله سبحانه بل إلى ما يؤدى إليه ذلك من كون الشأن على ما كان لما تقتضيه الحكمة من بناء التكليف على الاختيار .

﴿ أفلم ييأس الذين آمنوا ﴾ أى أفلم يعلموا على لغة هوازن أو قوم من النخع أو على استعمال اليأس فى معنى العلم لتضمنه له ويؤيده قراءة على وابن عباس وجماعة من الصحابة والتابعين رضى الله عنهم أفلم يتبين بطريق التفسير والفاء للعطف على مقدر أى أغفلوا عن كون الأمر جميعاً لله تعالى فلم يعلموا ﴿ أن لو يشاء الله ﴾ على حذف ضمير الشأن وتخفيف أن ﴿ لهدى الناس جميعاً ﴾ بإظهار أمثال تلك الآثار العظيمة فالإنكار متوجه إلى المعطوفين جميعاً أو أعلموا كون الأمر جميعا لله فلم يعلموا ما يوجبه ذلك العلم مما ذكر فهو متوجه إلى ترتب المعطوف على المعطوف عليه أى تخلف العلم الثانى عن العلم الأول وعلى التقديرين فالإنكار إنكار الوقوع كما فى قوله تعالى(ألم يعدكم ربكم وعدا حسنا) لا إنكار الواقع كما فى قولك ألم تخف الله حتى عصيته ثم إن مناط الإنكار ليس عدم علمهم بمضمون الشرطية فقط بل مع عدم علمهم بعدم تحقق مقدمها كأنه قيل ألم يعلموا أن الله تعالى لو شاء هدايتهم لهداهم وأنه لم يشأها وذلك لأنهم كانوا يؤيدون أن يظهر ما اقترحوا من الآيات ليجتمعوا على الإيمان وعلى الثانى لو أن قرآنا فعل به ما فصل من التعاجيب[1] لما آمنوا به كقوله تعالى (ولو أننا

(١) فى ١٠ . من الأعاجيب .

نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى الآية فالإضراب حينئذ متوجه إلى ما سلف من احتجاجهم مع كونهم فى العناد على ما شرح أى فليس لهم ذلك بل لله الأمر جميعا إن شاء أتى بما اقترحوا وإن شاء لم يأت به حسبما تستدعيه داعية الحكمة من غير أن يكون لأحد عليه تحكم أو اقتراح واليأس بمعنى القنوط أى ألم يعلم الذين آمنوا حالهم هذه فلم يقنطوا من إيمانهم حتى أحبوا ظهور مقترحاتهم فالإنكار متوجه إلى المعطوفين أو اعلموا ذلك فلم يقنطوا من إيمانهم فهو متوجه إلى وقوع المعطوف بعد المعطوف عليه أى إلى تخلف القنوط عن العلم المذكور والإنكار على التقديرين إنكار الواقع كما فى قوله تعالى (أفلا تتقون) ونظائره لا إنكار الوقوع فإن عدم قنوطهم منه مما لا مرد له وقوله تعالى (أن لو يشاء الله) إلخ متعلق بمحذوف أى أفلم ييأسوا من إيمانهم علما منهم أو عالمين بأنه لو يشاء الله لهدى الناس جميعا وأنه لم يشأ ذلك أو يآمنوا أى أفلم يقنط الذين آمنوا بأن لو يشاء الله لهدى الناس جميعا على معنى أفلم ييأس من إيمانهم المؤمنون بمضمون الشرطية وبعدم تحقق مقدمها المنفهم من مكابرتهم حسبما تحكيه كلمة لو فالوصف المذكور من دواعى إنكار يأسهم وقيل إن أبا جهل وأضرابه قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم إن كنت نبيا سير بقرآنك الجبال عن مكة حتى تتسع لنا ونتخذ فيها البساتين والقطائع وقد سخرت لداود عليه السلام فلست بأهون على الله منه إن كنت نبيا كما زعمت أو سخر لنا به الريح كما سخرت لسليمان عليه السلام لنتجر عليها إلى الشام فقد شق علينا قطع الشقة البعيدة أو ابعث لنا به رجلين أو ثلاثة ممن مات من آبائنا فنزلت فمعنى تقطيع الأرض حينئذ قطعها بالسير ولا حاجة حينئذ إلى الإعذار فى إسناد الأفاعيل المذكورة إلى القرآن كما احتيج إليه فى الوجهين الأولين وعن الفراء أنه متعلق بما قبله من قوله (وهم يكفرون بالرحمن) وما بينهما اعتراض وهو بالحقيقة دال على الجواب والتقدير ولو أن قرآنا سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى لكفروا بالرحمن والتذكير فى كلم به الموتى لتغليب المذكر من الموتى على غيره .

﴿ ولا يزال الذين كفروا ﴾ من أهل مكة ﴿ تصيبهم بما صنعوا ﴾ أى بسبب ما صنعوه من الكفر والتمادى فيه وعدم بيانه إما للقصد إلى تهويله أو استهجانه وهو تصريح بما أشعر به بناء الحكم على الموصول من علية الصلة له مع منافى صيغة الصنع من الإيذان برسوخهم فى ذلك ﴿ قارعة ﴾ داهية تقرعهم وتقلقهم وهو ما كان يصيبهم من أنواع البلايا والمصائب من القتل والأسر والنهب والسلب وتقديم المجرور على الفاعل لما مر مرارا من إرادة التفسير إثر الإبهام لزيادة التقرير والإحكام مع ما فيه من بيان أن مدار الإصابة من جهتهم آثر ذى أثير ﴿ أو تحل ﴾ تلك القارعة ﴿ قريبا ﴾ أى مكانا قريبا ﴿ من دارهم ﴾ فيفزعون منها ويتطاير إليهم شرارها شبهت القارعة بالعدو المتوجه إليهم فأسند إليها الإصابة تارة والحلول أخرى ففيه استعارة بالكناية وتخييل وترشيح ﴿ حتى يأتى وعد الله ﴾ أى موتهم أو القيامة فإن كلا منهما وعد محتوم لا مرد له وفيه دلالة على أن ما يصيبهم عند ذلك من العذاب فى غاية الشدة وأن ما ذكر سابقة نفحة يسيرة بالنسبة إليه ثم حقق ذلك بقوله تعالى ﴿ إن الله لا يخلف الميعاد ﴾ أى الوعد كالميلاد والميثاق بمعنى الولادة والتوثقة لاستحالة ذلك على الله سبحانه وقال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أراد بالقارعة السرايا التى كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يبعثها وكانوا بين إغارة واختطاف وتخويف بالهجوم عليهم فى ديارهم فالإصابة والحلول حينئذ من أحوالهم ويجوز على هذا أن يكون قوله تعالى (أو تحل قريبا من دارهم) خطابا للرسول صلى الله عليه وسلم مرادا به حلوله الحديبية والمراد بوعد الله ما وعد به من فتح مكة .

﴿ ولقد استهزىء برسل ﴾ كثيرة خلت ﴿ من قبلك فأمليت للذين كفروا ﴾ أى تركتهم ملاوة[1] من الزمان فى أمن ودعة كما يملى للبهيمة فى المرعى وهذا

(١) أى مدة من الزمان .

تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم عما لقى من المشركين من التكذيب والاقتراح على طريقة الاستهزاء به ووعيد لهم والمعنى أن ذلك ليس مختصاً بك بل هو أمر مطرد قد فعل ذلك برسل كثيرة كائنة من قبلك فأملت الذين فعلوه بهم والعدول فى الصلة إلى وصف الكفر ليس لأن المملى لهم غير المستهزئين بل لإرادة الجمع بين الوصفين أى فأمليت للذين كفروا مع استهزائهم لا باستهزائهم فقط ﴿ ثم أخذتهم فكيف كان عقاب ﴾ أى عقابى إياهم وفيه من الدلالة على تناهى كيفيته فى الشدة والفظاعة[1] ما لا يخفى ﴿ أفمن هو قائم ﴾ أى رقيب مهيمن ﴿ على كل نفس ﴾ كائنة من كانت ﴿ بما كسبت ﴾ من خير أو شر لا يخفى عليه شىء من ذلك بل يجازى كلا بعمله وهو الله تعالى والخبر محذوف أى كمن ليس كذلك إنكارا لذلك وإدخال الفاء لتوجيه الإنكار إلى توهم المماثلة غب ما علم بما فعل تعالى بالمستهزئين من الإملاء المديد والأخذ الشديد ومن كون الأمر كله لله تعالى وكون هداية الناس جميعا منوطة بمشيئته تعالى ومن تواتر القوارع على الكفرة إلى أن يأتى وعد الله كأنه قيل الأمر كذلك فمن هذا شأنه كما ليس فى عداد الأشياء حتى تشركوه به فالإنكار متوجه إلى ترتب المعطوف أعنى توهم المماثلة على المعطوف عليه المقدر أعنى كون الأمر كما ذكر كما فى قولك أتعلم الحق فلا تعمل به لا إلى المعطوفين جميعا كما إذا قلت ألا تعلمه فلا تعمل به وقوله تعالى ﴿ وجعلوا لله شركاء ﴾ جملة مستقلة جىء بها للدلالة على الخبر أو حالية أى أفمن هذه صفاته كما ليس كذلك وقد جعلوا له شركاء لا شريكا واحدا أو معطوفة على الخبر إن قدر ما يصلح لذلك أى أفمن هذا شأنه لم يوحدوه وجعلوا له شركاء ووضع المظهر موضع المضمر للتنصيص على وحدانيته ذاتا واسما والتنبيه على اختصاصه باستحقاق العبادة مع ما فيه من البيان بعد الإبهام بإيراده موصولا للدلالة على التفخيم وقوله تعالى ﴿ قل سموهم ﴾ تبكيت لهم أثر تبكيت أى سموهم من هم وماذا أسماؤهم أو صفوهم وانظروا أهل

---

(١) فى ١٠ : تناهى شدته وفظاعته .

لهم ما يستحقون به العبادة ويستأهلون الشركة ﴿ أم تنبئونه ﴾ أى بل أتنبئون الله ﴿ بما لا يعلم فى الأرض ﴾ أى بشركاء مستحقين للعبادة لا يعلمهم الله تعالى ولا يعزب عنه مثقال ذرة فى السموات والأرض وقرىء بالتخفيف .

﴿ أم بظاهر من القول ﴾ أى بل أتسمونهم بشركاء بظاهر من القول من غير أن يكون له معنى وحقيقة كتسمية الزنجى كافورا كقوله تعالى (ذلك قولهم بأفواههم) وهاتيك الأساليب البديعة التى ورد عليها الآية الكريمة منادية على أنها خارجة عن قدرة البشر من كلام خلاق القوى والقدر فتبارك الله رب رب العالمين .

﴿ بل زين للذين كفروا ﴾ وضع الموصول موضع المضمر ذما لهم وتسجيلا عليهم بالكفر ﴿ مكرهم ﴾ تمويههم الأباطيل أو كيدهم للإسلام بشركهم ، ﴿ وصدوا عن السبيل ﴾ أى سبيل الحق من صده صدا وقرىء بكسر الصاد على نقل حركة الدال إليها وقرىء بفتحها أى صدوا الناس أو من صد ، صدودا ﴿ ومن يضلل الله ﴾ أى يخلق فيه الضلال بسوء اختياره أو يخذله ﴿ فما له من هاد ﴾ يوفقه للهدى ﴿ لهم عذاب ﴾ شاق ﴿ فى الحياة الدنيا ﴾ بالقتل والأسر وسائر ما يصيبهم من المصائب فإنها إنما تصيبهم عقوبة على كفرهم ﴿ ولعذاب الآخرة أشق ﴾ من ذلك بالشدة والمدة ﴿ وما لهم من الله ﴾ من عذابه المذكور ﴿ من واق ﴾ من حافظ يعصمهم من ذلك فمن الأولى صلة للوقاية والثانية مزيدة للتأكيد .

نعيم الجنة

﴿ مثل الجنة ﴾ أى صفتها العجيبة الشأن التى فى الغرابة كالمثل ﴿ التى وعد المتقون ﴾ عن الكفر والمعاصى وهو مبتدأ خبره محذوف عند سيبويه أى فيما قصصنا عليك مثل الجنة وقوله تعالى : ﴿ تجرى من تحتها الأنهار ﴾ تفسير لذلك المثل على أنه حال من الضمير المحذوف من الصلة العائد إلى الجنة أى وعدها وهو الخبر عند غيره كقولك شأن زيد يأتيه الناس ويعظمونه أو على

حذف موصوف أى مثل الجنة جنة تجرى الخ ﴿ أكلها ﴾ ثمرها ﴿ دائم ﴾ لا ينقطع ﴿ وظلها ﴾ أيضا كذلك لا تنسخه الشمس كما تنسخ ظلال الدنيا ﴿ تلك ﴾ الجنة المنعوتة بما ذكر ﴿ عقبى الذين اتقوا ﴾ الكفر والمعاصى أى مالهم ومنتهى أمرهم ﴿ وعقبى الكافرين النار ﴾ لا غير وفيه مالا يخفى من إطماع المتقين وإقناط الكافرين ﴿ والذين آتيناهم الكتاب ﴾ هم المسلمون من أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وكعب وأضرابهما ومن آمن من النصارى وهم ثمانون رجلا أربعون بنجران وثمانية باليمن واثنان وثلاثون بالحبشة ﴿ يفرحون بما أنزل إليك ﴾ إذ هو الكتاب الموعود فى التوراة والإنجيل ﴿ ومن الأحزاب ﴾ أى من أحزابهم وهم كفرتهم الذين تحزبوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالعداوة نحو كعب بن الأشرف والسيد والعاقب أسقفى نجران وأتباعهما ﴿ من ينكر بعضه ﴾ وهو الشرائع الحادثة إنشاء أو نسخا لا مايوافق ما حرفوه وإلا لنعى عليهم من أول الأمر أن مدار ذلك إنما هو جنايات أيديهم وأما ما يوافق كتبهم فلم ينكروه وأن لم يفرحوا به وقيل يجوز أن يراد بالموصول الأول عامتهم فإنهم أيضا يفرحون به لكونه مصداقا لكتبهم فى الجملة فحينئذ يكون قوله تعالى (ومن الأحزاب) الخ تتمة بمنزلة أن يقال ومنهم من ينكر بعضه .

﴿ قل ﴾ إلزاما لهم وردا لإنكارهم ﴿ إنما أمرت أن أعبد الله ولا أشرك به ﴾ اى شيئاً من الأشياء أو لا أفعل الإشراك به والمراد قصر الأمر بالعبادة على الله تعالى لا قصر الأمر مطلقا على عبادته تعالى خاصة أى قل لهم إنما أمرت فيما أنزل إلى بعبادة الله وتوحيده وظاهر أن لا سبيل لكم إلى إنكاره لإطباق جميع الأنبياء والكتب على ذلك كقوله تعالى (قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً) فما لكم تشركون به عزيرا والمسيح وقرىء ولا أشرك به بالرفع على الاستئناف أى وأنا لا أشرك به ﴿ إليه ﴾ إلى الله تعالى خاصة على النهج المذكور من التوحيد من أو إلى ما أمرت به من التوحيد ﴿ أدعو ﴾ الناس لا إلى غيره أو لا إلى شىء

آخر مما يطبق عليه الكتب الإلهية والأنبياء عليهم الصلاة والسلام فما وجه إنكاركم ﴿ وإليه ﴾ إلى الله تعالى وحده ﴿ مآب ﴾ مرجعي للجزاء وحيث كانت هذه الحجة الباهرة لازمة لهم لا يجدون عنها محيصا أمر عليه الصلاة والسلام بأن يخاطبهم بذلك إلزاما وتبكيتا لهم ثم شرع فى رد إنكارهم لفروع الشرائع الواردة ابتداء أو بدلا من الشرائع المنسوخة ببيان الحكمة فى ذلك فقيل :

من حكمة الله تعالى

﴿ وكذلك أنزلناه ﴾ أى ما أنزل إليك وذلك إشارة إلى مصدر أنزلناه أو أنزل إليك ومحله النصب على المصدرية أى مثل ذلك الإنزال البديع المنتظم لأصول بجمع عليها وفروع متشعبة إلى موافقة ومخالفة حسبما تقتضيه قضية الحكمة والمصلحة أنزلناه ﴿ حكما ﴾ حاكما يحكم فى القضايا والواقعات بالحق أو يحكم به كذلك والتعرض لذلك العنوان مع أن بعضه ليس بحكم لتربية وجوب مراعاته وتحتم المحافظة عليه ﴿ عربيا ﴾ مترجما بلسان العرب والتعرض لذلك للإشارة إلى أن ذلك إحدى مواد المخالفة للكتب السابقة مع أن ذلك مقتضى الحكمة إذ بذلك يسهل فهمه وإدراك إعجازه والاقتصار على اشتمال الإنزال على أصول الديانات المجمع عليها حسبما يفيده قوله تعالى (قل إنما أمرت أن أعبد الله) الخ يأباه التعرض لاتباع أهوائهم وحديث المحو والإثبات وأن لكل أجل كتاب فإن المجمع عليه لا يتصور فيه الاستتباع والاتباع ﴿ ولئن اتبعت أهواءهم ﴾ التى يدعونك إليها من تقرير الأمور المخالفة لما أنزل إليك من الحق كالصلاة إلى بيت المقدس بعد التحويل ﴿ بعد ما جاءك من العلم ﴾ العظيم الشأن الفائض من ذلك الحكم العربى أو العلم بمضمونه ﴿ مالك من الله ﴾ من جنابه العزيز والالتفات من التكلم إلى الغيبة وإيراد الاسم الجليل لتربية المهابة قال الأزهرى لا يكون إلها حتى يكون معبودا وحتى يكون خالقا ورازقا ومدبرا ﴿ من ولى ﴾ يلى أمرك وينصرك على من يبغيك الغوائل ﴿ ولا واق ﴾ يقيك

من مصارع السوء وحيث لم يستلزم نفى الناصر على العدو نفى الواقى من نكايته أدخل على المعطوف حرف النفى للتأكيد كقولك مالى دينار ولا درهم أومالك من بأس الله من ناصر وواق لاتباعك أهواءهم وأمثال هاتيك القوارع إنما هى لقطع أطماع الكفرة وتهييج[1] المؤمنين على الثبات فى الدين واللام فى لئن موطئة ومالك ساد مسد جوابى الشرط والقسم .

﴿ ولقد أرسلنا رسلا ﴾ كثيرة كائنة ﴿ من قبلك وجعلنا لهم أزواجا وذرية ﴾ نساء وأولادا كما جعلناها لك وهو رد لما كانوا يعيبونه صلى الله عليه وسلم بالزواج والولاد كما كانوا يقولون ما لهذا الرسول يأكل الطعام الخ ﴿ وما كان لرسول ﴾ منهم أى ما صح وما استقام ولم يكن فى وسعه ﴿ أن يأتى بآية ﴾ مما اقترح عليه وحكم مما التمس منه ﴿ إلا بإذن الله ﴾ ومشيئته المبنية على الحكم والمصالح التى عليها يدور أمر الكائنات لا سيما مثل هذه الأمور العظام والالتفات لما قدمناه ولتحقيق مضمون الجملة بالإيماء إلى العلة ﴿ لكل أجل ﴾ أى لكل مدة وقت من المدد والأوقات ﴿ كتاب ﴾ حكم معين يكتب على العباد حسبما تقتضيه الحكمة فإن الشرائع كلها لإصلاح أحوالهم فى المبدأ والمعادومن قضية ذلك أنه يختلف حسب اختلاف أحوالهم المتغيرة حسب تغير الأوقات كاختلاف العلاج حسب اختلاف أحوال المرضى بحسب الأوقات .

﴿ يمحوا الله ما يشاء ﴾ أى ينسخ ما يشاء نسخه من الأحكام لما تقتضيه الحكمة بحسب الوقت ﴿ ويثبت ﴾ بدله ما فيه المصلحة أو يبقيه على حاله غير منسوخ أو يثبت ما شاء إثباته مطلقا أعم منهما ومن الإنشاء ابتداء أو يمحو من ديوان الحفظة الذين ديدنهم كتب كل قول وعمل مالا يتعلق به الجزاء ويثبت الباقى أويمحو سيئات التائب ويثبت مكانها الحسنة أويمحو قرنا ويثبت آخرين أو يمحو الفاسدات من العالم الجسمانى ويثبت الكائنات أو يمحو الأجل أوالسعادة والشقاوة وبه قال ابن مسعود وابن عمر رضى الله عنهم والقائلون به يتضرعون

---

(١) فى ١٠ : وتحريض للمؤمنين .

إلى الله تعالى أن يجعلهم سعداء وهذا رواه جابر عن النبي عليه الصلاة والسلام والأنسب تعميم كل من المحو والإثبات ليشمل الكل ويدخل فى ذلك مواد الإنكار دخولا أوليا وقرىء بالتشديد ﴿وعنده أم الكتاب﴾ أى أصله وهو اللوح المحفوظ إذ ما من شىء من الذاهب والثابت إلا وهو مكتوب فيه كما هو ﴿وإما نرينك﴾ أصله إن نرك وما مزيدة لتأكيد معنى الشرط ومن ثمة ألحقت النون بالفعل ﴿بعض الذى نعدهم﴾ أو وعدناهم من إنزال العذاب عليهم والعدول إلى صيغة المضارع لحكاية الحال الماضية أو نعدهم وعدا متجددا حسبما تقتضيه الحكمة من إنذار وفى إيراد البعض رمز إلى إراءة بعض الموعود ﴿أو نتوفينك﴾ قبل ذلك ﴿فإنما عليك البلاغ أى تبليغ أحكام الرسالة بتمامها لا تحقيق مضمون ما بلغته من الوعيد الذى هو من جملتها ﴿وعلينا﴾ لا عليك ﴿الحساب﴾ محاسبة أعمالهم السيئة والمؤاخذة بها أى كيفما دارت الحال أريناك بعض ما وعدناهم من العذاب الدنيوى أو لم نرك فعلينا ذلك وما عليك إلا تبليغ الرسالة فلا تهتم بما وراء ذلك فنحن نكفيكه ونتم ما وعدناك من الظفر ولا يضجرك تأخره فإن ذلك لما نعلم من المصالح الخفية ثم طيب نفسه عليه الصلاة والسلام بطلوع تباشيره فقال :

﴿أولم يروا﴾ استفهام إنكارى والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام أى أأنكروا نزول ما وعدناهم أو أشكوا أو ألم ينظروا فى ذلك ولم يروا ﴿أنا نأتى الأرض﴾ أى أرض الكفر ﴿ننقصها من أطرافها﴾ بأن نفتحها على المسلمين شيئاً فشيئاً ونلحقها بدار الإسلام ونذهب منها أهلها بالقتل والأسر والإجلاء أليس هذا من ذلك ومثله قوله عز سلطانه (أفلا يرون أنا نأتى الأرض ننقصها من أطرافها أفهم الغالبون) وقوله ننقصها حال من فاعل نأتى أو من مفعوله وقرىء ننقصها بالتشديد وفى لفظ الإتيان المؤذن بالاستواء المحتوم والاستيلاء العظيم من الفخامة مالا يخفى كما فى قوله عز وجل (وقدمنه) إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا ﴿والله يحكم﴾ ما يشاء وقد حكم للإسلام بالعزة والإقبال وعلى الكفر بالذلة والإدبار حسبما يشاهد من المخايل والآثار

وفى الالتفات من التكلم إلى الغيبة وبناء الحكم على الاسم الجليل من الدلالة ما تقدمها وقوله تعالى ﴿ لا معقب لحكمه ﴾ اعتراض فى اعتراض لبيان علو شأن حكمه جل جلاله وقيل نصب على الحالية كأنه قيل والله يحكم نافذا حكمه. كما تقول جاء زيد لا عمامة على رأسه أى حاسرا والمعقب من يكر على الشىء فيبطله وحقيقته من يعقبه ويقفيه بالرد والإبطال ومنه قيل لصاحب الحق معقب لأنه يقفى[1] غريمه بالاقتضاء والطلب ﴿ وهو سريع الحساب ﴾ فعما قليل يحاسبهم ويجازيهم فى الآخرة بأفانين العذاب غب ما عذبهم بالقتل والأسر والإجلاء حسبما يرى وقال ابن عباس رضى الله عنهما سريع الانتقام .

﴿ وقد مكر ﴾ الكفار ﴿ الذين ﴾ خلوا ﴿ من قبلهم ﴾ من قبل كفار مكة بأنبيائهم والمؤمنين كما مكر هؤلاء وهذا تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم بأنه لا عبرة بمكرهم ولا تأثير بل لا وجود له فى الحقيقة ولم يصرح بذلك اكتفاء بدلالة القصر المستفاد من تعليله أعنى قوله تعالى ﴿ فلله المكر ﴾ أى جنس المكر ﴿ جميعا ﴾ لا وجود لمكرهم أصلا إذ هو عبارة عن إيصال المكروه إلى الغير من حيث لا يشعر به وحيث كان جميع ما يأتون وما يذرون بعلم الله تعالى وقدرته وإنما لهم مجرد الكسب من غير فعل ولا تأثير حسبما يبينه قوله عز وجل ﴿ يعلم ما تكسب كل نفس ﴾ ومن قضيته عصمة أوليائه وعقاب الماكرين بهم توفية لكل نفس جزاء ما تكسبه — ظهر أن ليس لمكرهم بالنسبة إلى من مكروا بهم عين ولا أثر وأن المكر كله لله تعالى حيث يؤاخذهم بما كسبوا من فنون المعاصى التى من جملتها مكرهم من حيث لا يحتسبون. أو لله المكر الذى باشروه جميعا لا لهم على معنى أن ذلك ليس مكرا منهم بالأنبياء بل هو بعينه مكر من الله تعالى بهم وهم لا يشعرون حيث لا يحيق المكر السيء إلا بأهله ﴿ وسيعلم الكفار ﴾ حين يقضى بمقتضى علمه فيوفى كل نفس جزاء ما تكسبه ﴿ لمن عقبى الدار ﴾ أى العاقبة الحميدة من الفريقين وإن جهلوا ذلك يومئذ وقيل السين

---

(١) فى ١٠ يقتفى غريمه .

لتأكيد وقوع ذلك وعلمهم به حينئذ وقرىء سيعلم الكافر على إدارة الجنس والكافرون والكفر أى أهله والذين كفروا وسيعلم على صيغة المجهول من من الإعلام أى سيخبر ﴿ويقول الذين كفروا لست مرسلا﴾ قيل قاله رؤساء اليهود وصيغة الاستقبال لاستحضار صورة كلمتهم الشنعاء تعجيبا منها أو للدلالة على تجدد ذلك واستمراره منهم ﴿قل كفى بالله شهيدا بينى وبينكم﴾ فإنه قد أظهر على رسالتى من الحجج القاطعة والبينات الساطعة ما فيه مندوحة عن شهادة شاهد آخر ﴿ومن عنده علم الكتاب﴾ أى علم القرآن وما عليه من النظم المعجز أو من هو من علماء أهل الكتاب الذى أسلموا لأنهم يشهدون بنعته عليه الصلاة والسلام فى كتبهم والآية مدنية بالاتفاق أو من عنده علم اللوح المحفوظ وهو الله سبحانه أى كفى به شاهدا بيننا بالذى يستحق العبادة فإنه قد شحن كتابه بالدعوة إلى عبادته وأيدنى بأنواع التأييد وبالذى يختص بعلم ما فى اللوح من الأشياء الكائنة الثابتة التى من جملتها رسالتى وقرىء من عنده بالكسر وعلم الكتاب على الأول مرتفع بالظرف المعتمد على الموصول أو مبتدأ خبره الظرف وهو متعين على الثانى ومن عنده علم الكتاب بالكسر وبناء المفعول ورفع الكتاب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة الرعد أعطى من الأجر عشر حسنات بوزن كل سحاب مضى وكل سحاب يكون إلى يوم القيامة وبعث يوم القيامة من الموفين بعهد الله عز وجل والله أعلم بالصواب .

* * *

سورة إبراهيم عليه السلام

(مكية وهى إحدى وخمسون آية)

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

القرآن نور للعالمين

﴿ الر ﴾ مر الكلام فيه وفى محله غير مرة وقوله تعالى : ﴿ كتاب ﴾ خبر له على تقدير كون الر مبتدأ أو لمبتدأ مضمر على تقدير كونه خبرا لمبتدأ محذوف أو مسرودا على نمط التعديد ويجوز أن يكون خبرا ثانيا لهذا المبتدأ المحذوف وقوله تعالى : ﴿ أنزلناه إليك ﴾ صفة له وقوله تعالى : ﴿ لتخرج الناس ﴾ متعلق بأنزلناه أى لتخرجهم كافة بما فى تضاعيفه من البينات الواضحة المفصحة عن كونه من عند الله عز وجل الكاشفة عن العقائد الحقة وقرىء ليخرج الناس ﴿ من الظلمات ﴾ أى ليخرج به الناس من عقائد الكفر والضلال التى كلها ظلمات محضة وجهالات صرفته ﴿ إلى النور ﴾ إلى الحق الذى هو نور بحت لكن لا كيفما كان فإنك لا تهدى من أحببت بل ﴿ بإذن ربهم ﴾ أى بتيسيره وتوفيقه وللإنباء عن كون ذلك منوطا بإقبالهم إلى الحق كما يفصح عنه قوله تعالى (ويهدى إليه من أناب) استعير له الإذن الذى هو عبارة عن تسهيل الحجاب[1] لمن يقصد الورود وأضيف إلى ضميرهم اسم الرب المفصح عن التربية التى هى عبارة عن تبليغ الشىء إلى كماله المتوجه إليه وشمول الإذن بهذا المعنى للكل واضح وعليه يدور كون الإنزال لإخراجهم جميعا وعدم تحقق الإذن بالفعل فى بعضهم لعدم تحقق شرطه المستند إلى سوء اختيارهم غير مخل بذلك والباء متعلقة بتخرج أو بمضمر وقع حالا من مفعوله أى ملتبسين بإذن ربهم وجعله حالا من فاعله يأباه إضافة الرب إليهم لا إليه

---

(١) فى ١٠ إزاحة الحجاب .

وحيث كان الحق مع وضوحه فى نفسه وإيضاحه لغيره موصلا إلى الله عز وجل استعير له النور تارة والصراط أخرى فقيل ﴿ إلى صراط العزيز الحميد ﴾ على وجه الإبدال بتكرير العامل كما فى قوله تعالى (للذين استضعفوا لمن آمن منهم) وإخلال البدل والبيان بالاستعارة إنما هو فى الحقيقة لا فى المجاز كما فى قوله سبحانه (حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر) وقيل هو استئناف مبنى على سؤال كأنه قيل إلى أى نور فقيل إلى صراط العزيز الحميد وإضافة الصراط إليه تعالى لأنه مقصده أو المبين له وتخصيص الوصفين بالذكر للترغيب فى سلوكه ببيان ما فيه من الأمن والعاقبة الحميدة ﴿ الله ﴾ بالجر عطف بيان للعزيز الحميد لجريانه مجرى الأعلام الغالبة بالاختصاص بالمعبود بالحق كالنجم فى الثريا وقرىء بالرفع على هو الله أى العزيز الحميد الذى أضيف إليه الصراط الله ﴿ الذى له ﴾ ملكا وملكا ﴿ ما فى السموات وما فى الأرض ﴾ أى ما وجد فيهما داخلا فيهما أو خارجا عنهما متمكنا فيهما كما مر فى آية الكرسى ففيه على القراءتين بيان لكمال فخامة شأن الصراط وإظهار لتحتم سلوكه على الناس قاطبة وتجويز الرفع على الابتداء بجعل الموصول خبرا مبناه الغفول عن هذه النكتة وقوله عز وجل ﴿ وويل للكافرين ﴾ وعيد لمن كفر بالكتاب ولم يخرج به من الظلمات إلى النور بالويل وهو نقيض الوال وهو النجاة وأصله النصب كسائر المصادر ثم رفع رفعها للدلالة على الثبات كسلام عليك ﴿ من عذاب شديد ﴾ متعلق بويل على معنى يولون ويضجون منه قائلين ياويلاه كقوله تعالى (دعوا هنالك ثبورا) .

﴿ الذين يستحبون الحيوة الدنيا ﴾ أى يؤثرونها استفعال من المحبة فإن المؤثر للشىء على غيره كأنه يطلب من نفسه أن يكون أحب إليها وأفضل عندها من غيره ﴿ على الآخرة ﴾ أى الحياة الآخرة الأبدية ﴿ ويصدون ﴾ الناس ﴿ عن سبيل الله ﴾ التى بين شأنها والاقتصار على الإضافة إلى الاسم الجليل المنطوى على كل وصف جميل لزوم الاختصار وهو من صده صدا

وقرىء يصدون من أصد المنقول من صد صدودا إذا نكب وهو غير فصيح كأوقف فإن فى صده وقفة لمندوحة عن تكلف النقل ﴿ ويبغونها ﴾ أى يبغون لها فحذف الجار وأوصل الفعل إلى الضمير أى يطلبون لها ﴿ عوجا ﴾ أى زيغا واعوجاجا وهى أبعد شىء من ذلك أى يقولون لمن يريدون صده وإضلاله إنها سبيل ناكبة وزائغة غير مستقيمة ومحل موصول هذه الصلات الجر على أنه بدل من الكافرين أو صفة له فيعتبر كل وصف من أوصافهم بإزاء ما يناسبه من المعانى المعتبرة فى الصراط فالكفر المنبىء عن الستر بإزاء كونه نورا واستحباب الحياة الدنيا الفانية المفصحة عن وخامة العاقبة بمقابلة كون سلوكه محمود العاقبة وللصد عنه بإزاء كونه مأمونا وفيه من الدلالة على تماديهم فى الغى مالا يخفى أو النصب على الذم أو الرفع على الابتداء والخبر قوله تعالى :

﴿ أولئك فى ضلال بعيد ﴾ وعلى الأول جملة مستأنفة وقعت معللة لما سبق من لحوق الويل[1] بهم تأكيدا لما أشعر به بناء الحكم على الموصول أى أولئك الموصوفون بالقبائح المذكورة من استحباب الحياة الدنيا على الآخرة وصد الناس عن سبيل الله المستقيمة ووصفها بالاعوجاج وهى منه بنزه فى ضلال عن طريق الحق بعيد بالغ فى ذلك غاية الغايات القاصية والبعد وإن كان من أحوال الضال إلا أنه قد وصف به وصفه مجازا للمبالغة كجد جده وداهية دهياء ويجوز أن يكون المعنى فى ضلال ذى بعد أو فيه بعد فإن الضال قد يضل عن الطريق مكانا قريبا وقد يضل بعيدا وفى جعل الضلال محيطا بهم إحاطة الظرف بما فيه مالا يخفى من المبالغة .

وظائف الرسل

﴿ وما أرسلنا ﴾ أى فى الأمم الخالية من قبلك كما سيذكر إجمالا ﴿ من

(١) فى ٢٠ : لحاق الويل بهم .

رسول إلا ﴾ ملتبسا ﴿ بلسان قومه ﴾ متكلما بلغة من أرسل إليهم من الأمم المتفقة على لغة سواء بعث فيهم أولا وقرىء بلسن وهو لغة فيه كريش ورياش وبلسن بضمتين وضمة وسكون كعمد وعمد ﴿ ليبين لهم ﴾ ماأمروا به فيتلقوه منه بيسر وسرعة ويعملوا بموجبه من غير حاجة إلى الترجمة ممن لم يؤمر به وحيث لم يمكن مراعاة هذه القاعدة فى شأن سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وعليهم أجمعين لعموم بعثته الثقلين كافة على اختلاف لغاتهم وكان تعدد نظم الكتاب المنزل إليه حسب تعدد ألسنة الأمم أدعى إلى التنازع واختلاف الكلمة وتطرق أيدى التحريف مع أن استقلال بعض من ذلك بالإعجاز دون غيره مئنة لقدح القادحين واتفاق الجميع فيه أمر قريب من الإلجاء وحصر البيان بالترجمة والتفسير اقتضت الحكمة اتحاد النظم المنبىء عن العزة وجلالة الشأن المستتبع لفوائد غنية عن البيان على أن الحاجة إلى الترجمة تتضاعف عند التعدد إذ لابد لكل أمة من معرفة توافق الكل وتحاذيه حذو القذة بالقذة من مخالفة ولو فى خصلة فذة وإنما يتم ذلك بمن يترجم عن الكل واحدا أو متعددا وفيه من التعذر ما يتاخم الامتناع ثم لما كان أشرف الأقوام وأولاهم بدعوته عليه الصلاة والسلام قومه الذين بعث فيهم ولغتهم أفضل اللغات نزل الكتاب المتين بلسان عربى مبين وانتشرت أحكامه فيما بين الأمم أجمعين وقيل الضمير فى قومه لمحمد صلى الله عليه وسلم فإنه تعالى أنزل الكتب كلها عربية ثم ترجمها جبريل عليه الصلاة والسلام أو كل من نزل عليه من الأنبياء عليهم السلام بلغة من نزل عليهم ويرده قوله تعالى (ليبين لهم) فإنه ضمير القوم وظاهر أن جميع الكتب لم ينزل لتبيين العرب وفى رجعه إلى قوم كل نبى كأنه قيل وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قوم محمد عليه الصلاة والسلام ليبين الرسول لقومه الذين أرسل إليهم ما لايخفى من التكلف ﴿ فيضل الله من يشاء ﴾ إضلاله أى يخلق فيه الضلال لمباشرة أسبابه المؤدية إليه أو يخذله ولا يلطف به لما يعلم أنه لاينجع فيه الإلطاف ﴿ ويهدى ﴾ بالتوفيق ومنح الإلطاف ﴿ من يشاء ﴾ هدايته لما فيه من الإنابة والإقبال إلى الحق والالتفات بإسناد الفعلين إلى الاسم الجليل المنطوى على الصفات

لتفخيم شأنهما وترشيح مناط كل منهما والفاء فصيحة مثلها فى قوله تعالى (فقلنا اضرب بعصاك البحر فانفلق كأنه قيل فبينوه لهم فأضل الله منهم من شاء إضلاله لما لا يليق إلا به وهدى من شاء هدايته لاستحقاقه لها والحذف للايذان بأن مسارعة كل رسول إلى ما أمر به وجريان كل من أهل الخذلان والهداية على سنته أمر محقق غنى عن الذكر والبيان والعدول إلى صيغة الاستقبال لاستحضار الصورة أو للدلالة على التجدد والاستمرار حسب تجدد البيان من الرسل المتعاقبة عليهم السلام وتقديم الإضلال على الهداية إما لأنه إبقاء ما كان على ما كان والهداية إنشاء ما لم يكن أو للمبالغة فى بيان أن لا تأثير للتبيين والتذكير من قبل الرسل وأن مدار الأمر إنما هو مشيئته تعالى بإيهام أن ترتب الضلالة على ذلك أسرع من ترتب الاهتداء وهذا محقق لما سلف من تقييد الإخراج من الظلمات إلى النور بإذن الله تعالى: ﴿ وهو العزيز ﴾ فلا يغالب فى مشيئته ﴿ الحكيم ﴾ الذى لا يفعل شيئاً من الإضلال والهداية إلا لحكمة بالغة وفيه أن ما فوض إلى الرسل إنما هو تبليغ الرسالة وتبيين طريق الحق وأما الهداية والإرشاد إليه فذلك بيد الله سبحانه يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد .

من حديث موسى عليه السلام

﴿ ولقد أرسلنا موسى ﴾ شروع فى تفصيل ما أجمل فى قوله عز وجل (وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم) الآية ﴿ بآياتنا ﴾ أى ملتبسا بها وهى معجزاته التى أظهرها لبنى اسرائيل ﴿ أن أخرج قومك ﴾ بمعنى أى أخرج لأن الإرسال فيه معنى القول أو بأن أخرج كما فى قوله تعالى (وأن أقم وجهك) فإن صيغ الأفعال فى الدلالة على المصدر سواء وهو المدار فى صحة الوصل والمراد بذلك إخراج بنى إسرائيل بعد مهلك فرعون ﴿ من الظلمات ﴾ من الكفر والجهالات التى أدتهم الى أن يقولوا ياموسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة ﴿ إلى النور ﴾ إلى الإيمان بالله وتوحيده وسائر ما أمروا به ﴿ وذكرهم بأيام الله ﴾ أى بنعمائه وبلائه كما ينبىء عنه قوله (اذكروا نعمة الله

عليكم لكن لا بما جرى عليهم فقط بل عليهم وعلى من قبلهم من الأمم فى الأيام الخالية حسبما ينبىء عنه قوله تعالى (ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم) الآيات أو بأيامه المنطوية على ذلك كما يلوح به قوله تعالى (إذ أنجاكم) والالتفات من التكلم إلى الغيبة بإضافة الأيام إلى الاسم الجليل للإيذان بفخامة شأنها والإشعار بعدم اختصاص ما فيها من المعاملة بالمخاطب وقومه كما توهمه الإضافة إلى ضمير المتكلم أى عظهم بالترغيب والترهيب والوعد والوعيد وقيل أيام الله وقائعه التى وقعت على الأمم قبلهم وأيام العرب وقائعها وحروبها وملاحمها أى أنذرهم وقائعه التى دهمت الأمم الدارجة ويرده ماتصدى له عليه الصلاة والسلام بصدد الامتثال من التذكير بكل من السراء والضراء مما جرى عليهم وعلى غيرهم حسبما يتلى عليك .

﴿ إن فى ذلك ﴾ أى فى التذكير بها أو فى مجموع تلك النعماء والبلاء[1]. أو فى أيامها ﴿ لآيات ﴾ عظيمة أو كثيرة دالة على وحدانية الله تعالى وقدرته وعلمه وحكمته فهى على الأول عبارة عن الأيام سواء أريد بها أنفسها أو مافيها من النعماء والبلاء ومعنى ظرفية التذكير لها كونه مناطا لظهورها وعلى الثالث عن تلك النعماء والبلاء ومعنى الظرفية ظاهر وأما على الثانى وهو كونه إشارة إلى مجموع النعماء فمن كل واحدة من تلك النعماء والمشار إليه المجموع المشتمل عليها من حيث هو مجموع أو كلمة فى تجريدية مثلها فى قوله تعالى (لهم فيها دار الخلد) ﴿ لكل صبار ﴾ على بلائه ﴿ شكور ﴾ لنعمائه وقيل لكل مؤمن والتعبير عنهم بذلك للإشعار بأن الصبر والشكر عنوان المؤمن أى لكل من يليق بكمال الصبر والشكر أو الإيمان ويصير أمره إليها لا لمن اتصف بهما بالفعل لأنه تعليل للأمر بالتذكير المذكور السابق على التذكر المؤدى إلى تلك المرتبة فإن من تذكر مافاض أو نزل عليه أو على من قبله من النعماء والبلاء وتنبه لعاقبة

(١) فى ١٠ النعم والبلايا .

الشكر والصبر أو الإيمان لا يكاد يفارقها وتخصيص الآيات بهم لأنهم المنتفعون بها لا لأنها خافية عن غيرهم فإن التبيين حاصل بالنسبة إلى الكل وتقديم الصبار على الشكور لتقدم متعلق الصبر أعنى البلاء على متعلق الشكر أعنى النعماء وكون الشكر عاقبة الصبر .

﴿ وإذ قال موسى لقومه ﴾ شروع فى بيان تصديه عليه الصلاة والسلام لما أمر به من التذكير للإخراج المذكور وإذ منصوب على المفعولية بمضمر خوطب به النبى عليه الصلاة والسلام وتعليق الذكر بالوقت مع أن المقصود تذكير ما وقع فيه من الحوادث قد مر سره غير مرة أى اذكر لهم وقت قوله عليه الصلاة والسلام لقومه ﴿اذكروا نعمة الله عليكم﴾ بدأ عليه الصلاة والسلام بالترغيب لأنه عند النفس أقبل وهى إليه أميل والظرف متعلق بنفس النعمة إن جعلت مصدرا أو بمحذوف وقع حالا منها إن جعلت اسما أى اذكروا إنعامه عليكم أو اذكروا نعمته كائنة عليكم وكذلك كلمة إذ فى قوله تعالى ﴿ إذ أنجاكم من آل فرعون ﴾ أى اذكروا إنعامه عليكم وقت إنجائه إياكم من آل فرعون أو اذكروا نعمة الله مستقرة عليكم وقت إنجائه إياكم منهم أو بدل اشتمال من نعمة الله مرادا بها الإنعام أو العطية ﴿ يسومونكم ﴾ يبغونكم من سامه خسفا إذا أولاه ظلما وأصل السوم الذهاب فى طلب الشىء ﴿ سوء العذاب ﴾ السوء مصدر ساء يسوء والمراد به جنس العذاب السىء أو استعبادهم واستعمالهم فى الأعمال الشاقة والاستهانة بهم وغير ذلك مما لا يحصر ونصبه على أنه مفعول ليسومونكم ﴿ ويذبحون أبناءكم ﴾ المولودين وإنما عطفه على يسومونكم إخراجا له عن مرتبة العذاب المعتاد وإنما فعلوا ذلك لأن فرعون رأى فى المنام أو قال له الكهنة أنه سيولد منهم من يذهب بملكه فاجتهدوا فى ذلك فلم يغن عنهم من قضاء الله شيئاً .

﴿ ويستحيون نساءكم ﴾ أى يبقونهن فى الحياة مع الذل والصغار ولذلك عد من من جملة البلاء والجمل أحوال من آل فرعون أو من ضمير المخاطبين

أو منهما جميعا لأن فيها ضمير كل منهما ﴿ وفى ذلكم ﴾ أى فيما ذكر من أفعالهم الفظيعة ﴿ بلاء من ربكم ﴾ أى ابتلاء منه لا أن البلاء عين تلك الأفعال اللهم إلا أن تجعل فى تجريدية فنسبته إلى الله تعالى إما من حيث الخلق والإقدار والتمكين ﴿ عظيم ﴾ لا يطاق ويجوز أن يكون المشار إليه الإنجاء من ذلك والبلاء الابتلاء بالنعمة وهو الأنسب كما يلوح به التعرض لوصف الربوبية وعلى الأول يكون ذلك باعتبار المآل الذى هو الإنجاء أو باعتبار أن بلاء المؤمن تربية له .

﴿ وإذ تأذن ربكم ﴾ من جملة مقال موسى عليه الصلاة والسلام لقومه معطوف على نعمة الله أى اذكروا نعمة الله عليكم واذكروا حين تأذن ربكم أى آذن إيذانا بليغا لا تبقى معه شائبة لما فى صيغة التفعل من معنى التكلف المجعول فى حقه سبحانه على غايته التى هى الكمال وقيل هو معطوف على قوله تعالى (إذ أنجاكم) ، أى اذكروا نعمته تعالى فى هذين الوقتين فإن هذا التأذن أيضاً نعمة من الله تعالى عليهم ينالون بها خيرى الدنيا والآخرة وفى قراءة ابن مسعود رضى الله تعالى عنه وإذ قال ربكم ولقد ذكرهم عليه الصلاة والسلام أولا بنعمائه تعالى عليهم صريحا وضمنه تذكير ما أصابهم قبل ذلك من الضراء ثم أمرهم ثانيا بذكر ماجرى من الله سبحانه من الوعد بالزيادة على [تقدير][1] الشكر والوعيد بالعذاب على تقدير الكفر والمراد بتذكير الأوقات تذكير ما وقع فيها من الحوادث مفصلة إذ هى محيطة بذلك فإذا ذكرت ذكر ما فيها كأنه مشاهد معاين ﴿ لئن شكرتم ﴾ يا بنى إسرائيل ما خولتكم من نعمة الإنجاء وإهلاك العدو وغير ذلك من النعم والآلاء الفائتة للحصر وقابلتموه بالإيمان والطاعة ﴿ لأزيدنكم ﴾ نعمة إلى نعمة ﴿ ولئن كفرتم ﴾ ذلك وغمصتموه ﴿ إن عذابى لشديد ﴾ فعسى يصيبكم

---

(١) سقطت من ط ، ٤٣ .

منه ما يصيبكم ومن عادة الكرام التصريح بالوعد والتعريض بالوعيد فما ظنك بأكرم الأكرمين ويجوز أن يكون المذكور تعليلا للجواب المحذوف أى لأعذبنكم واللام فى الموضعين موطئة للقسم وكل من الجوابين ساد مسد جوابى الشرط والقسم والجملة إما مفعول لتأذن لأنه ضرب من القول أو لقول مقدر بعده كأنه قيل وإذ تأذن ربكم فقال الخ .

﴿ وقال موسى إن تكفروا ﴾ نعمه تعالى ولم تشكروها ﴿ أنتم ﴾ يا بنى إسرائيل ﴿ ومن فى الأرض ﴾ من الخلائق ﴿ جميعا فإن الله لغنى ﴾ عن شكركم وشكر غيركم ﴿ حميد ﴾ مستوجب للحمد بذاته لكثرة ما يوجبه من أياديه وإن لم يحمده أحد أو محمود يحمده الملائكة بل كل ذرة من ذراته العالم ناطقة بحمده والحمد حيث كان بمقابلة النعمة وغيرها من الفضائل كان أدل على كماله سبحانه وهو تعليل لما حذف من جواب إن أى إن تكفروا لم يرجع وباله إلا عليكم فإن الله تعالى لغنى عن شكر الشاكرين ولعله عليه الصلاة والسلام إنما قاله عند ما عاين منهم دلائل العناد ومخايل الإصرار على الكفر والفساد وتيقن أنه لا ينفعهم الترغيب ولا التعريض بالترهيب أو قاله غب تذكيرهم بما ذكر من قول الله عز سلطانه تحقيقا لمضمونه وتحذيرا لهم من الكفران ثم شرع فى الترهيب بتذكير ما جرى على الأمم الخالية فقال :

تذكير الكفار بمن قبلهم

﴿ ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم ﴾ ليتدبروا ما أصاب كل واحد من حزبى المؤمن والكافر فيقلعوا عما هم عليه من الشر وينيبوا إلى الله تعالى وقيل هو ابتداء كلام من الله تعالى خطابا للكفرة فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم فيختص تذكير موسى عليه الصلاة والسلام بما اختص ببنى إسرائيل من السراء والضراء والأيام بالأيام الجارية عليهم فقط وفيه مالا يخفى من البعد وأيضاً لايظهر حينئذ وجه تخصيص تذكير الكفار الذين فى عهد النبى عليه الصلاة والسلام

بما أصاب أولئك المعدودين مع أن غيرهم أسوة لهم فى الخلو قبل هؤلاء ﴿ قوم نوح ﴾ بدل من الموصول أو عطف بيان ﴿ وعاد ﴾ معطوف على قوم نوح ﴿ وثمود والذين من بعدهم ﴾ أى من بعد هؤلاء المذكورين عطف عام على قوم نوح وما عطف عليه وقوله تعالى : ﴿ لا يعلمهم إلا الله ﴾ اعتراض أو الموصول مبتدأ ولا يعلمهم إلى آخره خبره والجملة اعتراض والمعنى أنهم من الكثرة بحيث لا يعلم عددهم إلا الله سبحانه وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما بين عدنان وإسمعيل ثلاثون أبا لا يعرفون وكان ابن مسعود رضى الله تعالى عنه إذا قرأ هذه الآية قال كذب النسابون يعنى أنهم يدعون علم الأنساب وقد نفى الله تعالى علمها عن العباد ﴿ جاءتهم رسلهم ﴾ استئناف لبيان نبئهم ﴿ بالبينات ﴾ بالمعجزات الظاهرة والبينات الباهرة فبين كل رسول لأمته طريق الحق وهداهم إليه ليخرجهم من الظلمات إلى النور ﴿ فردوا أيديهم فى أفواههم ﴾ مشيرين بذلك إلى ألسنتهم وما يصدر عنها من المقالة اعتناء منهم بشأنها وتنبيها للرسل على تلقيها والمحافظة عليها وإقناطا لهم عن التصديق والإيمان بإعلام أن لا جواب لهم سواه .

﴿ وقالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به ﴾ أى على زعمكم وهى البينات التى أظهروها حجة على صحة رسالاتهم كقوله تعالى ، (ولقد أرسلنا موسى بآياتنا) ومرادهم بالكفر بها الكفر بدلالتها على صحة رسالاتهم أوفعضوها غيظا وضجرا مما جاءت به الرسل كقوله تعالى (عضوا عليكم الأنامل من الغيظ) أو وضعوها عليها تعجبا منه واستهزاء به كمن غلبه الضحك أو إسكاتا للأنبياء عليهم السلام وأمراً لهم بإطباق الأفواه أو ردوها فى أفواه الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يمنعونهم من التكلم تحقيقا أو تمثيلا أو جعلوا أيدى الأنبياء فى أفواههم تعجبا من عتوهم وعنادهم كما ينبىء عنه تعجبهم بقولهم (أفى الله شك) وقيل الأيدى بمعنى الأيادى[1] عبر بها عن مواعظهم ونصائحهم وشرائعهم التى

(١) فى ١٠ : وهى النعم .

هى مدار النعم الدينية والدنيوية لأنهم لما كذبوها فلم يقبلوها فكأنهم ردوها إلى حيث جاءت منه ﴿ وإنا لفى شك ﴾ عظيم ﴿ مما تدعوننا إليه ﴾ من الإيمان بالله والتوحيد فلا ينافى شكهم فى ذلك كفرهم القطعى بما أرسل به الرسل من البينات فإنهم كفروا بها قطعا حيث لم يهتدوا بها ولم يجعلوها من جنس المعجزات ولذلك قالوا فأتونا بسلطان مبين وقرىء تدعونا بالإدغام ﴿ مريب ﴾ موقع فى الريبة من أرابه أو ذى ريبة من أراب الرجل وهى قلق النفس وعدم اطمئنانها بالشىء .

﴿ قالت رسلهم ﴾ استئناف مبنى على سؤال ينساق إليه المقال كأنه قيل فماذا قالت لهم رسلهم فأجيب بأنهم قالوا منكرين عليهم ومتعجبين من مقالتهم الحمقاء ﴿ أفى الله شك ﴾ بإدخال الهمـــزة على الظرف للإيذان بأن مدار الإنكار ليس نفس الشك بل وقوعه فيما لا يكاد يتوهم فيه الشك أصلا منقادين عن تطبيق الجواب على كلام الكفرة بأن يقولوا أأنتم فى شك مريب من الله تعالى مبالغة فى تنزيه ساحة السبحان عن شائبة الشك وتسجيلا عليهم بسخافة العقول أى أفى شأنه سبحانه من وجوده ووحدته ووجوب الإيمان به وحده شك ما هو أظهر من كل ظاهر وأجلى من كل جلى حتى تكونوا من قبله فى شك مريب وحيث كان مقصدهم الأقصى الدعوة إلى الإيمان والتوحيد وكان إظهار البينات وسيلة إلى ذلك لم يتعرضوا للجواب عن قول الكفرة إنا كفرنا بما أرسلتم به واقتصروا على بيان ما هو الغاية القصوى ثم عقبوا ذلك الإنكار بما يوجبه من الشواهد الدالة على انتفاء المنكر فقالوا ﴿ فاطر السموات والأرض ﴾ أى مبدعهما وما فيهما من المصنوعات على نظام أنيق شاهد بتحقق ما أنتم منه فى شك وهو صفة للاسم الجليل أو بدل منه وشك مرتفع بالظرف لاعتماده على الاستفهام وجعله مبتدأ على أن الظرف خبره يفضى إلى الفصل بين الموصوف والصفة بالأجنبى أعنى المبتدأ والفاعل ليس بأجنبى من رافعه وقد جوز ذلك أيضا ﴿ يدعوكم ﴾ إلى الإيمان بإرساله إيانا لا أنا ندعوكم إليه من تلقاء أنفسنا كما يوهمه قولكم مما تدعوننا إليه ﴿ ليغفر لكم ﴾ بسببه أو

يدعوكم لأجل المغفرة كقولك دعوته ليأكل معى ﴿ من ذنوبكم ﴾ أى بعضها وهو ما عدا المظالم مما بينهم وبينه تعالى فإن الإسلام يجبه قيل هكذا وقع فى جميع القرآن فى وعد الكفرة دون وعد المؤمنين تفرقة بين الوعدين ولعل ذلك لما أن المغفرة حيث جاءت فى خطاب الكفرة مرتبة على محض الإيمان وفى شأن المؤمنين مشفوعة بالطاعة والتجنب عن المعاصى ونحو ذلك فيتناول الخروج من المظالم وقيل المعنى ليغفر لكم بدلا من ذنوبكم ﴿ ويؤخركم إلى أجل مسمى ﴾ إلى وقت سماه الله تعالى وجعله منتهى أعماركم على تقدير الإيمان .

﴿ قالوا استئناف ﴾ كما سبق ﴿ إن أنتم ﴾ أى ما أنتم ﴿ إلا بشر مثلنا ﴾ من غير فضل يؤهلكم لما تدعونه من النبوة ﴿ تريدون ﴾ صفة ثانية لبشر حملا على المعنى كقوله تعالى (أبشر يهدوننا) أو كلام مستأنف أى تريدون بما تتصدون له من الدعوة والإرشاد ﴿ أن تصدونا ﴾ بتخصيص العبادة بالله سبحانه ﴿ عما كان يعبد آباؤنا ﴾ أى عن عبادة ما استمر آباؤنا على عبادته من غير شىء يوجبه وإلا ﴿ فأتونا ﴾ أى وإن لم يكن الأمر كما قلنا بل كنتم رسلا من جهة الله تعالى كما تدعونه فأتونا ﴿ بسلطان مبين ﴾ يدل على فضلكم واستحقاقكم لتلك الرتبة[1] أو على صحة ما تدعونه من النبوة حتى نترك ما لم نزل نعبده أبا عن جد ولقد كانوا آتوهم من الآيات الظاهرة والبينات الباهرة ما تخر له صم الجبال ولكنهم إنما يقولون ما يقولون من العظائم مكابرة وعنادا وإراءة لمن وراءهم أن ذلك ليس من جنس ما ينطلق عليه السلطان المبين ﴿ قالت لهم رسلهم ﴾ مجاراة معهم فى أول مقالتهم وإنما قيل لهم لاختصاص الكلام بهم حيث أريد إلزامهم بخلاف ما سلف من إنكار وقوع الشك فى الله سبحانه فإن ذلك عام وإن اختص بهم ما يعقبه ﴿ إن نحن إلا بشر مثلكم ﴾ كما تقولون ﴿ ولكن الله يمن ﴾ بالنبوة ﴿ على من يشاء من عباده ﴾ يعنون أن ذلك عطية[2] من

---

(١) فى ١٠ : للرتبة .

(٢) فى ١٠ : غطاء

الله تعالى يعطيها من يشاء من عباده بمحض الفضل والامتنان من غير داعية توجبه قالوه تواضعا وهضما للنفس أو ما نحن من الملائكة بل نحن بشر مثلكم فى الصورة أو فى الدخول تحت الجنس ولكن الله يمن بالفضائل والكمالات والاستعدادات على من يشاء المن بها وما يشاء ذلك إلا لعلمه باستحقاقه لها وتلك الفضائل والكمالات والاستعدادات هى التى يدور عليها فلك الاصطفاء للنبوة ﴿ وما كان ﴾ وما صح وما استقام ﴿ لنا أن نأتيكم بسلطان ﴾ أى بحجة من الحجج فضلا عن السلطان المبين بشىء من الأشياء وسبب من الأسباب ﴿ إلا بإذن الله ﴾ فإنه أمر يتعلق بمشيئته تعالى إن شاء كان وإلا فلا ﴿ وعلى الله ﴾ وحده دون ما عداه مطلقا ﴿ فليتوكل المؤمنون ﴾ أمر منهم للمؤمنين بالتوكل ومقصودهم حمل أنفسهم عليه آثر ذى أثير ألا يرى إلى قوله عز وجل :

﴿ وما لنا ﴾ أى عذر لنا ﴿ أن لا نتوكل على الله ﴾ أى فى أن لا نتوكل عليه ولإظهار النشاط بالتوكل عليه والاستلذاذ بذكر اسمه تعالى وتعليل التوكل ﴿ وقد هدانا ﴾ أى والحال أنه قد فعل بنا ما يوجبه ويستدعيه حيث هدانا ﴿ سبلنا ﴾ أى أرشد كلا منا سبيله ومنهاجه الذى شرع له وأوجب عليه سلوكه فى الدين وحيث كانت أذية الكفار مما يوجب القلق والاضطراب القادح فى التوكل قالوا على سبيل التوكيد القسمى مظهرين لكمال العزيمة ﴿ ولنصبرن على ما آذيتمونا ﴾ بالعناد واقتراح الآيات وغير ذلك مما لا خير فيه ﴿ وعلى الله ﴾ خاصة ﴿ فليتوكل المتوكلون ﴾ أى فليثبت المتوكلون على ما أحدثوه من التوكل والمراد هو المراد مما سبق من إيجاب التوكل على أنفسهم والمراد بالمتوكلين المؤمنون والتعبير عنهم بذلك لسبق ذكر اتصافهم به ويجوز أن يراد وعليه فليتوكل من توكل دون غيره .

﴿ وقال الذين كفروا ﴾ لعل هؤلاء القائلين بعض المتمردين العاتين الغالين فى الكفر من أولئك الأمم الكافرة التى نقلت مقالاتهم الشنيعة دون جميعهم كقوم شعيب وأضرابهم ولذلك لم يقل وقالوا ﴿ لرسلهم لنخرجنكم

من أرضنا أو لتعودن فى ملتنا ﴾ لم يقنعوا بعصيانهم الرسل ومعاندتهم الحق بعد ما رأوا البينات الفائتة[1] للحصر حتى اجترأوا على مثل هاتيك العظيمة التى لا يكاد يحيط بها دائرة الإمكان فحلفوا على أن يكون أحد الحالين والعود إما بمعنى مطلق الصيرورة أو باعتبار تغليب المؤمنين على الرسل وقد مر فى الأعراف وسيأتى فى الكهف ﴿ فأوحى إليهم ﴾ أى إلى الرسل ﴿ ربهم ﴾ مالك أمرهم عند تناهى كفر الكفرة وبلوغهم من العتو إلى غاية لا مطمع بعدها فى إيمانهم ﴿ لنهلكن الظالمين ﴾ على إضمار القول أو على إجراء الإيحاء مجراه لكونه ضربا منه ﴿ ولنسكننكم الأرض ﴾ أى أرضهم وديارهم عقوبة لهم بقولهم لنخرجنكم من أرضنا كقوله تعالى (وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها) ﴿ من بعدهم ﴾ أى من بعد إهلاكهم وقرىء ليهلكن وليسكننكم بالياء اعتبارا لأوحى كقولهم حلف زيد ليخرجن غدا ﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى الموحى به وهو إهلاك الظالمين وإسكان المؤمنين ديارهم أى ذلك الأمر محقق ثابت ﴿ لمن خاف مقامى ﴾ موقفى وهو الموقف الذى يقف فيه العباد يوم يقوم الناس لرب العالمين أو قيامى عليه وحفظى لأعماله وقيل لفظ المقام مقحم ﴿ وخاف وعيد ﴾ وعيدى بالعذاب أو عذابى الموعود للكفار والمعنى أن ذلك حق للمتقين كقوله (والعاقبة للمتقين) .

﴿ واستفتحوا ﴾ أى استنصروا الله على أعدائهم كقوله تعالى (إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح) أو استحكموا وسألوه القضاء بينهم من الفتاحة وهى الحكومة كقوله تعالى (ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق) فالضمير للرسل وقيل للفريقين فإنهم سألوا أن ينصر المحق ويهلك المبطل وهو معطوف على أوحى إليهم وقرىء بلفظ الأمر عطفا على لنهلكن الظالمين أى أوحى إليهم ربهم لنهلكن وقال لهم استفتحوا ﴿ وخاب ﴾ أى خسر وهلك ﴿ كل جبار عنيد ﴾

---

(١) فى ١٠ : السالفة

متصف بضد ما اتصف به المتقون أى فنصروا عند استفتاحهم وظفروا بما سألوا وأفلحوا وخاب كل جبار عنيد وهم قومهم المعاندون فالخيبة بمعنى مطلق الحرمان عن المطلوب أو ذلك باعتبار أنهم كانوا يزعمون أنهم على الحق أو استفتح الكفار على الرسل وخابوا ولم يفلحوا وإنما قيل وخاب كل جبار عنيد ذما لهم وتسجيلا عليهم بالتجبر والعناد لا أن بعضهم ليسوا كذلك وأنه لم يصبهم الخيبة أو استفتحوا جميعاً فنصر الرسل وأنجز لهم الوعد وخاب كل عات متمرد فالخيبة بمعنى الحرمان غب الطلب وفى إسناد الخيبة إلى كل منهم مالايخفى من المبالغة ﴿ ومن ورائه جهنم ﴾ أى بين يديه فإنه مرصد لها واقف على شفيرها فى الدنيامبعوث إليها فى الآخرةوقيلمن وراءحياته وحقيقتهماتوارى عنك ﴿ ويسقى ﴾ معطوف على مقدر جوابا عن سؤال سائل كأنه قيل فماذا يكون إذن فقيل يلقى فيها ويسقى ﴿ من ماء ﴾ مخصوص لا كالمياه المعهودة ﴿ صديد ﴾ وهو قيح أو دم مختلط بمدة يسيل من الجرح قال مجاهد وغيره هو ما يسيل من أجساد أهل النار وهو عطف بيان لما أبهم أولا ثم بين بالصديد تهويلا لأمره وتخصيصه بالذكر من بين عذابها يدور على أنه من أشد أنواعه .

﴿ يتجرعه ﴾ قيل هو صفة لماء أو حال منه والأظهر أنه استئناف مبنى على السؤال كأنه قيل فماذا يفعل به فقيل يتجرعه أى يتكلف جرعه مرة بعد أخرى لغلبة العطش واستيلاء الحرارة عليه ﴿ ولا يكاد يسيغه ﴾ أى لايقارب أن يسيغه فضلا عن الإساغة بل يغص به فيشربه بعد اللتيا والتى جرعة فيطول عذابه تارة بالحرارة والعطش وأخرى بشربه على تلك الحال فإن السوغ انحدار الشراب فى الحلق بسهولة وقبول نفس ونفيه لا يوجب نفى ما ذكر جميعاً وقيل لا يكاد يدخله فى جوفه وعبر عنه بالإساغة لما أنها المعهودة فى الأشربة وهو حال من فاعل يتجرعه أو من مفعوله أو منهما جميعاً ﴿ ويأتيه الموت ﴾ أى أسبابه من الشدائد ﴿ من كل مكان ﴾ ويحيط بهمن جميع الجهات أو من كل مكان من جسده حتى من أصول شعره وإبهام رجله ﴿ وما هو بميت ﴾

أى والحال أنه ليس بميت كما هو الظاهر من مجىء أسبابه لاسيما من جميع الجهات حتى لا يتألم بما غشيه من أصناف الموبقات ﴿ ومن ورائه ﴾ من بين يديه ﴿ عذاب غليظ ﴾ يستقبل كل وقت عذابا أشد وأشق مما كان قبله ففيه دفع ما يتوهم من الخفة بحسب الاعتياد كما فى عذاب الدنيا وقيل هو الخلود فى النار وقيل هو حبس الأنفاس وقيل المراد بالاستفتاح والخيبة استسقاء أهل مكة فى سنيهم التى أرسلها الله تعالى عليهم بدعوته عليه الصلاة والسلام وخيبتهم فى ذلك وقد وعد لهم بدل ذلك صديد أهل النار .

﴿ مثل الذين كفروا بربهم ﴾ أى صفتهم وحالهم العجيبة الشأن التى هى كالمثل فى الغرابة وهو مبتدأ خبره قوله تعالى ﴿ أعمالهم كرماد ﴾ كقولك صفة زيد عرضه مهتوك وماله منهوب وهو استئناف مبنى على سؤال من قال ما بال أعمالهم التى عملوها فى وجوه البر من صلة الأرحام وإعتاق الرقاب وفداء الأسارى وإغاثة الملهوفين وقرى الأضياف وغير ذلك مما هو من باب المكارم حتى آل أمرهم إلى هذا المآل فأجيب بأن ذلك كرماد ﴿ اشتدت به الريح ﴾ حملته وأسرعت الذهاب به ﴿ فى يوم عاصف ﴾ العصف اشتداد الريح وصف به زمانها مبالغة كقولك ليلة ساكرة وإنما السكور لريحها شبهت صنائعهم المعدودة لابتنائها[1] على غير أساس من معرفة الله تعالى والإيمان به والتوجه بها إليه تعالى برماد طيرته الريح العاصفة أو استئناف مسوق لبيان أعمالهم للأصنام أو مبتدأ خبره محذوف كما هو رأى سيبويه أى فيما يتلى عليك مثلهم وقوله أعمالهم بدل من مثل الذين وقوله كرماد خبره ﴿ لا يقدرون ﴾ أى يوم القيامة ﴿ مما كسبوا ﴾ من تلك الأعمال ﴿ على شىء ﴾ ما أى لا يرون له أثرا من ثواب أو تخفيف عذاب كدأب الرماد المذكور وهو فذلكة التمثيل والاكتفاء ببيان عدم رؤية الأثر لأعمالهم للأصنام مع أن لها عقوبات هائلة للتصريح ببطلان اعتقادهم وزعمهم أنها شفعاء لهم عند الله تعالى وفيه تهكم بهم ﴿ ذلك ﴾

(١) فى ١٠ : لبنائها على غير أساس .

أى ما دل عليه التمثيل دلالة واضحة من ضلالهم مع حسبانهم أنهم على شىء ﴿ هو الضلال البعيد ﴾ عن طريق الصواب أو عن نيل الثواب .

دلائل ملك الله تعالى

﴿ ألم تر ﴾ خطاب للرسول صلى الله عليه وسلم والمراد به أمته وقيل لكل أحد من الكفرة لقوله تعالى (يذهبكم) والرؤية رؤية القلب وقوله تعالى ﴿ أن الله خلق السموات والأرض ﴾ ساد مسد مفعوليها أى ألم تعلم أنه تعالى خلقهما ﴿ بالحق ﴾ ملتبسة بالحكمة والوجه الصحيح الذى يحق أن تخلق عليه وقرىء خالق السموات والأرض ﴿ إن يشأ يذهبكم ﴾ يعدمكم بالمرة ﴿ ويأت بخلق جديد ﴾ أى يخلق بدلكم خلقا آخر مستأنفا لاعلاقة بينكم وبينهم رتب قدرته تعالى على ذلك على قدرته تعالى على خلق السموات والأرض على هذا النمط البديع إرشاداً إلى طريق الاستدلال فإن من قدر على خلق مثل هاتيك الأجرام العظيمة كان تبديل خلق آخر بهم أندر ولذلك قال ﴿ وما ذلك ﴾ أى إذهابكم والإتيان بخلق جديد مكانكم ﴿ على الله بعزيز ﴾ بمتعذر أو متعسر فإنه قادر بذاته على الممكنات لا اختصاص له بمقدور دون مقدور ومن هذا شأنه حقيق بأن يؤمن به ويرجى ثوابه ويخشى عقابه .

﴿ وبرزوا لله جميعا ﴾ أى يبرزون يوم القيامة وإيثار صيغة الماضى للدلالة على تحقق وقوعه كما فى قوله سبحانه (ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار) أو لأنه لا مضى ولا استقبال بالنسبة إليه سبحانه والمراد بروزهم من قبورهم لأمر الله تعالى ومحاسبته أو لله على ظنهم فإنهم كانوا يظنون عند ارتكابهم الفواحش سراً أنها تخفى على الله سبحانه فإذا كان يوم القيامة انكشفوا لله عند أنفسهم ﴿ فقال الضعفاء ﴾ الأتباع جمع ضعيف والمراد ضعف الرأى وإنما كتب بالواو على لفظ من يفخم الألف قبل الهمزة ﴿ للذين استكبروا ﴾ لرؤسائهم الذين استتبعوهم واستغووهم ﴿ إنا كنا ﴾ فى الدنيا ﴿ لكم تبعا ﴾ فى تكذيب الرسل عليهم السلام والإعراض عن نصائحهم وهو جمع تابع كغيب فى جمع غائب

أو مصدر نعت به مبالغة أو على إضمار أى أى ذوى تبع ﴿ فهل أنتم مغنون ﴾ دافعون ﴿ عنا ﴾ والفاء للدلالة على سببية الاتباع للإغناء والمراد التوبيخ والعتاب والتقريع والتبكيت ﴿ من عذاب الله من شىء ﴾ من الأولى للبيان واقعة موقع الحال والثانية للتبعيض واقعة موقع المفعول أى بعض الشىء الذى هو عذاب الله تعالى ويجوز كونهما للتبعيض أى بعض شىء هو بعض عذاب الله والإعراب كما سبق ويجوز أن تكون الأولى مفعولا والثانية مصدرا أى فهل أنتم مغنون عنا بعض العذاب بعض الإغناء ويعضد الأول قوله تعالى : (فهل أنتم مغنون عنا نصيبا من النار) .

﴿ قالوا ﴾ أى المستكبرون جوابا عن معاتبة الأتباع واعتذارا عما فعلوا بهم ﴿ لو هدانا الله ﴾ أى للإيمان ووفقنا له ﴿ لهديناكم ﴾ ولكن ضللنا فأضللناكم أى اخترنا لكم ما اخترناه لأنفسنا أو لو هدانا الله طريق النجاة من العذاب لهديناكم وأغنينا عنكم كما عرضناكم له ولكن سد دوننا طريق الخلاص ولات حين مناص ﴿ سواء علينا أجزعنا ﴾ مما لقينا ﴿ أم صبرنا ﴾ على ذلك أى مستو علينا الجزع والصبر فى عدم الإنجاء والهمزة وأم لتأكيد التسوية كما فى قوله تعالى : (سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم) وإنما أسندوهما ونسبوا استواءهما إلى ضمير المتكلم المنتظم للمخاطبين أيضاً مبالغة فى النهى عن التوبيخ بإعلام[1] أنهم شركاء لهم فيما ابتلوا به وتسلية لهم ويجوز أن يكون قوله : (سواء علينا) الخ من كلام الفريقين على منوال قوله تعالى : (ذلك ليعلم أنى لم أخنه) ويؤيده ما روى أنهم يقولون تعالوا نجزع فيجزعون خمسمائة عام فلا ينفعهم فيقولون تعالوا نصبر فيصبرون كذلك فلا ينفعهم فعند ذلك يقولون ذلك ولما كان عتاب الأتباع من باب الجزع ذيلوا جوابهم ببيان أن لا جدوى فى ذلك فقالوا ﴿ ما لنا من محيص ﴾ من منجى ومهرب من العذاب من حاص الحمار إذا عدل بالفرار وهو إما اسم مكان كالمبيت والمصيف

---

(١) فى ١١ : باعتبار أنهم شركاء .

أو مصدر كالغيب والمشيب وهى جملة مفسرة لإجمال ما فيه الاستواء فلا محل لها من الإعراب أو حال مؤكدة أو بدل منه .

الشيطان يخذل أولياءه

﴿ وقال الشيطان ﴾ الذى أضل كلا الفريقين واستتبعهما عندما عتباه بما قاله الأتباع للمستكبرين ﴿ لما قضى الأمر ﴾ أى أحكم وفرغ منه وهو الحساب ودخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار خطيبا فى محفل الأشقياء من الثقلين ﴿ إن الله وعدكم وعد الحق ﴾ أى وعدا من حقه أن ينجز فأنجزه أو وعدا أنجزه وهو الوعد بالبعث والجزاء ﴿ ووعدتكم ﴾ أى وعد الباطل وهو أن لا بعث ولا جزاء ولئن كان فالأصنام شفعاؤكم ولم يصرح ببطلانه لما دل عليه قوله ﴿ فأخلفتكم ﴾ أى موعدى على حذف المفعول الثانى أى نقضته جعل خلف وعده كالإخلاف منه كأنه كان قادرا على إنجازه وأنى له ذلك ﴿ وما كان لى عليكم من سلطان ﴾ أى تسلط أو حجة تدل على صدق ﴿ إلا أن دعوتكم ﴾ إلا دعائى إياكم إليه وتسويله وهو وإن لم يكن من من باب السلطان لكنه أبرزه فى مبروزه على طريقة «تحية بينهم ضرب وجيع» مبالغة فى نفى السلطان عن نفسه كأنه قال إنما يكون لى عليكم سلطان إذا كان مجرد الدعاء من بابه ويجوز كون الاستثناء منقطعا ﴿ فاستجبتم لى ﴾ فأسرعتم إجابتى .

﴿ فلا تلومونى ﴾ بوعدى إياكم حيث لم يكن ذلك على طريقة القسر والإلجاء كما يدل عليه الفاء وقرىء بالياء على وجه الالتفات كما فى قوله تعالى (حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم) ﴿ ولوموا أنفسكم ﴾ حيث استجبتم لى باختياركم حين دعوتكم بلا حجة ولا دليل بمجرد تزيين وتسويل ولم تستجيبوا ربكم إذ دعاكم دعوة الحق المقرونة بالبينات والحجج وليس مراده التنصل عن توجه اللائمة إليه بالمرة بل بيان أنهم أحق بها منه وليس فيه دلالة على استقلال

للعبد فى أفعاله كما زعمت المعتزلة بل يكفى فى ذلك أن يكون لقدرته الكاسبة التى عليها يدور فلك التكليف مدخل فيه فإنه سبحانه إنما يخلق أفعاله حسبما يختاره وعليه تترتب السعادة والشقاوة وما قيل من أنه يستدعى أن يقال فلا تلومونى ولا أنفسكم فإن الله قضى عليكم الكفر وأجبركم عليه مبنى على عدم الفرق بين مذهب أهل الحق وبين مسلك الجبرية ﴿ ما أنا بمصرخكم ﴾ أى بمغيثكم مما أنتم فيه من العذاب ﴿ وما أنتم بمصرخى ﴾ مما أنا فيه وإنما تعرض لذلك مع أنه لم يكن فى حيز الاحتمال مبالغة فى بيان عدم إصراخه إياهم وإيذانا بأنه أيضاً مبتلى بما ابتلوا به ومحتاج إلى الإصراخ فكيف من إصراخ الغير ولذلك آثر الجملة الاسمية فكأن مامضى كان جوابا منه عن توبيخهم وتقريعهم وهذا جواب عن استغاثتهم واستعانتهم به فى استدفاع ما دهمهم من العذاب وقرىء بكسر الياء .

﴿ إنى كفرت ﴾ اليوم ﴿ بما أشركتمونى من قبل ﴾ أى بإشراككم إياى بمعنى تبرأت منه واستنكرته كقوله تعالى(ويوم القيامة يكفرون بشرككم) يعنى أن إشراككم لى بالله سبحانه هو الذى يطمعكم فى نصرتى لكم بأن كان لكم على حق حيث جعلتمونى معبودا وكنت أود ذلك وأرغب فيه فاليوم كفرت بذلك ولم أحمده ولم أقبله منكم بل تبرأت منه ومنكم فلم يبق بينى وبينكم علاقة أو كفرت من قبل حين أبيت السجود لآدم بالذى أشركتمونيه وهو الله تعالى كما فى قوله سبحان ماسخر كن لنا ، فيكون تعليلا لعدم إصراخه فإن الكافر بالله سبحانه بمعزل من الإغاثة والإعانة سواء كان ذلك بالمدافعة أو الشفاعة وأما جعله تعليلا لعدم إصراخهم إياه فلا وجه له إذلا احتمال له حتى يحتاج إلى التعليل ولأن تعليل عدم إصراخهم بكفره يوهم أنهم بسبيل من ذلك لولا المانع من جهته .

﴿ إن الظالمين لهم عذاب أليم ﴾ تتمة كلامه أو ابتداء كلام من جهة الله

عز وجل وفى حكاية أمثاله لطف للسامعين وإيقاظ لهم[1] حتى يحاسبوا أنفسهم ويتدبروا عواقبهم ﴿ وأدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها بإذن ربهم ﴾ أى بأمره أو بتوفيقه وهدايته وفى التعرض لوصف الربوبية مع الإضافة إلى ضميرهم إظهار مزيد اللطف بهم والمدخلون هم الملائكة عليهم السلام وقرىء على صيغة المتكلم فيكون قوله تعالى (بإذن ربهم) متعلقا بقوله تعالى ﴿تحيتهم فيها سلام﴾ أى يحييهم الملائكة بالسلام بإذن ربهم .

مثل كلمة التوحيد وكلمة الكفر

﴿ ألم تر ﴾ الخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم وقد علق بما بعده من قوله تعالى : ﴿ كيف ضرب الله مثلا ﴾ أى كيف اعتمده ووضعه اللائق به ﴿ كلمة طيبة ﴾ منصوب بمضمر أى جعل كلمة طيبة هى كلمة التوحيد أو كل كلمة حسنة كالتسبيحة والتحميدة والاستغفار والتوبة والدعوة ﴿كشجرة طيبة﴾ أى حكم بأنها مثلها لا أنه تعالى صيرها مثلها فى الخارج وهو تفسير لقوله (ضرب الله مثلا) كقولك شرف الأمير زيدا كساه حلة وحمله على فرس ويجوز أن يكون كلمة بدلا من مثلا وكشجرة صفتها أو خبر مبتدأ محذوف أى هى كشجرة وأن يكون أول مفعولى ضرب إجراء له مجرى جعل قد أخر عن ثانيهما أعنى مثلا لئلا يبعد عن صفته التى هى كشجرة وقد قرئت بالرفع على الابتداء ﴿ أصلها ثابت ﴾ أى ضارب بعروقه فى الأرض وقرأ أنس بن مالك رضى الله عنه كشجرة طيبة ثابت أصلها وقراءة الجماعة أقوى سبكا وأنسب بقرينته أعنى قوله تعالى : ﴿ وفرعها ﴾ أى أعلاها ﴿ فى السماء ﴾ فى جهة العلو ويجوز أن يراد وفروعها على الاكتفاء بلفظ الجنس عن الجمع .

﴿ تؤتى أكلها ﴾ تعطى ثمرها ﴿ كل حين ﴾ وقته الله تعالى لإثمارها ﴿ بإذن ربها ﴾ بإرادة خالقها والمراد بالشجرة المنعوتة إما النخلة كما روى

(١) فى ١٠ وإيقاظ لهممهم .

مرفوعا أو شجرة فى الجنة ﴿ ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون ﴾ لأن فى ضربها زيادة إفهام وتذكير فإنه تصوير للمعانى بصور المحسوسات ﴿ ومثل كلمة خبيثة ﴾ هى كلمة الكفر والدعاء إليه أو تكذيب الحق أو ما يعم الكل أو كل كلمة قبيحة ﴿ كشجرة خبيثة ﴾ أى كمثل شجرة خبيثة قيل هى كل شجرة لا يطيب ثمرها كالحنظل والكشوث ونحوهما وتغيير الأسلوب للإيذان بأن ذلك غير مقصود الضرب والبيان وإنما ذلك أمر ظاهر يعرفه كل أحد ﴿ اجتثت ﴾ استؤصلت وأخذت جثتها بالكلية ﴿ من فوق الأرض ﴾ لكون عروقها قريبة منه ﴿ مالها من قرار ﴾ استقرار عليها .

﴿ يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت ﴾ الذى ثبت بالحجة عندهم وتمكن فى قلوبهم وهو الكلمة الطيبة التى ذكرت صفتها العجيبة ﴿ فى الحيوة الدنيا ﴾ فلا يزالون عنه إذا افتتنوا فى دينهم كزكريا ويحيى وجرجيس وشمسون والذين فتنهم أصحاب الأخدود ﴿ وفى الآخرة ﴾ فلا يتلعثمون إذا سئلوا عن معتقدهم فى الموقف ولا تدهشهم أهوال القيامة أو عند سؤال القبر . روى أنه عليه الصلاة والسلام ذكر قبض روح المؤمن فقال ثم يعاد روحه فى جسده فيأتيه ملكان فيجلسانه فى قبره فيقولان من ربك وما دينك ومن نبيك فيقول ربى الله ودينى الإسلام ونبيى محمد عليه الصلاة والسلام فينادى مناد من السماء إنه صدق عبدى فذلك قوله تعالى (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت) وهذا مثال إيتاء الشجرة المذكورة أكلها كل حين قال الثعلبى فى تفسيره أخبرنى أبو القاسم بن حبيب فى سنة ست وثمانين وثلثمائة قال سمعت أبا الطيب محمد بن على الخياط يقول سمعت سهل بن عمار العملى يقول رأيت يزيد بن هرون فى منامى بعد موته فقلت ما فعل الله بك قال أتانى فى قبرى ملكان فظان فقالا من ربك وما دينك ومن نبيك فأخذت بلحيتى البيضاء فقلت لهما ألمثلى يقال هذا وقد علمت الناس جوابكما ثمانين سنة فذهبا .

﴿ ويضل الله الظالمين ﴾ أى يخلق فيهما الضلال عن الحق الذى ثبت المؤمنين

عليه حسب إرادتهم واختيارهم والمراد بهم الكفرة بدليل ما يقابله ووصفهم بالظلم إما باعتبار وضعهم للشيء فى غير موضعه وإما باعتبار ظلمهم لأنفسهم حيث بدلوا فطرة الله التى فطر الناس عليها فلم يهتدوا إلى القول الثابت أو كل من ظلم نفسه بالاقتصار على التقليد والإعراض عن البينات الواضحة فلا يتثبت فى مواقف الفتن ولا يهتدى إلى الحق فالمراد بالذين آمنوا حينئذ المخلصون فى الإيمان والراسخون فى الإيقان كما ينبىء عنه التثبيت لكنه يوهم كون كلمة التوحيد إذا كانت لا عن إيقان داخلة تحت مالا قرار له من الشجرة المضروبة مثلا ﴿ ويفعل الله مايشاء ﴾ من تثبيت بعض وإضلال آخرين حسبما توجبه مشيئته التابعة للحكم البالغة المقتضية لذلك وفى إظهار الاسم الجليل فى الموضعين من الفخامة وتربية المهابة ما لا يخفى مع مافيه من الإيذان بالتفاوت فى مبدأ التثبيت والإضلال فإن مبدأ صدور كل منهما عنه سبحانه وتعالى من صفاته العلا غير ما هو مبدأ صدور الآخر .

من أعاجيب صنع الكفار

﴿ ألم تر ﴾ تعجيب لرسول الله صلى الله عليه وسلم أو لكل أحد مما صنع الكفرة من الأباطيل التى لا تكاد تصدر عمن له أدنى إدراك أى ألم تنظر ﴿ إلى الذين بدلوا نعمة الله ﴾ أى شكر نعمته تعالى بأن وضعوا موضعه ﴿ كفرا ﴾ عظيما وغمطا لها أو بدلوا نفس النعمة كفرا فإنهم لما كفروها سلبوها فصاروا مستبدلين بها كفرا كأهل مكة حيث خلقهم الله سبحانه وأسكنهم حرمه الآمن الذى يجبى إليه ثمرات كل شىء وجعلهم قوام بيته وشرفهم بمحمد عليه الصلاة والسلام فكفروا ذلك فقحطوا سبع سنين وقتلوا وأسروا يوم بدر فصاروا أذلاء مسلوبى النعمة باقين بالكفر بدلها عن عمر وعلى رضى الله عنهما هم الأفجران من قريش بنو المغيرة وبنو أمية أما بنو المغيرة فكفيتموهم يوم بدر وأما بنو أمية فتمتعوا إلى حين كأنهما يتأولان ما سيتلى من قوله عز وجل (قل تمتعوا) الآية ﴿ وأحلوا ﴾ أى

أزلوا ﴿ قومهم ﴾ بإرشادهم إياهم إلى طريقة الشرك والضلال وعدم التعرض لحلولهم لدلالة الإحلال عليه إذ هو فرع الحلول كقوله تعالى (يقدم قومه يوم القيامه فأوردهم النار) ﴿دار البوار﴾ دار الهلاك الذى لاهلاك وراءه ﴿جهنم﴾ عطف بيان لها وفى الإبهام ثم البيان ما لا يخفى من التهويل ﴿ يصلونها ﴾ حال منها أو من قومهم أى داخلين فيها مقاسين لحرها أو استئناف لبيان كيفية الحلول أو مفسر لفعل يقدر ناصبا لجهنم فالمراد بالإحلال المذكور حينئذ تعريضهم للهلاك بالقتل والأسر لكن قوله تعالى (قل تمتعوا فإن مصيركم إلى النار) أنسب بالتفسير الأول ﴿ وبئس القرار ﴾ على حذف المخصوص بالذم أى بئس المقر جهنم أو بئس القرار قرارهم فيها وفيه بيان أن حلولهم وصليهم على وجه الدوام والاستمرار .

﴿ وجعلوا ﴾ عطف على أحلوا وماعطف عليه داخل معهما فى حيز الصلة وحكم التعجيب أى جعلوا فى اعتقادهم وحكمهم ﴿ لله ﴾ الفرد الصمد الذى ليس كمثله شىء وهو الواحد القهار ﴿ أندادا ﴾ أشباها فى التسمية أو فى العبادة ﴿ ليضلوا ﴾ قومهم الذين يشايعونهم حسبما ضلوا ﴿ عن سبيله ﴾ القويم الذى هو التوحيد ويوقعوهم فى ورطة الكفر والضلال ولعل تغيير الترتيب مع أن مقتضى ظاهر النظم أن يذكر كفرانهم نعمة الله تعالى ثم كفرهم بذاته تعالى باتخاذ الأنداد ثم إضلالهم لقومهم المؤدى إلى إحلالهم دار البوار لتثنية التعجيب وتكريره والإيذان بأن كل واحد من وضع الكفر موضع الشكر وإحلال القوم دار البوار واتخاذ الأنداد للإضلال أمر يقضى منه العجب ولو سيق النظم على نسق الوجود لربما فهم التعجيب من مجموع الهنات الثلاث كما فى قصة البقرة وقرىء ليضلوا بالفتح وأياما كان فليس ذلك غرضا حقيقيا لهم من اتخاذ الأنداد لكن لما كان ذلك نتيجة له شبه بالغرض وأدخل عليه اللام بطريق الاستعارة التبعية .

﴿ قل ﴾ تهديدا لأولئك الضالين المضلين ونعيا عليهم وإيذانا بأنهم لشدة إبائهم قبول الحق وفرط إنهماكهم فى الباطل وعدم ارعوائهم عن

ذلك بحال أحقاء بأن يضرب عنهم صفحا ويعطف عنهم عنان العظة ويخلوا وشأنهم ولا ينهوا عنه بل يؤمروا بمباشرته مبالغة فى التخلية والخذلان ومسارعة إلى بيان عاقبته الوخيمة ويقال لهم ﴿ تمتعوا ﴾ بما أنتم عليه من الشهوات التى جملتها كفران النعم العظام واستتباع الناس فى عبادة الأصنام ﴿ فإن مصيركم إلى النار ﴾ ليس إلا ، فلا بد لكم من تعاطى ما يوجب ذلك ويقتضيه من أحوالكم بل هى فى الحقيقة صورة لدخولها ومثال له حسبما يلوح به قوله سبحانه (وأحلوا قومهم دار البوار) الخ فهو تعليل للأمر المأمور وفيه من التهديد الشديد والوعيد الأكيد مالا يوصف أو قل لهم تصويرا لحالهم وتعبيرا عما يلجئهم إلى ذلك تمتعوا إيذانا بأنهم لفرط انغماسهم فى التمتع بما هم فيه من غير صارف يلويهم ولا عاطف يثنيهم مأمورون بذلك من قبل آمر الشهوة مذعنون لحكمه منقادون لأمره كدأب مأمور ساع فى خدمة آمر مطاع فليس قوله تعالى (فإن مصيركم إلى النار) حينئذ تعليلا للأمر بل هو جواب شرط ينسحب عليه الكلام كأنه قيل هذه حالكم فإن دمتم عليه[1] فإن مصيركم إلى النار وفيه التهديد والوعيد لا فى الأمر .

وصايا المؤمنين

﴿ قل لعبادى الذين آمنوا ﴾ خصهم بالإضافة إليه تنويها لهم وتنبيها على أنهم المقيمون لوظائف العبودية الموفرون بحقوقها وترك العاطف بين الأمرين للإيذان بتباين حالها باعتبار المقول تهديدا وتشريفا والمقول ههنا محذوف دل عليه الجواب أى قل لهم أقيموا وأنفقوا ﴿ يقيموا الصلوة وينفقوا مما رزقناهم ﴾ أى يداوموا على ذلك وفيه إيذان بكمال مطاوعتهم الرسول صلى الله عليه وسلم وغاية مسارعتهم إلى الامتثال بأوامره وقد جوزوا أن يكون المقول يقيموا وينفقوا بحذف لام الأمر عنهما وإنما حسن ذلك دون الحذف فى قوله .

---

(١) فى ١٠ : دمتم عليها .

محمد تفد نفسك كل نفس إذا ما خفت من أمر تبالا

لدلالة قل عليه وقيل هما جوابا أقيموا وأنفقوا قد أقيما مقامهما وليس بذاك ﴿سرا وعلانية﴾ منتصبان على المصدرية من الأمر المقدر لا من جواب الأمر المذكور أى أنفقوا إنفاق سر وعلانية والأحب فى الإنفاق إخفاء المتطوع به وإعلان الواجب والمراد حث المؤمنين على الشكر لنعم الله سبحانه بالعبادة البدنية والمالية وترك التمتع بمتاع الدنيا والركون إليها كما هو صنيع الكفرة ﴿من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه﴾ فيبتاع المقصر ما يتلافى به تقصيره أو يفتدى به نفسه والمقصود نفى عقد المعاوضة بالمرة وتخصيص البيع بالذكر للإيجاز مع المبالغة فى نفى العقد إذ انتفاء البيع يستلزم انتفاء الشراء على أبلغ وجه وانتفاؤه ربما يتصور مع تحقق الإيجاب من قبل البائع ﴿ولا خلال﴾ ولا مخالة فيشفع له خليل أو يسامحه بمال يفتدى به نفسه أو من قبل أن يأتى يوم لا أثر فيه لما لهجوا بتعاطيه من البيع والمخالة ولا انتفاع بذلك وإنما الانتفاع والارتفاق فيه بالإنفاق لوجه الله سبحانه والظاهر أن من متعلقة بأنفقوا وتذكير إتيان ذلك اليوم لتأكيد مضمونه كما فى سورة البقرة من حيث أن كلا من فقدان الشفاعة وما يتدارك به التقصير معاوضة وتبرعا وانقطاع آثار البيع والخلال الواقعين فى الدنيا وعدم الانتفاع بهما من أقوى الدواعى إلى الإتيان بما تبقى عوائده وتدوم فوائده من الإنفاق فى سبيل الله عز وجل أو من حيث أن ادخار المال وترك إنفاقه إنما يقع غالبا للتجارات والمهاداة فحيث لا يمكن ذلك فى الآخرة فلا وجه لادخاره إلى وقت الموت وتخصيص التأكيد بذلك لميل الطباع إلى المال وكونها مجبولة على حبه والضنة به ولا يبعد أن يكون تأكيداً لمضمون الأمر بإقامة الصلاة أيضا من حيث أن تركها كثيراً ما يكون بالاشتغال بالبياعات والمخالات كما فى قوله تعالى (وإذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا إليها) وقرىء بالفتح فيهما على إرادة النفى العام ودلالة الرفع على ذلك باعتبار خطابى هو وقوعه فى جواب هل فيه بيع أو خلال .

من دلائل عظمة الله تعالى

﴿الله﴾ مبتدأ خبره ﴿الذى خلق السموات﴾ وما فيها من الأجرام العلوية ﴿والأرض وما فيها من أنواع المخلوقات لما ذكر أحوال الكافرين لنعم الله تعالى وأمر المؤمنين بإقامة مراسم الطاعة شكراً لنعمه شرع فى تفصيل مايستوجب على كافة الأنام والمثابرة على الشكر والطاعة من النعم العظام والمنن الجسام حثا للمؤمنين عليها وتقريعا للكفرة المخلين بها الواضعين موضعها الكفر والمعاصى. وفى جعل المبتدأ الاسم الجليل والخبر الاسم الموصول بتلك الأفاعيل العظيمة من خلق هذه الأجرام العظام وإنزال الأمطار وإخراج الثمرات وما يتلوها من الآثار العجيبة ما لا يخفى من تربية المهابة والدلالة على قوة السلطان ﴿وأنزل من السماء﴾ أى السحاب فإن كل ما علاك سماء أو من الفلك فإن المطر منه يبتدىء إلى السحاب ومنه إلى الأرض على ما دلت عليه ظواهر النصوص أو من أسباب سماوية تثير الأجزاء الرطبة من أعماق الأرض إلى الجو فينعقد سحابا ماطرا وأيا ما كان فمن ابتدائية ﴿ماء﴾ أى نوعا منه هو المطر وتقديم المجرور على المنصوب إما باعتبار كونه مبدأ لنزوله أو لتشريفه كما فى قولك أعطاه السلطان من خزانته مالا أو لما مر مرارا من التشويق إلى المؤخر ﴿فأخرج به﴾ بذلك الماء ﴿من الثمرات﴾ الفائتة للحصر إما لأن صيغ الجموع يتعاور بعضها موضع بعض وإما لأنه أريد بمفردها جماعة الثمرة التى فى قولك أدركت ثمرة بستان فلان ﴿رزقا لكم﴾ تعيشون به وهو بمعنى المرزوق شامل للمطعوم والملبوس مفعولا لأخرج ومن للتبيين كقولك أنفقت من الدراهم ألفا ويجوز أن يكون من الثمرات مفعولا ورزقا حالا منه أومصدرا من أخرج بمعنى رزق أو للتبعيض بدليل قوله تعالى (فأخرجنا به ثمرات) كأنه قيل أنزل من السماء بعض الماء فأخرج به بعض الثمرات ليكون بعض رزقكم إذ لم ينزل من السماء كل الماء ولا أخرج بالمطر كل الثمار ولا جعل كل الرزق ثمرا وخروج الثمرات وإن كان بمشيئته عز وجل وقدرته لكن جرت عادته تعالى بإفاضة صورها وكيفياتها على المواد الممتزجة من الماء والتراب وأودع فى الماء قوة فاعلة

وفى الأرض قوة قابلة يتولد من اجتماعهما أنواع الثمار وهو قادر على إيجاد الأشياء بلا أسباب ومواد كما أبدع نفوس الأسباب كذلك لما أن له تعالى فى إنشائها مدرجا من طور إلى طور صنائع وحكما يجدد فيها لأولى الأبصار عبرا وسكونا إلى عظيم قدرته ليس ذلك فى إبداعها دفعة وقوله لكم صفة لقوله رزقا إن أريد به المرزوق ومفعول به إن أريد به المصدر كأنه قيل رزقا إياكم ﴿وسخر لكم الفلك﴾ بأن أقدركم على صنعتها واستعمالها بما ألهمكم كيفية ذلك ﴿لتجرى فى البحر﴾ جريا تابعا لإرادتكم ﴿بأمره﴾ بمشيئته التى نيط بها كل شىء وتخصيصه بالذكر للتنصيص على أن ذلك ليس بمزاولة الأعمال واستعمال الآلات كما يتراءى من ظاهر الحال ﴿وسخر لكم الأنهار﴾ إن أريد بها المياه العظيمة الجارية فى الأنهار العظام كما يومىء إليه ذكرها عند البحر فتسخيرها جعلها معدة لانتفاع الناس حيث يتخذون منها جداول يسقون منها زروعهم وجنانهم وما أشبه ذلك وإن أريد بها نفس الأنهار فتسخيرها تيسيرها لهم.

﴿وسخر لكم الشمس والقمر دائبين﴾ يدأبان فى سيرهما وإنارتهما أصالة وخلافة وإصلاحهما لما نيط بهما صلاحه من المكونات ﴿وسخر لكم الليل والنهار﴾ يتعاقبان خلفة لمنامكم ومعاشكم ولعقد الثمار وإنضاجها ذكر سبحانه وتعالى أنواع النعم الفائضة عليهم وأبرز كل واحدة منها فى جملة مستقلة تنويها لشأنها وتنبيها على رفعة مكانها وتنصيصا على كون كل منها نعمة جليلة مستوجبة للشكر وفى التعبير عن التصريف المتعلق بما ذكر من الفلك والأنهار والشمس وللقمر والليل والنهار بالتسخير من الاشعار بما فيها من صعوبة المأخذ وعزة المنال والدلالة على عظم السلطان وشدة المحال مالا يخفى وتأخير تسخير الشمس والقمر عن تسخير ما تقدمه من الأمور المعدودة مع ما بينه وبين خلق السموات من المناسبة الظاهرة لاستتباع ذكرها لذكر الأرض المستدعى لذكر إنزال الماء منها اليها الموجب لذكر إخراج الرزق الذى من جملته ما يحصل بواسطة الفلك والأنهار أو للتفادى عن توهم كون الكل أعنى خلق السموات والأرض وتسخير الشمس والقمر نعمة واحدة كما مر فى سورة البقرة.

﴿وآتاكم من كل ما سألتموه﴾ أى أعطاكم بعض جميع ما سألتموه حسبما تقتضيه مشيئته التابعة للحكمة والمصلحة كقوله سبحانه من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد أو آتاكم من كل ذلك ما احتجتم إليه ونيط به انتظام أحوالكم على الوجه المقدر فكأنكم سألتموه أو كل ما طلبتموه بلسان الاستعداد أو كل ما سألتموه على أن من للبيان وكلمة كل للتكثير كقولك فلان يعلم كل شىء وأتاه كل الناس وعليه قوله عز وجل (فتحنا عليهم أبواب كل شىء) وقيل الأصل وآتاكم من كل ما سألتموه وما لم تسألوه فحذف الثانى لدلالة ما أبقى على ما ألقى وقرىء بتنوين كل على أن ما نافيه ومحل سألتموه النصب على الحالية أى آتاكم من كل غير سائليه .

﴿وإن تعدوا نعمة الله﴾ التى أنعم بها عليكم ﴿لا تحصوها﴾ لا تطيقوا بحصرها ولو إجمالا فإنها غير متناهية وأصل الإحصاء أن الحاسب إذا بلغ عقدا معينا من عقود الأعداد وضع حصاة ليحفظ بها إيذان بعدم بلوغ مرتبة معتد بها من مراتبها فضلا عن بلوغ غايتها كيف لا وما من فرد من أفراد الناس وإن كان فى أقصى مراتب الفقر والإفلاس عنوا بأصناف العنايا(١) مبتلى بأنواع الرزايا فهو بحيث لو تأملته ألفيته متقلبا فى نعم لا تحد ومنن لا تحصى ولا تعد كأنه قد أعطى كل ساعة وآن من النعماء ما حواه حيطة الإمكان وإن كنت فى ريب من ذلك فقدر أنه ملك ملك أقطار العالم ودانت له كافة الأمم وأذعنت لطاعته السراة وخضعت لهيبته رقاب العتاة وفاز بكل مرام ونال كل منال وحاز جميع ما فى الدنيا من أصناف الأموال من غير ند يزاحمه ولا شريك يساهمه بل قدر أن جميع ما فيها من حجر ومدر يواقيت غالية ونفائس درر ثم قدر أنه قد وقع من فقد مشروب أو مطعوم فى حالة بلغت نفسه الحلقوم فهل يشترى وهو فى تلك الحال بجميع ماله من الملك والمال لقمة تنجيه عن رواه أو شربة ترويه من ظماه ، أم يختار الهلاك

---

(١) فى ١٠ : المعنيات .

فتذهب الأموال والأملاك بغير بدل يبقى عليه ولا نفع يعود إليه كلا بل يبذل لذلك كل ما تحويه اليدان كائنا ما كان وليس فى صفقته شائبة الخسران فإذن تلك اللقمة والشربة خير مما فى الدنيا بألف رتبة مع أنهما فى طرف الثمام ينالهما متى شاء من الليالى والأيام أو قدر أنه قد احتبس عليه النفس فلا دخل منه ما خرج ولا خرج منه ما ولج والحين قد حان وأتاه الموت من كل مكان أما يعطى ذلك كله بمقابلة نفس واحد بل يعطيه وهو لرأيه حامد فإذن هو خير من أموال الدنيا بجملتها ومطالبها برمتها مع أنه قد أبيح له كل آن من آنات الليالى والأيام حال اليقظة والمنام هذا من الظهور والجلاء بحيث لا يكاد يخفى على أحد من العقلاء وإن رمت العثور على حقيقة الحق والوقوف على كل ما جل من السر ودق فاعلم أن الإنسان بمقتضى حقيقته الممكنة بمعزل عن استحقاق الوجود وما يتبعه من الكمالات اللائقة والملكات الرائقة بحيث لو انقطع ما بينه وبين العناية الإلهية من العلاقة لما استقر له القرار ولا اطمأنت به الدار إلا فى مطمورة العدم والبوار ومهاوى الهلاك والدمار لكن يفيض عليه من الجناب الأقدس تعالى شأنه وتقدس فى كل زمان يمضى وكل آن يمر وينقضى من أنواع الفيوض المتعلقة بذاته ووجوده وسائر صفاته الروحانية والنفسانية والجسمانية ما لا يحيط به نطاق التعبير ولا يعلمه إلا العليم الخبير وتوضيحه أنه كما لا يستحق الوجود ابتداء لا يستحقه بقاء وإنما ذلك من جانب المبدأ الأول عز وجل فكما لا يتصور وجوده ابتداء ما لم ينسد عليه جميع أنحاء عدمه الأصلى لا يتصور بقاؤه على الوجود بعد تحققه بعلته ما لم ينسد عليه جميع أنحاء عدمه الطارىء لأن الاستمرار والدوام من خصائص الوجود الواجبى .

وأنت خبير بأن ما يتوقف عليه وجوده من الأمور الوجوديه التى هى علله وشرائطه وإن وجب كونها متناهية لوجوب تناهى ما دخل تحت الوجود لكن الأمور العدمية التى لها دخل فى وجوده ليست كذلك إذ لا استحالة فى

أن يكون لشيء واحد موانع غير متناهية وإنما الاستحالة فى دخولها تحت الوجود فارتفاع تلك الموانع التى لا تتناهى أعنى بقاءها على العدم مع إمكان وجودها فى أنفسها فى كل آن من آنات وجوده نعم غير متناهية حقيقة لا إدعاء وكذا الحال فى وجودات علله وشرائطه القريبة والبعيدة ابتداء وبقاء وكذا فى كمالاته التابعة لوجوده فاتضح أنه يفيض عليه كل آن نعم لا تتناهى من وجوه شتى فسبحانك سبحانك ما أعظم سلطانك لا تلاحظك العيون بأنظارها ولا تطالعك العقول بأفكارها شأنك لا يضاهى وإحسانك لا يتناهى ونحن فى معرفتك حائرون وفى إقامة مراسم شكرك قاصرون نسألك الهداية إلى مناهج معرفتك والتوفيق لأداء حقوق نعمتك لا نحصى ثناء عليك لا إله إلا أنت نستغفرك ونتوب إليك ﴿ إن الإنسان لظلوم ﴾ يظلم النعمة بإغفال شكرها أو بوضعه إياها فى غير موضعها أو يظلم نفسه بتعريضها للحرمان ﴿ كفار ﴾ شديد الكفران وقيل ظلوم فى الشدة يشكو ويجزع كفار فى النعمة يجمع ويمنع واللام فى الإنسان للجنس ومصداق الحكم بالظلم والكفران بعض من وجد فيه من أفراده ويدخل فى ذلك الذين بدلوا نعمة الله كفرا إلخ دخولا أوليا .

دعوة إبراهيم عليه السلام

﴿ وإذ قال إبراهيم ﴾ أى واذكر وقت قوله عليه الصلاة والسلام والمقصود من تذكيره تذكير ما وقع فيه من مقالاته عليه السلام على نهج التفصيل والمراد به تأكيد ما سلف من تعجيبه[1] عليه السلام ببيان فن آخر من جناياتهم حيث كفروا بالنعم العامة وعصوا أباهم إبراهيم عليه السلام حيث أسكنهم بمكة شرفها الله تعالى لإقامة الصلاة والاجتناب عن عبادة الأصنام والشكر لنعم الله تعالى وسأله تعالى أن يجعله بلداً آمنا ويرزقهم من الثمرات وتهوى قلوب الناس إليهم من كل أوب سحيق فاستجاب الله تعالى دعاءه وجعله حرما آمنا تجبى إليه

(١) فى ١٠ من تعجبه

ثمرات كل شيء فكفروا بتلك النعم العظام واستبدلوا بالبلد الحرام دار البوار وجعلوا لله أنداداً وفعلوا ما فعلوا ﴿رب اجعل هذا البلد﴾ يعني مكة شرفها الله سبحانه ﴿آمنا﴾ أي ذا أمن أو آمنا أهله بحيث لا يخاف فيه على ما مر في سورة البقرة والفرق بينه وبين ما فيها من قوله رب اجعل هذا بلدا آمنا أن المسؤل هناك البلدية والأمن معها وههنا الأمن فقط حيث جعل هو المفعول الثاني للجعل وجعل البلد صفة للمفعول الأول فإن حمل على تعدد السؤال فلعله عليه السلام سأل أولا كلا الأمرين فاستجيب له في أحدهما وتأخر الآخر إلى وقته المقدر لما يقتضيه من الحكمة الداعية إليه ثم كرر السؤال كما هو المعتاد في الدعاء والابتهال أو كان المسؤل أولا مجرد الأمن المصحح للسكن كما في سائر البلاد وقد أجيب إليه وثانيا الأمن المعهود أو كان هو المسؤل فيهما وقد أجيب إليه أيضاً لكن السؤال الثاني للاستدامة والاقتصار على ذلك لأنه المقصود الأصلي أو لأن المعتاد في البلدية الاستمرار بعد التحقق بخلاف الأمن وإن حمل على وحدة السؤال وتكرر الحكاية كما هو المتبادر فالظاهر أن المسؤل كلا الأمرين وقد حكى أولا واقتصر ههنا على حكاية سؤال الأمن لا لمجرد أن نعمة الأمن أدخل في استيجاب الشكر فذكره أنسب بمقام تقريع الكفرة على إغفاله كما قيل بل لأن سؤال البلدية قد حكى بقوله تعالى (فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم) إذ المسؤل هويتها إليهم للمساكنة معهم لا للحج فقط وهو عين سؤال البلدية قد حكى بعبارة أخرى وكان ذلك أول ما قدم عليه السلام مكة كما روى سعيد ابن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه عليه الصلاة والسلام لما أسكن إسمعيل وهاجر هناك وعاد متوجها إلى الشام تبعته هاجر وجعلت تقول إلى من تكلنا في هذا البلقع وهو لا يرد عليها جوابا حتى قالت الله أمرك بهذا فقال نعم قالت إذ لا يضيعنا فرضيت ومضى حتى إذا استوى على ثنية كداء أقبل على فقال (ربنا إني أسكنت) الآية وإنما فصل ما بينهما تثنية للامتنان وإيذانا بأن كلا منهما نعمة جليلة مستتبعة لشكر كثير في قصة البقرة .

﴿واجنبني وبني﴾ بعدني وإياهم ﴿أن نعبد الأصنام﴾ واجعلنا منها في

جانب بعيد أى ثبتنا على ما كنا عليه من التوحيد وملة الإسلام والبعد عن عبادة الأصنام وقرىء وأجنبنى من الأفعال وهما لغة أهل نجد يقولون جنبنى شره وأجنبنى شره وأما أهل الحجاز فيقولون جنبنى شره وفيه دلنا على أن عصمة الأنبياء عليهم السلام بتوفيق الله تعالى والظاهر أن المراد ببنيه أولاد الصلبية فلا احتجاج به لابن عيينة رضى الله عنه على أن أحدا من أولاد إسماعيل عليه السلام لم يعبد الصنم وإنما كان لكل قوم حجر نصبوه وقالوا هو حجر والبيت حجر فكانوا يدورون به ويسمونه الدوار فاستحب أن يقال طاف بالبيت ولا يقال دار بالبيت وليت شعرى كيف ذهب عليه ما فى القرآن العظيم من قوارع تنعى على قريش عبادة الأصنام على أن فيما ذكره كرا على ما فر منه ﴿رب إنهن﴾ أى الأصنام ﴿أضللن كثيرا من الناس﴾ أى تسببن له كقوله تعالى ﴿وغرتهم الحياة الدنيا﴾ وهو تعليل لدعائه وإنما صدره بالنداء إظهارا لاعتنائه به ورغبة فى استجابته ﴿فمن تبعنى﴾ منهم فيما أدعو إليه من التوحيد وملة الإسلام ﴿فإنه منى﴾ أى بعضى قاله عليه السلام مبالغة فى بيان اختصاصه به أو متصل بى لا ينفك عنى فى أمر الدين ﴿ومن عصانى﴾ أى لم يتبعنى والتعبير عنه بالعصيان للإيذان بأنه عليه السلام مستمر الدعوة[1] وأن عدم اتباع من لم يتبعه إنما هو لعصيانه لا لأنه لم يبلغه الدعوة ﴿فإنك غفور رحيم﴾ قادر على أن تغفر له وترحمه ابتداء أو بعد توبته وفيه أن كل ذنب فلله تعالى أن يغفره حتى الشرك خلا أن الوعيد قضى بالفرق بينه وبين غيره .

﴿ربنا﴾ آثر عليه السلام ضمير الجماعة لا لما قيل من تقدم ذكره وذكر بنيه وإلا لراعاه فى قوله رب إنهن الخ بل لأن الدعاء المصدرية وما أورده بصدد تمهيد مبادى إجابته من قوله ﴿إنى أسكنت﴾ الآية متعلق بذريته فالتعرض لوصف ربوبيته تعالى لهم أدخل فى القبول وإجابة المسئول ﴿من ذريتى﴾ أى بعضهم أو ذرية من ذريتى لحذف المفعول وهو إسماعيل عليه السلام وما سيولد

---

(١) ١٠ فى الدعوة .

له فإن إسكانه حيث كان على وجه الاطمئنان متضمن لإسكانهم ، روى أن هاجر أم إسماعيل عليه السلام كانت لسارة فوهبتها من إبراهيم[١] عليه السلام فلما ولدت له إسماعيل عليه السلام غارت عليهما فناشدته أن يخرجهما من عندها فأخرجهما إلى أرض مكة فأظهر الله تعالى عين زمزم ﴿ بواد غير ذى زرع ﴾ لا يكون فيه زرع أصلا وهو وادى مكة شرفها الله تعالى ﴿عند بيتك﴾ظرف لأسكنت كقولك صليت بمكة عند الركن لا أنه صفة لواد أو بدل منه إذ المقصود إظهار كون ذالك الإسكان مع فقدان مباديه بالمرة لمحض التقرب إلى الله تعالى والالتجاء إلى جواره الكريم كما ينبىء عنه التعرض لعنوان الحرمة المؤذن بعزة الملتجأ وعصمته عن المكاره فى قوله تعالى ﴿ المحرم ﴾ حيث حرم التعرض له والتهاون به أو لم يزل معظما ممنعا يهابه الجبابرة فى كل عصر أو منع منه الطوفان فلم يستول عليه ولذلك سمى عتيقا وتسميته إذ ذاك بيتا ولم يكن له بناء وإنما كان نشزا مثل الرابية تأتيه السيول فتأخذ ذات اليمين وذات الشمال ليست باعتبار ما سيؤول إليه الأمر من بنائه عليه السلام فإنه ينزع إلى اعتبار عنوان الحرمة أيضاً كذلك بل إنما هى باعتبار ما كان من قبل فإن تعدد بناء الكعبة المعظمة مما لا ريب فيه وإنما الاختلاف فى كمية عدده وقد ذكرناها فى سورة البقرة بفضل الله تعالى .

﴿ ربنا ليقيموا الصلوة ﴾ متوجهين إليه متبركين به وهو متعلق بأسكنت وتخصيصها بالذكر من بين سائر شعائر الدين لفضلها وتكرير النداء وتوسيطه لإظهار كمال العناية بإقامة الصلاة والاهتمام بعرض أن الغرض من إسكانهم بذلك الوادى البلقع ذلك المقصد الأقصى والمطلب الأسنى وكل ذلك لتمهيد مبادىء إجابة دعائه وإعطاء مسئوله الذى لا يتسنى ذلك المرام إلا به ولذلك أدخل عليه الفاء فقال ﴿ فاجعل أفئدة من الناس ﴾ أى أفئدة من أفئدتهم فمن للتبعيض ولذلك قيل لو قال أفئدة الناس لازدحمت عليهم فارس والروم وأما ما زيد عليه

---

(١) فى ١٠ : لإبراهيم .

من قولهم ولحجت اليهود والنصارى فغير مناسب للمقام إذ المسؤول توجيه القلوب إليهم للمساكنة معهم لا توجيهها إلى البيت للحج وإلا لقيل تهوى إليه فإنه عين الدعاء بالبلدية قد حكى بعبارة أخرى كما مر أو لابتداء الغاية كقولك القلب منى سقيم أى أفئدة ناس وقرىء آفدة على القلب كآدر فى أدؤر أو على أنه اسم فاعل من أفدت الرحلة أى عجلت أى جماعة من الناس وأفدة بطرح الهمزة من الأفئدة أو على النعت من أفد ﴿ تهوى إليهم ﴾ تسرع إليهم شوقا ووداداً وقرىء على البناء للمفعول من أهواء غيره وتهوى من باب علم أى تحب وتعديته بإلى لتضمنه معنى الشوق والنزوع وأول آثار هذه الدعوة ما روى أنه مرت رفقة من جرهم تريد الشام فرأوا الطير تحوم على الجبل فقالوا إن هذا الطائر لعائف على الماء فأشرفوا فإذا هم بهاجر فقالوا لها إن شئت كنا معك وآنسناك والماء ماؤك فأذنت لهم وكانوا معها إلى أن شب إسماعيل عليه السلام وماتت هاجر فتزوج إسماعيل منهم كما هو المشهور .

﴿ وارزقهم ﴾ أى ذريتى الذين أسكنتهم هناك أو مع من ينحاز إليهم من الناس وإنما لم يخص الدعاء بالمؤمنين منهم كما فى قوله (وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر) اكتفاء بذكر إقامة الصلاة ﴿ من الثمرات ﴾ من أنواعها بأن يجعل بقرب منه قرى يحصل فيها ذلك أو يجبى إليه من الأقطار الشاسعة وقد حصل كلاهما حتى أنه يجتمع فيه الفواكه الربيعية والصيفية والخريفية فى يوم واحد ، روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن الطائف كانت من أرض فلسطين فلما دعا إبراهيم عليه السلام بهذه الدعوة رفعها الله تعالى ووضعها حيث وضعها رزقا للحرم وعن الزهرى رضى الله عنه أنه تعالى نقل قرية من قرى الشام فوضعها بالطائف لدعوة إبراهيم عليه السلام ﴿ لعلهم يشكرون ﴾ تلك النعمة بإقامة الصلاة وأداء سائر مراسم العبودية وقيل اللام فى ليقيموا لام الأمر والمراد أمرهم بإقامة الصلاة والدعاء من الله تعالى بتوفيقهم لها ولا يناسبه الفاء فى قوله تعالى (فاجعل) الخ وفى دعائه عليه السلام من مراعاة حسن الأدب والمحافظة على قوانين الضراعة وعرض الحاجة واستنزال

الرحمة واستجلاب الرأفة ما لا يخفى فإنه عليه السلام بذكر كون الوادى غير ذى زرع بين كمال افتقارهم إلى المسؤل وبذكر كون إسكانهم عند البيت المحرم أشار إلى أن جوار الكريم يستوجب إفاضة النعيم وبعرض كون ذلك الإسكان مع كمال إعواز مرافق المعاش لمحض إقامة الصلاة وأداء حقوق البيت مهد جميع مبادى إجابة السؤال ولذلك قرنت دعوته عليه السلام بحسن القبول ﴿ ربنا إنك تعلم ما نخفى وما نعلن ﴾ من الحاجات وغيرها والمراد بما نخفى ما يقابل ما نعلن سواء تعلق به الإخفاء أولا أى تعلم ما نظهره وما لا نظهره فإن علمه تعالى متعلق بما لا يخطر بباله مما فيه من الأحوال الخفية فضلا عن إخفائه وتقديم ما نخفى على ما نعلن لتحقيق المساواة بينهما فى تعلق العلم بهما على أبلغ وجه فكأن تعلقه بما يخفى أقدم منه بما يعلن أو لأن مرتبة السر والخفاء متقدمة على مرتبة العلن إذ ما من شىء يعلن إلا وهو قبل ذلك خفى فتعلق علمه سبحانه بحالته الأولى أقدم من تعلقه بحالته الثانية وقصده عليه السلام أن إظهار هذه الحاجات وما هو من مباديها وتتماتها ليس لكونها غير معلومة لك بل إنما هو لإظهار العبودية والتخشع لعظمتك والتذلل لعزتك وعرض الافتقار إلى ما عندك والاستعجال لنيل أياديك وتكرير النداء للمبالغة فى الضراعة والابتهال وضمير الجماعة لأن المراد ليس مجرد علمه تعالى بسره وعلنه بل بجميع خفايا الملك والملكوت وقد حققه بقوله على وجه الاعتراض .

﴿ وما يخفى على الله من شىء فى الأرض ولا فى السماء ﴾ لما أنه العالم بالذات فما من أمر يدخل تحت الوجود كائنا ما كان فى زمان من الأزمان إلا ووجوده فى ذاته علم بالنسبة إليه سبحانه وإنما قال وما يخفى على الله إلخ دون أن يقول ويعلم ما فى السموات والأرض تحقيقا لما عناه بقوله تعلم ما نخفى من أن علمه تعالى بذلك ليس على وجه يكون فيه شائبة خفاء بالنسبة إلى علمه تعالى كما يكون ذلك بالنسبة إلى علوم المخلوقات وكلمة فى متعلقة بمحذوف وقع صفة لشىء أى من شىء كائن فيهما أعم من أن يكون ذلك على وجه الاستقرار فيهما أو على وجه الجزئية

منهما أو يخفى وتقديم الأرض على السماء مع توسيط لا بينهما باعتبار القرب والبعد منا المستدعيين للتفاوت بالنسبة إلى علومنا والالتفات من الخطاب إلى اسم الذات المستجمعة للصفات لتربية المهابة والإشعار بعلة الحكم على نهج قوله تعالى (ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير) والإيذان بعمومه لأنه ليس بشأن يختص به أو بمن يتعلق به بل شامل لجميع الأشياء فالمناسب ذكره تعالى بعنوان مصحح لمبدأ الكل وقيل هو من كلام الله عز وجل وارد بطريق الاعتراض لتصديقه عليه السلام كقوله سبحانه (وكذلك يفعلون) ومن للاستغراق على الوجهين ﴿ الحمد لله الذى وهب لى على الكبر ﴾ أى مع كبرى ويأسى عن الولد قيد الهبة به استعظاما للنعمة وإظهاراً لشكرها ﴿ إسمعيل وإسحق ﴾ روى أنه ولد له إسمعيل وهو ابن تسع وتسعين سنة وولد له إسحق وهو ابن مائة واثنتى عشرة سنة أو مائة وسبع عشرة سنة .

﴿ إن ربى ﴾ ومالك أمرى ﴿ لسميع الدعاء ﴾ لمجيبه من قولهم سمع الملك كلامه إذا اعتد به وهى من أبنية المبالغة العاملة عمل الفعل أضيف إلى مفعوله أو فاعله بإسناد السماع إلى دعاء الله تعالى مجازا وهو مع كونه من تتمة الحمد والشكر إذ هو وصف له تعالى بأن ذلك الجميل سنته المستمرة تعليل على طريقه التذييل للهبة المذكورة وفيه إيذان بتضاعف النعمة فيها حيث وقعت بعد الدعاء بقوله (رب هب لى من الصالحين) فاقترنت الهبة بقبول الدعوة وتوحيد ضمير المتكلم وإن كان عقيب ذكر هبتهما لما أن نعمة الهبة فائضة عليه خاصة وهما من النعم لا من المنعم عليهم[1] ﴿ رب اجعلنى مقيم الصلوة ﴾ مثابرا عليها معدلا لها وتوحيد ضمير المتكلم مع شمول دعوته لذريته أيضاً حيث قال ﴿ ومن ذريتى ﴾ أى بعضهم من المذكورين ومن يسير سيرتهما من أولادهما للإشعار بأنه المقتدى[2] فى ذلك وذريته أتباع له وإن ذكرهم بطريق الاستطراد لا كما فى

---

(١) فى ١٠ : عليه .

(٢) فى ١٠ القدوة فى ذلك .

قوله (ربنا إنى أسكنت) الخ فإن إسكانه مع عدم تحققه بلا ملابسة لمن أسكنه إنما هو مذكور بطريق التمهيد للدعاء الذى هو مخصوص بذريته وإنما خص هذا الدعاء ببعض ذريته لعلمه من جهة الله تعالى أن بعضا منهم لا يكون مقيم الصلاة كقوله تعالى : (ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك) .

﴿ ربنا وتقبل دعاء ﴾ أى دعائى هذا المتعلق بجعلى وجعل بعض ذريتى مقيمى الصلاة ثابتين على ذلك مجتنبين عن عبادة الأصنام ولذلك جىء بضمير الجماعة .

﴿ ربنا اغفر لى ﴾ أى ما فرط منى من ترك الأولى فى باب الدين وغير ذلك مما لا يسلم منه البشر ﴿ ولوالدى ﴾ وقرىء بالتوحيد ولأبوى وهذا الاستغفار منه عليه السلام إنما كان قبل تبين الأمر له عليه السلام وقيل أراد بوالديه آدم وحواء وقيل بشرط الإسلام ويرده قوله تعالى (إلا قول إبراهيم) الآية وقد مر فى سورة التوبة نوع تحقيق للمقام سيأتى تمامه فى سورة مريم بفضل الله تعالى ﴿ وللمؤمنين ﴾ كافة من ذريته وغيرهم وللإيذان باشتراك الكل فى الدعاء بالمغفرة جىء بضمير الجماعة ﴿ يوم يقوم الحساب ﴾ أى يثبت ويتحقق محاسبة أعمال المكلفين على وجه العدل استعير له من ثبوت القائم على الرجل بالاستقامة ومنه قامت الحرب على ساق والمراد تهويله وقيل أسند إليه قيام أهله مجازا أو حذف المضاف كما فى (واسأل القرية) واعلم أن ماحكى عنه عليه السلام من الأدعية والأذكار وما يتعلق بها ليس بصادر عنه على الترتيب المحكى ولا على وجه المعية بل صدر عنه فى أزمنة متفرقة حكى مرتبا للدلالة على سوء حال الكفرة بعد ظهور أمره فى الملة وإرشاد الناس إليها والتضرع إلى الله تعالى لمصالحهم الدينية والدنياوية .

تذكير بأيام الله

﴿ ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون ﴾ خطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم والمراد تثبيته على ما كان عليه من عدم حسبانه عز وجل كذلك نحو قوله (ولا تكونن من المشركين) ونظائره مع ما فيه من الإيذان بكونه واجب الاحتراز عنه فى الغاية حتى نهى عنه من لا يمكن تعاطيه أو نهيه عليه السلام عن حسبانه تعالى تاركا لعقابهم على طريقة العفو والتعبير عنه بذلك للمبالغة فى النهى والإيذان بأن ذلك الحسبان بمنزلة حسبانه تعالى غافلا عن أعمالهم إذ العلم بذلك مستوجب لعقابهم لا محالة فتركه لو كان لكان للغفلة عما يوجبه من أعمالهم الخبيثة وفيه تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم ووعد له أكيد ووعيد للكفرة وسائر الظالمين شديد أو لكل أحد ممن يستعجل عذابهم أو يتوهم إهمالهم للجهل بصفاته تعالى والاغترار بإمهاله وقيل معناه لا تحسبنه تعالى يعاملهم معاملة الغافل عما عملوا بل معاملة من يحافظ على أعمالهم ويجازيهم بذلك نقيرا وقطميرا والمراد بالظالمين أهل مكة ممن عدت مساويهم من تبديل نعمة الله تعالى كفرا وإحلال قومهم دار البوار واتخاذ الأنداد كما يؤذن به التعرض لحكمة التأخير المبيء عنه قوله تعالى (قل تمتعوا) الآيه أو جنس الظالمين وهم داخلون فى الحكم دخولا أوليا .

﴿ إنما يؤخرهم ﴾ يمهلهم متمتعين بالحظوظ الدنياوية ولا يعجل عقوبتهم حسبما يشاهد وهو استئناف وقع تعليلا للنهى السابق أى دم على ما كنت عليه من عدم حسبانه تعالى غافلا عن أعمالهم ولا تحزن بتأخير ما تستوجبه من العذاب الأليم إذ تأخيره للتشديد والتغليظ أو لا تحسبنه تعالى تاركا لعقوبتهم لما ترى من تأخيرها إنما ذلك لأجل هذا أو لا تحسبنه تعالى يعاملهم معاملة الغافل ولا يؤاخذهم بما عملوا لما ترى من التأخير إنما هو لهذه الحكمة وقرىء بالنون وإيقاع التأخير عليهم مع أن المؤخر إنما هو عذابهم لتهويل الخطب وتفظيع الحال ببيان أنهم متوجهون إلى العذاب مرصدون لأمر ما لا أنهم باقون

باختيارهم وللدلالة على أن حقهم من العذاب هو الاستئصال بالمرة وألا يبقى منهم فى الوجود عين ولا أثر وللإيذان بأن المؤخر له من جمله العذاب وعنوانه ولو قيل إنما يؤخر عذابهم الخ لما فهم ذلك ﴿ ليوم ﴾ هائل ﴿ تشخص فيه الأبصار ﴾ ترتفع أبصار أهل الموقف فيدخل فى زمرتهم الكفرة المعهودون دخولا أوليا أى تبقى مفتوحه لا تتحرك أجفانهم من هول ما يرونه واعتبار عدم قرارها فى أماكنها إما باعتبار الارتفاع الحسى فى جرم العين وأما بجعل الصيغة من شخص من بلد إلى بلد وسار فى ارتفاع ﴿ مهطعين ﴾ مسرعين إلى الداعى مقبلين عليه بالخوف والذل والخشوع أو مقبلين بأبصارهم عليه لا يقلعون عنه ولا يطرفون هيبة وخوفا وحيث كان إدامة النظر ههنا بالنظر إلى الداعى قيل ﴿ مقنعى رؤسهم ﴾ أى رافعيها مع إدامة النظر من غير التفات إلى شىء (كذا)[1] قاله العتبى وابن عرفة أو ناكسيها ويقال أقنع رأسه أى طأطأها ونكسها فهو من الأضداد وهما حالان مما دل عليه الأبصار من أصحابها أو الثانى حال متداخلة من الضمير فى الأول وإضافته غير حقيقية فلا ينافى الحالية ﴿ لا يرتد إليهم طرفهم ﴾ أى لا يرجع إليهم تحريك أجفانهم حسبما كان يرجع إليهم كل لحظة بل تبقى أعينهم مفتوحة لا تطرف أو لاترجع إليهم أجفانهم التى هى آلة الطرف فيكون إسناد الرجوع إلى الطرف مجازيا أو هو نفس الجفن قال الفيروزابادى الطرف العين لا يجمع لأنه مصدر فى الأصل أو اسم جامع للعين أو لا يرجع نظرهم إلى أنفسهم فضلا عن أن يرجع إلى شىء آخر فيبقون مبهوتين وهو أيضا حال أو بدل من مقنعى الخ أو استئناف والمعنى لا يزول ما اعتراهم من شخوص الأبصار وتأخيره عن هو تتمته من الإهطاع والإقناع مع ما بينه وبين الشخوص المذكور من المناسبة لتربية هذا المعنى ﴿ وأفئدتهم هواء ﴾ خاليه من العقل والفهم لفرط الحيرة والدهش كأنها نفس الهواء الخالى من كل شاغل ومنه قيل للجبان والأحمق قلبه هواء أى لاقوة

---

(١) سقطت من ط .

ولا رأى فيه واعتبار خلوها عن كل خير لا يناسب المقام وهو إما حال عاملها لا يرتد مفيدة لكون شخوص أبصارهم وعدم ارتداد طرفهم بلا فهم ولا اختيار أو جملة مستقلة .

إنذار بالعذاب

﴿ وأنذر الناس ﴾ خطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم بعد إعلامه أن تأخيرهم لماذا وأمر له بإنذارهم وتخويفهم منه والمراد بالناس الكفار المعبر عنهم بالظالمين كما يقتضيه ظاهر إتيان العذاب والعدول إليه من الإضمار للإشعار بأن المراد بالإنذار هو الزجر عما هم عليه من الظلم شفقة عليهم لا التخويف للإنزعاج والإيذاء فالمناسب عدم ذكرهم بعنوان الظلم أو الناس جميعا فإن الإنذار عام للفريقين كقوله تعالى(إنما تنذر من اتبع الذكر) والإتيان يعمهما من حيث كونهما فى الموقف وإن كان لحوقه بالكفار خاصة أى أنذرهم وخوفهم ﴿ يوم يأتيهم العذاب ﴾ المعهود وهو اليوم الذى وصف بما لا يوصف من الأوصاف الهائلة أعنى يوم القيامة وقيل هو يوم موتهم معذبين بالسكرات ولقاء الملائكة بلا بشرى أو يوم هلاكهم بالعذاب العاجل ويأباه القصر السابق ﴿ فيقول الذين ظلموا ﴾ أى فيقولون والعدول عنه إلى ما عليه النظم الكريم للتسجيل عليهم بالظلم وللإشعار بأن مالقوه من الشدة إنما هو لظلمهم وإيثاره على صيغة الفاعل حسبما ذكر أو لا للإيذان بأن الظلم فى الجملة كاف فى الإفضاء إلى ما ذكر من الأهوال من غير حاجة إلى الاستمرار عليه كما ينبىء عنه صيغة الفاعل وعلى تقدير كون المراد بالناس من يعم المسلمين أيضاً فالمعنى الذين ظلموا منهم وهم الكفار أو يقول كل من ظلم بالشرك والتكذيب من المنذرين وغيرهم من الأمم الخالية فإن إتيان العذاب يعمهم كما يشعر بذلك وعدهم باتباع الرسل .

﴿ ربنا أخرنا ﴾ ردنا إلى الدنيا وأمهلنا ﴿ إلى أجل قريب ﴾ إلى أمد

وحد من الزمان قريب ﴿ نجب دعوتك ﴾ أى الدعوة إليك وإلى توحيدك أو دعوتك لنا على ألسنة الرسل ففيه إيماء إلى أنهم صدقوهم فى أنهم مرسلون من عند الله تعالى ﴿ ونتبع الرسل ﴾ فيما جاؤنا به أى نتدارك ما فرطنا فيه من إجابة الدعوة واتباع الرسل ، والجمع إما باعتبار اتفاق الجميع على التوحيد وكون عصيانهم للرسول صلى الله عليه وسلم عصيانا لهم جميعا ، وإما باعتبار أن المحكى ظالمى الأمم جميعا والمقصود بيان وعد كل أمة باتباع رسولها ، ﴿ أو لم تكونوا أقسمتم من قبل ﴾ على إضمار القول معطوفا على فيقول أى فيقال لهم توبيخا وتبكيتا ألم تؤخروا فى الدنيا ولم تكونوا أقسمتم إذ ذاك بألسنتكم بطرا وأشرا وجهلا وسفها ﴿ مالكم من زوال ﴾ عما أنتم عليه من التمتع بالحظوظ الدنياوية أو بألسنة الحال حيث بنيتم مشيدا وأملتم بعيدا ولم تحدثوا أنفسكم بالإنتقال منها إلى هذه الحالة ، وفيه إشعار بامتداد زمان التأخير وبعد مداه أو مالكم من زوال من هذه الدار إلى دار أخرى للجزاء كقوله تعالى : (وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت) وصيغة الخطاب فى جواب للقسم لمراعاة حال الخطاب[1] فى أقسمتم كما فى قوله حلف بالله ليخرجن وهو أدخل فى التوبيخ من أن يقال مالنا مراعاة لحال المقسم ذكر البيهقى عن محمد بن كعب القرظى أنه قال لأهل النار خمس دعوات يجيبهم الله تعالى فى أربع منها فإذا كانت الخامسة لم يتكلموا بعدها أبدا يقولون ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا فهل إلى خروج من سبيل فيجيبهم الله تعالى (ذلكم بأنه إذا دعى الله وحده كفرتم وإن يشرك به تؤمنوا فالحكم لله العلى الكبير) ثم يقولون (ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحا إنا موقنون) فيجيبهم الله تعالى (فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا) الآية ثم يقولون ربنا أخرنا إلى أجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل فيجيبهم الله تعالى أو لم تكونوا أقسمتم الآية ثم يقولون ربنا أخرجنا نعمل صالحا غير الذى كنا نعمل فيجيبهم

---

(١) فى ١٠ : مراعاة لحال الخطاب . .

الله تعالى (أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير) فيقولون ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوما ضالين فيجيبهم الله تعالى (اخسؤا فيها ولا تكلمون فلا يتكلمون) بعدها أبدا إن هو إلا زفير وشهيق وعند ذلك انقطع رجاؤهم وأقبل بعضهم ينبح فى وجه بعض وأطبقت عليهم جهنم اللهم إنا بك نعوذ وبكنفك نلوذ عز جارك وجل ثناؤك ولا إله غيرك .

﴿ وسكنتم ﴾ من السكنى بمعنى التبوؤ والإيطان وإنما استعمل بكلمة فى حيث قيل ﴿ فى مساكن الذين ظلموا أنفسهم ﴾ جريا على الأصل لأنه منقول عن مطلق السكون الذى حقه التعدية بها أو من السكون واللبث أى قررتم فى مساكنهم مطمئنين سائرين سيرتهم فى الظلم بالكفر والمعاصى غير محدثين لأنفسكم بما لقوا بسبب ما اجترحوا من الموبقات وفى إيقاع الظلم على أنفسهم بعد إطلاقه فيما سلفه إيذان بأن غائلة الظلم آئلة إلى صاحبه والمراد بهم إما جميع من تقدم من الأمم المهلكة عن تقدير اختصاص الاستمهال والخطاب السابق بالمنذرين وإما أوائلهم من قوم نوح وهود على تقدير عمومهما للكل وهذا الخطاب وما يتلوه باعتبار حال أواخرهم ﴿ وتبين لكم ﴾ بمشاهدة الآثار وتواتر الأخبار ﴿ كيف فعلنا بهم ﴾ من الإهلاك والعقوبة بما فعلوا من الظلم والفساد وكيف منصوب بما بعده من الفعل وليس الجملة فاعلا لتبين كما قاله بعض الكوفيين بل فاعله مادلت هى عليه دلالة واضحة أى فعلنا العجيب بهم وفيه من المبالغه ما ليس فى أن يقال ما فعلنا بهم كما مر فى قوله تعالى (ليسجننه) وقرىء ونبين ﴿ وضربنا لكم الأمثال ﴾ أى بينا لكم فى القرآن العظيم على تقدير اختصاص الخطاب بالمنذرين أو على ألسنة الأنبياء عليهم السلام على تقدير عمومه لجميع الظالمين صفات ما فعلوا وما فعل بهم من الأمور التى هى فى الغرابة كالأمثال المضروبة لكل ظالم لتعتبروا بها وتقيسوا أعمالكم على أعمالهم ومآلكم على مآلهم وتنتقلوا من حلول العذاب العاجل إلى حلول العذاب الآجل فترتدعوا عما كنتم فيه من الكفر والمعاصى أو بينا لكم أنكم مثلهم فى الكفر واستحقاق العذاب

والجمل الثلاث فى موقع الحال من ضمير أقسمتم أى أقسمتم بالخلود والحال أنكم سكنتم فى مساكن المهلكين بظلمهم وتبين لكم فعلنا العجيب بهم ونبهناكم على جلية الحال بضرب الأمثال وقوله عز وجل :

﴿ وقد مكروا مكرهم ﴾ حال من الضمير الأول فى فعلنا بهم أو من الثانى أو منهما جميعا وإنما قدم عليه قوله تعالى (وضربنا لكم الأمثال) لشدة ارتباطه بما قبله أى فعلنا والحال أنهم قد مكروا فى إبطال الحق وتقرير الباطل مكرهم العظيم الذى استفرغوا فى عمله المجهود وجاوزوا فيه كل حد معهود بحيث لا يقدر عليه غيرهم فالمراد بيان تناهيهم فى استحقاق ما فعل بهم أو قد مكروا مكرهم المذكور فى ترتيب مبادىء البقاء ومدافعة أسباب الزوال فالمقصود إظهار عجزهم واضمحلال قدرتهم وحقارتها عند قدرة الله تعالى ﴿ وعند الله مكرهم ﴾ أى جزاء مكرهم الذى فعلوه على أن المكر مضاف إلى فاعله أو أخذه تعالى بهم على أنه مضاف إلى مفعوله ، وتسميته مكراً لكونه بمقابلة مكرهم وجودا وذكراً أو لكونه فى صورة المكر فى الإتيان من حيث لا يشعرون ، وعلى التقديرين فالمراد به ما أفاده قوله عز وجل (كيف فعلنا بهم) لا أنه وعيد مستأنف والجملة حال من الضمير فى مكروا أى مكروا مكرهم وعند الله جزاؤه أو ما هو أعظم منه والمقصود بيان فساد رأيهم حيث باشروا فعلا مع تحقق ما يوجب تركه ﴿ وإن كان مكرهم ﴾ فى العظم والشدة ﴿ لتزول منه الجبال ﴾ أى وإن كان مكرهم فى غاية المتانة والشدة وعبر عن ذلك بكونه مسوى ومعدا لإزالة الجبال عن مقارها لكونه مثلا فى ذلك والجملة المصدرة بأن الوصلية معطوفه على جملة مقدرة والمعنى وعند الله جزاء مكرهم أو المكر الذى يحيق بهم إن لم يكن مكرهم لتزول منه الجبال وإن كان الخ وقد حذف ذلك حذفا مطردا لدلالة المذكور عليه دلالة واضحة فإن الشىء إذا تحقق عند وجود المانع القوى فلأن يتحقق عند عدمه أولى وعلى هذه النكتة يدور ما فى أن الوصلية من التأكيد المعنوى والجواب محذوف دل عليه ما سبق وهو قوله تعالى (وعند الله مكرهم) وقيل إن

نافية واللام لتأكيدها كما في قوله تعالى (وما كان الله ليعذبهم) وينصره قراءة ابن مسعود رضي الله عنه وما كان مكرهم فالجملة حينئذ حال من الضمير في مكروا لا من قوله تعالى (وعند الله مكرهم) أي مكروا مكرهم والحال أن مكرهم لم يكن لتزول منه الجبال على أنها عبارة عن آيات الله تعالى وشرائعه ومعجزاته الظاهرة على أيدي الرسل السالفة عليهم السلام التي هي بمنزلة الجبال الراسيات في الرسوخ وأما كونها عبارة عن أمر النبي صلى الله عليه وسلم وأمر القرآن العظيم كما قيل فلا مجال له إذ الماكرون هم المهلكون لا الساكنون في مساكنهم من المخاطبين وإن خص الخطاب بالمنذرين، وقيل هي مخففة من أن، والمعنى إنه كان مكرهم ليزول منه ما هو كالجبال في الثبات مما ذكر في الآيات والشرائع والمعجزات والجملة كما هي حال من ضمير مكروا أي مكروا مكرهم المعهود وإن الشأن كان مكرهم لإزالة الآيات والشرائع على أنه لم يكن يصح أن يكون منهم مكر كذلك وكان شأن الآيات والشرائع مانعا من مباشرة المكر لإزالته وقد قرأ الكسائي لتزول بفتح اللام على أنها الفارقة ، والمعنى تعظيم مكرهم فالجملة حال من قوله تعالى (وعند الله مكرهم) أي عنده تعالى جزاء مكرهم أو المكر بهم والحال أن مكرهم بحيث تزول منه الجبال أي في غاية الشدة وقرىء بالفتح والنصب على لغة من بفتح لام كي وقرىء (وإن كاد مكرهم) هذا هو الذي يقتضيه النظم الكريم وينساق إليه الطبع السليم .

وقد قيل إن الضمير في مكروا للمنذرين والمراد بمكرهم ما أفاده قوله عز وجل (وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك) الآية وغيره من أنواع مكرهم برسول الله صلى الله عليه وسلم ولعل الوجه حينئذ أن يكون قوله تعالى (وقد مكروا) الخ حالا من القول المقدر أي فيقال لهم ما يقال والحال أنهم مع ما فعلوا من الإقسام المذكور مع ما ينافيه من السكون في مساكن المهلكين وتبين أحوالهم وضرب الأمثال قد مكروا مكرهم العظيم أي لم يكن الصادر عنهم مجرد الإقسام الذي وبخوا به بل اجترؤا على مثل هذه

العظيمة وقوله تعالى (وعند الله مكرهم) حال من ضمير مكروا حسبما ذكرنا من قبل وقوله تعالى وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال مسوق لبيان عدم تفاوت الحال فى تحقيق الجزاء بين كون مكرهم قويا أو ضعيفا كما مر هناك وعلى تقدير كون إن نافية فهو حال من ضمير مكروا والجبال عبارة عن أمر النبى صلى الله عليه وسلم أى وقد مكروا والحال أن مكرهم ما كان لتزول منه هاتيك الشرائع والآيات التى هى فى القوة كالجبال وعلى تقدير كونها مخففة من الثقيلة واللام مكسورة يكون حالا منه أيضا على معنى أن ذلك المكر العظيم منهم كان لهذا الغرض على معنى أنه لم يكن يصح أن يكون منهم مكر كذلك (المكر)(١) لما أن شأن الشرائع أعظم من أن يمكر بها ماكر وعلى تقدير فتح اللام فهو حال من قوله تعالى (وعند الله مكرهم) كما ذكرنا من قبل فليتأمل .

﴿ فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله ﴾ لم يرد به والله سبحانه أعلم ما وعده بقوله تعالى (إنا لننصر رسلنا) الآية وقوله (كتب الله لأغلبن أنا ورسلى). كما قيل فإنه لا اختصاص له بالتعذيب لا سيما الأخروى بل ما سلف آنفا من وعده بتعذيب الظالمين بقوله تعالى (إنما يؤخرهم) الآية كما يفصح عنه الفاء الداخلة على النهى الذى أريد به تثبيته عليه الصلاة والسلام على ما كان عليه من الثقة بالله تعالى والتيقن بإنجاز وعده المذكور المقرون بالأمر بإنذارهم يوم إتيان العذاب المتضمن لذكر تعذيب الأمم السالفة بسبب كفرهم وعصيانهم رسلهم بعد ما وعدهم بذلك كما فصلت قصة كل منهم فى القرآن العظيم فكأنه قيل وإذ قد وعدناك بعذاب الظالمين يوم القيامة وأخبرناك بما يلقونه من الشدائد وبما يسألونه من الرد إلى الدنيا وبما أجبناهم به وقرعناهم بعدم تأملهم فى أحوال من سبقهم من الأمم الذين أهلكناهم بظلمهم بعد ما وعدنا رسلهم بإهلاكهم فدم على ما كنت عليه من اليقين بعدم إخلافنا رسلنا وعدنا ﴿ إن الله عزيز ﴾ غالب

---

(١) سقطت من الأصل .

لا بماكر وقادر لا يقادر ﴿ ذو انتقام ﴾ لأوليائه من أعدائه والجملة تعليل للنهى المذكور وتذييل له وحيث كان الوعد عبارة عما ذكرنا من تعذيبهم خاصة لم يذيل بأن يقال إن الله لا يخلف الميعاد بل تعرض لوصف العزة والانتقام المشعرين بذلك والمراد بالانتقام ما أشير إليه بالفعل وعبر عنه بالمكر .

﴿يوم تبدل الأرض غير الأرض﴾ ظرف لمضمر مستأنف ينسحب عليه النهى المذكور أى ينجزه يوم الخ أو معطوف عليه نحو وارتقب يوم تبدل الأرض غير الأرض أو الانتقام وهو يوم يأتيهم العذاب بعينه ولكن له أحوال جمة يذكر كل مرة بعنوان مخصوص والتقييد به مع عموم انتقامه للأوقات كلها للإفصاح عما هو المقصود من تعذيب الكفرة المؤخر إلى ذلك اليوم بموجب الحكمة الداعية إليه وقيل بدل من يوم يأتيهم العذاب أو نصب باذكر أو إضمار لا يخلف وعده يوم تبدل الخ وفيه أيضا ما فى الوجه الثالث من الحاجة إلى الاعتذار ولا يجوز أن ينتصب بقوله مخلف وعده لأن ما قبل إن لا يعمل فيما بعده وقيل هو غير مانع لأن قوله تعالى (إن الله عزيز ذو انتقام) جملة اعتراضية فلا يبالى بها فاصلا ، واعلم أن التبديل قد يكون فى الذات كما فى بدلت الدراهم دنانير وعليه قوله عز وجل (بدلناهم جلودا غيرها) وقد يكون فى الصفات كما فى قولك بدلت الحلقة خاتما إذا غيرت شكلها ومنه قوله تعالى (يبدل الله سيئاتهم حسنات) على بعض الأقوال والآية الكريمة ليست بنص فى أحد الوجهين فعن على رضى الله عنه تبدل أرضا من فضة وسموات من ذهب وعن ابن مسعود رضى الله عنه تَبدل الأرض بأرض كالفضة بيضاء نقية لم يسفك فيها دم ولم يعمل عليها خطيئة وعن ابن عباس رضى الله عنهما هى تلك الأرض وإنما تغير صفاتها وأنشد :

وما الناس بالناس الذين عهدتهم ... وما الدار بالدار التى كنت تعلم

وتبدل السموات بانتثار كواكبها وكسوف شمسها وخسوف قمرها وانشقاقها وكونها أبوابا ويدل عليه ما روى أبو هريرة رضى الله عنه أنه عليه الصلاة والسلام قال تبدل الأرض غير الأرض فتبسط وتمد مد الأديم العكاظى لاترى

فيها عوجا ولا أمتا ﴿والسموات﴾ أى وتبدل السموات غير السموات حسبما مر من التفصيل وتقديم تبديل الأرض لقربها منا ولكون تبديلها أعظم أثرا بالنسبة إلينا ﴿وبرزوا﴾ أى الخلائق أو الظالمون المدلول عليهم بمعونة السباق والمراد بروزهم من أجداثهم التى فى بطون الأرض أوظهورهم بأعمالهم التى كانوا يعملونها سرا ويزعمون أنها لا تظهر أو يعملون عمل من يزعم ذلك ولعل إسناد البروز إليهم مع أنه لأعمالهم للإيذان بتشكلهم بأشكال تناسبها وهو معطوف على تبدل والعدول إلى صيغة الماضى للدلالة على تحقق وقوعه أو حال من الأرض بتقدير قد والرابط بينها وبين صاحبها الواو ﴿ لله الواحد القهار ﴾ للحساب والجزاء والتعرض للوصفين لتهويل الخطب وتربية المهابة وإظهار بطلان الشرك وتحقيق الانتقام فى ذلك اليوم على تقدير كونه ظرفا له وتحقيق إتيان العذاب الموعود على تقدير كونه بدلا من يوم يأتيهم العذاب فإن الأمر إذا كان لواحد غلاب لا يعار وقادر لا يضار ولا يغار كان فى غاية ما يكون من الشدة والصعوبة .

﴿ وترى المجرمين ﴾ عطف على برزوا والعدول إلى صيغة المضارع لاستحضار الصورة أو للدلالة على الاستمرار وأما البروز فهو دفعى لااستمرار فيه وعلى تقدير حالية برزوا فهو معطوف على تبدل ويجوز عطفه على عامل الظرف المقدم على تقدير كونه ينجزه ﴿ يومئذ ﴾ يوم إذ برزوا له عز وجل أو يوم إذ تبدل الأرض أو يوم ينجز وعده ﴿ مقرنين ﴾ قرن بعضهم مع بعض[1] حسب اقترانهم فى الجرائم والجرائر أو قرنوا مع الشياطين الذين أغووهم أو قرنوا مع ما اقترفوا من العقائد الزائغة والملكات الردية والأعمال السيئة غب تصور كل منها وتشكلها بما يناسبهما من الصور الموحشة والأشكال الهائلة أوقرنت أيديهم وأرجلهم إلى رقابهم وهو حال من المجرمين ﴿فى الأصفاد﴾ فى القيود أو الأغلال وهو إما متعلق بقوله تعالى مقرنين أو حال من ضميره أى مصفدين ﴿سرابيلهم﴾ أى قمصانهم ﴿ من قطران ﴾ جملة من مبتدأ وخبر

(١) فى ١٠ قرن بعضهم إلى بعض .

محلها النصب على الحالية من المجرمين أو من ضميرهم في مقرنين رابطتها الضمير فقط كما في كلمته فوه إلى في أو مستأنفة والقطران ما يتحلب من الأبهل فيطبخ فتهنأ به الإبل الجربى فيحرق الجرب بما فيه من الحدة الشديدة وقد تصل حرارته إلى الجوف وهو أسود منتن يسرع فيه اشتعال النار يطلى به جلود أهل النار حتى يعود طلاؤه لهم كالسراويل ليجتمع عليهم الألوان الأربعة من العذاب لذعه وحرقته وإسراع النار في جلودهم واللون الموحش والنتن على أن التفاوت بينه وبين ما نشاهده وبين النارين لا يكاد يقادر قدره فكأن ما نشاهده منهما أسماء مسمياتها في الآخرة فبكرمه العميم نعوذ وبكنفه الواسع نلوذ ويحتمل أن يكون ذلك تمثيلا لما يحيط بجوهر النفس من الملكات الردية والهنات الوحشية فتجلب إليها الآلام والغموم بل وأن يكون القطران المذكور عين ما لابسوه في هذه النشأة وجعلوه شعارا لهم من العقائد الباطلة والأعمال السيئة المستجلبة لفنون العذاب قد تجسدت في النشأة الآخرة بتلك الصورة المستتبعة لاشتداد العذاب عصمنا الله سبحانه عن ذلك بمنه ولطفه وقرىء قطرآن أي نحاس مذاب متناه حره .

﴿ وتغشى وجوههم النار ﴾ أي تعلوها وتحيط بها النار التي تمس جسدهم المسربل بالقطران وتخصيص الوجوه بالحكم المذكور مع عمومه لسائر أعضائهم لكونها أعز الأعضاء الظاهرة وأشرفها كقوله تعالى (أفمن يتقي بوجهه سوء العذاب) الخ ولكونها مجمع المشاعر والحواس التي خلقت لإدراك الحق وقد أعرضوا عنه ولم يستعملوها في تدبره كما أن الفؤاد أشرف الأعضاء الباطنة ومحل المعرفة وقد ملؤوها بالجهالات ولذلك قيل تطلع على الأفئدة أو لخلوها عن القطران المغني عن ذكر غشيان النار لها ولعل تخليتها عنه ليتعارفوا عند انكشاف اللهب أحيانا ويتضاعف عذابهم بالخزي على رءوس الأشهاد وقرىء تغشى أي تتغشى بحذف إحدى التاءين والجملة نصب على الحالية لا على أن الواو حالية لأنه مضارع مثبت بل على أنها معطوفة على الحال قاله أبو البقاء ﴿ ليجزي الله ﴾ متعلق بمضمر أي يفعل بهم ذلك ليجزي .

﴿ كل نفس ﴾ مجرمة ﴿ ما كسبت ﴾ من أنواع الكفر والمعاصى جزاء موافقا لعملها وفيه إيذان بأن جزاءهم مناسب لأعمالهم أو بقوله برزوا على تقدير كونه معطوفا على تبدل والضمير للخلق وقوله وترى المجرمين إلخ اعتراض بين المتعلق والمتعلق به أى برزوا الحساب ليجزى الله كل نفس مطيعة أو عاصية ما كسبت من خير أو شر وقد اكتفى بذكر عقاب العصاة تعويلا على شهادة الحال لا سيما مع ملاحظة سبق الرحمة الواسعة ﴿ إن الله سريع الحساب ﴾ إذ لا يشغله شأن عن شأن فيتمه فى أعجل ما يكون من الزمان فيوفى الجزاء بحسبه أو سريع المجىء يأتى عن قريب أو سريع الانتقام كما قال ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله تعالى (وهو سريع الحساب) ﴿ هذا ﴾ أى ما ذكر من قوله سبحانه (ولا تحسبن الله غافلا) إلى قوله سريع الحساب ﴿ بلاغ ﴾ كفاية فى العظة والتذكير من غير حاجة إلى ما انطوى عليه السورة الكريمة أو كل القرآن المجيد من فنون العظات والقوارع ﴿ للناس ﴾ للكفار خاصة على تقدير اختصاص الإنذار بهم فى قوله تعالى : (وأنذر الناس) أو لهم وللمؤمنين كافة على تقدير شموله لهم أيضاً وإن كان ما شرح مختصا بالظالمين ﴿ ولينذروا به ﴾ عطف على مقدر واللام متعلقة بالبلاغ أى كفاية لهم فى أن ينصحوا وينذروا به أو هذا بلاغ لهم يفهموه ولينذروا به على أن البلاغ بمعنى الإبلاغ كما فى قوله تعالى (ما على الرسول إلا البلاغ) أو متعلقة بمحذوف أى ولينذروا به أنزل أو تلى وقرىء لينذروا به من نذر بالشىء إذا علمه وحذره واستعد له .

﴿ وليعلموا ﴾ بالتأمل فيما فيه من الدلائل الواضحة هى إهلاك الأمم وإسكان آخرين (فى)[1] مساكنهم وغيرهما مما سبق ولحق ﴿ أنما هو إله واحد ﴾ لا شريك له وتقديم الإنذار لأنه الداعى إلى التأمل المؤدى إلى ما هو غاية له من العلم المذكور والتذكر فى قوله تعالى :

---

(١) سقطت من ط .

﴿ وليذكر أولوا الألباب ﴾ أى ليتذكروا ما كانوا يعملونه من قبل من التوحيد وغيره من شئون الله عز وجل ومعاملته مع عباده فيرتدعوا عما يرديهم من الصفات التى يتصف بها الكفار ويتدرعوا بما يحظيهم من العقائد الحقة والأعمال الصالحة وفى تخصيص التذكر بأولى الألباب تلويح باختصاص العلم بالكفار ودلالة على أن المشار إليه بهذا ما ذكرنا من القوارع المسوقة لشأنهم لا كل السورة المشتملة عليها على ما سيق للمؤمنين أيضاً فإن فيه ما يفيدهم فائدة جديدة وحيث كان ما يفيده البلاغ من التوحيد وما يترتب عليه من الأحكام بالنسبة إلى الكفرة أمرا حادثا وبالنسبة إلى أولى الألباب الثبات على ذلك حسبما أشير إليه عن الأول بالعلم وعن الثانى بالتذكر وروعى ترتيب الوجود مع ما فيه من الختم بالحسنى والله سبحانه أعلم ختم الله لنا بالسعادة والحسنى ورزقنا الفوز بمرضاته فى الأولى والعقبى آمين . عن النبى صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة إبراهيم أعطى من الأجر عشر حسنات بعدد من عبد الأصنام ومن لم يعبد والحمد لله وحده .

***

﴿ سورة الحجر ﴾
(مكية وهى تسع وتسعون آية)

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

﴿ الر ﴾ قد مر الكلام فيه وفى محلة فى مطلع سورة الرعد وأخواتها ﴿ تلك ﴾ إشارة إليه أى تلك السورة العظيمة الشأن ﴿ آيات الكتاب ﴾ الكامل المعهود الغنى عن الوصف به المشهور بذلك من بين الكتب الحقيق باختصاص اسم الكتاب به على الإطلاق أى بعض منه مترجم مستقل باسم خاص فهو عبارة عن جميع القرآن أو عن الجميع المنزل إذ ذاك إذ هو المتسارع إلى الفهم حينئذ عند الإطلاق وعليه يترتب فائدة وصف الآيات بنعت ما أضيفت إليه من نعوت الكمال لا على جعله عبارة عن السورة إذ هى فى الاتصاف بذلك ليست بتلك المرتبة من الشهرة حتى يستغنى عن التصريح بالوصف على أنها عبارة عن جميع آياتها فلا بد من جعل تلك إشارة إلى كل واحد منها وفيه من التكلف مالا يخفى كما ذكر فى سورة الرعد ﴿ وقرآن ﴾ أى قرآن عظيم الشأن ﴿ مبين ﴾ مظهر لما فى تضاعيفه من الحكم والأحكام أو لسبيل الرشد والغى أو فارق بين الحق والباطل والحلال والحرام ولقد فخم شأنه العظيم مع ماجمع فيه من وصفى الكتابية والقرآنية على الطريقتين إحداهما اشتماله على صفات كمال جنس الكتب الإلهية فكأنه كلها والثانية طريقة كونه ممتازا عن غيره نسيج وحده بديعا فى بابه خارجا عن دائرة البيان وأخرت الطريقة الثانية لما أن الإشارة إلى امتيازه عن سائر الكتب بعد التنبيه على انطوائه على كمالات غيره من الكتب أدخل فى المدح كيلا يتوهم من أول الأمر أن امتيازه عن غيره لاستقلاله بأوصاف خاصة به من غير اشتمال على نعوت كمال سائر الكتب الكريمة وهكذا الكلام فى فاتحة سورة النمل خلا أنه قدم فيها القرآن على الكتاب لما سيذكر هناك ولما بين كون السورة الكريمة بعضاً من الكتاب

والقرآن لتوجيه المخاطبين إلى حسن تلقي مافيها من الأحكام والقصص والمواعظ. شرع في بيان ما تتضمنه فقيل :

﴿ ربما ﴾ بضم الراء وتخفيف الباء المفتوحة وقرىء بالتشديد وبفتح الراء مخففا وبزيادة التاء مشددا وفيه ثماني لغات فتح الراء وضمها مشددا ومخففا وبزيادة التاء أيضاً مشددا ومخففا ورب حرف جر لا يدخل إلا على الاسم وما كافة مصححة لدخوله على الفعل وحقه الدخول على الماضي ودخوله على قوله تعالى ﴿ يود الذين كفروا ﴾ لما أن المترقب في أخباره تعالى كالماضي المقطوع في تحقيق الوقوع فكأنه قيل ربما ود الذين كفروا والمراد كفرهم بالكتاب والقرآن وبكونه من عند الله تعالى ﴿ لو كانوا مسلمين ﴾ منقادين لحكمه ومذعنين لأمره وفيه إيذان بأن كفرهم إنما كان بالجحود بعد ما علموا كونه من عند الله تعالى وتلك الودادة يوم القيامة أو عند موتهم أو عند معاينة حالهم وحال المسلمين أو عند رؤيتهم خروج عصاة المسلمين من النار روى أبو موسى الأشعري رضي الله عنه أنه قال النبي صلى الله عليه وسلم إذا كان يوم القيامة واجتمع أهل النار في النار ومعهم من شاء الله تعالى من أهل القبلة قال لهم الكفار ألستم مسلمين قالوا بلى قالوا فما أغنى عنكم إسلامكم وقد صرتم معنا إلى النار قالوا كانت لنا ذنوب فأخذنا بها فيغضب الله سبحانه لهم بفضل رحمته فيأمر بكل من كان من أهل القبلة في النار فيخرجون منها فحينئذ يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين .

وروى مجاهد عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال لا يزال الرب يرحم ويشفع إليه حتى يقول من كان من المسلمين فليدخل الجنة فعند ذلك يتمنون الإسلام والحق أن ذلك محمول على شدة ودادتهم وأما نفس الودادة فليست بمختصة بوقت دون وقت بل هي مقررة مستمرة في كل آن يمر عليهم وأن المراد بيان ذلك على ما هو عليه من الكثرة وإنما جيء بصيغة التقليل جريا على سنن العرب فيما يقصدون به الإفراط فيما يعكسون عنه تقول لبعض قواد العساكركم

عندك من الفرسان فيقول رب فارس عندى أولا تعدم عندى فارسا وعنده مقانب جمة من الكتائب وقصده فى ذلك التمارى فى تكثير فرسانه ولكنه يريد إظهار براءته من التزيد وإبراز أنه ممن يقلل لعلو الهمة كثير ماعنده فضلا عن تكثير القليل. وهذه طريقة إنما تسلك إذا كان الأمر من الوضوح بحيث لا يحوم حوله شائبة ريب فيصار إليه هضما للحق فدل النظم الكريم على ودادة الكافرين للإسلام فى كل آن من آنات اليوم الآخر وأن ذلك من الظهور بحيث لا يشتبه على أحد ولو جىء بكلام يدل على ضده وعلى أن تلك الودادة مع كثرتها فى نفسها مما يستقل بالنسبة إلى جناب الكبرياء وهذا هو الموافق لمقام بيان حقارة شأن الكفار وعدم الاعتداد بما هم فيه من الكفر والتكذيب كما ينطق به قوله تعالى (ذرهم يأكلوا) الآية أو ذهابا إلى الإشعار بأن من شأن العاقل إذا عن له أمر يكون مظنون الحمد أو قليلا ما يكون كذلك أن لا يفارقه ولا يقارف ضده فكيف إذا كان متيقن الحمد كما فى قولهم لعلك ستندم على ما فعلت وربما ندم الإنسان على ما فعل فإن المقصود ليس بيان كون الندم مرجو الوجود بلا تيقن به أو قليل الوقوع بل التنبيه على أن العاقل لا يباشر مايرجى فيه الندم أو يقل وقوعه فيه فكيف بقطعى الوقوع وأنه يكفى قليل الندم فى كونه حاجزا عن ذلك الفعل فكيف كثيره والمقصود من سلوك هذه الطريقة إظهار الترفع والاستغناء عن التصريح بالغرض بناء على ادعاء ظهوره فالمعنى لو كانوا يودون الإسلام مرة واحدة لوجب عليهم أن يفارقوه. فكيف وهم يودونه كل آن وهذا أوفق بمقام استنزالهم عما هم عليه من الكفر وهذان طريقان متمايزان ذاتا ومقاما فمن ظنهما واحدا فقد نأى عن توفية المقام حقه .

تهديد الكفار

﴿ ذرهم ﴾ دعهم عن النهى عما هم عليه بالتذكرة والنصيحة إذ لا سبيل إلى إرعوائهم عن ذلك وبالغ فى تخليتهم وشأنهم بل مرهم بتعاطى ما يتعاطونه

﴿ يأ كلوا ويتمتعوا ﴾ بدنياهم وفى تقديم الأكل إيذان بأن تمتعهم إنما هو من قبيل تمتع البهائم بالمآكل والمشارب والمراد دوامهم على ذلك لا إحداثه ، فإنهم كانوا كذلك أو تمتعهم بلا استماع ماينغص عيشهم من القوارع والزواجر فإن التمتع على ذلك الوجه أمر حادث يصلح أن يكون مترتبا على تخليتهم وشأنهم ﴿ ويلههم ﴾ ويشغلهم عن اتباعك أو عن التفكر فيما هم يصيرون إليه أو عن الإيمان والطاعة فإن الأكل والتمتع يفضيان إلى ذلك ﴿ الأمل ﴾ والتوقع لطول الأعمار وبلوغ الأوطار واستقامة الأحوال وألا يلقوا فى العاقبة والمآل إلا خيرا .فالأفعال الثلاثة مجزومة على الجوابية[1] للأمر حسبما عرفت من تضمن الأمر بالترك للأمر بها على طريقة المجاز أو على أن يكون المراد بالأفعال المرقومة مباشرتهم لها غافلين عن وخامة عاقبتها غير سامعين لسوء مغبتها أصلا ولا ريب فى ترتب ذلك على الأمر بالترك فإن النهى عما هم عليه من ارتكاب القبائح مما يشوش عليهم تمتعهم وينغص عليهم عيشهم فأمر عليه السلام بتركه ليتمرغوا فيما هم فيه من حظوظهم فيدهمهم وهم عنه غافلون ﴿ فسوف يعلمون ﴾ سوء صنيعهم أو وخامة عاقبته أو حقيقة الحال التى ألجأتهم إلى التمنى المذكور حيث لم يعلموا ذلك من جهتك وهو مع كونه وعيداً أيما وعيد وتهديداً غب تهديد تعليل للأمر بالترك فإن علمهم ذلك علة لترك النهى والنصيحة لهم وفيه إلزام للحجة ومبالغة فى الإنذار إذ لا يتحقق الأمر بالضد إلا بعد تكرر الإنذار وتقرر الجحود والإنكار وكذلك ماترتب عليه من الأكل والتمتع والإلهاء .

﴿ وما أهلكنا ﴾ شروع فى بيان سر تأخير عذابهم إلى يوم القيامة وعدم نظمهم فى سلك الأمم الدارجة فى تعجيل العذاب أى ما أهلكنا ﴿ من قرية ﴾ من القرى بالخسف بها وبأهلها كما فعل ببعضها أو بإخلائها عن أهلها غب

---

(١) فى ١٠ على الجواب

إهلاكهم كما فعل بآخرين ﴿ إلا ولها ﴾ فى ذلك الشأن ﴿ كتاب ﴾ أى أجل مقدر مكتوب فى اللوح واجب المراعاة بحيث لا يمكن تبديله لوقوعه حسب الحكمة المقتضية له ﴿ معلوم ﴾ لا ينسى ولا يغفل عنه حتى يتصور التخلف عنه بالتقدم والتأخر فكتاب مبتدأ خبره الظرف والجملة حال من قرية فإنها لعمومها لا سيما بعد تأكده بكلمة من فى حكم الموصوفة كما أشير إليه والمعنى ما أهلكنا قرية من القرى فى حال من الأحوال إلا حال أن يكون لها كتاب أى أجل موقت لمهلكها قد كتبناه لانهلكها قبل بلوغه معلوم لا يغفل عنه حتى يمكن مخالفته بالتقدم والتأخر أو مرتفع بالظرف والجملة كما هى حال أى ما أهلكنا قرية من القرى فى حال من الأحوال إلا وقد كان لها فى حق هلاكها كتاب أى أجل مقدر مكتوب فى اللوح معلوم لا يغفل عنه أو صفة لكن لا للقرية المذكورة بل للمقدرة التى هى بدل من المذكورة على المختار فيكون بمنزلة كونه صفة للمذكورة أى ما أهلكنا قرية من القرى إلا قرية لها كتاب معلوم كما فى قوله تعالى (ليس لهم طعام إلا من ضريع لا يسمن) فإن قوله تعالى (لا يسمن) صفة لكن لا للطعام المذكور لأنه إنما يدل على انحصار طعامهم الذى لا يسمن فى الضريع وليس المراد ذلك بل للطعام المقدر بعد إلا أى ليس لهم طعام من شىء من الأشياء إلا طعام لا يسمن فليس فيه فصل بين الموصوف والصفة بكلمة إلا كما توهم وأما توسيط الواو بينهما وإن كان القياس عدمه فللإيذان بكمال الالتصاق بينهما من حيث أن الواو شأنها الجمع والربط فإن ما نحن فيه من الصفة أقوى لصوقا بالموصوف منها به فى قوله تعالى (وما أهلكنا من قرية إلا لها منذرون) فإن امتناع للانفكاك والإهلاك عن الأجل المقدر عقلى وعن الإنذار عادى جرى عليه السنة الإلهية ولما بين أن الأمم المهلكة كان لكل منهم وقت معين لهلاكهم وأن هلاكهم لم يكن حسبما كان مكتوبا فى اللوح بين أن كل أمة من الأمم منهم ومن غيرهم لها كتاب لا يمكن التقدم عليه ولا التأخر عنه فقيل .

﴿ ما تسبق من أمة ﴾ من الأمم المهلكة وغيرهم ﴿ أجلها ﴾ المكتوب فى

كتابها أى لا يجىء هلاكها قبل مجىء كتابها أو لا تمضى أمة قبل مضى أجلها فإن السبق إذا كان واقعا على زمانى فمعناه المجاوزة والتخليف ، فإذا قلت سبق زيد عمرا فمعناه أنه جاوزه وخلفه وراءه وإذا كان واقعا على زمان كان الأمر بالعكس والسر فى ذلك أن الزمان يعتبر فيه الحركة والتوجه إلى المتكلم فما سبقه يتحقق قبل تحققه وأما الزمانى فإنما يعتبر فيه الحركة والتوجه إلى ما سيأتى من الزمان فالسابق ماتقدم إلى المقصد وإيراده بعنوان الأجل باعتبار مايقتضيه من السبق كما أن إيراده بعنوان الكتاب المعلوم باعتبار ما يوجبه من الإهلاك

﴿ وما يستأخرون ﴾ أى وما يتأخرون وصيغة الاستفعال للإشعار بعجزهم عن ذلك مع طلبهم له وإيثار صيغة المضارع فى الفعلين بعد ما ذكر نفى الإهلاك بصيغة الماضى لأن المقصود بيان دوامهما واستمرارهما فيما بين الأمم الماضية والباقية ، وإسنادهما إلى الأمة بعد إسناد الإهلاك إلى القرية لما أن السبق والاستئخار حال الأمة دون القرية مع ما فى الأمة من العموم لأهل تلك القرى[1] وغيرهم ممن أخرت عقوباتهم إلى الآخرة وتأخير ذكر عدم سبقهم مع كون المقام مقام المبالغة فى بيان تحقق عذابهم إما باعتبار تقدم السبق فى الوجود وإما باعتبار أن المراد بيان سر تأخير عذابهم مع استحقاقهم لذلك. وإيراد الفعل على صيغة جمع المذكر للحمل على المعنى مع التغليب ولرعاية الفواصل ولذلك حذف الجار والمجرور والجملة مبينة لما سبق والمعنى أن تأخير عذابهم إلى يوم القيامة حسبما أشير إليه ببيان ودادتهم للاسلام إذ ذاك وبالأمر بتركهم وشأنهم إلى أن يعلموا حقيقة الحال إنما هو لتأخر أجلهم المقدر لما يقتضيه من الحكم البالغة ومن جملتها ما علم الله تعالى من إيمان بعض من يخرج منهم إلى يوم القيامة .

---

(١) فى ١٠ : تلك القرية وغيرهم

مفتريات الكفار

﴿ وقالوا ﴾ شروع فى بيان كفرهم بمن أنزل عليه الكتاب بعد بيان كفرهم بالكتاب وما يؤول إليه حالهم والقائلون مشركوا مكة لغاية تماديهم فى العتو والغى ﴿ يا أيها الذى نزل عليه الذكر ﴾ خاطبوا به رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تسليما لذلك واعتقادا له بل استهزاء به عليه الصلاة والسلام وإشعارا بعلة[1] حكمهم الباطل فى قولهم ﴿ إنك لمجنون ﴾ كدأب فرعون إذ قال إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون يعنون يامن يدعى مثل هذا الأمر البديع الخارق للعادات إنك بسبب تلك الدعوى أو بشهادة ما يعتريك عندما تدعى أنه ينزل عليك لمجنون وتقديم الجار والمجرور على القائم مقام الفاعل لأن إنكارهم متوجه إلى كون النازل ذكرا من الله تعالى لا إلى كون المنزل عليه رسول الله بعد تسليم كون النازل منه تعالى كما فى قوله تعالى (لولا نزل هـــذا القرآن على رجل من القريتين عظيم) فإن الإنكار هناك متوجه إلى كون المنزل عليه رسول الله تعالى و إيراد الفعل على صيغة المجهول لإيهام أن ذلك ليس بفعل له فاعل أو لتوجيه الإنكار إلى كون التنزيل عليه لا إلى استناده إلى الفاعل ﴿ لو ما تأتينا ﴾ كلمة لو عند تركبها مع ما تفيد ما تفيده عند تركبها مع لا من معنى امتناع الشيء لوجود غيره ومعنى التحضيض خلا أنه عند إرادته لا يليها إلا فعل ظاهر أو مضمر وعند إرادة المعنى الأول لا يليها إلا اسم ظاهر أو مقدر عند البصريين والمراد ههنا هو الثانى أى هلا تأتينا ﴿ بالملائكة ﴾ يشهدون بصحة نبوتك ويعضدونك فى الإنذار كقوله تعالى (لولا أنزل عليه ملك فيكون معه نذيرا) أو يعاقبونا على التكذيب كما تأتى الأمم المكذبة لرسلهم ﴿ إن كنت من الصادقين ﴾ فى دعواك فإن قدرة الله تعالى على ذلك مما لا ريب فيه وكذا احتياجك إليه فى تمشية أمرك فإنا لا نصدقك بدون ذلك أو كنت من جملة تلك الرسل الصادقين الذين عذبت أممهم المكذبة لهم .

---

(١) فى ١١ : بعلية حكمهم .

﴿ ما ننزل الملائكة ﴾ بالنون على بناء الفعل لضمير الجلالة من التنزيل وقرىء من الإنزال وقرىء تنزل مضارعا من التنزيل على صيغة البناء للمفعول ومن التنزل بحذف إحدى التاءين وماضيا منه ومن التنزيل ومن الثلاثى وهو كلام مسوق إلى النبي[1] صلى الله عليه وسلم جوابا لهم عن مقالتهم المحكية ورداً لاقتراحهم الباطل ولشدة استدعاء ذلك للجواب قدم رده على ما هو جواب عن أولها أعنى قوله (إنا نحن نزلنا الذكر) الآية كما فعل فى قوله تعالى (قال إنما يأتيكم به الله) فإنه مع كونه جوابا عن قولهم (فائتنا بما تعدنا) قدم على قوله (ولا ينفعكم نصحى) الآية مع كونه جوابا عن أول كلامهم الذى هو قولهم (يا نوح قد جادلتنا) لما ذكر من شدة اقتضائه للجواب وليكون أحد الجوابين متصلا بالسؤال وفى العكس يلزم انفصال كل من الجوابين عن سؤاله والعدول عن تطبيقه لظاهر كلامهم بصدد الاقتراح وهو أن يقال ما تأتيهم بهم للإيذان بأنهم قد أخطأوا فى التعبير حسبما أخطؤا فى الاقتراح وأن الملائكة لعلو رتبتهم أعلا من أن ينسب إليهم مطلق الإتيان الشامل للانتقال من أحد الأمكنة المتساوية إلى الآخر منها بل من الأسفل إلى الأعلا وأن يكون مقصد حركاتهم أولئك الكفرة وأن يدخلوا تحت ملكوت أحد من البشر وإنما الذى يليق بشأنهم النزول من مقامهم العالى وكون ذلك بطريق التنزيل من جناب الرب الجليل .

﴿ إلا بالحق ﴾ أى ملتبسا بالوجه الذى يحق ملابسة التنزيل به مما تقتضيه الحكمة وتجرى به السنة الإلهية كقوله سبحانه (وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق) والذى اقترحوه من التنزيل لأجل الشهادة لديهم وهم هم ومنزلتهم فى الحقارة والهوان منزلتهم مما لا يكاد يدخل تحت الصحة والحكمة أصلا فإن ذلك من باب التنزيل بالوحى الذى لا يكاد يفتح على غير الأنبياء الكرام

(١) فى ١٠ : للنبي صلى الله عليه وسلم

من أفراد كمل المؤمنين فكيف على أمثال أولئك الكفرة اللئام وإنما الذى يدخل فى حقهم تحت الحكمة فى الجملة هو التنزيل للتعذيب والاستئصال كما فعل بأضرابهم من الأمم السالفة ولو فعل ذلك لاستؤصلوا بالمرة .

﴿ وما كانوا إذاً منظرين ﴾ جزاء الشرط مقدر وفيه إيذان بإنتاج مقدماتهم لنقيض مطلوبهم كما فى قوله تعالى (وإذن لا يلبثون خلافك إلا قليلا) قال صاحب النظم لفظة إذن مركبة من إذ وهو اسم بمعنى الحين تقول أتيتك إذ جئتنى أى حين جئتنى ثم ضم إليه فصار إذ أن ثم استثقلوا الهمزة فحذفوها فجىء لفظة أن دليل على إضمار فعل بعدها والتقدير وما كانوا إذ أن كان ما طلبوه منظرين والمعنى لو نزلناهم ما كانوا مؤخرين كدأب سائر الأمم المكذبة المستهزئة ومع استحقاقهم لذلك قد جرى قلم القضاء بتأخير عذابهم إلى يوم القيامة حسبما أجمل فى قوله تعالى(ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل) الخ وحال حائل الحكمة بينهم وبين استئصالهم لتعلق العلم والإرادة بازديادهم عذابا بإيمان بعض ذراريهم وأما نظم إيمان بعضهم فى سمط الحكمة فيأباه مقام بيان تماديهم فى الكفر والفساد ولجاجهم فى المكابرة والعناد هذا هو الذى يستدعيه إعجاز التنزيل الجليل وأما ما قيل فى تعليل عدم موافقة التنزيل للحكمة من أنهم حينئذ يكونون مصدقين عن اضطرار أو أنه لا حكمة فى أن تأتيكم بصور تشاهدونها فإنه لايزيدكم إلا لبسا أو أن إنزال الملائكة لا يكون الا بالحق وحصول الفائدة بإنزالهم وقد علم الله تعالى من حال هؤلاء الكفار أنه لو أنزل اليهم الملائكة لبقوا مصرين على كفرهم فيصير انزالهم عبثا باطلا ولا يكون حقا فمع إخلال كل من ذلك بقطعية الباقى لايلزم من فرض وقوع شىء من ذلك تعجيل العذاب الذى يفيده قوله تعالى(وما كانوا إذا منظرين)هذا على تقدير كون اقتراحهم لإتيان الملائكة لأجل الشهادة أما على تقدير كون ذلك لتعذيبهم فالمعنى إنا ما ننزل الملائكة للتعذيب إلا تنزيلا ملتبسا بالحق الذى تقتضيه الحكمة وتستدعيه المصلحة حتما بحيث لا محيد عنه ولو نزلناهم حسبما اقترحوا ما كان ذلك التنزيل ملتبسا بمقتضى الحكمة الموجبة لتأخير عذابهم إلى يوم القيامة لا رفقا بهم بل تشديدا عليهم كما مر من قبل وحيث

كان فى نسبة تنزيلهم للتعذيب إلى عدم موافقته الحكمة نوع ايهام لعدم استحقاقهم التعذيب عدل عما يقتضيه الظاهر الى ما عليه النظم الكريم فكأنه قيل لو نزلناهم ما كانوا منظرين وذلك غير موافق للحكمة الموجبة لتأخير عذابهم لتشديد عقابهم وقيل المراد بالحق الوحى وقيل العذاب فتدبر .

﴿ إنا نحن نزلنا الذكر ﴾ رد لإنكارهم التنزيل واستهزائهم برسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك وتسلية له أى نحن بعظم شأننا وعلو جنابنا نزلنا ذلك الذكر الذى أنكروه وأنكروا نزوله عليك ونسبوك بذلك الى الجنون وعموا منزله حيث بنوا الفعل للمفعول ايماء الى أنه أمر لا مصدر له وفعل لا فاعل له ﴿ وانا له لحافظون ﴾ من كل ما لا يليق به فيدخل فيه تكذيبهم له واستهزاؤهم به دخولا أوليا فيكون وعيدا للمستهزئين وأما الحفظ عن مجرد التحريف والزيادة والنقص وأمثالها فليس بمقتضى المقام فالوجه الحمل على الحفظ من جميع ما يقدح فيه من الطعن فيه والمجادلة فى حقيته ويجوز أن يراد حفظه بالإعجاز دليلا على التنزيل من عنده تعالى إذ لو كان من عند غير الله لتطرق عليه الزيادة والنقص[1] والاختلاف وفى سبك الجملتين من الدلالة على كمال الكبرياء والجلالة وعلى فخامة شأن التنزيل ما لا يخفى وفى ايراد الثانية بالجملة الاسمية دلالة على دوام الحفظ والله سبحانه أعلم وقيل الضمير المجرور للرسول صلى الله عليه وسلم كقوله تعالى (والله يعصمك من الناس) وتأخير هذا الكلام وان كان جوابا عن أول كلامهم الباطل رداً له لما ذكر آنفا ولارتباطه بما يعقبه من قوله تعالى :

﴿ ولقد أرسلنا ﴾ أى رسلا وانما لم يذكر لدلالة ما بعده عليه ﴿ من قبلك ﴾ متعلق بأرسلنا أو بمحذوف هو نعت للمفعول المحذوف أى رسلا كائنة من قبلك ﴿ فى شيع الأولين ﴾ أى فرقهم وأحزابهم جمع شيعة وهى الفرقة المتفقة

---

(١) فى ١٠ : والنقصان .

على طريقة ومذهب ، من شاعه إذا تبعه وإضافته إلى الأولين من إضافة الموصوف إلى صفته عند الفراء ومن حذف الموصوف عند البصريين أى شيع الأمم الأولين ومعنى إرسالهم فيهم جعل كل منهم رسولا فيما بين طائفة منهم ليتابعوه فى كل ما يأتى ويذر من أمور الدين ﴿ وما يأتيهم من رسول ﴾ المراد نفى إتيان كل رسول لشيعته الخاصة به لا نفى إتيان كل رسول لكل واحدة من تلك الشيع جميعاً أو على سبيل البدل وصيغة الاستقبال لاستحضار الصورة على طريقة حكاية الحال الماضية فإن ما لا تدخل فى الأغلب على مضارع إلا وهو فى معنى الحال ولا على ماض إلا وهو قريب من الحال ما أتى شيعة من تلك الشيع رسول خاص بها ﴿ إلا كانوا به يستهزؤن ﴾ كما يفعله هؤلاء الكفرة والجملة فى محل النصب على أنها حال مقدرة من ضمير المفعول فى يأتيهم إذا كان المراد بالإتيان حدوثه أو فى محل الرفع على أنها صفة رسول فإن محله الرفع على الفاعلية أى إلا رسول كانوا به يستهزؤن وأما الجر على أنها صفة باعتبار لفظه فيفضى إلى زيادة من الاستغراقية فى الإثبات ويجوز أن يكون منصوبا على الوصفية بأن يقدر الموصوف منصوبا على الاستثناء وإن كان المختار الرفع على البدلية وهذا كما ترى تسليه لرسول الله صلى الله عليه وسلم بأن هذه عادة الجهال مع الأنبياء عليهم السلام وحيث كان الرسول مصحوبا بكتاب من عند الله تعالى تضمن ذكر استهزائهم بالرسول استهزاءهم بالكتاب ولذلك قيل .

﴿ كذلك ﴾ إشارة إلى ما دل عليه الكلام السابق من إلقاء الوحى مقرونا بالاستهزاء أى مثل ذلك السلك الذى سلكناه فى قلوب أولئك المستهزئين برسلهم وبما جاؤا به من الكتب ﴿ نسلكه ﴾ أى الذكر ﴿ فى قلوب المجرمين ﴾ أى أهل مكة أو جنس المجرمين فيدخلون فيه دخولا أوليا ومحله النصب على أنه نعت لمصدر محذوف أو حال منه أى نسلكه سلكا مثل السلك أو نسلك السلك حال كونه مثله أى مقرونا بالاستهزاء غير مقبول لما تقتضيه الحكمة

فإنهم من أهل الخذلان ليس لهم استحقاق لقبول الحق وصيغة المضارع لكون المشبه به مقدما فى الوجود وهو السلك الواقع فى الأمم السالفة أو للدلالة على استحضار الصورة والسلك إدخال الشىء فى آخر يقال سلكت الخيط فى الإبرة والرمح فى المطعون ﴿ لا يؤمنون به ﴾ أى بالذكر حال من ضمير نسلكه أى غير مؤمن به أو بيان للجملة السابقة فلا محل لها وقد جعل الضمير للاستهزاء فيتعين البيانية إلا أن يجعل الضمير المجرور أيضا له على أن الباء للملابسة أى نسلك الاستهزاء فى قلوبهم حال كونهم غير مؤمنين بملابسته والحال إما مقدرة أو مقارنة للإيذان بأن كفرهم مقارن للإلقاء كما فى قوله تعالى (فلما جاءهم ماعرفوا كفروا به) ﴿ وقد خلت سنة الأولين ﴾ أى قد مضت طقريتهم التى سنها الله تعالى فى إهلاكهم حين فعلوا ما فعلوا من التكذيب والاستهزاء وهو استئناف جىء به تكملة للتسلية وتصريحا بالوعيد والتهديد .

﴿ ولو فتحنا عليهم ﴾ أى على هؤلاء المقترحين المعاندين ﴿ بابا من السماء ﴾ أى بابا ما لا بابا من أبوابها المعهودة كما قيل ويسرنا لهم الرقى والصعود إليه ﴿ فظلوا فيه ﴾ فى ذلك الباب ﴿ يعرجون ﴾ بآلة أو بغيرها ويرون ما فيها من العجائب عيانا كما يفيده الظلول أو فظل الملائكة الذين اقترحوا إتيانهم يعرجون فى ذلك الباب وهم يرونه عيانا مستوضحين طول نهارهم ﴿ فقالوا ﴾ لفرط عنادهم وغلوهم فى المكابرة وتفاديهم عن قبول الحق ﴿ إنما سكرت أبصارنا ﴾ أى سدت من الإحساس من السكر كما يدل عليه القراءة بالتخفيف أو حيرت كما يعضده قراءة من قرأ سكرت أى حارت .

﴿ بل نحن قوم مسحورون ﴾ قد سحرنا محمد صلى الله عليه وسلم كما قالوه عند ظهور سائر الآيات الباهرة وفى كلمتى الحصر والإضراب دلالة على على أنهم يبتون القول بذلك وأن ما يرونه لا حقيقة له وإنما هو أمر خيل إليهم بالسحر وفى اسمية الجملة الثانية دلالة على دوام مضمونها وإيرادها بعد

تسكير الأبصار لبيان إنكارهم لغير ما يرونه [بعيونهم][1] فإن عروج كل منهم إلى السماء وإن كان مرئيا لغيره فهو معلوم بطريق الوجدان مع قطع النظر عن الإبصار فهم يدعون أن ذلك نوع آخر من السحر غير تسكير الأبصار .

من دلائل عظمة الله

﴿ ولقد جعلنا فى السماء بروجا ﴾ قصورا ينزلها السيارات وهى البروج الإثنا عشر المشهورة المختلفة الهيئات والخواص حسبما يدل عليه الرصد والتجربة مع ما اتفق عليه الجمهور من بساطة السماء والجعل إن جعل بمعنى الخلق والإبداع وهو الظاهر فالجار متعلق به وإن جعل بمعنى التصيير فهو مفعول ثان له متعلق بمحذوف أى جعلنا بروجا كائنة فى السماء ﴿ وزيناها ﴾ أى السماء بتلك البروج المختلفة الأشكال والكواكب سيارات كانت أو ثوابت ﴿ للناظرين ﴾ إليها فمعنى التزيين ظاهر أو للمتفكرين المعتبرين المستدلين بذلك على قدرة مقدرها وحكمة مدبرها فتزيينها بترتيبها على نظام بديع مستتبع للآثار الحسنة .

﴿ وحفظناها من كل شيطان رجيم ﴾ مرمى بالنجوم فلا يقدر أن يصعد إليها ويوسوس فى أهلها ويتصرف فيها ويقف على أحوالها ﴿ إلا من استرق السمع ﴾ محله النصب على الاستثناء المتصل وأن فسر الحفظ بمنع الشياطين عن التعرض لها على الإطلاق والوقوف على ما فيها فى الجملة أو المنقطع أن فسر الحفظ بمنع الشياطين عن التعرض لها على الإطلاق والوقوف على ما فيها فى الجملة أو المنقطع أن فسر الحفظ بمنع الشياطين عن التعرض لها على الإطلاق والوقوف على ما فيها فى الجملة أو المنقطع أن فسر ذلك بالمنع عن دخولها

---

(١) سقطت من ط

والتصرف فيها . عن ابن عباس رضى الله عنهما أنهم كانوا لا يحجبون عن السموات فلما ولد عيسى عليه السلام منعوا من ثلاث سموات ولما ولد النبى صلى الله عليه وسلم منعوا من السموات كلها واستراق السمع اختلاسه سرا شبه به خطفتهم اليسيرة من قطان السموات بما بينهم من المناسبة فى الجوهر أو بالاستدلال من الأوضاع ﴿ فأتبعه ﴾ أى تبعه ولحقه ﴿ شهاب ﴾ لهب محروق وهو شعلة نار ساطعة وقد يطلق على الكواكب والسنان لما فيهما من البريق ﴿ مبين ﴾ ظاهر أمره للبصرين قال معمر قلت لابن شهاب الزهرى أكان يرمى بالنجوم فى الجاهلية قال نعم وإن النجم ينقض ويرمى به الشيطان فيقتله أو يخبله لئلا يعود إلى استراق السمع ثم يعود إلى مكانه ، قال أفرأيت قوله تعالى : (وأنا كنا نقعد منها مقاعد) الآية قال غلظت وشدد أمرها حين بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ابن قتيبة إن الرجم كان قبل مبعثه عليه الصلاة والسلام ولكن لم يكن فى شدة الحراسة كما بعد مبعثه عليه الصلاة والسلام قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما إن الشياطين يركب بعضهم بعضا إلى السماء الدنيا يسترقون السمع من الملائكة فيرمون بالكواكب فلا يخطىء أبدا فمنهم من يحرق وجهه وجنبه ويده حيث يشاء الله تعالى ومنهم من يخبله فيصير غولا فيضل الناس فى البوادى . قال القرطبى اختلفوا فى أن الشهاب هل يقتل أم لا قال ابن عباس رضى الله عنهما يجرح ويحرق ويخبل ولا يقتل وقال الحسن وطائفة يقتل قال والأول أصح .

﴿ والأرض مددناها ﴾ بسطناها وهو بالنصب على الحذف على شريطة التفسير ولم يقرأ بالرفع لرجحان النصب للعطف على الجملة الفعلية أعنى قوله تعالى (ولقد جعلنا) الخ وليوافق ما بعده أعنى قوله تعالى ﴿ وألقينا فيها رواسى ﴾ أى جبالا ثوابت وقد مر بيانه فى أول الرعد ﴿ وأنبتنا فيها ﴾ أى فى الأرض أو فيها وفى رواسيها ﴿ من كل شىء موزون ﴾ بميزان الحكمة ذاتا وصفة ومقدارا وقيل ما يوزن من الذهب والفضة وغيرهما أو من كل شىء مستحسن

مناسب أو ما يوزن ويقدر من أبواب النعمة ﴿ وجعلنا لكم فيها معايش ﴾ ما تعيشون به من المطاعم والملابس وغيرهما مما يتعلق به البقاء وهى بياء صريحة وقرىء بالهمزة تشبيها له بالشمائل ﴿ ومن لستم له برازقين ﴾ عطف على معايش أو على محل لكم كأنه قيل جعلنا لكم معايش وجعلنا لكم من لستم برازقيه من العيال والمماليك والخدم والدواب وما أشبهها على طريقة التغليب وذكرهم بهذا العنوان لرد حسبانهم أنهم يكفون مؤناتهم ولتحقيق أن الله تعالى هو الذى يرزقهم وإياهم أو وجعلنا لكم فيها معايش ولمن لستم له برازقين .

﴿ وإن من شىء ﴾ إن للنفى ومن مزيدة للتأكيد وشىء فى محل الرفع على الابتداء أى ما من شىء من الأشياء الممكنة فيدخل فيه ما ذكر دخولا أوليا ﴿ إلا عندنا خزائنه ﴾ الظرف خبر للمبتدأ وخزائنه مرتفع به على أنه فاعله لاعتماده أو خبر له والجملة خبر للمبتدأ الأول والخزائن جمع الخزانة وهى ما يحفظ فيه نفائس الأموال لا غير غلب فى العرف على ما للملوك والسلاطين من خزائن أرزاق الناس شبهت مقدوراته[1] تعالى الفائتة للحصر المندرجة تحت قدرته الشاملة فى كونها مستورة عن علوم العالمين ومصونة عن وصول أيديهم مع كمال افتقارهم إليها ورغبتهم فيها وكونها مهيأة متأتية لايجاده وتكوينه بحيث متى تعلقت الارادة بوجودها وجدت بلا تأخر بنفائس الأموال المخزونة فى الخزائن السلطانية فذكر الخزائن على طريقة الاستعارة التخييلية ﴿ وما ننزله ﴾ أى ما نوجد وما نكون شيئا من تلك الأشياء ملتبسا بشىء من الأشياء ﴿ إلا بقدر معلوم ﴾ أى إلا ملتبسا بمقدار معين تقتضيه الحكمة وتستدعيه المشيئة التابعة لها لا بما تقتضيه القدرة فإن ذلك غير متناه فإن تخصيص كل شىء بصفة معينة وقدر معين ووقت محدود دون ما عدا ذلك مع استواء الكل فى الإمكان واستحقاق تعلق القدرة به لا بد له من حكمة تقتضى اختصاص كل من ذلك

(١) فى ١١ : شبهت مقدراته . أى ماقدره سبحانه .

مما اختص به وهذا البيان سر عدم تكوين الأشياء على وجه الكثرة حسبما هو فى خزائن القدرة وهو أما عطف على مقدر أى ننزله وما ننزله الخ أوحال مما سبق أى عندنا خزائن كل شيء والحال أنا ما ننزله إلا بقدر معلوم فالأول لبيان سعة القدرة والثانى لبيان بالغ الحكمة وحيث كان إنشاء ذلك بطريق التفضل من العالم العلوى إلى العالم السفلى كما فى قوله تعالى (وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج) وكان ذلك بطريق التدريج عبر عنه بالتنزيل وصيغة المضارع للدلالة على الاستمرار .

﴿ وأرسلنا الرياح ﴾ عطف على جعلنا لكم فيها معايش وما بينهما اعتراض لتحقيق ما سبق وترشيح مالحق أى أرسلنا الرياح ﴿ لواقح ﴾ أى حوامل شبهت الريح التى تجىء بالخير من إنشاء سحاب ماطر بالحامل كما شبه بالعقيم مالا يكون كذلك أو ملقحات بالشجر والسحاب ونظيره الطوائح بمعنى المطيحات فى قوله :

* ومختبط مما تطيح الطوائح *

أى المهلكات وقرىء وأرسلنا الريح على إرادة الجنس ﴿ فأنزلنا من السماء ﴾ بعد ما أنشأنا بتلك الرياح سحابا ماطرا ﴿ ماء فأسقيناكموه ﴾ أى جعلناه لكم سقيا وهو أبلغ من سقيناكموه لما فيه من الدلالة على جعل الماء معدا لهم ينتفعون به متى شاؤا ﴿ وما أنتم له بخازنين ﴾ نفى عنهم ما أثبته لجنابه بقوله (وان من شيء إلا عندنا خزائنه) كأنه قيل نحن القادرون على ايجاده وخزنه فى السحاب وإنزاله وما أنتم على ذلك بقادرين وقيل ما أنتم بخازنين له بعد ما أنزلناه فى الغدران والآبار والعيون بل نحن نخزنه فيها لنجعلها سقيا لكم مع أن طبيعة الماء تقتضى الغور .

﴿ وإنا لنحن نحيي ﴾ بايجاد الحياة فى بعض الأجسام القابلة لها ﴿ ونميت ﴾ بإزالتها عنها وقد يعمم الإحياء والإماتة لما يشمل الحيوان والنبات وتقديم

الضمير للحصر وهو إما تأكيد للأول أو مبتدأ خبره الفعل والجملة خبر لإنا ولا يجوز كونه ضمير الفصل لا لأن اللام مانعة من ذلك كما قيل فإن النحاة جوزوا دخول لام التأكيد على ضمير الفصل كما فى قوله تعالى (إن هذا لهو القصص الحق) بل لأنه لم يقع بين اسمين ﴿ ونحن الوارثون ﴾ أى الباقون بعد فناء الخلق قاطبة المالكون للملك عند انقضاء زمان الملك المجازى الحاكمون الكل أولا وآخرا وليس لهم إلا التصرف الصورى والملك المجازى وفيه تنبيه على أن المتأخر ليس بوارث للمتقدم كما يتراءى من ظاهر الحال ﴿ ولقد علمنا المستقدمين منكم ﴾ من تقدم منكم ولادة وموتا ﴿ ولقد علمنا المستأخرين ﴾ من تأخر ولادة وموتا أو من خرج من أصلاب الآباء ومن لم يخرج بعد أومن تقدم فى الإسلام والجهاد وسبق إلى الطاعة ومن تأخر فى ذلك لا يخفى علينا شيء من أحوالكم ، وهو بيان لكمال علمه بعد الاحتجاج على كمال قدرته فإن ما يدل عليها دليل عليه وفى تكرير قوله تعالى : (ولقد علمنا) مالا يخفى من الدلالة على كمال التأكيد وقيل رغب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الصف الأول فازدحموا عليه فنزلت وقيل إن امرأة حسناء كانت تصلى خلف رسول الله صلى الله عليه الصلاة والسلام فتقدم بعض الناس لئلا يراها وتأخر آخرون ليروها فنزلت والأول هو المناسب لما سبق وما لحق من قوله تعالى :

﴿ وإن ربك هو يحشرهم ﴾ أى للجزاء وتوسيط ضمير العظمة للدلالة على أنه هو القادر على حشرهم والمتولى له لا غير لأنهم كانوا يستبعدون ذلك ذلك ويستنكرونه ويقولون من يحيي العظام وهى رميم أى هو يحشرهم لاغير وفى الالتفات والتعرض لعنوان الربوبية إشعار بعلة الحكم[1] وفى الإضافة إلى ضميره عليه الصلاة والسلام دلالة على اللطف به عليه الصلاة والسلام ﴿ إنه حكيم ﴾ بالغ الحكمة متقن فى أفعاله فإنها عبارة عن العلم بحقائق الأشياء

---

(١) فى ١٠ : بعلية الحكم .

على ما هى عليه والإتيان بالأفعال على إما ينبغى ﴿ عليم ﴾ وسع علمه كل شىء ولعل تقديم صفة الحكمة للإيذان باقتضائها للحشر والجزاء .

خلق آدم وحسد إبليس

﴿ ولقد خلقنا الإنسان ﴾ أى هذا النوع بأن خلقنا أصله وأول فرد من أفراده خلقا بديعا منطويا على خلق سائر أفراده انطواء إجماليا كما مر تحقيقه فى سورة الأنعام ﴿ من صلصال ﴾ من طين يابس غير مطبوخ بصلصل أى يصوت عند نقره قيل إذا توهمت فى صوته مدا فهو صليل وإن توهمت فيه ترجيعا فهو صلصلة وقيل هو تضعيف صل إذا أنتن ﴿ من حمأ ﴾ من طين تغير وأسود بطول مجاورة الماء وهو صفة لصلصال أى صلصال كائن من حمأ ﴿ مسنون ﴾ أى مصور من سنة الوجه وهى صورته أو مصبوب من سن الماء صبه أى مفرغ على هيئه الإنسان كما تفرغ الصور من الجواهر المذابة فى القوالب وقيل منتن فهو صفة لهما وعلى الأولين حقه أن يكون صفة لصلصال وإنما أخر عن حمأ تنبيها على أن ابتداء مسنونيته ليس فى حال كونه صلصالا بل فى حال كونه حمأ كأنه سبحانه أفرغ الحمأ فصور من ذلك تمثال إنسان أجوف فيبس حتى إذا نقر صوت ثم غيره إلى جوهر آخر فتبارك الله أحسن الخالقين ﴿ والجان ﴾ أبا الجن وقيل إبليس ويجوز أن يراد به الجنس كما هو الظاهر من الإنسان لأن تشعب الجنس لما كان من فرد واحد مخلوق من مادة واحدة كان الجنس بأسره مخلوقا منها وقرىء بالهمزة وانتصابه بفعل يفسره ﴿ خلقناه ﴾ وهو أقوى من الرفع للعطف على الجملة الفعلية ﴿ من قبل ﴾ من قبل خلق الإنسان ومن هذا يظهر جواز كون المراد بالمستقدمين أحد الثقلين و بالمستأخرين الآخر والخطاب بقوله منكم للكل ﴿ من نار السموم ﴾ من نار الحر الشديد النافذ فى المسام ولا امتناع من خلق الحياة فى الأجرام البسيطة كما لا امتناع من خلقها فى الجواهر المجردة فضلا عن الأجساد المؤلفة التى غالب أجزائها الجزء النارى فإنها أقبل لها من التى غالب أجزائها الجزء الأرضى وقوله تعالى :

(من نار) باعتبار الغالب كقوله تعالى : (خلقكم من تراب) ومساق الآية الكريمة كما هو للدلالة على كمال قدرة الله تعالى وبيان بدء خلق الثقلين فهو للتنبيه على المقدمة الثانية التى يتوقف عليها إمكان الحشر وهو قبول المواد للجمع والإحياء .

﴿ وإذ قال ربك ﴾ نصب بإضمار اذكر وتذكير الوقت لما مر مراراً من أنه أدخل فى تذكير ما وقع فيه من الحوادث وفى التعرض لوصف الربوبية المنبئة عن تبليغ الشىء إلى كماله اللائق به شيئاً فشيئاً مع الإضافة إلى ضميره عليه الصلاة والسلام إشعار بعلة الحكم وتشريف له عليه الصلاة والسلام أى اذكر وقت قوله تعالى ﴿ للملائكة إنى خالق ﴾ فيما سيأتى وفيه ما ليس فى صيغة المضارع من الدلالة على أنه تعالى فاعل له ألبتة من غير صارف يثنيه ولا عاطف يلويه ﴿ بشرا ﴾ أى إنسانا قيل ليس هذا عين العبارة الجارية وقت الخطاب بل الظاهر أن يكون قد قيل لهم إنى خالق خلقاً من صفته كيت وكيت ولكن اقتصر عند الحكاية على الاسم وقيل جسما كثيفا يلاقى ويباشر وقيل خلقا بادى البشر بلا صوف ولا شعر ﴿ من صلصال ﴾ متعلق بخالق أو بمحذوف وقع صفة لمفعوله أى بشرا كائنا من صلصال كائن ﴿ من حمأ مسنون ﴾ تقدم تفسيره ولا ينافى هذا ما فى قوله تعالى فى سورة ص من قوله (بشرا من طين) فإن عدم التعرض عند الحكاية لوصف الطين من التغير والاسوداد ولما ورد عليه من آثار التكوين لا يستلزم عدم التعرض لذلك عند وقوع المحكى . غايته أنه لم يتعرض له هناك اكتفاء بما شرح هنا ﴿ فإذا سويته ﴾ أى صورته بالصورة الإنسانية والخلقة البشرية أو سويت أجزاء بدنه[1] بتعديل طبائعه ﴿ ونفخت فيه من روحى ﴾ النفخ إجراء الريح إلى تجويف جسم صالح لإمساكها والامتلاء بها وليس ثمة نفخ ولا منفوخ وإنما هو

---

(١) ١٠ : سويت أجزاء .

تمثيل لإفاضة ما به الحياة بالفعل على المادة القابلة لها أى فإذا كملت استعداده وأفضت عليه ما يحيا به من الروح التى هى من أمرى ﴿ فقعوا له ﴾ أمر من وقع يقع وفيه دليل على أن ليس المأمور به مجرد الانحناء كما قيل أى اسقطوا له ﴿ ساجدين ﴾ تحية له وتعظيما أو اسجدوا لله تعالى على أنه عليه الصلاة والسلام بمنزلة القبلة حيث ظهر فيه تعاجيب آثار قدرته تعالى وحكمته كقول حسان رضى الله تعالى عنه :

أليس أول من صلى لقبلتكم وأعلم الناس بالقرآن والسنن

﴿ فسجد الملائكة ﴾ أى فخلقه فسواه فنفخ فيه الروح فسجد الملائكة ﴿ كلهم ﴾ بحيث لم يشذ منهم أحد ﴿ أجمعون ﴾ بحيث لم يتأخر فى ذلك أحد منهم عن أحد ولا اختصاص لإفادة هذا المعنى بالحالية بل يفيده التأكيد أيضا فإن الاشتقاق الواضح يرشد إلى أن فيه معنى الجمع والمعية بحسب الوضع والأصل فى الخطاب التنزيل على أكمل أحوال الشىء ولا ريب فى أن السجود معا أكمل أصناف السجود لكن شاع استعماله تأكيدا وأقيم مقام كل فى إفادة معنى الإحاطة من غير نظر إلى الكمال فإذا فهمت الإحاطة من لفظ آخر لم يكن بد من مراعاة الأصل صونا للكلام عن الإلغاء وقيل أكد بتأكيدين مبالغة فى التعميم هذا وأما سجودهم هذا هل ترتب على ما حكى من الأمر التعليقى كما تقتضيه هذه الآية الكريمة والتى فى سورة ص أو على الأمر التنجيزى كما يستدعيه ما فى غيرهما فقد خرجنا بفضل الله عز وجل عن عهدة تحقيقه فى تفسير سورة البقرة ﴿ إلا إبليس ﴾ استثناء متصل إما لأنه كان جنيا مفردا مغمورا بألوف من الملائكة فعد منهم تغليبا وأما لأن من الملائكة جنسا يتوالدون وهو منهم وقوله تعالى ﴿ أبى أن يكون مع الساجدين ﴾ استئناف مبين لكيفية عدم السجود المفهوم من الاستثناء فإن مطلق عدم السجود قد يكون مع التردد وبه علم أنه مع الإباء والاستكبار أو منقطع فيتصل به ما بعده أى لكن إبليس أبى أن يكون معهم وفيه دلالة على كمال ركاكة رأيه حيث أدمج فى معصية واحدة ثلاث

معاص مخالفة الأمر والاستكبار مع تحقير آدم عليه الصلاة والسلام ومفارقة الجماعة والإباء عن الانتظام فى سلك أولئك المقربين الكرام .

﴿ قال ﴾ استئناف مبنى على سؤال من قال فماذا قال تعالى عند ذلك فقيل قال ﴿ يا إبليس مالك ﴾ أى أى سبب لك لا أى غرض لك كما قيل لقوله تعالى ما منعك ﴿ ألا تكون ﴾ فى أن لا تكون ﴿ مع الساجدين ﴾ لآدم مع أنهم هم ومنزلتهم فى الشرف منزلتهم وما كان التوبيخ عند وقوعه لمجرد تخلفه عنهم بل لكل من المعاصى الثلاث المذكورة قال تعالى فى سورة الأعراف (قال ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك) وفى سورة ص (قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدى) ولكن اقتصر عند الحكاية فى كل موطن على ما ذكر فيه اجتزاء بما ذكر فى موطن آخر وإشعارا بأن كل واحدة من تلك المعاصى الثلاث كافية فى التوبيخ وإظهار بطلان ما ارتكبه وقد تركت حكاية التوبيخ رأســا فى سورة البقرة وسورة بنى إسرائيل وسورة الكهف وسورة طه .

﴿ قال ﴾ أى ابليس وهو أيضاً استئناف مبنى على السؤال الذى ينساق إليه الكلام ﴿ لم أكن لأسجد ﴾ اللام لتأكيد النفى أى ينافى حالى ولا يستقيم منى لأنى مخلوق من أشرف العناصر وأعلاها أن أسجد ﴿ لبشر ﴾ أى جسم كثيف ﴿ خلقته من صلصال من حمأ مسنون ﴾ اقتصر ههنا على الإشارة الإجمالية إلى ادعاء الخيرية وشرف المادة اكتفاء بما صرح به حين قال أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين ولم يكتف اللعين بمجرد ذكر كونه عليه الصلاة والسلام من التراب الذى هو أخس العناصر وأسفلها بل تعرض لكونه مخلوقا منه فى أخس أحواله من كونه طينا متغيرا وقد اكتفى فى سورة الأعراف وسورة ص بما حكى عنه ههنا فاقتصر على حكاية تعرضه لخلقه عليه الصلاة والسلام من طين وكذا فى سورة بنى إسرائيل حيث قيل (أأسجد لمن خلقت طينا) وفى جوابه دليل على أن قوله تعالى (مالك) ليس استفسارا عن الغرض

بل هو استفسار عن السبب وفى عدوله عن تطبيق جوابه على السؤال روم للتفصى عن المناقشة وأنى له ذلك كأنه قال لم أمتنع عن امتثال الأمر ولا عن الانتظام فى سلك الملائكة بل عما لايليق بشأنى من الخضوع للمفضول ولقد جرى خُذله الله تعالى على سنن قياس عقيم وزل عنه أن ما يدور عليه فلك الفضل والكمال هو التحلى بالمعارف الربانية والتخلى عن الملكات الردية التى أقبحها التكبر والاستعصاء على أمر رب العالمين جل جلاله ﴿قال فاخرج منها﴾ أى من زمرة الملائكة المعززين لا من السماء فإن وسوسته لآدم عليه الصلاة والسلام فى الجنة إنما كانت بعد هذا الطرد وقوله تعالى(فاهبط منها) ليس نصا فى ذلك فإن الخروج من بين الملإ الأعلى هبوط وأى هبوط أو من الجنة على أن وسوسته كانت بطريق النداء من بابها كما روى عن الحسن البصرى أو بطريق المشافهة بعد أن احتال فى دخولها وتوسل إليه بالحية كما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما ولا ينافى هذا طرده على رؤس الأشهاد لما يقتضيه من الحكم البالغة ﴿ فإنك رجيم ﴾ مطرود من كل خير وكرامة فإن من يطرد يرجم بالحجارة أو شيطان يرجم بالشهب وهو وعيد يتضمن الجواب عن شبهته فإن من عارض النص بالقياس فهو رجيم ملعون .

﴿ وإن عليك اللعنة ﴾ الإبعاد عن الرحمة وحيث كان ذلك من جهة الله سبحانه وإن كان جاريا على ألسنة العباد قيل فى سورة ص (وأن عليك لعنتى) ﴿ إلى يوم الدين ﴾ إلى يوم الجزاء والعقوبة وفيه إشعار بتأخير عقابه وجزائه إليه وأن اللعنة مع كمال فظاعتها ليست جزاء لفعله وإنما يتحقق ذلك يومئذ وفيه من التهويل ما لايوصف وجعل ذلك أقصى أمد اللعنة ليس لأنها تنقطع هنالك بل لأنه عند ذلك يعذب بما ينسى به اللعنة من أفانين العذاب فتصير هى كالزائل وقيل إنما حدت به لأنه أبعد غاية يضرب بها الناس كقوله تعالى (خالدين فيها مادامت السموات والأرض) وحيث أمكن كون تأخير العقوبة مع الموت كسائر من أخرت عقوباتهم إلى الآخرة من الكفرة طلب اللعين تأخير موته كما حكى

عنه بقوله تعالى ﴿ قال ربى فأنظرنى ﴾ أى أمهلنى وأخرنى ولا تمتنى والفاء متعلق بمحذوف ينسحب عليه الكلام أى إذ جعلتنى رجيما فأمهلنى ﴿ إلى يوم يبعثون ﴾ أى آدم وذريته للجزاء بعد فنائهم وأراد بذلك أن يجد فسحة لإغوائهم ويأخذ منهم ثأره وينجو من الموت لاستحالته[1] بعد يوم البعث.

﴿ قال فإنك من المنظرين ﴾ وورود الجواب بالجملة الاسمية مع التعرض لشمول ما سأله لآخرين على وجه يؤذن بكون السائل تبعا لهم فى ذلك دليل على أنه إخبار بالإنظار المقدر لهم أزلا لا إنشاء لإنظار خاص به وقع إجابة لدعائه أى إنك من جملة الذين أخرت آجالهم أزلا حسبما تقتضيه حكمة التكوين فالفاء ليست لربط نفس الإنظار بالاستنظار بل لربط الإخبار المذكور به كما فى قوله «فإن ترحم فأنت لذاك أهل» فإنه لا إمكان لجعل الفاء فيه لربط ما فيه تعالى من الأهلية القديمة للرحمة بوقوع الرحمة الحادثة بل هى لربط الإخبار بتلك الأهلية للرحمة بوقوعها وأن استنظاره كان طلبا لتأخير الموت إذ به يتحقق كونه من جملتهم لا لتأخير العقوبة كما قيل ونظمه فى ذلك فى سلك من أخرت عقوبتهم إلى الآخرة فى علم الله تعالى ممن سبق من الجن ولحق من الثقلين لا يلائم مقام الاستنظار مع الحياة ولأن ذلك التأخير معلوم من إضافة اليوم إلى الدين مع إضافته فى السؤال إلى البعث كما عرفته وفى سورة الأعراف (قال أنظرنى إلى يوم يبعثون قال إنك من المنظرين) بترك التوقيت والنداء والفاء فى الاستنظار والإنظار تعويلا على ما ذكر ههنا وفى سورة ص فإن إيراد كلام واحد على أساليب متعددة غير عزيز فى الكتاب العزيز وإما أن كل أسلوب من أساليب النظم الكريم لا بد أن يكون له مقام يقتضيه مغاير لمقام غيره وأن ما حكى من اللعين إنما صدر عنه مرة وكذا جوابه لم يقع إلا دفعة فمقام المجاورة إن اقتضى أحد الأساليب المذكورة فهو المطابق لمقتضى الحال والبالغ [إلى][2]

---

(١) فى ط : لاستحالة خطأ

(٢) سقطت من ١١ .

طبقة الإعجاز وما عداه قاصر عن رتبة البلاغة فضلا عن الارتقاء إلى معالم الإعجاز فقد مر تحقيقه بتوفيق الله تعالى فى سورة الأعراف .

﴿ إلى يوم الوقت المعلوم ﴾ وهو وقت النفخة الأولى التى علم أنه يصعق عندها من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله تعالى ويجوز أن يكون المراد بالأيام واحدا والاختلاف فى العبارات لاختلاف الاعتبارات فالتعبير بيوم البعث لأن غرض اللعين يتحقق وبيوم الدين لما ذكر من الجزاء وبيوم الوقت المعلوم لما ذكر أو لاستئثاره تعالى بعلمه فلعل كل من هلاك الخلق جميعا وبعثهم وجزائهم فى يوم واحد يموت اللعين فى أوله ويبعث فى أواسطه ويعاقب فى بقيته يروى أن بين موته وبعثه أربعين سنة من سنى الدنيا مقدار ما بين النفختين ونقل عن الأحنف بن قيس رحمه الله تعالى أنه قال قدمت المدينة أريد أمير المؤمنين عمر رضى الله تعالى عنه فإذا أنا بحلقة عظيمة وكعب الأحبار فيها يحدث الناس وهو يقول لما حضر آدم عليه الصلاة والسلام الوفاة قال يارب سيشمت بى عدوى إبليس إذا رآنى ميتا وهو منظر إلى يوم القيامة فأجيب أن يا آدم إنك سترد إلى الجنة ويؤخر اللعين إلى النظرة ليذوق ألم الموت بعدد الأولين والآخرين ثم قال لملك الموت صف كيف تذيقه الموت فلما وصفه قال يارب حسبى فضج الناس وقالوا يا أبا إسحق كيف ذلك فأبى فألحوا فقال يقول الله سبحانه لملك الموت عقب النفخة الأولى قد جعلت فيك قوة أهل السموات السبع وأهل الأرضين السبع وإنى ألبستك اليوم أثواب السخط والغضب كلها فانزل بغضبى وسطوتى على رجيمى إبليس فأذقه الموت واحمل عليه فيه مرارة الأولين والآخرين من الثقلين أضعافا مضاعفة وليكن معك من الزبانية سبعون ألفا قد امتلأوا غيظا وغضبا وليكن مع كل منهم سلسلة من سلاسل جهنم وغل من أغلالها وانزع روحه المنتن بسبعين ألف كلاب من كلاليبها وناد مالكا ليفتح أبواب النيران فينزل ملك الموت بصورة لو نظر إليها أهل السموات والأرضين لماتوا بغتة من هولها فينتهى إلى إبليس فيقول قف لى ياخبيث لأذيقنك الموت

كم من عمر أدركت وقرون أضللت وهذا هو الوقت المعلوم قال فيهرب اللعين إلى المشرق فإذا هو بملك الموت بين عينيه فيهرب إلى المغرب فإذا هو به بين عينيه فيغوص البحار فتنز منه البحار فلا تقبله فلا يزال يهرب فى الأرض ولا محيص له ولا ملاذ ثم يقوم فى وسط الدنيا عند قبر آدم ويتمرغ فى التراب من المشرق إلى المغرب ومن المغرب إلى المشرق حتى إذا كان فى الموضع الذى أهبط فيه آدم عليه الصلاة والسلام وقد نصبت له الزبانية الكلاليب وصارت الأرض كالجمرة احتوشته الزبانية وطعنوه بالكلاليب ويبقى فى النزع والعذاب الى حيث يشاء الله تعالى ويقال لآدم وحواء اطلعا اليوم إلى عدوكما كيف يذوق الموت فيطلعان فينظران إلى ما هو فيه من شدة العذاب فيقولان ربنا أتممت علينا نعمتك[1] .

﴿ قال رب بما أغويتنى ﴾ الباء للقسم وما مصدرية والجواب ﴿ لأزينن لهم ﴾ أى أقسم بإغوائك إياى لأزينن لهم المعاصى ﴿ فى الأرض ﴾ أى فى الدنيا التى هى دار الغرور كقوله تعالى (أخلد الى الأرض) وإقسامه بعزة الله المفسرة بسلطانه وقهره لا ينافى إقسامه بهذا فإنه فرع من فروعها وأثر من آثارها فلعله أقسم بهما جميعا فحكى تارة قسمه بهذا وأخرى بذاك أو للسببية وقوله لأزينن جواب قسم محذوف والمعنى بسبب تسببك لإغوائى أقسم لأفعلن بهم مثل ما فعلت بى من التسبيب لإغوائهم بتزيين المعاصى وتسويل الأباطيل والمعتزلة أولوا الإغواء بالنسبة إلى الغى أو التسبب له لأمره إياه بالسجود لآدم عليه الصلاة والسلام واعتذروا عن إمهال الله تعالى وتسليطه له على إغواء بنى آدم بأنه تعالى قد علم منه وممن تبعه انهم يموتون على الكفر ويصيرون إلى النار أمهل أم لم يمهل وأن فى إمهاله تعويضا لمن خالفه لاستحقاق مزيد الثواب ﴿ ولأغوينهم أجمعين ﴾ لأحملنهم على الغواية ﴿ إلا عبادك منهم المخلصين ﴾ الذين أخلصتهم لطاعتك وطهرتهم من الشوائب فلا يعمل فيهم كيدى وقرىء

---

(١) رواه السيوطى فى البدور ، والخراط فى العافية (خط) .

بكسر اللام أى الذين أخلصوا نفوسهم لله تعالى ﴿ قال هذا صراط ﴾ أى حق ﴿ على ﴾ أن أراعيه ﴿ مستقيم ﴾ لاعوج فيه والإشارة إلى ما تضمنه الاستثناء وهو تخلص المخلصين من إغوائه أو الإخلاص على معنى أنه طريق يؤدى إلى الوصول إلى من غير اعوجاج وضلال وإلا ظهر أن ذلك لما وقع فى عبارة إبليس حيث قال لأقعدن لهم صراطك المستقيم ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم الآية وقرىء على من علو الشرف .

﴿ إن عبادى ﴾ وهم المشار إليهم بالمخلصين ﴿ ليس لك عليهم سلطان ﴾ تسلط وتصرف بالإغواء ﴿ إلا من اتبعك من الغاوين ﴾ وفيه مع كونه تحقيقا لما قاله اللعين تفخيم لشأن المخلصين وبيان لمنزلتهم ولانقطاع مخالب الإغواء عنهم وأن إغواءه للغاوين ليس بطريق[1] السلطان بل بطريق اتباعهم له بسوء اختيارهم .

﴿ وإن جهنم لموعدهم ﴾ أى موعد المتبعين أو الغاوين والأول أنسب وأدخل فى الزجر عن اتباعه وفيه دلالة على أن جهنم مكان الوعد وأن الموعود مما لا يوصف فى الفظاعة ﴿ أجمعين ﴾ تأكيد للضمير أو حال والعامل فيها الموعدان جعل مصدرا على تقدير المضاف أو معنى الإضافة إن جعل اسم مكان ﴿ لها سبعة أبواب ﴾ يدخلونها لكثرتهم أو سبع طبقات ينزلونها بحسب مراتبهم فى الغواية والمتابعة وهى جهنم ثم لظى ثم الحطمة ثم السعير ثم سقر ثم الجحيم ثم الهاوية ﴿ لكل باب منهم ﴾ من الأتباع أو الغواة ﴿ جزء مقسوم ﴾ حزب معين مفرز من غيره حسبما يقتضيه استعداده فأعلاها للموحدين والثانية لليهود والثالثة للنصارى والرابعة للصابئين والخامسة للمجوس والسادسة للمشركين والسابعة للمنافقين وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما إن جهنم لمن ادعى الربوبية ولظى لعبدة النار والحطمة لعبدة الأصنام وسقر لليهود والسعير للنصارى

---

(١) فى ١٠ : على طريق .

والجحيم للصابئين والهاوية للموحدين ولعل حصرها فى السبع لانحصار المهلكات فى المحسوسات بالحواس الخمس ومقتضيات القوة الشهوية والغضبية وقرىء بضم الزاى وبحذف الهمزة وإلقاء حركتها إلى ماقبلها مع تشديدها فى الوقف والوصل ومنهم حال من جزء أو من ضميره فى الظرف لا فى مقسوم لأن الصفة لاتعمل فيما تقدم موصوفها .

﴿ إن المتقين ﴾ من اتباعه فى الكفر والفواحش فإن غيرها مكفر ﴿ فى جنات وعيون ﴾ أى مستقرون فيها خالدين لكل واحد منهم جنة وعين أو لكل منهم عدة منهما كقوله تعالى (ولمن خاف مقام ربه جنتان) وقرىء بكسر العين حيث وقع فى القرآن العظيم ﴿ أدخلوها ﴾ على إرادة القول أمرا من الله تعالى لهم بالدخول وقرىء أدخلوها أمرا منه تعالى للملائكة بإدخالهم وقرأ الحسن أدخلوها مبنيا للمفعول على صيغة الماضى من الإدخال ﴿ بسلام ﴾ ملتبسين بسلام أى سالمين أو مسلما عليكم ﴿ آمنين ﴾ من الآفات والزوال ﴿ ونزعنا ما فى صدورهم من غل ﴾ أى حقد كان فى الدنيا وعن على رضى الله تعالى عنه أرجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير منهم رضوان الله تعالى عليهم أجمعين ﴿ إخوانا ﴾ حال من الضمير فى قوله تعالى (فى جنات) أو من فاعل أدخلوها أو من الضمير فى آمنين أو الضمير المضاف إليه والعامل فيه معنى الإضافة وكذلك قوله تعالى ﴿ على سرر متقابلين ﴾ ويجوز كونهما صفتين لإخوانا أو حالين من ضميره لأنه بمعنى متصافين وكون الثانى حالا من المستكن فى الأول وعن مجاهد تدور بهم الأسرة حيثما داروا فهم متقابلون فى جميع أحوالهم ﴿ لا يمسهم فيها نصب ﴾ أى تعب بألا يكون لهم فيها ما يوجبه من الكد فى تحصيل ما لا بد لهم منه لحصول كل ما يريدونه من غير مزاولة عمل أصلا أو بأن لا يعتريهم ذلك وإن باشروا الحركات العنيفة لكمال قوتهم وهو استئناف أو حال بعد حال من الضمير فى متقابلين ﴿ وما هم منها بمخرجين ﴾ أبد الآباد لأن تمام النعمة بالخلود ﴿ نبىء عبادى ﴾ وهم الذين عبر عنهم بالمتقين ﴿ أنى أنا الغفور الرحيم وأن عذابى هو العذاب الأليم ﴾ فذلك لما سلف من

الوعد والوعيد وتقرير له وفى ذكر المغفرة إشعار بأن ليس المراد بالمتقين من يتقى جميع الذنوب كبيرها وصغيرها وفى وصف ذاته تعالى بها وبالرحمةعلى وجه القصر دون التعذيب إيذان بأنهما مما يقتضيهما الذات وأن العذاب إنما يتحقق بما يوجبه من خارج .

عبرة فى رسالة إبراهيم عليه السلام

﴿ ونبئهم ﴾ عطف على نبىء عبادى والمقصود اعتبارهم بما جرى على ابراهيم عليه الصلاة والسلام مع أهلهمن البشرى فىتضاعيف الخوف وبما حل بقوم لوط من العذاب ونجاته عليه الصلاة والسلام مع أهله التابعين له فى ضمن الخوف وتنبيههم بحلول[1] انتقامه تعالىمن المجرمين وعلمهم بأن عذاب الله هو العذاب الأليم ﴿ عن ضيف إبراهيم ﴾ عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أنهم جبريل عليه الصلاة والسلام وملكان معه وقال محمد بن كعب وسبعة معه وقيل جبريل وميكائيل وإسرافيل عليهم الصلاة والسلام وقال الضحاك كانوا تسعة وعن السدى كانوا أحد عشر على صور الغلمان الوضاء وجوههم وعن مقاتل أنهم كانوا اثنى عشر ملكا وإنما لم يتعرض لعنوان رسالتهم لأنهم لم يكونوا مرسلين إلى إبراهيم عليه الصلاة والسلام بل إلى قوم لوط حسبما يأتى ذكره ﴿ إذ دخلوا عليه ﴾ نصب بفعل مضمر معطوف على نبىء أى واذكر وقت دخولهم عليه أو خبر مقدر مضاف إلى ضيف أى خبر ضيف إبراهيم حين دخولهم عليه أو بنفس ضيف على أنه مصدر فى الأصل ﴿ فقالوا ﴾ عند ذلك ﴿ سلاما ﴾ أى نسلم سلاما أو سلمنا أو سلمت سلاما .

﴿ قال إنا منكم وجلون ﴾ أى خائفون فإن الوجل اضطراب النفس لتوقع مكروه قاله عليه الصلاة والسلام حين امتنعوا من أكل ما قربه إليهم من العجل الحنيذ لما أن المعتاد عندهم أنه إذا نزل بهم ضيف فلم يأكل من طعامهم ظنوا أنه

(١) فى ١٠ : على حلول انتقامه .

لم يجىء بخير لا عند ابتداء دخولهم لقوله تعالى (فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة) فلا مجال لكون خوفه عليه الصلاة والسلام بسبب دخولهم بغير إذن ولا بغير وقت إذ لو كان كذلك لأجابوا حينئذ بما أجابوا ولم يتصد عليه الصلاة والسلام لتقريب الطعام اليهم وإنما لم يذكر ههنا اكتفاء بما بين فى غير هذا الموضع ألا يرى إلى أنه لم يذكر ههنا رده عليه الصلاة والسلام لسلامهم .

﴿ قالوا لا توجل ﴾ لا تخف وقرىء لا تاجل ولا توجل من أوجله أى أخافه ولا تواجل من واجله بمعنى أوجله ﴿ إنا نبشرك ﴾ استئناف لتعليل النهى عن الوجل فإن المبشر به لا يكاد يحوم حول ساحته خوف ولا حزن كيف لا وهو بشارة ببقائه وبقاء أهله فى عافيه وسلامة زمانا طويلا ﴿ بغلام ﴾ هو إسحق عليه الصلاة والسلام لقوله تعالى (فبشرناها بإسحق) ولم يتعرض ههنا لبشارة يعقوب عليه الصلاة والسلام اكتفاء بما ذكر فى سورة هود ﴿ عليم ﴾ إذا بلغ وفى موضع آخر بغلام حليم ﴿ قال أبشرتمونى ﴾ بذلك ﴿ على أن مسنى الكبر ﴾ وأثر فى تعجب عليه الصلاة والسلام من بشارتهم بالولد فى حالة مباينة للولادة وزاد فى ذلك فقال ﴿ فبم تبشرون ﴾ أى بأى أعجوبة تبشرونى فإن البشارة بما لا يتصور وقوعه عادة بشارة بغير شىء أو بأى طريقة تبشرونى وقرىء بتشديد النون المكسوره على إدغام نون الجمع فى نون الوقاية ﴿ قالوا بشرناك بالحق ﴾ أى بما يكون لا محالة أو باليقين الذى لا لبس فيه أو بطريقة هى حق وهو أمر الله تعالى وقوله ﴿ فلا تكن من القانطين ﴾ من الآيسين من ذلك فإن الله قادر على أن يخلق بشراً بغير أبوين فكيف من شيخ[1] فان وعجوز عاقر وقرىء من القنطين وكان مقصده عليه الصلاة والسلام استعظام نعمته تعالى عليه فى ضمن التعجب العادى المبنى على سنة الله تعالى المسلوكة فيما بين

(١) فى ١٠ : فكيف بشيخ .

عباده لا استبعاد ذلك بالنسبة إلى قدرته سبحانه كما ينبىء عنه قول الملائكة فلا تكن من القانطين دون أن يقولوا من الممترين أو نحوه .

﴿ قال ومن يقنط ﴾ استفهام إنكارى أى لا يقنط ﴿ من رحمة ربه إلا الضالون ﴾ المخطئون طريق المعرفة والصواب فلا يعرفون سعة رحمته وكمال علمه وقدرته كما قال يعقوب عليه الصلاة والسلام (لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون) ومراده نفي القنوط عن نفسه على أبلغ وجه أى ليس بى قنوط من رحمته تعالى وإنما الذى أقول لبيان منافاة حالى لفيضان تلك النعمة الجليلة على وفى التعرض لوصف الربوبية والرحمة مالا يخفى من الجزالة وقرىء بضم النون وبكسرها من قنط بالفتح ولم تكن هذه المفاوضة من الملائكة مع إبراهيم عليه الصلاة والسلام خاصة بل مع سارة أيضاً حسبما شرح فى سورة هود ، ولم يذكر ذلك ههنا اكتفاء بما ذكر هناك كما أنه لم يذكر هذه هناك اكتفاء بما ذكر ههنا .

﴿ قال ﴾ أى إبراهيم عليه الصلاة والسلام وتوسيطه بين قوله السابق وبين قوله ﴿ فما خطبكم ﴾ أى أمركم وشأنكم الخطير الذى لأجله أرسلتم سوى البشارة ﴿ أيها المرسلون ﴾ صريح فى أن بينهما مقالة مطوية لهم أشير به إلى مكانها كما فى قوله تعالى (قال أأسجد لمن خلقت طيناقال أرأيتك هذا الذى كرمت على) الآية فإن قوله الأخير ليس موصولا بقوله الأول بل هو مبنى على قوله تعالى (فاخرج منها فإنك رجيم) فإن توسيط قال بين قوليه للإيذان بعدم اتصال الثانى بالأول وعدم ابتنائه عليه[1] بل على غيره ثم خطابه لهم عليهم الصلاة والسلام بعنوان الرسالة بعد ما كان خطابه السابق مجردا عن ذلك مع تصديره بالفاء دليل على أن مقالتهم المطوية كانت متضمنة لبيان أن مجيئهم ليس لمجرد البشارة بل لهم شأن آخر لأجله أرسلوا فكأنه قال عليه الصلاة والسلام إن لم يكن شأنكم مجرد البشارة فماذا هو فلا حاجة إلى الالتجاء إلى أن

---

(١) فى ١٠ : بنائه عليه .

علمه عليه الصلاة والسلام بأن كل المقصود ليس البشارة بسبب أنهم كانوا ذوى عدد والبشارة لا تحتاج إلى عدد ولذلك اكتفى بالواحد في زكريا عليه الصلاة والسلام ومريم ولا إلى أنهم بشروه في تضاعيف الحال لإزالة الوجل ولو كانت تمام المقصود لابتدأوا بها فتأمل .

﴿قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين﴾ هم قوم لوط لكن وصفوا بالإجرام وجيء بهم بطريق التنكير ذما لهم واستهانة بهم ﴿إلا آل لوط﴾ استثناء متصل من الضمير في مجرمين أى إلى قوم أجرموا جميعا إلا آل لوط فالقوم والإرسال شاملان للمجرمين وغيرهم والمعنى إنا أرسلنا إلى قوم أجرم كلهم إلا آل لوط لنهلك الأولين وننجى الآخرين ويدل عليه قوله تعالى ﴿إنا لمنجوهم﴾ أى لوطا وآله ﴿أجمعين﴾ أى مما يصيب القوم فإنه استئناف للإخبار بنجاتهم لعدم إجرامهم أو لبيان ما فهم من الاستثناء من مطلق عدم شمول العذاب لهم فإن ذلك قد يكون بكون حالهم بين بين أو لتعليله فإن من تعلق بهم التنجية بمنجى من شمول العذاب أو منقطع من قوم وقوله تعالى (إنا لمنجوهم) متصل بآل لوط جار مجرى خبر لكن وعلى هذا فقوله تعالى ﴿إلا امرأته﴾ استثناء من آل لوط أو من ضميرهم وعلى الأول من الضمير خاصة لاختلاف الحكمين اللهم إلا أن يجعل إنا لمنجوهم اعتراضا وقرىء بالتخفيف ﴿قدرنا إنها لمن الغابرين﴾ الباقين مع الكفرة لتهلك معهم وقرىء قدرنا بالتخفيف وإنما علق فعل التقدير مع اختصاص ذلك بأفعال القلوب لتضمنه معنى العلم ويجوز حمله على معنى قلنا لأنه بمعنى القضاء قول وأصله جعل الشيء على مقدار غيره وإسنادهم له إلى أنفسهم وهو فعل الله سبحانه لما لهم من الزلفى والاختصاص ﴿فلما جاء آل لوط المرسلون﴾ شروع في بيان كيفية إهلاك المجرمين وتنجية آل لوط حسبما أجمل في الاستثناء ثم فصل في التعليل نوع تفصيل ووضع المظهر موضع المضمر للإيذان بأن مجيئهم لتحقيق ما أرسلوا به من الإهلاك والتنجية وليس المراد به ابتداء مجيئهم بل مطلق كينونتهم عند آل لوط فإن ماحكى عنه عليه الصلاة والسلام بقوله تعالى ﴿قال إنكم قوم منكرون﴾ إنما قاله عليه الصلاة والسلام بعد اللتيا

والتى حين ضاقت عليه الحيل وعيت به العلل لما لم يشاهد من المرسلين عند مقاساته الشدائد ومعاناته المكايد من قومه الذين يريدون بهم ما يريدون ما هو المعهود والمعتاد من الإعانة والإمداد فيما يأتى ويذر عند تجشمه فى تخليصهم إنكارا لخذلانهم له وترك نصرته فى مثل تلك المضايقة المعترية له بسببهم حيث لم يكونوا مباشرين معه لأسباب المدافعة والممانعة حتى ألجأته إلى أن قال (لو أن لى بكم قوة أو آوى إلى ركن شديد) حسبما فصل فى سورة هود لا أنه قاله عند ابتداء ورودهم له[1] خوفا أن يطرقوه بشر كما قيل كيف لا وهم بجوابهم المحكى بقوله تعالى:

﴿قالوا بل جئناك بما كانوا فيه يمترون﴾ أى بالعذاب الذى كنت تتوعدهم به فيمترون به ويكذبونك قد قشروا العصا وبينوا له عليه الصلاة والسلام جلية الأمر فأنى يمكن أن يعتريه بعد ذلك المساءة وضيق الذرع وليست كلمة بل إضرابا عن موجب الخوف المذكور على معنى ما جئناك بما تنكرنا لأجله بل بما يسرك وتقر به عينك بل هى إضراب عما فهمه عليه الصلاة والسلام من ترك النصرة له والمعنى ما خذلناك وما خلينا بينك وبينهم بل جئناك بما يدمرهم من العذاب الذى كانوا يكذبونك حين كنت تتوعدهم به ولعل تقديم هذه المقاولة على ما جرى بينه وبين أهل المدينة من المجادلة للمسارعة إلى ذكر بشارة لوط عليه الصلاة والسلام بإهلاك قومه وتنجية آله عقيب ذكر بشارة إبراهيم عليه الصلاة والسلام بهما ، وحيث كان ذلك مستدعيا لبيان كيفية النجاة وترتيب مباديها أشير إلى ذلك إجمالا ثم ذكر ما فعل القوم وما فعل بهم ولم يبال بتغيير الترتيب الوقوعى ثقة بمراعاته فى مواقع أخر ؛ ونسبة المجىء بالعذاب إليه عليه الصلاة والسلام مع أنه نازل بالقوم بطريق تفويض أمره إليه لا بطريق نزوله عليه كأنهم جاءوه به وفوضوا أمره إليه ليرسله عليهم حسبما كان يتوعدهم به ﴿وأتيناك بالحق﴾ أى باليقين الذى لا مجال فيه للامتراء والشك وهو عذابهم

---

(١) فى ١٠ : ورودهم عليه .

عبر عنه بذلك تنصيصا على نفى الامتراء عنه أو المراد بالحق الإخبار بمجىء العذاب المذكور وقوله تعالى ﴿ وإنا لصادقون ﴾ تأكيد له أى أتيناك فيما قلنا بالخبر الحق أى المطابق للواقع وإنا لصادقون فى ذلك الخبر أو فى كل كلام فيكون كالدليل على صدقهم فيه وعلى الأول تأكيد إثر تأكيد وقوله تعالى ﴿فأسر بأهلك﴾ شروع فى ترتيب مبادى النجاة أى اذهب بهم فى الليل وقرىء بالوصل وكلاهما من السرى وهو السير فى الليل وقرىء فسر من السير ﴿ بقطع من الليل﴾ بطائفة منه أو من آخره قال :

افتحى الباب وانظرى فى النجوم كم علينا من قطع ليل بهيم

وقيل هو بعد ما مضى منه شىء صالح ﴿ واتبع أدبارهم ﴾ وكن على أثرهم يذودهم وتسرع بهم وتطلع على أحوالهم ولعل إيثار الاتباع على السوق مع أنه المقصود بالأمر للمبالغة فى ذلك إذ السوق ربما يكون بالتقدم على بعض مع التأخر عن بعض ويلزمه عادة الغفلة عن حال المتأخر والالتفات المنهى عنه بقوله تعالى :

﴿ ولا يلتفت منكم ﴾ أى منك ومنهم ﴿أحد﴾ فيرى ما وراءه من الهول فلا يطيقه أو يصيبه ما أصابهم أو ولا ينصرف منكم أحد ولا يتخلف لغرض فيصيبه العذاب وقيل نهوا عن ذلك ليوطنوا أنفسهم على المهاجرة أو هو نهى عن ربط القلب بما خلفوه أو هو للإسراع فى السير فإن الملتفت قلما يخلو عن أدنى وقفة وعدم ذكر استثناء المرأة من الإسراء والالتفات لا يستدعى عدم وقوعه فإن ذلك لما عرفت مرارا للاكتفاء بما ذكر فى مواضع أخر ﴿وامضوا حيث تؤمرون ﴾ إلى حيث أمركم الله تعالى بالمضى إليه وهو الشام أو مصر وحذف الصلتين على الاتساع المشهور وإيثار المضى إلى ما ذكر على الوصول إليه واللحوق به للإيذان بأهمية النجاة ولمراعاة المناسبة بينه وبين ما سلف من الغابرين .

﴿ وقضينا ﴾ أى أوحينا ﴿ إليه ﴾ مقضيا ولذلك عدى بإلى ﴿ ذلك الأمر ﴾ مبهم يفسره ﴿ أن دابر هؤلاء مقطوع ﴾ على أنه بدل منه وإيثار اسم الإشارة على الضمير للدلالة على اتصافهم بصفاتهم القبيحة التى هى مدار ثبوته الحكم أى دابر هؤلاء المجرمين وإيراد صيغة المفعول بدل صيغة المضارع لكونها أدخل فى الدلالة على الوقوع وفى لفظ القضاء والتعبير عن العذاب بالأمر والإشارة إليه بذلك وتأخيره عن الجار والمجرور وإبهامه أولا ثم تفسيره ثانيا من الدلالة على فخامة الأمر وفظاعته ما لا يخفى وقرىء بالكسر على الاستئناف والمعنى أنهم يستأصلون عن آخرهم حتى لا يبقى منهم أحد ﴿ مصبحين ﴾ داخلين فى الصبح وهو حال من هؤلاء أو من الضمير فى مقطوع وجمعه للحمل على المعنى فإن دابر هؤلاء بمعنى ﴿ وجاء أهل المدينة ﴾ شروع فى حكاية ما صدر عن القوم عند وقوفهم على مكان الأضياف من الفعل والقول وما ترتب عليه بعد ما أشير إلى ذلك إجمالا حسبما نبه عليه أى جاء أهل سدوم منزل لوط عليه الصلاة والسلام .

﴿ يستبشرون ﴾ أى مستبشرين بأضيافه عليه الصلاة والسلام طمعا فيهم ﴿ قال إن هؤلاء ضيفى ﴾ الضيف حيث كان مصدرا فى الأصل أطلق على الواحد والمتعدد والمذكر والمؤنث وإطلاقه على الملائكة بحسب اعتقاده عليه الصلاة والسلام لكونهم فى زى الضيف والتأكيد ليس لإنكارهم بذلك بل لتحقيق اتصافهم به وإظهار اعتنائه بشأنهم وتشمره لمراعاة حقوقهم وحمايتهم من السوء ولذلك فإن ﴿ فلا تفضحون ﴾ أى عندكم بأن تتعرضوا لهم بسوء فيعلموا أنه ليس[1] لى عندكم قدر وحرمة أو لا تفضحون بفضيحة ضيفى فإن من أسىء إلى ضيفه فقد أسىء إليه يقال فضحه فضحا وفضيحة إذا أظهر من أمره ما يلزمه العار ﴿ واتقوا الله ﴾ فى مباشرتكم لما يسوؤنى ﴿ ولا تخزون ﴾ أى لا تذلونى ولا تهينونى بالتعرض لمن أجرتهم بمثل تلك الفعلة الخبيثة، وحيث

(١) فى ١٠ : أن ليس .

كان التعرض لهم بعد أن نهاهم عليه الصلاة والسلام عن ذلك بقوله فلا تفضحون أكثر تأثيرا فى جانبه عليه الصلاة والسلام وأجلب للعار إليه إذ التعرض للجار قبل شعور المجير بذلك ربما يتسامح فيه وأما بعد الشعور به والمناصبة لحمايته والذب عنه فذاك أعظم العار عبر عليه الصلاة والسلام عما يعتريه من جهتهم بعد النهى المذكور بسبب لجاجهم ومجاهرتهم بمخالفته بالخزى وأمرهم بتقوى الله تعالى فى ذلك وإنما لم يصرح بالنهى عن نفس تلك الفاحشة لأنه كان يعرف أنه لا يفيدهم ذلك وقيل المراد تقوى الله تعالى فى ركوب الفاحشة ولا يساعده توسيطه بين النهيين عن أمرين متعلقين بنفسه عليه الصلاة والسلام وكذلك قوله تعالى :

﴿ قالوا أو لم ننهك عن العالمين ﴾ أى عن التعرض لهم بمنعهم عنا وضيافتهم والهمزة للإنكار والواو للعطف على مقدر أى ألم نتقدم إليك ولم ننهك عن ذلك فإنهم كانوا يتعرضون لكل أحد من الغرباء بالسوء وكان عليه الصلاة والسلام ينهاهم عن ذلك بقدر وسعه وكانوا قد نهوه عليه الصلاة والسلام عن أن يجير أحدا فكأنهم قالوا ما ذكرت من الفضيحة والخزى إنما جاءك من قبلك لا من قبلنا إذ لولا تعرضك لما نتصدى له لما اعتراك تلك الحالة ولما رآهم لا يقلعون عما هم عليه ﴿ قال هؤلاء بناتى ﴾ يعنى نساء القوم فإن نبى كل أمة بمنزلة أبيهم أو بناته حقيقة أى فتزوجوهن وقد كانوا من قبل يطلبونهن ولا يجيبهم لخبثهم وعدم كفاءتهم لا لعدم مشروعية المناكحة بين المسلمات والكفار وقد فصل ذلك فى سورة هود ﴿ إن كنتم فاعلين ﴾ أى قضاء الوطر أو ما أقول لكم ﴿ لعمرك ﴾ قسم من الله تعالى بحياة النبى عليه الصلاة والسلام أو من الملائكة بحياة لوط عليه الصلاة والسلام والتقدير لعمرك قسمى وهى لغة فى العمر يختص به القسم إيثاراً للخفة لكثرة دورانه على الألسنة ﴿ إنهم لفى سكرتهم ﴾ غوايتهم أو شدة غلمتهم التى أزالت عقولهم وتمييزهم بين الخطأ والصواب ﴿ يعمهون ﴾ يتحيرون ويتمادون فكيف يسمعون النصح وقيل

الضمير لقريش والجملة اعتراض ﴿ فأخذتهم الصيحة ﴾ أى الصيحة العظيمة الهائلة وقيل صيحة جبريل عليه الصلاة والسلام ﴿ مشرقين ﴾ داخلين فى وقت شروق الشمس ﴿ فجعلنا عاليها ﴾ عالى المدينة أو عالى قرام وهو المفعول الأول لجعلنا وقوله تعالى ﴿ سافلها ﴾ مفعول ثان له وهو أدخل فى الهول والفظاعة من العكس كما مر ﴿ وأمطرنا عليهم ﴾ فى تضاعيف ذلك قبل تمام الانقلاب ﴿ حجارة ﴾ كائنة ﴿ من سجيل ﴾ من طين متحجر أو طين عليه كتاب وقد فصل ذلك فى سورة هود . ﴿ إن فى ذلك ﴾ أى فيما ذكر من القصة ﴿ لآيات ﴾ لعلامات يستدل بها على حقيقة الحق ﴿ للمتوسمين ﴾ أى المتفكرين المتفرسين الذين يتثبتون فى نظرهم حتى يعرفوا حقيقة الشىء بسمته ﴿ وإنها ﴾ أى المدينة أو القرى ﴿ لبسبيل مقيم ﴾ أى طريق ثابت يسلكه النـــاس ويرون آثارها .

﴿ إن فى ذلك ﴾ فيما ذكر من المدينة أو القرى أو فى كونها بمرأى من الناس يشاهدونها فى ذهابهم وإيابهم ﴿ لآية ﴾ عظيمة ﴿ للمؤمنين ﴾ بالله ورسوله فإنهم الذين يعرفون أن ما حاق بهم العذاب الذى ترك ديارهم بلاقع إنما حاق بهم لسوء صنيعهم وأماغيرهم فيحملون ذلك على الاتفاق أو الأوضاع الفلكية وإفراد الآية بعد جمعها فيما سبق لما أن المشاهد هنا بقية الآثار لا كل القصة كما فيما سلف .

عبرة فى رسالات الأنبياء

﴿ وإن كان ﴾ إن مخففة من أن وضمير الشأن الذى هو اسمها محذوف واللام هى الفارقة أى وإن الشأن كان ﴿ أصحاب الأيكة ﴾ وهم قوم شعيب عليه الصلاة والسلام والأيكة والليكة الشجرة الملتفة المتكاثفة وكان عامة شجرهم المقل وكانوا يسكنونها فبعثه الله تعالى إليهم ﴿ لظالمين ﴾ متجاوزين عن الحد ﴿ فانتقمنا منهم ﴾ بالعذاب روى أن الله تعالى سلط عليهم الحر سبعة أيام ثم

بعث سحابة فالتجأوا إليها يلتمسون الروح فبعث الله تعالى عليهم منها نارا فأحرقتهم فهو عذاب يوم الظلة ﴿ وإنهما ﴾ يعنى سدوم والأيكة وقيل والأيكة ومدين فإنه عليه الصلاة والسلام كان مبعوثا إليهما فذكر أحدهما منبه على الآخر ﴿ لبإمام مبين ﴾ لبطريق واضح والإمام اسم ما يؤتم به سمى به الطريق ومطمر البناء واللوح الذى يكتب فيه لأنها مما يؤتم به ﴿ ولقد كذب أصحاب الحجر ﴾ يعنى ثمود ﴿ المرسلين ﴾ أى صالحا فإن من كذب واحدا من الأنبياء عليهم السلام فقد كذب الجميع لا تفاقهم على التوحيد والأصول التى لا تختلف باختلاف الأمم والأعصار وقيل المراد صالح ومن معه من المؤمنين كما قيل الخبيبون لخبيب بن عبد الله بن الزبير وأصحابه واد بين المدينة والشام كانوا يسكنونه ﴿ وآتيناهم آياتنا ﴾ وهى الآيات المنزلة على نبيهم أو المعجزات من الناقة وسقيها وشربها ودرها أو الأدلة المنصوبة لهم ﴿ فكانوا عنها معرضين ﴾ إعراضا كليا بل كانوا معارضين لها حيث فعلوا بالناقة ما فعلوا .

﴿ وكانوا ينحتون من الجبال بيوتا آمنين ﴾ من الانهدام ونقب اللصوص وتخريب الأعداء لوثاقتها أو من العذاب لحسبانهم أن ذلك يحميهم منه . عن جابر رضى الله تعالى عنه أنه قال مررنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على الحجر فقال لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا أن تكونوا باكين حذرا أن يصيبكم مثل ما أصاب هؤلاء ثم زجر رسول الله صلى الله عليه وسلم راحلته فأسرع حتى خلفها ﴿ فأخذتهم الصيحة مصبحين ﴾ وهكذا وقع فى سورة هود قيل صاح بهم جبريل عليه الصلاة والسلام وقيل أتتهم من السماء صيحة فيها صوت كل صاعقة وصوت كل شىء فى الأرض فتقطعت قلوبهم فى صدورهم وفى سورة الأعراف (فأخذتهم الرجفة) أى الزلزلة ولعلها من روادف الصيحة المستتبعة لتموج الهواء تموجا شديدا يفضى إليها كما مر فى سورة هود ﴿ فما أغنى عنهم ﴾ ولم يدفع عنهم ما نزل بهم ﴿ ما كانوا يكسبون ﴾ من بناء البيوت الوثيقة والأموال الوافرة والعدد المتكاثرة وفيه تهكم بهم والفاء

لترتيب عدم الإغناء الخاص بوقت نزول العذاب حسبما كانوا يرجونه لا عدم الإغناء المطلق فإنه أمر مستمر .

﴿ وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق ﴾ أى إلا خلقا ملتبسا بالحق والحكمة والمصلحة بحيث لا يلائم استمرار الفساد واستقرار الشرور ولذلك اقتضت الحكمة اهلاك أمثال هؤلاء دفعا لفسادهم وإرشادا لمن بقى إلى الصلاح أو إلا بسبب العدل والإنصاف يوم الجزاء على الأعمال كما ينبىء عنه قوله تعالى : ﴿ وإن الساعة لآتية ﴾ فينتقم الله تعالى لك فيها ممن كذبك ﴿ فاصفح ﴾ أى أعرض عنهم ﴿ الصفح الجميل ﴾ إعراضا جميلا وتحمل أذيتهم ولا تعجل بالانتقام منهم وعاملهم معاملة الصفوح الحليم وقيل هى منسوخة بآية السيف ﴿ إن ربك ﴾ الذى يبلغك إلى غاية الكمال ﴿ هو الخلاق ﴾ لك ولهم ولسائر الموجودات على الإطلاق ﴿ العليم ﴾ بأحوالك وأحوالهم بتفاصيلها فلا يخفى عليه شىء مما جرى بينك وبينهم فهو حقيق بأن تكل جميع الأمور إليه ليحكم بينكم أو هو الذى خلقكم وعلم تفاصيل أحوالكم وقد علم أن الصفح اليوم أصلح إلى أن يكون السيف أصلح فهو تعليل للأمر بالصفح على التقديرين وفى مصحف عثمان وأبى رضى الله تعالى عنهما (هو الخالق) وهو صالح للقليل والكثير والخلاق مختص بالكثير .

إنعام الله على رسوله صلى الله عليه وسلم

﴿ ولقد آتيناك سبعا ﴾ آيات وهى الفاتحة وعليه عمر وعلى وابن مسعود وأبو هريرة رضى الله تعالى عنهم والحسن وأبو العالية ومجاهد والضحاك وسعيد بن جبير وقتادة رحمهم الله تعالى وقيل سبع سور وهى الطوال التى سابعتها الأنفال والتوبة فإنهما فى حكم سورة واحدة ولذلك لم يفصل بينهما بالتسمية وقيل يونس أو الحواميم السبع وقيل الصحائف السبع وهى الأسباع ﴿ من المثانى ﴾ بيان للسبع من التثنية وهى التكرير فإن كان المراد الفاتحة وهو

الظاهر فتسميتها الثانى لتكرر قراءتها فى الصلاة وأما تكرر قراءتها فى غير الصلاة كما قيل فليس بحيث يكون مدارا للتسمية ولأنها تثنى بما يقرأ بعدها فى الصلاة وأما تكرر نزولها فلا يكون وجها للتسمية لأنها كانت مسماة بهذا الاسم قبل نزولها الثانى إذ السورة مكية بالاتفاق وإن كان المراد غيرها من السور فوجه كونها من المثانى أن كلا من ذلك تكرر قراءته وألفاظه أو قصصه ومواعظه أو من الثناء لاشتماله على ما هو ثناء على الله واحدتها مثناة أو مثنية صفة للآية وأما الصحائف وهى الأسباع فلما وقع فيها من تكرير القصص والمواعظ والوعد والوعيد وغير ذلك ولما فيها من الثناء على الله تعالى كأنها تثنى عليه سبحانه بأفعاله وصفاته الحسنى ويجوز أن يراد بالمثانى القرآن لما ذكر أو لأنه مثنى عليه بالإعجاز أو كتب الله تعالى كلها فمن للتبعيض وعلى الأول البيان ﴿ والقرآن العظيم ﴾ إن أريد بالسبع الآيات أو السور فمن عطف الكل على البعض أو العام على الخاص وإن أريد به الأسباع أو كل القرآن فهو عطف أحد الوصفين على الآخر كما فى قوله :

إلى الملك القرم وابن الهمام ... وليث الكتائب فى المزدحم

أى ولقد آتيناك ما يقال له السبع المثانى والقرآن العظيم ﴿ لا تمدن عينيك ﴾ لا تطمح ببصرك طموح راغب ولا تدم نظرك ﴿ إلى ما متعنا به ﴾ من زخارف الدنيا وزينتها ومحاسنها وزهرتها ﴿ أزواجا منهم ﴾ أصنافا من الكفرة فإن ما فى الدنيا من أصناف الأموال والذخائر بالنسبة إلى ما أوتيته مستحقر لا يعبأ به أصلا وفى حديث أبى بكر رضى الله تعالى عنه من أوتى القرآن فرأى أن أحدا أوتى فقد صغر عظيما وعظم صغيرا وروى أنه وافت من بصرى وأذرعات سبع قوافل ليهود بنى قريظة والنضير فيها أنواع البز والطيب والجواهر وسائر الأمتعة فقال المسلمون لو كانت هذه الأموال لنا لتقوينا بها وأنفقناها فى سبيل الله فقيل لهم قد أعطيتم سبع آيات وهى خير من هذه القوافل السبع ﴿ ولا تحزن عليهم ﴾ حيث لم يؤمنوا ولم ينتظموا أتباعك فى سلك ليتقوى بهم ضعفاء

المسلمين وقيل أو أنهم المتمتعون به ويأباه كلمة على فإن تمتعهم به لا يكون مدارا للحزن عليهم ﴿ واخفض جناحك للمؤمنين ﴾ أى تواضع لهم وارفق بهم وألن جانبك لهم وطب نفسا من إيمان الأغنياء ﴿ وقل إنى أنا النذير المبين ﴾ أى المنذر المظهر لنزول عذاب الله وحلوله .

﴿ كما أنزلنا على المقتسمين ﴾ قيل إنه متعلق بقوله تعالى (ولقد آتيناك) الخ أى أنزلنا عليك كما أنزلنا على أهل الكتاب ﴿ الذين جعلوا القرآن عضين ﴾ أى قسموه إلى حق وباطل حيث قالوا عنادا وعدوانا بعضه حق موافق للتوراة والإنجيل وبعضه باطل مخالف لهما أو اقتسموه لأنفسهم استهزاء حيث كان يقول بعضهم سورة البقرة لى وبعضهم سورة آل عمران لى وهكذا أو قسموا ما قرأوا من كتبهم وحرفوه فأقروا ببعضه وكذبوا ببعضه وحمل توسيط قوله تعالى (لا تمدن عينيك) على إمداد ما هو المراد بالكلام من التسلية وعقب ذلك بأنه جل المقام عن التشبيه ولقد أوتى عليه الصلاة والسلام ما لم يؤت أحد قبله ولا بعده مثله وقيل إنه متعلق بقوله (إنى أنا النذير المبين) فإنه فى قوة الأمر بالإنذار كأنه قيل أنذر قريشا مثل ما أنزلنا على المقتسمين يعنى اليهود وهو ما جرى على بنى قريظة والنضير بأن جعل المتوقع كالواقع وقد وقع كذلك وأنت خبير بأن ما يشبه به العذاب المنذر لا بد أن يكون محقق الوقوع معلوم الحال عند المنذرين إذ به تتحقق فائدة التشبيه وهى تأكيد الإنذار وتشديده وعذاب بنى قريظة والنضير مع عدم وقوعه إذ ذاك لم يسبق به وعد ووعيد فهم منه فى غفلة محضة وشك مريب وتنزيل المتوقع منزلة الواقع له موقع جليل من الإعجاز لكن إذا صادف مقاما يقتضيه كما فى قوله تعالى (إنا فتحنا لك فتحا مبينا) ونظائره على أن تخصيص الاقتسام باليهود بمجرد اختصاص العذاب المذكور بهم مع شركتهم للنصارى فى الاقتسام المتفرع على الموافقة والمخالفة وفى الاقتسام بمعنى التحريف الشامل للكتابين بل تخصيص العذاب المذكور بهم مع كونه من نتائج الاقتسام تخصيص من غير مخصص وقد جعل الموصول

مفعولا أول لأنذر أى أنذر المعضين الذين يجزئون القرآن إلى سحر وشعر وأساطير مثل ما أنزلنا على المقتسمين وهم الإثنا عشر الذين اقتسموا مداخل مكة أيام الموسم فقعد كل منهم فى مدخل لينفروا الناس عن الإيمان برسول الله صلى الله عليه وسلم يقول بعضهم لاتغتروا بالخارج منا فإنه ساحر ويقول الآخر كذاب فأهلكهم الله تعالى يوم بدر وقبله بآفات وفيه مع ما فيه من الاشتراك لما سبق فى عدم كون العذاب الذى شبه به العذاب المنذر واقعاً ولا معلوما للمنذرين ولا موعود الوقوع أنه لا داعى إلى تخصيص وصف التعضية بهم وإخراج المقتسمين من بينهم مع كونهم أسوة لهم فى ذلك فإن وصفهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم بما وصفوا من السحر والشعر والكذب متفرع على وصفهم للقرآن بذلك وهل هو إلا نفس التعضية ولا إلى إخراجهم من حكم الإنذار على ما نزل بهم من العذاب لم يكن من الشدة بحيث يشبه به عذاب غيرهم ولا مخصوصا بهم بل عاما لكلا الفريقين وغيرهم مع أن بعض المنذرين كالوليد ابن المغيرة والعاص بن وائل والأسود بن المطلب قد هلكوا قبل مهلك أكثر المقتسمين يوم بدر ولا إلى تقديم المفعول الثانى على الأول كما ترى وقيل إنه وصف لمفعول النذير أقيم مقامه والمقتسمون هم القاعدون فى مداخل مكة كما حرر .

وفيه مع ما مر أن قوله تعالى (كما أنزلنا) صريح فى أنه من قول الله تعالى لا من قول الرسول عليه الصلاة والسلام والاعتذار بأن ذلك من باب مايقوله بعض خواص الملك أمرنا بكذا وإن كان الآمر هو الملك حسبما سلف فى قوله تعالى (قدرنا إنها لمن الغابرين) تعسف لا يخفى وأن إعمال الوصف الموصوف مما لم يجوزه البصريون فلا بد من الهرب إلى مسلك الكوفيين أو المصير إلى جعله مفعولا غير صريح أى أنا النذير المبين بعذاب مثل عذاب المقتسمين وقيل المراد بالمقتسمين الرهط الذين تقاسموا على أن يبيتوا صالحا عليه الصلاة والسلام فأهلكهم الله تعالى وأنت تدرى أن عذابهم حيث كان متحققا ومعلوما للمنذرين

حسبما نطق به القرآن العظيم صالح لأن يقع مشبها به العذاب المنذر لكن الموصول المذكور عقيبه حيث لم يمكن كونه صفة للمقتسمين حينئذ فسواء جعلناه مفعولا أو للنذير أو لما دل هو عليه من أنذر لا يكون للتعرض لعنوان التعضيه فى حيز الصلة ولا لعنوان الاقتسام بالمعنى المزبور فى حيز المفعول الثانى فائدة لما أن ذلك إنما يكون للإشعار بعلية الصلة والصفة للحكم الثابت للموصول والموصوف فلا يكون هناك وجه شبه يدور عليه تشبيه عذابهم بعذابهم خاصة لعدم اشتراكهم فى السبب فإن المعضين بمعزل من التقاسم على التبييت الذى هو السبب لهلاك أولئك كما أن أولئك بمعزل من التعضية التى هى السبب لهلاك هؤلاء ولا علاقة بين السببين مفهوما ولا وجودا تصحح وقوع أحدهما فى جانب والآخر فى جانب واتفاق الفريقين على مطلق الاتفاق على الشر المفهوم من الاتفاق على الشر المخصوص الذى هو التبييت المدلول عليه بالتقاسم غير مفيد إذ لا دلالة لعنوان التعضية على ذلك وإنما يدل عليه اقتسام المداخل وجعل الموصول مبتدأ على أن خبره الجملة القسمية لا يليق بجزالة التنزيل وجلالة شأنه الجليل .

إذا عرفت هذا فاعلم أن الأقرب من الأقوال المذكورة أنه متعلق بالأول وأن المراد بالمقتسمين أهل الكتابين وأن الموصول مع صلته صفة مبينة لكيفية اقتسامهم ومحل الكاف النصب على المصدرية وحديث جلالة المقام عن التشبيه من لوائح النظر الجليل والمعنى لقد آتيناك سبعا من المثانى والقرآن العظيم إيتاء مماثلا لإنزال الكتابين على أهلهما وعدم التعرض لذكر ما أنزل عليهم من الكتابين لأن الغرض بيان المماثلة بين الإيتاءين لا بين متعلقيهما والعدول عن تطبيق ما فى جانب المشبه به على ما فى جانب المشبه بأن يقال كما آتينا المقتسمين حسبما وقع فى قوله تعالى (الذين آتيناهم الكتاب) الخ للتنبيه على ما بين الإيتاءين من التنافى فإن الأول على وجه التكرمة والامتنان وشتان بينه وبين الثانى .

ولا يقدح ذلك فى وقوعه مشبها به فإن ذلك إنما هو لمسلميته عندهم وتقدم وجوده على المشبه زمانالا لمزيه تعود إلى ذاته كما فى الصلاة الخليلية فإن التشبيه فيها ليس لـكون رحمه الله تعالى الفائضة على إبراهيم عليه الصلاة والسلام وآله أتم وأكمل مما فاض على النبى عليه الصلاة والسلام وإنما ذلك للتقدم فى الوجود والتنصيص عليه فى القرآن العظيم فليس فى التشبيه شائبة إشعار بأفضلية المشبه به من المشبه فضلا عن إيهام أفضلية ماتعلق به الأول مما تعلق به الثانى وإنما ذكروا بعنوان الاقتسام إنكارا لاتصافهم به مع تحقق ماينفيه[1] من الإنزال المذكور وإيذانا بأنه كان من حقهم أن يؤمنوا بكله حسب إيمانهم بما أنزل عليهم بحكم الاشتراك فى العلة والاتحاد فى الحقيقة التى هى مطلق الوحى وتوسيط قوله تعالى (لا تمدن) الخ لـكمال اتصاله بما هو المقصود من بيان حال ما أوتى النبى عليه الصلاة والسلام ولقد بين أولا علو شأنه ورفعة مكانه بحيث يستوجب اغتباطه عليه الصلاة والسلام بمكانه واستغناءه به عما سواه ثم نهى عن الالتفات إلى زهرة الدنيا وعبر عن إيتائها لأهلها بالتمتيع المنبىء عن وشك زوالها عنهم ثم عن الحزن بعدم إيمان المنهمكين فيها وأمر بمراعاة المؤمنين والاكتفاء بهم عن غيرهم وبإظهار قيامه بمواجب الرسالة ومراسم النذارة حسبما فصل فى تضاعيف ما أوتى القرآن العظيم ثم رجع إلى كيفية إيتائه على وجه أدمج فيه ما يزيح شبه المنكرين ويستنزلهم عن العناد من بيان مشاركته لما لا ريب لهم فى كونه وحيا صادقا فتأمل والله عنده علم الـكتاب هذا وقد قيل المعنى قل إنى أنا النذير المبين كما قد أنزلنا فى الـكتب إنك ستأتى نذيرا على أن المقتسمين أهل الـكتاب انتهى .

يريد أن ما فى كما موصولة والمراد بالمشابهة المستفادة من الـكاف الموافقة وهى مع ما فى حيزها فى محل النصب على الحالية من مفعول قل أى قل هذا القول حال كونه كما أنزلنا على أهل الـكتابين أى موافقا لذلك فالأنسب

(١) فى ١٠ : ما يزيله .

حينئذ حمل الاقتسام على التحريف ليكون وصفهم بذلك تعريضا بما فعلوا من تحريفهم وكتمانهم لنعت النبي صلى الله عليه وسلم وقوله تعالى (عضين) جمع عضة وهى الفرقة أصلها عضوة فعلة من عضى الشاة تعضية إذا جعلها أعضاء وإنما جمعت جمع السلامة جبرا للمحذوف كسنين وعزين والتعبير عن تجزئة القرآن بالتعضية التى تفريق الأعضاء من ذى الروح المستلزم لإزالة حياته وإبطال اسمه دون مطلق التجزئة والتفريق اللذين ربما يوجدان فيما لا يضره التبعيض من المثليات للتنصيص على كمال قبح ما فعلوه بالقرآن العظيم وقيل هى فعلة من عضهته إذا بهته وعن عكرمة العضه السحر بلسان قريش فنقصانها على الأول واو وعلى الثانى هاء .

﴿ فوربك لنسألنهم أجمعين ﴾ أى لنسألن يوم القيامة أصناف الكفرة من المقتسمين وغيرهم سؤال توبيخ وتقريع ﴿عما كانوا يعملون﴾ فى الدنيا من قول وفعل وترك فيدخل فيه ما ذكر من الاقتسام والتعضية دخولا أوليا ولنجزينهم بذلك جزاءاً موفورا وفيه من التشديد وتأكيد الوعيد ما لا يخفى والفاء لترتيب الوعيد على أعمالهم التى ذكر بعضها وفى التعرض لوصف الربوبية مضافا إليه عليه الصلاة والسلام إظهار اللطف به عليه الصلاة والسلام ﴿فاصدع بما تؤمر ﴾ فاجهر به من صدع بالحجة إذا تكلم بها جهارا أو أفرق بين الحق والباطل وأصله الإبانة والتمييز وما مصدرية أو موصولة والعائد محذوف أى ما تؤمر به من الشرائع المودعة فى تضاعيف ما أوتيته من المثانى السبع والقرآن العظيم ﴿ وأعرض عن المشركين ﴾ أى لا تلتفت إلى ما يقولون ولا تبال بهم ولا تتصد للانتقام منهم .

﴿ إنا كفيناك المستهزئين﴾ بقمعهم وتدميرهم قيل كانوا خمسة من أشراف قريش الوليد بن المغيرة والعاص بن وائل والحرث بن قيس بن الطلاطلة والأسود بن عبد يغوث والأسود بن المطلب يبالغون فى إيذاء النبي صلى الله

وسلم والاستهزاء به فنزل جبريل عليه الصلاة والسلام فقال قد أمرت أن أكفيكهم فأومأ إلى ساق الوليد فمر بنبال فتعلق بثوبه سهم فلم ينعطف تعظما لأخذه فأصاب عرقا فى عقبه فقطعه فمات وأومأ إلى إخمص العاص فدخلت فيه شوكة فقال لدغت وانتفخت رجله حتى صارت كالرحى فمات وأشار إلى عينى الأسود بن المطلب فعمى والى أنف الحرث فامتخط قيحا فمات والى الأسود بن عبد يغوث وهو قاعد فى أصل شجرة فجعل ينطح برأسه الشجرة ويضرب وجهه بالشوك حتى مات ﴿ الذين يجعلون مع الله إلها آخر ﴾ وصفهم بذلك تسلية لرسوله[1] صلى الله عليه وسلم وتهوينا للخطب عليه بإعلام أنهم لم يقتصروا على الاستهزاء به عليه الصلاة والسلام بل اجترأوا على العظيمة التى هى الإشراك بالله سبحانه .

﴿ فسوف يعلمون ﴾ عاقبة ما يأتون ويذرون ﴿ ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون ﴾ من كلمات الشرك والطعن فى القرآن والاستهزاء به وبك وتحلية الجملة بالتأكيد لإفادة تحقيق ما تتضمنه من التسلية وصيغة الاستقبال لإفادة استمرار العلم حسب استمرار متعلقه باستمرار ما يوجبه من أقوال الكفرة ﴿ فسبح بحمد ربك ﴾ فافزع إلى الله تعالى فيما نابك من ضيق الصدر والحرج بالتسبيح والتقديس ملتبسا بحمده وفى التعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميره عليه الصلاة والسلام ما لا يخفى من إظهار اللطف به عليه الصلاة والسلام والإشعار بعلة الحكم أعنى الأمر بالتسبيح والحمد ﴿ وكن من الساجدين ﴾ أى المصلين يكفك ويكشف الغم عنك أو فنزهه عما يقولون ملتبسا بحمده على أن هداك للحق المبين وعنه عليه الصلاة والسلام أنه كان إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة ﴿ واعبد ربك ﴾ دم على ما أنت عليه من عبادته

(١) فى ط : لرسول الله .

تعالى وإيثار الإظهار بالعنوان السالف آنفا لتأكيد ما سبق من إظهار اللطف به عليه الصلاة والسلام والإشعار بعلة الأمر بالعبادة .

﴿ حتى يأتيك اليقين ﴾ أى الموت فإنه متيقن اللحوق بكل حى مخلوق وإسناد الإتيان إليه للإيذان بأنه متوجه إلى الحى طالب للوصول إليه والمعنى دم على العبادة ما دمت حيا من غير إخلال بها لحظة . عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة الحجر كان له من الأجر عشر حسنات بعدد المهاجرين والأنصار والمستهزئين بمحمد صلى الله عليه وسلم .

* * *

سورة النحل

(مكية (إلا وإن عاقبتم) إلى آخرها . وهى مائة وثمان وعشرون آية)

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

﴿ أتى أمر الله ﴾ أى الساعة أو ما يعمها وغيرها من العذاب الموعود للكفرة عبر عن ذلك بأمر الله للتفخيم والتهويل وللإيذان بأن تحققه فى نفسه وإتيانه منوط بحكمه النافذ وقضائه الغالب وإتيانه عبارة عن دنوه واقترابه على طريقة نظم المتوقع فى سلك الواقع أو عن إتيان مباديه القريبة على نهج إسناد حال الأسباب إلى المسببات وأياً ما كان ففيه تنبيه على كمال قربه من الوقوع وإتصاله وتكميل لحسن موقع التفريع فى قوله عز وجل ﴿ فلا تستعجلوه ﴾ فإن النهى عن استعجال الشيء وإن صح تفريعه على قرب وقوعه أو على وقوع أسبابه القريبة لكنه ليس بمثابة تفريعه على وقوعه إذ بالوقوع يستحيل الاستعجال رأسا لا بما ذكر من قرب وقوعه ووقوع مباديه والخطاب للكفرة خاصة كما يدل عليه القراءة على صيغة نهى الغائب واستعجالهم وإن كان بطريق الاستهزاء لكنه حمل على الحقيقة ونهوا عنه بضرب من التهكم لا مع المؤمنين .

سواء أريد بأمر الله ما ذكر أو العذاب الموعود للكفرة خاصة أما الأول فلأنه يتصور من المؤمنين استعجال الساعة أو ما يعمها وغيرها من العذاب حتى يعمهم النهى عنه ، وأما الثانى فلأن استعجالهم له بطريق الحقيقة واستعجال الكفرة بطريق الاستهزاء كما عرفته فلا ينتظمهما صيغة واحدة ، والالتجاء إلى إرادة معنى مجازى يعمهما معا من غير أن يكون هناك رعاية نكتة سرية تعسف لا يليق بشأن التنزيل الجليل وما روى من أنه لما نزلت (اقتربت الساعة) قال الكفار فيما بينهم إن هذا يزعم أن القيامة قد قربت فأمسكوا عن بعض ما تعملون حتى ننظر ما هو كائن ، فلما تأخرت قالوا ما نرى شيئاً فنزلت (اقترب للناس حسابهم) فأشفقوا وانتظروا قربها فلما امتدت الأيام قالوا يا محمد ما نرى شيئاً مما تخوفنا به فنزلت (أتى أمر الله) فوثب رسول الله صلى الله عليه وسلم فرفع الناس رؤسهم فلما نزل (فلا تستعجلوه) اطمأنوا فليس فيه دلالة على عموم الخطاب كما قيل لا لما توهم من أن التصدير بالفاء يأباه ، فإنه بمعزل عن إبانه حسبما تحققته بل لأن مناط اطمئنانهم إنما هو وقوفهم على أن المراد بالإتيان هو الإتيان الادعائى لا الحقيق الموجب لاستحالة الاستعجال المستلزمة لامتناع النهى عنه لما أن النهى عن الشىء يقتضى إمكانه فى الجملة ومدار ذلك الوقوف إنما هو النهى عن الاستعجال المستلزم لإمكانه المقتضى لعدم وقوع المستعجل بعد ولا يختلف ذلك باختلاف المستعجل كائنا من كان بل فيه دلالة واضحة على عدم العموم لأن المراد بأمر الله إنما هو الساعة وقد عرفت استحالة صدور استعجالها عن المؤمنين نعم يجوز تخصيص الخطاب بهم على تقدير كون أمر الله عبارة عن العذاب الموعود للكفرة خاصة لكن الذى يقضى به الإعجاز التنزيلى أنه خاص بالكفرة كما ستقف عليه ولما كان استعجالهم ذلك من نتائج إشراكهم المستتبع لنسبة الله عز وجل إلى مالا يليق به من العجز والاحتياج إلى الغير واعتقاد أن أحداً يحجزه عن انجاز وعده وإمضاء وعيده وقد قالوا فى تضاعيفه إن صح مجىء العذاب فالأصنام تخلصنا عنه بشفاعتها رد ذلك فقيل بطريق الاستئناف ﴿ سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾ أى تنزه وتقدس بذاته وجل

عن إشراكهم المؤدى إلى صدور أمثال هذه الأباطيل عنهم أو عن أن يكون له شريك فيدفع ما أراد بهم بوجه من الوجوه وصيغة الاستقبال للدلالة على تجدد إشراكهم واستمراره والالتفات إلى الغيبة للإيذان باقتضاء ذكر قبائحهم للإعراض عنهم وطرحهم عن رتبة الخطاب وحكاية شنائعهم لغيرهم وعلى تقدير تخصيص الخطاب بالمؤمنين تفوت هذه النكتة كما يفوت ارتباط المنهى عنه وقرىء على صيغة الخطاب ،

﴿ ينزل الملائكة ﴾ بيان لتحتم التوحيد حسبما نبه عليه تنبيها إجماليا ببيان تقدس جناب الكبرياء وتعاليه عن أن يحوم حوله شائبة أن يشاركه شيء فى شيء وإيذان بأنه دين أجمع عليه جمهور الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وأمروا بدعوة الناس إليه مع الإشارة إلى سر البعثة والتشريع وكيفية إلقاء الوحى والتنبيه على طريق علم الرسول عليه الصلاة والسلام بإتيان ما أوعدهم به وباقترابه إزاحة لاستبعادهم اختصاصه عليه الصلاة والسلام بذلك وإظهارا لبطلان رأيهم فى الاستعجال والتكذيب وإيثار صيغة الاستقبال للإشعار بأن ذلك عادة مستمرة له سبحانه والمراد بالملائكة أما جبريل عليه السلام قال الواحدى يسمى الواحد بالجمع إذا كان رئيساً أو هو ومن معه من حفظة الوحى بأمر الله تعالى وقرىء ينزل من الإنزال وتنزل بحذف إحدى التاءين وعلى صيغة المبنى للمفعول من التنزيل ﴿ بالروح ﴾ أى بالوحى الذى من جملته القرآن على نهج الاستعارة فإنه يحيى القلوب الميتة بالجهل أو يقوم فى الدين مقام الروح فى الجسد والباء متعلقة بالفعل أو بما هو حال من مفعوله أى ملتبسين بالروح ﴿ من أمره ﴾ بيان للروح الذى أريد به الوحى فإنه أمر بالخير أو حال منه أى حال كونه ناشئا ومبتدأ منه أو صفة له على رأى من جوز حذف الموصول مع بعض صلته أى بالروح الكائن من أمره الناشىء منه أو متعلق بينزل ومن للسببية كالباء مثل ما فى قوله تعالى (مما خطيئاتهم) أى ينزلهم بأمره ﴿ على من يشاء من عباده ﴾ أن ينزلهم به عليهم لاختصاصهم بصفات تؤهلهم لذلك ﴿ أن

أنذروا ﴾ بدل من الروح أى ينزلهم ملتبسين بأن أنذروا أى بهذا القول والمخاطبون به الأنبياء الذين نزلت الملائكة عليهم والآمر هو الله سبحانه والملائكة نقلة للأمر كما يشعر به الباء فى المبدل منه وأن إما مخففة من أن وضمير الشأن الذى هو اسمها محذوف أى ينزلهم ملتبسين بأن الشأن أقول لكم أنذروا أو مفسرة على أن تنزيل الملائكة بالوحى فيه معنى القول كأنه قيل يقول بواسطة الملائكة لمن يشاء من عباده أنذروا فلا محل لها من الإعراب أو مصدرية لجواز كون صلتها إنشائية كما فى قوله تعالى (وأن أقم وجهك) حسبما ذكر فى أوائل سورة هود فمحلها الجر على البدلية أيضاً والإنذار الإعلام خلا أنه مختص بإعلام المحذور من نذر بالشىء إذا علمه فحذره وأنذره بالأمر إنذارا أى أعلمه وحذره وخوفه فى إبلاغه كذا فى القاموس أى أعلموا الناس .

﴿ أنه لا إله إلا أنا ﴾ فالضمير للشأن ومدار وضعه موضعه ادعاء شهرته المغنية عن التصريح به وفائدة تصدير الجملة به الإيذان من أول الأمر بفخامة مضمونها مع ما فيه من زيادة تقرير له[1] فى الذهن فإن الضمير لا يفهم منه ابتداء إلا شأن مبهم له خطر فيبقى الذهن مترقبا لما يعقبه فيتمكن لديه عند وروده فضل تمكن كأنه قيل أنذروا أن الشأن الخطير هذا وإنباء مضمونه عن المحذور ليس لذاته بل من حيث اتصاف المنذرين بما يضاده من الإشراك وذلك كاف فى كون إعلامه إنذارا وقوله سبحانه ﴿ فاتقون ﴾ خطاب للمستعجلين على طريقة الالتفات والفاء فصيحة أى إذا كان الأمر كما ذكر من جريان عادته تعالى بتنزيل الملائكة على الأنبياء عليهم السلام وأمرهم بأن ينذروا الناس أنه لا شريك له فى الألوهية فاتقون فى الإخلال بمضمونه ومباشرة ما ينافيه من الإشراك وفروعه التى من جملتها الاستعجال والاستهزاء وبعد تمهيد الدليل السمعى للتوحيد شرع فى تحرير الأدلة العقلية فقيل :

---

(١) فى ١٠ : التقرير له .

من دلائل توحيده تعالى

﴿ خلق السموات والأرض بالحق ﴾ أى أوجدهما على ما هما عليه من الوجه الفائق والنمط اللائق ﴿ تعالى ﴾ وتقدس بذاته لا سيما بأفعاله التى من جملتها إبداع هذين المخلوقين ﴿ عما يشركون ﴾ عن إشراكهم المعهود أو عن شركة ما يشركونه به من الباطل الذى لا يبدىء ولا يعيد وبعد ما نبه على صنعه الكلى المنطوى على تفاصيل مخلوقاته شرع فى تعداد ما فيه من خلائقه فبدأ بفعله المتعلق بالأنفس فقال ﴿ خلق الإنسان ﴾ أى هذا النوع غير الفرد الأول منه ﴿ من نطفة ﴾ جماد لا حس له ولا حراك سيال لا يحفظ شكلا ولا وضعا ﴿ فإذا هو ﴾ بعد الخلق ﴿ خصيم ﴾ منطيق مجادل عن نفسه مكافح للخصوم ﴿ مبين ﴾ لحجته لقن بها وهذا أنسب بمقام الامتنان بإعطاء القدرة على الاستدلال بذلك على قدرته تعالى ووحدته أو مخاصم لخالقه منكر له قائل من يحيى العظام وهى رميم وهذا أنسب بمقام تعداد هنات الكفرة روى أن أبى بن خلف الجمحى أتى النبى عليه السلام بعظم رميم فقال يا محمد أترى الله تعالى يحيى هذا بعد ما قد رم فنزلت ﴿ والأنعام ﴾ وهى الأزواج الثمانية من الإبل والبقر والضأن والمعز وانتصابها بمضمر يفسره قوله تعالى ﴿ خلقها ﴾ أو بالعطف على الإنسان وما بعده بيان ما خلق لأجله والذى بعده تفصيل لذلك وقوله تعالى ﴿ لكم ﴾ إما متعلق بخلقها وقوله ﴿ فيها ﴾ خبر مقدم وقوله ﴿ دفء ﴾ مبتدأ وهو ما يدفأ به فيقى من البرد والجملة حال من المفعول أو الظرف الأول خبر للمبتدأ المذكور وفيها حال من دفء إذ لو تأخر لكان صفة ﴿ ومنافع ﴾ هى درها وركوبها وحملها والحراثة بها[1] وغير ذلك وإنما عبر عنها بها ليتناول الكل مع أنه الأنسب بمقام الامتنان بالنعم وتقديم الدفء على المنافع لرعاية أسلوب الترقى إلى الأعلى ﴿ ومنها تأكلون ﴾ أى تأكلون ما يؤكل منها من

---

(١) فى ١٠ عليها

اللحوم والشحوم وغير ذلك وتغيير النظم للإيماء إلى أنها لا تبقى عند الأكل كما فى السابق واللاحق فإن الدفء والمنافع والجمال يحصل منها وهى باقية على حالها ولذلك جعلت محال لها بخلاف الأكل وتقديم الظرف للإيذان(١) بأن الأكل منها هو المعتاد المعتمد فى المعاش لأن الأكل مما عداها من الدجاج والبط وصيد البر والبحر من قبيل التفكه مع أن فيه مراعاة للفواصل ويحتمل أن يكون معنى الأكل منها أكل ما يحصل بسببها فإن الحبوب والثمار المأكولة تكتسب بإكراء الإبل وبأثمار نتاجها وألبانها وجلودها .

﴿ ولكم فيها ﴾ مع ما فصل من أنواع المنافع الضرورية ﴿ جمال ﴾ أى زينة فى أعين الناس ووجاهة عندهم ﴿ حين تريحون ﴾ تردونها من مراعيها إلى مراحها بالعشى ﴿ وحين تسرحون ﴾ تخرجونها بالغداة من حظائرها إلى مسارحها فالمفعول محذوف من كلا الفعلين لرعاية الفواصل وتعيين الوقتين لأن مايدور عليه أمر الجمال من تزين الأفنية والأكناف بها وبتجاوب ثغائها ورغائها إنما هو عند ورودها وخطورها فى ذينك الوقتين وأما عند كونها فى المراعى فينقطع إضافتها الحسية إلى أربابها وعند كونها فى الحظائر لايراها راء ولاينظر إليها ناظر وتقديم الإراحة على السرح لتقدم الورود على الصدور ولكونها أظهر منه فى استتباع ما ذكر من الجمال وأتم فى استجلاب الأنس والبهجة إذ فيها حضور بعد غيبة وإقبال بعد إدبار على أحسن ما يكون ملأى البطون مرتفعة الضلوع حافلة الضروع ، وقرىء حينا تريحون وحينا تسرحون على أن كلا الفعلين وصف لحينا بمعنى تريحون فيه وتسرحون فيه ﴿ وتحمل أثقالكم ﴾ جمع ثقل وهو متاع المسافر وقيل أثقالكم أجرامكم ﴿ إلى بلد ﴾ قال ابن عباس رضى الله عنهما أريد به اليمن ومصر والشام ولعله نظر إلى أنها متاجر أهل مكة وقال عكرمه أريد به مكة ولعله نظر إلى أن أثقالهم وأحمالهم عند القفول

(٢) فى ٩٠ : للاشعار .

من متاجرهم أكثر ، وحاجتهم إلى الحمولة أمس والظاهر أنه عام لكل بلد سحيق ﴿ لم تكونوا بالغيه ﴾ واصلين إليه بأنفسكم مجردين عن الأثقال لولا الإبل ﴿ إلا بشق الأنفس ﴾ فضلا عن استصحابها معكم وقرىء بفتح الشين وهما لغتان بمعنى الكلفة والمشقة وقيل المفتوح مصدر من شق الأمر عليه شقا وحقيقته راجعة إلى الشق الذي هو الصدع والمكسور النصف كأنه يذهب نصف القوة لما يناله من الجهد فالإضافة إلى الأنفس مجازية أو على تقدير مضاف أى إلا بشق قوى الأنفس وهو استثناء مفرغ من أعم الأشياء أى لم تكونوا بالغيه بشىء من الأشياء إلا بشق الأنفس ولعل تغيير النظم الكريم السابق الدال على كون الأنعام مدارا للنعم السابقة إلى الجملة الفعلية المفيدة لمجرد الحدوث للإشعار بأن هذه النعمة ليست فى العموم بحسب المنشأ وبحسب المتعلق وفى الشمول للأوقات والاطراد فى الأحيان المعهودة بمثابة النعم السالفة فإنها بحسب المنشأ وخاصة بالإبل وبحسب المتعلق بالضاربين فى الأرض المتقلبين فيها للتجارة وغيرها فى أحايين غير مطردة وأما سائر النعم المعدودة فموجودة فى جميع أصناف الأنعام وعامة لكافة المخاطبين دائما أو فى عامة الأوقات ﴿ إن ربكم لرؤف رحيم ﴾ ولذلك أسبغ عليكم هذه النعم الجليلة ويسر لكم الأمور الشاقة .

﴿ والخيل ﴾ هو اسم جنس للفرس لا واحد له من لفظه كالإبل وهو عطف على الأنعام أى خلق الخيل ﴿ والبغال والحمير لتركبوها ﴾ تعليل بمعظم منافعها وإلا فالانتفاع بها بالحمل أيضا مما لا ريب فى تحققه ﴿ وزينة ﴾ عطف على محل لتركبوها وتجريده عن اللام لكونه فعلا لفاعل الفعل المعلل دون الأول وتأخيره لكون الركوب أهم منه أو مصدر لفعل محذوف أى وتتزينوا بها زينة وقرىء بغير واو أى خلقها زينة لتركبوها ويجوز أن يكون مصدرا واقعا موقع الحال من فاعل تركبوها أو مفعوله أى متزينين بها ﴿ ويخلق ما لا تعلمون ﴾ أى يخلق فى الدنيا غير ما عدد من أصناف النعم فيكم ولكم ما لا تعلمون كنهه وكيفية خلقه فالعدول إلى صيغة الاستقبال للدلالة على الاستمرار والتجدد أو لاستحضار

الصورة أو يخلق لكم فى الجنة غير ما ذكر من النعم الدنيوية ما لا تعلمون أى ما ليس من شأنكم أن تعلموه وهو ما أشير إليه بقوله عليه الصلاة والسلام حكاية عن الله تعالى « أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر » ويجوز أن يكون هذا إخباراً بأنه سبحانه يخلق من الخلائق ما لا علم لنا به دلالة على قدرته الباهرة الموجبة للتوحيد كنعمته الباطنة والظاهرة .

عن ابن عباس رضى الله عنهما أن عن يمين العرش نهرا من نور مثل السموات السبع والأرضين السبع والبحار السبعة يدخل فيه جبريل عليه السلام كل سحر فيغتسل فيزداد نورا إلى نور وجمالا إلى جمال وعظما إلى عظم ثم ينتفض فيخلق الله تعالى من كل قطرة تقع من ريشه كذا وكذا ألف ملك فيدخل منهم كل يوم سبعون ألف ملك البيت المعمور وسبعون ألف ملك الكعبة لا يعودون إليه إلا يوم القيامة.

﴿ وعلى الله قصد السبيل ﴾ القصد مصدر بمعنى الفاعل يقال سبيل قصد وقاصد أى مستقيم على طريقة الاستعارة أو على نهج إسناد حال سالكه إليه كأنه يقصد الوجه الذى يؤمه السالك لا يعدل عنه أى حق عليه سبحانه وتعالى بموجب رحمته ووعده المحتوم بيان الطريق المستقيم الموصل لمن يسلكه إلى الحق الذى هو التوحيد بنصب الأدلة وإرسال الرسل وإنزال الكتب لدعوة الناس إليه أو مصدر بمعنى الإقامة والتعديل (كذا)[1] قاله أبو البقاء أى عليه عز وجل تقويمها وتعديلها أى جعلها بحيث يصل سالكها إلى الحق لكن لا بعد ما كانت فى نفسها منحرفة عنه بل إبداعها ابتداء كذلك على نهج قوله سبحان من صغر البعوض وكبر الفيل وحقيقته راجعة إلى ما ذكر من نصب الأدلة وقد فعل ذلك حيث أبدع هذه البدائع التى كل واحد منها لاحب يهتدى بمناره وعلم

(١) سقطت من ط .

يستضاء بناره وأرسل رسلا مبشرين ومنذرين وأنزل عليهم كتبا من جملتها هذا الوحى الناطق بحقيقة الحق الفاحص عن كل ما جل من الأسرار ودق الهادى إلى سبيل الاستدلال بتلك الأدلة المفضية إلى معالم الهدى المنجية عن فيافى الضلالة ومهاوى الردى ألا يرى كيف بين أو لا تنزه جناب الكبرياء وتعاليه بحسب الذات عن أن يحوم حوله شائبة توهم الإشراك ثم أوضح سر إلقاء الوحى على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وكيفية أمرهم بإنذار الناس ودعوتهم إلى التوحيد ونهيهم عن الإشراك ثم كر على بيان تعاليه عن ذلك بحسب الأفعال مرشداً إلى طريقة الاستدلال فبدأ بفعله المتعلق بمحيط العالم الجسمانى ومركزه بقوله تعالى (خلق السموات والأرض بالحق تعالى عما يشركون) ثم فصل أفعاله المتعلقة بما بينهما فبدأ بفعله المتعلق بأنفس المخاطبين ثم ذكر ما يتعلق بما لابد لهم منه فى معايشهم ثم بين قدرته على خلق مالا يحيط به علم البشر بقوله (ويخلق مالا تعلمون) وكل ذلك كما ترى بيان لسبيل التوحيد غب بيان وتعديل له أيما تعديل فالمراد بالسبيل على الأول الجنس بدليل إضافة القصد إليه وقوله تعالى:

﴿ ومنها ﴾ فى محل الرفع على الابتداء إما باعتبار مضمونه وإما بتقدير الموصوف كما فى قوله تعالى (ومنا دون ذلك) وقد مر فى قوله تعالى (ومن الناس من يقول آمنا بالله واليوم الآخر) الخ أى بعض السبيل أو بعض من السبيل فإنها تؤنث وتذكر ﴿ جائر ﴾ أى مائل عن الحق منحرف عنه لا يوصل سالكه إليه وهو طرق الضلال التى لا يكاد يحصى عددها المندرج كلها تحت الجائر وعلى الثانى فمن السبيل المستقيم والضمير فى منها راجع إليها بتقدير المضاف أى ومن جنسها لما عرفت من أن تعديل السبيل وتقويمه إبداعه ابتداء على وجه الاستقامة والعدالة لا تقويمه بعد انحرافه وأياما كان فليس فى النظم الكريم تغيير الأسلوب رعاية لأمر مطلوب كما قيل فإن ذلك إنما يكون فيما اقتضى الظاهر سبكا معينا ولكن يعدل عن ذلك لنكتة أهم منه كما فى قوله سبحانه (الذى يطعمنى ويسقين وإذا مرضت فهو يشفين) فإن مقتضى الظاهر

أن يقال والذى يسقمنى ويشفين ولكن غير إلى ما عليه النظم الكريم تفاديا عن إسناد ما تكرهه النفس إليه سبحانه وليس المراد ببيان قصد السبيل مجرد إعلام أنه مستقيم حتى يصح إسناد أنه جائر إليه تعالى فيحتاج إلى الاعتذار عن عدم ذلك على أنه لو أريد ذلك لم يوجد لتغيير الأسلوب نكتة وقد بين ذلك فى مواضع غير معدودة بل المراد ملجئ من نصب الأدلة لهداية الناس إليه ولا إمكان لإسناد مثله إليه تعالى بالنسبة إلى الطريق الجائر بأن يقال وجائرها حتى يصرف ذلك الإسناد منه تعالى غيره لنكتة تستدعيه ولا يتوهمه متوهم حتى يقتضى الحال دفع ذلك بأن يقال لا جائرها ثم يغير سبك النظم عن ذلك الداعية أقوى منه بل الجملة الظرفية اعتراضية جىء بها لبيان الحاجة إلى البيان والتعديل وإظهار جلالة قدر النعمة فى ذلك والمعنى على الله تعالى بيان الطريق المستقيم الموصل إلى الحق وتعديله بما ذكر من نصب الأدلة ليسلكه الناس باختيارهم ويصلوا إلى المقصد وهذا هو الهداية المفسرة بالدلالة على ما يوصل إلى المطلوب لا الهداية المستلزمة للاهتداء البتة فإن ذلك مما ليس بحق على الله تعالى لا بحسب ذاته ولا بحسب رحمته بل هو مخل بحكمته حيث يستدعى تسوية المحسن والمسيء والمطيع والعاصى بحسب الاستعداد وإليه أشير بقوله تعالى :

﴿ ولو شاء لهداكم أجمعين ﴾ أى لو شاء أن يهديكم إلى ماذكر من التوحيد هداية موصلة إليه البتة مستلزمة لاهتدائكم أجمعين لفعل ذلك ولكن لم يشأه لأن مشيئته تابعة للحكمة الداعية إليها ولا حكمة فى تلك المشيئة لما أن الذى عليه يدور فلك التكليف وإليه ينسحب الثواب والعقاب إنما هو الاختيار الجزئى الذى عليه يترتب الأعمال التى بها نيط الجزاء هذا هو الذى يقتضيه المقام ويستدعيه حسن الانتظام وقد فسر كون قصد السبيل عليه تعالى بانتهائه إليه على نهج الاستقامة وإيثار حرف الاستعلاء على أداة الانتهاء لتأكيد الاستقامة

---

(٦) فى ١٠ : ولكنه غير .

وإيثار حرف الإستعلاء على أداة الانتهاء لتأكيد الاستقامة على وجه تمثيلي من غير أن يكون هناك استعلاء لشيء عليه سبحانه وتعالى عنه علوا كبيرا كما في قوله تعالى (هذا صراط على مستقيم) فالقصد مصدر بمعنى الفاعل والمراد بالسبيل الجنس كامر وقوله تعالى (ومنها جائر) معطوف على الجملة الأولى والمعنى أن قصد السبيل واصل إليه تعالى بالاستقامة وبعضها منحرف عنه ولو شاء لهداكم جميعا إلى الأول وأنت خبير بأن هذا حق فى نفسه ولكنه بمعزل عن نكتة موجبة لتوسيطه بين ما سبق من أدلة التوحيد وبين ما لحق. ولما بين الطريق السمعي للتوحيد على وجه إجمالي وفصل بعض أدلته المتعلقة بأحوال الحيوانات وعقب ذلك ببيان السر الداعي إليه بعثا للمخاطبين على التأمل فيما سبق وحثا على حسن التلقي لما لحق أتبع ذلك ذكر ما يدل عليه من أحوال النبات فقيل :

﴿ هو الذى أنزل ﴾ بقدرته القاهرة ﴿ من السماء ﴾ أي من السحاب أو من جانب السماء ﴿ ماء ﴾ أى نوعا منه وهو المطر وتأخيره عن المجرور لما مر مرارا من أن المقصود هو الإخبار بأنه أنزل من السماء شيئا هو الماء لا أنه أنزله من السماء والسر فيه ما سلف من أن عند تأخير ما حقه التقديم يبقى الذهن مترقبا له مشتاقا إليه فيتمكن لديه عند وروده عليه فضل تمكن ﴿ لكم منه شراب ﴾ أى ما تشربونه وهو إما مرتفع بالظرف الأول أو مبتدأ وهو خبره والجملة صفة لماء والظرف الثاني نصب على الحالية من شراب ومن تبعيضية وليس فى تقديمه إيهام حصر المشروب فيه حتى يفتقر إلى الاعتذار بأنه لا بأس به لأن مياه العيون والآبار منه لقوله تعالى (فسلكه ينابيع فى الأرض) وقوله تعالى (فأسكنّاه فى الأرض) وقيل الظرف الأول متعلق بأنزل والثاني خبر لشراب والجملة صفة لماء وأنت خبير بأن ما فيه من توسيط المنصوب بين المجرورين وتوسيط الثاني منهما بين الماء وصفته مما لا يليق بجزالة نظم التنزيل الجليل ﴿ ومنه شجر ﴾ من ابتدائية أى ومنه يحصل شجر ترعاه المواشي والمراد به

ما ينبت من الأرض سواء كان له ساق أو لا أو تبعيضية مجازا لأنه لما كان سقيه من الماء جعل كأنه كقوله :

* أسنمة الآبال فى ربابه *

يعنى به المطر الذى ينبت به الكلأ الذى تأكله الإبل فتسمن أسنمتها وفى حديث عكرمة لا تأكلوا ثمن الشجر فإنه سحت يعنى الكلأ ﴿ فيه تسيمون ﴾ ترعون من سامت الماشية وأسامها صاحبها وأصلها السومة وهى العلامة لأنها تؤثر بالرعى علامات فى الأرض .

﴿ ينبت ﴾ أى الله عز وجل وقرىء بالنون ﴿ لكم به ﴾ بما أنزل من السماء ﴿ الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ﴾ بيان للنعم الفائضة عليهم من الأرض بطريق الاستئناف وإيثار صيغة الاستقبال للدلالة على التجدد والاستمرار وأنها سنته الجارية على مر الدهور أو لاستحضار صورة الإنبات وتقديم الظرفين على المفعول الصريح لما مر آنفا مع ما فى تقديم أولهما من الاهتمام به لإدخال المسرة ابتداء وتقديم الزرع على ماعداه لأنه أصل الأغذية وعمود المعاش وتقديم الزيتون لما فيه من الشرف من حيث إنه إدام من وجه وفاكهة من وجه ، وتقديم النخيل على الأعناب لظهور أصالتها وبقائها ، وجمع الأعناب للإشارة إلى ما فيها من الاشتمال على الأصناف المختلفة وتخصيص الأنواع المعدودة بالذكر مع اندراجها تحت قوله تعالى ﴿ ومن كل الثمرات ﴾ للإشعار بفضلها وتقديم الشجر عليها مع كونه غذاء للأنعام لحصوله بغير صنع من البشر أو للإرشاد إلى مكارم الأخلاق فإن مقتضاها أن يكون اهتمام الإنسان بأمر ما تحت يده أكمل من اهتمامه بأمر نفسه أو لأن أكثر المخاطبين من أصحاب المواشى ليس لهم زرع ولا ثمر ، وقيل المراد تقديم ما يسام لا تقديم غذائه فإنه غذاء حيوانى للإنسان وهو أشرف الأغذية . وقرىء ينبت من الثلاثى مسندا إلى الزرع وما عطف عليه .

﴿ إن فى ذلك ﴾ أى فى إنزال الماء وإنبات ما فصل ﴿ لآية ﴾ عظيمة دالة على تفرده تعالى بالألوهية لاشتماله على كمال العلم والقدرة والحكمة ﴿ لقوم يتفكرون ﴾ فإن من تفكر فى أن الحبة أو النواة تقع فى الأرض وتصل إليها نداوة تنفذ فيها فينشق أسفلها فيخرج منه عروق تنبسط فى أعماق الأرض وينشق أعلاها وإن كانت منتكسة فى الوقوع ويخرج منه ساق فينمو ويخرج منه الأوراق والأزهار والحبوب والثمار المشتملة على أجسام مختلفة الأشكال والألوان والخواص والطبائع ، وعلى نواة قابلة لتوليد الأمثال على النمط المحرر لا إلى نهاية مع اتحاد المؤاد واستواء نسبة الطبائع السفلية والتأثيرات العلوية بالنسبة إلى الكل علم أن من هذه أفعاله وآثاره لا يمكن أن يشبهه شىء فى شىء من صفات الكمال[1] فضلا عن أن يشاركه أخس الأشياء فى أخص صفاته التى هى الألوهية واستحقاق العبادة تعالى عن ذلك علوا كبيرا وحيث افتقر سلوك هذه الطريقة إلى ترتيب المقدمات الفكرية قطع الآية الكريمة بالتفكر .

﴿ وسخر لكم الليل والنهار ﴾ يتعاقبان خلفة لمنامكم ومعاشكم ولعقد الثمار وإنضاجها ﴿ والشمس والقمر ﴾ يدأبان فى سيرهما وإنارتهما أصالة وخلافة وإصلاحهما لما نيط بهما صلاحه من المكونات التى من جملتها ما فصل وأجمل كل ذلك لمصالحكم ومنافعكم وليس المراد بتسخيرها لهم تمكينهم من تصرفها كيف شاءوا كما فى قوله تعالى (سبحان الذى سخر لنا هذا) ونظائره بل هو تصريفه تعالى لها حسبما يترتب عليه منافعهم ومصالحهم كان ذلك تسخير لهم وتصرف من قبلهم حسب إرادتهم وفى التعبير عن ذلك التصريف بالتسخير إيماء إلى ما فى المسخرات من صعوبة المأخذ بالنسبة إلى المخاطبين وإيثار صيغة الماضى للدلالة على أن ذلك أمر واحد مستمر وإن تجددت آثاره .

---

(١) فى ٢٢ : صفاته الكاملة .

﴿ والنجوم مسخرات بأمره ﴾ مبتدأ وخبر أى سائر النجوم فى حركاتها وأوضاعها من التثليث والتربيع ونحوهما مسخرات لله تعالى أو لما خلقن له بإرادته ومشيئته وحيث لم يكن عود منافع النجوم إليهم فى الظهور بمثابة ماقبلها من الملوين والقمرين لم ينسب تسخيرها إليهم بأداة الاختصاص بل ذكر على وجه يفيد كونها تحت ملكوته تعالى من غير دلالة على شىء آخر ولذلك عدل عن الجملة الفعلية الدالة على الحدوث إلى الاسمية المفيدة للدوام والاستمرار .

وقرىء برفع الشمس والقمر أيضا وقرىء بنصب النجوم على أنه مفعول أول لفعل مقدر ينبىء عنه الفعل المذكور ومسخرات حال من الكل والعامل مافى سخر من معنى نفع أى نفعكم بها حال كونها مسخرات لله الذى خلقها ودبرها كيف شاء أو لما خلقن له بإيجاده وتقديره أو لحكمه أو مصدر ميمى جمع لاختلاف الأنواع أى أنواعا من التسخير وما قيل من أن فيه إيذانا بالجواب عما عسى يقال أن المؤثر فى تكوين النبات حركات الكواكب وأوضاعها بأن ذلك إن سلم فلا ريب فى أنها أيضا أمور ممكنة الذات والصفات واقعة على بعض الوجوه الممكنة فلا بد لها من موجد مخصص مختار واجب الوجود دفعا للدور والتسلسل فبناء حسبان ما ذكر أدلة على وجود الصانع تعالى وقدرته واختياره وأنت تدرى أن ليس الأمر كذلك فإنه ليس مما ينازع فيه الخصم ولا يتلعثم فى قبوله قال تعالى (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله فأنى يؤفكون) وقال تعالى (ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيى به الأرض من بعد موتها ليقولن الله) الآية وإنما ذلك أدلة التوحيد من حيث أن من هذا شأنه لا يتوهم أن يشاركه شىء فى شىء فضلا عن أن يشاركه الجماد فى الألوهية .

﴿ إن فى ذلك ﴾ أى فيما ذكر من التسخير المتعلق بما ذكر مجملا ومفصلا ﴿ لآيات ﴾ باهرة متكاثرة ﴿ لقوم يعقلون ﴾ وحيث كانت هذه الآثار العلوية متعددة ودلالة ما فيها من عظيم القدرة والعلم والحكمة على الوحدانية

أظهر جمع الآيات وعلقت بمجرد العقل من غير حاجة إلى التأمل ، والتفكر ، ويجوز أن يكون المراد لقوم يعقلون ذلك ، فالمشار إليه حينئذ تعاجيب[1] الدقائق المودعة فى العلويات المدلول عليها بالتسخير التى لا يتصدى لمعرفتها إلا المهرة من أساطين علماء الحكمة ولا ريب فى أن احتياجها إلى التفكر أكثر ﴿ وماذرأ ﴾ عطف على قوله تعالى والنجوم رفعا ونصبا على أنه مفعول لجعل أى وما خلق ﴿ لكم فى الأرض ﴾ من حيوان ونبات حال كونه ﴿ مختلفا ألوانه ﴾ أى أصنافه فإن اختلافها غالبا يكون باختلاف اللون مسخر لله تعالى أو لما خلق له من الخواص والأحوال والكيفيات أو جعل ذلك مختلف الألوان أى الأصناف لتتمتعوا من ذلك بأى صنف شئتم وقد عطف على ماقبله من المنصوبات وعقب بأن ذكر الخلق لهم مغن عن ذكر التسخير واعتذر بأن الأول يستلزم الثانى لزوما عقليا لجواز كون ما خلق لهم عزيز المرام صعب المنال ، وقيل هو منصوب بفعل مقدر أى خلق وأنبت على أن قوله مختلفا ألوانه حال من مفعوله ﴿ إن فى ذلك ﴾ الذى ذكر من التسخيرات ونحوها .

﴿ لآية ﴾ بينة الدلالة على أن من هذا شأنه واحد لا ندله ولا ضد ﴿ لقوم يذكرون ﴾ فإن ذلك غير محتاج إلا إلى تذكر ما عسى يغفل عنه من العلوم الضرورية وأما ما يقال من أن اختلافها فى الطباع والهيآت والمناظر ليس إلا بصنع صانع حكيم فمداره مالوحنا به من حسبان ما ذكر دليلا على إثبات الصانع تعالى وقد عرفت حقيقة الحال فإن إيراد ما يدل على اتصافه سبحانه بما ذكر من صفات الكمال ليس بطريق الاستدلال عليه بل من حيث أن ذلك من المقدمات المسلمة جيء به للاستدلال به على ما يقتضيه ضرورة من وحدانيته تعالى واستحالة أن يشاركه شيء فى الألوهية .

﴿ وهو الذى سخر البحر ﴾ شروع فى تعداد النعم المتعلقة بالبحر إثر

(١) فى ٢ : أعاجيب

تفصيل النعم المتعلقة بالبر حيوانا ونباتا أى جعله بحيث تتمكنون من الانتفاع به للركوب والغوص والاصطياد ﴿ لتأكلوا منه لحما طريا ﴾ هو السمك والتعبير عنه باللحم مع كونه حيوانا للتلويح بانحصار الانتفاع به فى الأكل ووصفه بالطراوة للإشعار بلطافته والتنبيه على وجوب المسارعة إلى أكله كيلا يتسارع إليه الفساد كما ينبئ عنه جعل البحر مبتدأ أكله وللإيذان بكمال قدرته تعالى فى خلقه عذبا طريا فى ماء زعاق ، ومن إطلاق اللحم عليه ذهب مالك والثورى أن من حلف لا يأكل اللحم حنث بأكله ، والجواب أن مبنى الإيمان العرف ولا ريب فى أنه لا يفهم من اللحم عند الإطلاق ولذلك لو أمر خادمه بشراء اللحم فجاء بالسمك لم يكن ممتثلا بالأمر ألا يرى إلى أن الله تعالى سمى الكافر دابة حيث قال (إن شر الدواب عند الله الذين كفروا) ولا يحنث بركوبه من حلف لا يركب دابة ﴿ وتستخرجوا منه حلية ﴾ كاللؤلؤ والمرجان ﴿ تلبسونها ﴾ عبر فى مقام الامتنان عن لبس نسائهم بلبسهم لكونهن منهم أو لكون لبسهن لأجلهم ﴿ وترى الفلك ﴾ السفن ﴿ مواخر فيه ﴾ جوارى فيه مقبلة ومدبرة ومعترضة بريح واحدة تشقه بحيزومها من المخر وهو شق الماء وقيل هو صوت جرى الفلك ﴿ ولتبتغوا ﴾ عطف على تستخرجوا وما عطف هو عليه وما بينهما اعتراض لتمهيد مبادي الابتغاء ودفع توهم كونه باستخراج الحلية أو على علة محذوفة أي لتنتفعوا بذلك ولتبتغوا ذكره ابن الأنبارى أو متعلقة بفعل محذوف أى وفعل ذلك لتبتغوا ﴿ من فضله ﴾ من سعة رزقه بركوبها للتجارة ﴿ ولعلكم تشكرون ﴾ أى تعرفون حقوق نعمه الجليلة فتقومون بأدائها بالطاعة والتوحيد ولعل تخصيص هذه النعمة بالتعقيب بالشكر من حيث أن فيها قطعا لمسافة طويلة مع أحمال ثقيلة فى مدة قليلة من غير مزاولة أسباب السفر بل من غير حركة أصلا مع أنها فى تضاعيف المهالك وعدم توسيط الفوز بالمطلوب بين الابتغاء والشكر للإيذان باستغنائه عن التصريح به وبحصولهما معا .

﴿ وألقى فى الأرض رواسى ﴾ أى جبالا ثوابت وقد مر تحقيقه فى أول

سورة الرعد ﴿ أن تميد بكم ﴾ كراهة أن تميل بكم وتضطرب أو لئلا تميد بكم فإن الأرض قبل أن تخلق فيها الجبال كانت كرة خفيفة بسيطة الطبع وكان من حقها أن تتحرك بالاستدارة كالأفلاك أو تتحرك بأدنى سبب محرك فلما خلقت الجبال تفاوتت جوانبها وتوجهت الجبال بثقلها نحو المركز فصارت كالأوتاد ، وقيل لما خلق الله تعالى الأرض جعلت تمور فقالت الملائكة ما هي بمقر أحد على ظهرها فأصبحت وقد أرسيت بالجبال ﴿ وأنهارا ﴾ أي وجعل فيها أنهارا لأن في ألقى معنى الجعل ﴿ وسبلا لعلكم تهتدون ﴾ بها إلى مقاصدكم ﴿ وعلامات ﴾ معالم يستدل بها السابلة بالنهار من جبل وسهل وريح وقد نقل أن جماعة يشمون التراب ويتعرفون به الطرقات ﴿ وبالنجم هم يهتدون ﴾ بالليل في البراري والبحار حيث لا علامة غيره والمراد بالنجم الجنس وقيل هو الثريا والفرقدان وبنات النعش[1] والجدي وقرىء بضمتين وبضمة وسكون وهو جمع كرهن ورهن وقيل الأول بطريق حذف الواو من النجوم للتخفيف ولعل الضمير لقريش فإنهم كانوا كثيري التردد للتجارة مشهورين بالاهتداء بالنجوم في أسفارهم وصرف النظم عن سنن الخطاب وتقديم النجم وإقحام الضمير للتخصيص كأنه قيل وبالنجم خصوصا هؤلاء خصوصا يهتدون فالاعتبار بذلك والشكر عليه ألزم لهم وأوجب عليهم .

﴿ أفمن يخلق ﴾ هذه المصنوعات العظيمة ويفعل هاتيك الأفاعيل البديعة أو يخلق كل شيء ﴿ كمن لا يخلق ﴾ شيئا أصلا وهو تبكيت للكفرة وإبطال لإشراكهم وعبادتهم للأصنام بإنكار ما يستلزمه ذلك من المشابهة بينها وبينه سبحانه وتعالى بعد تعداد ما يقتضي ذلك اقتضاء ظاهرا وتعقيب الهمزة بالفاء لتوجيه الإنكار إلى توهم المشابهة المذكورة على ما فصل من الأمور العظيمة الظاهرة الاختصاص به تعالى المعلومة كذلك فيما بينهم حسبما يؤذن به ما تلوناه من قوله تعالى : (ولئن سألتهم) الآيتين والاقتصار على ذكر الخلق من بينها

---

(١) في ٢٠ : وبنات نعش

لكونه أعظمها وأظهرها واستتباعه إياها أو لكون كل منها خلقا مخصوصة أي أبعد ظهور اختصاصه تعالى بمبدئية هذه الشئون الواضحة الدلالة على وحدانيته تعالى وتفرده بالألوهية واستبدادها باستحقاق العبادة يتصور المشابهة وبينه وبين ما هو بمعزل من ذلك بالمرة كما هو قضية إشراككم ومدارها وإن كان على نسبة تقوم بالمنتسبين اختيرها عليه النظم الكريم مراعاة لحق سبق الملكة على العدم وتفاديا عن توسيط عبدتها بينها وبين جزئياتها المفصلة قبلها وتنبيها على كمال قبح ما فعلوه من حيث أن ذلك ليس مجرد رفع الأصنام عن محلها بل هو حط المنزلة الربوبية إلى مرتبة الجمادات ولا ريب في أنه أقبح من الأول والمراد بمن لا يخلق كل ما هذا شأنه كائنا ما كان والتعبير عنه بما يختص بالعقلاء للمشاكلة أو العقلاء خاصة ويعرف منه حال غيرهم لدلالة النص فإن من يخلق حيث لم يكن كمن لا يخلق وهو من جملة العقلاء فما ظنك بالجماد وأياما كان فدخول الأصنام في حكم عدم المماثلة والمشابهة إما بطريق الاندراج تحته الموصول العام وإما بطريق الإنفهام بدلالة النص على الطريقة البرهانية لا بأنها هي المرادة بالموصول خاصة ﴿أفلا تذكرون﴾ أي ألا تلاحظون فلا تتذكرون ذلك فإنه لوضوحه بحيث لا يفتقر إلى شيء سوى التذكر .

﴿وإن تعدوا نعمة الله﴾ تذكير إجمالي لنعمه تعالى بعد تعداد طائفة منها وكان الظاهر إيراده عقيبها تكملة لها على طريقة قوله تعالى : ﴿ويخلق ما لا تعلمون﴾ ولعل فصل ما بينهما بقوله تعالى ﴿أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون﴾ للمبادرة إلى إلزام الحجة وإلقام الحجر إثر تفصيل ما فصل من الأفاعيل التي هي أدلة الوحدانية مع ما فيه من سر ستقف عليه (إن شاء الله)(١) ودلالتها عليها وإن لم تكن مقصورة على حيثية الخلق ضرورة ظهور دلالتها عليها من حيثية الإنعام أيضاً لكنها حيث كانت مستتبعات الحيثية الأولى استغنى عن التصريح بها ثم بين حالها بطريق الإجمال أي إن تعدوا نعمته الفائضة عليكم مما ذكر وما لم يذكر

---

(١) سقطت من ط .

حسبما يعرب عنه قوله تعالى (هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعا) ﴿لا تحصوها﴾ أي لا تطيقوا حصرها وضبط عددها ولو إجمالا فضلا عن القيام بشكرها وقد خرجنا عن عهدة تحقيقه في سورة إبراهيم بفضل الله سبحانه ﴿إن الله لغفور﴾ حيث يستر ما فرط منكم من كفرانها والإخلال بالقيام بحقوقها ولا يعاجلكم بالعقوبة على ذلك ﴿رحيم﴾ حيث يفيضها عليكم مع استحقاقكم للقطع والحرمان بما تأتون وتذرون من أصناف الكفر التي من جملتها عدم الفرق بين الخالق وغيره وكل من ذلك نعمة وأيما نعمة فالجملة تعليل للحكم بعدم الإحصاء وتقديم وصف المغفرة على نعت الرحمة لتقدم التخلية على التحلية .

﴿والله يعلم ما تسرون﴾ تضمرونه من العقائد والأعمال ﴿وما تعلنون﴾ أي تظهرونه منهما وحذف العائد لمراعاة الفواصل أي يستوي بالنسبة إلى علمه المحيط سركم وعلنكم وفيه من الوعيد والدلالة على اختصاصه سبحانه بنعوت الإلهية ما لا يخفى وتقديم السر على العلن لما ذكرناه في سورة البقرة وسورة هود من تحقيق المساواة بين علميه المتعلقين بهما على أبلغ وجه كان علمه تعالى بالسر أقدم منه بالعلن أو لأن كل شيء يعلن فهو قبل ذلك مضمر في القلب فتعلق علمه تعالى بحالته الأولى أقدم من تعلقه بحالته الثانية ﴿والذين يدعون﴾ شروع في تحقيق كون الأصنام بمعزل من استحقاق العبادة وتوضيحه بحيث لا يبقى فيه شائبة ريب بتعديد أوصافها وأحوالها المنافية لذلك منافاة ظاهرة وتلك الأحوال وإن كانت غنية عن البيان لكنها شرحت للتنبيه على كمال حماقة عبدتها وأنهم لا يعرفون ذلك إلا بالتصريح أي والآلهة الذين يعبدهم الكفار ﴿من دون الله﴾ سبحانه وقرئ على صيغة المبني للمفعول وعلى الخطاب ﴿لا يخلقون شيئا﴾ من الأشياء أصلا أي ليس من شأنهم ذلك ولما لم يكن بين نفي الخالقية وبين المخلوقية تلازم بحسب المفهوم وإن تلازما في الصدق أثبت لهم ذلك صريحا فقيل ﴿وهم يخلقون﴾ أي شأنهم ومقتضى ذاتهم المخلوقية لأنها ذوات ممكنة مفتقرة في ماهياتها ووجوداتها إلى الموجد وبناء الفعل للمفعول لتحقيق التضاد والمقابلة بين ما أثبت لهم وبين ما نفي عنهم من وصفي المخلوقية

والخالقية وللإيذان بعدم الافتقار إلى بيان الفاعل لظهور اختصاص الفعل بفاعله جل جلاله ، ويجوز أن يجعل الخلق الثانى عبارة عن النحت والتصوير رعاية للمشاكلة بينه وبين الأول ومبالغة فى كونهم مصنوعين لعبدتهم وأعجز عنهم وإيذانا بكمال ركاكة عقولهم حيث أشركوا بخالقهم مخلوقهم وأما جعل الأول أيضاً عبارة عن ذلك كما فعل فلا وجه له ، إذ القدرة على مثل ذلك الخلق ليست مما يدور عليه استحقاق العبادة أصلا ، ولما أن إثبات المخلوقية لهم غير مستدع لنفى الحياة عنهم لما أن بعض المخلوقين أحياء صرح بذلك فقيل ﴿ أموات ﴾ وهو خبر ثان للموصول لا للضمير كما قيل أو خبر مبتدأ محذوف وحيث كان بعض الأموات مما يعتريه الحياة سابقا أو لاحقا كأجساد الحيوان والنطف متى ينشئها الله تعالى حيوانا احترز عن ذلك فقيل ﴿ غير أحياء ﴾ أى لا يعتريها الحياة أصلا فهى أموات على الإطلاق وأما قوله تعالى ﴿ وما يشعرون أيان يبعثون ﴾ أى ما يشعر أولئك الآلهة أيان يبعث عبدتهم فعلى طريقة التهكم بهم لأن شعور الجماد بالأمور الظاهرة بديهى الاستحالة عند كل أحد فكيف بما لا يعلمه إلا العليم الخبير وفيه إيذان بأن البعث من لوازم التكليف وأن معرفة وقته مما لا بد منه فى الألوهية .

الله واحد لا شريك له

﴿ إلهكم إله واحد ﴾ لا يشاركه شىء فى شىء وهو تصريح بالمدعى وتمحيض للنتيجة غب إقامة الحجة ﴿ فالذين لا يؤمنون بالآخرة ﴾ وأحوالها التى من جملتها ما ذكر من البعث وما يعقبه من الجزاء المستلزم لعقوبتهم وذلتهم ﴿ قلوبهم منكرة ﴾ للوحدانية جاحدة لها أو للآيات الدالة عليها ﴿ وهم مستكبرون ﴾ عن الاعتراف بها أو عن الآيات الدالة عليها والفاء للإيذان بأن إصرارهم على الإنكار واستمرارهم على الاستكبار وقع موقع النتيجة للدلائل الظاهرة والبراهين الباهرة والمعنى أنه قد ثبت بما قرر من الحجج والبينات اختصاص الإلهية به سبحانه فكان من نتيجة ذلك اصرارهم على ما ذكر من الإنكار

والاستكبار وبناء الحكم المذكور على الموصول للإشعار بكونه معللا بما فى حيز الصلة فإن الكفر بالآخرة وبما فيها من البعث والجزاء المتنوع إلى الثواب على الطاعة والعقاب على المعصية يؤدى إلى قصر النور على العاجل والإعراض عن الدلائل السمعية والعقلية الموجب لإنكارها وإنكار مؤداها والاستكبار عن اتباع الرسول عليه الصلاة والسلام وتصديقه وأما الإيمان بها وبما فيها فيدعو لا محالة إلى التأمل فى الآيات والدلائل رغبة ورهبة فيورث ذلك يقينا بالوحدانية وخضوعا لأمر الله تعالى ﴿ لا جرم ﴾ أى حقا وقد مر تحقيقه فى سورة هود ﴿ أن الله يعلم ما يسرون ﴾ من إنكار قلوبهم ﴿ وما يعلنون ﴾ من استكبارهم وقولهم للقرآن أساطير الأولين وغير ذلك من قبائحهم فيجازيهم بذلك ﴿ إنه لا يحب المستكبرين ﴾ تعليل لما تضمنه الكلام من الوعيد أى لا يحب المستكبرين عن التوحيد أو عن الآيات الدالة عليها أو لا يحب جنس المستكبرين فكيف بمن استكبر عما ذكر .

﴿ وإذا قيل لهم ﴾ أى لأولئك المنكرين المستكبرين وهو بيان لإضلالهم غب بيان ضلالهم ﴿ ماذا أنزل ربكم ﴾ القائل الوافدون عليهم أو المسلمون أو بعض منهم على طريق التهكم وماذا منصوب بما بعده أو مرفوع أى أى شىء أنزل أو ما الذى أنزله ﴿ قالوا أساطير الأولين ﴾ أى ما تدعون نزوله والمنزل بطريق السخرية أحاديث الأولين وأباطيلهم وليس من الإنزال فى شىء قيل هؤلاء القائلون هم المقتسمون الذين اقتسموا مداخل مكة ينفرون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم عند سؤال وفود الحاج عما نزل عليه عليه السلام ﴿ ليحملوا ﴾ متعلق بقالوا أى قالوا ما قالوا ليحملوا ﴿ أوزارهم ﴾ الخاصة بهم وهى أوزار ضلالهم ﴿ كاملة ﴾ لم يكفر منها شىء بنكبة أصابتهم فى الدنيا كما يكفر بها أوزار المؤمنين ﴿ يوم القيامة ﴾ ظرف ليحملوا ﴿ ومن أوزار الذين يضلونهم ﴾ ، وبعض أوزار من ضل بإضلالهم وهو وزر الإضلال لأنهما شريكان هذا يضله وهذا يطاوعه فيتحاملان الوزر واللام للتعليل فى نفس الأمر من غير أن يكون

غرضا وصيغة الاستقبال للدلالة على استمرار الإضلال أو باعتبار حال قولهم لا حال الحمل ﴿ بغير علم ﴾ حال من الفاعل أى يضلونهم غير عالمين بأن ما يدعون إليه طريق للضلال وأما حمله على معنى غير عالمين بأنهم يحملون يوم القيامة أوزار الضلال والإضلال على أن يكون العامل فى الحال قالوا وتأييده بما سيأتى من قوله تعالى (وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون) من حيث أن حمل ما ذكر من أوزار الضلال والإضلال من قبيل إتيان العذاب من حيث لا يشعرون فيرده أن الحمل المذكور إنما هو يوم القيامة والعذاب المذكور إنما هو العذاب الدنيوى كما ستقف عليه أو حال من المفعول أى يضلون من لا يعلم أنهم ضلال وفائدة التقييد بها الإشعار بأن مكرهم لا يروج عند ذى لب وإنما يتبعهم الأغبياء والجهلة والتنبيه على أن جهلهم ذلك لا يكون عذرا إذ كان يجب عليهم أن يبحثوا ويميزوا بين الحق الحقيق بالاتباع وبين المبطل ﴿ ألا ساء ما يزرون ﴾ أى بئس شيئا يزرونه ما ذكر .

﴿ قد مكر الذين من قبلهم ﴾ وعيد لهم برجوع غائلة مكرهم إلى أنفسهم كدأب من قبلهم من الأمم الخالية الذين أصابهم ما أصابهم من العذاب العاجل أى قد سووا منصوبات ليمكروا بها رسل الله تعالى ﴿ فأتى الله ﴾ أى أمره وحكمه ﴿ بنيانهم ﴾ وقرىء بيتهم وبيوتهم ﴿ من القواعد ﴾ وهى الأساطين التى تعمده أو أساسه فضعضعت أركانه ﴿ فخر عليهم السقف من فوقهم ﴾ أى سقط عليهم سقف بنيانهم إذ لا يتصور له القيام بعد تهدم القواعد شبهت حال أولئك الماكرين فى تسويتهم المكايد والمنصوبات التى أرادوا بها الإيقاع برسل الله سبحانه ، وفى إبطاله تعالى تلك الحيل والمكايد وجعله إياها أسبابا لهلاكهم بحال قوم بنوا بنيانا وعمدوه بالأساطين[1] فأتى ذلك من قبل أساطينه بأن ضعضعت فسقط عليهم السقف فهلكوا وقرىء فخر عليهم السقف بضمتين

(١) فى ١١ وعمروه بالأساطين

﴿ وأتاهم العذاب ﴾ أى الهلاك والدمار ﴿ من حيث لا يشعرون ﴾ بإتيانه منه بل يتوقعون إتيان مقابلة بما يريدون ويشتهون والمعنى أن هؤلاء الماكرين القائلين للقرآن العظيم أساطير الأولين سيأتيهم من العذاب مثل ما أتاهم وهم لا يحتسبون والمراد به العذاب العاجل لقوله سبحانه ﴿ ثم يوم القيامة يخزيهم ﴾ فإنه عطف على مقدر ينسحب عليه الكلام أى هذا الذى فهم من التمثيل من عذاب هؤلاء أو ما هو أعم منه ومما ذكر من عذاب أولئك جزاؤهم فى الدنيا ويوم القيامة يخزيهم أى يذلهم بعذاب الخزى على رؤس الأشهاد وأصل الخزى ذل يستحيي منه وثم للإيماء إلى ما بين الجزاءين من التفاوت مع ما يدل عليه من التراخى الزمانى وتغيير السبك بتقديم الظرف ليس لقصر الخزى على يوم القيامة كما هو المتبادر من تقديم الظرف على الفعل بل لأن الإخبار بجزائهم فى الدنيا مؤذن بأن لهم جزاء أخرويا فتبقى النفس مترقبة إلى وروده سائلة عنه بأنه ماذا مع تيقنها بأنه فى الآخرة فسيق الكلام على وجه يؤذن بأن المقصود بالذكر إخزاؤهم لا كونه يوم القيامة والضمير إما للمفترين فى حق القرآن الكريم أو لهم ولمن مثلوا بهم من الماكرين كما أشير إليه وتخصيصه بهم يأباه السباق والسياق كما ستقف عليه .

﴿ ويقول ﴾ لهم تفضيحا وتوبيخا فهو الخ بيان للإخزاء ﴿ أين شركائى ﴾ أضافهم إليه سبحانه حكاية لإضافتهم الكاذبة ففيه توبيخ مع الاستهزاء بهم ﴿ الذين كنتم تشاقون فيهم ﴾ أى تخاصمون الأنبياء والمؤمنين فى شأنهم بأنهم شركاء حقا حين بينوا لكم بطلانها والمراد بالاستفهام استحضارهم للشفاعة أو المدافعة على طريقة الاستهزاء والتبكيت والاستفسار عن مكانهم لا يوجب غيبتهم حقيقة حتى يعتذر بأنهم يجوز أن يحال بينهم وبين عبدتهم حينئذ ليتفقدوها فى ساعة علقوا بها الرجاء فيها أو بأنهم لما لم ينفعوهم فكأنهم غيب بل يكفى فى ذلك عدم حضورهم بالعنوان الذى كانوا يزعمون أنهم متصفون من عنوان الإلهية فليس هناك شركاء ولا أماكنها على أن قوله ليتفقدوا ليس بسديد فإنه قد تبين عندهم الأمر حينئذ فرجعوا عن ذلك الزعم الباطل فكيف يتصور منهم

التفقد وقرىء بكسر النون أى تشاقوننى على أن مشاقة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام والمؤمنين لا سيما فى شأن متعلق به سبحانه مشاقة له عز وجل ﴿ قال الذين أوتوا العلم ﴾ من أهل الموقف وهم الأنبياء والمؤمنون الذين أوتوا علما بدلائل التوحيد وكانوا يدعونهم فى الدنيا إلى التوحيد فيجادلونهم ويتكبرون عليهم أى يقولون توبيخا لهم وإظهارا للشماتة بهم وتقريرا لما كانوا يعظونهم وتحقيقا لما أوعدوهم به وإيثار صيغة الماضى للدلالة على تحققه وتحتم وقوعه حسبما هو المعتاد فى إخباره سبحانه وتعالى كقوله (ونادى أصحاب الجنة) (ونادى أصحاب الأعراف) ﴿ أن الخزى ﴾ الفضيحة والذل والهوان ﴿ اليوم ﴾ منصوب بالخزى على رأى من يرى إعمال المصدر المصدر باللام أو بالاستقرار فى الظرف وفيه فصل بين العامل والمعمول بالمعطوف إلا أنه مغتفر فى الظروف وإيراده للإشعار بأنهم كانوا قبل ذلك فى عزة وشقاق ﴿ والسوء ﴾ العذاب ﴿ على الكافرين ﴾ بالله تعالى وبآياته ورسله .

﴿ الذين تتوفاهم الملائكة ﴾ بتأنيث الفعل وقرىء بتذكيره وبإدغام التاء فى التاء والعدول إلى صيغة المضارع لاستحضار صورة توفيهم إياهم لما فيها من الهول ، والموصول فى محل الجر على أنه نعت للكافرين أو بدل منه أو فى محل النصب أو الرفع على الذم وفائدته تخصيص الخزى والسوء بمن استمر كفره إلى حين الموت دون من آمن منهم ولو فى آخر عمره أى على الكافرين المستمرين على الكفر إلى أن يتوفاهم الملائكة ﴿ ظالمى أنفسهم ﴾ أى حال كونهم مستمرين على الكفر فإنه ظلم منهم لأنفسهم وأى ظلم حيث عرضوها للعذاب المخلد وبدلوا فطرة الله تبديلا ﴿ فألقوا السلم ﴾ أى فيلقون والعدول إلى صيغة الماضى للدلالة على تحقق الوقوع وهو عطف على قوله تعالى (ويقول أين شركائى) وما بينهما جملة اعتراضية جىء بها تحقيقا لما حاق بهم من الخزى على رؤس الأشهاد أى فيسالمون ويتركون المشاقة وينزلون عما كانوا عليه فى الدنيا من الكبر وشدة الشكيمة قائلين ﴿ ما كنا نعمل ﴾ فى الدنيا ﴿ من سوء ﴾ أى من شرك قالوه منكرين لصدوره عنهم كقولهم والله ربنا ما كنا مشركين وإنما عبروا عنه بالسوء اعترافا بكونه

سيئا لا إنكاراً لكونه كذلك مع الاعتراف بصدوره عنهم ويجوز أن يكون تفسيرا للسلم على أن يكون المراد به الكلام الدال عليه وعلى التقديرين فهو جواب عن قوله سبحانه (أين شركائى) كما فى سورة الأنعام لاعن قول أولى العلم ادعاء لعدم استحقاقهم لما دهمهم من الخزى والسوء ﴿ بلى ﴾ رد عليهم من قبل أولى العلم وإثبات لما نفوه أى بلى كنتم تعملون ما تعملون ﴿ إن الله عليم بما كنتم تعملون ﴾ فهو يجازيكم عليه وهذا أوانه .

﴿ فادخلوا أبواب جهنم ﴾ أى كل صنف من بابه المعد له وقيل أبوابها أصناف عذابها فالدخول عبارة عن الملابسة والمقاساة ﴿ خالدين فيها ﴾ إن أريد بالدخول حدوثه فالحال مقدرة ، وإن أريد مطلق الكون فيها فهى مقارنة ﴿ فلبئس مثوى المتكبرين ﴾ عن التوحيد كما قال تعالى (قلوبهم منكرة وهم مستكبرون) وذكرهم بعنوان التكبر للإشعار بعليته لثوائهم فيها والمخصوص بالذم محذوف أى جهنم وتأويل قولهم (ما كنا نعمل من سوء) بأنا ما كنا عاملين ذلك فى اعتقادنا روما للمحافظة على أن لا كذب ثمة يرده الرد المذكور وما فى سورة الأنعام من قوله تعالى (أنظر كيف كذبوا على أنفسهم) .

منطق المؤمنين وجزاؤهم

﴿ وقيل للذين اتقوا ﴾ أى المؤمنين وصفوا بالتقوى إشعارا بأن ما صدر عنهم من الجواب ناشىء عن التقوى ﴿ ماذا أنزل ربكم قالوا خيرا ﴾ سلكوا فى الجواب مسلك السؤال من غير تلعثم ولا تغيير فى الصورة والمعنى أى أنزل خيرا فإنه جواب مطابق للسؤال (وسبكا للواقع)[1] فى نفس الأمر مضمونا وأما الكفرة فإنهم خذلهم الله تعالى كما غيروا الجواب عن نهج الحق الواقع الذى ليس له من دافع غيروا صورته وعدلوا بها عن سنن السؤال حيث رفعوا الأساطير روما لما مر من إنكار النزول ، روى أن أحياء العرب كانوا يبعثون أيام الموسم من

(١) اضطربت العبارة فى ط فلا تقرأ ولا تفهم .

يأتيهم بخبر النبى عليه السلام فإذا جاء الوافد كفه المقتسمون وأمروه بالانصراف وقالوا إن لم تلقه كان خيرا لك فيقول أنا شر وافد إن رجعت إلى قومى دون أن أستطلع أمر محمد وأراه فيلق أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ورضى عنهم فيخبرونه بحقيقة الحال فهم الذين قالوا خيرا ﴿ للذين أحسنوا ﴾ أى أعمالهم أو فعلوا الإحسان ﴿ فى هذه ﴾ الدار ﴿ الدنيا حسنة ﴾ أى مثوبة حسنة مكافأة فيها ﴿ ولدار الآخرة ﴾ أى مثوبتهم فيها ﴿ خير ﴾ مما أوتوا فى الدنيا من المثوبة أو خير على الإطلاق فيجوز إسناد الخيرية إلى نفس دار الآخرة حذف لدلالة ما سبق عليه وهذا كلام مبتدأ مدح الله تعالى به المتقين وعد جوابهم المحكى من جملة إحسانهم ووعدهم بذلك ثوابى الدنيا والآخرة فلا محل له من الإعراب أو بدل من خيرا أو تفسير له أى أنزل خيرا هو هذا الكلام الجامع قالوه ترغيباً للسائل .

﴿ جنات عدن ﴾ خبر مبتدأ محذوف أو مبتدأ خبره محذوف أى لهم جنات ويجوز أن يكون هو المخصوص بالمدح ﴿ يدخلونها ﴾ صفة لجنات على تقدير تنكير عدن وكذلك ﴿ تجرى من تحتها الأنهار ﴾ أو كلاهما حال على تقدير علميته ﴿ لهم فيها ﴾ فى تلك الجنات ﴿ ما يشاؤن ﴾ الظرف الأول خبر لما والثانى حال منه والعامل ما فى الأول أو متعلق به أى حاصل لهم فيها ما يشاؤن من أنواع المشتهيات ، وتقديمه للاحتراز عن توهم تعلقه بالمشيئة أولما مر مرارا من أن تأخير ما حقه التقديم يوجب ترقب النفس إليه فيتمكن عند وروده عليها فضل تمكن ﴿ كذلك ﴾ مثل ذلك الجزاء الأوفى ﴿ يجزى الله المتقين ﴾ اللام للجنس أى كل من يتق من الشرك والمعاصى ويدخل فيه المتقون المذكورون دخولا أوليا ويكون فيه بعث لغيرهم على التقوى أو للعهد فيكون فيه تحسير للكفرة ﴿ الذين تتوفاهم الملائكة ﴾ نعت للمتقين وقوله تعالى ﴿ طيبين ﴾ أى طاهرين عن دنس الظلم لأنفسهم حال من الضمير وفائدته الإيذان بأن ملاك الأمر فى التقوى هو الطهارة عما ذكر إلى وقت توفيهم ففيه حث المؤمنين على الاستمرار على ذلك ولغيرهم على تحصيله وقيل فرحين طيبي النفوس ببشارة

الملائكة إياهم بالجنة أو طيبين بقبض أرواحهم لتوجه نفوسهم بالكلية إلى جناب القدس ﴿ يقولون ﴾ حال من الملائكة أو قائلين لهم ﴿ سلام عليكم ﴾ قال القرظى رحمه الله إذا استدعيت نفس المؤمن جاءه ملك الموت عليه السلام فقال السلام عليك ياولى الله الله تعالى يقرأ عليك السلام وبشره بالجنة .

﴿ أدخلوا الجنة ﴾ اللام للعهد أى جنات عدن الخ ولذلك جردت عن النعت والمراد دخولهم لها فى وقته فإن ذلك بشارة عظيمة وإن تراخى المبشر به لا دخول القبر الذى هو روضة من رياضها إذ ليس فى البشارة به ما فى البشارة بدخول نفس الجنة ﴿ بما كنتم تعملون ﴾ بسبب ثباتكم على التقوى والطاعة أو بالذى كنتم تعملونه من ذلك وقيل المراد بالتوفى التوفى للحشر لأن الأمر بالدخول حينئذ يتحقق .

عودة إلى كفار مكة

﴿ هل ينظرون ﴾ أى ما ينتظر كفار مكة المار ذكرهم ﴿ إلا أن تأتيهم الملائكة ﴾ لقبض أرواحهم بالعذاب جعلوا منتظرين لذلك وشتان بينهم وبين انتظاره لا لأنه يلحقهم البتة لحوق الأمر المنتظر بل لمباشرتهم لأسبابه الموجبة له المؤدية إليه فكأنهم يقصدون إتيانه ويترصدون لوروده وقرىء بتذكير الفعل ﴿ أو يأتى أمر ربك ﴾ التعرض لوصف الربوبية مع الإضافة إلى ضميره عليه الصلاة والسلام إشعار بأن إتيانه لطف به عليه الصلاة والسلام وإن كان عذابا عليهم والمراد بالأمر العذاب الدنيوى لا القيامة لكن لا لأن انتظارها يجامع انتظار إتيان الملائكة فلا يلائمه العطف بأو لأنها ليست نصا فى العناد إذ يجوز أن يعتبر منع الخلو ويراد بإيرادها كفاية كل واحد من الأمرين فى عذابهم بل لأن قوله تعالى فيما سيأتى (ولكن كانوا أنفسهم يظلمون فأصابهم) الآية صريح فى أن المراد به ما أصابهم من العذاب الدنيوى ﴿ كذلك ﴾ أى مثل فعل هؤلاء من الشرك والظلم والتكذيب والاستهزاء ﴿ فعل الذين ﴾ خلوا ﴿ من قبلهم ﴾ من الأمم ﴿ وما ظلمهم الله ﴾ بما سيتلى من عذابهم ﴿ ولكن

كانوا ﴾ بما كانوا مستمرين عليه من القبائح الموجبة لذلك ﴿ أنفسهم يظلمون ﴾ كان الظاهر أن يقال ولكن كانوا هم الظالمين كما فى سورة الزخرف لكنه أوثر ما عليه النظم الكريم لإفادة أن غائلة ظلمهم آيلة إليهم وعاقبته مقصورة عليهم مع استلزام اقتصار ظلم كل أحد على نفسه من حيث الوقوع اقتصاره عليه من حيث الصدور وقد مر تحقيقه فى سورة يونس .

﴿ فأصابهم ﴾ عطف على قوله تعالى (فعل الذين من قبلهم) وما بينهما اعتراض لبيان أن فعلهم على ذلك ظلم لأنفسهم ﴿ سيئات ما عملوا ﴾ أى أجزية أعمالهم السيئة على طريقة تسمية المسبب باسم سببه إيذانا لفظاعته لا على حذف المضاف فإنه يوهم أن لهم أعمالا غير سيئاتهم ﴿ وحاق بهم ﴾ أى أحاط بهم من الحيق الذى هو إحاطة الشر وهو أبلغ من الإصابة وأفظع ﴿ ما كانوا به يستهزؤن ﴾ من العذاب .

﴿ وقال الذين أشركوا ﴾ أى أهل مكة وهو بيان لفن آخر من كفرهم والعدول عن الإضمار إلى الموصول لتقريعهم بما فى حيز الصلة وذمهم بذلك من أول الأمر ﴿ لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شىء ﴾ أى لو شاء عدم عبادتنا لشىء غيره كما تقول لما عبدنا ذلك ﴿ نحن ولا آباؤنا ﴾ الذين نقتدى بهم فى ديننا ﴿ ولا حرمنا من دونه من شىء ﴾ من السوائب والبحائر وغيرها وإنما قالوا ذلك تكذيبا للرسول عليه الصلاة والسلام وطعنا فى الرسالة رأسا متمسكين بأن ما شاء الله تعالى يجب وما لم يشأ يمتنع فلو أنه شاء أن نوحده ولا نشرك به شيئا ولا نحرم مما حرمنا شيئا كما يقول الرسل وينقلونه من جهة الله عز وجل لكان الأمر كما شاء من التوحيد ونفى الإشراك وما يتبعهما وحيث لم يكن كذلك ثبت أنه لم يشأ شيئا من ذلك وإنما يقوله الرسل من تلقاء أنفسهم فأجيب عنه بقوله عز وجل ﴿ كذلك ﴾ أى مثل ذلك الفعل الشنيع ﴿ فعل الذين من قبلهم ﴾ من الأمم أى أشركوا بالله وحرموا حله وردوا رسله وجادلوهم بالباطل حين نبهوهم على الخطأ وهدوهم إلى الحق .

﴿ فهل على الرسل ﴾ الذين يبلغون رسالات الله وعزائم أمره ونهيه ﴿ إلا البلاغ المبين ﴾ أى ليست وظيفتهم إلا تبليغ الرسالة تبليغا واضحا أو موضحا وإبانة طريق الحق وإظهار أحكام الوحى الذى من جملتها تحتم تعلق مشيئة الله تعالى باهتداء من صرف قدرته واختياره إلى تحصيل الحق لقوله تعالى (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا) وأما إلجاؤهم إلى ذلك وتنفيذ قولهم عليهم شاؤا أو أبوا كما هو مقتضى استدلالهم فليس ذلك من وظيفتهم ولا من الحكمة التى عليها يدور أمر التكليف فى شىء حتى يستدل بعدم ظهور آثاره على عدم حقيه الرسل أو على عدم تعلق مشيئته تعالى بذلك فإن ما يترتب عليه الثواب والعقاب من أفعال العباد لابد فى تعلق مشيئته تعالى بوقوعه من مباشرتهم الاختيارية له وصرف اختيارهم الجزئى إلى تحصيله وإلا لكان الثواب والعقاب اضطراريين فالفاء للتعليل كأنه قيل كذلك فعل أسلافهم وذلك باطل فإن الرسل ليس شأنهم إلا تبليغ أوامر الله تعالى ونواهيه لا تحقيق مضمونهما وإجراء موجبهما على الناس قسرا وإلجاء وإيراد كلمة على للإيذان بأنهم فى ذلك مأمورون أو بأن ما يبلغونه حق للناس عليهم إيفاؤه بهذا ظهر أن حمل قولهم (لو شاء الله) الخ على الاستهزاء لا يلائم الجواب والله تعالى أعلم بالصواب .

وحدة الرسالات

﴿ ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا ﴾ تحقيق لكيفية تعلق مشيئته تعالى بأفعال العباد بعد بيان أن الإلجاء ليس من وظائف الرسالة ولا من باب المشيئة المتعلقة بما يدور عليه الثواب والعقاب من الأفعال الاختيارية لهم أى بعثنا فى كل أمة من الأمم الخالية رسولا خاصا بهم ﴿ أن اعبدوا الله ﴾ يجوز أن تكون أن مفسرة لما فى البعث من معنى القول وأن تكون مصدرية أى بعثنا بأن اعبدوا الله وحده ﴿ واجتنبوا الطاغوت ﴾ هو الشيطان وكل ما يدعو إلى الضلالة ﴿ فنهم ﴾ أى من تلك الأمم والفاء فصيحة ، أى فبلغوا ما بعثوا به من الأمر بعبادة الله وحده واجتناب الطاغوت فتفرقوا فنهم ﴿ من هدى

الله ﴾ إلى الحق الذى هو عبادته واجتناب الطاغوت بعد صرف قدرتهم واختيارهم الجزئى إلى تحصيله ﴿ ومنهم من حقت عليه الضلالة ﴾ أى وجبت وثبتت إلى حين الموت لعناده وإصراره عليها وعدم صرف قدرته إلى تحصيل الحق وتغيير الأسلوب للإشعار بأن ذلك لسوء اختيارهم كقوله تعالى (وإذا مرضت فهو يشفين) فلم يكن كل من مشيئة الهداية وعدمها إلا حسبما حصل منهم من التوجه إلى الحق وعدمه إلا بطريق القسر والإلجاء حتى يستدل بعدمهما على عدم تعلق مشيئته تعالى بعبادتهم له تعالى وحده ﴿ فسيروا ﴾ يا معشر قريش ﴿ فى الأرض فانظروا ﴾ فى أكنافها ﴿ كيف كان عاقبة المكذبين ﴾ من عاد وثمود ومن سار سيرتهم ممن حقت عليهم الضلالة لعلكم تعتبرون حين تشاهدون فى منازلهم وديارهم آثار الهلاك والعذاب وترتيب الأمر بالسير على مجرد الإخبار بثبوت الضلالة عليهم من غير إخبار بحلول العذاب للايذان بأنه غنى عن البيان وأن ليس الخبر كالعيان وترتيب النظر على السير لما أنه بعده وأن ملاك الأمر فى تلك العاقبة هو التكذيب والتعلل بأنه لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شىء .

﴿ إن تحرص ﴾ خطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم وقرىء بفتح الراء وهى لغية ﴿ على هداهم ﴾ أى إن تطلب هدايتهم بجهدك ﴿ فإن الله لا يهدى من يضل ﴾ أى فاعلم أنه تعالى لا يخلق الهداية جبرا وقسرا فيمن يخلق فيه الضلالة بسوء اختياره والمراد به قريش ، وإنما وضع الموصول موضع الضمير للتنصيص على أنهم ممن حقت عليه الضلالة وللإشعار بعلة الحكم ويجوز أن يكون المذكور علة للجزاء المحذوف أى إن تحرص على هداهم فلست بقادر على ذلك لأن الله لا يهدى من يضله وهؤلاء من جملتهم وقرىء لا يهدى على بناء المفعول أى لا يقدر أحد على هداية من يضله الله تعالى وقرىء لا يهدى بفتح الهاء وادغام تاء يهتدى فى الدال ويجوز أن يكون يهدى بمعنى يهتدى وقرىء يضل بفتح الياء وقرىء لا هادى لمن يضل ولمن أضل ﴿ ومالهم من ناصرين ﴾ ينصرونهم فى الهداية أو يدفعون العذاب عنهم وصيغة الجمع فى الناصرين باعتبار

الجمعية فى الضمير فإن مقابلة الجمع بالجمع يقتضى انقسام الآحاد الى الآحاد لا لأن المراد نفى طائفة من الناصرين من كل منهم .

﴿ وأقسموا بالله ﴾ شروع فى بيان فن آخر من أباطيلهم وهو إنكار البعث ﴿ جهد أيمانهم ﴾ مصدر فى موقع الحال أى جاهدين فى أيمانهم ﴿ لا يبعث الله من يموت ﴾ ولقد رد الله تعالى عليهم أبلغ رد بقوله الحق ﴿ بلى ﴾ أى بلى يبعثهم ﴿ وعدا ﴾ مصدر مؤكد لما دل عليه بلى فإن ذلك موعد من الله سبحانه أو المحذوف أى وعد بذلك وعدا ﴿ عليه ﴾ صفة لوعد أى وعدا ثابتا عليه إنجازه لامتناع الخلف فى وعده أو لأن البعث من مقتضيات الحكمة ﴿ حقا ﴾ صفة أخرى له أو نصب على المصدرية أى حق حقا ﴿ ولكن أكثر الناس ﴾ لجهلهم بشؤون الله عز[1] شأنه من العلم والقدرة والحكمة وغيرها من صفات الكمال وبما يجوز عليه وما لا يجوز وعدم وقوفهم على سر التكوين والغاية القصوى منه وعلى أن البعث مما يقتضيه الحكمة التى جرت عادته سبحانه بمراعاتها ﴿ لا يعلمون ﴾ أنه يبعثهم فيبتون القول بعدمه أو أنه وعد عليه حق فيكذبونه قائلين لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا من قبل (إن هذا إلا أساطير الأولين) .

﴿ ليبين لهم ﴾ غاية لما دل عليه بلى من البعث والضمير لمن يموت إذ التبيين يعم المؤمنين أيضا فإنهم وإن كانوا عالمين بذلك لأنه عند معاينة حقيقة الحال يتضح الأمر فيصل علمهم إلى مرتبة عين اليقين أى يبعثهم ليبين لهم بذلك وبما يحصل لهم من مشاهدة الأحوال كما هى ومعاينتها بصورها الحقيقية الشأن ﴿ الذين يختلفون فيه ﴾ من الحق المنتظم لجميع ما خالفوه مما جاء به الشرع المبين ويدخل فيه البعث دخولا أوليا ﴿ وليعلم الذين كفروا ﴾ بالله سبحانه بالإشراك وإنكار البعث وتكذيب وعده الحق ﴿ أنهم كانوا كاذبين ﴾ فى كل ما يقولون لا سيما فى قولهم لا يبعث الله من يموت والتعبير عن الحق بالموصول للدلالة على فخامته

(١) فى ١٠ : عز وجل من العلم والقدرة .

وللإشعار بعلية ماذكر فى حيز الصلة للتبيين وما عطف عليه وما جعلهما غاية للبعث المشار إليه باعتبار وروده فى معرض الرد على المخالفين وإبطال مقالة المعاندين المستدعى للتعرض لما يردعهم عن المخالفة ويلجئهم إلى الإذعان للحق فإن الكفرة إذا علموا أن تحقيق البعث إذا كان لتبيين أنه حق وليعلموا أنهم كانوا كاذبين فى إنكاره كان ذلك أزجر لهم عن إنكاره وأدعى إلى الاعتراف به ضرورة أنه يدل على صدق العزيمة على تحقيقه كما تقول لمن ينكر أنك تصلى لأصلين رغما لأنفك وإظهارا لكذبك ولأن تكرر الغايات أدل على وقوع الفعل المغيا بها وإلا فالغاية الأصلية للبعث باعتباره ذاته انما هو الجزاء الذى هو الغاية القصوى للخلق المغيا بمعرفته عز وجل وعبادته وإنما لم يذكر ذلك لتكرر ذكره فى مواضع آخر وشهرته وإنما لم يدرج علم الكفار بكذبهم تحت التبيين بأن يقال وان الذين كفروا كانوا كاذبين بل جىء بصيغة العلم لأن ذلك ليس مما تعلق به التبيين الذى هو عبارة عن إظهار ما كان مبهما قبل ذلك بأن يخبر به فيختلف فيه كالبعث الذى نطق به القرآن فاختلف فيه المختلفون وأما كذب الكافرين فليس من هذا القبيل فما يتعلق به علم ضرورى حاصل لهم من قبل أنفسهم وقد مر تحقيقه فى سورة التوبة عند قوله تعالى (حتى يتبين لك الذين صدقوا) وإنما خص الإسناد بهم حيث لم يقل وليعلموا أن الكافرين الآية لأن علم المؤمنين بذلك حاصل قبل ذلك أيضاً .

﴿ إنما قولنا ﴾ استئناف لبيان كيفية التكوين على الإطلاق إبداء وإعادة بعد التنبيه على آنية البعث ومنه يظهر كيفيته فما كافة وقولنا مبتدأ وقوله : ﴿ لشىء ﴾ أى أى شىء كان مما عز وهان متعلق به على أن اللام للتبليغ كهى فى قولك قلت له قم فقام وجعلها الزجاج سببية أى لأجل شىء وليس بواضح والتعبير عنه بذلك باعتبار وجوده عند تعلق مشيئته تعالى به لا أنه كان شيئا قبل ذلك ﴿ إذا أردناه ﴾ ظرف لقولنا أى وقت إرادتنا لوجوده ﴿ أن نقول له كن ﴾ خبر للمبتدأ ﴿ فيكون ﴾ إما عطف على مقدر يفصح عنه الفاء

وينسحب عليه الكلام أى فنقول ذلك فيكون كقوله تعالى (إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون) وإما جواب لشرط محذوف أى فإذا قلنا ذلك فهو يكون وليس هناك قول ولا مقول له ولا آمر ولا مأمور حتى يقال أنه يلزم منه أحد المحالين أما خطاب المعدوم أو تحصيل الحاصل أو يقال إنما يستدعيه انحصار قوله تعالى(كن) وليس يلزم منه انحصار أسباب التكوين فيه كما يفيده قوله تعالى (إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون) فإن المراد بالأمر هو الشأن الشامل للقول والفعل ومن ضرورة انحصاره فى كلمة كن انحصار أسبابه على الإطلاق فيه بل إنما هو تمثيل لسهولة تأتى المقدورات حسب تعلق مشيئته تعالى بها وتصوير لسرعة حدوثها بما هو علم فى ذلك من طاعة المأمور المطيع لأمر الآمر المطاع فالمعنى إنما إيجادنا لشىء عند تعليق مشيئتنا به أن نوجده فى أسرع ما يكون ولما عبر عنه بالأمر الذى هو قول مخصوص وجب أن يعبر عن مطلق الإيجاد بالقول المطلق فتأمل وفى الآية الكريمة من الفخامة والجزالة مايحار فيه العقول والألباب وقرىء بنصب يكون عطفا على نقول أو تشبيها له بجواب الأمر .

﴿ والذين هاجروا فى الله ﴾ أى فى شأن الله تعالى ورضاه وفى حقه ولوجهه ﴿ من بعد ما ظلموا ﴾ ولعلهم الذين ظلمهم أهل مكة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخرجوهم من ديارهم فهاجروا إلى الحبشة ثم بوأهم الله تعالى المدينة حسبما وعد بقوله سبحانه ﴿ لنبوئنهم فى الدنيا حسنة ﴾ أى مباءة حسنة أو تبوئة حسنة كما قال قتادة وهو الأنسب بما هو المشهور من كون السورة غير ثلاث آيات من آخرها مكية وأما ما نقل عن ابن عباس رضى الله عنهما من أنها نزلت فى صهيب وبلال وعمار وخباب وعابس وجبير وأبى جندل بن سهيل أخذهم المشركون فجعلوا يعذبونهم ليردوهم عن الإسلام فأما صهيب فقال لهم أنا رجل كبير إن كنت معكم لم أنفعكم وإن كنت عليكم لم أضركم فافتدى منهم بماله وهاجر فلما رآه أبو بكر رضى الله عنه قال ربح البيع ياصهيب وقال عمر

رضى الله عنه نعم العبد صهيب لو لم يخف الله لم يعصه فإنما يناسب ما حكى عن الأصم من كون كل السورة مدنية وما نقل عن قتادة من كون هذه الآية إلى آخر السورة مدنية فيحمل ما نقلناه عنه من نزول الآية فى أصحاب الهجرتين على أن يكون نزولها بالمدينة بين الهجرتين وأما جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم من جملتهم فلا يساعده نظم التنزيل ولا شأنه الجليل وقرىء لنثوينهم ومعناه إثواءة حسنة أو لننزلنهم فى الدنيا منزلة حسنة وهى الغلبة على من ظلمهم من أهل مكة وعلى العرب قاطبة وأهل الشرق والغرب كافة ﴿ ولأجر الآخرة ﴾ أى أجر أعمالهم المذكورة فى الآخرة ﴿ أكبر ﴾ مما يعجل لهم فى فى الدنيا وعن عمر رضى الله عنه أنه كان إذا أعطى رجلا من المهاجرين عطاء قال له خذ بارك الله تعالى لك فيه هذا ما وعدك الله تعالى فى الدنيا وما ادخر فى الآخرة أفضل ﴿ لو كانوا يعلمون ﴾ الضمير للكفار أى لو علموا أن الله تعالى يجمع لهؤلاء المهاجرين خير الدارين لوافقوهم فى الدين وقيل للمهاجرين أى لو علموا ذلك لزادوا فى الاجتهاد أو لما تألموا لما أصابهم من المهاجرة وشدائدها .

﴿ الذين صبروا ﴾ على الشدائد من أذية الكفار ومفارقة الأهل والوطن وغير ذلك ومحله النصب أو الرفع على المدح ﴿ وعلى ربهم ﴾ خاصة ﴿ يتوكلون ﴾ منقطعين إليه تعالى معرضين عما سواه مفوضين إليه الأمر كله والجملة إما معطوفة على الصلة وتقديم الجار والمجرور للدلالة على قصر التوكل على الله تعالى وصيغة الاستقبال للدلالة على دوام التوكل أو حال من ضمير صبروا .

﴿ وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحى إليهم ﴾ وقرىء بالياء مبنيا للمفعول وهو رد لقريش حين قالوا الله أجل من أن يكون له رسول من البشر كما هو مبنى قولهم (لو شاء الله ما عبدنا) الخ أى جرت السنة الإلهية حسبما اقتضته الحكمة بأن لا يبعث للدعوة العامة إلا بشرا يوحى إليهم بواسطة الملك أوامره ونواهيه ليبلغوها الناس ولما كان المقصود من الخطاب لرسول الله صلى الله

عليه وسلم تنبيه الكفار على مضمونه صرف الخطاب إليهم فقيل ﴿ فاسئلوا أهل الذكر ﴾ أى أهل الكتاب أو علماء الأخبار أو كل من يذكر بعلم وتحقيق ليعلموكم ذلك ﴿ إن كنتم لا تعلمون ﴾ حذف جوابه لدلالة ما قبله عليه وفيه دلالة على أنه لم يرسل للدعوة العامة ملكا وقوله تعالى جاعل الملائكة رسلا معناه رسلا إلى الملائكة أو إلى الرسل ولا امرأة ولا صبيا ولا ينافيه نبوة عيسى عليه الصلاة والسلام وهو فى المهد لأنها أعم من الرسالة وإشارة إلى وجوب المراجعة إلى العلماء فيما لا يعلم ﴿ بالبينات والزبر ﴾ بالمعجزات والكتب والباء متعلقه بمقدر وقع جوابا عن سؤال من قال بم أرسلوا فقيل أرسلوا بالبينات والزبر أو بما أرسلنا داخلا تحت الاستثناء مع رجالا عند من يجوزه أى ما أرسلنا إلا رجالا بالبينات كقولك ما ضربت إلا زيدا بالسوط أو على نية التقديم قبل أداة الاستثناء أى ما أرسلنا من قبلك بالبينات والزبر إلا رجالا عند من يجوز تأخر صلة ما قبل إلا إلى ما بعده أو بما وقع صفه للمستثنى أى إلا رجالا ملتبسين بالبينات أو بنوحى على المفعولية أو الحاليه من القائم مقام فاعل يوحى وهو إليهم على أن قوله تعالى (فاسئلوا) اعتراض أو بقوله (لا تعلمون) على أن الشرط للتبكيت كقول الأجير إن كنت عملت لك فأعطنى حقى .

﴿ وأنزلنا إليك الذكر ﴾ أى القرآن وإنما سمى به لأنه تذكير وتنبيه للغافلين ﴿ لتبين الناس ﴾ كافة ويدخل فيهم أهل مكة دخولا أوليا ﴿ مانزل إليهم ﴾ فى ذلك الذكر من الأحكام والشرائع وغير ذلك من أحوال القرون المهلكة بأفانين العذاب حسب أعمالهم الموجبة لذلك على وجه التفصيل بيانا شافيا كما ينبىء عنه صيغة التفعيل فى الفعلين لا سيما بعد ورود الثانى أو لا على صيغة الإفعال ولما أن التبيين أعم من التصريح بالمقصود ومن الإرشاد إلى ما يدل عليه دخل تحته القياس على الإطلاق سواء كان فى الأحكام الشرعية أو غيرها ولعل قوله عز وجل ﴿ ولعلهم يتفكرون ﴾ إشارة إلى ذلك أى

إرادة أن يتأملوا فيتنبهوا للحقائق وما فيه من العبر ويحترزوا عما يؤدى إلى مثل ما أصاب الأولين من العذاب .

تهديد لمشركى مكة

﴿ أفأمن الذين مكروا السيئات ﴾ هم أهل مكة الذين مكروا برسول الله صلى الله عليه وسلم وراموا صد أصحابه عن الإيمان عليهم الرضوان لا الذين احتالوا لهلاك الأنبياء كما قيل ولا من يعم الفريقين لما أن المراد تحذير هؤلاء عن إصابة مثل ما أصاب أولئك من فنون العذاب المعدودة والسيئات نعت لمصدر محذوف أى مكروا المكرات السيئات التى قصت عنهم أو مفعول به للفعل المذكور على تضمينه معنى العمل أى عملوا السيئات فقوله تعالى : ﴿ أن يخسف الله بهم الأرض ﴾ مفعول لأمن أو السيئات صفة لما هو المفعول أى أفأمن الماكرون العقوبات السيئة وقوله أن يخسف الخ بدل من ذلك وعلى كل حال فالفاء للعطف على مقدر ينسحب عليه النظم الكريم أى أنزلنا إليك الذكر لتبين لهم مضمونه الذى من جملته إنباء الأمم المهلكة بفنون العذاب ويتفكروا فى ذلك ألم يتفكروا فأمن الذين مكروا السيئات أن يخسف الله بهم الأرض كما فعل بقارون على توجيه الإنكار إلى المعطوفين معاً أو أتفكروا فأمنوا على توجيهه إلى المعطوف على أن الأمن بعد التفكر مما لا يكاد يفعله أحد وقيل هو عطف على مقدر ينبىء عنه الصلة أى أمكر فأمن الذين مكروا الخ ﴿ أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون ﴾ بإتيانه أى فى حالة غفلتهم أو من مأمنهم أو من حيث يرجون إتيان ما يشتهون كما حكى فيما سلف مما نزل بالماكرين .

﴿ أو يأخذهم فى تقلبهم ﴾ أى فى حالة تقلبهم فى مسائرهم ومتاجرهم ، ﴿ فما هم بمعجزين ﴾ بممتنعين أو فائتين بالهرب والفرار على ما يوهمه حال التقلب والسير والفاء اما لتعليل الأخذ أو لترتيب عدم الإعجاز عليه دلالة على

شدته وفظاعته حسبما قال عليه السلام إن الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته وإيراد الجملة الاسمية للدلالة على دوام النفى لا نفى الدوام ﴿ أو يأخذهم على تخوف ﴾ أى مخافة وحذر عن الهلاك والعذاب بأن يهلك قوما قبلهم فيتخوفوا فيأخذهم العذاب وهم متخوفون وحيث كانت حالتا التقلب والتخوف مظنة الهرب عبر عن إصابة العذاب فيهما بالأخذ وعن إصابته حالة الغفلة المنبئة عن السكون بالاتيان وقيل التخوف التنقص قال قائلهم .

تخوف الرحل منها تامكا قردا كما تخوف عود النبعة السفن

أى يأخذهم على أن ينقصهم شيئاً بعد شىء فى أنفسهم وأموالهم حتى يهلكوا والمراد بذكر الأحوال الثلاث بيان قدرة الله سبحانه على اهلاكهم بأى وجه كان لا الحصر فيها ﴿ فإن ربكم لرؤف رحيم ﴾ حيث لا يعاجلكم بالعقوبة ويحلم عنكم مع استحقاقكم لها .

من دلائل عظمته تعالى

﴿ أو لم يروا ﴾ استفهام إنكارى وقرىء على صيغة الخطاب والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام أى ألم ينظروا ولم يروا متوجهين ﴿ إلى ما خلق الله من شىء ﴾ أى من كل شىء ﴿ يتفيؤ ظلاله ﴾ أى يرجع شيئاً فشيئاً حسبما يقتضيه إرادة الخالق تعالى فإن التفيؤ مطاوع الإفاءة وقرىء بتأنيث الفعل ﴿ عن اليمين والشمائل ﴾ أى ألم يروا الأشياء التى لها ظلال متفيئة عن أيمانها وشمائلها أى عن جانبى كل واحد منها استعير لهما ذلك من يمين الإنسان وشماله ﴿ سجداً لله ﴾ حال من الظلال كقوله تعالى (وظلالهم بالغدو والآصال) والمراد بسجودها تصرفها على مشيئة الله وتأتيها لإرادته تعالى فى الامتداد والتقلص وغيرهما غير ممتنعة عليه فيما سخرها له .

وقوله تعالى : ﴿ وهم داخرون ﴾ أى صاغرون منقادون حال من الضمير فى ظلاله والجمع باعتبار المعنى وإيراد الصيغة الخاصة بالعقلاء لما أن الدخور من خصائصهم والمعنى ترجع الظلال من جانب إلى جانب بارتفاع الشمس وانحدارها

أو باختلاف مشارقها ومغاربها فإنها كل يوم من أيام السنة تتحرك على مدار معين من المدارات اليومية بتقدير العزيز العليم منقادة لما قدر لها من التفيؤ أو واقعة على الأرض ملتصقة بها على هيئة الساجد والحال أن أصحابها من الأجرام داخرة منقادة لحكمه تعالى ووصفها بالدخور مغن عن وصف ظلالها به أو كلاهما حال من الضمير المشار إليه والمعنى ترجع ظلال تلك الأجرام حال كونها منقادة لله تعالى داخرة فوصفها بهما مغن عن وصف ظلالها بهما ، ولعل المراد بالموصول الجمادات من الجبال والأشجار والأحجار التى لا يظهر لظلالها أثر سوى التفيؤ بما ذكر من ارتفاع الشمس وانحدارها أو اختلاف مشارقها ومغاربها وأما الحيوان فظله يتحرك بتحركه ، وقيل المراد باليمين والشمائل يمين الفلك وهو جانبه الشرقى لأن الكواكب منه تظهر آخذة فى الارتفاع والسطوع وشماله وهو جانبه الغربى المقابل له فإن الظلال فى أول النهار تبتدىء من الشرق واقعة على الربع الغربى من الأرض وعند الزوال تبتدىء من الغرب واقعة على الربع الشرقى منها وبعد ما بين سجود الظلال وأصحابها من الأجرام السفلية الثابتة فى أخبارها ودخورها له سبحانه وتعالى شرع فى بيان سجود المخلوقات المتحركة بالإرادة سواء كانت لها ظلال أو لا فقيل .

﴿ ولله يسجد ﴾ أى له تعالى وحده يخضع وينقاد لا لشىء غيره استقلالا أو اشتراكا فالقصر ينتظم القلب والإفراد إلا أن الأنسب بحال المخاطبين قصر الإفراد كما يؤذن به قوله تعالى (وقال الله لا تتخذوا إلهين اثنين) ﴿ ما فى السموات ﴾ قاطبة ﴿ وما فى الأرض ﴾ كائنا ما كان ﴿ من دابة ﴾ بيان لما فى الأرض وتقديمه لقلته ولئلا يقع بين المبين والمبين فصل والإفراد مع أن المراد الجمع لإفادة وضوح شمول السجود لكل فرد من الدواب قال الأخفش هو كقولك ما أتانى من رجل مثله وما أتانى من الرجال مثله ﴿ والملائكة ﴾ عطف على ما فى السموات عطف جبريل على الملائكة تعظيما وإجلالا أو على أن يراد بما فى السموات الخلق الذى يقال له الروح أو يراد به ملائكة السموات وبقوله والملائكة ملائكة الأرض من الحفظة وغيرهم ﴿ وهم ﴾ أى الملائكة مع

علو شأنهم ﴿ لا يستكبرون ﴾ عن عبادته عز وجل والسجود له وتقديم الضمير ليس للقصر والجملة إما حال من ضمير الفاعل فى يسجد مسند إلى الملائكة أو استئناف أخبر عنهم بذلك ﴿ يخافون ربهم ﴾ أى مالك أمرهم وفيه تربية للمهابة وإشعار بعلة الحكم ﴿ من فوقهم ﴾ أى يخافونه جل وعلا خوف هيبة وإجلال وهو فوقهم بالقهر كقوله تعالى (وهو القاهر فوق عباده) أو يخافون أن يرسل عليهم عذابا من فوقهم والجملة حال من الضمير فى لا يستكبرون أو بيان له وتقرير لأن من يخاف الله سبحانه لا يستكبر عن عبادته ﴿ ويفعلون ما يؤمرون ﴾ أى ما يؤمرون به من الطاعات والتدبيرات وإيراد الفعل مبنيا للمفعول جرى على سنن الجلالة وإيذان بعدم الحاجة إلى التصريح بالفاعل لإستحالة استناده إلى غيره سبحانه وفيه أن الملائكة مكلفون مدارون بين الخوف والرجاء وبعد ما بين أن جميع الموجودات يخصون بالخضوع[١] والانقياد أصلا لله عز وجل أردف ذلك بحكاية نهيه سبحانه وتعالى للمكلفين عن الإشراك فقيل :

من مفتريات الكفار

﴿ وقال الله ﴾ عطفا على قوله ولله يسجد إظهار الفاعل وتخصيص لفظة الجلالة بالذكر للإيذان بأنه متعين الألوهية وإنما المنهى عنه هو الإشراك به لا أن المنهى عنه مطلق اتخاذ إلهين بحيث يتحقق الانتهاء عنه برفض أيهما كان أى قال تعالى لجميع المكلفين ﴿ لا تتخذوا إلهين اثنين ﴾ وإنما ذكر العدد مع أن صيغة التثنية مغنية عن ذلك دلالة على أن مساق النهى هو[٢] الاثنينية وأنها منافية للألوهية كما أن وصف الإله بالوحدة فى قوله تعالى : ﴿إنما هو إله واحد﴾ للدلالة على أن المقصود إثبات الوحدانية وأنها من لوازم الإلهية وأما الإلهية فأمر مسلم الثبوت له سبحانه وإليه أشير حيث أسند إليه القول ، وفيه التفات من التكلم إلى الغيبة على رأى من اكتفى فى تحقق الالتفات بكون الأسلوب

---

(١) فى ط : الخضوع (٢) فى ط : هى .

الملتفت عنه حق الكلام ولم يشترط سبق الذكر على ذلك الوجه ﴿ فإياى فارهبون ﴾ التفات من الغيبة إلى التكلم لتربية المهابة وإلقاء الرهبه فى القلوب ولذلك قدم المفعول وكرر الفعل أى إن كنتم راهبين شيئاً فإياى فارهبون لا غير فإنى ذلك الواحد الذى يسجد له ما فى السموات والأرض .

﴿ وله ما فى السموات والارض ﴾ خلقا وملكا تقريرا لعلة انقياد ما فيها له سبحانه خاصه وتحقيق لتخصيص الرهبه به تعالى وتقديم الحرف لتقوية ما فى اللام من معنى الاختصاص وكذا فى قوله تعالى ﴿ وله الدين ﴾ أى الطاعه والانقياد ﴿ واصبا ﴾ أى واجبا ثابتا لا زوال له لما تقرر أنه الإله وحده الحقيق بأن يرهب وقيل واصبا من الوصب أى وله الدين ذا كلفة وقيل الدين الجزاء أى وله الجزاء الدائم بحيث لا ينقطع ثوابه لمن آمن وعقابه لمن كفر ﴿ أفغير الله تتقون ﴾ الهمزة للإنكار والفاء للعطف على مقدر ينسحب عليه السياق أى أعقيب تقرر الشئون المذكورة من تخصيص جميع الموجودات المسجود به به تعالى وكون ذلك كله له ونهيه عن اتخاذ الأنداد وكون الدين له واصبا المستدعى ذلك لتخصيص التقوى به سبحانه غير الله الذى شأنه ماذكر تتقون فتطيعون ﴿ وما بكم ﴾ أى أى شىء يلابسكم ويصاحبكم ﴿ من نعمه ﴾ أية نعمه كانت ﴿ فمن الله ﴾ فهى من الله فما شرطيه أو موصولة متضمنه لمعنى الشرط باعتبار الإخبار دون الحصول فإن ملابسه النعمة بهم سبب للإخبار بأنها منه تعالى لا لكونها منه تعالى ﴿ ثم إذا مسكم الضر ﴾ مساساً يسيرا ﴿ فإليه تجأرون ﴾ تتضرعون فى كشفه لا إلى غيره والجؤار رفع الصوت بالدعاء والاستغاثة قال الأعشى :

يُراوح من صلوات المليـــك طورا سجوداً وطورا جؤارا

وقرىء تجرون بطرح الهمزة وإلقاء حركتها إلى ما قبلها وفى ذكر المساس المنبىء عن أدنى إصابة وإيراده بالجملة الفعلية المعربة عن الحدوث مع ثم

الدالة على وقوعه بعد برهة من الدهر وتحلية الضر بلام الجنس المفيدة لمساس أدنى ما ينطلق عليه اسم الجنس مع إيراد النعمة بالجملة الاسمية الدالة على الدوام والتعبير عن ملابستها للمخاطبين بباء الصاحبة وإيراد ما المعربة عن العموم ما لا يخفى من الجزالة والفخامة ولعل إيراد إذا دون أن للتوسل به إلى تحقق وقوع الجواب ﴿ ثم إذا كشف الضر عنكم ﴾ وقرىء كاشف الضر وكلمة ثم ليست للدلالة على تمادى زمان مساس الضر ووقوع الكشف بعد برهة مديدة بل للدلالة على تراخى رتبة ما يترتب عليه من مفاجأة الإشراك المدلول عليها بقوله سبحانه ﴿ إذا فريق منكم بربهم يشركون ﴾ فإن ترتبها على ذلك فى أبعد غاية من الضلال ثم إن وجه الخطاب إلى الناس جميعاً فمن للتبعيض والفريق فريق الكفرة وإن وجه إلى الكفرة فمن للبيان كأنه قيل إذا فريق كافرون أنتم ويجوز أن يكون فيهم من اعتبر وازدجر كقوله تعالى (فلما نجاهم إلى البر فمنهم مقتصد) فمن تبعيضية أيضا والتعرض لوصف الربوبية للإيذان بكمال قبح ما ارتكبوه من الإشراك والكفران .

﴿ ليكفروا بما آتيناهم ﴾ من نعمة الكشف عنهم كأنهم جعلوا غرضهم فى الشرك كفران النعمة وإنكار كونها من الله عز وجل ﴿ فتمتعوا ﴾ أمر تهديد والالتفات إلى الخطاب للإيذان بتناهى السخط وقرىء بالياء مبنياً للمفعول عطفاً على ليكفروا على أن يكون كفران النعمة والتمتع غرضا لهم من الإشراك ويجوز أن يكون اللام لام الأمر الوارد للتهديد ﴿ فسوف تعلمون ﴾ عاقبة أمركم وما ينزل بكم من العذاب وفيه وعيد أكيد منبىء عن أخذ شديد حيث لم يذكر المفعول إشعارا بأنه مما لا يوصف .

﴿ ويجعلون ﴾ لعله عطف على ما سبق بحسب المعنى تعداداً لجناياتهم أى يفعلون ما يفعلون من الجؤار إلى الله تعالى عند مساس الضرر ومن الإشراك به عند كشفه ويجعلون ﴿ لما لا يعلمون ﴾ أى لما لا يعلمون حقيقته وقدره الخسيس من الجمادات التى يتخذونها شركاء لله سبحانه جهالة وسفاهة ويزعمون أنها تنفعهم وتشفع لهم على أن ما موصولة والعائد إليها محذوف أو لما لا علم له

أصلا وليس من شأنه ذلك فما موصولة أيضا والعائد إليها ما فى الفعل من الضمير المستكن وصيغة جمع العقلاء لكون ما عبارة عن آلهتهم التى وصفوها بصفات العقلاء أو مصدرية واللام للتعليل أى لعدم علمهم والمجعول له محذوف للعلم بمكانه ﴿ نصيباً مما رزقناهم ﴾ من الزرع والأنعام وغيرهما تقربا إليها ﴿ تالله لتسألن ﴾ سؤال توبيخ وتقريع ﴿ عما كنتم تفترون ﴾ فى الدنيا بآلهة حقيقة بأن يتقرب إليها وفى تصدير الجملة بالقسم وصرف الكلام من الغيبة إلى الخطاب المنبىء عن كمال الغضب من شدة الوعيد ما لا يخفى .

﴿ ويجعلون لله البنات ﴾ هم خزاعة وكنانة الذين يقولون الملائكة بنات الله ﴿ سبحانه ﴾ تنزيه وتقديس له عز وجل عن مضمون قولهم ذلك أو تعجيب[1] من جراءتهم على التفوه بمثل تلك العظيمة ﴿ ولهم ما يشتهون ﴾ من البنين وما مرفوعة المحل على أنه مبتدأ والظرف المقدم خبره والجملة حالية وسبحانه اعتراض فى حق موقعه وجعلها منصوبة بالعطف على البنات أى يجعلون لأنفسهم ما يشتهون من البنين يؤدى إلى جعل الجعل بمعنى يعم الزعم والاختيار ﴿ وإذا بشر أحدهم بالأنثى ﴾ أى أخبر بولادتها ﴿ ظل وجهه ﴾ أى صار أو دام النهار كله ﴿ مسودا ﴾ من الكآبة والحياء من الناس واسوداد الوجه كناية عن الاغتمام والتشويش ﴿ وهو كظيم ﴾ ممتلىء حنقا وغيظا ﴿ يتوارى ﴾ أى يستخفى ﴿ من القوم من سوء ما بشر به ﴾ من أجل سوئه والتعبير عنها بما لإسقاطها عن درجة العقلاء ﴿ أيمسكه ﴾ أى مترددا فى أمره محدثاً نفسه فى شأنه أيمسكه ﴿ على هون ﴾ ذل وقرىء هوان ﴿ أم يدسه ﴾ يخفيه ﴿ فى التراب ﴾ بالوأد والتذكير باعتبار لفظ ما وقرىء بالتأنيث ﴿ ألا ساء ما يحكمون ﴾ حيث يجعلون ما هذا شأنه عندهم من الهون والحقارة لله المتعالى عن الصاحبة والولد والحال أنهم يتحاشون عنه ويختارون لأنفسهم البنين فمدار الخطأ جعلهم ذلك

---

(١) فى ١٠ تعجب .

لله سبحانه مع أبائهم إياه لا جعلهم البنين لأنفسهم ولا عدم جعلهم له سبحانه ويجوز أن يكون مداره التعكيس لقوله تعالى (تلك إذا قسمة ضيزى).

﴿ للذين لا يؤمنون بالآخرة ﴾ ممن ذكرت قبائحهم ﴿ مثل السوء ﴾ صفة السوء الذى هو كالمثل فى القبح وهى الحاجة إلى الولد ليقوم مقامه عند موتهم وإيثار الذكور للاستظهار بهم ووأد البنات لدفع العار وخشية الإملاق المنادى كل ذلك بالعجز والقصور والشح البالغ ووضع الموصول موضع الضمير للإشعار بأن مدار اتصافهم بتلك القبائح هو الكفر بالآخرة ﴿ ولله ﴾ سبحانه وتعالى ﴿ المثل الأعلى ﴾ أى الصفة العجيبة الشأن التى هى مثل فى العلو مطلقاً وهو الوجوب الذاتى والغنى المطلق والجود الواسع والنزاهة عن صفات المخلوقين ويدخل فيه علوه تعالى عما قالوه علوا كبيرا ﴿ وهو العزيز ﴾ المنفرد بكمال القدرة لا سيما على مؤاخذتهم بذنوبهم ﴿ الحكيم ﴾ الذى يفعل كل ما يفعل بمقتضى الحكمة البالغة وهذا أيضا من جملة صفاته العجيبة تعالى .

﴿ ولو يؤاخذ الله الناس ﴾ الكفار ﴿ بظلمهم ﴾ بكفرهم ومعاصيهم التى من جملتها ما عدد من قبائحهم وهذا تصريح بما أفاده قوله تعالى (وهو العزيز الحكيم) وإيذان بأن ما أتوه من القبائح قد تناهى إلى أمد لا غاية وراءه ﴿ ما ترك عليها ﴾ على الأرض المدلول عليها بالناس وبقوله تعالى ﴿ من دابة ﴾ أى ما ترك عليها شيئا من دابة قط بل أهلكها بالمرة بشؤم ظلم الظالمين كقوله تعالى (واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة) وعن أبى هريرة رضى الله عنه أنه سمع رجلا يقول : إن الظالم لا يضر إلا نفسه فقال « بلى والله حتى إن الحبارى لتموت فى وكرها بظلم الظالم » وعن ابن مسعود رضى الله عنه « كاد الجعل يهلك فى جحره بذنب ابن آدم أو من دابة ظالمة » وقيل لو أهلك الآباء لم يكن الأبناء ، فيلزم أن لا يكون فى الأرض دابة لما أنها مخلوقة لمنافع البشر لقوله سبحانه (هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعاً) ﴿ ولكن ﴾ لا يؤاخذهم بذلك بل ﴿ يؤخرهم إلى أجل مسمى ﴾ لأعمارهم أو لعذابهم كى يتوالدوا ويكثر عذابهم ﴿ فإذا جاء أجلهم ﴾ المسمى ﴿ لا يستأخرون ﴾ عن ذلك الأجل أى

لا يتأخرون وصيغة الاستفعال للإشعار بعجزهم عنه مع طلبهم له ﴿ ساعة ﴾ فذة وهى مثل فى قلة المدة ﴿ ولا يستقدمون ﴾ أى لا يتقدمون وإنما تعرض لذكره مع أنه لا يتصور الاستقدام عند مجىء الأجل مبالغة فى بيان عدم الاستئخار بنظمه فى سلك ما يمتنع كما فى قوله تعالى (وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إنى تبت الآن ولا الذين يموتون وهم كفار) فإن من مات كافراً مع أنه لا توبة له رأسا قد نظم فى سمط من لم تقبل توبته للإيذان بأنهما سيان فى ذلك وقد مر فى تفسير سورة يونس .

﴿ ويجعلون لله ﴾ أى يثبتون له سبحانه وينسبون إليه فى زعمهم ﴿ ما يكرهون ﴾ لأنفسهم مما ذكر وهو تكرير لما سبق تثنية للتقريع وتوطئة لقوله تعالى ﴿ وتصف ألسنتهم الكذب ﴾ أى يجعلون له تعالى ما يجعلون ومع ذلك تصف ألسنتهم الكذب وهو ﴿ أن لهم الحسنى ﴾ العاقبة الحسنى[1] عند الله تعالى كقوله (ولئن رجعت إلى ربى إن لى عنده للحسنى) وقرىء الكذب وهو جمع الكذوب على أنه صفة الألسنة ﴿ لا جرم ﴾ رد لكلامهم ذلك وإثبات لنقيضه أى حقا ﴿ أن لهم ﴾ مكان ما أملوا من الحسنى ﴿ النار ﴾ التى ليس وراء عذابها عذاب وهى علم فى السوآى ﴿ وأنهم مفرطون ﴾ أى مقدمون إليها من أفرطته أى قدمته فى طلب الماء وقيل منسيون من أفرطت فلانا خلفى إذا خلفته ونسيته وقرىء بالتشديد وفتح الراء من فرطته فى طلب الماء وبكسر الراء المشددة من التفريط فى الطاعات وبكسر المخففة من الإفراط فى المعاصى فلا يكونان حينئذ من أحوالهم الأخروية كما عطف عليه ﴿ تالله لقد أرسلنا إلى أمم من قبلك ﴾ تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم عما يناله من جهالات الكفرة ووعيد لهم على ذلك أى أرسلنا إليهم رسلا فدعوهم إلى الحق فلم يجيبوا إلى ذلك ﴿ فزين لهم الشيطان أعمالهم ﴾ القبيحة فعكفوا عليها مصرين ﴿ فهو وليهم ﴾ أى قرينهم وبئس القرين ﴿ اليوم ﴾ أى يوم زين لهم الشيطان أعمالهم فيه على طريق حكاية

---

(١) فى ١٠ الحسنة .

الحال الآتية وهى حال كونهم معذبين فى النار والولى بمعنى الناصر أى فهو ناصرهم اليوم لا ناصر لهم غيره مبالغة فى نفى الناصر عنهم ويجوز أن يكون الضمير عائدا إلى مشركى قريش والمعنى زين للأمم السالفة أعمالهم فهو ولى هؤلاء لأنهم منهم وأن يكون على حذف المضاف أى ولى أمثالهم ﴿ ولهم ﴾ فى الآخرة ﴿ عذاب أليم ﴾ هو عذاب النار .

﴿ وما أنزلنا عليك الكتاب ﴾ أى القرآن ﴿ إلا لتبين ﴾ استثناء مفرغ من أعم العلل أى ما أنزلناه عليك لعله من العلل إلا لتبين ﴿ لهم ﴾ أى للناس ﴿ الذى اختلفوا فيه ﴾ من التوحيد والقدر وأحكام الأفعال وأحوال المعاد ﴿ وهدى ورحمة ﴾ معطوفان على محل لتبين أى وللهداية والرحمة ﴿ لقوم يؤمنون ﴾ وإنما انتصبا لكونهما أثرى فاعل الفعل المعلل بخلاف التبيين حيث لم ينتصب لفقدان شرطه ولعل تقديمه عليهما لتقدمه فى الوجود وتخصيص كونهما هدى ورحمة بالمؤمنين لأنهم المغتنمون آثاره ﴿ والله أنزل من السماء ﴾ من السحاب أو من جانب السماء حسبما مر وهذا تكرير لما سبق تأكيدا لمضمونه وتوطئة لما يعقبه من أدلة التوحيد ﴿ ماء ﴾ نوعا خاصا من الماء هو المطر وتقديم المجرور على المنصوب لما مر مرارا من التشويق إلى المؤخر فأحيى به الأرض بما أنبت به فيها من أنواع النباتات ﴿ بعد موتها ﴾ أى بعد يبسها وما يفيده الفاء من التعقيب العادى لا ينافيه ما بين المعطوفين من المهلة ﴿ إن فى ذلك ﴾ أى فى إنزال الماء من السماء وإحياء الأرض الميتة به ﴿ لآية ﴾ وأية آية دالة على وحدته سبحانه وعلمه وقدرته وحكمته ﴿ لقوم يسمعون ﴾ هذا التذكير ونظائره سماع تفكر وتدبر فكان من ليس كذلك أصم .

مصادر الاعتبار

﴿ وإن لكم فى الأنعام لعبرة ﴾ عظيمة وأى عبرة تحار فى دركها العقول ويهيم فى فهمها ألباب الفحول ﴿ نسقيكم ﴾ استئناف لبيان ما أبهم أولا من العبرة ﴿ مما فى بطونه ﴾ أى بطون الأنعام والتذكير هنا لمراعاة جانب اللفظ فإنه

اسم جمع ولذلك عداه سيبويه فى المفردات المبنية على أفعال كأكباش وأخلاق كما أن تأنيثه فى سورة المؤمنين لرعاية جانب المعنى ومن جعله جمع نعم جعل الضمير للبعض فإن اللبن ليس لجميعها أو له على المعنى فإن المراد به الجنس وقرىء بفتح النون ههنا وفى سورة المؤمنين ﴿ من بين فرث ودم لبنا ﴾ الفرث فضالة ما يبقى من العلف فى الكرش المنهضمة بعض الانهضام وكثيف ما يبقى فى الأمعاء[1] وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن البهيمة إذا اعتلفت وانطبخ العلف فى كرشها كان أسفله فرثا وأوسطه لبنا وأعلاه دما ولعل المراد به أن أوسطه يكون مادة اللبن وأعلاه مادة الدم الذى يغذو البدن لأن عدم تكونهما فى الكرش مما لا ريب فيه بل الكبد تجذب صفاوة الطعام المنهضم فى الكرش ويبقى ثفله وهو الفرث ثم يمسكها ريثما يهضمها فيحدث أخلاطا أربعة معها مائية فتميز تلك المائية بما زاد على قدر الحاجة من المرتين الصفراء والسوداء وتدفعها إلى الكلية والمرارة والطحال ثم توزع الباقى على الأعضاء بحسبها فتجرى على كل حقه على ما يليق به بتقدير العزيز العليم ثم إن كان الحيوان أنثى زاد أخلاطها على قدر غذائها لاستيلاء البرد والرطوبة على مزاجها فيندفع الزائد أولا لأجل الجنين إلى الرحم فإذا انفصل انصب ذلك الزائد أو بعضه إلى الضروع فيبيض لمجاورته لحومها الغدوية البيض ويلذ طعمه فيصير لبنا ومن تدبر فى بدائع صنع الله تعالى فيما ذكر من الأخلاط والألبان وإعداد مقارها ومجاريها والأسباب المولدة لها وتسخير القوى المتصرفة فيها كل وقت على ما يليق به اضطر إلى الاعتراف بكمال علمه وقدرته وحكمته وتناهى رأفته ورحمته فمن الأولى تبعيضية لما أن اللبن بعض ما فى بطونه لأنه مخلوق من بعض أجزاء الدم المتولد من الأجزاء اللطيفة التى فى الفرث حسبما فصل والثانية ابتدائية كقولك سقيت من الحوض لأن بين الفرث والدم مبدأ الإسقاء وهى متعلقة بنسقيكم وتقديمه على المفعول لما مر مرارا من أن تقديم ما حقه التأخير يبعث للنفس شوقا إلى المؤخر موجبا لفضل تمكنه عند وروده عليها لا سيما إذا كان المقدم متضمنا لوصف مناف لوصف المؤخر كالذى نحن فيه فإن بين وصفى المقدم والمؤخر

(١) فى ط: المعاء .

تنافيا وتنائيا بحيث لا يتراءى ناراهما فإن ذلك مما يزيد الشوق والاستشراف إلى المؤخر كما فى قوله تعالى (الذى جعل لكم من الشجر الأخضر نارا) أو حال من لبنا قدم عليه لتنكيره والتنبيه على أنه موضع العبرة ﴿خالصا﴾ عن شائبة ما فى الدم والفرث من الأوصاف ببرزخ من القدرة القاهرة الحاجزة عن بغى أحدهما عليه مع كونهما مكتنفين له ﴿سائغا للشاربين﴾ سهل المرور فى حلقهم قيل لم يغص أحد باللبن وقرىء سيغا بالتشديد وبالتخفيف مثل هين وهين .

﴿ومن ثمرات النخيل والأعناب﴾ متعلق بما يدل عليه الاسقاء من مطلق الإطعام المنتظم لإعطاء المطعوم والمشروب فإن اللبن مطعوم كما أنه مشروب أى ونطعمكم من ثمرات النخيل ومن الأعناب أى من عصيرهما وقوله تعالى ﴿تتخذون منه سكرا﴾ استئناف لبيان كنه الإطعام وكشفه أو بقوله تتخذون منه وتكرير الظرف للتأكيد أو خبر لمبتدأ محذوف صفته تتخذون أى ومن ثمرات النخيل والأعناب ثمر تتخذون منه وحذف الموصوف إذا كان فى الكلام كلمة من سائغ نحو قوله تعالى (وما منا إلا له مقام معلوم) وتذكير الضمير على الوجهين الأولين لأنه للمضاف المحذوف أعنى العصير أو لأن المراد هو الجنس والسكر مصدر سمى به الخمر وقيل هو النبيذ وقيل هو الطعم ﴿ورزقا حسنا﴾ كالتمر والدبس والزبيب والخل والآية إن كانت سابقة النزول على تحريم الخمر فدالة على كراهتها وإلا فجامعة بين العتاب والمنة ﴿إن فى ذلك لآيات﴾ باهرة ﴿لقوم يعقلون﴾ يستعملون عقولهم فى الآيات بالنظر والتأمل .

﴿وأوحى ربك إلى النحل﴾ أى ألهمها وقذف فى قلوبها وعلمها بوجوه لا يعلمها إلا العليم الخبير وقرىء بفتحتين ﴿أن اتخذى﴾ أى بأن اتخذى على أن أن مصدرية ويجوز أن تكون مفسرة لما فى الإيحاء من معنى القول وتأنيث الضمير مع أن النحل مذكر للحمل على معنى أو لأنه جمع نحلة والتأنيث لغة أهل الحجاز ﴿من الجبال بيوتا﴾ أى أوكارا مع ما فيها من الخلايا وقرىء بيوتا

بكسر الباء ﴿ ومن الشجر ومما يعرشون ﴾ أى يعرشه الناس أى يرفعه من كرم أو سقف وقيل المراد به ما يرفعه الناس ويبنونه للنحل والمعنى اتخذى لنفسك بيوتا من الجبال والشجر إذا لم يكن لك أرباب وإلا فاتخذى ما يعرشونه لك وإيراد حرف التبعيض لما أنها لا تبنى فى كل جبل وفى كل شجر وكل عرش ولا فى كل مكان منها ﴿ ثم كلى من كل الثمرات ﴾ من كل ثمرة تشتهينها حلوها ومرها .

﴿ فاسلكى ﴾ ما أكلت منها ﴿ سبل ربك ﴾ أى مسالكه التى برأها بحيث يحيل أيها بقدرته القاهرة النور(١) المر عسلا من أجوافك أو فاسلكى الطرق التى ألهمك فى عمل العسل أو فاسلكى راجعة إلى بيوتك سبل ربك لا تتوعر عليك ولا تلتبس ﴿ ذللا ﴾ جمع ذلول وهو حال من السبل أى مذللة غير متوعرة ذللها الله سبحانه وسهلها لك أو من الضمير فى اسلكى أى اسلكى منقادة لما أمرت به ﴿ يخرج من بطونها ﴾ استئناف عدل به عن خطاب النحل لبيان ما يظهر منها من تعاجيب صنع الله تعالى التى هى موضع العبرة بعد ما أمرت بما أمرت ﴿ شراب ﴾ أى عسل لأنه مشروب واحتج به وبقوله تعالى (كلى) من زعم أن النحل تأكل الأزهار والأوراق العطرة فتستحيل فى بطنها عسلا ثم تقىء ادخارا للشتاء ومن زعم أنها تلتقط بأفواهها أجزاء قليلة حلوة صغيرة متفرقة على الأزهار والأوراق وتضعها فى بيوتها فإذا اجتمع فيها شىء كثير يكون عسلا فسر البطون بالأفواه ﴿ مختلف ألوانه ﴾ أبيض وأسود وأصفر وأحمر حسب اختلاف سن النحل أو الفصل أو الذى أخذت منه العسل ﴿ فيه شفاء للناس ﴾ إما بنفسه كما فى الأمراض البلغمية أو مع غيره كما فى سائر الأمراض إذ قلما يكون معجون لا يكون فيه عسل مع أن التنكير فيه مشعر بالتبعية ويجوز كونه للتفخيم وعن قتادة أن رجلا جاء إلى رسول الله صلى الله

---

(١) بتشديد النون وسكون الواو : وهو الزهر .

عليه وسلم فقال إن أخي يشتكي بطنه فقال عليه الصلاة والسلام اسقه العسل فذهب ثم رجع فقال قد سقيته فما نفع فقال اذهب فاسقه عسلا فقد صدق الله وكذب بطن أخيك فسقاه فبرىء كأنما أنشط من عقال وقيل الضمير للقرآن أو لما بين الله تعالى من أحوال النحل وعن ابن مسعود رضى الله عنه العسل شفاء لكل داء والقرآن شفاء لما فى الصدور فعليكم بالشفاءين العسل والقرآن ﴿ إن فى ذلك ﴾ الذى ذكر من أعاجيب آثار قدرة الله تعالى ﴿ لآية ﴾ عظيمة ﴿ لقوم يتفكرون ﴾ فإن من تفكر فى اختصاص النحل بتلك العلوم الدقيقة والأفعال العجيبة المشتملة على حسن الصنعة وصحة القسمة التى لا يقدر عليها حذاق المهندسين إلا بآلات دقيقة وأدوات أنيقة وأنظار دقيقة جزم قطعا بأن له خالقا قادرا حكيما يلهمها ذلك ويهديها إليه جل جلاله .

﴿ والله خلقكم ﴾ لما ذكر سبحانه من عجائب أحوال ما ذكر من الماء والنبات والأنعام والنحل أشار إلى بعض عجائب أحوال البشر من أول عمره إلى آخره وتطوراته فيما بين ذلك وقد ضبطوا مراتب العمر فى أربع الأولى سن النشو والنماء والثانية سن الوقوف وهى سن الشباب والثالثة سن الانحطاط القليل وهى سن الكهولة والرابعة سن الانحطاط الكبير وهى سن الشيخوخة ﴿ ثم يتوفاكم ﴾ حسبما تقتضيه مشيئته المبنية على حكم بالغة بآجال مختلفة أطفالا وشبابا وشيوخا ﴿ ومنكم من يرد ﴾ قبل توفيه أى يعاد ﴿ إلى أرذل العمر ﴾ أى أخسه وأحقره وهو خمس وسبعون سنة على ما روى عن على رضى الله عنه وتسعون سنة على ما نقل عن قتادة رضى الله عنه وقيل خمس وتسعون وإيثار الرد على الوصول والبلوغ ونحوهما للإيذان بأن بلوغه والوصول إليه رجوع فى الحقيقة إلى الضعف بعد القوة كقوله تعالى (ومن نعمره ننكسه فى الخلق) ولا عمر أسوأ حالا من عمر الهرم الذى يشبه الطفل فى نقصان العقل والقوة ﴿ لكيلا يعلم بعد علم ﴾ كثير ﴿ شيئا ﴾ من العلم أو من المعلومات أو لكيلا يعلم شيئا بعد علم بذلك الشىء وقيل لئلا يعقل بعد عقله الأول شيئاً

﴿ إن الله عليم ﴾ بمقادير أعماركم ﴿ قدير ﴾ على كل شيء يميت الشاب النشيط ويبقى الهرم الفانى وفيه تنبيه على أن تفاوت الآجال ليس إلا بتقدير قادر حكيم ركب أبنيتهم وعدل أمزجتهم على قدر معلوم ولو كان ذلك مقتضى الطبائع لما بلغ التفاوت هذا المبلغ .

﴿ والله فضل بعضكم على بعض فى الرزق ﴾ أى جعلكم متفاوتين فيه فأعطاكم منه أفضل مما أعطى مماليككم ﴿ فما الذين فضلوا ﴾ فيه على غيرهم ﴿ برادى رزقهم ﴾ الذى رزقهم الله ﴿ على ما ملكت أيمانهم ﴾ على مماليكهم الذين هم شركاؤهم فى المخلوقية والمرزوقية ﴿ فهم ﴾ أى الملاك والمماليك ﴿ فيه ﴾ أى فى الرزق ﴿ سواء ﴾ أى لا يردونه عليهم بحيث يساوونهم فى التصرف ويشاركونهم فى التدبير ، والفاء للدلالة على ترتيب التساوى على الرد أى لا يردونه عليهم ردا مستبعدا للتساوى ، وإنما يردون عليهم منه شيئا يسيرا فحيث لا يرضون بمساواة مماليكهم لأنفسهم وهم أمثالهم فى البشرية والمخلوقية لله عز سلطانه فى شيء لا يختص بهم بل يعمهم وإياهم من الرزق الذى هم أسوة لهم فى استحقاقه ، فما بالهم يشركون بالله سبحانه وتعالى فيما لا يليق إلا به من الألوهية والمعبودية الخاصة بذاته تعالى لذاته بعض مخلوقاته الذى هو بمعزل من درجة الاعتبار وهذا كما ترى مثل ضرب لكمال قباحة ما فعله المشركون تقريعا عليهم كقوله تعالى (هل لكم مما ملكت أيمانكم من شركاء فيما رزقناكم فأنتم فيه سواء) الآية ﴿ أفبنعمة الله يجحدون ﴾ حيث يفعلون ما يفعلون من الإشراك فإن ذلك يقتضى أن يضيفوا نعم الله سبحانه الفائضة عليهم إلى شركائهم ويجحدوا كونها من عند الله تعالى أو حيث أنكروا أمثال هذه الحجج البالغة بعد ما أنعم الله بها عليهم والباء لتضمين الجحود معنى الكفر نحو وجحدوا بها والفاء للعطف على مقدر وهى داخلة فى المعنى على الفعل أى أيشركون به فيجحدون نعمته وقرىء تجحدون على الخطاب أو ليس الموالى برادىّ رزقهم على مماليكهم بل أنا الذى أرزقهم وإياهم فلا يحسبوا أنهم يعطونهم شيئا وإنما هو رزقى أجريه

على أيديهم فهم جميعا فى ذلك سواء لا مزية لهم على مماليكهم ألا يفهمون ذلك فيجحدون نعمة الله فهو رد على زعم المفضلين أو على فعلهم المؤذن بذلك أو ما المفضلون برادى بعض فضلهم على مماليكهم فيتساووا فى ذلك جميعا مع أن التفضيل ليس إلا ليبلوهم أيشكرون أم يكفرون ألا يعرفون ذلك فيجحدون نعمة الله تعالى كأنه قيل فلم يردوه عليهم والجملة الاسمية للدلالة على استمرارهم على عدم الرد يحكى عن أبى ذر رضى الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول إنما هم إخوانكم فاكسوهم مما تلبسون وأطعموهم مما تطعمون فما رؤى عبده بعد ذلك إلا ورداؤه رداؤه وإزاره إزاره من غير تفاوت .

﴿ والله جعل لكم من أنفسكم ﴾ أى من جنسكم ﴿ أزواجا ﴾ لتأنسوا بها وتقيموا بذلك جميع مصالحكم ويكون أولادكم أمثالكم وقيل هو خلق حواء من ضلع آدم عليه الصلاة والسلام ﴿ وجعل لكم من أزواجكم ﴾ وضع الظاهر موضع المضمر للإيذان بأن المراد جعل لكم من زوجه لا من غيره ﴿ بنين ﴾ وبأن نتيجة الأزواج هو التوالد ﴿ وحفدة ﴾ جمع حافد وهو الذى يسرع فى الخدمة والطاعة ومنه قول القانت « وإليك نسعى ونحفد » أى جعل لكم خدما يسرعون فى خدمتكم وطاعتكم . فقيل المراد بهم أولاد الأولاد ، وقيل البنات عبر عنهن بذلك إيذانا بوجه المنة بأنهن يخدمن البيوت أتم خدمة وقيل أولاد المرأة من الزوج الأول وقيل البنون والعطف لاختلاف الوصفين وقيل الأختان على البنات وتأخير المنصوب فى الموضعين عن المجرور لما مر من التشويق وتقديم المجرور باللام على المجرور بمن للإيذان من أول الأمر بعود منفعة الجعل إليهم إمدادا للتشويق وتقويه له أى جعل لمصلحتكم مما يناسبكم أزواجا وجعل لمنفعتكم من جهة مناسبة لكم بنين وحفدة ﴿ ورزقكم من الطيبات ﴾ من اللذائذ أو من الحلالات ومن للتبعيض إذ المرزوق فى الدنيا أنموذج لما فى الآخرة ﴿ أفبالباطل يؤمنون ﴾ وهو أن الأصنام تنفعهم وأن البحائر ونحوها حرام والفاء فى المعنى داخلة على الفعل وهى للعطف على مقدر أى أيكفرون

بالله الذى شأنه هذا فيؤمنون بالباطل أو أبعد تحقق ما ذكر من نعم الله تعالى بالباطل أو أبعد تحقق ماذكر من نعم الله تعالى بالباطل يؤمنون دون الله سبحانه ﴿ وبنعمة الله ﴾ تعالى الفائضة عليهم مما ذكر ومما لا يحيط به دائرة البيان ﴿ هم يكفرون ﴾ حيث يضيفونها إلى الأصنام وتقديم الصلة على الفعل للاهتمام أو لإيهام الاختصاص مبالغة أو لرعاية الفواصل والالتفات إلى الغيبة للإيذان باستيجاب حالهم للإعراض عنهم وصرف الخطاب إلى غيرهم من السامعين تعجيبا لهم مما فعلوه .

﴿ ويعبدون من دون الله ﴾ لعله عطف على يكفرون داخل تحت الإنكار التوبيخى أى أيكفرون بنعمة الله ويعبدون من دونه ﴿ ما لا يملك لهم رزقا من السموات والأرض شيئا ﴾ إن جعل الرزق مصدرا فشيئاً نصب على المفعولية منه أى ما لا يقدر على أن يرزقهم شيئاً لا من السموات مطرا ولا من الأرض نباتا ، وإن جعل اسما للمرزوق فنصب على البدلية منه بمعنى قليلا ومن السموات والأرض صفة لرزقا أى كائنا منهما ويجوز كونه تأكيدا للا يملك أى لا يملك رزقا ما شيئا من الملك ﴿ ولا يستطيعون ﴾ أن يملكوه إذ لا استطاعة لهم رأساً لأنها موات لا حراك بها ، فالضمير للآلهة ويجوز أن يكون للكفرة[1] على معنى أنهم مع كونهم أحياء متصرفين فى الأمور لا يستطيعون من ذلك شيئا فكيف بالجماد الذى لا حس به ﴿ فلا تضربوا لله الأمثال ﴾ التفات إلى الخطاب للايذان بالاهتمام بشأن النهى أى لا تشركوا به شيئاً والتعبير عن ذلك بضرب المثل للقصد إلى النهى عن الإشراك به تعالى فى شأن من الشئون فإن ضرب المثل مبناه تشبيه حالة بحالة وقصة بقصة أى لا تشبهوا بشأنه تعالى شأنا من الشئون واللام مثلها فى قوله تعالى (ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح) (وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون) لا مثلها فى قوله تعالى (واضرب لهم مثلا أصحاب

---

(١) فى ١٠ الكفار .

القرية) ونظائره والفاء للدلالة على ترتب النهى على ما عده من النعم الفائضة عليهم من جهته سبحانه وكون ما يشركون به تعالى بمعزل من أن يملك لهم من إمطار السموات والأرض شيئاً من رزق ما فضلا عما فصل من نعمة الخلق والتفضيل فى الرزق ونعمة الأزواج والأولاد ﴿إن الله يعلم﴾ تعليل للنهى المذكور ووعيد على المنهى عنه أى أنه تعالى يعلم كنه ما تأتون وما تذرون وأنه فى غاية العظم والقبح ﴿ وأنتم لا تعلمون ﴾ ذلك وإلا لما فعلتموه أو أنه تعالى يعلم كنه الأشياء وأنتم لا تعلمونه فدعوا رأيكم وقفوا مواقف الامتثال لما ورد عليكم من الأمر والنهى ويجوز أن يراد فلا تضربوا لله الأمثال إن الله يعلم كيف تضرب الأمثال وأنتم لا تعلمون ذلك فتقعون فيما تقعون فيه من مهاوى الردى والضلال ثم علمهم كيفية ضرب الأمثال فى هذا الباب فقال :

من أمثال القرآن

﴿ ضرب الله مثلا ﴾ أى ذكر وأورد شيئا يستدل به على تباين الحال بين جنابه عز وجل وبين ما أشركوا به وعلى تباعدهما بحيث ينادى بفساد ما ارتكبوه نداء جليا ﴿ عبدا مملوكا لا يقدر على شىء ﴾ بدل من مثلا وتفسير له والمثل فى الحقيقة حالته العارضة له من المملوكية والعجز التام وبحسبها ضرب نفسه مثلا ووصف العبد بالمملوكية للتمييز عن الحر لاشتراكهما فى كونهما عبدان لله سبحانه وقد أدمج فيه أن الكل عبيد له تعالى وبعدم القدرة لتميزه عن المكاتب والمأذون اللذين لهما تصرف فى الجملة وفى إبهام المثل أولا ثم بيانه بما ذكر مالا يخفى من الفخامة والجزالة ﴿ ومن رزقناه ﴾ مَن موصوفة معطوفة على عبدا أى رزقناه بطريق الملك والالتفات إلى التكلم للإشعار باختلاف حالى ضرب المثل والرزق ﴿ منا ﴾ من جنابنا الكبير المتعالى ﴿ رزقا حسنا ﴾ حلالا طيبا أو مستحسنا عند الناس مرضيا ﴿ فهو ينفق منه ﴾ تفضلا وإحسانا والفاء لترتيب الإنفاق على الرزق كأنه قيل ومن رزقناه منا رزقا حسنا فأنفق وإيثار ما عليه النظم الكريم من الجملة الاسمية الفعلية الخبر للدلالة على ثبات الإنفاق

واستمراره التجددى ﴿ سرا وجهرا ﴾ أى حال السر والجهر أو إنفاق سر وإنفاق جهر والمراد بيان عموم إنفاقه للأوقات وشمول إنعامه لمن يجتنب عن قبوله جهرا والإشارة إلى أصناف نعم الله تعالى الباطنة والظاهرة وتقديم السر على الجهر للإيذان بفضله عليه والعدول عن تطبيق القرينتين بأن يقال وحرا مالكا للأموال مع كونه أدل على تباين الحال بينه وبين قسيمه لتوخى تحقيق الحق بأن الأحرار أيضا تحت ربقة عبوديته سبحانه وتعالى وأن مالكيتهم لما يملكونه ليست إلا بأن يرزقهم الله تعالى إياه من غير أن يكون لهم مدخل فى ذلك مع محاولة المبالغة فى الدلالة على ما قصد بالمثل من تباين الحال بين الممثلين فإن العبد المملوك حيث لم يكن مثل العبد المالك فما ظنك بالجماد ومالك الملك خلاق العالمين .

﴿ هل يستوون ﴾ جمع الضمير للإيذان بأن المراد بما ذكر من اتصف بالأوصاف المذكورة من الجنسين المذكورين لافردان معينان منهما أى يستوى العبيد والأحرار الموصوفون بما ذكر من الصفات مع أن الفريقين سيان فى البشرية والمخلوقية لله سبحانه وأن ما ينفقه الأحرار ليس مما لهم دخل فى إيجاده ولا فى تملكه بل هو مما أعطاه الله تعالى إياهم فحيث لم يستو الفريقان فما ظنكم برب العالمين حيث تشركون به ما لا ذليل أذل منه وهو الأصنام ﴿ الحمد لله ﴾ أى كله له لأنه مولى جميع النعم لا يستحقه أحد غيره وإن ظهرت على أيدى بعض الوسايط فضلا عن استحقاق العبادة ، وفيه إرشاد إلى ما هو الحق من أن يظهر على يد من ينفق مما ذكر راجع إليه سبحانه كما لوح به قوله تعالى (رزقناه) ﴿ بل أكثرهم لا يعلمون ﴾ ما ذكر فيضيفون نعمه تعالى إلى غيره ويعبدونه لأجلها ونفى العلم عن أكثرهم للإشعار بأن بعضهم يعلمون ذلك وإنما لا يعملون بموجبه عنادا كقوله تعالى (يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها وأكثرهم الكافرون) .

﴿ وضرب الله مثلا ﴾ أى مثلا آخر يدل على ما دل عليه المثل السابق على وجه أوضح وأظهر وبعد ما أبهم ذلك لتنتظر النفس إلى وروده وتترقبه حتى يتمكن لديها عند وروده بين فقيل ﴿ رجلين أحدهما أبكم ﴾ وهو من ولد أخرس ﴿ لا يقدر على شىء ﴾ من الأشياء المتعلقة بنفسه أو بغيره بحدس أو فراسة لقلة فهمه وسوء إدراكه ﴿ وهو كل ﴾ ثقل وعيال ﴿ على مولاه ﴾ على من يعوله ويلى أمره وهذا بيان لعدم قدرته على إقامة مصالح نفسه بعد ذكر عدم قدرته على شىء مطلقا وقوله تعالى ﴿ أينما يوجهه ﴾ أى حيث يرسله مولاه فى أمر بيان لعدم قدرته على إقامة مصالح مولاه ولو كانت مصلحة يسيرة وقرىء على البناء للمفعول وعلى صيغة الماضى من التوجه ﴿ لا يأت بخير ﴾ بنجح وكفاية مهم البتة .

﴿ هل يستوى هو ﴾ مع ما فيه من الأوصاف المذكورة ﴿ ومن يأمر بالعدل ﴾ أى من هو منطيق فهم ذو رأى وكفاية ورشد ينفع الناس بحثهم على العدل الجامع لمجامع الفضائل ﴿ وهو ﴾ فى نفسه مع ما ذكر من نفعه العام للخاص والعام ﴿ على صراط مستقيم ﴾ ومقابلة الصفات المذكورة عدم استحقاق المأمورية وملخص هذين استحقاق كمال الآمرية المستتبع لحيازة المحاسن بأجمعها وتغيير الأسلوب حيث لم يقل والآخر آمر بالعدل الآية لمراعاة الملاءمة بينه وبين ما هو المقصود من بيان التباين بين القرينتين واعلم أن كلا من الفعلين ليس المراد بهما حكاية الضرب الماضى بل المراد إنشاؤه بما ذكر عقيبه ولا يبعد أن يقال إن الله تعالى ضرب مثلا بخلق الفريقين على ماهما عليه فكان خلقهما كذلك للاستدلال بعدم تساويهما على امتناع التساوى بينه سبحانه وبين ما يشركون فيكون كل من الفعلين حكاية للضرب الماضى .

﴿ ولله ﴾ تعالى خاصة لا لأحد غيره استقلالا ولا اشتراكا ﴿ غيب السموات والأرض ﴾ أى الأمور الغائبة عن علوم المخلوقين قاطبة بحيث

لا سبيل لهم إليها لا مشاهدة ولا استدلالا ومعنى الإضافة إليهما التعلق بهما إما باعتبار الوقوع فيهما حالا أو مآلا وإما باعتبار الغيبة عن أهلهما والمراد بيان الاختصاص به تعالى من حيث المعلومية حسبما ينبىء عنه عنوان الغيبية لا من حيث المخلوقية والمملوكية وإن كان الأمر كذلك فى نفس الأمر ، وفيه إشعار بأن علمه سبحانه حضورى فإن تحقق الغيوب فى أنفسها علم بالنسبة إليه تعالى ولذلك لم يقل ولله علم غيب السموات والأرض ﴿ وما أمر الساعة ﴾التى هى أعظم ما وقع فيه المماراة من الغيوب المتعلقة بهما من حيث غيبتها عن أهلهما أو ظهور آثارها فيهما عند وقوعها فإن وقت وقوعها بعينه من الغيوب المختصة به سبحانه وإن كانت آنيتها من الغيوب التى نصبت عليها الأدلة أى ماشأنها فى سرعة المجىء ﴿ إلا كلمح البصر ﴾ أى كرجع الطرف من أعلى الحدقة إلى أسفلها ﴿ أو هو ﴾ أى بل أمرها فيما ذكر ﴿ أقرب ﴾ من ذلك وأسرع زمانا بأن يقع فى بعض من زمانه فإن ذلك وإن قصر حركة آنية لها هوية اتصالية منطبقة على زمان له هوية كذلك قابل للانقسام إلى أبعاض هى أزمنة أيضا ، بل فى آن غير منقسم من ذلك الزمان وهو آن ابتداء تلك الحركة أو ما أمرها إلا كالشىء الذى يستقرب ويقال هو كلمح البصر أو هو أقرب وأياما كان فهو تمثيل لسرعة مجيئها حسبما عبر عنها فى فاتحة السورة الشريفة بالإتيان .

﴿ إن الله على كل شىء قدير ﴾ومن جملة الأشياء أن يجىء بها أسرع مايكون فهو قادر على ذلك أو وما أمر إقامة الساعة التى كنهها وكيفيتها من الغيوب الخاصة به سبحانه وهى إماتة الأحياء وإحياء الأموات من الأولين والآخرين وتبديل صور الأكوان أجمعين وقد أنكرها المنكرون وجعلوها من قبيل ما لا يدخل تحت الإمكان فى سرعة الوقوع وسهولة التأتى إلا كلمح البصر أو هو أقرب على ما مر من الوجهين إن الله على كل شىء قدير فهو قادر على ذلك لا محالة وقيل غيب السموات والأرض عبارة عن يوم القيامة بعينه لما أن علمه بخصوصه غائب عن أهلهما فوضع الساعة موضع الضمير لتقوية مضمون الجملة

﴿ والله أخرجكم من بطون أمهاتكم ﴾ عطف على قوله تعالى (والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا) منتظم معه فى سلك أدلة التوحيد من قوله تعالى (والله أنزل من السماء ماء) وقوله تعالى (والله خلقكم) وقوله تعالى : (والله فضل بعضكم على بعض) والأمهات بضم الهمزة وقرىء بكسرها أيضا جمع الأم زيدت الهاء فيه كما زيدت فى أهراق من أراق وشذت زيادتها فى الواحدة قال :

* أمهتى خندف والياس أبى *

﴿ لا تعلمون شيئاً ﴾ فى موقع الحال أى غير عالمين شيئاً أصلا ﴿ وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة ﴾ عطف على أخرجكم وليس فيه دلالة على تأخر الجعل المذكور عن الإخراج لما أن مدلول الواو هو الجمع مطلقا لا الترتيب على أن أثر ذلك الجعل لا يظهر قبل الإخراج أى جعل لكم هذه الأشياء آلات تحصلون بها العلم والمعرفة بأن تحسوا بمشاعركم جزئيات الأشياء وتدركوها بأفئدتكم وتتنبهوا لما بينها من المشاركات والمباينات بتكرر الإحساس فيحصل لكم علوم بديهية تتمكنون بالنظر فيها من تحصيل العلوم الكسبية والأفئدة جمع فؤاد وهو وسط القلب وهو للقلب كالقلب من الصدر وهو من جموع القلة التى جرت مجرى جموع الكثرة وتقديم المجرور على المنصوبات لما مر من الإيذان من أول الأمر بكون المجعول نافعا لهم وتشويق النفس إلى المؤخر ليتمكن عند وروده عليها فضل تمكن ﴿ لعلكم تشكرون ﴾ كى تعرفوا ما أنعم به عليكم طورا غب طور فتشكروه وتقديم السمع على البصر لما أنه طريق تلقى الوحى أو لأن إدراكه أقدم من إدراك البصر وإفراده باعتبار كونه مصدرا فى الأصل .

﴿ ألم يروا ﴾ وقرىء بالتاء ﴿ إلى الطير ﴾ جمع طائر أى ألم ينظروا إليها ﴿ مسخرات ﴾ مذللات للطيران بما خلق لها من الأجنحة والأسباب المساعدة

له وفيه مبالغة من حيث أن معنى التسخير جعل الشيء منقادا لآخر يتصرف فيه كيف يشاء كتسخير البحر والفلك والدواب للإنسان والواقع ههنا تسخير الهواء للطير لتطير فيه كيف تشاء فكان مقتضى طبيعة الطير السقوط فسخرها الله تعالى للطيران وفيه تنبيه على أن الطيران ليس بمقتضى طبع الطير بل ذلك بتسخير الله تعالى ﴿في جو السماء﴾ أي في الهواء المتباعد من الأرض والسكاك واللوح أبعد منه وإضافته إلى السماء لما أنه في جانبها من الناظر ولإظهار كمال أجل القدرة .

﴿ما يمسكهن﴾ في الجو حين قبض أجنحتهن وبسطها ووقوفهن ﴿إلا الله﴾ عز وجل بقدرته الواسعة فإن ثقل جسدها ورقة قوام الهواء يقتضيان سقوطها ولا علاقة من فوقها ولا دعامة من تحتها وهو إما حال من الضمير المستتر في مسخرات أو من الطير وأما مستأنف ﴿إن في ذلك﴾ الذي ذكر من تسخير الطير للطيران بأن خلقها خلقة تتمكن بها منه بأن جعل لها أجنحة خفيفة وأذنابا كذلك وجعل أجسادها من الخفة بحيث إذا بسطت أجنحتها وأذنابها لا يطيق ثقلها يخرق ما تحتها من الهواء الرقيق القوام وتخرق ما بين يديها من الهواء لأنها لاتلاقيه بحجم كبير ﴿لآيات﴾ ظاهرة ﴿لقوم يؤمنون﴾ أي من شأنهم أن يؤمنوا وإنما خص ذلك بهم لأنهم المنتفعون به .

﴿والله جعل لكم﴾ معطوف على ما مر وتقديم لكم على ما سيأتي من المجرور والمنصوب لما مر من الإيذان من أول الأمر بأنه لمصلحتهم ومنفعتهم لتشويق النفس إلى وروده وقوله تعالى ﴿من بيوتكم﴾ أي المعهودة التي تبنونها من الحجر والمدر تبيين ذلك المجعول المبهم في الجملة وتأكيد لما سبق من التشويق ﴿سكنا﴾ فعل بمعنى مفعول أي موضعا تسكنون فيه وقت إقامتكم أو تسكنون إليه من غير أن ينتقل من مكانه أي جعل بعض بيوتكم بحيث تسكنون إليه وتطمئنون به ﴿وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتا﴾ أي بيوتا أخر مغايرة لبيوتكم المعهودة هي الخيام والقباب والأخبية والفساطيط .

﴿ تستخفونها ﴾ تجدونها خفيفة سهلة المأخذ ﴿يوم ظعنكم﴾ وقت ترحالكم في النقض والحمل والنقل وقرىء بفتح العين ﴿ ويوم إقامتكم ﴾ وقت نزولكم في الضرب والبناء ﴿ ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها ﴾ عطف على قوله تعالى (من جلودها) والضمائر للأنعام على وجه التنويع[1] أي وجعل لكم من أصواف الضأن وأوبار الإبل وأشعار المعز ﴿ أثاثا ﴾ أي متاع البيت وأصله الكثرة والاجتماع ومنه شعر أثيث ﴿ ومتاعا ﴾ أي شيئاً يتمتع به بفنون التمتع ﴿ إلى حين ﴾ إلى أن تقضوا منه أوطاركم أو إلى أن يبلى ويفنى فإنه في معرض البلا والفناء وقيل إلى أن تموتوا والكلام في ترتيب المفاعيل مثل ما مر من قبل ﴿والله جعل لكم مما خلق﴾ من غير صنع من قبلكم ﴿ظلالا ﴾ أشياء تستظلون بها من الحر كالغمام والشجر والجبل وغيرها امتن سبحانه بذلك لما أن تلك الديار غالبة الحرارة ﴿ وجعل لكم من الجبال أكنانا ﴾ مواضع تسكنون فيها من الكهوف والغيران والسروب والكلام في الترتيب الواقع بين المفاعيل كالذي مر غير مرة .

﴿ وجعل لكم سرابيل ﴾ جمع سربال وهو كل ما يلبس أي جعل لكم ثيابا من القطن والكتان والصوف وغيرها ﴿ تقيكم الحر ﴾ خصه بالذكر اكتفاء بذكر أحد الضدين عن ذكر الآخر أو لأن وقايته هي الأهم عندهم لما مر آنفا ﴿ وسرابيل ﴾ من الدروع والجواشن ﴿ تقيكم بأسكم ﴾ أي البأس الذي يصل إلى بعضكم من بعض في الحرب من الضرب والطعن ولقد من الله سبحانه علينا حيث ذكر جميع نعمه الفائضة على جميع الطوائف فبدأ بما يخص المقيمين حيث قال (والله جعل لكم من بيوتكم سكنا) ثم بما يخص المسافرين ممن لهم قدرة على الخيام وأضرابها حيث قال وجعل لكم من جلود الأنعام الخ ثم بما يعم من لا يقدر على ذلك ولا يأويه إلا الظلال حيث قال (وجعل لكم مما خلق ظلالا) الخ ثم بما لابد منه لأحد حيث قال (وجعل لكم سرابيل) الخ ثم بما لاغنى

---

(١) في ١٠ على وجه التلوين .

عنه فى الحروب حيث قال (وسرابيل تقيكم بأسكم) ثم قال ﴿ كذلك ﴾ أى مثل ذلك الإتمام البالغ ﴿ يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون ﴾ أى إرادة أن تنظروا فيما أسبغ عليكم من النعم الظاهرة والباطنة والأنفسية والآفاقية فتعرفوا حق منعمها فتؤمنوا به وحده وتذروا ما كنتم به تشركون وتنقادوا لأمره وإفراد النعمة إما لأن المراد بها المصدر أو لإظهار أن ذلك بالنسبة إلى جانب الكبرياء شىء قليل وقرىء تسلمون أى تسلمون من العذاب أو من الشرك وقيل من الجراح بلبس الدروع .

﴿ فإن تولوا ﴾ فعل ماض على طريقة الالتفات وصرف الخطاب عنهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم تسلية له أى فإن أعرضوا عن الإسلام ولم يقبلوا منك ما ألقى إليهم من البينات والعبر والعظات ﴿ فإنما عليك البلاغ المبين ﴾ أى فلا قصور من جهتك لأن وظيفتك هى البلاغ الموضح أو الواضح وقد فعلته بما لامزيد عليه فهو من باب وضع السبب موضع المسبب ﴿ يعرفون نعمة الله ﴾ استئناف لبيان أن توليهم وإعراضهم عن الإسلام ليس لعدم معرفتهم بما عدد من نعم الله تعالى أصلا فإنهم يعرفونها ويعترفون أنها من الله تعالى ﴿ ثم ينكرونها ﴾ بأفعالهم حيث يعبدون غير منعمها أو بقولهم إنها بشفاعة آلهتنا أو بسبب كذا وقيل نعمة الله تعالى نبوة محمد صلى الله عليه وسلم عرفوها بالمعجزات كما يعرفون أبناءهم ثم أنكروها عنادا ، ومعنى ثم لاستبعاد[1] الإنكار بعد المعرفة لأن حق من عرف النعمة الاعتراف بها لا الإنكار وإسناد المعرفة والإنكار المتفرع عليها إلى ضمير المشركين على الإطلاق من باب إسناد حال البعض إلى الكل كقولهم بنو فلان قتلوا فلانا وإنما القاتل واحد منهم فإن بعضهم ليسوا كذلك لقوله سبحانه ﴿ وأكثرهم الكافرون ﴾ أى المنكرون بقلوبهم غير المعترفين بما ذكر والحكم عليهم بمطلق الكفر المؤذن بالكمال من حيث الكمية لا ينافى كمال الفرقة الأولى من حيث الكيفية هذا وقد قيل ذكر الأكثر إما لأن بعضهم

---

(١) فى ١٠ استبعاد الإنكار

لم يعرفوا لنقصان العقل أو التفريط فى النظر أو لم يقم عليه الحجة لأنه لم يبلغ حد التكليف فتدبر .

﴿ ويوم نبعث من كل أمة شهيدا ﴾ يشهد لهم بالإيمان والطاعة وعليهم بالكفر والعصيان وهو نبيها ﴿ ثم لا يؤذن للذين كفروا ﴾ فى الاعتذار إذ لا عذر لهم وثم للدلالة على أن ابتلاءهم بالمنع عن الاعتذار المنبىء عن الإقناط الكلى وهو عندما يقال لهم (اخسئوا فيها ولا تكلمون) أشد من ابتلائهم بشهادة الأنبياء عليهم السلام عليهم وأطم ﴿ ولاهم يستعتبون ﴾ يسترضون أى لا يقال لهم أرضوا ربكم إذ الآخرة دار الجزاء لا دار العمل وانتصاب الظرف بمحذوف تقديره اذكر أو خوفهم يوم نبعث الخ أو يوم نبعث بهم ما يحيق مما لا يوصف وكذا قوله تعالى ﴿ وإذا رأى الذين ظلموا العذاب ﴾ الذى يستوجبونه بظلمهم وهو عذاب جهنم ﴿ فلا يخفف عنهم ﴾ ذلك ﴿ ولا هم ينظرون ﴾ أى يمهلون كقوله تعالى بل تأتيهم بغتة فتبهتهم .

﴿ وإذا رأى الذين أشركوا شركاءهم ﴾ الذين كانوا يدعونهم فى الدنيا وهم الأوثان أو الشياطين الذين شاركوهم فى الكفر بالحمل عليه وقارنوهم فى الغى والضلال ﴿ قالوا ربنا هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعو من دونك ﴾ أى نعبدهم أو نطيعهم ولعلهم قالوا ذلك طمعا فى توزيع العذاب بينهم كما ينبىء عنه قوله سبحانه ﴿ فألقوا ﴾ أى شركاؤهم ﴿ إليهم القول إنكم لكاذبون ﴾ فإن تكذيبهم إياهم فيما قالوا ليس إلا للمدافعة والتخلص عن غائلة مضمونه وإنما كذبوهم وقد كانوا يعبدونهم ويطيعونهم لأن الأوثان ما كانوا راضين بعبادتهم لهم فكأن عبادتهم لهم كما قالت الملائكة عليهم السلام بل كانوا يعبدون الجن يعنون أن الجن هم الذين كانوا راضين بعبادتهم لا نحن أو كذبوهم فى تسميتهم شركاء وآلهة تنزيها لله سبحانه عن الشريك والشياطين وإن كانوا راضين بعبادتهم لهم لكنهم لم يكونوا حاملين لهم على وجه القسر والإلجاء كما قال إبليس وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى فكأنهم قالوا ما عبدتمونا حقيقة بل إنما عبدتم أهواءكم ﴿ وألقوا ﴾ أى الذين أشركوا ﴿ إلى الله يومئذ السلم ﴾ الاستسلام

والانقياد لحكمة العزيز الغالب بعد الاستكبار عنه فى الدنيا ﴿ وضل عنهم ﴾ أى ضاع وبطل ﴿ ما كانوا يفترون ﴾ من أن لله سبحانه شركاء وأنهم ينصرون ويشفعون لهم وذلك حين كذبوهم وتبرؤا منهم ﴿ الذين كفروا ﴾ فى أنفسهم ﴿ وصدوا ﴾ غيرهم ﴿ عن سبيل الله ﴾ بالمنع عن الإسلام والحمل على الكفر ﴿ زدناهم عذابا فوق العذاب ﴾ الذى كانوا يستحقونه بكفرهم قيل فى زيادة عذابهم حيات أمثال البخت وعقارب أمثال البغال تلسع إحداهن فيجد صاحبها حمتها أربعين خريفا وقيل يخرجون من النار إلى الزمهرير فيبادرون من شدة البرد إلى النار ﴿ بما كانوا يفسدون ﴾ متعلق بقوله زدناهم أى زدنا عذابهم بسبب استمرارهم على الإفساد وهو الصد المذكور .

شهادة النبي صلى الله عليه وسلم على الرسل

﴿ ويوم نبعث ﴾ تكرير لما سبق تثنية للتهديد ﴿ فى كل أمة شهيدا عليهم ﴾ أى نبيا ﴿ من أنفسهم ﴾ من جنسهم قطعاً لمعذرتهم وفى قوله تعالى عليهم إشعار بأن شهادة أنبيائهم على الأمم تكون بمحضر منهم ﴿ وجئنا بك ﴾ إيثار لفظ المجيء على البعث لكمال العناية بشأنه عليه السلام وصيغة الماضى للدلالة على تحقق الوقوع ﴿ شهيدا على هؤلاء ﴾ الأمم وشهدائهم كقوله تعالى (فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا) وقيل على أمتك والعامل فى الظرف محذوف كما مر والمراد يوم القيامة ﴿ ونزلنا عليك الكتاب ﴾ الكامل فى الكتابية الحقيق بأن يخص باسم الجنس وهو إما استئناف أو حال بتقدير قد ﴿ تبيانا ﴾ بيانا بليغا ﴿ لكل شيء ﴾ يتعلق بأمور الدين ومن جملة ذلك أحوال الأمم مع أنبيائهم عليهم السلام فيكون كالدليل على كونه عليه السلام شهيدا عليهم وكذا من جملته ما أخبر به هذه الآية الكريمة من بعث الشهداء وبعثه عليه السلام شهيدا عليم عليهم الصلاة والسلام والتبيان كالتلقاء فى كسر أوله وكونه تبيانا لكل شيء من أمور الدين باعتبار أن فيه نصا على بعضها وإحالة لبعضها على السنة حيث أمر باتباع النبي عليه السلام وطاعته وقيل

فيه وما ينطق عن الهوى وحثا على الإجماع وقد رضى رسول الله صلى الله عليه وسلم لأمته باتباع أصحابه حيث قال « أصحابى كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم » وقد اجتهدوا وقاموا ووطأوا طرق الاجتهاد فكانت السنة والإجماع والقياس مستندة إلى تبيان الكتاب ولم يضر ما فى البعض من الخفاء فى كونه تبيانا فإن المبالغة باعتبار الكمية دون الكيفية كما قيل فى قوله تعالى (وما أنا بظلام للعبيد) إنه من قولك فلان ظالم لعبده وظلام لعبيده ومنه قوله سبحانه (وما للظالمين من أنصار) ﴿ وهدى ورحمة ﴾ للعالمين فإن حرمان الكفرة من مغانم آثاره[1] من تفريطهم لا من جهة الكتاب ﴿ وبشرى للمسلمين ﴾ خاصة أو يكون كل ذلك خاصا بهم لأنهم المنتفعون بذلك .

من دستور المؤمنين

﴿ إن الله يأمر ﴾ أى فيما نزله تبيانا لكل شىء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين وإيثار صيغة الاستقبال فيه وفيما بعده لإفادة التجدد والاستمرار ﴿ بالعدل ﴾ بمراعاة التوسط بين طرفى الإفراط والتفريط وهو رأس الفضائل كلها يندرج تحته فضيلة القوة العقلية الملكية من الحكمة المتوسطة بين الحربزة والبلادة وفضيلة القوة الشهوية البهيمية من العفة المتوسطة بين الخلاعة والخمود وفضيلة القوة الغضبية السبعية من الشجاعة المتوسطة بين التهور والجبن فمن الحكم الاعتقادية التوحيد المتوسط بين التعطيل والتشريك نقل عن ابن عباس رضى الله عنهما أن العدل هو التوحيد والقول بالكسب المتوسط بين الجبر والقدر ومن الحكم العملية التعبد بأداء الواجبات المتوسط بين البطالة والترهب ومن الحكم الخلقية الجود المتوسط بين البخل والتبذير ﴿ والإحسان ﴾ أى الإتيان بما أمر به على الوجه اللائق وهو إما بحسب الكمية كالتطوع بالنوافل أو بحسب الكيفية كما يشير إليه قوله صلى الله عليه وسلم الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه

---

(١) فى ١١ : من غنائم آثاره .

فإن لم تكن تراه فإنه يراك ﴿ وإيتاء ذى القربى ﴾ أى إعطاء الأقارب مايحتاجون إليه وهو تخصيص إثر تعميم اهتماما بشأنه ﴿ وينهى عن الفحشاء ﴾ الإفراط فى مشايعة القوة الشهوية كالزنى مثلا ﴿ والمنكر ﴾ ما ينكر شرعا أو عقلا من الإفراط فى إظهار آثار القوة الغضبية ﴿ والبغى ﴾ الاستعلاء والاستيلاء على الناس والتجبر عليهم وهو من آثار القوة الوهمية الشيطانية التى هى حاصلة من رذيلتى القوتين المذكورتين الشهوية والغضبية وليس فى البشر شر إلا وهو مندرج فى هذه الأقسام صادر عنه بواسطة هذه القوى الثلاث ولذلك قال ابن مسعود رضى الله عنه هى أجمع آية فى القرآن للخير والشر ولو لم يكن فيه غير هذه الآية الكريمة لكفت فى كونه تبيانا لكل شىء وهدى ﴿ يعظكم ﴾ بما يأمر وينهى وهو إما استئناف وإما حال من الضميرين فى الفعلين ﴿ لعلكم تذكرون ﴾ طلبا لأن تتعظوا بذلك .

﴿ وأوفوا بعهد الله ﴾ هو البيعة لرسول الله صلى الله عليه وسلم فإنها مبايعة لله سبحانه لقوله تعالى (إن الذين يبايعوك إنما يبايعون الله) ﴿ إذا عاهدتم ﴾ أى حافظوا على حدود ما عاهدتم الله عليه وبايعتم به رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ ولا تنقضوا الأيمان ﴾ التى تحلفون بها عند المعاهدة ﴿ بعد توكيدها ﴾ حسبما هو المعهود فى أثناء العهود لا على أن يكون النهى مقيدا بالتوكيد مختصا به ﴿ وقد جعلتم الله عليكم كفيلا ﴾ شاهدا رقيبا فإن الكفيل مراع لحال المكفول به محافظ عليه ﴿ إن الله يعلم ما تفعلون ﴾ من نقض الأيمان والعهود فيجازيكم على ذلك ﴿ ولا تكونوا ﴾ فيما تصنعون من النقض ﴿ كالتى نقضت غزلها ﴾ أى ما غزلته مصدر بمعنى المفعول ﴿ من بعد قوة ﴾ متعلق بنقضت أى كالمرأة التى نقضت غزلها من بعد إبرامه وإحكامه ﴿ أنكاثا ﴾ طاقات نكثت فتلها جمع نكث وانتصابه على الحالية من غزلها أو على أنه مفعول ثان لنقضت فإنه بمعنى صيرت والمراد تقبيح حال النقض بتشبيه الناقض بمثل هذه الخرقاء المتوهة قيل هى ريطة بنت سعد بن تيم وكانت خرقاء اتخذت مغزلا قدر ذراع وصنارة مثل أصبع وفلكة عظيمة على قدرها فكانت تغزل هى وجواريها من الغداة إلى

الظهر ثم تأمرهن فينقضن ما غزلن ﴿ تتخذون أيمانكم دخلا بينكم ﴾ حال من الضمير فى لا تكونوا أو فى الجار والمجرور الواقع موقع الخبر أى مشابهين لامرأة شأنها هذا حال كونكم متخذين أيمانكم مفسدة ودخلا بينكم وأصل الدخل ما يدخل الشيء ولم يكن منه ﴿ أن تكون أمة ﴾ أى بأن تكون جماعة ﴿ هى أربى ﴾ أى أزيد عدداً وأوفر مالا[1] ﴿ من أمة ﴾ من جماعة أخرى أى لا تغدروا بقوم لكثرتهم منابذيهم وقوتهم كقريش فإنهم كانوا إذا رأوا شوكة فى أعادى حلفائهم نقضوا عهدهم وحالفوا أعداءهم ﴿ إنما يبلوكم الله به ﴾ أى بأن تكون أمة أربى من أمة أى يعاملكم بذلك معاملة من يختبركم لينظر أتتمسكون بحبل الوفاء بعهد الله وبيعة رسوله عليه السلام أم تغترون بكثرة قريش وشوكتهم وقلة المؤمنين وضعفهم بحسب ظاهر الحال ﴿ وليبينن لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون ﴾ حين جازاكم بأعمالكم ثوابا وعقابا ﴿ ولو شاء الله ﴾ مشيئة قسر وإلجاء ﴿ لجعلكم أمة واحدة ﴾ متفقة على الإسلام ﴿ ولكن ﴾ لا يشاء ذلك لكونه مزاحما لقضية الحكمة بل ﴿ يضل من يشاء ﴾ إضلاله أى يخلق فيه الضلال حسبما يصرف اختياره الجزئى إليه ﴿ ويهدى من يشاء ﴾ هدايته حسبما يصرف اختياره إلى تحصيلها ﴿ ولتسألن ﴾ جميعاً يوم القيامة ﴿ عما كنتم تعملون ﴾ فى الدنيا وهذا إشارة إلى مالوح به من من الكسب الذى عليه يدور أمر الهدايه والضلال .

﴿ ولا تتخذوا أيمانكم دخلا بينكم ﴾ تصريح بالنهى عنه بعد التضمين تأكيدا ومبالغة فى بيان قبح المنهى عنه وتمهيدا لقوله سبحانه ﴿ فتزل قدم ﴾ عن محجة الحق ﴿ بعد ثبوتها ﴾ عليها ورسوخها فيها بالإيمان وإفراد القدم وتنكيرها للإيذان بأن زلل قدم واحدة أى قدم كانت عزت أو هانت محذور عظيم فكيف بأقدام كثيرة ﴿ وتذوقوا السوء ﴾ أى العذاب الدنيوى ﴿ بما صددتم ﴾ بصدودكم أو بصدكم غيركم ﴿ عن سبيل الله الذى ينتظم الوفاء بالعهود

---

(١) وهنا تشريع لأصول المعاهدات الدوليه فى القرآن علما وعملا .

والإيمان فإن من نقض البيعة وارتد جعل ذلك سنة لغيره ﴿ ولكم فى الآخرة عذاب عظيم . ولا تشتروا بعهد الله ﴾ أى لا تأخذوا بمقابلة عهده تعالى وبيعة رسوله عليه السلام أو آياته الناطقة بإيجاب المحافظه على العهود والأيمان ﴿ ثمنا قليلا ﴾ أى لا تستبدلوا بها عرضا يسيرا وهو ما كانت قريش يعدون ضعفة المسلمين ويشترطون لهم على الارتداد من حطام الدنيا ﴿ إن ماعند الله ﴾ عز وجل من النصر والتنعيم والثواب الأخروى ﴿ هو خير لكم ﴾ مما يعدونكم ﴿ إن كنتم تعلمون ﴾ أى إن كنتم من أهل العلم والتمييز وهو تعليل للنهى على طريقة التحقيق كما أن قوله تعالى ﴿ ماعندكم ﴾ تعليل للخيرية بطريق الاستئناف أى ما تتمتعون به من نعيم الدنيا وإن جل بل الدنيا وما فيها جميعا ﴿ ينفد ﴾ وإن جم عدده وينقضى وإن طال أمده ﴿ وما عند الله ﴾ من خزائن رحمته الدنيوية والأخروية ﴿ باق ﴾ لا نفاد له أما الأخروية فظاهرة وأما الدنيوية فحيث كانت موصولة بالأخروية ومستتبعة لها فقد انتظمت فى سمط الباقيات وفى إيثار الاسم على صيغة المضارع من الدلالة على الدوام ما لا يخفى وقوله تعالى :

﴿ ولنجزين ﴾ بنون العظمه على طريقة الالتفات تكرير الوعد المستفاد من قوله تعالى (إن ما عند الله هو خير لكم) على نهج التوكيد القسمى مبالغة فى الحمل على الثبات فى الدين والالتفات عما يقتضيه ظاهر الحال من أن يقال ولنجزينكم أجركم بأحسن ما كنتم تعملون للتوسل إلى التعرض لأعمالهم والإشعار بعليتها للجزاء أى والله لنجزين ﴿ الذين صبروا ﴾ على أذية المشركين ومشاق الإسلام التى من جملتها الوفاء بالعهود والفقر وقرىء بالياء من غير التفات ﴿ أجرهم ﴾ مفعول ثان لنجزين أى لنعطينهم أجرهم الخاص بهم بمقابلة صبرهم على ما منوا به من الأمور المذكورة ﴿ بأحسن ما كانوا يعملون ﴾ أى لنجزينهم بما كانوا يعملونه من الصبر المذكور وإنما أضيف إليه الأحسن للإشعار بكمال حسنه كما فى قوله سبحانه (وحسن ثواب الآخرة) لا لإفادة قصر الجزاء على الأحسن منه دون الحسن ، فإن ذلك مما لا يخطر ببال أحد ، لا سيما بعد قوله

تعالى (أجرهم) و (لنجزينهم) بحسب أحسن أفراد أعمالهم على معنى لنعطينهم بمقابلة الفرد الأدنى من أعمالهم المذكورة ما نعطيه بمقابلة الفرد الأعلى منها من الأجر الجزيل لا أنا نعطي الأجر بحسب أفرادها المتفاوتة فى مراتب الحسن بأن نجزى الحسن منها بالأجر الحسن والأحسن بالأحسن وفيه ما لا يخفى من العهدة الجميلة باغتفار[1] ما عسى يعتريهم فى تضاعيف الصبر من بعض جزع ونظمه فى سلك الصبر الجميل أولنجزينهم بجزاء أحسن من أعمالهم وأما التفسير بما ترجح فعله من أعمالهم كالواجبات والمندوبات أو بما ترجح تركه أيضا كالمحرمات والمكروهات دلالة على أن ذلك هو المدار للجزاء دون ما يستوى فعله وتركه كالمباحات فلا يساعده مقام الحث على الثبات على ماهم عليه من الأعمال الحسنة المخصوصة والترغيب فى تحصيل ثمراتها بل التعرض لإخراج بعض أعمالهم عن مدارية الجزاء من قبيل تحجير الرحمة الواسعة فى مقام توسيع حماها ﴿ من عمل صالحا ﴾ أى عملا صالحا أى عمل كان وهذا شروع فى تحريض كافة المؤمنين على كل عمل صالح غب ترغيب طائفة منهم فى الثبات على ما هم عليه من عمل صالح مخصوص دفعا لتوهم اختصاص الأجر الموفور بهم وبعملهم المذكور وقوله تعالى ﴿ من ذكر أو أنثى ﴾ مبالغة فى بيان شموله للكل ﴿ وهو مؤمن ﴾ قيده به إذلا اعتداد بأعمال الكفرة فى استحقاق الثواب أو تخفيف العذاب لقوله تعالى (وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا) وإيثار إيراده بالجملة الاسمية الحالية على نظمه فى سلك الصلة لإفادة وجوب دوامه ومقارنته للعمل الصالح ﴿ فلنحيينه حياة طيبة ﴾ أما إن كان موسرا فظاهر وأما إن كان معسرا فيطيب عيشه بالقناعة والرضى بالقسمة وتوقع الأجر العظيم كالصائم يطيب نهاره بملاحظة نعيم ليله بخلاف الفاجر فإنه إن كان معسرا فظاهر وإن كان موسرا فلا يدعه الحرص وخوف الفوات أن يتهنأ بعيشه ﴿ ولنجزينهم ﴾ فى الآخرة ﴿ أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾ حسبما نفعل

---

(١) فى ١١ : بغفران .

بالصابرين فليس فيه شائبة تكرار والجمع فى الضمائر العائدة إلى الموصول لمراعاة جانب المعنى كما أن الأفراد فيما سلف لرعاية جانب اللفظ وإيثار ذلك على العكس لما أن وقوع الجزاء بطريق الاجتماع المناسب للجمعية ووقوع ما فى حيز الصلة وما يترتب عليه بطريق الافتراق والتعاقب الملائم للإفراد وإذ قد انتهى الأمر إلى أن مدار الجزاء المذكور وهو صلاح العمل وحسنه رتب عليه بإلغاء الإرشاد إلى ما به يحسن العمل الصالح ويخلص عن شوب الفساد فقيل :

﴿ فإذا قرأت القرآن ﴾ أى إذا أردت قراءته عبر بها عن إرادتها على طريقة إطلاق اسم المسبب على السبب إيذانا بأن المراد هى الإرادة المتصلة بالقراءة ﴿ فاستعذ بالله ﴾ فاسأله عز جاره أن يعيذك ﴿ من الشيطان الرجيم ﴾ من وساوسه وخطراته كيلا يوسوسك عند القراءة فإن له همة بذلك قال تعالى (وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى إلا إذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته) الآية وتوجيه الخطاب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وتخصيص قراءة القرآن من بين الأعمال الصالحة بالاستعادة عند إرادتها للتنبيه على أنها لغيره عليه الصلاة والسلام وفى سائر الأعمال الصالحة أهم فإنه عليه السلام حيث أمر بها عند قراءة القرآن الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه فما ظنكم بمن عداه عليه السلام وفيما عدا القراءة من الأعمال والأمر للندب وهذا مذهب الجمهور وعند عطاء للوجوب وقد أخذ بظاهر النظم الكريم فاستعاذ عقيب القراءة أبو هريرة رضى الله عنه ومالك وابن سيرين وداود وحمزة من القراء وعن ابن مسعود رضى الله عنه قرأت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت أعوذ بالسميع العليم من الشيطان الرجيم فقال عليه السلام قل أعوذ بالله من الشيطان الرجيم هكذا أقرأنيه جبريل عليه السلام عن القلم عن اللوح المحفوظ ﴿ إنه ﴾ الضمير للشأن أو للشيطان ﴿ ليس له سلطان ﴾ تسلط وولاية ﴿ على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون ﴾ أى إليه[1] يفوضون أمورهم وبه يعوذون

(١) أى فى الأصل يفوضون أمورهم ثم يتوكلون فما يوفقون إليه من أعمال .

فى كل ما يأتون وما يذرون فإن وسوسة لا تؤثر فيهم ودعوته غير مستجابة عندهم وإيثار صيغة الماضى فى الصلة الأولى للدلالة على التحقق كما أن اختيار صيغة الاستقبال فى الثانية لإفادة الاستمرار التجددى وفى التعرض لوصف الربوبية عدة كريمة بإعادة المتوكلين والجملة تعليل للأمر بالاستعاذة أو لجوابه المنوى أى يعذك أو نحوه ﴿ إنما سلطانه ﴾ أى تسلطه وولايته بدعوته المستتبعة للاستجابة لا سلطانه بالقسر والإلجاء فإنه منتف عن الفريقين لقوله سبحانه حكاية عنه (وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى) وقد أفصح عنه قوله تعالى ﴿ على الذين يتولونه ﴾ أى يتخذونه وليا ويستجيبون دعوته ويطيعونه فإن المقسور بمعزل من ذلك ﴿ والذين هم به ﴾ سبحانه وتعالى ﴿ مشركون ﴾ أو بسبب الشيطان مشركون إذ هو الذى حملهم على الإشراك بالله سبحانه وقصر سلطانه عليهم غب نفيه عن المؤمنين المتوكلين دليل على أن لا واسطة فى الخارج بين التوكل على الله تعالى وبين تولى الشيطان وإن كان بينهما واسطة فى المفهوم وإن لم يتوكل عليه تعالى ينتظم فى سلك من يتولى الشيطان من حيث لا يحتسب إذ به يتم التعليل ففيه مبالغة فى الحمل على التوكل والتحذير عن مقابله وإيثار الجملة الفعلية الاستقبالية فى الصلة الأولى لما مر من إفادة الاستمرار التجددى كما أن اختيار الجملة الاسمية فى الثانية للدلالة على الثبات وتكرير الموصول للاحتراز عن توهم كون الصلة الثانية حالية مفيدة لعدم دخول غير المشركين من أولياء الشيطان تحت سلطانه وتقديم الأولى على الثانية التى هى بمقابلة الصلة الأولى فيما سلف لرعاية المقارنة بينها وبين ما يقابلها من التوكل على الله تعالى ولو روعى الترتيب السابق لانفصل كل من القرينتين عما يقابلها.

دفاع عن القرآن

﴿ وإذا بدلنا آية مكان آية ﴾ أى إذا أنزلنا آية من القرآن مكان آية منه وجعلناها بدلا منها بأن نسخناها بها ﴿ والله أعلم بما ينزل ﴾ أولا وآخراً وبأن كلا من ذلك ما نزلت حيثما نزلت إلا حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة فإن كل

وقت له مقتض غير مقتضى الآخر فكم من مصلحة فى وقت تنقلب فى وقت آخر مفسدة وبالعكس لانقلاب الأمور الداعية إلى ذلك وما الشرائع إلا مصالح للعباد فى المعاش والمعاد تدور حسبما تدور المصالح والجملة إما معترضة لتوبيخ الكفرة والتنبيه على فساد رأيهم وفى الالتفات إلى الغيبة مع إسناد الخبر إلى الاسم الجليل المستجمع للصفات مالايخفى من تربية المهابة وتحقيق معنى الاعتراض أو حالية وقرىء بالتخفيف من الإنزال ﴿ قالوا ﴾ أى الكفرة الجاهلون بحكمة النسخ ﴿ إنما أنت مفتر ﴾ أى متقول على الله تعالى تأمر بشىء ثم يبدولك فتنهى عنه وحكاية هذا القول عنهم ههنا للايذان بأن ذلك كفرة ناشئة من نزغات الشيطان وأنه وليهم ﴿ بل أكثرهم لا يعلمون ﴾ أى لا يعلمون شيئاً أصلا أو لا يعلمون أن فى النسخ حكما بالغة وإسناد هذا الحكم إلى الأكثر لما أن منهم من يعلم ذلك وإنما ينكره عنادا .

﴿ قل نزله ﴾ أى القرآن المدلول عليه الآية ﴿ روح القدس ﴾ يعنى جبريل عليه السلام أى الروح المطهر من الأدناس البشرية وإضافة الروح إلى القدس وهو الطهر كإضافة حاتم إلى الجود حيث قيل حاتم الجود للمبالغة فى ذلك الوصف كأنه طبع منه وفى صيغة التفعيل فى الموضعين إشعار بأن التدريج فى الإنزال مما تقتضيه الحكم البالغة ﴿ من ربك ﴾ فى إضافة الرب إلى ضميره صلى الله عليه وسلم من الدلالة على تحقيق إفاضة آثار الربوبية عليه صلى الله عليه وسلم ما ليس فى إضافته إلى ياء المتكلم المبنية على التلقين المحض ﴿ بالحق ﴾ أى ملتبسا بالحق الثابت الموافق للحكمة المقتضية له بحيث لا يفارقها إنشاء ونسخا وفيه دلالة على أن النسخ حق ﴿ ليثبت الذين آمنوا ﴾ على الإيمان بأنه كلامه تعالى فإنهم إذا سمعوا الناسخ وتدبروا ما فيه من رعاية المصالح اللائقة بالحال رسخت عقائدهم واطمأنت قلوبهم وقرىء ليثبت من الأفعال ﴿ وهدى وبشرى للمسلمين ﴾ المنقادين لحكمه تعالى وهما معطوفان على محل ليثبت أى تثبيتا

وهداية وبشارة وفيه تعريض بحصول أضداد الأمور المذكورة لمن سواهم من الكفار .

﴿ ولقد نعلم أنهم يقولون ﴾ غير ما نقل عنهم من المقالة الشنعاء ﴿ إنما يعلمه ﴾ أى القرآن ﴿ بشر ﴾ على طريق البت مع ظهور أنه نزله روح القدس عليه الصلاة والسلام وتحلية الجملة بفنون التأكيد لتحقيق ماتتضمنه من الوعيد وصيغة الاستقبال لإفادة استمرار العلم بحسب الاستمرار التجددى فى متعلقه فإنهم مستمرون على تفوه تلك العظيمة يعنون بذلك جبر الرومى غلام عامر ابن الحضرمى ، وقيل جبرا ويسارا كانا يصنعان السيف[1] بمكة ويقرآن التوراة والإنجيل وكان الرسول عليه الصلاة والسلام يمر عليهما ويسمع ما يقرآنه وقيل عابسا غلام حويطب بن عبد العزى قد أسلم وكان صاحب كتب ، وقيل سلمان الفارسى ، وإنما لم يصرح باسم من زعموا أنه يعلمه مع كونه أدخل فى ظهور كذبهم للإيذان بأن مدار خطابهم ليس نسبته عليه السلام إلى التعلم من شخص معين بل من البشر كائنا من كان مع كونه عليه السلام معدنا لعلوم الأولين والآخرين ﴿ لسان الذى يلحدون إليه أعجمى ﴾ الإلحاد الإمالة من ألحد القبر إذا أمال حفره عن الاستقامة فحفر فى شق منه ثم استعير لكل إمالة عن الاستقامة فقالوا ألحد فلان فى قوله وألحد فى دينه أى لغة الرجل الذى يميلون إليه القول عن الاستقامة أعجمية غير بينة وقرىء بفتح الياء والحاء وبتعريف اللسان ﴿ وهذا ﴾ أى القرآن الكريم ﴿ لسان عربى مبين ﴾ ذو بيان وفصاحة والجملتان مستأنفتان لإبطال طعنهم وتقريره أن القرآن معجز بنظمه كما أنه معجز بمعناه فإن زعمتم أن بشرا يعلمه معناه فكيف يعلمه هذا النظم الذى أعجز جميع أهل الدنيا والتشبث فى أثناء الطعن بأذيال أمثال هذه الخرافات الركيكة دليل على كمال عجزهم .

---

(١) فى ١٠ : السيوف

﴿ إن الذين لا يؤمنون بآيات الله ﴾ أى لا يصدقون أنها من عند الله بل يقولون فيها ما يقولون ، يسمونها تارة افتراء وأخرى أساطير معلمة من البشر .

﴿ لا يهديهم الله ﴾ إلى الحق أو إلى سبيل النجاة هداية موصلة إلى المطلوب لما علم أنهم لا يستحقون ذلك لسوء حالهم ﴿ ولهم ﴾ فى الآخرة ﴿ عذاب أليم ﴾ وهذا تهديد لهم ووعيد على ما هم عليه من الكفر بآيات الله تعالى ونسبة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الافتراء والتعلم من البشر بعد إماطة شبهتهم ورد طعنهم وقوله تعالى : ﴿ إنما يفترى الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله ﴾ رد لقولهم إنما أنت مفتر ، وقلب للأمر عليهم ببيان أنهم هم المفترون بعد رده بتحقيق أنه منزل من عند الله بواسطة روح القدس ، وإنما وسط بينهما قوله تعالى : (ولقد نعلم) الآية لما لا يخفى من شدة اتصاله بالرد الأول والمعنى والله تعالى أعلم أن المفترى هو الذى يكذب بآيات الله ويقول إنه افتراء ومعلم من البشر أى تكذيبها على الوجه المذكور هو الافتراء على الحقيقة لأن حقيقته الكذب والحكم بأن ما هو كلامه تعالى ليس بكلامه تعالى فى كونه كذبا وافتراء كالحكم بأن ما ليس بكلامه تعالى كلامه تعالى والتصريح بالكذب للمبالغة فى بيان قبحه وصيغة المضارع لرعاية المطابقة بينه وبين ما هو عبارة عنه أعنى قوله لا يؤمنون وقيل المعنى إنما يفترى الكذب ويليق ذلك بمن لا يؤمن بآيات الله لأنه لا يترقب عقابا عليه ليرتدع عنها وأما من يؤمن بها ويخاف ما نطقت به من العقاب فلا يمكن أن يصدر عنه افتراء البتة ﴿ وأولئك ﴾ الموصوفون بما ذكر من عدم الإيمان بآيات الله ﴿ هم الكاذبون ﴾ على الحقيقة أو الكاملون فى الكذب إذ لا كذب أعظم من تكذيب آياته تعالى والطعن فيها بأمثال هاتيك الأباطيل والسر فى ذلك أن الكذب الساذج الذى هو عبارة عن الإخبار بعدم وقوع ما هو واقع فى نفس الأمر بخلق الله تعالى أو بوقوع ما لم يقع كذلك مدافعة لله تعالى فى فعله فقط والتكذيب مدافعة له سبحانه فى فعله وقوله المنبىء

عنه معا ، أو الذين عادتهم الكذب لا يزعهم عنه وازع[1] من دين أو مروءة وقيل الكاذبون فى قولهم إنما أنت مفتر .

﴿ من كفر بالله ﴾ أى تلفظ بكلمة الكفر ﴿ من بعد إيمانه ﴾ به تعالى وهو ابتداء كلام لبيان حال من كفر بآيات الله بعد ما آمن بها بعد بيان حال من لم يؤمن بها رأسا ومن موصولة ومحلها الرفع على الابتداء والخبر محذوف لدلالة الخبر الآتى عليه أو هو خبر لهما معا أو النصب على الذم ﴿ إلا من أكره ﴾ على ذلك بأمر يخاف على نفسه أو على عضو من أعضائه وهو استثناء متصل من حكم الغضب والعذاب أو الذم لأن الكفر لغة تم بالقول كما أشير إليه وقوله تعالى ﴿ وقلبه مطمئن بالإيمان ﴾ حال من المستثنى والعامل هو الكفر الواقع بالإكراه ، لأن مقارنة اطمئنان القلب بالإيمان للإكراه لا تجدى نفعا ، وإنما المجدى مقارنته للكفر الواقع به أى إلا من كفر بإكراه وإلا من أكره فكفر والحال أن قلبه مطمئن بالإيمان لم تتغير عقيدته وإنما لم يصرح به إيماء إلى أنه ليس بكفر حقيقة ، وفيه دليل على أن الإيمان هو التصديق بالقلب ﴿ ولكن من ﴾ لم يكن كذلك بل ﴿ شرح بالكفر صدرا ﴾ أى اعتقده وطاب به نفسا ﴿ فعليهم غضب عظيم لا يكتنه كنهه ﴿ من الله ﴾ إظهار الاسم الجليل لتربية المهابة وتقوية لعظيم العذاب ﴿ ولهم عذاب عظيم ﴾ إذ لا جرم أعظم من جرمهم والجمع فى الضميرين المجرورين لمراعاة جانب المعنى كما أن الافراد فى المستكن فى الصلة لرعاية جانب اللفظ . روى أن قريشا أكرهوا عمارا وأبويه ياسرا وسمية على الارتداد فأباه أبواه فربطوا سمية بين بعيرين ووجئت بحربة فى قبلها وقالوا إنما أسلمت من أجل الرجال فقتلوها وقتلوا ياسرا وهما أول قتيلين فى الإسلام وأما عمار فأعطاهم بلسانه ما أكرهوا عليه فقيل يا رسول الله إن عمارا كفر فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

(١) فى ع٣٠ : لا يردعهم عنه رادع .

كلا إن عمارا ملىء إيمانا من قرنه إلى قدمه واختلط الإيمان بلحمه ودمه فأتى عمار رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يبكى فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يمسح عينيه وقال مالك إن عادوا لك فعدلهم بما قلت وهو دليل جواز التكلم بكلمة الكفر عند الإكراه الملجىء وإن كان الأفضل أن يتجنب عنه إعزازا الدين كما فعله أبواه وروى أن مسيلمة الكذاب أخذ رجلين فقال لأحدهما ما تقول فى محمد قال رسول الله قال فما تقول فى قال فأنت أيضا فخلاه وقال للآخر ما تقول فى محمد قال رسول الله قال فما تقول فى قال أنا أصم فأعاد جوابه فبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال: أما الأول فقد أخذ برخصة وأما الثانى فقد صدع بالحق ﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى الكفر بعد الإيمان أو إلى الوعيد المذكور ﴿ بأنهم ﴾ بسبب أنهم ﴿ استحبوا الحيوة الدنيا ﴾ آثروها ﴿ على الآخرة وأن الله لا يهدى ﴾ إلى الإيمان وإلى ما يوجب الثبات عليه هداية قسر وإلجاء ﴿ القوم الكافرين ﴾ فى علمه المحيط فلا يعصمهم عن الزيغ وما يؤدى إليه من الغضب والعذاب العظيم ولولا أحد الأمرين إما إيثار الحيوة الدنيا على الآخرة وإما عدم هداية الله سبحانه للكافرين هداية قسر بأن آثروا الآخرة على الدنيا أو بأن هداهم الله تعالى هداية قسر لما كان ذلك لكن الثانى مخالف للحكمة والأول مما لا يدخل تحت الوقوع وإليه أشير بقوله تعالى :

﴿ أولئك ﴾ أى أولئك الموصوفين بما ذكر من القبائح ﴿ الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم ﴾ فأبت عن إدراك الحق والتأمل فيه ﴿ وأولئك هم الغافلون ﴾ أى الكاملون فى الغفلة إذ لا غفلة أعظم من الغفلة عن تدبر العواقب ﴿ جرم أنهم فى الآخرة هم الخاسرون ﴾ اذ ضيعوا أعمارهم وصرفوها إلى مالا يفضى إلا إلى العذاب المخلد ﴿ ثم إن ربك للذين هاجروا ﴾ إلى دار الإسلام وهم عمار وأصحابه رضى الله عنهم أى لهم بالولاية والنصر لا عليهم كما يوجبه ظاهر أعمالهم السابقة فالجار والمجرور خبر لأن ويجوز أن يكون خبرها محذوفا لدلالة الخبر الآتى عليه ويجوز أن يكون ذلك خبراً لها وتكون أن الثانية تأكيداً للأولى وثم للدلالة على تباعد رتبة حالهم التى يفيدها الاستثناء

من مجرد الخروج عن حكم الغضب والعذاب بطريق الإشارة لا عن رتبة حال. الكفرة ﴿ من بعد ما فتنوا ﴾ أى عذبوا على الارتداد وتلفظوا بما يرضيهم مع اطمئنان قلوبهم بالايمان وقرىء على بناء الفاعل أى عذبوا المؤمنين كالحضرمى أكره مولاه جبرا حتى ارتد ثم أسلما وهاجرا ﴿ ثم جاهدوا ﴾ فى سبيل الله ﴿ وصبروا ﴾ على مشاق الجهاد ﴿ إن ربك من بعدها ﴾ من بعد المهاجرة والجهاد والصبر فهو تصريح بما أشعر به بناء الحكم على الموصول من علية الصلة له[1] أو من بعد الفتنة المذكورة فهو لبيان عدم إخلال ذلك بالحكم ﴿ لغفور ﴾ لما فعلوا من قبل ﴿ رحيم ﴾ ينعم عليهم مجازاة على ماصنعوا من بعد وفى التعرض لعنوان الربوبية فى الموضعين إيماء إلى علة الحكم وفى إضافة الرب إلى ضميره عليه السلام مع ظهور الأثر فى الطائفة المذكورة إظهار لكمال اللطف به عليه السلام وإشعار بأن إفاضة آثار الربوبية عليهم من المغفرة والرحمة بواسطته عليه السلام ولكونهم أتباعا له .

﴿ يوم تأتى كل نفس ﴾ منصوب برحيم ومارتب عليه أو باذكر وهو يوم القيامة يوم يقوم الناس لرب العالمين ﴿ تجادل عن نفسها ﴾ عن ذاتها تسعى فى خلاصها بالاعتذار لايهمها شأن غيرها فتقول نفسى نفسى ﴿ وتوفى كل نفس ﴾ أى تعطى وافيا كاملا ﴿ ما عملت ﴾ أى جزاء ما عملت بطريق إطلاق اسم السبب على المسبب إشعارا بكمال الاتصال بين الأجزية والأعمال وإيثار الإظهار على الإضمار لزيادة التقرير وللإيذان باختلاف وقتى المجادلة والتوفية وإن كانتا فى يوم واحد ﴿ وهم لا يظلمون ﴾ لا ينقصون أجورهم أو لا يعاقبون بغير موجب ولا يزاد فى عقابهم على ذنوبهم .

---

(١) فى ١٠ : من كون الصلة علة له .

من أمثال القرآن

﴿وضرب الله مثلا قريه﴾ قيل ضرب المثل صنعه واعتماله وقد مر تحقيقه في سورة البقرة ولا يتعدى إلا إلى مفعول واحد وإنما عدى الاثنين لتضمينه معنى الجعل وتأخير قرية مع كونها مفعولا أول لئلا يحول المفعول الثاني بينها وبين صفتها وما يترتب عليها إذ التأخير عن الكل مخل بتجاذب أطراف النظم وتجاوبها ولأن تأخير ما حقه التقديم مما يورث النفس ترقبا لوروده تشوقا لاسيما إذا كان في المقدم ما يدعو إليه فإن المثل مما يدعو إلى المحافظة على تفاصيل أحوال ما هو مثل فيتمكن المؤخر عند وروده لديها فضل تمكن والقرية إما محققة في الغابرين وإما مقدرة أي جعلها مثلا لأهل مكة خاصة أو لكل قوم أنعم الله تعالى عليهم فأبطرتهم النعمة ففعلوا ما فعلوا فبدل الله تعالى بنعمتهم نقمة ودخل فيهم أهل مكة دخولا أوليا ﴿كانت آمنة﴾ ذات أمن من كل مخوف ﴿مطمئنة﴾ لا يزعج أهلها مزعج ﴿يأتيها رزقها﴾ أقوات أهلها صفة ثانية لقرية وتغيير سبكها عن الصفة الأولى لما أن اتيان رزقها متجدد وكونها آمنة مطمئنة ثابت مستمر ﴿رغدا﴾ واسعا ﴿من كل مكان﴾ من نواحيها .

﴿فكفرت﴾ أي كفر أهلها ﴿بأنعم الله﴾ أي بنعمه جمع نعمة على ترك الاعتداد بالتاء كدرع وأدرع أو جمع نعم كبؤس وابؤس والمراد بها نعمة الرزق والأمن المستمر وإيثار جمع القلة للايذان بأن كفران نعمة قليلة حيث أوجب هذا العذاب فما ظنك بكفران نعم كثيرة ﴿فأذاقها الله﴾ أي أذاق أهلها ﴿لباس الجوع والخوف﴾ شبه أثر الجوع والخوف وضررهما المحيط بهم باللباس الغاشي للابس فاستعير له اسمه وأوقع عليه الإذاقة المستعارة لمطلق الإيصال المنبئة عن شدة الإصابة بما فيها من اجتماع إدراكي اللامسة والذائقة على نهج التجريد فإنها لشيوع استعمالها في ذلك وكثرة جريانها على الألسنة جرت مجرى الحقيقة كقول كثير :

غمر الرداء إذا تبسم ضاحكا غلقت لضحكته رقاب المال

فإن الغمر مع كونه فى الحقيقة من أحوال الماء الكثير لما كان كثير الاستعمال فى المعروف المشبه بالماء الكثير جرى مجرى الحقيقة فصارت إضافته إلى الرداء المستعار للمعروف تجريدا أو شبه أثرهما وضررهما من حيث الإحاطة بهم والكراهة لديهم تارة باللباس الغاشى للابس المناسب للخوف بجامع الإحاطة واللزوم تشبيه معقول بمحسوس فاستعير له اسمه استعارة تصريحية وأخرى بطعم المر البشع الملائم للجوع الناشىء من فقد الرزق بجامع الكراهة ، فأومى إليه بأن أوقع عليه الإذاقة المستعارة لإيصال الضار المنبئة عن شدة الإصابة بما فيها من اجتماع إدراكى اللامسة والذائقة وتقديم الجوع الناشىء عما ذكر من فقدان الرزق على الخوف المترتب على زوال الأمن المقدم فيما تقدم على إتيان الرزق لكونه أنسب بالإذاقة أو لمراعاة بينها وبين إتيان الرزق وقد قرىء بتقديم الخوف وبنصبه أيضا عطفا على المضاف أو إقامة له مقام مضاف محذوف وأصله ولباس الخوف ﴿ بما كانوا يصنعون ﴾ فيما قبل أو على وجه الاستمرار وهو الكفران المذكور أسند ذلك إلى أهل القرية تحقيقا للأمر بعد إسناد الكفران إليها وإيقاع الإذاقة[1] عليها إرادة للمبالغة وفى صيغة الصنعة إيذان بأن كفران النعمة صار صنعة راسخة لهم وسنة مسلوكة .

﴿ ولقد جاءهم ﴾ من تتمة المثل جىء بها لبيان أن ما فعلوه من كفران النعم لم يكن مزاحمة منهم لقضية العقل فقط بل كان ذلك معارضة لحجة الله على الخلق أيضا أى ولقد جاء أهل تلك القرية ﴿ رسول منهم ﴾ أى من جنسهم يعرفونه بأصله ونسبه فأخبرهم بوجوب الشكر على النعمة وأنذرهم سوء عاقبة ما يأتون وما يذرون ﴿ فكذبوه ﴾ فى رسالته أو فيما أخبرهم به مما ذكر فالفاء فصيحة وعدم ذكره للإيذان بمفاجأتهم بالتكذيب من غير تلعثم ﴿ فأخذهم العذاب ﴾ المستأصل لشأفتهم غب ما ذاقوا نبذة من ذلك ﴿ وهم ظالمون ﴾ أى حال التباسهم بما هم عليه من الظلم الذى هو كفران نعم الله تعالى وتكذيب

---

(١) فى ١٠ : الذوق .

رسوله غير مقلعين عنه بما ذاقوا من مقدماته الزاجرة عنه وفيه دلالة على تماديهم في الكفر والعناد وتجاوزهم في ذلك كل حد معتاد وترتيب العذاب على تكذيب الرسول جرى على سنة الله تعالى حسبما يرشد إليه قوله سبحانه (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) وبه يتم التمثيل فإن حال أهل مكة سواء ضرب المثل لهم خاصة أو لمن سار سيرتهم كافة محاذية لحال أهل تلك القرية حذو القذة بالقذة من غير تفاوت بينهما ولو في خصلة فذة كيف لا وقد كانوا في حرم آمن ويتخطف الناس من حولهم وما يمر ببالهم طيف من الخوف وكانت تجبى إليه ثمرات كل شيء ولقد جاءهم رسول منهم وأي رسول يحار في إدراك سمو رتبته العقول صلى الله عليه وسلم ما اختلف الدبور والقبور فكفروا بأنعم الله وكذبوا رسوله عليه السلام فأذاقهم الله لباس الجوع والخوف حيث أصابهم بدعائه عليه السلام بقوله اللهم أعن عليهم بسبع كسبع يوسف ما أصابهم من جدب شديد وأزمة خصت كل شيء حتى اضطرتهم إلى أكل الجيف والكلاب الميتة والعظام المحرقة والعلهز وهو الوبر المعالج بالدم وقد ضاقت عليهم الأرض بما رحبت من سرايا رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث كانوا يغيرون على مواشيهم وعيرهم وقوافلهم ثم أخذهم يوم بدر ما أخذهم من العذاب هذا هو الذي يقتضيه المقام ويستدعيه حسن النظام وأما ما أجمع عليه أكثر أهل التفسير من أن الضمير في قوله تعالى (ولقد جاءهم) لأهل مكة قد ذكر حالهم صريحا بعد ماذكر مثلهم وأن المراد بالرسول محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم وبالعذاب ما أصابهم من وقعة بدر فبمعزل من التحقيق كيف لا وقوله سبحانه :

﴿ فكلوا مما رزقكم الله ﴾ مفرع على نتيجة التمثيل وصد لهم عما يؤدي إلى مثل عاقبته والمعنى وإذ قد استبان لكم حال من كفر بأنعم الله وكذب رسوله وما حل بهم بسبب ذلك من اللتيا والتي أولا وآخرا فانتهوا عما أنتم عليه من كفران النعم وتكذيب الرسول عليه السلام كيلا يحل بكم مثل ما حل بهم واعرفوا حق نعم الله تعالى وأطيعوا رسوله عليه السلام في أمره ونهيه وكلوا من رزق الله حال كونه ﴿ حلالا طيبا ﴾ وذروا ما تفترون من تحريم البحائر

ونحوها ﴿ واشكروا نعمة الله ﴾ واعرفوا حقها ولا تقابلوها بالكفران والفاء في المعنى داخلة على الأمر بالشكر وإنما أدخلت على الأمر بالأكل لكون الأكل ذريعة إلى الشكر ، فكأنه قيل : فاشكروا نعمة الله غب أكلها حلالا طيبا وقد أدمج فيه النهى عن زعم الحرمة ولا ريب فى أن هذا إنما يتصور حين كان العذاب المستأصل متوقعا بعد وقد تمهدت مباديه وبعد ما وقع فمن ذا الذى يحذر ومن ذا الذى يؤمر بالأكل والشكر وحمل قوله تعالى (فأخذهم العذاب وهم ظالمون) على الإخبار بذلك قبل الوقوع يأباه التصدى لاستصلاحهم بالأمر والنهى وتوجيه خطاب الأمر بالأكل إلى المؤمنين مع أن مايتلوه من خطاب النهى متوجه إلى الكفار كما فعله الواحدى حيث قال فكلوا أنتم يا معشر المؤمنين مما رزقكم الله من الغنائم مما لا يليق بشأن التنزيل الجليل ﴿ إن كنتم إياه تعبدون ﴾ أى تطيعون أو إن صح زعمكم أنكم تقصدون بعبادة الآلهة عبادته تعالى .

﴿ إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به ﴾ تعليل لحل ما أمرهم بأكله مما رزقهم أى إنما حرم هذه الأشياء دون ما تزعمون حرمته من البحائر والسوائب ونحوها ﴿ فمن اضطر ﴾ بما اعتراه من الضرورة فتناول شيئا من ذلك ﴿ غير باغ ﴾ أى على مضطر آخر ﴿ ولا عاد ﴾ أى متجاوز قدر الضرورة ﴿ فإن ربك غفور رحيم ﴾ أى لا يؤاخذه بذلك فأقيم سببه مقامه وفى التعرض لوصف الربوبية إيماء إلى علة الحكم وفى الإضافة إلى ضميره عليه السلام إظهار لكمال اللطف به عليه السلام وتصدير الجملة بإنما لحصر المحرمات فى الأجناس الأربعة إلا ما ضم إليه كالسباع والحمر الأهلية ثم أكد ذلك بالنهى عن التحريم والتحليل بأهوائهم فقال .

﴿ ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم ﴾ اللام صلة مثلها فى قوله تعالى (ولا تقولوا لمن يقتل فى سبيل الله أموات) أى لا تقولوا فى شأن ماتصفه ألسنتكم من البهائم بالحل والحرمة فى قولكم ما فى بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا من غير ترتب ذلك الوصف على ملاحظة وفكر فضلا عن استناده.

إلى وحى أو قياس مبنى عليه ﴿ الكذب ﴾ منتصب بلا تقولوا وقوله تعالى ﴿ هذا حلال وهذا حرام ﴾ بدل منه ويجوز أن يتعلق بتصف على إرادة القول أى لا تقولو لما تصف ألسنتكم فتقول هذا حلال وهذا حرام وأن يكون مقول المقدر حالا من ألسنتهم أى قائلة هذا حلال الخ ويجوز أن ينتصب الكذب بتصف ويتعلق هذا حلال الخ بلا تقولوا واللام للتعليل وما مصدرية أى لا تقولوا هذا حلال وهذا حرام لوصف ألسنتكم الكذب أى لا تحلوا ولا تحرموا لمجرد وصف ألسنتكم الكذب وتصويرها له بصورة مستحسنة وتزيينها له فى المسامع كأن ألسنتهم لكونها منشأ للكذب ومنبعا للزور شخص عالم بكنهه ومحيط بحقيقته يصفه للناس ويعرفه أوضح وصف وأبين تعريف على طريقة الاستعارة بالكناية كما يقال وجهه يصف الجمال وعينه تصف السحر وقرىء بالجر صفة لما مع مدخولها كأنه قيل لوصفها الكذب بمعنى الكاذب كقوله تعالى (بدم كذب) والمراد بالوصف وصفها البهائم بالحل والحرمة وقرىء الكذب جمع كذوب بالرفع صفة للألسنة وبالنصب على الشتم أو بمعنى الكلم الكواذب أو هو جمع الكذاب من قولهم كذب كذابا ذكره ابن جنى ﴿ لتفتروا على الله الكذب ﴾ فإن مدار الحل والحرمة ليس إلا أمر الله تعالى فالحكم بالحل والحرمة إسناد للتحليل والتحريم إلى الله سبحانه من غير أن يكون ذلك منه واللام لام العاقبة .

﴿ إن الذين يفترون على الله الكذب ﴾ فى أمر من الأمور ﴿ لا يفلحون ﴾ لا يفوزون بمطالبهم التى ارتكبوا الافتراء للفوز بها ﴿ متاع قليل ﴾ خبر مبتدأ محذوف أى منفعتهم فيما هم عليه من أفعال الجاهلية منفعة قليلة ﴿ ولهم ﴾ فى الآخرة ﴿ عذاب أليم ﴾ لا يكتنه كنهه .

﴿ وعلى الذين هادوا ﴾ خاصة دون غيرهم من الأولين والآخرين ﴿ حرمنا ما قصصنا عليك ﴾ أى بقوله تعالى حرمنا كل ذى ظفر ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما الآية ﴿ من قبل ﴾ متعلق بقصصنا أو بحرمنا وهو تحقيق لما سلف من حصر المحرمات فيما فصل بإبطال ما يخالفه من فرية اليهود وتكذيبهم

فى ذلك فإنهم كانوا يقولون لسنا أول من حرمت عليه وإنما كانت محرمة على نوح وإبراهيم ومن بعدهما حتى انتهى الأمر إلينا ﴿ وما ظلمناهم ﴾ بذلك التحريم ﴿ ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ حيث فعلوا ماعوقبوا عليه حسبما نعى عليهم قوله تعالى (فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم) الآية ولقد ألقمهم الحجر قوله تعالى (كل الطعام كان حلا لبنى إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين) روى أنه عليه الصلاة والسلام لما قال لهم ذلك بهتوا ولم يجسروا أن يخرجوا التوراة كيف وقد بين فيها أن تحريم ما حرم عليهم من الطيبات لظلمهم وبغيهم عقوبة وتشديدا أوضح بيان وفيه تنبيه على الفرق بينهم وبين وبين غيرهم فى التحريم .

﴿ ثم إن ربك للذين عملوا السوء بجهالة ﴾ أى بسبب جهالة أو ملتبسين بها ليعم الجهل بالله وبعقابه وعدم التدبر فى العواقب لغلبة الشهوة والسوء يعم الافتراء على الله تعالى وغيره ﴿ ثم تابوا من بعد ذلك ﴾ أى من بعد ما عملوا ما عملوا والتصريح به مع دلالة ثم عليه للتأكيد والمبالغة ﴿ وأصلحوا ﴾ أى أصلحوا أعمالهم أو دخلوا فى الصلاح ﴿ إن ربك من بعدها ﴾ من بعد التوبة ﴿ لغفور ﴾ لذلك السوء ﴿ رحيم ﴾ يثيب على طاعته تركا وفعلا وتكرير قوله تعالى إن ربك لتأكيد الوعد وإظهار كمال العنايه بإنجازه والتعرض لوصف الربوبية مع الإضافة إلى ضميره عليه السلام مع ظهور الأثر فى التائبين للإيماء إلى أن إفاضة آثار الربوبية من المغفرة والرحمة عليهم بتوسطه عليه السلام وكونهم من أتباعه كما أشير إليه فيما مر .

الإسلام وشريعة إبراهيم

﴿ إن إبراهيم كان أمة ﴾ على حياله لحيازته من الفضائل البشرية مالا تكاد توجد إلا متفرقة فى أمة جمة حسبما قيل :

وليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم فى واحد

وهو رئيس أهل التوحيد وقدوة أصحاب التحقيق جادل أهل الشرك وألقمهم الحجر ببينات باهرة لا تبقى ولا تذر وأبطل مذاهبهم الزائفة بالبراهين القاطعة والحجج الدامغة أو لأنه عليه السلام كان مؤمنا وحده والناس كلهم كفار وقيل هى فعلة بمعنى مفعول كالرحلة والنخبة من أمه إذا قصده أو اقتدى به فإن الناس كانوا يقصدونه ويقتدون بسيرته لقوله تعالى (إنى جاعلك للناس إماما) وإيراد ذكره عليه السلام عقيب تزييف مذاهب المشركين من الشرك والطعن فى النبوة وتحريم ما أحله الله تعالى للإيذان بأن حقية دين الإسلام وبطلان الشرك وفروعه أمر ثابت لا ريب فيه ﴿ قانتا لله ﴾ مطيعا له قائما بأمره ﴿ حنيفا ﴾ مائلا عن كل دين باطل إلى الدين الحق غير زائل عنه بحال ﴿ ولم يك من المشركين ﴾ فى أمر من أمور دينهم أصلا وفرعا صرح بذلك مع ظهوره لاردا على كفار قريش فقط فى قولهم نحن على ملة أبينا إبراهيم بل عليهم وعلى اليهود المشركين بقولهم (عزير ابن الله) فى افترائهم وادعائهم أنه عليه الصلاة والسلام كان على ما هم عليه كقوله سبحانه (ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين) إذ به ينتظم أمر إيراد التحريم والسبت سابقا ولاحقا .

﴿ شاكراً لأنعمه ﴾ صفة ثالثة لامة وإنما أوثر صيغة جمع القلة للإيذان بأنه عليه السلام كان لا يخل بشكر النعمة القليلة فكيف بالكثيرة وللتصريح بكونه عليه السلام على خلاف ما هم عليه من الكفران بأنعم الله تعالى حسبما بين ذلك بضرب المثل ﴿ اجتباه ﴾ للنبوة ﴿ وهداه إلى صراط مستقيم ﴾ موصل إليه سبحانه وهو ملة الإسلام وليست نتيجة هذه الهداية مجرد اهتدائه عليه السلام بل مع إرشاد الخلق أيضا بمعونة قرينة الاجتباء ﴿ وآتيناه فى الدنيا حسنة ﴾ حالة حسنة من الذكر الجميل والثناء فيما بين الناس قاطبة حتى أنه ليس من أهل دين إلا وهم يتولونه وقيل هى الخلة والنبوة وقيل قول المصلى منا كما صليت على إبراهيم والالتفات إلى التكلم لإظهار كمال الاعتناء بشأنه وتفخيم مكانه عليه الصلاة والسلام ﴿ وإنه فى الآخرة لمن الصالحين ﴾ أصحاب الدرجات

العالية فى الجنة حسبما سأله بقوله (وألحقنى بالصالحين واجعل لى لسان صدق فى الآخرين واجعلنى من ورثة جنة النعيم).

﴿ثم أوحينا إليك﴾ مع طبقتك وسمو رتبتك ﴿أن اتبع ملة إبراهيم﴾ الملة اسم لما شرعه الله تعالى لعباده على لسان الأنبياء عليهم السلام من أمللت الكتاب إذا أمليته وهو الدين بعينه لكن باعتبار الطاعة له وتحقيقه أن الوضع الإلهى مهما نسب إلى من يؤديه عن الله تعالى يسمى ملة ومهما نسب إلى من يقيمه دينا قال الراغب[1] الفرق بينهما أن الملة لاتضاف إلا إلى النبى عليه السلام ولاتكاد توجد مضافة إلى الله سبحانه وتعالى إلى آحاد الأمة ولا تستعمل إلا فى جملة الشرائع دون آحادها والمراد بملته عليه السلام الإسلام الذى عبر عنه آنفا بالصراط المستقيم ﴿حنيفا﴾ حال من المضاف إليه لما أن المضاف لشدة اتصاله به عليه السلام جرى منه مجرى البعض فقيد بذلك من قبيل رأيت وجه هند قائمة والمأمور به الاتباع فى الأصول دون الشرائع المتبدلة بتبدل الأعصار وما فى ثم من التراخى فى الرتبة للإيذان بأن هذه النعمة من أجل النعم الفائضة عليه عليه السلام ﴿وما كان من المشركين﴾ تكرير لما سبق لزيادة تأكيد وتقرير لنزاهته عليه السلام عما هم عليه من عقد وعمل وقوله تعالى:

﴿إنما جعل السبت﴾ أى فرض تعظيمه والتخلى فيه للعبادة وترك الصيد فيه تحقيق لذلك النفى الكلى وتوضيح له بإبطال ما عسى يتوهم كونه قادحا فى كليته حسبما سلف فى قوله تعالى (وعلى الذين هادوا حرمنا) الخ فإن اليهود كانوا يدعون أن السبت من شعائر الإسلام وأن إبراهيم عليه السلام كان محافظا عليه أى ليس السبت من شرائع إبراهيم وشعائر ملته التى أمرت باتباعها حتى يكون بينه عليه الصلاة والسلام وبين بعض المشركين علاقة فى الجملة وإنما شرع ذلك لبنى إسرائيل بعد مدة طويلة وإيراد الفعل مبنيا للمفعول جرى على سنن الكبرياء وإيذان بعدم الحاجة إلى التصريح بالفاعل لاستحالة الإسناد إلى الغير وقد قرىء

---

(١) الراغب الأصفهانى يعنى فى كتابه مفردات القرآن

على البناء للفاعل وإنما عبر عن ذلك بالجعل موصولا بكلمة على وعنهم بالاسم الموصول باختلافهم فقيل إنما جعل السبت ﴿ على الذين اختلفوا فيه ﴾ للإيذان بتضمنه للتشديد والابتلاء المؤدى إلى العذاب وبكونه معللا باختلافهم فى شأنه قبل الوقوع إيثارا له على ما أمر الله تعالى به واختيارا للعكس لكن لا باعتبار شمول العلية لطرفى الاختلاف وعموم الغائلة للفريقين بل باعتبار حال منشأ الاختلاف من الطرف المخالف للحق وذلك أن موسى عليه الصلاة والسلام أمر اليهود أن يجعلوا فى الأسبوع يوما واحدا للعبادة وأن يكون ذلك يوم الجمعة فأبوا عليه وقالوا نريد اليوم الذى فرغ الله تعالى فيه من خلق السموات والأرض وهو السبت إلا شرذمة منهم قد رضوا بالجمعة فأذن الله تعالى لهم فى السبت وابتلاهم بتحريم الصيد فيه فأطاع أمر الله تعالى الراضون بالجمعة فكانوا لا يصيدون وأعقابهم لم يصبروا عن الصيد فمسخهم الله سبحانه قردة دون أولئك المطيعين .

﴿ وإن ربك ليحكم بينهم ﴾ أى بين الفريقين المختلفين فيه ﴿ يوم القيامه فيما كانوا فيه يختلفون ﴾ أى يفصل ما بينهما من الخصومة والاختلاف فيجازى كل فريق بما يستحقه من الثواب والعقاب وفيه إيماء إلى أن ما وقع فى الدنيا من مسخ أحد الفريقين وإنجاء الآخر بالنسبة إلى ما سيقع فى الآخرة شىء لا يعتد به هذا هو الذى يستدعيه الإعجاز التنزيلى وقيل المعنى إنما جعل وبال السبت وهو المسخ على الذين اختلفوا فيه أى أحلوا الصيد فيه تارة وحرموه أخرى وكان حتما عليهم أن يتفقوا على تحريمه حسبما أمر الله سبحانه به وفسر الحكم بينهم بالمجازاة باختلاف أفعالهم بالإخلال تارة والتحريم أخرى ووجه إيراده ههنا بأنه أريد به إنذار المشركين من سخط الله تعالى على العصاة والمخالفين لأوامره كضرب المثل بالقرية التى كفرت بأنعم الله تعالى ولا ريب فى أن كلمة بينهم تحكم بأن المراد بالحكم هو فصل ما بين الفريقين من الاختلاف وأن توسيط حديث المسخ للإنذار المذكور بين حكاية أمر النبى صلى الله عليه وسلم

بإتباع ملة إبراهيم عليه الصلاة والسلام وبين أمره صلى الله علية وسلم بالدعوة إليها من قبيل الفصل بين الشجر ولحائه فتأمل .

أصول الدعوة الإسلامية

﴿ أدع ﴾ أى من بعثت اليهم من الأمة قاطبه لحذف المفعول للتعميم أو افعل الدعوة كما فى قولهم يعطى ويمنع أى يفعل الإعطاء والمنع لحذفه للقصد إلى إيجاد نفس الفعل إشعارا بأن عموم الدعوة غنى عن البيان وإنما المقصود الأمر بإيجاد على وجه مخصوص ﴿ إلى سبيل ربك ﴾ إلى الإسلام الذى عبر عنه تارة بالصراط المستقيم وأخرى بملة إبراهيم عليه السلام وفى التعرض لعنوان الربوبية المنبئة عن المالكية وتبليغ الشىء إلى كماله اللائق شيئاً فشيئاً مع إضافة الرب إلى ضمير النبى عليه الصلاة والسلام فى مقام الأمر بدعوة الأمة على الوجه الحكيم وتكميلهم بأحكام الشريعة الشريفة من الدلالة على إظهار اللطف به عليه الصلاة والسلام والإيماء إلى وجه بناء الحكم ما لا يخفى ﴿ بالحكمة ﴾ أى بالمقالة المحكمة الصحيحة وهو الدليل الموضح للحق المزيح للشبهة ﴿ والموعظة الحسنة ﴾ أى الخطابيات المقنعة والعبر النافعة على وجه لا يخفى عليهم أنك تناصحهم[1] وتقصد ما ينفعهم ، فالأولى لدعوة خواص الأمة الطالبين للحقائق والثانية لدعوة عوامهم ويجوز أن يكون المراد بهما القرآن المجيد فإنه جامع لكلا الوصفين .

﴿ وجادلهم ﴾ أى ناظر معانديهم ﴿ بالتى هى أحسن ﴾ بالطريقة التى هى أحسن طرق المناظرة والمجادلة من الرفق واللين واختيار الوجه الأيسر واستعمال المقدمات المشهورة تسكينا لشغبهم وإطفاء للهبهم كما فعله الخليل عليه السلام ﴿ إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله ﴾ الذى أمرك بدعوة الخلق اليه

---

(١) فى ١٠ : تنصحهم .

وأعرض عن قبول الحق بعد ما عاين من الحكم والمواعظ والعبر ﴿ وهو أعلم بالمهتدين ﴾ إليه بذلك وهو تعليل لما ذكر من الأمرين والمعنى والله تعالى أعلم أسلك فى الدعوة والمناظرة الطريقة المذكورة فإنه تعالى هو أعلم بحال من لا يرعوى عن الضلال بموجب استعداده المكتسب وبحال من يصير أمره إلى الاهتداء لما فيه من خير جلى فاشرعه لك فى الدعوة هو الذى تقتضيه الحكمة فإنه كاف فى هداية المهتدين وإزالة عذر الضالين أو ما عليك إلا ماذكر من الدعوة والمجادلة بالأحسن وأما حصول الهداية أو الضلال والمجازاة عليهما فإلى الله سبحانه إذ هو أعلم بمن يبقى على الضلال وبمن يهتدى إليه فيجازى كلا منهما بما يستحقه وتقديم الضالين لما أن مساق الكلام لهم وإيراد الضلال بصيغة الفعل الدال على الحدوث لما أنه تغيير لفطرة الله التى فطر الناس عليها وإعراض عن الدعوة وذلك أمر عارض بخلاف الاهتداء الذى هو عبارة عن الثبات على الفطرة والجريان على موجب الدعوة ولذلك جىء به على صيغة الاسم المنبىء عن الثبات وتكرير هو أعلم للتأكيد والإشعار بتباين حال المعلومين ومآلهما من العقاب والثواب وبعد ما أمره عليه الصلاة والسلام فيما يختص به من شأن الدعوة بما أمره به من الوجه اللائق عقبه بخطاب شامل له ولمن شايعه فيما يعم الكل فقال .

﴿ وإن عاقبتم ﴾ أى إن أردتم المعاقبة على طريقة قول الطبيب للمحمى إن أكلت فكل قليلا ﴿ فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ﴾ أى بمثل ما فعل بكم وقد عبر عنه بالعقاب على طريقة إطلاق اسم المسبب على السبب نحو كما تدين تدان أو على نهج المشاكلة والمقصود إيجاب مراعاة العدل مع من يناصبهم من غير تجاوز حين ما آل الجدال إلى القتال وأدى النزاع إلى القراع فإن الدعوة المأمور بها لا تكاد تنفك عن ذلك كيف لا وهى موجبة لصرف الوجوه عن القبل المعبودة وإدخال الأعناق فى قلادة غير معهودة قاضية عليهم بفساد ما يأتون وما يذرون وبطلان دين استمرت عليه آباؤهم الأولون وقد ضاقت عليهم الحيل

وعيت بهم العلل وسدت عليهم طرق المحاجة والمناظرة وأرتجت دونهم أبواب المباحثة والمحاورة وقيل إنه عليه الصلاة والسلام لما رأى حمزة رضى الله عنه يوم أحد قد مثل به قال لئن أظفرنى الله بهم لأمثلن بسبعين مكانك فنزلت فكفر عن يمينه وكف عما أراده وقرىء وإن عقبتم فعقبوا أى وإن قفيتم بالانتصار فقفوا بمثل ما فعل بكم غير متجاوزين عنه والأمر وإن دل على إباحة المماثلة فى المثلة من غير تجاوز لكن فى تقييده بقوله وإن عاقبتم حث على العفو تعريضا وقد صرح به على الوجه الآكد فقيل ﴿ ولئن صبرتم ﴾ أى عن المعاقبة بالمثل ﴿ لهو ﴾ أى لصبركم ذلك ﴿ خير ﴾ لكم من الانتصار بالمعاقبة وإنما قيل ﴿ للصابرين ﴾ مدحاً لهم وثناء عليهم بالصبر أو وصفا لهم بصفة تحصل لهم عند ترك المعاقبة ويجوز عود الضمير إلى مطلق الصبر المدلول عليه بالفعل فيدخل فيه صبرهم كدخول أنفسهم فى جنس الصابرين دخولا أولياً ثم أمر عليه الصلاة والسلام صريحا بما ندب إليه غيره تعريضا من الصبر لأنه أولى الناس بعزائم الأمور لزيادة علمه بشؤنه سبحانه ووفور وثوقه به فقيل :

﴿ واصبر ﴾ أى على ما أصابك من جهتهم من فنون الآلام والأذية وعاينت من إعراضهم عن الحق بالكلية ﴿ وما صبرك إلا بالله ﴾ استثناء مفرغ من أعم الأشياء أى وما صبرك ملابسا ومصحوبا بشىء من الأشياء إلا بالله أى بذكره والاستغراق فى مراقبة شؤنه والتبتل إليه بمجامع الهمة وفيه من تسليته عليه الصلاة والسلام وتهوين مشاق الصبر عليه وتشريفه مالا مزيد عليه أو إلا بمشيئته المبنية على حكم بالغة مستتبعة لعواقب حميدة فالتسلية من حيث اشتماله على غايات جميلة وقيل إلا بتوفيقه ومعونته فهى من حيث تسهيله وتيسيره فقط ﴿ ولا تحزن عليهم ﴾ أى على الكافرين بوقوع اليأس من إيمانهم بك ومتابعتهم لك نحو (فلا تأس على القوم الكافرين) وقيل على المؤمنين وما فعل بهم والأول هو الأنسب بجزالة النظم الكريم ﴿ ولا تك فى ضيق ﴾ بالفتح وقرىء بالكسر وهما لغتان كالقول والقيل أى لا تكن فى ضيق صدر

وحرج ويجوز أن يكون الأول تخفيف ضيق كهين من هين أى فى أمر ضيق ﴿مما يمكرون﴾ أى من مكرهم بك فيما يستقبل فالأول نهى عن التألم بمطلوب من قبلهم فات والثانى عن التألم بمحذور من جهتهم آت والنهى عنهما مع أن انتفاءهما من لوازم الصبر المأمور به لا سيما على الوجه الأول لزيادة التأكيد وإظهار كمال العناية بشأن التسلية وإلا فهل يخطر ببال من توجه إلى الله سبحانه بشراشر نفسه متنزها عن كل ما سواه من الشواغل شىء من مطلوب فينهى عن الحزن بفواته أو محذور فكيف عن الخوف من وقوعه ﴿إن الله مع الذين اتقوا﴾ تعليل لما سبق من الأمر والنهى والمراد بالمعية الولاية الدائمة التى لا تحوم حول صاحبها شائبة شىء من الجزع والحزن وضيق الصدور وما يشعر به دخول كلمة مع من متبوعيه المتقين إنما هى من حيث أنهم المباشرون للتقوى. وكذا الحال فى قوله سبحانه (إن الله مع الصابرين) ونظائرهما كافة والمراد بالتقوى المرتبة الثالثة منه الجامعة لما تحتها من مرتبة التوقى عن الشرك ومرتبة التجنب عن كل ما يؤثم من فعل وترك أعنى التنزه عن كل ما يشغل سره عن الحق والتبتل اليه بشراشر نفسه وهو التقوى الحقيق المورث لولايته تعالى المقرونة ببشارة قوله سبحانه (ألا ان أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون) والمعنى أن الله ولى الذين تبتلوا إليه بالكلية وتنزهوا عن كل ما يشغل سرهم عنه فلم يخطر ببالهم شىء من مطلوب أو محذور فضلا عن الحزن بفواته أو الخوف من وقوعه وهو المعنى بما به الصبر المأمور به حسبما أشير إليه وبه يحصل التقريب ويتم التعليل كما فى قوله تعالى (فاصبر إن العاقبة للمتقين) على أحد التفسيرين. كما حقق فى مقامه وإلا فمجرد الترقى عن المعاصى لا يكون مدارا لشىء من العزائم المرخص فى تركها فكيف بالصبر المشار إليه ورديفه وإنما مداره المعنى المذكور فكأنه قيل إن الله مع الذين صبروا وإنما أوثر ما عليه النظم الكريم مبالغة فى الحث على الصبر بالتنبيه على أنه من خصائص أجل النعوت الجليلة وروادفه كما أن قوله تعالى ﴿والذين هم محسنون﴾ للإشعار بأنه من باب الإحسان الذى يتنافس فيه المتنافسون على مافصل ذلك حيث قيل (واصبر)

فإن الله لا يضيع أجر المحسنين وقد نبه على أن كلا من الصبر والتقوى من قبيل الإحسان فى قوله تعالى (إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين) وحقيقة الإحسان الإتيان بالأعمال على الوجه اللائق الذى هو حسنها الوصفى المستلزم لحسنها الذاتى وقد فسره عليه الصلاة والسلام بقوله أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك وتكرير الموصول للإيذان بكفاية كل من الصلتين فى ولايته سبحانه من غير أن تكون إحداهما تتمة للأخرى وإيراد الأولى فعلية للدلالة على الحدوث كما أن إيراد الثانية اسمية لإفادة كون مضمونها شيمة راسخة لهم وتقديم التقوى على الإحسان لما أن التخلية متقدمة على التحلية والمراد بالموصولين إما جنس المتقين والمحسنين وهو عليه الصلاة والسلام داخل فى زمرتهم دخولا أوليا وإما هو عليه الصلاة والسلام ومن شايعه عبر عنهم بذلك مدحا لهم وثناء عليهم بالنعتين الجميلين وفيه رمز إلى أن صنيعه عليه الصلاة والسلام مستتبع لاهتداء الأمة به كقول من قال لابن عباس رضى الله عنهما عند التعزية .

اصبر نكن بك صابرين فإنما صبر الرعية عند صبر الراس

عن هرم بن حيان أنه قيل له حين الاحتضار أوص قال : إنما الوصية من المال وأوصيكم بخواتيم سورة النحل ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة النحل لم يحاسبه الله تعالى بما أنعم عليه فى دار الدنيا وإن مات فى يوم تلاها أو ليلته كان له من الأجر كالذى مات وأحسن الوصية[1] والحمد لله وحده والصلاة والسلام على رسوله وآله أجمعين .

***

(١) رواه القرطبى فى أفضل الأذكار

سورة بنى إسرائيل

(مائة وإحدى عشرة آية . مكية إلا آيات فى آخرها)

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

﴿ سبحان الذى أسرى بعبده ﴾ سبحان علم للتسبيح كعثمان للرجل وحيث كان المسمى معنى لا عينا وجنسا لا شخصا لم تكن إضافته من قبيل ما فى زيد المعارك أو حاتم طىء وانتصابه بفعل متروك الإظهار تقديره أسبح الله سبحان الخ وفيه ما لا يخفى من الدلالة على التنزيه البليغ من حيث الاشتقاق من السبح الذى هو الذهاب والإبعاد فى الأرض ومنه فرس سبوح أى واسع الجرى ومن جهة النقل إلى التفعيل ومن جهة العدول من المصدر إلى الاسم الموضوع له خاصة لاسيما وهو علم يشير إلى الحقيقة الحاضرة فى الذهن ومن جهة قيامه مقام المصدر مع الفعل وقيل هو مصدر كغفران بمعنى التنزه ففيه مبالغة من حيث إضافة التنزه إلى ذاته المقدسة ومناسبة تامة بين المحذوف وبين ما عطف عليه فى قوله سبحانه وتعالى كأنه قيل تنزه بذاته وتعالى والإسراء السير بالليل خاصة كالسرى وقوله تعالى ﴿ ليلا ﴾ لإفادة قلة زمان الإسراء لما فيه من التنكير الدال على البعضية من حيث الأجزاء دلالته على البعضية من حيث الإفراد فإن قولك سرت ليلا كما يفيد بعضية زمان سيرك من الليالى يفيد بعضيته من فرد واحد منها بخلاف ما إذا قلت سرت الليل فإنه يفيد استيعاب السير له جميعاً فيكون معيارا للسير لا ظرفا له ويؤيده قراءة من الليل أى بعضه وإيثار لفظ العبد للإيذان بتمحضه عليه الصلاة والسلام فى عبادته سبحانه وبلوغه فى ذلك غاية الغايات القاصية ونهاية النهايات النائية حسبما يلوح به مبدأ الإسراء ومنتهاه وإضافة التنزيه أو التنزه إلى الموصول المذكور للإشعار بعلية ما فى حيز الصلة للمضاف فإن ذلك من أدلة كمال قدرته وبالغ حكمته ونهاية تنزهه عن صفات المخلوقين .

﴿ من المسجد الحرام ﴾ اختلف فى مبدأ الإسراء فقيل هو المسجد الحرام بعينه وهو الظاهر فإنه روى عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال بينا أنا فى المسجد

الحرام فى الحجر عند البيت بين النائم واليقظان إذ أتانى جبريل عليه الصلاة والسلام بالبراق وقيل هو دار أم هانىء بنت أبى طالب ، والمراد بالمسجد الحرام الحرم لإحاطته بالمسجد والتباسه به ، أو لأن الحرم كله مسجد فإنه روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه عليه الصلاة والسلام كان نائما فى بيت أم هانىء بعد صلاة العشاء فكان ما كان فقصه عليها فلما قام ليخرج إلى المسجد تشبثت بثوبه عليه الصلاة والسلام لتمنعه خشية أن يكذبه القوم قال عليه الصلاة والسلام وإن كذبونى فلما خرج جلس إليه أبو جهل فأخبره صلى الله عليه وسلم بحديث الإسراء فقال أبو جهل : يامعشر كعب بن لؤى بن غالب هلم فحدثهم فمن مصفق وواضع يده على رأسه تعجبا وإنكاراً وارتد ناس ممن كان آمن به ، وسعى رجال إلى أبى بكر فقال : إن كان قال ذلك لقد صدق ، قالوا : أتصدقه على ذلك قال : إنى أصدقه على أبعد من ذلك فسمى الصديق وكان فيهم من يعرف بيت المقدس فاستنعتوه[1] المسجد فجلى له[2] بيت المقدس فطفق ينظر إليه وينعته لهم فقالوا أما النعت فقد أصابه . فقالوا أخبرنا عن عيرنا فأخبرهم بعدد جمالها وأحوالها وقال تقدم يوم كذا مع طلوع الشمس يقدمها جمل أورق ، فخرجوا يشتدون ذلك اليوم نحو الثنية فقال قائل منهم : هذه والله الشمس قد أشرقت فقال آخر هذه والله العير قد أقبلت يقدمها جمل أورق كما قال محمد ثم لم يؤمنوا قاتلهم الله أنى يؤفكون .

واختلف فى وقته أيضا فقيل كان قبل الهجرة بسنة ، وعن أنس والحسن أنه كان قبل البعثة ، واختلف أيضاً أنه فى اليقظة أو فى المنام فعن الحسن أنه كان فى المنام ، وأكثر الأقاويل بخلافه ، والحق أنه كان فى المنام قبل البعثة وفى اليقظة بعدها ، واختلف أيضا أنه كان جسمانيا أو روحانيا . فعن عائشة رضى الله عنها أنها قالت ما فقد جسد رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكن عرج بروحه وعن معاوية أنه قال إنما عرج بروحه والحق أنه كان جسمانيا على ما ينبىء عنه

---

(١) أى : طلبوا منه نعته ووصفه . (٢) أى : فظهر

التصدير بالتنزيه وما فى ضمنه من التعجب فإن الروحانى ليس فى الاستبعاد والاستنكار وخرق العادة بهذه المثابة ولذلك تعجبت منه قريش وأحالوه ولا استحالة فيه فإنه قد ثبت فى الهندسة أن قطر الشمس ضعف قطر الأرض مائة ونيفا وستين مرة ثم إن طرفها الأسفل يصل إلى موضع طرفها الأعلى بحركة الفلك الأعظم مع معاوقة حركة فلكها لها فى أقل من ثانية وقد تقرر أن الأجسام متساوية فى قبول الأعراض التى من جملتها الحركة وأن الله سبحانه قادر على كل ما يحيط به حيطة الإمكان فيقدر على أن يخلق تلك الحركة بل أسرع منها فى جسد النبى صلى الله عليه وسلم أو فيما يحمله ولو لم يكن مستبعداً لم يكن معجزة .

﴿ إلى المسجد الأقصى ﴾ أى بيت المقدس سمى به إذ لم يكن حينئذ وراءه مسجد وفى ذلك من تربية معنى التنزيه والتعجب ما لا يخفى ﴿ الذى باركنا حوله ﴾ ببركات الدين والدنيا لأنه مهبط الوحى ومتعبد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ﴿ لنريه ﴾ غاية للإسراء ﴿ من آياتنا ﴾ العظيمة التى من جملتها ذهابه فى برهة من الليل مسيرة شهر ولا يقدح فى ذلك كونه قبل الوصول إلى المقصد ومشاهدة بيت المقدس وتمثل الأنبياء له ووقوفه على مقاماتهم العلية عليهم الصلاة والسلام والالتفات إلى التكلم لتعظيم تلك البركات والآيات وقرىء ليريه بالياء ﴿ إنه هو السميع ﴾ لأقواله عليه الصلاة والسلام بلا أذن ﴿ البصير ﴾ بأفعاله بلا بصر حسبما يؤذن به القصر فيكرمه ويقربه بحسب ذلك وفيه إيماء إلى أن الإسراء المذكور ليس إلا لتكرمته عليه الصلاة والسلام ورفع منزلته وإلا فالإحاطة بأقواله وأفعاله حاصلة من غير حاجة إلى التقريب والالتفات إلى الغيبة لتربية المهابة ﴿ وآتينا موسى الكتاب ﴾ أى التوراة وفيه إيماء إلى دعوته عليه الصلاة والسلام إلى الطور وما وقع فيه من المناجاة جمعا بين الأمرين المتحدين فى المعنى ولم يذكر ههنا العروج بالنبى عليه السلام إلى السماء وما كان فيه مما لا يكتنه كنهه حسبما نطقت به سورة النجم تقريبا للإسراء إلى قبول السامعين أى آتيناه التوراة بعد من أسرينا به إلى الطور ﴿ وجعلناه ﴾ أى ذلك الكتاب

﴿ هدى لبنى إسرائيل ﴾ يهتدون بما فى مطاويه ﴿أن لاتتخذوا﴾ أى لاتتخذوا نحو كتبت إليه أن افعل كذا وقرىء بالياء على أن مصدرية والمعنى آتيناموسى الكتاب لهداية بنى إسرائيل لئلا يتخذوا ﴿ من دونى وكيلا ﴾ أى ربا تكلون إليه أموركم والإفراد لما أن فعيلا مفرد فى اللفظ جمع فى المعنى ﴿ ذرية من حملنا مع نوح ﴾ نصب على الاختصاص أوالنداء على قراءة النهى والمراد تأكيد الحمل على التوحيد بتذكير إنعامه تعالى عليهم فى ضمن إنجاء آبائهم من الغرق فى سفينة نوح عليه السلام أو على أنه أحد مفعولى لا يتخذوا على قراءة النفى ومن دون حال من وكيلا فيكون كقوله تعالى (ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا) وقرىء بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف أو بدل من واو لا تتخذوا بإبدال الظاهر من ضمير المخاطب كماهو مذهب بعض البغاددة وقرىء ذرية بكسر الذال ﴿ إنه ﴾ أى إن نوحا عليه الصلاة والسلام ﴿ كان عبدا شكورا ﴾ كثير الشكر فى مجامع حالاته وفيه إيذان بأن إنجاء من معه كان ببركة شكره عليه الصلاة والسلام وحث للذرية على الاقتداء به وزجر لهم عن الشرك الذى هو أعظم مراتب الكفران وقيل الضمير لموسى عليه السلام .

حضارة اليهود فى التاريخ

﴿ وقضينا ﴾ أى أتممنا وأحكمنا[1] منزلين ﴿إلى بنى إسرائيل﴾ أوموحين إليهم ﴿ فى الكتاب ﴾ أى فى التوراة فإن الإنزال والوحى إلى موسى عليه السلام إنزال ووحى إليهم ﴿ لتفسدن فى الأرض ﴾ جواب قسم محذوف ويجوز إجراء القضاء المحتوم مجرى القسم كأنه قيل وأقسمنا لتفسدن ﴿مرتين﴾ مصدر والعامل فيه من غير جنسه أولاهما مخالفة حكم التوراة وقتل شعياء عليه الصلاة والسلام وحبس أرمياء حين أنذرهم سخط الله تعالى والثانية قتل زكريا ويحيى وقصد قتل عيسى عليهم الصلاة والسلام ﴿ ولتعلن علوا كبيرا ﴾ لتستكبرن عن طاعة الله سبحانه أو لتغلبن الناس بالظلم والعدوان وتفرطن

(١) فى ١٠ : وحكمنا.

فى ذلك إفراطا مجاوزا للحدود ﴿ فإذا جاء وعد أولاهما ﴾ أى أولى كرتى الإفساد أى حان وقت حلول العقاب الموعود ﴿ بعثنا عليكم ﴾ لمؤاخذتكم بجناياتكم ﴿ عبادا لنا ﴾ وقرىء عبيدا لنا ﴿ أولى بأس شديد ﴾ ذوى قوة وبطش فى الحروب هم سنحاريب من أهل نينوى وجنوده وقيل بخت نصر عامل لهراسب وقيل جالوت[1] ﴿ فجاسوا ﴾ أى ترددوا لطلبكم بالفساد وقرىء بالحاء والمعنى واحد وقرىء وجوسوا ﴿ خلال الديار ﴾ فى أوساطها للقتل والغارة وقرىء خلل الديار فقتلوا علماءهم وكبارهم وأحرقوا التوراة وخربوا المسجد وسبوا منهم سبعين ألفاوذلك من قبيل تولية بعض الظالمين بعضاً كما جرت به السنة الإلهية ﴿ وكان ﴾ ذلك ﴿ وعدا مفعولا ﴾ لا محالة بحيث لا صارف عنه ولا مبدل .

﴿ ثم رددنا لكم الكرة ﴾ أى الدولة والغلبة ﴿ عليهم ﴾ على الذين فعلوا بكم ما فعلوا بعد مائة سنة حين تبتم ورجعتم عما كنتم عليه من الإفساد والعلو قيل هى قتل بخت نصر واستنقاذ بنى إسرائيل أساراهم وأموالهم ورجوع الملك إليهم وذلك أنه لما ورث بهمن بن اسفنديار الملك من جده كشتاسف بن لهراسب[2] ألقى الله تعالى فى قلبه الشفقة عليهم فرد أساراهم إلى الشام وملك عليهم دانيال عليه السلام فاستولوا على من كان فيها من أتباع بخت نصر وقيل هى قتل داود عليه السلام لجالوت .

﴿ وأمددناكم بأموال ﴾ كثيرة بعد ما نهبت أموالكم ﴿ وبنين ﴾ بعد ما سبيت أولادكم .

---

(١) لقد قتل داود جالوت وهو المذكور فى التوراة « جليات » فلا يجوز هذا الرأى .

(٢) لا يجوز انطباق ذلك على الكرة الثانية لأن أوصافها لا تنطبق عليها ، بل هى الكرة التى تجرى الآن .

﴿ وجعلناكم أكثر نفيرا ﴾ مما كنتم من قبل أو من عدوكم والنفير من ينفر مع الرجل من قومه وقيل جمع نفر وهم القوم المجتمعون للذهاب إلى العدو كالعبيد والمبين ﴿ إن أحسنتم ﴾ أعمالكم سواء كانت لازمة لأنفسكم أو متعدية إلى الغير أى عملتموها على الوجه اللائق ولا يتصور ذلك إلا بعد أن تكون الأعمال حسنة فى أنفسها وإن فعلتم الأحيان ﴿ أحسنتم لأنفسكم ﴾ لأن ثوابها لها ﴿ وإن أسأتم ﴾ أعمالكم بأن عملتموها لا على الوجه اللائق ويلزمه السوء الذاتى أو فعلتم الإساءة ﴿ فلها ﴾ إذ عليها وبالها وعن على كرم الله وجه ما أحسنت إلى أحد ولا أسأت إليه وتلاها ﴿ فإذا جاء وعد الآخرة ﴾ حان وقت ماوعد من عقوبة المرة الآخرة ﴿ ليسوءوا وجوهكم ﴾ متعلق بفعل حذف لدلالة ما سبق عليه أى بعثناهم ليسوءوا ومعنى ليسوءوا وجوهكم ليجعلوا آثار المساءة والكآبة بادية فى وجوهكم كقوله تعالى (سيئت وجوه الذين كفروا) وقرىء ليسوء على أن الضمير لله تعالى أو للوعد أو للبعث ولنسوء بنون العظمة وفى قراءة على رضى الله عنه لنسوأن على أنه جواب إذا وقرىء لنسوأن بالنون الخفيفة وليسوأن واللام فى قوله عز وجل ﴿ وليدخلوا المسجد ﴾ عطف على ليسوءوا متعلق بما تعلق هو به ﴿ كما دخلوه أول مرة ﴾ أى فى أول مرة ﴿ وليتبروا ﴾ أى يهلكوا ﴿ ما علو ﴾ ما غلبوه واستولوا عليه أو مدة علوهم ﴿ تتبيرا ﴾ فظيعا لا يوصف بأن ساط الله عز سلطانه عليهم الفرس فغزاهم ملك بابل من ملوك الطوائف اسمه جودرد وقيل جردوس وقيل دخل صاحب الجيش مذبح قرابينهم فوجد فيه دما يغلى فسألهم عنه فقالوا دم قربان لم يقبل منا فقال لم تصدقونى فقتل على ذلك ألوفا فلم يهدأ الدم ثم قال إن لم تصدقونى ما تركت منكم أحدا فقالوا إنه دم يحيى بن زكريا عليهما الصلاة والسلام فقال لمثل هذا ينتقم منكم ربكم ثم قال يا يحيى قد علم ربى وربك ما أصاب قومك من أجلك فاهدأ بإذن الله تعالى قبل أن لا أبقى منهم أحدا فهدأ .

﴿ عسى ربكم أن يرحمكم ﴾ بعد المرة الآخرة إن تبتم توبة أخرى وانزجرتم عما كنتم عليه من المعاصى ﴿ وإن عدتم ﴾ إلى ما كنتم فيه من الفساد مرة

أخرى ﴿ عدنا ﴾ إلى عقوبتكم ولقد عادوا فأعاد الله سبحانه عليهم النقمة بأن سلط عليهم الأكاسرة ففعلوا بهم ما فعلوا من ضرب الإتاوة ونحو ذلك وعن الحسن عادوا فبعث الله تعالى محمدا عليه الصلاة والسلام فهم يعطون الجزية عن يد وهم صاغرون وعن قتادة مثله ﴿ وجعلنا جهنم للكافرين حصيرا ﴾ أى محبسا لا يستطيعون الخروج منها أبد الآبدين وقيل بساطا كما يبسط الحصير وإنما عدل عن أن يقال وجعلنا جهنم لكم تسجيلا على كفرهم بالعود وذما لهم بذلك وإشعارا بعلة الحكم .

القرآن هدى للعالم

﴿ إن هذا القرآن ﴾ الذى آتيناكه ﴿ يهدى ﴾ أى الناس كافة لا فرقة مخصوصة منهم كدأب الكتاب الذى آتيناه موسى ﴿ للتى ﴾ للطريقة التى ﴿ هى أقوم ﴾ أى أقوم الطرائق وأسدها أعنى ملة الإسلام والتوحيد وترك ذكرها ليس لقصد التعميم لها وللحالة والخصلة ونحوها مما يعبر به عن المقصد المذكور بل للإيذان بالغنى عن التصريح بها لغاية ظهورها لا سيما بعد ذكر الهداية التى هى من روادفها والمراد بهدايته لها كونه بحيث يهتدى إليها من يتمسك به لا تحصيل الاهتداء بالفعل فإنه مخصوص بالمؤمنين حينئذ ﴿ ويبشر المؤمنين ﴾ بما فى تضاعيفه من الأحكام والشرائع وقرىء بالتخفيف ﴿ الذين يعملون الصالحات ﴾ التى شرحت فيه ﴿ أن لهم ﴾ أى بأن لهم بمقابلة تلك الأعمال ﴿ أجرا كبيرا ﴾ بحسب الذات وبحسب التضعيف عشر مرات فصاعدا .

﴿ وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة ﴾ وأحكامها المشروحة فيه من البعث والحساب والجزاء وتخصيصها بالذكر من بين سائر ما كفروا به لكونها معظم ما أمروا بالإيمان به ولمراعاة التناسب بين أعمالهم وجزائها الذى أنبأ عنه قوله عز وجل ﴿ أعتدنا لهم عذابا أليما ﴾ وهو عذاب جهنم أى أعتدنا لهم فيما كفروا به وأنكروا وجوده من الآخرة عذابا أليما وهو أبلغ فى الزجر لما أن إتيان العذاب من حيث لا يحتسب أفظع والجملة معطوفة على

جملة يبشر بإضمار يخبر أو على قوله تعالى (أن لهم) داخلة معه تحت التبشير المراد به مجازا مطلق الإخبار المنتظم للإخبار بالخبر السار وبالنبأ الضار حقيقة فيكون ذلك بيانا لهداية القرآن بالترغيب والترهيب ويجوز كون التبشير بمعناه والمراد تبشير المؤمنين ببشارتين توليهم وعقاب أعدائهم وقوله تعالى .

﴿ ويدع الإنسان بالشر ﴾ بيان لحال المهدى أثر بيان حال الهادى وإظهار لما بينهما من التباين والمراد بالإنسان الجنس أسند إليه حال بعض أفراده أو حكى عنه حاله فى بعض أحيانه فالمعنى على الأول أن القرآن يدعو الإنسان إلى الخير الذى لاخير فوقه من الأجر الكبير ويحذر من الشر الذى لاشر وراءه من العذاب الأليم وهو أى بعض منه وهو الكافر يدعو لنفسه بما هو الشر من العذاب المذكور إما بلسانه حقيقة كدأب من قال منهم اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ومن قال فائتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين إلى غير ذلك مما حكى عنهم وإما بأعمالهم السيئة المفضية إليه الموجبة له مجازا كما هو ديدن كلهم ﴿ دعاءه بالخير ﴾ أى مثل دعائه بالخير المذكور فرضا لا تحقيقا فإنه بمعزل من الدعاء به وفيه رمز إلى أنه اللائق بحاله ﴿ وكان الإنسان ﴾ أى من أسند إليه الدعاء المذكور من أفراده ﴿ عجولا ﴾ يسارع إلى طلب ما يخطر بباله متعاميا عن ضرره أو مبالغا فى العجلة يستعجل العذاب وهو آتيه لا محالة ففيه نوع تهكم به وعلى تقدير حمل الدعاء على أعمالهم تحمل العجولية[1] على اللج والتمادى فى استيجاب العذاب بتلك الأعمال وعلى الثانى أن القرآن يدعو الإنسان إلى ما هو خير وهو فى بعض أحيانه كما عند الغضب يدعه ويدعو الله تعالى لنفسه وأهله وماله بما هو شر وكان الإنسان بحسب جبلته عجولا ضجرا لا يتأنى إلى أن يزول عنه ما يعتريه يروى أنه عليه الصلاة والسلام دفع إلى سودة أسيرا فأرخت كتافه رحمة لأنينه بالليل من ألم القيد فهرب فلما أخبر به النبى عليه الصلاة والسلام قال

(١) فى ح : العجلة .

اللهم اقطع يديها تتوقع الإجابة فقال عليه السلام إنى سألت الله تعالى أن يجعل دعائى على من لا يستحق من أهلى عذابا رحمة أو يدعو بما هو شر وهو يحسبه خيرا وكان الإنسان عجولا غير متبصر لا يتدبر فى أموره حق التدبر ليتحقق ماهو خير حقيق بالدعاء به وما هو شر جدير بالاستعاذة منه .

﴿ وجعلنا الليل والنهار آيتين ﴾ شروع فى بيان بعض وجوه ما ذكر من الهداية بالإرشاد إلى مسلك الاستدلال بالآيات والدلائل الآفاقية التى كل واحدة منها برهان نير لا ريب فيه ومنهاج بين لا يضل من ينتحيه فإن الجعل المذكور وما عطف عليه من محو آية الليل وجعل آية للنهار مبصرة وإن كانت من الهدايات التكوينية لكن الإخبار بذلك من الهدايات القرآنية المنبهة على تلك الهدايات وتقديم الليل لمراعاة الترتيب الوجودى إذ منه ينسلخ النهار وفيه تظهر غرر الشهور ولو أن الليلة أضيفت إلى ما قبلها من النهار لكانت من شهر وصاحبها من شهر آخر ولترتيب غاية آية النهار عليها بلا واسطة أى جعلنا الملوين بهيآتهما وتعاقبهما واختلافهما فى الطول والقصر على وتيرة عجيبة يحار فى فهمهما العقول آيتين تدلان على أن لهما صانعا حكيما قادرا عليما وتهديان إلى ما هدى إليه القرآن الكريم من ملة الإسلام والتوحيد ﴿ فمحونا آية الليل ﴾ الإضافة إما بيانية كما فى إضافة العدد إلى المعدود أى محونا الآية التى هى الليل وفائدتها تحقيق مضمون الجملة السابقة ومحوها جعلها ممحوة الضوء مطموسته لكن لا بعد أن لم تكن كذلك بل إبداعها على ذلك كما فى قولهم سبحان من صغر البعوض وكبر الفيل أى أنشأهما كذلك والفاء تفسيرية لأن المحو المذكور وما عطف عليه ليسا مما يحصل عقيب جعل الجديدين آيتين بل هما من جملة ذلك الجعل ومتمماته .

﴿ وجعلنا آية النهار ﴾ أى الآية التى هى النهار على نحو ما مر ﴿ مبصرة ﴾ أى مضيئة يبصر فيها الأشياء وصفا لها بحال أهلها أو مبصرة للناس من أبصره فبصره وإما حقيقة وآية الليل والنهار نيراهما ومحو القمر إما خلقه مطموس النور فى نفسه فالفاء كما ذكر وإما نفس ما استفاده من الشمس شيئا فشيئا إلى المحاق

على ما هو معنى المحو والفاء للتعقيب وجعل الشمس مبصرة إبداعها مضيئة بالذات ذات أشعة تظهر بها الأشياء المظلمة .

﴿ لتبتغوا ﴾ متعلق بقوله تعالى (وجعلنا آية النهار) كما أشير إليه أى وجعلناها مضيئة لتطلبوا لأنفسكم فى بياض النهار ﴿ فضلا من ربكم ﴾ أى رزقا إذ لايتسنى ذلك فى الليل وفى التعبير عن الرزق بالفضل وعن الكسب بالابتغاء والتعرض لصفة الربوبية المنبئة عن التبليغ إلى الكمال شيئاً فشيئاً دلالة على أن ليس فى تحصيل الرزق تأثير سوى الطلب وإنما الإعطاء إلى الله سبحانه لابطريق الوجوب عليه بل تفضلا بحكم الربوبية ﴿ ولتعلموا ﴾ متعلق بكلا الفعلين أعنى محو آية الليل وجعل آية النهار مبصرة لا بأحدهما فقط إذ لايكون ذلك بانفراده مدارا للعلم المذكور أى لتعلموا بتفاوت الجديدين أو نيريهما ذاتا من حيث الإظلام والإضاءة مع تعاقبهما أوحركاتهما وأوضاعهما وسائر أحوالهما ﴿ عدد السنين ﴾ التى يتعلق بها غرض علمى لإقامة مصالحكم الدينية الدنيوية ﴿ والحساب ﴾ أى الحساب المتعلق بما فى ضمنها من الأوقات أى الأشهر والليالى والأيام وغير ذلك مما نيط به شىء من المصالح المذكورة ونفس السنة من حيث تحققها مما ينتظمه الحساب وإنما الذى تعلق به العد طائفة منها وتعلقه فى ضمن ذلك بكل واحدة منها ليس من الحيثية المذكورة أعنى حيثية تحققها وتحصلها[1] من عدة أشهر قد تحصل كل واحد منها بطائفة من الساعات مثلا فان ذلك وظيفة الحساب بل من حيث أنها فرد من تلك الطائفة المعدودة بعدها أى يفنيها من غير أن يعتبر فى ذلك تحصيل شىء معين وتحقيقه ما مر فى سورة يونس من أن الحساب إحصاء ماله كمية منفصلة بتكرير أمثاله من حيث يتحصل بطائفة معينة منها حد معين منه له اسم خاص وحكم مستقل كما أشير إليه آنفا والعد إحصاؤه بمجرد تكرير أمثاله من غير أن يتحصل منه شىء كذلك ولما أن السنين لم يعتبر فيها حد معين له

(١) فى نسخة وتحصيلها .

اسم خاص وحكم مستقل أضيف إليها العدد وعلق الحساب بما عداها مما اعتبر فيه تحصل مراتب معينة لها أسام خاصة وأحكام مستقلة وتحصل مراتب الأعداد من العشرات والمئات والألوف اعتبارى لا يجدى فى تحصل المعدودات وتقديم العدد على الحساب مع أن الترتيب بين متعلقيهما وجودا وعدما على العكس للتنبيه من أول الأمر على أن متعلق الحسات ما فى تضاعيف السنين من الأوقات أو لأن العلم المتعلق بعدد السنين علم إجمالى بما تعلق به الحساب تفصيلا أو لأن العدد من حيث أنه لم يعتبر فيه تحصل شىء آخر منه حسبما ذكر نازل من الحساب المعتبر فيه ذلك منزلة البسيط من المركب أو لأن العلم المتعلق بالأول أقصى المراتب فكان جديرا بالتقديم فى مقام الامتنان والله سبحانه أعلم ﴿ وكل شىء ﴾ تفتقرون اليه فى المعاش والمعاد سوى ما ذكر من جعل الليل والنهار آيتين وما يتبعه من المنـــافع الدينية والدنيويه وهو منصوب بفعل يفسره قوله تعالى ﴿فصلناه تفصيلا﴾ أى بيناه فى القرآن الكريم بيانا بليغا لا التباس معه كقوله تعالى (ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شىء) فظهر كونه هاديا للتى هى أقوم ظهورا بينا .

إحصاء عمل الإنسان

﴿وكل إنسان﴾ مكلف ﴿ ألزمناه طائره ﴾ أى عمله الصادر عنه باختياره حسبما قدر له كأنه طار إليه من عش الغيب ووكر القدر أو ما وقع له فى القسمة الأزلية الواقعة حسب استحقاقه فى العلم الأزلى من قولهم طار له سهم كذا ﴿ فى عنقه ﴾ تصوير لشدة اللزوم وكمال الارتباط أى ألزمناه عمله بحيث لا يفارقه أبدا بل يلزمه لزوم القلادة أو الغل للعنق لا ينفك عنه بحال وقرىء بسكون النون ﴿ونخرج له﴾ بنون العظمة وقد قرىء بالياء مبنيا للفاعل على أن الضمير لله عز وجل والمفعول والضمير للطائر كما فى قراءة يخرج من الخروج ﴿يوم القيامة﴾ للحساب ﴿كتابا﴾ مسطورا فيه ما ذكر من عمله نقيرا وقطميرا وهو مفعول لنخرج على القراءتين الأوليين أو حال من المفعول المحذوف

الراجع إلى الطائر وعلى الآخريين حال من المستتر فى الفعل من ضمير الطائر ﴿ يلقاه ﴾ الإنسان ﴿ منشورا ﴾ وهما صفتان للكتاب أو الأول صفة والثانى حال منها وقرىء يلقاه من لقيته كذا أى يلقى الإنسان إياه قال الحسن بسطت لك صحيفة ووكل بك ملكان فهما عن يمينك وعن شمالك فأما الذى عن يمينك فيحفظ سيئاتك حتى إذا مت طويت صحيفتك وجعلت معك فى قبرك حتى تخرج لك يوم القيامة ﴿ اقرأ كتابك ﴾ أى قائلين لك ذلك . عن قتادة يقرأ ذلك اليوم من لم يكن فى الدنيا قارئا وقيل المراد بالكتاب نفسه المنتقشة بآثار أعماله فإن كل عمل يصدر من الإنسان خيرا أو شرا يحدث منه فى جوهر روحه أمر مخصوص إلا أنه يخفى ما دام الروح متعلقا بالبدن مشتغلا بواردات الحواس والقوى فإذا انقطعت علاقته عن البدن قامت قيامته لأن النفس كانت ساكنة مستقرة فى الجسد وعند ذلك قامت وتوجهت نحو الصعود إلى العالم العلوى فيزول الغطاء وتنكشف الأحوال ويظهر على لوح النفس نقش كل شىء عمله فى مدة عمره وهذا معنى الكتابة والقراءة ﴿ كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا ﴾ أى كفى نفسك والباء زائدة واليوم ظرف لكفى وحسيبا تمييز وعلى صلته لأنه بمعنى الحاسب كالصريم بمعنى الصارم من حسب عليه كذا أو بمعنى الكافى ووضع موضع الشهيد لأنه يكفى المدعى ما أهمه وتذكيره لأن ما ذكر من الحساب والكفاية مما يتولاه الرجال أو لأنه مبنى على تأويل النفس بالشخص على أنها عبارة عن نفس المذكر كقول جبلة بن حريث

يا نفس إنك باللذات مسرور ... فاذكر فهل ينفعك اليوم تذكير

﴿ من اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ﴾ فذلكة لما تقدم من بيان كون القرآن هاديا لأقوم الطرائق ولزوم الأعمال لأصحابها أى من اهتدى بهدايته وعمل بما فى تضاعيفه من الأحكام وانتهى عما نهاه عنه فإنما تعود منفعة اهتدائه إلى نفسه لا تتخطاه إلى غيره ممن لم يهتد ﴿ ومن ضل ﴾ عن الطريقة التى يهديه إليها ﴿ فإنما يضل عليها ﴾ أى فإنما وبال ضلاله عليها لا على من عداه ممن يباشره حتى يمكن مفارقة العمل صاحبه ﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ تأكيد للجملة الثانية

أى لا تحمل نفس حاملة للوزر وزر نفس أخرى حتى يمكن تخلص النفس الثانية عن وزرها ويختل ما بين العامل وعمله من التلازم بل إنما تحمل كل منها وزرها وهذا تحقيق لمعنى قوله عز وجل (وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه) وأما ما يدل عليه قوله تعالى (من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها ومن يشفع شفاعة سيئة يكن له كفل منها) وقوله تعالى (ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم) من حمل الغير وانتفاعه بحسنته وتضرره بسيئته فهو فى الحقيقة انتفاع بحسنة نفسه وتضرر بسيئته فإن جزاء الحسنة والسيئة اللتين يعملهما العامل لازم له .

وإنما الذى يصل إلى من يشفع جزاء شفاعته لا جزاء أصل الحسنة والسيئة ، وكذلك جزاء الضلال مقصور على الضالين وما يحمله المضلون إنما هو جزاء الإضلال لا جزاء الضلال وإنما خص التأكيد بالجملة الثانية قطعا للاطماع الفارغة حيث كانوا يزعمون أنهم إن لم يكونوا على الحق فالتبعة على أسلافهم الذين قلدوهم ﴿ وما كنا معذبين ﴾ بيان للعناية الربانية إثر بيان اختصاص آثار الهداية والضلال بأصحابها وعدم حرمان المهتدى من ثمرات هدايته وعدم مؤاخذة النفس بجناية غيرها أى وما صح وما استقام منا بل استحال فى سنتنا المبنية على الحكم البالغة أو ما كان فى حكمنا الماضى وقضائنا السابق أن نعذب أحدا من أهل الضلال والأوزار اكتفاء بقضية العقل ﴿حتى نبعث﴾ إليهم ﴿ رسولا ﴾ يهديهم إلى الحق ويردعهم عن الضلال ويقيم الحجج ويمهد الشرائع حسبما فى تضاعيف الكتاب المنزل عليه والمراد بالعذاب المنفى إما عذاب الاستئصال كما قاله الشيخ أبو منصور الماتريدى رحمه الله وهو المناسب لما بعده أو الجنس الشامل للدنيوى والأخروى وهو من أفراده وأياما كان فالبعث غاية لعدم صحة وقوعه فى وقته المقدر له لا لعدم وقوعه مطلقا كيف لا والأخروى لا يمكن وقوعه عقيب البعث والدنيوى أيضا لا يحصل إلا بعد تحقق ما يوجبه

من الفسق والعصيان ألا يرى إلى قوم نوح كيف تأخر عنهم ما حل بهم زهاء ألف سنة وقوله تعالى :

دلائل انهيار الحضارات

﴿ وإذا أردنا أن نهلك قرية ﴾ بيان لكيفية وقوع التعذيب بعد البعثة التى جعلت غاية لعدم صحته وليس المراد بالإرادة تحققها بالفعل إذ لا يتخلف عنها المراد ولاالإرادةالأزلية المتعلقةبوقوع المراد فى وقته المقدرله إذلايقارنه الجزاء الآتى بل دنو وقتها كما فى قوله تعالى (أتى أمر الله) أى وإذ دنا وقت تعلق إرادتنا بإهلاك قرية بأن نعذب أهلها بما ذكرنا من عذاب الاستئصال الذى بينا أنه لا يصح منا قبل البعثة أو بنوع مما ذكرنا شأنه من مطلق العذاب أعنى عذاب الاستئصال لما لهم من الظلم والمعاصى دنوا تقتضيه الحكمة من غير أن يكون له حد معين ﴿ أمرنا ﴾ بواسطة الرسول المبعوث إلى أهلها ﴿ مترفيها ﴾ متنعميها وجباريها وملوكها خصهم بالذكر مع توجه الأمر إلى الكل لأنهم الأصول فى الخطاب والباقى أتباع لهم ولأن توجه الأمر إليهم آكد وعدم التعرض للمأمور به إما لظهور أن المراد به الحق والخير لأن الله لايأمر بالفحشاء لاسيما بعد ذكر هداية القرآن لما يهدى إليه وإما لأن المراد وجد منا الأمر كما يقال فلان يعطى ويمنع ﴿ ففسقوا فيها ﴾ أى خرجوا عن الطاعة وتمردوا ﴿ فحق عليها القول ﴾ أى ثبت وتحقق موجبه بحلول العذاب إثر ما ظهر منهم من الفسق والطغيان ﴿ فدمرناها ﴾ بتدمير أهلها ﴿ تدميرا ﴾ لا يكتنه كنهه ولا يوصف هذا هو المناسب لما سبق وقيل الأمر مجاز عن الحمل على الفسق والتسبب له بأن صب عليهم ما أبطرهم وأفضى بهم إلى الفسوق وقيل هو بمعنى التكثير يقال أمرت الشىء فأمر أى كثرته فكثر وفى الحديث خير المال سكة مأبورة ومهرة مأمورة أى كثيرة النتاج ويعضده قراءة آمرنا وأمرنا من الإفعال والتفعل وقد جعلتا من الإمارة أى جعلناهم أمراء وكل ذلك لا يساعده مقام

الزجر عن الضلال والحث على الاهتداء فإن مؤدى ذلك أن طغيانهم منوط بإرادة الله سبحانه وإنعامه عليهم بنعم وافرة أبطرتهم وحملهم على الفسق حملا حقيقا بأن يعبر عنه بالأمر به .

﴿وكم أهلكنا﴾ أى وكثيرا ما أهلكنا ﴿من القرون﴾ بيان لكم وتمييز له والقرن مدة من الزمان يخترم فيها القوم وهى عشرون أو ثلاثون أو أربعون أو ثمانون أو مائة وقد أيد ذلك بأنه عليه الصلاة والسلام دعا لرجل فقال عش قرنا فعاش مائة سنة أو مائة وعشرون ﴿من بعد نوح﴾ من بعد زمنه عليه الصلاة والسلام كعاد وثمود ومن بعدهم ممن قصت أحوالهم[1] فى القرآن العظيم ومن لم تقص وعدم نظم قومه عليه الصلاة والسلام فى تلك القرون المهلكة لظهور أمرهم على أن ذكره عليه الصلاة والسلام رمز إلى ذكرهم ﴿وكفى بربك﴾ أى كفى ربك ﴿بذنوب عباده خبيرا بصيرا﴾ يحيط بظواهرها وبواطنها فيعاقب عليها وتقديم الخبير لتقدم متعلقة من الاعتقادات والنيات التى هى مبادى الأعمال الظاهرة أو لعمومه حيث يتعلق بغير المبصرات أيضا وفيه إشارة إلى أن البعث والأمر وما يتلوهما من فسقهم ليس لتحصيل العلم بما صدر عنهم من الذنوب فإن ذلك حاصل قبل ذلك وإنما هو لقطع الأعذار وإلزام الحجة من كل وجه .

﴿من كان يريد﴾ بأعماله التى يعملها سواء كان ترتب المراد عليها بطريق الجزاء كأعمال البر أو بطريق ترتب المعلولات على العلل كالأسباب أو بأعمال الآخرة فالمراد بالمريد على الأول الكفرة وأكثر الفسقة وعلى الثانى أهل الرياء والنفاق والمهاجر للدنيا والمجاهد لمحض الغنيمة ﴿العاجلة﴾ فقط من غير أن يريد معها الآخرة كما ينبىء عنها الاستمرار المستفاد من زيادة كان ههنا مع الاقتصار على مطلق الإرادة فى قسيمه والمراد بالعاجلة الدار الدنيا وبإرادتها إرادة ما فيها من فنون مطالبها كقوله تعالى (ومن كان يريد حرث الدنيا) ويجوز أن يراد

---

(١) فى ١٠ : ممن ذكرت أحوالهم .

الحياة العاجلة كقوله عزوجل (من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها) لكن الأول أنسب بقوله ﴿عجلنا له فيها﴾ أى فى تلك العاجلة فإن الحياة واستمرارها من جملة ما عجل له فالأنسب بذلك كلمة من كما فى قوله تعالى (ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها) ﴿مانشاء﴾ أى مانشاء تعجيله له من نعيمها لا كل مايريد ﴿لمن نريد﴾ تعجيل ما نشاء له وهو بدل من الضمير فى له بإعادة الجار بدل البعض فإنه راجع إلى الموصول المنبىء عن الكثرة وقرىء لمن يشاء على أن الضمير لله سبحانه وقيل هو لمن فيكون مخصوصا بمن أراد به ذلك وهو واحد من الدهماء وتقييد المعجل والمعجل له بما ذكر من المشيئة والإرادة لما أن الحكمة التى عليها يدور فلك التكوين لا تقتضى وصول كل طالب إلى مرامه ولا استيفاء كل واصل لما يطلبه بتمامه وأما ما يتراءى من قوله تعالى (من كان يريد الحيوة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون) من نيل كل مؤمل لجميع آماله ووصول كل عامل إلى نتيجة أعماله فقد أشير إلى تحقيق القول فيه فى سورة هود بفضل الله تعالى ﴿ثم جعلنا له﴾ مكان ما عجلنا له ﴿جهنم﴾ وما فيها من أصناف العذاب ﴿يصلاها﴾ يدخلها وهو حال من الضمير المجرور أو من جهنم أو استئناف ﴿مذموما مدحورا﴾ مطرودا من رحمة الله تعالى وقيل الآية فى المنافقين كانوا يراءون المسلمين ويغزون معهم ولم يكن غرضهم إلا مساهمتهم فى الغنائم ونحوها ويأباه ما يقال إن السورة مكية سوى آيات معينة .

﴿ومن أراد﴾ بأعماله ﴿الآخرة﴾ الدار الآخرة وما فيها من النعيم المقيم ﴿وسعى لها سعيها﴾ أى السعى اللائق بها وهو الإتيان بما أمر والانتهاء عما نهى لا التقرب بما يخترعون بآرائهم وفائدة اللام اعتبار النية والإخلاص ﴿وهو مؤمن﴾ إيمانا صحيحا لا يخالطه شىء قادح فيه وإيراد الإيمان بالجملة الحالية للدلالة على اشتراط مقارنته لما ذكر فى حيز الصلة ﴿فأولئك﴾ إشارة إلى الموصول بعنوان اتصافه بما فى حيز الصلة وما فى ذلك من معنى البعد للإشعار بعلو درجتهم وبعد منزلتهم والجمعية لمراعاة جانب المعنى إيماء إلى أن الإثابة المفهومة من الخبر تقع على وجه الاجتماع أى أولئك الجامعون لما مر من

الخصال الحميدة أعنى إرادة الآخرة والسعى الجميل لها والإيمان ﴿ كان سعيهم مشكورا ﴾ مقبولا عند الله تعالى أحسن القبول مثابا عليه وفى تعليق المشكورية بالسعى دون قرينيه إشعار بأنه العمدة فيها ﴿ كلا ﴾ التنوين عوض عن المضاف إليه أى كل واحد من الفريقين لا الفريق الأخير المريد للخير الحقيق بالإسعاف فقط ﴿ نمد ﴾ أى نزيد مرة بعد مرة بحيث يكون الآنف مددا للسالف وما به الإمداد ما عجل لأحدهما من العطايا العاجلة وما أعد للآخر من العطايا الآجلة المشار إليها بمشكورية السعى ، وإنما لم يصرح به تعويلا على ما سبق تصريحا وتلويحا وإتكالا على[1] مالحق عبارة وإشارة كما ستقف عليه وقوله تعالى : ﴿ هؤلاء ﴾ بدل من كلا ﴿ وهؤلاء ﴾ عطف عليه أى نمد هؤلاء المعجل لهم وهؤلاء المشكور سعيهم فإن الإشارة متعرضة لذات المشار إليه بماله من العنوان لا للذات فقط كالإضمار ففيه تذكير لما به الإمداد وتعيين للمضاف إليه المحذوف دفعا لتوهم كونه أفراد الفريق الأخير وتأكيد للقصر المستفاد من تقديم المفعول وقوله تعالى : ﴿ من عطاء ربك ﴾ أى من العطاء الواسع الذى لا تناهى له متعلق بنمد ومغن عن ذكر ما به الإمداد ومنبه على أن الإمداد المذكور ليس بطريق الاستيجاب بالسعى والعمل بل بمحض التفضل ﴿ وما كان عطاء ربك ﴾ أى دنيويا كان أو أخرويا وإنما أظهر إظهارا لمزيد الاعتناء بشأنه وإشعارا بعليته للحكم ﴿ محظورا ﴾ ممنوعا ممن يريده بل هو فائض على من قدر له بموجب المشيئة المبنية على الحكمة وإن وجد منه ما يقتضى الحظر كالكافر وهو فى معنى التعليل لشمول الإمداد للفريقين والتعرض لعنوان الربوبية فى الموضعين للإشعار بمبدئيتها لما ذكر من الإمداد وعدم الحظر .

﴿ أنظر كيف فضلنا بعضهم على بعض ﴾ كيف فى محل النصب بفضلنا على الحالية والمراد توضيح ما مر من الإمداد وعدم محظورية العطاء بالتنبيه على

---

(١) فى ط : واستنادا إلى ما لحق .

استحضار مراتب أحد العطاءين والاستدلال بها على مراتب الآخر أى انظر بنظر الاعتبار كيف فضلنا بعضهم على بعض فيما أمددناهم به من العطايا العاجلة فن وضيع ورفيع وظالع وضليع ومالك ومملوك وموسر وصعلوك تعرف بذلك مراتب العطايا الآجلة ودرجات تفاضل أهلها على طريقة الاستشهاد بحال الأدنى على حال الأعلى كما أفصح عنه قوله تعالى ﴿ وللآخرة أكبر ﴾ أى هى وما فيها أكبر من الدنيا وقرىء أكثر ﴿درجات وأكبر تفضيلا﴾ لأن التفاوت فيها بالجنة ودرجاتها العالية التى لا يقادر قدرها ولا يكتنه كنهها كيف لا وقد عبر عنه بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر هذا ويجوز أن يرادبما به الإمداد العطايا العاجلة فقط ويحمل القصر المذكور على دفع توهم اختصاصها بالفريق الأول فإن تخصيص إرادتهم لها ووصولهم إليها بالذكر من غير تعرض لبيان النسبة بينها وبين الفريق الثانى إرادة ووصولا مما توهم اختصاصها بالأولين فالمعنى كل واحد من الفريقين نمد بالعطايا العاجلة لا من ذكرنا إرادته لها فقط من الفريق الأول من عطاء ربك الواسع وما كان عطاؤه الدنيوى محظورا من أحد ممن يريده وممن يريد غيره أنظر كيف فضلنا فى ذلك العطاء بعض كل من الفريقين على بعض آخر منهما وللآخرة الآية واعتبار عدم المحظورية بالنسبة إلى الفريق الأول تحقيقا لشمول الإمداد له كما فعله الجمهور حيث قالوا لا يمنعه من عاص لعصيانه يقتضى كون القصر لدفع توهم اختصاص الإمداد الدنيوى بالفريق الثانى مع أنه لم يسبق فى الكلام ما يوهم ثبوته له فضلا عن إيهام اختصاصه .

﴿ لا تجعل مع الله إلها آخر ﴾ الخطاب للرسول عليه الصلاة والسلام والمراد به أمته وهو من باب التهييج والإلهاب أو كل أحد ممن يصلح للخطاب ﴿ فتقعد ﴾ بالنصب جوابا للنهى والقعود بمعنى الصيرورة من قولهم شحذ الشفرة حتى قعدت كأنها حربة أو بمعنى العجز من قعد عنه أى عجز عنه ﴿ مذموما مخذولا ﴾ خبران أو حالان أى جامعا على نفسك الذم من الملائكة والمؤمنين والخذلان من الله تعالى وفيه إشعار بأن الموحد جامع بين المدح والنصرة.

من قواعد السلوك الإسلامى

﴿ وقضى ربك ﴾ أى أمر أمرا مبرما وقرىء وأوصى ربك ووصى ربك ﴿أن لا تعبدوا﴾ أى بأن لا تعبدوا ﴿إلا إياه﴾ على أن «أن» مصدرية ولا نافية أو أى لا تعبدوا على أنها مفسرة ولا ناهية لأن العبادة غاية التعظيم فلا تحق إلا لمن له غاية العظمة ونهاية الإنعام وهو كالتفصيل للسعى للآخرة[1] ﴿وبالوالدين﴾ أى وبأن تحسنوا بهما أو وأحسنوا بهما ﴿ إحسانا ﴾ لأنهما السبب الظاهر للوجود والتعيش ﴿ إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما ﴾ أما مركبة من أن الشرطية وما المزيدة لتأكيدها ولذلك دخل الفعل نون التأكيد ومعنى عندك فى كنفك وكفالتك وتقديمه على المفعول مع أن حقه التأخر عنه للتشويق إلى وروده فإن مدار تضاعف الرعاية الإحسان وأحدهما فاعل للفعل وتأخيره عن الظرف والمفعول لئلا يطول الكلام به وبما عطف عليه وقرىء يبلغان فأحدهما بدل من ضمير التثنية وكلاهما عطف عليه ولا سبيل إلى جعل كلاهما تأكيدا للضمير وتوحيد ضمير الخطاب فى عندك وفيما بعده مع أن ما سبق على الجمع للاحتراز عن التباس المراد فإن المقصود نهى كل أحد عن تأفيف والديه ونهرهما ولو قوبل الجمع بالجمع أو بالتثنية لم يحصل هذا المرام ﴿فلا تقل لهما﴾ أى لواحد منهما حالتى الانفراد والاجتماع ﴿ أف ﴾ وهو صوت ينبىء عن تضجر أو اسم فعل هو أتضجر وقرىء بالكسر بلا تنوين وبالفتح والضم منونا وغير منون أى لا تتضجر بما تستقذر منهما وتستثقل من مؤنهما وبهذا النهى يفهم النهى عن سائر ما يؤذيهما بدلالة النص وقد خص بالذكر بعضه إظهار اللاعتناء بشأنه فقيل ﴿ ولا تنهرهما ﴾ أى لا تزجرهما عما لا يعجبك بإغلاظ قيل النهى والنهر والنهم أخوات ﴿ وقل لهما ﴾ بدل التأفيف والنهر ﴿ قولا كريما ﴾ ذا كرم أو هو وصف له بوصف صاحبه أى قولا صادرا عن كرم

---

(١) فى ١٠ فى الآخرة .

ولطف وهو القول الجميل الذى يقتضيه حسن الأدب ويستدعيه النزول على المروءة مثل أن يقول يا أباه ويا أماه كدأب إبراهيم عليه السلام إذ قال لأبيه يا أبت مع مابه من الكفر ولايدعوهما بأسمائهما فإنه من الجفاء وسوء الأدب وديدن الدعار وسئل الفضيل بن عياض عن بر الوالدين فقال أن لا تقوم إلى خدمتهما عن كسل وقيل أن لا ترفع صوتك عليهما ولا تنظر إليهما شزرا ولا يريا منك مخالفة فى ظاهر ولاباطن وأن تترحم عليهما ماعاشا وتدعو لهما إذا ماتا وتقوم بخدمة أودائهما من بعدهما فعن النبى عليه الصلاة والسلام إن من أبر البر أن يصل الرجل أهل ود أبيه .

﴿ واخفض لهما جناح الذل ﴾ عبارة عن إلانة الجانب والتواضع والتذلل لهما فإن إعزازهما لا يكون إلا بذلك فكأنه قيل واخفض لهما جناح الذليل أو جعل لذله جناح كما جعل لبيد فى قوله :

وغداة ريح قد كشفت وقرة إذ أصبحت بيد الشمال زمامها

للقرة زماما وللشمال يدا تشبيها له بطائر يخفض جناحه لأفراخه تربية لها وشفقة عليها وأما جعل خفض الجناح عبارة عن ترك الطيران كما فعله القفال فلا يناسب المقام ﴿ من الرحمة ﴾ من فرط رحمتك وعطفك عليهما ورقتك لافتقارهما اليوم إلى من كان أفقر خلق الله تعالى إليهما ولا تكتف برحمتك الفانية بل ادع الله لهما برحمته الواسعه الباقية ﴿ وقل رب ارحمهما ﴾ برحمتك الدنيوية والأخروية التى من جملتها الهداية إلى الإسلام فلا ينافى ذلك كفرهما ﴿ كما ربيانى ﴾ الكاف فى محل النصب على أنه نعت لمصدر محذوف أى رحمة مثل تربيتهما لى أو مثل رحمتهما لى على أن التربية رحمة ويجوز أن يكون لهما الرحمة والتربية معاً وقد ذكر أحدهما فى أحد الجانبين والآخر كما يلوح به التعرض لعنوان الربوبية فى مطلع الدعاء كأنه قيل رب ارحمهما وربهما كما رحمانى وربيانى ﴿ صغيرا ﴾ ويجوز أن تكون الكاف للتعليل أى لأجل تربيتهما لى كقوله تعالى (واذكروه كما هداكم) ولقد بالغ عز وجل فى

التوصية بهما حيث افتتحها بأن شفع الإحسان إليهما بتوحيده سبحانه ونظمهما فى سلك القضاء بهما معاً ثم ضيق الأمر فى باب مراعاتهما حتى لم يرخص فى أدنى كلمة تفلت من المتضجر مع ماله من موجبات الضجر ما لا يكاد يدخل تحت الحصر وختمها بأن جعل رحمته التى وسعت كل شىء مشبهة بتربيتهما وعن النبى عليه الصلاة والسلام رضى الله فى رضى الوالدين وسخطه فى سخطهما وروى يفعل البار ما يشاء أن يفعل فلن يدخل النار ويفعل العاق ما يشاء أن يفعل فلن يدخل الجنه وقال رجل لرسول الله صلى الله عليه وسلم أن أبوى بلغا من الكبر أنى ألى منهما ماوليا منى فى الصغر فهل قضيتهما حقهما قال لا فإنهما كانا يفعلان ذلك وهما يحبان بقاءك وأنت تفعل ذلك وأنت تريد موتهما وروى أن شيخا أتى النبى عليه الصلاة والسلام فقال إن ابنى هذا له مال كثير وإنه لا ينفق على من ماله فنزل جبريل عليه السلام وقال إن هذا الشيخ قد أنشأ ابنه أبياتا ما قرع سمع بمثلها فاستنشدها الشيخ فقال :

غذوتك مولودا ومنتك[1] يافعا ... تعل بما أجنى عليك وتنهل
إذا ليلة ضاقتك بالسقم لم أبت ... لسقمك إلا باكيا أتململ
كأنى أنا المطروق دونك بالذى ... طرقت به دونى وعينى تهمل
فلما بلغت السن والغاية التى ... إليها مدى ما كنت فيك أؤمل
جعلت جزائى غلظة وفظاظة ... كأنك أنت المنعم المتفضل
فليتك إذ لم ترع حق أبوتى ... فعلت كما الجار المجاور يفعل

فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال أنت ومالك لأبيك ﴿ ربكم أعلم بما فى نفوسكم ﴾ من البر والعقوق ﴿ إن تكونوا صالحين ﴾ قاصدين الصلاح والبر دون العقوق والفساد ﴿ فإنه ﴾ تعالى ﴿ كان للأوابين ﴾ أى الرجاعين إليه تعالى عما فرط منهم مما لا يكاد يخلو عنه البشر ﴿ غفورا ﴾ لما وقع منهم من

(١) فى ١٠ : وعلتك

نوع تقصير او أذية فعلية أو قولية وفيه ما لايخفى من التشديد فى الأمر بمراعاة حقوقهما ويجوز أن يكون عاما لكل تائب ويدخل فيه الجانى على أبويه دخولا أوليا ﴿ وآت ذا القربى ﴾ أى ذا القرابة ﴿ حقه ﴾ توصية بالأقارب إثر التوصية ببر الوالدين ولعل المراد بهم المحارم وبحقهم النفقة كما ينبىء عنه قوله تعالى ﴿ والمسكين وابن السبيل ﴾ فإن المأمور به فى حقهما المواساة المالية لا محالة أى وآتهما حقهما مما كان مفترضا بمكة بمنزلة الزكاة وكذا النهى عن التبذير وعن الإفراط فى القبض والبسط فإن الكل من التصرفات المالية ﴿ ولا تبذر تبذيرا ﴾ نهى عن صرف المال إلى من سواهم ممن لا يستحقه فإن التبذير تفريق فى غير موضعه مأخوذ من تفريق حبات وإلقائها كيفما كان من غير تعهد لمواقعه لا عن الإكثار فى صرفه إليهم وإلا لناسبه الإسراف الذى هو تجاوز الحد فى صرفه ، وقد نهى عنه بقوله سبحانه وتعالى (ولا تبسطها) وكلاهما مذموم .

﴿ إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين ﴾ تعليل النهى عن التبذير ببيان أنه يجعل صاحبه ملزوزا فى قرن الشياطين والمراد بالأخوة المماثلة التامة فى كل ما لا خير فيه من صفات السوء التى من جملتها التبذير أى كانوا بما فعلوا من التبذير أمثال الشياطين أو الصداقة والملازمة أى كانوا أصدقاءهم وأتباعهم فيما ذكر من التبذير والصرف فى المعاصى فإنهم كانوا ينحرون الإبل ويتياسرون عليها ويبذرون أموالهم فى السمعة وسائر ما لا خير فيه من المناهى والملاهى أو المقارنة أى قرناءهم فى النار على سبيل الوعيد ﴿ وكان الشيطان لربه كفورا ﴾ من تتمة التعليل أى مبالغا فى كفران نعمته تعالى لأن شأنه أن يصرف جميع ما أعطاه الله تعالى من القوى والقدر الى غير ماخلقت هى له من أنواع المعاصى والإفساد فى الأرض وإضلال الناس وحملهم على الكفر بالله وكفران نعمه الفائضة عليهم وصرفها إلى غير ما أمر الله تعالى به وتخصيص هذا الوصف بالذكر من بين سائر أوصافه القبيحة للإيذان[1] بأن التبذير الذى هو عبارة عن

---

(١) فى ١٠ : للاشعار .

صرف نعم الله تعالى إلى غير مصرفها من باب الكفران المقابل للشكر الذى هو عبارة عن صرفها إلى ما خلقت هى له والتعرض لوصف الربوبية للإشعار بكمال عتوه فإن كفران نعمة الرب مع كون الربوبية من أقوى الدواعى إلى شكرها غاية الكفران ونهاية الضلال والطغيان .

﴿ وإما تعرضن عنهم ﴾ أى إن اعتراك أمر اضطرك إلى أن تعرض عن أولئك المستحقين ﴿ ابتغاء رحمة من ربك ﴾ أى لفقد رزق من ربك إقامة للمسبب مقام السبب فإن الفقد سبب للابتغاء ﴿ ترجوها ﴾ من الله تعالى لتعطيهم وكان عليه السلام إذا سئل شيئاً وليس عنده أعرض عن السائل وسكت حياء فأمر بتعهدهم بالقول الجميل لئلا تعتريهم الوحشة بسكوته على السلام فقيل ﴿ فقل لهم قولا ميسورا ﴾ سهلا لينا وعدهم وعدا جميلا من يسر الأمر نحو سعد أو قل لهم رزقنا الله وإياكم من فضله على أنه دعاء لهم ييسر عليهم فقرهم ﴿ ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط ﴾ تمثيلان لمنع الشحيح وإسراف المبذر زجرا لهما عنهما وحملا على ما بينهما من الاقتصاد :

* كلا طرفى قصد الأمور ذميم *

وحيث كان قبح الشح مقارنا له معلوما من أول الأمر روعى ذلك فى التصوير بأقبح الصور ولما كان غائلة الإسراف فى آخره بين قبحه فى أثره فقيل ﴿ فتقعد ملوما ﴾ أى فتصير ملوما عند الله تعالى وعند الناس وعند نفسك إذا احتجت وندمت على ما فعلت ﴿ محسورا ﴾ نادما أو منقطعا بك لاشىء عندك من حسرة السفر إذا بلغ منه وما قيل من أنه روى عن جابر رضى الله عنه أنه قال بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم قاعد إذ أتاه صبى فقال إن أمى تستكسيك درعا فقال عليه السلام من ساعة إلى ساعة فعد إلينا فذهب إلى أمه فقالت له قل إن أمى تستكسيك الدرع الذى عليك فدخل صلى الله عليه وسلم داره ونزع قميصه وأعطاه وقعد عريانا وأذن بلال وانتظروا فلم يخرج للصلاة فنزلت فيأباه أن السورة مكية خلا آيات فى آخرها وكذا ما قيل إنه عليه

السلام أعطى الأقرع بن حابس مائة من الإبل وكذا عيينة بن حصن الفزارى فجاء عباس بن مرادس فأنشأ يقول :

أتجعل نهبى ونهب العبيـــد بين عيينة والأقرع
وما كان حصن ولا حابس يفوقان مرداس فى مجمع
وما كنت دون امرىء منهما ومن تضع اليوم لا يرفع

فقال عليه السلام : « يا أبا بكر اقطع لسانه عنى ، أعطه مائة من الإبل » وكانوا جميعا من المؤلفة القلوب فنزلت ﴿ إن ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ﴾ تعليل لما مر أى يوسعه على بعض ويضيقه على آخرين حسبما تتعلق به مشيئته التابعة للحكمة فليس ما يرهقك من الإضاقة التى تحوجك إلى الإعراض عن السائلين أو نفاد ما فى يدك إذا بسطتها كل البسط إلا لمصلحتك ﴿ إنه كان بعباده خبيرا بصيرا ﴾ تعليل لما سبق أى يعلم سرهم وعلنهم فيعلم من مصالحهم ما يخفى عليهم ويجوز أن يراد أن البسط والقبض من أمر الله العالم بالسرائر والظواهر الذى بيده خزائن السموات والأرض وأما العباد فعليهم أن يقتصدوا وأن يراد أنه تعالى يبسط تارة ويقبض أخرى فاستنوا بسنته فلا تقبضوا كل القبض ولا تبسطوا كل البسط وأن يراد أنه تعالى يبسط ويقدر حسب مشيئته فلا تبسطوا على من قدر عليه رزقه وأن يكون تمهيدا لقوله :

﴿ ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق ﴾ أى مخافة فقر وقرىء بكسر الخاء كانوا يئدون بناتهم مخافة الفقر فنهوا عن ذلك ﴿ نحن نرزقهم وإياكم ﴾ لا أنتم فلا تخافوا الفاقة بناء على علمكم بعجزكم عن تحصيل رزقهم وهو ضمان لرزقهم وتعليل للنهى المذكور بإبطال موجبه فى زعمهم وتقديم ضمير الأولاد على المخاطبين على عكس ما وقع فى سورة الأنعام للإشعار بأصالتهم فى إفاضة الرزق أو لأن الباعث على القتل هناك الإملاق الناجز ولذلك قيل من إملاق وههنا

---

(١) فى ١١ للاشعار .

الإملاق المتوقع ولذلك قيل خشية إملاق فكأنه قيل نرزقهم من غير أن ينتقص من رزقكم شيء فيعتريكم ما تخشونه وإياكم أيضا رزقا إلى رزقكم ﴿ إن قتلهم كان خطأ كبيرا ﴾ تعليل آخر ببيان أن المنهى عنه فى نفسه منكر عظيم والخطء الذنب والإثم يقال خطىء خطأ كأثم إثما وقرىء بالفتح والسكون وبفتحتين بمعناه كالحذر والحذر وقيل بمعنى ضد الصواب وبكسر الخاء والمد وبفتحها ممدودا وبفتحها وحذف الهمزة وبكسرها كذلك .

﴿ ولا تقربوا الزنا ﴾ بمباشرة مباديه القريبة أو البعيدة فضلا عن مباشرته وإنما نهى عن قربانه على خلاف ما سبق ولحق من القتل للمبالغة فى النهى عن نفسه لأن قربانه داع إلى مباشرته وتوسيط النهى عنه بين النهى عن قتل الأولاد والنهى عن قتل النفس المحرمة على الإطلاق باعتبار أنه قتل للأولاد لما أنه تضييع للأنساب فإن من لم يثبت نسبه ميت حكما ﴿ إنه كان فاحشة ﴾ فعلة ظاهرة القبح متجاوزة عن الحد ﴿ وساء سبيلا ﴾ أى بئس طريقا طريقه ، فإنه غصب الأبضاع المؤدى إلى اختلال أمر الأنساب وهيجان الفتن كيف لا وقد قال النبى عليه السلام « إذا زنى العبد خرج منه الإيمان فكان على رأسه كالظلة فإذا انقطع رجع إليه » وقال عليه السلام « لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن »[1] وعن حذيفة رضى الله عنه أنه قال عليه السلام « إياكم والزنا فإن فيه ست خصال ثلاث فى الدنيا وثلاث فى الآخرة فأما التى فى الدنيا فذهاب البهاء ودوام الفقر وقصر العمر وأما التى فى الآخرة فسخط الله تعالى وسوء الحساب والخلود فى النار[2] » .

﴿ ولا تقتلوا النفس التى حرم الله ﴾ قتلها بأن عصمها بالإسلام أو بالعهد ﴿ إلا بالحق ﴾ إلا بإحدى ثلاث كفر بعد إيمان وزنا بعد إحصان وقتل نفس معصومة عمدا فالاستثناء مفرغ أى لا تقتلوها بسبب من الأسباب إلا بسبب

---

(١) رواه مسلم فى كتاب الإيمان .

(٢) المنذرى فى الترغيب والترهيب ، وأبو يعلى والدارقطنى .

الحق أو ملتبسين أو ملتبسة بشىء من الأشياء ويجوز أن يكون نعتاً لمصدر محذوف أى لا تقتلوها قتلا ما إلا قتلا متلبسا بالحق ﴿ ومن قتل مظلوما ﴾ بغير حق يوجب قتله أو يبيحه للقاتل حتى إنه لا يعتبر إباحته لغير القاتل فإن من عليه القصاص إذا قتله غير من له القصاص يقتص له ولا يفيده قول الولى أنا أمرته بذلك ما لم يكن الأمر ظاهرا ﴿ فقد جعلنا لوليه ﴾ لمن يلى أمره من الوارث أو السلطان عند عدم الوارث ﴿ سلطانا ﴾ تسلطا واستيلاء على القاتل يؤاخذه بالقصاص أو بالدية حسبما تقتضيه جنايته أوحجة غالبة ﴿ فلا يسرف ﴾ وقرىء لا تسرف ﴿ فى القتل ﴾ أى لا يسرف الولى فى أمر القتل بأن يتجاوز الحد المشروع بأن يزيد عليه المثلة أو بأن يقتل غير القاتل من أقاربه أو بأن يقتل الاثنين مكان الواحد كما يفعله أهل الجاهلية أو بأن يقتل القاتل فى مادة الدية وقرىء بصيغة النفى مبالغة فى إفادة معنى النهى ﴿ إنه كان منصورا ﴾ تعليل للنهى والضمير للولى على معنى أنه تعالى نصره بأن أوجب له القصاص أو الدية وأمر الحكام بمعونته فى استيفاء حقه فلا يبغ ما وراء حقه ولا يستزد عليه ولا يخرج من دائرة أمر الناصر أو للمقتول ظلما على معنى أنه تعالى نصره بما ذكر فلا يسرف وليه فى شأنه أو للذى يقتله الولى ظلما وإسرافا ووجه التعليل ظاهر وعن مجاهد أن الضمير فى لا يسرف للقاتل الأول ويعضده قراءة فلا تسرفوا والضميران فى التعليل عائدان إلى الولى أو المقتول فالمراد بالإسراف حينئذ إسراف القاتل على نفسه بتعريضه لها للهلاك العاجل والآجل لا الإسراف وتجاوز الحد فى القتل أى لا يسرف على نفسه فى شأن القتل كما فى قوله تعالى (قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم) .

﴿ ولا تقربوا مال اليتيم ﴾ نهى عن قربانه لما ذكر من المبالغة فى النهى عن التعرض له ومن إفضاء ذلك إليه وللتوسل إلى الاستثناء بقوله تعالى ﴿ إلا بالتى هى أحسن ﴾ أى إلا بالخصلة والطريقة التى هى أحسن الخصال والطرائق وهى حفظه واستثماره ﴿ حتى يبلغ أشده ﴾ غاية لجواز التصرف على الوجه الأحسن المدلول عليه بالاستثناء لا للوجه المذكور فقط ﴿ وأوفوا بالعهد ﴾ سواء

جرى بينكم وبين ربكم أو بينكم وبين غيركم من الناس والإيفاء بالعهد والوفاء به هو القيام بمقتضاه والمحافظة عليه ولا يكاد يستعمل إلا بالباء فرقا بينه وبين الإيفاء الحسى كإيفاء الكيل والوزن ﴿إن العهد﴾ أظهر فى مقام الإضمار إظهاراً لكمال العناية بشأنه أو لأن المراد مطلق العهد المنتظم للعهد المعهود ﴿كان مسئولا﴾ أى مسئولا عنه على حذف الجار وجعل الضمير بعد انقلابه مرفوعا مستكنا فى اسم المفعول كقوله تعالى (وذلك يوم مشهود) أى مشهود فيه ونظيره ما فى قوله تعالى (تلك آيات الكتاب الحكيم) على أن أصله الحكيم قائله لحذف المضاف وجعل الضمير مستكنا فى الحكيم بعد انقلابه مرفوعا ويجوز أن يكون تخييلا كأنه يقال للعهد لم نكثت وهلا وفى بك تبكيتا للناكث كما يقال للموؤدة بأى ذنب قتلت .

﴿وأوفوا الكيل﴾ أى أتموه ولا تخسروه ﴿إذا كلتم﴾ أى وقت كيلكم للمشترين وتقييد الأمر بذلك لما أن التطفيف هناك يكون وأما وقت الاكتيال على الناس فلا حاجة إلى الأمر بالتعديل قال تعالى (إذا اكتالوا على الناس يستوفون) الآية ﴿وزنوا بالقسطاس﴾ وهو القرسطون وقيل كل ميزان صغيرا كان أو كبيرا رومى معرب ولا يقدح ذلك فى عربية القرآن لانتظام المعربات فى سلك الكلم العربية وقرىء بضم القاف ﴿المستقيم﴾ أى العدل السوى ولعل الاكتفاء باستقامته عن الأمر بإيفاء الوزن لما أن عند استقامته لا يتصور الجور غالبا بخلاف الكيل فإنه كثيرا ما يقع التطفيف مع استقامة الآلة كما أن الاكتفاء بإيفاء الكيل عن الأمر بتعديله لما أن إيفاءه لا يتصور بدون تعديل المكيال وقد أمر بتقويمه أيضا فى قوله تعالى (أوفوا الكيل والميزان بالقسط) ﴿ذلك﴾ أى إيفاء الكيل والوزن بالميزان السوى ﴿خير﴾ فى الدنيا إذ هو أمانة توجب الرغبة فى معاملته والذكر الجميل بين الناس ﴿وأحسن تأويلا﴾ عاقبة تفعيل من آل إذا رجع والمراد ما يؤول إليه ﴿ولا تقف﴾ ولا تتبع من قفا أثره إذا تبعه وقرىء ولا تقف من قاف أثره أى قفاه ومنه القافة فى جمع القائف ﴿ما ليس لك به علم﴾ أى لا تكن فى اتباع ما لا علم لك به من

قول أو فعل كمن يتبع مسلكا لا يدرى أنه يوصله إلى مقصده واحتج به من منع اتباع الظن وجوابه أن المراد بالعلم هو الاعتقاد الراجح المستفاد من سند قطعيا كان أو ظنيا واستعماله بهذا المعنى مما لا ينكر شيوعه وقيل إنه مخصوص بالعقائد وقيل بالرمى وشهادة الزور ويؤيده قوله عليه الصلاة والسلام من قفا مؤمنا بما ليس فيه حبسه الله تعالى فى ردغة الخبال حتى يأتى بالمخرج ومنه قول الكميت :

ولا أرمى البرىء بغير ذنب ولا أقفو الحواصن إن رمينا

﴿ إن السمع والبصر والفؤاد ﴾ وقرىء بفتح الفاء والواو المقلوبة من الهمزة عند ضم الفاء ﴿ كل أولئك ﴾ أى كل واحد من تلك الأعضاء فأجريت مجرى العقلاء لما كانت مسؤولة عن أحوالها شاهدة على أصحابها هذا وإن أولاء وإن غلب فى العقلاء لكنه من حيث أنه اسم لذا الذى يعم القبيلين جاء لغيرهم أيضا قال :

ذم المنازل بعد منزلة اللوى والعيش بعد أولئك الأيام

﴿ كان عنه مسئولا ﴾ أى كان كل من تلك الأعضاء مسؤلا عن نفسه على أن اسم كان ضمير يرجع إلى كل وكذا الضمير المجرور وقد جوز أن يكون الاسم ضمير القائم بطريق الالتفات إذ الظاهر أن يقال كنت عنه مسؤولا وقيل الجار والمجرور فى محل الرفع قد أسند إليه مسؤولا معللا بأن الجار والمجرور لا يلتبس بالمبتدأ وهو السبب فى منع تقديم الفاعل وما يقوم مقامه ولكن النحاس حكى الإجماع على عدم جواز تقديم القائم مقام الفاعل إذا كان جارا ومجرورا ويجوز أن يكون من باب الحذف على شريطة التفسير ويحذف الجار من المفسر ويعود الضمير مستكنا كما ذكرنا فى قوله تعالى (يوم مشهود) وجوز أن يكون مسئولا مسندا إلى المصدر المدلول عليه بالفعل وأن يكون فاعله المصدر وهو السؤال وعنه فى محل النصب وسأل ابن جنى أبا على عن قولهم فيك يرغب وقال لا يرتفع بما بعده ، فأين المرفوع ؟ فقال المصدر أى فيك يرغب

الرغبة بمعنى تفعل الرغبة كما فى قولهم يعطى ويمنع أى يفعل الإعطاء والمنع وجوز أن يكون اسم كان أو فاعله ضمير كل بحذف المضاف أى كان صاحبه عنه مسؤولا أو مسؤولا صاحبه .

﴿ ولا تمش فى الأرض ﴾ التقييد لزيادة التقرير والإشعار بأن المشى عليها مما لا يليق بالمرح ﴿ مرحا ﴾ تكبرا وبطرا واختيالا وهو مصدر وقع موقع الحال أى ذا مرح أو تمرح مرحا أو لأجل المرح وقرىء بالكسر ﴿ إنك لن تخرق الأرض ﴾ تعليل للنهى وفيه تهكم بالمختال وإيذان بأن ذلك مفاخرة مع الأرض وتكبير عليها أى لن تخرق الأرض بدوسك وشدة وطأتك وقرىء بضم الراء ﴿ ولن تبلغ الجبال ﴾ التى هى بعض أجزاء الأرض ﴿ طولا ﴾ حتى يمكن لك أن تتكبر عليها إذ التكبر إنما يكون بكثرة القوة وعظم الجثة وكلاهما مفقود ، وفيه تعريض بما عليه المختال من رفع رأسه ومشيه على صدور قدميه ﴿ كل ذلك ﴾ إشارة إلى ما علم فى تضاعيف ذكر الأوامر والنواهى من الخصال الخمس والعشرين ﴿ كان سيئه ﴾ الذى نهى عنه وهى اثنتا عشرة خصلة ﴿ عند ربك مكروها ﴾ مبغضا غير مرضى أو غير مراد بالإرادة الأولية لاغير مراد مطلقا لقيام الأدلة القاطعة على أن جميع الأشياء واقعة بإرادته سبحانه وهو تتمة لتعليل الأمور المنهى عنها جميعا ووصف ذلك بمطلق الكراهة مع أن البعض من الكبائر للإيذان بأن مجرد الكراهة عنده تعالى كافية فى وجوب الانتهاء عن ذلك وتوجيه الإشارة إلى الكل ثم تعيين البعض دون توجيهها إليه ابتداء لما أن البعض المذكور ليس بمذكور جملة بل على وجه الاختلاط وفيه إشعار بكون ماعداه مرضيا عنده تعالى وإنما لم يصرح بذلك إيذانا بالغنى عنه وقيل الإضافة بيانية كما فى آية الليل وآية النهار وقرىء سيئة على أنه خبر كان وذلك إشارة إلى ما نهى عنه من الأمور المذكورة ومكروها بدل من سيئه أو صفة لها محمولة على المعنى فإنه بمعنى سيئا وقد قرىء به أو يجرى على موصوف مذكر أى أمرا مكروها أو يجرى مجرى الأسماء زال عنه معنى

الوصفية ويجوز كونه حالا من المستكن فى كان أو فى الظرف على أنه صفة سيئه وقرىء سيئاته وقرىء شأنه .

﴿ ذلك ﴾ أى الذى تقدم من من التكاليف المفصلة ﴿ مما أوحى إليك ربك ﴾ أى بعض منه أو من جنسه ﴿ من الحكمة ﴾ التى هى علم الشرائع أو معرفة الحق لذاته والعمل به أو من الأحكام المحكمة التى لايتطرق إليها النسخ والفساد وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن هذه الآيات الثمانى عشرة كانت فى ألواح موسى عليه السلام أولها لاتجعل مع الله إلها آخر قال تعالى (وكتبنا له فى الألواح من كل شىء موعظة) وهى عشر آيات فى التوراة ومن إما متعلقة بأوحى على أنها تبعيضية أو ابتدائية وإما بمحذوف وقع حالا من الموصول أو من ضميره المحذوف فى الصلة أى كائنا من الحكمة وإما بدل من الموصول بإعادة الجار .

﴿ ولا تجعل مع الله إلها آخر ﴾ الخطاب للرسول عليه الصلاة والسلام والمراد غيره ممن يتصور منه صدور المنهى عنه وقد كرر للتنبيه على أن التوحيد مبدأ الأمر ومنتهاه وأنه رأس كل حكمة وملاكها ومن عدمه لم تنفعه علومه وحكمته وإن بذ فيها أساطين الحكماء وحك بيافوخه عنان السماء وقد رتب عليه ماهو عائد الإشراك أولا حيث قيل فتقعد مذموما مخذولا ورتب عليه ههنا نتيجته فى العقبى فقيل ﴿ فتلقى فى جهنم ملوما ﴾ من جهة نفسك ومن جهة غيرك ﴿ مدحورا ﴾ مبعدا من رحمة الله تعالى وفى إيراد الإلقاء مبنيا للمفعول جرى على سنن الكبرياء وإزدراء بالمشرك وجعل له من قبيل خشبة يأخذها آخذ بكفه فيطرحها فى التنور ﴿ أفأصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة إناثا ﴾ خطاب للقائلين بأن الملائكة بنات الله سبحانه والإصفاء بالشىء جعله خالصا والهمزة للإنكار والفاء للعطف على مقدر يفسره المذكور أى أفضلكم على جنابه فخصكم بأفضل الأولاد على وجه الخلوص وآثر لذاته أخسها وأدناها كما فى قوله سبحانه (ألكم الذكر وله الأنثى) وقوله تعالى (أم له البنات ولكم البنون) وقد قصد ههنا بالتعرض لعنوان الربوبية تشديد النكير وتأكيده وأشير بذكر الملائكة عليهم السلام وإيراد الإناث مكان البنات إلى كفرة لهم

أخرى(١) وهى وصفهم لهم عليهم السلام بالأنوثة التى هى أخس صفات الحيوان كقوله تعالى (وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا) ﴿إنكم لتقولون﴾ بمقتضى مذهبكم الباطل الذى هو إضافة الولد إليه سبحانه ﴿قولا عظيما﴾ لايقادر قدره فى استتباع الإثم وخرقه لقضايا العقول بحيث لايجترىء عليه أحد حيث يجعلونه تعالى من قبيل الأجسام المتجانسة السريعة الزوال وليس كمثله شىء وهو الواحد القهار الباقى بذاته ثم تضيفون إليه ما تكرهون من أخس الأولاد وتفضلون عليه أنفسكم بالبنين ثم تصفون الملائكة الذين هم من أشرف الخلائق بالأنوثة التى هى أخس أوصاف الحيوان فيالها من ضلة ما أقبحها وكفرة ما أشنعها وأفظعها .

﴿ولقد صرفنا﴾ هذا المعنى وكررناه ﴿فى هذا القرآن﴾ على وجوه من التصريف فى مواضع منه وإنما ترك الضمير تعويلا على الظهور وقرىء بالتخفيف ﴿ليذكروا﴾ ما فيه ويقفوا على بطلان ما يقولونه والالتفات إلى الغيبة للإيذان باقتضاء الحال أن يعرض عنهم ويحكى للسامعين هناتهم وقرىء بالتخفيف من الذكر بمعنى التذكر ، ويجوز أن يراد بهذا القرآن ما نطق ببطلان مقالتهم المذكورة من الآيات الكريمة الواردة على أساليب مختلفة ومعنى التصريف فيه جعله مكانا له أى أوقعنا فيه التصريف كقوله «يجرح فى عراقيبها نصلى» وقد جوز أن يراد به إبطال إضافتهم إليه تعالى البنات وأنت تعلم أن إبطالها من آثار القرآن ونتائجها ﴿وما يزيدهم﴾ أى والحال أنه ما يزيدهم ذلك التصريف البالغ ﴿إلا نفورا﴾ عن الحق وإعراضا عنه فضلا عن التذكر المؤدى إلى معرفة بطلان ماهم عليه من القبائح .

﴿قل﴾ فى إظهار بطلان ذلك من جهة أخرى ﴿لو كان معه﴾ تعالى ﴿آلهة كما يقولون﴾ أى المشركون قاطبة وقرىء بالتاء خطابا لهم من قبل النبى عليه الصلاة والسلام والكاف فى محل النصب على أنها نعت لمصدر محذوف

(١) فى ١٠ : كفر لهم آخر .

أى كوناه مشابها لما يقولون والمراد بالمشابهة الموافقة والمطابقة ﴿إذاً لابتغوا﴾ جواب عن مقالتهم الشنعاء وجزاء «للو» أى لطلبوا ﴿إلى ذى العرش﴾ أى إلى من له الملك والربوبية على الإطلاق ﴿سبيلا﴾ بالمغالبة والممانعة كما هو ديدن الملوك بعضهم مع بعض على طريقة قوله تعالى (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا) وقيل بالتقرب إليه تعالى كقوله تعالى (أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة) والأول هو الأظهر الأنسب لقوله ﴿سبحانه﴾ فإنه صريح فى أن المراد بيان أنه يلزم مما يقولونه محذور عظيم من حيث لا يحتسبون وأما ابتغاء السبيل إليه تعالى بالتقرب فليس مما يختص بهذا التقرير ولا هو مما يلزمهم من حيث لايشعرون بل هو أمر يعتقدونه رأسا أى تنزه بذاته تنزها حقيقا به ﴿وتعالى﴾ متباعداً ﴿عما يقولون﴾ من العظيمة التى هى أن يكون معه آلهة وأن يكون له بنات ﴿علوا﴾ تعاليا كقوله تعالى (والله أنبتكم من الأرض نباتا) ﴿كبيرا﴾ لا غاية وراءه كيف لا وإنه سبحانه فى أقصى غايات الوجود وهو الوجوب الذاتى وما يقولونه من أن له تعالى شركاء وأولادا فى أبعد مراتب العدم أعنى الامتناع لا لأنه تعالى فى أعلى مراتب الوجود لذاته واتخاذ الولد من أدنى مراتبه فإنه من خواص ما يمتنع بقاؤه كما قيل فإن ما يقولونه ليس مجرد اتخاذ الولد بل اتخاذه تعالى له وأن يكون معه آلهة ولا ريب فى أن ذلك ليس بداخل فى حد الإمكان فضلا عن دخوله تحت الوجود وكونه من أدنى مراتب الوجود إنما هو بالنسبة إلى من شأنه ذلك.

﴿تسبح﴾ بالفوقانية وقرىء بالتحتانية وقرىء سبحت ﴿له السموات السبع والأرض ومن فيهن﴾ من الملائكة والثقلين على أن المراد بالتسبيح معنى منتظم لما ينطق به لسان المقال ولسان الحال بطريق عموم المجاز ﴿وإن من شىء﴾ من الأشياء حيوانا كان أو نباتا أو جمادا ﴿إلا يسبح﴾ ملتبسا ﴿بحمده﴾ أى ينزهه تعالى بلسان الحال عما لا يليق بذاته الأقدس من لوازم الإمكان ولواحق الحدوث إذ ما من موجود إلا وهو بإمكانه وحدوثه يدل دلالة واضحة على أن له صانعا عليما قادرا حكيما واجبا لذاته قطعا للسلسلة ﴿ولكن

لا تفقهون تسبيحهم ﴾ أيها المشركون لإخلالكم بالنظر الصحيح الذى به يفهم ذلك وقرىء لا يفقهون على صيغة المبنى للمفعول من باب التفعيل ﴿ إنه كان حليما ﴾ ولذلك لم يعاجلكم بالعقوبة مع ما أنتم عليه من موجباتها من الإعراض عن التدبر فى الدلائل الواضحة الدالة على التوحيد والانهماك فى الكفر والإشراك ﴿ غفورا ﴾ لمن تاب منكم .

﴿ وإذا قرأت القرآن ﴾ الناطق بالتسبيح والتنزيه ودعوتهم إلى العمل بما فيه من التوحيد ورفض الشرك وغير ذلك من الشرائع ﴿ جعلنا ﴾ بقدرتنا ومشيئتنا المبنية على دواعى الحكم الخفية ﴿ بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة ﴾ أوثر الموصول على الضمير ذما لهم بما فى حيز الصلة وإنما خص بالذكر كفرهم بالآخرة من بين سائر ما كفروا به من التوحيد ونحوه دلالة على أنها معظم ما أمروا بالإيمان به فى القرآن وتمهيدا لما سينقل عنهم من إنكار البعث واستعجاله ونحو ذلك ﴿ حجابا ﴾ يحجبهم من أن يدركوك على ما أنت عليه من النبوة ويفهموا قدرك الجليل ولذلك اجترأوا على تفوه العظيمة[١] التى هى قولهم إن تتبعون إلا رجلا مسحورا وحمل الحجاب على ما روى عن أسماء بنت أبى بكر رضى الله عنه من أنه لما نزلت سورة تبت أقبلت العوراء أم جميل امرأة أبى لهب وفى يدها فهر والنبى عليه الصلاة والسلام قاعد فى المسجد ومعه أبو بكر رضى الله عنه فلما رآها قال يا رسول الله لقد أقبلت هذه وأخاف أن تراك قال عليه الصلاة والسلام إنها لن ترانى وقرأ قرآنا فوقفت على أبى بكر رضى الله عنه ولم تر رسول الله صلى الله عليه وسلم مما لا يقبله الذوق السليم ولا يساعده النظم الكريم ﴿ مستورا ﴾ ذا ستر كما فى قولهم سيل مفعم أو مستورا عن الحس بمعنى غير حسى أو مستورا فى نفسه بحجاب آخر أو مستورا كونه حجابا حيث لا يدرون أنهم لا يدرون .

---

(١) فى ١٠ : التفوه بالعظيمة .

﴿ وجعلنا على قلوبهم أكنة ﴾ أغطية كثيرة جمع كنان ﴿ أن يفقهوه ﴾ مفعول لأجله أى كراهة أن يفقهوه أو مفعول لما دل عليه الكلام أى منعناهم أن يقفوا على كنهه ويعرفوا أنه من عند الله تعالى ﴿ وفى آذانهم وقرا ﴾ صمما وثقلا مانعا من سماعه اللائق به وهذه تمثيلات معربة عن كمال جهلهم بشئون النبي عليه الصلاة والسلام وفرط نبو قلوبهم عن فهم القرآن الكريم ومج أسماعهم له جىء بها بيانا لعدم فقههم لتسبيح لسان المقال إثر بيان عدم فقههم لتسبيح لسان الحال وإيذانا بأن هذا التسبيح من الظهور بحيث لا يتصور عدم فهمه إلا لمانع قوى يعترى المشاعر فيبطلها وتنبيها على أن حالهم هذا أقبح من حالهم السابق لا حكاية لما قالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه وفى آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب كيف لا وقصدهم بذلك إنما هو الإخبار بما اعتقدوه فى حق القرآن والنبي عليه الصلاة والسلام جهلا وكفرا من اتصافهما بأوصاف مانعة من التصديق والإيمان ككون القرآن سحرا وشعرا وأساطير وقس عليه حال النبي عليه الصلاة والسلام لا الإخبار بأن هناك أمرا وراء ما أدركوه قد حال بينهم وبين إدراكه حائل من قبلهم ولاريب فى أن ذلك المعنى مما لايكاد يلائم المقام ﴿ وإذا ذكرت ربك فى القرآن وحده ﴾ واحدا غير مشفوع به آلهتهم وهو مصدر وقع موقع الحال أصله يحد وحده ﴿ ولوا على أدبارهم ﴾ أى هربوا ونفروا ﴿ نفورا ﴾ أو ولوا نافرين .

إفحام الكفار

﴿ نحن أعلم بما يستمعون به ﴾ متلبسين به من اللغو والاستخفاف والهزء بك وبالقرآن يروى أنه كان يقوم عن يمينه عليه الصلاة والسلام رجلان من بنى عبد الدار وعن يساره رجلان فيصفقون ويصفرون ويخلطون عليه بالأشعار ﴿ إذ يستمعون اليك ﴾ ظرف لأعلم وفائدته تأكيد الوعيد بالإخبار بأنه كما يقع الاستماع المزبور منهم يتعلق به العلم لا أن العلم يستفاد هناك من أحد وكذا قوله تعالى ﴿ وإذ هم نجوى ﴾ لكن لا من حيث تعلقه بما به الاستماع بل بما به التناجى المدلول عليه بسياق النظم والمعنى نحن أعلم بالذى يستمعون

ملتبسين به بما لاخير فيه من الأمور المذكورة وبالذى يتناجون به فيما بينهم أو الأول ظرف ليستمعون والثانى ليتناجون والمعنى نحن أعلم بما به الاستماع وقت استماعهم من غير تأخير وبما به التناجى وقت تناجيهم ونجوى مرفوع على الخبرية بتقدير المضاف أى ذوو نجوى أو هو جمع نجى كقتلى جمع قتيل أى متناجون ﴿إذ يقول الظالمون﴾ بدل من إذهم وفيه دليل على أن ما يتناجون به غير ما يستمعون به وإنما وضع الظالمون موضع المضمر إشعارا بأنهم فى ذلك ظالمون مجاوزون للحد أى يقول كل منهم للآخرين عند تناجيهم ﴿إن تتبعون﴾ ما تتبعون إن وجد منكم الاتباع فرضا أو ماتتبعون باللغو والهزء ﴿إلا رجلا مسحورا﴾ أى سحر فجن أو رجلا ذا سحر أى رئة يتنفس أى بشرا مثلكم.

﴿أنظر كيف ضربوا لك الأمثال﴾ أى مثلوك بالشاعر والساحر والمجنون ﴿فضلوا﴾ فى جميع ذلك على منهاج المحاجة ﴿فلا يستطيعون سبيلا﴾ إلى طعن يمكن أن يقبله أحد فيتهافتون ويخبطون ويأتون بما لا يرتاب فى بطلانه أحد أو إلى سبيل الحق والرشاد وفيه من الوعيد وتسلية الرسول صلى الله عليه وسلم مالا يخفى ﴿وقالوا أئذا كنا عظاما ورفاتا﴾ استفهام إنكارى مفيد لكمال الاستبعاد والاستنكار للبعث بعد ما آل [الحال][1] إلى هذا المآل لما بين غضاضة الحى ويبوسة الرميم من التنافى كأن استحالة الأمر من الظهور بحيث لا يقدر المخاطب على التكلم به والرفات ما بولغ فى دقه وتفتيته وقال الفراء هو التراب وهو قول مجاهد وقيل هو الحطام وإذا متمحضة للظرفية وهو الأظهر والعامل فيها ما دل عليه قوله تعالى ﴿أئنا لمبعوثون﴾ لا نفسه لأن ما بعد إن والهمزة واللام لا يعمل فيما قبلها وهو نبعث أو نعاد وهو المرجع للإنكار وتقييده بالوقت المذكور ليس لتخصيصه به فإنهم منكرون للإحياء بعد الموت وإن كان البدن على حاله بل لتقوية الإنكار للبعث بتوجيهه إليه فى حالة منافيه له وتكرير الهمزة فى قولهم (أئنا) لتأكيد النكير وتحلية الجملة بأن واللام لتأكيد الإنكار لا الإنكار.

---

(١) فى ١٠ : عاد الحال .

التأكيد كما عسى يتوهم من ظاهر النظم فإن تقديم الهمزة لاقتضائها الصدارة كما فى مثل قوله تعالى (أفلا تعقلون) ونظائره على رأى الجمهور فإن المعنى عندهم تعقيب الإنكار لا إنكار التعقيب كما هو المشهور وليس مدار إنكارهم كونهم ثابتين فى المبعوثية بالفعل فى حال كونهم عظاما ورفاتا كما يتراءى من ظاهر الجملة الاسمية بل كونهم بعرضية ذلك واستعدادهم له ومرجعه إلى إنكار البعث بعد تلك الحالة وفيه من الدلالة على غلوهم فى الكفر وتماديهم فى الضلال مالا يزيد عليه ﴿خلقا جديدا﴾ نصب على المصدر من غير لفظه أو الحالية على أن الخلق بمعنى المخلوق .

﴿ قل ﴾ جوابا لهم وتقريبا لما استبعدوه ﴿ كونوا حجارة أو حديدا أو خلقا ﴾ آخر ﴿ مما يكبر فى صدوركم ﴾ أى يعظم عندكم عن قبول الحياة لكمال المباينة والمنافاة بينها وبينه فإنكم مبعوثون ومعادون لامحالة ﴿فسيقولون من يعيدنا ﴾ مع مابيننا وبين الإعادة من مثل هذه المباعدة والمباينة ﴿قل﴾ لهم تحقيقا للحق وإزاحة للاستبعاد وإرشادا لهم إلى طريقة الاستدلال ﴿الذى﴾ أى يعيدكم القادر العظيم الذى ﴿ فطركم ﴾ اخترعكم ﴿ أول مرة ﴾ من غير مثال يحتذيه ولا أسلوب ينتحيه وكنتم ترابا ماشم رائحة الحياة أليس الذى يقدر على ذلك بقادر على أن يعيد العظام البالية إلى حالتها المعهودة بلى إنه على كل شىء قدير ﴿فسينغضون اليك رءوسهم﴾ أى سيحركونها نحوك تعجبا وإنكارا ﴿ ويقولون ﴾ استهزاء ﴿ متى هو ﴾ أى ماذكرته من الإعادة ﴿قل﴾ لهم ﴿ عسى أن يكون ﴾ ذلك ﴿ قريبا ﴾ نصب على أنه خبر ليكون أو ظرف على أن كان تامة أى أن يقع فى زمان قريب ومحل أن مع مافى حيزها إما نصب على أنه خبر لعسى وهى ناقصة واسمها ضمير عائد إلى ماعدا إليه هو أى عسى كونه قريبا أو وقوعه فى زمان قريب ﴿يوم يدعوكم﴾ منصوب بفعل مضمر أى اذكروا أو على أنه بدل من قريبا على أنه ظرف أو [نصب] [1] بيكون تامة بالاتفاق

(١) سقطت من ط

أو ناقصة عند من يجوز إعمال الناقصة فى الظروف أو بضمير المصدر المستكن فى عسى أو يكون أعنى البعث عند من يجوز إعمال ضمير المصدر كما فى قول زهير :

وما الحرب إلا ما علمتم وذقتم وما هو عنها بالحديث المرجم

فهو ضمير المصدر وقد تعلق به ما بعده من الجار ﴿ فتستجيبون ﴾ أى يوم يبعثكم فتبعثون وقد استعير لهما الدعاء والإجابة إيذانا بكمال سهولة التأتى وبأن المقصود منهما الإحضار للمحاسبة والجواب ﴿ بحمده ﴾ حال من ضمير تستجيبون أى منقادين له حامدين لما فعل بكم غير مستعصين أو حامدين له تعالى على كمال قدرته عند مشاهدة آثارها ومعاينة أحكامها ﴿ وتظنون ﴾ عطف على تستجيبون أى تظنون عند ما ترون من الأمور الهائلة ﴿ إن لبثتم ﴾ أى ما لبثتم فى القبور ﴿ إلا قليلا ﴾ كالذى مر على قرية أو ما لبثتم فى الدنيا .

﴿ وقل لعبادى ﴾ أى المؤمنين ﴿ يقولوا ﴾ عند محاورتهم مع المشركين ﴿ التى ﴾ أى الكلمة التى ﴿ هى أحسن ﴾ ولا يخاشنوهم كقوله تعالى (ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن) ﴿ إن الشيطان ينزغ بينهم ﴾ أى يفسد ويهيج الشر والمراء ويغرى بعضهم على بعض لتقع بينهم المشاقة والمشارة والمعازة والمضارة فلعل ذلك يؤدى إلى تأكد العناد وتمادى الفساد فهو تعليل للأمر السابق وقرىء بكسر الزاى ﴿ إن الشيطان كان ﴾ قدما ﴿ للإنسان عدوا مبينا ﴾ ظاهر العداوة وهو تعليل لما سبق من أن الشيطان ينزغ بينهم ﴿ ربكم أعلم بكم إن يشأ يرحمكم ﴾ بالتوفيق للإيمان ﴿ أو إن يشأ يعذبكم ﴾ بالإماتة على الكفر وهذا تفسير التى هى أحسن وما بينهما اعتراض أى قولوا لهم هذه الكلمة وما يشاكلها ولا تصرحوا بأنهم من أهل النار فإنه مما يهيجهم على الشر مع أن العاقبة مما لا يعلمه إلا الله سبحانه فعسى يهديهم إلى الإيمان ﴿ وما أرسلناك عليهم وكيلا ﴾ موكولا إليك أمورهم تقسرهم على الإيمان وإنما أرسلناك بشيرا ونذيرا فدارهم ومر أصحابك بالمداراة والاحتمال وترك المحاقة والمشاقة وذلك قبل نزول آية السيف وقيل نزلت فى عمر رضى الله عنه شتمه رجل فأمر بالعفو وقيل أفرط

أذية المشركين بالمؤمنين فشكوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت وقيل الكلمة التى هى أحسن أن يقولوا يهديكم الله ويرحمكم الله .

﴿ وربك أعلم بمن فى السموات والأرض ﴾ وتفاصيل أحوالهم الظاهرة والكامنة التى بها يستأهلون الاصطفاء والاجتباء فيختار منهم لنبوته وولايته من يشاء بمن يستحقه وهو رد عليهم إذ قالوا بعيد أن يكون يتيم أبى طالب نبيا وأن يكون العراة الجوعى أصحابه دون أن يكون ذلك من الأكابر والصناديد وذكر من فى السموات لإبطال قولهم لولا أنزل علينا الملائكة وذكر من فى الأرض لرد قولهم (لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم) ﴿ ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض ﴾ بالفضائل النفسانية والتنزه عن العلائق الجسمانية لا بكثرة الأموال والأتباع ﴿ وآتينا داود زبورا ﴾ بيان لحيثية تفضيله عليه الصلاة والسلام فإن ذلك إيتاء الزبور لا إيتاء الملك والسلطنة وفيه إيذان بتفضيل النبي عليه الصلاة والسلام فإن نعوته الجليلة وكونه خاتم النبيين مسطورة فى الزبور وأن المراد بعباد الله الصالحين فى قوله تعالى (إن الأرض يرثها عبادى الصالحون) هو النبي عليه الصلاة والسلام وأمته وتعريف الزبور تارة وتنكيره أخرى إما لأنه فى الأصل فعول بمعنى المفعول كالحلوب أو مصدر بمعناه كالقبول ، وإما لأن المراد آتينا داود زبورا من الزبر ، أو بعضا من الزبور فيه ذكره عليه الصلاة والسلام وقرىء بضم الزاى على أنه جمع زبر بمعنى مزبور .

﴿ قل ادعوا الذين زعمتم ﴾ أنها آلهة ﴿ من دونه ﴾ تعالى من الملائكة والمسيح وعزير ﴿ فلا يملكون ﴾ فلا يستطيعون ﴿ كشف الضر عنكم ﴾ بالمرة كالمرض والفقر والقحط ونحو ذلك ﴿ ولا تحويلا ﴾ أى ولا تحويله إلى غيركم ﴿ أولئك الذين يدعون ﴾ أى أولئك الآلهة الذين يدعوهم المشركون من المذكورين ﴿ يبتغون ﴾ يطلبون لأنفسهم ﴿ إلى ربهم ﴾ ومالك أمورهم ﴿ الوسيلة ﴾ القربة بالطاعة والعبادة ﴿ أيهم أقرب ﴾ بدل من فاعل يبتغون

وأى موصولة أى يبتغى من هو أقرب إليه تعالى الوسيلة فكيف بمن دونه أو ضمن الابتغاء معنى الحرص فكأنه قيل يحرصون أيهم يكون أقرب إليه تعالى بالطاعة والعبادة ﴿ ويرجون رحمته ﴾ بها ﴿ ويخافون عذابه ﴾ بتركها كدأب سائر العباد فأين هم من كشف الضر فضلا عن الإلهية ﴿ إن عذاب ربك كان محذورا ﴾ حقيقا بأن يحذره كل أحد حتى الملائكة والرسل عليهم الصلاة والسلام وهو تعليل لقوله تعالى (ويخافون عذابه) وتخصيصه بالتعليل لما أن المقام مقام التحذير من العذاب وأن بينهم وبين العذاب بونا بعيدا .

﴿ وإن من قرية ﴾ بيان لتحتم حلول عذابه تعالى بمن لا يحذره إثر بيان أنه حقيق بالحذر وأن أساطين الخلق من الملائكة والنبيين عليهم الصلاة والسلام على حذر من ذلك وكلمة إن نافية ومن استغراقية والمراد بالقرية القرية الكافرة أى ما من قرية من قرى الكفار ﴿ إلا نحن مهلكوها ﴾ أى مخربوها البتة بالخسف بها أو بإهلاك أهلها بالمرة لما ارتكبوا من عظائم الموبقات المستوجبة لذلك وفى صيغة الفاعل وإن كانت بمعنى المستقبل ما ليس فيه من الدلالة على التحقق والتقرر وإنما قيل ﴿ قبل يوم القيامة ﴾ لأن الإهلاك يومئذ غير مختص بالقرى الكافرة ولا هو بطريق العقوبة وإنما هو لانقضاء عمر الدنيا ﴿ أو معذبوها ﴾ أى معذبو أهلها على الإسناد المجازى ﴿ عذابا شديدا ﴾ لا بالقتل والسبى ونحوهما من البلايا الدنيوية فقط بل بما لا يكتنه كنهه[1] من فنون العقوبات الأخروية أيضا حسبما يفصح عنه إطلاق التعذيب عما قيد به الإهلاك من قبلية يوم القيامة كيف لا وكثير من القرى العاتية العاصية قد أخرت عقوباتها إلى يوم القيامة ﴿ كان ذلك ﴾ الذى ذكر من الإهلاك والتعذيب ﴿ فى الكتاب ﴾ أى اللوح المحفوظ ﴿ مسطورا ﴾ مكتوبا لم يغادر منه شىء إلا بين فيه بكيفياته وأسبابه الموجبة له ووقته المضروب له هذا وقد قيل الهلاك للقرى الصالحة والعذاب للطالحة وعن مقاتل وجدت فى كتاب الضحاك بن مزاحم فى تفسيرها

---

(١) فى ـ ١ : بما لا يدرك كنهه .

أما مكة فيخربها الحبشة وتهلك المدينة بالجوع والبصرة بالغرق والكوفة بالترك والجبال بالصواعق والرواجف وأما خراسان فهلا كها ضروب ثم ذكرها بلدا بلدا وقال الحافظ أبو عمرو الدوانى فى كتاب الفتن أنه روى عن وهب بن منبه أن الجزيرة آمنة من الخراب حتى تخرب أرمينية وأرمينية آمنة حتى تخرب مصر ومصر آمنة حتى تخرب الكوفة ولا تكون الملحمة الكبرى حتى تخرب الكوفة فإذا كانت الملحمة الكبرى فتحت قسطنطينية على يدى رجل من بنى هاشم وخراب الأندلس من قبل الزنج وخراب أفريقية من قبل الأندلس وخراب مصر من انقطاع النيل واختلاف الجيوش فيها وخراب العراق من الجوع وخراب الكوفة من قبل عدو من ورائهم يحصرهم حتى لايستطيعون أن يشربوا من الفرات قطرة وخراب البصرة من قبل الغرق وخراب الأيلة من قبل عدو يحصرهم برا وبحرا وخراب الرى من الديلم وخراب خراسان من قبل التبت وخراب التبت من قبل الصين وخراب الهند واليمن من قبل الجراد والسلطان وخراب مكة من الحبشة وخراب المدينة من الجوع وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى عليه الصلاة والسلام قال آخر قرية من قرى الإسلام خرابا المدينة وقد أخرجه العمرى من هذا الوجه وأنت خبير بأن تعميم القرية لايساعده السباق ولا السياق .

انقضاء عصر الخوارق

﴿ وما منعنا أن نرسل بالآيات ﴾ أى الآيات التى اقترحتها قريش من إحياء الموتى وقلب الصفا ذهبا ونحو ذلك ﴿ إلا أن كذب بها الأولون ﴾ استثناء مفرغ من أعم الأشياء أى وما منعنا من إرسالها شىء من الأشياء إلا تكذيب الأولين بها حين جاءتهم باقتراحهم وعدم إرساله تعالى بها وإن كان بمشيئته المبنية على الحكم البالغة لا لمنع مانع عن ذلك من التكذيب أو غيره لاستحالة العجز عليه تعالى لكن تكذيبهم المذكور بواسطة استتباعه لاستئصالهم بحكم السنة الإلهية واستلزامه لتكذيب الآخرين بحكم الاشتراك فى العتو والعناد

وإفضائه إلى أن يحل بهم مثل ماحل بهم بحكم الشركة فى الجريرة لما كان منافيا لإرسال ما اقترحوه من الآيات لتعين التكذيب المستدعى للاستئصال المخالف لما جرى به قلم القضاء من تأخير عقوبات هذه الأمة إلى الآخرة لحكم باهرة من جملتها ما يتوهم من إيمان بعض أعقابهم عبر عن تلك المنافاة بالمنع على نهج الاستعارة إيذانا بتعاضدمبادى الإرسال لا كما زعموا من عدم إرادته تعالى لتأييده عليه الصلاة والسلام بالمعجزات وهو السر فى إيثار الإرسال على الإيتاء لما فيه من الإشعار بتداعى(١) الآيات إلى النزول لولا أن تمسكها يد التقدير وإسناد على هذا المنع إلى تكذيب الأولين إلا إلى علمه تعالى بما سيكون من الآخرين كما فى قوله تعالى (ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون) لإقامة الحجة عليهم بإبراز الأنموذج وللإيذان بأن مدار عدم الإجابة إلى إيتاء مقترحهم ليس إلا صنيعهم ﴿ وآتينا ثمود الناقة ﴾ عطف على ما يفصح عنه النظم الكريم كأنه قيل(٢) وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون حيث آتيناهم ما اقترحوا من الآيات الباهرة فكذبوها وآتينا باقتراحهم ثمود الناقة .

﴿ مبصرة ﴾ على صيغة الفاعل أى بينة ذات إبصار أو بصائر يدركها الناس أو أسند إليها حال من يشاهدها مجازا أو جاعلتهم ذوى بصائر من أبصره جعله بصيرا وقرىء على صيغة المفعول وبفتح الميم والصاد وهى نصب على الحالية وقرىء بالرفع على أنها خبر مبتدأ محذوف .

﴿ فظلموا بها ﴾ فكفروا بها ظالمين أى لم يكتفوا بمجرد الكفر بها بل فعلوا بها ما فعلوا من العقر أو ظلموا أنفسهم وعرضوها للهلاك بسبب عقرها ولعل تخصيصها بالذكر لما أن ثمود عرب مثلهم وأن لهم من العلم بحالهم ما لا مزيد عليه من حيث يشاهدون آثار هلاكهم ورودا وصدورا أو لأنها من جهة

(١) فى ١٠ : الإيذان بتداعى.

(٢) فى ١٠ : فكأنه قيل .

إنها حيوان أخرج من الحجر أوضح دليل على تحقق مضمون قوله تعالى (قل كونوا حجارة أو حديدا) ﴿ وما نرسل بالآيات ﴾ المقترحة ﴿ إلا تخويفا ﴾ لمن أرسلت هى عليهم مما يعقبها من العذاب المستأصل كالطليعة له وحيث لم يخافوا ذلك فعل بهم ما فعل فلا محل للجملة حينئذ من الإعراب ويجوز أن تكون حالا من ضمير ظلموا أى فظلموا بها ولم يخافوا عاقبته والحال أنا ما نرسل بالآيات التى هى من جملتها إلا تخويفا من العذاب الذى يعقبها فنزل بهم ما نزل .

﴿ وإذ قلنا لك إن ربك أحاط بالناس ﴾ أى علما كما نقله الإمام الثعلبى عن ابن عباس رضى الله عنهما فلا يخفى عليه شىء من أفعالهم الماضية والمستقبلة من الكفر والتكذيب وفى قوله تعالى ﴿ وما جعلنا الرؤيا التى أريناك إلا فتنة للناس ﴾ إلى آخر الآية تنبيه على تحققها بالاستدلال عليها بما صدر عنهم عند مجىء بعض الآيات لاشتراك الكل فى كونها أمورا خارقة للعادات منزلة من جانب الله على النبى عليه الصلاة والسلام فتكذيبهم لبعضها مستلزم لتكذيب الباقى كما أن تكذيب الآخرين بغير المقترحة يدل على تكذيبهم بالآيات المقترحة والمراد بالرؤيا ما عاينه عليه الصلاة والسلام ليلة المعراج من عجائب الأرض والسماء حسبما ذكر فى فاتحة السورة الكريمة والتعبير عن ذلك بالرؤيا إما لأنه لا فرق بينها وبين الرؤية أو لأنها وقعت بالليل أو لأن الكفرة قالوا لعلها رؤيا أى وما جعلنا الرؤيا التى أريناكها عيانا مع كونها آية عظيمة وأية آية حقيقة بأن لا يتلعثم فى تصديقها أحد ممن له أدنى بصيرة إلا فتنة افتتن بها الناس حتى ارتد بعضهم ﴿ والشجرة الملعونة فى القرآن ﴾ عطف على الرؤيا والمراد بلعنها فيه لعن طاعمها على الإسناد المجازى أو إبعادها عن الرحمة فإنها تنبت فى أصل الجحيم فى أبعد مكان من الرحمة أى وما جعلناها إلا فتنة لهم حيث أنكروا ذلك وقالوا إن محمداً يزعم أن الجحيم يحرق الحجارة ثم يقول ينبت فيها الشجر ولقد ضلوا فى ذلك ضلالا بعيدا حيث كابروا قضية عقولهم فإنهم يرون النعامة تبتلع الجمر وقطع الحديد المحماة فلا تضرها ويشاهدون المناديل المتخذة من

وبر السمندر تلقى فى النار فلا تؤثر فيها ويرون أن فى كل شجر نارا وقرىء بالرفع على حذف الخبر كأنه قيل والشجرة الملعونة فى القرآن كذلك .

﴿ ونخوفهم ﴾ بذلك وبنظائرها من الآيات فإن الكل للتخويف وإيثار صيغة الاستقبال للدلالة على التجدد والاستمرار فما يزيدهم التخويف ﴿ إلا طغيانا كبيرا ﴾ متجاوزا عن الحد فلو أنا أرسلنا بما اقترحوه من الآيات لفعلوا بها ما فعلوا بنظائرها وفعل بهم ما فعل بأشياعهم وقد قضينا بتأخير العقوبة العامة لهذه الأمة إلى الطامة الكبرى هذا هو الذى يستدعيه النظم الكريم وقد حمل أكثر المفسرين الإحاطة على الإحاطة بالقدرة تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم عما عسى يعتريه من عدم الإجابة إلى إنزال الآيات التى اقترحوها لأن إنزالها ليس بمصلحة من نوع حزن من طعن الكفرة حيث كانوا يقولون: لو كنت رسولا حقا لأتيت بهذه المعجزات كما أتى بها موسى وغيره من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، فكأنه قيل : اذكر وقت قولنا لك : إن ربك اللطيف بك قد أحاط بالناس فهم فى قبضة قدرته لا يقدرون على الخروج من مشيئته فهو يحفظك منهم فلا تهتم بهم وامض لما أمرتك به من تبليغ الرسالة ، ألا ترى أن الرؤيا التى أريناك من قبل جعلناها فتنة للناس مورثة للشبهة مع أنها ما أورثت ضعفا لأمرك وفتورا فى حالك وقد فسر الإحاطة بإهلاك قريش يوم بدر وإنما عبر عنه بالماضى مع كونه منتظرا حسبما ينبىء عنه قوله تعالى (سيهزم الجمع ويولون الدبر) وقوله تعالى (قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم) وغير ذلك جريا على عادته سبحانه فى أخباره وأولت الرؤيا بما رآه عليه الصلاة والسلام فى المنام من مصارعهم لما روى أنه عليه الصلاة والسلام لما ورد ماء بدر قال « والله لكأنى أنظر إلى مصارع القوم وهو يومىء إلى الأرض - هذا مصرع فلان وهذا مصرع فلان » فتسامعت به قريش فاستسخروا[1] منه وبما رآه عليه الصلاة والسلام أنه سيدخل مكة وأخبر به أصحابه فتوجه إليها

---

(١) فى ١٠ : فسخروا منه .

قصده المشركون عام الحديبية واعتذر عن كون ماذكر مدنيا بأنه يجوز أن يكون الوحى بإهلاكهم وكذا الرؤيا واقعا بمكة وذكر الرؤيا وتعيين المصارع واقعين بعد الهجرة وأنت خبير بأنه يلزم منه أن يكون افتتان الناس بذلك واقعا بعد الهجرة وأن يكون ازديادهم طغيانا متوقعا غير واقع عند نزول الآية وقد قيل الرؤيا ما رآه عليه الصلاة والسلام فى وقعة بدر من مضمون قوله تعالى (إذ يريكهم الله فى منامك قليلا ولو أراكهم كثيراً لفشلتم) ولا ريب فى أن تلك الرؤيا مع وقوعها فى المدينة ما جعلت فتنة للناس .

نجاة المؤمنين من إبليس

﴿ وإذ قلنا للملائكة ﴾ تذكير لما جرى منه تعالى من الأمر ومن الملائكة من الامتثال والطاعة من غير تردد وتحقيق لمضمون ما سبق من قوله تعالى (أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه إن عذاب ربك كان محذورا) ويعلم من حال الملائكة وحال غيرهم من عيسى وعزير عليهما السلام فى الطاعة وابتغاء الوسيلة ورجاء الرحمة ومخافة العذاب ومن حال إبليس حال من يعاند الحق ويخالف الأمر أى واذكر وقت قولنا لهم ﴿ اسجدوا لآدم ﴾ تحية وتكريما لما قاله من الفضائل المستوجبة لذلك ﴿ فسجدوا ﴾ له من غير تلعثم امتثالا للأمر وأداء لحقه عليه الصلاة والسلام ﴿ إلا إبليس ﴾ وكان داخلا فى زمرتهم مندرجا تحت الأمر بالسجود ﴿ قال ﴾ أى عند ما وبخ بقوله عز سلطانه (يا إبليس مالك أن لا تكون مع الساجدين) وقوله (ما منعك أن لا تسجد إذ أمرتك) وقوله (ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدى) كما أشير إليه فى سورة الحجر ﴿ أأسجد ﴾ وأنا مخلوق من العنصر العالى ﴿ لمن خلقت طينا ﴾ نصب على نزع الخافض أى من طين أو حال من الراجع إلى الموصول أى خلقته وهو طين أو من نفس الموصول أى أأسجد له وأصله طين والتعبير عنه عليه الصلاة والسلام بالموصول لتعليل إنكاره بما فى حيز الصلة .

﴿ قال ﴾ أى إبليس لكن لا عقيب كلامه المحكى بل بعد الإنظار المترتب على استنظاره المتفرع على الأمر بخروجه من بين الملأ الأعلى باللعن المؤبد وإنما لم يصرح بذلك اكتفاء بما ذكر فى مواضع أخر فإن توسيط قال بين كلامى اللعين للايذان بعدم اتصال الثانى بالأول وعدم ابتنائه عليه بل على غيره كما فى قوله تعالى (قال ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون) ﴿ أرأيت هذا الذى كرمت على ﴾ الكاف لتأكيد الخطاب لا محل لها من الإعراب وهذا مفعول أول والموصول صفته والثانى محذوف لدلالة الصلة عليه أى أخبرنى عن هذا الذى كرمته على بأن أمرتنى بالسجود له لم كرمته على وقيل هذا مبتدأ حذف عنه حرف الاستفهام والموصول مع صلته خبره ومقصوده الاستصغار والاستحقار أى أخبرنى أهذا من كرمته على وقيل معنى أرأيتك أتأملت كأن المتكلم ينبه المخاطب على استحضار ما يخاطبه به عقيبه ﴿ لئن أخرتن ﴾ حيا ﴿ إلى يوم القيامة ﴾ كلام مبتدأ واللام موطئة للقسم وجوابه قوله ﴿ لأحتنكن ذريته ﴾ أى لأستأصلنهم من قولهم احتنك الجراد الأرض إذا جرد ما عليها أكلا أو لأقودنهم حيث ما شئت ولأستولين عليهم استيلاء قويا من قولهم حنكت الدابة واحتنكتها إذا جعلت فى حنكها الأسفل حبلا تقودها به وهذا كقوله (لأزينن لهم فى الأرض ولأغوينهم أجمعين) وإنما علم تسنى ذلك المطلب له تلقيا من جهة الملائكة عليهم الصلاة والسلام أو استنباطا من قولهم (أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء) أو توسما من خلقه ﴿ إلا قليلا ﴾ منهم وهم المخلصون الذين عصمهم الله تعالى .

﴿ قال اذهب ﴾ أى امض لشأنك الذى اخترته وهو طرد له وتخلية بينه وبين ما سولت له نفسه ﴿ فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم ﴾ أى جزاؤك وجزاؤهم فغلب المخاطب على الغائب رعاية لحق المتبوعية ﴿ جزاء موفورا ﴾ أى جزاء مكملا من قولهم فر لصاحبك عرضه فرة ، أى وفر[1] وهو نصب

(١) فى ١٠ : أى وفره

على أنه مصدر مؤكد لما فى قوله (جهنم جزاؤكم) من معنى تجاوزون أو الفعل المقدر أو حال موطئة لقوله موفورا ﴿ واستفزز ﴾ أى استخف ﴿ من استطعت منهم ﴾ أن تستفزه ﴿ بصوتك ﴾ بدعائك إلى الفساد ﴿ وأجلب عليهم ﴾ أى صح عليهم من الجلبة وهى الصياح ﴿ بخيلك ورجلك ﴾ أى بأعوانك وأنصارك من راكب وراجل من أهل العبث والفساد قال ابن عباس رضى الله عنهما ومجاهد وقتادة إن له خيلا ورجلا من الجن والإنس فما كان من راكب يقاتل فى معصية الله تعالى فهو من خيل إبليس وما كان من راجل يقاتل فى معصية الله تعالى فهو من رجل إبليس والخيل الخيالة ومنه قوله عليه الصلاة والسلام يا خيل الله اركبى والرجل اسم جمع للراجل كالصحب والركب وقرىء بكسر الجيم وهى قراءة حفص على أنه فعل بمعنى فاعل كتعب وتاعب وبضمة مثل حدث وحدث وندس وندس ونظائرهما أى جمعك الراجل ليطابق الخيل وقرىء رجالك ورجالك ويجوز أن يكون استفزازه بصوته وإجلابه بخيله ورجله تمثيلا لتسلطه على من يغويه فكأنه مغوار أوقع على قوم فصوت بهم صوتا يزعجهم من أماكنهم ويقلقهم عن مراكزهم وأجلب عليهم بجنده من خيالة ورجالة حتى استأصلهم ﴿ وشاركهم فى الأموال ﴾ بحملهم على كسبها وجمعها من الحرام والتصرف فيها على ما لا ينبغى ﴿ والأولاد ﴾ بالحث على التوصل إليهم بالأسباب المحرمة والإشراك كتسميتهم بعبد العزى والتضليل بالحمل على الأديان الزائغة والحرف الذميمة والأفعال القبيحة ﴿ وعدهم ﴾ المواعيد الباطلة كشفاعة الآلهة والاتكال على كرامة الآباء وتأخير التوبة بتطويل الأمل ﴿ وما يعدهم الشيطان إلا غرورا ﴾ اعتراض لبيان شأن مواعيده والالتفات إلى الغيبة لتقوية معنى الاعتراض مع ما فيه من صرف الكلام عن خطابه وبيان شأنه للناس ومن الإشعار بعلية شيطنته للغرور وهو تزيين الخطأ بما يوهم أنه صواب .

﴿ إن عبادى ﴾ الإضافة للتشريف وهم المخلصون وفيه أن من تبعه ليس منهم وأن الإضافة لثبوت الحكم فى قوله تعالى ﴿ ليس لك عليهم سلطان ﴾ أى تسلط وقدرة على إغوائهم كقوله تعالى (إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم

يتوكلون) ﴿ وكفى بربك وكيلا ﴾ لهم يتوكلون عليه ويستمدون به فى الخلاص عن إغوائك والتعرض لوصف الربوبية المنبئة عن المالكية المطلقة والتصرف الكلى مع الإضافة إلى ضمير إبليس للإشعار بكيفية كفايته تعالى لهم أعنى سلب قدرته على إغوائهم ﴿ ربكم الذى يزجى لكم الفلك فى البحر ﴾ مبتدأ وخبر والإزجاء السوق حالا بعد حال أى هو القادر الحكيم الذى يسوق لمنافعكم الفلك ويجريها فى البحر ﴿ لتبتغوا من فضله ﴾ من رزقه الذى هو فضل من قبله أو من الربح الذى هو معطيه ومن مزيدة أو تبعيضية وهذا تذكير لبعض النعم التى هى دلائل التوحيد وتمهيد لذكر توحيدهم عند مساس الضر تكملة لما مر من قوله تعالى (فلا يملكون) الآية ﴿ إنه كان بكم ﴾ أزلا وأبدا ﴿ رحيما ﴾ حيث هيأ لكم ما تحتاجون إليه وسهل عليكم ما يعسر من مباديه وهذا تذييل فيه تعليل لما سبق من الازجاء لابتغاء الفضل وصيغة الرحيم للدلالة على أن المراد بالرحمة الرحمة الدنيوية والنعمة العاجلة المنقسمة إلى الجليلة والحقيرة ﴿ وإذا مسكم الضر فى البحر ﴾ خوف الغرق فيه ﴿ ضل من تدعون ﴾ أى ذهب عن خواطركم ما كنتم تدعون من دون الله من الملائكة أو المسيح أو غيرهم ﴿ إلا إياه ﴾ وحده من غير أن يخطر ببالكم أحد منهم وتدعوه لكشفه استقلالا أو اشتراكا أو ضل كل من تدعونه عن إغاثتكم وإنقاذكم ولم يقدر على ذلك إلا الله على الاستثناء المنقطع ﴿ فلما نجاكم ﴾ من الغرق وأوصلكم ﴿ إلى البر أعرضتم ﴾ عن التوحيد أو اتسعتم فى كفران النعمة ﴿ وكان الإنسان كفورا ﴾ تعليل لما سبق من الإعراض ﴿ أفأمنتم ﴾ الهمزة للإنكار والفاء للعطف على محذوف تقديره أنجوتم فأمنتم ﴿ أن يخسف بكم جانب البر ﴾ الذى هو مأمنكم أى يقلبه ملتبسا بكم أو بسبب كونكم فيه وفى زيادة الجانب تنبيه على تساوى الجوانب والجهات بالنسبة إلى قدرته سبحانه وتعالى وقهره وسلطانه ، وقرىء بنون العظمة .

﴿ أو يرسل عليكم ﴾ من فوقكم وقرىء بالنون ﴿ حاصبا ﴾ ريحا ترمى

بالحصباء ﴿ثم لا تجدوا لكم وكيلا﴾ يحفظكم من ذلك أو يصرفه عنكم فإنه لا راد لأمره الغالب .

﴿أم أمنتم أن يعيدكم فيه﴾ فى البحر أوثرت كلمة فى على كلمة إلى المنبئة عن مجرد الانتهاء للدلالة على استقرارهم فيه ﴿تارة أخرى﴾ إسناد الإعادة إليه تعالى مع أن العود إليه باختيارهم باعتبار خلق الدواعى الملجئة لهم إلى ذلك وفيه إيماء إلى كمال شدة هول مالاقوه فى التارة الأولى بحيث لولا الإعادة لما عادوا ﴿فيرسل عليكم﴾ وأنتم فى البحر وقرىء بالنون ﴿قاصفا من الريح﴾ وهو التى لا تمر بشىء إلا كسرته وجعلته كالرميم أوالتى لها قصيف وهو الصوت الشديد كأنها تتقصف أى تتكسر ﴿فيغرقكم﴾ بعد كسر فلككم كما ينبىء عنه عنوان القصف وقرىء بالنون وبالتاء على الإسناد إلى ضمير الريح ﴿بما كفرتم﴾ بسبب إشراككم أو كفرانكم لنعمة الإنجاء ﴿ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعا﴾ أى ثائرا يطالبنا بما فعلنا انتصارا منا ودركا للثأر من جهتنا كقوله سبحانه (ولا يخاف عقباها) ﴿ولقد كرمنا بنى آدم﴾ قاطبة تكريما شاملا لبرهم وفاجرهم أى كرمناهم بالصورة والقامة المعتدلة والتسلط على ما فى الأرض والتمتع به والتمكن من الصناعات وغير ذلك مما لا يكاد يحيط به نطاق العبارة ومن جملته ما ذكره ابن عباس رضى الله عنهما من أن كل حيوان يتناول طعامه بفيه إلا الإنسان فإنه يرفعه إليه بيده وما قيل من شركة القرد له فى ذلك مبنى على عدم الفرق بين اليد والرجل فإنه متناول له برجله التى يطأ بها القاذورات لا بيده ﴿وحملناهم فى البر والبحر﴾ على الدواب والسفن من حملته إذا جعلت له ما يركبه وليس من المخلوقات شىء كذلك وقيل حملناهم فيهما حيث لم نخسف بهم الأرض ولم نغرقهم بالماء وأنت خبير بأن الأول هو الأنسب بالتكريم إذ جميع الحيوانات كذلك ﴿ورزقناهم من الطيبات﴾ أى فنون النعم وضروب المستلذات مما يحصل بصنعهم وبغير صنعهم .

﴿وفضلناهم﴾ فى العلوم والإدراكات بما ركبنا فيهم من القوى المدركة التى بها يتميز الحق من الباطل والحسن من القبيح ﴿على كثير ممن خلقنا﴾ وهم من

عدا الملائكة عليهم الصلاة والسلام ﴿ تفضيلا ﴾ عظيما فحق عليهم أن يشكروا هذه النعم ولا يكفروها ويستعملوا قواهم فى تحصيل العقائد الحقة ويرفضوا ما هم عليه من الشرك الذى لا يقبله أحد ممن له أدنى تميز فضلا عمن فضل على من عدا الملأ الأعلى الذين هم العقول المحضة وإنما استثنى جنس الملائكة من هذا التفضيل لأن علومهم دائمة عارية عن الخطأ والخلل وليس فيه دلالة على أفضليتهم بالمعنى المتنازع فيه فإن المراد هنا بيان التفضيل فى أمر مشترك بين جميع أفراد البشر صالحها وطالحها ولا يمكن أن يكون ذلك هو الفضل فى عظم الدرجة وزيادة القربة عند الله سبحانه . إن قيل أى حاجة إلى تعيين ما فيه التفضيل بعد بيان ما هو المراد بالمفضلين فان استثناء الملائكة عليهم الصلاة والسلام من تفضيل جميع أفراد البشر عليهم لا يستلزم استثناءهم من تفضيل بعض أفراده عليهم قلنا لابد من تعيينه البتة إذ ليس من الأفراد الفاجرة للبشر أحد يفضل على أحد من المخلوقات فيما هو المتنازع فيه أصلا بل هم أدنى من كل دنىء حسبما ينبىء عنه قوله تعالى (أولئك كالأنعام بل هم أضل) وقوله تعالى (إن شر الدواب عند الله الذين كفروا).

البعث

﴿ يوم ندعو ﴾ نصب على المفعولية بإضمار اذكر أو ظرف لما دل عليه قوله تعالى (ولا يظلمون) وقرىء بالياء على البناء للفاعل والمفعول ويدعو بقلب الألف واو على لغة من يقول فى أفعى أفعو وقد جوز كون الواو علامة الجمع كما فى قوله تعالى (وأسروا النجوى) أو ضميره وكل بدلا منه والنون محذوفة لقلة المبالاة بها فإنها ليست إلا علامة الرفع وقد يكتفى بتقديره كما فى يدعى ﴿ كل أناس ﴾ من بنى آدم الذين فعلنا بهم فى الدنيا ما فعلنا من التكريم والتفضيل وهذا شروع فى بيان تفاوت أحوالهم فى الآخرة بحسب أحوالهم وأعمالهم فى الدنيا ﴿ بإمامهم ﴾ أى بمن ائتموا به من نبى أو مقدم فى الدين أو كتاب أو دين ؛ وقيل بكتاب أعمالهم التى قدموها فيقال يا أصحاب كتاب الخير يا أصحاب

كتاب الشر أو يا أهل دين كذا يا أهل كتاب كذا وقيل الإمام جمع أم كخف وخفاف والحكمة فى دعوتهم بأمهاتهم إجلال عيسى عليه السلام وتشريف الحسنين رضى الله عنهما والستر على أولا الزنا ﴿فمن أوتى﴾ يومئذ من أولئك المدعوين ﴿كتابه﴾ صحيفة أعماله ﴿بيمينه﴾ إبانة لخطر[1] الكتاب المؤتى وتشريفا لصاحبه وتبشيرا له من أول الأمر بما فى مطاويه ﴿فأولئك﴾ إشارة إلى من باعتبار معناه إيذانا بأنهم حزب مجتمعون على شأن جليل أو إشعارا بأن قراءتهم لكتبهم تكون على وجه الاجتماع لا على وجه الانفراد كما فى حال الإيتاء وما فيه من الدلالة على البعد للإشعار برفعة درجاتهم أى أولئك المختصون بتلك الكرامة التى يشعر بها الإيتاء المزبور ﴿يقرءون كتابهم﴾ الذى أوتوه على الوجه المبين تبجحا بما سطر فيه من الحسنات المستتبعة لفنون الكرامات ﴿ولا يظلمون﴾ أى لا ينقصون من أجور أعمالهم المرتسمة فى كتبهم بل يؤتونها مضاعفة ﴿فتيلا﴾ أى قدر فتيل وهو القشرة التى فى شق النواة أو أدنى شىء فإن الفتيل مثل فى القلة والحقارة .

﴿ومن كان﴾ من المدعوين المذكورين ﴿فى هذه﴾ الدنيا التى فعل بهم فيها ما فعل من فنون التكريم والتفضيل ﴿أعمى﴾ فاقد البصيرة لا يهتدى الى رشده ولا يعرف ما أوليناه من نعمة التكرمة والتفضيل فضلا عن شكرها والقيام بحقوقها ولا يستعمل ما أودعناه فيه من العقول والقوى فيما خلقن له من العلوم والمعارف الحقة ﴿فهو فى الآخرة﴾ التى عبر عنها بيوم ندعو ﴿أعمى﴾ كذلك أى لا يهتدى الى ما ينجيه ولا يظفر بما يجديه لأن العمى الأول موجب للثانى وقد جوز كون الثانى بمعنى التفضيل على أن عماه فى الدنيا ولذلك قرأ أبو عمرو الأول ممالا والثانى مفخما ﴿وأضل سبيلا﴾ أى من الأعمى لزوال الاستعداد الممكن وتعطل الآلات بالكلية وهذا بعينه هو الذى أوتى كتابه بشماله بدلالة حال ما سبق من الفريق القابل له ولعل العدول عن ذكره بذلك العنوان مع أنه

---

(١) ف. ١٠ : ببيان لخطر .

الذى يستدعيه حسن المقابلة حسبما هو الواقع فى سورة الحاقة وسورة الانشقاق للإيذان بالعلة الموجبة له كما فى قوله تعالى (وأما إن كان من المكذبين الضالين) بعد قوله تعالى (فأما إن كان من أصحاب اليمين) وللرمز إلى علة حال الفريق الأول وقد ذكر فى أحد الجانبين المسبب وفى الآخر السبب ودل بالمذكور فى كل منهما على المتروك فى الآخر تعويلا على شهادة العقل كما فى قوله عز وعلا (وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يردك بخير فلا راد لفضله) .

عصمة النبى صلى الله عليه وسلم

﴿ وإن كادوا ليفتنونك ﴾ نزلت فى ثقيف إذ قالوا للنبى صلى الله عليه وسلم لا ندخل فى أمرك حتى تعطينا خصالا نفتخر بها على العرب لا نعشر ولا نحشر ولا نجبى فى صلاتنا وكل ربا لنا فهو لنا وكل ربا علينا فهو موضوع عنا وأن تمتعنا باللات سنة وأن تحرم وادينا وج كما حرمت مكة فإذا قالت العرب لم فعلت فقل إن الله أمرنى بذلك وقيل فى قريش حيث قالوا اجعل لنا آية عذاب آية رحمة وآية رحمة آية عذاب أو قالوا لا نمكنك من استلام الحجر حتى تلم بآلهتنا فإن مخففة من المشددة وضمير الشأن الذى هو اسمها محذوف واللام هى الفارقة بينها وبين النافية أى إن الشأن قاربوا أن يفتنوك أى يخدعوك فاتنين ﴿ عن الذى أوحينا إليك ﴾ من أوامرنا ونواهينا ووعدنا ووعيدنا ﴿ لتفترى علينا غيره ﴾ لتتقول علينا غير الذى أوحينا إليك مما اقترحته ثقيف أو قريش حسبما نقل ﴿ وإذن لاتخذوك خليلا ﴾ أى لو اتبعت أهواءهم لكنت لهم وليا ولخرجت من ولايتى .

﴿ ولولا أن ثبتناك ﴾ على ما أنت عليه من الحق بعصمتنا لك ﴿ لقد كدت تركن إليهم شيئا قليلا ﴾ من الركون الذى هو أدنى ميل أى لولا تثبيتنا لك لقاربت أن تميل إليهم شيئا يسيرا من الميل اليسير لقوة خدعهم وشدة احتيالهم لكن أدركتك العصمة فمنعتك من أن تقرب من أدنى مراتب الركون إليهم فضلا عن نفس الركون وهذا صريح فى أنه عليه الصلاة والسلام ما هم بإجابتهم

مع قوة الداعى إليها ودليل على أن العصمة بتوفيق الله تعالى وعنايته ﴿ إذن ﴾ لو قاربت أن تركن إليهم أدنى ركنة ﴿لأذقناك ضعف الحيوة وضعف الممات﴾ أى عذاب الدنيا وعذاب الآخرة ضعف ما يعذب به فى الدارين بمثل هذا الفعل غيرك لأن خطأ الخطير خطير وكان أصل الكلام عذابا ضعفا فى الممات بمعنى مضاعفا ثم حذف الموصوف وأقيمت الصفة مقامه ثم أضيفت إضافة موصوفها وقيل الضعف من أسماء العذاب [1] وقيل المراد بضعف الحياة عذاب الآخرة وبضعف الممات عذاب القبر ﴿ ثم لا تجدلك علينا نصيرا﴾ يدفع عنك العذاب ﴿ وإن كادوا﴾ الكلام فيه كما فى الأول أى كاد أهل مكة ﴿ ليستفزونك ﴾ أى ليزعجونك بعداوتهم ومكرهم ﴿من الأرض﴾ أى الأرض التى أنت فيها وهى أرض مكة ﴿ ليخرجوك منها وإذن لا يلبثون ﴾ بالرفع عطفا على خبر كاد وقرىء لا يلبثوا بالنصب بإعمال إذن على أن الجملة معطوفة على جملة وإن كادوا ليستفزونك ﴿ خلافك ﴾ أى بعدك قال :

خلت الديار خلافهم فكأنما بسط الشواطب بينهن حصيرا

أى لو خرجت لا يبقون بعد خروجك وقرىء خلفك ﴿ إلا قليلا﴾ إلا زمانا قليلا وقد كان كذلك فانهم أهلكوا ببدر بعد هجرته عليه الصلاة والسلام وقيل نزلت الآية فى اليهود حيث حسدوا مقام النبى عليه الصلاة والسلام بالمدينة فقالوا الشام مقام الأنبياء عليهم السلام فان كنت نبيا فالحق بها حتى نؤمن بك فوقع ذلك فى قلبه عليه الصلاة والسلام فخرج مرحلة فنزلت فرجع ثم قتل منهم بنو قريظه وأجلى بنو النضير بقليل ﴿سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا﴾ نصب على المصدرية أى سن الله تعالى سنة وهى أن يهلك كل أمة أخرجت رسولهم من بين أظهرهم فالسنة لله تعالى وإضافتها الى الرسل لأنها سنت لأجلهم على ما ينطق به قوله عز وجل ﴿ ولا تجد لسنتنا تحويلا ﴾ أى تغيرا.

---

(١) فى ١٠ : من سمات العذاب .

تكليف النبي صلى الله عليه وسلم

﴿ أقم الصلاة لدلوك الشمس ﴾ لزوالها كما ينبىء عنه قوله عليه الصلاة والسلام أتانى جبريل عليه السلام لدلوك الشمس حين زالت فصلى بى الظهر واشتقاقه من الدلك لأن من نظر إليها حينئذ يدلك عينه وقيل لغروبها من دلكت الشمس أى غربت وقيل أصل الدلوك الميل فينتظم كلا المعنيين واللام للتأقيت مثلها فى قولك لثلاث خلون ﴿ إلى غسق الليل ﴾ إلى اجتماع ظلمته وهو وقت صلاة العشاء وليس المراد إقامتها فيما بين الوقتين على وجه الاستمرار بل إقامة كل صلاة فى وقتها الذى عين لها ببيان جبريل عليه السلام كما أن أعداد ركعات كل صلاة موكولة إلى بيانه عليه السلام ولعل الاكتفاء ببيان المبدأ والمنتهى فى أوقات الصلوات من غير فصل بينها لما أن الإنسان فيما بين هذه الأوقات على اليقظة فبعضها متصل ببعض بخلاف أول وقت العشاء والفجر فإنه باشتغاله فيما بينهما بالنوم ينقطع أحدهما عن الآخر ولذلك فصل وقت الفجر عن سائر الأوقات وقيل المراد بالصلاة صلاة المغرب والتحديد المذكور بيان لمبدئه ومنتهاه واستدل به على امتداد وقته إلى غروب الشفق وقوله تعالى :

﴿ وقرآن الفجر ﴾ أى صلاة الفجر نصب عطفا على مفعول أقم أو على الإغراء قاله الزجاج وإنما سميت قرآنا لأنه ركنها كما تسمى ركوعا وسجودا واستدل به على الركنية ولكن لا دلالة له على ذلك لجواز كون مدار التجوز كون القراءة مندوبة فيها نعم لو فسر بالقراءة فى صلاة الفجر لدل الأمر بإقامتها على الوجوب فيها نصا وفيما عداها دلالة ويجوز أن يكون وقرآن الفجر حثا على تطويل القراءة فى صلاة الفجر ﴿ إن قرآن الفجر ﴾ أظهر فى مقام الإضمار إبانة لمزيد الاهتمام به ﴿ كان مشهودا ﴾ يشهده ملائكة الليل وملائكة النهار أو شواهد القدرة من تبدل الضياء بالظلمة والانتباه بالنوم الذى هو أخو الموت أو يشهده كثير من المصلين أو من حقه أن يشهده الجم الغفير فالآية على تفسير الدلوك بالزوال جامعة للصلوات الخمس وعلى تفسيره بالغروب لما عدا الظهر والعصر .

﴿ ومن الليل ﴾ قيل هو نصب على الإغراء أى إلزم بعض الليل وقيل لا يكون المغرى به حرفا ولا يجدى نفعا كون معناها التبعيض فإن واو مع ليست اسما بالإجماع وإن كانت بمعنى الاسم الصريح بل هو منصوب على الظرفية بمضمر أى قم بعض الليل ﴿ فتهجد به ﴾ أى أزل وألق الهجود أى النوم فإن صيغة التفعل تجيء للإزالة كالتحرج والتحنث والتأثم ونظائرها والضمير المجرور للقرآن[1] من حيث هو لا بقيد إضافته إلى الفجر أو البعض المفهوم من قوله تعالى ومن الليل أى تهجد فى ذلك البعض على أن الباء بمعنى فى وقيل منصوب بتهجد أى تهجد بالقرآن بعض الليل على طريقة وإياى فارهبون ﴿ نافلة لك ﴾ فريضة زائدة على الصلوات الخمس المفروضة خاصة بك دون الأمة ولعله هو الوجه فى تأخير ذكرها عن ذكر صلاة الفجر مع تقدم وقتها على وقتها أو تطوعا لكن لا لكونها زيادة على الفرائض بل لكونها زيادة له صلى الله عليه وسلم فى الدرجات على ماقال مجاهد والسدى فإنه عليه السلام مغفور له ما تقدم من ذنبه وما تأخر فيكون تطوعه زيادة فى درجاته بخلاف من عداه من الأمة فإن تطوعهم لتكفير ذنوبهم وتدارك الخلل الواقع فى فرائضهم وانتصابها إما على المصدرية بتقدير تنفل أو بجعل تهجد بمعناه أو بجعل نافلة بمعنى تهجداً فإن ذلك عبادة زائدة وإما على الحالية من الضمير الراجع إلى القرآن أى حال كونها صلاة نافلة وإما على المفعولية لتهجد إذا جعل بمعنى صل وجعل الضمير المجرور للبعض أى فصل فى ذلك البعض نافلة لك .

﴿ عسى أن يبعثك ربك ﴾ الذى يبلغك إلى كمالك اللائق بك من بعد الموت الأكبر كما انبعثت من النوم الذى هو الموت الأصغر بالصلاة والعبادة ﴿ مقاما ﴾ نصب على الظرفية على إضمار فيقيمك أو تضمين البعث معنى الإقامة إذ لا بد من أن يكون العامل فى مثل هذا الظرف فعلا فيه معنى الاستقرار ويجوز أن يكون حالا بتقدير مضاف أى يبعثك ذا مقام ﴿ محمودا ﴾ عندك وعند جميع

(١) فى ١٠ : متعلق بالقران .

الناس وفيه تهوين لمشقة قيام الليل وروى أبو هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال المقام المحمود هو المقام الذى أشفع فيه لأمتى وعن ابن عباس رضى الله عنهما مقاما يحمدك فيه الأولون والآخرون وتشرف فيه على جميع الخلائق تسأل فتعطى وتشفع فتشفع ليس أحد إلا تحت لوائك وعن حذيفة رضى الله عنه يجمع الناس فى صعيد واحد فلا تتكلم فيه نفس فأول مدعو محمد صلى الله عليه وسلم فيقول لبيك وسعديك والشر ليس إليك والمهدى من هديت وعبدك بين يديك وبك وإليك لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك تباركت وتعاليت سبحانك رب البيت .

﴿ وقل رب أدخلنى ﴾ أى القبر ﴿ مدخل صدق ﴾ أى إدخالا مرضيا ﴿ وأخرجنى ﴾ أى منه عند البعث ﴿ مخرج صدق ﴾ أى إخراجا مرضيا ملقى بالكرامة فهو تلقين للدعاء بما وعده من البعث المقرون بالإقامة المعهودة التى لا كرامة فوقها وقيل المراد إدخال المدينة والإخراج من مكة وتغيير ترتيب الوجود لكون الإدخال هو المقصد وقيل إدخاله عليه السلام مكة ظاهرا عليها وإخراجه منها آمنا من المشركين وقيل إدخاله الغار وإخراجه منه سالما وقيل إدخاله فيما حمله من أعباء الرسالة وإخراجه منه مؤديا حقه وقيل إدخاله فى كل ما يلابسه من مكان أو أمر وإخراجه منه وقرىء مدخل ومخرج بالفتح على معنى أدخلنى فأدخل دخولا وأخرجنى فأخرج خروجا كقوله :

وعضة دهر يا ابن مروان لم تدع   من المال إلا مسحت أو مجلف

أى لم تدع فلم يبق ﴿ واجعل لى من لدنك سلطانا نصيرا ﴾ حجة تنصرنى على من يخالفنى أو ملكا وعزا ناصرا للإسلام مظهرا له على الكفر فأجيبت دعوته عليه السلام بقوله عز وعلا (والله يعصمك من الناس) (ألا إن حزب الله هم الغالبون) (ليظهره على الدين كله) (ليستخلفنهم فى الأرض) .

﴿ وقل جاء الحق ﴾ أى الإسلام والوحى الثابت الراسخ ﴿ وزهق الباطل ﴾

---

(١) فى ١١ : وسقم الأوهام .

أى ذهب وهلك الشرك والكفر وتسويلات الشيطان من زهق روحه إذا خرج ﴿ إن الباطل ﴾ كائنا ما كان ﴿ كان زهوقا ﴾ أى شأنه أن يكون مضمحلا غير ثابت وهو عدة كريمة بإجابة الدعاء بالسلطان النصير الذى لقنه. عن ابن مسعود رضى الله عنه أنه عليه السلام دخل مكة يوم الفتح وحول البيت ثلثمائة وستون صنما فجعل ينكت بمخصرة كانت بيده فى اعينها واحدا واحدا ويقول جاء الحق وزهق الباطل فينكب لوجهه حتى ألقى جميعها وبقى صنم خزاعه فوق الكعبة وكان من صفر فقال ياعلى ارم به فصعد فرمى به فكسره .

﴿ وننزل من القرآن ﴾ وقرىء ننزل من الإنزال ﴿ ماهو شفاء ﴾ لما فى الصدور من أدواء الريب وأسقام الأوهام ﴿ ورحمة للمؤمنين ﴾ به العاملين بما فى تضاعيفه أى ما هو فى تقويم دينهم واستصلاح نفوسهم كالدواء الشافى للمرضى ومن بيانية قدمت على المبين اعتناء فإن كل القرآن كذلك وعن النبى عليه السلام من لم يستشف بالقرآن فلا شفاه الله أو تبعيضية لكن لا بمعنى أن بعضه ليس كذلك بل بمعنى إنا ننزل منه فى كل نوبة ماتستدعى الحكمة نزوله حينئذ فيقع ذلك ممن نزل عليهم بسبب موافقته لأحوالهم الداعية إلى نزوله موقع الدواء الشافى المصادف لا بأنه من المرضى المحتاجين إليه بحسب الحال من غير تقديم ولا تأخير فكل بعض منه متصف بالشفاء لكن لا فى كل حين بل عند تنزيله وتحقيق التبعيض باعتبار الشفاء الجسمانى كما فى الفاتحة وآيات الشفاء لا يساعده قوله سبحانه

﴿ ولا يزيد الظالمين إلا خسارا ﴾ أى لا يزيد القرآن كله أو كل بعض منه الكافرين المكذبين به الواضعين للأشياء فى غير مواضعها مع كونه فى نفسه شفاء من الأسقام إلا خسارا أى هلاكا بكفرهم وتكذيبهم لا نقصانا كما قيل فإن ما بهم من داء الكفر والضلال حقيق بأن يعبر عنه بالهلاك لا بالنقصان المنبىء عن حصول بعض مبادى الأسقام فيهم وزيادتهم فى مراتب الهلاك من حيث أنهم كلما جددوا الكفر والتكذيب بالآيات النازلة تدريجا ازدادوا بذلك هلاكا وفيه إيماء إلى ان ما بالمؤمنين من الشبه والشكوك المعترية لهم فى أثناء

الاهتداء والاسترشاد بمنزلة الأمراض وما بالكفرة من الجهل والعناد بمنزلة الموت والهلاك وإسناد الزيادة المذكورة إلى القرآن مع أنهم هم المزدادون فى ذلك بسوء صنعهم باعتبار كونه سببا لذلك وفيه تعجيب من أمره حيث يكون مدارا للشفاء والهلاك .

﴿ وإذا أنعمنا على الإنسان ﴾ بالصحة والنعمة ﴿ أعرض ﴾ عن ذكرنا فضلا عن القيام بموجب الشكر ﴿ ونأى ﴾ تباعد عن طاعتنا ﴿ بجانبه ﴾ النأى بالجانب أن يلوى عن الشيء عطفه ويوليه عرض وجهه فهو تأكيد للإعراض أو عبارة عن الاستكبار لأنه من ديدن المستكبرين ﴿ وإذا مسه الشر ﴾ من فقر أو مرض أو نازلة من النوازل وفى إسناد المساس إلى الشر بعد إسناد الإنعام إلى ضمير الجلالة إيذان بأن الخير مراد بالذات والشر ليس كذلك ﴿ كان يؤوسا ﴾ شديد اليأس من روحنا وهذا وصف للجنس باعتبار بعض أفراده ممن هو على هذه الصفة ولا ينافيه قوله تعالى (وإذا مسه الشر فذو دعاء عريض) ونظائره فإن ذلك شأن بعض آخرين منهم وقيل أريد به الوليد بن المغيرة وقرىء (ناء) إما على القلب كما يقال راء فى رأى وإما على أنه بمعنى نهض ﴿ قل كل ﴾ أى كل أحد منكم وممن هو على خلافكم ﴿ يعمل ﴾ عمله ﴿ على شاكلته ﴾ طريقته التى تشاكل حاله فى الهدى والضلالة أو جوهر روحه وأحواله التابعة لمزاج بدنه ﴿ فربكم ﴾ الذى برأكم على هذه الطبائع المتخالفة ﴿ أعلم بمن هو أهدى سبيلا ﴾ أى أسد طريقا وأبين منهاجا وقد فسرت الشاكلة بالطبيعة والعادة والدين .

﴿ ويسألونك عن الروح ﴾ الظاهر أن السؤال كان عن حقيقة الروح الذى هو مدبر البدن الإنسانى ومبدأ حياته روى أن اليهود قالوا لقريش سلوه عن أصحاب الكهف وعن ذى القرنين وعن الروح فإن أجاب عنها جميعا أو سكت فليس بنبى وإن أجاب عن بعض وسكت عن بعض فهو نبى فبين لهم القصتين وأبهم أمر الروح وهو مبهم فى التوراة ﴿ قل الروح ﴾ أظهر فى مقام الإضمار إظهارا لكمال الاعتناء بشأنه ﴿ من أمر ربى ﴾ كلمة من بيانية والأمر بمعنى

الشأن والإضافة للاختصاص العلمى لا الإيجادى لاشتراك الكل فيه وفيها من تشريف المضاف ما لا يخفى كما فى الإضافة الثانية من تشريف المضاف اليه أى هو من جنس ما استأثر الله تعالى بعلمه من الأسرار الخفية التى لا يكاد يحوم حولها عقول البشر .

﴿ وما أوتيتم من العلم إلا قليلا ﴾ لا يمكن تعلقه بأمثال ذلك روى أنه صلى الله عليه وسلم لما قال لهم ذلك قالوا نحن مختصون بهذا الخطاب قال عليه الصلاة والسلام بل نحن وأنتم فقالوا ما أعجب شأنك ساعة تقول ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا وساعة تقول هذا فنزلت (ولو أن ما فى الأرض من شجرة أقلام) الآية وإنما قالوا ذلك لركاكة عقولهم فإن الحكمة الإنسانية أن يعلم من الخير ما تسعه الطاقة البشرية بل ما نيط به المعاش والمعاد وذلك بالإضافة الى ما لا نهاية له من معلوماته سبحانه قليل ينال به خير كثير فى نفسه أو بالنسبة الى الإنسان أو هو من الإبداعيات الكائنة بمحض الأمر التكوينى من غير تحصل من مادة وتولد من أصل كأعضاء الجسد حتى يمكن تعريفه ببعض مباديه ومآله أنه من عالم الأمر لا من عالم الخلق وليس هذا من قبيل قوله سبحانه (إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون) فإن ذلك عبارة عن سرعة التكوين سواء كان الكائن من عالم الأمر أو من عالم الخلق وفيه تنبيه على أنه مما لا يحيط بكنهه دائرة إدراك البشر وإنما الممكن هذا القدر الإجمالى المندرج تحت ما استثنى بقوله تعالى (وما أوتيتم من العلم إلا قليلا) أى إلا علما قليلا تستفيدونه من طرق الحواس فإن تعقل المعارف النظرية إنما هو من إحساس الجزئيات ولذلك قيل من فقد حسا فقد علما ولعل أكثر الأشياء لا يدركه الحس ولا شىء من أحواله التى يدور عليها معرفة ذاته وأما حمل ما ذكر على السؤال عن قدمه وحدوثه وجعل الجواب إخبارا بحدوثه أى كائن بتكوينه حادث بإحداثه بالأمر التكوينى فمع عدم ملاءمته لحال السائلين لا يساعده التعرض لبيان قلة علمهم فإن ما سألوا عنه مما يفى به علمهم حينئذ

وقد أخبر عنه وقيل المراد بالروح خلق عظيم روحانى أعظم من الملك وقيل جبريل عليه السلام وقيل القرآن ومعنى من أمر ربى من وحيه وكلامه لا من كلام البشر .

﴿ ولئن شئنا لنذهبن بالذى أوحينا إليك ﴾ من القرآن الذى هو شفاء ورحمة للمؤمنين ومنبع للعلوم التى أوتيتموها وثبتناك عليه حين كادوا يفتنونك عنه ولولاه لكدت تركن إليهم شيئاً قليلا وإنما عبر عنه بالموصول تفخيما لشأنه ووصفا له بما فى حيز الصلة ابتداء وإعلاما بحاله من أول الأمر وبأنه ليس من قبيل كلام المخلوق واللام موطئة للقسم ولنذهبن جوابه النائب مناب جزاء الشرط وبذلك حسن حذف مفعول المشيئة والمراد من الذهاب به المحو من المصاحف والصدور وهو أبلغ من الإذهاب عن ابن مسعود رضى الله عنه أن أول ماتفقدون من دينكم الأمانة وآخر ما تفقدون الصلاة وليصلين قوم ولا دين لهم وأن هذا القرآن تصبحون يوما وما فيكم منه شىء فقال رجل كيف ذلك وقد أثبتناه فى قلوبنا وأثبتناه فى مصاحفنا نعلمه أبناءنا ويعلمه أبناؤنا أبناءهم فقال يسرى عليه ليلا فيصبح الناس منه فقراء ترفع المصاحف وينزع ما فى القلوب ﴿ ثم لا تجد لك به ﴾ أى بالقرآن ﴿ علينا وكيلا ﴾ من يتوكل علينا استرداده مسطورا محفوظا ﴿ إلا رحمة من ربك ﴾ فإنها إن نالتك لعلها تسترده عليك ويجوز أن يكون الاستثناء منقطعاً بمعنى ولكن رحمة من ربك تركته غير منهوب به فيكون امتنانا بإبقائه بعد المنة بتنزيله وترغيباً فى المحافظة على أداء حقوقه وتحذيرا من أن لا يقدر قدره الجليل ويفرط فى القيام بشكره وهو أجل النعم وأعظمها ﴿ إن فضله كان عليك كبيرا ﴾ كإرسالك وإنزال الكتاب عليك وإبقائه فى حفظك وغير ذلك .

﴿ قل ﴾ للذين لا يعرفون جلالة قدر التنزيل ولا يفهمون فخامة شأنه الجليل بل يزعمون أنه من كلام البشر ﴿ لئن اجتمعت الإنس والجن ﴾ أى اتفقوا ﴿ على أن يأتوا بمثل هذا القرآن ﴾ المنعوت بما لا تدركه العقول من النعوت الجليلة فى البلاغة وحسن النظم وكمال المعنى وتخصيص الثقلين بالذكر

لأن المنكر لكونه من عند الله تعالى منهما لا من غيرهما لا لأن غيرهما قادر على المعارضة ﴿ لا يأتون بمثله ﴾ أوثر الإظهار على إيراد الضمير الراجع إلى المثل المذكور احترازا عن أن يتوهم أن له مثلا معينا وإيذانا بأن المراد نفى الإتيان بمثل ما أى لا يأتون بكلام مماثل له فيما ذكر من الصفات البديعة وفيهم العرب العاربة أرباب البراعة والبيان وهو جواب للقسم الذى ينبىء عنه اللام الموطئة وساد مسد جزاء الشرط ولولاها لكان جوابا له بغير جزم لكون الشرط ماضياً كما فى قول زهير :

وإن أتاه خليل يوم مسألة يقول لا غائب مالى ولا حرض

وحيث كان المراد بالاجتماع على الإتيان بمثل القرآن مطلق الاتفاق على ذلك سواء كان التصدى للمعارضة من كل واحد منهم على الانفراد أو من المجموع بأن يتألبوا على تلفيق كلام واحد بتلاحق الأفكار وتعاضد الأنظار قيل ﴿ ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ﴾ أى فى تحقيق ما يتوخونه من الإتيان بمثله وهو عطف على مقدر أى لا يأتون بمثله لو لم يكن بعضهم ظهيرا لبعض ولو كان الخ وقد حذف المعطوف عليه حذفا مطردا لدلالة المعطوف عليه دلالة واضحة فإن الإتيان بمثله حيث انتفى عند التظاهر فلأن ينتفى عند عدمه أولى وعلى هذه النكتة يدور ما فى إن ولو الوصليتين من التأكيد كما مر غير مرة ومحله النصب على الحالية حسبما عطف عليه أى لا يأتون بمثله على كل حال مفروض ولو فى هذه الحال المنافية لعدم الإتيان به فضلا عن غيرها وفيه حسم لأطماعهم الفارغة فى روم تبديل بعض آياته ببعض ولا مساغ لكون الآية تقريرا لما قبلها من قوله تعالى (ثم لا تجد لك به علينا وكيلا) كما قيل لكن لا لما قيل من أن الإتيان بمثله أصعب من استرداد عينه ونفى الشىء إنما يقرره نفى ما دونه لا نفى ما فوقه فإن أصعبية الاسترداد بغير أمره تعالى من الإتيان بمثله مما لا شبهة فيه بل لأن الجملة القسمية ليست مسوقة إلى النبى صلى الله عليه وسلم بل إلى المكابرين من قبله عليه السلام ﴿ ولقد صرفنا ﴾ كررنا ورددنا على أنحاء مختلفة توجب زيادة تقرير وبيان ووكادة رسوخ واطمئنان ﴿ للناس فى هذا القرآن ﴾ المنعوت بما ذكر من

النعوت الفاضلة ﴿من كل مثل﴾ من كل معنى بديع هو الحسن والغرابة واستجلاب النفس كالمثل ليتلقوه بالقبول ﴿فأبى أكثر الناس﴾ أوثر الإظهار على الإضمار تأكيداً وتوضيحا ﴿إلا كفورا﴾ أى إلا جحودا وإنما صح الاستثناء من الموجب مع أنه لا يصح ضربت إلا زيدا لأنه متأول بالنفى كأنه قيل ما قبل أكثرهم إلا كفورا وفيه من المبالغة ما ليس فى أبوا الإيمان لأن فيه دلالة على أنهم لم يرضوا بخصلة سوى الكفور من الإيمان والتوقف فى الأمر ونحو ذلك وأنهم بالغوا فى عدم الرضا حتى بلغوا مرتبة الإباء .

﴿وقالوا﴾ عند ظهور عجزهم ووضوح مغلوبيتهم بالإعجاز التنزيلى وغيره من المعجزات الباهرة متعللين بما لا يمكن فى العادة وجوده ولا تقتضى الحكمة وقوعه من الأمور كما هو ديدن المبهوت المحجوج ﴿لن نؤمن لك حتى تفجر﴾ وقرىء بالتشديد ﴿لنا من الأرض﴾ أرض مكة ﴿ينبوعا﴾ عينا لا ينضب ماؤها يفعول من نبع الماء كيعبوب من عب الماء إذا زخر ﴿أو تكون لك جنة﴾ أى بستان تستر أشجاره ما تحتها من العرصة ﴿من نخيل وعنب فتفجر الأنهار﴾ أى تجريها بقوة ﴿خلالها تفجيرا﴾ كثيرا والمراد إما إجراء الأنهار خلالها عند سقيها أو إدامة إجرائها كما ينبىء عنه الفاء لا ابتداؤه ﴿أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا﴾ جمع كسفة كقطعة وقطع لفظا ومعنى وقرىء بالسكون كسدرة وسدر وهى حال من السماء والكاف فى كما فى محل النصب على أنه صفة مصدر محذوف أى إسقاطا مماثلا لما زعمت يعنون بذلك قوله تعالى (أو تسقط عليهم كسفا من السماء) .

﴿أو تأتى بالله والملائكة قبيلا﴾ أى مقابلا كالعشير والمعاشر أو كفيلا يشهد بصحة ما تدعيه وهو حال من الجلالة وحال الملائكة محذوفة لدلالتها عليها أى والملائكة قبلاء كما حذف الخبر فى قوله :

* فإنى وقيار بها لغريب *

أو جماعة فيكون حالا من الملائكة ﴿أو يكون لك بيت من زخرف﴾

من ذهب وقد قرىء به وأصله الزينة ﴿ أو ترقى فى السماء ﴾ أى فى معارجها فحذف المضاف يقال رقى فى السلم وفى الدرجة ﴿ ولن نؤمن لرقيك ﴾ أى لأجل رقيك فيها وحده أو لن نصدق رقيك فيها ﴿ حتى تنزل ﴾ منها ﴿ علينا كتابا ﴾ فيه تصديقك ﴿ نقرؤه ﴾ نحن من غير أن يتلقى من قبلك عن ابن عباس رضى الله عنهما قال عبد الله بن أمية لن نؤمن لك حتى تتخذ إلى السماء سلما ثم ترقى فيه وأنا أنظر حتى تأتيها وتأتى معك بصك منشور معه أربعة من الملائكة يشهدون أنك كما تقول وما كانوا يقصدون بهاتيك الاقتراحات الباطلة إلا العناد واللجاج ولو أنهم أوتوا أضعاف مااقترحوا من الآيات مازادهم ذلك إلا مكابرة وإلا فقد كان يكفيهم بعض ما شاهدوا من المعجزات التى تخر لها صم الجبال .

﴿ قل ﴾ تعجبا من شدة شكيمتهم وتنزيها لساحة السبحات عما لا يكاد يليق بها من مثل هذه الاقتراحات الشنيعة التى تكاد السموات يتفطرن منها أو عن طلبك ذلك وتنبيها على بطلان ما قالوه ﴿ سبحان ربى ﴾ وقرىء قال سبحان ربى ﴿ هل كنت إلا بشرا ﴾ لا ملكا حتى يتصور منى الرقى فى السماء ونحوه ﴿ رسولا ﴾ مأمورا من قبل ربى بتبليغ الرسالة من غير أن يكون لى خيرة فى الأمر كسائر الرسل وكانوا لا يأتون قومهم إلا بما يظهره الله على أيديهم حسبما يلائم حال قومهم ولم يكن أمر الآيات إليهم ولا لهم أن يتحكموا على الله سبحانه بشىء منها وقوله بشرا خبر لكنت ورسولا صفته .

عوائق الإيمان وعواقبها

﴿ وما منع الناس ﴾ أى الذين حكيت أباطيلهم ﴿ أن يؤمنوا ﴾ مفعول ثان لمنع وقوله ﴿ إذ جاءهم الهدى ﴾ أى الوحى ظرف لمنع أو يؤمنوا أى وما منعهم وقت مجىء الوحى المقرون بالمعجزات المستدعية للإيمان أن يؤمنوا بالقرآن وبنبوتك أو ما منعهم أن يؤمنوا بذلك وقت مجىء ما ذكر ﴿ إلا أن قالوا ﴾ فى محل الرفع على أنه فاعل منع أى إلا قولهم ﴿ أبعث الله بشرا رسولا ﴾ منكرين أن يكون رسول الله تعالى من جنس البشر وليس المراد أن هذا

القول صدر عن بعضهم فنع بعضا آخر منهم بل المانع هو الاعتقاد الشامل للكل المستتبع لهذا القول منهم وإنما عبر عنه بالقول إيذانا بأنه مجرد قول يقولونه بأفواههم من غير أن يكون له مفهوم ومصداق وحصر المانع من الإيمان فيما ذكر مع أن لهم موانع شتى لما أنه معظمها أو لأنه هو المانع بحسب الحال أعنى عند سماع الجواب بقوله تعالى (هل كنت إلا بشرا رسولا) إذ هو الذى يتشبثون به حينئذ من غير أن يخرم ببالهم شبهة أخرى من شبههم الواهية وفيه إيذان بكمال عنادهم حيث يشير إلى أن الجواب المذكور مع كونه حاسما لمواد شبههم ملجئا إلى الإيمان يعكسون الأمر ويجعلونه ما نعا منه .

﴿ قل ﴾ لهم أولا من قبلنا تبيينا للحكمة وتحقيقا للحق المزيح للريب ﴿ لو كان ﴾ أى لو وجد واستقر ﴿ فى الأرض ﴾ بدل البشر ﴿ ملائكة يمشون مطمئنين ﴾ قارين فيها من غير أن يعرجوا فى السماء ويعلموا ما يجب أن يعلم ﴿ لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا ﴾ يهديهم إلى الحق ويرشدهم إلى الخير لتمكنهم من الاجتماع والتلقى منه وأما عامة البشر فهم بمعزل من استحقاق المفاوضة الملكية فكيف لا وهى منوطة بالتناسب والتجانس فبعث الملك إليهم مزاحم للحكمة التى عليها مبنى التكوين والتشريع وإنما يبعث الملك من بينهم إلى الخواص المختصين بالنفوس الزكية المؤيدين بالقوة القدسية المتعلقين بكلا العالمين الروحانى والجسمانى ليتلقوا من جانب ويلقوا إلى جانب وقوله تعالى ملكا يحتمل أن يكون حالا من رسولا وأن يكون موصوفا به وكذلك بشرا فى قوله تعالى (أبعث الله بشرا رسولا) والأول أولى .

﴿ قل ﴾ لهم ثانيا من جهتك بعد ما قلت لهم من قبلنا ما قلت وبينت لهم ما تقتضيه الحكمة فى البعثة ولم يرفعوا إليه رأسا ﴿ كفى بالله ﴾ وحده ﴿ شهيدا ﴾ على أنى أديت ما على من مواجب الرسالة أكمل أداء وأنكم فعلتم ما فعلتم من التكذيب والعناد وتوجيه الشهادة إلى كونه عليه السلام رسولا بإظهار المعجزة على وفق دعواه كما اختير لا يساعده قوله تعالى ﴿ بينى وبينكم ﴾ وما بعده من التعليل وإنما لم يقل بيننا تحقيقا للمفارقة وإبانة للمباينة وشهيدا إما حال أو تمييز

﴿ إنه كان بعباده ﴾ من الرسل والمرسل إليهم ﴿خبيرا بصيرا﴾ محيطا بظواهر أحوالهم وبواطنها فيجازيهم على ذلك وهو تعليل للكفاية وفيه تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وتهديد للكفار ﴿ ومن يهد الله ﴾ كلام مبتدأ يفصل ما أشار إليه الكلام السابق من مجازاة العباد إشارة إجمالية أى من يهده الله إلى الحق بما جاء من قبله من الهدى ﴿ فهو المهتد ﴾ إليه وإلى ما يؤدى إليه من الثواب أو المهتد إلى كل مطلوب ﴿ ومن يضلل ﴾ أى يخلق فيه الضلال بسوء اختياره كهؤلاء المعاندين ﴿ فلن تجد لهم ﴾ أوثر ضمير الجماعة اعتبارا لمعنى من غب ما أوثر فى مقابله الإفراد نظرا إلى لفظها تلويحا بوحدة[1] طريق الحق وقلة سالكيه وتعدد سبل الضلال وكثرة الضلال ﴿ أولياء من دونه ﴾ من دون الله تعالى أى أنصارا يهدونهم إلى طريق الحق أو إلى طريق يوصلهم إلى مطالبهم الدنيوية والأخروية أو إلى طريق النجاة من العذاب الذى يستدعيه ضلالهم على معنى لن تجد لأحد منهم وليا على ما تقتضيه قضية مقابلة الجمع بالجمع من انقسام الآحاد إلى الآحاد .

﴿ ونحشرهم ﴾ التفات من الغيبة إلى التكلم إيذانا بكمال الاعتناء بأمر الحشر ﴿ يوم القيامة ﴾ على وجوههم أو مشيا فقد روى أنه قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم كيف يمشون على وجوههم قال إن الذى أمشاهم على أقدامهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم ﴿ عميا ﴾ حال من الضمير المجرور فى الحال السابقة ﴿ وبكما وصما ﴾ لا يبصرون ما يقر أعينهم ولا ينطقون ما يقبل منهم ولا يسمعون ما يلذ مسامعهم لما قد كانوا فى الدنيا لا يستبصرون بالآيات والعبر ولا ينطقون بالحق ولا يستمعونه ويجوز أن يحشروا بعد الحساب من الموقف إلى النار موفى القوى والحواس وأن يحشروا كذلك ثم يعاد إليهم قواهم وحواسهم فإن إحدى كاتهم بهذه المشاعر فى بعض المواطن مما لا ريب فيه ﴿ مأواهم جهنم ﴾

(١) فى ١٠ : تلميحا إلى وحدة .

إما حال واستئناف وكذا قوله تعالى : ﴿ كلما خبت زدناهم سعيرا ﴾ أى كلما سكن لهبها بأن أكلت جلودهم ولحومهم ولم يبق فيهم ما تتعلق به النار وتحرقه زدناهم توقدا بأن بدلناهم جلودا غيرها فعادت ملتهبة ومستعرة ولعل ذلك عقوبة لهم على إنكارهم الإعادة بعد الفناء بتكريرها مرة بعد أخرى ليروها عيانا حيث لم يعلموها برهانا كما يفصح عنه قوله تعالى :

﴿ ذلك ﴾ أى ذلك العذاب ﴿ جزاؤهم بأنهم ﴾ أى بسبب أنهم ﴿ كفروا بآياتنا ﴾ العقلية والنقلية الدالة على صحة الإعادة دلالة واضحة فذلك مبتدأ وجزاؤهم خبره ويجوز أن يكون مبتدأ ثانيا وبأنهم خبره والجملة خبرا لذلك وأن يكون جزاؤهم بدلا من ذلك أو بيانا له والخبر هو الظرف ﴿ وقالوا ﴾ منكرين أشد الإنكار ﴿ أئذا كنا عظاما ورفاتا أئنا لمبعوثون خلقا جديدا ﴾ إما مصدر مؤكد من غير لفظه أى لمبعوثون بعثا جديدا وإما حال أى مخلوقين مستأنفين ﴿ أو لم يروا ﴾ أى ألم يتفكروا ولم يعلموا ﴿ أن الله الذى خلق السموات والأرض ﴾ من غير مادة مع عظمهما ﴿ قادر على أن يخلق مثلهم ﴾ فى الصغر على أن المثل مقحم والمراد بالخلق الإعادة كما عبر عنها بذلك حيث قيل خلقا جديدا ﴿ وجعل لهم أجلا لا ريب فيه ﴾ عطف على أولم يروا فإنه فى قوة قد رأوا والمعنى قد علموا أن من قدر على خلق السموات والأرض فهو قادر على خلق أمثالهم من الإنس وجعل لهم ولبعثهم أجلا محققا لا ريب فيه هو يوم القيامة ﴿ فأبى الظالمون ﴾ وضع موضع الضمير تسجيلا عليهم بالظلم وتجاوز الحد بالمرة ﴿ إلا كفورا ﴾ أى جحودا ﴿ قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربى ﴾ خزائن رزقه التى أفاضها على كافة الموجودات وأنتم مرتفع بفعل يفسره المذكور كقول حاتم لوذات سوار لطمتنى وفائدة ذلك المبالغة والدلالة على الاختصاص .

﴿ إذن لأمسكتم ﴾ لبخلتم ﴿ خشية الإنفاق ﴾ إذ ليس فى الدنيا أحد إلا وهو يختار النفع لنفسه ولو آثر غيره بشىء فإنما يؤثره لعوض يفوقه فإذن

هو بخيل بالإضافة إلى جود الله سبحانه ﴿ وكان الإنسان قتورا ﴾ مبالغا فى البخل لأن مبنى أمره على الحاجة والضنة بما يحتاج إليه وملاحظة العوض بما يبذله ﴿ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات ﴾ واضحات الدلالة على نبوته وصحة ما جاء به من عند الله وهى العصا واليد والجراد والقمل والضفادع والدم والطوفان والسنون ونقص الثمرات وقيل انفجار الماء من الحجر ونتق الطور على بنى إسرائيل وانفلاق البحر بدل الثلاث الأخيرة ، ويأباه أن هذه الثلاث لم تكن منزلة إذ ذاك وأن الأولين لا تعلق لهما بفرعون وإنما أوتيهما بنو إسرائيل وعن صفوان بن عسال أن يهوديا سأل النبى عليه الصلاة والسلام عنها فقال : « ألا تشركوا به شيئاً ولا تسرقوا ولا تزنوا ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق ولا تسحروا ولا تأكلوا الربا ولا تمشوا ببرىء إلى ذى سلطان ليقتله ولا تقذفوا محصنة ولا تفروا من الزحف ، وعليكم خاصة اليهود أن لا تعدوا فى السبت » فقبل اليهودى يده ورجله[1] عليه السلام ولا يساعده أيضاً ما ذكر ولعل جوابه عليه السلام بذلك لما أنه المهم للسائل وقبوله لما أنه كان فى التوراة مسطورا وقد علم أنه ما علمه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا من جهة الوحى .

﴿ فاسأل بنى إسرائيل ﴾ وقرىء فسل أى فقلنا له سلهم من فرعون وقل له أرسل معى بنى إسرائيل أو سلهم عن إيمانهم أو عن حال دينهم أو سلهم أن يعاضدوك ويؤيده قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم على صيغة الماضى وقيل الخطاب للنبى عليه الصلاة والسلام أى فاسألهم عن تلك الآيات لتزداد يقينا وطمأنينة أو ليظهر صدقك ﴿ إذ جاءهم ﴾ متعلق بقلنا وبسأل على القراءة المذكورة وبآتينا أو بمضمر هو يخبروك أو اذكر على تقدير كون الخطاب للرسول عليه الصلاة والسلام ﴿ فقال له فرعون ﴾ الفاء فصيحة أى فأظهر

---

(١) فى ١٠ : ورجليه

عند فرعون ما آتيناه من الآيات البينات وبلغه ما أرسل به فقال له فرعون ﴿ إنى لأظنك ياموسى مسحورا ﴾ سحرت فتخبط عقلك .

﴿ قال لقد علمت ما أنزل هؤلاء ﴾ يعنى الآيات التى أظهرها ﴿ إلا رب السموات والأرض ﴾ خالقهما ومدبرهما والتعرض لربوبيته تعالى لهما للإيذان بأنه لايقدر على إيتاء مثل هاتيك الآيات العظام إلا خالقهما ومدبرهما ﴿ بصائر ﴾ حال من الآيات أى بينات مكشوفات تبصرك صدقى ولكنك تعاند وتكابر نحو وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ومن ضرورة ذلك العلم العلم بأنه عليه الصلاة والسلام على كمال رصانة العقل فضلا عن توهم المسحورية وقرىء علمت على صيغة التكلم أى لقد علمت بيقين أن هذه الآيات الباهرة أنزلها الله عز سلطانه فكيف يتوهم أن يحوم حولى سحر ﴿ وإنى لأظنك يا فرعون مثبورا ﴾ مصروفا عن الخير مطبوعا على الشر من قولهم ماثبرك عن هذا أى ما صرفك أو هالكا ولقد قارع عليه السلام ظنه بظنه وشتان بينهما كيف لا وظن فرعون إفك مبين وظنه عليه الصلاة والسلام يتاخم اليقين .

﴿ فأراد ﴾ أى فرعون ﴿ أن يستفزهم ﴾ أى يستخفهم ويزعجهم ﴿ من الأرض ﴾ أرض مصر أو من الأرض مطلقا بالقتل كقوله سنقتل أبناءهم ونستحيي نساءهم ﴿ فأغرقناه ومن معه جميعا ﴾ فعكسنا عليه مكره واستفززناه وقومه بالإغراق ﴿ وقلنا من بعده ﴾ من بعد إغراقهم ﴿ لبنى إسرائيل اسكنوا الأرض ﴾ التى أراد أن يستفزكم منها ﴿ فإذا جاء وعد الآخرة ﴾ الكرة الآخرة أو الحياة أو الساعة والدار الآخرة أى قيام القيامة ﴿ جئنا بكم لفيفا ﴾ مختلطين إياكم وإياهم ثم نحكم بينكم ونميز سعداءكم من أشقيائكم واللفيف الجماعات من قبائل شتى .

القرآن حق

﴿ وبالحق أنزلناه وبالحق نزل ﴾ أى وما أنزلنا القرآن إلا ملتبسا بالحق المقتضى لإنزاله وما نزل إلا ملتبسا بالحق الذى اشتمل عليه أو ما أنزلناه من السماء إلا محفوظا وما نزل على الرسول إلا محفوظا من تخليط الشياطين ولعل المراد بيان عدم اعتراء البطلان له أول الأمر وآخره ﴿ وما أرسلناك إلا مبشرا ﴾ للمطيع بالثواب ﴿ ونذيرا ﴾ للعاصى من العقاب وهو تحقيق لحقية بعثته عليه الصلاة والسلام إثر تحقيق حقية إنزال القرآن ﴿ وقرآنا ﴾ منصوب بمضمر يفسره قوله تعالى ﴿ فرقناه ﴾ وقرىء بالتشديد دلالة على كثرة نجومه ﴿ لتقرأه على الناس على مكث ﴾ على مهل وتثبت فإنه أيسر للحفظ وأعون على الفهم وقرىء بالفتح وهو لغة فيه ﴿ ونزلناه تنزيلا ﴾ حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة ويقع من الحوادث والواقعات .

﴿ قل ﴾ للذين كفروا ﴿ آمنوا به أو لا تؤمنوا ﴾ فإن إيمانكم به لا يزيده كمالا وامتناعكم لا يورثه نقصا ﴿ إن الذين أوتوا العلم من قبله ﴾ أى العلماء الذين قرأوا الكتب السالفة من قبل تنزيله وعرفوا حقيقة الوحى وأمارات النبوة وتمكنوا من التمييز بين الحق والباطل والمحق والمبطل ورأوا فيها نعتك ونعت ما أنزل إليك ﴿ إذا يتلى ﴾ أى القرآن ﴿ عليهم يخرون للأذقان ﴾ أى يسقطون على وجوههم ﴿ سجدا ﴾ تعظيما لأمر الله تعالى أو شكراً لإنجاز ما وعد به فى تلك الكتب من بعثتك وتخصيص الأذقان بالذكر للدلالة على كمال التذلل إذ حينئذ يتحقق الخرور عليها وإيثار اللام للدلالة على اختصاص الخرور بها كما فى قوله :

* فخر صريعا لليدين وللفم *

وهو تعليل لما يفهم من قوله تعالى (آمنوا به أو لا تؤمنوا) من عدم المبالاة بذلك أى إن لم تؤمنوا به فقد آمن به أحسن إيمان من هو خير منكم ويجوز أن يكون تعليلا لقل على سبيل التسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم كأنه قيل

تسل بإيمان العلماء عن إيمان الجهلة ولا تكترث بإيمانهم وإعراضهم ﴿ ويقولون ﴾ فى سجودهم ﴿ سبحان ربنا ﴾ عما يفعل الكفرة من التكذيب أو عن خلف وعده ﴿ إن كان وعد ربنا لمفعولا ﴾ أن مخففة من المثقلة واللام فارقة أى إن الشأن هذا .

﴿ ويخرون للأذقان يبكون ﴾ كرر الخرور للإذقان لاختلاف السبب فإن الأول لتعظيم أمر الله تعالى أو الشكر لإنجاز الوعد والثانى لما أثر فيهم من مواعظ القرآن حال كونهم باكين من خشية الله ﴿ ويزيدهم ﴾ أى القرآن بسماعهم ﴿ خشوعا ﴾ كما يزيدهم علما ويقينا بالله تعالى ﴿ قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن ﴾ نزل حين سمع المشركون رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يا ألله يارحمن فقالوا إنه ينهانا عن عبادة إلهين وهو يدعو إلها آخر وقالت اليهود إنك لتقل ذكر الرحمن وقد أكثره الله تعالى فى التوراة والمراد على الأول هو التسوية بين اللفظين بأنهما عبارتان عن ذات واحدة وإن اختلف الاعتبار والتوحيد إنما هو للذات الذى هو المعبود وعلى الثانى أنهما سيان فى حسن الإطلاق والإفضاء إلى المقصود وهو أوفق لقوله تعالى : ﴿ أياً ما تدعوا فله الأسماء الحسنى ﴾ والدعاء بمعنى التسمية وهو يتعدى إلى مفعولين حذف أولهما استغناء عنه وأو للتخيير والتنوين فى أياً عوض عن المضاف إليه وما مزيدة لتأكيد ما فى أى من الإبهام والضمير فى له للمسمى لأن التسمية له لا للاسم وكان أصل الكلام أياما تدعوا فهو حسن فوضع موضعه فله الأسماء الحسنى للمبالغة والدلالة على ما هو الدليل عليه إذ حسن جميع أسمائه يستدعى حسن ذينك الاسمين وكونها حسنى لدلالتها على صفات الكمال من الجلال والجمال والإكرام .

﴿ ولا تجهر بصلاتك ﴾ أى بقراءة صلاتك بحيث تسمع المشركين فإن ذلك يحملهم على السب واللغو فيها ﴿ ولا تخافت بها ﴾ أى بقراءتها بحيث لا تسمع من خلفك من المؤمنين ﴿ وابتغ بين ذلك ﴾ أى بين الجهر والمخافتة

على الوجه المذكور ﴿ سبيلا ﴾ أمرا وسطا قصدا فإن خير الأمور أوساطها والتعبير عن ذلك بالسبيل باعتبار أنه أمر يتوجه إليه المتوجهون ويؤمه المقتدون ويوصلهم إلى المطلوب وروى أن أبا بكر رضى الله تعالى عنه كان يخفت ويقول أناجى ربى وقد علم حاجتى وعمر رضى الله عنه كان يجهر بها ويقول أطرد الشيطان وأوقظ الوسنان فلما نزلت أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر أن يرفع قليلا وعمر أن يخفض قليلا وقيل المعنى لا تجهر بصلاتك كلها ولا تخافت بها بأسرها وابتغ بين ذلك سبيلا بالمخافتة نهارا والجهر ليلا وقيل بصلاتك بدعائك وذهب قوم إلى أنها منسوخة بقوله تعالى ادعوا ربكم تضرعا وخفية .

﴿ وقل الحمد لله الذى لم يتخذ ولدا ﴾ كما يزعم اليهود والنصارى وبنو مليح حيث قالوا عزير ابن الله والمسيح ابن الله والملائكة بنات الله تعالى عن ذلك علوا كبيرا ﴿ ولم يكن له شريك فى الملك ﴾ أى الألوهية كما يقوله الثنوية القائلون بتعدد الآلهة ﴿ولم يكن له ولى من الذل﴾ ناصر ومانع منه لاعتزازه[1] أو لم يوال أحدا من أجل مذلة ليدفعها به وفى التعرض فى أثناء الحمد لهذه الصفات الجليلة إيذان بأن المستحق للحمد من هذه نعوته دون غيره إذ بذلك يتم الكمال والقدرة التامة على الإيجاد وما يتفرع عليه من إفاضة أنواع النعم وما عداه ناقص مملوك نعمة أو منعم عليه ولذلك عطف عليه قوله تعالى : ﴿ وكبره تكبيرا ﴾ وفيه تنبيه على أن العبد وإن بالغ فى التنزيه والتمجيد واجتهد فى الطاعة والتحميد ينبغى أن يعترف بالقصور فى ذلك . روى أنه صلى الله عليه وسلم كان إذا أفصح الغلام من بنى عبد المطلب علمه هذه الآية الكريمة . وعنه عليه الصلاة والسلام من قرأ سورة بنى إسرائيل فرق قلبه عند ذكر الوالدين كان له قنطار فى الجنة والقنطار ألف أوقية ومائتا أوقيه والحمد لله سبحانه وله الكبرياء والعظمة والجبروت .

---

(١) فى ١٠ : يعتز به .

﴿ سورة الكهف ﴾

مكية وقيل إلا قوله تعالى : (واصبر نفسك) الآية
وهى مائة وإحدى عشرة آية

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

﴿ الحمد لله الذى أنزل على عبده ﴾ محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ الكتاب ﴾ أى الكتاب الكامل الغنى عن الوصف بالكمال المعروف بذلك من بين الكتب الحقيق باختصاص اسم الكتاب به وهو عبارة عن جميع القرآن أو عن جميع المنزل حينئذ كما مر مرارا وفى وصفه تعالى بالموصول إشعار بعلية ما فى حيز الصلة لاستحقاق الحمد وإيذان بعظم شأن التنزيل الجليل كيف لا وعليه يدور فلك سعادة الدارين وفى التعبير عن الرسول عليه الصلاة والسلام بالعبد مضافا إلى ضمير الجلالة تنبيه على بلوغه عليه الصلاة والسلام إلى أعلى معارج العبادة وتشريف وإشعار بأن شأن الرسول أن يكون عبدللمرسل لا كما زعمت النصارى فى حق عيسى عليه السلام وتأخير المفعول الصريح عن الجار والمجرور مع أن حقه التقديم عليه ليتصل به قوله تعالى : ﴿ ولم يجعل له عوجا ﴾ أى شيئاً من العوج بنوع اختلال فى النظم وتناف فى المعنى أو انحراف عن الدعوة إلى الحق وهو فى المعانى كالعوج فى الأعيان وأما قوله تعالى (لاترى فيها عوجا ولا أمتا) مع كون الجبال من الأعيان فللدلالة على انتفاء مالا يدرك من العوج بحاسة البصر بل إنما يوقف عليه بالبصيرة بواسطة استعمال المقاييس الهندسية ولما كان ذلك مما لا يشعر به بالمشاعر الظاهرة عد من قبيل ما فى المعانى وقيل الفتح فى اعوجاج المنتصب كالعود والحائط والكسر فى اعوجاج غيره عينا كان أو معنى .

﴿ قيما ﴾ بالمصالح الدينية والدنيوية للعباد على ما ينبىء عنه ما بعده من الإنذار والتبشير فيكون وصفا له بالتكميل بعد وصفه بالكمال أو على ما قبله

من الكتب السماوية شاهدا بصحتها ومهيمنا عليها أو متناهيا فى الاستقامة فيكون تأكيدا لما دل عليه نفى العوج مع إفادة كون ذلك من صفاته الذاتية اللازمة له حسبما تنبىء عنه الصيغة لا أنه نفى عنه العوج مع كونه من شأنه وانتصابه على تقدير كون الجملة المتقدمة معطوفة على الصلة بمضمر ينبىء عنه نفى العوج تقديره جعله قيما وأما على تقدير كونها حالية فهو على الحالية من الكتاب إذ لا فصل حينئذ بين أبعاض المعطوف عليه بالمعطوف وقرىء قيما ﴿لينذر﴾ متعلق بأنزل والفاعل ضمير الجلالة كما فى الفعلين المعطوفين عليه والإطلاق عن ذكر المفعول الأول للإيذان بأن ما سيق له الكلام هو المفعول الثانى وأن الأول ظاهر لا حاجة إلى ذكره أى أنزل الكتاب لينذر بما فيه الذين كفروا به ﴿ بأسا ﴾ أى عذابا ﴿ شديدا من لدنه ﴾ أى صادرا من عنده نازلا من قبله بمقابلة كفرهم وتكذيبهم وقرىء من لدنه بسكون الدال مع إشمام الضمة وكسر النون لالتقاء الساكنين وكسر الهاء للإتباع ﴿ ويبشر ﴾ بالتشديد وقرىء بالتخفيف ﴿ المؤمنين ﴾ أى المصدقين به ﴿ الذين يعملون الصالحات ﴾ الأعمال الصالحة التى بينت فى تضاعيفه وإيثار صيغة الاستقبال فى الصلة للإشعار بتجدد الأعمال الصالحة واستمرارها وإجراء الموصول على موصوفه المذكور لما أن مدار قبول الأعمال هو الإيمان ﴿ أن لهم ﴾ أى بأن لهم بمقابلة إيمانهم وأعمالهم المذكورة ﴿ أجرا حسنا ﴾ هو الجنة وما فيها من المثوبات الحسنى .

﴿ ماكثين ﴾ حال من الضمير المجرور فى لهم ﴿ فيه ﴾ أى فى ذلك الأجر ﴿ أبدا ﴾ من غير انتهاء أى خالدين فيه وهو نصب على الظرفية لماكثين ، وتقديم الإنذار على التبشير لإظهار [كمال](1) العناية بزجر الكفار عما هم عليه مع مراعاة تقديم التخلية على التحلية وتكرير الإنذار بقوله تعالى : ﴿ وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولدا ﴾ متعلقا بفرقة خاصة ممن عمه الإنذار

(1) سقطت من ط

السابق من مستحق البأس الشديد للإيذان[1] بكمال فظاعة حالهم لغاية شناعة كفرهم وضلالهم أى وينذر من بين سائر الكفرة هؤلاء المتفوهين بمثل هاتيك العظيمة خاصة وهم كفار العرب الذين يقولون الملائكة بنات الله تعالى واليهود القائلون عزير ابن الله والنصارى القائلون المسيح ابن الله ، وترك إجراء الموصول على الموصوف كما فعل فى قوله تعالى (ويبشر المؤمنين) للإيذان بكفاية ما فى حيز الصلة فى الكفر على أقبح الوجوه ، وإيثار صيغة الماضى فى الصلة للدلالة على تحقق صدور تلك الكلمة القبيحة عنهم فيما سبق وجعل المفعول المحذوف فيما سلف عبارة عن هذه الطائفة يؤدى إلى خروج سائر أصناف الكفرة عن الإنذار والوعيد وتعميم الإنذار هناك للمؤمنين أيضا بحمله على معنى مجرد الإخبار بالخبر الضار من غير اعتبار حلول المنذر به على المنذر كما فى قوله تعالى (أن أنذر الناس وبشر الذين آمنوا) يفضى إلى خلو النظم الكريم عن الدلالة على حلول البأس الشديد على من عدا هذه الفرقة ويجوز أن يكون الفاعل فى الأفعال الثلاثة ضمير الكتاب أو ضمير الرسول عليه الصلاة والسلام .

﴿ ما لهم به ﴾ أى باتخاذه سبحانه وتعالى ولدا ﴿ من علم ﴾ مرفوع على الابتداء أو الفاعلية لاعتماد الظرف ومن مزيدة لتأكيد النفى والجملة حالية أو مستأنفة لبيان حالهم فى مقالهم أى ما لهم بذلك شىء من علم أصلا لا لإخلالهم بطريقه مع تحقيق المعلو أو إمكانه بل لاستحالته فى نفسه ﴿ ولا لآبائهم ﴾ الذين قلدوهم فتاهوا جميعاً فى تيه الجهالة والضلالة أو ما لهم علم بما قالوه أهو صواب أم خطأ بل إنما قالوه رميا عن عمى وجهالة من غير فكر وروية كما فى قوله تعالى (وخرقوا له بنين وبنات بغير علم) أو بحقيقة ما قالوه وبعظم رتبته فى الشناعة كما فى قوله تعالى (وقالوا اتخذ الرحمن ولدا لقد جئتم شيئاً إدا تكاد السموات يتفطرن منه) الآيات وهو الأنسب بقوله تعالى :

---

(١) فى ١٠ أ : للاشعار .

﴿ كبرت كلمة ﴾ أى عظمت مقالتهم هذه فى الكفر والافتراء لما فيها من نسبته سبحانه إلى ما لا يكاد يليق بجناب كبريائه والفاعل فى كبرت إما ضمير المقالة المدلول عليها بقالوا وكلمة نصب على التمييز أو ضمير مبهم مفسر بما بعده من النكرة المنصوبة تمييزا كبئس رجلا والمخصوص بالذم محذوف تقديره كبرت هى كلمة خارجة من أفواههم وقرىء كبرت بإسكان الباء مع إشمام الضم وقرىء كلمة بالرفع ﴿ تخرج من أفواههم ﴾ صفة للكلمة مفيدة لاستعظام اجترائهم على التفوه بها وإسناد الخروج إليها مع أن الخارج هو الهواء المتكيف بكيفية الصوت الملابسة بها ﴿ إن يقولون ﴾ مايقولون فى ذلك الشأن ﴿ إلا كذبا ﴾ أى إلا قولا كذبا لا يكاد يدخل تحت إمكان الصدق أصلا ، والضميران لهم ولآبائهم مثل حاله عليه الصلاة والسلام فى شدة الوجد على إعراض القوم وتوليهم عن الإيمان بالقرآن وكمال التحسر عليهم بحال من يتوقع منه إهلاك نفسه إثر فوات مايحبه عند مفارقة أحبته تأسفا على مفارقتهم وتلهفا على مهاجرتهم فقيل على طريقة التمثيل حملا له عليه الصلاة والسلام على الحذر والإشفاق من ذلك .

﴿ فلعلك باخع ﴾ أى مهلك ﴿ نفسك على آثارهم ﴾ غما ووجدا على فراقهم وقرىء بالإضافة ﴿ إن لم يؤمنوا بهذا الحديث ﴾ أى القرآن الذى عبر عنه فى صدر السورة بالكتاب وجواب الشرط محذوف ثقة بدلالة ما سبق عليه وقرىء بأن المفتوحة أى لأن لم يؤمنوا فإعمال باخع بحمله على حكاية حال ماضية لاستحضار الصورة كما فى قوله عز وجل (باسط ذراعيه) ﴿ أسفا ﴾ مفعول له لباخع أى لفرط الحزن والغضب أو حال مما فيه الضمير أى متأسفا عليهم ويجوز حمل النظم الكريم على الاستعارة التبعية بجعل التشبيه بين أجزاء الطرفين لا بين الهيئتين المنتزعتين منهما كما فى التمثيل ، وقد مر تحقيقه فى تفسير قوله تعالى (ختم الله على قلوبهم) .

﴿ إنا جعلنا ما على الأرض ﴾ استئناف وتعليل لما فى لعل من معنى الإشفاق أى إنا جعلنا ما عليها مما عدا من وجه إليه التكليف من الزخارف حيوانا

كان أو نباتا أو معدنا كقوله تعالى (هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعاً) ﴿ زينة ﴾ مفعول ثان للجعل[1] إن حمل على معنى التصيير أو حال إن حمل على معنى الإبداع واللام فى ﴿ لها ﴾ إما متعلقة بزينة أو بمحذوف هو صفة لها أى كائنة لها أى ليتمتع بها الناظرون من المكلفين وينتفعوا بها نظراً واستدلالا فإن الحيات والعقارب من حيث تذكيرهما لعذاب الآخرة من قبيل المنافع بل كل حادث داخل تحت الزينة من حيث دلالته على وجود الصانع ووحدته فإن الأزواج والأولاد أيضا من زينة الحياة الدنيا بل أعظمها ولا يمنع ذلك كونهم من جملة المكلفين فإنهم من جهة انتسابهم إلى أصحابهم داخلون تحت الزينة ومن جهة كونهم مكلفين داخلون تحت الابتلاء .

﴿ لنبلوهم ﴾ متعلق بجعلنا أى جعلنا ما جعلنا لنعاملهم معاملة من يختبرهم ﴿ أيهم أحسن عملا ﴾ فنجازيهم بالثواب والعقاب حسبما تبين المحسن من المسيء وامتازت طبقات أفراد كل من الفريقين حسب امتياز مراتب علومهم المرتبة على أنظارهم وتفاوت درجات أعمالهم المتفرعة على ذلك كما قررناه فى مطلع سورة هود وأى إما استفهامية مرفوعة بالابتداء وأحسن خبرها والجملة فى محل النصب معلقة لفعل البلوى لما فيه من معنى العلم باعتبار عاقبته كالسؤال والنظر ولذلك أجرى مجراه بطريق التمثيل أو الاستعارة التبعية وإما موصولة بمعنى الذى وأحسن خبراً مبتدأ مضمر والجملة صلة لها وهى فى حيز النصب بدل من مفعول لنبلوهم والتقدير لنبلو الذى هو أحسن عملا فحينئذ يحتمل أن تكون الضمة فى أيهم للبناء كما فى قوله عز وجل (ثم لننزعن من كل شيعة أيهم أشد على الرحمن عتيا) على أحد الأقوال لتحقق شرط البناء الذى هو الإضافة لفظاً وحذف صدر الصلة وأن تكون للإعراب لأن ما ذكر شرط لجواز البناء لا لوجوبه وحسن العمل الزهد فيها وعدم الاغترار بها والقناعة باليسير منها وصرفها على ما ينبغى والتأمل فى شأنها وجعلها ذريعة إلى معرفة خالقها والتمتع بها حسبما أذن له الشرع

---

(١) فى ١٠ : لجعل

وأداء حقوقها والشكر لها لا اتخاذها وسيلة إلى الشهوات والأغراض الفاسدة كما يفعله الكفرة وأصحاب الأهواء وإيراد صيغة التفضيل مع أن الابتلاء شامل للفريقين باعتبار أعمالهم المنقسمة إلى الحسن والقبيح أيضا لا إلى الحسن والأحسن فقط للإشعار بأن الغاية الأصلية للجعل المذكور إنما هو ظهور كمال إحسان المحسنين على ما حقق فى تفسير قوله تعالى (ليبلوكم أيكم أحسن عملا).

﴿ وإنا لجاعلون ﴾ فيما سيأتى عند تناهى عمر الدنيا ﴿ ما عليها ﴾ من المخلوقات قاطبة بإفنائها بالكلية وإنما أظهر فى مقام الإضمار لزيادة التقرير أو لإدراج المكلفين فيه ﴿ صعيدا ﴾ مفعول ثان للجعل والصعيد التراب أو وجه الأرض قال أبو عبيدة هو المستوى من الأرض وقال الزجاج هو الطريق الذى لا نبات فيه ﴿ جرزا ﴾ ترابا لا نبات فيه بعد ما كان يتعجب من بهجته النظار وتتشرف بمشاهدته الأبصار يقال أرض جرز لا نبات فيها وسنة جرز لا مطر فيها قال الفراء جرزت الأرض فهى مجروزة أى ذهب نباتها بقحط أو جراد ويقال جرزها الجراد والشاة والإبل إذا أكلت ما عليها وهذه الجملة لتكميل ما فى السابقة من التعليل والمعنى لا تحزن بما عاينت من القوم من تكذيب ما أنزلنا عليك من الكتاب فإنا قد جعلنا ما على الأرض من فنون الأشياء زينة لها لنختبر أعمالهم فنجازيهم بحسبها وإنا لمفنون جميع ذلك عن قريب ومجازون لهم بحسب أعمالهم .

قصة أهل الكهف

﴿ أم حسبت ﴾ الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم والمراد إنكار حسبان أمته وأم منقطعة مقدرة ببل التى هى للانتقال من حديث إلى حديث لا للإبطال وبهمزة الاستئناف عند الجمهور وببل وحدها عند غيرهم أى بل أحسبت ﴿ أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا ﴾ فى بقائهم على الحياة مدة طويلة من الدهر ﴿ من آياتنا ﴾ من بين آياتنا التى من جملتها ما ذكرناه من جعل ما على الأرض زينة لها للحكمة المشار إليها ثم جعل ذلك كله صعيدا جرزا كأن لم تغن

بالأمس ﴿ عجبا ﴾ أى آية ذات عجب وضعا له موضع المضاف(١) أو وصفا لذلك بالمصدر مبالغة وهو خبر لكانوا ومن آياتنا حال منه والمعنى أن قصتهم وإن كانت خارقة للعادات ليست بعجيبة بالنسبة إلى سائر الآيات التى من جملتها ما ذكر من تعاجيب خلق الله تعالى بل هى عندها كالنزر الحقير والكهف الغار الواسع فى الجبل والرقيم كلبهم قال أمية بن أبى الصلت :

وليس بها إلا الرقيم مجاورا وصيدهم والقوم فى الكهف همد

وقيل هو لوح رصاصى أو حجرى رقمت فيه أسماؤهم وجعل على باب الكهف وقيل هو الوادى الذى فيه الكهف فهو من رقمة الوادى أى جانبه وقيل الجبل وقيل قريتهم وقيل مكانهم بين غضبان وأيلة دون فلسطين وقيل أصحاب الرقيم آخرون وكانوا ثلاثة انطبق عليهم الغار فنجوا بذكر كل منهم أحسن عمله على ما فصل فى الصحيحين .

﴿ إذ أوى ﴾ ظرف لعجبا لا لحسبت أو مفعول لاذكر أى حين التجأ ﴿ الفتية ﴾ أى أصحاب الكهف أوثر الإظهار على الإضمار لتحقيق ما كانوا عليه فى أنفسهم من حال الفتوة فإنهم كانوا فتية من أشراف الروم أرادهم دقيانوس على الشرك فهربوا منه بدينهم ولأن صاحبية الكهف من فروع التجائهم إلى الكهف فلا يناسب اعتبارها معهم قبل بيانه ﴿ إلى الكهف ﴾ بجبلهم للجلوس واتخذوه مأوى ﴿ فقالوا ربنا آتنا من لدنك ﴾ من خزائن رحمتك الخاصة المكنونة عن عيون أهل العادات فمن ابتدائية متعلقة بآتنا أو بمحذوف وقع حالا من مفعوله الثانى قدمت عليه لكونه نكرة ولو تأخرت لكانت صفة له أى آتنا كائنة من لدنك ﴿ رحمة ﴾ خاصة تستوجب المغفرة والرزق والأمن من الأعداء ﴿ وهيء لنا من أمرنا ﴾ الذى نحن عليه من مهاجرة الكفار والمثابرة على طاعتك وأصل التهيئة إحداث هيئة الشيء أى أصلح ورتب وأتمم

(١) فى ١٠ : بوضعه موضع المضاف .

لنا من أمرنا ﴿ رشدا ﴾ إصابة للطريق الموصل إلى المطلوب واهتداء إليه وكلا الجارين متعلق بهيىء لاختلافهما فى المعنى وتقديم المجرورين على المفعول الصريح لإظهار الاعتناء بهما وإبراز الرغبة فى المؤخر بتقديم أحواله فإن تأخير ماحقه التقديم عما هو من أحواله المرغبة فيه كما يورث شوق السامع إلى وروده ينبىء عن كمال رغبة المتكلم واعتنائه بحصوله لا محالة وكذا الكلام فى تقديم قوله تعالى (من لدنك) على تقدير تعلقه بآتنا وتقديم لنا على من أمرنا للإيذان من أول الأمر بكون المسئول مرغوبا فيه لديهم أو اجعل أمرنا رشدا كله على أن من تجريدية مثلها فى قولك رأيت منك أسدا .

﴿ فضربنا على آذانهم ﴾ أى أنمناهم على طريقة التمثيل المبنى على تشبيه الإنامة الثقيلة المانعة عن وصول الأصوات إلى الآذان بضرب الحجاب عليها وتخصيص الآذان بالذكر مع اشتراك سائر المشاعر لها فى الحجب عن الشعور عند النوم لما أنها المحتاج إلى الحجب عادة ، إذ هى الطريقة للتيقظ غالبا لا سيما عند انفراد النائم واعتزاله عن الخلق وقيل الضرب على الآذان كناية عن الإنامة الثقيلة وحمله على تعطيلها كما فى قولهم ضرب الأمير على يد الرعية أى منعهم من التصرف مع عدم ملاءمته لما سيأتى من البعث لا يدل على النوع مع أنه المراد قطعا والفاء فى فضربنا كما فى قوله عز وجل (فاستجبنا له) بعد قوله تعالى (إذ نادى) فإن الضرب المذكور وما ترتب عليه من التقليب ذات اليمين وذات الشمال والبعث وغير ذلك إيتاء رحمة لدنية خافية عن أبصار المتمسكين بالأسباب العادية استجابة لدعوتهم ﴿ فى الكهف ﴾ ظرف مكان لضربنا ﴿ سنين ﴾ ظرف زمان له باعتبار بقائه لا ابتدائه ﴿ عددا ﴾ أى ذوات عدد أو تعد عددا على أنه مصدر أو معدودة على أنه بمعنى المفعول ووصف السنين بذلك إما للتكثير وهو الأنسب بإظهار كمال القدرة أو للتقليل وهو الأليق بمقام إنكار كون القصة عجبا من بين سائر الآيات العجيبة فإن مدة لبثهم كبعض يوم عنده عز وجل .

﴿ ثم بعثناهم ﴾ أى أيقظناهم من تلك النومة الثقيلة الشبيهة بالموت ﴿ لنعلم ﴾ بنون العظمة وقرىء بالياء مبنيا للفاعل بطريق الالتفات وأيا ما كان فهو غاية

للبعث لكن لا بجعل العلم مجازا من الإظهار والتمييز أو بحمله على ما يصح وقوعه غاية للبعث الحادث من العلم الحالى الذى يتعلق به الجزاء كما فى قوله تعالى (إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه) وقوله تعالى (وليعلم الله الذين آمنوا) ونظائرهما التى يتحقق فيها العلم بتحقق متعلقه قطعا فإن تحويل القبلة قد ترتب عليه تحزب الناس إلى متبع ومنقلب وكذا مداولة الأيام بين الناس ترتب عليه تحزبهم إلى الثابت على الإيمان والمتزلزل فيه وتعلق بكل من الفريقين العلم الحالى والإظهار والتمييز وأما بعث هؤلاء فلم يترتب عليه تفرقهم إلى المحصى وغيره حتى يتعلق بهما العلم أو الإظهار والتمييز ويتسنى نظم شىء من ذلك فى سلك الغاية وإنما الذى ترتب عليه تفرقهم إلى مقدر تقديرا غير مصيب ومفوض إلى العلم الربانى وليس شىء منهما من الإحصاء فى شىء بل بحمل النظم الكريم على التمثيل المبنى على جعل العلم عبارة عن الاختبار مجازا بطريق إطلاق اسم المسبب على السبب وليس من ضرورة الاختبار صدور الفعل المختبر به عن المختبر قطعا بل قد يكون لإظهار عجزه عنه على سنن التكاليف التعجيزية كقوله تعالى (فأت بها من المغرب) وهو المراد ههنا فالمعنى بعثناهم لنعاملهم معاملة من يختبرهم.

﴿أى الحزبين﴾ أى الفريقين المختلفين فى مدة لبثهم بالتقدير والتفويض كما سيأتى ﴿أحصى﴾ أى أضبط ﴿لما لبثوا﴾ أى للبثهم ﴿أمدا﴾ أى غاية فيظهر لهم عجزهم ويفوضوا ذلك إلى العليم الخبير ويتعرفوا حالهم وما صنع الله تعالى بهم من حفظ أبدانهم وأديانهم فيزدادوا يقينا بكمال قدرته وعلمه ويستبصروا به أمر البعث ويكون ذلك لطفا لمؤمنى زمانهم وآية بينة لكفارهم وقد اقتصر ههنا من تلك الغايات الجليلة على ذكر مبدئها الصادر عنه عز وجل وفيما سيأتى على ما صدر عنهم من التساؤل المؤدى إليها وهذا أولى من تصوير التمثيل بأن يقال بعثناهم بعث من يريد أن يعلم الخ حسبما وقع فى تفسير قوله تعالى (وليعلم الله الذين آمنوا) على أحد الوجوه حيث حمل على معنى فعلنا ذلك فعل من يريد أن يعلم من الثابت على الإيمان من غير الثابت إذ ربما يتوهم منه استلزام الإرادة

لتحقق المراد فيعود المحذور فيصار إلى جعل إرادة العلم عبارة عن الاختبار فاختبر واختر .

هذا وقد قرىء ليعلم مبنيا للمفعول ومبنيا للفاعل من الإعلام على أن المفعول الأول محذوف والجملة المصدرة بأى فى موقع المفعول الثانى فقط إن جعل العلم عرفانيا وفى موقع المفعولين إن جعل يقينيا أى ليعلم الله الناس أى الحزبين أحصى الخ وروى عطاء عن ابن عباس رضى الله عنهما أن أحد الحزبين الفتية والآخر الملوك الذين تداولوا المدينة ملكا بعد ملك ، وقيل كلاهما من غيرهم والأول هو الأظهر ، فإن اللام للعهد ولا عهد لغيرهم والأمد بمعنى المدى كالغاية فى قولهم ابتداء الغاية وانتهاء الغاية وهو مفعول لأحصى والجار والمجرور حال منه قدمت عليه لكونه نكرة وليس معنى إحصاء تلك المدة ضبطها من حيث كميتها المتصلة الذاتية فإنه لا يسمى إحصاء بل ضبطها من حيث كميتها المنفصلة العارضة لها باعتبار قسمتها إلى السنين وبلوغها من تلك الحيثية إلى مراتب الأعداد على ما يرشدك إليه كون تلك المدة عبارة عما سبق من السنين .

ويجوز أن يراد بالأمد معناه الوضعي بتقدير المضاف أى لزمان لبثهم[1] وبدونه أيضا فإن اللبث عبارة عن الكون المستمر المنطبق على الزمان المذكور فباعتبار الامتداد العارض له بسببه يكون له أمد لا محالة لكن ليس المراد به ما يقع غاية ومنتهى لذلك الكون المستمر باعتبار كميته المتصلة العارضة له بسبب انطباقه على الزمان الممتد بالذات وهو آن انبعاثهم من نومهم فإن معرفته من تلك الحيثية لا تخفى على أحد ولا تسمى إحصاء كما مر بل باعتبار كميته المنفصلة معارضة له بسبب عروضها لزمانه المنطبق هو عليه باعتبار انقسامه إلى السنين ووصوله إلى مرتبة معينة من مراتب العدد كما حقق فى الصورة الأولى والفرق بين الاعتبارين أن ما تعلق به الإحصاء فى الصورة السابقة نفس المدة المنقسمة إلى السنين فهو مجموع ثلثمائة وتسع سنين ، وفى الصورة الأخيرة منتهى تلك

---

(١) فى ١٠ : أى زمان لبثهم .

المدة المنقسمة إليها أعنى السنة التاسعة بعد الثلثمائة وتعلق الإحصاء بالأمد بالمعنى الأول ظاهر ، وأما تعلقه به بالمعنى الثانى فباعتبار انتظامه لما تحته من مراتب العدد واشتماله عليها هذا تقدير كون « ما » فى قوله تعالى (لما لبثوا) مصدرية ويجوز أن تكون موصولة حذف عائدها من الصلة أى للذى لبثوا فيه من الزمان الذى عبر عنه فيما قبل بسنين عددا فالأمد بمعناه الوضعى على ما تحققته وقيل اللام مزيدة والموصول مفعول وأمدا نصب على التمييز وأما ما قيل من أن أحصى اسم تفضيل لأنه الموافق لما وقع فى سائر الآيات الكريمة نحو (أيهم أحسن عملا) (أيهم أقرب لكم نفعا) إلى غير ذلك مما لا يحصى ولأن كونه فعلا ماضيا يشعر بأن غاية البعث هو العلم بالإحصاء المتقدم على البعث لا بالإحصاء المتأخر عنه وليس كذلك ، وادعاء أن مجيء أفعل التفضيل من المزيد عليه غير قياسى مدفوع بأنه عند سيبويه قياس مطلقا وعند ابن عصفور فيما ليست همزته للنقل ولا ريب فى أن ما نحن فيه من ذلك القبيل وامتناع عمله إنما هو فى غير التمييز من المعمولات وإما أن التمييز يجب كونه فاعلا فى المعنى فلما نع أن يمنعه بصحة أن يقال أيهم أحفظ لهذا الشعر وزنا أو تقطيعا أو يقال إن العامل فى أمدا فعل محذوف يدل عليه المذكور أى يحصى لما لبثوا أمدا كما فى قوله :

* وأضرب منا بالسيوف القوانسا *

وحديث الوقوع فى المحذور بلا فائدة مدفوع بما أشير إليه من فائدة الموافقة للنظائر فمع ما فيه من الاعتساف والخلل بمعزل من السداد لأن مؤداه أن يكون المقصود بالاختبار إظهار أفضل الحزبين وتمييزه عن الأدنى مع تحقق أصل الإحصاء فيهما ومن البين أن لا تحقق له أصلا وأن المقصود بالاختبار إظهار عجز الكل عنه رأسا فهو فعل ماض قطعا وتوهم إيذانه بأن غاية البعث هو العلم بالإحصاء المتقدم عليه مردود بأن صيغة الماضى باعتبار حال الحكاية . والله تعالى أعلم .

﴿ نحن نقص عليك ﴾ شروع فى تفصيل ما أجمل فيما سلف من قوله تعالى (إذ أوى الفتية) الخ أى نحن نخبرك بتفاصيل أخبارهم وقد مر بيان اشتقاقه

فى مطلع سورة يوسف عليه السلام ﴿ نبأهم ﴾ النبأ الخبر الذى له شأن وخطر ﴿ بالحق ﴾ إما صفة لمصدر محذوف أو حال من ضمير نقص أو من (نبأهم) أو صفة له على رأى من يرى حذف الموصول مع بعض صلته أى نقص قصصاً ملتبساً بالحق أو نقصه ملتبسين به أو نقص نبأهم ملتبساً به أو نبأهم الملتبس به ونبأهم حسبما ذكره محمد بن إسحق بن يسار أنه قد مرج أهل الإنجيل وعظمت فيهم الخطايا وطغت ملوكهم فعبدوا الأصنام وذبحوا للطواغيت ، وكان ممن بالغ فى ذلك وعتا عتواً كبيراً دقيانوس فإنه غلا فيه غلوا شديدا فجاس خلال الديار والبلاد بالعبث والفساد وقتل من خالفه من المتمسكين بدين المسيح عليه السلام وكان يتبع الناس فيخيرهم بين القتل وعبادة الأوثان فمن رغب فى الحياة الدنية الدنية يصنع ما يصنع ومن آثر عليها الحياة الأبدية قتله وقطع آرابه[1] وعلقها فى سور المدينة وأبوابها فلما رأى الفتية ذلك وكانوا عظماء أهل مدينتهم وقيل كانوا من خواص الملك قاموا فتضرعوا إلى الله عز وجل واشتغلوا بالصلاة والدعاء .

فبينما هم كذلك إذ دخل عليهم أعوان الجبار فأحضروهم بين يديه فقال لهم ماقال وخيرهم بين القتل وبين عبادة الأوثان ، فقالوا : إن لنا إلها ملأ السموات والأرض عظمته وجبروته لن ندعو من دونه أحدا ، ولن نقر لما تدعونا[2] إليه أبداً فاقض ما أنت قاض فأمر بنوع ماعليهم من الثياب الفاخرة وأخرجهم من عنده وخرج هو إلى مدينة نينوى لبعض شأنه وأمهلهم إلى رجوعه ليتأملوا فى أمرهم فإن تبعوه وإلا فعل بهم ما فعل بسائر المسلمين فأزمعت الفتية على الفرار بالدين والالتجاء إلى الكهف الحصين ، فأخذ كل منهم من بيت أبيه شيئاً فتصدقوا ببعضه وتزودوا بالباقى فأووا إلى الكهف فجعلوا يصلون فيه آناء الليل وأطراف النهار ويبتهلون إلى الله سبحانه بالأنين والجؤار وفوضوا أمر نفقتهم إلى يمليخا فكان إذا أصبح يضع عنه ثيابه الحسان ويلبس لباس المساكين ويدخل المدينة

(١) آرابه : أى أجزائه .   (٢) فى ١٠ : بما تدعونا .

ويشترى ما يهمهم ويتحسس ما فيها من الأخبار ويعود إلى أصحابه فلبثوا على ذلك إلى أن قدم الجبار المدينة فطلبهم وأحضر آباءهم فاعتذروا بأنهم عصوهم ونهبوا أموالهم وبذروها فى الأسواق وفروا إلى الجبل فلما رأى يمليخا ما رأى من الشر رجع إلى أصحابه وهو يبكى ومعه قليل من الزاد فأخبرهم بما شهده من الهول ففزعوا إلى الله عز وجل وخروا له سجدا ثم رفعوا رءوسهم وجلسوا يتحدثون فى أمرهم فبينما هم كذلك إذ ضرب الله تعالى على آذانهم فناموا ونفقتهم عند رءوسهم فخرج دقيانوس فى طلبهم بخيله ورجله فوجدوهم قد دخلوا الكهف فأمر بإخراجهم فلم يطق أحد أن يدخله فلما ضاق بهم ذرعا قال قائل منهم أليس لو كنت قدرت عليهم قتلتهم قال بلى قال فابن عليهم باب الكهف ودعهم يموتوا جوعا وعطشا وليكن كهفهم قبرا لهم ففعل ثم كان من شأنهم ما قص الله عز وجل عنهم ﴿ إنهم فتية ﴾ استئناف تحقيقى مبنى على تقدير السؤال من قبل المخاطب والفتية جمع قلة للفتى كالصبية ﴿ آمنوا بربهم ﴾ أوثر الالتفات للإشعار بعلية وصف الربوبية لإيمانهم ولمراعاة ما صدر عنهم من المقالة حسبما سيحكى عنهم ﴿ وزدناهم هدى ﴾ بأن ثبتناهم على ما كانوا عليه من الدين وأظهرنا لهم مكنونات محاسنه وفيه التفات من الغيبة إلى ما عليه سبك النظم سباقا وسياقا من التكلم .

﴿ وربطنا على قلوبهم ﴾ أى قويناها حتى اقتحموا مضايق الصبر على هجر الأهل والأوطان والنعيم والإخوان واجترأوا على الصدع بالحق من غير خوف وحذروا الرد على دقيانوس الجبار ﴿ إذ قاموا ﴾ منصوب بربطنا والمراد بقيامهم انتصابهم لإظهار شعار الدين قال مجاهد خرجوا من المدينة فاجتمعوا على غير ميعاد فقال أكبرهم إنى لأجد فى نفسى شيئا إن ربى رب السموات والأرض فقالوا نحن أيضا كذلك فقاموا جميعا ﴿ فقالوا ربنا رب السموات والأرض ﴾ ضمنوا دعواهم ما يحقق فحواها ويقضى بمقتضاها فإن ربوبيته عز وجل لهما تقتضى ربوبيته لما فيهما أى لمقتضاه وقيل المراد قيامهم بين يدى الجبار من غير مبالاة به حين عاتبهم على ترك عبادة الأصنام فحينئذ يكون ما مليا فى ملأ

قوله تعالى هؤلاء الخ منقطعا عما قبله صادرا عنهم بعد خروجهم من عنده ﴿ لن ندعو ﴾ لن نعبد أبدا ﴿ من دونه إلها ﴾ معبودا آخر لا استقلالا ولا اشتراكا والعدول عن أن يقال ربا للتنصيص على رد المخالفين حيث كانوا يسمون أصنامهم آلهة وللإشعار بأن مدار العبادة وصف الألوهية وللإيذان بأن ربوبيته تعالى بطريق الألوهية لا بطريق المالكية المجازية ﴿ لقد قلنا إذاً شططا ﴾ أى قولا ذا شطط أى تجاوز عن الحد أو قولا هو عين الشطط على أنه وصف بالمصدر مبالغة ثم اقتصر على الوصف مبالغة على مبالغة وحيث كانت العبادة مستلزمة للقول لما أنها لا تعرى عن الاعتراف بألوهية المعبود والتضرع إليه قيل لقد قلنا وإذا جواب وجزاء أى لو دعونا من دونه إلها والله لقد قلنا قولا خارجا عن حد العقول مفرطا فى الظلم .

﴿ هؤلاء ﴾ هو مبتدأ وفى اسم الإشارة تحقير لهم ﴿ قومنا ﴾ عطف بيان له ﴿ اتخذوا من دونه آلهة ﴾ خبره وفيه معنى الإنكار ﴿ لولا يأتون ﴾ تخصيص فيه معنى الإنكار والتعجيز أى هلا يأتون ﴿ عليهم ﴾ على ألوهيتهم أو على صحة اتخاذهم لها آلهة ﴿ بسلطان بين ﴾ بحجة ظاهرة الدلالة على مدعاهم وهو تبكيت لهم وإلقام حجر ﴿ فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا ﴾ بنسبة الشريك إليه تعالى عن ذلك علوا كبيرا والمعنى أنه أظلم من كل ظالم وإن كان سبك النظم على إنكار الأظلمية من غير تعرض لإنكار المساواة كما مر تحقيقه فى سورة هود .

﴿ وإذ اعتزلتموهم ﴾ أى فارقتموهم فى الاعتقاد أو أردتم الاعتزال الجسمانى ﴿ وما يعبدون إلا الله ﴾ عطف على الضمير المنصوب وما موصولة أو مصدرية أى إذ اعتزلتموهم ومعبوديهم إلا الله أو وعبادتهم إلا عبادة الله وعلى التقديرين فالاستثناء متصل على تقدير كونهم مشركين كأهل مكة ومنقطع على تقدير تمحضهم فى عبادة الأوثان ويجوز كون ما نافية على أنه إخبار من الله تعالى عن الفتية بالتوحيد معترض بين إذ وجوابه ﴿ فأووا ﴾ أى التجئوا ﴿ إلى الكهف ﴾ قال الفراء هو جواب إذ كما تقول إذ فعلت كذا فافعل كذا وقيل هو دليل على جوابه

أى إذ اعتزلتموهم اعتزالا اعتقاديا فاعتزلوهم اعتزالا جسمانيا أو إذا أردتم اعتزالهم فافعلوا ذلك بالالتجاء إلى الكهف ﴿ ينشر لكم ﴾ يبسط لكم ويوسع عليكم[1] ﴿ ربكم ﴾ مالك أمركم ﴿ من رحمته ﴾ فى الدارين ﴿ ويهيء لكم ﴾ يسهل لكم ﴿ من أمركم ﴾ الذى أنتم بصدده من الفرار بالدين ﴿ مرفقا ﴾ ما ترتفقون وتنتفعون به وقرىء بفتح الميم وكسر الفاء مصدرا كالمرجع وتقديم لكم فى الموضعين لما مر مرارا من الإيذان من أول الأمر بكون المؤخر من منافعهم والتشويق إلى وروده .

﴿ وترى الشمس ﴾ بيان لحالهم بعد ما أووا إلى الكهف ولم يصرح به إيذانا بعدم الحاجة إليه لظهور جريانهم على موجب الأمر به لكونه صادرا عن رأى صائب وتعويلا على ما سلف من قوله سبحانه (إذ أوى الفتية إلى الكهف) وما لحق من إضافة الكهف إليهم وكونهم فى فجوة منه والخطاب للرسول عليه الصلاة والسلام أو لكل أحد ممن يصلح للخطاب وليس المراد به الإخبار بوقوع الرؤية تحقيقا بل الإنباء بكون الكهف بحيث لو رأيته ترى الشمس ﴿ إذا طلعت تزاور ﴾ أى تتزاور وتتنحى بحذف إحدى التاءين وقرىء بإدغام التاء فى الزاى وتزور كتحمر وتزوار كتحمار وتزوتر وكلها من الزور وهو الميل ﴿ عن كهفهم ﴾ الذى أووا إليه فالإضافة لأدنى ملابسة ﴿ ذات اليمين ﴾ أى جهة ذات يمين الكهف عند توجه الداخل إلى قعره أى جانبه الذى يلى المغرب فلا يقع عليهم شعاعها فيؤذيهم ﴿ وإذا غربت ﴾ أى تراها عند غروبها ﴿ تقرضهم ﴾ أى تقطعهم من القطيعة والصرم ولا تقربهم ﴿ ذات الشمال ﴾ أى جهة ذات شمال الكهف أى جانبه الذى يلى المشرق وكان ذلك بتصريف الله سبحانه على منهاج خرق العادة كرامة لهم وقوله تعالى ﴿ وهم فى فجوة منه ﴾ جملة حالية مبينة لكون ذلك أمراً بديعا أى تراها تميل عنهم يمينا وشمالا ولا تحوم

---

(١) فى ١٠ : لكم .

حولهم مع أنهم فى متسع من الكهف معرض لإصابتها لولا أن صرفتها عنهم يد التقدير .

﴿ ذلك ﴾ أى ما صنع الله بهم من تزاور الشمس وقرضها حالتى الطلوع والغروب مع كونهم فى موقع شعاعها ﴿ من آيات الله ﴾ العجيبة الدالة على كمال علمه وقدرته وحقية التوحيد وكرامة أهله عنده سبحانه وتعالى وهذا قبل أن سد دقيانوس باب الكهف شماليا مستقبل بنات نعش وأقرب المشارق والمغارب إلى محاذاته رأس مشرق السرطان ومغربه والشمس إذا كان مدارها مداره تطلع مائلة عنه مقابلة لجانبه الأيمن وهو الذى يلى المغرب وتغرب محاذية لجانبه الأيسر فيقع شعاعها على جنبيه وتحلل عفونته وتعدل هواءه .ولا يقع عليهم فيؤذى أجسادهم ويبلى ثيابهم ولعل ميل الباب إلى جانب الغرب كان أكثر ولذلك أوقع التزاور على كهفهم والقرض على أنفسهم فذلك حينئذ إشارة إلى إيوائهم إلى كهف هذا شأنه وأما جعله إشارة إلى حفظ الله سبحانه إياهم فى ذلك الكهف تلك المدة الطويلة أو إلى إطلاعه سبحانه لرسوله صلى الله عليه وسلم على أخبارهم فلا يساعده إيراده فى تضاعيف القصة ﴿ من يهد الله ﴾ إلى الحق بالتوفيق له ﴿ فهو المهتد ﴾ الذى أصاب الفلاح والمراد إما الثناء عليهم والشهادة لهم بإصابة المطلوب والإخبار بتحقيق ما أملوه من نشر الرحمة وتهيئة المرافق أو التنبيه على أن أمثال هذه الآية كثيرة ولكن المنتفع بها من وفقه الله تعالى للاستبصار بها ﴿ ومن يضلل ﴾ أى يخلق فيه الضلال لصرف اختياره إليه ﴿ فلن تجد له ﴾ أبداً وإن بالغت فى التتبع والاستقصاء ﴿ ولياً ﴾ ناصراً ﴿ مرشدا ﴾ يهديه إلى ما ذكر من الفلاح لاستحالة وجوده فى نفسه ، لا لأنك لا تجده[1] مع وجوده أو إمكانه .

﴿ وتحسبهم ﴾ بفتح السين وقرىء بكسرها أيضاً والخطاب فيه كما سبق ﴿ أيقاظا ﴾ جمع يقظ بكسر القاف وفتحها وهو اليقظان ومدار الحسبان انفتاح

---

(١) فى ط : لا انك لا تجده .

عيونهم على هيئة الناظر وقيل كثرة تقلبهم ولا يلائمه قوله تعالى (ونقلبهم) ﴿وهم رقود﴾ أى نيام وهو تقرير لما لم يذكر فيما سلف اعتمادا على ذكره السابق من الضرب على آذانهم ﴿ونقلبهم﴾ فى رقدتهم ﴿ذات اليمين﴾ نصب على الظرفية أى جهة تلى أيمانهم ﴿وذات الشمال﴾ أى جهة تلى شمالهم كيلا تأكل الأرض ما يليها من أبدانهم. قال ابن عباس رضى الله عنهما لو لم يقلبوا لأكلتهم الأرض قيل لهم تقليبتان فى السنة وقيل تقليبة واحدة يوم عاشوراء وقيل فى كل تسع سنين وقرىء يقلبهم على الإسناد إلى ضمير الجلالة وتقلبهم على المصدر منصوبا بمضمر ينبىء عنه وتحسبهم أى وترى تقلبهم ﴿وكلبهم﴾ قيل هو كلب مروا به فتبعهم فطردوه مرارا فلم يرجع فأنطقه الله تعالى فقال لا تخشوا جانبى فإنى أحب أحباء الله تعالى فناموا حتى أحرسكم وقيل هو كلب راع قد تبعهم على دينهم ويؤيده قراءة كالبهم إذ الظاهر لحوقه بهم وقيل هو كلب صيد أحدهم أو زرعه أو غنمه واختلف فى لونه فقيل كان أنمر وقيل أصفر وقيل أصهب وقيل غير ذلك وقيل كان اسمه قطمير وقيل ريان وقيل تتوه وقيل قطمور وقيل ثور قال خالد بن معدان ليس فى الجنة من الدواب إلا كلب أصحاب الكهف وحمار بلعم وقيل لم يكن ذلك من جنس الكلاب بل كان أسدا ﴿باسط ذراعيه﴾ حكاية حال ماضية ولذلك أعمل اسم الفاعل وعند الكسائى وهشام وأبى جعفر من البصريين يجوز إعماله مطلقا والذراع من المرفق إلى رأس الأصبع الوسطى ﴿بالوصيد﴾ أى بموضع الباب من الكهف ﴿لو اطلعت عليهم﴾ أى لو عاينتهم وشاهدتهم وأصل الاطلاع الإشراف على الشىء بالمعاينة والمشاهدة وقرىء بضم الواو.

﴿لوليت منهم فرارا﴾ هربا مما شاهدت منهم وهو إما نصب على المصدرية من معنى ما قبله إذ التولية والفرار من واد واحد وإما على الحالية بجعل المصدر بمعنى الفاعل أى فارا أو بجعل الفاعل مصدرا مبالغة كما فى قوله فإنما هى إقبال وإدبار وإما على أنه مفعول له ﴿ولملئت منهم رعبا﴾ وقرىء بضم العين أى خوفا يملأ الصدر ويرعبه وهو إما مفعول ثان أو تمييز ذلك لما ألبسهم الله

عز وجل من الهيبة والهيئة كانت أعينهم مفتحة كالمستيقظ الذى يريد أن يتكلم وقيل لطول أظفارهم وشعورهم ولا يساعده قولهم (لبثنا يوما أو بعض يوم) وقوله (ولا يشعرن بكم أحدا) فإن الظاهر من ذلك عدم اختلاف أحوالهم فى أنفسهم وقيل لعظم أجرامهم ولعل تأخير هذا عن ذكر التولية للإيذان باستقلال كل منهما فى الترتب على الإطلاع إذ لو روعى ترتيب الوجود لتبادر إلى الفهم ترتب المجموع من حيث هو عليه وللإشعار بعدم زوال الرعب بالفرار كما هو المعتاد وعن معاوية لما غزا الروم فر بالكهف قال لو كشفت لنا عن هؤلاء فنظرنا إليهم فقال له ابن عباس رضى الله عنهما ليس لك ذلك قد منع الله تعالى من هو خير منك حيث قال(لو اطلعت عليهم) الآية قال معاوية لاأنتهى حتى أعلم علمهم فبعث ناسا وقال لهم اذهبوا فانظروا ففعلوا فلما دخلوا الكهف بعث الله تعالى ريحا فأحرقتهم وقرىء بتشديد اللام على التكثير وبإبدال الهمزة ياء مع التخفيف والتشديد.

﴿ وكذلك بعثناهم ﴾ أى كما أنمناهم وحفظنا أجسادهم من البلى والتحلل آية دالة على كمال قدرتنا بعثناهم من النوم ﴿ ليتساءلوا بينهم ﴾أى ليسأل بعضهم بعضا فيترتب عليه ما فصل من الحكم البالغة وجعله غاية للبعث المعلل فيما سبق بالاختبار من حيث أنه من أحكامه المترتبة عليه والاقتصار على ذكره لاستتباعه لسائر آثاره ﴿ قال ﴾ استئناف لبيان تساؤلهم ﴿ قائل منهم ﴾ هو رئيسهم واسمه مكسلمينا ﴿ كم لبثتم ﴾ فى منامكم لعله قاله لما رأى من مخالفة حالهم لما هو المعتاد فى الجملة ﴿ قالوا ﴾ أى بعضهم ﴿ لبثنا يوما أو بعض يوم ﴾ قيل إنما قالوه لأنهم[1] دخلوا الكهف غدوة وكان انتباههم آخر النهار فقالوا لبثنا يوما فلما رأوا أن الشمس لم تغرب بعد قالوا أو بعض يوم وكان ذلك بناء على الظن الغالب فلم يعزوا إلى الكذب ﴿ قالوا ﴾ أى بعض آخر منهم بما سنح لهم من

---

(١) فى ط: لكونهم. واخترنا ما فى ١.

الأدلة أو بإلهام من الله سبحانه ﴿ ربكم أعلم بما لبثتم ﴾ أى أنتم لا تعلمون مدة لبثكم وإنما يعلمها الله سبحانه وهذا رد منهم على الأولين بأجمل ما يكون من مراعاة حسن الأدب وبه يتحقق التحزب إلى الحزبين المعهودين فيما سبق وقد قيل القائلون جميعهم ولكن فى حالتين ولا يساعده النظم الكريم فإن الاستئناف فى الحكاية والخطاب فى المحكى يقضى بأن الكلام جار على منهاج المحاورة والمجاوبة وإلا لقيل ثم قالوا ربنا أعلم بما لبثنا .

﴿ فابعثوا أحدكم بورقكم هذه إلى المدينة ﴾ قالوه إعراضا عن التعمق فى البحث وإقبالا على ما يهمهم بحسب الحال كما ينبىء عنه الفاء والورق الفضة مضروبة أو غير مضروبة ووصفها باسم الإشارة يشعر بأن القائل ناولها بعض أصحابه ليشترى بها قوت يومهم ذلك وقرىء بسكون الراء وبإدغام القاف فى الكاف وبكسر الواو وبسكون الراء مع الإدغام وحملهم لها دليل على أن التزود لا ينافى التوكل على الله تعالى ﴿ فلينظر أيها ﴾ أى أهلها ﴿ أزكى ﴾ أحل وأطيب أو أكثر وأرخص ﴿ طعاما فليأتكم برزق منه ﴾ أى من ذلك الأزكى طعاما ﴿ وليتلطف ﴾ وليتكلف اللطف فى المعاملة كيلا يغبن أو فى الاستخفاء لئلا يعرف ﴿ ولا يشعرن بكم أحدا ﴾ من أهل المدينة فإنه يستدعى شيوع أخباركم أى لا يفعلن ما يؤدى إلى ذلك فالنهى على الأول تأسيس وعلى الثانى تأكيد للأمر بالتلطف ﴿ إنهم ﴾ تعليل لما سبق من الأمر والنهى أى ليبالغ فى التلطف وعدم الإشعار لأنهم ﴿ إن يظهروا عليكم ﴾ أى يطلعوا عليكم أو يظفروا بكم والضمير للأهل المقدر فى أيها ﴿ يرجموكم ﴾ إن ثبتم على ما أنتم عليه .

﴿ أو يعيدوكم فى ملتهم ﴾ أى يصيروكم إليها ويدخلوكم فيها كرها من العود بمعنى الصيرورة كقوله تعالى (أو لتعودن فى ملتنا) وقيل كانوا أولا على دينهم وإيثار كلمة إلى للدلالة على الاستقرار الذى هو أشد شىء عندهم كراهة وتقديم احتمال الإعادة لأن الظاهر من حالهم هو الثبات على الدين المؤدى إليه

وضمير الخطاب فى المواضع الأربعة للمبالغة فى حمل المبعوث على الاستخفاء وحث الباقين على الاهتمام بالتوصية فإن إمحاض النصح أدخل فى القبول واهتمام الإنسان بشأن نفسه أكثر وأوفر ﴿ ولن تفلحوا إذاً ﴾ أى إن دخلتم فيها ولو بالكره والإلجاء لن تفوزوا بخير ﴿ أبدا ﴾ لا فى الدنيا ولا الآخرة وفيه من التشديد فى التحذير مالا يخفى .

﴿ وكذلك ﴾ أى وكما أنمناهم وبعثناهم لما مر من ازديادهم فى مراتب اليقين ﴿ أعثرنا ﴾ أى أطلعنا الناس ﴿ عليهم ليعلموا ﴾ أى الذين أعثرناهم عليهم بما عاينوا من أحوالهم العجيبة ﴿ أن وعد الله ﴾ أى وعده بالبعث أو موعوده الذى هو البعث أو أن كل وعده أو كل موعوده فيدخل فيه وعده بالبعث أو مبعث الموعود دخولا أوليا ﴿ حق ﴾ صادق لا خلف فيه أو ثابت لا مرد له لأن نومهم وانتباههم كحال من يموت ثم يبعث ﴿ وأن الساعة ﴾ أى القيامة التى هى عبارة عن وقت بعث الخلائق جميعا للحساب والجزاء ﴿ لا ريب فيها ﴾ لا شك فى قيامها فإن من شاهد أنه جل وعلا توفى نفوسهم وأمسكها ثلثمائة سنة وأكثر حافظا أبدانها من التحلل والتفتت ثم أرسلها إليها لا يبقى له شائبة شك فى أن وعده تعالى حق وأنه يبعث من فى القبور فيرد إليهم أرواحهم فيحاسبهم ويجزيهم بحسب أعمالهم .

﴿ إذ يتنازعون ﴾ ظرف لقوله أعثرنا قدم عليه الغاية إظهاراً لكمال العناية بذكرها لا لقوله ليعلموا كما قيل لدلالته على أن التنازع يحدث بعد الإعثار وليس كذلك أى أعثرناهم عليهم حين يتنازعون ﴿ بينهم أمرهم ﴾ ليرتفع الخلاف ويتبين الحق قيل المتنازع فيه أمر دينهم حيث كانوا مختلفين فى البعث فمن مقر له وجاحد به وقائل يقول تبعث الأرواح دون الأجساد وآخر يقول بعثهما معا قيل كان ملك المدينة حينئذ رجلا صالحا مؤمنا وقد اختلف أهل مملكته فى البعث حسبما فصل فدخل الملك بيته وأغلق بابه ولبس مسحا وجلس على رماد وسأل ربه أن يظهر الحق فألقى الله عز وجل فى نفس

رجل من رعيانهم[1] فهدم ماسد به دقيانوس باب الكهف ليتخذه حظيرة لغنمه فعند ذلك بعثهم الله تعالى لجرى بينهم من التقاول ماجرى روى أن المبعوث لما دخل المدينة أخرج الدرهم ليشترى به الطعام وكان على ضرب دقيانوس[2] فاتهموه بأنه وجد كنزا فذهبوا به إلى الملك فقص عليه القصة فقال بعضهم إن آباءنا أخبرونا بأن فتية فروا بدينهم من دقيانوس فلعلهم هؤلاء. فانطلق الملك وأهل المدينة من مسلم وكافر وأبصروهم وكلموهم ثم قالت الفتية للملك نستودعك الله ونعيذك به من شر الإنس والجن ثم رجعوا إلى مضاجعهم فماتوا فألقى الملك عليهم ثيابه وجعل لكل منهم تابوتا من ذهب فرآهم فى المنام كارهين للذهب فجعلها من الساج وبنى على باب الكهف مسجدا وقيل لما انتهوا إلى الكهف قال لهم الفتى مكانكم حتى أدخل أولا لئلا يفزعوا فدخل فعمى عليهم المدخل فبنوا ثمة مسجدا وقيل المتنازع فيه أمر الفتية قبل بعثهم أى أعثرنا عليهم حين يتذاكرون بينهم أمرهم وما جرى بينهم وبين دقيانوس من الأحوال والأهوال ويتلقون ذلك من الأساطير وأفواه الرجال وعلى التقديرين فالفاء فى قوله عز وجل: ﴿ فقالوا ﴾ فصيحة أى أعثرناهم عليهم فرأوا فاتوا فقالوا أى قال بعضهم.

﴿ ابنوا عليهم ﴾ أى على باب كهفهم ﴿ بنيانا ﴾ لئلا يتطرق إليهم الناس ضنا بتربتهم ومحافظة عليها وقوله تعالى: ﴿ ربهم أعلم بهم ﴾ من كلام المتنازعين كأنهم لما رأوا عدم اهتدائهم إلى حقيقة حالهم من حيث النسب ومن حيث اللبث فى الكهف قالوا ذلك تفويضا للأمر إلى علام الغيوب أو من كلام الله تعالى ردا لقول الخائضين فى حديثهم من أولئك المتنازعين وقيل هو أمرهم وتدبيرهم عند وفاتهم أو شأنهم فى الموت والنوم حيث اختلفوا فى أنهم ماتوا

---

(١) فى م ١ : من رعاتهم.

(٢) فى م ١ : دقلذيانوس فى الفقرة كلها

أو ناموا كما فى أول مرة فإذا حينئذ متعلق بقوله تعالى ﴿ قال الذين غلبوا على أمرهم ﴾ وهم الملك والمسلمون ﴿ لنتخذن عليهم مسجدا ﴾ وقوله تعالى (فقالوا) معطوف على يتنازعون وإيثار صيغة الماضى للدلالة على أن هذا القول ليس مما يستمر ويتجدد كالتنازع وقيل متعلق باذكر مضمرا وأما تعلقه بأعثرنا فيأباه أن إعثارهم ليس فى زمان تنازعهم فيما ذكر بل قبله وجعل وقت التنازع ممتدا يقع فى بعضه الإعثار وفى بعضه التنازع تعسف لا يخفى مع أنه لامخصص لإضافته إلى التنازع وهو مؤخر فى الوقوع .

﴿ سيقولون ﴾ الضمير فى الأفعال الثلاثة للخائضين فى قصتهم فى عهد النبى عليه الصلاة والسلام من أهل الكتاب والمسلمين لكن لا على وجه إسناد كل منها إلى كلهم بل إلى بعضهم ﴿ ثلاثة رابعهم كلبهم ﴾ أى هم ثلاثة أشخاص رابعهم أى جاعلهم أربعة بانضمامه إليهم كلبهم قيل قالته اليهود وقيل قاله السيد من نصارى نجران وكان يعقوبيا وقرىء ثلاث بإدغام الثاء فى التاء ﴿ ويقولون خمسة سادسهم كلبهم ﴾ قيل قالته النصارى أو العاقب منهم وكان نسطوريا ﴿ رجما بالغيب ﴾ رميا بالخبر الخفى الذى لا مطلع عليه أو ظنا بالغيب من قولهم رجم بالظن إذا ظن وانتصابه على الحالية من الضمير فى الفعلين جميعا أى راجمين أو على المصدرية منهما فإن الرجم والقول واحد أو من محذوف مستأنف واقع موقع الحال من الضمير فى الفعلين معا أى يرجمون رجما وعدم إيراد السين للاكتفاء بعطفه على ما فيه ذلك .

﴿ ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم ﴾ هو ما يقوله المسلمون بطريق التلقى من هذا الوحى وما فيه مما يرشدهم إلى ذلك من عدم نظمه فى سلك الرجم بالغيب وتغيير سبكه بزيادة الواو المفيدة لزيادة وكادة النسبة فيما بين طرفيها لا بوحى آخر كما قيل ﴿ قل ﴾ تحقيقا للحق وردا على الأولين ﴿ ربى أعلم ﴾ أى أقوى علما ﴿ بعدتهم ﴾ بعددهم ﴿ ما يعلمهم ﴾ أى ما يعلم عدتهم أو ما يعلمهم فضلا عن العلم بعدتهم ﴿ إلا قليل ﴾ من الناس قد وفقهم الله تعالى للاستشهاد بتلك

الشواهد قال ابن عباس رضى الله عنه حين وقعت الواو انقطعت العدة وعليه مدار قوله رضى الله عنه أنا من ذلك القليل ولو كان فى ذلك وحى آخر لما خفى عليه ولما احتاج إلى الاستشهاد بالواو ولكان المسلمون أسوة له فى العلم بذلك وعن على كرم الله وجهه أنهم سبعة نفر أسماؤهم يمليخا ومكشلينا ومشلينا هؤلاء أصحاب يمين الملك وكان عن يساره مرنوش ودبرنوش وشاذنوش وكان يستشير هؤلاء الستة فى أمره والسابع الراعى الذى رافقهم حين هربوا من ملكهم دقيانوس واسمه كفيشيططيوش ﴿ فلا تمار ﴾ الفاء لتفريع النهى على ما قبله أى إذ قد عرفت جهل أصحاب القولين فلا تجادلهم ﴿فيهم﴾ فى شأن الفتية ﴿إلا مراء ظاهرا ﴾ قدر ما تعرض له الوحى من وصفهم بالرجم بالغيب وعدم العلم على الوجه الإجمال وتفويض العلم إلى الله سبحانه من غير تصريح بجهلهم وتفضيح لهم فإنه يخل بمكارم الأخلاق .

﴿ ولا تستفت فيهم ﴾ فى شأنهم ﴿ منهم ﴾ من الخائضين ﴿ أحدا ﴾ فإن فيما قص عليك لمندوحة عن ذلك مع انه لا علم لهم بذلك وقال عطاء إلا قليل من أهل الكتاب فالضمائر الثلاثة فى الأفعال الثلاثة لهم وما ذكر من الشواهد لإرشاد المؤمنين إلى صحة القول الثالث وفيه محيص عما فى الأول من التكلف فى جعل أحد الأقوال المحكية المنظومة فى سمط واحد ناشئا عن الحكاية مع كون الأخيرين بخلافه ووضوح فى سبب حذف المفعول فى لا تمار ، والمعنى حينئذ وإذ قد وقفت على أن كلهم ليسوا على خطأ فى ذلك فلا تجادلهم إلا جدالا ظاهرا نطق به الوحى المبين من غير تجهيل لجميعهم فإن فيهم مصيبا وإن قل والنهى عن الاستفتاء لدفع ما عسى يتوهم من احتمال جوازه أو احتمال وقوعه بناء على إصابة بعضهم ، فالمعنى لاترجع إليهم[1] فى شأن الفتية ولا تصدق القول الثالث من حيث صدوره عنهم بل من حيث التلقى من الوحى

---

(١) فى ط : فلا تراجع

﴿ ولا تقولن لشيء ﴾ أى لأجل شيء تعزم عليه ﴿ إنى فاعل ذلك ﴾ الشيء ﴿ غدا ﴾ أى فيما يستقبل من الزمان مطلقا فيدخل فيه الغد دخولا أوليا فإنه نزل حين قالت اليهود لقريش سلوه عن الروح وعن أصحاب الكهف وذى القرنين فسألوه عليه الصلاة والسلام فقال ائتونى غدا أخبركم ولم يستثن فأبطأ عليه الوحى حتى شق عليه وكذبته قريش وما قيل من أن المدلول بالعبارة هو الغد وما بعد ذلك مفهوم بطريق دلالة النص يرده أن ما بعده ليس بمعناه فى مناط النهى فإن وسعة المجال دليل القدرة فليتأمل ﴿ إلا أن يشاء الله ﴾ استثناء مفرغ من النهى أى لا تقولن ذلك فى حال من الأحوال إلا حال ملابسته بمشيئته تعالى على الوجه المعتاد وهو أن يقال إن شاء الله أو فى وقت من الأوقات إلا وقت أن يشاء الله أن تقوله لا مطلقا بل مشيئة إذن فإن النسيان أيضاً بمشيئته تعالى، ولا مساغ لتعليقه بفاعل لعدم سداد استثناء اقتران المشيئة بالفعل ومنافاة استثناء اعتراضها النهى، وقيل الاستثناء جار مجرى التأبيد كأنه قيل لا تقولنه أبدا كقوله تعالى: (وما كان لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله) ﴿ واذكر ربك ﴾ بقولك إن شاء الله متداركا له .

﴿ إذا نسيت ﴾ إذا فرط منك نسيان ثم ذكرته وعن ابن عباس رضى الله عنهما ولو بعد سنة ما لم يحنث ولذلك جوز تأخير الاستثناء وعامة الفقهاء على خلافه إذ لو صح ذلك لما تقرر إقرار ولا طلاق ولا عتاق ولم يعلم صدق ولا كذب قال القرطبى هذا فى تدارك الترك والتخلف عن الإثم وإما الاستثناء مبالغة فى الحث عليه أو اذكر ربك وعقابه إذا تركت بعض ما أمرك به ليبعثك ذلك على التدارك أو اذكره إذا اعتراك النسيان ليذكرك المنسى وقد حمل على أداء الصلاة المنسية عند ذكرها ﴿ وقل عسى أن يهدين ربى ﴾ أى يوفقنى ﴿ لأقرب من هذا ﴾ أى لشيء أقرب وأظهر من نبأ أصحاب الكهف من الآيات والدلائل الدالة على نبوتى ﴿ رشدا ﴾ أى إرشادا للناس ودلالة على ذلك وقد فعل عز وجل ذلك حيث آتاه من البينات ما هو أعظم

من ذلك وأبين كقصص الأنبياء المتباعد أيامهم والحوادث النازلة فى الأعصار المستقبلة إلى قيام الساعة أو لأقرب رشدا وأدنى خبرا من المنسى .

﴿ ولبثوا فى كهفهم ﴾ أحياء مضروبا على آذانهم ﴿ ثلثمائةٍ سنين وازدادوا تسعا ﴾ وهى جملة مستأنفة مبينة لما أجمل فيما سلف وأشير إلى عزة مناله وقيل إنه حكاية كلام أهل الكتاب فإنهم اختلفوا فى مدة لبثهم كما اختلفوا فى عدائهم فقال بعضهم هكذا وبعضهم ثلثمائة .

وروى عن على رضى الله عنه أنه قال عند أهل الكتاب أنهم لبثوا ثلثمائة سنة شمسية والله تعالى ذكر السنة القمرية والتفاوت بينهما فى كل مائة سنة ثلاث سنين فيكون ثلثمائة وتسع سنين وسنين عطف بيان لثلثمائة وقيل بدل وقرىء على الإضافة وضعا للجمع موضع المفرد ومما يحسنه ههنا أن علامة الجمع فيه جبر لما حذف فى الواحد وأن الأصل فى العدد إضافته إلى الجمع ﴿ قل الله أعلم بما لبثوا ﴾ أى بالزمان الذى لبثوا فيه .

﴿ له غيب السموات والأرض ﴾ أى ما غاب فيهما وخفى من أحوال أهلهما واللام للاختصاص العلمى دون التكوينى فإنه غير مختص بالغيب ﴿ أبصر به وأسمع ﴾ دل بصيغة التعجب على أن شأن علمه سبحانه بالمبصرات والمسموعات خارج عما عليه إدراك المدركين لا يحجبه شىء ولا يحول دونه حائل ولا يتفاوت بالنسبة إليه اللطيف والكثيف والصغير والكبير والخفى والجلى والهاء ضمير الجلالة ومحله الرفع على الفاعلية والباء مزيدة عند سيبويه وكان أصله أبصر أى صار ذا بصر ثم نقل إلى صيغة الأمر للإنشاء فبرز الضمير لعدم لياقة الصيغة له أو لزيادة الباء كما فى كفى به ، والنصب على المفعولية عند الأخفش والفاعل ضمير المأمور وهو كل أحد والباء مزيدة إن كانت الهمزة للتعدية ومعدية إن كانت للصيرورة ولعل تقديم أمر إبصاره تعالى لما أن الذى نحن بصدده من قبيل المبصرات ﴿ ما لهم ﴾ لأهل السموات والأرض ﴿ من دونه ﴾ تعالى ﴿ من ولى ﴾ يتولى أمورهم وينصرهم استقلالا ﴿ ولا يشرك

فى حكمه ﴾ فى قضائه أو فى علم الغيب ﴿ أحدا ﴾ منهم ولا يجعل له فيه مدخلا وهو كما ترى أبلغ فى نفى الشريك من أن يقال من ولى ولا شريك وقرىء على صيغة نهى الحاضر على أن الخطاب لكل أحد ولما دل انتظام القرآن الكريم لقصة أصحاب الكهف من حيث أنهم بالنسبة إلى النبى صلى الله عليه وسلم من المغيبات على أنه وحى معجز أمره عليه السلام بالمداومة على دراسته فقال ﴿ واتل ما أوحى إليك من كتاب ربك ﴾ ولا تسمع لقولهم ائت بقرآن غير هذا أو بدله ﴿ لا مبدل لكلماته ﴾ لا قادر على تبديله وتغييره غيره ﴿ ولن تجد ﴾ أبد الدهر وإن بالغت فى الطلب ﴿ من دونه ملتحدا ﴾ ملجأ تعدل إليه عند إلمام ملمة .

﴿ واصبر نفسك ﴾ احبسها وثبتها مصاحبة ﴿ مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى ﴾ أى دائبين على الدعاء فى جميع الأوقات وقيل فى طرفى النهار وقرىء بالغدوة على أن إدخال اللام عليها وهى علم فى الأغلب على تأويل التنكير بهم والمراد بهم فقراء المؤمنين مثل صهيب وعمار وخباب ونحوهم رضى الله عنهم وقيل أصحاب الصفة وكانوا نحو سبعمائة رجل قيل إنه قاله قوم من رؤساء الكفرة لرسول الله صلى الله عليه وسلم نح هؤلاء الموالى الذين كأن ريحهم ريح الضأن حتى نجالسك كما قال قوم نوح عليه السلام (أنؤمن لك واتبعك الأرذلون) فنزلت والتعبير عنهم بالموصول لتعليل الأمر بما فى حيز الصلة من الخصلة الداعية إلى إدامة الصحبة ﴿ يريدون ﴾ بدعائهم ذلك ﴿ وجهه ﴾ حال من المستكن فى يدعون أى مريدين لرضاه تعالى وطاعته .

﴿ ولا تعد عيناك عنهم ﴾ أى لا يجاوزهم نظرك إلى غيرهم من عداه أى جاوزه واستعماله بعن لتضمينه معنى النبو أو لا تصرف عيناك النظر عنهم إلى غيرهم من عدوته عن الأمر أى صرفته عنه على أن المفعول محذوف لظهوره وقرىء ولا تعد عينيك ولا تعد عينيك من الإعداء والتعدية والمراد نهيه عليه السلام عن الازدراء بهم لرثاثة زيهم طموحا إلى زى الأغنياء

﴿ تريد زينة الحيوة الدنيا ﴾ أى تطلب مجالسة الأشراف والأغنياء وأصحاب الدنيا وهى حال من الكاف على الوجه الأول من القراءة المشهورة ومن الفاعل على الوجه الثانى منها وضمير تريد للعينين وإسناد الإرادة إليه مجاز وتوحيده للتلازم كما فى قوله :

لمن زحلوفة زل بها العينان تنهل

ومن المستكن فى الفعل على القراءتين الأخيرتين ﴿ ولا تطع ﴾ فى تنحية الفقراء عن مجالسك ﴿ من أغفلنا قلبه ﴾ أى جعلناه غافلا لبطلان استعداده للذكر بالمرة أو وجدناه غافلا كقولك أجبنته وأبخلته إذا وجدته كذلك أو هو من أغفل ابله أى لم نسمه بالذكر ﴿ عن ذكرنا ﴾ كأولئك الذين يدعونك إلى طرد الفقراء عن مجلسك فإنهم غافلون عن ذكرنا على خلاف ما عليه المؤمنون من الدعاء فى مجامع الأوقات وفيه تنبيه على أن الباعث له على ذلك الدعاء غفلة قلبه عن جناب الله سبحانه وجهته وانهماكه فى الحسيات حتى خفى عليه أن الشرف بحلية النفس لا بزينة الجسد ، وقرىء أغفلنا قلبه ، على إسناد الفعل إلى القلب أى حسبنا غافلين عن ذكرنا إياه بالمؤاخذة من أغفلته إذا وجدته غافلا ﴿ واتبع هواه وكان أمره فرطا ﴾ ضياعا وهلاكا أومتقدما للحق والصواب نابذا له وراء ظهره من قولهم فرس فرط أى متقدم للخيل أو هو بمعنى الإفراط والتفريط فإن الغفلة عن ذكره سبحانه تؤدى إلى اتباع الهوى المؤدى إلى التجاوز والتباعد عن الحق والصواب والتعبير عنهم بالموصول للإيذان بعلية ما فى حيز الصلة للنهى عن الإطاعة .

﴿ وقل ﴾ لأولئك الغافلين المتبعين هواهم ﴿ الحق من ربكم ﴾ أى ما أوحى إلى الحق لا غير كائنا من ربكم أو الحق المعهود من جهة ربكم لا من جهتى حتى يتصور فيه التبديل أو يمكن التردد فى اتباعه وقوله تعالى ﴿ فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ﴾ إما من تمام القول المأمور به والفاء لترتيب ما بعدها

على ما قبلها بطريق التهديد لا لتفريعه عليه كما فى قوله تعالى (هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب) وقوله تعالى (الحق من ربك فلا تكونن من الممترين) أى عقيب تحقق أن ما أوحى إلى حق لا ريب فيه وأن ذلك الحق من جهة ربكم فمن شاء أن يؤمن كسائر المؤمنين ولا يتعلل بما لا يكاد يصلح للتعلل ومن شاء أن يكفر به فليفعل وفيه من التهديد وإظهار الاستغناء عن متابعتهم وعدم المبالاة بهم وبإيمانهم وجودا وعدما ما لا يخفى وإما تهديد من جهة الله تعالى والفاء لترتيب ما بعدها من التهديد على الأمر لا على مضمون المأمور به والمعنى قل لهم ذلك وبعد ذلك من شاء أن يؤمن به أو أن يصدقك فيه فليؤمن ومن شاء أن يكفر به أو يكذبك فيه فليفعل فقوله تعالى :

﴿ إنا أعتدنا ﴾ وعيد شديد وتأكيد للتهديد وتعليل لما يفيده من الزجر عن الكفر أو لما يفهم من ظاهر التخيير من عدم المبالاة بكفرهم وقلة الاهتمام بزجرهم عنه فإن إعداد جزائه من دواعى الإملاء والإمهال وعلى الوجه الأول هو تعليل للأمر بما ذكر من التخيير التهديدى أى قل لهم ذلك إنا أعتدنا ﴿ للظالمين ﴾ أى هيأنا للكافرين بالحق بعد ما جاء من الله سبحانه والتعبير عنهم بالظالمين للتنبيه على أن مشيئة الكفر واختياره تجاوز عن الحد ووضع للشىء فى غير موضعه ﴿ نارا ﴾ عظيمة عجيبة ﴿ أحاط بهم ﴾ أى يحيط بهم وإيثار صيغة الماضى للدلالة على التحقق ﴿ سرادقها ﴾ أى فسطاطها شبه به ما يحيط بهم من النار وقيل السرادق الحجرة التى تكون حول الفسطاط وقيل سرادقها دخانها وقيل حائط من نار ﴿ وإن يستغيثوا ﴾ من العطش ﴿ يغاثوا بماء كالمهل ﴾ كالحديد المذاب وقيل كدردى الزيت وهو على طريقة قوله فاعتبوا بالصيلم ﴿ يشوى الوجوه ﴾ إذا قدم ليشرب انشوى الوجه لحرارته عن النبى عليه الصلاة والسلام هو كعكر الزيت فإذا قرب إليه سقطت فروة وجهه ﴿ بئس الشراب ﴾ ذلك ﴿ وساءت ﴾ النار ﴿ مرتفقا ﴾ متكأ وأصل الارتفاق نصب المرفق تحت الخد وأنى ذلك فى النار وإنما هو بمقابلة قوله تعالى (حسنت مرتفقا) .

عاقبة المؤمنين

﴿ إن الذين آمنوا ﴾ فى محل التعليل للحث على الإيمان المنفهم من التخيير كأنه قيل وللذين آمنوا ولعل تغيير سبكه للإيذان بكمال تنافى مآلى الفريقين أى إن الذين آمنوا بالحق الذى أوحى إليك ﴿ وعملوا الصالحات ﴾ حسبما بين فى تضاعيفه ﴿ إنا لانضيع أجر من أحسن عملا ﴾ خبر إن الأولى هى الثانية مع ما فى حيزها والراجع محذوف أى من أحسن منهم عملا أو مستغنى عنه كما فى قولك نعم الرجل زيد أو واقع موقعه الظاهر فإن من أحسن عملا فى الحقيقة هو الذى آمن وعمل الصالحات ﴿ أولئك ﴾ المنعوتون بالنعوت الجليلة ﴿ لهم جنات عدن تجرى من تحتهم الأنهار ﴾ استئناف لبيان الأجر أو هو الخبر وما بينهما اعتراض أو هو خبر بعد خبر ﴿ يحلون فيها من أساور من ذهب ﴾ من الأولى ابتدائية والثانية بيانية صفة لأساور والتنكير للتفخيم وهو جمع أسورة أو أسوار جمع سوار .

﴿ ويلبسون ثيابا خضرا ﴾ خصت الخضرة بثيابهم لأنها أحسن الألوان وأكثرها طراوة ﴿ من سندس واستبرق ﴾ أى مما رق من الديباج وغلظ جمع بين النوعين للدلالة على أن فيها ما تشتهى الأنفس وتلذ الأعين ﴿ متكئين فيها على الأرائك ﴾ على السرر على ما هو شأن المتنعمين ﴿ نعم الثواب ﴾ ذلك ﴿ وحسنت ﴾ أى الأرائك ﴿ مرتفقا ﴾ أى متكأ ﴿ واضرب لهم ﴾ أى للفريقين الكافر والمؤمن ﴿ مثلا رجلين ﴾ مفعولان لاضرب أولهما ثانيهما لأنه المحتاج إلى التفصيل والبيان أى اضرب للكافرين والمؤمنين لا من حيث أحوالهما المستفادة مما ذكر آنفا من أن للأولين فى الآخرة كذا بل من حيث عصيان الأولين مع تقلبهم فى نعم الله تعالى وطاعة الآخرين مع مكابدتهم مشاق الفقر مثلا حال رجلين مقدرين أو محققين هما أخوان من بنى إسرائيل أو شريكان كافر اسمه قطروس ومؤمن اسمه يهوذا اقتسما ثمانية آلاف دينار فاشترى الكافر بنصيبه ضياعا وعقارا وصرف المؤمن نصيبه إلى وجوه المبار فآل أمرهما إلى

ما حكاه الله تعالى ، وقيل : هما أخوان من بنى مخزوم كافر هو الأسود بن عبد الله بن عبد الأسد زوج أم سلمة رضى الله عنها أولا ﴿جعلنا لأحدهما﴾ وهو الكافر ﴿ جنتين ﴾ بستانين ﴿من أعناب﴾ من كروم متنوعة والجملة بتمامها بيان للتمثيل أوصفة لرجلين .

﴿وحففناهما بنخل﴾ أى جعلنا النخل محيطة بهما مؤزراً بها كرومهما يقال حفه القوم إذا طافوا به وحففته بهم جعلتهم حافين حوله فيزيده الباء مفعولا آخر كقولك غشيته به ﴿ وجعلنا بينهما ﴾ وسطهما ﴿ زرعا ﴾ ليكون كل منهما جامعا للأقوات والفواكه متواصل العمارة على الهيئة الرائقة والوضع الأنيق .

﴿ كلتا الجنتين آتت أكلها ﴾ ثمرها وبلغت مبلغا صالحا للأكل وقرىء بسكون الكاف وقرىء كل الجنتين آتى أكله ﴿ ولم تظلم منه ﴾ لم تنقص من أكلها ﴿ شيئاً ﴾ كما يعهد ذلك فى سائر البساتين فإن الثمار غالبا تكثر فى عام وتقل فى آخر وكذا بعض الأشجار يأتى بالثمر فى بعض الأعوام دون بعض ﴿ وفجرنا خلالهما ﴾ فيما بين كل من الجنتين ﴿ نهرا ﴾ على حدة ليدوم شربهما ويزيد بهاؤهما وقرىء بالتخفيف ولعل تأخير ذكر تفجير النهر عن ذكر إيتاء الأكل مع أن الترتيب الخارجى على العكس للإيذان باستقلال كل من إيتاء الأكل وتفجير النهر فى تكميل محاسن الجنتين كما فى قصة البقرة ونحوها ولو عكس لانفهم أن المجموع خصلة واحدة بعضها مترتب على بعض فإن إيتاء الأكل متفرع على السقى عادة وفيه إيماء إلى أن إيتاء الأكل لايتوقف على السقى كقوله تعالى (يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار) .

﴿ وكان له ﴾ لصاحب الجنتين ﴿ ثمر ﴾ أنواع من المال غير الجنتين من ثمر ماله إذا كثره قال ابن عباس رضى الله عنهما هو جميع المال من الذهب والفضة والحيوان وغير ذلك وقال مجاهد هو الذهب والفضة خاصة ﴿ فقال لصاحبه ﴾ ﴿المؤمن وهو ﴾ أى القائل ﴿ يحاوره ﴾ أى صاحبه المؤمن وإن جاز العكس

أى يراجعه فى الكلام من حار إذا رجع ﴿ أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا ﴾ حشما وأعوانا أو أولادا ذاكورا لأنهم الذين ينفرون معه ﴿ ودخل جنته ﴾ التى شرحت أحوالها وعددها وصفاتها وهيآتها وتوحيدها أما لعدم تعلق الغرض بتعددها وإما لاتصال إحداهما بالأخرى وإما لأن الدخول يكون فى واحدة فواحدة ﴿ وهو ظالم لنفسه ﴾ ضار لها بعجبه وكفره ﴿ قال ﴾ استئناف مبنى على سؤال نشأ من ذكر دخول جنته حال ظلمه لنفسه كأنه قيل فماذا قال إذ ذاك فقيل قال ﴿ ما أظن أن تبيد هذه ﴾ الجنة أى تفنى ﴿ أبداً ﴾ لطول أمله وتمادى غفلته واغتراره بمهلته ولعله إنما قاله بمقابلة موعظة صاحبه وتذكيره بفناء جنتيه ونهيه عن الاغترار بهما وأمره بتحصيل الباقيات الصالحات .

﴿ وما أظن الساعة قائمة ﴾ كائنة فيما سيأتى ﴿ ولئن رددت ﴾ بالبعث عند قيامها كما تقول ﴿ إلى ربى لأجدن ﴾ يومئذ ﴿ خيرا منها ﴾ أى من هذه الجنة وقرىء منهما أى من الجنتين ﴿ منقلبا ﴾ مرجعا وعاقبة ومدار هذا الطمع واليمين الفاجرة اعتقاد أنه تعالى إنما أولاه ما أولاه فى الدنيا لاستحقاقه الذاتى وكرامته عليه سبحانه ولم يدر أن ذلك استدراج ﴿ قال له صاحبه ﴾ استئناف كما سبق ﴿ وهو يحاوره ﴾ جملة حالية كما مر فائدتها التنبيه من أول الأمر على أن ما يتلوه كلام معتنى بشأنه مسوق للمحاورة ﴿ أكفرت ﴾ حيث قلت ما أظن الساعة قائمة ﴿ بالذى خلقك ﴾ أى فى ضمن خلق أصلك ﴿ من تراب ﴾ فإن خلق آدم عليه السلام منه متضمن لخلقه منه لما أن خلق كل فرد من أفراد البشر له حظ من خلقه عليه السلام إذ لم تكن فطرته الشريفة مقصورة على نفسه بل كانت أنموذجا منطويا على فطرة سائر أفراد الجنس انطواء إجماليا مستتبعا لجريان آثارها على الكل فكان خلقه عليه السلام من التراب خلقا للكل منه وقيل خلقك منه لأنه أصل مادتك إذ به يحصل الغذاء الذى منه تحصل النطفة فتدبر ﴿ من نطفة ﴾ هى مادتك القريبة فالمخلوق واحد والمبدأ متعدد .

﴿ ثم سواك رجلا ﴾ أى عدلك وكملك إنسانا ذكرا أو صيرك رجلا والتعبير عنه تعالى بالموصول للإشعار بعلية ما حيز الصلة لإنكار الكفر

والتلويح بدليل البعث الذى نطق به قوله عز من قائل (يا أيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب) الخ ﴿ لكنا هو الله ربى ﴾ أصله لكن أنا وقد قرىء كذلك فحذفت الهمزة فتلاقت النونان فكان الإدغام وهو ضمير الشأن وهو مبتدأ خبره الله ربى وتلك الجملة خبر أنا والعائد منها إليه الضمير وقرىء بإثبات ألف أنا فى الوصل والوقف جميعا وفى الوقف خاصة وقرىء لكنه بالهاء ولكن بطرح أنا ولكن أنا لا إله إلا هو ربى ومدار الاستدراك قوله تعالى(أكفرت) كأنه قال أنت كافر لكنى مؤمن موحد ﴿ ولا أشرك بربى أحدا ﴾ فيه إيذان بأن كفره كان بطريق الإشراك .

﴿ ولولا إذ دخلت جنتك قلت ﴾ أى هلا قلت عندما دخلتها وتقديم الظرف على المحضض عليه للإيذان بتحتم القول فى آن الدخول من غير ريث لا للقصر ﴿ ما شاء الله ﴾ أى الأمر ما شاء الله أو ما شاء الله كائن على أن ما موصولة مرفوعة المحل أو أى شىء شاء الله كان على أنها شرطية منصوبة والجواب محذوف والمراد تحضيضه على الاعتراف بأنها وما فيها بمشيئة الله تعالى إن شاء أبقاها وإن شاء أفناها ﴿ لا قوة إلا بالله ﴾ أى هلا قلت ذلك اعترافا بعجزك وبأن ماتيسر لك من عمارتها وتدبير أمرها إنما هو بمعونته تعالى وإقداره عن النبى صلى الله عليه وسلم من رأى شيئاً فأعجبه فقال ما شاء الله لا قوة إلا بالله لم يضره ﴿ إن ترن أنا أقل منك مالا وولدا ﴾ أنا إما مؤكد لياء المتكلم أو ضمير فصل بين مفعولى الرؤية إن جعلت علمية وأقل ثانيهما وحال إن جعلت بصرية فيكون أنا حينئذ تأكيدا لا غير لأن شرط كونه ضمير فصل توسطه بين المبتدأ والخبر أو ما أصله المبتدأ والخبر وقرىء أقل بالرفع خبرا لأنا والجملة مفعول ثان للرؤية أو حال وفى قوله تعالى وولدا نصرة لمن فسر النفر بالولد ﴿ فعسى ربى أن يؤتين خيرا من جنتك ﴾ هو جواب الشرط والمعنى إن ترن أفقر منك فأنا أتوقع من صنع الله سبحانه أن يقلب ما بى وما بك من الفقر والغنى فيرزقنى لإيمانى جنة خيرا من جنتك ويسلبك لكفرك نعمته ويخرب جنتك ﴿ ويرسل عليها حسبانا ﴾ هو مصدر بمعنى الحساب كالبطلان والغفران

أى مقدارا قدره تعالى وحسبه وهو الحكم بتخريبها وقيل عذاب حسبان وهو حساب ما كسبت يداه وقيل مرامى جمع حسبانة وهى الصواعق ومساعدة النظم الكريم فيما سيأتى للأولين أكثر ﴿ من السماء فتصبح صعيدا زلقا ﴾ مصدرا أريد به المفعول مبالغة أى أرضا ملساء يزلق عليها لاستئصال ما عليها من البناء والشجر والنبات .

﴿ أو يصبح ﴾ عطف على قوله تعالى فتصبح وعلى الوجه الثالث على يرسل ﴿ ماؤها غورا ﴾ أى غائرا فى الأرض أطلق عليه المصدر مبالغة ﴿ فلن تستطيع ﴾ أبدا ﴿ له ﴾ أى للماء الغائر ﴿ طلبا ﴾ فضلا عن وجدانه ورده ﴿ وأحيط بثمره ﴾ أهلك أمواله المعهودة من جنتيه وما فيهما وأصله من إحاطة العدو وهو عطف على مقدر كأنه قيل فوقع بعض ما توقع من المحذور وأهلك أمواله وإنما حذف لدلالة السباق والسياق عليه كما فى المعطوف عليه بالفاء الفصيحة ﴿ فأصبح يقلب كفيه ﴾ ظهرا لبطن وهو كناية عن الندم كأنه قيل فأصبح يندم ﴿ على ما أنفق فيها ﴾ أى فى عمارتها من المال ولعل تخصيص الندم به دون ما هلك الآن من الجنه لما أنه إنما يكون على الأفعال الاختيارية ولأن ما أنفق فى عمارتها كان مما يمكن صيانته عن طوارق الحدثان وقد صرفه إلى مصالحها رجاء أن يتمتع به وكان يرى أنه لا تنالها أيدى الردى ولذلك قال ما أظن أن تبيد هذه أبدا فلما ظهر له أنها مما يعتريه الهلاك ندم على ما صنع بناء على الزعم الفاسد من إنفاق ما يمكن ادخاره فى مثل هذا الشيء السريع الزوال .

﴿ وهى ﴾ أى الجنة من الأعناب المحفوفة بنخل ﴿ خاوية ﴾ ساقطة ﴿ على عروشها ﴾ أى دعائمها المصنوعة للكروم لسقوطها قبل سقوطها وتخصيص حالها بالذكر دون النخل والزروع إما لأنها العمدة وهما من متمماتها وإما لأن ذكر هلاكها مغن عن ذكر هلاك الباقى لأنها حيث هلكت وهى مشيدة بعروشها فهلاك ما عداها بالطريق الأولى وإما لأن الإنفاق فى عمارتها أكثر وقيل أرسل الله تعالى عليها نارا فأحرقها وغار ماؤها ﴿ ويقول ﴾ عطف على يقلب

أو حال من ضميره أى وهو يقول ﴿ياليتنى لم أشرك بربى أحدا﴾ كأنه تذكر موعظة أخيه وعلم أنه إنما أتى من قبل شركه فتمنى لو لم يكن مشركا فلم يصبه ما أصابه قيل ويحتمل أن يكون ذلك توبة من الشرك وندما على ما فرط منه ﴿ ولم تكن له ﴾ وقرىء بالياء التحتانية ﴿ فئة ينصرونه ﴾ يقدرون على نصره بدفع الإهلاك أو على رد المهلك أو الإتيان بمثله وجمع الضمير باعتبار المعنى كما فى قوله عز وعلا(يرونهم مثليهم) ﴿من دون الله﴾ فإنه القادر على ذلك وحده ﴿ وما كان ﴾ فى نفسه ﴿ منتصرا ﴾ ممتنعا بقوته عن انتقامه سبحانه ﴿هنالك﴾ فى ذلك المقام وفى تلك الحال ﴿الولاية لله الحق﴾ أى النصرة له وحده لا يقدر عليها أحد فهو تقرير لما قبله أو ينصر فيها أولياءه من المؤمنين على الكفرة كما نصر بما فعل بالكافر أخاه المؤمن ويعضده قوله تعالى ﴿ هو خير ثوابا وخير عقبا ﴾ أى لأوليائه وقرىء الولاية بكسر الواو ومعناها الملك والسلطان له عز وجل لا يغلب ولا يمتنع منه أو لا يعبد غيره كقوله تعالى(وإذا ركبوا فى الفلك دعوا الله مخلصين) له الدين فيكون تنبيها على أن قوله ياليتنى لم أشرك الخ كان عن اضطرار وجزع عما دهاه على أسلوب قوله تعالى (آلآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين) وقيل هنالك إشارة إلى الآخرة كقوله تعالى (لمن الملك اليوم لله الواحد القهار) وقرىء برفع الحق على أنه صفة للولاية وبنصبه على أنه مصدر مؤكد ، وقرىء عقبا بضم القاف وعقبى كرجعى والكل بمعنى العاقبة .

﴿ واضرب لهم مثل الحيوة الدنيا ﴾ أى واذكر لهم ما يشبهها فى زهرتها ونضارتها وسرعة زوالها لئلا يطمئنوا بها ولا يعكفوا عليها ولا يضربوا عن الآخرة صفحا بالمرة أو بين لهم صفتها العجيبة التى هى فى الغرابة كالمثل ﴿ كماء ﴾ استئناف لبيان المثل أى هى كماء ﴿ أنزلناه من السماء ﴾ ويجوز كونه مفعولا ثانيا لاضرب على أنه بمعنى صير ﴿فاختلط به﴾ اشتبك بسببه ﴿نبات الأرض﴾ فالتف وخالط بعضه بعضا من كثرته وتكاثفه أو نجع الماء فى النبات حتى

روى ورف فمقتضى الظاهر حينئذ فاختلط بنبات الأرض وإيثار ما عليه النظم الكريم عليه للمبالغة فى الكثرة فإن كلا من المختلطين موصوف بصفة صاحبه ﴿ فأصبح ﴾ ذلك النبات الملتف إثر بهجتها ورفيفها ﴿ هشيما ﴾ مشهوما مكسورا ﴿ تذروه الرياح ﴾ تفرقه وقرىء تذريه من أذراه وتذروه الريح وليس المشبه به نفس الماء بل هو الهيئة المنتزعة من الجملة وهى حال النبات المنبت بالماء يكون أخضر وارفا ثم هشيما تطيره الرياح كان لم يغن بالأمس ﴿ وكان الله على كل شىء ﴾ من الأشياء التى من جملتها الإنشاء والإفناء ﴿ مقتدرا ﴾ قادرا على الكمال ﴿ المال والبنون زينة الحيوة الدنيا ﴾ بيان لشأن ما كانوا يفتخرون به من محسنات الحياة الدنيا كما قال الأخ الكافر أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا إثر بيان شأن نفسها بما مر من المثل وتقديم المال على البنين مع كونهم أعز منه كما فى الآية المحكية آنفا وقوله تعالى (وأمددناكم بأموال وبنين) وغير ذلك من الآيات الكريمة لعراقته فيما نيط به من الزينة والإمداد وغير ذلك وعمومه بالنسبة إلى الأفراد والأوقات فإنه زينة وممد لكل أحد من الآباء والبنين فى كل وقت وحين وأما البنون فزينتهم وإمدادهم إنما يكون بالنسبة إلى من بلغ مبلغ الأبوة ولأن المال مناط لبقاء النفس والبنين لبقاء النوع ولأن الحاجة إليه أمس من الحاجة إليهم ولأنه أقدر منهم فى الوجود ولأنه زينة بدونهم من غير عكس فإن من له بنون بلا مال فهو فى ضيق حال ونكال وإفراد الزينة مع أنها مسندة إلى الاثنين لما أنها مصدر فى الأصل أطلق على المفعول مبالغة كأنهما نفس الزينة والمعنى إن ما يفتخرون به من المال والبنين شىء يتزين به فى الحياة الدنيا وقد علم شأنها فى سرعة الزوال وقرب الاضمحلال فكيف بما هو من أوصافها التى شأنها أن تزول قبل زوالها .

﴿ والباقيات الصالحات ﴾ هى أعمال الخير وقيل هى الصلوات الخمس وقيل سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر وقيل كل ما أريد به وجه

الله تعالى وعلى كل تقدير يدخل فيها أعمال فقراء المؤمنين الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه دخولا أوليا أما صلاحها فظاهر وأما بقاء عوائدها عند فناء كل ما تطمح إليه النفس من حظوظ الدنيا ﴿ خير ﴾ أى مما نعت شأنه من المال والبنين وإخراج بقاء تلك الأعمال وصلاحها مخرج الصفات المفروغ عنها مع أن حقهما أن يكونا مقصودى الإفادة لاسيما فى مقابلة إثبات الفناء لما يقابلها من المال والبنين على طريقة قوله تعالى (ما عندكم ينفد وما عند الله باق) للإيذان بأن بقاءها أمر محقق لاحاجة إلى بيانه بل لفظ الباقيات اسم لها وصف ولذلك لم يذكر الموصوف وإنما الذى يحتاج إلى التعرض لهخيريتها ﴿ عند ربك ﴾ أى فى الآخرة وهو بيان لما يظهر فيه آثار خيريتها بمنزلة إضافة الزينة إلى الحياة الدنيا لا لأفضليتها فيها من المال والبنين مع مشاركة الكل فى الأصل إذ لا مشاركة لهما فى الخيرية فى الآخرة ﴿ ثوابا ﴾ عائدة تعود إلى صاحبها ﴿ وخير أملا ﴾ حيث ينال بها صاحبها فى الآخرة كل ما كان يؤمله فى الدنيا وأما ما مر من المال والبنين فليس لصاحبه أمل يناله وتكرير خير للإشعار باختلاف حيثيتى الخيرية والمبالغة فيها ﴿ ويوم نسير الجبال ﴾ منصوب بمضمر أى اذكر حين نقلعها من أماكنها ونسيرها فى الجو على هيئاتها كما ينبىء عنه قوله تعالى (وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب) أو نسير أجزاءها بعد أن نجعلها هباء منبثا والمراد بتذكيره تحذير المشركين مما فيه من الدواهى وقيل هو معطوف على ما قبله من قوله تعالى(عند ربك) أى الباقيات الصالحات خير عند الله ويوم القيامة وقرىء تسير على صيغة البناء للمفعول من التفعيل جريا على سنن الكبرياء وإيذانا بالاستغناء عن الإسناد إلى الفاعل لتعينه وقرىء تسير .

﴿ وترى الأرض ﴾ أى جميع جوانبها والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم أو لكل أحد ممن يتأتى منه الرؤية وقرىء ترى على صيغة البناء للمفعول ﴿ بارزة ﴾ أما بروز ما تحت الجبال فظاهر وأما ما عداه فكانت

الجبال تحول بينه وبين الناظر قبل ذلك فالآن أضحى قاعا صفصفا لا ترى فيها عوجا ولا أمتا ﴿ وحشرناهم ﴾ جمعناهم إلى الموقف من كل أوب وإيثار صيغة الماضي بعد نسير وترى للدلالة على تحقق الحشر المتفرع على البعث الذى ينكره المنكرون وعليه يدور أمر الجزاء وكذا الكلام فيما عطف عليه منفيا وموجبا وقيل هو للدلالة على أن حشرهم قبل التسيير والبروز ليعاينوا تلك الأهوال كأنه قيل وحشرناهم قبل ذلك ﴿ فلم نغادر ﴾ أى لم نترك ﴿ منهم أحدا ﴾ يقال غادره إذا تركه ومنه الغدر الذى هو ترك الوفاء والغدير الذى هو ماء يتركه السيل فى الأرض الغائرة وقرىء بالياء وبالفوقانية على إسناد الفعل إلى ضمير الأرض كما فى قوله تعالى (وألقت ما فيها وتخلت) .

﴿ وعرضوا على ربك ﴾ شبهت حالهم بحال جند عرضوا على السلطان ليأمر فيهم بما يأمر وفى الالتفات إلى الغيبة وبناء الفعل للمفعول مع التعرض لعنوان الربوبية والإضافة إلى ضميره عليه السلام من تربية المهابة والجرى على سنن الكبرياء وإظهار اللطف به عليه السلام ما لا يخفى ﴿ صفا ﴾ أى غير متفرقين ولا مختلطين فلا تعرض فيه لوحدة الصف وتعدده وقد ورد فى الحديث الصحيح يجمع الله الأولين والآخرين فى صعيد واحد صفوفا ﴿ لقد جئتمونا ﴾ على إضمار القول على وجه يكون حالا من ضمير عرضوا أى مقولا لهم أو وقلنا لهم وأما كونه عاملا فى يوم نسير كما قيل فبعيد من جزالة التنزيل الجليل كيف لا ويلزم منه أن هذا القول هو المقصود بالأصالة دون سائر القوارع مع أنه خاص التعلق بما قبله من العرض والحشر دون تسيير الجبال وبروز الأرض ﴿ كما خلقناكم ﴾ نعت لمصدر مقدر أى مجيئا كائنا كمجيئكم عند خلقنا لكم .

﴿ أول مرة ﴾ أو حال من ضمير جئتمونا أى كائنين كما خلقناكم أول مرة حفاة عراة غرلا أو ما معكم شىء مما تفتخرون به من الأموال والأنصار كقوله تعالى (ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خولناكم

وراء ظهوركم) ﴿ بل زعمتم أن لن نجعل لكم موعدا ﴾ إضراب وانتقال من كلام إلى كلام كلاهما للتوبيخ والتقريع أى زعمتم فى الدنيا أنه لن نجعل لكم أبدا وقتا ننجز فيه ما وعدناه من البعث وما يتبعه وأن مخففة من المثقلة فصل بحرف النفى بينها وبين خبرها لكونه جملة فعلية متصرفه غير دعاء والظرف إما مفعول ثان للجعل وهو بمعنى التصيير والأول هو موعدا أو حال من موعدا وهو بمعنى الخلق والإبداع ﴿ ووضع الكتاب ﴾ عطف على عرضوا داخل تحت الأمور الهائلة التى أريد تذكيرها بتذكير وقتها أورد فيه ما أورد فى أمثاله من صيغة الماضى دلالة على التقرر أيضا أى وضع صحائف الأعمال وإيثار الإفراد للاكتفاء بالجنس والمراد بوضعها إما وضعها فى أيدى أصحابها يمينا وشمالا وإما فى الميزان ﴿ فترى المجرمين ﴾ قاطبة فيدخل فيهم الكفرة المنكرون للبعث دخولا أوليا ﴿ مشفقين ﴾ خائفين ﴿ مما فيه ﴾ من الجرائم والذنوب .

﴿ ويقولون ﴾ عند وقوفهم على ما فى تضاعيفه نقيرا وقطميرا ﴿ ياويلتنا ﴾ منادين لهلكتهم التى هلكوها من بين الهلكات مستدعين لها ليهلكوا ولا يروا هول ما لاقوه أى ياويلتنا احضرى فهذا أوان حضورك ﴿ ما لهذا الكتاب ﴾ أى أى شىء له وقوله تعالى ﴿ لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ﴾ أى حواها وضبطها جملة حالية محققة لما فى الجملة الاستفهامية من التعجب أو استئنافية مبنية على سؤال نشأ من التعجب كأنه قيل ما شأنه حتى يتعجب منه فقيل لا يغادر سيئة صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ﴿ ووجدوا ما عملوا ﴾ فى الدنيا من السيئات أو جزاء ما عملوا ﴿ حاضرا ﴾ مسطورا عتيدا ﴿ ولا يظلم ربك أحدا ﴾ فيكتب ما لم يعمل من السيئات أو يزيد فى عقابه المستحق فيكون إظهارا لمعدلة القلم الأزلى .

﴿ وإذ قلنا للملائكة ﴾ أى اذكر وقت قولنا لهم ﴿ اسجدوا لآدم ﴾ سجود تحية وتكريم وقد مر تفصيله ﴿ فسجدوا ﴾ جميعا امتثالا بالأمر ﴿ إلا

إبليس ﴾ فإنه لم يسجد بل أبى واستكبر وقوله تعالى ﴿ كان من الجن ﴾ كلام مستأنف سيق مساق التعليل لما يفيده استثناء اللعين من الساجدين كأنه قيل ماله لم يسجد فقيل كان أصله جنيا ﴿ ففسق عن أمر ربه ﴾ أى خرج عن طاعته كما ينبىء عنه الفاء أو صار فاسقا كافرا بسبب أمر الله تعالى إذ لولاه لما أبى والتعرض لوصف الربوبية المنافية للفسق لبيان كمال قبح ما فعله والمراد بتذكير قصته تشديد النكير على المتكبرين المفتخرين بأنسابهم وأموالهم المستنكفين عن الانتظام فى سلك فقراء المؤمنين ببيان أن ذلك من صنيع إبليس وأنهم فى ذلك تابعون لتسويله كما ينبىء عنه قوله تعالى :

﴿ أفتتخذونه ﴾ الخ فإن الهمزة للإنكار والتعجب والفاء للتعقيب أى أعقيب علمكم بصدور تلك القبائح عنه تتخذونه ﴿ وذريته ﴾ أى أولاده وأتباعه جعلوا ذريته مجازا قال قتادة يتوالدون كما يتوالد بنو آدم وقيل يدخل ذنبه فى دبره فيبيض فتنفلق البيضة عن جماعة من الشياطين ﴿ أولياء من دونى ﴾ فتستبدلونهم بى فتطيعونهم بدل طاعتى ﴿ وهم ﴾ أى والحال أن إبليس وذريته ﴿ لكم عدو ﴾ أى أعداء كما فى قوله تعالى (فإنهم عدو لى إلا رب العالمين) وقوله تعالى (هم العدو) وإنما فعل به ذلك تشبيها له بالمصادر نحو القبول والولوع وتقييد الاتخاذ بالجملة الحالية لتأكيد الإنكار وتشديده فإن مضمونها مانع من وقوع الاتخاذ ومناف له قطعا ﴿ بئس للظالمين ﴾ أى الواضعين للشىء فى غير موضعه ﴿ بدلا ﴾ من الله سبحانه إبليس وذريته وفى الالتفات إلى الغيبة مع وضع الظالمين موضع الضمير من الإيذان بكمال السخط والإشارة إلى أن ما فعلوه ظلم قبيح ما لا يخفى ﴿ ما أشهدتهم ﴾ استئناف مسوق لبيان عدم استحقاقهم للاتخاذ المذكور فى أنفسهم بعد بيان الصوارف عن ذلك من خباثة المحتد والفسق والعداوة أى ما أحضرت إبليس وذريته ﴿ خلق السموات والأرض ﴾ حيث خلقتهما قبل خلقهم .

﴿ ولا خلق أنفسهم ﴾ أى ولا أشهدت بعضهم خلق بعض كقوله تعالى ﴿ ولا تقتلوا أنفسكم ﴾ هذا ما أجمع عليه الجمهور حذارا من تفكيك الضميرين ومحافظة على ظاهر لفظ الأنفس ولك أن ترجع الضمير الثانى إلى الظالمين وتلتزم التفكيك بناء على قود المعنى إليه فإن نفى إشهاد الشياطين خلق الذين يتولونهم هو الذى يدور عليه إنكار اتخاذهم أولياء بناء على أن أدنى ما يصحح التولى حضور الولى خلق المتولى وحيث لا حضور لا مصحح للتولى قطعا وأما نفى إشهاد بعض الشياطين خلق بعض منهم فليس من مدارية الإنكار المذكور فى شىء على أن إشهاد بعضهم خلق بعض إن كان مصححا لتولى الشاهد بناء على دلالته على كماله باعتبار أن له مدخلا فى خلق المشهود فى الجملة فهو مخل بتولى المشهود بناء على قصوره عمن شهد خلقه فلا يكون نفى الإشهاد المذكور متمحضا فى نفى الكمال المصحح للتولى عن الكل وهو المناط للإنكار المذكور ﴿ وما كنت متخذ المضلين ﴾ أى متخذهم وإنما وضع موضعه المظهر ذما لهم وتسجيلا عليهم بالإضلال وتأكيدا لما سبق من إنكار اتخاذهم أولياء ﴿ عضدا ﴾ أعوانا فى شأن الخلق أو فى شأن من شئونى حتى يتوهم شركتهم فى التولى بناء على الشركة فى بعض أحكام الربوبية وفيه تهكم بهم وإيذان بكمال ركاكة عقولهم وسخافة آرائهم حيث لا يفهمون هذا الأمر الجلى الذى لا يكاد يشتبه على البله والصبيان فيحتاجون إلى التصريح به وإيثار نفى الإشهاد على نفى شهودهم ونفى اتخاذهم أعوانا على نفى كونهم كذلك للإشعار بأنهم مقهورون تحت قدرته تعالى تابعون لمشيئته وإرادته فيهم وأنهم بمعزل من استحقاق الشهود والمعونة من تلقاء أنفسهم من غير إحضار واتخاذ وإنما قصارى مايتوهم فى شأنهم أن يبلغوا ذلك المبلغ بأمر الله عز وجل ولم يكد ذلك يكون وقيل الضمير للمشركين والمعنى ما أشهدتهم خلق ذلك وما أطلعتهم على أسرار التكوين وما خصصتهم بفضائل لا يحويها غيرهم حتى يكونوا قدوة للناس فيؤمنوا بإيمانهم كما يزعمون فلا يلتفت إلى قولهم طمعا فى نصرتهم للدين فإنه لا ينبغى لى أن أعتضد بالمضلين ويعضده القراءة بفتح التاء خطابا لرسول الله صلى الله عليه وسلم والمعنى ما صح لك الاعتضاد

بهم ووصفهم بالإضلال لتعليل نفى الاتخاذ وقرىء متخذا المضلين على الأصل وقرىء عضد بضم العين وسكون الضاد وبفتح وسكون بالتخفيف وبضمتين بالاتباع وبفتحتين على أنه جمع عاضد كرصد وراصد .

﴿ ويوم يقول ﴾ أى الله عز وجل للكافرين توبيخا وتعجيزا وقرىء بنون العظمة ﴿ نادوا شركائى الذين زعمتم ﴾ أنهم شفعاؤكم ليشفعوا لكم والمراد بهم كل ما عبد من دونه تعالى وقيل إبليس وذريته ﴿ فدعوهم ﴾ أى نادوهم للإغاثة وفيه بيان لكمال اعتنائهم بإعانتهم على طريقة الشفاعة إذ معلوم أن لا طريق إلى المدافعة ﴿ فلم يستجيبوا لهم ﴾ فلم يغيثوهم إذ لا إمكان لذلك وفى إيراده مع ظهوره تهكم بهم وإيذان بأنهم فى الحماقة بحيث لا يفهمونه إلا بالتصريح به ﴿ وجعلنا بينهم ﴾ بين الداعين والمدعوين ﴿ موبقا ﴾ اسم مكان أو مصدر من وبق وبوقا كوثب وثوبا أو وبق وبقا كفرح فرحا إذا هلك أى مهلكا يشتركون فيه وهو النار أو عداوة وهى فى الشدة نفس الهلاك كقول عمر رضى الله عنه لا يكن حبك كلفا ولا بغضك تلفا وقيل البين الوصل أى وجعلنا تواصلهم فى الدنيا هلاكا فى الآخرة ويجوز أن يكون المراد بالشركاء الملائكة وعزيرا وعيسى عليهم السلام ومريم وبالموبق البرزخ البعيد أى جعلنا بينهم أمدا بعيدا يهلك فيه الأشواط لفرط بعده لأنهم فى قعر جهنم وهم فى أعلى الجنان ﴿ ورأى المجرمون النار ﴾ وضع المظهر مقام المضمر تصريحا بإجرامهم وذما لهم بذلك .

﴿ فظنوا ﴾ أى فأيقنوا ﴿ أنهم مواقعوها ﴾ مخالطوها واقعون فيها أو ظنوا إذ رأوها من مكان بعيد أنهم مواقعوها الساعة ﴿ ولم يجدوا عنها مصرفا ﴾ انصرافا أو معدلا ينصرفون إليه ﴿ ولقد صرفنا ﴾ أى كررنا وأوردنا على وجوه كثيرة من النظم ﴿ فى هذا القرآن للناس ﴾ لمصلحتهم ومنفعتهم ﴿ من كل مثل ﴾ من جملته ما مر من مثل الرجلين ومثل الحياة الدنيا أو من كل نوع من أنواع المعانى البديعة الداعية إلى الإيمان التى هى فى الغرابة والحسن واستجلاب

النفس كالمثل ليتلقوه بالقبول فلم يفعلوا ﴿ وكان الإنسان ﴾ بحسب جبلته ﴿ أكثر شيء جدلا ﴾ أي أكثر الأشياء التي يتأتى منها الجدل وهو ههنا شدة الخصومة بالباطل والمماراة من الجدل الذي هو الفتل والمجادلة الملاواة لأن كلا من المجادلين يلتوي على صاحبه وانتصابه على التمييز والمعنى أن جدله أكثر من جدل كل مجادل ﴿ وما منع الناس ﴾ أي أهل مكة الذين حكيت أباطيلهم ﴿ أن يؤمنوا ﴾ من أن يؤمنوا بالله تعالى ويتركوا ما هم فيه من الإشراك ﴿ إذ جاءهم الهدى ﴾ أي القرآن العظيم الهادي إلى الإيمان بما فيه من فنون المعاني الموجبة له ﴿ ويستغفروا ربهم ﴾ عما فرط منهم من أنواع الذنوب التي من جملتها مجادلتهم للحق بالباطل ﴿ إلا أن تأتيهم سنة الأولين ﴾ أي إلا طلب إتيان سنتهم أو إلا انتظار إتيانها أو إلا تقديره لحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه وسنتهم الاستئصال ﴿ أو يأتيهم العذاب ﴾ أي عذاب الآخرة ﴿ قبلا ﴾ أي أنواعا جمع قبيل أو عيانا كما في قراءة قبلا بكسر القاف وفتح الباء وقرىء بفتحتين أي مستقبلا يقال لقيته قبلا وقبلا وقبلا وانتصابه على الحالية من الضمير أو العذاب والمعنى أن ما تضمنه القرآن الكريم من الأمور المستوجبة للإيمان بحيث لو لم يكن مثل هذه الحكمة القوية لما امتنع الناس من الإيمان وإن كانوا مجبولين على الجدل المفرط ﴿ وما نرسل المرسلين ﴾ إلى الأمم ملتبسين بحال من الأحوال ﴿ إلا ﴾ حال كونهم ﴿ مبشرين ﴾ للمؤمنين بالثواب ﴿ ومنذرين ﴾ للكفرة والعصاة بالعقاب .

﴿ ويجادل الذين كفروا بالباطل ﴾ باقتراح الآيات بعد ظهور المعجزات والسؤال عن قصة أصحاب الكهف ونحوها تعنتا ﴿ ليدحضوا به ﴾ أي بالجدال ﴿ الحق ﴾ أي يزيلوه عن مركزه ويبطلوه من إدحاض القدم وهو إزلاقها وهو قولهم للرسل عليهم الصلاة والسلام (ما أنتم إلا بشر مثلنا) (ولو شاء الله لأنزل ملائكة) ونحوهما ﴿ واتخذوا آياتي ﴾ التي تخر لها صم الجبال ﴿ وما أنذروا ﴾ أي أنذروه من القوارع الناعية عليهم العقاب والعذاب أو إنذارهم ﴿ هزوا ﴾

استهزاء وقرىء بسكون الزاى وهو ما يستهزأ به ﴿ ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه ﴾ وهو القرآن العظيم ﴿ فأعرض عنها ﴾ ولم يتدبرها ولم يتذكر بها وهذا السبك وإن كان مدلوله الوضعى نفى الأظلمية من غير تعرض لنفى المساواة فى الظلم إلا أن مفهومه العرفى أنه أظلم من كل ظالم وبناء الأظلمية على ما فى حيز الصلة من الإعراض عن القرآن للإشعار بأن ظلم من يجادل فيه ويتخذه هزوا خارج عن الحد ﴿ ونسى ما قدمت يداه ﴾ أى عمله من الكفر والمعاصى التى من جملتها ما ذكر من المجادلة بالباطل والاستهزاء بالحق ولم يتفكر فى عاقبتها .

﴿ إنا جعلنا على قلوبهم أكنة ﴾ أغطية كثيرة جمع كنان وهو تعليل لإعراضهم ونسيانهم بأنهم مطبوع على قلوبهم ﴿ أن يفقهوه ﴾ مفعول لما دل عليه الكلام أى منعناهم أن يقفوا على كنهه أو مفعول له أى كراهة أن يفقهوه ﴿ وفى آذانهم ﴾ أى جعلنا فيها ﴿ وقرا ﴾ ثقلا يمنعهم من استماعه ﴿ وإن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذاً أبدا ﴾ أى فلن يكون منهم اهتداء البتة مدة التكليف وإذن جزاء للشرط وجواب عن سؤال النبى عليه الصلاة والسلام المدلول عليه بكمال عنايته بإسلامهم كأنه قال عليه الصلاة والسلام مالى لا أدعوهم فقيل إن تدعهم الخ وجمع الضمير الراجع إلى الموصول فى هذه المواضع الخمسة باعتبار معناه كما أن أفراده فى المواطن الخمسة المتقدمة باعتبار لفظه .

﴿ وربك ﴾ مبتدأ وقوله تعالى ﴿ الغفور ﴾ خبره وقوله تعالى ﴿ ذو الرحمة ﴾ أى الموصوف بها خبر بعد خبر وإيراد المغفرة على صيغة المبالغة دون الرحمة للتنبيه على كثرة الذنوب ولأن المغفرة ترك المضار وهو سبحانه قادر على ترك ما لا يتناهى من العذاب وأما الرحمة فهى فعل وإيجاد ولا يدخل تحت الوجود إلا ما يتناهى وتقديم الوصف الأول لأن التخلية قبل التحلية أو لأنه أهم بحسب الحال إذ المقام مقام بيان تأخير العقوبة عنهم بعد استيجابهم لها كما يعرب عنه قوله عز وجل :

﴿ لو يؤاخذهم ﴾ أى لو يريد مؤاخذتهم ﴿ بما كسبوا ﴾ من المعاصى التى من جملتها ما حكى عنهم من مجادلتهم بالباطل وإعراضهم عن آيات ربهم وعدم المبالاة بما اجترحوا من الموبقات ﴿ لعجل لهم العذاب ﴾ لاستيجاب أعمالهم لذلك وإيثار المؤاخذة المنبئة عن شدة الأخذ بسرعة على التعذيب والعقوبة ونحوهما للإيذان بأن النفى المستفاد من مقدم الشرطية متعلق بوصف السرعة كما ينبىء عنه تاليها وإيثار صيغة الاستقبال وإن كان المعنى على المضى لإفادة أن انتفاء تعجيل العذاب لهم بسبب استمرار عدم إرادة المؤاخذة فإن المضارع الواقع موقع الماضى يفيد استمرار انتفاء الفعل فيما مضى كما حقق فى موضعه ﴿ بل لهم موعد ﴾ اسم زمان هو يوم القيامة والجملة معطوفة على مقدر كأنه قيل لكنهم ليسوا بمؤاخذين بغتة ﴿ لن يجدوا ﴾ البتة ﴿ من دونه موئلا ﴾ منجى أو ملجأ يقال وأل أى نجا ووأل إليه أى لجأ إليه .

﴿ وتلك القرى ﴾ أى قرى عاد وثمود وأضرابها وهى مبتدأ على تقدير المضاف أى وأهل تلك القرى خبره قوله تعالى ﴿ أهلكناهم ﴾ أو مفعول مضمر مفسر به ﴿ لما ظلموا ﴾ أى وقت ظلمهم كما فعلت قريش بما حكى عنهم من القبائح وترك المفعول إما لتعميم الظلم أو لتنزيله منزلة اللازم أى لما فعلوا الظلم ولما إما حرف كما قال ابن عصفور وإما ظرف استعمل للتعليل وليس المراد به الوقت المعين الذى عملوا فيه الظلم بل زمان ممتد من ابتداء الظلم إلى آخره ﴿ وجعلنا لمهلكهم ﴾ أى عينا لهلاكهم ﴿ موعدا ﴾ أى وقتا معينا لا محيد لهم عن ذلك وهذا استشهاد على ما فعل بقريش من تعيين الموعد ليتنبهوا لذلك ولا يغتروا بتأخر العذاب وقرىء بضم الميم وفتح اللام أى إهلاكهم وبفتحهما .

موسى وفتاه

﴿ وإذ قال موسى ﴾ نصب بإضمار فعل أى اذكر وقت قوله عليه السلام

﴿ لفتاه ﴾ وهو يوشع بن نون بن أفرايم بن يوسف عليه السلام سمى فتاه إذ كان يخدمه ويتبعه وقيل كان يتعلم منه ويسمى التلميذ فتى وإن كان شيخا ولعل المراد بتذكيره عقيب بيان أن لكل أمة موعدا تذكير ما فى القصة من موعد الملاقاة مع ما فيها من سائر المنافع الجليلة ﴿ لا أبرح ﴾ من برح الناقص كزال يزال أى لا أزال أسير فحذف الخبر اعتمادا على قرينة الحال إذا كان ذلك عند التوجه إلى السفر واتكالا على ما يعقبه من قوله ﴿ حتى أبلغ ﴾ فإن ذلك غاية تستدعى ذا غاية يؤدى إليها ويجوز أن يكون أصل الكلام لايبرح مسيرى حاصلا حتى أبلغ فيحذف المضاف ويقام المضاف إليه مقامه فينقلب الضمير البارز المجرور المحل مرفوعا مستكنا والفعل من صيغة الغيبة إلى التكلم ويجوز أن يكون من برح التام كزال يزول أى لا أفارق ما أنا بصدده حتى أبلغ ﴿ مجمع البحرين ﴾ هو ملتقى بحر فارس والروم مما يلى المشرق وقيل طنجة وقيل هما الكر والرس بأرمينية وقيل إفريقية ، وقرىء بكسر الميم كمشرق ﴿ أو أمضى حقبا ﴾ أسير زمانا طويلا أتيقن معه فوات المطلب والحقب الدهر أو ثمانون سنة وكان منشأ هذه العزيمة أن موسى عليه السلام لما ظهر على مصر مع بنى إسرائيل واستقروا بها بعد هلاك القبط أمره الله عز وجل أن يذكر قومه النعمة فقام فيهم خطيبا بخطبة بديعة رقت بها القلوب وذرفت العيون فقالوا له من أعلم الناس قال أنا فعتب الله تعالى عليه إذ لم يرد العلم إليه عز وجل فأوحى إليه بل أعلم منك عبد لى عند مجمع البحرين وهو الخضر عليه السلام وكان فى أيام أفريذون قبل موسى عليه السلام وكان على مقدمة ذى القرنين وبقى إلى أيام موسى وقيل إن موسى عليه السلام سأل ربه أى عبادك أحب إليك قال الذى يذكرنى ولا ينسانى قال فأى عبادك أقضى قال الذى يقضى بالحق ولا يتبع الهوى قال فأى عبادك أعلم قال الذى يبتغى علم الناس إلى علمه عسى أن يصيب كلمة تدله على هدى أو ترده عن ردى فقال إن كان فى عبادك من هو أعلم منى فدلنى عليه قال أعلم منك الخضر قال أين أطلبه قال على ساحل البحر عند الصخرة قال يارب كيف لى به قال تأخذ حوتا فى مكتل فحيثما فقدته فهو هناك

فأخذ حوتا فجعله فى مكتل فقال لفتاه إذا فقدت الحوت فأخبرنى فذهبا يمشيان .

﴿ فلما بلغا ﴾ الفاء فصيحة كما أشير إليه ﴿ مجمع بينهما ﴾ أى مجمع البحرين وبينهما ظرف أضيف إليه اتساعا أو بمعنى الوصل ﴿ نسيا حوتهما ﴾ الذى جعل فقدانه أمارة وجدان المطلوب أى نسيا تفقد أمره وما يكون منه وقيل نسى يوشع أن يقدمه وموسى عليه السلام أن يأمره فيه بشىء ، روى أنهما لما بلغا مجمع البحرين وفيه الصخرة وعين الحياة التى لا يصيب ماؤها ميتا إلا حيي وضعا رءوسهما على الصخرة فناما فلما أصاب الحوت برد الماء وروحه عاش وقد كانا أكلا منه وكان ذلك بعد ما استيقظ يوشع عليه السلام وقيل توضأ عليه السلام من تلك العين فانتضح الماء على الحوت فعاش فوقع فى الماء ﴿ فاتخذ سبيله فى البحر سربا ﴾ مسلكا كالسرب وهو النفق قيل أمسك الله عز وجل جرية الماء على الحوت فصار كالطاق عليه معجزة لموسى أو للخضر عليهما السلام وانتصاب سربا على أنه مفعول ثان لاتخذ وفى البحر حال منه أو من السبيل ويجوز أن يتعلق باتخذ .

﴿ فلما جاوزا ﴾ أى مجمع البحرين الذى جعل موعدا للملاقاة قيل أدلجا وسارا الليلة والغد إلى الظهر وألقى على موسى عليه السلام الجوع فعند ذلك ﴿ قال لفتاه آتنا غداءنا ﴾ أى ما تتغدى به وهو الحوت كما ينبىء عنه الجواب ﴿ لقد لقينا من سفرنا هذا ﴾ إشارة إلى ماساراً بعد مجاوزة الموعد ﴿ نصبا ﴾ تعبا وإعياء قيل لم ينصب ولم يجع قبل ذلك والجملة فى محل التعليل للأمر بإيتاء الغداء أما باعتبار أن النصب إنما يعترى بسبب الضعف الناشىء عن الجوع وإما باعتبار ما فى أثناء التغدى من استراحة ما .

﴿ قال ﴾ أى فتاه عليه السلام ﴿ أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة ﴾ أى التجأنا إليها وأقمنا عندها وذكر الإيواء إليها مع أن المذكور فيما سبق مرتين بلوغ مجمع البحرين لزيادة تعيين محل الحادثة فإن المجمع محل متسع لا يمكن تحقيق المراد

المذكور بنسبة الحادثة إليه ولتمهيد العذر فإن الإواء إليها والنوم عندها مما يؤدى إلى النسيان عادة والرؤية مستعارة للمعرفة التامة والمشاهدة الكاملة ومراده بالاستفهام تعجيب موسى عليه السلام مما اعتراه هناك من النسيان مع كون ماشاهده من العظائم التى لا تكاد تنسى وقد جعل فقدانه علامة لوجدان المطلوب وهذا أسلوب معتاد فيما بين الناس يقول أحدهم لصاحبه إذا نابه خطب أرأيت مانابنى يريد بذلك تهويله وتعجيب صاحبه منه وأنه مما لا يعهد وقوعه لا استخباره عن ذلك كما قيل والمفعول محذوف اعتماداً على ما يدل عليه من قوله عز وجل :

﴿ فإنى نسيت الحوت ﴾ وفيه تأكيد للتعجيب وتربية لاستعظام المنسى وإيقاع النسيان على اسم الحوت دون ضمير الغداء مع أنه المأمور بإتيانه للتنبيه من أول الأمر على أنه ليس من قبيل نسيان المسافر زاده فى المنزل وأن ماشاهده ليس من قبيل الأحوال المتعلقة بالغداء من حيث هو غداء وطعام بل من حيث هو حوت كسائر الحيتان مع زيادة أى نسيت أن أذكر لك أمره وما شاهدت منه من الأمور العجيبة ﴿ وما أنسانيه إلا الشيطان ﴾ بوسوسته الشاغلة عن ذلك وقوله تعالى ﴿ أن أذكره ﴾ بدل اشتمال من الضمير أى ما أنسانى أن أذكره لك وفى تعليق الإنساء بضمير الحوت أولا وبذكره له ثانيا على طريق الإبدال المنبىء عن تنحية المبدل منه إشارة إلى أن متعلق النسيان أيضا ليس نفس الحوت بل ذكر أمره وقرىء أن أذكره وإيثار أن أذكره على المصدر للمبالغة فإن مدلوله نفس الحدث عند وقوعه والحال وإن كانت غريبة لا يعهد نسيانها لكنه لما تعود بمشاهدة أمثالها عند موسى عليه السلام وإلفها قل اهتمامه بالمحافظة عليها ﴿ واتخذ سبيله فى البحر عجبا ﴾ بيان لطرف من أمر الحوت منبىء عن طرف آخر منه وما بينهما اعتراض قدم عليه للاعتناء بالاعتذار كأنه قيل حيى واضطرب ووقع فى البحر واتخذ سبيله فيه سبيلا عجبا فعجبا ثانى مفعولى اتخذ والظرف حال من أولهما أو ثانيهما أو هو المفعول الثانى وعجبا صفة مصدر محذوف أى اتخاذا عجبا وهو كون مسلكه كالطاق والسرب أو مصدر فعل محذوف

أى أتعجب منه عجبا وقد قيل إنه من كلام موسى عليه الصلاة والسلام وليس بذاك .

﴿ قال ﴾ أى موسى عليه السلام ﴿ ذلك ﴾ الذى ذكرت من أمر الحوت ﴿ ما كنا نبغ ﴾ وقرىء بإثبات الياء والضمير العائد إلى الموصول محذوف أصله نبغيه أى نطلبه لكونه أمارة للفوز بالمرام ﴿ فارتدا ﴾ أى رجعا ﴿ على آثارهما ﴾ طريقهما الذى جاءا منه ﴿ قصصا ﴾ يقصان قصصا أى يتبعان آثارهما اتباعا أو مقتصين حتى أتيا الصخرة .

موسى والخضر

﴿ فوجدا عبداً من عبادنا ﴾ التنكير للتفخيم والإضافة للتشريف والجمهور على أنه الخضر واسمه بليابن ملكا وقيل اليسع وقيل إلياس عليهم الصلاة والسلام ﴿ آتيناه رحمة من عندنا ﴾ هى الوحى والنبوة كما يشعر به تنكير الرحمة واختصاصها بجناب الكبرياء ﴿ وعلمناه من لدنا علما ﴾ خاصا لا يكتنه كنهه ولا يقادر قدره وهو علم الغيوب ﴿ قال له موسى ﴾ استئناف مبنى على سؤال نشأ من السياق كأنه قيل فماذا جرى بينهما من الكلام فقيل قال له موسى ﴿ هل أتبعك على أن تعلمن ﴾ استئذانا منه فى اتباعه له على وجه التعلم ﴿ مما علمت رشدا ﴾ أى علما ذا رشد أرشد به فى دينى والرشد إصابة الخير وقرىء بفتحتين وهو مفعول تعلمن ومفعول علمت محذوف وكلاهما منقول من علم المتعدى إلى مفعول واحد ويجوز كونه علة لأتبعك أو مصدرا بإضمار فعله ولا ينافى نبوته وكونه صاحب شريعة أن يتعلم من نبى آخر مالا تعلق له بأحكام شريعته من أسرار العلوم الخفية ولقد راعى فى سوق الكلام غاية التواضع معه عليهما السلام ﴿ قال ﴾ أى الخضر ﴿ إنك لن تستطيع معى صبرا ﴾ نفى عنه استطاعة الصبر معه على وجه التأكيد كأنه مما لا يصح ولا يستقيم وعلله بقوله ﴿ وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا ﴾ إيذانا بأنه يتولى أمورا خفية المدار منكرة الظواهر والرجل الصالح لا سيما صاحب الشريعة لا يتمالك أن يشمئز عند مشاهدتها وفى صحيح البخارى قال

ياموسى إنى على علم من علم الله تعالى علمنيه لا تعلمه وأنت على علم من علم الله علمكه الله لا أعلمه وخبرا تمييز أى لم يحط به خبرك .

﴿ قال ﴾ موسى عليه الصلاة والسلام ﴿ ستجدنى إن شاء الله صابرا ﴾ معك غير معترض عليك وتوسيط الاستثناء بين مفعولى الوجدان لكمال الاعتناء بالتيمن ولئلا يتوهم تعلقه بالصبر ﴿ ولا أعصى لك أمرا ﴾ عطف على صابرا أى ستجدنى صابرا وغير عاص وفى وعد هذا الوجدان من المبالغة ما ليس فى الوعد بنفس الصبر وترك العصيان أو على ستجدنى فلا محل له من الإعراب والأول هو الأولى لما عرفته ولظهور تعلقه بالاستثناء حينئذ وفيه دليل على أن أفعال العباد بمشيئة الله سبحانه وتعالى ﴿ قال فإن اتبعتنى ﴾ أذن له فى الاتباع بعد اللتيا والتى والفاء لتفريع الشرطية على ما مر من التزام موسى عليه الصلاة والسلام للصبر والطاعة ﴿ فلا تسألنى عن شىء ﴾ تشاهده من أفعالى أى لا تفاتحنى بالسؤال عن حكمته فضلا عن المناقشة والاعتراض ﴿ حتى أحدث لك منه ذكرا ﴾ أى حتى ابتدىء ببيانه وفيه إيذان بأن كل ما صدر عنه فله حكمة وغاية حميدة البتة وهذا من أدب المتعلم مع العالم والتابع مع المتبوع وقرىء فلا تسألنى بالنون المثقلة ﴿ فانطلقا ﴾ أى موسى والخضر عليهما الصلاة والسلام على الساحل يطلبان السفينة وأما يوشع فقد صرفه موسى عليه الصلاة والسلام إلى بنى إسرائيل قيل إنهما مرا بسفينة فكلما أهلها فعرفوا الخضر فحملوهما بغير نول ﴿ حتى إذا ركبا فى السفينة ﴾ استعمال الركوب فى أمثال هذه المواقع بكلمة فى مع تجريده عنها فى مثل قوله عز وجل (لتركبوها وزينة) على ما يقتضيه تعديته بنفسه لما أشرنا إليه فى قوله تعالى وقال (اركبوا فيها) لا لما قيل من أن فى ركوبها معنى الدخول ﴿ خرقها ﴾ قيل خرقها بعد ما لججوا حيث أخذ فأسا فقلع من ألواحها لوحين مما يلى الماء .

فعند ذلك ﴿ قال ﴾ موسى عليه السلام ﴿ أخرقتها لتغرق أهلها ﴾ من الإغراق وقرىء بالتشديد من التغريق وليغرق أهلها من الثلاثى ﴿ لقد جئت ﴾ أتيت وفعلت ﴿ شيئا إمرا ﴾ أى عظيما هائلا من أمر الأمر إذا عظم قيل الأصل أمر انخفف

﴿قال﴾ أى الخضر عليه السلام ﴿ألم أقل إنك لن تستطيع معى صبرا﴾ تذكير لما قاله من قبل وتحقيق لمضمونه متضمن للإنكار على عدم الوفاء بوعده ﴿قال لا تؤاخذنى بما نسيت﴾ بنسيانى أو بالذى نسيته أى بشىء نسيته وهو وصيته بأن لا يسأله عن حكمة ما صدر عنه من الأفعال الخفية الأسباب قبل بيانه أراد أنه نسى وصيته ولا مؤاخذة على الناسى كما ورد فى صحيح البخارى من أن الأول كان من موسى نسيانا أو أخرج الكلام فى معرض النهى عن المؤاخذة بالنسيان يوهمه أنه قد نسى ليبسط عذره فى الإنكار وهو من معاريض الكلام التى يتقى بها الكذب مع التوصل إلى الغرض أو أراد بالنسيان الترك أى لا تؤاخذنى بما تركت من وصيتك أول مرة ﴿ولا ترهقنى﴾ أى لا تغشنى ولا تحملنى ﴿من أمرى﴾ وهو اتباعه إياه ﴿عسرا﴾ أى لا تعسر على متابعتك ويسرها على بالإغضاء وترك المناقشة وقرىء عسرا بضمتين .

﴿فانطلقا﴾ الفاء فصيحة أى فقبل عذره فخرجا من السفينة فانطلقا ﴿حتى إذا لقيا غلاما فقتله﴾ قيل كان الغلام يلعب مع الغلمان فقتل عنقه وقيل ضرب برأسه الحائط وقيل أضجعه فذبحه بالسكين ﴿قال﴾ أى موسى عليه الصلاة والسلام ﴿أقتلت نفسا زكية﴾ طاهرة من الذنوب وقرىء زاكية ﴿بغير نفس﴾ أى بغير قتل نفس محرمة وتخصيص نفى هذا المبيح بالذكر من بين سائر المبيحات من الكفر بعد الإيمان والزنا بعد الإحصان لأنه الأقرب إلى الوقوع نظرا إلى حال الغلام ولعل تغيير النظم الكريم بجعل ما صدر عن الخضر عليه الصلاة والسلام ههنا من جملة الشرط وإبراز ما صدر عن موسى عليه الصلاة والسلام فى معرض الجزاء المقصود إفادته مع أن الحقيق بذلك إنما هو ما صدر عن الخضر عليه الصلاة والسلام من الخوارق البديعة لاستشراف النفس إلى ورود خبرها لقلة وقوعها فى نفس الأمر وندرة وصول خبرها إلى الأذهان ولذلك روعيت تلك النكتة فى الشرطية الأولى لما أن صدور الخوارق منه عليه الصلاة والسلام خرج بوقوعه مرة مخرج العادة فانصرفت النفس عن ترقبه إلى ترقب أحوال موسى عليه الصلاة والسلام هل يحافظ على مراعاة شرطه

بموجب وعده الأكيد عند مشاهدة خارق آخر أو يسارع إلى المناقشة كما مر في المرة الأولى فكان المقصود إفادة ماصدر عنه عليه الصلاة والسلام فعل مافعل وقه در شأن التنزيل وأما ما قيل من أن القتل أقبح والاعتراض عليه أدخل فكان جديرا بأن يجعل عمدة فى الكلام فليس من دفع الشبهة فى شيء بل هو مؤيد لها فإن كون القتل أقبح من مبادى قلة صدوره عن المؤمن العاقل وندرة وصول خبره إلى الأسماع وذلك مما يستدعى جعله مقصودا بالذات وكون الاعتراض عليه أدخل من موجبات كثرة صدوره عن كل عاقل وذلك مما لا يقتضى جعله كذلك ﴿ لقد جئت شيئاً نكرا ﴾ قيل معناه أنكر من الأول إذ لا يمكن تداركه كما يمكن تدارك الأول بالسد ونحوه وقيل الأمر أعظم من النكر لأن قتل نفس واحدة أهون من إغراق أهل السفينة .

﴿ قال ألم أقل لك إنك لن تستطيع معى صبرا ﴾ زيد لك لزيادة المكافحة بالعتاب على رفض الوصية وقلة التثبت والصبر لما تكرر منه الاشمئزاز والاستنكار ولم يرعو بالتذكير حتى زاد فى النكير فى المرة الثانية ﴿ قال ﴾ أى موسى عليه الصلاة والسلام ﴿ إن سألتك عن شيء بعدها ﴾ أى بعد هذه المرة ﴿ فلا تصاحبنى ﴾ وقرىء من الأفعال أى لا تجعلنى صاحبك ﴿ قد بلغت من لدنى عذرا ﴾ أى قد أعذرت ووجدت من قبلى عذرا حيث خالفتك ثلاث مرات عن النبى صلى الله عليه وسلم رحم الله أخى موسى استحيى فقال ذلك لو لبث مع صاحبه لأبصر أعجب الأعاجيب وقرىء لدنى بتخفيف النون وقرىء بسكون الدال كعضد فى عضد ﴿ فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية ﴾ هى أنطاكية وقيل أيلة وهى أبعد أرض الله من السماء وقيل هى برقة وقيل بلدة بأندلس عن النبى صلى الله عليه وسلم كانوا أهل قرية لئاما وقيل شر القرى التى لا يضاف فيها الضيف ولا يعرف لابن السبيل حقه وقوله تعالى ﴿ استطعما أهلها ﴾ فى محل الجر على أنه صفة لقرية ولعل العدول عن استطعامهم على أن يكون صفة للأهل لزيادة تشنيعهم على سوء صنيعهم فإن الإباء من الضيافة وهم أهلها قاطنون بها أقبح وأشنع روى أنهما طافا فى القرية فاستطعماهم فلم يطعموهما واستضافاهم ﴿ فأبوا أن يضيفوهما ﴾

بالتشديد وقرىء بالتخفيف من الإضافة يقال ضافه إذا كان له ضيفاً وأضافه وضيفه أنزله وجعله ضيفاً له وحقيقة ضاف مال إليه من ضاف السهم عن الغرض ونظيره زاره من الازورار .

﴿ فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقض ﴾ أى يدانى أن يسقط فاستعيرت الإرادة للمشارفة للدلالة على المبالغة فى ذلك والانقضاض الإسراع فى السقوط وهو انفعال من القض يقال قضضته فانقض ومنه انقضاض الطير والكوكب لسقوطه بسرعة وقيل هو افعلال من النقض كاحمر من الحمرة وقرىء أن ينقض من النقض وأن ينقاض من انقاضت السن إذا انشقت طولا ﴿ فأقامه ﴾ قيل مسحه بيده فقام وقيل نقضه وبناه وقيل أقامه بعمود عمده به قيل كان سمكه مائة ذراع ﴿ قال لو شئت لاتخذت عليه أجرا ﴾ تحريضا له على أخذ الجعل لينتعشا به أو تعريضا بأنه فضول لما فى لو من النفى كأنه لما رأى الحرمان ومساس الحاجة واشتغاله بما لا يعنيه لم يتمالك الصبر واتخذ افتعل من تخذ بمعنى أخذ كاتبع من تبع وليس من الأخذ عند البصريين وقرىء لتخذت أى لأخذت وقرىء بادغام الذال فى التاء ﴿ قال ﴾ أى الخضر عليه الصلاة والسلام ﴿ هذا فراق بينى وبينك ﴾ على إضافة المصدر إلى الظرف اتساعا وقد قرىء على الأصل والمشار إليه إما نفس الفراق كما فى هذا أخوك أو الوقت الحاضر أى هذا الوقت وقت فراق بينى وبينك أو السؤال الثالث أى هذا سبب ذلك الفراق حسبما هو الموعود ﴿ سأنبئك ﴾ السين للتأكيد لعدم تراخى التنبئة ﴿ بتأويل ما لم تستطع عليه صبرا ﴾ التأويل رجع الشىء إلى مآله والمراد به ههنا المآل والعاقبة إذ هو المنبأ به دون التأويل وهو خلاص السفينة من اليد العادية وخلاص أبوى الغلام من شره مع الفوز بالبدل الأحسن واستخراج اليتيمين للكنز وفى جعل صلة الموصول عدم استطاعة موسى عليه الصلاة والسلام للصبر دون أن يقال بتأويل ما فعلت أو بتأويل ما رأيت ونحوهما نوع تعريض به عليه الصلاة والسلام وعتاب .

﴿ أما السفينة ﴾ التى خرقتها ﴿ فكانت لمساكين ﴾ لضعفاء لا يقدرون على مدافعة الظلمة وقيل كانت لعشرة إخوة خمسة منهم زمنى وخمسة ﴿ يعملون فى البحر ﴾ وإسناد العمل إلى الكل حينئذ إنما هو بطريق التغليب أو لأن عمل الوكلاء بمنزلة عمل الموكلين ﴿ فأردت أن أعيبها ﴾ أى أجعلها ذات عيب ﴿ وكان وراءهم ملك ﴾ أى أمامهم وقد قرىء به أو خلفهم وكان رجوعهم عليه لامحالة واسمه جلندى بن كركر وقيل منولة بن جلندى الأزدى ﴿ يأخذ كل سفينة ﴾ أى صالحة وقد قرىء كذلك ﴿ غصبا ﴾ من أصحابها وانتصابه على أنه مصدر مبين لنوع الأخذ ولعل تفريع إرادة تعييب السفينة على مسكنة أصحابها قبل بيان خوف الغصب مع أن مدارها كلا الأمرين للاعتناء بشأنها إذ هى المحتاجة إلى التأويل وللإيذان بأن الأقوى فى المدارية هو الأمر الأول ولذلك لا يبالى بتخليص سفن سائر الناس مع تحقق خوف الغصب فى حقهم أيضا ولأن فى التأخير فصلا بين السفينة وضميرها مع توهم رجوعه إلى الأقرب .

﴿ أما الغلام ﴾ الذى قتلته ﴿ فكان أبواه مؤمنين ﴾ لم يصرح بكفرانه أو بكفره إشعارا بعدم الحاجة إلى الذكر لظهوره ﴿ فخشينا أن يرهقهما ﴾ فخفنا أن يغشى الوالدين المؤمنين ﴿ طغيانا ﴾ عليهما ﴿ وكفرا ﴾ لنعمتهما بعقوقه وسوء صنيعه ويلحق بهما شرا وبلاء أو يقرن بإيمانهما طغيانه وكفره فيجتمع فى بيت واحد مؤمنان وطاغ كافر أو يعديهما بدائه ويضلهما بضلاله فيرتدا بسببه وإنما خشى الخضر عليه الصلاة والسلام منه ذلك لأن الله سبحانه أعلمه بحاله وأطلعه على سر أمره وقرىء فخاف ربك أى كره سبحانه كراهة من خاف سوء عاقبة الأمر فغيره ويجوز أن تكون القراءة المشهورة على الحكاية بمعنى فكرهنا كقوله تعالى (لأهب لك) ﴿ فأردنا أن يبدلهما ربهما خيرا ﴾ منه بأن يرزقهما بدله ولدا خيرا ﴿ منه ﴾ وفى التعرض لعنوان الربوبية والإضافة إليهما ما لا يخفى من الدلالة على إرادة وصول الخير إليهما ﴿ زكوة ﴾ طهارة من الذنوب والأخلاق الرديئة ﴿ وأقرب رحما ﴾ أى رحمة وعطفا قيل ولدت لهما جارية تزوجها نبى فولدت نبيا هدى أى تعالى على يديه أمة من الأمم وقيل

ولدت سبعين نبيا وقيل أبدلهما ابنا مؤمنا مثلهما وقرىء رحما بضم الحاء أيضاً وانتصابه على التمييز مثل زكوة .

﴿ وأما الجدار ﴾ المعهود ﴿ فكان لغلامين يتيمين فى المدينة ﴾ هى القرية المذكورة فيما سبق ولعل التعبير عنها بالمدينة لإظهار نوع اعتداد بها باعتداد ما فيها من اليتيمين وأبيهما الصالح قيل اسماهما اصرم واسم المقتول جيسور ﴿ وكان تحته كنز لهما ﴾ من فضة وذهب كما روى مرفوعا والذم على كنزهما فى قوله عز وجل (والذين يكنزون الذهب والفضة) لمن لا يؤدى زكاتهما وسائر حقوقهما وقيل كان لوحا من ذهب مكتوبا فيه عجبت لمن يؤمن بالقدر كيف يحزن وعجبت لمن يؤمن بالرزق كيف يتعب وعجبت لمن يؤمن بالموت كيف يفرح وعجبت لمن يؤمن بالحساب كيف يغفل وعجبت لمن يعرف الدنيا وتقلبها بأهلها كيف يطمئن إليها لا إله إلا الله محمد رسول الله وقيل صحف فيها علم ﴿ وكان أبوهما صالحا ﴾ تنبيه على أن سعيه فى ذلك كان لصلاحه قيل كان بينهما وبين الأب الذى حفظا فيه سبعة آباء ﴿ فأراد ربك ﴾ أى مالكك ومدبر أمورك ففى إضافة الرب إلى ضمير موسى عليه الصلاة والسلام دون ضميرهما تنبيه له عليه الصلاة والسلام على تحتم كمال الانقياد والاستسلام لإرادته سبحانه ووجوب الاحتراز عن المناقشة فيما وقع بحسبها من الأمور المذكورة ﴿أن يبلغا أشدهما﴾ أى حلمهما وكمال رأيهما ﴿ويستخرجا﴾ بالكلية ﴿ كنزهما ﴾ من تحت الجدار ولولا أنى أقمته لانقض وخرج الكنز من تحته قبل اقتدارهما على حفظ المال وتنميته وضاع ﴿ رحمة من ربك ﴾ مصدر فى موقع الحال أى مرحومين منه عز وجل أو مفعول له أو مصدر مؤكد لأراد فإن إرادة الخير رحمة وقيل متعلق بمضمر أى فعلت ما فعلت من الأمور التى شاهدتها رحمة من ربك ويعضده إضافة الرب إلى ضمير المخاطب دون ضميرهما فيكون قوله عز وعلا ﴿ وما فعلته عن أمرى ﴾ أى عن رأيى واجتهادى تأكيد لذلك ﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى العواقب المنظومة فى سلك البيان وما فيه معنى البعد للإيذان ببعد درجتها فى الفخامة ﴿ تأويل مالم تسطع ﴾ أى

لم تستطع لحذف التاء للتخفيف ﴿ عليه صبرا ﴾ من الأمور التى رابته أى مآله وعاقبته فيكون إنجاز للتنبئة الموعودة أو إلى البيان نفسه فيكون التأويل بمعناه وعلى كل حال فهو فذلكة لما تقدم وفى جعل الصلة عين ما مر تكرير للنكير وتشديد للعتاب .

تنبيـــه

اختلفوا فى حياة الخضر عليه الصلاة والسلام فقيل إنه حى وسببه أنه كان على مقدمة ذى القرنين فلما دخل الظلمات أصاب الخضر عين الحياة فنزل واغتسل منها وشرب من مائها وأخطأ ذو القرنين الطريق فعاد قالوا وإلياس أيضاً فى الحياة يلتقيان كل سنة بالموسم وقيل أنه ميت لما روى أن النبى عليه الصلاة والسلام صلى العشاء ذات ليلة ثم قال أرأيتكم ليلتكم هذه فإن رأس مائة سنة منها لا يبقى ممن هو اليوم على ظهر الأرض أحد ولو كان الخضر حينئذ حيا لما عاش بعد مائة عام . روى أن موسى عليه الصلاة والسلام لما أراد أن يفارقه قال له أوصنى قال لا تطلب العلم لتحدث به واطلبه لتعمل به .

﴿ ويسألونك عن ذى القرنين ﴾ هم اليهود سألوه على وجه الامتحان أو سألته قريش بتلقينهم وصيغة الاستقبال للدلالة على استمرارهم على ذلك إلى ورود الجواب وهو ذو القرنين الأكبر واسمه الإسكندر بن فيلفوس اليونانى وقال ابن إسحاق اسمه مرزبان بن مردبة من ولد يافث بن نوح عليه الصلاة والسلام وكان أسود وقيل اسمه عبد الله بن الضحاك وقيل مصعب بن عبد الله بن قينان ابن منصور بن عبد الله بن الأزر بن عون بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يعرب ابن قحطان وقال السهيلى قيل إن اسمه مرزبان بن مدركة ذكره ابن هشام وهو أول التبابعة وقيل إنه أفريذون بن النعمان الذى قتل الضحاك وذكر أبو الريحان البيرونى فى كتابه المسمى بالآثار الباقية عن القرون الخالية أن ذا القرنين هو

أبو كرب سمى بن عيرين بن أفريقيس الحميرى وأن ملكه بلغ مشارق الأرض ومغاربها وهو الذى افتخر به التبع اليمانى حيث قال :

قد كان ذو القرنين جدى مسلما ملكا علا فى الأرض غير مفند
بلغ المشارق والمغارب يبتغى أسباب أمر من حكيم مرشد

وجعل هذا القول أقرب لأن الأذواء كانوا من اليمن كذى المنار وذى نواس وذى النون وذى رعين وذى يزن وذى جدن قال الإمام الرازى والأول هو الأظهر لأن من بلغ ملكه من السعة والقوة إلى الغاية التى نطق بها التنزيل الجليل إنما هو الإسكندر اليونانى كما تشهد به كتب التواريخ يروى أنه لما مات أبوه جمع ملك الروم بعد أن كان طوائف ثم قصد ملوك العرب وقهرهم ثم أمعن حتى انتهى إلى البحر الأخضر ثم عاد إلى مصر فبنى الإسكندرية وسماها باسمه ثم دخل الشام وقصد بنى إسرائيل وورد بيت المقدس وذبح فى مذبحه ثم انعطف إلى أرمينية وباب الأبواب ودان له العراقيون والقبط والبربر ثم توجه نحو دارا بن دارا وهزمه مرارا إلى أن قتله صاحب حرسه واستولى على ممالك الفرس وقصد الهند وفتحه وبنى مدينة سرنديب وغيرها من المدن العظام ثم قصد الصين وغزا الأمم البعيدة ورجع إلى خرسان وبنى بها مدائن كثيرة ورجع إلى العراق ومرض بشهرزور ومات انتهى كلام الإمام. وروى أن أهل النجوم قالوا له إنك لا تموت إلا على أرض من حديد وتحت سماء من خشب وكان يدفن كنز كل بلدة فيها ويكتب ذلك بصفته وموضعه فبلغ بابل فرعف وسقط عن دابته فبسطت له دروع فنام عليها فآذته الشمس فأظلوه بترس فنظر فقال هذه أرض من حديد وسماء من خشب فأيقن بالموت فمات وهو ابن ألف وستمائة سنة وقيل ثلاثة آلاف سنة قال ابن كثير وهذا غريب وأغرب منه ما قاله ابن عساكر من أنه بلغنى أنه عاش ستا وثلاثين سنة أو ثنتين وثلاثين سنة وأنه كان بعد داود وسليمان عليهما السلام فإن ذلك لا ينطبق إلا على ذى القرنين الثانى كما سنذكره قلت وكذا ما ذكره الإمام

من قصد بنى إسرائيل وورود بيت المقدس والذبح فى مذبحه فإنه مما لا يكاد يتأتى نسبته إلى الأول واختلف فى نبوته بعد الاتفاق على إسلامه وولايته فقيل كان نبيا لقوله تعالى (إنا مكنا له فى الأرض) وظاهر أنه متناول للتمكين فى الدين وكماله بالنبوة ولقوله تعالى (وآتيناه من كل شيء سببا) ومن جملة الأشياء النبوة ولقوله تعالى (قلنا ياذا القرنين) ونحو ذلك وقيل كان ملكا لما روي أن عمر رضى الله عنه سمع رجلا يقول لآخر ياذا القرنين فقال اللهم غفرا أما رضيتم أن تتسموا بأسماء الملائكة.

قال ابن كثير والصحيح أنه ما كان نبيا ولا ملكا وإنما كان ملكا صالحا عادلا ملك الأقاليم وقهر أهلها من الملوك وغيرهم ودانت له البلاد وأنه كان داعيا إلى الله تعالى سائرا فى الخلق بالمعدلة التامة والسلطان المؤيد المنصور وكان الخضر على مقدمة جيشه بمنزلة المستشار الذى هو من الملك بمنزلة الوزير وقد ذكر الأزرقى وغيره أنه أسلم على يدى إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام فطاف معه بالكعبة هو وإسماعيل عليهم السلام وروى أنه حج ماشيا فلما سمع إبراهيم عليه الصلاة والسلام بقدومه تلقاه ودعا له وأوصاه بوصايا ويقال أنه أتى بفرس ليركب فقال لا أركب فى بلد فيه الخليل فعند ذلك سخر له السحاب وطوى له الأسباب وبشره إبراهيم عليه الصلاة والسلام بذلك فكانت السحاب تحمله وعساكره وجميع آلاتهم إذا أرادوا غزوة قوم وقال أبو الطفيل سئل عنه على كرم الله وجهه أكان نبيا أم ملكا فقال لم يكن نبيا ولا ملكا لكن كان عبدا أحب الله فأحبه وناصح الله فناصحه سخر له السحاب ومد له الأسباب واختلف فى وجه تسميته بذى القرنين فقيل لأنه بلغ قرنى الشمس مشرقها ومغربها وقيل لأنه ملك الروم وفارس وقيل الروم والترك وقيل لأنه كان فى رأسه أو فى تاجه ما يشبه القرنين وقيل لأنه كان له ذؤابتان وقيل لأنه كانت صفحتا رأسه من النحاس وقيل لأنه دعا الناس إلى الله عز وجل فضرب بقرنه الأيمن فمات ثم بعثه الله تعالى فضرب بقرنه الأيسر فمات ثم بعثه الله تعالى وقيل لأنه رأى فى منامه أنه صعد الفلك فأخذ بقرنى الشمس .

وقيل لأنه انقرض فى عهده قرنان وقيل لأنه سخر له النور والظلمة فإذا سرى يهديه النور من أمامه وتحوطه الظلمة من ورائه وقيل لقب به لشجاعته، هذا وأما ذو القرنين الثانى فقدقال ابن كثير إنه الإسكندر بن فيلبس بن مصريم ابن هرمس بن ميطون بن رومى بن ليطى بن يونان بن يافث بن نونه بن شرخون بن رومية بن ثونط بن نوفيل بن رومى بن الأصفر بن العنز بن العيص ابن إسحق بن إبراهيم الخليل عليهما الصلاة والسلام كذا نسبه ابن عساكر المقدونى اليونانى المصرى بانى الاسكندرية الذى يؤرخ بأيامه الروم وكان متأخرا عن الأول بدهر طويل أكثر من ألفى سنة كان هذا قبل المسيح عليه السلام بنحو من ثلثمائة سنة وكان وزيره أرسطاطالس الفيلسوف وهو الذى قتل دارا بن دارا وأذل ملوك الفرس ووطىء أرضهم ثم قال ابن كثير وإنما بينا هذا لأن كثيرا من الناس يعتقد أنهما واحد وأن المذكور فى القرآن العظيم هو هذا المتأخر فيقع بذلك خطأ كبير وفساد كثير كيف لا والأول كان عبدا صالحا مؤمنا وملكا عادلا وزيره الخضر عليه الصلاة والسلام وقد قيل إنه كان نبيا وأما الثانى فقد كان كافرا وزيره أرسطاطاليس الفيلسوف وقد كان ما بينهما من الزمان أكثر من ألفى سنة فأين هذا من ذاك انتهى. قلت: المقدونى نسبة إلى بلدة من بلاد الروم غربى دار السلطنة السنية قسطنطينية المحمية لا زالت مشحونة بالشعائر الدينية بينهما من المسافة مسيرة خمسة عشر يوما أو نحو ذلك عند مدينة سيروز اسمها بلغة اليونانيين مقدونيا كانت سرير ملك هذا الإسكندر وهى اليوم بلقع لا يقيم بها أحد ولكن فيها علائم تحكى كمال عظمها فى عهد عمرانها ونهاية شوكة واليها وسلطانها ولقد مررت بها عند القفول من بعض المغازى السلطانية فعاينت فيها من تعاجيب الآثار ما فيه عبرة لأولى الأبصار ﴿ قل ﴾ لهم فى الجواب ﴿ سأتلو عليكم ﴾ أى سأذكر لكم ﴿ منه ﴾ أى من ذى القرنين ﴿ ذكرا ﴾ أى نبأ مذكورا وحيث كان ذلك بطريق الوحى المتلو حكاية عن جهة الله عز وجل قيل سأتلو أو سأتلو فى شأنه من جهته تعالى ذكرا أى قرآنا والسين للتأكيد والدلالة على التحقيق المناسب لمقام تأييده

عليه الصلاة والسلام وتصديقه بإنجاز وعده أى لا أترك التلاوة البتة كما فى قول من قال :

ساشكر عمرا إن تراخت منيتى أيادى لم تمنن وإن هى جلت

لا للدلالة على أن التلاوة ستقع فيما يستقبل كما قيل لأن هذه الآية ما نزلت بانفرادها قبل الوحى بتمام القصة بل موصولة بما بعدها ريثما سألوه عليه الصلاة والسلام عنه وعن الروح وعن أصحاب الكهف فقال لهم عليه الصلاة والسلام ائتونى غدا أخبركم فأبطأ عليه الوحى خمسة عشر يوما أو أربعين كما ذكر فيما سلف وقوله عز وجل :

﴿ إنا مكنا له فى الأرض ﴾ شروع فى تلاوة الذكر المعهود حسبما هو الموعود والتمكين ههنا الإقدار وتمهيد الأسباب يقال مكنه ومكن له ومعنى الأول جعله قادرا وقويا ومعنى الثانى جعل له قدرة وقوة ولتلازمهما فى الوجود وتقاربهما فى المعنى يستعمل كل منهما فى محل الآخر كما فى قوله عز وعلا (مكناهم فى الأرض ما لم نمكن لكم) أى جعلناهم قادرين من حيث القوى والأسباب والآلات على أنواع التصرفات فيها ما لم نجعله لكم من القوة والسعة فى المال والاستظهار بالعدد والأسباب فكأنه قيل ما لم نمكنكم فيها أى ما لم نجعلكم قادرين على ذلك فيها أو مكنا لهم فى الأرض ما لم نمكن لكم وهكذا إذا كان التمكين مأخوذا من المكان بناء على توهم ميمه أصلية كما أشير إليه فى سورة يوسف عليه الصلاة والسلام والمعنى إنا جعلنا له مكنة وقدرة على التصرف فى الأرض من حيث التدبير والرأى والأسباب حيث سخر له السحاب ومد له فى الأسباب وبسط له النور وكان الليل والنهار عليه سواء وسهل عليه السير فى الأرض وذللت له طرقها ﴿ وآتيناه من كل شىء ﴾ أراده من مهمات ملكه ومقاصده المتعلقة بسلطانه ﴿ سببا ﴾ أى طريقا يوصله إليه وهو كل ما يتوصل به إلى المقصود من علم أو قدرة أو آلة ﴿ فأتبع ﴾ بالقطع أى فأراد بلوغ المغرب فأتبع ﴿ سببا ﴾ يوصله إليه ولعل قصد بلوغ المغرب ابتداء لمراعاة الحركة

الشمسية وقرىء فاتبع من الافتعال والفرق أن الأول فيه معنى الإدراك والإسراع دون الثانى.

﴿ حتى إذا بلغ مغرب الشمس ﴾ أى منتهى الأرض من جهة المغرب بحيث لا يتمكن أحد من مجاوزته ووقف على حافة البحر المحيط الغربى الذى يقال له أوقيانوس الذى فيه الجزائر المسماة بالخالدات التى هى مبدأ الأطوال على أحد القولين ﴿ وجدها ﴾ أى الشمس ﴿ تغرب فى عين حمئة ﴾ أى ذات حمأة وهى الطين الأسود من حمئت البئر إذا كثرت حمأتها وقرىء حامية أى حارة روى أن معاوية رضى الله عنه قرأ (حامية) وعنده ابن عباس رضى الله عنهما فقال حمئة فقال معاوية لعبد الله بن عمرو بن العاص كيف تقرأ قال كما يقرأ أمير المؤمنين ثم وجه إلى كعب الأحبار كيف تجد الشمس تغرب قال فى ماء وطين وروى فى ثأط فوافق قول ابن عباس رضى الله عنهما وليس بينهما منافاة قطعية لجواز كون العين جامعة بين الوصفين وكون الياء فى الثانية منقلبة عن الهمزة لانكسار ما قبلها وأما رجوع معاوية إلى قول ابن عباس رضى الله عنهم بما سمعه من كعب مع أن قراءته أيضاً مسموعة قطعا فلكون قراءة ابن عباس رضى الله عنهما قطعية فى مدلولها وقراءته محتملة ولعله لما بلغ ساحل المحيط رآها كذلك إذ ليس فى مطمح بصره غير الماء كما يلوح به قوله تعالى (وجدها تغرب) ﴿ ووجد عندها ﴾ عند تلك العين ﴿ قوما ﴾ قيل كان لباسهم جلود الوحوش وطعامهم ما لفظه البحر وكانوا كفارا فخيره الله جل ذكره بين أن يعذبهم بالقتل وأن يدعوهم إلى الإيمان وذلك قوله تعالى ﴿ قلنا يا ذا القرنين إما أن تعذب ﴾ بالقتل من أول الأمر ﴿ وإما أن تتخذ فيهم حسناً ﴾ أى أمراً ذا حسن على حذف المضاف أو على طريقة إطلاق المصدر على موصوفه مبالغة وذلك بالدعوة إلى الإسلام والإرشاد إلى الشرائع ومحل أن مع صلته إما الرفع على الابتداء أو الخبرية وإما النصب على المفعولية أى إما تعذيبك واقع أو إما تفعل تعذيبك وهكذا الحال فى الاتخاذ ومن لم يقل بنبوته قال كان ذلك الخطاب بواسطة نبى فى ذلك العصر أو كان ذلك إلهاما لا وحيا بعد أن كان ذلك التخيير

موافقا لشريعة ذلك النبي ﴿ قال ﴾ أى ذو القرنين لذلك النبي أو لمن عنده من خواصه بعد ما تلقى أمره تعالى مختارا للشق الآخير ﴿ أما من ظلم ﴾ أى نفسه ولم يقبل دعوتى وأصر على ما كان عليه من الظلم العظيم الذى هو الشرك ﴿ فسوف نعذبه ﴾ بالقتل وعن قتادة أنه كان يطبخ من كفر فى القدور ومن آمن أعطاه وكساه ﴿ ثم يرد إلى ربه ﴾ فى الآخرة ﴿ فيعذبه ﴾ فيها ﴿ عذابا نكرا ﴾ أى منكرا فظيعا وهو عذاب النار وفيه دلالة ظاهرة على أن الخطاب لم يكن بطريق الوحى إليه وأن مقاولته كانت مع النبى أو مع من عنده من أهل مشورته ﴿ وأما من آمن ﴾ بموجب دعوتى ﴿ وعمل ﴾ عملا ﴿ صالحا ﴾ حسبما يقتضيه الإيمان ﴿ فله ﴾ فى الدارين ﴿ جزاء الحسنى ﴾ أى فله المثوبة الحسنى أو الفعلة الحسنى أو الجنة جزاء على أنه مصدر مؤكد لمضمون الجملة قدم على المبتدأ اعتناء به أو منصوب بمضمر أى نجزى بها جزاء والجملة حالية أو معترضة بين المبتدأ والخبر المتقدم عليه أو حال أى مجزيا بها أو تمييز وقرىء منصوبا غير منون على أنه سقط تنوينه لالتقاء الساكنين ومرفوعا منونا على أنه المبتدأ والحسنى بدله والخبر الجار والمجرور وقيل خير بين القتل والأسر والجواب من باب الأسلوب الحكيم لأن الظاهر التخيير بينهما وهم كفار فقال أما الكافر فيراعى فى حقه قوة الإسلام وأما المؤمن فلا يتعرض له إلا بما يحب ويجوز أن تكون إما وأما للتوزيع دون التخيير أى وليكن شأنك معهم إما التعذيب وإما الإحسان فالأول لمن بقى على حاله والثانى لمن تاب ﴿ وسنقول له من أمرنا ﴾ أى مما نأمر به ﴿ يسرا ﴾ أى سهلا متيسرا غير شاق وتقديره ذا يسر أو أطلق عليه المصدر مبالغة وقرىء بضمتين ﴿ ثم أتبع سببا ﴾ أى طريقا راجعا من مغرب الشمس موصلا إلى مشرقها ﴿ حتى إذا بلغ مطلع الشمس ﴾ يعنى الموضع الذى تطلع عليه الشمس أولا من معمورة الأرض وقرىء بفتح اللام على تقدير مضاف أى مكان طلوع الشمس فإنه مصدر قيل بلغه فى اثنتى عشرة سنة وقيل فى أقل من ذلك بناء على ما ذكر من أنه سخر له السحاب وطوى له الأسباب ﴿ وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها

سترا ﴾ من اللباس والبناء قيل هم الزنج وعن كعب أن أرضهم لا تمسك الأبنية وبها أسراب فإذا طلعت الشمس دخلوا الأسراب أو البحر فإذا ارتفع النهار خرجوا إلى معايشهم وعن بعضهم خرجت حتى جاوزت الصين فسألت عن هؤلاء فقالوا بينك وبينهم مسيرة يوم وليلة فبلغتهم فإذا أحدهم يفرش أذنه ويلبس الأخرى ومعى صاحب يعرف لسانهم فقالوا له جئتنا تنظر كيف تطلع الشمس قال فبينما نحن كذلك إذ سمعنا كهيئة الصلصلة فغشى على ثم أفقت وهم يمسحوننى بالدهن فلما طلعت الشمس على الماء إذا هو فوق الماء كهيئة الزيت فأدخلونا سربا لهم فلما ارتفع النهار خرجوا إلى البحر يصطادون السمك ويطرحونه فى الشمس فينضج لهم وعن مجاهد من لا يلبس الثياب من السودان عند مطلع الشمس أكثر من جميع أهل الأرض ﴿ كذلك ﴾ أى أمر ذى القرنين كما وصفناه لك فى رفعة المحل وبسطة الملك أو أمره فيهم كأمره فى أهل المغرب من التخيير والاختيار ويجوز أن يكون صفة مصدر محذوف لوجد أو نجعل أو صفة قوم أى على قوم مثل ذلك القبيل الذى تغرب عليهم الشمس فى الكفر والحكم أو سترا مثل ستركم من اللباس والأكنان والجبال وغير ذلك ﴿ وقد أحطنا بما لديه ﴾ من الأسباب والعدد والعدد ﴿ خبرا ﴾ يعنى أن ذلك من الكثرة بحيث لا يحيط به إلا علم اللطيف الخبير هذا على الوجه الأول وأما على الوجوه الباقية فالمراد بما لديه ما يتناول ما جرى عليه وما صدر عنه وما لاقاه فتأمل .

﴿ ثم أتبع سببا ﴾ أى طريقا ثالثا معترضا بين المشرق والمغرب آخذا من الجنوب إلى الشمال ﴿ حتى إذا بلغ بين السدين ﴾ بين الجبلين الذين سد ما بينهما وهو منقطع أرض الترك مما يلى المشرق لا جبلا أرمينية وأذربيجان كما توهم وقرىء بالضم قيل ما كان من خلق الله تعالى فهو مضموم وما كان من عمل الخلق فهو مفتوح وانتصاب بين على المفعولية لأنه مبلوغ وهو من الظروف التى تستعمل أسماء أيضا كما ارتفع فى قوله تعالى (لقد تقطع بينكم) وانجر فى قوله تعالى (هذا فراق بينى وبينك) ﴿ وجد من دونهما ﴾ أى من ورائهما مجاوزا عنهما

﴿قوما﴾ أى أمة من الناس ﴿لا يكادون يفقهون قولا﴾ لغرابة لغتهم وقلة فطنتهم وقرىء من باب الأفعال أى لا يفهمون السامع كلامهم واختلفوا فى أنهم من أى الأقوام فقال الضحاك هم جيل من الترك وقال السدى الترك سرية من يأجوج ومأجوج خرجت فضرب ذو القرنين السد فبقيت خارجه فجميع الترك منهم وعن قتادة أنهم اثنتان وعشرون قبيلة سد ذو القرنين على إحدى وعشرين قبيلة منهم وبقيت واحدة فسموا الترك لأنهم تركوا خارجين قال أهل التاريخ أولاد نوح عليه السلام ثلاثة سام وحام ويافث فسام أبو العرب والعجم والروم وحام أبو الحبشة والزنج والنوبة ويافث أبو الترك والخزر والصقالبة ويأجوج ومأجوج ﴿قالوا﴾ أى بواسطة مترجمهم أو بالذات على أن يكون فهم ذى القرنين كلامهم وإفهام كلامه إياهم من جملة ما آتاه الله تعالى من الأسباب ﴿ياذا القرنين إن يأجوج ومأجوج﴾ قد ذكرنا أنهما من أولاد يافث بن نوح عليه السلام وقيل يأجوج من الترك ومأجوج من الجيل واختلف فى صفاتهم فقيل فى غاية صغر الجثة وقصر القامة لا يزيد قدهم على شبر واحد وقيل فى نهاية عظم الجسم وطول القامة تبلغ قدودهم نحو مائة وعشرين ذراعا وفيهم من عرضه كذلك وقيل لهم مخالب وأضراس كالسباع وهما اسمان أعجميان بدليل منع الصرف وقيل عربيان من أج الظليم إذا أسرع واصلهما الهمزة كما قرأ عاصم وقد قرىء بغير همزة ومنع صرفهما للتعريف والتأنيث ﴿مفسدون فى الأرض﴾ أى فى أرضنا بالقتل والتخريب وإتلاف الزروع وقيل كانوا يخرجون أيام الربيع فلا يتركون أخضر إلا أكلوه ولا يابسا إلا احتملوه وقيل كانوا يأكلون الناس أيضاً ﴿فهل نجعل لك خرجا﴾ أى جعلا من أموالنا والفاء لتفريع العرض على إفسادهم فى الأرض وقرىء خراجا وكلاهما واحد كالنول والنوال وقيل الخراج ما على الأرض والذمة والخرج المصدر وقيل الخرج ما كان على كل رأس والخراج ما كان على البلد وقيل الخرج ما تبرعت به والخراج ما لزمك أداؤه ﴿على أن تجعل بيننا وبينهم سدا﴾ وقرىء بالضم ﴿قال ما مكنى﴾ بالإدغام وقرىء بالفك أى ما مكننى ﴿فيه ربى﴾ وجعلنى فيه

مكينا وقادراً من الملك والمال وسائر الأسباب ﴿ خير ﴾ أى مما تريدون أن تبذلوه إلى من الخرج فلا حاجة بى إليه ﴿ فأعينونى بقوة ﴾ أى بفعلة وصناع يحسنون البناء والعمل وبآلات لابد منها فى البناء والفاء لتفريع الأمر بالإعانة على خيرية ما مكنه الله تعالى فيه من مالهم أوعلى عدم قبول خرجهم ﴿أجعل﴾ جواب للأمر ﴿ بينكم وبينهم ﴾ تقديم إضافة الظرف إلى ضمير المخاطبين على إضافته إلى ضمير يأجوج ومأجوج لإظهار كمال العناية بمصالحهم كما راعوه فى قولهم بيننا وبينهم ﴿ردما﴾ أى حاجزا حصينا وبرزخا متينا وهو أكبر من السد وأوثق يقال ثوب مردم أى فيه رقاع فوق رقاع وهذا إسعاف بمرامهم فوق ما يرجونه ﴿ آتونى زبر الحديد﴾ جمع زبرة كغرف فى غرفة وهى القطعة الكبيرة وهذا لا ينافى رد خراجهم لأن المأمور به الإيتاء بالثمن أو المناولة كما ينبىء عنه القراءة بوصل الهمزة أى جيئونى بزبر الحديد على حذف الباء كما فى أمرتك الخير ولأن إيتاء الآلة من قبيل الإعانة بالقوة دون الخراج على العمل ولعل تخصيص الأمر بالإيتاء بها دون سائر الآلات من الصخور والحطب ونحوهما لما أن الحاجة إليها أمس إذ هى الركن فى السد ووجودها أعز قيل حفر للأساس حتى بلغ الماء وجعل الأساس من الصخر والنحاس المذاب والبنيان من زبر الحديد بينها الحطب والفحم حتى سد ما بين الجبلين إلى أعلاهما وكان مائة فرسخ وذلك قوله عز قائلا ﴿حتى إذا ساوى بين الصدفين﴾ أى آتوه إياها فأخذ يبنى شيئا فشيئا حتى إذا جعل ما بين ناحيتى الجبلين من البنيان مساويا لهما فى السمك على النهج المحكى قيل كان ارتفاعه مائتى ذراع وعرضه خمسين ذراعا وقرىء سوى من التسوية وسووى على البناء للمجهول ﴿ قال ﴾ للعملة ﴿ انفخوا﴾ أى بالكيران فى الحديد المبنى ففعلوا ﴿ حتى إذا جعله ﴾ أى المنفوخ فيه ﴿ نارا﴾ أى كالنار فى الحرارة والهيئة وإسناد الجعل المذكور إلى ذى القرنين مع أنه فعل الفعلة للتنبيه على أنه العمدة فى ذلك وهم بمنزلة الآلة ﴿قال﴾ للذين يتولون أمر النحاس من الإذابة ونحوها ﴿ آتونى أفرغ عليه قطرا ﴾ أى آتونى قطرا أى نحاسا مذابا أفرغ عليه قطرا فحذف الأول لدلالة

الثانى عليه وقرىء بالوصل أى جيئونى كأنه يستدعيهم للإعانة باليد عند الإفراغ وإسناد الإفراغ إلى نفسه للسر الذى وقفت عليه آنفا وكذا الكلام فى قوله تعالى (ساوى) وقوله تعالى (أجعل) .

﴿ فما اسطاعوا ﴾ بحذف تاء الافتعال تخفيفا وحذرا عن تلاقى المتقاربين وقرىء بالإدغام وفيه جمع بين الساكنين على غير حده وقرىء بقلب السين صادا والفاء فصيحة أى فعلوا ما أمروا به من إيتاء القطر أو الإتيان فأفرغه عليه فاختلط والتصق بعضه ببعض فصار جبلا صلدا فجاء يأجوج ومأجوج فقصدوا أن يعلوه وينقبوه فما استطاعوا ﴿أن يظهروه﴾ أى يعلوه ويرقوا فيه لارتفاعه وملاسته ﴿ وما استطاعوا له نقبا ﴾ لصلابته وثخانته وهذه معجزة عظيمة لأن تلك الزبر الكثيرة إذا أثرت فيها حرارة النار لايقدر الحيوان على أن يحوم حولها فضلا عن النفخ فيها إلى أن تكون كالنار أو عن إفراغ القطر عليها فكأنه سبحانه وتعالى صرف تأثير تلك الحرارة العظيمة عن أبدان أولئك المباشرين للأعمال فكان ما كان والله على كل شىء قدير وقيل بناه من الصخور مرتبطا بعضها ببعض بكلاليب من حديد ونحاس مذاب فى تجاويفها بحيث لم يبق هناك فرجة أصلا ﴿قال﴾ أى ذو القرنين لمن عنده من أهل تلك الديار وغيرهم ﴿هذا﴾ إشارة إلى السد وقيل إلى تمكينه من بنائه والفضل للمتقدم أى هذا الذى ظهر على يدى وحصل بمباشرتى من السد الذى شأنه ما ذكر من المتانة وصعوبة المنال ﴿رحمة﴾ أى أثر رحمة عظيمة عبر عنه بها مبالغة ﴿من ربى﴾ على كافة العباد لاسيما على مجاوريه وفيه إيذان بأنه ليس من قبيل الآثار الحاصلة بمباشرة الخلق عادة بل هو إحسان إلهى محض وإن ظهر بمباشرتى والتعرض لوصف الربوبية لتربية معنى الرحمة .

﴿ فإذا جاء وعد ربى ﴾ مصدر بمعنى المفعول وهو يوم القيامة لا خروج يأجوج ومأجوج كما قيل إذ لا يساعده النظم الكريم والمراد بمجيئه ما ينتظم مجيئه ومجىء مباديه من خروجهم وخروج الدجال ونزول عيسى عليه الصلاة

والسلام ونحو ذلك لادنو وقوعه فقط كما قيل فإن بعض الأمور التى ستحكى تقع بعد مجيئه حتما ﴿ جعله ﴾ أى السد المشار إليه مع متانته ورصانته وفيه من الجزالة ما ليس فى توجيه الإشارة السابقة إلى التمكين المذكور ﴿ دكاء ﴾ أى أرضا مستوية وقرىء دكا أى مدكوكا مسوى بالأرض وكل ما انبسط بعد ارتفاع فقد اندك ومنه الجمل الأدك أى المنبسط السنام وهذا الجعل وقت مجىء الوعد بمجىء بعض مباديه وفيه بيان لعظم قدرته عز وجل بعد بيان سعة رحمته ﴿ وكان وعد ربى ﴾ أى وعده المعهود أو كل ما وعده به فيدخل فيه ذلك دخولا أوليا ﴿ حقا ﴾ ثابتا لا محالة واقعا البتة وهذه الجملة تذييل من ذى القرنين لما ذكره من الجملة الشرطية ومقرر مؤكد لمضمونها وهو آخر ماحكى من قصته وقوله عز وجل ﴿ وتركنا بعضهم ﴾ كلام مسوق من جنابه تعالى معطوف على قوله تعالى (جعله دكاء) ومحقق لمضمونه أى جعلنا بعض الخلائق.

﴿ يومئذ ﴾ أى يوم إذ جاء الوعد بمجىء بعض مباديه ﴿ يموج فى بعض ﴾ آخر منهم يضطربون اضطراب أمواج البحر ويختلط إنسهم وجنهم حيارى من شدة الهول ولعل ذلك قبل النفخة الأولى أو تركنا بعض يأجوج ومأجوج يموج فى بعض آخر منهم حين يخرجون من السد مزدحمين فى البلاد روى أنهم يأتون البحر فيشربون ماءه ويأكلون دوابه ثم يأكلون الشجر ومن ظفروا به ممن لم يتحصن منهم من الناس ولا يقدرون أن يأتوا مكة والمدينة وبيت المقدس ثم يبعث الله عز وجل نغفا فى أقفائهم فيدخل آذانهم فيموتون موت نفس واحدة فيرسل الله تعالى عليهم طيراً فتلقيهم فى البحر ثم يرسل مطرا يغسل الأرض ويطهرها من نتنهم حتى يتركها كالزلفة ثم يوضع فيها البركة وذلك بعد نزول عيسى عليه الصلاة والسلام وقتل الدجال.

﴿ ونفخ فى الصور ﴾ هى النفخة الثانية بقضية الفاء فى قوله تعالى ﴿ فجمعناهم ﴾ ولعل عدم التعرض لذكر النفخة الأولى لأنها داهية عامة ليس فيها حالة مختصة بالكفار ولئلا يقع الفصل بين ما يقع فى النشأة الأولى من الأحوال والأهوال

وبين ما يقع منها فى النشأة الآخرة أى جمعنا الخلائق بعدما تفرقت أوصالهم وتمزقت أجسادهم فى صعيد واحد للحساب والجزاء ﴿ جمعا ﴾ أى جمعا عجيبا لا يكتنه كنهه ﴿ وعرضنا جهنم ﴾ أى أظهرناها وأبرزناها ﴿ يومئذ ﴾ أى يوم إذ جمعنا الخلائق كافة ﴿ للكافرين ﴾ منهم حيث جعلناها بحيث يرونها ويسمعون لها تغيظا وزفيرا ﴿ عرضا ﴾ أى عرضا فظيعا هائلا لا يقادر قدره وتخصيص العرض بهم مع أنها بمرأى من أهل الجمع قاطبة لأن ذلك لأجلهم خاصة ﴿ الذين كانت أعينهم ﴾ وهم فى الدنيا ﴿ فى غطاء ﴾ كثيف وغشاوة غليظة محاطة بذلك من جميع الجوانب ﴿ عن ذكرى ﴾ عن الآيات المؤدية لأولى الأبصار المتدبرين فيها إلى ذكرى بالتوحيد والتمجيد أوكانت أعين بصائرهم فى غطاء عن ذكرى على وجه يليق بشأنى أو عن القرآن الكريم ﴿ وكانوا ﴾ مع ذلك ﴿ لا يستطيعون ﴾ لفرط تصامهم عن الحق وكمال عداوتهم للرسول عليه الصلاة والسلام ﴿ سمعا ﴾ استماعا لذكرى وكلامى الحق الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وهذا تمثيل لإعراضهم عن الأدلة السمعية كما أن الأول تصوير لتعاميهم عن الآيات المشاهدة بالأبصار والموصول نعت للكافرين أو بدل منه أو بيان جىء به لذمهم بما فى حيز الصلة وللإشعار بعليته لإصابة ما أصابهم من عرض جهنم لهم فإن ذلك إنما هو لعدم استعمال مشاعرهم فيما عرض لهم فى الدنيا من الآيات وإعراضهم عنها مع كونها أسبابا منجية عما ابتلوا به فى الآخرة .

توبيخ وتهديد وبيان

﴿ أفحسب الذين كفروا ﴾ أى كفروا بى كما يعرب عنه قوله تعالى (عبادى) .والحسبان بمعنى الظن وقد قرىء أفظن والهمزة للإنكار والتوبيخ على معنى إنكار الواقع واستقباحه كما فى قولك أضربت أباك لا إنكار الوقوع كما فى قوله أأضرب أبى والفاء للعطف على مقدر يفصح عنه الصلة على توجيه الإنكار والتوبيخ إلى المعطوفين جميعا كما إذا قدر المعطوف عليه فى قوله تعالى

(أفلا تعقلون) منفيا أى لا تسمعون فلا تعقلون لا إلى المعطوف فقط كما إذا قدر مثبتا أى أتسمعون فلا تعقلون والمعنى أ كفروا بى مع جلالة شأنى فحسبوا ﴿ أن يتخذوا عبادى من دونى ﴾ من الملائكة وعيسى وعزير عليهم السلام وهم تحت سلطانى وملكوتى ﴿ أولياء ﴾ معبودين ينصرونهم من بأسى وماقيل إنها للعطف على ما قبلها من قوله تعالى (كانت) الخ (وكانوا) إلخ دلالة على أن الحسبان ناشىء من التعامى والتصام وأدخل عليها همزة الإنكار ذما على ذم وقطعا له عن المعطوف عليهما لفظا لا معنى للإيذان بالاستقلال المؤكد للذم يأباه ترك الإضمار والتعرض لوصف آخر غير التعامى والتصام على أنهما أخرجا مخرج الأحوال الجبلية لهم ولم يذكروا من حيث أنهما من أفعالهم الاختيارية الحادثة كحسبانهم ليحسن تفريعه عليهما وأيضا فإنه دين قديم لهم لا يمكن جعله ناشئا عن تصامهم عن كلام الله عز وجل وتخصيص الإنكار بحسبانهم المتأخر عن ذلك تعسف لايخفى ومافى حيز صلة أن ساد مسد مفعولى حسب كما فى قوله تعالى (وحسبوا أن لا تكون فتنة) أى أفحسبوا أنهم يتخذونهم أولياء على معنى أن ذلك ليس من الاتخاذ فى شىء لما أنه إنما يكون من الجانبين وهم عليهم الصلاة والسلام منزهون عن ولايتهم بالمرة لقولهم (سبحانك أنت ولينا من دونهم) وقيل مفعوله الثانى محذوف أى أفحسبوا اتخاذهم نافعا لهم والوجه هو الأول لأن فى هذا تسليما لنفس الاتخاذ واعتدادا به فى الجملة وقرىء أفحسب الذين كفروا أى أفحسبهم وكافيهم أن يتخذوهم أولياء على الابتداء والخبر أو الفعل والفاعل فإن النعت إذا اعتمد الهمزة ساوى الفعل فى العمل فالهمزة حينئذ بمعنى إنكار الوقوع .

﴿ إنا أعتدنا جهنم ﴾ أى هيأناها ﴿ للكافرين ﴾ المعهودين عدل عن الإضمار ذمالهم وإشعارا بأن ذلك الإعتاد بسبب كفرهم المتضمن لحسبانهم الباطل ﴿ نزلا ﴾ أى شيئا يتمتعون به عند ورودهم وهو ما يقام للنزيل أى الضيف مما حضر من الطعام وفيه تخطئة لهم فى حسبانهم وتهكم بهم حيث كان

اتخاذهم إياهم أولياء من قبيل إعتاد العتاد وإعداد الزاد ليوم المعاد فكأنه قيل إنا أعتدنا لهم مكان ما أعدوا لأنفسهم من العدة والذخر جهنم عدة وفى إيراد النزل إيماء إلى أن لهم وراء جهنم من العذاب ما هو أنموذج له وقيل النزل موضع النزول ولذلك فسره ابن عباس رضى الله عنهما بالمثوى ﴿ قل هل ننبئكم ﴾ الخطاب الثانى للكفرة على وجه التوبيخ والجمع فى صيغة المتكلم لتعيينه من أول الأمر وللإيذان بمعلومية النبأ للمؤمنين أيضا ﴿ بالأخسرين أعمالا ﴾ نصب على التمييز والجمع للإيذان بتنوعها وهذا بيان لحال الكفرة باعتبار ما صدر عنهم من الأعمال الحسنة فى أنفسها وفى حسبانهم أيضا حيث كانوا معجبين بها واثقين بنيل ثوابها ومشاهدة آثارها غب بيان حالهم باعتبار أعمالهم السيئة فى أنفسها مع كونها حسنة فى حسبانهم .

﴿ الذين ضل سعيهم ﴾ فى إقامة تلك الأعمال أى ضاع وبطل بالكلية ﴿ فى الحيوة الدنيا ﴾ متعلق بالسعى لا بالضلال لأن بطلان سعيهم غير مختص بالدنيا قيل المراد بهم أهل الكتابين قاله ابن عباس وسعد بن أبى وقاص ومجاهد رضى الله عنهم ويدخل فى الأعمال حينئذ ما عملوه من الأحكام المنسوخة المتعلقة بالعبادات وقيل الرهابنة الذين يحبسون أنفسهم فى الصوامع ويحملونها على الرياضات الشاقة ولعله ما يعمهم وغيرهم من الكفرة ومحل الموصول الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف لأنه جواب للسؤال كأنه قيل من هم فقيل الذين الخ وجعله مجرورا على أنه نعت للأخسرين أو بدل منه أو منصوبا على الذم على أن الجواب ما سيأتى من قوله تعالى (أولئك) الآية يأباه أن صدره ليس منبئا عن خسران الأعمال وضلال السعى كما يستدعيه مقام الجواب والتفريع الأول وإن دل على حبوطها لكنه ساكت عن إنباء ما هو العمدة فى تحقيق معنى الخسران من الوثوق بترتب الربح واعتقاد النفع فيما صنعوا على أن التفريع الثانى مما يقطع ذلك الاحتمال رأسا إذ لا مجال لإدراجه تحت الأمر بقضية نون العظمة .

﴿ وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ﴾ الإحسان الإتيان بالأعمال على الوجه اللائق وهو حسنها الوصفى المستلزم لحسنها الذاتى أى يحسبون أنهم يعملون ذلك على الوجه اللائق وذلك لإعجابهم بأعمالهم التى سعوا فى إقامتها وكابدوا فى تحصيلها والجملة حال من فاعل ضل أى بطل سعيهم المذكور والحال أنهم يحسبون أنهم يحسنون فى ذلك وينتفعون بآثاره أو من المضاف إليه لكونه فى محل الرفع نحو قوله تعالى (إليه مرجعكم جميعا) أى بطل سعيهم والحال أنهم إلخ والفرق بينهما أن المقارن لحال حسبانهم المذكور فى الأول ضلال سعيهم وفى الثانى نفس سعيهم والأول أدخل فى بيان خطئهم ﴿ أولئك ﴾ كلام مستأنف من جنابه تعالى مسوق لتكميل تعريف الأخسرين وتبيين سبب خسرانهم وضلال سعيهم وتعيينهم بحيث ينطبق التعريف على المخاطبين غير داخل تحت الأمر أى أولئك المنعوتون بما ذكر من ضلال السعى مع الحسبان المزبور ﴿ الذين كفروا بآيات ربهم ﴾ بدلائله الداعية إلى التوحيد عقلا ونقلا والتعرض لعنوان الربوبية لزيادة تقبيح حالهم فى الكفر المذكور ﴿ ولقائه ﴾ بالبعث وما يتبعه من أمور الآخرة على ما هى عليه .

﴿ فحبطت ﴾ لذلك ﴿ أعمالهم ﴾ المعهودة حبوطا كليا ﴿ فلا نقيم لهم ﴾ أى لأولئك الموصوفين بما مر من حبوط الأعمال وقرىء بالياء ﴿ يوم القيامة وزنا ﴾ أى فنزدريهم ولانجعل لهم مقدارا واعتبارا لأن مداره الأعمال الصالحة وقد حبطت بالمرة وحيث كان هذا الازدراء من عواقب حبوط الأعمال عطف عليه بطريق التفريع وأما ما هو من أجزية الكفر فسيجىء بعد ذلك أولا نضع لأجل وزن أعمالهم ميزانا لأنه إنما يوضع لأهل الحسنات والسيئات من الموحدين ليتميز به مقادير الطاعات والمعاصى ليترتب عليه التكفير أو عدمه لأن ذلك فى الموحدين بطريق الكمية وأما الكفر فإحباطه للحسنات بحسب الكيفية دون الكمية فلا يوضع لهم الميزان قطعا ﴿ ذلك ﴾ بيان لمآل كفرهم وسائر معاصيهم إثر بيان مآل أعمالهم المحبطة بذلك أى الأمر ذلك وقوله

عز وجل ﴿ جزاؤهم جهنم ﴾ جملة مبينة له أو ذلك مبتدأ والجملة خبره والعائد محذوف أى جزاؤهم به أو جزاؤهم بدله وجهنم خبره أو جزاؤهم خبره وجهنم عطف بيان للخبر ﴿ بما كفروا ﴾ تصريح بأن ما ذكر جزاء لكفرهم المتضمن لسائر القبائح التى أنبأ عنها قوله تعالى ﴿ واتخذوا آياتى ورسلى هزوا ﴾ أى مهزوا بهما فإنهم لم يقتنعوا بمجرد الكفر بالآيات والرسل بل ارتكبوا مثل تلك العظيمة أيضاً .

﴿ إن الذين آمنوا ﴾ بيان بطريق الوعد المآل الذين اتصفوا بأضداد ما اتصف به الكفرة إثر بيان ما لهم بطريق الوعيد أى آمنوا بآيات ربهم ولقائه ﴿ وعملوا الصالحات ﴾ من الأعمال ﴿ كانت لهم ﴾ فيما سبق من حكم الله تعالى ووعده وفيه إيماء إلى أن أثر الرحمة يصل إليهم بمقتضى الرأفة الأزلية بخلاف ما مر من جعل جهنم للكافرين نزلا فإنه بموجب ما حدث من سوء اختيارهم ﴿ جنات الفردوس ﴾ عن مجاهد أن الفردوس هو البستان بالرومية وقال عكرمة هو الجنة بالحبشية وقال الضحاك هو الجنة الملتفة الأشجار وقيل هى الجنة التى تنبت ضروبا من النبات وقيل هى الجنة من الكرم خاصة وقيل ما كان غالبه كرما وقال المبرد هو فيما سمعت من العرب للشجر الملتف والأغلب عليه أن يكون من العنب وعن كعب أنه ليس فى الجنان أعلى من جنة الفردوس وفيها الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الجنة مائة درجة ما بين كل درجة مسيرة مائة عام والفردوس أعلاها وفيها الأنهار الأربعة فإذا سألتم الله تعالى فاسألوه الفردوس فإن فوقه عرش الرحمن ومنه تفجر أنهار الجنة ﴿ نزلا ﴾ خبر كانت والجار والمجرور متعلق بمحذوف على أنه حال من نزلا أو على أنه بيان أو حال من جنات الفردوس والخبر هو الجار والمجرور فإن جعل النزول بمعنى ما يهيأ للنازل فالمعنى كانت لهم ثمار جنات الفردوس نزلا أو جعلت نفس الجنات نزلا مبالغة فى الإكرام وفيه إيذان بأنها عند ما أعد الله لهم على ما جرى على لسان النبوة من قوله أعددت

لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر بمنزلة النزل بالنسبة إلى الضيافة وإن جعل بمعنى المنزل فالمعنى ظاهر .

﴿ خالدين فيها ﴾ نصب على الحالية ﴿ لا يبغون عنها حولا ﴾ مصدر كالعوج والصغر أى لا يطلبون تحولا عنها إذ لا يتصور أن يكون شىء أعز عندهم وأرفع منها حتى تنازعهم إليه أنفسهم وتطمح نحوه أبصارهم ويجوز أن يراد نفى التحول وتأكيد الخلود والجملة حال من صاحب خالدين أومن ضميره فيه فيكون حالا متداخلة ﴿ قل لو كان البحر ﴾ أى جنس البحر ﴿ مدادا ﴾ وهو ما تمد به الدواة من الحبر ﴿ لكلمات ربى ﴾ لتحرير كلمات علمه وحكمته التى من جملتها ما ذكر من الآيات الداعية إلى التوحيد المحذرة من الإشراك ﴿ لنفد البحر ﴾ مع كثرته ولم يبق منه شىء لتناهيه ﴿ قبل أن تنفد ﴾ وقرىء بالياء والمعنى من غير أن تنفد ﴿ كلمات ربى ﴾ لعدم تناهيها فلا دلالة للكلام على نفادها بعد نفاد البحر وفى إضافة الكلمات إلى اسم الرب المضاف إلى ضميره صلى الله عليه وسلم فى الموضعين من تفخيم المضاف وتشريف المضاف إليه ما لا يخفى وإظهار البحر والكلمات فى موضع الإضمار لزيادة التقرير ﴿ ولو جئنا ﴾ كلام من جهته تعالى غير داخل فى الكلام الملقن جىء به لتحقيق مضمونه وتصديق مدلوله مع زيادة مبالغة وتأكيد والواو لعطف الجملة على نظيرتها المستأنفة المقابلة لها المحذوفة لدلالة المذكورة عليها دلالة واضحة أى لنفد البحر من غير نفاد كلماته تعالى لو لم نجىء بمثله مددا ولو جئنا بقدرتنا الباهرة ﴿ بمثله مددا ﴾ عونا وزيادة لأن مجموع المتناهيين متناه بل مجموع ما يدخل تحت الوجود من الأجسام لا يكون إلا متناهيا لقيام الأدلة القاطعة على تناهى الأبعاد وقرىء مددا جمع مدة وهى ما يستمده الكاتب وقرىء مدادا .

﴿ قل ﴾ لهم بعد ما بينت لهم شأن كلماته تعالى ﴿ إنما أنا بشر مثلكم ﴾ لا أدعى الإحاطة بكلماته التامة ﴿ يوحى إلى ﴾ من تلك الكلمات ﴿ إنما إلهكم إله واحد ﴾ لا شريك له فى الخلق ولا فى سائر أحكام الألوهية وإنما تميزت

عنكم بذلك ﴿ فمن كان يرجو لقاء ربه ﴾ الرجاء توقع وصول الخير فى المستقبل والمراد بلقائه تعالى كرامته وإدخال الماضى على المستقبل للدلالة على أن اللائق بحال المؤمن الاستمرار والاستدامة على رجاء اللقاء أى فمن استمر على رجاء كرامته تعالى ﴿ فليعمل ﴾ لتحصيل تلك الطلبة العزيزة ﴿ عملا صالحا ﴾ فى نفسه لائقا بذلك المرجو كما فعله الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴿ ولا يشرك بعبادة ربه أحداً ﴾ إشراكا جليا كما فعله الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه ولا إشراكا خفيا كما يفعله أهل الرياء ومن يطلب به أجرا وإيثار وضع المظهر موضع المضمر فى الموضعين مع التعرض لعنوان الربوبية لزيادة التقرير وللإشعار بعلية العنوان للأمر والنهى ووجوب الامتثال فعلا وتركا . روى أن جندب بن زهير رضى الله عنه قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم إنى لأعمل العمل لله تعالى فإذا اطلع عليه سرنى فقال عليه الصلاة والسلام إن الله لا يقبل ما شورك فيه فنزلت تصديقا له وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال له لك أجران أجر السر وأجر العلانية وذلك إذا قصد أن يقتدى به وعنه عليه السلام اتقوا الشرك الأصغر قيل وما الشرك الأصغر قال الرياء ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة الكهف من آخرها كانت له نورا من قرنه إلى قدمه ومن قرأها كلها كانت له نورا من الأرض إلى السماء وعنه صلى الله عليه وسلم من قرأ عند مضجعه قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى الخ كان له من مضجعه نورا يتلألأ إلى مكة حشو ذلك النور ملائكة يصلون عليه حتى يقوم وإن كان مضجعه بمكة كان له نورا يتلألأ من مضجعه إلى البيت المعمور حشو ذلك النور ملائكة يصلون عليه حتى يستيقظ الحمد لله سبحانه على نعمه العظام .

* * *

سورة مريم عليها السلام

(مكية إلا آية السجدة وهى ثمان أو تسع وتسعون آيه)

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

﴿ كهيعص ﴾ بإمالة الهاء والياء وإظهار الدال وقرىء بفتح الهاء وإمالة الياء وبتفخيمهما وبإخفاء النون قبل الصاد لتقاربهما وقد سلف أن مالا يكون من هذه الفواتح مفردة ولا موازنه لمفرد فطريق التلفظ بها الحكاية فقط ساكنة الأعجاز على الوقف سواء جعلت أسماء للسور أو مسرودة على نمط التعديد وإن لزمها التقاء الساكنين لكونه مغتفرا فى باب الوقف قطعا فحق هذه الفاتحة الكريمة أن يوقف عليها جريا على الأصل وقرىء بإدغام الدال فيما بعدها لتقاربهما فى المخرج فإن جعلت اسما للسورة على ما عليه إطباق الأكثر فمحله الرفع اما على أنه خبر لمبتدأ محذوف والتقدير هذا كهيعص أى مسمى به وإنما صحت الإشارة إليه مع عدم جريان ذكره لأنه باعتبار كونه على جناح الذكر صار فى حكم الحاضر المشاهد كما يقال هذا ما اشترى فلان أو على أنه مبتدأ خبره .

البشارة بيحيى

﴿ ذكر رحمة ربك ﴾ أى المسمى به ذكر رحمة الخ فإن ذكرها لما كان مطلع السورة الكريمة ومعظم ما انطوت هى عليه جعلت كأنها نفس ذكرها والأول هو الأولى لأن ما يجعل عنوانا للموضوع حقه أن يكون معلوم الانتساب إليه عند المخاطب وإذ لا علم بالتسمية من قبل فحقها الإخبار بها كما فى الوجه الأول وإن جعلت مسرودة على نمط التعديد حسبما جنح إليه أهل التحقيق فذكر الخ خبر لمبتدأ محذوف هو ما ينبىء عنه تعديد الحروف كأنه قيل المؤلف من جنس هذه الحروف المبسوطة مرادا به السورة ذكر الرحمة الخ وقيل هو مبتدأ قد حذف خبره أى فيما يتلى عليك ذكرها وقرىء ذكر

رحمة ربك على صيغة الماضى من التذكير أى هذا المتلو ذكرها وقرىء ذكر على صيغة الأمر والتعرض لوصف الربوبية المنبئة عن التبليغ إلى الكمال مع الإضافة إلى ضميره عليه السلام للإيذان بأن تنزيل السورة عليه عليه الصلاة والسلام تكميل له عليه السلام وقوله تعالى ﴿ عبده ﴾ مفعول لرحمة ربك على أنها مفعول لما أضيف إليها وقيل للذكر على أنه مصدر أضيف إلى فاعله على الاتساع ومعنى ذكر الرحمة بلوغها وإصابتها كما يقال ذكرنى معروف فلان أى بلغنى ، وقوله عز وعلا ﴿ زكريا ﴾ بدل منه أو عطف بيان له ﴿ إذ نادى ربه نداء خفيا ﴾ ظرف لرحمة ربك وقيل لذكر على أنه مضاف إلى فاعله اتساعا لا على الوجه الأول لفساد المعنى وقيل هو بدل اشتمال من زكريا كما فى قوله (واذكر فى الكتاب مريم إذ انتبذت) ولقد راعى عليه الصلاة والسلام حسن الأدب فى إخفاء دعائه فانه مع كونه بالنسبه إليه عز وجل كالجهر أدخل فى الإخلاص وأبعد من الرياء وأقرب إلى الخلاص عن لائمة الناس على طلب الولد لتوقفه على مبادىء لا يليق به تعاطيها فى أوان الكبر والشيخوخة وعن غائلة مواليه الذين كان يخافهم وقيل كان ذلك منه عليه السلام لضعف الهرم قالوا كان سنه حينئذ ستين وقيل خمسا وستين وقيل سبعين وقيل خمسا وسبعين وقيل أكثر منها كما مر فى سورة آل عمران .

﴿ قال ﴾ جملة مفسرة لنادى لا محل لها من الإعراب ﴿ رب إنى وهن العظم منى ﴾ إسناد الوهن إلى العظم لما أنه عماد البدن ودعام الجسد فإذا أصابه الضعف والرخاوة أصاب كله أو لأنه أشد أجزائه صلابة وقواما وأقلها تأثرا من العلل فإذا وهن كان ما وراءه أوهن وإفراده للقصد إلى الجنس المنبىء عن شمول الوهن لكل فرد من أفراده ومنى متعلق بمحذوف هو حال من العظم وقرىء وهن بكسر الهاء وبضمها أيضا وتأكيد الجملة لإبراز كمال الاعتناء بتحقيق مضمونها ﴿ واشتعل الرأس شيبا ﴾ شبه عليه الصلاة والسلام الشيب فى البياض والإنارة بشواظ النار وانتشاره فى الشعر وفشوه فيه وأخذه منه كل مأخذ

باشتعالها ثم أخرجه مخرج الاستعارة ثم أسند الاشتعال إلى محل الشعر ومنبته وأخرجه مخرج التمييز وأطلق الرأس اكتفاء بما قيد به العظم وفيه من فنون البلاغة وكمال الجزالة ما لا يخفى حيث كان الأصل اشتعل شيب رأسى فأسند الاشتعال إلى الرأس كما ذكر لإفادة شموله لكلها فإن وزانه بالنسبة إلى الأصل وزان اشتعل بيته نارا بالنسبة إلى اشتعل النار فى بيته ولزيادة تقريره بالإجمال أولا والتفصيل ثانيا ولمزيد تفخيمه بالتنكير وقرىء بإدغام السين فى الشين.

﴿ ولم أكن بدعائك رب شقيا ﴾ أى ولم أكن بدعائى إياك خائبا فى وقت من أوقات هذا العمر الطويل بل كلما دعوتك استجبت لى والجملة معطوفة على ما قبلها أو حال من ضمير المتكلم إذ المعنى واشتعل الرأس شيبا وهذا توسل منه عليه السلام بما سلف منه من الاستجابة عند كل دعوة إثر تمهيد ما يستدعى الرحمة ويستجلب الرأفة من كبر السن وضعف الحال فإنه تعالى بعد ما عود عبده بالاجابة دهرا طويلا لا يكاد يخيبه أبدا لا سيما عند اضطراره وشدة افتقاره والتعرض فى الموضوعين لوصف الربوبية المنبئة عن إضافة ما فيه صلاح المربوب مع الإضافة إلى ضميره عليه الصلاة والسلام لا سيما توسيطه بين كان وخبرها لتحريك سلسلة الإجابة بالمبالغة فى التضرع ولذلك قيل إذا أراد العبد أن يستجاب له دعاؤه فليدع الله تعالى بما يناسبه من أسمائه وصفاته .

﴿ وإنى خفت الموالى ﴾ عطف على قوله تعالى (إنى وهن العظم) مترتب مضمونه على مضمونه فان ضعف القوى وكبر السن من مبادىء خوفه عليه السلام من يلى أمره بعد موته ومواليه بنو عمه وكانوا أشرار بنى اسرائيل فخاف أن لا يحسنوا خلافته فى أمته ويبدلوا عليهم دينهم وقوله ﴿ من ورائى ﴾ أى بعد موتى متعلق بمحذوف ينساق إليه الذهن أى فعل الموالى من بعدى أو جور الموالى وقد قرىء كذلك أو بما فى الموالى من معنى الولاية أى خفت الذين يلون الأمر من ورائى لا بخفت لفساد المعنى وقرىء وراى بالقصر وفتح الياء وقرىء خفت الموالى من ورائى أى قلوا وعجزوا عن القيام بأمور الدين بعدى

أو خفت الموالى القادرون على إقامة مراسم الملة ومصالح الأمة من خف القوم أى ارتحلوا مسرعين أى درجوا قدامى ولم يبق منهم من به تقو واعتضاد فالظرف حينئذ متعلق بخفت ﴿وكانت امرأتى عاقرا﴾ أى لا تلد من حين شبابها.

﴿فهب من لدنك﴾ كلا الجارين متعلق بهب لاختلاف معنييهما فاللام صلة له ومن لابتداء الغاية مجازا وتقديم الأول لكون مدلوله أهم عنده ويجوز تعلق الثانى بمحذوف وقع حالا من المفعول ولدن فى الأصل ظرف بمعنى أول غاية زمان أو مكان أو غيرهما من الذوات وقد مر تفصيله فى أوائل سورة آل عمران أى أعطنى من محض فضلك الواسع وقدرتك الباهرة بطريق الاختراع لا بواسطة الأسباب العادية ﴿وليا﴾ أى ولدا من صلبى وتأخيره عن الجارين لإظهار كمال الاعتناء بكون الهبة له على ذلك الوجه البديع مع ما فيه من التشويق إلى المؤخر فإن ما حقه التقديم إذا أخر تبقى النفس مستشرفة له فعند وروده لها يتمكن عندها فضل تمكن ولأن فيه نوع طول بما بعده من الوصف فتأخيرهما عن الكل أو توسيطهما بين الموصوف والصفة مما لا يليق بجزالة النظم الكريم والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها فأن ما ذكره عليه الصلاة والسلام من كبر السن وضعف القوى وعقر المرأة موجب لانقطاع رجائه عليه السلام عن حصول الولد بتوسط الأسباب العادية واستيهابه على الوجه الخارق للعادة ولا يقدح فى ذلك أن يكون هنا داع آخر إلى الإقبال على الدعاء المذكور من مشاهدته عليه السلام للخوارق الظاهرة فى حق مريم كما يعرب عنه قوله تعالى (هنالك دعا زكريا ربه) الآية وعدم ذكره هنا التعويل على ذكره هناك كما أن عدم ذكر مقدمة الدعاء هناك للاكتفاء بذكره هنا فإن الاكتفاء بما ذكر فى موطن عما ترك فى موطن آخر من النكت التنزيلية وقوله تعالى ﴿يرثنى﴾ صفة لوليا وقرىء هو وما عطف عليه بالجزم جوابا للدعاء أى يرثنى من حيث العلم والدين والنبوة فإن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لا يورثون المال قال صلى الله عليه وسلم نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركنا صدقة وقيل يرثنى الحبورة وكان عليه السلام حبرا.

﴿ ويرث من آل يعقوب ﴾ يقال ورثه وورث منه لغتان وآل الرجل خاصته الذين يؤول إليه أمرهم للقرابة أو الصحبه أو الموافقة فى الدين وكانت زوجة زكريا أخت أم مريم أى ويرث منهم الملك قيل هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم الصلاة والسلام وقال الكلبي ومقاتل هو يعقوب ابن ماثان أخو عمران بن ماثان من نسل سليمان عليه السلام وكان آل يعقوب أخوال يحيى ابن زكريا قال الكلبى كان بنو ماثان رؤس بنى إسرائيل وملوكهم وكان زكريا رئيس الأحبار يومئذ فأراد أن يرثه ولده حبورته ويرث من بنى ماثان ملكهم وقرىء ويرث وارث آل يعقوب على أنه حال من المستكن فى يرث وقرىء أو يرث آل يعقوب بالتصغير فعيه إيماء إلى وراثته عليه السلام لما يرثه فى حالة صغره وقرىء وارث من آل يعقوب على أنه فاعل يرثنى على طريقة التجريد أى يرثنى به وارث وقيل من للتبعيض إذ لم يكن كل آل يعقوب عليه السلام أنبياء ولا علماء .

﴿ واجعله رب رضيا ﴾ مرضيا عندك قولا وفعلا وتوسيط رب بين مفعولى اجعل للمبالغة فى الاعتناء بشأن ما يستدعيه .

﴿ يا زكريا ﴾ على إرادة القول أى قال تعالى يا زكريا ﴿ إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى ﴾ لكن لا بأن يخاطبه عليه الصلاة والسلام بذلك بالذات بل بواسطة الملك على أن يحكى له عليه الصلاة والسلام هذه العبارة عنه عز وجل على نهج قوله تعالى (قل يا عبادى الذين أسرفوا) الآية وقد مر تحقيقه فى سورة آل عمران وهذا جواب لندائه عليه الصلاة والسلام ووعد بإجابة دعائه لكن لا كما هو المتبادر من قوله تعالى (فاستجبنا له ووهبنا له يحيى) الخ بل بعضا حسبما تقتضيه المشيئة الإلهية المبنية على الحكم البالغة فإن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فى وإن كانوا مستجابى الدعوة لكنهم ليسوا كذلك فى جميع الدعوات ألا يرى إلى دعوة إبراهيم عليه الصلاة السلام فى حق أبيه وإلى دعوة النبى عليه الصلاة والسلام حيث قال وسألته أن لا يذيق بعضهم بأس بعض فمنعنيها وقد كان من

قضائه عز وعلا أن يهبه يحيى نبيا مرضيا ولا يرثه فاستجيب دعاؤه فى الأول دون الثانى حيث قيل قبل موت أبيه عليهما الصلاة السلام على ما هو المشهور وقيل بقى بعده برهة فلا إشكال حينئذ وفى تعيين اسمه عليه الصلاة والسلام تأكيد للوعد وتشريف له عليه الصلاة والسلام وفى تخصيصه به عليه السلام حسبما يعرب عنه قوله تعالى:

﴿ لم نجعل له من قبل سميا ﴾ أى شريكا له فى الاسم حيث لم يسم أحد قبله بيحيى مزيد تشريف وتفخيم له عليه الصلاة والسلام فإن التسمية بالأسامى البديعة الممتازة عن أسماء سائر الناس تنويه بالمسمى لا محالة وقيل سميا شبيها فى الفضل والكمال كما فى قوله تعالى هل تعلم له سميا) فإن المتشاركين فى الوصف بمنزلة المتشاركين فى الاسم قالوا لم يكن له عليه الصلاة والسلام مثل فى أنه لم يعص الله تعالى ولم يهم بمعصية قط وأنه ولد من شيخ فان وعجوز عاقر وأنه كان حصورا فيكون هذا إجمالا لما نزل بعده من قوله تعالى (مصدقا بكلمة من الله وسيدا وحصورا ونبيا من الصالحين) والأظهر أنه اسم أعجمى وإن كان عربيا فهو منقول عن الفعل كيعمر ويعيش قيل سمى به لأنه حيى به رحم أمه أو حيى دين الله تعالى بدعوته .

﴿ قال ﴾ استئناف مبنى على السؤال كأنه قيل فماذا قال عليه الصلاة والسلام حينئذ فقيل قال ﴿ رب ﴾ ناداه تعالى بالذات مع وصول خطابه تعالى إليه بتوسط الملك للمبالغة فى التضرع والمناجاة والجد فى التبتل إليه تعالى والاحتراز عما عسى يوهم خطابه للملك من توهم أن علمه تعالى بما يصدر عنه متوقف على توسطه كما أن علم البشر بما يصدر عنه سبحانه متوقف على ذلك فى عامة الأوقات ﴿ أنى يكون لى غلام ﴾ كلمة أنى بمعنى كيف أومن أين وكان إما تامة وأنى واللام متعلقتان بها وتقديم الجار على الفاعل لما مر مرارا من الاعتناء بما قدم والتشويق إلى ما أخر كيف أومن أين يحدث لى غلام ويجوز أن تتعلق اللام بمحذوف وقع حال من غلام إذ لو تأخر لكان صفة له أى أنى يحدث كائنا لى غلام أو

ناقصة اسمها ظاهر وخبرها إما أنى ولى متعلق بمحذوف كما مر أو هو الخبر وأنى نصب على الظرفية وقوله تعالى ﴿ وكانت امرأتى عاقرا ﴾ حال من ضمير المتكلم بتقدير قد وكذا قوله تعالى :

﴿ وقد بلغت من الكبر عتيا ﴾ حال منه مؤكدة للاستبعاد إثر تأكيد أى كانت امرأتى عاقرا لم تلد فى شبابها وشبابى فكيف وهى الآن عجوز وقد بلغت أنا من أجل كبر السن جساوة وقحولا فى المفاصل والعظام أو بلغت من مدارج الكبر ومراتبه ما يسمى عتيا من عتا يعتو وكقعود فاستثقل توالى الضمتين والواوين فكسرت التاء فانقلبت الأولى ياء لسكونها وانكسار ما قبلها ثم قلبت الثانية أيضا لاجتماع الواو والياء وسبق إحداهما بالسكون وكسرت العين إتباعا لها لما بعدها وقرىء بضمها ولعل البداءة ههنا بذكر حال امرأته على عكس ما فى سورة آل عمران لما أنه قد ذكر حاله فى تضاعيف دعائه وإنما المذكور ههنا بلوغه أقصى مراتب الكبر تتمة لما ذكر قبل وأما هنالك فلم يسبق فى الدعاء ذكر حاله فلذلك قدمه على ذكر حال امرأته لما أن المسارعة إلى بيان قصور شأنه أنسب وإنما قاله عليه الصلاة والسلام مع سبق دعائه بذلك وقوة يقينه بقدرة الله لاسيما بعد مشاهدته للشواهد المذكورة فى سورة آل عمران استعظاما لقدرة الله تعالى وتعجيبا منها واعتدادا بنعمته تعالى عليه فى ذلك بإظهار أنه من محض لطف الله عز وعلا وفضله مع كونه فى نفسه من الأمور المستحيلة عادة لا استبعادا له وقيل إنما قاله ليجاب بما أجيب به فيزداد المؤمنون إيقانا ويرتدع المبطلون وقيل كان ذلك بطريق الاستبعاد حيث كان بين الدعاء والبشارة ستون سنة وكان قد نسى دعاءه وهو بعيد .

﴿ قال ﴾ استئناف كما مر مبنى على سؤال نشأ مما سلف والكاف فى قوله تعالى ﴿ كذلك قال ربك ﴾ مقحمة كما فى مثلك لا يبخل محلها إما النصب على أنه مصدر تشبيهى لقال الثانى وذلك إشارة إلى مصدره الذى هو عبارة عن الوعد السابق لا إلى قوم آخر شبه هذا به وقد مر تحقيقه فى تفسير قوله تعالى

(وكذلك جعلناكم أمة وسطا) وقوله تعالى ﴿هو على هين﴾ جملة مقررة للوعد المذكور دالة على إنجازه داخلة فى حيز قال الأول كأنه قيل قال الله عز وجل مثل ذلك القول البديع قلت أى مثل ذلك الوعد الخارق للعادة وعدت وهو على خاصة هين وإن كان فى العادة مستحيلا وقرىء وهو على هين فالجملة حينئذ حال من ربك والياء عبارة عن ضميره كما ستعرفه أو اعتراض وعلى كل حال فهى مؤكدة ومقررة لما قبلها ثم أخرج القول الثانى مخرج الالتفات جريا على سنن الكبرياء لتربية المهابة وإدخال الروعة كقول الخلفاء أمير المؤمنين يرسم لك مكان أنا أرسم ثم أسند إلى اسم الرب المضاف إلى ضميره عليه الصلاة والسلام تشريفا له وإشعارا بعلة الحكم فإن تذكير جريان أحكام ربوبيته تعالى عليه عليه الصلاة والسلام من إيجاده من العدم وتصريفه فى أطوار الخلق من حال إلى حال شيئاً فشيئا إلى أن يبلغ كماله اللائق به مما يقلع أساس استبعاده عليه الصلاة لحصول الموعود ويورثه عليه الصلاة والسلام الاطمئنان بإنجازه لا محالة ثم التفت من ضمير الغائب العائد إلى الرب إلى ياء العظمة إيذانا بأن مدار كونه هينا عليه سبحانه هو القدرة الذاتية لا ربوبيته تعالى له عليه الصلاة والسلام خاصة وتمهيدا لما يعقبه وقيل ذلك إشارة إلى مبهم يفسره قوله تعالى (هو على هين) على طريقة قوله تعالى (وقضينا إليه ذلك الأمر أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين) ولا يخرج هذا الوجه على القراءة بالواو لأنها لا تدخل بين المفسر والمفسر وإما الرفع على أنه مبتدأ محذوف وذلك إشارة إلى ما تقدم من وعده تعالى أى قال عز وعلا الأمر كما وعدت وهو واقع لا محاله وقوله تعالى (قال ربك) إلخ استئناف مقرر لمضمونه والجملة المحكية على القراءة الثانية معطوفة على المحكية الأولى أو حال من المستكن فى الجار والمجرور أياما كان فتوسيط قال بينهما مشعر بمزيد الاعتناء بكل منهما والكلام فى إسناد القول إلى الرب ثم الالتفات إلى التكلم كالذى مر آنفا وقيل ذلك إشارة إلى ما قاله زكريا عليه الصلاة والسلام أى قال تعالى الأمر كما قلت تصديقا له فيما حكاه من الحالة المباينة للولادة فى نفسه وفى امرأته وقوله تعالى (قال ربك) الخ استئناف مسوق لإزالة

استبعاده بعد تقريره أى قال تعالى هو مع بعده فى نفسه على هين والقراءة الثانية أدخل فى إفادة هذا المعنى على أن الواو للعطف وأما جعلها للحال فخل بسداد المعنى لأن مآله تقرير صعوبته حال سهولته عليه تعالى مع أن المقصود بيان سهولته عليه سبحانه مع صعوبته فى نفسه وقوله تعالى :

﴿ وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئاً ﴾ جملة مستأنفة مقررة لما قبلها والمراد به ابتداء خلق البشر إذ هو الواقع أثر العدم المحض لا ما كان بعد ذلك بطريق التوالد المعتاد وإنما لم ينسب ذلك إلى آدم عليه الصلاة والسلام وهو المخلوق من العدم حقيقة بأن يقال وقد خلقت أباك أو آدم من قبل ولم يك شيئا مع كفايته فى إزالة الاستبعاد بقياس حال ما بشر به على حاله عليه الصلاة والسلام لتأكيد الاحتجاج وتوضيح منهاج القياس حيث نبه على أن كل فرد من أفراد البشر له حظ من إنشائه عليه الصلاة والسلام من العدم إذ لم تكن فطرته البديعة مقصورة على نفسه بل كانت أنموذجا منطويا على فطرية سائر آحاد الجنس انطواء إجماليا مستتبعا لجريان آثارها على الكل فكان إبداعه عليه الصلاة والسلام على ذلك الوجه إبداعا لكل أحد من فروعه كذلك ولما كان خلقه عليه الصلاة والسلام على هذا النمط السارى إلى جميع أفراد ذريته أبدع من أن يكون ذلك مقصورا على نفسه كما هو المفهوم من نسبة الخلق المذكور اليه وأدل على عظم قدرته تعالى وكمال علمه وحكمته وكان عدم زكريا حينئذ أظهر عنده وأجلى وكان حاله أولى بأن يكون معيار الحال ما بشر به نسب الخلق المذكور إليه كما نسب الخلق والتصوير إلى المخاطبين فى قوله تعالى (ولقد خلقناكم ثم صورناكم) توفية لمقام الامتنان حقه فكأنه قيل وقد خلقتك من قبل فى تضاعيف خلق آدم ولم تكن إذ ذاك شيئاً أصلا بل عدما بحتا ونفيا صرفا هذا وأما حمل الشيء على المعتد به أى ولم تكن شيئاً معتدا به فيأباه المقام ويرده نظم الكلام وقرىء خلقناك .

﴿ قال رب اجعل لى آية ﴾ أى علامة تدلنى على تحقق المسؤول ووقوع

الحبل ولم يكن هذا السؤال منه عليه الصلاة والسلام لتأكيد البشارة وتحقيقها كما قيل فإن ذلك مما لايليق بمنصب الرسالة وإنما كان ذلك لتعريف وقت العلوق حيث كانت البشارة مطلقة عن تعيينه وهو أمر خفى لا يوقف عليه فأراد أن يطلعه الله تعالى عليه لتلق تلك النعمة الجليلة بالشكر من حين حدوثها ولا يؤخره إلى أن تظهر ظهورا معتادا وقد مرت الإشارة فى تفسير سورة آل عمران إلى أن هذا السؤال ينبغى أن يكون بعد ما مضى بعد البشارة برهة من الزمان لما روى أن يحيى كان أكبر من عيسى عليهما الصلاة والسلام بستة أشهر أو بثلاث سنين ولاريب فى أن دعاء زكريا عليه الصلاة والسلام كان فى صغر مريم لقوله تعالى (هنالك دعا زكريا ربه) وهى إنما ولدت عيسى عليه الصلاة والسلام وهى بنت عشر سنين أو بنت ثلاث عشر سنة والجعل إبداعى واللام متعلقة به وتقديمها على المفعول به لما مر مرارا من الاعتناء بالمقدم والتشويق إلى المؤخر أو بمحذوف وقع حالا من آية إذ لو تأخر لكان صفة لها وقيل بمعنى التصيير المستدعى لمفعولين أولهما آية وثانيهما الظرف وتقديمه لأنه لا مسوغ لكون آية مبتدأ عند انحلال الجملة إلى مبتدأ وخبر سوى تقديم الظرف فلا يتغير حالها بعد ورود الناسخ .

﴿ قال آيتك أن لا تكلم الناس ﴾ أى لا تقدر على أن تكلمهم بكلام الناس مع القدرة على الذكر والتسبيح ﴿ ثلاث ليال ﴾ مع أيامهن للتصريح بها فى سورة آل عمران ﴿ سويا ﴾ حال من فاعل تكلم مفيد لكون انتفاء التكلم بطريق الاضطرار دون الاختيار أى تمنع الكلام فلا تطيق به حال كونك سوى الخلق سليم الجوارح ما بك شائبة بكم ولا خرس ﴿ فخرج على قومه من المحراب ﴾ أى من المصلى أو من الغرفة وكانوا من وراء المحراب ينتظرونه أن يفتح لهم الباب فيدخلوه ويصلوا إذا خرج عليهم متغيرا لونه فأنكروه وقالوا مالك ﴿ فأوحى إليهم ﴾ أى أومأ إليهم لقوله تعالى (إلا رمزا) وقيل كتب على الأرض وأن فى قوله تعالى ﴿ أن سبحوا ﴾ إما مفسرة لأوحى أو مصدرية والمعنى أى صلوا أو بأن صلوا ﴿ بكرة وعشيا ﴾ هما ظرفا زمان للتسبيح . عن

أبي العالية أن المراد بهما صلاة الفجر وصلاة العصر أو نزهوا ربكم طرفى النهار ولعله كان مأمورا بأن يسبح شكرا ويأمر قومه بذلك .

﴿ يا يحيى ﴾ استئناف طوى قبله جمل كثيرة مسارعة إلى الإنباء بإنجاز الوعد الكريم أى قلنا يا يحيى ﴿ خذ الكتاب ﴾ التوراة ﴿ بقوة ﴾ أى بجد واستظهار بالتوفيق ﴿ وآتيناه الحكم صبيا ﴾ قال ابن عباس رضى الله عنهما الحكم النبوة استنبأه وهو ابن ثلاث سنين وقيل الحكم الحكمه وفهم التوراة والفقه فى الدين روى أنه دعاه الصبيان إلى اللعب فقال ماللعب خلقنا ﴿ وحنانا من لدنا ﴾ عطف على الحكم وتنوينه للتفخيم وهو التحنن والاشتياق ومن متعلقة بمحذوف وقع صفة مؤكدة لما أفاده التنوين من الفخامة الذاتية بالفخامة الإضافية أى وآتيناه رحمة عظيمة عليه كائنة من جنابنا أو رحمة فى قلبه وشفقة على أبويه وغيرهما ﴿ وزكوة ﴾ أى طهارة من الذنوب أو صدقة تصدقنا به على أبويه أو وفقناه للتصدق على الناس ﴿ وكان تقيا ﴾ مطيعا متجنبا عن المعاصى ﴿ وبرا بوالديه ﴾ عطف على تقيا أى بارابهما لطيفا بهما محسنا إليهما ﴿ ولم يكن جبارا عصيا ﴾ متكبرا عاقا لهما أو عاصيا لربه ﴿ وسلام عليه ﴾ من الله عز وجل ﴿ يوم ولد ﴾ من أن يناله الشيطان بماينال به بنى آدم ﴿ ويوم يموت ﴾ من عذاب القبر ﴿ ويوم يبعث حيا ﴾ من هول القيامة وعذاب النار .

مولد عيسى

﴿ واذكر فى الكتاب ﴾ كلام مستأنف خوطب به النبى عليه الصلاة والسلام وأمر بذكر قصة مريم إثر قصة زكريا لما بينهما من كمال الاشتباك والمراد بالكتاب السورة الكريمة لا القرآن إذ هى التى صدرت بقصة زكريا المستتبعة لذكر قصتها وقصص الأنبياء المذكورين فيها أى واذكر للناس ﴿ مريم ﴾ أى نبأها فإن الذكر لا يتعلق بالأعيان وقوله تعالى ﴿ إذ انتبذت ﴾ ظرف لذلك المضاف لكن لا على أن يكون المأمور به ذكر نبئها عند انتباذها فقط بل كل ما عطف عليه وحكى بعده بطريق الاستئناف داخل فى حيز

الظرف متمم للنبأ وقيل بدل اشتمال من مريم على أن المراد بها نبأها فإن الظروف مشتملة على ما فيها وقيل بدل الكل على المراد بالظرف ما وقع فيه وقيل إذ بمعنى أن المصدرية كما فى قولك أكرمتك إذ لم تكرمنى أى لأن لم تكرمنى فهو بدل اشتمال لا محالة وقوله تعالى ﴿ من أهلها ﴾ متعلق بانتبذت وقوله ﴿ مكاناً شرقياً ﴾ مفعول له باعتبار ما فى ضمنه من معنى الإتيان المترتب وجودا واعتبارا على أصل معناه العامل فى الجار والمجرور وهو السر فى تأخيره عنه أى اعتزلت وانفردت منهم وأتت مكاناً شرقياً من بيت المقدس أو من دارها لتتخلى هنالك للعبادة وقيل قعدت فى مشرفة لتغتسل من الحيض محتجبة بحائط أو بشىء يسترها وذلك قوله تعالى :

﴿ فاتخذت من دونهم حجابا ﴾ وكان موضعها المسجد فإذا حاضت تحولت إلى بيت خالتها وإذا طهرت عادت إلى المسجد فبينما هى فى مغتسلها أتاها الملك عليه الصلاة والسلام فى صورة آدمى شاب أمرد وضىء الوجه جعد الشعر وذلك قوله تعالى ﴿ فأرسلنا إليها روحنا ﴾ أى جبريل عليه الصلاة والسلام عبر عنه بذلك توفية للمقام حقه وقرىء بفتح الراء لكونه سببا لما فيه روح العباد الذى هو عدة المقربين فى قوله تعالى (فأما إن كان من المقربين فروح وريحان) ﴿ فتمثل لها بشراً سويا ﴾ سوى الخلق كامل البنية لم يفقد من حسان نعوت الآدمية شيئا وقيل تمثل فى صورة ترب لها اسمه يوسف من خدم بيت المقدس وذلك ليستأنس بكلامه وتتلقى منه ما يلقى إليها من كلماته تعالى إذ لو بدا لها على الصورة الملكية لنفرت منه ولم تستطع مفاوضته وأما ما قيل من أن ذلك لتهييج شهوتها فتنحدر نطفتها إلى رحمها فمع مخالفته لمقام بيان آثار القدرة الخارقة للعادة يكذبه قوله تعالى .

﴿ قالت إنى أعوذ بالرحمن منك ﴾ فإنه شاهد عدل بأنه لم يخطر ببالها شائبة ميل ما إليه فضلا عما ذكر من الحالة المترتبة على أقصى مراتب الميل والشهوة نعم كان تمثيله على ذلك الحسن الفائق والجمال الرائق لابتلائها وسبر عفتها ولقد

ظهر منها من الورع والعفاف ما لا غاية وراءه وذكره تعالى بعنوان الرحمانية للمبالغة فى العياذ به تعالى واستجلاب آثار الرحمة الخاصة التى هى العصمة مما دهمها وقوله تعالى ﴿ إن كنت تقيا ﴾ أى تتق الله تعالى وتبالى بالاستعاذة به وجواب الشرط محذوف ثقة بدلالة السياق عليه أى فإنى عائذة به أو فتعوذ بتعوذى أو فلا تتعرض لى .

﴿ قال إنما أنا رسول ربك ﴾ يريد عليه الصلاة والسلام أنى لست ممن يتوقع منه ما توهمت من الشر وإنما أنا رسول ربك الذى استعذت به ﴿ لأهب لك غلاما ﴾ أى لأكون سببا فى هبته بالنفخ فى الدرع ويجوز أن يكون ذلك حكاية لقوله تعالى ويؤيده القراءة بالياء والتعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميرها لتشريفها وتسليتها والإشعار بعلة الحكم فإن هبة الغلام لها من أحكام تربيتها وفى بعض المصاحف أمرنى أن أهب لك غلاما ﴿ زكيا ﴾ طاهرا من الذنوب أو ناميا على الخير أى مترقيا من سن إلى سن على الخير والصلاح ﴿ قالت أنى يكون لى غلام ﴾ كما وصفت ﴿ ولم يمسسنى بشر ﴾ أى والحال أنه لم يباشرنى بالنكاح رجل وإنما قيل بشر مبالغة فى بيان تنزهها من مبادىء الولادة ﴿ ولم أك بغيا ﴾ عطف على لم يمسسنى داخل معه فى حكم الحالية مفصح عن كون المساس عبارة عن المباشرة بالنكاح أى ولم أكن فاجرة تبغى الرجال وهى فعول بمعنى الفاعل أصلها بغوى فأدغمت الواو بعد قلبها ياء فى الياء وكسرت الغين للياء وقيل هى فعيل بمعنى الفاعل ولإلاقيل بغو كما يقال فلان نهو عن المنكر وإنما لم تلحقه التاء لأنها من باب النسب كطالق أو بمعنى المفعول أى يبغيها الرجال للفجور بها ﴿ قال ﴾ أى الملك تقريرا لمقالته وتحقيقا لها ﴿ كذلك ﴾ أى الأمر كما قلت لك وقوله تعالى ﴿ قال ربك ﴾ الخ استئناف مقرر له أى قال ربك الذى أرسلنى إليك ﴿ هو ﴾ أى ما ذكرت لك من هبة الغلام من غير أن يمسك بشر أصلا ﴿ على ﴾ خاصة ﴿ هين ﴾ وإن كان مستحيلا عادة لما أنى لا أحتاج إلى الأسباب والوسائط وقوله تعالى ﴿ ولنجعله آية للناس ﴾ إما علة لمعلل محذوف

أى ولنجعل وهب الغلام آية لهم وبرهانا يستدلون به على كمال قدرتنا نفعل ذلك أو معطوف على علة أخرى مضمرة أى لنبين به عظم قدرتنا ولنجعله آية الخ والواو على الأول اعتراضية والالتفات إلى نون العظمة لإظهار كمال الجلالة ﴿ ورحمة ﴾ عظيمة كائنة ﴿ منا ﴾ عليهم يهتدون بهدايته ويسترشدون بإرشاده .

﴿ وكان ﴾ ذلك ﴿ أمرا مقضيا ﴾ محكما قد تعلق به قضاؤنا الأزلى أو قدر وسطر فى اللوح لا بد من جريانه عليك البتة أو كان أمرا حقيقا بأن يقضى ويفعل لتضمنه حكما بالغة ﴿ فحملته ﴾ بأن نفخ جبريل عليه الصلاة والسلام فى درعها فدخلت النفخة فى جوفها قيل إنه عليه الصلاة والسلام رفع درعها فنفخ فى جيبه فحملت وقيل نفخ عن بعد فوصل الريح إليها فحملت فى الحال وقيل إن النفخة كانت فى فيها وكانت مدة حملها سبعة أشهر وقيل ثمانية ولم يعش مولود وضع لثمانية أشهر غيره وقيل تسعة أشهر وقيل ثلاث ساعات وقيل ساعة كما حملت وضعته وسنها حينئذ ثلاث عشرة سنة وقيل عشر سنين وقد حاضت حيضتين ﴿ فانتبذت به ﴾ أى فاعتزلت وهو فى بطنها كما فى قوله :

* تدوس بنا الجماجم والتريبا *

فالجار والمجرور فى حيز النصب على الحالية أى فانتبذت ملتبسة به ﴿ مكانا قصيا ﴾ بعيدا من أهلها وراء الجبل وقيل أقصى الدار وهو الأنسب لقصر[1] مدة الحمل ﴿ فأجاءها المخاض ﴾ أى فألجأها وهو فى الأصل منقول من جاء لكنه لم يستعمل فى غيره كآتى فى أعطى وقرىء المخاض بكسر الميم وكلاهما مصدر مخضت المرأة إذا تحرك الولد فى بطنها للخروج ﴿ إلى جذع النخلة ﴾ لتستتر به وتعتمد عليه عند الولادة وهو ما بين العرق والغصن وكانت نخلة يابسة لا رأس لها ولا خضرة وكان الوقت شتاء والتعريف إما للجنس أو للعهد إذ لم يكن ثمة غيرها وكانت كالمتعالم عند الناس ولعله تعالى ألهمها ذلك ليريها من

(١) فى ط : بقصر .

آياتها ما يسكن روعتها ويطعمها الرطب الذى هو خرسة النفساء الموافقة لها ﴿قالت ياليتنى مت﴾ بكسر الميم من مات يمات كخفت وقرىء بضمها من مات يموت ﴿قبل هذا﴾ أى هذا الوقت الذى لقيت فيه ما لقيت وإنما قالته مع أنها كانت تعلم ماجرى بينها وبين جبريل عليه السلام من الوعد الكريم استحياء من الناس وخوفا من لائمتهم أو حذارا من وقوع الناس فى المعصية بما تكلموا فيها أو جريا على سنن الصالحين عند اشتداد الأمر عليهم كما روى عن عمر رضى الله عنه أنه أخذ تبنة من الأرض فقال ياليتنى هذه التبنة ولم أكن شيئا وعن بلال أنه قال ليت بلالا لم تلده أمه .

﴿وكنت نسيا﴾ أى شيئا تافها شأنه أن ينسى ولا يعتد به أصلا وقرىء بالكسر قيل هما لغتان فى ذلك كالوتر وقيل هو بالكسر اسم لما ينسى كالنقض اسم لما ينقض وبالفتح مصدر سمى به المفعول مبالغة وقرىء بهما مهموزا من نسأت اللبن إذا صببت عليه الماء فصار مستهلكا فيه وقرىء نسا كعصا ﴿منسيا﴾ لا يخطر ببال أحد من الناس وهو نعت للمبالغة وقرىء بكسر الميم اتباعا له بالسين ﴿فناداها﴾ أى جبريل عليه السلام ﴿من تحتها﴾ قيل إنه كان يقبل الولد وقيل من تحتها أى من مكان أسفل منها تحت الأكمة وقيل من تحت النخلة وقيل ناداها عيسى عليه السلام وقرىء فخاطبها من تحتها بفتح الميم ﴿أن لا تحزنى﴾ أى لا تحزنى على أن «أن» مفسرة أو بأن لا تحزنى على أنها مصدرية قد حذف عنها الجار ﴿قد جعل ربك تحتك﴾ أى بمكان أسفل منك وقيل تحت أمرك إن أمرت بالجرى أجرى وإن أمرت بالإمساك أمسك ﴿سريا﴾ أى نهرا صغيرا حسبما روى مرفوعا قال ابن عباس رضى الله عنه إن جبريل عليه السلام ضرب برجله الأرض فظهرت عين ماء عذب فجرى جدولا وقيل فعله عيسى عليه السلام وقيل كان هناك نهر يابس أجرى الله عز وجل فيه الماء حينئذ كما فعل مثله بالنخلة فإنها كانت نخلة يابسة لا رأس لها ولا ورق فضلا عن الثمر وكان الوقت شتاء فجعل الله لها إذ ذاك رأسا وخوصا وثمرا وقيل كان هناك ماء جار والأول هو الموافق لمقام بيان ظهور الخوارق والمتبادر من النظم الكريم وقيل سريا أى

سيدا نبيا رفيع الشأن جليلا وهو عيسى عليه السلام فالتنوين للتفخيم والجملة للتعليل لانتفاء الحزن المفهوم من النهى عنه والتعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميرها لتشريفها وتأكيد التعليل وتكميل التسلية .

﴿ وهزى ﴾ هز الشيء تحريكه إلى الجهات المتقابلة تحريكا عنيفا متداركا والمراد ههنا ما كان منه بطريق الجذب والدفع لقوله تعالى ﴿ إليك ﴾ أى إلى جهتك والباء فى قوله عز وعلا ﴿ بجذع النخلة ﴾ صلة للتأكيد كما فى قوله تعالى (ولا تلقوا بأيديكم) الخ قال الفراء تقول العرب هزه وهز به وأخذ الخطام وأخذ بالخطام أو لإلصاق الفعل بمدخولها أى افعلى الهز بجذعها ﴿ تساقط ﴾ أى تسقط النخلة ﴿ عليك ﴾ إسقاطا متواترا حسب تواتر الهز وقرىء تسقط ويسقط من الإسقاط بالتاء والياء وتتساقط بإظهار التاءين وتساقط بطرح الثانية وتساقط بإدغامها فى السين ويساقط بالياء كذلك وتسقط ويسقط من السقوط على أن التاء فى الكل للنخلة والياء للجذع وقوله تعالى ﴿ رطبا ﴾ على القراءات الأولى[1] مفعول وعلى الست البواقى تمييز وقوله تعالى ﴿ جنيا ﴾ صفة له وهو ما قطع قبل يبسه فعل بمعنى مفعول أى رطبا مجنيا أى صالحا للاجتناء وقيل بمعنى فاعل أى طريا طيبا وقرىء جنيا بكسر الجيم للاتباع ﴿ فكلى واشربى ﴾ أى ذلك الرطب وماء السرى أو من الرطب وعصيره ﴿ وقرى عينا ﴾ وطيبى نفسا وارفضى عنها ما أحزنك وأهمك فإنه تعالى قد نزه ساحتك عما احتلج فى صدور المتعبدين بالأحكام العادية بأن أظهر لهم من البسائط العنصرية والمركبات النباتية ما يخرق العادات التكوينية ويرشدهم إلى الوقوف على سريرة أمرك وقرىء وقرى بكسر القاف وهى لغة نجد واشتقاقه من القرار فإن العين إذا رأت ما يسر النفس سكنت إليه من النظر إلى غيره أو من القر فإن دمعة السرور باردة ودمعة الحزن حارة ولذلك يقال قرة العين وسخنة العين للمحبوب والمكروه ﴿ فإما ترين من البشر أحدا ﴾ أى آدميا كائنا من كان وقرىء ترئن

---

(١) فى ط : الأول

على لغة من يقول لبأت بالحج لما بين الهمزة والياء من التآخى ﴿ فقولى ﴾ له إن استنطقك :

﴿ إنى نذرت للرحمن صوما ﴾ أى صمتا وقد قرىء كذلك أو صياما وكان صيامهم بالسكوت ﴿ فلن أكلم اليوم إنسيا ﴾ أى بعد أن أخبرتكم بنذرى وإنما أكلم الملائكة وأناجى ربى وقيل أمرت بأن تخبر بنذرها بالإشارة وهو الأظهر قال الفراء العرب تسمى كل ما وصل إلى الإنسان كلاما بأى طريق وصل ما لم يؤكد بالمصدر فإذا أكد لم يكن إلا حقيقة الكلام وإنما أمرت بذلك لكراهة مجادلة السفهاء ومناقلتهم والاكتفاء بكلام عيسى عليه السلام فإنه نص قاطع فى قطع الطعن ﴿ فأتت به قومها ﴾ أى جاءتهم مع ولدها راجعة إليهم عندما طهرت من نفاسها ﴿ تحمله ﴾ أى حاملة له ﴿ قالوا ﴾ مؤنبين لها ﴿ يامريم لقد جئت ﴾ أى فعلت ﴿ شيئا فريا ﴾ أى عظيما بديعا منكرا من فرى الجلد أى قطعه أو جئت مجيئا عجيبا عبر عنه بالشىء تحقيقا للاستغراب ﴿ ياأخت هرون ﴾ استئناف لتجديد التعيير وتأكيد التوبيخ عنوا به هرون النبى عليه السلام وكانت من أعقاب من كان معه فى طبقة الأخوة وقيل كانت من نسله وكان بينهما ألف سنة وقيل هو رجل صالح أو طالح كان فى زمانهم شبهوها به أى كنت عندنا مثله فى الصلاح أو شتموها به ﴿ ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيا ﴾ تقرير لكون ما جاءت به فريا منكرا وتنبيه على أن ارتكاب الفواحش من أولاد الصالحين أفحش ﴿ فأشارت إليه ﴾ أى إلى عيسى عليه السلام أن كلموه والظاهر أنها حينئذ بينت نذرها وأنها بمعزل من محاورة الإنس حسبما أمرت ففيه دلالة على أن المأمور به بيان نذرها بالإشارة لا بالعبارة والجمع بينهما مما لا عهد به ﴿ قالوا ﴾ منكرين لجوابها ﴿ كيف نكلم من كان فى المهد صبياً ﴾ ولم نعهد فيما سلف صبيا يكلمه عاقل وقيل كان لإيقاع مضمون الجملة فى زمان ماض مبهم صالح لقريبه وبعيده وهو ههنا لقريبه خاصة بدليل أنه مسوق للتعجب وقيل هى زائدة والظرف صلة من وصبيا حال من المستكن فيه أو هى تامة أو دائمة كما فى قوله تعالى (وكان الله عليما حكيما).

﴿ قال ﴾ استئناف مبنى على سؤال نشأ من سياق النظم الكريم كأنه قيل فماذا كان بعد ذلك فقيل قال عيسى عليه السلام ﴿ إنى عبد الله ﴾ أنطقه الله عز وجل بذلك آثر ذى أثير تحقيقا للحق وردا على من يزعم ربوبيته قيل كان المستنطق لعيسى زكريا عليهما الصلاة والسلام وعن السدى رضى الله عنه لما أشارت إليه غضبوا وقالوا لسخريتها بنا أشد علينا مما فعلت وروى أنه عليه السلام كان يرضع فلما سمع ذلك ترك الرضاع وأقبل عليهم بوجهه واتكأ على يساره وأشار إليهم بسبابته فقال ما قال الخ وقيل كلمهم بذلك ثم لم يتكلم حتى بلغ مبلغا يتكلم فيه الصبيان ﴿ آتانى الكتاب ﴾ أى الإنجيل ﴿ وجعلنى نبيا وجعلنى ﴾ مع ذلك ﴿ مباركا ﴾ نفاعا معلما للخير والتعبير بلفظ الماضى فى الأفعال الثلاثة إما باعتبار ما سبق فى القضاء المحتوم أو بجعل ما فى شرف الوقوع لا محالة واقعا وقيل أكمله الله عقلا واستنبأه طفلا ﴿ أينما كنت ﴾ أى حيثما كنت ﴿ وأوصانى بالصلوة ﴾ أى أمرنى بها أمرا مؤكدا ﴿ والزكوة ﴾ زكاة المال إن ملكته أو بتطهير النفس عن الرذائل ﴿ ما دمت حيا ﴾ فى الدنيا .

﴿ وبرا بوالدتى ﴾ عطف على مباركا أى جعلنى بارا بها وقرىء بالكسر على أنه مصدر وصف به مبالغة أو منصوب بمضمر دل عليه أوصانى أى وكلفنى برا ويؤيده القراءة بالكسر والجر عطفا على الصلاة والزكاة والتنكير للتفخيم ﴿ ولم يجعلنى جبارا شقيا ﴾ عنيدا لله تعالى لفرط تكبره ﴿ والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا ﴾ كما هو على يحيى على أن التعريف للعهد والأظهر أنه للجنس والتعريض باللعن على أعدائه فإن إثبات جنس السلام لنفسه تعريض بإثبات ضده لأضداده كما فى قوله تعالى (والسلام على من اتبع الهدى) فإنه تعريض بأن العذاب على من كذب وتولى .

﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى من فصلت نعوته الجليلة وما فيه من معنى البعد للدلالة على علو مرتبته وبعد منزلته وامتيازه بتلك المناقب الحميدة عن غيره ونزوله

منزلة المشاهد المحسوس ﴿ عيسى بن مريم ﴾ لا ما يصفه النصارى وهو تكذيب لهم فيما يزعمونه على الوجه الأبلغ والمنهاج البرهانى حيث جعله موصوفا بأضداد ما يصفونه ﴿ قول الحق ﴾ بالنصب على أنه مصدر مؤكد لقال إنى عبدالله الخ وقوله تعالى (ذلك عيسى ابن مريم) اعتراض مقرر لمضمون ما قبله وقرىء بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف أى هو قول الحق الذى لاريب فيه والإضافة للبيان والضمير للكلام السابق لتمام القصة وقيل صفة عيسى أو بدله أو خبر ثان ومعناه كلمة الله وقرىء قال الحق وقول الحق فإن القول والقول والقال فى معنى واحد ﴿ الذى فيه يمترون ﴾ أى يشكون أو يتنازعون فيقول اليهود ساحر والنصارى ابن الله وقرىء بتاء الخطاب .

﴿ ما كان لله ﴾ أى ما صح وما استقام له تعالى ﴿ أن يتخذ من ولد سبحانه ﴾ تكذيب للنصارى وتنزيه له تعالى عما بهتوه وقوله تعالى ﴿ إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون ﴾ تبكيت لهم ببيان أن شأنه تعالى : إذا قضى أمر من الأمور أن يعلق به إرادته فيكون حينئذ بلا تأخير فمن هذا شأنه كيف يتوهم أن يكون له ولد وقرىء فيكون بالنصب على الجواب وقوله تعالى : ﴿ وإن الله ربى وربكم فاعبدوه ﴾ من تمام كلام عيسى عليه السلام قيل هو عطف على قوله (إنى عبد الله) داخل تحت القول وقد قرىء بغير واو وقرىء بفتح الهمزة على حذف اللام أى ولأنه تعالى ربى وربكم فاعبدوه كقوله تعالى : (وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا) وقيل معطوف على الصلاة ﴿ هذا ﴾ أى الذى ذكرته من التوحيد ﴿ صراط مستقيم ﴾ لا يضل سالكه والفاء فى قوله تعالى : ﴿ فاختلف الأحزاب من بينهم ﴾ لترتيب ما بعدها على ما قبلها تنبيها على سوء صنيعهم بجعلهم ما يوجب الاتفاق منشأ للاختلاف فإن ما حكى من مقالات عيسى عليه السلام مع كونها نصوصا قاطعة فى كونه عبده تعالى ورسوله قد اختلفت اليهود والنصارى بالتفريط والإفراط أو فرق النصارى فقالت النسطورية هو ابن الله وقالت اليعقوبية هو الله هبط إلى الأرض ثم صعد إلى السماء تعالى عن ذلك علوا كبيرا وقالت الملكانية هو عبد الله ونبيه .

﴿ فويل للذين كفروا ﴾ وهم المختلفون عبر عنهم بالموصول إيذانا بكفرهم جميعا وإشعارا بعلة الحكم ﴿ من مشهد يوم عظيم ﴾ أى من شهود يوم عظيم الهول والحساب والجزاء وهو يوم القيامة أو من وقت شهوده أومن مكان الشهود فيه أو من شهادة ذلك اليوم عليهم وهو أن يشهد عليهم الملائكة والأنبياء عليهم السلام وألسنتهم وآذانهم وأيديهم وأرجلهم وسائر آرابهم بالكفر والفسوق أو من وقت الشهادة أو من مكانها وقيل هو ما شهدوا به فى حق عيسى وأمه عليهما السلام .

﴿ أسمع بهم وأبصر ﴾ تعجب من حدة سمعهم وأبصارهم يومئذ ومعناه أن أسماعهم وأبصارهم ﴿ يوم يأتوننا ﴾ للحساب والجزاء أى يوم القيامة جدير بأن يتعجب منها بعد أن كانوا فى الدنيا صما عميا أو تهديد بما سيسمعون ويبصرون يومئذ وقيل أمر بأن يسمعهم ويبصرهم مواعيد ذلك اليوم وما يحيق بهم فيه والجار والمجرور على الأول فى موقع الرفع وعلى الثانى فى حيز النصب ﴿ لكن الظالمون اليوم ﴾ أى فى الدنيا ﴿ فى ضلال مبين ﴾ لا تدرك غايته حيث أغفلوا الاستماع والنظر بالكلية ووضع الظالمين موضع الضمير للإيذان بأنهم فى ذلك ظالمون لأنفسهم ﴿ وأنذرهم يوم الحسرة ﴾ أى يوم يتحسر الناس قاطبة أما المسىء فعلى إساءته وأما المحسن فعلى قلة إحسانه ﴿ إذ قضى الأمر ﴾ أى فرغ من الحساب وتصادر الفريقان إلى الجنة والنار روى أن النبى صلى الله عليه وسلم سئل عن ذلك فقال حين يجاء بالموت على صورة كبش أملح فيذبح والفريقان ينظرون فينادى المنادى يا أهل الجنة خلود فلا موت ويا أهل النار خلود فلا موت فيزداد أهل الجنة فرحا إلى فرح وأهل النار غما إلى غم وإذ بدل من يوم الحسرة أو ظرف للحسرة فإن المصدر المعرف باللام يعمل فى المفعول الصريح عند بعضهم فكيف بالظرف ﴿ وهم فى غفلة ﴾ أى عما يفعل بهم فى الآخرة ﴿ وهم لا يؤمنون ﴾ وهما جملتان حاليتان من الضمير المستتر فى قوله تعالى (فى ضلال مبين) أى مستقرون فى ذلك وهم تينك الحالتين وما بينهما

اعتراض أو من مفعول أنذرهم أى أنذرهم غافلين غير مؤمنين فيكون حالاً متضمنة لمعنى التعليل ﴿ إنا نحن نرث الأرض ومن عليها ﴾ لا يبقى لأحد غيرنا عليها وعليهم ملك ولا ملك أو نتوفى الأرض ومن عليها بالإفناء والإهلاك توفى الوارث لإرثه ﴿ وإلينا يرجعون ﴾ أى يردون للجزاء لا إلى غيرنا استقلالا أو اشتراكا .

إبراهيم وأبوه

﴿ واذكر ﴾ عطف على أنذرهم ﴿ فى الكتاب ﴾ أى فى السورة أو فى القرآن ﴿ إبراهيم ﴾ أى اتل على الناس قصته وبلغها إياهم كقوله تعالى (واتل عليهم نبأ إبراهيم) فإنهم ينتمون إليه عليه السلام فعساهم باستماع قصته يقلعون عما هم فيه من القبائح ﴿ إنه كان صديقا ﴾ ملازما للصدق فى كل ما يأتى ويذر أو كثير التصديق لكثرة ما صدق به غيوب الله تعالى وآياته وكتبه ورسله والجملة استئناف مسوق لتعليل موجب الأمر فإن وصفه عليه السلام بذلك من دواعى ذكره ﴿ نبيا ﴾ خبر آخر لكان مقيد للأول مخصص له كما ينبىء عنه قوله تعالى (من النبيين والصديقين) الآية أى كان جامعا بين الصديقية والنبوة ولعل هذا الترتيب للمبالغة فى الاحتراز عن توهم تخصيص الصديقية بالنبوة فإن كل نبى صديق ﴿ إذ قال ﴾ بدل اشتمال من إبراهيم وما بينهما اعتراض مقرر لما قبله أو متعلق بكان أو بنبيا وتعليق الذكر بالأوقات مع أن المقصود تذكير ما وقع فيها من الحوادث قد مر سره مرارا أى كان جامعا بين الأثرتين حين قال ﴿ لأبيه ﴾ آزر متلطفا فى الدعوة مستميلا له .

﴿ يا أبت ﴾ أى يا أبى فإن التاء عوض عن ياء الإضافة ولذلك لا يجتمعان وقد قيل يا أبتا لكون الألف بدلا من الياء ﴿ لم تعبد ما لا يسمع ﴾ ثناءك عليه عند عبادتك له وجؤارك إليه ﴿ ولا يبصر ﴾ خضوعك وخشوعك بين يديه أو لا يسمع ولا يبصر شيئا من المسموعات والمبصرات فيدخل فى ذلك ما ذكر دخولا أوليا ﴿ ولا يغنى ﴾ أى لا يقدر على أن يغنى ﴿ عنك شيئا ﴾ فى جلب

نفع أو دفع ضر ولقد سلك عليه السلام فى دعوته أحسن منهاج وأقوم سبيل واحتج بحسن أدب وخلق جميل لئلا يركب متن المكابرة والعناد ولا ينكب بالكلية عن محجة الرشاد حيث طلب منه علة عبادته لما يستخف به عقل كل عاقل من عالم وجاهل ويأبى الركون إليه فضلا عن عبادته التى هى الغاية القاصية من التعظيم مع أنها لا تحق إلا لمن له الاستغناء التام والإنعام العام الخالق الرازق المحيى المميت المثيب المعاقب ونبه على أن العاقل يجب أن يفعل كل مايفعل لداعية صحيحة وغرض صحيح والشىء لو كان حيا مميزا سميعا بصيرا قادرا على النفع والضر مطيقا بإيصال الخير والشر لكن كان ممكنا لاستنكف العقل السليم عن عبادته وإن كان أشرف الخلائق لما يراه مثله فى الحاجة والانقياد للقدرة القاهرة الواجبة فما ظنك بجماد مصنوع من حجر أو شجر ليس له من أوصاف الإحياء عين ولا أثر ثم دعاه إلى أن يتبعه ليهديه إلى الحق المبين لما أنه لم يكن محظوظا من العلم الإلهى مستقلا بالنظر السوى مصدرا لدعوته بما مر من الاستمالة والاستعطاف حيث قال :

﴿ يا أبت إنى قد جاءنى من العلم ما لم يأتك ﴾ ولم يسم أباه بالجهل المفرط وإن كان فى أقصاه ولا نفسه بالعلم الفائق وإن كان كذلك بل أبرز نفسه فى صورة رفيق له أعرف بأحوال ما سلكاه من الطريق فاستماله برفق حيث قال ﴿ فاتبعنى أهدك صراطا سويا ﴾ أى مستقيما موصلا إلى أسنى المطالب منجيا عن الضلال المؤدى إلى مهاوى الردى والمعاطب ثم ثبطه عما كان عليه بتصويره بصورة يستنكرها كل عاقل ببيان أنه مع عرائه عن النفع بالمرة مستجلب لضرر عظيم فإنه فى الحقيقة عبادة الشيطان لما أنه الآمر به فقال : ﴿ يا أبت لا تعبد الشيطان ﴾ فإن عبادتك للأصنام عبادة له إذ هو الذى يسولها لك ويغريك عليها وقوله : ﴿ إن الشيطان كان للرحمن عصيا ﴾ تعليل لموجب النهى وتأكيد له ببيان أنه مستعص على ربك الذى أنعم عليك بفنون النعم ولا ريب فى أن المطيع للعاصى عاص وكل من هو عاص حقيق بأن يسترد منه النعم وينتقم منه والإظهار فى موضع الإضمار لزيادة التقرير والاقتصار

على ذكر عصيانه من بين سائر جناياته لأنه ملاكها أو لأنه نتيجة معاداته لآدم عليه السلام وذريته فتذكيره داع لأبيه إلى الاحتراز عن موالاته وطاعته والتعرض لعنوان الرحمانية لإظهار كمال شناعة عصيانه وقوله :

﴿ يا أبت إنى أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن ﴾ تحذير من سوء عاقبة ما كان عليه من عبادة الشيطان وهو ابتلاؤه بما ابتلى به معبوده من العذاب الفظيع وكلمة من متعلقة بمضمر وقع صفة للعذاب مؤكدة لما أفاده التنكير من الفخامة الذاتية بالفخامة الإضافية وإظهار الرحمن للإشعار بأن وصف الرحمانية لا يدفع حلول العذاب كما فى قوله عز وجل (ما غرك بربك الكريم) ﴿ فتكون للشيطان وليا ﴾ أى قرينا له فى اللعن المخلد وذكر الخوف للمجاملة وإبراز الاعتناء بأمره ﴿ قال ﴾ استئناف مبنى على سؤال نشأ من صدر الكلام كأنه قيل فماذا قال أبوه عند ما سمع منه عليه السلام هذه النصائح الواجبة القبول فقيل قال مصرا على عناده ﴿ أراغب أنت عن آلهتى يا إبراهيم ﴾ أى أمعرض ومنصرف أنت عنها بتوجيه الإنكار إلى نفس الرغبة مع ضرب من التعجب كأن الرغبة عنها مما لا يصد عن العاقل فضلا عن ترغيب الغير عنها وقوله ﴿ لئن لم تنته لأرجمنك ﴾ تهديد وتحذير عما كان عليه من العظة والتذكير أى والله لئن لم تنته عما كنت عليه من النهى عن عبادتهم لأرجمنك بالحجارة وقيل باللسان ﴿ واهجرنى ﴾ أى فاحذرنى واتركنى ﴿ مليا ﴾ أى زمانا طويلا أو مليا بالذهاب مطيقا به .

﴿ قال ﴾ استئناف كما سلف ﴿ سلام عليك ﴾ توديع ومتاركة على طريقة مقابلة السيئة بالحسنة أى لا أصيبك بمكروه بعد ولا أشافهك بما يؤذيك ولكن ﴿ سأستغفر لك ربى ﴾ أى أستدعيه أن يغفر لك بأن يوفقك للتوبة ويهديك إلى الإيمان كما يلوح به تعليل قوله تعالى (واغفر لأبى) بقوله تعالى (إنه كان من الضالين) والاستغفار بهذا المعنى للكافر قبل تبين أنه يموت على الكفر مما لا ريب فى جوازه وإنما المحظور استدعاء المغفرة له مع بقائه على الكفر فإنه مما لا مساغ

له عقلا ولا نقلا وأما الاستغفار له بعد موته على الكفر فلا تأباه قضية العقل وإنما الذى يمنعه السمع ألا يرى إلى أنه عليه السلام قال لعمه أبى طالب لأأزال أستغفر لك ما لم أنه عنه فنزل قوله تعالى (ماكان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين) الآية والاشتباه فى أن هذا الوعد من إبراهيم عليه السلام وكذا قوله لأستغفرن لك وما ترتب عليهما من قوله (واغفر لأبى) الآية إنما كان قبل انقطاع رجائه عن إيمانه لعدم تبين أمره لقوله تعالى (فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه) كما مر فى تفسير سورة التوبة واستثناؤه عما يؤتسى به فى قوله تعالى (إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك) لا يقدح فى جوازه لكن لا لأن ذلك كان قبل ورود النهى أو لموعدة وعدها إياه كما قيل لما أن النهى إنما ورد فى شأن الاستغفار بعد تبين الأمر وقد كان استغفاره عليه السلام قبل التبين فلم يتناوله النهى أصلا وأن الوعد بالمحظور لا يرفع حظره بل لأن المراد بما يؤتسى به ما يجب الائتساء به حتما لورود الوعيد على الإعراض عنه بقوله تعالى (لقد كان لكم فيهم أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ومن يتول فإن الله هو الغنى الحميد) فاستثناؤه عن ذلك إنما يفيد عدم وجوب استدعاء الإيمان للكافر المرجو إيمانه لاسيما وقد انقطع ذلك عند ورود الاستثناء وذلك مما لا يتردد فيه أحد من العقلاء وأما عدم جوازه قبل تبين الأمر فلادلالة للاستثناء عليه قطعا وتوجيه الاستثناء إلى العدة بالاستغفار لا إلى نفس الاستغفار بقوله (واغفر لأبى) الآية لأنها كانت هى الحاملة له عليه السلام عليه وتخصيص تلك العدة بالذكر دون ما وقع ههنا لورودها على نهج التأكيد القسمى وأما جعل الاستغفار دائرا عليها وترتيب التبرؤ على تبين الأمر فقد مر تحقيقه فى تفسير سورة التوبة وقوله ﴿ إنه كان بى حفيا ﴾ أى بليغا فى البر والإلطاف تعليل لمضمون ما قبله ﴿ وأعتزلكم ﴾ أى أتباعد عنك وعن قومك وماتدعون من دون الله بالمهاجرة بدينى حيث لم تؤثر فيكم نصائحى .

﴿ وأدعو ربى ﴾ أعبده وحده وقد جوز أن يراد به دعاؤه المذكور فى

تفسير سورة الشعراء ولا يبعد أن يراد به استدعاء الولدأيضا بقوله (رب هب لى من الصالحين) حسبما يساعده السباق والسياق ﴿ عسى أن لا أكون بدعاء ربى شقيا ﴾ أى خائبا ضائع السعى وفيه تعريض بشقائهم فى عبادة آلهتهم وفى تصدير الكلام بعسى من إظهار التواضع ومراعاة حسن الأدب والتنبيه على حقيقة الحق من أن الإجابة والإثابة بطريق التفضل منه عز وجل لا بطريق الوجوب وأن العبرة بالخاتمة وذلك من الغيوب المختصة بالعليم الخبير مالا يخفى .

﴿ فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله ﴾ بالمهاجرة إلى الشام ﴿ وهبنا له إسحاق ويعقوب ﴾ بدل من فارقهم من أقربائه الكفرة لكن لا عقيب المهاجرة فإن المشهور أن الموهوب حينئذ اسمعيل عليه السلام لقوله تعالى (فبشرناه بغلام حليم) إثر دعائه بقوله (رب هب لى من الصالحين) ولعل ترتيب هبتهما على اعتزاله ههنا لبيان كمال عظم النعم التى أعطاها الله تعالى إياه بمقابلة من اعتزلهم من الأهل والأقرباء فإنهما شجرتا الأنبياء لهما أولاد وأحفاد أولوا شأن خطير وذووا عدد كثير هذا وقد روى أنه عليه السلام لما قصد الشام أتى أولا حران وتزوج بسارة وولدت له إسحاق وولد لإسحق يعقوب والأول هو الأقرب الأظهر ﴿ وكلا ﴾ أى كل واحد منهما أو منهم وهو مفعول أول لقوله تعالى ﴿ جعلنا نبيا ﴾ لا بعضهم دون بعض ﴿ ووهبنا له من رحمتنا ﴾ هى النبوة وذكرها بعد ذكر جعلهم نبيا للإيذان بأنها من باب الرحمة وقيل هى المال والأولاد وما بسط لهم من سعة الرزق وقيل هو الكتاب والأظهر أنها عامة لكل خير دينى ودنيوى أوتوه مما لم يؤته أحد من العالمين ﴿ جعلنا لهم لسان صدق عليا ﴾ يفتخر بهم الناس ويثنون عليهم استجابة لدعوته بقوله (واجعل لى لسان صدق فى الآخرين) والمراد باللسان ما يوجد به من الكلام ولسان العرب لغتهم وإضافته إلى الصدق ووصفه بالعلو للدلالة على أنهم أحقاء بما يثنون عليهم وأن محامدهم لا تخفى على تباعد الأعصار وتبدل الدول وتحول الملل والنحل .

موسى عليه السلام

﴿واذكر فى الكتاب موسى﴾ قدم ذكره على ذكر اسمعيل لئلا ينفصل عن يعقوب عليهما السلام ﴿إنه كان مخلصا﴾ موحدا أخلص عبادته عن الشرك والرياء أو أسلم وجهه لله تعالى وأخلص نفسه عما سواه وقرىء مخلصا على أن الله تعالى أخلصه ﴿وكان رسولا نبيا﴾ أرسله الله تعالى إلى الخلق فأنبأهم عنه ولذلك قدم رسولا مع كونه أخلص وأعلى ﴿وناديناه من جانب الطور الأيمن﴾ الطور جبل بين مصر ومدين والأيمن صفة للجانب أى ناديناه من ناحيته اليمنى من اليمين وهى التى تلى يمين موسى عليه السلام أو من جانبه الميمون من اليمين ومعنى ندائه منه أن تمثل له الكلام من تلك الجهة ﴿وقربناه نجيا﴾ تقريب تشريف مثل حاله عليه السلام بحال من قربه الملك لمناجاته واصطفاه لمصاحبته ونجيا أى مناجيا حال من أحد الضميرين فى ناديناه أو قربناه وقيل مرتفعا لما روى أنه عليه السلام رفع فى السموات حتى سمع صريف القلم ﴿ووهبنا له من رحمتنا﴾ أى من أجل رحمتنا ورأفتنا له أو بعض رحمتنا ﴿أخاه﴾ أى معاضدة أخيه ومؤازرته إجابة لدعوته بقوله (واجعل لى وزيرا من أهلى هرون أخى) لا نفسه لأنه كان أكبر منه عليهما السلام وهو على الأول مفعول لوهبنا وعلى الثانى بدل وقوله تعالى ﴿هرون﴾ عطف بيان له وقوله تعالى ﴿نبيا﴾ حال منه.

﴿واذكر فى الكتاب إسمعيل﴾ فصل ذكره عن ذكر أبيه وأخيه لإبراز كمال الاعتناء بأمره بإيراده مستقلا وقوله تعالى ﴿إنه كان صادق الوعد﴾ تعليل لموجب الأمر وإيراده عليه السلام بهذا الوصف لكمال شهرته به وناهيك أنه وعد الصبر على الذبح بقوله (ستجدنى إن شاء الله من الصابرين) فوفى ﴿وكان رسولا نبيا﴾ فيه دلالة على أن الرسول لا يجب أن يكون صاحب شريعة فإن أولاد إبراهيم عليه الصلاة والسلام كانوا على شريعته ﴿وكان يأمر أهله بالصلوة والزكوة﴾ اشتغالا بالأهم وهو أن يقبل الرجل بالتكميل على نفسه ومن هو أقرب الناس إليه قال تعالى (وأنذر عشيرتك الأقربين) (وأمر أهلك بالصلوة) (قوا أنفسكم وأهليكم نارا) وقصد إلى تكميل الكل بتكميلهم لأنهم قدوة يؤتسى بهم.

وقيل أهله أمته فإن الأنبياء عليهم السلام آباء الأمم ﴿ كان عند ربه مرضيا ﴾ لاتصافه بالنعوت الجليلة التى من جملتها ما ذكر من خصاله الحميدة .

إدريس

﴿ واذكر فى الكتاب إدريس ﴾ وهو سبط شيث وجد أبى نوح فإنه نوح ابن لمك بن متوشلح بن أخنوخ وهو إدريس عليه السلام واشتقاقه من الدرس يرده منع صرفه نعم لا يبعد أن يكون معناه فى تلك اللغة قريبا من ذلك فلقب به لكثرة دراسته روى أنه تعالى أنزل عليه ثلاثين صحيفة وأنه أول من خط بالقلم ونظر فى علم النجوم والحساب ﴿ إنه كان صديقا ﴾ ملازما للصدق فى جميع أحواله ﴿ نبيا ﴾ خبر آخر لكل مخصص للأول إذ ليس كل صديق نبيا ﴿ ورفعناه مكانا عليا ﴾ هو شرف النبوة والزلفى عند الله عز وجل وقيل علو الرتبة بالذكر الجميل فى الدنيا كما فى قوله تعالى (ورفعنا لك ذكرك) وقيل الجنة وقيل السماء السادسة أو الرابعة روى عن كعب وغيره فى سبب رفع إدريس عليه السلام أنه سئل ذات يوم فى حاجة فأصابه وهج الشمس فقال يارب إنى قد مشيت فيها يوما وقد أصابنى منها ما أصابنى فكيف من يحملها مسيرة خمسمائة عام فى يوم واحد اللهم خفف عنه من ثقلها وحرها فلما أصبح الملك وجد من خفة الشمس وحرها ما لا يعرف فقال يارب ما الذى قضيت فيه قال إن عبدى إدريس سألنى أن أخفف عنك حملها وحرها فأجبته قال يارب اجعل بينى وبينه خلة فأذن الله تعالى له فرفعه إلى السماء ﴿ أولئك ﴾ إشارة إلى المذكورين فى السورة الكريمة وما فيه من معنى البعد للإشارة بعلو رتبهم وبعد منزلتهم فى الفضل وهو مبتدأ وقوله تعالى ﴿ الذين أنعم الله عليهم ﴾ صفته أى أنعم عليهم بفنون النعم الدينية والدنيوية حسبما أشير إليه مجملا وقوله تعالى ﴿ من النبيين ﴾ بيان للموصول وقوله تعالى ﴿ من ذرية آدم ﴾ بدل منه بإعادة الجار ويجوز أن تكون كلمة من فيه للتبعيض لأن المنعم عليهم أعم من الأنبياء وأخص من الذرية .

﴿ وممن حملنا مع نوح ﴾ أى ومن ذرية من حملنا معه خصوصا وهم من عدا إدريس عليه السلام فإن إبراهيم كان من ذرية سام بن نوح ﴿ ومن ذرية

إبراهيم ﴾ وهم الباقون ﴿ وإسرائيل ﴾ عطف على إبراهيم أى ومن ذرية إسرائيل وكان منهم موسى وهرون وزكريا ويحي وعيسى عليهم السلام وفيه دليل على أولاد البنات من الذرية ﴿ وممن هدينا واجتبينا ﴾ أى ومن جملة من هديناهم إلى الحق واجتبيناهم للنبوة والكرامة وقوله تعالى ﴿ إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجدا وبكيا ﴾ خبر لأولئك ويجوز أن يكون الخبر هو الموصول وهذا استئنافا مسوقا لبيان خشيتهم من الله تعالى وإخباتهم له مع ما لهم من علو الرتبة وسمو الطبقة فى شرف النسب وكمال النفس والزلفى من الله عز سلطانه وسجدا وبكيا حالان من ضمير خروا أى ساجدين باكين عن النبي صلى الله عليه وسلم «اتلوا القرآن وابكوا فإن لم تبكوا فتباكوا» والبكى جمع باك كالسجد جمع ساجد وأصله بكوى فاجتمعت الواو والياء وسبقت إحداهما بالسكون فقلبت الواو ياء وأدغمت الياء فى الياء وحركت الكاف بالكسر المجانس للياء وقرىء يتلى بالياء التحتانية لأن التأنيث غير حقيقى وقرىء بكيا بكسر الباء للإتباع قالوا ينبغى أن يدعو الساجد فى سجدته بما يليق بآياتها فهنا يقول اللهم اجعلنى من عبادك المنعم عليهم المهديين الساجدين لك الباكين عند تلاوة آياتك وفى آية الإسراء يقول اللهم اجعلنى من الباكين إليك الخاشعين لك وفى آية تنزيل السجدة يقول اللهم اجعلنى من الساجدين لوجهك المسبحين بحمدك وأعوذ بك من أن أكون من المستكبرين عن أمرك ﴿ فخلف من بعدهم خلف ﴾ يقال لعقب الخير خلف بفتح اللام ولعقب الشر خلف بالسكون أى فعقبهم وجاء بعدهم عقب سوء ﴿ أضاعوا الصلوة ﴾ وقرىء الصلوات أى تركوها أو أخروها عن وقتها ﴿ واتبعوا الشهوات ﴾ من شرب الخمر واستحلال نكاح الأخت من الأب والانهماك فى فنون المعاصى وعن على رضى الله عنه هم من بناء المشيد وركوب المنظور ولبس المشهور ﴿ فسوف يلقون غيا ﴾ أى شرا فإن كل شر عند العرب غى وكل خير رشاد كقوله:

فمن يلق خيرا يحمد الناس أمره ... ومن يغو لا يعدم على الغى لائما

وعن الضحاك جزاء غى كقوله تعالى (يلق أثاما) أو غيا عن طريق الجنة

وقيل غي واد فى جهنم تستعيذ منه أوديتها وقوله تعالى ﴿ إلا من تاب وآمن وعمل صالحا ﴾ يدل على أن الآية فى حق الكفرة ﴿ فأولئك ﴾ إشارة إلى الموصول باعتبار اتصافه بما فى حيز الصلة ومافيه من معنى البعد لما مر مرارا أى فأولئك المنعوتون بالتوبة والإيمان والعمل الصالح ﴿ يدخلون الجنة ﴾ بموجب الوعد المحتوم وقرىء يدخلون على البناء للمفعول.

﴿ ولا يظلمون شيئا ﴾ أى لا ينقصون من جزاء أعمالهم شيئا، أو لا ينقصون شيئا من النقص وفيه تنبيه على أن كفرهم السابق لا يضرهم ولا ينقص أجورهم ﴿ جنات عدن ﴾ بدل من الجنة بدل البعض لاشتمالها عليها وما بينهما اعتراض أو نصب على المدح وقرىء بالرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف أى هى أو تلك جنات الخ . أو مبتدأ خبره التى وعد الخ وقرىء جنة عدن نصبا ورفعا وعدن علم لمعنى العدن وهو الإقامة كما أن فينة وسحر وأمس فيمن لم يصرفها أعلام لمعانى الفينة وهى الساعة التى أنت فيها والسحر والأمس فجرى لذلك مجرى العدن أو هو علم لأرض الجنة خاصة ولولا ذلك لما ساغ إبدال ما أضيف إليه من الجنة بلا وصف عند غير البصريين ولا صفة بقوله تعالى ﴿ التى وعد الرحمن عباده ﴾ وجعله بدلا منه خلاف الظاهر فإن الموصول فى حكم المشتق وقد نصوا على أن البدل بالمشتق ضعيف والتعرض لعنوان الرحمة للإيذان بأن وعدها وإنجازه لكمال سعة رحمته والباق فى قوله تعالى ﴿ بالغيب ﴾ متعلقة بمضمر هو حال من المضمر العائد إلى الجنات أو من عباده أى وعدها إياهم ملتبسة أو ملتبسين بالغيب أى غائبة عنهم غير حاضرة أو غائبين عنها لا يرونها وإنما آمنوا بها بمجرد الإخبار أو بمضمر هو سبب الوعد أى وعدها إياهم بسبب إيمانهم .

﴿ إنه كان وعده ﴾ أى موعده كائنا ما كان فيدخل فيه الجنات الموعودة دخولا أوليا ولما كانت هى مثابة يرجع إليها قيل ﴿ مأتيا ﴾ أى يأتيه من وعدله لا محالة بغير تخلف وقيل هو مفعول بمعنى فاعل وقيل مأتيا أى مفعولا منجزا من أتى إليه إحسانا أى فعله ﴿ لا يسمعون فيها لغوا ﴾ أى فضول كلام لا طائل

تحته وهو كناية عن عدم صدور اللغو من أهلها وفيه تنبيه على أن اللغو مما ينبغى أن يجتنب عنه فى هذه الدار ما أمكن ﴿ إلا سلاما ﴾ استثناء منقطع أى لكن يسمعون تسليم الملائكة عليهم أو تسليم بعضهم على بعض أو متصل بطريق التعليق بالمحال أى لا يسمعون لغوا ما إلا سلاما فحيث استحال كون السلام لغوا استحال سماعهم له بالكلية كما فى قوله

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهن فلول من قراع الكتائب

أو على أن معناه الدعاء بالسلامة وهم أغنياء عنه فهو من باب اللغو ظاهرا وإنما فائدته الإكرام وقوله تعالى ﴿ ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا ﴾ وارد على عادة المتنعمين فى هذه الدار وقيل المراد دوام رزقهم ودروره وإلا فليس فيها بكرة ولا عشى ﴿ تلك الجنة ﴾ مبتدأ وخبر جىء به لتعظيم شأن الجنة وتعيين أهلها فإن ما فى اسم الإشارة من معنى البعد للإيذان ببعد منزلتها وعلو رتبتها ﴿ التى نورث ﴾ أى نورثها ﴿ من عبادنا من كان تقيا ﴾ أى نبقيها عليهم بتقواهم ونمتعهم بها كما نبقى على الوارث مال مورثه ونمتعه به والوراثة أقوى ما يستعمل فى التملك والاستحقاق من الألفاظ من حيث أنها لا تعقب بفسخ ولا استرجاع ولا إبطال وقيل يورث المتقون من الجنة المساكن التى كانت لأهل النار لو آمنوا وأطاعوا زيادة فى كرامتهم وقرىء نورث بالتشديد .

﴿ وما نتنزل إلا بأمر ربك ﴾ حكاية لقول جبريل حين استبطأه رسول الله عليهما الصلاة والسلام لما سئل عن أصحاب الكهف وذى القرنين والروح فلم يدر كيف يجيب ورجا أن يوحى إليه فيه فأبطأ عليه أربعين يوما أو خمسة عشر فشق ذلك عليه مشقة شديدة وقال المشركون ودعه ربه وقلاه ثم نزل ببيان ذلك وأنزل الله عز وجل هذه الآية وسورة والضحى والتنزل النزول على مهل لأنه مطاوع للتنزيل وقد يطلق على مطلق النزول كما يطلق التنزيل على الإنزال والمعنى وما ننزل وقتا غب وقت إلا بأمر الله تعالى على ما تقتضيه حكمته وقرىء وما يتنزل بالياء والضمير للوحى ﴿ له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك ﴾

وهو ما نحن فيه من الأماكن والأزمنة ولا ننتقل من مكان إلى مكان ولا نتنزل في زمان دون زمان إلا بأمره ومشيئته .

﴿ وما كان ربك نسيا ﴾ أى تاركا لك يعنى أن عدم النزول لم يكن إلا لعدم الأمر به لحكمة بالغة فيه ولم يكن لترك تعالى لك وتوديعه إياك كما زعمت الكفرة وفى إعادة اسم الرب المعرب عن التبليغ إلى الكمال اللائق مضافا إلى ضميره عليه السلام من تشريفه والإشعار بعلة الحكم ما لا يخفى وقيل أول الآية حكاية قول المتقين حين يدخلون الجنة مخاطبا بعضهم بعضاً بطريق التبجح والابتهاج والمعنى وما تتنزل الجنة إلا بأمر الله تعالى ولطفه وهو مالك الأمور كلها سالفها ومترقبها وحاضرها فما وجدناه وما نجده من لطفه وفضله وقوله تعالى (وما كان ربك نسيا) تقرير لقولهم من جهة الله تعالى أى وما كان ناسيا لأعمال العاملين وما وعدهم من الثواب عليها وقوله تعالى :

﴿ رب السموات والأرض وما بينهما ﴾ بيان لاستحالة النسيان عليه تعالى فإن من بيده ملكوت السموات والأرض وما بينهما كيف يتصور أن يحوم حول ساحته سبحانه الغفلة والنسيان وهو خبر مبتدأ محذوف أو بدل من ربك والفاء فى قوله تعالى ﴿ فاعبده واصطبر لعبادته ﴾ لترتيب ما بعدها من موجب الأمرين على ما قبلها من كونه تعالى (رب السموات والأرض وما بينهما) وقيل من كونه تعالى غير تارك له عليه السلام أو غير ناس لأعمال العاملين والمعنى فحين عرفته تعالى بما ذكر من الربوبية الكاملة فاعبده الخ فإن إيجاب معرفته تعالى كذلك لعبادته مما لا ريب فيه أو حين عرفت أنه تعالى لا ينساك أو لا ينسى أعمال العاملين كائنا من كان فأقبل على عبادته واصطبر على مشاقها ولا تحزن بإبطاء الوحي وهزؤ الكفرة فإنه يراقبك ويراعيك ويلطف بك فى الدنيا والآخرة وتعدية الاصطبار باللام لا بحرف الاستعلاء كما فى قوله تعالى (واصطبر عليها) لتضمينه معنى الثبات للعبادة فيما تورد عليه من الشدائد والمشاق كقولك للمبارز اصطبر لقرنك أى اثبت له فيما يورد عليك من شدائده ﴿ هل تعلم له سميا ﴾ السمى هو الشريك فى الاسم والظاهر أن يراد به ههنا الشريك فى اسم

خاص قد عبر عنه تعالى بذلك وهو رب السموات والأرض وما بينهما والمراد بإنكار العلم ونفيه على أبلغ وجه وآكده فالجملة تقرير لما أفاده الفاء من علية ربوبيته العامة لوجوب عبادته بل لوجوب تخصصها به تعالى ببيان استقلاله عز وجل بذلك الاسم وانتفاء إطلاقه على الغير بالكلية حقا أو باطلا .

وقيل : المراد هو الشريك فى الاسم الجليل فإن المشركين مع غلوهم فى المكابرة لم يسموا الصنم بالجلالة أصلا وقيل هو الشريك فى اسم الإله والمراد بالتسمية التسمية على الحق فالمعنى هل تعلم شيئاً يسمى بالاستحقاق إلها وأما التسمية على الباطل فهى كلا تسمية فتقرير الجملة لوجوب العبادة حينئذ باعتبار ما فى الاسمين الكريمين من الإشعار باستحقاق العبادة فتدبر .

إنكار البعث

﴿ ويقول الإنسان ﴾ المراد به إما الجنس بأسره وإسناد القول إلى الكل لوجود القول فيما بينهم وإن لم يقله الجميع كما يقال بنو فلان قتلوا فلانا وإنما القاتل واحد منهم وإما البعض المعهود منهم وهم الكفرة أو أبى بن خلف . فإنه أخذ عظاما بالية ففتها وقال يزعم محمد أنا نبعث بعد ما نموت ونصير إلى هذه الحال أى يقول بطريق الإنكار والاستبعاد ﴿ أئذا ما مت لسوف أخرج حيا ﴾ أى أبعث من الأرض أو من حال الموت وتقديم الظرف وإيلاؤه حرف الإنكار لما أن المنكر كون ما بعد الموت وقت الحياة وانتصابه بفعل دل عليه أخرج لا به فإن ما بعد اللام لا يعمل فيما قبلها وهى ههنا مخلصة للتوكيد مجردة عن معنى الحال كما خلصت[1] الهمزة واللام للتعويض فى يا ألله فساغ اقترانها بحرف الاستقبال وقرىء إذا ما مت بهمزة واحدة مكسورة على الخبر ﴿ أو لا يذكر الإنسان ﴾ من الذكر الذى يراد به التفكر والإظهار فى موقع الإضمار لزيادة التقرير والإشعار بأن الإنسانية من دواعى التفكر فيما جرى عليه . من

---

(١) فى ١٠ تخلصت .

شئون التكوين المنحية بالقلع عن القول المذكور وهو السر فى إسناده إلى الجنس أو إلى الفرد بذلك العنوان والهمزة للإنكار التوبيخى والواو لعطف الجملة المنفية على مقدر يدل عليه يقول أى أيقول ذلك ولا يذكر .

﴿ أنا خلقناه من قبل ﴾ أى من قبل الحالة التى هو فيها وهى حالة بقائه ﴿ ولم يك شيئاً ﴾ أى والحال أنه لم يكن حينئذ شيئاً أصلا فحيث خلقناه وهو فى تلك الحالة المنافية للخلق بالكلية مع كونه أبعد من الوقوع فلأن نبعثه بجمع المواد المتفرقة وإيجاد مثل ما كان فيها من الأعراض أولى وأظهر فماله لا يذكره فيقع فيما يقع فيه من النكير وقرى يذكر ويتذكر على الأصل ﴿ فوربك ﴾ إقسامه باسمه عزت أسماؤه مضافا إلى ضميره عليه السلام لتحقيق الأمر بالإشعار بعليته وتفخيم شأنه عليه الصلاة ورفع منزلته ﴿ لنحشرنهم ﴾ لنجمعن القائلين بالسوق إلى المحشر بعد ما أخرجناهم من الأرض أحياء ففيه إثبات للبعث بالطريق البرهانى على أبلغ وجه وآكده كأنه أمر واضح غنى عن التصريح به وإنما المحتاج إلى البيان ما بعد ذلك من الأهوال ﴿ والشياطين ﴾ معطوف على الضمير المنصوب أو مفعول معه . روى أن الكفرة يحشرون مع قرنائهم من الشياطين التى كانت تغويهم كل منهم مع شيطانه فى سلسلة وهذا وإن كان مختصا بهم لكن ساغ نسبته إلى الجنس باعتبار أنهم لما حشروا وفيهم الكفرة مقرونين بالشياطين فقد حشروا معهم جميعاً كما ساغ نسبة القول إلى المحكى إليه مع كون القائل بعض أفراده .

﴿ ثم لنحضرنهم حول جهنم جثيا ﴾ ليرى السعداء ما نجاهم الله تعالى منه فيزدادوا غبطة وسروراً وينال الأشقياء ما ادخروا لمعادهم عدة ويزدادوا غيظا من رجوع السعداء عنهم إلى دار الثواب وشماتتهم بهم والجثى جمع جاث من جثا إذا قعد على ركبتيه وأصله جثوو بواوين فاستثقل اجتماعهما بعد ضمتين فكسرت الثاء للتخفيف فانقلبت الواو ياء وأدغمت فيها الياء الأولى وكسرت الجيم إتباعا لما بعدها وقرىء بضمها ونصبه على الحالية من الضمير البارز أى لنحضرنهم حول جهنم جاثين على ركبهم لما يدهمهم من هول المطلع أو لأنه من

توابع التواقف للحساب قبل التواصل إلى الثواب والعقاب فإن أهل الموقف جاثون كما ينطق به قوله تعالى (وترى كل أمة جاثية) على ما هو المعتاد فى مواقف التقاول وإن كان المراد بالإنسان الكفرة فلعلهم يساقون من الموقف إلى شاطىء جهنم جثاة إهانة بهم أو لعجزهم عن القيام لما اعتراهم من الشدة .

﴿ ثم لننزعن من كل شيعة ﴾ أى من كل أمة شاعت دينا من الأديان ﴿أيهم أشد على الرحمن عتيا﴾ أى من كان منهم أعصى وأعتى فنطرحهم فيها وفى ذكر الأشد تنبيه على أنه تعالى يعفو عن بعض من أهل العصيان وعلى تقدير تفسير الإنسان بالكفرة فالمعنى إنا نميز من كل طائفة منهم أعصاهم فأعصاهم وأعتاهم فأعتاهم فنطرحهم فى النار على الترتيب أو ندخل كلا منهم طبقتها اللائقة به وأيهم مبنى على الضم عند سيبويه[1] لأن حقه أن يبنى كسائر الموصولات لكنه أعرب حملا على كل وبعض للزوم الإضافة وإذا حذف صدر صلته زاد نقصه فعاد إلى حقه ومنصوب المحل بننزعن ولذلك قرىء منصوبا ومرفوع عند غيره بالابتداء على أنه استفهامى وخبره أشد والجملة محكية والتقدير لننزعن من كل شيعة الذين يقال لهم أيهم أشد أو معلق عنها لننزعن لتضمنه معنى التمييز اللازم للعلم أو مستأنفة والفعل واقع على كل شيعة كقوله تعالى (ووهبنا لهم من رحمتنا) وعلى للبيان فيتعلق بمحذوف كأن سائلا قال على من عتوا فقيل على الرحمن أو متعلق بأفعل وكذا الباء فى قوله تعالى ﴿ ثم لنحن أعلم بالذين هم أولى بها صليا ﴾ أى هم أولى بالنار وهم المنتزعون ويجوز أن يراد بهم وبأشدهم عتيا رؤساء الشيع فإن عذابهم مضاعف لضلالهم وإضلالهم والصلى كالعتى صيغة وإعلالا وقرىء بضم الصاد .

﴿ وإن منكم ﴾ التفات لإظهار مزيد الاعتناء بمضمون الكلام وقيل هو خطاب للناس من غير التفات إلى المذكور ويؤيد الأول أنه قرىء وإن منهم أى منكم أيها الإنسان ﴿ إلا واردها ﴾ أى واصلها وحاضر دونها يمر بها

---

(١) فى ١٠ : عند الأخفش .

المؤمنون وهى خامدة وتنهار بغيرهم وعن جابر أنه صلى الله عليه وسلم سئل عنه فقال إذا دخل أهل الجنة الجنة قال بعضهم لبعض أليس قد وعدنا ربنا أن نرد النار فيقال لهم قد وردتموها وهى خامدة وأما قوله تعالى (أولئك عنها مبعدون) فالمراد الإبعاد عن عذابها وقيل ورودها الجواز على الصراط الممدود عليها ﴿ كان ﴾ أى ورودهم إياها ﴿ على ربك حتما مقضيا ﴾ أى أمرا محتوما أوجبه الله عز وجل على ذاته وقضى أنه لابد من وقوعه البتة وقيل أقسم عليه .

﴿ ثم ننجى الذين اتقوا ﴾ الكفر والمعاصى مما كانوا عليه من حال الجثو على الركب على الوجه الذى سلف فيساقون إلى الجنة وقرىء ننجى بالتخفيف وينجى وينجى على البناء للمفعول وقرىء ثمة ننجى بفتح الثاء أى هناك ننجيهم ﴿ ونذر الظالمين ﴾ بالكفر والمعاصى ﴿ فيها جثيا ﴾ منهارا بهم كما كانوا قيل فيه دليل على أن المراد بالورود الجثو حواليها وأن المؤمنين يفارقون الفجرة بعد تجاثيهم حولها ويلقى الفجرة فيها على هيآتهم وقوله تعالى ﴿ وإذا تتلى عليهم ﴾ الآية إلى آخرها حكاية لما قالوا عند سماع الآيات الناعية عليهم فظاعة حالهم ووخامة مآلهم أى وإذا تتلى على المشركين ﴿ آياتنا ﴾ التى من جملتها هاتيك الآيات الناطقة بحسن حال المؤمنين وسوء حال الكفرة وقوله تعالى ﴿ بينات ﴾ أى مرتلات الألفاظ مبينات المعانى بنفسها أو ببيان الرسول عليه الصلاة والسلام أو بينات الإعجاز حال مؤكدة من آياتنا .

﴿ قال الذين كفروا ﴾ أى قالوا ووضع الموصول موضع الضمير للتنبيه على أنهم قالوا ما قالوا كافرين بما يتلى عليهم رادين له أو قال الذين مردوا منهم على الكفر ومرنوا على العتو والعناد وهم النضر بن الحرث وأتباعه الفجرة واللام فى قوله تعالى ﴿ للذين آمنوا ﴾ للتبليغ كما فى مثل قوله تعالى (وقال لهم نبيهم) وقيل لام الأجل كما فى قوله تعالى(وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيرا ما سبقونا إليه) أى قالوا لأجلهم وفى حقهم والأول هو الأولى لأن قبولهم ليس فى حق المؤمنين فقط كما ينطق به قوله تعالى ﴿ أى الفريقين ﴾ أى المؤمنين والكافرين كأنهم قالوا أينا ﴿ خير ﴾ نحن أو أنتم ﴿ مقاما ﴾ أى مكانا وقرىء

بضم الميم أى موضع إقامة ومنزل ﴿ وأحسن نديا ﴾ أى مجلسا ومجتمعا يروى أنهم كانوا يرجلون شعورهم ويدهنونها ويتطيبون ويتزينون بالزينة الفاخرة ثم يقولون ذلك لفقراء المؤمنين يريدون بذلك أن خيريتهم حالا وأحسنيتهم مآلا مما لا يقبل الإنكار وأن ذلك لكرامتهم على الله سبحانه وزلفاهم عنده إذ هو العيار على الفضل والنقصان والرفعة والضعة وأن من ضرورته هو أن المؤمنين عليه تعالى لقصور حظهم العاجل وما هذا القياس العقيم والرأى السقيم إلا لكونهم جهلة لا يعلمون إلا ظاهرا من الحياة الدنيا وذلك مبلغهم من العلم فرد عليهم ذلك من جهته تعالى بقوله :

﴿ وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أحسن أثاثا ورئيا ﴾ أى كثيرا من القرون التى كانت أفضل منهم فيما يفتخرون به من الحظوظ الدنيوية كعاد وثمود وأضرابهم من الأمم العاتية قبل هؤلاء أهلكناهم بفنون العذاب ولو كان ما آتيناهم لكرامتهم علينا لما فعلنا بهم مافعلنا وفيه من التهديد والوعيد مالا يخفى كأنه قيل فلينتظر هؤلاء أيضاً مثل ذلك فكم مفعول أهلكنا ومن قرن بيان لإبهامها وأهل كل عصر قرن لمن بعدهم لأنهم يتقدمونهم مأخوذ من قرن الدابة وهو مقدمها وقوله تعالى (هم أحسن أثاثا) فى حيز النصب على أنه صفة لكم وأثاثا تمييز النسبة وهو متاع البيت وقيل هو ما جد منه والخرثى ما لبس منه ورث والرئى المنظر فعل من الرؤية لما يرى كالطحن لما يطحن وقرىء ريا على قلب الهمزة ياء وإدغامها أو على أنه من الرى وهو النعمة والترفه وقرىء ريئا على القلب وريا بحذف الهمزة وزيا بالزاى المعجمة من الزى وهو الجمع فإنه عبارة عن المحاسن المجموعة .

﴿ قل من كان فى الضلالة فليمدد له الرحمن مدا ﴾ لما بين عاقبة أمر الأمم المهلكة مع ما كان لهم من التمتع بفنون الحظوظ العاجلة أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يجيب هؤلاء المفتخرين بما لهم من الحظوظ ببيان مآل أمر الفريقين إما على وجه كلى متناول لهم ولغيرهم من المنهمكين فى اللذة الفانية المبتهجين بها على أن من على عمومها وإما على وجه خاص بهم على أنها عبارة

عنهم ووصفهم بالتمكن لذمهم والإشعار بعلة الحكم أى من كان مستقرا فى الضلالة مغمورا بالجهل والغفلة عن عواقب الأمور فليمدد له الرحمن أى يمد له ويمهله فطول العمر وإعطاء المال والتمكين من التصرفات وإخراجه على صيغة الأمر للإيذان بأن ذلك مما ينبغى أن يفعل بموجب الحكمة لقطع المعاذير كما ينبىء عنه قوله عز وجل (ولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر) أو للاستدراج كما ينطق به قوله تعالى (إنما نملى لهم ليزدادوا إثما) وقيل المراد به الدعاء بالمد والتنفيس واعتبار الاستقرار فى الضلال لما أن المد لا يكون إلا للمصرين عليها إذ رب ضال يهديه الله عز وجل والتعرض لعنوان الرحمانية لما أن المد من أحكام الرحمة الدنيوية وقوله تعالى :

﴿ حتى إذا رأوا ما يوعدون ﴾ غاية للمد الممتد لا لقول المفتخرين كما قيل إذ ليس فيه امتداد بحسب الذات وهو ظاهر ولا استمرار بحسب التكرار لوقوعه فى حيز جواب إذا وجمع الضمير فى الفعلين باعتبار معنى من كما أن الإفراد فى الضميرين الأولين باعتبار لفظها وقوله تعالى ﴿ إما العذاب وإما الساعة ﴾ تفصيل للموعود بدل منه على سبيل البدل فإنه إما العذاب الدنيوى بغلبة المسلمين واستيلائهم عليهم وتعذيبهم إياهم قتلا وأسرا وإما يوم القيامة وما لهم فيه من الخزى والنكال على منع الخلو دون منع الجمع فان العذاب الأخروى لا ينفك عنهم بحال وقوله تعالى ﴿ فسيعلمون ﴾ جواب الشرط والجملة محكية بعد حتى أى حتى إذا عاينوا ما يوعدون من العذاب الدنيوى أو الأخروى فقط فسيعلمون حينئذ

﴿ من هو شر مكانا ﴾ من الفريقين بأن يشاهدوا الأمر على عكس ما كانوا يقدرونه فيعلمون أنهم شر مكانا لا خير مقاما ﴿ وأضعف جندا ﴾ أى فئة وأنصارا لا أحسن نديا كما كانوا يدعونه وليس المراد أن له ثمة جندا ضعفاء كلا ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله وما كان منتصرا وإنما ذكر ذلك ردا لما كانوا يزعمون أن لهم أعوانا من الأعيان وأنصارا من الأخيار ويفتخرون بذلك فى الأندية والمحافل ﴿ ويزيد الله الذين اهتدوا هدى ﴾ كلام مستأنف سيق

لبيان حال المهتدين إثر بيان حال الضالين وقيل عطف على فليمدد لأنه فى معنى الخبر حسبما عرفته كأنه قيل من كان فى الضلالة يمده الله ويزيد المهتدين هداية كقوله تعالى (والذين اهتدوا زادهم هدى) وقيل عطف على الشرطية المحكية بعد القول كأنه لما بين أن إمهال الكافر وتمتيعه بالحياة ليس لفضله عقب ذلك ببيان أن قصور حظ المؤمن منها ليس لنقصه بل لأنه تعالى أراد به ماهو خير من ذلك وقوله تعالى ﴿ والباقيات الصالحات خير ﴾ على تقديرى الاستئناف والعطف كلام مستأنف وارد من جهته تعالى لبيان فضل أعمال المهتدين غير داخل فى حيز الكلام الملقن لقوله تعالى ﴿ عند ربك ﴾ أى الطاعات التى تبقى فوائدها وتدوم عوائدها ومن جملتها ما قيل من الصلوات الخمس وما قيل من قول سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر خير عند الله تعالى والتعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميره لتشريفه عليه السلام ﴿ ثوابا ﴾ أى عائدة مما يتمتع به الكفرة من النعم المخدجة الفانية التى يفتخرون بها لا سيما ومآلها النعيم المقيم ومآل هذه الحسرة السرمدية والعذاب الأليم كما أشير إليه بقوله تعالى ﴿ وخير مردا ﴾ أى مرجعا وعاقبة وتكرير الخير لمزيد الاعتناء ببيان الخيرية وتأكيدها وفى التفصيل مع أن ما للكفرة بمعزل من أن يكون له خيرية فى العاقبة تهكم بهم

العاص وخباب

﴿ أفرأيت الذى كفر بآياتنا ﴾ أى بآياتنا التى من جملتها آيات البعث نزلت فى العاص بن وائل كان لخباب بن الأرت عليه مال فاقتضاه فقال لا حتى تكفر بمحمد قال لا والله لا أكفر به حيا ولا ميتا ولا حين بعثت قال فإذا بعثت جئنى فيكون لى ثمة مال وولد فأعطيك وفى روايه قال لا أكفر به حتى يميتك ثم تبعث فقال إنى لميت ثم مبعوث قال نعم قال دعنى حتى أموت وأبعث فسأوتى مالا وولدا فأقضيك فنزلت فالهمزة للتعجيب من حاله والإيذان بأنها من الغرابة والشناعة بحيث يجب أن ترى ويقضى منها العجب ومن فرق بين ألم تر وأرأيت بعد بيان اشتراكهما فى الاستعمال لقصد التعجيب بأن الأول يعلق بنفس

المتعجب منه فيقال ألم تر إلى الذى صنع كذا بمعنى أنظر إليه فتعجب من حاله والثانى يعلق بمثل المتعجب منه فيقال أرأيت مثل الذى صنع كذا بمعنى أنه من الغرابة بحيث لا يرى له مثل فقد حفظ شيئا وغابت عنه أشياء وكأنه ذهب عليه قوله عز وجل (أرأيت الذى يكذب بالدين) والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام أى أنظرت فرأيت الذى كفر بآياتنا الباهرة التى حقها أن يؤمن بها كل من يشاهدها ﴿ وقال ﴾ مستهزئا بها مصدرا لكلامه باليمين الفاجرة والله ﴿ لأوتين ﴾ فى الآخرة ﴿ مالا وولدا ﴾ أى انظر إليه فتعجب من حالته البديعة وجرأته الشنيعة هذا هو الذى يستدعيه جزالة النظم الكريم وقد قيل إن أرأيت بمعنى أخبر والفاء على أصلها والمعنى أخبر بقصة هذا الكافر عقيب حديث أولئك الذين قالوا أى الفريقين خير مقاما الآية وأنت خبير بأن المشهور استعمال أرأيت فى معنى أخبرنى بطريق الاستفهام جاريا على أصله أو مخرجا إلى ما يناسبه من المعانى لا بطريق الأمر بالإخبار لغيره وقرىء ولدا على أنه جمع ولد كأسد جمع أسد أو على لغة فيه كالعرب والعرب وقوله تعالى ﴿ أطلع الغيب ﴾ رد لكلمته الشنعاء وإظهار لبطلانها إثر ما أشير إليه من التعجب منها أى قد بلغ من عظمة الشأن إلى أن قد ارتقى إلى علم الغيب الذى يستأثر به العليم الخبير حتى ادعى أن يؤتى فى الآخرة مالا وولدا وأقسم عليه ؟

﴿ أم اتخذ عند الرحمن عهدا ﴾ بذلك فإنه لا يتوصل إلى العلم به إلا بأحد هذين الطريقين والتعرض لعنوان الرحمانية للإشعار بعلية الرحمة لإيتاء مايدعيه وقيل العهد كلمة الشهادة وقيل العمل الصالح فإن وعده تعالى بالثواب عليهما كالعهد وهذا مجازاة مع اللعين بحسب منطوق مقاله كما أن كلامه مع خباب كان كذلك .

وقوله تعالى ﴿ كلا ﴾ ردع له عن التفوه بتلك العظيمة وتنبيه على خطأته ﴿ سنكتب مايقول ﴾ أى سنظهر أنا كتبنا قوله كقوله إذاما انتسبنا لم تلدنى لئيمة أى يتبين أنى لم تلدنى لئيمة أو سننتقم منه انتقام من كتب جريمة الجانى وحفظها عليه فإن نفس الكتبة لا تكاد تتأخر عن القول كقوله عز وعلا

(ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد) فبنى الأول تنزيل إظهار الشيء الخفى منزلة إحداث الأمر المعدوم بجامع أن كلا منهما إخراج من الكمون إلى البروز فيكون استعارة تبعية مبنية على تشبيه إظهار الكتابة على رؤوس الأشهاد بإحداثها ومدار الثانى تسمية الشيء باسم سببه فإن كتابة جريمة المجرم سبب لعقوبته قطعا ﴿ ونمد له من العذاب مدا ﴾ مكان ما يدعيه لنفسه من الإمداد بالمال والولد أى نطول له من العذاب ما يستحقه أو نزيد عذابه ونضاعفه له لكفره وافترائه على الله سبحانه وتعالى واستهزائه بآياته العظام ولذلك أكد بالمصدر دلالة على فرط الغضب ﴿ ونرثه ﴾ بموته ﴿ ما يقول ﴾ أى مسمى ما يقول ومصداقه وهو ما أوتيه فى الدنيا من المال والولد وفيه إيذان بأنه ليس لما يقوله مصداق موجود سوى ما ذكر أى ننزع عنه ما آتيناه ﴿ ويأتينا ﴾ يوم القيامة ﴿ فردا ﴾ لا يصحبه مال ولا ولد كان له فى الدنيا فضلا أن يؤتى ثمة زائدا وقيل نزوى عنه ما زعم أنه يناله فى الآخرة ونعطيه ما يستحقه ويأباه معنى الإرث وقيل المراد بما يقول نفس القول المذكور لا مسماه والمعنى إنما يقول هذا القول مادام حيا فإذا قبضناه حلنا بينه وبين أن يقوله ويأتينا رافضا له منفردا عنه وأنت خبير بأن ذلك مبنى على أن صدور القول المذكور عنه بطريق الاعتقاد وأنه مستمر على التفوه به راج لوقوع مضمونه ولا ريب فى أن ذلك مستحيل ممن كفر بالبعث وإنما قال ما قال بطريق الاستهزاء وتعليق أداء دينه بالمحال ﴿ واتخذوا من دون الله آلهة ﴾ حكاية لجناية عامة للكل مستتبعة لضد ما يرجون ترتبه عليها إثر حكاية مقالة الكافر المعهود واستتباعها لنقيض مضمونها أي اتخذوا الأصنام آلهة متجاوزين الله تعالى ﴿ ليكونوا لهم عزا ﴾ أى ليعززوا بهم بأن يكونوا لهم وصلة إليه عز وجل وشفعاء عنده

﴿ كلا ﴾ ردع لهم عن ذلك الاعتقاد الباطل وإنكار لوقوع ما علقوا به أطماعهم الفارغة ﴿ سيكفرون بعبادتهم ﴾ أى ستجحد الآلهة بعبادتهم لها بأن ينطقها الله تعالى وتقول ما عبدتمونا أو سينكر الكفرة حين شاهدوا سوء عاقبة

كفرهم عبادتهم لها كما فى قوله تعالى (والله ربنا ما كنا مشركين) ومعنى قوله تعالى ﴿ ويكونون عليهم ضدا ﴾ على الأول تكون الآلهة التى كانوا يرجون أن تكون عزا ضدا للعز أى ذلا وهونا أو تكون عونا عليهم وآلة لعذابهم حيث تجعل وقود النار وحصب جهنم أو حيث كانت عبادتهم لها سببا لعذابهم وإطلاق الضد على العون لما أن عون الرجل يضاد عدوه وينافيه بإعانته له عليه وعلى الثانى يكون الكفرة ضدا وأعداء للآلهة كافرين بها بعد أن كانوا يحبونها كحب الله ويعبدونها وتوحيد الضد لوحدة المعنى الذى عليه تدور مضادتهم فإنهم بذلك كشىء واحد كما فى قوله عليه السلام وهم يد على من سواهم وقرىء كلا بفتح الكاف والتنوين على قلب الألف نونا فى الوقف قلب ألف الإطلاق فى قوله :

أقلى اللوم عاذل والعتابن وقولى إن أصبت لقد أصابن

أو على معنى كل هذا الرأى كلا وقرىء كلا على إضمار فعل يفسره ما بعده أى سيجحدون كلا سيكفرون الخ

تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم

﴿ ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين ﴾ تعجيب لرسول الله صلى الله عليه وسلم مما نطقت به الآيات الكريمة السالفة وحكته عن هؤلاء الكفرة الغواة والمردة العتاة من فنون القبائح من الأقاويل والأفاعيل والتمادى فى الغى والانهماك فى الضلال والإفراط فى العناد والتصميم على الكفر من غير صارف يلويهم ولا عاطف يثنيهم والإجماع على مدافعة الحق بعد اتضاحه وانتفاء الشك عنه بالكلية وتنبيه على أن جميع ذلك منهم بإضلال الشياطين وإغوائهم لا لأن مسوغا ما فى الجملة ومعنى إرسال الشياطين عليهم إما تسليطهم عليهم وتمكينهم من إضلالهم وإما تقييضهم لهم وليس المراد تعجيبه عليه السلام من إرسالهم عليهم كما يوجبه تعليق الرؤية به بل مما ذكر من أحوال الكفرة من حيث كونها من آثار إغوائهم الشياطين كما ينبىء عنه قوله تعالى :

﴿ تؤزهم أزا ﴾ فإنه إما حال مقدرة من الشياطين أو استئناف وقع جوابا عما نشأ من صدر الكلام كأنه قيل ماذا يفعل الشياطين بهم حينئذ فقيل تؤزهم أى تغريهم وتهيجهم على المعاصى تهييجا شديدا بأنواع الوساوس والتسويلات فإن الأز والهز والاستفزاز أخوات معناها شدة الإزعاج ﴿ فلا تعجل عليهم ﴾ أى بأن يهلكوا حسبما تقتضيه جناياتهم ويبيدوا عن آخرهم وتطهر الأرض من فساداتهم والفاء للإشعار بكون ما قبلها مظنة لوقوع المنهى عنه محوجة إلى النهى كما فى قوله تعالى (إن هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة) وقوله تعالى ﴿ إنما نعد لهم عدا ﴾ تعليل لموجب النهى ببيان اقتراب هلاكهم أى لا تستعجل بهلاكهم فإنه لم يبق لهم إلا أيام وأنفاس نعدها عدا ﴿ يوم نحشر المتقين ﴾ منصوب على الظرفية بفعل مؤخر قد حذف للإشعار بضيق العبارة عن حصره وشرحه لكمال فظاعة ما يقع فيه من الطامة والدواهى العامة كأنه قيل يوم نحشر المتقين أى نجمعهم ﴿ إلى الرحمن ﴾ إلى ربهم الذى يغمرهم برحمته الواسعة ﴿ وفدا ﴾ وافدين عليه كما يفد الوفود على الملوك منتظرين لكرامتهم وإنعامهم ﴿ ونسوق المجرمين ﴾ كما تساق البهائم ﴿ إلى جهنم وردا ﴾ عطاشا فإن من يرد الماء لا يورده إلا العطش أو كالدواب التى ترد الماء نفعل بالفريقين من الأفعال ما لا يخفى ببيانه نطاق المقال وقيل منصوب على المفعولية بمضمر مقدم خوطب به النبى صلى الله عليه وسلم أى أذكر لهم بطريق الترغيب والترهيب يوم نحشر الخ وقيل على الظرفية لقوله تعالى :

﴿ لا يملكون الشفاعة ﴾ والذى يقتضيه مقام التهويل وتستدعيه جزالة التنزيل أن ينتصب بأحد الوجهين الأولين ويكون هذا استئنافا مبينا لبعض ما فيه من الأمور الدالة على هوله وضميره عائدا إلى العباد المدلول عليهم بذكر الفريقين لانحصارهم فيهما وقيل إلى المتقين خاصة وقيل إلى المجرمين من الكفرة وأهل الإسلام والشفاعة على الأولين مصدر من المبنى للفاعل وعلى الثالث ينبغى أن تكون مصدرا من المبنى للمفعول وقوله تعالى ﴿ إلا من اتخذ عند الرحمن عهدا ﴾

على الأول استثناء متصل من لا يملكون ومحل المستثنى إما الرفع على البدل أو النصب على أصول الاستثناء والمعنى لا يملك العباد أن يشفعوا لغيرهم إلا من استعد له بالتحلى بالإيمان والتقوى أو من أمر بذلك من قولهم عهد الأمير إلى فلان بكذا إذا أمره به فيكون ترغيبا للناس فى تحصيل الإيمان والتقوى المؤدى إلى نيل هذه الرتبة وعلى الثانى استثناء من الشفاعة على حذف المضاف والمستثنى منصوب على البدل أو على أصل الاستثناء أى لا يملك المتقون الشفاعة إلا شفاعة من اتخذ العهد بالإسلام فيكون ترغيبا فى الإسلام وعلى الثالث استثناء من لا يملكون أيضا والمستثنى مرفوع على البدل أو منصوب على الأصل والمعنى لا يملك المجرمون أن يشفع لهم إلا من كان منهم مسلما .

﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولدا ﴾ حكاية لجناية اليهود والنصارى ومن يزعم من العرب أن الملائكة بنات الله سبحانه وتعالى عن ذلك علوا كبيرا إثر حكاية عبدة الأصنام بطريق عطف القصة على القصة وقوله تعالى : ﴿ لقد جئتم شيئاً إدا ﴾ رد لمقالتهم الباطلة وتهويل لأمرها بطريق الالتفات المنبىء عن كمال السخط وشدة الغضب المفصح عن غاية التشنيع والتقبيح وتسجيل عليهم بنهاية الوقاحة والجهل والجراءة والإد بالكسر والفتح العظيم المنكر والأدة الشدة وأدنى الأمر وآدنى أثقلنى وعظم على أى فعلتم أمرا منكرا شديدا لا يقادر قدره فإن جاء وأتى يستعملان فى معنى فعل فيعديان تعديته وقوله تعالى : ﴿ تكاد السموات ﴾ الخ صفة لإدا أو استئناف لبيان عظم شأنه فى الشدة والهول وقرىء يكاد بالتذكير ﴿ يتفطرن منه ﴾ يتشققن مرة بعد أخرى من عظم ذلك الأمر وقرىء ينفطرن والأول أبلغ لأن تفعل مطاوع فعل وانفعل مطاوع فعل ولأن أصل التفعل التكلف .

﴿ وتنشق الأرض ﴾ أى تكاد وتنشق الأرض ﴿ وتخر الجبال ﴾ أى تسقط وتتهدم ، وقوله تعالى ﴿ هدا ﴾ مصدر مؤكد لمحذوف هو حال من الجبال أى تهد هدا أو مصدر من المبنى للمفعول مؤكد لتخر على غير الصدر

لأنه حينئذ بمعنى التهدم والخرور كأنه قيل وتخر الجبال خرورا أو مصدر بمعنى المفعول منصوب على الحالية أى مهدودة أو مفعول له أى لأنها تهد وهذا تقرير لكونه إدا والمعنى أن هول تلك الكلمة الشنعاء وعظمها بحيث لو تصورت بصورة محسوسة لم تطق بها هاتيك الأجرام العظام وتفتتت من شدتها أو أن فظاعتها فى استجلاب الغضب واستيجاب السخط بحيث لولا حلمه تعالى لخرب العالم وبددت قوائمه غضبا على من تفوه بها .

﴿ أن دعوا للرحمن ولدا ﴾ منصوب على حذف اللام المتعلقة بتكاد أو مجرور بإضمارها أى تكاد السموات يتفطرن والأرض تنشق والجبال تخر لأن دعوا له سبحانه ولدا وقيل اللام متعلقة بهدا وقيل الجملة بدل من الضمير المجرور فى منه كما فى قوله :

* على جوده لضن بالماء حاتم *

وقيل خبر مبتدأ محذوف أى الموجب لذلك أن دعوا الخ وقيل فاعل هدا أى هدها دعاء الولد والأول هو الأولى ودعوا من دعا بمعنى سمى المتعدى إلى مفعولين وقد اقتصر على ثانيهما ليتناول كل ما دعى له ولدا أو من دعا بمعنى نسب الذى مطاوعه ادعى إلى فلان أى انتسب إليه وقوله تعالى : ﴿ وما ينبغى للرحمن أن يتخذ ولدا ﴾ حال من فاعل قالوا أودعوا مقررة لبطلان مقالتهم واستحالة تحقق مضمونها أى قالوا اتخذ الرحمن ولدا أو أن دعوا للرحمن ولدا والحال أنه ما يليق به تعالى اتخاذ الولد ولا يتطلب له لو طلب مثلا لاستحالته فى نفسه ووضع الرحمن موضع الضمير للإشعار بعلة الحكم بالتنبيه على أن كل ماسواه تعالى إما نعمة أو منعم عليه فكيف يتسنى أن يجانس من هو مبدأ النعم ومولى أصولها وفروعها حتى يتوهم أن يتخذه ولدا وقد صرح له قوم به عز قائلا ﴿ إن كل من فى السموات والأرض ﴾ أى ما منهم أحد من الملائكة والثقلين .

﴿ إلا آتى الرحمن عبدا ﴾ إلا وهو مملوك له يأوى إليه بالعبودية والانقياد وقرىء آت الرحمن على الأصل ﴿ لقد أحصاهم ﴾ أى حصرهم وأحاط بهم بحيث لا يكاد يخرج منهم أحد من حيطة علمه وقبضة قدرته وملكوته ﴿ وعدهم عدا ﴾ أى عد أشخاصهم وأنفاسهم وأفعالهم وكل شىء عنده بمقدار ﴿ وكلهم آتيه يوم القيامة فردا ﴾ أى كل واحد منهم آت إياه تعالى منفردا من الأتباع والأنصار وفى صيغة الفاعل من الدلالة على إتيانهم كذلك البتة ما ليس فى صيغة المضارع لو قيل يأتيه فإذا كان شأنه تعالى وشأنهم كما ذكر فأنى يتوهم احتمال أن يتخذ شيئاً منهم ولدا .

﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ لما فصلت قبائح أحوال الكفرة عقب ذلك بذكر محاسن أحوال المؤمنين ﴿ سيجعل لهم الرحمن ودا ﴾ أى سيحدث لهم فى القلوب مودة من غير تعرض منهم لأسبابها سوى ما لهم من الإيمان والعمل الصالح والتعرض لعنوان الرحمانية لما أن الموعود من آثارها وعن النبى عليه الصلاة والسلام إذا أحب الله عبدا يقول لجبريل عليه السلام إنى أحب فلانا فأحبه فيحبه جبريل ثم ينادى فى أهل السماء إن الله أحب فلانا فأحبوه فيحبه أهل السماء ثم يوضع له المحبة فى الأرض والسين لأن السورة مكية وكانوا إذ ذاك ممقوتين بين الكفرة فوعدهم ذلك ثم أنجزه حين ربا الإسلام أو لأن الموعود فى القيامة حين تعرض حسناتهم على رؤس الأشهاد فينزع ما فى صدورهم من الغل الذى كان فى الدنيا ولعل إفراد هذا بالوعد من بين ما سيؤتون يوم القيامة من الكرامات السنية لما أن الكفرة سيقع بينهم يومئذ تباغض وتضاد وتقاطع وتلاعن ﴿ فإنما يسرناه ﴾ أى القرآن ﴿ بلسانك ﴾ بأن أنزلناه على لغتك والباء بمعنى على وقيل ضمن التيسير معنى الإنزال أى يسرنا القرآن منزلين له بلغتك والفاء لتعليل أمر ينساق إليه النظم الكريم كأنه قيل بعد إيحاء السورة الكريمة بلغ هذا المنزل أو بشر به وأنذر فإنما يسرناه بلسانك العربى المبين .

﴿ لتبشر به المتقين ﴾ أى الصائرين إلى التقوى بامتثال ما فيه من الأمر والنهى ﴿ وتنذر به قوما لدا ﴾ لايؤمنون به لجاجا وعنادا واللد جمع الألدوهو الشديد الخصومة اللجوج المعاند وقوله تعالى ﴿ وكم أهلكنا قبلهم من قرن ﴾ وعدلرسول الله صلى الله عليه وسلم فى ضمن وعيد الكفرة بالإهلاك وحث له عليه الصلاة والسلام على الإنذار أى قرنا كثيرا أهلكنا قبل هؤلاء المعاندين وقوله تعالى ﴿ هل تحس منهم من أحد ﴾ استئناف مقرر لمضمون ما قبله أى هل تشعر بأحد منهم وترى ﴿ أو تسمع لهم ركزا ﴾ أى صوتا خفيا وأصل الركز هو الخفاء ومنه ركز الرمح إذا غيب طرفه فى الأرض والركاز المال المدفون المخفى والمعنى أهلكناهم بالكلية واستأصلناهم بحيث لا يرى منهم أحد ولا يسمع منهم صوت خفى . عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة مريم أعطى عشر حسنات بعدد من كذب زكريا وصدق به ويحيى وعيسى وسائر الأنبياء المذكورين فيها وبعدد من دعا الله تعالى فى الدنيا ومن لم يدع الله تعالى .

* * *

سورة طه

(مكية وهى مائة وخمس وثلاثون آية)

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

﴿طه﴾ فخمهما قالون وابن كثير وابن عامر وحفص ويعقوب على الأصل والطاء وحده أبو عمرو وورش لاستعلائه وأمالهما الباقون وهو من الفواتح التى يصدر بها السور الكريمة وعليه جمهور المتقنين وقيل معناه يارجل وهو مروى عن ابن عباس رضى الله عنه الحسن ومجاهد وسعيد بن جبير وقتادة وعكرمة والكلبى إلا أنه عند سعيد على اللغة النبطية وعند قتادة على السريانية وعند عكرمة على الحبشية وعند الكلبى على لغة عك وقيل عكل وهى لغة يمانية قالوا إن صح فلعل أصله يا هذا فتصرفوا فيه بقلب الياء طاء وحذف ذا من هذا وما استشهد به من قول الشاعر :

إن السفاهة طه فى خلائقكم لا قدس الله أخلاق الملاعين

ليس بنص فى ذلك لجواز كونه قسما كما فى حم لا ينصرون وقد جوز أن يكون الأصل طأها بصيغة الأمر من الوطء فقلبت الهمزة فى يطأ ألفا لانفتاح ما قبلها كما فى قول من قال لا هناك المرتع وها ضمير الأرض على أنه خطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يطأ الأرض بقدميه لما كان يقوم فى تهجده على إحدى رجليه مبالغة فى المجاهدة ولكن يأباه كتابتهما على صورة الحرف كما تأبى التفسير بيارجل فإن الكتابة على صورة الحرف مع كون التلفظ بخلافه من خصائص حروف المعجم وقرىء طه إما على أن أصله طأ فقلبت همزته هاء كما فى أمثال هرقت أو قلبت الهمزة فى يطأ ألفا كما مر ثم بنى منه الأمر وألحق به هاء السكت وإما على أنه اكتفى فى التلفظ بشطرى الاسمين وأقيما مقامهما فى الدلالة على المسميين فكأنهما اسماهما الدالان عليهما وعلى هذا ينبغى أن يحمل قول من قال أو اكتفى بشطرى الكلمتين وعبر عنهما باسمهما

وإلا فالشطران لم يذكرا من حيث أنهما مسميان لاسميهما ليقعا معبرا عنهما بل من حيث أنهما جزءان لهما قد اكتفى بذكرهما عن ذكرهما ولذلك وقع التلفظ بأنفسهما لا باسميهما بأن يراد بضمير التثنية فى الموضعين الشطران من حيث هما جزآن للاسمين ويراد باسميهما الشطاران من حيث هما قائمان مقام الاسمين فالمعنى اكتفى فى التلفظ بشطرى الكلمتين أى الاسمين فعبر عنهما أى عن الشطرين من حيث هما مسميان بهما من حيث هما قائمان مقام الاسمين وأما حمله على معنى أنه اكتفى فى الكتابة بشطرى الكلمتين يعنى طا على تقديرى كونه أمرا وكونه حرف نداء وها على تقديرى كونها كناية عن الأرض وكونها حرف تنبيه وعدل عن ذينك الشطرين فى التلفظ باسميهما تبين البطلان كيف وطا وها على ما ذكر من التقادير ليسا بإسمين للحرفين المذكورين بل الأول أمر أو حرف نداء والثانى ضمير الأرض أو حرف تنبيه على أن كتابة صورة الحرف والتلفظ بغيره من خواص حروف المعجم كما مر فالحق ما سلف من أنها من الفواتح إما مسرودة على نمط التعديد بأحد الوجهين المذكورين فى مطلع سورة البقرة فلا محل لها من الإعراب وكذا ما بعدها من قوله تعالى :

﴿ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى﴾ فإنه استئناف مسوق لتسليته عليه الصلاة والسلام عما كان يعتريه من جهة المشركين من التعب فإن الشقاء شائع فى ذلك المعنى ومنه أشقى من رائض مهر أى ما أنزلناه عليك لتتعب بالمبالغة فى مكابدة الشدائد فى مقاولة العتاة ومحاورة الطغاة وفرط التأسف على كفرهم به والتحسر[1] على أن يؤمنوا كقوله عز وجل (فلعلك باخع نفسك على آثارهم) الآية بل للتبليغ والتذكير وقد فعلت فلا عليك إن لم يؤمنوا به بعد ذلك أو لصرفه عليه الصلاة والسلام عما كان عليه من المبالغة فى المجاهدة فى العبادة كما يروى أنه عليه الصلاة والسلام كان يقوم بالليل حتى ترم قدماه فقال له جبريل عليه السلام أبق على نفسك فإن لها عليك حقاً أى ما أنزلناه عليك لتتعب بنهك نفسك وحملها على

(١) فى ٤٣٠ التحسير .

الرياضات الشاقة والشدائد الفادحة وما بعثت إلا بالحنيفية السمحة وقيل إن أبا جهل والنضر بن الحرث قالا لرسول الله صلى الله عليه وسلم إنك شقى حيث تركت دين آبائك وأن القرآن نزل عليك لتشقى به فرد ذلك بأنا ماأنزلناه عليك لما قالوا والأول هو الأنسب كما يشهد به الاستثناء الآتى.

هذا وإما اسم للقرآن محله الرفع على أنه مبتدأ وما بعده خبره والقرآن ظاهر أوقع موقع العائد إلى المبتدأ كأنه قيل القرآن ما أنزلناه عليك لتشقى أو النصب على إضمار فعل القسم أو الجر بتقدير حرفه وما بعده جوابه وعلى هذين الوجهين يجوز أن يكون اسما للسورة أيضا بخلاف الوجه الأول فإنه لا يتسنى على ذلك التقدير لكن لا لأن المبتدأ يبقى حينئذ بلا عائد ولاقائم مقامه فإن القرآن صادق على الصورة لا محالة إما بطريق الاتحاد بأن يرادبه القدر المشترك بين الكل والبعض أو باعتبار الاندراج إن أريد به الكل بل لأن نفى كون إنزاله للشقاء يستدعى سبق وقوع الشقاء مترتبا على إنزاله قطعاً إمابحسب الحقيقة كما لو أريد به معنى التعب أو بحسب زعم الكفرة كما لو أريد به ضد السعادة ولا ريب فى أن ذلك إنما يتصور فى إنزال ما أنزل من قبل وأما إنزال السورة الكريمة فليس مما يمكن ترتب الشقاء السابق عليه حتى يتصدى لنفيه عنه أما باعتبار الاتحاد فظاهر وأما باعتبار الاندراج فلأن مآله أن يقال هذه السورة ما أنزلنا القرآن المشتمل عليها لتشقى ولا يخفى أن جعلها مخبرا عنها مع أنه لا دخل لإنزالها فى الشقاء السابق أصلا ممالايليق بشأن التنزيل الجليل وقوله تعالى ﴿ إلا تذكرة ﴾ نصب على أنه مفعول له لأنزلنا لكن لا من حيث أنه معلل بالشقاء على معنى ما أنزلنا عليك القرآن لتتعب بتبليغه إلا تذكرة الآية كقولك ما ضربتك للتأديب إلا إشفاقا لماأنه يجب فى أمثاله أن يكون بين العلتين ملابسة بالسببية والمسببية حتما كما فى المثال المذكور وفى قولك ماشافهتك بالسوء لتتأذى إلا زجراً لغيرك فإن التأديب فى الأول مسبب عن الإشفاق والتأذى فى الثانى سبب لزجر الغير وقد عرفت ما بين الشقاء والتذكرة من التنافى ولايجدى أن يراد به التعب فى الجملة المجامع للتذكرة لظهور أن لا ملابسة بينهما بما ذكر

من السببية والمسببية وإنما يتصور ذلك أن لو قيل مكان إلا تذكرة إلا تكثيرا لثوابك فإن الأجر بقدر التعب ولا من حيث أنه بدل من محل لتشقى كما فى قوله تعالى (ما فعلوه إلا قليل) لوجوب المجانسة بين البدلين وقد عرفت حال المقابل من من حيث أنه معطوف عليه بحسب المعنى بعد نفيه بطريق الاستدراك المستفاد من الاستثناء المنقطع كأنه قيل ما أنزلنا عليك القرآن لتتعب فى تبليغه ولكن تذكرة ﴿ لمن يخشى ﴾ وقد جرد التذكرة عن اللام لكونها فعلا لفاعل الفعل المعلل أى لمن شأنه أن يخشى الله عز وعلا ويتأثر بالإنذار لرقة قلبه ولين عريكته أو لمن علم الله تعالى أنه يخشى بالتخويف وتخصيصها بهم مع عموم التذكرة والتبليغ لأنهم المنتفعون بها وقوله تعالى .

﴿ تنزيلا ﴾ مصدر مؤكد لمضمر مستأنف مقرر لما قبله أى نزل تنزيلا أو لما تفيده الجملة الاستثنائية فإنها متضمنة لأن يقال أنزلناه للتذكرة والأول هو الأنسب بما بعده من الالتفات أو منصوب على المدح والاختصاص وقيل هو منصوب بيخشى على المفعولية أى يخشى تنزيلا من الله تعالى وأنت خبير بأن تعليق الخشية والخوف ونظائرهما بمطلق التنزيل غير معهود نعم قد يعلق ذلك ببعض أجزائه المشتملة على الوعيد ونظائره كما فى قوله تعالى (يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما فى قلوبهم) وقيل هو بدل من تذكرة لكن لا على أنه مفعول له لأنزلنا إذ لا يعلل الشىء بنفسه ولا بنوعه بل على أنه مصدر بمعنى الفاعل واقع موقع الحال من الكاف فى عليك أو من القرآن ولا مساغ له إلا بأن يكون قيدا لأنزلنا بعد تقيده بالقيد الأول وقد عرفت حاله فيما سلف وقرىء تنزيل على أنه خبر لمبتدأ محذوف ومن فى قوله تعالى ﴿ ممن خلق الأرض والسموات العلى ﴾ متعلقة بتنزيلا أو بمضمر هو صفة له مؤكدة لما فى تنكيره من الفخامة الذاتية بالفخامة الإضافية ونسبة التنزيل إلى الموصول بطريق الالتفات إلى الغيبة بعد نسبته إلى نون العظمة لبيان فخامته تعالى بحسب الصفات[1]

---

(١) فى ١٠ : بالعكس

والأفعال إثر بيانها بحسب الذات بطريق الإبهام ثم التفسير لزيادة تحقيق وتقرير وتخصيص خلقهما بالذكر مع أن المراد خلقهما بجميع ما يتعلق بهما كما يفصح عنه قوله تعالى (له ما فى السموات وما فى الأرض) الآية لأصالتهما واستتباعهما لما عداهما وتقديم الأرض لكونه أقرب إلى الحس وأظهر عنده ووصف السموات بالعلا وهو جمع العليا تأنيث الأعلى لتأكيد الفخامة مع ما فيه من مراعاة الفواصل وكل ذلك إلى قوله تعالى (له الأسماء الحسنى) مسوق لتعظيم شأن المنزل عز وجل المستتبع لتعظيم شأن المنزل الداعى إلى تربية المهابة وإدخال الروعة المؤدية إلى استنزال المتمردين عن رتبة العتو والطغيان واستمالتهم نحو الخشية المفضية إلى التذكرة والإيمان .

﴿ الرحمن ﴾ رفع على المدح أى هو الرحمن وقد عرفت فى صدر سورة البقرة أن المرفوع مدحا فى حكم الصفة الجارية على ما قبله وإن لم يكن تابعاً له فى الإعراب ولذلك التزموا حذف المبتدأ ليكون فى صورة متعلق من متعلقاته وقد قرىء بالجر على أنه صفة صريحة للموصول وما قيل من أن الأسماء الناقصة لا يوصف منها إلا الذى وحده مذهب الكوفيين وأياً ما كان فوصفه بالرحمانية إثر وصفه بخالقية السموات والأرض للإشعار بأن خلقهما من آثار رحمته تعالى كما أن قوله تعالى (رب السموات والأرض وما بينهما الرحمن) للإيذان بأن ربوبيته تعالى بطريق الرحمة وفيه إشارة إلى أن تنزيل القرآن أيضاً من أحكام رحمته تعالى كما ينبىء عنه قوله تعالى (الرحمن علم القرآن) أو رفع على الابتداء واللام للعهد والإشارة إلى الموصول والخبر قوله تعالى ﴿ على العرش استوى ﴾ وجعل الرحمة عنوان الموضوع الذى شأنه أن يكون معلوم الثبوت للموضوع عند المخاطب للإيذان بأن ذلك أمر بين لا سترة به غنى عن الإخبار به صريحا وعلى متعلقة باستوى قدمت عليه لمراعاة الفواصل والجار والمجرور على الأول خبر مبتدأ محذوف كما فى قراءة الجر وقد جوز أن يكون خبرا بعد خبر والاستواء على العرش مجاز عن الملك والسلطان متفرع على الكناية فيمن يجوز عليه القعود على السرير يقال استوى فلان على سرير الملك يراد به ملك وإن لم

يقعد على السرير أصلا والمراد بيان تعلق إرادته الشريفة بإيجاد الكائنات وتدبير أمرها وقوله تعالى ﴿ له ما فى السموات وما فى الأرض ﴾ سواء كان ذلك بالجزئية منهما أو بالحلول فيهما ﴿ وما بينهما ﴾ من الموجودات الكائنة فى الجو دائما كالهواء والسحاب أو أكثريا كالطير أى له وحده دون غيره لا شركة ولا استقلالا كل ما ذكر ملكا وتصرفا وإحياء وإماتة وإيجادا وإعداما ﴿ وما تحت الثرى ﴾ أى ما وراء التراب وذكره مع دخوله تحت ما فى الأرض لزيادة التقرير روى عن محمد بن كعب أنه ما تحت الأرضين السبع وعن السدى أن الثرى هو الصخرة التى عليها الأرض السابعة .

﴿ وإن تجهر بالقول ﴾ بيان لإحاطة علمه تعالى بجميع الأشياء إثر بيان سعة سلطنته وشمول قدرته لجميع الكائنات أى وإن تجهر بذكره تعالى ودعائه فاعلم أنه تعالى غنى عن جهرك ﴿ فإنه يعلم السر وأخفى ﴾ أى ما أسررته إلى غيرك وشيئاً أخفى من ذلك وهو ما أخطرته ببالك من غير أن تتفوه به أصلا أو ما أسررته لنفسك وأخفى منه وهو ما ستسره فيما سيأتى وتنكيره للمبالغة فى الخفاء وهذا إما نهى عن الجهر كقوله تعالى (واذكر ربك فى نفسك تضرعا وخيفة ودون الجهر من القول) وإما ارشاد للعباد إلى أن الجهر ليس لإسماعه سبحانه بل لغرض آخر من تصوير النفس بالذكر وتثبيته فيها ومنعها من الاشتغال بغيره وقطع الوسوسة عنها وهضمها بالتضرع والجؤار وقوله تعالى ﴿ الله ﴾ خبر مبتدأ محذوف والجلة استئناف مسوق لبيان أن ما ذكر من صفات الكمال موصوفها ذلك المعبود بالحق أى ذلك المنعوت بما ذكر من النعوت الجليلة الله عز وجل وقوله تعالى ﴿ لا إله إلا هو ﴾ تحقيق للحق وتصريح بما تضمنه ما قبله من اختصاص الألوهية به سبحانه فإن ما أسند إليه تعالى من خلق جميع الموجودات والرحمانية والمالكية للكل والعلم الشامل مما يقتضيه اقتضاء بينا وقوله تعالى ﴿ له الأسماء الحسنى ﴾ بيان لكون ما ذكر من الخالقية والرحمانية والمالكية والعالمية أسماءه وصفاته من غير تعدد فى ذاته تعالى فإنه روى أن المشركين حين سمعوا النبى عليه الصلاة والسلام يقول يا الله يارحمن

قالوا ينهانا أن نعبد إلهين وهو يدعو إلها آخر والحسنى تأنيث الأحسن يوصف به الواحدة المؤنثة والجمع من المذكر والمؤنث كمآرب أخرى وآياتنا الكبرى .

موسى والشجرة

﴿ وهل أتاك حديث موسى ﴾ استئناف مسوق لتقرير أمر التوحيد الذى إليه انتهى مساق الحديث وبيان أنه أمر مستمر فيما بين الأنبياء كابرا عن كابر وقد خوطب به موسى عليه الصلاة والسلام حيث قيل له (إننى أنا الله لا إله إلا أنا) وبه ختم عليه الصلاة والسلام مقاله حيث قال (إنما إلهكم الله الذى لا إله إلا هو) وأما ما قيل من أن ذلك لترغيب النبى عليه الصلاة والسلام فى الائتساء بموسى عليه الصلاة والسلام فى تحمل أعباء النبوة والصبر على مقاساة الخطوب فى تبليغ أحكام الرسالة فيأباه أن مساق النظم الكريم لصرفه عليه الصلاة والسلام عن اقتحام المشاق وقوله تعالى : ﴿ إذ رأى نارا ﴾ ظرف للحديث وقيل لمضمر مؤخر أى حين رأى نارا كان كيت وكيت وقيل مفعول لمضمر مقدم أى اذكر وقت رؤيته نارا روى أنه عليه الصلاة والسلام استأذن شعيبا عليهما الصلاة والسلام فى الخروج إلى أمه وأخيه فخرج بأهله وأخذ على غير الطريق مخافة من ملوك الشام فلما وافى وادى طوى وهو الجانب الغربى من الطور ولد له ولد فى ليلة مظلمة شاتية مثلجة وكانت ليلة الجمعة وقد ضل الطريق وتفرقت ماشيته ولا ماء عنده وقدح فصلد زنده فبينما هو فى ذلك إذ رأى نارا على يسار الطريق من جانب الطور ﴿فقال لأهله امكثوا﴾ أى أقيموا مكانكم أمرهم عليه الصلاة والسلام بذلك لئلا يتبعوه فيما عزم عليه عليه الصلاة والسلام من الذهاب إلى النار كما هو المعتاد لا لئلا ينتقلوا إلى موضع آخر فإنه مما لا يخطر بالبال والخطاب للمرأة والولد والخادم وقيل لها وحدها والجمع إما لظاهر لفظ الأهل أو للتفخيم كما فى قول من قال :

* وإن شئت حرمت النساء سواكم *

﴿ إنى آنست نارا ﴾ أى أبصرتها إبصارا بينتا لاشبهة فيه وقيل الإيناس خاص بإبصار ما يؤنس به والجملة تعليل للأمر أو المأمور به ﴿لعلى آتيكم منها﴾ أى أجيئكم من النار ﴿ بقبس ﴾ أى بشعلة مقتبسة من معظم النار وهى المرادة بالجذوة فى سورة القصص وبالشهاب القبس ﴿ أو أجد على النار هدى ﴾ هاديا يدلنى على الطريق على أنه مصدر سمى به الفاعل مبالغة أوحذف منه المضاف أى ذا هداية أو على أنه إذا وجد الهادى فقد وجد الهدى وقيل هاديا يهدينى إلى أبواب الدين فإن أفكار الأبرار معمورة بالهمة الدينية فى عامة أحوالهم لا يشغلهم عنها شاغل والأول هو الأظهر لأن مساق النظم الكريم لتسلية أهله وقد نص عليه فى سورة القصص حيث قيل (لعلى آتيكم منها بخبر أو جذوة) الآية وكلمة أو فى الموضعين لمنع الخلو دون منع الجمع ومعنى الاستعلاء فى قوله تعالى على النار أن أهل النار يستعلون المكان القريب منها أو لأنهم عند الاصطلاء يكتنفونها قياما وقعودا فيشرفون عليها ولما كان الإتيان بهما مترقبا غير محقق الوقوع صدر الجملة بكلمة الترجى وهى إما علة لفعل قد حذف ثقة بما يدل عليه من الأمر بالمكث والإخبار بإيناس النار وتفاديا عن التصريح بما يوحشهم وإما حال من فاعله أى فأذهب إليها لآتيكم أو كى آتيكم أو راجيا أن آتيكم منها بقبس الآية وقد مر تحقيق ذلك مفصلا فى تفسير قوله تعالى: (يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون).

﴿ فلما أتاها ﴾ أى النار التى آنسها قال بن عباس رضى الله عنه رأى شجرة خضراء أطافت بها من أسفلها إلى أعلاها نار بيضاء تتقد كأضوأ ما يكون فوقف متعجبا من شدة ضوئها وشدة خضرة الشجرة فلا النار تغير خضرتها ولا كثرة ماء الشجرة تغير ضوءها . قالوا النار أربعة أصناف صنف يأكل ولا يشرب وهى نار الدنيا وصنف يشرب ولا يأكل وهى نار الشجر الأخضر وصنف يأكل ويشرب وهى نار جهنم وصنف لا يأكل ولا يشرب وهى نار موسى عليه الصلاة والسلام وقالوا هى أربعة أنواع نوع له نور وإحراق وهى

نار الدنيا ونوع لانور له ولا إحراق وهى نار الأشجار ونوع له نور بلا إحراق وهى نار موسى عليه الصلاة والسلام ونوع له إحراق بلا نور وهى نار جهنم روى أن الشجرة كانت عوسجة وقيل كانت سمرة ﴿ نودى ياموسى ﴾ أى نودى فقيل ياموسى ﴿ إنى أنا ربك ﴾ أو عومل النداء معاملة القول لكونه ضربا منه وقرىء بالفتح أى بأنى وتكرير الضمير لتأكيد الدليل وتحقيق المعرفة وإماطة الشبهة روى أنه لما نودى ياموسى قال عليه الصلاة والسلام من المتكلم فقال الله عز وجل أنا ربك فوسوس إليه إبليس لعلك تسمع كلام شيطان فقال أنا عرفت أنه كلام الله تعالى بأنى أسمعه من جميع الجهات بجميع الأعضاء قلت وذلك لأن سماع ما ليس من شأنه ذلك من الأعضاء ليس إلا من آثار الخلاق العليم تعالى وتقدس وقيل تلقى عليه الصلاة والسلام كلام رب العزة تلقيا روحانيا ثم تمثل ذلك الكلام لبدنه وانتقل إلى الحس المشترك فانتقش به من غير اختصاص بعضو وجهة ﴿ فاخلع نعليك ﴾ أمر عليه الصلاة والسلام بذلك لأن الحفوة أدخل فى التواضع وحسن الأدب ولذلك كان السلف الصالحون يطوفون بالكعبة حافين وقيل ليباشر الوادى بقدميه تبركا به وقيل لما أن نعليه كان من جلد حمار غير مدبوغ وقيل معناه فرغ قلبك من الأهل والمال والفاء لترتيب الأمر على ما قبلها فإن ربوبيته تعالى له عليه الصلاة والسلام من موجبات الأمر ودواعيه وقوله تعالى ﴿ إنك بالواد المقدس ﴾ تعليل لوجوب الخلع المأمور به وبيان لسبب ورود الأمر بذلك من شرف البقعة وقدسها روى أنه عليه الصلاة والسلام خلعهما وألقاهما وراء الوادى ﴿ طوى ﴾ بضم الطاء غير منون وقرىء منونا وقرىء بالكسر منونا وغير منون فمن نونه أوله بالمكان دون البقعة وقيل هو كثنى الطى مصدر لنودى أو المقدس أى نودى نداءين أو قدس مرة بعد أخرى ﴿ وأنا اخترتك ﴾ أى اصطفيتك للنبوة والرسالة وقرىء وأنا اخترناك بالفتح والكسرة والفاء فى قوله ﴿ فاستمع ﴾ لترتيب الأمر أو المأمور به على ما قبلها فإن اختياره عليه السلام لما ذكر من موجبات الاستماع والأمر به واللام فى قوله تعالى ﴿ لما يوحى ﴾ متعلقة

باستمع وما موصولة أو مصدرية أى فاستمع الذى يوحى إليك أو الوحى لا باخترتك كما قيل لكن لا لما قيل من أنه من باب التنازع وإعمال الأول فلا بد حينئذ من إعادة الضمير مع الثانى بل لأن قوله تعالى ﴿ إننى أنا الله لا إله إلا أنا ﴾ بدل من ما يوحى ولا ريب فى أن اختياره عليه الصلاة والسلام ليس لهذا الوحى فقط والفاء فى قوله تعالى ﴿ فاعبدنى ﴾ لترتيب المأمور به على ما قبلها فإن اختصاص الألوهية به سبحانه وتعالى من موجبات تخصيص العبادة به عز وجل ﴿ وأقم الصلوة ﴾ خصت الصلاة بالذكر وأفردت بالأمر مع اندراجها فى الأمر بالعبادة لفضلها وإنافتها على سائر العبادات بما نيطت به من ذكر المعبود وشغل القلب واللسان بذكره وذلك قوله تعالى ﴿ لذكرى ﴾ أى لتذكرنى فإن ذكرى كما ينبغى لا يتحقق إلا فى ضمن العبادة والصلاة أو لتذكرنى فيها لاشتمالها على الأذكار أو لذكرى خاصة لا تشوبه بذكر غيرى أو لإخلاص ذكرى وابتغاء وجهى لا ترائى بها ولا تقصد بها غرضا آخر أو لتكون ذاكراً لى غير ناس وقيل لذكرى إياها وأمرى بها فى الكتب أو لأن أذكرك بالمدح والثناء وقيل لأوقات ذكرى وهى مواقيت الصلاة أو لذكر صلاتى لما روى أنه عليه الصلاة والسلام قال من نام عن صلاة أو نسيها فليصلها إذا ذكرها لأن الله تعالى يقول (وأقم الصلاة لذكرى) ، وقرىء لذكرى بألف التأنيث وللذكرى معرفا وللذكر بالتعريف والتنكير وقوله تعالى :

﴿ إن الساعة آتية ﴾ تعليل لوجوب العبادة وإقامة الصلاة أى كائنة لا محالة وإنما عبر عن ذلك بالإتيان تحقيقا لحصولها بإبرازها فى معرض أمر محقق متوجه نحو المخاطبين ﴿ أكاد أخفيها ﴾ أى لا أظهرها بأن أقول إنها آتية ولولا أن ما فى الإخبار بذلك من اللطف وقطع الأعذار لما فعلت أو أكاد أظهرها بإيقاعها من أخفاه إذا أظهره بسلب خفائه ويؤيده القراءة بفتح الهمزة من خفاه بمعنى أظهره وقيل أخفاه من الأضداد يجىء بمعنى الإظهار والستر وقوله تعالى ﴿ لتجزى كل نفس بما تسعى ﴾ متعلق بآتية وما بينهما اعتراض أو بأخفيها

على المعنى الأخير وما مصدرية أى لتجزى كل نفس بسعيها فى تحصيل ما ذكر من الأمور المأمور بها وتخصيصه فى معرض الغاية لإتيانها مع أنه لجزاء كل نفس بما صدر عنها سواء كان سعيا فيما ذكر أو تقاعدا عنه بالمرة أو سعيا فى تحصيل ما يضاده للإيذان بأن المراد بالذات من إتيانها هو الإثابة بالعبادة وأما العقاب بتركها فمن مقتضيات سوء اختيار العصاة وبأن المأمور به فى قوة الوجوب والساعة فى شدة الهول والفظاعة بحيث يوجبان على كل نفس أن تسعى فى الامتثال بالأمر وتجد فى تحصيل ما ينجيها من الطاعات وحينئذ تحترز عن اقتراف ما يرديها من المعاصى وعليه مدار الأمر فى قوله تعالى (وهو الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام وكان عرشه على الماء ليبلوكم أيكم أحسن عملا) فإن الابتلاء مع شموله لكافة المكلفين باعتبار أعمالهم المنقسمة إلى الحسن والقبيح أيضا لا إلى الحسن والأحسن فقط قد علق بالأخيرين لما ذكر من أن المقصود الأصلى من إبداع تلك البدائع على ذلك النمط الرائع إنما هو ظهور كمال إحسان المحسنين وأن ذلك لكونه على أتم الوجوه الرائقة وأكمل الأنحاء اللائقة يوجب العمل بموجبه بحيث لا يحيد أحد عن سننه المستبين بل يهتدى كل فرد إلى ما يرشد إليه من مطلق الإيمان والطاعة وإنما التفاوت بينهم فى مراتبهما بحسب القوة والضعف وأما الإعراض عن ذلك والوقوع فى مهاوى الضلال فبمعزل من الوقوع فضلا عن أن ينتظم فى سلك الغاية لذلك الصنع البديع وإنما هو عمل يصدر عن عامله بسوء اختياره من غير مصحح له أو مسوغ هذا ويجوز أن يراد بالسعى مطلق العمل .

﴿ فلا يصدنك عنها ﴾ أى عن ذكر الساعة ومراقبتها وقيل عن تصديقها والأول هو الأليق بشأن موسى عليه الصلاة والسلام وإن كان النهى بطريق التهييج والإلهاب وتقديم الجار والمجرور على قوله تعالى ﴿ من لا يؤمن بها ﴾ لما مر مراراً من الاهتمام بالمقدم والتشويق إلى المؤخر فإن ما حقه التقديم إذا أخر تبقى النفس مستشرفة له فيتمكن عند وروده لها فضل تمكن ولأن فى المؤخر نوع طول ربما يخل تقديمه بجزالة النظم الكريم وهذا وإن كان بحسب الظاهر

نهيا للكافر عن صد موسى عليه الصلاة والسلام عن الساعة لكنه فى الحقيقة نهى له عليه الصلاة والسلام عن الانصداد عنها على أبلغ وجه وآكده فإن النهى عن أسباب الشىء ومباديه المؤدية إليه نهى عنه بالطريق البرهانى وإبطال للسببية من أصلها كما فى قوله تعالى (ولا يجرمنكم) الخ فإن صد الكافر حيث كان سببا لانصداده عليه الصلاة والسلام كان النهى عنه نهيا بأصله وموجبه وإبطالا له بالكلية ويجوز أن يكون من باب النهى عن المسبب وإرادة النهى عن السبب على أن يراد نهيه عليه الصلاة والسلام عن إظهار لين الجانب للكفرة فإن ذلك سبب لصدهم إياه عليه الصلاة والسلام كما فى قوله لا أرينك ههنا فإن المراد به نهى المخاطب عن الحضور لديه الموجب لرؤيته ﴿ واتبع هواه ﴾ أى ما تهواه نفسه من اللذات الحسية الفانية ﴿ فتردى ﴾ أى فتهلك فإن الإغفال عنها وعن تحصيل ما ينجى عن أهوالها مستتبع للهلاك لا محالة وهو فى محل النصب على جواب النهى أو فى محل الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف أى فأنت تردى .

﴿ وما تلك بيمينك ياموسى ﴾ شروع فى حكاية ما كلف به عليه الصلاة والسلام من الأمور المتعلقة بالخلق إثر حكاية ما أمر به من الشؤون الخاصة بنفسه فما استفهامية فى حيز الرفع بالابتداء وتلك خبره أو بالعكس وهو أدخل بحسب المعنى وأوفق بالجواب وبيمينك متعلق بمضمر وقع حالا أى وما تلك قارة أو مأخوذة[1] بيمينك والعامل معنى الإشارة كما فى قوله عز وعلا (وهذا بعلى شيخا) وقيل تلك موصولة أى ما التى هى بيمينك وأياً ما كان فالاستفهام إيقاظ وتنبيه له عليه الصلام والسلام على ما سيبدو له من التعاجيب وتكرير النداء لزيادة التأنيس والتنبيه ﴿ قال هى عصاى ﴾ نسبها إلى نفسه تحقيقا لوجه كونها بيمينه وتمهيدا لما يعقبه من الأفاعيل المنسوبة إليه عليه الصلاة والسلام وقرىء عصى على لغة هذيل ﴿ أتوكأ عليها ﴾ أى أعتمد عليها عند الإعياء أو الوقوف على رأس القطيع ﴿ وأهش بها ﴾ أى أخبط بها الورق وأسقطه

(١) فى ١٠ القارة أو المأخوذة .

﴿ على غنمى ﴾ وقرىء أهش بكسر الهاء وكلاهما من هش الخبز يهش إذا انكسر لهشاشته وقرىء بالسين غير المعجمة وهو زجر الغنم وتعديته بعلى لتضمين معنى الإنحاء والإقبال أى أزجرها منحيا ومقبلا عليها ﴿ ولى فيها مآرب أخرى ﴾ أى حاجات أخرى من هذا الباب مثل ما روى أنه عليه الصلاة والسلام كان إذا سار ألقاها على عاتقه فعلق بها أدواته من القوس والكنانة والجلاب ونحوها وإذا كان فى البرية ركزها وعرض الزندين على شعبتيها وألقى عليها الكساء واستظل به وإذا قصر الرشاء وصله بها وإذا تعرضت لغنمه السباع قاتل بها قيل ومن جملة المآرب أنها كانت ذات شعبتين ومحجن فإذا طال الغصن حناه بالمحجن وإذا أراد كسره لواه بالشعبتين وكأنه عليه الصلاة والسلام فهم أن المقصود من السؤال بيان حقيقتها وتفصيل منافعها بطريق الاستقصاء حتى إذا ظهرت على خلاف تلك الحقيقة وبدت منها خواص بديعة علم أنها آيات باهرة ومعجزات قاهرة أحدثها الله تعالى وليست من الخواص المترتبة عليها فذكر حقيقتها ومنافعها على التفصيل والإجمال على معنى أنها من جنس العصى مستتبعة لمنافع بنات جنسها ليطابق جوابه الغرض الذى فهمه من سؤال العليم الخبير ﴿ قال ﴾ استئناف مبنى على سؤال ينساق إليه الذهن كأنه قيل فماذا قال عز وجل فقيل قال ﴿ ألقها ياموسى ﴾ لترى من شأنها ما لم يخطر على بالك من الأمور وتكرار النداء لتأكيد التنبيه ﴿ فألقاها ﴾ على الأرض ﴿ فإذا هى حية تسعى ﴾ روى أنه عليه الصلاة والسلام حين ألقاها انقلبت حية صفراء فى غلظ العصا ثم انفتحت وعظمت فلذلك شبهت بالجان تارة وسميت ثعبانا أخرى وعبر عنها هنا بالاسم العام للحالين وقيل قد انقلبت من أول الأمر ثعبانا وهو الأليق بالمقام كما يفصح عنه قوله عز وجل (فإذا هى ثعبان مبين) وإنما شبهت بالجان فى الجلادة وسرعة الحركة لا فى صغر الجثة وقوله تعالى تسعى إما صفة لحية أو خبر ثان عند من يجوز كونه جملة ﴿ قال ﴾ استئناف كما سبق ﴿ خذها ولا تخف ﴾ عن ابن عباس رضى الله عنهما انقلبت ثعبانا ذكرا يبتلع كل شىء من الصخر والشجر فلما رآه كذلك خاف ونفر ومايملك البشر عند مشاهدة الأهوال

والمخاوف من الفزع والنفار وفى عطف النهى على الأمر إشعار بأن عدم المنهى عنه مقصود لذاته لا لتحقيق المأمورية فقط وقوله تعالى ﴿سنعيدها سيرتها الأولى﴾ مع كونه استئنافا مسوقا لتعليل الامتثال بالأمر والنهى فإن إعادتها إلى ما كانت عليه من موجبات أخذها وعدم الخوف منها عدة كريمة بإظهار معجزة أخرى على يده عليه الصلاة والسلام وإيذان بكونها مسخرة له عليه الصلاة والسلام ليكون على طمأنينة من أمره ولا يعتريه شائبة تزلزل عند محاجة فرعون أى سنعيدها بعد الأخذ إلى حالتها الأولى التى هى الهيئة العصوية قيل بلغ عليه الصلاة والسلام عند ذلك من الثقة وعدم الخوف إلى حيث كان يدخل يده فى فمها ويأخذ بلحييها والسيرة فعلة من السير تجوز بها للطريقة والهيئة وانتصابها على نزع الجار أى إلى سيرتها أو على أن أعاد منقول من عاده بمعنى عاد إليه أو على الظرفية أى سنعيدها فى طريقها أو على تقدير فعلها وإيقاعها حالاً من المفعول أى ستعيدها عصا كما كانت من قبل تسير سيرتها الأولى أى سائرة سيرتها الأولى فتنتفع بها كما كنت تنتفع من قبل

﴿واضمم يدك إلى جناحك﴾ أمر عليه الصلاة والسلام بذلك بعدما أخذ الحية وانقلبت عصا كما كانت أى أدخلها تحت عضدك فإن جناحى الإنسان جنباه كما أن جناحى العسكر ناحيتاه مستعار من جناحى الطائر وقد سميا جناحين لأنه يجنحهما أى يميلهما عند الطيران وقوله تعالى ﴿تخرج﴾ جواب الأمر وقوله تعالى ﴿بيضاء﴾ حال من الضمير فيه وقوله تعالى ﴿من غير سوء﴾ متعلق بمحذوف هو حال من الضمير فى بيضاء أى كائنة من غير عيب وقبح كنى به عن البرص كما كنى بالسوأة عن العورة لما أن الطباع تعافه وتنفر منه روى أنه عليه الصلاة والسلام كان آدم فأخرج يده من مدرعته بيضاء لها شعاع كشعاع الشمس تغشى البصر ﴿آية أخرى﴾ أى معجزة أخرى غير العصا وانتصابها على الحالية إما من الضمير تخرج على أنها بدل من الحال الأولى وإما من الضمير فى بيضاء وقيل من الضمير فى الجار والمجرور وقيل هى منصوبة بفعل مضمر نحو خذ أو دونك وقوله تعالى ﴿لنريك من آياتنا الكبرى﴾ متعلق

بمضمر ينساق إليه النظم الكريم كأنه قيل فعلنا ما فعلنا من الأمر والاظهار لنريك بذلك بعض آياتنا الكبرى على أن الكبرى صفة لآياتنا أو نريك بذلك من آياتنا ماهى كبرى على أن الكبرى مفعول ثان لنريك ومن آياتنا متعلق بمحذوف هو حال من ذلك المفعول وأياما كان فالآية الكبرى عبارة عن العصا واليد جميعا وأما تعلقة بما دل علية آيه أى دللنا بها لنريك الخ أو بقوله تعالى واضمم أو بقوله تخرج أو بما قدر من نحو خذ ودونك كما قال بكل من ذلك قائل فيؤدى إلى عراء آية العصا عن وصف الكبر فتدبر ﴿ اذهب إلى فرعون ﴾ تخلص إلى ما هو المقصود من تمهيد المقدمات السالفة فصل عما قبله من الأوامر إيذانا بأصالته أى اذهب إليه بما رأيته من الآيات الكبرى وادعه إلى عبادتى وحذره نقمتى وقوله تعالى ﴿ إنه طغى ﴾ تعليل للأمر أو لوجوب المأمور به أى جاوز الحد فى التكبر والعتو والتجبر حتى تجاسر على العظيمة التى هى دعوى الربوبية ﴿ قال ﴾ استئناف مبنى على سؤال ينساق إليه الذهن كأنه قيل فماذا قال عليه الصلاة والسلام حين أمر بهذا الأمر الخطير والخطب العسير فقيل قال مستعينا بربه عز وجل

﴿ رب اشرح لى صدرى ويسر لى أمرى ﴾ لما أمر بما أمر به من الخطب الجليل تضرع إلى ربه عز وجل وأظهر عجزه بقوله ويضيق صدرى ولا ينطق لسانى وسأله تعالى أن يوسع صدره ويفسح قلبه ويجعله عليما بشؤون الحق وأحوال الخلق حليما حمولا يستقبل ما عسى يرد عليه من الشدائد والمكاره بجميل الصبر وحسن الثبات ويتلقاها بصدر فسيح وجأش رابط وأن يسهل عليه مع ذلك أمره الذى هو أجل الأمور وأعظمها وأصعب الخطوب وأهولها بتوفيق الأسباب ورفع الموانع وفى زيادة كلمة لى مع انتظام الكلام بدونها تأكيد لطلب الشرح والتيسير بإبهام المشروح والميسر أولا وتفسيرهما ثانيا وفى تقديمها وتكريرها إظهار مزيد اعتناء بشأن كل من المطلوبين وفضل اهتمام باستدعاء حصولهما له واختصاصهما به .

﴿ واحلل عقدة من لسانى ﴾ روى أنه كان فى لسانه عليه الصلاة والسلام

رتة من جمرة أدخلها فاه فى صغره وذلك أن فرعون حمله ذات يوم فأخذ لحيته فنتفها لما كان فيها من الجواهر فغضب وأمر بقتله فقالت آسية إنه صبى لا يفرق بين الجمر والياقوت فأحضرا بين يديه فأخذ الجمرة فوضعها فى فيه قيل واحترقت يده فاجتهد فرعون فى علاجها فلم تبرأ ثم لما دعاه قال إلى أى رب تدعونى قال إلى الذى أبرأ يدى وقد عجزت عنه واختلف فى زوال العقدة بكمالها فمن قال به تمسك بقوله تعالى (قد أوتيت سؤلك) ومن لم يقل به احتج بقوله تعالى (هو أفصح منى) وقوله تعالى (ولا يكاد يبين) وأجاب عن الأول بأنه لم يسأل حل عقدة لسانه بالكلية بل حل عقدة تمنع الإفهام ولذلك نكرها ووصفها بقوله (من لسانى) أى عقدة كائنة من عقد لسانى وجعل قوله تعالى ﴿ يفقهوا قولى ﴾ جواب الأمر وغرضا من الدعاء فبحلها فى الجملة يتحقق إيتاء سؤله عليه الصلاة والسلام والحق أن ما ذكر لا يدل على بقائها فى الجملة أما قوله تعالى (هو أفصح منى) فلأنه عليه الصلاة والسلام قاله قبل استدعاء الحل كما ستعرفه على أن أفصحيته منه عليهما الصلاة والسلام لا تستدعى عدم البقاء لما أن الأفصحية توجب ثبوت أصل الفصاحة فى المفضول أيضا وذلك مناف للعقدة رأسا وأما قوله تعالى (ولا يكاد يبين) فمن باب غلو اللعين فى العتو والطغيان وإلا لدل على عدم زوالها أصلا وتنكيرها إنما يفيد قلتها فى نفسها لا قلتها باعتبار كونها بعضا من الكثير وتعلق كلمة من فى قوله تعالى (من لسانى) بمحذوف هو صفة لها ليس بمقطوع به بل الظاهر تعلقها بنفس الفعل فإن المحلول إذا كان متعلقا بشىء ومتصلا به فكما يتعلق الحل به يتعلق بذلك الشىء أيضا باعتبار إزالته عنه أو ابتداء حصوله منه .

﴿ واجعل لى وزيرا من أهلى هرون أخى ﴾ أى موازرا يعاوننى فى تحمل أعباء ما كلفته على أن اشتقاقه من الوزر الذى هو الثقل أو ملجأ اعتصم برأيه على أنه من الوزر وهو الملجأ وقيل أصله أزير من الأزر بمعنى القوة فعيل بمعنى فاعل كالعشير والجليس قلبت همزته ولوا كقلبها فى موازر ونصبه على أنه

مفعول ثان لاجعل قدم على الأول الذى هو قوله تعالى هرون اعتناء بشأن الوزارة ولى صلة للجعل أو متعلق بمحذوف هو حال من وزيرا إذ هو صفة له فى الأصل ومن أهلى إما صفة لوزيرا أو صلة لاجعل وقيل مفعولاه لى وزيرا وهرون عطف بيان للوزير ومن أهلى كما مر من الوجهين وأخى فى الوجهين بدل من هرون أو عطف بيان آخر وقيل هما وزيرا من أهلى ولى تبيين كما فى قوله تعالى (ولم يكن له كفوا أحد) ورد بأن شرط المفعولين فى باب النواسخ صحة انعقاد الجملة الاسمية ولا مساغ لجعل وزيرا مبتدأ ويخبر عنه بما بعده ﴿أشدد به أزرى وأشركه فى أمرى﴾ كلاهما على صيغة الدعاء أى أحكم به قوتى واجعله شريكى فى أمر الرسالة حتى نتعاون على أدائها كما ينبغى وفصل الأول عن الدعاء السابق لكمال الاتصال بينهما فإن شد الأزر عبارة عن جعله وزيرا وأما الإشراك فى الأمر فحيث كان من أحكام الوزارة توسط بينهما العاطف .

﴿كى نسبحك كثيرا ونذكرك كثيرا﴾ غاية للأدعية الثلاثة الأخيرة فإن فعل فيها كل واحد منهما من التسبيح والذكر مع كونه مكثرا لفعل الآخر ومضاعفا له بسبب انضمامه إليه مكثر له فى نفسه أيضا بسبب تقويته وتأييده إذ ليس المراد بالتسبيح والذكر ما يكون منهما بالقلب أو فى الخلوات حتى لا يتفاوت حاله عند التعدد والانفراد بل ما يكون منهما فى تضاعيف أداء الرسالة ودعوة المردة العتاة إلى الحق وذلك مما لا ريب فى اختلاف حاله فى حالتى التعدد والانفراد فإن كلا منهما يصدر عنه بتأييد الآخر من إظهار الحق ما لا يكاد يصدر عنه مثله فى حال الانفراد وكثيرا فى الموضعين نعت لمصدر محذوف أو زمان محذوف أى ننزهك عما لا يليق بك من الصفات والأفعال التى من جملتها ما يدعيه فرعون الطاغية ويقبله منه فئته الباغية من ادعاء الشركة فى الألوهية ونصفك بما يليق بك من صفات الكمال ونعوت الجمال والجلال تنزيها كثيرا أو زمانا كثيرا من جملته زمان دعوة فرعون وأوان المحاجة معه وأما ما قيل من أن المعنى كى نصلى لك كثيرا ونحمدك ونثنى عليك فلا يساعده المقام ﴿إنك كنت بنا بصيرا﴾

أى عالما بأحوالنا وبأن ما دعوتك به مما يصلحنا ويفيدنا فى تحقيق ما كلفته من إقامة مراسم الرسالة وبأن هرون نعم الرده فى أداء ما أمرت به والباء متعلقة ببصيرا قدمت عليه لمراعاة الفواصل ﴿ قال قد أوتيت سؤلك ﴾ أى أعطيت سؤلك فعل بمعنى مفعول كالخبز والأكل بمعنى المخبوز والمأكول والإيتاء عبارة عن تعلق إرادته تعالى بوقوع تلك المطالب وحصولها له عليه السلام البتة وتقديره إياها حتما فكلها حاصلة له عليه السلام وإن كان وقوع بعضها بالفعل مترقبا بعد كتيسير الأمر وشد الأزر وباعتباره قيل سنشد عضدك بأخيك وقوله تعالى ﴿ ياموسى ﴾ تشريف له عليه السلام بشرف الخطاب إثر تشريفه بشرف قبول الدعاء .

موسى فى طفولته

وقوله تعالى :﴿ ولقد مننا عليك ﴾ كلام مستأنف مسوق لتقرير ماقبله وزيادة توطين نفس موسى عليه السلام بالقبول ببيان أنه تعالى حيث أنعم عليه بتلك النعم التامة من غير سابقة دعاء منه وطلب فلأن ينعم عليه بمثلها وهو طالب له وداع أولى وأحرى وتصديره بالقسم لكمال الاعتناء بذلك أى وبالله لقد أنعمنا ﴿ مرة أخرى ﴾ أى فى وقت غير هذا الوقت لا أن ذلك مؤخر عن هذا فإن أخرى تأنيث آخر بمعنى غير والمرة فى الأصل اسم للمرور الواحد ثم أطلق على على كل فعلة واحدة من الفعلات متعدية كانت أو لازمة ثم شاع فى كل فرد واحد من أفراد ماله أفراد متجددة متعددة فصار علما فى ذلك حتى جعل معيارا لما فى معناه من سائر الأشياء فقيل هذا بناء المرة ويقرب منها الكرة والتارة والدفعة والمراد بها ههنا الوقت الممتد الذى وقع فيه ما سيأتى ذكره من المنن العظيمة الكثيرة وقوله تعالى :

﴿ إذ أوحينا إلى أمك ما يوحى ﴾ ظرف لمننا والمراد بالإيحاء إما الإيحاء على لسان نبى فى وقتها كقوله تعالى (وإذ أوحيت إلى الحواريين) الآية وإما الإيحاء بواسطة الملك لا على وجه النبوة كما أوحى إلى مريم وإما الإلهام كما فى قوله تعالى

(وأوحى ربك إلى النحل) وإما الإرادة فى المنام والمراد بما يوحى ما سيأتى من الأمر بقذفه فى التابوت وقذفه فى البحر أبهم أولا تهويلا له وتفخيما لشأنه ثم فسر ليكون أقر عند النفس وقيل معناه ما ينبغى أن يوحى ولا يخل به لعظم شأنه وفرط الاهتمام به وقيل مالا يعلم إلا بالوحى وفيه أنه لا يلائم المعنيين الأخيرين للوحى إذ لا تفخيم لشأنه فى أن يكون مما لا يعلم إلا بالإلهام أو بالإراءة فى المنام ، وأن فى قوله تعالى ﴿ أن اقذفيه فى التابوت ﴾ مفسرة لأن الوحى من باب القول أو مصدرية حذف منها الباء أى بأن اقذفيه ومعنى القذف ههنا الوضع وأما فى قوله تعالى ﴿ فاقذفيه فى اليم ﴾ فالإلقاء وهذا التفصيل هو المراد بقوله تعالى (فإذا خفت عليه فألقيه فى اليم) لا القذف بلا تابوت ﴿ فليلقه اليم بالساحل ﴾ لما كان إلقاء البحر إياه بالساحل أمرا واجب الوقوع لتعلق الإرادة الربانية به جعل البحر كأنه ذو تمييز مطيع أمر بذلك وأخرج الجواب مخرج الأمر والضمائر كلها لموسى عليه الصلاة والسلام والمقذوف فى البحر والملقى بالساحل وإن كان هو التابوت أصالة لكن لما كان المقصود بالذات ما فيه جعل التابوت تبعا له فى ذلك .

﴿ يأخذه عدو لى وعدو له ﴾ جواب للأمر بالإلقاء وتكرير العدو للمبالغة والتصريح بالأمر والإشعار بأن عداوته له مع تحققها لا تؤثر فيه ولا تضره بل تؤدى إلى المحبة فإن الأمر بما هو سبب للهلاك صورة من قذفه فى البحر ووقوعه فى يد عدو الله تعالى وعدوه مشعر بأن هناك لطفا خفيا مندرجا تحت قهر صورى وقيل الأول باعتبار الواقع والثانى باعتبار المتوقع وليس المراد بالساحل نفس الشاطىء بل ما يقابل الوسط وهو ما يلى الساحل من البحر بحيث يجرى ماؤه إلى نهر فرعون لما روى أنها جعلت فى التابوت قطنا ووضعته فيه ثم قيرته وألقته فى اليم وكان يشرع منه إلى بستان فرعون نهر صغير فدفعه الماء إليه فأتى به إلى بركة فى البستان وكان فرعون جالسا ثمة مع آسية بنت مزاحم فأمر به فأخرج ففتح فإذا هو صبى أصبح الناس وجها فأحبه عدو الله

حبا شديدا لا يكاد يتمالك الصبر عنه وذلك قوله تعالى ﴿ وألقيت عليك محبة مني ﴾ كلمة من متعلقة بمحذوف هو صفة لمحبة مؤكدة لما في تنكيرها من الفخامة الذاتية بالفخامة الإضافية أي محبة عظيمة كائنة مني قد زرعتها في القلوب بحيث لا يكاد يصبر عنك من رآك ولذلك أحبك عدو الله وآله وقيل هي متعلقة بألقيت أي أحببتك ومن أحبه الله تعالى أحبته القلوب لامحالة وقوله تعالى ﴿ ولتصنع على عيني ﴾ متعلق بألقيت معطوف على علة له مضمرة أي ليتعطف عليك ولتربى بالحنو والشفقة بمراقبتي وحفظي أو بمضمر مؤخر هو عبارة عما قبله من إلقاء المحبة والجملة مبتدأة أي ولتصنع على عيني فعلت ذلك وقرىء ولتصنع على صيغة الأمر بسكون اللام وكسرها وقرى بفتح التاء والنصب أي وليكون عملك على عين مني لئلا تخالف به عن أمري .

﴿ إذ تمشي أختك ﴾ ظرف لتصنع على أن المراد به وقت وقع فيه مشيها إلى بيت فرعون وما ترتب عليه من القول والرجع إلى أمها وتربيتها له بالبر والحنو وهو المصداق لقوله تعالى (ولتصنع على عيني) إذ لاشفقة أعظم من شفقة الأم وصنعها على موجب مراعاته تعالى وقيل هو بدل من إذ أوحينا على أن المراد به زمان متسع متباعد الأطراف وهو الأنسب بما سيأتي من قوله تعالى (فنجيناك من الغم) الخ فإن جميع ذلك من المنن الإلهية ولا تعلق لشيء منها بالصنع المذكور وأما كونه ظرفا لألقيت كما جوز فربما يوهم أن إلقاء المحبة لم يحصل قبل ذلك ولا ريب في أن معظم آثار إلقائها ظهر عند فتح التابوت ﴿ فتقول ﴾ أي لفرعون وآسية حين رأتهما يطلبان له عليه السلام مرضعة يقبل ثديها وكان لا يقبل ثديا وصيغة المضارع في الفعلين لحكاية الحال الماضية ﴿ هل أدلكم على من يكفله ﴾ أي يضمه إلى نفسه ويربيه وذلك إنما يكون بقبوله ثديها يروى أنه فشا الخبر بمصر أن آل فرعون أخذوا غلاما من النيل لا يرتضع ثدي امرأة واضطروا إلى تتبع النساء فخرجت أخته مريم لتعرف خبره فجاءتهم متنكرة فقالت ماقالت وقالوا ما قالوا فجاءت بأمه فقبل ثديها فالفاء في قوله تعالى

﴿ فرجعناك إلى أمك ﴾ فصيحة معربة عن محذوف قبلها يعطف عليه ما بعدها أى فقالوا دلينا عليها لجاءت بأمك فرجعناك إليها ﴿ كى تقر عينها ﴾ بلقائك ﴿ ولا تحزن ﴾ أى يطرأ عليها الحزن بفراقك بعد ذلك وإلا فزوال الحزن مقدم على السرور المعبر عنه بقرة العين فإن التخلية متقدمة على التحلية وقيل ولا تحزن أنت بفقد إشفاقها ﴿ وقتلت نفسا ﴾ هى نفس القبطى الذى استغاثه الإسرائيلى عليه .

﴿ فنجيناك من الغم ﴾ أى غم قتله خوفا من عقاب الله تعالى بالمغفرة ومن اقتصاص فرعون بالإنجاء منه بالمهاجرة إلى مدين ﴿ وفتناك فتونا ﴾ أى ابتليناك ابتلاء أو فتونا من الابتلاء على أنه جمع فتن أو فتنة على ترك الاعتداد بالتاء كحجوز فى حجزة وبدور فى بدرة أى خلصناك مرة بعد أخرى وهو إجمال ما ناله فى سفره من الهجرة عن الوطن ومفارقة الألاف والمشى راجلا وفقد الزاد وقد روى أن سعيد بن جبير سأل عنه ابن عباس رضى الله عنهما فقال خلصناك من محنة بعد محنة ولد فى عام كان يقتل فيه الولدان فهذه فتنة يا ابن جبير وألقته أمه فى البحر وهم فرعون بقتله وقتل قبطيا وآجر نفسه عشر سنين وضل الطريق وتفرقت غنمه فى ليلة مظلمة وكان يقول عند كل واحدة فهذه فتنة يا ابن جبير ولكن الذى يقتضيه النظم الكريم أن لا تعد إجارة نفسه وما بعدها من تلك الفتون ضرورة أن المراد بها ما وقع قبل وصوله عليه السلام إلى مدين بقضية الفاء فى قوله تعالى : ﴿ فلبثت سنين فى أهل مدين ﴾ إذ لا ريب فى أن الإجارة المذكورة وما بعدها مما وقع بعد الوصول إليهم وقد أشير بذكر لبثه عليه السلام فيهم دون وصوله إليهم إلى جميع ما قاساه عليه السلام فى تضاعيف تلك السنين العشر من فنون الشدائد والمكاره التى كل واحد منها فتنة وأى فتنة ومدين بلدة شعيب عليه الصلاة والسلام على ثمانى مراحل من مصر ﴿ ثم جئت ﴾ إلى المكان الذى أونس فيه النار ووقع فيه النداء والجؤار وفى كلمة التراخى إيذان بأن مجيئه عليه السلام كان بعد اللتيا والتى من ضلال الطريق

وتفرق الغنم فى الليلة المظلمة الشاتية وغير ذلك ﴿ على قدر ﴾ أى تقدير قدرته لأن أكلمك وأستنبئك فى وقت قد عينته لذلك فما جئت إلا على ذلك القدر غير مستقدم ولا مستأخر وقيل على مقدار من الزمان يوحى فيه إلى الأنبياء عليهم السلام وهو رأس أربعين سنة وقوله تعالى ﴿ ياموسى ﴾ تشريف له عليه الصلاة والسلام تنبيه على انتهاء الحكاية التى هى تفصيل المرة الأخرى التى وقعت قبل المرة المحكية أولا

موسى وهارون

وقوله تعالى : ﴿ واصطنعتك لنفسى ﴾ تذكير لقوله تعالى أنا اخترتك وتمهيد لإرساله عليه السلام إلى فرعون مؤيدا بأخيه حسبما استدعاه بعد تذكير المنن السابغة السابقة تأكيدا لوثوقه عليه السلام بحصول نظائرها اللاحقة وهذا تمثيل لما خوله عز وعلا من الكرامة العظمى بتقريب الملك بعض خواصه واصطناعه لنفسه وترشيحه لبعض أموره الجليلة والعدول عن نون العظمة الواقعة فى قوله تعالى وفتناك ونظيريه السابقين تمهيد لإفراد لفظ النفس اللائق بالمقام فإنه أدخل فى تحقيق معنى الاصطناع والاستخلاص أى اصطفيتك برسالاتى وبكلامى وقوله تعالى ﴿ اذهب أنت وأخوك ﴾ أى وليذهب أخوك حسبما استدعيت استئناف مسوق لبيان ما هو المقصود بالاصطناع ﴿ بآياتى ﴾ أى بمعجزاتى التى أريتكها من اليد والعصا فإنهما وإن كانتا اثنتين لكن فى كل منهما آيات شتى كما فى قوله تعالى (فيه آيات بينات مقام إبراهيم) فإن انقلاب العصا حيوانا آية وكونها ثعبانا عظيما لا يقادر قدره آية أخرى وسرعة حركته مع عظم جرمه آية أخرى وكونه مع ذلك مسخرا له عليه السلام بحيث كان يدخل يده فى فمه فلا يضره آية أخرى ثم انقلابها عصا آية أخرى وكذلك اليد فإن بياضها فى نفسه آية وشعاعها آية ثم رجوعها إلى حالتها الأولى آية أخرى والباء للمصاحبة لا للتعدية إذ المراد ذهابهما إلى فرعون ملتبسين بالآيات متمسكين بها فى إجراء أحكام الرسالة وإكمال أمر الدعوة لا مجرد إذهابها وإيصالها إليه ﴿ ولا تنيا ﴾

لا تفترا ولا تقصرا وقرىء لا تنيا بكسر التاء للاتباع ﴿ فى ذكرى ﴾ أى بما يليق بى من الصفات الجليلة والأفعال الجميلة عند تبليغ رسالتى والدعاء إلىّ وقيل المعنى لا تنيا فى تبليغ رسالتى فإن الذكر يقع على جميع العبادات وهو أجلها وأعظمها وقيل لا تنسيانى حيثما تقلبتما واستمدا بذكرى العون والتأييد واعلما أن أمرا من الأمور لا يتأتى ولا يتسنى إلا بذكرى ﴿ اذهبا إلى فرعون ﴾ جمعهما فى صيغة أمر الحاضر مع غيبة هرون إذ ذاك للتغليب وكذا الحال فى صيغة النهى روى أنه أوحى إلى هرون وهو بمصر أن يتلقى موسى عليهما السلام وقيل سمع بإقباله فتلقاه .

﴿ إنه طغى ﴾ تعليل لموجب الأمر والفاء فى قوله تعالى : ﴿ فقولا له قولا لينا ﴾ لترتيب ما بعدها على طغيانه فإن تليين القول مما يكسر سورة عناد العتاة ويلين عريكة الطغاة قال ابن عباس رضى الله عنهما لا تعنفا فى قولكما وقيل القول اللين مثل (هل لك إلى أن تزكى وأهديك إلى ربك) فإنها دعوة فى صورة عرض ومشورة ويرده ما سيجىء من قوله تعالى(فقولا إنا رسولا ربك) الآيتين وقيل كنياه وكان له ثلاث كنى أبو العباس وأبو الوليد وأبو مرة وقيل عداه شبابا لا يهرم ويبقى له لذة المطعم والمشرب والمنكح وملكا لا يزول إلا بالموت وقرىء لينا ﴿ لعله يتذكر ﴾ بما بلغتماه من ذكرى ويرغب فيما رغبتماه فيه ﴿ أو يخشى ﴾ عقابى ومحل الجملة النصب على الحال من ضمير التثنية أى فقولا له قولا لينا راجين أن يتذكر أو يخشى وكلمة أو لمنع الخلو أى باشرا الأمر مباشرة من يرجو ويطمع فى أن يثمر عمله ولا يخيب سعيه وهو يجتهد بطوقه ويحتشد بأقصى وسعه وجدوى إرسالهما إليه مع العلم بحاله إلزام الحجة وقطع المعذرة ﴿ قالا ربنا ﴾ أسند القول إليهما مع أن القائل حقيقة هو موسى عليه الصلاة والسلام بطريق التغليب إيذانا بأصالته فى كل قول وفعل وتبعية هرون عليه السلام له فى كل ما يأتى ويذر ويجوز أن يكون هرون قد قال ذلك بعد تلاقيهما فحكى ذلك مع قول موسى عليه السلام عند نزول الآية كما فى

قوله تعالى (يا أيها الرسل كلوا من الطيبات) فإن هذا الخطاب قد حكى لنا بصيغة الجمع مع أن كلا من المخاطبين لم يخاطب إلا بطريق الانفراد ضرورة استحالة اجتماعهم فى الوجود فكيف باجتماعهم فى الخطاب ﴿ إننا نخاف أن يفرط علينا ﴾ أى يعجل علينا بالعقوبة ولا يصبر إلى إتمام الدعوة وإظهار المعجزة من فرط إذا تقدم ومنه الفارط وفرس فارط يسبق الخيل وقرىء يفرط من أفرطه إذا حمله على العجلة أى نخاف أن يحمله حامل من الاستكبار أو الخوف على الملك أو غيرهما على المعاجلة بالعقاب ﴿ أو أن يطغى ﴾ أى يزداد طغيانا إلى أن يقول فى شأنك ما لا ينبغى لكمال جراءته وقساوته وإطلاقه من حسن الأدب وإظهار كلمة أن مع سداد المعنى بدونه لإظهار كمال الاعتناء بالأمر والإشعار بتحقق الخوف من كل منهما .

﴿ قال ﴾ استئناف مبنى على السؤال الناشىء من النظم الكريم ولعل الفعل إسناد إلى ضمير الغيبة للإشعار بانتقال الكلام من مساق إلى مساق آخر فإن ما قبله من الأفعال الواردة على صيغة التكلم حكاية لموسى عليه السلام بخلاف ما سيأتى من قوله تعالى (قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى) فإن ما قبله أيضا وارد بطريق الحكاية لرسول الله صلى الله عليه وسلم كأنه قيل فماذا قال لهما ربهما عند تضرعهما إليه فقيل قال ﴿ لا تخافا ﴾ ما توهمتما من الأمرين وقوله تعالى ﴿ إننى معكما ﴾ تعليل لموجب النهى ومزيد تسلية لهما والمراد بالمعية كمال الحفظ والنصرة كما ينبىء عنه قوله تعالى ﴿ أسمع وأرى ﴾ أى ما يجرى بينكما وبينه من قول وفعل فأفعل فى كل حال ما يليق بها من دفع ضر وشر وجلب نفع وخير ويجوز أن لا يقدر شىء على معنى أننى حافظكما سميعا بصيرا والحافظ الناصر إذا كان كذلك فقدتم وبلغت النصرة غايتها ﴿ فأتياه ﴾ أمرا بإتيانه الذى هو عبارة عن الوصول إليه بعد ما أمرا بالذهاب إليه فلا تكرار وهو عطف على لا تخافا باعتبار تعليله بما بعده ﴿ فقولا إنا رسولا ربك ﴾ أمرا بذلك تحقيقا للحق من أول الأمر ليعرف الطاغية شأنهما ويبنى جوابه عليه وكذا التعرض

لربوبيته تعالى له والفاء فى قوله تعالى ﴿فأرسل معنا بنى إسرائيل﴾ لترتيب ما بعدها على ما قبلها فإن كونهما رسولى ربه مما يوجب إرسالهم معهما والمراد بالإرسال إطلاقهم من الأسر والقسر وإخراجهم من تحت يده العادية لا تكليفهم أن يذهبوا معهما إلى الشام كما ينبىء عنه قوله تعالى ﴿ ولا تعذبهم ﴾ أى بإبقائهم على ما كانوا عليه من العذاب فإنهم كانوا تحت ملكة القبط يستخدمونهم فى الأعمال الصعبة الفادحة من الحفر ونقل الأحجار وغيرهما من الأمور الشاقة ويقتلون ذكور أولادهم عاما دون عام ويستخدمون نساءهم وتوسيط حكم الإرسال بين بيان رسالتهما وبين ذكر المجىء بآية دالة على صحتها لإظهار الاعتناء به مع مافيه من تهوين الأمر على فرعون فإن إرسالهم معهما من غير تعرض لنفسه وقومه بفنون التكاليف الشاقة كما هو حكم الرسالة عادة ليس مما يشق عليه كل المشقة ولأن فى بيان مجىء الآية نوع طول كما ترى فتأخير ذلك عنه مخل بتجاوب أطراف النظم الكريم وأما ما قيل من أن ذلك دليل على أن تخليص المؤمنين من الكفرة أهم من دعوتهم إلى الإيمان فكلا

﴿ قد جئناك بآية من ربك ﴾ تقرير لما تضمنه الكلام السابق من دعوى الرسالة وتعليل لوجوب الإرسال فإن مجيئهما بالآية من جهته تعالى مما يحقق رسالتهما ويقررها ويوجب الامتثال بأمرهما وإظهار اسم الرب فى موضع الإضمار مع الإضافة إلى ضمير المخاطب لتأكيد ما ذكر من التقرير والتعليل وتوحيد الآية مع تعددها لأن المراد إثبات الدعوى ببرهانها لا بيان تعدد الحجة وكذلك قوله تعالى (قد جئتكم ببينة) وقوله تعالى (أولو جئتك بشىء مبين) وأما قوله تعالى (فأت بآية إن كنت من الصادقين) فالظاهر أن المراد بها آية من الآيات ﴿ والسلام ﴾ المستتبع لسلامة الدارين من الله تعالى والملائكة وغيرهم من المسلمين ﴿ على من اتبع الهدى ﴾ بتصديق آيات الله تعالى الهادية إلى الحق وفيه من ترغيبه فى اتباعهما على ألطف وجه مالا يخفى ﴿ إنا قد أوحى إلينا ﴾ من جهة ربنا ﴿ أن العذاب ﴾ الدنيوى والأخروى ﴿ على من كذب ﴾ أى بآياته تعالى ﴿ وتولى ﴾ أى

أعرض عن قبولها وفيه من التلطيف فى الوعيد حيث لم يصرح بحلول العذاب به ما لا مزيد عليه

﴿ قال ﴾ أى فرعون بعد ما أتياه وبلغاه ما أمرا به وإنما طوى ذكره للإيجاز والإشعار بأنهما كما أمرا بذلك سارعا إلى الامتثال به من غير تلعثم وبأن ذلك من الظهور بحيث لا حاجة إلى التصريح به ﴿ فمن ربكما ياموسى ﴾ لم يضف الرب إلى نفسه ولو بطريق حكاية ما فى قوله تعالى (إنا رسولا ربك) وقوله تعالى (قد جئناك بآية من ربك) لغاية عتوه ونهاية طغيانه بل إضافة إليهما لما أن المرسل لابد أن يكون ربا للرسول أو لأنهما قد صرحا بربوبيته تعالى للكل بأن قالا (إنا رسول رب العالمين) كما وقع فى سورة الشعراء والاقتصار ههنا على ذكر ربوبيته تعالى لفرعون لكفايته فيما هو المقصود والفاء لترتيب السؤال على ما سبق من كونهما رسولى ربهما أى إذا كنتما رسولى ربكما فأخبرانى من ربكما الذى أرسلكما وتخصيص النداء بموسى عليه الصلاة والسلام مع توجيه الخطاب إليهما لما أنه الأصل فى الرسالة وهرون وزيره وأما ما قيل من أن ذلك لأنه قد عرف أن له عليه الصلاة والسلام رتة فأراد أن يفحمه فيرده ما شاهده منه عليه الصلاة والسلام من حسن البيان القاطع لذلك الطمع الفارغ وأما قوله (ولا يكاد يبين) فمن غلوه فى الخبث والدعارة كما مر ﴿ قال ﴾ أى موسى عليه الصلاة والسلام مجيبا له ﴿ ربنا ﴾ إما مبتدأ وقوله تعالى ﴿ الذى أعطى كل شىء خلقه ﴾ خبره أو هو خبر لمبتدأ محذوف والموصول صفته وأياما كان فلم يريدا بضمير المتكلم أنفسهما فقط حسبما أراد اللعين بل جميع المخلوقات تحقيقا للحق وردا عليه كما يفصح عنه مافى حيز الصلة أى هو ربنا الذى أعطى كل شىء من الأشياء خلقه أى صورته وشكله اللائق بما نيط به من الخواص والمنافع أو أعطى مخلوقاته كل شىء تحتاج هى إليه وترتفق به وتقديم المفعول الثانى للاهتمام به أو أعطى كل حيوان نظيره فى الخلق والصورة حيث زوج الحصان بالحجر والبعير بالناقة والرجل بالمرأة ولم يزوج شيئاً من ذلك بخلاف جنسه وقرىء

خلقه على صيغة الماضي على أن الجملة صفة للمضاف أو المضاف إليه وحذف المفعول الثانى إما للاقتصار على الأول أى كل شيء خلقه الله تعالى لم يحرمه من عطائه وإنعامه أو للاختصار من كونه منويا مدلولا عليه بقرينة الحال أى أعطى كل شيء خلقه الله تعالى ما يحتاج إليه .

﴿ ثم هدى ﴾ أى إلى طريق الانتفاع والارتفاق بما أعطاه وعرفه كيف يتوصل إلى بقائه وكماله إما اختيارا كما فى الحيوانات أو طبعا كما فى الجمادات والقوى الطبيعية النباتية والحيوانية ولما كان الخلق الذى هو عبارة عن تركيب الأجزاء وتسوية الأجسام متقدما على الهداية التى هى عبارة عن إيداع القوى المحركة والمدركة فى تلك الأجسام وسط بينهما كلمة التراخى ولقد ساق عليه الصلاة والسلام جوابه على نمط رائق وأسلوب لائق حيث بين أنه تعالى عالم قادر بالذات خالق لجميع الأشياء منعم عليها بجميع ما يليق بها بطريق التفضل وضمنه أن إرساله تعالى إياه إلى الطاغية من جملة هداياته سبحانه إياه بعد أن هداه إلى الحق بالهدايات التكوينية حيث ركب فيه العقل وسائر المشاعر والآلات الظاهرة والباطنة ﴿ قال فما بال القرون الأولى ﴾ لما شاهد اللعين ما نظمه عليه الصلاة والسلام فى سلك الاستدلال من البرهان النير على الطراز الرائع خاف أن يظهر للناس حقية مقالاته عليه الصلاة والسلام وبطلان خرافات نفسه ظهورا بينا فأراد أن يصرفه عليه الصلاة والسلام عن سننه إلى ما لا يعنيه من الأمور التى لا تعلق لها بالرسالات من الحكايات ويشغله عما هو بصدده عسى يظهر فيه نوع غفلة فيتسلق بذلك إلى أن يدعى بين يدى قومه نوع معرفة فقال ما حال القرون الماضية والأمم الخالية وماذا جرى عليهم من الحوادث المفصلة فأجاب عليه الصلاة والسلام بأن العلم بأحوالهم مفصلة مما لا ملابسة له بمنصب الرسالة وإنما علمها عند الله عز وجل وأما ماقيل من أنه سأله عن حال من خلا من القرون وعن شقاء من شقى منهم وسعادة من سعد فيأباه قوله تعالى ﴿ قال علمها عند ربى ﴾ فإن معناه أنه من الغيوب التى لا يعلمها إلا الله تعالى وإنما أنا عبد لا أعلم منها إلا ما علمنيه من الأمور المتعلقة بما أرسلت به ولو كان المسئول عنه

ما ذكر من الشقاوة والسعادة لأجيب ببيان أن من اتبع الهدى منهم فقد سلم ومن تولى فقد عذب حسبما نطق به قوله تعالى (والسلام) الآيتين ﴿ فى كتاب ﴾ أى مثبت فى اللوح المحفوظ بتفاصيله ويجوز أن يكون ذلك تمثيلا لتمكنه وتقرره فى علم الله عز وجل بما استحفظه العالم وقيده بالكتبة كما يلوح به قوله تعالى ﴿ لا يضل ربى ولا ينسى ﴾ أى لا يخطىء ابتداء ولا يذهب عليه بقاء بل هو ثابت أبدا فإنهما محالان عليه سبحانه وهو على الأول لبيان أن إثباته فى اللوح ليس لحاجته تعالى إليه فى العلم به ابتداء أو بقاء وإظهار ربى فى موقع الإضمار للتلذذ بذكره ولزيادة التقرير والإشعار بعلة الحكم فإن الربوبية مما يقتضى عدم الضلال والنسيان حتما ولقد أجاب عليه الصلاة والسلام عن السؤال بجواب عبقرى بديع حيث كشف عن حقيقة الحق حجابها مع أنه لم يخرج عما كان بصدده من بيان شؤنه تعالى ثم تخلص إليه حيث قال بطريق الحكاية عن الله عز وجل لما سيأتى من الالتفات ﴿ الذى جعل لكم الأرض مهدا ﴾ على أن الموصول إما مرفوع على المدح أو منصوب عليه أو خبر مبتدأ محذوف أى جعلها لكم كالمهد تتمهدونها أو ذات مهد وهو مصدر سمى به المفعول وقرىء مهادا وهو اسم لما يمهد كالفراش أو جمع مهد أى جعل كل موضع منها مهدا لكل واحد منكم ﴿ وسلك لكم فيها سبلا ﴾ أى حصل لكم طرقا ووسطها بين الجبال والأودية والبرارى تسلكونها من قطر إلى قطر لتقضوا منها مآربكم وتنتفعوا بمنافعها ومرافقها .

﴿ وأنزل من السماء ماء ﴾ هو المطر ﴿ فأخرجنا به ﴾ أى بذلك الماء وهو عطف على أنزل داخل تحت الحكاية وإنما التفت إلى التكلم للتنبيه على ظهور ما فيه من الدلالة على كمال القدرة والحكمة والإيذان بأنه لا يتأتى إلا من قادر مطاع عظيم الشأن تنقاد لأمره وتذعن لمشيئته الأشياء المختلفة كما فى قوله تعالى (ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها) وقوله تعالى (أم من خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة) خلا أن ما قبل الالتفات هناك صريح كلامه تعالى وأما ههنا فحكاية عنه

تعالى وجعل قوله تعالى(فأخرجنا به) هو المحكى مع كون ما قبله كلام موسى عليه الصلاة والسلام خلاف الظاهر مع أنه يفوت حينئذ الالتفات لعدم اتحاد المتكلم ﴿أزواجا﴾ أصنافا سميت بذلك لازدواجها واقتران بعضها ببعض ﴿من نبات﴾ بيان أو صفة لأزواجا أى كائنة من نبات وكذا قوله تعالى ﴿شتى﴾ أى متفرقة جمع شتيت ويجوز أن يكون صفة لنبات لما أنه فى الأصل مصدر يستوى فيه الواحد والجمع يعنى أنها شتى مختلفة فى الطعم والرائحة والشكل والنفع بعضها صالح للناس على اختلاف وجوه الصلاح وبعضها للبهائم فإن من تمام نعمته تعالى أن أرزاق عباده لما كان تحصلها بعمل الأنعام جعل علفها مما يفضل عن حاجاتهم ولا يليق بكونه طعاما لهم وقوله تعالى :

﴿كلوا وارعوا أنعامكم﴾ حال من ضمير فأخرجنا على إرادة القول أى أخرجنا منها أصناف النبات قائلين كلوا وارعوا أنعامكم أى معديها لانتفاعكم بالذات وبالواسطة آذنين فى ذلك ﴿إن فى ذلك﴾ إشارة إلى ما ذكر من شؤنه تعالى وأفعاله وما فيه من معنى البعد للإيذان بعلو رتبته وبعد منزلته فى الكمال والتنكير فى قوله تعالى ﴿لآيات﴾ للتفخيم كما وكيفا أى لآيات كثيرة جليلة واضحة الدلالة على شؤن الله تعالى فى ذاته وصفاته وأفعاله وعلى صحة نبوة موسى وهرون عليهما الصلاة والسلام ﴿لأولى النهى﴾ جمع نهية سمى بها العقل لنهيه عن اتباع الباطل وارتكاب القبائح كما سمى بالعقل والحجر لعقله وحجره عن ذلك أى لذوى العقول الناهية عن الأباطيل التى من جملتها ما يدعيه الطاغية ويقبله منه فئته الباغية وتخصيص كونها آيات بهم مع أنها آيات للعالمين باعتبار أنهم المنتفعون بها ﴿منها خلقناكم﴾ أى فى ضمن خلق أبيكم آدم عليه الصلاة والسلام منها فإن كل فرد من أفراد البشر له حظ من خلقه عليه الصلاة والسلام إذ لم تكن فطرته البديعة مقصورة على نفسه عليه الصلاة والسلام بل كانت أنموذجا منطويا على فطرة سائر أفراد الجنس انطواء إجمالياً مستتبعا لجريان آثارهما على الكل فكان خلقه عليه الصلاة والسلام منها خلقا للكل منها وقيل المعنى خلقنا أبدانكم من النطفة المتولدة من الأغذية المتولدة من الأرض بوسائط وقيل إن الملك

الموكل بالرحم يأخذ من تربة المكان الذى يدفن فيه المولود فيبددها على النطفة فيخلق من التراب والنطفة ﴿ وفيها نعيدكم ﴾ بالإماتة وتفريق الأجزاء وإيثار كلمة فى على كلمة إلى الدلالة على الاستقرار المديد فيها ﴿ ومنها نخرجكم تارة أخرى ﴾ بتاليف أجزائكم المتفتتة المختلطة بالتراب على الهيئة السابقة ورد الأرواح إليها وكون هذا الإخراج تارة أخرى باعتبار أن خلقهم من الأرض إخراج لهم منها وإن لم يكن على نهج التارة الثانية والتارة فى الأصل اسم للتور الواحد وهو الجريان ثم أطلق على كل فعلة واحدة من الفعلات المتجددة كما مر فى المرة .

﴿ ولقد أريناه ﴾ حكاية إجمالية لما جرى بين موسى عليه الصلاة والسلام وبين فرعون إثر حكاية ما ذكره عليه الصلاة والسلام بجلائل نعمائه الداعية له إلى قبول الحق والانقياد له وتصديرها بالقسم لإبراز كمال العناية بمضمونها وإسناد الإراءة إلى نون العظمة نظرا إلى الحقيقة لا إلى موسى نظرا إلى الظاهر لتهويل أمر الآيات وتفخيم شأنها وإظهار كمال شناعة اللعين وتماديه فى المكابرة والعناد أى وبالله لقد بصرنا فرعون أو عرفناه ﴿ آياتنا ﴾ حين قال لموسى عليه الصلاة والسلام إن كنت جئت بآية فأت بها إن كنت من الصادقين فألقى عصاه فإذا هى ثعبان مبين ونزع يده فإذا هى بيضاء للناظرين وصيغة الجمع مع كونهما اثنتين باعتبار ما فى تضاعيفهما من بدائع الأمور التى كل منها آية بينة لقوم يعقلون حسبما بين فى تفسير قوله تعالى (اذهب أنت وأخوك بآياتى) وقد ظهر عند فرعون أمور أخر كل واحد منها داهية دهياء فإنه روى أنه عليه الصلاة والسلام لما ألقاها انقلبت ثعبانا أشعر فاغرا فاه بين لحييه ثمانون ذراعا وضع لحيه الأسفل على الأرض والأعلى على سور القصر وتوجه نحو فرعون فهرب وأحدث وانهزم الناس مزدحمين فمات منهم خمسة وعشرون ألفا من قومه فصاح فرعون ياموسى أنشدك بالذى أرسلك إلا أخذته فأخذه فعاد عصا وروى أنها انقلبت حية فارتفعت فى السماء قدر ميل ثم انحطت مقبلة نحو فرعون وجعلت تقول يا موسى مرنى بما شئت ويقول فرعون أنشدك الخ ونزع يده من جيبه

فإذا هى بيضاء بياضا نورانيا خارجا عن حدود العادات قد غلب شعاعه شعاع الشمس يجتمع عليه النظارة تعجبا من أمره ففى تضاعيف كل من الآيتين آيات جمة لكنها لما كانت غير مذكورة صراحة أكدت بقوله تعالى :

﴿ كلها ﴾ كأنه قيل أريناه آيتينا بجميع مستتبعاتهما وتفاصيلهما قصدا إلى بيان أنه لم يبق له فى ذلك عذر ما ولا مساغ لعد بقية الآيات التسع منها لما أنها إنما ظهرت على يده عليه الصلاة والسلام بعد ما غلب السحرة على مهل فى نحو من عشرين سنة كما مر فى تفسير سورة الأعراف ولا ريب فى أن أمر السحرة مترقب بعد وأبعد من ذلك أن يعد منها ما جعل لإهلاكهم لا لإرشادهم إلى الإيمان من فلق البحر وما ظهر بعد مهلكه من الآيات الظاهرة لبنى إسرائيل من نتق الجبل والحجر سواء أريد به الحجر الذى فر بثوبه أو الذى انفجرت منه العيون وكذا أن يعد منها الآيات الظاهرة على يد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بناء على أن حكايته عليه الصلاة والسلام إياها لفرعون فى حكم إظهارها بين يديه وإراءاته إياها لاستحالة الكذب عليه عليه الصلاة والسلام فإن حكايته عليه الصلاة والسلام إياها لفرعون مما لم يجر ذكره ههنا على أن ما سيأتى من حمل ما أظهره عليه الصلاة والسلام على السحر والتصدى للمعارضة بالمثل يأباه إباء بينا وينطق بأن المراد بها ما ذكرناه قطعا ولولا ذلك لجاز جعل ما فصله عليه الصلاة والسلام من أفعاله تعالى الدالة على اختصاصه بالربوبية وأحكامها من جملة الآيات ﴿ فكذب ﴾ موسى عليه الصلاة والسلام من غير تردد وتأخر مع ما شاهده فى يده من الشواهد الناطقة بصدقه جحودا وعنادا ﴿ وأبى ﴾ الإيمان والطاعة لعتوه واستكباره وقيل كذب بالآيات جميعا وأبى أن يقبل شيئا منها أو أبى قبول الحق وقوله تعالى :

﴿ قال أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى ﴾ استئناف مبين لكيفية تكذيبه وإبائه والهمزة لإنكار الواقع واستقباحه وادعاء أنه أمر محال والمجىء إما على حقيقته أو بمعنى الإقبال على الأمر والتصدى له أى أجئتنا من مكانك الذى كنت فيه بعد ما غبت عنا أو أقبلت علينا لتخرجنا من مصر بما أظهرته

من السحر فإن ذلك مما لا يصدر عن العاقل لكونه من باب محاولة المحال وإنما قاله لحمل قومه على غاية المقت لموسى عليه الصلاة والسلام بإبراز أن مراده عليه الصلاة والسلام ليس مجرد إنجاء بنى إسرائيل من أيديهم بل إخراج القبط من وطنهم وحيازة أموالهم وأملاكهم بالكلية حتى لا يتوجه إلى اتباعه أحد ويبالغوا فى المدافعة والمخاصمة وسمى ما أظهره عليه الصلاة والسلام من المعجزة الباهرة سحرا لتجسيرهم على المقابلة ثم ادعى أنه يعارضه بمثل ما أتى به عليه الصلاة والسلام فقال ﴿فلنأتينك بسحر مثله﴾ الفاء لترتيب ما بعدها على ماقبلها واللام جواب قسم محذوف كأنه قيل إذا كان كذلك فوالله لنأتيك بسحر مثل سحرك ﴿فاجعل بيننا وبينك موعدا﴾ أى وعدا كما ينبىء عنه وصفه بقوله تعالى ﴿لا نخلفه﴾ فإنه المناسب لا المكان والزمان أى لا نخلف ذلك الوعد ﴿نحن ولا أنت﴾ وإنما فوض اللعين أمر الوعد إلى موسى عليه الصلاة والسلام للاحتراز عن نسبته إلى ضعف القلب وضيق المجال وإظهار الجلادة وإراءة أنه متمكن من تهيئة أسباب المعارضة وترتيب آلات المغالبة طال الأمد أم قصر كما أن تقديم ضميره على ضمير موسى عليه الصلاة والسلام وتوسيط كلمة النفى بينهما للإيذان بمسارعته إلى عدم الإخلاف وأن عدم إخلافه لا يوجب إخلافه عليه الصلاة والسلام ولذلك أكد النفى بتكرير حرفه وانتصاب ﴿مكانا سوى﴾ بفعل يدل عليه المصدر لا به فإنه موصوف أو بأنه بدل من موعدا على تقدير مكان مضاف إليه فحينئذ تكون مطابقة الجواب فى قوله تعالى ﴿قال موعدكم يوم الزينة﴾ من حيث المعنى فإن يوم الزينة يدل على مكان مشتهر باجتماع الناس فيه يومئذ أو بإضمار مثل مكان موعدكم مكان يوم الزينة كما هو على الأول أو وعدكم وعد يوم الزينة وقرىء يوم بالنصب وهو ظاهر فى أن المراد به المصدر ومعنى سوى منتصفا تستوى مسافته إلينا وإليك وهو فى النعت كقولهم قوم عدى فى الشذوذ وقرىء بكسر السين قيل يوم الزينة يوم عاشوراء أو يوم النيروز أو يوم عيد كان لهم فى كل عام وإنما خصه عليه الصلاة والسلام بالتعيين لإظهار كمال قوته

وكونه على ثقة من أمره وعدم مبالاته بهم لما أن ذلك اليوم وقت ظهور غاية شوكتهم وليكون ظهور الحق وزهوق الباطل فى يوم مشهود على رءوس الأشهاد ويشيع ذلك فيما بين كل حاضر وباد ﴿ وأن يحشر الناس ضحى ﴾ عطف على يوم أو الزينة وقرىء على البناء للفاعل بالتاء على خطاب فرعون وبالياء على أن الضمير له على سنن الملوك أو لليوم .

موسى والسحرة

﴿ فتولى فرعون ﴾ أى انصرف عن المجلس ﴿ فجمع كيده ﴾ أى ما يكاد به من السحرة وأدواتهم ﴿ ثم أتى ﴾ أى الموعد ومعه ما جمعه من كيده وفى كلمة التراخى إيماء إلى أنه لم يسارع إليه بل أتاه بعد لأى وتلعثم وقوله تعالى ﴿ قال لهم موسى ﴾ الخ بطريق الاستئناف المبنى على السؤال يقضى بأن المترقب من أحواله عليه الصلاة والسلام حينئذ والمحتاج الى السؤال والبيان ليس إلا ماصدر عنه عليه الصلاة والسلام من الكلام وأما إتيانه أولا فأمر محقق غنى عن التصريح به كأنه قيل فماذا صنع موسى عليه الصلاة والسلام عند إتيان فرعون بمن جمعه من السحرة فقيل قال لهم بطريق النصيحة ﴿ ويلكم لا تفتروا على الله كذبا ﴾ بأن تدعوا آياته التى ستظهر على يدى سحرا كما فعل فرعون ﴿ فيسحتكم ﴾ أى يستأصلكم بسببه ﴿ بعذاب ﴾ هائل لا يقادر قدره وقرىء يسحتكم من الثلاثى على لغة أهل الحجاز والإسحات لغة بنى تميم ونجد ﴿ وقد خاب من افترى ﴾ أى على الله كائنا من كان بأى وجه كان فيدخل فيه الافتراء المنهى عنه دخولا أوليا أو وقد خاب فرعون المفترى فلا تكونوا مثله فى الخيبة والجملة اعتراض مقرر لمضمون ما قبلها ﴿ فتنازعوا ﴾ أى السحرة حين سمعوا كلامه عليه الصلاة والسلام كأن ذلك غاظهم فتنازعوا ﴿ أمرهم ﴾ الذى أريد منهم من مغالبته عليه الصلاة والسلام وتشاوروا وتناظروا ﴿ بينهم ﴾ فى كيفية المعارضة وتجاذبوا أهداب القول فى ذلك ﴿ وأسروا النجوى ﴾ أى من موسى عليه الصلاة والسلام لئلا يقف عليه فيدافعه وكان نجواهم ما نطق به قوله تعالى ﴿ قالوا ﴾ أى بطريق التناجى والإسرار :

﴿ إن هذان لساحران ﴾ الخ فإنه تفسير له ونتيجة لتنازعهم وخلاصة ما استقرت عليه آراؤهم بعد التناظر والتشاور وإن مخففة من إن قد أهملت عن العمل واللام فارقة وقرىء بتشديد نون هذان وقيل هى نافية واللام بمعنى إلا أى ما هذان الا ساحران وقرىء إن بالتشديد وهذان اسمها على لغة بلحارث ابن كعب فإنهم يعربون التثنية تقديرا وقيل اسمها ضمير الشأن المحذوف وهذان لساحران خبرها وقيل إن بمعنى نعم وما بعدها جملة من مبتدأ وخبر وفيهما أن اللام لا تدخل خبر المبتدأ وقيل أصله إنه هذان لهما ساحران فحذف الضمير وفيه أن المؤكد باللام لايليق به الحذف وقرىء إن هذين لساحران وهى قراءة واضحة ﴿ يريدان أن يخرجاكم من أرضكم ﴾ أى أرض مصر بالاستيلاء عليها ﴿ بسحرهما ﴾ الذى أظهراه من قبل ﴿ ويذهبا بطريقتكم المثلى ﴾ أى بمذهبكم الذى هو أفضل المذاهب وأمثلها بإظهار مذهبهما وإعلاء دينهما يريدون به ما كان عليه قوم فرعون لا طريقة السحر فإنهم ما كانوا يعتقدونه دينا وقيل أرادوا أهل طريقتكم وهم بنو اسرائيل لقول موسى عليه الصلاة والسلام أرسل معنا بنى إسرائيل وكانوا أرباب علم فيما بينهم ويأباه أن إخراجهم من أرضهم إنما يكون بالاستيلاء عليها تمكنا وتصرفا فكيف يتصور حينئذ نقل بنى إسرائيل إلى الشام وحمل الإخراج على إخراج بنى إسرائيل منها مع بقاء قوم فرعون على حالهم مما يجب تنزيه التنزيل عن أمثاله على أن هذه المقالة منهم للإغراء بالمبالغة فى المغالبة والاهتمام بالمناصبة فلابد أن يكون الإنذار والتحذير بأشد المكاره وأشقها عليهم ولا ريب فى أن إخراج بنى إسرائيل من بينهم والذهاب بهم إلى الشام وهم آمنون فى ديارهم ليس فيه كثير محذور وقيل الطريقة اسم لوجوه القوم وأشرافهم لما أنهم قدوة لغيرهم ولا يخفى أن تخصيص الاذهاب بهم مما لا مزية فيه وقوله تعالى ﴿ فأجمعوا كيدكم ﴾ تصريح بالمطلوب إثر تمهيد المقدمات والفاء فصيحة أى إذ كان الأمر كما ذكر من كونهما ساحرين يريدان بكم ما ذكر من الإخراج والإذهاب فأزمعوا كيدكم واجعلوه مجمعا عليه بحيث لا يتخلف عنه واحد منكم وارموا عن قوس واحدة وقرىء فاجمعوا من الجمع ويعضده قوله تعالى (فجمع

كيده) أى فاجمعوا أدوات سحركم ورتبوها كما ينبغى ﴿ ثم ائتوا صفا ﴾ أى مصطفين أمروا بذلك لأنه أهيب فى صدور الرائين وأدخل فى استجلاب الرهبة من المشاهدين قيل كانوا سبعين ألفا مع كل منهم حبل وعصا وأقبلوا عليه إقبالة واحدة وقيل كانوا اثنين وسبعين ساحرا اثنان من القبط والباقى من بنى إسرائيل وقيل تسعمائة : ثلثمائة من الفرس ، وثلثمائة من الروم ، وثلثمائة من الإسكندرية وقيل خمسة عشر ألفا وقيل بضعة وثلاثين ألفا والله أعلم ولعل الموعد كان مكانا متسعا خاطبهم موسى عليه الصلاة والسلام بما ذكر فى قطر من أقطاره وتنازعوا أمرهم فى قطر آخر منه ثم أمروا بأن يأتوا وسطه على الوجه المذكور وقد فسر الصف بالمصلى لاجتماع الناس فيه فى الأعياد والصلوات ووجه صحته أن يكون علما لموضع معين من المكان الموعود وأما إرادة مصلى من المصليات بعد تعين المكان الموعود فلا مساغ لها قطعا ، وقوله تعالى ﴿ وقد أفلح اليوم من استعلى ﴾ اعتراض تذييلى من قبلهم مؤكد لما قبله من الأمرين أى قد فاز بالمطلوب من غلب يريدون بالمطلوب ما وعدهم فرعون من الأجر والتقريب حسبما نطق به قوله تعالى (قال نعم وإنكم لمن المقربين) وبمن غلب أنفسهم جميعا على طريقة قولهم بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون أو من غلب منهم حثا لهم على بذل المجهود فى المغالبة هذا هو اللائق بتجاوب أطراف النظم الكريم وقد قيل كان نجواهم أن قالوا حين سمعوا مقالة موسى عليه الصلاة والسلام ما هذا بقول ساحر وقيل كان ذلك أن قالوا إن غلبنا موسى اتبعناه وقيل كان ذلك قولهم إن كان ساحرا فسنغلبه وإن كان من السماء فله أمر فيكون إسرارهم حينئذ من فرعون وملئه ويحمل قولهم إن هذان لساحران الخ على أنهم اختلفوا فيما بينهم على الأقاويل المذكورة ثم رجعوا عن ذلك بعد التنازع والتناظر واستقرت آراؤهم على ذلك وأبوا إلا المناصبة للمعارضة وأما جعل ضمير قالوا لفرعون وملئه على أنهم قالوا ذلك للسحرة ردا لهم عن الاختلاف وأمروهم بالإجماع والإزماع وإظهار الجلادة بالإتيان على وجه الاصطفاف فمخل بجزالة النظم الكريم كما يشهد به الذوق السليم .

﴿ قالوا ﴾ استئناف مبنى على سؤال ناشىء من حكاية ما جرى بين السحرة من المقارنة كأنه قيل فماذا فعلوا بعد ما قالوا فيما بينهم ما قالوا فقيل قالوا ﴿ يا موسى ﴾ وإنما لم يتعرض لإجماعهم وإتيانهم بطريق الاصطفاف إشعارا بظهور أمرهما وغناهما عن البيان ﴿ إما أن تلقى ﴾ أى ما تلقيه أولا على أن المفعول محذوف لظهوره أو تفعل الإلقاء أولا على أن الفعل منزل منزلة اللازم ﴿ وإما أن نكون أول من ألقى ﴾ ما يلقيه أو أول من يفعل الإلقاء خيروه عليه الصلاة والسلام بما ذكر مراعاة للأدب لما رأوا منه عليه الصلاة والسلام ما رأوا من مخايل الخير ورزانة الرأى وإظهارا للجلادة بإراءة أنه لا يختلف حالهم بالتقديم والتأخير وأن مع ما فى حيزها منصوب بفعل مضمر أو مرفوع بخبرية مبتدأ محذوف أى اختر إلقاءك أولا أو إلقاءنا أو الأمر إما إلقاؤك أو إلقاؤنا ﴿ قال ﴾ استئناف كما سلف ناشىء من حكاية تخيير السحرة إياه عليه الصلاة والسلام كأنه قيل فماذا قال عليه الصلاة والسلام فقيل قال ﴿ بل ألقوا ﴾ أنتم أولا مقابلة للأدب بأحسن من أدبهم حيث بت القول بإلقائهم أولا وإظهارا لعدم المبالاة بسحرهم ومساعدة لما أوهموا من الميل إلى البدء وليبرزوا ما معهم ويستفرغوا أقصى جهدهم ويستنفدوا قصارى وسعهم ثم يظهر الله عز وجل سلطانه فيقذف بالحق على الباطل فيدمغه لما علم أن ما سيظهر بيده سيلقف ما يصنعون من مكايد السحر .

﴿ فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى ﴾ الفاء فصيحة معربة عن مسارعتهم إلى الإلقاء كما فى قوله تعالى (فقلنا اضرب بعصاك البحر فانفلق) أى فألقوا فإذا حبالهم وهى للمفاجأة والتحقيق أنها أيضاً ظرفية تستدعى متعلقا ينصبها وجملة تضاف إليها ولكنها خصت بكون متعلقها فعل المفاجأة والجملة ابتدائية والمعنى فألقوا ففاجأ موسى عليه الصلاة والسلام وقت أن يخيل إليه سعى حبالهم وعصيهم من سحرهم وذلك أنهم كانوا لطخوها بالزئبق فلما ضربت عليها الشمس اضطربت واهتزت فخيل إليه أنها تتحرك وقرىء تخيل بالتاء على إسناده إلى ضمير الحبال والعصى وإبدال أنها تسعى منه بدل اشتمال

وقرىء يخيل بإسناده إليه تعالى وقرىء تخيل بحذف إحدى التاءين من تتخيل ﴿ فأوجس فى نفسه خيفة موسى ﴾ أى أضمر فيها بعض خوف من مفاجأته بمقتضى البشرية المجبولة على النفرة من الحيات والاحتراز من ضررها المعتاد من اللسع ونحوه وقيل من أن يخالج الناس شك فلا يتبعوه وليس بذاك كما ستعرفه وتأخير الفاعل لمراعاة الفواصل .

﴿ قلنا لا تخف ﴾ أى ما توهمت ﴿ إنك أنت الأعلى ﴾ تعليل لما يوجبه النهى من الانتهاء عن الخوف وتقرير لغلبته على أبلغ وجه وآكده كما يعرب عنه الاستئناف وحرف التحقيق وتكرير الضمير وتعريف الخبر ولفظ العلو المنبىء عن الغلبة الظاهرة وصيغة التفضيل ﴿ وألق ما فى يمينك ﴾ أى عصاك كما وقع فى سورة الأعراف وإنما أوثر الإبهام تهويلا لأمرها وتفخيما لشأنها وإيذانا بأنها ليست من جنس العصى المعهودة المستتبعة للآثار المعتادة بل خارجة عن حدود سائر أفراد الجنس مبهمة الكنه مستتبعة لآثار غريبة وعدم مراعاة هذه النكتة عند حكاية الأمر فى موضع آخر لا يستدعى عدم مراعاتها عند وقوع المحكى ، هذا وحمل الإبهام على التحقير بأن يراد لا تبال بكثرة حبالهم وعصيهم وألق العويد الذى فى يدك فإنه بقدرة الله تعالى يلقفها مع وحدته وكثرتها وصغره وعظمها يأباه ظهور حالها فيما مر مرتين على أن ذلك المعنى إنما يليق بما لو فعلت العصا ما فعلت وهى على هيئتها الأصلية وقد كان منها ما كان وقوله تعالى :

﴿ تلقف ما صنعوا ﴾ بالجزم جوابا للأمر من لقفه إذا ابتلعه والتقمه بسرعة والتأنيث لكون ما عبارة عن العصا أى تبتلع ما صنعوه من الحبال والعصى التى خيل إليك سعيها وخفتها والتعبير عنها بما صنعوا للتحقير والإيذان بالتمويه والتزوير وقرىء تلقف بتشديد القاف وإسقاط إحدى التاءين من تتلقف وقرىء بالرفع على الحال أو الاستئناف والجملة الأمرية معطوفة على النهى متممة بما فى حيزها لتعليل موجبه ببيان كيفية غلبته عليه الصلاة والسلام وعلوه فإن ابتلاع عصاه لأباطيلهم التى منها أوجس فى نفسه ما أوجس مما يقلع مادته

بالكلية وهذا كما ترى صريح فى أن خوفه عليه الصلاة والسلام لم يكن مما ذكر من مخالجة الشك للناس وعدم اتباعهم له عليه الصلاة والسلام وإلا لعلل بما يزيله من الوعد بما يوجب إيمانهم واتباعهم له عليه الصلاة والسلام وقوله تعالى ﴿إن ما صنعوا﴾ الخ تعليل لقوله تعالى (تلقف ما صنعوا) وما إما موصولة أو موصوفة أى إن الذى صنعوه أو إن شيئاً صنعوه ﴿كيد ساحر﴾ بالرفع على أنه خبر لإن أى كيد جنس الساحر وتنكيره للتوسل به إلى تنكير ما أضيف إليه للتحقير وقرىء بالنصب على أنه مفعول صنعوا وما كافة وقرىء كيد سحر على أن الإضافة للبيان كما فى علم فقه أو على معنى ذى سحر أو على تسمية الساحر سحرا مبالغة وقوله تعالى ﴿ ولا يفلح الساحر ﴾ أى هذا الجنس ﴿حيث أتى﴾ أى حيث كان وأين أقبل من تمام التعليل وعدم التعرض لشأن العصا وكونها معجزة إلهية مع ما فى ذلك من تقوية التعليل للإيذان بظهور أمرها والفاء فى قوله تعالى :

﴿ فألقى السحرة سجدا ﴾ كما سلف فصيحة معربة عن محذوفين ينساق إليهما النظم الكريم غنيين عن التصريح بهما لعدم احتمال تردد موسى عليه السلام فى الامتثال بالأمر واستحالة عدم وقوع اللقف الموعود أى فألقاه عليه السلام فوقع ما وقع من اللقف فألقى السحرة سجدا لما تيقنوا أن ذلك ليس من باب السحر وإنما هى آية من آيات الله عز وجل روى أن رئيسهم قال كنا نغلب الناس وكانت الآلات تبقى علينا[1] فلو كان هذا سحرا فأين ما ألقيناه من الآلات فاستدل بتغير أحوال الأجسام على الصانع القادر العالم وبظهور ذلك على يد موسى عليه الصلاة والسلام على صحة رسالته لا جرم ألقاهم ما شاهدوه على وجوههم وتابوا وآمنوا وأتوا بما هو غاية الخضوع قيل لم يرفعوا رؤسهم حتى رأوا الجنة والنار والثواب والعقاب وعن عكرمة لما خروا سجدا أراهم الله تعالى فى سجودهم منازلهم فى الجنة ولا ينافيه قولهم (إنا آمنا بربنا ليغفر لنا

---

(١) فى ١٠ : لنـا .

خطايانا) الخ لأن كون تلك المنازل منازلهم باعتبار صدور هذا القول عنهم ﴿ قالوا ﴾ استئناف كما مر غير مرة ﴿ آمنا برب هرون وموسى ﴾ تأخير موسى عند حكاية كلامهم لرعاية الفواصل وقد جوز أن يكون ترتيب كلامهم أيضاً هكذا إما لكبر سن هرون عليه الصلاة والسلام وإما للمبالغة فى الاحتراز عن التوهم الباطل من جهة فرعون وقومه حيث كان فرعون ربى موسى عليه الصلاة والسلام فى صغره فلو قدموا موسى عليه الصلاة والسلام لربما توهم اللعين وقومه من أول الأمر أن مرادهم فرعون .

﴿ قال ﴾ أى فرعون للسحرة ﴿ آمنتم له ﴾ أى لموسى عليه الصلاة والسلام واللام لتضمين الفعل معنى الإتباع وقرىء على الاستفهام التوبيخى ﴿ قبل أن آذن لكم ﴾ أى من غير أن آذن لكم فى الإيمان له كما فى قوله تعالى (لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى) لا أن إذنه لهم فى ذلك واقع بعده أو متوقع ﴿ إنه ﴾ يعنى موسى عليه الصلاة والسلام ﴿ لكبيركم ﴾ أى فى فنكم وأعلمكم به وأستاذكم ﴿ الذى علمكم السحر ﴾ فتواطأتم على ما فعلتم أو فعلكم شيئاً دون شىء فلذلك غلبكم وهذه شبهة زورها اللعين وألقاها على قومه وأراهم أن أمر الإيمان منوط بإذنه فلما كان إيمانهم بغير إذنه لم يكن معتدا به وأنهم من تلامذته عليه الصلاة والسلام فلا عبرة بما أظهره كما لا عبرة بما أظهروه وذلك لما اعتراه من الخوف من اقتداء الناس بالسحرة فى الإيمان بالله تعالى ثم أقبل عليهم بالوعيد المؤكد حيث قال ﴿ فلأقطعن ﴾ أى فوالله لأقطعن ﴿ أيديكم وأرجلكم من خلاف ﴾ أى اليد اليمنى والرجل اليسرى ومن ابتدائية كان القطع ابتداء من مخالفة العضو فإن المبتدىء من المعروض مبتدىء من العارض أيضاً وهى مع مجرورها فى حيز النصب على الحالية أى لأقطعنها مختلفات وتعيين تلك الحال للإيذان بتحقيق الأمر وإيقاعه لا محالة بتعيين كيفيته المعهودة فى باب السياسة لا لأنها أفظع من غيرها ﴿ ولأصلبنكم فى جذوع النخل ﴾ أى عليها وإيثار كلمة فى للدلالة على إبقائهم عليها زمانا مديدا تشبيها لاستمرارهم عليها باستقرار المظروف المشتمل عليه قالوا وهو أول من صلب وصيغة التفعيل فى الفعلين للتكثير وقد قرئا

بالتخفيف ﴿ ولتعلمن أينا ﴾ يريد به نفسه موسى عليه الصلاة والسلام لقوله آمنتم له قبل أن آذن لكم واللام مع الإيمان فى كتاب الله تعالى لغيره تعالى وهذا إما لقصد توضيع موسى عليه الصلاة والسلام والهزء به لأنه لم يكن من التعذيب فى شىء وإما لإراءة أن إيمانهم لم يكن عن مشاهدة المعجزة ومعاينة البرهان بل كان عن خوف من قبل موسى عليه الصلاة والسلام حيث رأوا ابتلاع عصاه لحبالهم وعصيهم فخافوا على أنفسهم أيضا وقيل يريد به رب موسى الذى آمنوا به بقولهم آمنا برب هرون وموسى ﴿ أشد عذابا وأبقى ﴾ أى أدوم .

﴿ قالوا ﴾ غير مكترثين بوعيده ﴿ لن نؤثرك ﴾ لن نختارك بالإيمان والإتباع ﴿ على ماجاءنا ﴾ من الله على يد موسى عليه الصلاة والسلام ﴿ من البينات ﴾ من المعجزات الظاهرة فإن ما ظهر بيده عليه الصلاة والسلام من العصا كان مشتملا على معجزات جمة كما مر تحقيقه فيماسلف فإنهم كانوا عارفين بجلائلها ودقائقها ﴿ والذى فطرنا ﴾ أى خلقنا وسائر المخلوقات وهو عطف على ماجاءنا وتأخيره لأن ما فى ضمنه آية عقلية نظرية وما شاهدوه آية حسية ظاهرة وإيراده تعالى بعنوان فاطريته تعالى لهم للإشعار بعلة الحكم فإن خالقيته لهم وكون فرعون من جملة مخلوقاته مما يوجب عدم إيثارهم له عليه سبحانه وتعالى وهذا جواب منهم لتوبيخ فرعون بقوله (آمنتم له قبل أن آذن لكم) وقيل هو قسم محذوف الجواب لدلالة المذكور عليه أى وحق الذى فطرنا لا نؤثرك الخ ولا مساغ لكون المذكور جوابا له عند من يجوز تقديم الجواب أيضاً لما أن القسم لا يجاب بلن إلا على شذوذ ، وقوله تعالى ﴿ فاقض ما أنت قاض ﴾ جواب عن تهديده بقوله لأقطعن الخ أى فاصنع ما أنت صانعه أو فاحكم به وقوله تعالى : ﴿ إنما تقضى هذه الحيوة الدنيا ﴾ مع ما بعده تعليل لعدم المبالاة المستفاد مما سبق من الأمر بالقضاء أى إنما تصنع ما تهواه أو تحكم بما تراه فى هذه الحياة الدنيا فحسب وما لنا من رغبة فى عذبها ولا رهبة من عذابها ﴿ أنا آمنا بربنا ليغفر خطايانا ﴾ التى اقترفنا فيها من الكفر والمعاصى ولا يؤاخذنا بها فى

الدار الآخرة لا ليمتعنا بتلك الحياة الفانية حتى نتأثر بما أوعدتنا به من القطع والصلب ، وقوله تعالى ﴿ وما أكرهتنا عليه من السحر ﴾ عطف على خطايانا أى ويغفر لنا السحر الذى عملناه فى معارضة موسى عليه السلام بإكراهك وحشرك إيانا من المدائن القاصية خصوه بالذكر مع اندراجه فى خطاياهم إظهارا لغاية نفرتهم عنه ورغبتهم فى مغفرته وذكر الإكراه للإيذان بأنه مما يجب أن يفرد بالاستغفار منه مع صدوره عنهم بالإكراه وفيه نوع اعتذار لاستجلاب المغفرة وقيل أرادوا الإكراه على تعلم السحر حيث روى أن رؤساءهم كانوا اثنين وسبعين اثنان منهم من القبط والباقى من بنى إسرائيل وكان فرعون أكرههم على تعلم السحر وقيل إنه أكرههم على المعارضة حيث روى أنهم قالوا لفرعون أرنا موسى نائما ففعل فوجدوه تحرسه عصاه فقالوا ما هذا بسحر فإن الساحر إذا نام بطل سحره فأبى إلا أن يعارضوه ويأباه تصديهم للمعارضة على الرغبة والنشاط كما يعرب عنه قولهم (أئن لنا لأجرا إن كنا نحن الغالبين) وقولهم(بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون) ﴿ والله خير ﴾ أى فى حد ذاته وهو ناظر إلى قولهم والذى فطرنا ﴿ وأبقى ﴾ أى جزاء ثوابا كان أو عذابا أوخير ثوابا وأبقى عذابا ، وقوله تعالى :

﴿ إنه ﴾ إلى آخر الشرطيتين تعليل من جهتهم لكونه تعالى خيراً وأبقى جزاء وتحقيق له وإبطال لما ادعاه فرعون وتصديرهما بضمير الشأن للتنبيه على فخامة مضمونهما لأن مناط وضع الضمير موضعه ادعاء شهرته المغنية عن ذكره مع ما فيه من زيادة التقرير فإن الضمير لايفهم منه من أول الأمر إلا شأن مبهم له خطر فيبقى الذهن مترقبا لما يعقبه فيتمكن عند وروده له فضل تمكن كأنه قيل إن الشأن الخطير هذا أى قوله تعالى ﴿ من يأت ربه مجرما ﴾ بأن مات على الكفر والمعاصى ﴿ فإن له جهنم لا يموت فيها ﴾ فينتهى عذابه وهذا تحقيق لكون عذابه أبقى ﴿ ولا يحيا ﴾ حياة ينتفع بها ﴿ ومن يأته مؤمنا ﴾ به تعالى وبما جاء من عنده من المعجزات التى من جملتها ما شاهدناه ﴿ قد عمل

الصالحات ﴾ الصالحة كالحسنة جارية مجرى الاسم ولذلك لا تذكر غالبا مع الموصوف وهى كل ما استقام من الأعمال بدليل العقل والنقل ﴿ فأولئك ﴾ إشارة إلى من والجمع باعتبار معناها كما أن الإفراد فى الفعلين السابقين باعتبار لفظها وما فيه من معنى البعد للإشعار بعلو درجتهم وبعد منزلتهم أى فأولئك المؤمنون العاملون للصالحات ﴿ لهم ﴾ بسبب إيمانهم وأعمالهم الصالحة ﴿ الدرجات العلى ﴾ أى المنازل الرفيعة وليس فيه ما يدل على عدم اعتبار الإيمان المجرد عن العمل الصالح فى استتباع الثواب لأن ما نيط بالإيمان المقرون بالأعمال الصالحة هو الفوز بالدرجات العلى لا بالثواب مطلقا وهل التشاجر إلا فيه ﴿ جنات عدن ﴾ بدل من الدرجات العلى أو بيان وقد مر أن عدنا علم لمعنى الإقامة أو لأرض الجنة فقوله تعالى ﴿ تجرى من تحتها الأنهار ﴾ حال من الجنات وقوله تعالى :

﴿ خالدين فيها ﴾ حال من الضمير فى لهم والعامل معنى الاستقرار أو الإشارة ﴿ وذلك ﴾ إشارة إلى ما أتيح لهم من الفوز بما ذكر من الدرجات العلى ومعنى البعد لما مر من التفخيم ﴿ جزاء من تزكى ﴾ أى تطهر من دنس الكفر والمعاصى بما ذكر من الإيمان والأعمال الصالحة وهذا تحقيق لكون ثوابه تعالى أبقى وتقديم ذكر حال المجرم للمسارعة إلى بيان أشدية عذابه ودوامه ردا على ما ادعاه فرعون بقوله (أينا أشد عذابا وأبقى) هذا وقد قيل هذه الآيات الثلاث ابتداء كلام من الله عز وجل قالوا ليس فى القرآن أن فرعون فعل بأولئك المؤمنين ما أوعدهم به ولم يثبت فى الأخبار .

نجاة موسى

﴿ ولقد أوحينا إلى موسى ﴾ حكاية إجمالية لما انتهى إليه أمر فرعون وقومه وقد طوى فى البين ذكر ما جرى عليهم من الآيات المفصلات الظاهرة على يد موسى عليه الصلاة والسلام بعد ما غلب السحرة فى نحو من عشرين

سنة حسبما فصل فى سورة الأعراف وتصديرها بالقسم لإبراز كمال العناية بمضمونها وأن فى قوله : ﴿ أن أسر بعبادى ﴾ إما مفسرة لأن الوحى فيه معنى القول أو مصدرية حذف عنها الجار والتعبير عنهم بعنوان كونهم عبادا له تعالى لإظهار المرحمة والاعتناء بأمرهم والتنبيه على غاية قبح صنيع فرعون بهم حيث استعبدهم وهم عباده عز وجل وفعل بهم من فنون الظلم ما فعل أى وبالله لقد أوحينا إليه عليه الصلاة والسلام أن أسر بعبادى الذين أرسلتك لإنقاذهم من ملك فرعون أى سر بهم من مصر ليلا ﴿ فاضرب لهم ﴾ أى فاجعل أو فاتخذ لهم ﴿ طريقا فى البحر يبسا ﴾ أى يابسا على أنه مصدر وصف به الفاعل مبالغة وقرىء يبسا وهو إما مخفف منه أو وصف كصعب أوجمع يابس كصحب وصف الواحد للمبالغة أو لتعدده حسب تعدد الأسباط ﴿ لا تخاف دركا ﴾ حال من المأمور أى آمنا من أن يدرككم العدو أو صفة أخرى لطريقا والعائد محذوف وقرىء لا تخف جوابا للأمر ﴿ ولا تخشى ﴾ عطف على لا تخاف داخل فى حكمه أى ولا تخشى الغرق وعلى قراءة الجزم استئناف أى وأنت لا تخشى أو عطف عليه والألف للإطلاق كما فى قوله تعالى(وتظنون بالله الظنونا) وتقديم نفى الخوف المذكور للمسارعة إلى إزاحة ما كانوا عليه من الخوف العظيم حيث قالوا إنا لمدركون .

﴿ فأتبعهم فرعون بجنوده ﴾ أى تبعهم ومعه جنوده حتى لحقوهم يقال اتبعتهم أى تبعتهم وذلك إذا كانوا سبقوك فلحقتهم ويؤيده أنه قرىء فاتبعهم من الافتعال وقيل المعنى أتبعهم فرعون نفسه فحذف المفعول الثانى وقيل الباء زائدة والمعنى فأتبعهم فرعون جنوده أى ساقهم خلفهم وأيا ما كان فالفاء فصيحة معربة عن مضمر قد طوى ذكره ثقة بغاية ظهوره وإيذانا بكمال مسارعة موسى عليه الصلاة والصلام إلى الامتثال بالأمر أى ففعل ماأمر به من الإسراء بهم وضرب الطريق وسلوكه فأتبعهم فرعون وجنوده براً وبحراً روى أن موسى عليه الصلاة والسلام خرج بهم أول الليل وكانوا ستمائة وسبعين ألفا فأخبر فرعون بذلك

فاتبعهم بعساكره وكانت مقدمته سبعمائة ألف فقف أثرهم فلحقهم بحيث تراءى الجمعان فعند ذلك ضرب عليه الصلاة والسلام بعصاه البحر فانفلق على اثنى عشر فرقا كل فرق كالطود العظيم فعبر موسى عليه الصلاة والسلام بمن معه من الأسباط سالمين وتبعهم فرعون بجنوده ﴿ فغشيهم من اليم ماغشيهم ﴾ أى علاهم منه وغمرهم ما غمرهم من الأمر الهائل الذى لا يقادر قدره ولا يبلغ كنهه وقيل غشيهم ما سمعت قصته وليس بذاك فإن مدار التهويل والتفخيم خروجه عن حدود الفهم والوصف لاسماع قصته وقرىء فغشاهم من اليم ماغشاهم أى غطاهم ما غطاهم والفاعل هو الله عز وعلا أو ما غشاهم وقيل فرعون لأنه الذى ورطهم للهلكة ويأباه الإظهار فى قوله تعالى:

﴿ وأضل فرعون قومه ﴾ أى سلك مسلكا أداهم إلى الخيبة والخسران فى الدين والدنيا معا حيث ماتوا على الكفر بالعذاب الهائل الدنيوى المتصل بالعذاب الخالد الأخروى وقوله تعالى ﴿ وما هدى ﴾ أى ما أرشدهم قط إلى طريق موصل إلى مطلب من المطالب الدينية والدنيوية تقرير لإضلاله وتأكيده إذ رب مضل قد يرشد من يضله إلى بعض مطالبه وفيه نوع تهكم به فى قوله (وما أهديكم إلا سبيل الرشاد) فإن نفى الهداية عن شخص مشعر بكونه ممن يتصور منه الهداية فى الجملة وذلك إنما يتصور فى حقه بطريق التهكم وحمل الإضلال والهداية على ما يختص بالدينى منهما يأباه مقام بيان سوقه بجنوده إلى مساق الهلاك الدنيوى وجعلهما عبارة عن الإضلال فى البحر والإنجاء منه مما لا يقبله العقل السليم.

إنعام على بنى إسرائيل

﴿ يا بنى إسرائيل ﴾ حكاية لما خاطبهم الله تعالى بعد إغراق فرعون وقومه وإنجائهم منهم لكن لا عقيب ذلك بل بعد ما أفاض عليهم من فنون النعم الدينية والدنيوية ما أفاض وقيل هو إنشاء خطاب للذين كانوا منهم فى عهد النبى عليه الصلاة والسلام على معنى أنه تعالى قد من عليهم بما فعل بآبائهم

أصالة وبهم تبعا ويرده ماسيأتى من قوله تعالى (وما أعجلك) الآية ضرورة استحالة حمله على الإنشاء فالوجه هو الحكاية بتقدير قلنا عطفا على أوحينا أى وقلنا يابنى إسرائيل ﴿ قد أنجيناكم من عدوكم ﴾ فرعون وقومه حيث كانوا يبغونكم الغوائل ويسومونكم سوء العذاب يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وقرىء نجيناكم ونجيتكم .

﴿ وواعدناكم جانب الطور الأيمن ﴾ بالنصب على أنه صفة للمضاف وقرىء بالجر للجوار أى واعدناكم بواسطة نبيكم إتيان جانبه الأيمن نظرا إلى السالك من مصر إلى الشام أى إتيان موسى عليه الصلاة والسلام للمناجاة وإنزال التوراة عليه ونسبت المواعيد إليهم مع كونها لموسى عليه الصلاة والسلام نظرا إلى ملابستها إياهم وسراية منفعتها إليهم وإيفاء لمقام الامتنان حقه كما فى قوله تعالى (ولقد خلقناكم ثم صورناكم) حيث نسب الخلق والتصوير إلى المخاطبين مع أن المخلوق المصور بالذات هو آدم عليه الصلاة والسلام وقرىء واعدتكم ووعدناكم ﴿ ونزلنا عليكم المن والسلوى ﴾ أى الترنجبين والسمان حيث كان ينزل عليهم المن وهم فى التيه مثل الثلج من الفجر إلى الطلوع لكل إنسان صاع ويبعث الجنوب عليهم السمان فيذبح الرجل منه ما يكفيه كما مر مراراً ﴿ كلوا ﴾ جملة مستأنفة مسوقة لبيان إباحة ما ذكر لهم وإتماما للنعمة عليهم ﴿ من طيبات ما رزقناكم ﴾ أى من لذائذه أو من حلالاته وقرىء رزقكم وفى البدء بنعمة الإنجاء ثم بالنعمة الدينية ثم بالنعمة الدنيوية من حسن النظم ولطف الترتيب ما لا يخفى ﴿ ولا تطغوا فيه ﴾ أى فيما رزقناكم بالإخلال بشكره والتعدى لما حد لكم فيه كالسرف والبطر والمنع من المستحق ﴿ فيحل عليكم غضبى ﴾ جواب للنهى أى فتلزمكم عقوبتى وتجب لكم من حل الدين إذا وجب أداؤه ﴿ ومن يحلل عليه غضبى فقد هوى ﴾ أى تردى وهلك وقيل وقع فى الهاوية وقرىء فيحل بضم الحاء من حل يحل إذا نزل ﴿ وإنى لغفار لمن تاب ﴾ من الشرك والمعاصى التى من جملتها الطغيان فيما ذكر

﴿ وآمن ﴾ بما يجب الإيمان به ﴿ وعمل صالحا ﴾ أى عملا صالحا مستقيما

عند الشرع والعقل وفيه ترغيب لمن وقع منه الطغيان فيما ذكر وحث على التوبة والإيمان .

وقوله تعالى ﴿ ثم اهتدى ﴾ أى استقام على الهدى إشارة إلى أن من لم يستمر عليه بمعزل من الغفران وثم للتراخى الرتبى ﴿ وما أعجلك عن قومك ياموسى ﴾ حكاية لما جرى بينه تعالى وبين موسى عليه الصلاة والسلام من الكلام عند ابتداء موافاته الميقات بموجب المواعدة المذكورة أى قلنا له أى شىء أعجلك منفردا عن قومك وهذا كما ترى سؤال عن سبب تقدمه على النقباء مسوق لإنكار انفراده عنهم لما فى ذلك بحسب الظاهر من مخايل إغفالهم وعدم الاعتداد بهم مع كونه مأموراً باستصحابهم وإحضارهم معه لا لإنكاره نفس العجلة الصادرة عنه عليه الصلاة والسلام لكونها نقيصة منافية للحزم اللائق بأولى العزم ولذلك أجاب عليه الصلاة والسلام بنفى الانفراد المنافى للاستصحاب والمعية حيث ﴿ قال هم أولاء على أثرى ﴾ يعنى إنهم معى وإنما سبقتهم بخطا يسيرة ظننت أنها لا تخل بالمعية ولا تقدح فى الاستصحاب فإن ذلك مما لا يعتد به فيما بين الرفقة أصلا وبعد ما ذكر عليه الصلاة والسلام أن تقدمه ذلك ليس لأمر منكر ذكر أنه لأمر مرضى حيث قال ﴿ وعجلت إليك رب لترضى ﴾ عنى بمسارعتى إلى الامتثال بأمرك واعتنائى بالوفاء بعهدك وزيادة رب لمزيد الضراعة والابتهال رغبة فى قبول العذر ﴿ قال ﴾ استئناف مبنى على سؤال نشأ من حكاية اعتذاره عليه الصلاة والسلام وهو السر فى وروده على صيغة الغائب لا أنه التفات من التكلم إلى الغيبة لما أن المقدر فيما سبق من الموضعين على صيغة التكلم كأنه قيل من جهة السامعين فماذا قال له ربه حينئذ فقيل قال ﴿ فإنا قد فتنا قومك من بعدك ﴾ أى ابتليناهم بعبادة العجل من بعد ذهابك من بينهم وهم الذين خلفهم مع هارون عليه الصلاة والسلام وكانوا ستمائة ألف ما نجا منهم من عبادة العجل إلا اثنا عشر ألفاً والفاء لترتيب الإخبار بما ذكر من الابتلاء على إخبار موسى عليه الصلاة والسلام بعجلته لكن لا لأن الإخبار بها سبب موجب للإخبار به بل لما بينهما من المناسبة المصححة للانتقال من أحدهما إلى الآخر من حيث أن

مدار الابتلاء المذكور عجلة القوم فإنه روى أنهم أقاموا على ما وصى به موسى عليه الصلاة والسلام عشرين ليلة بعد ذهابه فحسبوها مع أيامها أربعين وقالوا قد أكملنا العدة وليس من موسى عليه الصلاة والسلام عين ولا أثر ﴿ وأضلهم السامرى ﴾ حيث كان هو المدبر فى الفتنة فقال لهم إنما أخلف موسى عليه الصلاة والسلام ميعادكم لما معكم من حلى القوم وهو حرام عليكم فكان من أمر العجل ما كان فإخباره تعالى بوقوع هذه الفتنة عند قدومه عليه الصلاة والسلام إما باعتبار تحققها فى علمه تعالى ومشيئته وإما بطريق التعبير عن المتوقع بالواقع كما فى قوله تعالى (ونادى أصحاب الجنة) ونظائره أو لأن السامرى كان قد عزم على إيقاع الفتنة عند ذهاب موسى عليه الصلاة والسلام وتصدى لترتيب مبانيها وتمهيد مباديها فكانت الفتنة واقعة عند الإخبار بها وقرىء وأضلهم السامرى على صيغة التفضيل أى أشدهم ضلالا لأنه ضال ومضل والسامرى منسوب إلى قبيلة من بنى إسرائيل يقال لها السامرة وقيل كان علجا من كرمان وقيل من أهل باجرما واسمه موسى بن ظفر وكان منافقا قد أظهر الإسلام وكان من قوم يعبدون البقر ﴿ فرجع موسى إلى قومه ﴾ عند رجوعه المعهود أى بعد ما استوفى الأربعين وأخذ التوراة لا عقيب الإخبار بالفتنة فسببية ما قبل الفاء لما بعدها إنما هى باعتبار قيد الرجوع المستفاد من قوله تعالى ﴿ غضبان أسفا ﴾ لا باعتبار نفسه وإن كانت داخلة عليه حقيقة فإن كون الرجوع بعد تمام الأربعين أمر مقرر مشهور لا يذهب الوهم إلى كونه عند الإخبار بالفتنة كما إذا قلت شايعت الحجاج ودعوت لهم بالسلامة فرجعوا سالمين فإن أحدا لا يرتاب فى أن المراد رجوعهم المعتاد لا رجوعهم إثر الدعاء وأن سببية الدعاء باعتبار وصف السلامة لا باعتبار نفس الرجوع والأسف الشديد الغضب وقيل الحزين ﴿ قال ﴾ استئناف مبنى على سؤال ناشىء من حكاية رجوعه كذلك كأنه قيل فماذا فعل بهم فقيل قال ﴿ ياقوم ألم يعدكم ربكم وعدا حسنا ﴾ بأن يعطيكم التوراة فيها ما فيها من النور والهدى والهمزة لإنكار عدم الوعد ونفيه وتقرير وجوده على أبلغ وجه وآكده أى وعدكم بحيث لا سبيل لكم إلى إنكاره والفاء فى قوله تعالى

﴿ أفطال عليكم العهد ﴾ أى الزمان للعطف على مقدر والهمزة لإنكار المعطوف ونفيه فقط أى أوعدكم ذلك فطال زمان الإنجاز فأخطأتم بسببه ﴿ أم أردتم أن يحل ﴾ أى يجب ﴿ عليكم غضب ﴾ شديد لا يقادر قدره كائن ﴿ من ربكم ﴾ أى من مالك أمركم على الإطلاق ﴿ فأخلفتم موعدى ﴾ أى وعدكم إياى بالثبات على ما أمرتكم به إلى أن أرجع من الميقات على إضافة المصدر إلى مفعوله للقصد إلى زيادة تقبيح حالهم فإن إخلافهم الوعد الجارى فيما بينهم وبينه عليه السلام من حيث إضافته إليه عليه السلام أشنع منه من حيث إضافته إليهم والفاء لترتيب ما بعدها على كل واحد من شقى الترديد على سبيل البدل كأنه قيل أنسيتم الوعد بطول العهد فأخلفتموه خطأ أم أردتم حلول الغضب عليكم فأخلفتموه عمدا وأما جعل الموعد مضافا إلى فاعله وحمل إخلافه على معنى وجدان الخلف فيه أى فوجدتم الخلف فى موعدى لكم بالعود بعد الأربعين فمما لا يساعده [السباق ولا][1] السياق أصلا .

﴿ قالوا ما أخلفنا موعدك ﴾ أى وعدنا إياك الثبات على ما أمرتنا به وإيثاره على أن يقال موعدنا على إضافة المصدر إلى فاعله لما مر آنفا ﴿ بملكنا ﴾ أى بأن ملكنا أمورنا يعنون أنا لو خلينا وأمورنا ولم يسول لنا السامرى ما سوله مع مساعدة بعض الأحوال لما أخلفناه وقرىء بملكنا بكسر الميم وضمها والكل لغات فى مصدر ملكت الشىء ﴿ ولكنا حملنا أوزارا من زينة القوم ﴾ استدراك عما سبق واعتذار عما فعلوا ببيان منشأ الخطأ وقرىء حملنا بالتخفيف أى حملنا أحمالا من حلى القبط التى استعرناها منهم حين هممنا بالخروج من مصر باسم العرس وقيل كانوا استعاروها لعيد كان لهم ثم لم يردوها إليهم عند الخروج مخافة أن يقفوا على أمرهم وقيل هى ما ألقاه البحر على الساحل بعد إغراقهم فأخذوها ولعل تسميتهم لها أوزارا لأنها تبعات وآثام حيث لم تكن

---

(١) سقطت من ١٠ .

الغنائم تحل حينئذ ﴿ فقذفناها ﴾ أى فى النار رجاء للخلاص عن ذنبها ﴿ فكذلك ﴾ أى فمثل ذلك القذف ﴿ ألقى السامرى ﴾ أى ما كان معه منها وقد كان أراهم أنه أيضاً يلقى ما كان معه من الحلى فقالوا ما قالوا على زعمهم وإنما كان الذى ألقاه التربة التى أخذها من أثر الرسول كما سيأتى روى أنه قال لهم إنما تأخر موسى عنكم لما معكم من الأوزار فالرأى أن نحفر حفيرة ونسجر فيها نارا ونقذف فيها كل ما معنا ففعلوا .

﴿ فأخرج ﴾ أى السامرى ﴿ لهم ﴾ للقائلين ﴿ عجلا ﴾ من تلك الحلى المذابة وتأخيره مع كونه مفعولا صريحا عن الجار والمجرور لما مر مرارا من الاعتناء بالمقدم والتشويق إلى المؤخر مع ما فيه من نوع طول يخل تقديمه بتجاوب أطراف النظم الكريم فإن قوله تعالى ﴿ جسدا ﴾ أى جثة ذا دم ولحم أو جسدا من ذهب لا روح له بدل منه وقوله تعالى ﴿ له خوار ﴾ أى صوت عجل نعت له ﴿ فقالوا ﴾ أى السامرى ومن افتتن به أول ما رآه ﴿ هذا إلهكم وإله موسى فنسى ﴾ أى غفل عنه وذهب يطلبه فى الطور وهذا حكاية لنتيجة فتنة السامرى فعلا وقولا من جهته تعالى قصدا إلى زيادة تقريرها ثم ترتيب الإنكار عليها لا من جهة القائلين وإلا لقيل فأخرج لنا والحمل على أن عدولهم إلى ضمير الغيبة لبيان أن الإخراج والقول المذكورين للكل لا للعبدة فقط خلاف الظاهر مع أنه مخل باعتذارهم فإن مخالفة بعضهم للسامرى وعدم افتتانهم بتسويله مع كون الإخراج والخطاب لهم مما يهون مخالفته للمعتذرين فافتتانهم بعد ذلك أعظم جناية وأكثر شناعة وأما ما قيل من أن المعتذرين هم الذين لم يعبدوا العجل وأن نسبة الإخلاف فيما بيننا بأمر كنا نملكه بل تمكنت الشبهة فى قلوب العبدة حيث فعل السامرى ما فعل فأخرج لهم ما أخرج وقال ما قال فلم نقدر على صرفهم عن ذلك ولم نفارقهم مخافة ازدياد الفتنة فيقضى بفساده سباق النظم الكريم وسياقه وقوله تعالى :

﴿ أفلا يرون ﴾ الخ إنكار وتقبيح من جهته تعالى لحال الضالين والمضلين جميعا وتسفيه لهم فيما أقدموا عليه من المنكر الذى لا يشتبه بطلانه واستحالته

على أحد وهو اتخاذه إلها والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام أى ألا يتفكرون فلا يعلمون ﴿ أن لا يرجع إليهم قولا ﴾ أى أنه لا يرجع إليهم كلاما ولا يرد عليهم جوابا فكيف يتوهمون أنه إله وقرىء يرجع بالنصب قالوا فالرؤية حينئذ بصرية فإن أن الناصبة لا تقع بعد أفعال اليقين أى ألا ينظرون فلا يبصرون عدم رجعه إليهم قولا من الأقوال وتعليق الإبصار بما ذكر مع كونه أمرا عدميا للتنبيه على كمال ظهوره المستدعى لمزيد تشنيعهم وتركيك عقولهم وقوله تعالى ﴿ ولا يملك لهم ضرا ولا نفعا ﴾ عطف على لا يرجع داخل معه فى حيز الرؤية أى أفلا يرون أنه لا يقدر على أن يدفع عنهم ضرا أو يجلب لهم نفعا أو لا يقدر على أن يضرهم إن لم يعبدوه أو ينفعهم إن عبدوه ﴿ ولقد قال لهم هرون من قبل ﴾ جملة قسمية مؤكدة لما قبلها من الإنكار والتشنيع ببيان عتوهم واستعصائهم على الرسول إثر بيان مكابرتهم لقضية العقول أى وبالله لقد نصح لهم هرون ونبههم على كنه الأمر من قبل رجوع موسى عليه الصلاة والسلام إليهم وخطابه إياهم بما ذكر من المقالات وقيل من قبل قول السامرى كأنه عليه السلام أول ما أبصره حين طلع من الحفيرة توهم منهم الافتتان به فسارع إلى تحذيرهم وقال لهم ﴿ ياقوم إنما فتنتم به ﴾ أى أوقعتم فى الفتنة بالعجل أو أضللتم به على توجيه القصر المستفاد من كلمة إنما إلى نفس الفعل بالقياس إلى مقابله الذى يدعيه القوم لا إلى قيده المذكور بالقياس إلى قيد آخر على معنى إنما فعل بكم الفتنة لا الإرشاد إلى الحق لا على معنى إنما فتنتم بالعجل لا بغيره وقوله تعالى ﴿ وإن ربكم الرحمن ﴾ بكسر إن عطفا على إنما إرشاد لهم إلى الحق إثر زجرهم عن الباطل والتعرض لعنوان الربوبية والرحمة للاعتناء باستمالتهم إلى الحق كما أن التعرض لوصف العجل للاهتمام بالزجر عن الباطل أى إن ربكم المستحق للعبادة هو الرحمن لا غير والفاء فى قوله تعالى ﴿ فاتبعونى ﴾ لترتيب ما بعدها على ما قبلها من مضمون الجملتين أى إذا كان الأمر كذلك فاتبعونى فى الثبات على الدين ﴿ وأطيعوا أمرى ﴾ هذا واتركوا عبادة ما عرفتم شأنه .

﴿ قالوا ﴾ فى جواب هرون عليه السلام ﴿ لن نبرح عليه ﴾ على العجل

وعبادته ﴿ عاكفين ﴾ مقيمين ﴿ حتى يرجع إلينا موسى ﴾ جعلوا رجوعه عليه السلام إليهم غاية لعكوفهم على عبادة العجل لكن لا على طريق الوعد بتركها عند رجوعه عليه السلام بل بطريق التعلل والتسويف وقد دسوا تحت ذلك أنه عليه السلام لا يرجع بشيء مبين تعويلا على مقالة السامرى روى أنهم لما قالوه اعتزلهم هرون عليه السلام فى اثنى عشر ألفا وهم الذين لم يعبدوا العجل فلما رجع موسى عليه السلام وسمع الصياح وكانوا يرقصون حول العجل قال للسبعين الذين كانوا معه هذا صوت الفتنة فقال لهم ما قال وسمع منهم ما قالوا وقوله تعالى ﴿ قال ﴾ استئناف مبنى على سؤال نشأ من حكاية جوابهم لهرون عليه السلام كأنه قيل فماذا قال موسى لهرون عليهما السلام حين سمع جوابهم له وهل رضى بسكوته بعد ما شاهد منهم ما شاهد فقيل قال له وهو مغتاظ قد أخذ بلحيته ورأسه .

غضب موسى

﴿ يا هرون ما منعك إذ رأيتهم ضلوا ﴾ بعبادة العجل وبلغوا من المكابرة إلى أن شافهوك بتلك المقالة الشنعاء ﴿ أن لا تتبعنى ﴾ أى أن تتبعنى على أنه لا مزيدة وهو مفعول ثان لمنع وهو عامل فى إذ أى أى شىء منعك حين رؤيتك لضلالهم من أن تتبعنى فى الغضب لله تعالى والمقاتلة مع من كفر به وقيل المعنى ما حملك على أن لا تتبعنى فإن المنع عن الشىء مستلزم للحمل على مقابله وقيل ما منعك أن تلحقنى وتخبرنى بضلالهم فتكون مفارقتك مزجرة لهم وفيه أن نصائح هرون عليه السلام حيث لم تزجرهم عما كانوا عليه فلأن لا تزجرهم مفارقته إياهم عنه أولى والاعتذار بأنهم إذا علموا أنه يلحقه ويخبره بالقصة يخافون رجوع موسى عليه السلام فينزجروا عن ذلك بمعزل من حيز القبول كيف ولا وهم قد صرحوا بأنهم عاكفون عليه إلى رجوعه عليه السلام .

﴿ أفعصيت أمرى ﴾ أى بالصلابة فى الدين والمحاماة عليه فإن قوله له عليهما السلام اخلفنى متضمن للأمر بهما حتما فإن الخلافة لا تتحقق إلا بمباشرة

الخليفة ما كان يباشره المستخلف لو ﴿ قال يا ابن أم ﴾ خص الأم بالإضافة استعطافا لحقها وترقيقا لقلبه لا لما قيل من أنه كان أخاه لأم فإن الجمهور على أنهما كانا شقيقين ﴿ لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي ﴾ أي ولا بشعر رأسي روى أنه عليه السلام أخذ شعر رأسه بيمينه ولحيته بشماله من شدة غيظه وفرط غضبه لله وكان عليه السلام حديداً متصلبا في كل شيء فلم يتمالك حين رآهم يعبدون العجل ففعل ما فعل وقوله تعالى ﴿ إني خشيت ﴾ الخ استئناف سيق لتعليل موجب النهي ببيان الداعي إلى ترك المقاتلة وتحقيق أنه غير عاص لأمره بل ممتثل به أي إني خشيت لو قاتلت بعضهم ببعض وتفانوا وتفرقوا ﴿ أن تقول فرقت بين بني إسرائيل ﴾ برأيك مع كونهم أبناء واحد كما ينبيء عنه ذكرهم بذلك العنوان دون القوم ونحوه وأراد عليه السلام بالتفريق ما يستتبعه القتال من التفريق الذي لا يرجى بعده الاجتماع ﴿ ولم ترقب قولي ﴾ يريد به قوله عليه السلام اخلفني في قومي وأصلح الخ يعني إني رأيت أن الإصلاح في حفظ الدهماء والمداراة معهم[1] إلى أن ترجع إليهم فلذلك استأنيتك لتكون أنت المتدارك للأمر حسبما رأيت لا سيما وقد كانوا في غاية القوة ونحن على القلة والضعف كما يعرب عنه قوله تعالى (إن القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني) .

﴿ قال ﴾ استئناف وقع جوابا عما نشأ من حكاية ما سلف من اعتذار القوم بإسناد الفساد إلى السامري واعتذار هرون عليه السلام كأنه قيل فماذا صنع موسى عليه السلام بعد سماع ما حكى من الاعتذارين واستقرار الفتنة على السامري فقيل قال موبخا له هذا شأنهم ﴿ فما خطبك يا سامري ﴾ أي ما شأنك وما مطلوبك بما فعلت خاطبه عليه السلام بذلك ليظهر للناس بطلان كيده باعترافه ويفعل به وبما صنعه من العقاب ما يكون نكالا للمفتونين به ولمن خلفهم من الأمم ﴿ قال ﴾ أي السامري مجيبا له عليه السلام ﴿ بصرت بما لم يبصروا به ﴾

---

(١) في ١٠ ومدارتهم .

بضم الصاد فيهما وقرىء بكسرها فى الأول وفتحها فى الثانى وقرىء بالتاء على الوجهين على خطاب موسى عليه السلام وقومه أى علمت ما لم يعلمه القوم وفطنت لما لم يفطنوا له أو رأيت ما لم يروه وهو الأنسب بما سيأتى من قوله (وكذلك سولت لى نفسى) لا سيما على القراءة بالخطاب فإن ادعاء علم ما لم يعلمه موسى عليه السلام جرأة عظيمة لا تليق بشأنه ولا بمقامه بخلاف ادعاء رؤية ما لم يره عليه السلام فإنها مما يقع بحسب ما يتفق وقد كان رآى أن جبريل عليه السلام جاء راكب فرس وكان كلما رفع الفرس يديه أو رجليه على الطريق اليبس يخرج من تحته النبات فى الحال فعرف أن له شأنا فأخذ من موطئه حفنة وذلك قوله تعالى ﴿ فقبضت قبضة من أثر الرسول ﴾ وقرىء من أثر فرس الرسول أى من تربة موطىء فرس الملك الذى أرسل إليك ليذهب بك إلى الطور ولعل ذكره بعنوان الرسالة للإشعار بوقوفه على ما لم يقف عليه القوم من الأسرار الإلهية تأكيدا لما صدر به مقالته والتنبيه على وقت أخذ ما أخذه والقبضة المرة من القبض أطلقت على المقبوض مرة وقرىء بضم القاف وهو اسم المقبوض كالغرفة والمضغة وقرىء فقبصت قبصة بالصاد المهملة والأول للأخذ بجميع الكف والثانى بأطراف الأصابع ونحوهما الخضم والقضم ﴿ فنبذتها ﴾ أى فى الحلى المذابة فكان ما كان ﴿ وكذلك سولت لى نفسى ﴾ أى ما فعلته من القبض والنبذ فقوله تعالى ذلك إشارة إلى مصدر الفعل المذكور بعده ومحل كذلك فى الأصل النصب على أنه مصدر تشبيهى أى نعت لمصدر محذوف والتقدير سولت لى نفسى تسويلا كائنا مثل ذلك التسويل فقدم على الفعل لإفادة القصر واعتبرت الكاف مقحمة لإفادة تأكيد ما أفاده اسم الإشارة من الفخامة فصار نفس المصدر المؤكد لا نعتا له أى ذلك التزيين البديع زينت لى نفسى ما فعلته لا تزيينا أدنى منه ولذلك فعلته وحاصل جوابه أن ما فعله إنما صدر عنه بمحض اتباع هوى النفس الأمارة بالسوء وإغوائها لا بشىء آخر من البرهان العقلى أو الإلهام الإلهى.

فعند ذلك ﴿ قال ﴾ عليه السلام ﴿ فاذهب ﴾ أى من بين الناس وقوله تعالى ﴿ فإن

لك فى الحيوة ﴾ الخ تعليل لموجب الأمر وفى متعلقه بالاستقرار فى لك أى ثابت لك فى الحياة أو بمحذوف وقع حالا من الكاف والعامل معنى الاستقرار فى الظرف المذكور لاعتماده على ما مبتدأ معنى لا بقوله تعالى ﴿ أن تقول لا مساس ﴾ لمكان أن أى ثابت لك كائنا فى الحياة أى مدة حياتك أن تفارقهم مفارقة كلية لكن لا بحسب الاختيار بموجب التكليف بل بحسب الاضطرار الملجىء إليها وذلك أنه تعالى رماه بداء عقام لا يكاد يمس أحدا أو يمسه أحد كائنا من كان إلا حما من ساعته حمى شديدة فتحامى الناس وتحاموه وكان يصيح بأقصى طوقه لامساس وحرم عليهم ملاقاته ومواجهته ومكالمته ومبايعته وغيرها مما يعتاد جريانه فيما بين الناس من المعاملات وصار بين الناس أوحش من القاتل اللاجىء إلى الحرم ومن الوحش النافر فى البرية ويقال إن قومه باق فيهم تلك الحالة إلى اليوم وقرىء لا مساس كفجار وهو علم للمسة ولعل السر فى مقابلة جنايته بتلك العقوبة خاصة ما بينهما من مناسبة التضاد فإنه لما أنشأ الفتنة بما كانت ملابسته سببا لحياة الموات عوقب بما يضاده حيث جعلت ملابسته سببا للحمى التى هى من أسباب موت الأحياء ﴿ وإن لك موعدا ﴾ أى فى الآخرة ﴿ لن تخلفه ﴾ أى لن يخلفك الله ذلك الوعد بل ينجزه لك البتة بعد ما عاقبك فى الدنيا وقرىء بكسر اللام وإلا ظهر أنه من أخلفت الموعد أى وجدته خلفا وقرىء بالنون على حكاية قوله عز وجل ﴿ وانظر إلى إلهك الذى ظلت عليه عاكفا ﴾ أى ظللت مقيما على عبادته فحذفت اللام الأولى تخفيفا وقرىء بكسر الظاء بنقل حركة اللام إليها ﴿ لنحرقنه ﴾ جواب قسم محذوف أى بالنار ويؤيده قراءة لنحرقنه من الإحراق وقيل بالمبرد على أنه مبالغة فى حرق إذا برد بالمبرد ويعضده قراءة لنحرقنه.

﴿ ثم لننسفنه ﴾ أى لنذرينه وقرىء بضم السين ﴿ فى اليم ﴾ رمادا أو مبردا كأنه هباء ﴿ نسفا ﴾ بحيث لا يبقى منه عين ولا أثر ولقد فعل عليه السلام ذلك كله حينئذ كما يشهد به الأمر بالنظر وإنما لم يصرح به تنبيها على كمال ظهوره واستحالة الخلف فى وعده المؤكد باليمين ﴿ إنما إلهكم الله ﴾ استئناف

مسوق لتحقيق الحق إثر إبطال الباطل بتلوين الخطاب وتوجيهه إلى الكل أى إنما معبودكم المستحق للعبادة الله ﴿ الذى لا إله ﴾ فى الوجود لشىء من الأشياء ﴿ إلا هو ﴾ وحده من غير أن يشاركه شىء من الأشياء بوجه من الوجوه التى من جملتها أحكام الألوهية وقرىء الله لا إله إلا هو الرحمن رب العرش وقوله تعالى ﴿ وسع كل شىء علما ﴾ أى وسع علمه كل ما من شأنه أن يعلم بدل من الصلة كأنه قيل إنما إلهكم الله الذى وسع كل شىء علما لا غيره كائنا ما كان فيدخل فيه العجل دخولا أوليا وقرىء وسع بالتشديد فيكون انتصاب علما على المفعولية لأنه على القراءة الأولى فاعل حقيقة وبنقل الفعل إلى التعدية إلى المفعولين صار الفاعل مفعولا أول كأنه قيل وسع علمه كل شىء وبه تم حديث موسى عليه السلام المذكور لتقرير أمر التوحيد حسبما نطقت به خاتمته وقوله تعالى ﴿ كذلك نقص عليك ﴾ كلام مستأنف خوطب به النبى عليه السلام بطريق الوعد الجميل بتنزيل أمثال ما مر من أنباء الأمم السالفة وذلك إشارة إلى اقتصاص حديث موسى عليه السلام وما فيه من معنى البعد للإيذان بعلو رتبته وبعد منزلته فى الفضل ومحل الكاف النصب على أنه نعت لمصدر مقدر أى نقص عليك ﴿ أنباء ما قد سبق ﴾ من الحوادث الماضيه الجارية على الأمم الخالية قصا مثل ذلك القص المار والتقديم للقصر المفيد لزيادة التعيين ومن فى قوله تعالى (من أنباء) فى حيز النصب إما على أنه مفعول نقص باعتبار مضمرنه وأما على أنه متعلق بمحذوف هو صفة للمفعول كما فى قوله تعالى (ومنا دون ذلك) أى جمع دون ذلك والمعنى نقص عليك بعض أنباء ما قد سبق أو بعضا كائنا من أنباء ما قد سبق وقد مر تحقيقه فى تفسير قوله تعالى (ومن الناس من يقول) إلخ وتأخيره عن عليك لما مر مراراً الاعتناء بالمقدم والتشويق إلى المؤخر أى مثل ذلك القص البديع الذى سمعته نقص عليك ما ذكر من الأنباء لا قصا ناقصا عنه تبصرة لك وتوقيرا لعلمك وتكثيراً لمعجزاتك وتذكيراً للمستبصرين من أمتك .

﴿ وقد آتيناك من لدنا ذكراً ﴾ أى كتاباً منطوياً على الأقاصيص والأخبار

حقيقاً بالتفكير والاعتبار وكلمة من متعلقة بآتيناك وتنكير ذكراً للتفخيم وتأخيره عن الجار والمجرور لما أن مرجع الإفادة فى الجملة كون المؤتى من لدنه تعالى ذكراً عظيما وقرآنا كريما جامعا لكل كمال لا كون ذلك الذى مر مؤتى من لدنه عز وجل مع مافيه من نوع طول بما بعده من الصفة فتقديمه يذهب برونق النظم الكريم ﴿ من أعرض عنه ﴾ عن ذلك الذكر العظيم الشأن المستتبع لسعادة الدارين وقيل عن الله عز وجل ومن إما شرطية أو موصولة وأيا ما كانت فالجملة صفة لذكرا ﴿ فإنه ﴾ أى المعرض عنه ﴿ يحمل يوم القيامة وزرا ﴾ أى عقوبة ثقيلة فادحة على كفره وسائر ذنوبه وتسميتها وزرا إما لتشبيهها فى ثقلها على المعاقب وصعوبة احتمالها بالحمل الذى يفدح الحامل وينقض ظهره أو لأنها جزاء الوزر وهو الإثم والأول هو الأنسب بما سيأتى من تسميتها حملا وقوله تعالى ﴿ خالدين فيه ﴾ أى فى الوزر أو فى احتماله المستمر حال من المستكن فى يحمل والجمع بالنظر إلى معنى من لما أن الخلود فى النار مما يتحقق حال اجتماع أهلها كما أن الإفراد فيما سبق من الضمائر الثلاثة بالنظر إلى لفظها ﴿ وساء لهم يوم القيامة حملا ﴾ أى بئس لهم ففيه ضمير مبهم يفسره حملا والمخصوص بالذم محذوف أى ساء حملا وزرهم واللام للبيان كما فى هيت لك كأنه لما قيل ساء قيل لمن يقال هذا فأجيب لهم وإعادة يوم القيامة لزيادة التقرير وتهويل الأمر .

من أهوال البعث

﴿ يوم ينفخ فى الصور ﴾ بدل من يوم القيامة أو منصوب بإضمار اذكر أو ظرف لمضمر قد حذف للإيذان بضيق العبارة عن حصره وبيانه حسبما مر فى تفسير قوله تعالى (يوم يجمع الله الرسل) وقوله تعالى (يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً) وقرىء ننفخ بالنون على إسناد النفخ إلى الآمر به تعظيما له وبالياء المفتوحة على أن ضميره لله عز وجل أو لإسرافيل عليه السلام وإن لم يجر ذكره لشهرته ﴿ ونحشر المجرمين يومئذ ﴾ أى يوم إذ ينفخ فى الصور وذكره صريحا مع

تعين أن الحشر لا يكون إلا يومئذ للتهويل وقرىء ويحشر المجرمون ﴿ زرقا ﴾ أى حال كونهم زرق العيون وإنما جعلوا كذلك لأن الزرقة أسوأ ألوان العين وأبغضها إلى العرب فإن الروم الذين كانوا أعدى عدوهم زرق ولذلك قالوا فى صفة العدو أسود الكبد وأصهب السبال وأزرق العين أو عميا لأن حدقة الأعمى تزرق وقوله تعالى ﴿ يتخافتون بينهم ﴾ أى يخفضون أصواتهم ويخفونها لما يملأ صدورهم من الرعب والهول استئناف ببيان ما يأتون وما يذرون حينئذ أو حال أخرى من المجرمين أى يقول بعضهم لبعض بطريق المخافتة ﴿ إن لبثتم ﴾ أى ما لبثتم فى الدنيا ﴿ إلا عشراً ﴾ أى عشر ليال استقصارا لمدة لبثهم فيها لزوالها أو لاستطالتهم مدة الآخرة أو لتأسفهم عليها لما عاينوا الشدائد وأيقنوا أنهم استحقوها على إضاعتها فى قضاء الأوطار واتباع الشهوات أو فى القبر وهو الأنسب بحالهم فإنهم حين يشاهدون البعث الذى كانوا ينكرونه فى الدنيا ويعدونه من قبيل المحالات لا يتمالكون من أن يقولوا ذلك اعترافا به وتحقيقاً لسرعة وقوعه كأنهم قالوا قد بعثتم وما لبثتم فى القبر إلا مدة يسيرة وإلا فحالهم أفظع من أن تمكنهم من الاشتغال بتذكر أيام النعمة والسرور واستقصارها والتأسف عليها ﴿ نحن أعلم بما يقولون ﴾ وهو مدة لبثهم .

﴿ إذ يقول أمثلهم طريقة ﴾ أى أعدلهم رأيا أو عملا ﴿ إن لبثتم إلا يوما ﴾ ونسبة هذا القول إلى أمثلهم استرجاح منه تعالى له لكن لا لكونه أقرب إلى الصدق بل لكونه أدل على شدة الهول ﴿ ويسألونك عن الجبال ﴾ أى عن مآل أمرها وقد سأل عنه رجل من ثقيف وقيل مشركو مكة على طريق الاستهزاء ﴿ فقل ينسفها ربى نسفا ﴾ أى يجعلها كالرمل ثم يرسل عليها الرياح فتفرقها والفاء للمسارعة إلى إلزام السائلين ﴿ فيذرها ﴾ الضمير إما للجبال باعتبار أجزائها السافلة الباقية بعد النسف وهى مقارها ومراكزها أى فيذر ما انبسط منها وساوى سطحه سطوح سائر أجزاء الأرض بعد نسف ما نتأ منها ونشز وإما للأرض المدلول عليها بقرينة الحال لأنها الباقية بعد نسف الجبال وعلى التقديرين يذر الكل ﴿ قاعاً صفصفا ﴾ لأن الجبال إذا سويت وجعل سطحها مساويا

لسطوح سائر أجزاء الأرض فقد جعل الكل سطحا واحدا والقاع [قيل][٢] السهل وقيل المنكشف من الأرض وقيل المستوى الصلب منها وقيل ما لا نبات فيه ولا بناء والصفصف الأرض المستوية الملساء كأن أجزاءه صف واحد من كل جهة وانتصاب قاعا على الحالية من الضمير المنصوب أو هو مفعول ثان ليذر على تضمين معنى التصيير وصفصفا إما حال ثانية أو بدل من المفعول الثانى وقوله تعالى ﴿ لا ترى فيها ﴾ أى فى مقار الجبال أو فى الأرض على ما مر من التفصيل ﴿عوجا ﴾ بكسر العين أى اعوجاجا ما كأنه لغاية خفائه من قبيل مافى المعانى أى لا تدركه إن تأملت بالمقاييس الهندسية ﴿ ولا أمتا ﴾ أى نتوءا يسيرا استئناف مبين لكيفية ما سبق من القاع الصفصف أو حال أخرى أو صفة لقاعا والخطاب لكل أحد ممن تتأتى منه الرؤية وتقديم الجار والمجرور على المفعول الصريح لما مر مرارا من الاهتمام بالمقدم والتشويق إلى المؤخر مع ما فيه من طول ربما يخل تقديمه بتجاوب أطراف النظم الكريم ﴿ويومئذ﴾ أى يوم إذ نسفت الجبال على إضافة اليوم إلى وقت النسف وهو ظرف لقوله تعالى ﴿ يتبعون الداعى ﴾ وقيل بدل من يوم القيامة وليس بذاك أى يتبع الناس داعى الله عز وجل إلى المحشر وهو إسرافيل عليه السلام يدعو الناس عند النفخة الثانية قائما على صخرة بيت المقدس ويقول أيتها العظام النخرة والأوصال المتفرقة واللحوم المتمزقة قومى الى عرض[١] الرحمن فيقبلون من كل أوب إلى صوبه ﴿ لا عوج له ﴾ لا يعوج له مدعو ولا يعدل عنه .

﴿ وخشعت الأصوات للرحمن ﴾ أى خضعت لهيبته ﴿فلا تسمع إلا همسا ﴾ أى صوتا خفيا ومنه الهميس لصوت أخفاف الإبل وقد فسر الهمس بخفق أقدامهم ونقلها إلى المحشر ﴿ يومئذ ﴾ أى يوم إذ يقع ما ذكر من الأمور الهائلة ﴿ لا تنفع الشفاعة ﴾ من الشفعاء أحدا ﴿ إلا من أذن له الرحمن ﴾ أن يشفع

---

(١) سقطت من ١٠ .

(٢) فى ٤٣٠ ساحة

له ﴿ ورضى له قولا ﴾ أى ورضى لأجله قول الشافع فى شأنه أو رضى قوله لأجله وفى شأنه وأما من عداه فلا تكاد تنفعه وإن فرض صدورها عن الشفعاء المتصدين للشفاعة للناس كقوله تعالى (فما تنفعهم شفاعة الشافعين) فالاستثناء كما ترى من أعم المفاعيل وأما كونه استثناء من الشفاعة على معنى لا تنفع الشفاعة إلا شفاعة من أذن له الرحمن أن يشفع لغيره كما جوزوه فلا سبيل اليه لما أن حكم الشفاعة ممن لم يؤذن له أن لا يملكها ولا تصدر هى عنه أصلا كما فى قوله تعالى (لا يملكون الشفاعة إلا من اتخذ عند الرحمن عهدا) وقوله تعالى(ولا يشفعون إلا لمن ارتضى) فالإخبار عنها بمجرد عدم نفعها للمشفوع له ربما يوهم إمكان صدورها عمن لم يؤذن له مع إخلاله بمقتضى مقام تهويل اليوم وأما قوله تعالى (ولايقبل منها شفاعة) فمعناه عدم الإذن فى الشفاعة لا عدم قبولها بعد وقوعها ﴿ يعلم ما بين أيديهم ﴾ أى ما تقدمهم من الأحوال وقيل من أمر الدنيا ﴿ وما خلفهم ﴾ وما بعدهم مما يستقبلونه وقيل من أمر الآخرة ﴿ ولا يحيطون به علما ﴾ أى لا تحيط علومهم بمعلوماته تعالى وقيل بذاته أى من حيث اتصافه بصفات الكمال التى من جملتها العلم الشامل وقيل الضمير لأحد الموصولين أو لمجموعهما فإنهم لا يعلمون جميع ذلك ولا تفصيل ما علموا منه ﴿ وعنت الوجوه للحى القيوم ﴾ أى ذلت وخضعت خضوع العناة أى الأسارى فى يد الملك القهار ولعلها وجوه المجرمين كقوله تعالى (سيئت وجوه الذين كفروا) ويؤيده قوله تعالى ﴿ وقد خاب من حمل ظلما ﴾ قال ابن عباس رضى الله عنهما خسر من أشرك بالله ولم يتب وهو استئناف لبيان ما لأجله عنت وجوههم أو اعتراض كأنه قيل خابوا وخسروا وقيل حال من الوجوه ومن عبارة عنها مغنية عن ضميرها وقيل الوجوه على العموم فالمعنى حينئذ وقد خاب من حمل ظلما فقوله تعالى ﴿ ومن يعمل من الصالحات ﴾ الخ قسيم لقوله (وقد خاب من حمل ظلما) لا لقوله تعالى (وعنت الوجوه) الخ كما أنه كذلك على الوجه الأول أى ومن يعمل بعض الصالحات أو بعضا من الصالحات على أحد الوجهين المذكورين فى تفسير قوله تعالى (من أنباء ما قد سبق) ﴿ وهو مؤمن ﴾ فإن

الإيمان شرط فى صحة الطاعات وقبول الحسنات ﴿ فلا يخاف ظلما ﴾ أى منع ثواب مستحق بموجب الوعد ﴿ ولا هضما ﴾ ولا كسرا منه بنقص أو لا يخاف جزاء ظلم وهضم إذ لم يصدر عنه ظلم ولا هضم حتى يخافهما وقرىء فلا يخف على النهى .

﴿ وكذلك ﴾ عطف على كذلك نقص وذلك إشارة إلى إنزال ما سبق من الآيات المتضمنة للوعيد المنبئة عما سيقع من أحوال القيامة وأهوالها أى مثل ذلك الإنزال ﴿ أنزلناه ﴾ أى القرآن كله وإضماره من غير سبق ذكره للإيذان بنباهة شأنه وكونه مركوزا فى العقول حاضرا فى الأذهان ﴿ قرآنا عربيا ﴾ ليفهمه العرب ويقفوا على ما فيه من النظم المعجز الدال على كونه خارجا عن طوق البشر نازلا من عند خلاق القوى والقدر ﴿ وصرفنا فيه من الوعيد ﴾ أى كررنا فيه بعض الوعيد أو بعضا من الوعيد حسبما أشير إليه آنفا ﴿ لعلهم يتقون ﴾ أى كى يتقوا الكفر والمعاصى بالفعل ﴿ أو يحدث لهم ذكرا ﴾ اتعاظا واعتبارا مؤديا بالآخرة إلى الاتقاء ﴿ فتعالى الله ﴾ استعظام له تعالى ولشؤونه التى يصرف عليها عباده من الأوامر والنواهى والوعد والوعيد وغير ذلك أى ارتفع بذاته وتنزه عن مماثلة المخلوقين فى ذاته وصفاته وأفعاله وأحواله ﴿ الملك ﴾ النافذ أمره الحقيقى بأن يرجى وعده ويخشى وعيده ﴿ الحق ﴾ فى ملكوته وألوهيته لذاته أو الثابت فى ذاته وصفاته ﴿ ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك ﴾ أى يتم ﴿ وحيه ﴾ كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا ألقى إليه عليه السلام الوحى يتبعه عند لفظ كل حرف وكل كلمة لكمال اعتنائه بالتلقى والحفظ فنهى عن ذلك إثر ذكر الإنزال بطريق الاستطراد لما أن استقرار الألفاظ فى الأذهان تابع لاستقرار معانيها فيها وربما يشغل التلفظ بكلمة عن سماع ما بعدها وأمر باستفاضة العلم واستزادته منه تعالى فقيل:

﴿ وقل ﴾ أى فى نفسك ﴿ رب زدنى علما ﴾ أى سل الله عز وجل زيادة العلم فإنه الموصل إلى طلبتك دون الاستعجال وقيل إنه نهى عن تبليغ ما كان

مجملا قبل أن يأتى بيانه وليس بذاك فإن تبليغ المجمل وتلاوته قبل البيان مما لا ريب فى صحته ومشروعيته.

آدم والعهـــد

﴿ ولقد عهدنا إلى آدم ﴾ كلام مستأنف مسوق لتقرير ما سبق من تصريف الوعيد فى القرآن وبيان أن أساس بنى آدم على العصيان وعرقه راسخ فى النسيان مع ما فيه من إنجاز الموعود فى قوله تعالى (كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق) يقال عهد إليه الملك وعزم عليه وأوعز إليه وتقدم إليه إذا أمره ووصاه والمعهود محذوف يدل عليه ما بعده واللام جواب قسم محذوف أى وأقسم أو وبالله أو وتالله لقد أمرناه ووصيناه ﴿ من قبل ﴾ أى من قبل هذا الزمان ﴿ فنسى ﴾ أى العهد ولم يعتن به حتى غفل عنه أو تركه ترك المنسى عنه وقرىء فنسى أى نساه الشيطان .

﴿ ولم نجد له عزما ﴾ تصميم رأى وثبات قدم فى الأمور إذ لو كان كذلك لما أزله الشيطان ولما استطاع أن يغره وقد كان ذلك منه عليه السلام فى بدء أمره من قبل أن يجرب الأمور ويتولى حارها وقارها ويذوق شريها وأريها عن النبى عليه الصلاة والسلام لو وزنت أحلام بنى آدم بحلم آدم لرجح حلمه وقد قال الله تعالى (ولم نجد له عزما) وقيل عزما على الذنب فإنه أخطأ ولم يتعمد وقوله تعالى (ولم نجد) إن كان من الوجود العلمى فله عزما مفعولاه قدم الثانى على الأول لكونه ظرفا وإن كان من الوجود المقابل للعدم وهو الأنسب لأن مصب الفائدة هو المفعول وليس فى الإخبار بكون العزم المعدوم له مزيد مزية فله متعلق به قدم على مفعوله لما مر مرارا من الاهتمام بالمقدم والتشويق إلى المؤخر أو بمحذوف هو حال من مفعوله المنكر كأنه قيل ولم نصادف له عزما وقوله تعالى ﴿ وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم ﴾ شرع[1] فى بيان المعهود وكيفية

---

(١) فى ط شروع .

ظهور نسيانه وفقدان عزمه وإذ منصوب على المفعولية بمضمر خوطب به النبي عليه الصلاة والسلام أى واذكر وقت قولنا لهم وتعليق الذكر بالوقت مع أن المقصود تذكير ما وقع فيه من الحوادث لما مر مرارا من المبالغة فى إيجاب ذكرها فإن الوقت مشتمل على تفاصيل الأمور الواقعة فيه فالأمر بذكره أمر بذكر تفاصيل ما وقع فيه بالطريق البرهانى ولأن الوقت مشتمل على أعيان الحوادث فإذا ذكر صارت الحوادث كأنها موجودة فى ذهن المخاطب بوجود ذاتها العينية أى اذكر ما وقع فى ذلك الوقت منا ومنه حتى يتبين لك نسيانه وفقدان عزمه ﴿فسجدوا إلا إبليس﴾ قد سبق الكلام فيه مرارا ﴿أبى﴾ جملة مستأنفة وقعت جوابا عن سؤال نشأ عن الأخبار بعدم سجوده كأنه قيل ما باله لم يسجد فقيل أبى واستكبر ومفعول أبى إما محذوف أى أبى السجود كما فى قوله تعالى (أبى أن يكون مع الساجدين) أو غير منوى رأسا بتنزيله منزلة اللازم أى فعل الإباء وأظهره ﴿فقلنا﴾ عقيب ذلك اعتناء بنصحه ﴿يا آدم إن هذا﴾ الذى رأيت ما فعل ﴿عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما﴾ أى لا يكونن سببا لاخراجكما ﴿من الجنة﴾ والمراد نهيهما عن أن يكونا بحيث يتسبب الشيطان إلى إخراجهما منها بالطريق البرهانى كما فى قولك لا أرينك ههنا والفاء لترتيب موجب النهى على عداوته لهما أو على الإخبار بها ﴿فتشقى﴾ جواب للنهى وإسناد الشقاء إليه خاصة بعد تعليق الإخراج الموجب له بهما معا لأصالته فى الأمور واستلزام شقائه لشقائها مع ما فيه من مراعاة الفواصل وقيل المراد بالشقاء التعب فى تحصيل مبادى المعاش وذلك من وظائف الرجال ﴿إن لك أن لا تجوع فيها ولا تعرى وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى﴾ تعليل لما يوجبه النهى فإن اجتماع أسباب الراحة فيها مما يوجب المبالغة فى الاهتمام بتحصيل مبادى البقاء فيها والجد فى الانتهاء عما يؤدى إلى الخروج عنها والعدل عن التصريح بأن له عليه السلام فيها تنعما بفنون النعم من المآكل والمشارب وتمتعا بأصناف الملابس البهية والمساكن المرضية مع أن فيه من الترغيب فى البقاء فيها ما لا يخفى إلى ذكر من نفى نقائضها التى هى الجوع والعطش والعرى والضحى لتذكير تلك الأمور

المنكرة والتنبيه على مافيها من أنواع الشقوة التى حذره عنها ليبالغ فى التحامى عن السبب المؤدى إليها على أن الترغيب قد حصل بما سوغ له من التمتع بجميع مافيها سوى ما استثنى من الشجرة حسبما نطق به قوله تعالى (ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما) وقد طوى ذكره ههنا اكتفاء بما ذكره فى موضع آخر واقتصرما على ذكر من الترغيب المتضمن للترهيب ومعنى (أن لا تجوع فيها) الخ أن لا يصيبه شىء من الأمور الأربعة أصلا فإن الشبع والرى والكسوة والكن قد تحصل بعد عروض أضدادها بإعواز الطعام والشراب واللباس والمسكن وليس الأمر فيها كذلك بل كل ما وقع فيها شهوة وميل إلى شىء من الأمور المذكورة تمتع به من غير أن يصل إلى حد الضرورة ووجه إفراده عليه السلام بما ذكر مامر آنفا وفصل الظمأ عن الجوع فى الذكر مع تجانسهما وتقارنهما فى الذكر عادة وكذا حال العرى والضحو المتجانسين لتوفية مقام الامتنان حقه بالإشارة إلى أن نفى كل واحد من تلك الأمور نعمة على حيالها ولو جمع بين الجوع والظمأ لربما توهم أن نفيهما نعمة واحدة وكذا الحال فى الجمع بين العرى والضحو على منهاج قصة البقرة ولزيادة التقرير بالتنبيه على أن نفى كل واحد من الأمور المذكورة مقصود بالذات مذكور بالأصالة لا أن نفى بعضها مذكور بطريق الاستطراد والتبعية لنفى بعض آخر كما عسى يتوهم لو جمع بين كل من المتجانسين وقرىء إنك بالكسر والجمهور على الفتح بالعطف على أن لا تجوع وصحة وقوع الجملة المصدرة بأن المفتوحة اسما للمكسورة المشاركة لها فى إفادة التحقيق مع امتناع وقوعها خبراً لها لما أن المحذور اجتماع حرفى التحقيق فى مادة واحدة ولا اجتماع فيما نحن فيه لاختلاف مناط التحقيق فيها فى حيزهما بخلاف ما لو وقعت خبراً لها فإن اتحاد المناط حينئذ مما لا ريب فيه بيانه أن كل واحدة من المكسورة والمفتوحة موضوعة لتحقيق مضمون الجملة الخبرية المنعقدة من اسمها وخبرها ولا يخفى أن مرجع خبريتها ما فيها من الحكم الإيجابى أو السلبى وأن مناط ذلك الحكم خبرها لا اسمها فمدلول كل منهما تحقيق ثبوت خبرها لاسمها لا ثبوت اسمها فى نفسه فاللازم من وقوع الجملة المصدرة

بالفتحة اسما للمكسورة تحقيق ثبوت خبرها لتلك الجملة المؤولة بالمصدر وأما تحقيق ثبوتها فى نفسها فهو مدلول المفتوحة حتما فلم يلزم اجتماع حرفى التحقيق فى مادة واحدة قطعا وإنما لم يجوزوا أن يقال إن زيدا قائم حتى مع اختلاف المناط بل شرطوا الفصل بالخبر كقولنا إن عندى أن زيدا قائم للتجافى عن صورة الاجتماع والواو العاطفة وإن كانت نائبة عن المكسورة التى يمتنع دخولها على المفتوحة بلا فصل وقائمة مقامها فى إفضاء معناها وإجراء أحكامها على مدخولها لكنها حيث لم تكن حرفا موضوعا للتحقيق لم يلزم من دخولها على المفتوحة اجتماع حرفى التحقيق أصلا فالمعنى إن لك عدم الجوع وعدم العرى وعدم الظمأ خلا أنه لم يقتصر على بيان أن الثابت له عليه السلام عدم الظمأ والضحو مطلقاً كما فعل مثله فى المعطوف عليه بل قصد بيان أن الثابت له عليه السلام تحقيق عدمهما فوضع موضع الحرف المصدرى المحض أن المفيدة له كأنه قيل إن لك فيها عدم ظمئك على التحقيق ﴿ فوسوس إليه الشيطان ﴾ أى أنهى إليه وسوسته أو أسرها إليه .

﴿ قال ﴾ إما بدل من وسوس أو استئناف وقع جواباً عن سؤال نشأ منه كأنه قيل فماذا قال فى وسوسته فقيل قال ﴿ يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد ﴾ أى شجرة من أكل منها خلد ولم يمت أصلا سواء كان عن حاله أو بأن يكون ملكا لقوله تعالى (إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين) ﴿ وملك لا يبلى ﴾ أى لا يزول ولا يختل بوجه من الوجوه ﴿ فأكلا منها فبدت لهما سوآتهما ﴾ قال ابن عباس رضى الله عنهما عريا عن النور الذى كان الله تعالى ألبسهما حتى بدت فروجهما ﴿ وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ﴾ قد مر تفسيره فى سورة الأعراف ﴿ وعصى آدم ربه ﴾ بما ذكر من أكل الشجرة ﴿ فغوى ﴾ ضل عن مطلوبه الذى هو الخلود أو المأمور به أو عن الرشد حيث اغتر بقول العدو وقرىء فغوى من غوى الفصيل إذا أتخم من اللبن وفى وصفه عليه السلام بالعصيان والغواية مع صغر زلته تعظيم لها وزجر بليغ لأولاده عن

أمثالها ﴿ اجتباه ربه ﴾ أى اصطفاه وقربه إليه بالحمل على التوبة والتوفيق لها من اجتبى الشيء بمعنى جباه لنفسه أى جمعه كقوله اجتمعته أومن جبى إلى كذا فاجتبيته مثل جليت على العروس فأجليتها وأصل الكلمة الجمع وفى التعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميره عليه السلام مزيد تشريف له عليه السلام .

﴿ فتاب عليه ﴾ أى قبل توبته حين تاب هو وزوجته قائلين (ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين) وإفراده عليه السلام بالاجتباء وقبول التوبة قدمر وجهه ﴿ وهدى ﴾ أى إلى الثبات على التوبة والتمسك بأسباب العصمة ﴿ قال ﴾ استئناف مبنى على سؤال نشأ من الإخبار بأنه تعالى قبل توبته وهداه كأنه قيل فماذا أمره تعالى بعد ذلك فقيل قال له ولزوجته ﴿ اهبطا منها جميعا ﴾ أى انزلا من الجنة إلى الأرض وقوله تعالى ﴿ بعضكم لبعض عدو ﴾ حال من ضمير المخاطب فى اهبطا والجمع لما أنهما أصل الذرية ومنشأ الأولاد أى متعادين فى أمر المعاش كما عليه الناس من التجاذب والتحارب ﴿ فإما يأتينكم منى هدى ﴾ من كتاب ورسول ﴿ فمن اتبع هداى ﴾ وضع الظاهر موضع المضمر مع الإضافة إلى ضميره تعالى لتشريفه والمبالغة فى إيجاب اتباعه ﴿ فلا يضل ﴾ فى الدنيا ﴿ ولا يشقى ﴾ فى الآخرة .

﴿ ومن أعرض عن ذكرى ﴾ أى عن الهدى الذاكر لى والداعى إلى ﴿فإن له﴾ فى الدنيا ﴿معيشة ضنكا﴾ ضيقا مصدر وصف به ولذلك يستوى فيه المذكر والمؤنث وقرىء ضنكى كسكرى وذلك لأن مجامع همته ومطامح نظره مقصورة على أعراض الدنيا وهو متهالك على ازديادها وخائف على انتقاصها بخلاف المؤمن الطالب للآخرة مع أنه قد يضيق الله تعالى بشؤم الكفر ويوسع ببركة الإيمان كما قال تعالى (وضربت عليهم الذلة والمسكنة) وقال تعالى (ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض) وقال تعالى

(ولو أن أهل الكتاب آمنوا) إلى قوله تعالى (لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم) وقيل هو الضريع والزقوم فى النار وقيل عذاب القبر ﴿ ونحشره ﴾ وقرىء بسكون الهاء على لفظ الوقف وبالجزم عطفا على محل فإن له معيشة ضنكا لأنه جواب الشرط ﴿يوم القيامة أعمى﴾ فاقد البصر كما فى قوله تعالى(ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميا وبكما وصما) لا أعمى عن الحجة كما قيل ﴿قال﴾ استئناف كما مر ﴿ رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا ﴾ أى فى الدنيا وقرىء أعمى بالإمالة فى الموضعين وفى الأول فقط لكونه جديرا بالتغيير لكونه رأس الآية ومحل الوقف ﴿ قال كذلك ﴾ أى مثل ذلك فعلت أنت ثم فسره بقوله تعالى ﴿أتتك آياتنا﴾ واضحة نيرة بحيث لا تخفى على أحد ﴿فنسيتها﴾أى عميت عنها وتركتها ترك المنسى الذى لا يذكر أصلا ﴿ وكذلك ﴾ ومثل ذلك النسيان الذى كنت فعلته فى الدنيا ﴿ اليوم تنسى ﴾ تترك فى العمى جزاء وفاقا لكن لا أبدا كما قيل بل إلى ما شاء الله ثم يزيله عنه فيرى أهوال القيامة ويشاهد مقعده فى النار ويكون ذلك له عذابا فوق العذاب وكذا البكم والصمم يزيلهما الله تعالى عنهم أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا ﴿ وكذلك ﴾ أى مثل ذلك الجزاء الموافق للجناية ﴿نجزى من أسرف﴾ بالانهماك فى الشهوات ﴿ ولم يؤمن بآيات ربه﴾ بل كذبها وأعرض عنها ﴿ ولعذاب الآخرة ﴾ على الإطلاق أو عذاب النار ﴿ أشد وأبقى ﴾ أى من ضنك العيش أو منه ومن الحشر على العمى .

توبيخ الكفار وتسلية النبى صلى الله عليه وسلم

﴿ أفلم يهد لهم كم أهلكنا قبلهم من القرون ﴾ كلام مستأنف مسوق لتقرير ما قبله من قوله تعالى (وكذلك نجزى) الآية والهمزة للإنكار التوبيخى والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام واستعمال الهداية باللام إما لتنزيلها منزلة اللازم فلا حاجة إلى المفعول أو لأنها بمعنى التبيين والمفعول محذوف وأيا ما كان فالفاعل هو الجملة بمضمونها ومعناها وضمير لهم للمشركين المعاصرين لرسول الله

صلى الله عليه وسلم والمعنى أغفلوا فلم يفعل الهداية لهم أو فلم يبين لهم مآل أمرهم كثرة إهلاكنا للقرون الأولى وقد مر فى قوله عز وجل (أو لم يهد للذين يرثون الأرض من بعد أهلها) الآية وقيل الفاعل الضمير العائد إلى الله عز وجل ويؤيده القراءة بنون العظمة وقوله تعالى (كم أهلكنا) الخ إما معلق للفعل ساد مسد مفعوله أو مفسر لمفعوله المحذوف هكذا قيل والأوجه أن لا يلاحظ مفعول كأنه قيل أفلم يفعل الله تعالى لهم الهداية ثم قيل بطريق الالتفات كم أهلكنا الخ بيانا لتلك الهداية ومن القرى فى محل النصب على أنه وصف لمميز كم أى كم قرنا كائنا من القرون وقوله تعالى ﴿ يمشون فى مساكنهم ﴾ حال من القرون أو من مفعول أهلكنا أى أهلكناهم وهم فى حال أمن وتقلب فى ديارهم أو من الضمير فى لهم مؤكد للإنكار والعامل بهذا والمعنى أفلم يهدلهم إهلاكنا للقرون السالفة من أصحاب الحجر وثمود وقريات قوم لوط حال كونهم ماشين فى مساكنهم إذا سافروا إلى الشام مشاهدين لآثار هلاكهم مع أن ذلك مما يوجب أن يهتدوا إلى الحق فيعتبروا لئلا يحل بهم مثل ما حل بأولئك وقرىء يمشون على البناء للمفعول أى يمكنون على المشى ﴿ إن فى ذلك ﴾ تعليل للإنكار وتقرير للهداية مع عدم اهتدائهم وذلك إشارة إلى مضمون قوله تعالى (كم أهلكنا) الخ وما فيه من معنى البعد للإشعار ببعد منزلته وعلو شأنه فى بابه .

﴿ لآيات ﴾ كثيرة عظيمة واضحات الهداية ظاهرات الدلالة على الحق فإذن هو هاد وأيما هاد ويجوز أن تكون كلمة فى تجريدية فافهم ﴿ لأولى النهى ﴾ لذوى العقول الناهية عن القبائح التى من أقبحها ما يتعاطاه كفار مكة من الكفر بآيات الله تعالى والتعامى عنها وغير ذلك من فنون المعاصى وفيه دلالة على أن مضمون الجملة هو الفاعل لا المفعول .

وقوله تعالى ﴿ ولولا كلمة سبقت من ربك ﴾ كلام مستأنف سيق لبيان حكمه

عدم وقوع ما يشعر به قوله تعالى (أفلم يهدلهم) الآية من أن يصيبهم مثل ما أصاب القرون المهلكة أى ولولا الكلمة السابقة وهى العدة بتأخير عذاب هذه الأمة إلى الآخرة لحكمة تقتضيه ومصلحة تستدعيه ﴿ لكان ﴾ عقاب جناياتهم ﴿ لزاما ﴾ أى لازما لهؤلاء الكفرة بحيث لا يتأخر عن جناياتهم ساعة لزوم ما نزل بأولئك الغابرين وفى التعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميره عليه السلام تلويح بأن هذا التأخير لتشريفه عليه السلام كما ينبىء عنه قوله تعالى (وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم) واللزام إما مصدر لازم وصف به مبالغة وإما فعال بمعنى مفعل جعل آلة اللزوم لفرط لزومه كما يقال لزاز خصم ﴿ وأجل مسمى ﴾ عطف على كلمة أى ولولا أجل مسمى لأعمارهم أو لعذابهم وهو يوم القيامة ويوم بدر لما تأخر عذابهم أصلا وفصله عما عطف عليه للمسارعة إلى بيان جواب لولا وللإشعار باستقلال كل منهما بنفى لزوم العذاب ومراعاة فواصل الآية الكريمة وقد جوز عطفه على المستكن فى كان العائد إلى الأخذ العاجل المفهوم من السياق تنزيلا للفصل بالخبر منزلة التأكيد أى لكان الأخذ العاجل وأجل مسمى لازمين لهم كدأب عاد وثمود وأضرابهم ولم ينفرد الأجل المسمى دون الأخذ العاجل ﴿ فاصبر على ما يقولون ﴾ أى إذا كان الأمر على ما ذكر من أن تأخير عذابهم ليس بإهمال بل إمهال وأنه لازم لهم البتة فاصبر على ما يقولون من كلمات الكفر فإن علمه عليه السلام بأنهم معذبون لا محالة مما يسليه ويحمله على الصبر .

﴿ وسبح ﴾ ملتبسا ﴿ بحمد ربك ﴾ أى صل وأنت حامد لربك الذى يبلغك إلى كمالك على هدايته وتوفيقه أو نزهه تعالى عما ينسبونه إليه مما لا يليق بشأنه الرفيع حامدا له على ما ميزك بالهدى معترفا بأنه مولى النعم كلها والأول هو الأظهر المناسب لقوله تعالى ﴿ قبل طلوع الشمس ﴾ الخ فإن توقيت التنزيه غير معهود فالمراد صلاة الفجر ﴿ وقبل غروبها ﴾ يعنى صلاتى الظهر والعصر لأنهما قبل غروبها بعد زوالها وجمعهما لمناسبة قوله تعالى قبل طلوع

الشمس وقبل صلاة العصر ﴿ ومن آناء الليل ﴾ أى من ساعاته جمع إنى بالكسر والقصر وآناء بالفتح والمد ﴿ فسبح ﴾ أى فصل والمراد به المغرب والعشاء إيذانا باختصاصهما بمزيد الفضل فإن القلب فيهما أجمع والنفس إلى الاستراحة أميل فتكون العبادة فيهما أشق ولذلك قال تعالى (إن ناشئة الليل هى أشد وطأ وأقوم قيلا) ﴿ وأطراف النهار ﴾ تكرير لصلاة الفجر والمغرب إيذانا باختصاصهما بمزيد مزية ومجيئه بلفظ الجمع لأمن الإلباس كقول من قال ظهراهما مثل ظهور الترسين أو أمر بصلاة الظهر فإنه نهاية النصف الأول من النهار وبداية النصف الأخير وجمعه باعتبار النصفين أو لأن النهار جنس أو أمر بالتطوع فى أجزاء النهار ﴿ لعلك ترضى ﴾ متعلق بسبح أى فى هذه الأوقات رجاء أن تنال عنده تعالى ما ترضى به نفسك وقرىء ترضى على صيغة البناء للمفعول من أرضى أى يرضيك ربك .

﴿ ولا تمدن عينيك ﴾ أى لا تطل نظرهما بطريق الرغبة والميل ﴿ إلى ما متعنا به ﴾ من زخارف الدنيا وقوله تعالى ﴿ أزواجا منهم ﴾ أى أصنافا من الكفرة مفعول متعنا قدم عليه الجار والمجرور للاعتناء به أو هو حال من الضمير والمفعول منهم أى إلى الذى متعنا به وهو أصناف وأنواع بعضهم على أنه معنى من التبعيضية أو بعضا منهم على حذف الموصوف كما مر مرارا ﴿ زهرة الحيوة الدنيا ﴾ منصوب بمحذوف يدل عليه متعنا أى أعطينا أو به على تضمين معناه أو بالبدلية من محل به أو من أزواجا بتقدير مضاف أو بدونه أو بالذم وهى الزينة والبهجة وقرىء زهرة بفتح الهاء وهى لغة كالجهرة فى الجهرة أو جمع زاهر وصف لهم بأنهم زاهروا الدنيا لتنعمهم وبهاء زيهم بخلاف ما عليه المؤمنون الزهاد ﴿ لنفتنهم فيه ﴾ متعلق بمتعنا جىء به للتنفير عنه ببيان سوء عاقبته مآلا إثر إظهار بهجته حالا أى لنعاملهم معاملة من يبتليهم ويختبرهم فيه أو لنعذبهم فى الآخرة بسببه ﴿ ورزق ربك ﴾ أى ما ادخر لك فى الآخرة أو ما رزقك من الدنيا النبوة والهدى ﴿ خير ﴾ مما منحهم فى الدنيا لأنه مع كونه

فى نفسه أجل ماينتافس فيه المتنافسون مأمون الغائلة بخلاف مامتحوه ﴿ وأبقى ﴾ فإنه لا يكاد ينقطع نفسه أو أثره أبدا كما عليه زهرة الدنيا

﴿ وأمر أهلك بالصلوة ﴾ أمر عليه السلام بأن يأمر أهل بيته والتابعين له من أمته بالصلاة بعد ما أمر هو بها ليتعاونوا على الاستعانة على خصاصتهم ولا يهتموا بأمر المعيشة ولا يلتفتوا لفت أرباب الثروة ﴿ واصطبر عليها ﴾ وثابر عليها غير مشتغل بأمر المعاش ﴿ لا نسألك رزقا ﴾ أى لا نكلفك أن ترزق نفسك ولا أهلك ﴿ نحن نرزقك ﴾ وإياهم ففرغ بالك بأمر الآخرة ﴿ والعاقبة ﴾ الحميدة ﴿ للتقوى ﴾ أى لأهل التقوى على حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه تنبيها على أن ملاك الأمر هو التقوى روى أنه عليه الصلاة والسلام كان إذا أصاب أهله ضر أمرهم بالصلاة وتلا هذه الآية ﴿ وقالوا لولا يأتينا بآية من ربه ﴾ حكاية لبعض أقاويلهم الباطلة التى أمر عليه السلام بالصبر عليها أى هلا يأتينا بآية تدل على صدقه فى دعوى النبوة أو بآية مما اقترحوها بلغوا من المكابرة والعناد إلى حيث لم يعدوا ما شاهدوا من المعجزات التى تخر لها صم الجبال من قبيل الآيات حتى اجترؤا على التفوه بهذه العظيمة الشنعاء ، وقوله تعالى: ﴿ أولم تأتهم بينة ما فى الصحف الأولى ﴾ أى التوراة والإنجيل وسائر الكتب السماوية رد من جهته جل وعلا لمقالتهم القبيحة وتكذيب لهم فيما دسوا تحتهامن إنكار مجىء الآية بإتيان القرآن الكريم الذى هو أم الآيات وأس المعجزات وأعظمها وأبقاها لأن حقيقة المعجزة اختصاص مدعى النبوة بنوع من الأمور الخارقة للعادات أى أمر كان ولا ريب فى أن العلم أجل الأمور وأعلاها إذ هو أصل الأعمال ومبدأ الأفعال ولقد ظهر مع حيازته لجميع علوم الأولين والآخرين على يد أمى لم يمارس شيئاً من العلوم ولم يدارس أحدا من أهلها أصلا فأى معجزة تراد بعد وروده وأى آية ترام مع وجوده وفى إيراده بعنوان كونه بينة ما فى الصحف الأولى ومن التوراة والإنجيل وسائر الكتب السماوية أى شاهدا بحقية ما فيها من العقائد الحقة

وأصول الأحكام التى أجمعت عليها كافة الرسل وبصحة ما تنطق به من أنباء الأمم من حيث أنه غنى بإعجازه عما يشهد بحقيته حقيق بإثبات حقية غيره ما لا يخفى من تنويه شأنه وإنارة برهانه ومزيد تقرير وتحقيق لإتيانه وإسناد الإتيان إليه مع جعلهم إياه مأتيا به للتنبيه على أصالته فيه مع ما فيه من المناسبة للبينة والهمزة لإنكار الوقوع والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام كأنه قيل ألم يأتهم سائر الآيات ولم تأتهم خاصة بينة ما فى الصحف الأولى تقريرا لإتيانه وإيذانا من الوضوح بحيث لا يتأتى منهم إنكاره أصلا وإن اجترؤا على إنكار سائر الآيات مكابرة وعنادا وقرىء أولم يأتهم بالياء التحتانية وقرىء الصحف بالسكون تخفيفا .

وقوله تعالى ﴿ولو أنا أهلكناهم بعذاب﴾ إلى آخر الآية جملة مستأنفة سيقت لتقرير ما قبلها من كون القرآن آية بينة لايمكن إنكارها ببيان أنهم يعترفون بها يوم القيامة والمعنى لو أنا أهلكناهم فى الدنيا بعذاب مستأصل ﴿من قبله﴾ متعلق بأهلكنا أو بمحذوف هو صفة لعذاب أى بعذاب كائن من قبل إتيان البينة أو قبل محمد عليه الصلاة والسلام ﴿لقالوا﴾ أى يوم القيامة ﴿ربنا لولا أرسلت إلينا﴾ فى الدنيا ﴿رسولا﴾ مع كتاب ﴿فنتبع آياتك﴾ التى جاءنا بها .

﴿من قبل أن نذل﴾ بالعذاب فى الدنيا ﴿ونخزى﴾ بدخول النار اليوم ولكنا لم نهلكهم قبل إتيانها فانقطعت معذرتهم فعند ذلك قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شىء

﴿قل﴾ لأولئك الكفرة المتمردين ﴿كل﴾ أى كل واحد منا ومنكم ﴿متربص﴾ منتظر لما يؤول إليه أمرنا وأمركم ﴿فتربصوا﴾ وقرىء فتمتعوا .

﴿فستعلمون﴾ عن قريب ﴿من أصحاب الصراط السوى﴾ أى المستقيم وقرىء

السواء أى الوسط الجيد وقرىء السوء والسوآى والسوى تصغير السوء ﴿ومن اهتدى﴾ من الضلالة ومن فى الموضعين استفهامية محلها الرفع بالابتداء خبرها ما بعدها والجملة سادة مسد مفعولى العلم أو مفعوله ويجوز كون الثانية موصولة بخلاف الأولى لعدم العائد فتكون معطوفة على محل الجملة الاستفهامية المعلق عنها الفعل على أن العلم بمعنى المعرفة أو على أصحاب أو على الصراط وقيل العائد فى الأولى محذوف والتقدير من هم أصحاب الصراط . عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة طه أعطى يوم القيامة ثواب المهاجرين والأنصار وقال لا يقرأ أهل الجنة من القرآن إلا سورة طه ويس .

* * *

سورة الأنبياء

مكية وهى مائة واثنتا عشرة يآية

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

﴿ اقترب للناس حسابهم ﴾ مناسبة هذه الفاتحة الكريمة لما قبلها من الخاتمة الشريفة غنية عن البيان قال ابن عباس رضى الله عنهما المراد بالناس المشركون وهو الذى يفصح عنه ما بعده والمراد باقتراب حسابهم اقترابه فى ضمن اقتراب الساعة وإسناد الاقتراب إليه لا إلى الساعة مع استتباعها له ولسائر ما فيها من الأحوال والأهوال الفظيعة لانسياق الكلام إلى بيان غفلتهم عنه وإعراضهم عما يذكرهم ذلك واللام متعلقة بالفعل وتقديمها على الفاعل للمسارعة إلى إدخال الروعة فإن نسبة الاقتراب إليهم من أول الأمر مما يسوؤهم ويورثهم رهبة وانزعاجا من المقترب كما أن تقديم الجار والمجرور على المفعول الصريح فى قوله تعالى (هو الذى خلق لكم ما فى الأرض) لتعجيل المسرة لما أن بيان كون الخلق لأجل المخاطبين مما يسرهم ويزيدهم رغبة فيما خلق لهم وشوقا إليه وجعلها تأكيدا للإضافة على أن الأصل المتعارف فيما بين الأوساط اقترب حساب الناس ثم اقترب للناس الحساب ثم اقترب للناس حسابهم مع أنه تعسف تام بمعزل عما يقتضيه المقام وإنما الذى يستدعيه حسن النظام ما قدمناه والمعنى دنا منهم حساب أعمالهم السيئة الموجبة للعقاب وفى إسناد الاقتراب المنبىء عن التوجه نحوهم إلى الحساب مع إمكان العكس بأن يعتبر التوجه والإقبال من جهتهم نحوه من تفخيم شأنه وتهويل أمره ما لا يخفى لما فيه من تصويره بصورة شىء مقبل عليهم لا يزال يطلبهم ويصيبهم لا محالة ومعنى اقترابه لهم تقاربه ودنوه منهم بعد بعده عنهم فإنه فى كل ساعة من ساعات الزمان أقرب إليهم منه فى الساعة السابقة هذا وأما الاعتذار بأن قربه بالإضافة إلى ما مضى من الزمان أو بالنسبة إلى الله عز وجل أو باعتبار أن كل آت قريب فلا تعلق له بما نحن فيه من الاقتراب المستفاد من صيغة الماضى ولا حاجة إليه فى تحقيق أصل معناه نعم قد يفهم منه

عرفا كونه قريبا فى نفسه أيضا فيصار حينئذ إلى التوجيه بالوجه الأول دون الأخيرين أما الثانى فلا سبيل إلى اعتباره هنا لأن قربه بالنسبة إليه تعالى مما لا يتصور فيه التجدد والتفاوت حتما وإنما اعتباره فى قوله تعالى(لعل الساعة قريب) ونظائره مما لا دلالة فيه على الحدوث وأما الثالث فلا دلالة فيه على القرب حقيقة ولو بالنسبة إلى شىء آخر .

﴿ وهم فى غفلة ﴾ أى فى غفلة تامة منه ساهون عنه بالمرة لا أنهم غير مبالين به مع اعترافهم بإتيانه بل منكرون له كافرون به مع اقتضاء عقولهم أن الأعمال لا بد لها من الجزاء ﴿ معرضون ﴾ أى عن الآيات والنذر المنبهة لهم عن سنة الغفلة وهما خبران للضمير وحيث كانت الغفلة أمرا جبلياً لهم جعل الخبر الأول ظرفا منبئا عن الاستقرار بخلاف الإعراض والجملة حال من الناس وقد جوز كون الظرف حالا من المستكن فى معرضون ﴿ ما يأتيهم من ذكر ﴾ من طائفة نازلة من القرآن تذكرهم ذلك أكمل تذكير وتنبههم عن الغفلة أتم تنبيه كأنها نفس الذكر ومن فى قوله تعالى ﴿ من ربهم ﴾ لابتداء الغاية مجازا متعلقة بيأتيهم أو بمحذوف هو صفة لذكر وأيا ما كان ففيه دلالة على فضله وشرفه وكمال شناعة ما فعلوا به والتعرض لعنوان الربوبية لتشديد التشنيع ﴿ محدث ﴾ بالجر صفة لذكر وقرىء بالرفع حملا على محله أى محدث تنزيله بحسب اقتضاء الحكمة وقوله تعالى ﴿ إلا استمعوه ﴾ استثناء مفرغ محله النصب على أنه حال من مفعول يأتيهم بإضمار قد أو بدونه على الخلاف المشهور وقوله تعالى ﴿ وهم يلعبون ﴾ حال من فاعل استمعوه وقوله تعالى ﴿ لاهية قلوبهم ﴾ إما حال أخرى منه أو من واو يلعبون والمعنى ما يأتيهم ذكر من ربهم محدث فى حال من الأحوال إلا حال استماعهم إياه لاعبين مستهزئين به لاهين عنه أو لاعبين به حال كون قلوبهم لاهية عنه لتناهى غفلتهم وفرط إعراضهم عن النظر فى الأمور والتفكر فى العواقب وقرىء لاهية بالرفع على أنه خبر بعد خبر ﴿ وأسروا النجوى ﴾ كلام مستأنف مسوق لبيان جناية خاصة إثر حكاية جناياتهم المعتادة والنجوى اسم من التناجى ومعنى إسرارها مع أنها لا تكون إلا سرا

أنهم بالغوافى إخفائها أو أسروا نفس التناجي بحيث لم يشعر أحد بأنهم متناجون وقوله تعالى ﴿ الذين ظلموا ﴾ بدل من واو أسروا منبيء عن كونهم موصوفين بالظلم الفاحش فيما أسروا به أو هو مبتدأ خبره أسروا النجوى قدم عليه اهتماما به والمعنى هم أسروا النجوى فوضع الموصول موضع الضمير تسجيلا على فعلهم بكونه ظلما أو منصوب على الذم وقوله ﴿ هل هذا إلا بشر مثلكم ﴾ الخ فى حيز النصب على أنه مفعول لقول مضمر هو جواب عن سؤال نشأ عما قبله كأنه قيل ماذا قالوا فى نجواهم فقيل قالوا هل هذا الخ أو بدل من أسروا أو معطوف عليه أو على أنه بدل من النجوى أى أسروا هذا الحديث وهل بمعنى النفى والهمزة فى قوله تعالى :

﴿ أفتأتون السحر ﴾ للإنكار والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام وقوله تعالى ﴿ وأنتم تبصرون ﴾ حال من فاعل تأتون مقررة للإنكار ومؤكدة للاستبعاد والمعنى ما هذا إلا بشر مثلكم أى من جنسكم وما أتى به سحر أتعلمون ذلك فتأتونه وتحضرونه على وجه الإذعان والقبول وأنتم تعاينون أنه سحر قالوه بناء على ما ارتكز فى اعتقادهم الزائغ أن الرسول لا يكون إلا ملكا وأن كل ما يظهر على يد البشر من الخوارق من قبيل السحر وزل عنهم أن إرسال البشر إلى عامة البشر هو الذى تقتضيه الحكمة التشريعية قاتلهم الله أنى يؤفكون وإنما أسروا ذلك لأنه كان على طريق توثيق العهد وترتيب مبادى الشر والفساد وتمهيد مقدمات المكر والكيد فى هدم أمر النبوة وإطفاء نور الدين والله متم نوره ولو كره الكافرون .

رأى الكفار فى النبى صلى الله عليه وسلم

﴿ قال ربى يعلم القول فى السماء والأرض ﴾ حكاية من جهته تعالى لما قاله عليه السلام بعد ما أوحى إليه أحوالهم وأقوالهم بيانا لظهور أمرهم وانكشاف سرهم وإيثار القول المنتظم للسر والجهر على وتيرة واحدة لا تفاوت بينهما بالجلاء والخفاء قطعا كما فى علوم الخلق وقرىء قل ربى الخ وقوله تعالى (فى السماء والأرض)

متعلق بمحذوف وقع حالا من القول أى كائنا فى السماء والأرض وقوله تعالى ﴿ وهو السميع العليم ﴾ أى المبالغ فى العلم بالمسموعات والمعلومات التى من جملتها ما أسروه من النجوى فيجازيهم بأقوالهم وأفعالهم اعتراض تذييلى مقرر لمضمون ما قبله متضمن للوعيد ﴿ بل قالوا أضغاث أحلام ﴾ إضراب من جهته تعالى وانتقال من حكاية قول آخر مضطرب فى مسالك البطلان أى لم يقتصروا على أن يقولوا فى حقه عليه السلام هل هذا إلا بشر وفى حق ما ظهر على يده من القرآن الكريم إنه سحر بل قالوا تخاليط الأحلام ثم أضربوا عنه فقالوا ﴿ بل افتراه ﴾ من تلقاء نفسه من غير أن يكون له أصل أو شبهة أصل ثم قالوا ﴿ بل هو شاعر ﴾ وما أتى به شعر يخيل إلى السامع معانى لاحقيقة لها وهكذا شأن المبطل المحجوج متحير لايزال يتردد بين باطل وأبطل ويتذبذب بين فاسد وأفسد فالإضراب الأول كما ترى من جهته تعالى والثانى والثالث من قبلهم وقد قيل الكل من قبلهم حيث أضربوا عن قولهم هو سحر إلى أنه تخاليط أحلام ثم إلى أنه كلام مفترى ثم إلى أنه قول شاعر ولا ريب فى أنه كان ينبغى حينئذ أن يقال قالوا بل أضغاث أحلام والاعتذار بأن بل قالوا مقول لقالوا المضمر قبل قوله تعالى (هل هذا إلا بشر) الخ كأنه قيل وأسروا النجوى قالوا هل هذا إلى قوله بل أضغاث أحلام وإنما صرح بقالوا بعد بل لبعد العهد مما يجب تنزيه ساحة التنزيل عن أمثاله ﴿ فليأتنا بآية ﴾ جواب شرط محذوف يفصح عنه السياق كأنه قيل وإن لم يكن كما قلنا بل كان رسولا من الله تعالى فليأتنا بآية ﴿ كما أرسل الأولون ﴾ أى مثل الآية التى أرسل بها الأولون كاليد والعصا ونظائرهما حتى نؤمن به فما موصولة ومحل الكاف الجر على أنها صفة لآية ويجوز أن تكون مصدرية فالكاف منصوبة على أنها مصدر تشبيهى أى نعت لمصدر محذوف أى فليأتنا بآية إتيانا كائنا مثل إرسال الأولين بها وصحة التشبيه من حيث أن الإتيان بالآية من فروع الإرسال بها أى مثل إتيان مترتب على الإرسال ويجوز أن يحمل النظم الكريم على أنه أريد كل واحد من الإتيان والإرسال فى كل واحد من طرفى التشبيه لكنه ترك فى جانب المشبه ذكر الإرسال وفى جانب المشبه

به ذكر الإتيان اكتفاء بما ذكر فى كل موطن عما ترك فى الموطن الآخر حسبما مر فى آخر سورة يونس عليه السلام .

﴿ ما آمنت قبلهم من قرية ﴾ كلام مستأنف مسوق لتكذيبهم فيما تنبىء عنه خاتمة مقالهم من الوعد الضمنى بالإيمان كما أشير إليه وبيان أنهم فى اقتراح تلك الآيات كالباحث عن حتفه بظلفه وأن فى ترك الإجابة إليه إبقاء عليهم كيف لا ولو أعطوا ما اقترحوا مع عدم إيمانهم قطعا لوجب استئصالهم لجريان سنة الله عز وجل فى الأمم السالفة على أن المقترحين إذا أعطوا ما اقترحوه ثم لم يؤمنوا نزل بهم عذاب الاستئصال لا محالة وقد سبقت كلمة الحق منه تعالى أن هذه الأمة لا يعذبون بعذاب الاستئصال فقوله من قرية أى من أهل قرية فى محل الرفع على الفاعلية ومن مزيدة لتأكيد العموم وقوله تعالى ﴿ أهلكناها ﴾ أى بإهلاك أهلها لعدم إيمانهم بعد مجىء ما اقترحوه من الآيات صفة لقرية والهمزة فى قوله تعالى ﴿ أفهم يؤمنون ﴾ لإنكار الوقوع والفاء للعطف إما على مقدر دخلته الهمزة فأفادت إنكار وقوع إيمانهم ونفيه عقب عدم إيمان الأولين فالمعنى أنه لم تؤمن أمة من الأمم المهلكة عند إعطاء ما اقترحوه من الآيات أهم لم يؤمنوا فهؤلاء يؤمنون لو أجيبوا إلى ما سألوا وأعطوا ما اقترحوا مع كونهم أعتى منهم وأطغى أما على ما آمنت على أن الفاء متقدمة على الهمزة فى الاعتبار مفيدة لترتيب إنكار وقوع إيمانهم على عدم إيمان الأولين وإنما قدمت عليها الهمزة لاقتضائها الصدارة كما هو رأى الجمهور وقوله عز وجل ﴿ وما أرسلنا قبلك إلا رجالا ﴾ جواب لقولهم هل هذا إلا بشر الخ متضمن لرد مادسوا تحت قولهم كما أرسل الأولون من التعريض بعدم كونه عليه السلام مثل أولئك الرسل صلوات الله تعالى عليهم أجمعين ولذلك قدم عليه جواب قولهم فليأتنا بآية ولأنهم قالوا ذلك بطريق التعجيز فلا بد من المسارعة إلى رده وإبطاله كما مر فى تفسير قوله تعالى (قال إنما يأتيكم به الله إن شاء وما أنتم بمعجزين) وقوله تعالى (ما ننزل الملائكة إلا بالحق وما كانوا إذاً منظرين) ولأن فى هذا الجواب نوع بسط يخل تقديمه بتجاوب أطراف النظم الكريم والحق أن ما اتخذوه سيما التكذيب

موجب التصديق فى الحقيقة لأن مقتضى الحكمة أن يرسل إلى البشر البشر وإلى الملك الملك حسبما ينطق به قوله تعالى (قل لو كان فى الأرض ملائكة يمشون) مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا فإن عامة البشر بمعزل من استحقاق المفاوضة الملكية لتوقفها على التناسب بين المفيض والمستفيض فبعث الملك إليهم مزاحم للحكمة التى عليها يدور فلك التكوين والتشريع وإنما الذى تقتضيه الحكمة أن يبعث الملك منهم إلى الخواص المختصين بالنفوس الزكية المؤيدين بالقوة القدسية المتعلقين بكلا العالمين الروحانى والجسمانى ليتلقوا من جانب ويلقوا إلى جانب آخر وقوله تعالى ﴿ نوحى إليهم ﴾ استئناف مبين لكيفية الإرسال وصيغة المضارع لحكاية الحال الماضية المستمرة وحذف المفعول لعدم القصد إلى خصوصه والمعنى وما أرسلنا إلى الأمم قبل إرسالك إلى أمتك إلا رجالا مخصوصين من أفراد الجنس مستأهلين للاصطفاء والإرسال نوحى إليهم بواسطة الملك ما نوحى من الشرائع والأحكام وغيرهما من القصص والأخبار كما نوحى إليك من غير فرق بينهما فى حقيقة الوحى وحقيقة مدلوله حسبما يحكيه قوله تعالى (إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين) إلى قوله تعالى (وكلم الله موسى تكليما) كما لا فرق بينك وبينهم فى البشرية فما لهم لا يفهمون أنك لست بدعا من الرسل وأن ما أوحى إليك ليس مخالفا لما أوحى إليهم فيقولون ما يقولون وقرىء يوحى إليهم بالياء على صيغة المبنى للمفعول جريا على سنن الكبرياء وإيذانا بتعين الفاعل وقوله تعالى :

﴿ فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون ﴾ تلوين للخطاب وتوجيه له إلى الكفرة لتبكيتهم واستنزالهم عن رتبة الاستبعاد والنكير إثر تحقيق الحق على طريقة الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم لأنه الحقيق بالخطاب فى أمثال تلك الحقائق الأنيقة وأما الوقوف عليها بالاستخبار من الغير فهو من وظائف العوام والفاء لترتيب ما بعدها على ماقبلها وجواب الشرط محذوف ثقة بدلالة المذكور عليه أى إن كنتم لا تعلمون ما ذكر فاسألوا أيها الجهلة أهل الكتاب الواقفين

على أحوال الرسل السالفة عليهم السلام (١) لتزول شبهتكم أمروا بذلك لأن إخبار الجم الغفير يوجب العلم لا سيما وهم كانوا يشايعون المشركين فى عداوته عليه السلام ويشاورونهم فى أمره عليه السلام ففيه من الدلالة على كمال وضوح الأمر وقوة شأن النبى عليه السلام ما لا يخفى ﴿ وما جعلناهم جسدا ﴾ بيان لكون الرسل عليهم السلام أسوة لسائر أفراد الجنس فى أحكام الطبيعة البشرية إثر بيان كونهم أسوة لهم فى نفس البشرية والجسد جسم الإنسان والجن والملائكة ونصبه إما على أنه مفعول ثان للجعل لكن لا بمعنى جعله جسدا بعد أن لم يكن كذلك كما هو المشهور من معنى التصيير بل بمعنى جعله كذلك ابتداء على طريقة قولهم سبحان من صغر البعوض وكبر الفيل كما مر فى قوله تعالى ﴿ وجعلنا آية النهار مبصرة ﴾ وإما حال من الضمير والجعل إبداعى وإفراده لإرادة الجنس المتنظم للكثير أيضاً وقيل بتقدير المضاف أى ذوى جسد وقوله تعالى ﴿ لا يأكلون الطعام ﴾ صفة له أى وما جعلناهم جسدا مستغنيا عن الأكل والشرب بل محتاجا إلى ذلك لتحصيل بدل ما يتحلل منه ﴿ وما كانوا خالدين ﴾ لأن مآل التحلل هو الفناء لا محالة وفى إيثار ما كانوا على ما جعلناهم تنبيه على أن عدم الخلود مقتضى جبلتهم التى أشير إليها بقوله تعالى (وما جعلناهم) الخ لا بالجعل المستأنف والمراد بالخلود إما المكث المديد كما هو شأن الملائكة أو الأبدية وهم معتقدون أنهم لا يموتون والمعنى جعلناهم أجسادا متغذية صائرة إلى الموت بالآخرة على حسب آجالهم لا ملائكة ولا أجسادا مستغنية عن الأغذية مصونة عن التحلل كالملائكة فلم يكن لها خلود كخلودهم فالجملة مقررة لما قبلها من كون الرسل السالفة عليهم السلام بشرا لا ملكا مع ما فى ذلك من الرد على قولهم ما لهذا الرسول يأكل الطعام وقوله تعالى :

﴿ ثم صدقناهم الوعد ﴾ عطف على ما يفهم من حكاية وحيه تعالى إليهم على الاستمرار التجددى كأنه قيل أوحينا ثم صدقناهم فى الوعد الذى وعدناهم

---

(١) فى ط : الصلوات

فى تضاعيف الوحى بإهلاك أعدائهم ﴿ فأنجيناهم ومن نشاء ﴾ من المؤمنين وغيرهم ممن تستدعى الحكمة إبقاءه كمن سيؤمن هو أو بعض فروعه بالآخرة وهو السر فى حماية العرب من عذاب الاستئصال ﴿ وأهلكنا المسرفين ﴾ أى المجاوزين للحدود فى الكفر والمعاصى ﴿لقد أنزلنا إليكم﴾ كلام مستأنف مسوق لتحقيق حقية القرآن العظيم الذى ذكر فى صدر السورة الكريمة إعراض الناس عما يأتيهم من آياته واستهزاؤهم به وتسميتهم تارة سحرا وتارة أضغاث أحلام وأخرى مفترى وشعرا وبيان علو رتبته إثر تحقيق رسالته صلى الله عليه وسلم ببيان أنه كسائر الرسل الكرام عليهم الصلاة والسلام قدصدر بالتوكيد القسمى إظهارا لمزيد الاعتناء بمضمونه وإيذانا بكون المخاطبين فى أقصى مراتب النكير أى والله لقد أنزلنا إليكم يا معشر قريش ﴿ كتابا ﴾ عظيم الشأن نير البرهان وقوله تعالى ﴿ فيه ذكركم ﴾ صفة لكتابا مؤكدة لما أفاده التنكير التفخيمى من كونه جليل المقدار بأنه جميل الآثار مستجلب لهم منافع جليلة أى فيه شرفكم وصيتكم كقوله تعالى (وإنه لذكر لك ولقومك) وقيل ماتحتاجون إليه فى أمور دينكم ودنياكم وقيل فيه ماتطلبون به حسن الذكر من مكارم الأخلاق وقيل فيه موعظتكم وهو الأنسب بسباق النظم الكريم وسياقه فإن قوله تعالى ﴿ أفلا تعقلون ﴾ إنكار توبيخى فيه بعث لهم على التدبر فى أمر الكتاب والتأمل فيما فى تضاعيفه من فنون المواعظ والزواجر التى من جملتها القوارع السابقة واللاحقة والفاء للعطف على مقدر ينسحب عليه الكلام أى ألا تتفكرون فلا تعقلون أن الأمر كذلك أو لا تعقلون شيئا من الأشياء التى من جملتها ماذكر وقوله تعالى:

﴿ وكم قصمنا من قرية ﴾ نوع تفصيل لإجمال قوله تعالى (وأهلكنا المسرفين) وبيان لكيفية إهلاكهم وسببه وتنبيه على كثرتهم وكم خبرية مفيدة للتكثير محلها النصب على أنها مفعول لقصمنا ومن قرية تمييز وفى لفظ القصم الذى هو عبارة عن الكسر بإبانة أجزاء المكسور وإزالة تأليفها بالكلية من الدلالة على

قوة الغضب وشدة السخط ما لا يخفى وقوله تعالى ﴿ كانت ظالمة ﴾ فى محل الجر على أنها صفة لقرية بتقدير مضاف ينبىء عنه الضمير الآتى أى وكثيرا قصمنا من أهل قرية كانوا ظالمين بآيات الله تعالى كافرين بها كدأبكم ﴿ وأنشأنا بعدها ﴾ أى بعد إهلاكها ﴿ قوما آخرين ﴾ أى ليسوا منهم نسبا ولا دينا ففيه تنبيه على استئصال الأولين وقطع دابرهم بالكلية وهو السر فى تقديم حكاية إنشاء هؤلاء على حكاية مبادى إهلاك أولئك بقوله تعالى ﴿ فلما أحسوا بأسنا ﴾ أى أدركوا عذابنا الشديد إدراكا تاما كأنه إدراك المشاهد المحسوس ﴿ إذا هم منها يركضون ﴾ يهربون مسرعين راكضين دوابهم أو مشبهين بهم فى فرط الإسراع ﴿ لا تركضوا ﴾ أى قيل لهم بلسان الحال أو بلسان المقال من الملك أو ممن ثمة من المؤمنين بطريق الاستهزاء والتوبيخ لا تركضوا ﴿ وارجعوا إلى ما أترفتم فيه ﴾ من التنعم والتلذذ والإتراف إبطار النعمة ﴿ ومساكنكم ﴾ التى كنتم تفخرون بها ﴿ لعلكم تسألون ﴾ تقصدون للسؤال والتشاور والتدبير فى المهمات والنوازل أو تتفقدون إذا ريئت مساكنكم خالية وتسألون أين أصحابها أو يسألكم الوافدون نوالكم على أنهم كانوا أسخياء ينفقون أموالهم رياء أو بخلاء فقيل لهم ذلك تهكما إلى تهكم .

﴿ قالوا ﴾ لما يئسوا من الخلاص بالهرب وأيقنوا بنزول العذاب ﴿ ياويلنا ﴾ أى هلاكنا ﴿ إنا كنا ظالمين ﴾ أى مستوجبين للعذاب وهذا اعتراف منهم بالظلم وباستتباعه للعذاب وندم عليه حين لم ينفعهم ذلك ﴿ فما زالت تلك دعواهم ﴾ أى فما زالوا يرددون تلك الكلمة وتسميتها دعوى أى دعوة لأن المولول كأنه يدعو الويل قائلا يا ويل تعالى فهذا أوانك ﴿ حتى جعلناهم حصيدا ﴾ أى مثل الحصيد وهو المحصود من الزرع والنبت ولذلك لم يجمع ﴿ خامدين ﴾ أى ميتين من خمدت النار إذا طفئت وهو مع حصيدا فى حيز المفعول الثانى للجعل كقولك جعلته حلوا حامضا والمعنى جعلناهم جامعين لمماثلة الحصيد والخمود أو حال من الضمير المنصوب فى جعلناهم أو من المستكن فى حصيد أو صفة لحصيد لتعدده معنى لأنه فى حكم جعلناهم أمثال حصيد ﴿ وما خلقنا السماء والأرض ﴾

إشارة إجمالية إلى أن تكوين العالم وإبداع بنى آدم مؤسس على قواعد الحكم البالغة المستتبعة للغايات الجليلة وتنبيه على أن ماحكى من العذاب الهائل والعقاب النازل بأهل القرى من مقتضيات تلك الحكم ومتفرعاتها حسب اقتضاء أعمالهم إياه وأن للمخاطبين المقتدين بآثارهم ذنوبا مثل ذنوبهم أى ما خلقناهما ﴿ وما بينهما ﴾ من المخلوقات التى لا تحصى أجناسها وأفرادها ولا تحصر أنواعها وآحادها على هذا النمط البديع والأسلوب المنيع خالية عن الحكم والمصالح وإنما عبر عن ذلك باللعب واللهو حيث قيل ﴿ لاعبين ﴾ لبيان كمال تنزهه تعالى عن الخلق الخالى عن الحكمة بتصويره بصورة ما لا يرتاب أحد فى استحالة صدوره عنه سبحانه بل إنما خلقناهما وما بينهما لتكون مبدأ لوجود الإنسان وسببا لمعاشه ودليلا يقوده إلى تحصيل معرفتنا التى هى الغاية القصوى بواسطة طاعتنا وعبادتنا كما ينطق به قوله تعالى (وهو الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام وكان عرشه على الماء ليبلوكم أيكم أحسن عملا) وقوله تعالى (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) وقوله تعالى :

﴿ لو أردنا أن نتخذ لهوا ﴾ استئناف مقرر لما قبله من انتفاء اللعب واللهو أى لو أردنا أن نتخذ ما يتلهى به ويلعب ﴿ لاتخذناه من لدنا ﴾ أى من جهة قدرتنا أو من عندنا مما يليق بشأننا من المجردات لا من الأجسام المرفوعة والأجرام الموضوعة كديدن الجبابرة فى رفع العروش وتحسينها وتسوية الفروش وتزيينها لكن يستحيل إرادتنا له لمنافاته الحكمة فليستحيل اتخاذنا له قطعا وقوله تعالى ﴿ إن كنا فاعلين ﴾ جوابه محذوف ثقة بدلالة ما قبله عليه أى إن كنا فاعلين لاتخذناه وقيل إن نافية أى ما كنا فاعلين أى لاتخاذ اللهو لعدم إرادتنا إياه فيكون بيانا لانتفاء التالى لانتفاء المقدم أو لإرادة اتخاذه فيكون بيانا لانتفاء المقدم المستلزم لانتفاء التالى وقيل اللهو الولد بلغة اليمن وقيل الزوجة والمراد الرد على النصارى ولا يخفى بعده ﴿ بل نقذف بالحق على الباطل ﴾ إضراب عن اتخاذ اللهو بل عن إرادته كأنه قيل لكنا لا نريده بل شأننا أن نغلب الحق الذى من جملته الجد على الباطل الذى من قبيله اللهو .

وتخصيص شأنه هذا من بين سائر شؤنه تعالى بالذكر للتخلص إلى ما سيأتى من الوعيد ﴿ فيدمغه ﴾ أى يمحقه بالكلية كما فعلنا بأهل القرى المحكية وقد استعير لإيراد الحق على الباطل القذف الذى هو الرمى الشديد بالجرم الصلب كالصخرة ولمحقه للباطل الدمغ الذى هو كسر الشىء الرخو الأجوف وهو الدماغ بحيث يشق غشاءه المؤدى إلى زهوق الروح تصويرا له بذلك وقرىء فيدمغه بالنصب وهو ضعيف وقرىء فيدمغه بضم الميم ﴿ فإذا هو زاهق ﴾ أى ذاهب بالكلية وفى إذا الفجائية والجملة الاسمية من الدلالة على كمال المسارعة فى الذهاب والبطلان ما لا يخفى فكأنه زاهق من الأصل ﴿ ولكم الويل مما تصفون ﴾ وعيد لقريش بأن لهم أيضاً مثل ما لأولئك من العذاب والعقاب ومن تعليلية متعلقة بالاستقرار الذى تعلق به الخبر أو بمحذوف هو حال من الويل أو من ضميره فى الخبر وما إما مصدرية أو موصولة أو موصوفة أى واستقر لكم الويل والهلاك من أجل وصفكم له سبحانه بما لا يليق بشأنه الجليل أو بالذى تصفونه أو بشىء تصفونه به من الولد أو كائنا مما تصفونه تعالى به .

﴿ وله من فى السموات والأرض ﴾ استئناف مقرر لما قبله من خلقه تعالى لجميع مخلوقاته على حكمة بالغة ونظام كامل وأنه تعالى يحق الحق ويزهق الباطل أى له تعالى خاصة جميع المخلوقات خلقا وملكا وتدبيرا وتصرفا وإحياء وإماتة وتعذيبا وإثابة من غير أن يكون لأحد فى ذلك دخل ما استقلالا أو استتباعا ﴿ ومن عنده ﴾ وهم الملائكة عليهم السلام عبر عنهم بذلك إثر ما عبر عنهم بمن فى السموات تنزيلا لهم لكرامتهم عليه عز وعلا وزلفاهم عنده منزلة المقربين عند الملوك بطريق التمثيل وهو مبتدأ خبره ﴿ لا يستكبرون عن عبادته ﴾ أى لا يتعظمون عنها ولا يعدون أنفسهم كبيرا ﴿ ولا يستحسرون ﴾ ولا يكلون ولا يعيون وصيغة الاستفعال المنبئة عن المبالغة فى الحسور للتنبيه على أن عباداتهم بثقلها ودوامها حقيقة بأن يستحسر منها ومع ذلك لا يستحسرون لا لإفادة نفى المبالغة فى الحسور مع ثبوت أصله فى الجملة كما أن نفى الظلامية فى قوله تعالى (وما أنا بظلام للعبيد) لإفادة كثرة الظلم المفروض تعلقه بالعبيد

لا لإفادة نفى المبالغة فى الظلم مع ثبوت أصل الظلم فى الجملة وقيل من عنده معطوف على من الأولى وإفرادهم بالذكر مع دخولهم فى من فى السموات والأرض للتعظيم كما فى قوله تعالى (وجبريل وميكائيل) فقوله تعالى لا يستكبرون حينئذ حال من الثانية ﴿ يسبحون الليل والنهار ﴾ أى ينزهونه فى جميع الأوقات ويعظمونه ويمجدونه دائما وهو استئناف وقع جوابا عما نشأ مما قبله كأنه قيل ماذا يصنعون فى عباداتهم أو كيف يعبدون فقيل يسبحون الخ أو حال من فاعل يستحسرون وكذا قوله تعالى ﴿ لا يفترون ﴾ أى لا يتخلل تسبيحهم فترة أصلا بفراغ أو بشغل آخر .

﴿ أم اتخذوا آلهة ﴾ حكاية لجناية أخرى من جناياتهم بطريق الإضراب والانتقال من فن إلى فن آخر من التوبيخ إثر تحقيق الحق ببيان أنه تعالى خلق جميع المخلوقات على منهاج الحكمة وأنهم قاطبة تحت ملكوته وقهره وأن عباده مذعنون لطاعته ومثابرون على عبادته منزهون له عن كل ما لا يليق بشأنه من الأمور التى من جملتها الأنداد ومعنى الهمزة فى أم المنقطعة إنكار الوقوع لا إنكار الواقع وقوله تعالى ﴿ من الأرض ﴾ متعلق باتخذوا أو بمحذوف هو صفة لآلهة وأياً ما كان فالمراد هو التحقير لا التخصيص وقوله تعالى ﴿ هم ينشرون ﴾ أى يبعثون الموتى صفة لآلهة وهو الذى يدور عليه الإنكار والتجهيل والتشنيع لا نفس الاتخاذ فإنه واقع لا محالة أى بل اتخذوا آلهة من الأرض هم خاصة مع حقارتهم وجماديتهم ينشرون الموتى كلا فإن ما اتخذوها آلهة بمعزل من ذلك وهم وإن لم يقولوا بذلك صريحا لكنهم حيث ادعوا لها الإلهية فكأنهم ادعوا لها الإنشار ضرورة أنه من الخصائص الإلهية حتما ومعنى التخصيص فى تقديم الضمير ما أشير إليه من التنبيه على كمال مباينة حالهم للإنشار الموجبة لمزيد الإنكار كما فى قوله تعالى (أفى الله شك) وقوله تعالى (أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون) فإن تقديم الجار والمجرور للتنبيه على كمال مباينة أمره تعالى لأن يشك فيه ويستهزأ به ويجوز أن يجعل ذلك من مستتبعات ادعائهم الباطل لأن الألوهية مقتضية للاستقلال بالإبداء والإعادة لحيث ادعوا للأصنام

الإلهية فكأنهم ادعوا لها الاستقلال بالإنشار كما أنهم جعلوا بذلك مدعين لأصل الإنشار .

دلائل التوحيد

﴿ لو كان فيهما آلهة إلا الله ﴾ إبطال لتعدد الإله بإقامة البرهان على انتفائه بل على استحالته وإيراد الجمع لوروده إثر إنكار اتخاذ الآلهة لا لأن للجمعية مدخلا فى الاستدلال وكذا فرض كونهما فيهما وإلا بمعنى غير على أنها صفة لآلهة ولا مساغ للاستثناء لاستحالة شمول ما قبلها وما بعدها وإفضائه إلى فساد المعنى لدلالته حينئذ على أن الفساد لكونها فيهما بدونه تعالى ولا للرفع على البدل لأنه متفرع على الاستثناء ومشروط بأن يكون فى كلام غير موجب أى لو كان فى السموات والأرض آلهة غير الله كما هو اعتقادهم الباطل ﴿ لفسدتا ﴾ أى لبطلتا بما فيهما جميعاً وحيث انتفى التالى علم انتفاء المقدم قطعا بيان الملازمة أن الإلهية مستلزمة للقدرة على الاستبداد بالتصرف فيهما على الإطلاق تغييرا وتبديلا وإيجاداً وإعداما وإحياء وإماتة فبقاؤهما على ما هما عليه إما بتأثير كل منها وهو محال لاستحالة وقوع المعلول المعين بعلل متعددة وإما بتأثير واحد منها فالبواقى بمعزل من الإلهية قطعا واعلم أن جعل التالى فسادهما بعد وجودهما لما أنه اعتبر فى المقدم تعدد الآلهة فيهما وإلا فالبرهان يقضى باستحالة التعدد على الإطلاق فإنه لو تعدد الإله فإن توافق الكل فى المراد تطاردت عليه القدر وإن تخالفت تعاوقت فلا يوجد موجود أصلا وحيث انتفى التالى تعين انتفاء المقدم والفاء فى قوله تعالى :

﴿ فسبحان الله ﴾ لترتيب ما بعدها على ما قبلها من ثبوت الوحدانية بالبرهان أى فسبحوه سبحانه اللائق به ونزهوه عما لا يليق به من الأمور التى من جملتها أن يكون له شريك فى الألوهية وإيراد الجلالة فى موضع الإضمار للإشعار بعلة الحكم فإن الألوهية مناط لجميع صفات كماله التى من جملتها تنزهه تعالى عما لا يليق به ولتربية المهابة وإدخال الروعة وقوله تعالى ﴿ رب العرش ﴾

صفة للاسم الجليل مؤكدة لتنزهه عز وجل ﴿ عما يصفون ﴾ متعلق بالتسبيح أى فسبحوه عما يصفونه من أن يكون من دونه آلهة ﴿ لا يسأل عما يفعل ﴾ استئناف ببيان أنه تعالى لقوة عظمته وعزة سلطانه القاهر بحيث ليس لأحد من مخلوقاته أن يناقشه ويسأله عما يفعل من أفعال إثر بيان أن ليس له شريك فى الإلهية ﴿ وهم ﴾ أى العباد ﴿ يسألون ﴾ عما يفعلون نقيرا وقطميرا لأنهم مملوكون له تعالى مستعبدون ففيه وعيد للكفرة ﴿ أم اتخذوا من دونه آلهة ﴾ إضراب وانتقال من إظهار بطلان كون ما اتخذوه آلهة آلهة حقيقة بإظهار خلوها عن خصائص الإلهية التى من جملتها الإنشار وإقامة البرهان القاطع على استحالة تعدد الإله على الإطلاق وتفرده سبحانه بالألوهية إلى إظهار بطلان اتخاذهم تلك الآلهة مع عرائها عن تلك الخصائص بالمرة شركاء لله عز سلطانه وتبكيتهم بإلجائهم إلى إقامة البرهان على دعواهم الباطلة وتحقيق أن جميع الكتب السماوية ناطقة بحقية التوحيد وبطلان الإشراك والهمزة لإنكار الاتخاذ المذكور واستقباحه واستعظامه ومن متعلقة باتخذوا والمعنى بل اتخذوا متجاوزين إياه تعالى مع ظهور شئونه الجليلة الموجبة لتفرده بالألوهية آلهة مع ظهور خلوهم عن خواص الألوهية بالكلية .

﴿ قل ﴾ لهم بطريق التبكيت وإلقام الحجر ﴿ هاتوا برهانكم ﴾ على ما تدعونه من جهة العقل والنقل فإنه لا صحة لقول لا دليل عليه فى الأمور الدينية لاسيما فى مثل هذا الشأن الخطير وما فى إضافة البرهان إلى ضميرهم من الإشعار بأن لهم برهانا ضرب من التهكم بهم وقوله تعالى ﴿ هذا ذكر من معى وذكر من قبلى ﴾ إنارة لبرهانه وإشارة إلى أنه مما نطقت به الكتب الإلهية قاطبة وشهدت به ألسنة الرسل المتقدمة كافة وزيادة تهييج لهم على إقامة البرهان لإظهار كمال عجزهم أى هذا الوحى الوارد فى شأن التوحيد المتضمن للبرهان القاطع العقلى ذكر أمتى أى عظتهم وذكر الأمم السالفة قد أقمته فأقيموا أنتم أيضا برهانكم وقيل المعنى هذا كتاب أنزل على أمتى وهذا كتاب أنزل على أمم الأنبياء عليهم السلام من

الكتب الثلاثة والصحف فراجعوها وانظروا هل فى واحد منها غير الأمر بالتوحيد والنهى عن الإشراك ففيه تبكيت لهم يتضمن إثبات نقيض مدعاهم وقرىء بالتنوين والإعمال كقوله تعالى (أو إطعام فى يوم ذى مسغبة يتيما) وبه وبمن الجارة على أن مع اسم هو ظرف كقبل وبعد وقوله تعالى ﴿ بل أكثرهم لا يعلمون الحق ﴾ إضراب من جهته تعالى غير داخل فى الكلام الملقن وانتقال من الأمر بتبكيتهم بمطالبة البرهان إلى بيان أنه لا ينجع فيهم المحاجة بإظهار حقية الحق وبطلان الباطل فإن أكثرهم لا يفهمون الحق ولا يميزون بينه وبين الباطل ﴿ فهم ﴾ لأجل ذلك ﴿ معرضون ﴾ أى مستمرون على الإعراض عن التوحيد واتباع الرسول لا يرعوون عما هم عليه من الغى والضلال وإن كررت عليهم البينات والحجج أو معرضون عما ألقى عليهم من البراهين العقلية وقرىء الحق بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف وسط بين السبب والمسبب تأكيدا للسببية وقوله تعالى :

﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾ استئناف مقرر لما أجمل فيما قبله من كون التوحيد مما نطقت به الكتب الإلهية وأجمعت عليه الرسل عليهم الصلاة السلام وقرىء (يوحى) على صيغة الغائب مبنيا للمفعول وأياما كان فصيغة المضارع لحكاية الحال الماضية استحضاراً لصورة الوحى ﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولدا ﴾ حكاية لجناية فريق من المشركين جىء بها لإظهار بطلانها وبيان تنزهه تعالى عن ذلك إثر بيان تنزهه سبحانه عن الشركاء على الإطلاق وهم حى من خزاعة يقولون الملائكة بنات الله تعالى ونقل الواحدى أن قريشا وبعض أجناس العرب جهينة وبنى مليح يقولون ذلك والتعرض لعنوان الرحمانية المنبئة عن كون جميع ما سواه تعالى مربوبا له تعالى نعمة أو منعما عليه لإبراز كمال شناعة مقالتهم الباطلة ﴿ سبحانه ﴾ أى تنزه بالذات تنزهه اللائق به على أن السبحان مصدر من سبح أى بعد أو أسبحه تسبيحه على أنه علم للتسبيح وهو مقول على ألسنة العباد أو سبحوه تسبيحه وقوله تعالى ﴿ بل عباد ﴾ إضراب وإبطال لما قالوه كأنه قيل

ليست الملائكة كما قالوا بل هم عباد له تعالى ﴿مكرمون﴾ مقربون عنده وقرىء مكرمون بالتشديد وفيه تنبيه على منشأ غلط القوم وقوله تعالى :

﴿لا يسبقونه بالقول﴾ صفة أخرى لعباد منبئة عن كمال طاعتهم وانقيادهم لأمره تعالى أى لا يقولون شيئا حتى يقوله تعالى أو يأمرهم به وأصله لا يسبق قولهم قوله تعالى فأسند السبق إليهم منسوبا إليه تعالى تنزيلا لسبق قولهم قوله تعالى منزلة سبقهم إياه تعالى لمزيد تنزيههم عن ذلك وللتنبيه على غاية استهجان السبق المعرض به للذين يقولون ما لا يقوله الله تعالى وجعل القول محلا للسبق وأداة له ثم أنيب اللام عن الإضافة للاختصار والتجافى عن التكرار وقرىء لا يسبقونه بضم الباء من سابقته فسبقته أسبقه وفيه مزيد استهجان للسبق وإشعار بأن من سبق قوله قوله تعالى فقد تصدى لمغالبته تعالى فى السبق فسبقه فغلبه والعياذ بالله تعالى وزيادة تنزيه لهم عما نفى عنهم ببيان أن ذلك عندهم بمنزلة الغلبة بعد المغالبة فأنى يتوهم صدوره عنهم ﴿وهم بأمره يعملون﴾ بيان لتبعيتهم له تعالى فى الأعمال إثر بيان تبعيتهم له تعالى فى الأقوال فإن نفى سبقهم له تعالى بالقول عبارة عن تبعيتهم له تعالى فيه كأنه قيل هم بأمره يقولون وبأمره يعملون لا بغير أمره أصلا فالقصر المستفاد من تقديم الجار معتبر بالنسبة إلى غير أمره لا إلى أمر غيره ﴿يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم﴾ استئناف وقع تعليلا لما قبله وتمهيدا لما بعده فإنهم لعلمهم بإحاطته تعالى بما قدموا وأخروا من الأقوال والأعمال لا يزالون يراقبون أحوالهم فلا يقدمون على قول أو عمل بغير أمره تعالى ﴿ولا يشفعون إلا لمن ارتضى﴾ أن يشفع له مهابة منه تعالى ﴿وهم﴾ مع ذلك ﴿من خشيته﴾ عز وجل ﴿مشفقون﴾ مرتعدون وأصل الخشية الخوف مع التعظيم ولذلك خص بها العلماء والإشفاق الخوف مع الاعتناء فعند تعديته بمن يكون معنى الخوف فيه أظهر وعند تعديته بعلى ينعكس الأمر .

﴿ومن يقل منهم﴾ أى من الملائكة الكلام فيهم وفى كونهم بمعزل مما قالوا فى حقهم ﴿إنى إله من دونه﴾ متجاوز إياه تعالى ﴿فذلك﴾ الذى فرض قوله فرض محال ﴿نجزيه جهنم﴾ كسائر المجرمين ولا يغنى عنهم ما ذكر من صفاتهم

السنية وأفعالهم المرضية وفيه من الدلالة على قوة ملكوته تعالى وعزة جبروته واستحالة كون الملائكة بحيث يتوهم فى حقهم ما توهمه أولئك الكفرة ما لا يخفى ﴿كذلك نجزى الظالمين﴾ مصدر تشبيهى مؤكد لمضمون ما قبله أى مثل ذلك الجزاء الفظيع نجزى الذين يضعون الأشياء فى غير مواضعها ويتعدون أطوارهم والقصر المستفاد من التقديم معتبر بالنسبة إلى النقصان دون الزيادة أى لا جزاء أنقص منه ﴿أولم ير الذين كفروا﴾ تجهيل لهم بتقصيرهم فى التدبر فى الآيات التكوينية الدالة على استقلاله تعالى بالألوهية وكون جميع ما سواه مقهورا تحت ملكوته والهمزة للإنكار والواو للعطف على مقدر وقرىء بغير واو والرؤية قلبية أى ألم يتفكروا ولم يعلموا ﴿أن السموات والأرض كانتا﴾ أى جماعتا السموات والأرضين كما فى قوله تعالى (إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا) ﴿رتقا﴾ الرتق الضم والالتحام والمعنى إما على حذف المضاف أو هو بمعنى المفعول أى كانتا ذواتى رتق أو مرتوقتين وقرىء رتقا أى شيئا رتقا أى مرتوقا .

﴿ففتقناهما﴾ قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما فى رواية عكرمة والحسن البصرى وقتادة وسعيد بن جبير كانتا شيئا واحدا ملتزمين ففصل الله تعالى بينهما ورفع السماء إلى حيث هى وأقر الأرض وقال كعب خلق الله تعالى السموات والأرض ملتصقتين ثم خلق ريحا فتوسطتها ففتقتها وعن الحسن خلق الله تعالى الأرض فى موضع بيت المقدس كهيئة الفهر عليها دخان ملتزق بها ثم أصعد الدخان وخلق منه السموات وأمسك الفهر فى موضعها وبسط منها الأرض وذلك قوله تعالى (كانتا رتقا ففتقناهما) وقال مجاهد والسدى كانت السموات مرتتقة طبقة واحدة ففتقها فجعلها سبع سموات وكذلك الأرض كانت مرتتقة طبقة واحدة ففتقها فجعلها سبع أرضين وقال ابن عباس فى رواية عطاء وعليه أكثر المفسرين إن السموات كانت رتقا مستوية صلبة لا تمطر والأرض رتقا لا تنبت ففتق السماء بالمطر والأرض بالنبات فيكون المراد بالسموات السماء الدنيا والجمع باعتبار الآفاق أو السموات جميعا على أن لها

مدخلا فى الأمطار وعلم الكفرة الرتق والفتق بهذا المعنى مما لا سترة به وأما بالمعانى الأول فهم وإن لم يعلموهما لكنهم متمكنون من علمهما إما بطريق النظر والتفكر فإن الفتق عارض مفتقر إلى مؤثر قديم وإما بالاستفسار من العلماء ومطالعة الكتب .

﴿ جعلنا من الماء كل شىء حى ﴾ أى خلقنا من الماء كل حيوان كقوله تعالى (والله خلق كل دابة من ماء) وذلك لأنه من أعظم مواده أو لفرط احتياجه إليه وانتفاعه به أو صيرنا كل شىء حى من الماء أى بسبب منه لا بد له من ذلك وتقديم المفعول الثانى للاهتمام به لا لمجرد أن المفعولين فى الأصل مبتدأ وخبر وحق الخبر عند كونه ظرفا أن يتقدم على المبتدأ فإن ذلك مصحح محض لا مرجح وقرىء حيا على أنه صفة كل أو مفعول ثان والظرف كما فى الوجه الأول قدم على المفعول للاهتمام به والتشويق إلى المؤخر ﴿ أفلا يؤمنون ﴾ إنكار لعدم إيمانهم بالله وحده مع ظهور ما يوجبه حتما من الآيات الآفاقية والأنفسية الدالة على تفرده عز وجل بالألوهية وعلى كون ما سواه من مخلوقاته مقهورة تحت ملكوته وقدرته والفاء للعطف على مقدر يستدعيه الإنكار السابق أى أيعلمون ذلك فلا يؤمنون .

﴿ وجعلنا فى الأرض رواسى ﴾ أى جبالا ثوابت جمع راسية من رسا الشىء إذا ثبت ورسخ ووصف جمع المذكر بجمع المؤنث فى غير العقلاء مما لا ريب فى صحته كقوله تعالى (أشهر معلومات) (وأياما معدودات) ﴿ أن تميد بهم ﴾ أى كراهة أن تتحرك وتضطرب بهم أو لئلا تميد بهم بحذف اللام ولا لعدم الإلباس ﴿ وجعلنا فيها ﴾ أى فى الأرض وتكرير الفعل لاختلاف المجعولين ولتوفية مقام الامتنان حقه أو فى الرواسى لأنها المحتاجة إلى الطرق ﴿ فجاجا ﴾ مسالك واسعة وإنما قدم على قوله تعالى ﴿ سبلا ﴾ وهو وصف له ليصير حالا فيفيد أنه تعالى حين خلقها خلقها كذلك أو ليبدل منها سبلا فيدل ضمنا على أنه تعالى خلقها ووسعها للسابلة مع ما فيه من التوكيد ﴿ لعلهم يهتدون ﴾ أى إلى

مصالحهم ومهماتهم ﴿وجعلنا السماء سقفا محفوظا﴾ من الوقوع بقدرتنا القاهرة أو من الفساد والانحلال إلى الوقت المعلوم بمشيئتنا أو من استراق السمع بالشهب ﴿وهم عن آياتها﴾ الدالة على وحدانيته تعالى وعلمه وحكمته وقدرته وإرادته التى بعضها محسوس وبعضها معلوم بالبحث عنه فى علمى الطبيعة والهيئة ﴿معرضون﴾ لا يتدبرون فيها فيبقون على ما هم عليه من الكفر والضلال وقوله تعالى :

﴿وهو الذى خلق الليل والنهار والشمس والقمر﴾ اللذين هما آيتاهما بيان لبعض تلك الآيات التى هم عنها معرضون بطريق الالتفات الموجب لتأكيد الاعتناء بفحوى الكلام أى هو الذى خلقهن وحده ﴿كل﴾ أى كل واحد منهما على أن التنوين عوض عن المضاف إليه ﴿فى فلك يسبحون﴾ أى يجرون فى سطح الفلك كالسبح فى الماء والمراد بالفلك الجنس كقولك كساهم الخليفة حلة والجملة حال من الشمس والقمر وجاز انفرادهما بها لعدم اللبس والضمير لهما والجمع باعتبار المطالع وجعل الضمير واو العقلاء لأن السباحة حالهم ﴿وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد﴾ أى فى الدنيا لكونه مخالفا للحكمة التكوينية والتشريعية ﴿أفإن مت﴾ بمقتضى حكمتنا ﴿فهم الخالدون﴾ نزلت حين قالوا نتربص به ريب المنون والفاء لتعليق الشرطية بما قبلها والهمزة لإنكار مضمونها بعد تقرر القاعدة الكلية النافية لذلك بالمرة والمراد بإنكار خلودهم ونفيه إنكار ما هو مدار له وجودا وعدما من شماتتهم بموته عليه السلام فإن الشماتة بما يعتريه أيضا مما لا ينبغى أن يصدر عن العاقل كأنه قيل أفإن مت فهم الخالدون حتى يشمتوا [1] بموتك وقوله تعالى ﴿كل نفس ذائقة الموت﴾ أى ذائقة مرارة مفارقتها جسدها برهان على ما أنكر من خلودهم .

---

(١) فى ط : فشتموا .

﴿ ونبلوكم ﴾ الخطاب إما للناس كافة بطريق التلوين أو للكفرة بطريق الالتفات أى نعاملكم معاملة من يبلوكم ﴿ بالشر والخير ﴾ بالبلايا والنعم هل تصبرون وتشكرون أو لا ﴿ فتنة ﴾ مصدر مؤكد لنبلوكم من غير لفظه ﴿ وإلينا ترجعون ﴾ لا إلى غيرنا لا استقلالا ولا اشتراكا فنجازيكم حسبما يظهر منكم من الأعمال فهو على الأول وعد ووعيد وعلى الثانى وعيد محض وفيه إيماء إلى أن المقصود من هذه الحياة الدنيا الابتلاء والتعريض للثواب والعقاب وقرىء يرجعون بالياء على الالتفات ﴿ وإذا رآك الذين كفروا ﴾ أى المشركون ﴿ إن يتخذونك إلا هزوا ﴾ أى ما يتخذونك إلا مهزوءا به على معنى قصر معاملتهم معه عليه السلام على اتخاذهم إياه هزوا لا على معنى قصر اتخاذهم على كونه هزوا كما هو المتبادر كأنه قيل ما يفعلون بك إلا اتخاذك هزوا وقد مر تحقيقه فى قوله تعالى (إن أتبع إلا ما يوحى إلى) فى سورة الأنعام ﴿ أهذا الذى يذكر آلهتكم ﴾ على إرادة القول أى ويقولون أو قائلين ذلك أى يذكرهم الخ وقوله تعالى ﴿ وهم بذكر الرحمن هم كافرون ﴾ فى حيز النصب على الحالية من ضمير القول المقدر والمعنى أنهم يعيبون عليه عليه الصلاة والسلام أن يذكر آلهتهم التى لا تضر ولا تنفع بالسوء والحال أنهم بذكر الرحمن المنعم عليهم بما يليق به من التوحيد أو بإرشاد الخلق بإرسال الرسل وإنزال الكتب أو بالقرآن كافرون بذكر الرحمن والضمير الثانى تأكيد لفظى للأول فوقع الفصل بين العامل ومعموله بالمؤكد وبين المؤكد والمؤكد بالمعمول ﴿ خلق الإنسان من عجل ﴾ جعل لفرط استعجاله وقلة صبره كأنه مخلوق منه تنزيلا لما طبع عليه من الأخلاق منزلة ما طبع منه من الأركان إيذانا بغاية لزومه له وعدم انفكاكه عنه ومن عجلته مبادرته إلى الكفر واستعجاله بالوعيد روى أنها نزلت فى النضر ابن الحرث حين استعجل العذاب بقوله (اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر) الآية وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن المراد بالإنسان آدم عليه السلام وأنه حين بلغ الروح صدره ولم يتبالغ فيه أراد أن يقوم وروى أنه لما دخل الروح فى عينيه نظر إلى ثمار الجنة ولما دخل جوفه اشتهى الطعام وقيل

خلقه الله تعالى فى آخر النهار يوم الجمعة قبل غروب الشمس فأسرع فى خلقه قبل غيبتها فالمعنى خلق الإنسان خلقا ناشئا من عجل فذكره لبيان أنه من دواعى عجلته فى الأمور والأظهر أن المراد به الجنس وإن كان خلقه عليه السلام ساريا إلى أولاده وقيل العجل الطين بلغة حمير ولاتقريب له ههنا وقوله تعالى ﴿ سأريكم آياتى ﴾ تلوين للخطاب وصرف له عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المستعجلين بطريق التهديد والوعيد أى سأريكم نقماتى فى الآخرة كعذاب النار وغيره ﴿ فلا تستعجلون ﴾ بالإتيان بها والنهى عما جبلت عليه نفوسهم ليقعدوها عن مرادها ﴿ ويقولون متى هذا الوعد ﴾ أى وقت مجىء الساعة التى كانوا يوعدون وإنما كانوا يقولونه استعجالا لمجيئه بطريق الاستهزاء والإنكار كما يرشد إليه الجواب لاطلبا لتعيين وقته بطريق الإلزام كما فى سورة الملك ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ أى فى وعدكم بأنه يأتينا والخطاب للنبى عليه الصلاة والسلام والمؤمنين الذين يتلون الآيات الكريمة المنبئة عن مجىء الساعة وجواب الشرط محذوف ثقة بدلالة ماقبله عليه حسبما حذف فى مثل قوله تعالى (فأتنا بما تعدنا) إن كنت من الصادقين فإن قولهم حتى هذا الوعد استبطاء للموعود وطلب لإتيانه بطريق العجلة فإن ذلك فى قوة الأمر بالإتيان عجلة كأنه قيل فليأتنا بسرعة إن كنتم صادقين ﴿ لو يعلم الذين كفروا ﴾ استئناف مسوق لبيان شدة هول مايستعجلونه وفظاعة ما فيه من العذاب وأنهم إنما يستعجلونه لجهلهم بشأنه وإيثار صيغة المضارع فى الشرط وإن كان المعنى المضى لإفادة استمرار عدم العلم فإن المضارع المنفى الواقع موقع الماضى ليس بنص فى إفادة انتفاء استمرار الفعل بل يفيد استمرار انتفائه أيضاً بحسب المقام كما فى قولك لو تحسن إلى لشكرتك فإن المعنى أن انتفاء الشكر لاستمرار انتفاء الإحسان لا لانتفاء استمرار الإحسان ووضع الموصول موضع الضمير للتنبيه بما فى حيز الصلة على علة استعجالهم وقوله تعالى ﴿ حين لا يكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم ﴾ مفعول يعلم وهو عبارة عن الوقت الموعود الذى كانوا يستعجلونه وإضافته إلى الجملة الجارية مجرى الصفة التى حقها أن تكون معلومة الانتساب

إلى الموصوف عند المخاطب أيضاً مع إنكار الكفرة لذلك للإيذان بأنه من الظهور بحيث لا حاجة له إلى الإخبار به وإنما حقه الانتظام فى سلك المسلمات المفروغ عنها وجواب لو محذوف أى لولم يستمر عليهم بالوقت الذى يستعجلونه بقولهم متى هذا الوعد من الحين الذى تحيط بهم النار فيه من كل جانب وتخصيص الوجوه والظهور بالذكر بمعنى القدام والخلف لكونهما أشهر الجوانب واستلزام الإحاطة بهما الإحاطة بالكمال بحيث يقدرون على دفعها بأنفسهم من جانب من جوانبهم .

﴿ ولا هم ينصرون ﴾ من جهة الغير فى دفعها الخ لما فعلوا ما فعلوا من الاستعجال ويجوز أن يكون يعلم متروك المفعول منزلا منزلة اللازم أى لو كان لهم علم لما فعلوه وقوله تعالى حين الخ استئناف مقرر لجهلهم ومبين لاستمراره إلى ذلك الوقت كأنه قيل حين يرون ما يرون يعلمون حقيقة الحال ﴿ بل تأتيهم ﴾ عطف على لا يكفون أى لا يكفونها بل تأتيهم أى العدة أو النار أو الساعة ﴿ بغتة فتبهتهم ﴾ أى تغلبهم أو تحيرهم وقرىء الفعلان بالتذكير على أن الضمير للوعد أو الحين وكذا الهاء فى قوله تعالى ﴿ فلا يستطيعون ردها ﴾ بتأويل الوعد بالنار أو العدة والحين بالساعة ويجوز عوده إلى النار وقيل إلى البغتة أى لا يستطيعون ردها عنهم بالكلية ﴿ ولاهم ينظرون ﴾ أى يمهلون ليستريحوا طرفة عين وفيه تذكير لإمهالهم فى الدنيا ﴿ ولقد استهزىء برسل من قبلك ﴾ تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم عن استهزائهم به عليه السلام فى ضمن الاستعجال وعدة ضمنية بأنه يصيبهم مثل ما أصاب المستهزئين بالرسل السالفة عليهم الصلاة والسلام وتصديرها بالقسم لزيادة تحقيق مضمونها وتنوين الرسل للتفخيم والتكثير ومن متعلقة بمحذوف هو صفة له أى وبالله لقد استهزىء برسل أولى شأن خطير وذوى عدد كثير كائنين من زمان قبل زمانك على حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه.

﴿ فحاق ﴾ أى أحاط عقيب ذلك أو نزل أو حل أو نحو ذلك فإن معناه يدور على الشمول واللزوم ولا يكاد يستعمل إلا فى الشر والحيق ما يشتمل على الإنسان من مكروه فعله وقوله تعالى ﴿ ما كانوا به يستهزؤن ﴾ للمسارعة إلى

بيان لحوق الشر بهم وما إما موصلة مفيدة للتهويل والضمير المجرور عائد إليها والجار متعلق بالفعل وتقديمه عليه لرعاية الفواصل أى فأحاط بهم الذى كانوا يستهزؤن به حيث أهلكوا لأجله وإما مصدرية فالضمير المجرور راجع حينئذ إلى جنس الرسول المدلول عليه بالجمع كما قالوا ولعل إيثاره على الجمع للتنبيه على أنه يحيق بهم جزاء استهزائهم بكل واحـــد واحد منهم عليهم السلام لا جزاء استهزائهم بكلهم من حيث هو كل فقط أى فنزل بهم جـزاء استهزائهم على وضع السبب موضع المسبب إيذانا بكمال الملابسة بينهما أو عين استهزائهم إن أريد بذلك العذاب الأخروى بناء على تجسيم الأعمال الظاهرة فى هذه النشأة بصور عرضية تبرز فى النشأة الآخرة بصور جوهرية مناسبة لها فى الحسن والقبح وعلى ذلك بنى الوزن وقد مر تفصيله فى سورة الأعراف وفى قوله تعالى (إنما بغيكم على أنفسكم) الآية إلى آخرها.

﴿ قل ﴾ خطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم إثر تسليته بما ذكر من مصير أمرهم إلى الهلاك وأمر له عليه السلام بأن يقول لأولئك المستهزئين بطريق التقريع والتبكيت ﴿ من يكلؤكم ﴾ أى يحفظكم ﴿ بالليل والنهار من الرحمن ﴾ أى من بأسه الذى تستحقون نزوله ليلا أو نهارا وتقديم الليل لما أن الدواهى أكثر فيه وقوعا وأشد وقعا وفى التعرض لعنوان الرحمانية إيذان بأن كالئهم ليس إلا رحمته العامة وبعد ما أمر عليه السلام بما ذكر من السؤال على الوجه المذكور حسبما تقتضيه حالهم لأنهم بحيث لولا أن الله تعالى يحفظهم فى الملوين لحل بهم فنون الآفات فهم أحقاء بأن يكلفوا الاعتراف بذلك فيوبخوا على ما هم عليه من الإشراك أضرب عن ذلك بقوله تعالى:

﴿ بل هم عن ذكر ربهم معرضون ﴾ ببيان أن لهم حالا أخرى مقتضية لصرف الخطاب عنهم هى أنهم لا يخطرون ذكره تعالى ببالهم فضلا أن يخافوا بأسه ويعدوا ما كانوا عليه من الأمن والدعة حفظا وكلاءة حتى يسألوا عن الكالىء على طريقة قول من قال:

عوجوا لنعمى فحيوا دمنة الدار ... ماذا تحيون من نؤى وأحجار

وفى تعليق الإعراض بذكره تعالى وإيراد اسم الرب المضاف إلى ضميرهم المنبىء عن كونهم تحت ملكوته وتدبيره وتربيته تعالى من الدلالة على كونهم فى الغاية القاصية من الضلالة والغى ما لا يخفى وكلمة أم فى قوله تعالى ﴿ أم لهم آلهة تمنعهم من دوننا ﴾ منقطعة ومافيها من معنى بل للإضراب والانتقال عما قبله من بيان أن جهلهم بحفظه تعالى إياهم لعدم خوفهم الناشىء عن إعراضهم عن ذكر ربهم بالكلية إلى توبيخهم باعتمادهم على آلهتهم وإسنادهم الحفظ إليها والهمزة لإنكار أن يكون لهم آلهة تقدر على ذلك والمعنى بل ألهم آلهة تمنعهم من العذاب تتجاوز منعنا أو حفظنا أو من عذاب كائن من عندنا فهم معولون عليها واثقون بحفظها وفى توجيه الإنكار والنفى إلى وجود الآلهة الموصوفة بما ذكر من المنع لا إلى نفس الصفة بأن يقال أم تمنعهم آلهتهم الخ من الدلالة على سقوطها عن مرتبة الوجود فضلا عن رتبة المنع ما لا يخفى وقوله عز وعلا ﴿ لا يستطيعون نصر أنفسهم ولا هم منا يصحبون ﴾ استئناف مقرر لما قبله من الإنكار وموضح لبطلان اعتقادهم أى هم لا يستطيعون أن ينصروا أنفسهم ولا يصحبون بالنصر من جهتنا فكيف يتوهم أن ينصروا غيرهم وقوله تعالى .

﴿ بل متعنا هؤلاء وآباءهم حتى طال عليهم العمر ﴾ إضراب عما توهموا ببيان أن الداعى إلى حفظهم تمتيعنا إياهم بما قدر لهم من الأعمار أو عن الدلالة على بطلانه ببيان ما أوهمهم ذلك وهو أنه تعالى متعهم بالحياة الدنيا وأمهلهم حتى طالت أعمارهم فحسبوا أن لا يزالوا كذلك وأنه بسبب ما هم عليه ولذلك عقب بما يدل على أنه طمع فارغ وأمل كاذب حيث قيل ﴿ أفلا يرون ﴾ أى ألا ينظرون فلا يرون ﴿ أنا نأتى الأرض ﴾ أى أرض الكفرة ﴿ ننقصها من أطرافها ﴾ فكيف يتوهمون أنهم ناجون من بأسنا وهو تمثيل وتصوير لما يخربه الله عز وجل من ديارهم على أيدى المسلمين ويضيفها إلى دار الإسلام ﴿ أفهم الغالبون ﴾ على رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين والفاء لإنكار ترتيب الغالبية على ما ذكر من نفس أرض الكفرة بتسليط المسلمين عليها كأنه قيل أبعد ظهور ما ذكر ورؤيتهم له يتوهم غلبتهم كما مر فى قوله تعالى (أفمن كان

على بينة من ربه) وقوله تعالى (قل أفاتخذتم من دونه أولياء) وفى التعريف تعريض بأن المسلمين هم المتعينون للغلبة المعروفون بها .

﴿ قل إنما أنذركم ﴾ بعد ما بين من جهته تعالى غاية هول ما يستعجله ونهاية سوء حالهم عند إتيانه ونعى عليهم جهلهم بذلك وإعراضهم عن ذكر ربهم الذى يكلؤهم من طوارق الليل والنهار وغير ذلك من مساوى أحوالهم أمر عليه السلام بأن يقول لهم إنما أنذركم ما تستعجلونه من الساعة ﴿ بالوحى ﴾ الصادق الناطق بإتيانها وفظاعة ما فيها من الأهوال أى إنما شأنى أن أنذركم بالإخبار بذلك لا بالإتيان بها فإنه مزاحم للحكمة التكوينية والتشريعية إذ الإيمان برهانى لا عيانى وقوله تعالى : ﴿ ولا يسمع الصم الدعاء ﴾ إما من تتمة الكلام الملقن تذييل له بطريق الاعتراض قد أمر عليه السلام بأن يقوله لهم توبيخا وتقريعا وتسجيلا عليهم بكمال الجهل والعناد واللام للجنس المنتظم للمخاطبين انتظاما أوليا أو للعهد فوضع المظهر موضع المضمر للتسجيل عليهم بالتصام وتقييد نفى السماع بقوله تعالى : ﴿ إذا ما ينذرون ﴾ مع أن الصم لا يسمعون الكلام إنذارا كان أو تبشيرا لبيان كمال شدة الصمم كما أن إيثار الدعاء الذى هو عبارة عن الصوت والنداء على الكلام لذلك فإن الإنذار عادة يكون بأصوات عالية مكررة مقارنة لهيآت دالة عليه فإذا لم يسمعوها يكون صممهم فى غاية لا غاية وراءها وإما من جهته تعالى على طريقة قوله تعالى (بل هم عن ذكر ربهم معرضون) ويؤيده القراءة على خطاب النبى عليه الصلاة والسلام من الإسماع بنصب الصم والدعاء كأنه قيل قل لهم ذلك وأنت بمعزل من إسماعهم وقرىء بالياء أيضاً على أن الفاعل هو عليه السلام وقرىء على البناء للمفعول أى لا يقدر أحد على إسماع الصم وقوله تعالى : ﴿ ولئن مستهم نفحة من عذاب ربك ﴾ بيان لسرعة تأثرهم من مجىء نفس العذاب إثر بيان عدم تأثرهم من مجىء خبره على نهج التوكيد القسمى أى وبالله لئن أصابهم أدنى شىء من عذابه تعالى كما ينبىء عنه المس والنفحة بجوهرها وبنائها فإن أصل النفح هبوب رائحة الشىء ﴿ ليقولن ياويلنا إنا كنا ظالمين ﴾ ليدعن على أنفسهم بالويل والهلاك ويعترفن عليها

بالظلم وقوله تعالى : ﴿ ونضع الموازين القسط ﴾ بيان لما سيقع عند إتيان ما أنذروه أى نقيم الموازين العادلة التى توزن بها صحائف الأعمال وقيل وضع الموازين تمثيل لإرصاد الحساب السوى والجزاء على حسب الأعمال وقد مر تفصيل ما فيه من الكلام فى سورة الأعراف وإفراد القسط لأنه مصدر وصف به مبالغة ﴿ ليوم القيامة ﴾ التى كانوا يستعجلونها أى لجزائه أو لأجل أهله أو فيه كما فى قولك جئت لخمس خلون من الشهر .

﴿ فلا تظلم نفس ﴾ من النفوس ﴿ شيئا ﴾ حقا من حقوقها أو شيء ما من الظلم بل يوفى كل ذى حق حقه إن خيرا فخير وإن شرا فشر والفاء لترتيب انتفاء الظلم على وضع الموازين ﴿ وإن كان ﴾ أى العمل المدلول عليه بوضع الموازين ﴿ مثقال حبة من خردل ﴾ أى مقدار حبة كائنة من خردل أى وإن كان فى غاية القلة والحقارة فإن حبة الخردل مثل فى الصغر وقرىء مثقال حبة بالرفع على أن كان تامة ﴿ أتينا بها ﴾ أى أحضرنا ذلك العمل المعبر عنه بمثقال حبة الخردل للوزن والتأنيث لإضافته إلى الحبة وقرىء آتينا بها أى جازينا بها من الإيتاء بمعنى المجازاة والمكافأة لأنهم أتوه بالأعمال وأتاهم بالجزاء وقرىء أثبنا من الثواب وقرىء جئنا بها ﴿ وكفى بنا حاسبين ﴾ إذ لا مزيد على علمنا وعدلنا ﴿ ولقد آتينا موسى وهرون الفرقان وضياء وذكرا للمتقين ﴾ نوع تفصيل لما أجمل فى قوله تعالى : (وما أرسلنا قبلك إلا رجالا نوحى إليهم) إلى قوله تعالى : (وأهلكنا المسرفين) وإشارة إلى كيفية إنجائهم[1] وإهلاك أعدائهم وتصديره بالتوكيد القسمى لإظهار كمال الاعتناء بمضمونه والمراد بالفرقان هو التوراة وكذا بالضياء والذكر أى وبالله لقد آتيناهما وحيا ساطعا وكتابا جامعا بين كونه فارقا بين الحق والباطل وضياء يستضاء به فى ظلمات الجهل والغواية وذكرا يتعظ به الناس وتخصيص المتقين بالذكر لأنهم المستضيئون

(١) فى ١٠ نجائهم

بأنواره المغتنمون لمغانم آثاره أو ذكر ما يحتاجون إليه من الشرائع والأحكام وقيل الفرقان النصر وقيل فلق البحر والأول هو اللائق بمساق النظم الكريم فإنه لتحقيق أمر القرآن المشارك لسائر الكتب الإلهية لاسيما التوراة فيما ذكر من الصفات ولأن فلق البحر هو الذى اقترح الكفرة مثله بقولهم فليأتنا بآية كما أرسل الأولون وقرىء ضياء بغير واو على أنه حال من الفرقان وقوله تعالى :

﴿ الذين يخشون ربهم ﴾ أى عذابه مجرور المحل على أنه صفة مادحة للمتقين أو بدل أو بيان أو منصوب او مرفوع على المدح ﴿ بالغيب ﴾ حال من المفعول أى يخشون عذابه تعالى وهو غائب عنهم غير مشاهد لهم ففيه تعريض بالكفرة حيث لا يتأثرون بالإنذار مالم يشاهدوا ما أنذروه وقيل من الفاعل ﴿ وهم من الساعة مشفقون ﴾ أى خائفون منها بطريق الإعتناء وتقديم الجار لمراعاة الفواصل وتخصيص إشفاقهم منها بالذكر بعد وصفهم بالخشية على الإطلاق للإيذان بكونها معظم المخوفات وللتنصيص على اتصافهم بضد ما اتصف به المستعجلون وإيثار الجملة الإسمية للدلالة على ثبات الإشفاق ودوامه ﴿ وهذا ﴾ أى القرآن الكريم أشير إليه بهذا إيذانا بغاية وضوح أمره ﴿ ذكر ﴾ يتذكر وصف بالوصف الأخير للتوراة لمناسبة المقام وموافقته لما مرا فى صدر السورة الكريمة ﴿ مبارك ﴾ كثير الخير غزير النفع يتبرك به ﴿ أنزلناه ﴾ إما صفة ثانية لذكر أو خبر ﴿ أفأنتم له منكرون ﴾ إنكار لإنكارهم بعد ظهور كون إنزاله كإيتاء كأنه قيل أبعد أن علمتم أن شأنه كشأن التوراة فى الإيتاء والإيحاء أنتم منكرون لكونه منزلا من عندنا فإن ذلك بعد ملاحظة حال التوراة مما لا مساغ له أصلا .

إبراهيم والأصنام

﴿ ولقد آتينا إبراهيم رشده ﴾ أى الرشد اللائق به وبأمثاله من الرسل

الكبار وهو الاهتداء الكامل المستند إلى الهداية الخاصة الحاصلة بالوحى والاقتدار على إصلاح الأمة باستعمال النواميس الإلهية وقرىء رشده وهما لغتان كالحزن والحزن ﴿ من قبل ﴾ أى من قبل إيتاء موسى وهرون التوراة وتقديم ذكر إيتائها لما بينه وبين إنزال القرآن من الشبه التام وقيل من قبل استنبائه أو قبل بلوغه ويأباه المقام ﴿ وكنا به عالمين ﴾ أى بأنه أهل لما آتيناه وفيه من الدليل على أنه تعالى عالم بالجزئيات مختار فى أفعاله مالا يخفى ﴿ إذ قال لأبيه وقومه ﴾ ظرف لآتينا على أنه وقت متسع وقع فيه الإيتاء وما ترتب عليه من أفعاله وأقواله وقيل مفعول لمضمر مستأنف وقع تعليلا لما قبله أى اذكر وقت قوله لهم ﴿ ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون ﴾ لتقف على كمال رشده وغاية فضله والتمثال اسم لشىء مصنوع مشبه بخلق من خلائق الله تعالى وهذا تجاهل منه عليه السلام حيث سألهم عن أصنامهم بما التى يطلب بها بيان الحقيقة أو شرح الاسم كأنه لا يعرف أنها ماذا مع إحاطته بأن حقيقتها حجر أو شجر اتخذوها معبودا وعبر عن عبادتهم لها بمطلق العكوف الذى هو عبارة عن اللزوم والاستمرار على الشىء لغرض من الأغراض قصدا إلى تحقيرها وإذلالها وتوبيخا لهم على إجلالها واللام فى لها للاختصاص دون التعدية وإلا لجىء بكلمة على والمعنى أنتم فاعلون العكوف لها وقد جوز تضمين العكوف معنى العبادة كما ينبىء عنه قوله تعالى : ﴿ قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين ﴾ أجابوا بذلك لما أن مآل سؤاله عليه السلام الاستفسار عن سبب عبادتهم لها كما ينبىء عنه وصفه عليه السلام إياهم بالعكوف لها كأنه قال ما هى هل تستحق ما تصنعون من العكوف عليها فلما لم يكن لهم ملجأ يعتد به التجأوا إلى التقليد فأبطله عليه السلام على طريقة التوكيد القسمى حيث ﴿ قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم ﴾ الذين سنوا لكم هذه السنة الباطلة ﴿ فى ضلال ﴾ عجيب لا يقادر قدره ﴿ مبين ﴾ أى ظاهر بين بحيث لا يخفى على أحد من العقلاء كونه كذلك ومعنى كنتم مطلق استقرارهم على الضلال لا استقرارهم الماضى الحاصل قبل زمان الخطاب المتناول لهم ولآبائهم أى والله لقد كنتم مستقرين على ضلال

عظيم ظاهر لعدم استناده إلى دليل ما والتقليد إنما يجوز فيما يحتمل الحقية فى الجملة ﴿ قالوا ﴾ لما سمعوا مقالته عليه السلام استبعادا لكون ما هم عليه ضلالا وتعجبا من تضليله عليه السلام إياهم بطريق التوكيد القسمى ونرددا فى كون ذلك منه عليه السلام على وجه الجد ﴿ أجئتنا بالحق ﴾ أى بالجد ﴿ أم أنت من اللاعبين ﴾ فتقول ما تقول على وجه المداعبة والمزاح وفى إيراد الشق الأخير بالجملة الاسمية الدالة على الثبات إيذان برجحانه عندهم ﴿ قال ﴾ عليه السلام إضرابا عما بنوا عليه مقالتهم من اعتقاد كونها أربابا لهم كما يفصح عنه قولهم نعبد أصناما فنظل لها عاكفين كأنه قيل ليس الأمر كذلك ﴿ بل ربكم رب السموات والأرض الذى فطرهن ﴾ وقيل هو إضراب عن كونه لاعبا بإقامة البرهان على ما ادعاه وضميرهن للسموات والأرض ووصفه تعالى بإيجادهن إثر وصفه تعالى بربوبيته تعالى لهن تحقيقا للحق وتنبيها على أن مالا يكون كذلك بمعزل من الربوبية أى أنشأهن بما فيهن من المخلوقات التى من جملتها أنتم وآباؤكم وما تعبدونه من غير مثال يحتذيه ولا قانون ينتحيه ورجع الضمير إلى التماثيل أدخل فى تضليلهم وأظهر فى إلزام الحجة عليهم لما فيه من التصريح المغنى عن التأمل فى كون ما يعبدونه من جملة المخلوقات ﴿ وأنا على ذلكم ﴾ الذى ذكرته من كون ربكم رب السموات والأرض فقط دون ما عداه كائنا ما كان ﴿ من الشاهدين ﴾ أى العالمين به على سبيل الحقيقة المبرهنين عليه فإن الشاهد على الشىء من تحققه وحققه وشهادته على ذلك إدلاؤه بالحجة عليه وإثباته بها كأنه قال وأنا أبين ذلك وأبرهن عليه ﴿ وتالله ﴾ وقرىء بالباء وهو الأصل والتاء بدل من الواو التى هى بدل من الأصل وفيها تعجب ﴿ لأكيدن أصنامكم ﴾ أى لأجتهدن فى كسرها وفيه إيذان بصعوبة الانتهاز وتوقفه على استعمال الحيل وإنما قاله عليه السلام سرا وقيل سمعه رجل واحد ﴿ بعد أن تولوا مدبرين ﴾ من عبادتها إلى عيدكم وقرىء تولوا من التولى بحذف إحدى التاءين ويعضدها قوله تعالى (فتولوا عنه مدبرين) والفاء فى قوله تعالى ﴿ فجعلهم ﴾ فصيحة أى فولوا فجعلهم ﴿ جذاذا ﴾ أى قطاعا فعال بمعنى مفعول من الجذ

الذى هو القطع كالحطام من الحطم الذى هو الكسر وقرىء بالكسر وهى لغة أو جمع جذيذ كخفاف وخفيف وقرىء بالفتح وجذذا جمع جذيذ وجذذا جمع جذة روى أن آزر خرج به فى يوم عيد لهم فبدؤا ببيت الأصنام فدخلوه فسجدوا لها ووضعوا بينها طعاما خرجوا به معهم وقالوا إلى أن نرجع بركته الآلهة على طعامنا فذهبوا وبقى إبراهيم عليه السلام فنظر إلى الأصنام وكانت سبعين صنما مصطفا وثمة صنم عظيم مستقبل الباب وكان من ذهب وفى عينيه جوهرتان تضيئان بالليل فكسر الكل بفأس كانت فى يده ولم يبق إلا الكبير وعلق الفأس فى عنقه وذلك قوله تعالى :

﴿ إلا كبيرا لهم ﴾ أى للأصنام ﴿ لعلهم إليه ﴾ أى إلى إبراهيم عليه السلام ﴿ يرجعون ﴾ فيحاجهم بما سيأتى فيحجهم ويبكتهم وقيل يرجعون إلى الكبير فيسألونه عن الكاسر لأن من شأن المعبود أن يرجع إليه فى الملمات وقيل يرجعون إلى الله تعالى وتوحيده عند تحققهم عجز آلهتهم عن دفع ما يصيبهم وعن الإضرار بمن كسرهم ﴿ قالوا ﴾ أى حين رجعوا من عيدهم ورأوا ما رأوا ﴿ من فعل هذا بآلهتنا ﴾ على طريقة الإنكار والتوبيخ والتشنيع وإنما عبروا عنها بما ذكر ولم يشيروا إليها بهؤلاء وهى بين أيديهم مبالغة فى التشنيع وقوله تعالى : ﴿ إنه لمن الظالمين ﴾ استئناف مقرر لما قبله وقيل من موصولة وهذه الجملة فى حيز الرفع على أنها خبر لها والمعنى الذى فعل هذا الكسر والحطم بآلهتنا إنه معدود من جملة الظلمة إما لجرأته على إهانتها وهى حقيقة بالإعظام أو لإفراطه فى الكسر والحطم وتماديه فى الاستهانة بها أو بتعريض نفسه للهلكة ﴿ قالوا ﴾ أى بعض منهم مجيبين للسائلين ﴿ سمعنا فتى يذكرهم ﴾ أى يعيبهم فلعله فعل ذلك بها فقوله تعالى يذكرهم إما مفعول ثان لسمع لتعلقه بالعين أو صفة لفتى مصححة لتعلقه به هذا إذا كان القائلون

---

(١) فى ١٠ تقريرى

سمعوه عليه السلام بالذات يذكرهم وإن كانوا قد سمعوا من الناس أنه عليه السلام يذكرهم بسوء فلا حاجة إلى المصحح ﴿ يقال له إبراهيم ﴾ صفة أخرى لفتى أى يطلق عليه هذا الاسم ﴿ قالوا ﴾ أى السائلون .

﴿ فأتوا به على أعين الناس ﴾ أى بمرأى منهم بحيث يكون نصب أعينهم فى مكان مرتفع لا يكاد يخفى على أحد ﴿ لعلهم يشهدون ﴾ أى يحضرون عقوبتنا له وقيل لعلهم يشهدون أى بفعله أو بقوله ذلك فالضمير حينئذ ليس للناس بل لبعض منهم مبهم أو معهود ﴿ قالوا ﴾ استئناف مبنى على سؤال نشأ من حكاية قولهم كأنه قيل فماذا فعلوا به عليه السلام بعد ذلك هل أتوا به أولا فقيل أتوا به ثم قالوا ﴿ أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم ﴾ اقتصارا على حكاية مخاطبتهم إياه عليه السلام للتنبيه على أن إتيانهم به ومسارعتهم إلى ذلك أمر محقق غنى عن البيان ﴿ قال بل فعله كبيرهم هذا ﴾ مشيرا إلى الذى لم يكسره سلك عليه السلام مسلكا تعريضيا يؤديه إلى مقصده الذى هو إلزامهم الحجة على ألطف وجه وأحسنه بحملهم على التأمل فى شأن آلهتهم مع ما فيه من التوقى من الكذب حيث أبرز الكبير قولا فى معرض المباشر للفعل بإسناده إليه كما أبرزه فى ذلك المعرض فعلا بجعل الفأس فى عنقه وقد قصد إسناده إليه بطريق التسبيب حيث كانت تلك الأصنام غاظته عليه السلام حين أبصرها مصطفة مرتبة للعبادة من دون الله سبحانه وكان غيظ كبيرها أكبر وأشد حسب زيادة تعظيمهم له فأسند الفعل إليه باعتبار أنه الحامل عليه وقيل هو حكاية لما يقود إلى تجويزه مذهبهم كأنه قال لهم ما تنكرون أن يفعله كبيرهم فإن من حق من يعبد ويدعى إلها أن يقدر على ما هو أشد من ذلك ويحكى أنه عليه السلام قال فعله كبيرهم هذا غضب أن تعبد معه هذه الصغار وهو أكبر منها فيكون تمثيلا أراد به عليه السلام تنبيههم على غضب الله تعالى عليهم لإشراكهم بعبادته الأصنام وأما ما قيل من أنه عليه السلام لم يقصد نسبة الفعل الصادر عنه إلى الصنم بل إنما قصد تقريره لنفسه وإثباته لها على أسلوب تعريضى يبلغ فيه غرضه

من إلزامهم الحجة وتبكيتهم ومثل لذلك بما لو قال لك أمى فيما كتبته بخط رشيق وأنت شهير بحسن الخط أأنت كتبت كان قصدك تقرير الكتابة لنفسك مع الاستهزاء بالسائل لا نفيها عنك وإثباتها له فبمعزل من التحقيق لأن خلاصة المعنى فى المثال المذكور مجرد تقرير الكتابة لنفسك وإدعاء ظهور الأمر مع الاستهزاء بالسائل وتجهيله فى السؤال لابتنائه على أن صدورها عن غيرك محتمل عنده مع استحالته عندك ولا ريب فى أن مراده عليه السلام من إسناد الكسر إلى الصنم ليس مجرد تقريره لنفسه ولا تجهيلهم فى سؤالهم لابتنائه على احتمال صدوره عن الغير عندهم بل إنما مراده عليه السلام توجيههم نحو التأمل فى أحوال أصنامهم كما ينبىء عنه قوله ﴿ فاسألوهم إن كانوا ينطقون ﴾ أى إن كانوا ممن يمكن أن ينطقوا وإنما لم يقل عليه السلام إن كانوا يسمعون أو يعقلون مع أن السؤال موقوف على السمع والعقل أيضا لما أن نتيجة السؤال هو الجواب وأن عدم نطقهم أظهر وتبكيتهم بذلك أدخل وقد حصل ذلك أو لا حسبما نطق به قوله تعالى :

﴿ فرجعوا إلى أنفسهم ﴾ أى راجعوا عقولهم وتذكروا أن مالا يقدر على دفع المضرة عن نفسه ولا على الإضرار بمن كسره بوجه من الوجوه يستحيل أن يقدر على دفع مضرة عن غيره أو جلب منفعة له فكيف يستحق أن يكون معبودا ﴿ فقالوا ﴾ أى قال بعضهم لبعض فيما بينهم ﴿ إنكم أنتم الظالمون ﴾ أى بهذا السؤال لأنه كان على طريقة التوبيخ المستتبع للمؤاخذة أو بعبادة الأصنام لا من ظلمتوه بقولكم إنه لمن الظالمين أو أنتم الظالمون بعبادتها لا من كسرها ﴿ ثم نكسوا على رؤسهم ﴾ أى انقلبوا إلى المجادلة بعد ما استقاموا بالمراجعة شبه عودهم إلى الباطل بصيرورة أسفل الشىء أعلاه وقرىء نكسوا بالتشديد ونكسوا على البناء للفاعل أى نكسوا أنفسهم ﴿ لقد علمت ماهؤلاء ينطقون ﴾ على إرادة القول أى قائلين والله لقد علمت أن ليس من شأنهم النطق فكيف تأمرنا بسؤالهم على أن المراد استمرار نفى النطق لا نفى استمراره كما توهمه صيغة المضارع ﴿ قال ﴾ مبكتا لهم ﴿ أفتعبدون ﴾ أى أتعلمون ذلك فتعبدون

﴿ من دون الله ﴾ أى متجاوزين عبادته تعالى ﴿ مالا ينفعكم شيئاً ﴾ من النفع ﴿ ولا يضركم ﴾ فإن العلم بحاله المنافية للألوهية مما يوجب الاجتناب عن عبادته قطعا ﴿ أف لكم ولما تعبدون من دون الله ﴾ تضجر منه عليه الصلاة والسلام من إصرارهم على الباطل البين وإظهار الاسم الجليل فى موضع الإضمار لمزيد استقباح ما فعلوا وأف صوت المتضجر ومعناه قبحا ونتنا واللام لبيان المتأفف له ﴿ أفلا تعقلون ﴾ أى ألا تتفكرون فلا تعقلون قبح صنيعكم.

﴿ قالوا ﴾ أى قال بعضهم لبعض لما عجزوا عن المحاجة وضاقت عليهم الحيل وعيت بهم العلل وهكذا ديدن المبطل المحجوج إذا قرعت شبهته بالحجة القاطعة وافتضح لا يبقى له مفزع إلا المناصبة ﴿ حرقوه ﴾ فإنه أشد العقوبات ﴿ وانصروا آلهتكم ﴾ بالانتقام لها ﴿ إن كنتم فاعلين ﴾ أى للنصر أو لشىء يعتد به قيل القائل نمرود بن كنعان بن السنجاريب بن نمرود بن كوس بن حام ابن نوح وقيل رجل من أكراد فارس اسمه هيون وقيل هدير خسفت به الأرض روى أنهم لما أجمعوا على إحراقه عليه السلام بنوا له حظيرة بكوثى قرية من قرى الأنباط وذلك قوله تعالى (قالوا ابنوا له بنيانا فألقوه فى الجحيم) فجمعوا له صلاب الحطب من أصناف الخشب مدة أربعين يوما فأوقدوا نارا عظيمة لا يكاد يحوم حولها أحد حتى إن كانت الطير لتمر بها وهى فى أقصى الجو فتحترق من شدة وهجها ولم يكد أحد يحوم حولها فلم يعلموا كيف يلقونه عليه السلام فيها فأتى إبليس وعلمهم عمل المنجنيق فعملوه وقيل صنعه لهم رجل من الأكراد فخسف الله تعالى به الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة ثم عمدوا إلى إبراهيم عليه السلام فوضعوه فيه مغلولا فرموا به فيها فقال له جبريل عليهما السلام هل لك حاجة قال أما إليك فلا قال فاسأل ربك قال حسبى من سؤالى علمه بحالى فجعل الله تعالى ببركة قوله الحظيرة روضة وذلك قوله تعالى.

﴿ قلنا يانار كونى بردا وسلاما على إبراهيم ﴾ أى كونى ذات برد وسلام أى ابردى بردا غير ضار وفيه مبالغات جعل النار المسخرة لقدرته تعالى مأمورة

مطاوعة وإقامة كونى ذات برد مقام أبردى ثم حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه وقيل نصب سلاما بفعله أى وسلمنا عليه . روى أن الملائكة أخذوا بضبعى إبراهيم وأقعدوه على الأرض فإذا عين ماء عذب وورد أحمر ونرجس ولم تحرق النار منه إلا وثاقه وروى أنه عليه السلام مكث فيها أربعين يوما أو خمسين وقال ما كنت أطيب عيشا منى إذ كنت فيها قال ابن يسار وبعث الله تعالى ملك الظل فقعد إلى جنبه يؤنسه فنظر نمرود من صرحه فأشرف عليه فرآه جالسا فى روضة مونقة ومعه جليس على أحسن ما يكون من الهيئة والنار محيطة به فناداه يا إبراهيم هل تستطيع أن تخرج منها قال نعم قال فقم فاخرج فقام يمشى فخرج منها فاستقبله نمرود وعظمه وقال من الرجل الذى رأيته معك قال ذلك ملك الظل أرسله ربى ليؤنسنى فقال إنى مقرب إلى إلهك قربانا لما رأيت من قدرته وعزته فيما صنع بك فقال عليه السلام لا يقبل الله منك ما دمت على دينك هذا قال لا أستطيع ترك[1] ملكى ولكن سوف أذبح له أربعة آلاف بقرة فذبحها وكف عن إبراهيم عليه السلام وكان إذ ذاك ابن ست عشرة سنة وهذا كما ترى من أبدع المعجزات فإن انقلاب النار هواء طيبا وإن لم يكن بدعا من قدرة الله عز وجل لكن وقوع ذلك على هذه الهيئة مما يخرق العادات وقيل كانت النار على حالها لكنه تعالى دفع عنه عليه السلام أذاها كما تراه فى السمندل كما يشعر به ظاهر قوله تعالى على إبراهيم .

﴿ وأرادوا به كيدا ﴾ مكرا عظيما فى الإضرار به ﴿ فجعلناهم الأخسرين ﴾ أى أخسر من كل خاسر حيث عاد سعيهم فى إطفاء نور الحق برهانا قاطعا على أنه عليه السلام على الحق وهم على الباطل وموجبا لارتفاع درجته واستحقاقهم لأشد العذاب ﴿ ونجيناه ولوطا إلى الأرض التى باركنا فيها للعالمين ﴾ أى من العراق إلى الشأم وبركاته العامة أن أكثر الأنبياء بعثوا فيه فانتشرت فى العالمين

---

(١) فى ١٠ أن أترك

شرائعهم التى هى مبادى الكمالات والخيرات الدينية والدنيوية وقيل كثرة النعم والخصب الغالب روى أنه عليه السلام نزل بفلسطين ولوط عليه السلام بالمؤتفكة وبينهما مسيرة يوم وليلة .

﴿ ووهبنا له إسحاق ويعقوب نافلة ﴾ أى عطية فهى حال منهما أو ولد أو زيادة على ما سأل وهو إسحق فتختص بيعقوب ولا لبس فيه للقرينة الظاهرة ﴿ وكلا ﴾ أى كل واحد من هؤلاء الأربعة لا بعضهم دون بعض ﴿ جعلنا صالحين ﴾ بأن وفقناهم للصلاح فى الدين والدنيا فصاروا كاملين ﴿ وجعلناهم أئمة ﴾ يقتدى بهم فى أمور الدين إجابة لدعائه عليه السلام بقوله ومن ذريتى ﴿ يهدون ﴾ أى الأمة إلى الحق ﴿ بأمرنا ﴾ لهم بذلك وإرسالنا إياهم حتى صاروا مكملين ﴿ وأوحينا إليهم فعل الخيرات ﴾ ليحثوهم عليه فيتم كما لهم بانضمام العمل إلى العلم وأصله أن تفعل الخيرات ثم فعلا الخيرات وكذا قوله تعالى ﴿ وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ﴾ وهو من عطف الخاص على العام دلالة على فضله وإنافته . وحذفت تاء الإقامة المعوضة من إحـــدى الألفين لقيام المضاف إليه مقامه ﴿ وكانوا لنـا ﴾ خاصة دون غيرنا ﴿ عابدين ﴾ لا يخطر ببالهم غير عبادتنا .

لوط وقومه

﴿ ولوطا ﴾ قيل هو منصوب بمضمر يفسر قوله تعالى ﴿ آتيناه ﴾ أى وآتينا لوطا وقيل باذكر ﴿ حكما ﴾ أى حكمة أو نبوة أو فصلا بين الخصوم بالحق ﴿ وعلما ﴾ بما ينبغى علمه للأنبياء عليهم السلام ﴿ ونجيناه من القرية التى كانت تعمل الخبائث ﴾ أى اللواطة وصفت بصفة أهلها وأسندت إليها على حذف المضاف وإقامتها مقامه كما يؤذن به قوله تعالى ﴿ أنهم كانوا قوم سوء فاسقين ﴾ فإنه كالتعليل له ﴿ وأدخلناه فى رحمتنا ﴾ أى فى أهل رحمتنا أو فى جنتنا ﴿ إنه من الصالحين ﴾ الذين سبقت لهم منا الحسنى ﴿ ونوحا ﴾ أى اذكر نوحا أى خبره وقوله تعالى ﴿ إذ نادى ﴾ أى دعا الله تعالى على قومه بالهلاك

ظرف للمضاف أى اذكر نبأه الواقع وقت دعائه ﴿ من قبل ﴾ أى من قبل هؤلاء المذكورين ﴿ فاستجبنا له ﴾ أى دعاءه الذى من جملته قوله إنى مغلوب فانتصر ﴿ فنجيناه وأهله من الكرب العظيم ﴾ وهو الطوفان وقيل أذية قومه وأصل الكرب الغم الشديد ﴿ ونصرناه ﴾ نصرا مستتبعا للانتقام والانتصار ولذلك قيل ﴿ من القوم الذين كذبوا بآياتنا ﴾ وحمله على فانتصر يأباه ما ذكر من دعائه عليه السلام فإن ظاهره يوجب إسناد الانتصار إليه تعالى مع ما فيه من تهويل الأمر وقوله تعالى ﴿ إنهم كانوا قوم سوء ﴾ تعليل لما قبله وتمهيد لما قبله وتمهيد لما بعده من قوله تعالى ﴿ فأغرقناهم أجمعين ﴾ فإن الإصرار على تكذيب الحق والانهماك فى الشر والفساد مما يوجب الإهلاك قطعا .

داود وسليمان

﴿ وداود وسليمان ﴾ إما عطف على نوحا معمول لعامله وإما لمضمر معطوف على ذلك العامل بتقدير المضاف وقوله تعالى ﴿ إذ يحكمان ﴾ ظرف للمضاف المقدر وصيغة المضارع حكاية للحال الماضية لاستحضار صورتها أى اذكر خبرهما وقت حكمهما ﴿ فى الحرث ﴾ أى فى حق الزرع أو الكرم المتدلى عنا قيده كما قيل أو بدل اشتمال منهما وقوله تعالى ﴿ إذ نفشت ﴾ أى تفرقت وانتشرت ﴿ فيه غنم القوم ﴾ ليلا بلا راع فرعته وأفسدته ظرف للحكم ﴿ وكنا لحكمهم ﴾ أى لحكم الحاكمين والمتحاكمين إليهما فإن الإضافة لمجرد الاختصاص المنتظم لاختصاص القيام واختصاص الوقوع وقرىء لحكمهما ﴿ شاهدين ﴾ حاضرين علما والجملة اعتراض مقرر للحكم ومفيد لمزيد الاعتناء بشأنه ﴿ ففهمناها سليمان ﴾ عطف على يحكمان فإنه على حكم الماضى وقرىء فأفهمناها والضمير للحكومة أو الفتيا روى أنه دخل على داود عليه السلام رجلان فقال أحدهما إن غنم هذا دخلت فى حرثى ليلا فأفسدته فقضى له بالغنم فخرجا فمرا على سليمان عليه السلام فأخبراه بذلك فقال غير هذا أرفق بالفريقين فسمعه داود فدعاه فقال له بحق البنوة والأبوة إلا أخبرتنى بالذى أرفق بالفريقين

فقال أرى أن تدفع الغنم إلى صاحب الأرض لينتفع بدرورها و نسلها وصوفها والحرث إلى أرباب الغنم ليقوموا عليه حتى يعود إلى ماكان ثم يترادا فقال القضاء ما قضيت وأمضى الحكم بذلك والذى عندى أن حكمهما عليهما السلام كان بالاجتهاد فإن قول سليمان عليه الصلاة والسلام غير هذا أرفق بالفريقين ثم قوله أرى أن تدفع إلخ صريح فى أنه ليس بطريق الوحى وإلا لبت القول بذلك ولما ناشده داود عليهما السلام لإظهار ما عنده بل وجب عليه أن يظهره بدإ وحرم عليه كتمه ومن ضرورته أن يكون القضاء السابق أيضا كذلك ضرورة استحالة نقض حكم النص بالاجتهاد بل أقول والله تعالى أعلم إن رأى سليمان عليه السلام استحسان كما ينبىء عنه قوله أرفق بالفريقين ورأى داود عليه السلام قياس كما أن العبد إذا جنى على النفس يدفعه المولى عند أبى حنيفة إلى المجنى عليه أو يفديه ويبيعه فى ذلك أو يفديه عند الشافعى وقد روى أنه لم يكن بين قيمة الحرث وقيمة الغنم تفاوت وأما سليمان عليه السلام فقد استحسن حيث جعل الانتفاع بالغنم بإزاء ما فات من الانتفاع بالحرث من غير أن يزول ملك المالك عن الغنم وأوجب على صاحب الغنم أن يعمل فى الحرث إلى أن يزول الضرر الذى أتاه من قبله كما قال أصحاب الشافعى فيمن غصب عبدا فأبق منه أنه يضمن القيمة فينتفع بها المغصوب منه بإزاء ما فوته الغاصب من المنافع فإذا ظهر الآبق ترادا وفى قوله تعالى (ففهمناها سليمان) دليل على رجحان قوله ورجوع داود عليه السلام إليه مع أن الحكم المبنى على الاجتهاد لا ينقض باجتهاد آخر وإن كان أقوى منه لما أن ذلك من خصائص شريعتنا على أنه ورد فى الأخبار أن داود عليه السلام لم يكن بت الحكم فى ذلك حتى سمع من سليمان وأما حكم المسألة فى شريعتنا فعند أبى حنيفة رحمه الله لا ضمان إن لم يكن معها سائق أو قائد وعند الشافعى يجب الضمان ليلا لا نهارا وقوله تعالى ﴿ وكلا آتينا حكما وعلما ﴾ لدفع ما عسى يوهمه تخصيص سليمان عليه السلام بالتفهيم من عدم كون حكم داود عليه السلام حكما شرعيا أى وكل واحد منهما آتينا حكما وعلما كثيرا لا سليمان وحده وهذا إنما يدل على أن خطأ المجتهد

لا يقدح فى كونه مجتهدا وقيل بل على أن كل مجتهد مصيب وهو مخالف لقوله تعالى (ففهمناها سليمان) ولولا النقل لاحتمل توافقهما على أن قوله تعالى ففهمناها سليمان لإظهار ما تفضل عليه فى صغره فإنه عليه السلام كان حينئذ ابن إحدى عشرة سنة .

﴿ وسخرنا مع داود الجبال ﴾ شروع فى بيان ما يختص بكل منهما من كراماته تعالى أثر بيان كرامته العامة لهما ﴿ يسبحن ﴾ أى يقدسن الله عز وجل معه بصوت يتمثل له أو بخلق الله تعالى فيها الكلام وقيل يسرن معه من السباحة وهو حال من الجبال أو استئناف مبين لكيفية التسخير ومع متعلقه بالتسخير وقيل بالتسبيح وهو بعيد ﴿ والطير ﴾ عطف على الجبال أو مفعول معه وقرىء بالرفع على الابتداء والخبر محذوف أى والطير مسخرات وقيل على العطف على الضمير فى يسبحن وفيه ضعف لعدم التأكيد والفصل ﴿ وكنا فاعلين ﴾ أى من شأننا أن نفعل أمثاله فليس ذلك ببدع منا وإن كان بديعا عندكم ﴿ وعلمناه صنعة لبوس ﴾ أى عمل الدرع وهو فى الأصل اللباس قال قائلهم :

ألبس لكل حالة لبوسها إما نعيمها وإما بوسها

وقيل كانت صفائح فخلقها وسردها ﴿ لكم ﴾ متعلق بعلمنا أو بمحذوف هو صفة لبوس ﴿ لتحصنكم ﴾ أى اللبوس بتأويل الدرع وقرىء بالتذكير على أن الضمير لداود عليه السلام أو للبوس وقرىء بنون العظمة وهو بدل اشتمال من لكم بإعادة الجار مبين لكيفية الاختصاص والمنفعة المستفادة من لام لكم ﴿ من بأسكم ﴾ قيل من حرب عدوكم وقيل من وقع السلاح فيكم ﴿ فهل أنتم شاكرون ﴾ أمر وارد على صورة الاستفهام للمبالغة أو التقريع ﴿ ولسليمان الريح ﴾ أى وسخرنا له الريح وإيراد اللام ههنا دون الأول للدلالة على ما بين التسخيرين من التفاوت فإن تسخير ما سخر له عليه السلام من الريح وغيرها كان بطريق

الانقياد الكلى له والامتثال بأمره ونهيه والمقهورية تحت ملكوته وأما تسخير الجبال والطير لداود عليه السلام فلم يكن بهذه المثابة بل بطريق التبعية له عليه السلام والاقتداء به فى عبادة الله عز وعلا ﴿ عاصفة ﴾ حال من الريح والعامل فيها الفعل المقدر أى وسخرنا له الريح حال كونها شديدة الهبوب من حيث أنها كانت تبعد بكرسيه فى مدة يسيرة من الزمان كما قال تعالى (غدوها شهر ورواحها شهر) وكانت رخاء فى نفسها طيبة وقيل كانت رخاء تارة وعاصفة أخرى حسب إرادته عليه الصلاة والسلام وقرىء الريح بالرفع على الابتداء والخبر هو الظرف المقدم وعاصفة حينئذ حال من ضمير المبتدأ فى الخبر والعامل ما فيه من معنى الاستقرار وقرىء الرياح نصبا ورفعا .

﴿ تجرى بأمره ﴾ بمشيئته حال ثانية أو بدل من الأولى أو حال من ضميرها ﴿ إلى الأرض التى باركنا فيها ﴾ وهى الشأم رواحا بعد ما سار به منه بكرة قال الكلبى كان سليمان عليه السلام وقومه يركبون عليها من اصطخر إلى الشأم وإلى حيث شاء ثم يعود إلى منزله ﴿ وكنا بكل شىء عالمين ﴾ فنجريه حسبما تقتضيه الحكمة ﴿ ومن الشياطين ﴾ أى وسخرنا له من الشياطين ﴿ من يغوصون له ﴾ فى البحار ويستخرجون له من نفائسها وقيل من رفع على الابتداء وخبره ما قبله والأول هو الأظهر ﴿ ويعملون عملا دون ذلك ﴾ أى غير ما ذكر من بناء المدن والقصور واختراع الصنائع الغريبة لقوله تعالى (يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل) الآية وهؤلاء إما الفرقة الأولى أو غيرها لعموم كلمة من كأنه قيل ومن يعملون وجمع الضمير الراجع إليها باعتبار معناها بعد ما رشح جانبه بقوله تعالى ومن الشياطين روى أن المسخر له عليه السلام كفارهم لا مؤمنوهم لقوله تعالى (ومن الشياطين) وقوله تعالى ﴿ وكنا لهم حافظين ﴾ أى من أن يزيغوا عن أمره أو يفسدوا على ما هو مقتضى جبلتهم قيل وكل بهم جمعا من الملائكة وجمعا من مؤمنى الجن وقال الزجاج كان يحفظهم من أن يفسدوا ما عملوا وكان دأبهم أن يفسدوا بالليل ما عملوه بالنهار ﴿ وأيوب ﴾ الكلام فيه كما مر فى قوله تعالى (وداود وسليمان) أى واذكر خبر أيوب ﴿ إذ نادى ربه

أنى ﴾ أى بأنى ﴿ مسنى الضر ﴾ وقرىء بالكسر على إضمار القول أو تضمين النداء معناه والضر شائع فى كل ضرر وبالضم خاص بما فى النفس من مرض وهزال ونحوهما ﴿ وأنت أرحم الراحمين ﴾ وصفه تعالى بغاية الرحمة بعد ما ذكر نفسه بما يوجبها واكتفى به عن عرض المطلب لطفا فى السؤال وكان عليه السلام روميا من ولد عيص بن إسحاق استنبأه الله تعالى وكثر أهله وماله فابتلاه الله تعالى بهلاك أولاده بهدم بيت عليهم وذهاب أمواله والمرض فى بدنه ثمانى عشرة سنة أو ثلاث عشرة سنة أو سبعا وسبعة أشهر وسبعة أيام وسبع ساعات روى أن امرأته ماخير بنت ميشا بن يوسف عليه السلام أو رحمة بنت أفرايم بن يوسف قالت له يوما لو دعوت الله تعالى فقال كم كانت مدة الرخاء فقالت ثمانين سنة فقال أستحى من الله تعالى أن أدعوه وما بلغت مدة بلائى مدة رخائى وروى أن إبليس أتاها على هيئة عظيمة فقال أنا إله الأرض فعلت بزوجك ما فعلت لأنه تركنى وعبد إله السماء فلو سجد لى سجدة لرددت عليه وعليك جميع ما أخذت منكما وفى رواية لو سجدت لى سجدة لرجعت المال والولد وعافيت زوجك فرجعت إلى أيوب وكان ملقى فى الكناسة لا يقرب منه أحد فأخبرته بالقصة فقال عليه السلام كأنك افتتنت بقول اللعين لئن عافانى الله عز وجل لأضربنك مائة سوط وحرام على أن أذوق بعد هذا شيئا من طعامك وشرابك فطردها فبقى طريحا فى الكناسة لا يحوم حوله أحد من الناس فعند ذلك خر ساجدا فقال رب إنى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين فقيل له ارفع رأسك فقد استجيب لك اركض برجلك فركض فنبعت من تحته عين ماء فاغتسل منها فلم يبق فى ظاهر بدنه دابة إلا سقطت ولا جراحة إلا برئت ثم ركض مرة أخرى فنبعت عين أخرى فشرب منها فلم يبق فى جوفه داء إلا خرج وعاد صحيحا ورجع إليه شبابه وجماله ثم كسى حلة وذلك قوله تعالى :

﴿ فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر ﴾ فلما قام جعل يلتفت فلا يرى شيئا مما كان له من الأهل والمال إلا وقد ضاعفه الله تعالى وذلك قوله تعالى ﴿ وآتيناه

أهله ومثلهم معهم ﴾ وقيل كان ذلك بأن ولد له ضعف ما كان ثم إن امرأته قالت فى نفسها هب أنه طردنى أفأتركه حتى يموت جوعاوتأكله السباع لأرجعن إليه فلما رجعت مارأت تلك الكناسة ولا تلك الحال وقد تغيرت الأمور فجعلت تطوف حيث كانت الكناسة وتبكى وهابت صاحب الحلة أن تأتيه وتسأل عنه فأرسل إليها أيوب ودعاها فقال ما تريدين يا أمة الله فبكت وقالت أريد ذلك المبتلى الذى كان ملقى على الكناسة قال لها ما كان منك فبكت وقالت بعلى قال أتعرفينه إذا رأيته قالت وهل يخفى على فتبسم فقال أنا ذلك فعرفته بضحكه فاعتنقته ﴿ رحمة من عندنا وذكرى للعابدين ﴾ أى آتيناه ماذكر لرحمتنا أيوب وتذكرة لغيره من العابدين ليصبروا كما صبر فيثابوا كما أثيب أو لرحمتنا العابدين اللذين من جملتهم أيوب وذكرنا إياهم بالإحسان وعدم نسياننا لهم ﴿ وإسماعيل وإدريس وذا الكفل ﴾ أى واذكرهم وذو الكفل إلياس وقيل يوشع بن نون وقيل زكريا سمى به لأنه كان ذا حظ من الله تعالى أو تكفل منه أوضعف عمل أنبياء زمانه وثوابه فإن الكفل يجىء بمعنى التصيب والكفالة والضعف ﴿ كل ﴾ أى كل واحد من هؤلاء ﴿ من الصابرين ﴾ أى على مشاق التكاليف وشدائد النوب والجملة استئناف وقع جواباعن سؤال نشأ من الأمر بذكرهم ﴿ وأدخلناهم فى رحمتنا ﴾ أى فى النبوة أو فى نعمة الآخرة ﴿ إنهم من الصالحين ﴾ أى الكاملين فى الصلاح الكامل الذى لا يحوم حوله شائبة الفساد وهم الأنبياء فإن صلاحهم معصوم من كدر الفساد ﴿ وذا النون ﴾ أى واذكر صاحب الحوت وهو يونس عليه السلام .

﴿ إذ ذهب مغاضبا ﴾ أى مراغما لقومه لما برم من طول دعوته إياهم وشدة شكيمتهم وتمادى إصرارهم مهاجراً عنهم قبل أن يؤمر وقيل وعدهم بالعذاب فلم يأتهم لميعادهم بتوبتهم ولم يعرف الحال فظن أنه كذبهم فغضب من ذلك وهو من بناء المغالبة للمبالغة أو لأنه أغضبهم بالمهاجرة لخوفهم لحوق العذاب عندها وقرىء مغضبا ﴿ فظن أن لن نقدر عليه ﴾ أى لن نضيق عليه أو لن نقضى عليه بالعقوبة من القدر ويؤيده أنه قرىء مشددا أو لن نعمل فيه قدرتنا

وقيل هو تمثيل لحاله بحال من يظن أن لن نقدر عليه أى نعامله معاملة من يظن أن لن نقدر عليه فى مراغمته قومه من غير انتظار لأمرنا كما فى قوله تعالى (أيحسب أن ماله أخلده) أى نعامله معاملة من يحسب ذلك وقيل خطرة شيطانية سبقت إلى وهمه فسميت ظنا للمبالغة وقرىء بالياء مخففا ومثقلا مبنيا للمفعول ﴿فنادى﴾ الفاء فصيحة أى فكان ما كان من المساهمة والتقام الحوت فنادى ﴿فى الظلمات﴾ أى فى الظلمة الشديدة المتكاثفة أو فى ظلمات بطن الحوت والبحر والليل وقيل ابتلع حوته حوت أكبر منه فحصل فى ظلمتى بطنى الحوتين وظلمتى البحر والليل ﴿أن لا إله إلا أنت﴾ أى بأنه لا إله إلا أنت على أن مخففة من أن وضمير الشأن محذوف أو أى لا إله إلا أنت على أنها مفسرة ﴿سبحانك﴾ أنزهك تنزيها لائقا بك من أن يعجزك شىء أو أن يكون ابتلائى بهذا بغير سبب من جهتى ﴿إنى كنت من الظالمين﴾ لأنفسهم بتعريضها للهلكة حيث بادرت إلى المهاجرة ﴿فاستجبنا له﴾ أى دعاءه الذى دعاه فى ضمن الاعتراف بالذنب على ألطف وجه وأحسنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما من مكروب يدعو بهذا الدعاء إلا استجيب له ﴿ونجيناه من الغم﴾ بأن قذفه الحوت إلى الساحل بعد أربع ساعات كان فيها فى بطنه وقيل بعد ثلاثة أيام وقيل الغم غم الالتقام وقيل الخطيئة .

﴿وكذلك﴾ أى مثل ذلك الإنجاء الكامل ﴿ننجى المؤمنين﴾ من غموم دعوا الله تعالى فيها بالإخلاص لا إنجاء أدنى منه وفى الامام نجى فلذلك أخفى الجماعة النون الثانية فإنها تخفى مع حروف الفم وقرىء بتشديد الجيم على أن أصله ننجى فحذفت الثانية كما حذفت التاء فى تظاهرون وهى وإن كانت فاء فحذفها أوقع من حذف حرف المضارعة التى لمعنى ولا يقدح فيه اختلاف حركتى النونين فإن الداعى إلى الحذف اجتماع المثلين مع تعذر الإدغام وامتناع الحذف فى تتجافى لخوف اللبس وقيل هو ماض مجهول أسند إلى ضمير المصدر وسكن آخره تخفيفاً ورد بأنه لا يسند إلى المصدر والمفعول مذكور والماضى لا يسكن آخره ﴿وزكريا﴾ أى واذكر خبره ﴿إذ نادى ربه﴾ وقال ﴿رب لا تذرنى فردا﴾

أى وحيدا بلا ولد يرثنى ﴿ وأنت خير الوارثين ﴾ فحسبى أنت إن لم ترزقنى وارثا ﴿ فاستجبنا له ﴾ أى دعاءه ﴿ ووهبنا له يحيى ﴾ وقد مر بيان كيفية الاستجابة والهبة فى سورة مريم ﴿ وأصلحنا له زوجه ﴾ أى أصلحناها للولادة بعد عقرها أو أصلحناها للمعاشرة بتحسين خلقها وكانت حردة وقوله تعالى ﴿ إنهم كانوا يسارعون فى الخيرات ﴾ تعليل لما فصل من فنون إحسانه تعالى المتعلقة بالأنبياء المذكورين أى كانوا يبادرون فى وجوه الخيرات مع ثباتهم واستقرارهم فى أصل الخير وهو السر فى إيثار كلمة فى على كلمة إلى المشعرة بخلاف المقصود من كونهم خارجين عن أصل الخيرات متوجهين إليها كما فى قوله تعالى (وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة) ﴿ ويدعوننا رغبا ورهبا ﴾ ذوى رغب ورهب أو راغبين فى الثواب راجين للإجابة أو فى الطاعة وخائفين العقاب أو المعصية أو للرغب والرهب .

﴿ وكانوا لنا خاشعين ﴾ أى مخبتين متضرعين أو دائمى الوجل والمعنى أنهم نالوا من الله تعالى ما نالوا بسبب اتصافهم بهذه الخصال الحميدة ﴿ والتى أحصنت فرجها ﴾ أى اذكر خبر التى أحصنته على الإطلاق من الحلال والحرام والتعبير عنها بالموصول لتفخيم شأنها وتنزيهها عما زعموه فى حقها آثر ذى أثير ﴿ فنفخنا فيها ﴾ أى أحيينا عيسى فى جوفها ﴿ من روحنا ﴾ من الروح الذى هو من أمرنا وقيل فعلنا النفخ فيها من جهة روحنا جبريل عليه السلام ﴿ وجعلناها وابنها ﴾ أى قصتهما أو حالهما ﴿ آية للعالمين ﴾ فإن من تأمل حالهما تحقق كمال قدرته عز وجل فالمراد بالآية ما حصل بهما من الآية التامة مع تكاثر آيات كل واحد منهما وقيل أريد بالآية الجنس الشامل لما لكل واحد منهما من الآيات المستقلة وقيل المعنى وجعلناها آية وابنها آية فحذفت الأولى لدلالة الثانية عليها .

وحـــدة الدين

﴿ إن هذه ﴾ أى ملة التوحيد والإسلام اشير إليها بهذه تنبيها على كمال ظهور أمرها فى الصحة والسداد ﴿ أمتكم ﴾ أى ملتكم التى يجب أن تحافظوا على

حدودها وتراعوا حقوقها ولا تخلوا بشيء منها والخطاب للناس قاطبة ﴿ أمة واحدة ﴾ نصب على الحالية من أمتكم أى غير مختلفة فيما بين الأنبياء عليهم السلام إذ لا مشاركة لغيرها فى صحة الاتباع ولا احتمال لتبدلها وتغيرها كفروع الشرائع المتبدلة حسب تبدل الأمم والأعصار وقرىء أمتكم بالنصب على البدلية من اسم أن أمة واحدة بالرفع على الخبرية وقرئتا بالرفع على أنهما خبران ﴿ وأنا ربكم ﴾ لا إله لكم غيرى ﴿ فاعبدون ﴾ خاصة لا غير وقوله تعالى ﴿ وتقطعوا أمرهم بينهم ﴾ التفات إلى الغيبة لينعى عليهم ما أفسدوه من التفرق فى الدين وجعل أمره قطعا موزعة وينهى قبائح أفعالهم إلى الآخرين كأنه قيل ألا ترون إلى عظيم ما ارتكب هؤلاء فى دين الله الذى أجمعت عليه كافة الأنبياء عليهم السلام ﴿ كل ﴾ أى كل واحدة من الفرق المتقطعة أو كل واحد من آحاد كل واحدة من تلك الفرق ﴿ إلينا راجعون ﴾ بالبعث لا إلى غيرنا فنجازيهم حينئذ بحسب أعمالهم وإيراد اسم الفاعل للدلالة على الثبات والتحقق وقوله تعالى : ﴿ فمن يعمل من الصالحات ﴾ الخ تفصيل للجزاء أى فمن يعمل بعض الصالحات أو بعضا من الصالحات ﴿ وهو مؤمن ﴾ بالله ورسله ﴿ فلا كفران لسعيه ﴾ أى لا حرمان لثواب عمله ذلك عبر عن ذلك بالكفران الذى هو ستر النعمة وجحودها لبيان كمال نزاهته تعالى عنه بتصويره بصورة ما يستحيل صدوره عنه تعالى من القبائح وإبراز الإثابة فى معرض الأمور الواجبة عليه تعالى ونفى الجنس للمبالغة فى التنزيه وعبر عن العمل بالسعى لإظهار الاعتداد به .

﴿ وإنا له ﴾ أى لسعيه ﴿ كاتبون ﴾ أى مثبتون فى صحائف أعمالهم لا نغادر من ذلك شيء ﴿ وحرام على قرية ﴾ أى ممتنع على أهلها غير متصور منهم وقرىء حرم وهى لغة كالحل والحلال ﴿ أهلكناها ﴾ قدرنا هلاكها أو حكمنا به لغاية طغيانهم وعتوهم وقوله تعالى : ﴿ أنهم لا يرجعون ﴾ فى حيز الرفع على أنه مبتدأ خبره حرام أو فاعل له ساد مسد خبره والجملة لتقرير

مضمون ما قبلها من قوله تعالى (كل إلينا راجعون) وما فى أن من معنى التحقيق معتبر فى النفى المستفاد من حرام لا فى المنفى أى ممتنع البتة عدم رجوعهم إلينا للجزاء لا أن عدم رجوعهم المحقق ممتنع وتخصيص امتناع عدم رجوعهم بالذكر مع شمول الامتناع لعدم رجوع الكل حسبما نطق به قوله تعالى (كل إلينا راجعون) لأنهم المنكرون للبعث والرجوع دون غيرهم وقيل ممتنع رجوعهم إلى التوبة على أن لا صلة وقرىء أنهم لا يرجعون بالكسر على أنه استئناف تعليلى لما قبله فحرام خبر مبتدأ محذوف أى محرم[1] عليها ذلك وهو ما ذكر فى الآية السابقة من العمل الصالح المشفوع بالإيمان والسعى المشكور ثم علل بقوله تعالى (أنهم لا يرجعون) عما هم عليه من الكفر فكيف لا يمتنع ذلك ويجوز حمل المفتوحة أيضاً على هذا المعنى بحذف اللام عنها أى لأنهم لا يرجعون وحتى فى قوله تعالى : ﴿ حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج ﴾ الخ هى التى يحكى بعدها الكلام وهى على الأول غاية لما يدل عليه ما قبلها كأنه قيل يستمرون على ما هم عليه من الهلاك حتى إذا قامت القيامة يرجعون إلينا ويقولون ياويلنا الخ وعلى الثانى غاية للحرمة أى يستمر امتناع رجوعهم إلى التوبة حتى إذا قامت القيامة يرجعون إليها حين لا تنفعهم التوبة وعلى الثالث غاية لعدم الرجوع عن الكفر أى لا يرجعون عنه حتى إذا قامت القيامة يرجعون عنه حين لا ينفعهم الرجوع ويأجوج ومأجوج قبيلتان من الإنس قالوا الناس عشرة أجزاء تسعة منها يأجوج ومأجوج والمراد بفتحها فتح سدها على حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه وقرىء فتحت بالتشديد ﴿ وهم ﴾ أى يأجوج ومأجوج وقيل الناس ﴿ من كل حدب ﴾ أى نشز من الأرض وقرىء جدث وهو القبر ﴿ ينسلون ﴾ أى يسرعون وأصله مقاربة الخطو مع الإسراع وقرىء بضم السين ﴿ واقترب الوعد الحق ﴾ عطف على فتحت والمراد به ما بعد النفخة الثانية من البعث والحساب والجزاء لا النفخة الأولى ﴿ فإذا هى شاخصة أبصار

---

(١) فى ط حرام

الذين كفروا ﴾ جواب الشرط وإذا للمفاجأة تسد مسد الفاء الجزائية كما فى قوله تعالى (إذا هم يقنطون)فإذا دخلتها الفاء تظاهرت على وصل الجزاء بالشرط والضمير للقصة أو مبهم يفسره ما بعده ﴿ ياويلنا ﴾ على تقدير قول وقع حالا من الموصول أى يقولون ياويلنا تعالى فهذا أوان حضورك وقيل هو الجواب للشرط ﴿ قد كنا فى غفلة ﴾ تامة ﴿ من هذا ﴾ الذى دهمنا من البعث والرجوع إليه تعالى للجزاء ولم نعلم أنه حق ﴿ بل كنا ظالمين ﴾ إضراب عما قبله من وصف أنفسهم بالغفلة أى لم نكن غافلين عنه حيث نبهنا عليه بالآيات والنذر بل كنا ظالمين بتلك الآيات والنذر مكذبين بها أو ظالمين لأنفسنا بتعريضها للعذاب الخالد بالتكذيب وقوله تعالى :

﴿ إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم ﴾ خطاب لكفار مكة وتصريح بمآل أمرهم مع كونه معلوما مما سبق على وجه الإجمال مبالغة فى الإنذار وإزاحة الاعتذار وما تعبدون عبارة عن أصنامهم لأنها التى يعبدونها كما يفصح عنه كلمة ما وقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين تلا الآية قال له ابن الزبعرى خصمتك ورب الكعبة أليست اليهود عبدوا عزيرا والنصارى المسيح وبنو مليح الملائكة رد عليه بقوله عليه السلام ما أجهلك بلغة قومك أما فهمت أن ما لما يعقل ، ولا يعارضه ما روى أنه عليه السلام رده بقوله بل هم عبدوا الشياطين التى أمرتهم بذلك ولا ما روى أن عبد الله بن الزبعرى قال هذا شىء لآلهتنا خاصة أو لكل من عبد من دون الله فقال عليه السلام بل لكل من عبد من دون الله تعالى إذ ليس شىء منهما نصا فى عموم كلمة ما كما أن الأول نص فى خصوصها وشمول حكم النص لا يقتضى شموله بطريق العبارة بل يكفى فى ذلك شموله لهم بطريق دلالة النص بجامع الشركة فى المعبودية من دون الله تعالى فلعله عليه السلام بعد ما بين مدلول النظم الكريم بما ذكر وعدم دخول المذكورين فى حكمه بطريق العبارة بين عدم دخولهم فيه بطريق الدلالة أيضاً تأكيدا للرد والإلزام وتكريرا للتبكيت والإفحام لكن لا باعتبار كونهم معبودين لهم كما هو زعمهم فإن إخراج بعض المعبودين عن

حكم منبيء عن الغضب على العبدة والمعبودين مما يوهم الرخصة فى عبادته فى الجملة بل بتحقيق الحق وبيان أنهم ليسوا من المعبودية فى شيء حتى يتوهم دخولهم فى الحكم المذكور دلالة بموجب شركتهم للأصنام فى المعبودية من دون الله تعالى وإنما معبودهم الشياطين التى أمرتهم بعبادتهم كما نطق به قوله تعالى (سبحانك أنت ولينا من دونهم) (بل كانوا يعبدون الجن) الآية فهم الداخلون فى الحكم المذكور لإشراكهم الأصنام فى المعبودية من دونه تعالى دون المذكورين عليهم السلام وهذا هو الوجه فى التوفيق بين الأخبار المذكورة وأما تعميم كلمة ما للعقلاء أيضاً وجعل ما سيأتى من قوله تعالى (إن الذين سبقت لهم منا الحسنى) الخ بيانا للتجوز أو التخصيص فمما لا يساعده السباق والسياق كما يشهد به الذوق السليم والحصب ما يرمى به ويهيج به النار من حصبه إذا رماه بالحصباء وقرىء بسكون الصاد وصفا له بالمصدر للمبالغة ﴿ أنتم لها واردون ﴾ استئناف أو بدل من حصب جهنم واللام معوضة من على للدلالة على الاختصاص وأن ورودهم لأجلها والخطاب لهم ولما يعبدون تغليبا .

﴿ لو كان هؤلاء ﴾ أى أصنامهم ﴿ آلهة ﴾ كما يزعمون ﴿ ما وردوها ﴾ وحيث تبين ورودهم إياها تعين امتناع كونها آلهة بالضرورة وهذا كما ترى صريح فى أن المراد بما يعبدون هى الأصنام لأن المراد إثبات نقيض ما يدعونه وهم إنما يدعون إلهية الأصنام لا إلهية الشياطين حتى يحتج بورودها النار على عدم آلهيتها وأما ما وقع فى الحديث الشريف فقد وقع بطريق التكملة بانجرار الكلام إليه عند بيان ما سيق له النظم الكريم بطريق العبارة حيث سأل ابن الزبعرى عن حال سائر المعبودين وكان الاقتصار على الجواب الأول مما يوهم الرخصة فى عبادتهم فى الجملة لأنهم المعبودون عندهم أجيب ببيان أن المعبودين هم الشياطين وأنهم داخلون فى حكم النص لكن بطريق الدلالة لا بطريق العبارة لئلا يلزم التدافع بين الخبرين ﴿ وكل ﴾ أى من العبدة والمعبودين ﴿ فيها خالدون ﴾ لا خلاص لهم عنها ﴿ لهم فيها زفير ﴾ أى أنين وتنفس شديد وهو مع كونه من أفعال العبدة أضيف إلى الكل للتغليب ويجوز أن يكون

الضمير للعبدة لعدم الإلباس وكذا فى قوله تعالى ﴿ وهم فيها لا يسمعون ﴾ أى لا يسمع بعضهم زفير بعض لشدة الهول وفظاعة العذاب وقيل لا يسمعون ما يسرهم من الكلام .

﴿ إن الذين سبقت لهم منا الحسنى ﴾ شروع فى بيان حال المؤمنين إثر شرح حال الكفرة حسبما جرت به سنة التنزيل من شفع الوعد بالوعيد وإيراد الترغيب مع الترهيب أى سبقت لهم منا فى التقدير الخصلة الحسنى التى هى أحسن الخصال وهى السعادة وقيل التوفيق للطاعة أو سبقت لهم كلمتنا بالبشرى بالثواب على الطاعة وهو الأدخل الأظهر فى الحل عليها لما أن الأولين مع خفائهما ليسا من مقدورات المكلفين فالجملة مع ما بعدها تفصيل لما أجمل فى قوله تعالى (فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا كفران لسعيه وإنا له كاتبون) كما أن ماقبلها من قوله تعالى (إنكم وما تعبدون) الخ تفصيل لما أجمل فى قوله تعالى (وحرام) الخ ﴿أولئك﴾ إشارة إلى الموصول باعتبار اتصافه بما فى حيز الصلة وما فيه من معنى البعد للإيذان بعلو درجتهم وبعد منزلتهم فى الشرف والفضل أى أولئك المنعوتون بما ذكر من النعت الجميل ﴿عنها﴾ أى عن جهنم ﴿ مبعدون ﴾ لأنهم فى الجنة وشتان بينها وبين النار وما روى أن عليا رضى الله تعالى عنه خطب يوما فقرأ هذه الآية ثم قال أنا منهم وأبو بكر وعمر وعثمان وطلحة والزبير وسعد وسعيد وعبد الرحمن بن عوف وأبو عبيدة بن الجراح رضوان الله تعالى عنهم أجمعين ثم أقيمت الصلاة فقام يجر رداءه ويقول ﴿ لا يسمعون حسيسها ﴾ ليس بنص فى كون الموصول عبارة عن طائفة مخصوصة والحسيس صوت يحس به أى لا يسمعون صوتها سمعا ضعيفا كما هو المعهود عند كون المصوت بعيدا وإن كان صوته فى غاية الشدة لا أنهم لا يسمعون صوتها الخفى فى نفسه فقط والجملة بدل من مبعدون أو حال من ضميره مسوقة للمبالغة فى إنقاذهم منها وقوله تعالى ﴿ وهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون ﴾ بيان لفوزهم بالمطالب إثر بيان خلاصهم من المهالك والمعاطب أى دائمون فى غاية التنعم وتقديم الظرف للقصر والاهتمام به وقوله تعالى ﴿ لا يحزنهم الفزع

الأكبر ﴾ بيان لنجاتهم من الأفزاع بالكلية بعد بيان نجاتهم من النار لأنهم إذا لم يحزنهم أكبر الأفزاع لا يحزنهم ما عداه بالضرورة عن الحسن رضى الله عنه أنه الانصراف إلى النار وعن الضحاك حتى يطبق على النار وقيل حين يذبح الموت فى صورة كبش أملح وقيل النفخة الأخيرة لقوله تعالى (ففزع من فى السموات ومن فى الأرض) وليس بذاك فإن الآمن من ذلك الفزع من استثناه الله تعالى فقوله (إلا من شاء الله) لا جميع المؤمنين الموصوفين بالأعمال الصالحة على أن الأكثرين على أن ذلك فى النفخة الأولى دون الأخيرة كما سيأتى فى سورة النمل .

﴿ وتتلقاهم الملائكة ﴾ أى تستقبلهم مهنئين لهم ﴿هذا يومكم ﴾ على إرادة القول أى قائلين هذا اليوم يومكم ﴿ الذى كنتم توعدون ﴾ فى الدنيا وتبشرون بما فيه من فنون المثوبات على الإيمان والطاعات وهذا كما ترى صريح فى أن المراد بالذين سبقت لهم الحسنى كافة المؤمنين الموصوفين بالإيمان والأعمال الصالحة لا من ذكر من المسيح وعزير والملائكة عليهم السلام خاصة كما قيل ﴿ يوم نطوى السماء ﴾ بنون العظمة منصوب باذكر وقيل ظرف لقوله تعالى لا يحزنهم الفزع وقيل بتتلقاهم وقيل حال مقدرة من الضمير المحذوف فى توعدون والطى ضد النشر وقيل المحو وقرىء يطوى بالياء والتاء والبناء للمفعول ﴿ كطى السجل ﴾ وهى الصحيفة أى طيا كطى الطومار وقرىء السجل كلفظ الدلو وبالكسر والسجل على وزن العتل وهما لغتان واللام فى قوله تعالى ﴿ للكتب ﴾ متعلقة بمحذوف هو حال من السجل أو صفة له على رأى من يجوز حذف الموصول مع بعض صلته أى كطى السجل كائنا للكتب أو الكائن للكتب فإن الكتب عبارة عن الصحائف وما كتب فيها فسجلها بعض أجزائها وبه يتعلق الطى حقيقة وقرىء للكتاب وهو إما مصدر واللام للتعليل أى كما يطوى الطومار للكتابة أو اسم كالإمام فاللام كما ذكر أولا وقيل السجل اسم ملك يطوى كتب أعمال بنى آدم إذا رفعت إليه وقيل هو كاتب لرسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ كما بدأنا أول خلق نعيده ﴾ أى نعيد ما خلقناه مبتدأ

إعادة مثل بدئنا إياه فى كونها إيجادا بعد العدم أو جمعا من الأجزاء المتبددة والمقصود بيان صحة الإعادة بالقياس على المبدأ لشمول الإمكان الذاتى المصحح للمقدورية وتناول القدرة لهما على السواء وما كافة أو مصدرية وأول مفعول لبدأنا أو لفعل يفسره نعيده أو موصولة والكاف متعلقة بمحذوف يفسره نعيده أى نعيد مثل الذى بدأناه وأول خلق ظرف لبدأنا أو حال من ضمير الموصول المحذوف ﴿ وعدا ﴾ مصدر مؤكد لفعله ومقرر لنعيده أو منتصب به لأنه عدة بالإعادة ﴿ علينا ﴾ أى علينا إنجازه ﴿ انا كنا فاعلين ﴾ لما ذكر لا محالة .

﴿ ولقد كتبنا فى الزبور ﴾ هو كتاب داود عليه السلام وقيل هو اسم لجنس ما أنزل على الأنبياء عليهم السلام ﴿ بعد الذكر ﴾ أى التوراة وقيل اللوح المحفوظ أى وبالله لقد كتبنا فى كتاب داود بعد ما كتبنا فى التوراة أو كتبنا فى جميع الكتب المنزلة بعد ما كتبنا وأثبتنا فى اللوح المحفوظ ﴿ أن الأرض يرثها عبادى الصالحون ﴾ أى عامة المؤمنين بعد إجلاء الكفار وهذا وعد منه تعالى بإظهار الدين وإعزاز أهله وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن المراد أرض الجنة كما ينبىء عنه قوله تعالى (وقالوا الحمد لله الذى صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء) وقيل الأرض المقدسة يرثها أمة محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ إن فى هذا ﴾ أى فيما ذكر فى السورة الكريمة من الأخبار والمواعظ البالغة والوعد والوعيد والبراهين القاطعة الدالة على التوحيد وصحة النبوة ﴿ لبلاغا ﴾ أى كفاية أو سبب بلوغ إلى البغية ﴿ لقوم عابدين ﴾ أى لقوم همهم العبادة دون العادة .

﴿ وما أرسلناك ﴾ بما ذكر وبأمثاله من الشرائع والأحكام وغير ذلك من الأمور التى هى مناط لسعادة الدارين ﴿ إلا رحمة للعالمين ﴾ هو فى حيز النصب على أنه استثناء من أعم العلل أو من أعم الأحوال أى ما أرسلناك بما ذكر لعلة من العلل إلا لرحمتنا الواسعة للعالمين قاطبة أو ما أرسلناك فى حال من الأحوال إلا حال كونك رحمة لهم فإن ما بعثت به سبب لسعادة الدارين ومنشأ لانتظام

مصالحهم في النشأتين ومن لم يغتنم مغانم آثاره فإنما فرط في نفسه وحرمة حقه لا أنه تعالى حرمه مما يسعده وقيل كونه رحمة في حق الكفار أمنهم من الخسف والمسخ والاستئصال حسبما ينطق به قوله تعالى (وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم) ﴿ قل إنما يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد ﴾ أي ما يوحى إلى إلا أنه لا إله لكم إلا إله واحد لأنه المقصود الأصلي من البعثة وأما ما عداه فمن الأحكام المتفرعة عليه فإنما الأولى لقصر الحكم على الشيء كقولك إنما يقوم زيد أي ما يقوم إلا زيد والثانية لقصر الشيء على الحكم كقولك إنما زيد قائم أي ليس له إلا صفة القيام ﴿ فهل أنتم مسلمون ﴾ أي مخلصون العبادة لله تعالى مخصصون لها به تعالى والفاء للدلالة على أن ما قبلها موجب لما بعدها قالوا فيه دلالة على أن صفة الوحدانية تصح أن يكون طريقها السمع ﴿ فإن تولوا ﴾ عن الإسلام وعن شرائعه ومباديه ولم يلتفتوا إلى ما يوجبه من الوحي ﴿ فقل ﴾ لهم ﴿ آذنتكم ﴾ أي أعلمتكم ما أمرت به أو حربي لكم ﴿ على سواء ﴾ كائنين على سواء في الإعلام به لم أطوه عن أحد منكم أو مستوين به أنا وأنتم في العلم بما أعلمتكم به أو في المعاداة أو إيذانا على سواء وقيل أعلمتكم أني على سواء أي عدل واستقامة رأي بالبرهان النير ﴿ وإن أدري ﴾ أي ما أدري ﴿ أقريب أم بعيد ما توعدون ﴾ من غلبة المسلمين وظهور الدين أو الحشر مع كونه آتيا لا محالة ﴿ إنه يعلم الجهر من القول ﴾ أي ما تجاهرون به من الطعن في الإسلام وتكذيب الآيات التي من جملتها ما نطق بمجيء الموعود ﴿ ويعلم ما تكتمون ﴾ من الإحن والأحقاد للمسلمين فيجازيكم عليه نقيرا وقطميرا ﴿ وإن أدري لعله فتنة لكم ﴾ أي ما أدري لعل تأخير جزائكم استدراج لكم وزيادة في افتتانكم أو امتحان لكم لينظر كيف تعملون ﴿ ومتاع إلى حين ﴾ أي وتمتع لكم إلى أجل مقدر تقتضيه مشيئته المبنية على الحكم البالغة ليكون ذلك حجة عليكم ﴿ قال رب احكم بالحق ﴾ حكاية لدعائه عليه الصلاة والسلام وقرىء قل رب على صيغة الأمر أي اقض بيننا وبين أهل مكة بالعدل المقتضى لتعجيل العذاب والتشديد عليهم وقد استجيب دعاؤه عليه السلام حيث عذبوا ببدر أي تعذيب وقرىء

رب احكم بضم الباء وربى أحكم على صيغة التفضيل وربى أحكم من الإحكام ﴿ وربنا الرحمن ﴾ مبتدأ أى كثير الرحمة على عباده وقوله تعالى ﴿المستعان﴾ أى المطلوب منه المعونة خبر وخبر آخر للمبتدأ وإضافة الرب فيما سبق إلى ضميره عليه السلام خاصة لما أن الدعاء من الوظائف الخاصة به عليه السلام كما أن إضافته ههنا إلى ضمير الجمع المنتظم للمؤمنين أيضاً لما أن الاستعانة من الوظائف العامة لهم ﴿ على ما تصفون ﴾ من الحال فإنهم كانوا يقولون إن الشوكة تكون لهم وإن راية الإسلام تخفق ثم تركد وإن المتوعد به لو كان حقا لنزل بهم إلى غير ذلك مما لا خير فيه فاستجاب الله عز وجل دعوة رسوله عليه السلام فخيب آمالهم وغير أحوالهم ونصر أولياءه عليهم فأصابهم يوم بدر ما أصابهم والجملة إعتراض تذييلي مقرر لمضمون ما قبله وقرىء يصفون بالياء التحتانية وعن النبى عليه السلام من قرأ اقترب حاسبه الله تعالى حسابا يسيرا وصافحه وسلم عليه كل نبى ذكر اسمه فى القرآن .

تم الجزء الثالث من تفسير العلامة أبى السعود
ويليه الجزء الرابع وأوله سورة الحج

فهرس موضوعى

للجزء الثالث من تفسير أبى السعود

ص الموضوع

ص الموضوع

تم بحمد الله وتوفيقه

